٩٧٨

تفسير جوامع الجامع

للمفسر الكبير والمحقق النحرير

الشيخ أبي علي الفضل بن الحسن الطبرسي

من أعلام القرن السادس الهجري

الجزء الثالث

تحقيق

مؤسسة النشر الإسلامي
التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة

٩٧٨

تفسير جوامع الجامع

للمفسر الكبير والمحقق النحرير

الشيخ أبي علي الفضل بن الحسن الطبرسي

من أعلام القرن السادس الهجري

الجزء الثالث

تحقيق

مؤسسة النشر الإسلامي
التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة

شابك ٥ - ١٥٨ - ٤٧٠ - ٩٦٤

ISBN 964 - 470 - 158 - 5

جوامع الجامع

(ج ٣)

■ تأليف : المفسّر الكبير الشيخ الفضل بن الحسن الطبرسي قدس سره □

■ تحقيق ونشر : مؤسّسة النشر الإسلامي □

■ الموضوع : التفسير □

■ عدد الأجزاء : ٣ أجزاء □

■ الطبعة : الأولى □

■ المطبوع : ٢٠٠٠ نسخة □

■ التاريخ : ١٤٢١ هـ. □

مؤسّسة النشر الإسلامي

التابعة لجماعة المدرّسين بقم المشرّفة

سورةُ الرُّومِ

مكّيةٌ[1] إلَّا آيةً مِنْها، وهي قَولُهُ: ﴿فَسُبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ﴾[2] وهي ستُّونَ آية، ﴿الٓمٓ﴾ كوفيٌّ، ﴿بِضْعِ سِنِينَ﴾ غيرُهُم.

في حَديثِ أُبيٍّ: «مَن قَرَأَهَا كَانَ لَهُ من الأَجْرِ عَشْرُ حَسَنَاتٍ بعَدَدِ كلِّ مَلَكٍ سَبَّحَ اللهَ بين السَمَاءِ والأَرضِ، وأدْرَكَ مَا ضَيَّعَ في يومِهِ ولَيلتِه»[3].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ (١) غُلِبَتِ ٱلرُّومُ (٢) فِيٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ

---

(١) قال الشيخ الطوسي في التبيان: ج ٨ ص ٢٢٦: هي مكّية في قول مجاهد وقتادة، ليس فيها ناسخ ولا منسوخ. وقال الحسن: كلّها مكّية إلّا قوله: ﴿فسبحان الله﴾ الى قوله: ﴿وحين تظهرون﴾. وهي ستّون آية كوفي وبصري ومدني الأول وشامي، وتسع وخمسون في المدني الأخير والمكّي.

وفي الكشّاف: ج ٣ ص ٤٦٦: مكّية إلّا آية ١٧ فمدنية، وآياتها ٦٠ نزلت بعد الانشقاق.

وفي تفسير الآلوسي: ج ٢١ ص١٦ ما لفظه: مكّية كما روي عن ابن عباس وابن الزبير، بل قال عطية وغيره: لا خلاف في مكّيتها ولم يستثنوا منها شيئاً، وقال الحسن: هي مكّية إلّا قوله تعالى: ﴿فَسُبحانَ ٱلله حِينَ تمسُونَ﴾ الآية وهو خلاف مذهب الجمهور والتفسير المرضي، وآياتها ستّون، وعند بعضٍ تسع وخمسون.

(٢) الآية: ١٧.

(٣) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ٤٨٩ مرسلاً.

سَيَغْلِبُونَ (٣) فِى بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ ٱللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ (٥) وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٦) يَعْلَمُونَ ظَـٰهِراً مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلآخِرَةِ هُمْ غَـٰفِلُونَ (٧) أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِ رَبِّهِمْ لَكَـٰفِرُونَ (٨)﴾

﴿ٱلْأَرْض﴾ أرضُ العَربِ، لأنَّ المعهودةَ عِندَ العَربِ أَرضُهُم، والمعنىٰ: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ فِي أدنَى﴾ أرض العَرَبِ مِنهُم، وهي أَطْرافُ أَرضِ الشَام، وقيلَ: هي أَرضُ الجَزيرةِ، وهي أَدنىٰ أَرضِ الرُومِ إلىٰ فَارس[1].

والبِضْعُ: ما بينَ الثّلاثِ إلى العَشْر، قيلَ: احترَبَتِ الرُومُ وفَارسُ بين أذرعات وبُصرىٰ، فَغَلَبتْ فَارسُ الرومَ، فبَلَغَ الخَبرُ مكَّةَ، فَشَقَّ علىٰ رسولِ ٱللهِ صَلَّىٰ ٱللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ والمسلمينَ، لأنَّ فارِسَ مَجُوسٌ والرُّومَ أَهلُ كِتَابٍ، وفَرِحَ المشركونَ وقالُوا: أَنتُم والنَّصارىٰ أهلُ كتابٍ، ونَحنُ وفَارسُ لا كتابَ لَنَا، وقَد ظَهَرَ إخوانُنَا علىٰ إخوانِكُم، ولَنَظهَرَنَّ نحنُ عليكُم، فَنَزَلَتْ: ﴿وَهُمْ مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ يعني: أَنَّ الرومَ من بعدِ غَلبَةِ فَارس إِيَّاهُم سَيَغْلِبونَهُم ﴿فِى بِضْعِ سِنِينَ﴾[2]. وهذه من الآياتِ الشَاهِدةِ علىٰ صحَّةِ نبوَّةِ نبيِّنا صَلَّىٰ ٱللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ، وأنَّ القُرآنَ من عندِ اللهِ سبحانه؛ لأنَّه أنبأَ بِمَا سيكونُ وهو الغيبُ الذي لا يَعْلَمُهُ إلّا الله عزّوجلّ.

وعن أبي سَعيدٍ الخُدريّ قالَ: التَقَيْنا مع رسولِ الله صَلَّىٰ ٱللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ ومُشرِكي العَربِ، والتَقتِ الرُومُ وفَارسُ، فَنصَرَنَا اللهُ علىٰ مُشركِي العَربِ ونَصرَ اللهُ الرُّومَ علىٰ

(١) قاله مجاهد. راجع الكشّاف: ج ٣ ص ٤٦٦.

(٢) قاله عكرمة. راجع تفسير الطبري: ج ١٠ ص ١٦٤.

المجوسِ فَفرحْنَا ﴿بِنَصْرِ ٱللَّهِ﴾ إيَّانَا علَى المشركينَ، ونَصْر أهـلِ الكـتابِ عـلَى المَجُوسِ، فذلكَ قولُهُ: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ ٱللَّهِ﴾ وهو يَومُ بدرٍ (١).

﴿مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ أي: في أوَّلِ الوقْتينِ وآخرهِمَا، حينَ غَـلَبُوا وحـينَ يُغْلَبُونَ، يعني: أنَّ كونَهُم مَغلُوبينَ أوّلاً وغَالبينَ آخِراً، ليس إلَّا بأمرِ اللهِ وقَـضائِهِ ﴿وَيَوْمَئِذٍ﴾ ويَومَ يَغلبُ الرُّومُ فَارسَ ﴿يَفْرَحُ ٱلمؤمِنُونَ﴾ بنَصْرِ اللهِ، وتَغليبه مَن لَه كِتابٌ علىٰ مَن لَا كتابَ لَه، وقيلَ: نَصرُ اللهِ أنَّه ولَّىٰ بَعضَ الظالمينَ بَعضاً وفَرَّقَ بين كَلمَتِهِم، وفي ذلكَ قُوّةٌ للإِسلامِ (٢). ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ مَصدرٌ مؤكَّدٌ، كقولِكَ: لَهُ عليَّ ألفُ دِرهمٍ اعترافاً؛ لأنَّ مَعناهُ: اعترفَتُ لكَ بهَا اعترافاً، وَوَعَدَ اللهُ ذلك وَعْداً لأنَّ الكلامَ المتقدِّمَ في معنىٰ «وَعَدتم».

ثمّ ذَمَّهُم اللهُ تعالىٰ بأنَّهُم بُصَراءُ بأُمورِ الدنـيا، يـعلمُونَ مـنافِعَها ومَـضَارَّها، غافلُونَ عن أُمورِ الدِّينِ، وعن الحَسَنِ: بَلَغَ من عِلْمِ أَحدِهِم بدُنياه أنَّه يقلِّبُ الدرهَمَ علىٰ ظفرِهِ فيُخبرُكَ بوزنِهِ، وما يُحْسِنُ أَن يُصلِّي (٣).

وقولُهُ: ﴿يَعْلَمُونَ﴾ بَدَلٌ من ﴿لا يَعْلَمُونَ﴾، وفي هذا الإبدالِ إيذانٌ بأنَّ عَدَمَ العِلْمِ الّذي هو الجَهلُ، ووجُودَ العِلْمِ الّذي لا يَتَجاوزُ الدنيا، مُستَويان في أنفسِهِم.

يُحتملُ أن يكونَ ظَرفاً، فيكونُ المعنىٰ: أَوَلَمْ يُحدِثُوا التفكُّرَ في قُلُوبِهِم الفَارغَةِ من الفِكْرِ؟ والتَفكُّرُ لا يكونُ إلَّا في القُلُوبِ ولكنَّه زيادةُ تَصويرٍ لحَالِ المتفكِّرِينَ، كما يُقالُ: اعتقدَ في قلبِهِ، أي: أَوَلَمْ يَتَفكَّروا فيقُولُوا هذا القولَ أَو فَـيعلَمُوا ذلكَ؟ ويُحتملُ أن يكونَ صلةً للتفكُّرِ، فيكونُ المعنىٰ: أَوَلَمْ يَتَفكَّروا في أنفسِهِم الّتي هي

---

(١) حكاه عنه الطبري في تفسيره: ج ١ ص ١٦٣.

(٢) حكاه الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ٤٦٧.

(٣) تفسير الحسن البصري: ج ٢ ص ١٩٦.

أَقربُ إليهِم من غَيرِها من المخلُوقاتِ فَيتَدبَّروا ما أَودَعَها اللهُ من غرائبِ الحِكَمِ الدالّةِ علَى التدبيرِ دونَ الإهْمال؟

وقُولُه: ﴿إلَّا بِالْحقِّ وأجَلٍ مُسَمًّى﴾ أي: ما خَلَقَها باطِلاً وعَبَثاً بغيرِ غَرَضٍ صَحيحٍ، وإنَّما خَلَقَها مقرُونةً بالحَقِّ مَصحُوبةً بالحكمةِ وبتَقْديرِ أَجَلٍ مُسَمّىً لابدَّ أن يَنتَهي إليهِ، وهو قيامُ السَاعةِ ووقْتُ الجَزَاءِ والحسابِ، والمُرادُ بلقاءِ ربِّهِم: الأَجَلُ المُسمّىٰ، والباءُ في ﴿بالحَقِّ﴾ مثلُها في قولِكَ: اشتَريتُ الفَرَسَ بسَرجِهِ ولِجَامِه.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٩) ثُمَّ كَانَ عَـٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ (١٠) ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١١) وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ (١٢) وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَـٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ كَـٰفِرِينَ (١٣) وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ (١٤) فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ (١٥) وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُوا بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَآيِ ٱلْآخِرَةِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (١٦)﴾

هذا تَقريرٌ لسَيرِهِم في البلادِ ونَظَرِهِم إلىٰ آثارِ المُهْلَكِينَ من الأُمَمِ الخَاليةِ بتَكذيبِهِم الرُّسُل، ثُمَّ وَصَفَ أَحوالَهُم وأَنَّهُم ﴿كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ﴾ أي: حَرَثُوا الأَرضَ، وسُمِّيَ الثَّورَ لإثارتِهِ الأَرضَ، والبقرةَ لِبَقْرِهَا، وهو الشَّقُّ ﴿وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا﴾ عَمَرَ هؤلاءُ ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ بتَدميرِهِ إيَّاهُم، لأنَّ حالَهُ منافيةٌ للظُلْمِ ولكنَّهم ظَلَمُوا أنفسَهُم بفعْلِهِم ما أَوجَبَ تَدميرَهُم.

وقُرئ: ﴿عَـٰقِبَةَ﴾ بالنَّصبِ والرَّفعِ[١]، و﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ تأنيثُ «الأَسوء»، وهو الأَقبحُ، كما أنَّ «الحُسنىٰ» تأنيثُ «الأحسن»، والمعنىٰ: أَنَّهم عُوقِبُوا في الدُّنيا بالدَمَارِ ثمّ كانَتْ عاقِبَتُهُم السُّوأىٰ، إلّا أنَّه وُضِعَ المُظْهرُ موضعَ المُضْمَرِ، فَمَنْ نَصَبَ ﴿عَـٰقِبَةَ﴾ جعَلَها الخبَرَ، والسُّوأىٰ: هي العقُوبةُ الَّتي هي أسوأُ العُقُوباتِ في القيامةِ وهي جهَنَّمُ، و﴿أَن كَذَّبُواْ﴾ بمعنىٰ «لأَن كذَّبوا».

﴿ثُمَّ إِلَيْهِ﴾ أي: إلىٰ ثوابِهِ أو عقَابِهِ ﴿تُرْجَعُونَ﴾ وقُرئ بالتاءِ والياءِ[٢]. والإِبْلَاسُ: أَن يبقىٰ يائِساً سَاكِناً مُتَحيِّراً، و«شُرَكَاؤهُم» الَّذين عَبَدُوهُم مِنْ دُونِ اللهِ ﴿وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ كَـٰفِرِينَ﴾ يكفُرونَ بآلِهَتِهِم ويَجْحَدونَها. والضَميرُ في ﴿يَتَفَرَّقُونَ﴾ للمسلمينَ والكافرينَ، يَدُلُّ علىٰ ذلكَ ما بَعدَهُ، يتفرَّقُونَ فِرْقةً لا اجتماعَ لَها. ﴿فِى رَوْضَةٍ﴾ في بُستَانٍ وهي الجنَّةُ، ونُكِّرت للتَّفْخِيمِ والإبهامِ، أي: في رَوضَةٍ وأيِّ رَوضَةٍ، والرَوضَةُ عند العَرَبِ: كُلُّ أَرضٍ ذَات نَباتٍ ومَاءٍ، وفي المَثَلِ «أحسن من بَيضَةٍ في رَوضَةٍ» ﴿يُحْبَرُونَ﴾ يُسَرُّونَ، وقيلَ: هو السّماعُ في الجنَّة[٣]. ﴿مُحْضَرُونَ﴾ لا يَغيبُونَ عَنْه ولا يُخَفَّفُ عَنْهُم.

﴿فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (١٧) وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ (١٨) يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ (١٩) وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ (٢٠) وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا

---

(١) وبالرفع قرأه أهل الحجاز والبصرة والبرجمي والسموني والكسائي عن أبي بكر. راجع التبيان: ج ٨ ص ٢٣٠.

(٢) وبالياء قرأه أبو عمرو وروح ويحيىٰ والعليمي. راجع المصدر السابق: ص ٢٣٤.

(٣) قاله ابن كثير. راجع تفسير الطبري: ج ١٠ ص ١٧٣.

إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) وَمِنْ ءَايَٰتِهِ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ (٢٢) وَمِنْ ءَايَٰتِهِ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٢٣) وَمِنْ ءَايَٰتِهِ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْيِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٤) وَمِنْ ءَايَٰتِهِ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ (٢٥)﴾

ثمّ عقَّبَ سبحانه ذِكْرَ الوَعْدِ والوَعيدِ بما يُوصِلُ إِلَى الوَعْدِ ويُنجي من الوَعيدِ، والمُرادُ بالتَّسبيح: ظَاهِرُهُ الَّذي هو تَنزيهُ اللهِ جلّ اسمه من السُّوءِ وذِكْرُهُ في هذهِ الأوقات، وقيلَ: هو الصَلاة[1]. وقيلَ لابن عبّاسٍ: هل تَجد الصَّلوات الخَمْسِ في القُرآن؟ قَالَ: نَعم، وتَلَا هذهِ الآية: ﴿تُمْسُونَ﴾ صَلاةُ المَغرِبِ والعَشاءِ و﴿تُصْبِحُونَ﴾ صلاةُ الصُبْحِ ﴿وَعَشِيّاً﴾ صَلاةُ العَصْرِ ﴿وَحِيْنَ تُظْهِرُونَ﴾ صَلاةُ الظُهر[2].

وعن النبيّ صلى الله عليه وآله: «مَن سَرَّهُ أَن يُكَالَ له بالقَفيزِ الأوفَىٰ فَلْيقُلْ: ﴿فَسُبْحَٰنَ اللهِ حين تُمْسُونَ﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ ومثلُ ذلكَ الإِخْراجِ تُخرَجُونَ من القُبُورِ وتُبعَثُون»[3].

﴿خَلَقَكُمْ﴾ أي: خَلَقَ أَصلَكُم من تُرابٍ، و﴿إِذَا﴾ للمفاجَأَةِ، والتَّقديرُ: ثمَّ فَاجأتُم وقت كونِكُم بَشَراً منتشرينَ في الأَرضِ، كقَولِهِ: ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً﴾[4]. ﴿مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ أي: من شِكْلِ أنفُسِكم وجنْسِها لا من جنْسٍ آخَرَ

---

(١) قاله ابن عباس وابن جبير والضحّاك. راجع تفسير الماوردي: ج ٤ ص ٣٠٣.

(٢) تفسير الطبري: ج ١٠ ص ١٧٤.

(٣) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ٤٧٢ مرسلاً.

(٤) النساء: ١.

﴿أَزْوَٰجاً﴾ لِتَطمئنُّوا إليها وتألَّفُوا بها، وذلكَ لِمَا بين الاثـنين مـن جِـنْـسٍ واحـدٍ من الإلْفِ والسُّكونِ، وما بينَ الجنسينِ المختلفينِ مـن التَـنافر ﴿وَجَـعَلَ بَـيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ أي: تَوادّاً وتَراحُماً بـعد أَن لَـمْ يكـنْ بـينكُم مَـعرِفةٌ ولا سَـبَبٌ يُوجِبُ ٱلتَحابَّ والتعاطُفَ من القَرابةِ والرَّحـم. والأَلْسِـنةُ: اللُّـغاتُ أو أَجْـناسُ المنطقِ وأَشْكالُهُ. خَالَفَ سبحانه بين هذه الأشياءِ حتّىٰ لا يَكاد يُسمعُ بين منْطِقَينِ متَّفِقَيْنِ في شيءٍ من صفاتِ النُطْقِ وأحوالِهِ، وكذلكَ الصُوَرُ وتَخطيطها[1] والأَلوانُ وتنويعها، ولهذا الاختلافِ وَقَعَ التَعارفُ، ولَوْ اتَّفقَتْ وتَشاكَلَتْ لوقَعَ الالتـباسُ، و﴿فِى ذَٰلِكَ﴾ آيَةٌ بيِّنةٌ في حكمةِ الصَانعِ وكَمَالِ قُدرتِهِ، وقُرِئَ: ﴿لِلْعَـٰلِمِينَ﴾ بفتحِ اللَّامِ وكسرِهَا[2]، ويَشْهدُ للكسرِ قَولُهُ: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا العَـٰلِمُونَ﴾[3].

﴿مَنَامُكُمْ بِالَّيْلِ والنَّهَارِ﴾ هو من بَابِ اللَّفِّ وتَرتيبه ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ مَـنَامُكُمْ، وَٱبْتِغَآؤُكُمْ مِّنْ فَضْلِهِ﴾ باللَّيلِ والنَّهارِ، إلَّا أَنَّه فَصَّلَ بين القَرينَيْنِ الأوَّلَيْنِ بالقَرينَيْنِ الآخرينِ لأنَّهما زَمَانَان، والزَّمانُ والواقِعُ فيهِ كشيءٍ واحِدٍ، من إعانةِ اللَّفِّ على الاتِّحاد، ويجوزُ أَن يكونَ المُرادُ: مَنَامُكُم في الزَّمانين وابتغاؤكُم من فَضْلِهِ فيهِمَا، والأوّلُ أَظهرُ لتكرُّرِهِ في القُرآنِ.

وفي ﴿يُرِيكُم﴾ وَجْهان: أَحدهما: إضْمارٌ، والآخرُ: إنْزالُ الفِعْلِ منزلةَ المَصدر وَفسّرَ المَثَل: «تَسمَعُ بالمُعيدِي خيرٌ من أَن تَرَاهُ» علَى الوجـهينِ ﴿خَـوْفاً﴾ مـن الصَاعِقَةِ أو من الإخْلافِ ﴿وَطَمَعاً﴾ في الغَيثِ، وقيلَ: خَـوفاً لِـلمُسَافرِ وطَـمَعاً

(١) في نسخة: «تخليطها».
(٢) قراءة حفص عن عاصم بكسرها والباقون جميعاً بفتحها. راجع التبيان: ج ٨ ص ٢٣٩.
(٣) العنكبوت: ٤٣.

للحَاضِر [١]، وهُما منصُوبان علَى المفعُولِ لَه، وكأنّه قيلَ: يَجعلُكُم رائِينَ البَرقَ خَوفاً وطَمَعاً، أو تَقديرُهُ: إرادةُ خَوفٍ وإرادةُ طَمَعٍ، فحُذِفَ المضَافُ، ويجوزُ أَن يكُونَا حَالَيْنِ أي: خَائِفينَ وطَامِعينَ.

﴿ومن ءَايَـٰتِهِ﴾ قيامُ السماواتِ والأَرضِ وٱستِمْسَاكُهُما بِغيْرِ عَمَدٍ ﴿بِأَمْرِهِ﴾ أي: بقَولِهِ: كُونَا قائمينَ، والمُرادُ بإقامتِهِ لَهُما: إرادتُهُ لكونِهِمَا علىٰ صفةِ القيامِ دُونَ الزَّوال، وقولُهُ: ﴿إذا دَعَاكُمْ﴾ بمنزلة ﴿يُرِيكُم﴾ في أنَّ الجُملةَ وَقَعَتْ مَوقعَ المفردِ علَى المعنىٰ، كأنَّهُ قَالَ: ومن آياتِهِ قيامُ السَّماواتِ والأرضِ ﴿ثُمّ﴾ خُروجُ المَوتىٰ من القُبُور إذا دَعَاهُم ﴿دَعْوَةً﴾ واحِدةً: يا أهلَ القُبُورِ أُخرُجوا، والمُرادُ: سُرعةُ وجودِ ذلكَ من غيرِ تَلبُّثٍ كَمَا يُجيبُ المدعُوُّ داعِيَهُ المُطَاع، وتقولُ: دَعوتُ زَيداً من أعلَى الجَبَلِ فَنَزَلَ عَلَيَّ، ودعوتُهُ من أَسفلِ الجَبَلِ فَطَلَعَ إليَّ، و﴿إذَا﴾ الأُولىٰ للشَرطِ، والثانيةُ للمفَاجَأة.

﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَـٰنِتُونَ (٢٦) وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (٢٧) ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَـٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٨) بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ (٢٩)﴾

﴿قَـٰنِتُونَ﴾ أي: مُطيعُونَ منقادُونَ لوجودِ أَفعالِهِ فيهِم. ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ كَمَا يجبُ عندَكُم أنَّ مَن أعادَ مِنْكُم صُنْعَةَ شَيءٍ كانَ أهونَ عليهِ وأَسهلَ من إنشائِهَا،

(١) قاله قتادة. راجع تفسير الطبري: ج ١٠ ص ١٧٧.

وتُسمُّونَ الماهِرَ في صناعَتِهِ مُعاوداً، بمعنىٰ: أنَّه عَاوَدَهَا كرَّةً بعد أُخرىٰ حتَّىٰ مرَنَ عليها، وذَكَّرَ الضَميرَ لأنَّ المُرادَ: وأَن يُعيدَهُ أَهونُ عليه، وقيلَ: الأَهونُ بمعنى الهيِّن[1]، كقولِ الشَاعِرِ:

لَعَمْرِكَ ما أَدْري وإِنِّي لأَوجلُ[2]

أي: لَوَجِلٌ ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أي: الوَصْفُ الأَعلَى الَّذي ليسَ لغيرِهِ مثلُهُ، قَد وُصِفَ به ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وهو أنَّه القَادرُ الّذي لا يَعجزُ عن شَيءٍ من إنشاءٍ وإعَادةٍ ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ القَاهِرُ ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ المُحكِمُ لأفعالِهِ. وعن قَتادةَ: المثلُ الأعلىٰ قولُ: «لا إلٰه إلَّا الله» وهو الوَصْفُ بالوحدانيَّةِ[3].

﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: أَخذَ لكُم مَثَلاً وانتزَعَهُ من أَقْربِ شيءٍ منكُم وهو أنفسكم، فـ«مِنْ» هنا لابتداءِ الغَايةِ ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ﴾ أي: هَل تَرضون لأنفسِكُم وعَبيدُكُم أمثالُكُم بَشَرٌ كبشرٍ وعَبيدٌ كعبيدٍ أَن يُشاركُوكُم فيما ﴿رَزَقْنَٰكُمْ﴾ من الأَموالِ تكونُونَ أنتُم وهُم فيه علَى السَّواءِ من غيرِ تَفرقَةٍ بينكُم وبينهُم، تَهابُونَ أن تَستبدُّوا بالتَصرُّفِ دونَهم كَمَا يَهابُ بَعضُكُمْ بَعْضاً من الأَحرارِ، فإذا لَمْ تَرضوا بذلكَ لأنفُسِكُم فكيفَ تَرضونَ لربِّ الأَربابِ ومَالكِ الرِّقابِ من العَبيدِ والأَحرارِ أَن تَجعلُوا بَعضَ عبيدِهِ لَه شُركَاء ﴿كَذَٰلِكَ﴾ يعني: مثلُ هذا التَفصيلِ ﴿نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾ أي: نبيِّنُها، لأنَّ التمثيلَ ممَّا يُوضّح المَعَاني الخفيَّة، ويكونُ كالتَشكيلِ والتَصوير لَهَا. ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟﴾ أي:

---

(١) قاله ابن عباس. راجع التبيان: ج ٨ ص ٢٤٥.

(٢) وعجزه: علىٰ أيِّنا تَغدُو المنيّةُ أوّل. والبيت منسوب لمعن بن أوس. وهو واضح المعنىٰ. راجع الحماسة البصرية: ج ٢ ص ٦.

(٣) حكاه عنه الطبري في تفسيره: ج ١٠ ص ١٨١.

أَشْرَكُوا، لقولِهِ: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[1]، ﴿أَهْوَآءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: جَاهلينَ، لأنّ العالِمَ إذا رَكبَ هَواهُ ربَّما رَدعَهُ عِلْمُه، والجَاهلُ يَهيمُ علىٰ وجهِهِ كالبهيمةِ لا يَكفُّهُ شيءٌ ﴿فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ ٱللهُ﴾ أي: خَذَلَهُ ولَمْ يَلْطُفْ بهِ لِعلْمِهِ أنَّه ممَّن لا لُطفَ لَهُ، أي: فَمَن يَقدرُ علىٰ هدايةِ مثلِهِ، ويَدلُّ علىٰ أنَّ المُرادَ بالإِضلالِ الخذلانُ قَولُهُ: ﴿وَمَا لَهُمْ مِّنْ نَّـٰصِرِينَ﴾.

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ ٱللهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٠) مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ (٣١) مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٣٢) وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٣٣) لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَـٰهُمْ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٤) أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰناً فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِ يُشْرِكُونَ (٣٥) وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُواْ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ (٣٦) أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣٧)﴾

أي: قوِّمْ وَجْهَكَ للدِّين وعدِّلْهُ غير مُلْتفتٍ عَنْه يَميناً وشمالاً، وهو تَمثيلٌ لثَباتِهِ على الدِّين وٱستقامته عليهِ وٱهتمامه بأسبابِهِ، فإنَّ من اهتمَّ بشيءٍ قَوَّمَ لَه وجهَهُ، وسدَّد إليه نَظَرَهُ، وأَقبلَ عليهِ بكلِّهِ ﴿حَنِيفاً﴾ حَالٌ من المأمورِ، أو من «الدِّينِ» ﴿فِطْرَتَ اللهِ﴾ أي: الزمُوا فطرَةَ اللهِ، أو: عَليكُم فِطْرَةَ اللهِ.

وقولُهُ: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ حَالٌ من الضَّمير في «الزمُوا»، ولذلكَ أُضْمِرَ علىٰ

(١) لقمان: ١٣.

خطَابِ الجَماعة، وقولُهُ: ﴿وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ﴾ مَعطُوفٌ علىٰ هذا المُضْمَرِ. والفِطْرَةُ: الخلْقَةُ، أَلَا ترىٰ إلىٰ قَولِهِ: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ والمعنىٰ: أنَّهُ خَلَقَهُم قَابلينَ للتَوحيدِ ودينِ الإسلامِ، غَير نائينَ عنه، ولا منكِرينَ لَهُ، حتَّىٰ لو تُركُوا لَمَا اختاروا عليهِ ديناً آخر، وَمَن غَوَىٰ منهم فبإغواءِ شَياطينَ الجنِّ والإنسِ.

ومنه الحَديثُ: «خَلَقْتُ عبادي حُنفاءَ، فاحتالَتْهُم الشَياطينُ عن دينِهِم، وأَمروهُم أن يشركُوا بي غَيري»(١).

وقولُهُ عليه السلام: «كلُّ مولُودٍ يُولَدُ علَى الفِطرةِ، حتّىٰ يكون أَبَوَاهُ هُما اللَّذانِ يهوِّدانَهُ وينصِّرانَهُ»(٢).

﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ أي: لا يَنبغي أَن تُبدَّلَ تلكَ الفِطْرةُ وتُغيَّرَ. وخُوطِبَ الرَّسولُ صلى الله عليه وآله أوّلاً فَوَحَّدَ، ثمَّ جمع ثانياً لأنَّ خطابَهُ عليه السلام خطَابٌ لأُمَّتِهِ.

﴿مِنَ ٱلَّذِينَ﴾ بَدَلٌ من ﴿ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، «فَارَقُوا دِينَهُمْ»(٣) أي: دينَ الإسلامِ وقُرِئَ: ﴿فَرَّقُواْ﴾ أي: جَعَلُوه أَدياناً مختلفةً لاختلافِ أهوائِهِم ﴿وَكَانُوا شِيَعاً﴾ أي: فِرَقاً، كلُّ واحدةٍ تُشايعُ إمامَها الَّذي أَضَلَّها ﴿كُلُّ حِزْبٍ﴾ منهُم فَرِحٌ بمذهبِهِ مَسرورٌ، يحسبُ باطِلَهُ حقّاً. ويجوزُ أَن يكونَ ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ﴾ منقطعاً عمَّا قَبلَهُ، والمعنىٰ: من المفَارقينَ دينَهُم، كلُّ حزْبٍ فرحينَ بما لَدَيهِم، لكنَّه رَفَعَ ﴿فَرِحُونَ﴾ علَى الوصفِ لـ﴿كُلُّ﴾.

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ﴾ أي: مَرَضٌ أو قَحطٌ أو شِدَّةٌ انقطعُوا ﴿إِلَى اللهِ﴾ وأنابُوا إليهِ ﴿ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُمْ ... رَحْمَةً﴾ بأَن يخلِّصَهُم ممَّا أَصَابَهُم قَابلُوا النِعْمَةَ بالكُفْران. واللامُ في ﴿لِيَكْفُرُواْ﴾ مجازٌ، مثْلُهَا في ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً﴾(٤)

---

(١) تلبيس ابليس لابن الجوزي: ص ٢٤. (٢) المعجم الكبير للطبراني: ج ١ ص ٢٦٠.
(٣) الظاهر أنّ المصنّف اعتمد هنا علىٰ القراءة بالألف وتخفيف الراء تبعاً للكشّاف.
(٤) القصص: ٨.

﴿فَتَمَتَّعُوا﴾ نَظيرُ ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ [١]، ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ وبَالَ تمتُّعِكُم.

والسُّلْطَانُ: الحُجّةُ ﴿فَهُوَ يَتَكَلَّمُ﴾ مجازٌ، كما يُقَالُ: كتابُهُ ينطقُ بكذا، ومعناهُ الدَّلالةُ، كأنّهُ قالَ: فهُو يشْهَدُ بصحّةِ شِرْكِهِم، و«مَا» مصدريَّةٌ، أي: بكَونِهِم باللهِ يشركُونَ، ويجوزُ أن تكونَ موصُولةً ويَرجعُ الضميرُ إليهَا، ومعناهُ: فهو يَتَكلَّمُ بالأمرِ الّذي بسببِهِ يشركُونَ.

«وَإِذَا أَذَقْنَاهُمْ رَحْمَةً» أي: نعمةً من مَطَرٍ أو غنىً أو صحَّةً ﴿فَرِحُوا بِهَا وإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ أي: بَلاءٌ من جَدبٍ أو فَقْرٍ أو مَرَضٍ بسببِ معاصِيهِم قَنَطُوا من الرَّحمةِ، ثمَّ أنكرَ عليهِم بأنَّهُم قد عَلِمُوا أنَّه الباسِطُ القَابضُ فما لَهُم ﴿يَقْنَطُونَ﴾ من رحمتِهِ، ولا يرجعُونَ إليهِ تائبينَ من المعَاصِيَ الّتي عُوقبُوا بالشِّدّةِ من أجلِهَا حتّىٰ يُعيدَ إليهم رحمَتَه؟

﴿ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ (٣٨) وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ (٣٩) ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٤٠) ﴾

عن أبي سَعيدٍ الخُدريّ أنّه قَالَ: لمَّا نَزَلَتِ الآيَةُ أعطى رسول الله صلى الله عليه وآله فاطمةَ فَدَكاً وسَلَّمَهُ إليهَا، وهو المروِيُّ عن أئمتنا عليهم السلام [٢].

ولمَّا ذَكَرَ أنَّ السيِّئةَ أَصابتْهُم بما قَدَّمَتْ أيديهِم أَتْبَعَه ذِكْرَ ما يَجبُ فِعْلُهُ وذِكْرَ ما يَجبُ تَركُه. وحَقُّ ذي القُربىٰ: صِلَةُ الرحم، وحَقُّ المسكينِ وابنِ السبيلِ:

---

(١) فصّلت: ٤٠. (٢) أنظر التبيان: ج ٨ ص ٢٥٣.

نَصيبُهُما الَّذي سُمِّيَ لهما ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللهِ﴾ أي: يقصِدُونَ جِهَةَ التقرّبِ إليهِ خَالِصَاً لا جهة أُخرىٰ.

﴿وَمَآ ءَاتَيْتُمْ مِنْ رِّباً﴾ قيلَ: إنّه ربَا الحَلالِ، وهو أن تُعطِي العطيَّةَ أو تُهدي الهديَّةَ لتُثابَ أكثرَ منها فليسَ فيه أجرٌ ولا وِزْر[١]، وهو المرويُّ عن الباقِرِ عليه السلام.

وقيلَ: هو مثلُ ﴿يَمْحَقُ ٱللهُ ٱلرِّبواْ ويُرْبِى الصَّدَقاتِ﴾ أي: لِيزيدَ ويَزكُو في أموالِ الناسِ ولا يَزكُو ﴿عِنْدَ ٱللهِ﴾ ولا يُبارك فيه[٢]. ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُمْ مِنْ زَكَوٰةٍ﴾ تَبتَغُونَ بِهِ ﴿وَجْهَ ٱللهِ﴾ خَالِصَاً لا تَطلبُونَ مكَافَأةً ﴿فَأُولَـٰئِكَ هُـمُ﴾ ذَوو الإضعَافِ من الحَسَنَاتِ، ونَظيرُ المُضْعِفِ المقوِّي والموسِرُ لِذَوي القُوةِ واليَسَارِ، وقُرِئَ: «مَا أَتَيْتُمْ مِّنْ رِّباً» وهو يؤولُ في المعنَىٰ إلىٰ قَراءةِ مَن مَدَّ[٣]، وهو كما يقولُ: أَتَيتُ الخَطَأَ وآتَيتُ الصَوابَ، ولَم يَختلِفُوا في ﴿مَآ ءَاتَيتُمْ مِّن زَكَوٰةٍ﴾ أنّه بالمدِّ، وقُرئَ: «لتربُوا»[٤] أي: لتزيدُوا في أموالِهِم، أو: لتصيرُوا ذَوِي زيَادةٍ فيما آتيتم من أموالِ الناسِ أي: تَجتَلبونَها وتَستَدعُونَها.

وقَولُهُ: ﴿فَأُوْلَـٰئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ التفَاتٌ حَسنٌ، كأنَّهُ قَالَ: فأُولئكَ الذين يُريدونَ وجْهَ اللهِ بصَدَقَاتِهِم هم المُضْعِفُون، فهو أَمْدَحُ لَهُم من أن يقُولَ: فأَنتُم المضْعِفُون، والضَميرُ الراجِعُ إلىٰ «مَا» محذوفٌ، أي: هُم المضْعِفُونَ بِهِ.

﴿ٱللهُ﴾ مبتدأٌ، وخَبَرُهُ ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾، أي: الله هو فَاعلُ هذه الأفعالِ الَّتي لا يَقْدِرُ عليها غَيرُهُ، ثمَّ قَالَ: ﴿هَلْ مِنْ شُرَكَآئِكُم﴾ الّذين اتَّخذتموهم آلهةً مَنْ يفعلُ

---

(١) قاله ابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد وابراهيم والضحّاك و طاووس. راجع تفسير الطبري: ج ١٠ ص ١٨٧ ـ ١٨٨.

(٢) قاله الحسن. راجع التبيان: ج ٨ ص ٢٥٤. والآية من البقرة: ٢٧٦.

(٣) قرأ ابن كثير وحده بالقصر والباقون بالمدّ. راجع التبيان: ج ٨ ص ٢٥١.

(٤) قرأه نافع وأبو جعفر. راجع المصدر السابق.

شَيئاً من تلكَ الأفعالِ حتَّىٰ يَصِحَّ ما ذَهبتُم إليهِ؟ ثمَّ نَزَّهَ نفسَهُ عن أن يُشْرَكَ مَعَهُ غيرُهُ في العبَادَة.

﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤١) قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ (٤٢) فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ (٤٣) مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَـٰلِحاً فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ (٤٤) لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْكَـٰفِرِينَ (٤٥)﴾

المُرادُ بـ﴿ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ هو القَحْطُ وقلَّةُ الرَّيعِ في المزروعاتِ والبياعاتِ[١]، ومحقُّ البَركاتِ من كلِّ شيءٍ ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ يعني: كُفَّارَ مكَّةَ، يُريدُ: بسببِ كُفْرِهِم وشُؤْمِ مَعَاصِيهِم. وعن الحَسَنِ: أنَّ المُرادَ بالبحرِ مُدُنُ البحرِ وقُراهُ الّتي علىٰ شاطِئِهِ[٢]. وعن عكرمةَ: أنَّ العَرَبَ تُسمِّي الأمْصارَ البحار[٣]. ويجوزُ أن يُريدَ ظُهُور الشرِّ والمَعَاصي بكَسْبِ الناسِ ذلكَ، والأوَّل أَوجَهُ ﴿لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ﴾ أي: وبَالَ بعض أَعمالِهِم في الدُّنيا قبل أن يُعاقِبَهُم بجَميعِها في الآخرةِ ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عمَّا هُم عليهِ.

ثمَّ أَكَّدَ سبحانه تَسْبيبَ المَعَاصي لِغَضَبِ اللهِ ونكالِهِ، حيث أَمَرَ بأن يَسِيرُوا في الأَرْضِ ويَنْظُروا كَيْفَ أَهْلَكَ اللهُ الأُمَمَ بمعاصِيهِم وشِرْكِهِم.

القَيِّمُ: المُستَقيمُ، البَليغُ الاستقامةِ الّذي لا يَتَأتَّىٰ فيه عوجٌ، وتعلَّق من اللهِ بـ﴿يَأتيَ﴾ بمعنىٰ: مِن قَبلِ أن يَأتي من اللهِ يَومٌ لا يَرُدُّه أَحَدٌ، كقولِهِ تعالىٰ:

---

(١) في نسخة: «الزراعات والصناعات».

(٢) حكاه عنه الزمخشري في الكشاف: ج ٣ ص ٤٨٢.

(٣) حكاه عنه الطبري في تفسيره: ج ١٠ ص ١٩١.

﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا﴾[1]، أو: بِمُرَدٍّ علىٰ معنىٰ: لا يَرُدُّهُ هو بعدَ أن يَجيءَ بِهِ، فلا ردَّ لَهُ من جهتِهِ ﴿يَصَّدَّعُونَ﴾ يَتَصدَّعُونَ أي: يَتَفرَّقُونَ فيهِ: فَريقٌ في الجنَّةِ وفَريقٌ في السَّعيرِ. ﴿مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ﴾ عُقُوبَةُ ﴿كُفْره﴾، ﴿فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ أي: يُوَطِّنُونَ لأنفُسِهِم مَنازِلَهُم كَمَا لنفسِهِ يُوطِّئُ من مَهَّدَ فراشَهُ وسَوَّاه كيلا يُصِيبُهُ في مَضْجَعِهِ ما ينغِّصُ عليهِ مَرقدَهُ، ويَجوزُ أن يُريدَ: فعلىٰ أنفُسِهِم يُشْفِقُونَ، من قَولِهِم في الشَفيقِ: «أُمٌّ فَرشَتْ فأَنَامَتْ»[2]، وتَقديمُ الظَّرفينِ للدَّلالةِ علىٰ أنَّ ضَرَرَ الكُفْرِ ومَنْفَعَةَ الإيمانِ والصَّلاحِ لا يَتَعدَّيانِ الكافِرَ والمؤمن.

وقَولُهُ: ﴿لِيَجْزِىَ﴾ مُتَعلِّقٌ بـ﴿يَمْهَدُون﴾ لتَعليلِهِ ﴿مِن فَضْلِهِ﴾ أي: ممَّا يَتَفضَّلُ عليهِم بعدَ تَوفيةِ الواجبِ من الثَّوابِ، أو: أرادَ من عَطَائِهِ وفَواضِلِهِ وهو الثَّوابُ. وتَرْكُ الضَّمير إِلَى الصَّريحِ لتَقْرير أنَّ الفَلاحَ للمؤمنِ الصَالحِ عندَه، وقولُهُ: ﴿إِنَّهُ لا يُحِبُّ الكَٰفِرِينَ﴾ تَقْريرٌ بعد تَقْريرٍ على الطَّردِ والعَكْس.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٤٦) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِالْبَيِّنَٰتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ (٤٧) ٱللهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَيَبْسُطُهُ فِي ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٨) وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ (٤٩) فَانظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللهِ كَيْفَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (٥٠) وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحاً فَرَأَوْهُ مُصْفَرّاً لَّظَلُّواْ مِن

---

(١) الأنبياء: ٤٠.

(٢) يضرب في برّ الرجل بصاحبه. راجع مجمع الأمثال: ج ١ ص ٢٤.

بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ (٥١) فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ (٥٢) وَمَآ أَنتَ بِهَـٰدِ ٱلْعُمْيِ عَن ضَلَـٰلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ (٥٣)﴾

عَدَّدَ سبحانه الغَرَضَ في إرْسالِ رياحِ الرَّحمةِ، وهو أن يبشِّر بالغَيْثِ والإذاقةِ من الرحمةِ ـ وهي المَطَر ـ وحُصُولِ الخَصْبِ الَّذي يَتْبَعُهُ والرَّوحِ الَّذي مع هُبُوبِ الريحِ، وغير ذلك ﴿وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ﴾ في البَحرِ عند هُبُوبِهَا، وإنَّما زَادَ ﴿بِأَمْـرِهِۦ﴾ لأنَّ الرِّيحَ قد تَهبُّ ولا تَكُونُ مُوافِقَةً ﴿وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾ يُريدُ: تجَارةَ البـحرِ ولتشكرُوا نِعْمةَ اللهِ فيهَا، ويـجوزُ أَن يَـتَعَلَّقَ ﴿وَلِـيُذِيقَكُمْ﴾ بـمحذُوفٍ تَـقديرُهُ: وليُذيقَكُم وليكُونَ كَذا وكَذا أَرسلَهَا، وأَن يكونَ معطُوفاً علىٰ ﴿مُبَشِّرَاتٍ﴾ كأنَّـهُ قَالَ: ليبشِّرَكُم وليُذيقَكُم.

وفي قَولِهِ: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُـؤْمِنِينَ﴾ تَعظيمٌ للمؤمنينَ ورَفْعُ شأْنِهم حيث جَعَلَهُم مستَحقِّينَ لأن يَنْصرَهُم ويُظْهِرَهُم.

﴿فَيَبْسُطُهُۥ﴾ متّصِلاً تَارةً ﴿وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا﴾ أي: قِطَعَاً متفرِّقةً تَارةً ﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَـٰلِهِۦ﴾ في التَّارتَين جَميعَاً، والمُرادُ بـ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾: سَمْتُ السَّماءِ كقَولِهِ: ﴿وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [1]، وبإصابةِ العبادِ إصَابةُ أراضِيهم وبلادِهم. ﴿مِن قَبْلِهِۦ﴾ من بَابِ التَّكريرِ للتَّوكيدِ كقولِهِ: ﴿فَكَانَ عَـٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَـٰلِدَيْنِ فِيهَا﴾ [2].

وقُرِئَ: «إلىٰ أَثَرِ» [3]، ﴿إِنَّ ذَ ٰلِكَ﴾ للقَادرِ الَّذي يُحيي النَاسَ من بعدِ مَوتِهم. ﴿فَرَأَوْهُ﴾ أي: فَرَأُوا أَثَرَ رحمةِ اللهِ الّتي هي الغيثُ وأَثَرَهُ النَّباتُ، ومَن قرأَ بالجَمْعِ فَالضَّميرُ يَرجعُ إلىٰ مَعْناهُ، لأنَّ معنىٰ آثار الرحمةِ: النَّباتُ، واسمُ النَّباتِ يَقَعُ علَى

---

(١) ابراهيم: ٢٤. (٢) الحشر: ١٧.

(٣) قرأه ابن كثير ونافع وأبو عمرو وعاصم برواية أبي بكر. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٥٠٨.

القليلِ والكَثير؛ لأنَّه مصدرٌ سُمِّيَ بِهِ ما يُنْبَتُ. واللاَّمُ في ﴿لَـئِنْ﴾ هـي المُـوطئةُ للقَسَمِ، و﴿لَظَلُّواْ﴾ جوابُ القَسَمِ سَدَّ مَسَدَّ الجَوابـينِ ﴿مُـصْفَرّاً﴾ بـعد الخُـضْرةِ والنُّضْرة. ذمَّهُم اللهُ سبحانه بأنَّه إذا حَبَسَ عنهم القَطرَ قنطُوا وأبْلَسُوا، فإذا رُزِقُوا المَطَرَ استَبشَروا وابتَهجُوا، فإذا أرسَلَ ريحاً فضَرَبَتْ زرُوعَهُم بالصَّفارِ كَفَرُوا بنعمةِ اللهِ، وقيلَ: مَعناهُ: فرأوا السَّحَابَ مصْفرّاً لأنَّه إذا كَانَ كذلكَ لَم يَمطِر[1].

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ (٥٤) وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤْفَكُونَ (٥٥) وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَـٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ فَهَـٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَـٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٥٦) فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٥٧) وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ (٥٨) كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٥٩) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ (٦٠)﴾

﴿مِن ضَعْفٍ﴾ قُرِئَ بفَتْحِ الضَّادِ وضمِّها[2]، يعني: أَنَّ بنْيتَكُم مَـجبُولَةٌ عـلَى الضَعْفِ ﴿وَخُلِقَ الإِنسَـٰنُ ضَعِيفاً﴾[3] أي: ابتدأناكُم في أوَّل الأمرِ ضعَافاً وذلكَ حَالُ الطُّفوليَّةِ حتَّىٰ بَلَغْتُم وَقْتَ الشَّبيبةِ والفُـتَارِ[4] تـلكَ حَـالُ القـوَّةِ إلىٰ وَقْتِ الاكتهالِ، ثمَّ ردَّكُم إلَى الضَعْفِ وهو حَالُ الشَّيخُوخةِ والهَرَمِ، وفـي ذلكَ أَوضـحُ دلالةٍ علَى الصَّانعِ العَليمِ القَديرِ.

---

(١) حكاه علي بن عيسى كما في تفسير الماوردي: ج ٤ ص ٣٢١.
(٢) وبالضمّ قرأه ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر والكسائي. راجـع كـتاب السبعة فـي القراءات لابن مجاهد: ص ٥٠٨. (٣) النساء: ٢٨.
(٤) الفُتار: ابتداء النشوة، (لسان العرب: مادة فتر).

﴿مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ أرادُوا لَبْثَهُم في الدُّنيا، أو في القُبورِ، أو في ما بين فَناءِ الدُنيا إلَى البعثِ، وإنَّما قَدَّرُوا وَقْتَ لَبْثِهِم سَاعةً علىٰ وجهِ الاستقصارِ له، أو يَنسُونَ ويُخمِّنُونَ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثلُ ذلكَ الإِفْكِ ـ وهو الصَّرْفُ ـ كانوا يُصرَفُونَ عن الصِّدقِ والتَحقِيقِ في الدُّنيا، وهكذا كانُوا يبنُونَ أَمْرَهُم علىٰ خِلافِ الحَقِّ.

القائِلُونَ هم الملائكةُ أو الأنبياءُ أو المؤمنونَ ﴿فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ في عِلْمِ اللهِ المُثبَتُ في اللَّوحِ المحفُوظِ، أو: في عِلْمِ اللهِ وقضائِهِ الّذي أَوجَبَهُ بحكْمتِهِ رَدُّوا ما قَالُوه وحَلَفُوا عليهِ، ثَمَّ قرَّعُوهُم علىٰ إنكارِ البعثِ بقولِهِم: ﴿فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ إنَّه حقٌّ، فَلَا يَنفَعُكُم العِلْمُ بِهِ الآن.

﴿فَيَوْمَئِذٍ﴾ لا يُمَكَّنُونَ من الاعتذارِ، ولو اعتَذَرُوا لم تُقْبَلْ مَعذِرتُهُم، ولا يُطْلَبُ منهم الإِعتَابُ، يُقالُ: استَعْتَبَنِي فُلانٌ فَأَعْتَبتُهُ، أي: استَرضَاني فأَرضيتُهُ، وحَقيقةُ «أَعْتَبتُهُ»: أَزَلْتُ عَتْبَهُ، والمعنىٰ: لا يُقالُ لَهُم ارضُوا ربَّكُم بتَوبةٍ وطَاعةٍ.

﴿وَلَقَدْ﴾ وَصَفْنا لَهُم ﴿كُلِّ﴾ صفَةٍ كأنَّها ﴿مَثَلٍ﴾ في غرابَتِهَا، وقَصَصْنَا عليهم كُلَّ قصَّةٍ عَجيبةٍ كقصَّةِ المبعُوثينَ يومَ القيامةِ وما يقُولُونَهُ وما يُقالُ لَهُم، ولكنَّهم لِقَسوةِ قلُوبِهِم وعنَادِهِم إذا جِئْتَهُم بآيةٍ من آياتِ القُرآنِ قَالُوا: جِئْتَنَا بزُورٍ وبَاطِلٍ. ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثلُ ذلكَ الطبعِ ﴿يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ﴾ الجَهَلَةِ فَيَمنَعُهُم أَلْطافَهُ الشَّافية[1] للصّدورِ حتَّىٰ سَمُّوا المحقِّينَ مُبطلينَ.

﴿فَاصْبِرْ﴾ علىٰ عَدَاوتِهِم ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ بنَصْرِكَ وإظهارِ دينِكَ علىٰ كلِّ الأديانِ ﴿حَقٌّ﴾ ولا يَحمِلَنَّكَ علَى الخفَّةِ والجَزَعِ من كُفْرِهِم وعنَادِهِم فإنَّهم قَومٌ ظَانُّونَ ﴿لا يُوقِنُونَ﴾ بأَنَّهُم يُبْعَثُون.

❁ ❁ ❁

(١) في نسخة: «الشارحة».

سورةُ لُقْمانَ

مَكّية[1] سوىٰ أَربع آياتٍ، وهي أَربعٌ وثلاثُون آيةً، ﴿الٓمٓ﴾ كوفيٌّ، ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[2] بصريٌّ.

في حَديثِ أُبيٍّ: «مَن قَرَأَ سُورةَ لُقْمانَ كانَ لَهُ لُقْمانُ رَفيقاً يوم القيَامةِ، وأُعْطِيَ من الحَسَناتِ عَشْراً عَشْراً بعَدَدِ مَن عَملَ بالمَعْروفِ ونَهىٰ عن المُنكَرِ»[3].

وعن الباقرِ عليه السلام: «مَن قَرَأَ سُورةَ لُقْمانَ في لَيلةٍ وَكَّلَ اللهُ بِهِ في ليلتِهِ ثَلاثينَ مَلَكاً يَحفَظُونَهُ من إِبْليسَ وجنُودِهِ حتّىٰ يُصبحَ، فإنْ قَرَأَهَا بالنهارِ حَفَظُوهُ من إبليسَ وجنودِهِ حتّىٰ يُمسِي»[4].

---

(١) قال الشيخ الطوسي في التبيان: ج ٨ ص ٢٦٨: هي مكّية في قول مجاهد وقتادة، ليس فيها ناسخ ولا منسوخ، وقال الحسن: هي مكّية إلّا آية واحدة وهي قوله: ﴿الَّذينَ يُقيمُونَ ٱلصَّلوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ لأنّ الصلاة والزكاة مدنيّتان، وهي ثلاث وثلاثون آية حجازي، وأربع وثلاثون آية فيما عدا الحجازي.

وفي الكشّاف: ج ٣ ص ٤٨٩: مكّية إلّا الآيات ٢٧ و٢٨ و٢٩ فمدنية، وآياتها ٣٤ وقيل: ٣٣، نزلت بعد الصافّات.

(٢) الآية: ٣٢.

(٣) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ٥٠٥ مرسلاً.

(٤) ثواب الأعمال للصدوق: ص ١٣٦.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الٓمٓ (١) تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱلْكِتَـٰبِ ٱلْحَكِيمِ (٢) هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ
(٣) ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤)
أُوْلَـٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَـٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ (٥) وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن
يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُواً
أُوْلَـٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٦) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِراً كَأَن لَّمْ
يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْراً فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٧) إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُمْ جَنَّـٰتُ ٱلنَّعِيمِ (٨) خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَعْدَ ٱللهِ حَقّاً وَهُوَ
ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (٩) خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ
رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً
فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (١٠) هَـٰذَا خَلْقُ ٱللهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ
ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ ٱلظَّـٰلِمُونَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ (١١)﴾

﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾ بالنَّصبِ عَلَى الحَالِ في الآياتِ، والعَامِلُ فيهَا ما في تلكَ مِن معنَى الإشَارة. وقُرِئَ بالرَّفعِ[١] علىٰ أنَّهُ خَبَرٌ بعدَ خَبَرٍ، أو خَبرُ مبتدأ مَحذُوف ﴿لِلْمُحْسِنِينَ﴾ لِلَّذينَ يَعملُونَ الحَسَنَاتِ، وهُم الَّذينَ وَصَفَهُم بإقَامَةِ الصَّلاةِ وإيتَاءِ الزَكَاةِ والإيْقَانِ بالآخِرَةِ، كَمَا يُحكىٰ[٢] عن الأَصمَعيّ أنَّهُ سُئِلَ عَن الأَلْمعيّ، فأنْشَدَ قَولَ أَوس بنِ حَجَر:

---

(١) قرأه حمزة وحده. راجع التبيان: ج ٨ ص ٢٦٨.

(٢) حكاه الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ٤٨٩.

الألْمَعِيَّ الَّذِي يَظُنُّ بِكَ الظَنَّ كَأَنْ قَدْ رأىٰ وَقَدْ سَمِعَا[١]

ولَمْ يَزِدْ، أو: للّذينَ يعمَلُونَ مَا يَحْسُن من الأعمَالِ، ثُمَّ خَصَّ منهُم القَائِمينَ بهذهِ الثَلاث لِفَضْلِها.

واللَّهوُ: كُلُّ بَاطلٍ أَلْهَىٰ عن الخَيرِ، و﴿لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾: هُو الطَّعْنُ فـي الحَـقِّ والاستهزَاءُ بِهِ، والتَحَدُّثُ بالخُرافَاتِ والمَضَاحيكِ، والغنَاءُ والمَعَازِف. والإضَافةُ بمعنىٰ «من» ومعنَاهَا التَّبيين، والمَعنىٰ: ﴿مَنْ يَشْتَرِى﴾ اللَهوَ مِنَ الحَديثِ، وهـو إضَافةُ الشَيءِ إلىٰ ما هُو مِنْهُ كَبابِ سَاجٍ وثَوبِ خزٍّ.

وَقِيلَ: نَزَلَتْ في النَضرِ بنِ الحَارِث، وكَانَ يَتَّجِرُ إلىٰ فَارسٍ فَـيشتَري كُـتُبَ الأعاجِمِ ويُحَدِّثُ بها قُريشاً ويقُولُ: إنْ كَانَ محمَّدٌ يُحدِّثُكُم بحَديثِ عَادٍ وثَمُود، فأنَا أُحدِّثُكُم بحَديثِ رُستَمَ واسفنديَارَ والأكَاسِرَة، فَيستملحُونَ حَديثَهُ ويَتْركُونَ ٱستماعَ القُرآن[٢].

فَعلىٰ هذا يكُونُ ﴿يَشْتَرِى﴾ من الشـرَاءِ، وعَـلَى الأوَّلِ يكُـونُ مِـنْ قَـولِهِ: ﴿اشْتَرَوُا ٱلْكُفْرَ بِالْإِيمَـٰنِ﴾[٣] أي: استَبْدَلُوه منه وٱختَارُوه عَلَيه، وعـن قـتَادَةَ: اشتَراؤُهُ: استحبَابُهُ، أي: يَختارُ حَديثَ البَاطِلِ علىٰ حَـديثِ الحـقّ[٤]، وقُـرِئ: ﴿لِيُضِلَّ﴾ بضَمِّ الياءِ وفَتْحِها[٥]، وقُرِئ: ﴿يَتَّخِذَهَا﴾ بالرَّفع[٦] والنَّصْبِ، فَـالرَفْعُ

(١) وهو من قصيدة يرثي بها أحد بني أسد وهو فَضَالة بن كلدة ومطلعه:

أيَّتها النَـفسُ أجْـملي جَـزَعاً إنَّ الّذي تَـحذرينَ قَـد وَقَـعا

ومعناه واضح. أنظر الكامل للمبرّد: ج ٣ ص ١٤٠٠، وديوان أوس: ص ٥٣.

(٢) وهو قول الفراء في معاني القرآن: ج ٢ ص ٣٢٦.

(٣) آل عمران: ١٧٧.

(٤) حكاه عنه الطبري في تفسيره: ج ١٠ ص ٢٠٢.

(٥) وبالفتح قرأه ابن كثير وأبو عمرو. راجع كتاب العنوان في القراءات لابن خلف: ص ١٥٢.

(٦) وهي قراءة ابن كثير ونافع وأبي عمرو وابن عامر وعاصم برواية أبي بكر. راجع كتاب ←

للعَطْفِ علىٰ ﴿يَشْتَرِى﴾، والنَصْبُ للعَطفِ علىٰ ﴿لِيُضِلَّ﴾ والضَميرُ لـ«السَّبيل» لأنَّهَا مؤنَّثة. وقَولُهُ: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ مَعناهُ: بغَيرِ عِلْمٍ بالتِّجَارةِ، وبغَيرِ بَصيرةٍ بهَا حيث يَشْتَري الباطلَ بالحقِّ، والضَّلالَ بالهُدىٰ، ونَحوُهُ قَولُهُ: ﴿فَمَا رَبِحَتْ تجارَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾ [١] أي: مَا كَانُوا بُصَراءَ بالتجَارَة. ﴿وَلَّىٰ مُسْتَكْبِراً﴾ رَافِعاً نفْسَهُ فَوقَ مِقْدارِهَا، لا يَعبأُ بآياتِنا، يَشْبَهُ حالُهُ حَالَ مَن لَم يَسْمَعْهَا وهُو سَامِعٌ ﴿كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ﴾ ثقْلاً. وقَولُهُ: ﴿كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا﴾ في مَحَلّ نَصبِ حَال من ﴿مُسْتَكْبِراً﴾ و﴿كَأَنْ﴾ مُخفَّفةٌ، والأَصلُ: كأنَّهُ، والضَّميرُ للشَأنِ ﴿وكَأَنَّ في أُذُنَيْهِ وَقْراً﴾ حَالٌ مِن ﴿كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا﴾، ويجوزُ أَن يكُونَا جَميعاً استئنَافَيْن.

﴿وَعْدَ ٱللهِ حَقًّا﴾ مَصْدَرانِ مُؤكَّدَانِ، الأَوَّل مؤكِّدٌ لنفسِهِ والثاني مؤكِّدٌ لغَيرِهِ، لأنَّ قَولَهُ: ﴿لَهُمْ جَنَّـٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾ في معنىٰ: وَعدَهُم اللهُ جَنَّاتِ النَّعيمِ، فأَكَّدَ معنَى الوَعْدِ بالوَعْدِ. وَأَمَّا ﴿حَقًّا﴾ فَدَالٌّ علىٰ معنَى الثَباتِ، أَكَّدَ بِهِ معنَى الوَعْدِ، ومؤكِّدُهُمَا جَميعاً قَولُهُ: ﴿لَهُمْ جَنَّـٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾، ﴿وَهُوَ ٱلعَزِيزُ﴾ الَّذي يَقْدِرُ علىٰ كُلِّ شَيءٍ فَيعطِي النَّعيمَ مَن يَشاءُ والبُؤْسَ مَن يَشَاءُ ﴿الْحَكِيمُ﴾ الَّذي لا يَشَاءُ إلَّا مَا تُوجِبُهُ الحِكْمَة. هذا إِشَارةٌ إلىٰ ما ذَكَرَ من مخلُوقَاتِه.

والخَلْقُ بمعنَى المَخْلُوقِ، و﴿الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾: آلِهَتُهُم بكَّتَهُم بأَنَّ هذه الأَشياءَ العَظيمَةَ مِمَّا خَلَقَهُ اللهُ ﴿فَأَرُونِى﴾ مَاذَا خَلَقَتْهُ آلِهَتُكُم حَتَّى ٱستَوجَبُوا عندكُم العِبادَةَ. ثمَّ أَضْرَبَ عَن تَبكيتِهِم إِلَى الشَهادة عَلَيْهِم بالتَوَرُّطِ في ضَلالٍ ظَاهرٍ وَعُدُولٍ عن الحقّ.

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَـٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ للهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (١٢) وَإِذْ قَالَ لُقْمَـٰنُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ

⬅ السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٥١٢.

(١) البقرة: ١٦.

يَـٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ ٱلشِّـرْكَ لَـظُلْمٌ عَـظِيمٌ (١٣) وَوَصَّـيْنَا ٱلْإِنسَـٰـنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُ فِى عَـامَيْنِ أَنِ ٱشْكُـرْ لِـى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ (١٤) وَإِن جَـٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفاً وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٥) يَـٰبُنَىَّ إِنَّـهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّن خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللهُ إِنَّ ٱللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (١٦) يَـٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ (١٧) وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ ٱللهَ لَا يُحِبُّ كُـلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (١٨) وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَـوْتِكَ إِنَّ أَنكَـرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ (١٩)﴾

الأَظْهرُ أنَّ لُقْمانَ لم يَكُنْ نَبيّاً وكَانَ حَكيماً، وقيلَ: كانَ نَبيّاً[١]، وقيلَ: خُيِّر بينَ النبوّة والحِكْمةِ فاختار الحكمةَ، وكانَ ابن أُختِ أيُّوب أو ٱبن خَالَته[٢]، وقيلَ: إنَّه عَاشَ ألفَ سَنَةٍ وأَدركَ داودعليه السلام وأَخَذَ مِنْه العِلْمَ[٣]، وقيلَ: إنّه دَخَلَ عليهِ وهُـو يَسردُ الدِّرعَ وَقد لَيَّنَ اللهُ له الحَدِيدَ، فَأَرادَ أَن يَسألَهُ فَأَدركَتْهُ الحِكْمةُ فَسَكَتَ. فَلَمَّا أَتَّمها لَبِسَها وَقَالَ: نِعْمَ لَبُوسُ الحَرْبِ أنتِ، فَقَالَ لُقْمانُ: الصَّـمْتُ حِكَـمٌ، وقَـليلٌ فَاعِلُه، فَقَالَ دَاودُ: بِحَقٍّ مَا سُمِّيتَ حكيمًا[٤].

﴿أَن﴾ هي المُفَسِّرةُ؛ لأنَّ إيْتاءَ الحِكْمةِ في معنَى القَولِ، وَقد نَبَّهَ عن ٱسمِهِ على

---

(١) قاله عكرمة. راجع التبيان: ج ٨ ص ٢٧٥.

(٢) قاله قتادة. راجع تفسير الماوردي: ج ٤ ص ٣٣١.

(٣) حكاه الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ٤٩٢.

(٤) المصدر السابق: ص ٤٩٣.

أنَّ الحِكْمَةَ الحَقيقيةِ والعِلْمَ الأصليَّ هو العَمَلُ بما هُو عبادةُ اللهِ والشُّكْرُ له، حيثُ فَسَّرَ إيتاءَ الحِكْمَةِ بالبَعْثِ على الشُّكْرِ ﴿فَإِنَّ ٱللهَ غَنِيٌّ﴾ لا يَحتَاجُ إلَى الشُّكْرِ ﴿حَمِيدٌ﴾ حَقِيقٌ بأَنْ يُحْمَدَ وإنْ لَمْ يَحمدْهُ أَحَد.

وقُرِئ: ﴿يَـٰبُنَىَّ﴾ بفَتح الياءِ وكَسْرِها[١] كُلَّ القُرآنِ، و«يا بُنَيْ»[٢]، ومَنْ كَسَرَ فَهُو علىٰ قَولِكَ: يا غُلامِ أقبِلْ، وَمَنْ فَتَحَ علىٰ قَولِكَ: يا غُلاما، أُبدِلَتِ الألفُ من ياءِ الإضَافَةِ ثمّ حُذِفَتِ الألفُ للتَّخفيفِ، وَمَنْ أَسْكَنَ الياءَ في الوَصْلِ فإنَّه أَجْرَى الوَصلِ مَجْرَى الوَقْفِ ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ لأنَّ التَسْويةَ بينَ مَنْ لا نِعْمةَ إلَّا هِيَ مِنْهُ وبَينَ مَنْ لَا نِعْمةَ منه البَتَّة ولا يُتصوَّرُ أَن يكونَ مِنْهُ نِعمةٌ ظُلْمٌ لا يُحاطُ بِكُنْهِهِ.

﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ﴾ تَهِنُ ﴿وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ وهُوَ مِثْلُ قَولِكَ: رَجَعَ عَوداً علىٰ بدءٍ. وهُوَ في مَوضِعِ الحَالِ، أي: يَتَزَايَدُ ضَعْفُها وَيَتَضَاعَفُ، لأنَّ الحَمْلَ كلَّما عَظُمَ ٱزدَادَتِ المرأةُ ثُقْلاً وَضَعْفاً ﴿أَنِ ٱشْكُرْ﴾ تَفْسيرٌ لـ﴿وَصَّيْنَا﴾.

﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أَرادَ بنَفْيِ العِلْمِ بِهِ نَفْيَهُ، أي: لا تُشْرِكْ بِي مَا لَيسَ بِشَيءٍ، كَقَولِهِ: ﴿مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾[٣]. ﴿مَعْرُوفًا﴾ أي: صحَاباً مَعرُوفاً حَسَناً بخُلُقٍ جَميلٍ وٱحتمالٍ وبِرٍّ وصِلَةٍ وما تَقتَضيه المُرُوَّةُ ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ﴾ مِنَ المؤمنينَ في دينِكَ، ولا تَتَّبِعْهُما في دينِهِما وإنْ أُمِرْتَ بِحُسْنِ مُصَاحَبتِهِما ﴿فِى ٱلدُّنْيَا﴾، ﴿ثُمَّ إِلَىَّ﴾ مَرْجِعُكَ وَمرجِعُهُمَا فأُجَازِيهما علىٰ كُفْرِهِما وأُجازِيكَ علىٰ إيمانِك. وهذا كَلامٌ وَقَعَ في أثناءِ وَصيَّةِ لُقْمانَ علىٰ سَبيلِ الاستطراد، تَأكيداً لِمَا في وَصيَّةِ لُقمانَ من النَّهْيِ عن الشِّرْك.

وَلَمَّا وَصَّىٰ بالوالدَيْنِ ذَكَرَ ما تُقَاسِيهِ الأُمُّ من المَشَاقِّ في مُدَّةِ الحَمْلِ والفِصَالِ؛

---

(١) وهي قراءة نافع وأبي عمرو وحمزة والكسائي وأبي بكر عن عاصم. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٥١٣.

(٢) وهي قراءة ابن كثير. راجع المصدر السابق.

(٣) العنكبوت: ٤٢.

إيْجَاباً للتَّوصيةِ بالوالِدَةِ خُصُوصاً وتَذْكِيراً بعَظِيمِ حقِّها مُفْرداً.

وقُرِئ: ﴿مِثْقَالَ حَبَّةٍ﴾ بالرَّفعِ[1] والنَصْبِ، فَمَن نَصَبَ كانَ الضَّميرُ للهنةِ مِنَ الإِسَاءَةِ أو الإحسانِ، أي: إنْ كانَتْ مَثَلاً في الصِّغْرِ كَحَبَّةِ الخَرْدَلِ وكَانَتْ مَعَ صغرِهَا في أَخْفىٰ مَوضِعٍ وأَحْرَزِهِ كَجَوفِ الصَّخْرةِ ﴿أَوْ﴾ حيثُ كانَتْ ﴿فِى ٱلسَّمَـٰوَاتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾ يومَ القِيامَةِ فَيُحاسِبُ بِهَا عَامِلَها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ﴾ يَصِلُ عِلْمُهُ إلىٰ كلِّ خَفِيٍّ ﴿خَبِيرٌ﴾ عَالِمٌ بكُنْهِهِ. ومَنْ رَفَعَ فـ﴿تَكُ﴾ تَامَّةٌ، وأنَّثَ ﴿مِثْقَالَ﴾ لإِضَافَتِهِ إلىٰ ﴿حَبَّةٍ﴾ كَمَا قِيلَ:

كَمَا شَرِقَتْ صَدْرُ القَنَاةِ مِنَ الدَّمِ[2]

وهو مِنْ بَابِ ما ٱكتَسَبَ فيه المُضَافُ من المُضَافِ إليهِ التَأْنيثَ.

الصَّادقُ عليه السلام: «إيَّاكُم والمُحقَّراتِ من الذُّنُوبِ فَإِنَّ لَها مِنَ اللهِ طَالباً، لا يَقُولَنَّ أحدُكُم: أُذْنِبُ وأَستَغْفِرُ الله، إنَّ اللهَ تَعالىٰ يَقُولُ: ﴿إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ﴾ الآية»[3].

﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ﴾ من الأَذىٰ في الأَمْرِ بالمعروفِ والنَّهي عن المُنكَرِ ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ مِمَّا عَزَمَهُ اللهُ من الأُمورِ، أَي: قَطَعَهُ قَطْعَ إيْجابٍ وإِلْزام.

ومنهُ الحَديثُ: «إنَّ اللهَ يُحبُّ أَن يُؤخَذَ بِرُخْصَتِهِ كَمَا يُحبُّ أَن يُؤْخَذَ بِعَزَائِمِه»[4].

وَقِيلَ: مِنَ الأُمورِ التي يَجِبُ الثَبَاتُ عَلَيها[5]. وأَصلُهُ من مَعْزُومَاتِ الأُمُورِ وَمقْطُوعَاتها، أو: مِن عَازِمَاتِ الأُمُورِ، مِن قَولِهِ: فَإذَا عَزَمَ الأَمرُ، كَقَولِكَ: جَدَّ الأَمرُ

---

(١) قرأه نافع. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٥٤٤.

(٢) والبيت للأعشىٰ، وصدره:

وتَشرَقَ بالقَولِ الذي قد أذعتَهُ

انظر ديوان الأعشى: ص ١٨٦ تحقيق كامل سليمان.

(٣) رواه العياشي في تفسيره عن ابن مسكان كما في كنز الدقائق: ج ٨ ص ٣٢.

(٤) أخرجه الهيثمي في المجمع: ج ٣ ص ١٦٣.

(٥) حكاه الماوردي في تفسيره: ج ٤ ص ٣٣٨.

وصَدَقَ القِتَالُ، فَهُو مَصدرٌ وَصَفَ بِهِ الفَاعل أَو المفعُول، وفيه دَلالةٌ علىٰ أَنَّ هـذه الطَّاعَاتِ كانَتْ مَأْمُوراً بهَا في سائِرِ الأُمم.

وقُرِئ: «تُصَاعِر»(١) و﴿تُصَعِّرْ﴾ من صَاعَرَ خَدَّهُ وصَعَّرَهَا. ومَعنَاهُ: أَقْبِلْ علَى النَّاسِ بوجْهِكَ تَواضعَاً ولا تُولِّهِم صَفْحَةَ وَجْهِكَ كَمَا يفعلُ المُتَكَبِّرُ ﴿مَرَحاً﴾ نُصِبَ علَى الحَالِ بمعنىٰ: ولا تَمْشِ تَمْرَح مَرَحاً، أو أَرادَ: ولا تَمْشِ لأَجلِ المرَحِ والأَشَرِ، لا يَكُن غَرضُكَ في المَشْي البَطَرَ والبطَالَةَ لا لكفَايةِ مُهِمٍّ دينيٍّ أو دنيويٍّ، والمُخْتَالُ: مقَابِلٌ للمَاشِي مَرَحاً، و«الْفَخُورُ» للمصعِّر خَدَّه كبراً.

﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ﴾ إعدِلْ فيهِ حتّىٰ يكونَ مَشْياً بين مَشْيَيْنِ، لا تَدبّ دَبِيبَ المُتَماوَتينَ، ولا تَثِب وثُوبَ الذّعَار ﴿وَٱغْضُضْ مِنْ صَوتِكَ﴾ أَنْقِصْ مِنْهُ ﴿إِنَّ أَنْكَرَ الأَصْوَاتِ﴾ أي: أَوْحَشَها من قَولِهِم: شَيءٌ نُكُرٌ: إذَا أَنكَرَتْهُ النُّفُوسُ ونَفَرتْ وٱستَوحَشَتْ مِنْه.

﴿ أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَـٰهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَـٰبٍ مُّنِيرٍ (٢٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ (٢١) وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ وَإِلَى ٱللَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ (٢٢) وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ (٢٣) نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٢٤) وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٢٥) لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ

---

(١) قرأه نافع وأبو عمرو وحمزة والكسائي. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٥١٣.

وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ (٢٦) وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَـٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِن بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَـٰتُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٧) مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٢٨) ﴾

﴿مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ﴾ الشَّمسُ والقَمَرُ والنُّجُومُ ﴿وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الحَيوانُ والنَبَاتُ والبحارُ والأَنهارُ وغيرُ ذلكَ، وقُرِئَ: «نعمةً»[1] وَ﴿نِعَمَهُۥ﴾، وٱلنِّعمةُ: كلُّ نَفْعٍ قُصِدَ بِهِ وَجْهُ الإِحْسَانِ، واللهُ سبحانَهُ خَلَقَ العَالَمَ كلَّهُ نِعْمَةً، فَمَا لَيسَ بِـحَيوانٍ نِعْمَةٌ علَى الحيوانِ يَنتفِعُ بِهِ، وأمَّا الحَيوانُ فإيجادُهُ حَيّاً نِعْمَةٌ عليهِ، لأنَّه لَولَا إيْجادُهُ حَيّاً لَمَا صَحَّ منه الانتفاعُ، وكُلُّ مَا أدَّىٰ إِلَى الانتفاعِ وصَحَّحَهُ فهُو نِعْمَةٌ، والنِّـعْمةُ الظَّاهِرةُ: كلُّ ما يُعْلَمُ بالمشَاهَدةِ، وَالبَاطِنَةُ: مَا لَا يُعْلَمُ إلَّا بِدَليلٍ أَو غَابَ عن العِبَادِ عِلْمُه فَلَا يَهْتَدُونَ إليهَا.

﴿أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ﴾ مَعنَاهُ: أَيَتَّبِعُونَهُم وَلَو كَـانَ الشَّـيطانُ يَـدعُوهُم إِلَـى العَذَابِ؟ أي: في حَالِ دُعَاءِ الشَيطان إيَّاهُم.

﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: يُفوِّضُ أَمرَهُ إِليـهِ ويَـتَوكَّلُ عـليهِ ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ هُو من بَابِ التَّمثيلِ، مُثِّلَتْ حَالُ المُتوكِّلِ بِـحَالِ مَـنْ تَدَلَّىٰ مِن مَوضعٍ عَالٍ فاستَمسَكَ بعُروةِ حَبْلٍ وَثيقٍ يَأْمَنُ ٱنقطَاعَهُ.

وقُرِئَ ﴿فَلَا يَحْزُنكَ﴾ وَ«يُـحْزِنك»[2] مِـن حَـزَنَ وأَحْـزَنَ، والَّـذي عَـليهِ الاستعمالُ: أَحْزَنَه، ويُحْزِنُهُ، والمعنىٰ: لا يُهِمَّنَّكَ كُفْرُ مَن كفَرَ وكَيْدُهُ للإِسلامِ، فإنَّ اللهَ سبحانَهُ يَنتَقِمُ منهُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ يَعْلَمُ مَا في صُدُورِ عـبادِهِ، لا يَـخفَىٰ عـليهِ شَـيءٌ. ﴿نُمَتِّعُهُمْ﴾ زَمَانَاً قليلاً بدُنْياهُم ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ شَبَّهَ إِلْـزَامَـهُم

---

(١) وهي قراءة أبي عمرو برواية علي بن نصر وعبيد بن عقيل عنه. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٥١٣.

(٢) وهي قراءة نافع وحده. راجع كتاب التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٣٦٥.

التَّعذيبَ باضْطِرارِ المُضطرِّ إِلَى الشَيء ٱلّذي لا يَقْدِرُ على الانفكاكِ مِنْهُ، والمُـرادُ بالغِلَظِ: الشِّدّةُ والثِّقَلُ علَى المعذَّب.

﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ إلْزامٌ لَهُم علىٰ إقْرارِهِم بأنّ ٱلّذي خَلَقَ السَماواتِ والأَرضَ هُو اللهُ وَحدَهُ، وأَنّه يَجبُ أَن يكونَ لَهُ الحَمْدُ والشُكْـرُ، وأَنْ لا يُـعبَدَ مَـعَهُ غَـيرُهُ ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَـعْلَمُونَ﴾ أنَّ ذلكَ يَـلْزَمُهُم. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُـوَ ٱلْـغَنِيُّ﴾ عـن حَـمْدِ الحَامِدِينَ، المُستَحقُّ للحَمْدِ وإنْ لَمْ يَحمدُوه.

وقُرِئ: «وٱلْبَحرَ» بالنَّصبِ [١] عَطْفاً عَلَى ٱسمِ «إنَّ»، وبالرَّفْعِ عَطْفاً علىٰ مَحَلِّ «إنَّ» ومَعْمُولِهَا، أي: وَلَو ثَبتَ كَونُ الأَشْجار أَقْلاماً، وَثَبتَ البَحْرُ مَمدُوداً بِسَـبْعَةِ أَبْحرٍ، أَو: علَى الابتداءِ والوَاوُ للحَالِ علىٰ معنىٰ: وَلو أنَّ الأَشْجارَ أَقْلَامٌ في حَالِ كَونِ البَحر ممدُوداً، وَهِيَ مِن الأَحْوالِ الّتي حُكْمُها حُكْمُ الظُّروفِ، ولَا يَعُودُ مِنْها ضَميرٌ إلىٰ ذي الحَالِ، كبَيْتِ ٱمرىء القَيسِ:

وَقَد أَغتَدِي وَالطَيرُ في وُكُناتِها بِمُنْجَرِدٍ قَيْدِ الأَوابدِ هَـيْكَلِ [٢]

جَعَلَ البَحْرَ الأَعظَمَ بمنزلَةِ الدَّواةِ، وَجَعَلَ الأَبحر السَبعةَ مَملُوءَةً مدَاداً، فَـهِي تَصُبُّ فيهِ مَدادَها أبداً صَبّاً لا ينقطعُ، فَمَعناهُ: وَلو أنَّ أَشجارَ الأَرضِ أَقْلامٌ والبَحْرُ مَمدُودٌ بسَبعةِ أَبحرٍ، وكُتِبَتْ بتلكَ الأَقلام وبذلكَ المداد كَلِمَاتُ اللهِ، لَنَفِدَتِ الأَقْلامُ والمدَادُ وما نَفِدَتْ كَلِمَاتُ الله.

وقَرَأَ الصَّادقُ عليه السلام: «وٱلبَحْرُ مدَادُه» [٣] ويقوّي الوَجْهَ الثاني.

والأَوْلىٰ أَن يكُونَ ﴿كَلِمَاتُ ٱللَّهِ﴾ عبَارةً عن مقدُوراتِـهِ ومـعلُوماتِهِ، لأنّـها

---

(١) قرأه البصريان (أبو عمرو ويعقوب). راجع كتاب العنوان في القراءات لابن خلف: ص ١٥٢.

(٢) والبيت من معلّقته المشهورة، وفيه يتمدّح بالفروسية ويتفاخر بها، يـقول: ربّـما بـاكـرت الصيد قبل نهوض الطير من أوكارها علىٰ فرسٍ ماضٍ في سيره، قليل شعره، عظيم لوحه. راجع ديوان امرئ القيس: ص ٥١.

(٣) حكاها عنه عليه السلام القرطبي في تفسيره: ج ١٤ ص ٧٧.

إذا كَانَتْ لا تتَنَاهىٰ فالكَلِمَاتُ التي تَقعُ عبارةٌ عنها أيضاً لا تتَنَاهىٰ.

﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إلَّا﴾ كَخَلْقِ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وبَعْثِها، والمَعنىٰ: أنَّه يَستوي في قُدرتِهِ القَليلُ والكَثيرُ، والواحِدُ والجَمعُ، إذْ لا يَشغَلُهُ فِعْلٌ عَن فِعْلٍ وشَأْنٌ عن شَأْنٍ ﴿إنَّ ٱللهَ سَمِيعٌ﴾ يَسمَعُ كُلَّ مَسمُوعٍ ﴿بَصِيرٌ﴾ يُبصِرُ كُلَّ مُبصَرٍ في حَالٍ واحِدَةٍ لا يَشغلُهُ بعضٌ عَن بَعضٍ، فَكَذلكَ الخَلْقُ والبَعْث.

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٩) ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَـٰطِلُ وَأَنَّ ٱللهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ (٣٠) أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣١) وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُاْ ٱللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّـٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ (٣٢) يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْماً لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا إِنَّ وَعْدَ ٱللهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللهِ ٱلْغَرُورُ (٣٣) إِنَّ ٱللهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (٣٤) ﴾

أي: كُلٌّ واحدٍ مِنَ ﴿ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ يَجْري في فَلَكِهِ علىٰ وَتيرةٍ واحِدَةٍ، ويَقْطَعُهُ إلىٰ وَقْتٍ معلُومٍ: الشَمسُ إلىٰ آخر السَنَةِ والقَمَرُ إلىٰ آخر الشَهرِ، وعَن الحَسَنِ: الأجَلُ المُسَمَّىٰ: يومُ القِيامَةِ، لأنَّه لا يَنقَطِعُ جَريُهُمَا إلَّا حينئذ [1].

---

(١) حكاه عنه الشيخ الطوسي في التبيان: ج ٨ ص ٢٨٥.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الّذي وصِفَ مِن آثارِ صُنْعتِهِ وحِكْمتِهِ بسَبَبِ أنَّ اللهَ هو الحَقُّ، الثَّابِتُ إلـٰهِيَّتُهُ، وأنَّ الَّذي يدعُونَهُ مِنْ دُونِهِ بَاطِلٌ، وأنَّه ﴿ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ عن أن يُشْرَكَ به.

﴿بِنِعْمَتِ ٱللهِ﴾ أي: بإحسَانِهِ ورَحْمتِهِ ليُرِيَكُم بعضَ دَلَالاتِهِ علىٰ كَمَالِ قُدرتِهِ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي: لكُلِّ مُؤمنٍ صَبَّارٍ علىٰ بلائِهِ شَكُورٍ لنعمائه.

الظُّلَلُ: جَمعُ الظِّلَّةِ، وَهِيَ كُلُّ ما أظَلَّكَ مِن جبَلٍ أو سَحَاب ﴿فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ في الإخْلاصِ الَّذي كَانَ عَلَيهِ، وَقيلَ: مُؤمنٌ قَد ثَبتَ علىٰ مَا عَاهَدَ عليهِ اللهَ في البحرِ (١)، وَالْخَتَّارُ: الغَدَّارُ، والخَتْرُ: أَسْوأُ الغَدْرِ وأَقْبحُه.

﴿لا يَجْزِى﴾ أي: لا يَقْضِي ﴿وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ شَيْئاً﴾: والْمَعنىٰ: «لا يَجزِي فيه» فَحُذِفَ، و﴿ٱلْغَرُورُ﴾: الشَّيطانُ.

﴿إِنَّ ٱللهَ عِندَهُ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ استَأْثَرَ بِهِ ولَمْ يُطلِعْ عليهِ أَحَداً ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ في أيَّامه (٢)، ويَعلَمُ نُزُولَهُ في مكانِهِ وزَمَانِهِ ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى﴾ أَرْحَامِ الحَوامِلِ، أَتامٌّ أَو نَاقِصٌ، أذكَرٌ أم أُنثىٰ، أَوَاحِدٌ أَم أَكْثَر ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَداً﴾ مِنْ خَيْرٍ أَو شَرٍّ ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ﴾ أَينَ ﴿تَمُوتُ﴾ وَجَعَلَ العِلْمَ للهِ، والدِّرايةُ للعَبدِ لِمَا في الدِّرايةِ من معنَى الخَتلِ والحِيلَةِ، أي: لَا تَعرفُ نَفْسٌ وإنْ عَمِلَتْ حِيلَتَها مَا يَخْتَصُّ بهَا مِن كَسْبِهَا وَعَاقِبَتِهَا، فَمِنْ أَينَ لَهُ مَعرفة مَا عَدَاهُما؟

وَعَن النَّبيِّ صلى الله عليه وآله: «مَفَاتِيحُ الغَيْبِ خَمْسٌ» وَتَلَا هذهِ الآية (٣).

(١) قاله ابن عبّاس والنقّاش. راجع تفسير القرطبي: ج ١٤ ص ٨٠.

(٢) في نسخة: «آياته».

(٣) أخرجه البخاري في الصحيح: ج ٦ ص ٧١ ح ١٤٤، وأحمد في المسند: ج ٢ ص ١٢٢.

سورةُ السّجْدَة

مكّيّةٌ[1] غَيْرُ ثَلاثِ آيَاتٍ، مِنْ قَولِهِ: ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً﴾[2] إلىٰ تَمَامِ الآيَاتِ، تِسْعٌ وعشْرونَ آيةً بَصرِيّ، ثَلاثُونَ آيةً غَيرُهُم.

في حَديثِ أُبيٍّ: «وَمَنْ قَرأَ سُورَةَ الۤمۤ تَنزيلُ وسُورَةَ المُلْكِ فَكَأنَّما أَحْيَا لَيلةَ القَدْر»[3]. وَعَنِ الصَّادقِ عليه السلام: «مَنْ قَرأَ سُورةَ السَّجدَةِ فى لَيلةِ كُلّ جُمُعَةٍ أَعْطَاهُ اللهُ كِتَابَهُ بِيَمينِهِ وَلَمْ يُحَاسِبْه بِمَا كَانَ منْهُ، وَكَانَ مِن رُفَقَاءِ محمَّدٍ وَأَهْلِ بيتِهِ عليهم السلام»[4].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الۤمۤ(١) تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ(٢) أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ

(١) قال الشيخ الطوسي في التبيان: ج ٨ ص ٢٩١: مكّية في قول قتادة ومجاهد وغيرهما، وقال الكلبي ومقاتل: ثلاث آيات منها مدنيّة، قوله: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا﴾ الى تمام ثلاث آيات، وهي ثلاثون آية كوفي وحجازي وشامي، وتسع وعشرون آية بصري.

وفي الكشّاف: ج ٣ ص ٥٠٦: مكيّة إلّا من آية (٦) الى غاية آية (٢٠) فمدنيّة، وآياتها (٣٠) وقيل: (٢٩) نزلت بعد «المؤمنون».

(٢) الآية: ١٨.

(٣) رواه الزمخشري في الكشاف: ج ٣ ص ٥١٧ مرسلاً.

(٤) ثواب الأعمال للصدوق: ص ١٣٦.

لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ(٣) ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَالَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ(٤) يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ(٥)﴾

﴿تَنزِيلُ﴾ مُبتَدأٌ وخَبرُهُ ﴿مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وَ ﴿لا رَيْبَ فِيهِ﴾ اعتِرَاضٌ أَثبَتَ أَوّلاً: أَنَّ تنزيلَ الكتابِ مِنْ رَبِّ العَالَمينَ، وأنَّ ذلكَ ممَّا لا رَيبَ فيهِ، ثمَّ أَضْربَ عن ذلكَ إلىٰ قَولِهِ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰهُ﴾: لأنَّ ﴿أَمْ﴾ هذه مُنقَطِعَةٌ إنكاراً لِقَولِهِم، وتَعجيباً مِنهُ لظهورِ الأَمرِ في عَجْزِهِم عَنِ الإتْيانِ بسُورةٍ منهُ، ثمَّ أَضْرَبَ عن الإنْكارِ إلىٰ إثْباتِ أَنَّه ﴿الْحَقُّ مِنْ رَّبِّكَ﴾ وقَولُهُ: ﴿لِتُنْذِرَ قَوْماً مآ أَتَـٰهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ يَعني: قُريشاً، إذْ لَمْ يأْتِهِم نَبيٌّ قَبلَ نبيِّنا صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ استعَارَ لَفظَ الترجِّي للإرادَةِ.

﴿مَا لَكُمْ مِّنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا شَفِيعٍ﴾ هُوَ علىٰ معنيينِ: أَحَدُهُما: أَنَّكُم إذَا جَاوَزْتُم رِضَاهُ لَمْ تَجدُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَليّاً، أي: نَاصِراً يَنصُرُكُم ولا شَفِيعَاً يشفع لَكُم، والآخَرُ: أنّه سُبحانَهُ وليُّكُم الَّذي يَتَولَّىٰ مَصَالِحَكُم، وشَفيعُكُم أي: نَاصِرُكُم علىٰ سَبيلِ المَجَازِ؛ لأنَّ الشَفيعَ يَنْصُرُ المَشْفُوعَ لَهُ.

﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ أَي: أَمرَ الوَحْيِ، فَيُنزِلُهُ مَعَ جبرائيلَ مِن السَّماءِ إلَى الأَرضِ ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ ما كَانَ من قَبُولِ الوَحْيِ أو ردِّهِ مَع جبرائيلَ في وَقْتٍ هُو في الحَقيقة ﴿أَلْفَ سَنَةٍ﴾، كأنَّ المَسافةَ في الهبُوطِ والصعُودِ مسيرةُ أَلْفِ سَنَة، لأنَّ ما بينَ السَّماءِ والأرضِ مسيرةُ خمسمائةٍ، وهو يومٌ من أيّامِكُم، فَيقطَعُ جبرئيلُ مَسِيرةَ أَلفِ سنةٍ ممَّا يعُدُّهُ البَشَرُ في يومٍ وَاحِدٍ، وقيلَ: معناهُ: يدبِّر أَمْرَ الدنيا كلّها

من السَماءِ إلى الأرض، لألْفِ سَنةٍ، وهُو يَومٌ من أيّامِ الله [١] ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ﴾ الأَمْرُ ﴿إلَيهِ﴾ أَي: يصيرُ إليهِ، ويَثْبتُ عِندهُ، ويُكتَبُ في صُحُفِ ملائكتِهِ كُلَّ وقتٍ من أوقاتِ هذه المدَّةِ ما يَرتَفعُ من ذلكَ الأَمر إلىٰ أن تَبلغَ المدَّةُ آخرَها، ثمَّ ﴿يُدَبِّرُ﴾ أَيضاً ليوم آخَرَ، وهَلُمَّ جرّاً إلىٰ أن تقُومَ الساعةُ، وقيلَ: يدبِّرُ المأمُورَ بِهِ من الطَاعَاتِ ويُنزِّلُهُ مُدبَّراً من السَماءِ إلَى الأرضِ، فَلَا يَصعدُ إليهِ ذلكَ لِقِلَّةِ عُمَّالِ اللهِ المخلِصِينَ وَقِلَّةِ الأعمالِ الصَاعِدَةِ، لأنَّه لا يُوصَفُ بالصعُودِ إلَّا الخَالِص [٢].

﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ(٦) ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ(٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ(٨) ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ(٩) وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ(١٠)* قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ(١١) وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ(١٢)﴾

وقُرِئَ: ﴿خَلَقَهُ﴾ بفَتح اللامِ وسكُونها [٣]، فَالأوّلُ على الوَصْفِ لِكلّ شيءٍ، بمعنىٰ: أنَّ كُلَّ شيءٍ خَلَقَهُ فَقد أَحْسَنَه، والثَاني علىٰ البَدَلِ، أي: أَحْسَنَ خَلْق كُلِّ شَيءٍ، وأَحْسَنَ بمعنىٰ «حَسَّن»، يَعني: أَنَّ جَميعَ خَلْقِهِ ومخلُوقَاتِهِ حَسَنَةٌ وإنْ تَفَاوَتَت إلىٰ حَسَنٍ وأَحْسَنَ منهُ، كَمَا قَالَ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَٰنَ فِي أَحْسَنِ

(١) قاله ابن عباس والضحاك. راجع تفسير الطبري: ج ١٠ ص ٢٣١.

(٢) قاله الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ٥٠٧.

(٣) وبالسكون قرأه ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو. راجع كتاب التيسير في القراءات للداني: ص ١٧٧.

تَقْوِيم﴾ (١) وَقيلَ: مَعناهُ: عَلِمَ كَيفَ يَخْلُقُهُ وَأَحْسَنَ مَعْرِفَتَهُ، أي: عَرَّفَهُ مَعْرِفَةً حَسَنَةً بتَحْقيقٍ وإتْقَان (٢). ومنْهُ: «قِيمَةُ كُلِّ امرئٍ مَا يُحْسِنُه» (٣).

وسُمِّيَتِ الذُّرِّيَّةُ نَسْلاً لأَنَّها تَنْسَلُ مِنْه أَي: تَنْفَصِلُ مِنْه. ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ﴾ أَي: قَوَّمَه، وأَضَافَ «الرُّوحَ» إلىٰ ذاتِهِ إيْذَاناً بأَنَّهُ خَلْقٌ عَجِيبٌ لا يَعلَمُ كُنهَهُ إلّا هُوَ.

﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أَي: صِرْنَا تُراباً وذَهَبْنَا مُختَلِطِينَ بتُرابِ الأَرضِ لا نَتميَّزُ مِنْهُ كَمَا يَضلُّ المَاءُ في اللَّبَنِ، أو: غِبْنَا في الأَرضِ بالدَّفْنِ فيها، كَقَولِ النَّابِغَة (٤):

وَآبَ مُضِلُّوهُ بِعَينٍ جَليَّةٍ وَغُودِرَ بالجُولانِ حَزْمٌ ونائِلُ (٥)

وَقُرِئَ: ﴿أَءِذَا﴾ و ﴿أَءِنَّا﴾، بالاستفهام (٦) وتَرْكِهِ، ورُويَ عن عليٍّ عليه السلام وابنِ عبّاسٍ: «صَلِلْنَا» بالصَّادِ وكَسْرِ اللامِ (٧)، مِن صَلَّ اللَّحْمَ وأَصَلَّ: إذا أَنْتَنَ، وَقيلَ: صِرْنَا مِن جِنْسِ الصَّلَةِ وهي الأَرض (٨) وانْتَصَبَ الظَّرفُ بِمَا دَلَّ عليهِ قَولُهُ:

---

(١) التين / ٤.

(٢) قاله ابن عبّاس ومقاتل وقتادة. راجع تفسير البغوي: ج ٣ ص ٤٩٨.

(٣) نهج البلاغة: المختار من حكم أميرالمؤمنين عليه السلام القصار، حكمة (٨١).

(٤) النابغة ويراد به الذبياني، واسمه زياد بن معاوية بن ضِباب بن جابر بن ذبيان، من بني مضر، حَكَمُ عكاظ، وأحد فحول الطبقة الأُولى من شعراء الجاهلية. أُنظر الشعر والشعراء لابن قتيبة: ص ٧٤ وما بعده.

(٥) والبيت من قصيدة طويلة يرثي بها النعمان بن الحارث الغساني. انظر ديوان النابغة: ص ٢١٢ وفيه «مصلوه» بالصاد.

(٦) تقدّمت الإشارة إلى أنّ المصنّف قد اعتمد في تفسيره هذا ـ تبعاً للكشّاف ـ على نسخة مصحفٍ لغير قراءة حفص عن عاصم، وبالاستفهام فيهما هي قراءة عاصم وحمزة. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٤٨٥ و٥١٦.

(٧) حكاها الآلوسي في تفسيره: ج ٢١ ص ١٢٥.

(٨) قاله أبو خلف. راجع تفسير الماوردي: ج ٤ ص ٣٥٧.

﴿أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ وهُوَ «نُبْعَثُ» أو «يُجَدَّدُ خَلْقُنَا»، ﴿لِقَآءِ رَبِّهِم﴾ هُو الوصُولُ إلَى العَاقبةِ من تَلقّي مَلكِ المَوتِ وَمَا ورائه.

وَلمَّا ذَكَرَ كُفْرَهُم بالإنشاءِ أَضْرَبَ عنه إلىٰ ما هو أَبْلَغُ في الكُفْرِ، وهُوَ أَنَّهُم كافِرُونَ بجَميعِ ما يكُونُ في العَاقبةِ لا بالإِنْشَاءِ وَحْدَه، أَلَاتَرىٰ كيفَ خُوطِبُوا بالتَّوفِّي وبالرُّجوعِ إلىٰ رَبِّهم بعد ذلكَ مبعُوثينَ للجَزَاءِ؟ وهذا معنىٰ «لِقَاءِ اللهِ»

والتَّوفِّي: استيفَاءُ النَّفْسِ وهيَ الرُّوح، وهي أَن تُقْبَضَ كُلُّها لا يُتْرَكُ مِنْها شَيءٌ، مِن قَولِهِم: تَوفَّيتُ حَقِّي واَستَوفَيْته.

وعن ابن عبَّاسٍ: جُعِلَتِ الدُّنيا لِمَلكِ المَوتِ مثلُ الجامِ، يَأْخُذُ مِنهَا ما يَشَاءُ إذا حَانَ القَضَاء [١].

وعن قتادةَ: إنَّ لَه أَعْواناً من مَلائكةِ الرحْمَةِ ومَلائكةِ العَذَابِ، أَي: يَتَوفَّاهُم وَمَعَهُ أَعْوانه [٢]. وَقيلَ: يَدعُو الأَرْواحَ فتُجِيبُهُ ثمَّ يَأْمُرُ أَعْوانَهُ بِقَبْضِها [٣].

﴿وَلَوْ تَرَىٰ﴾ خِطَابٌ لِرسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وَجَوابُ ﴿لَوْ﴾ مَحْذُوفٌ، أَي: لَرأيْتَ أَمْراً فَظيعاً عَظيماً وَحَالاً سيِّئَةً، ويجوزُ أَن يكونَ خِطَاباً لكلِّ أَحدٍ، كَمَا يُقَالُ: فُلانٌ لَئيمٌ إنْ أَكْرَمْتهُ أَهَانَك، ولا يُريدُ مُخَاطَباً بعينه؛ و ﴿إِذْ﴾ ظَرْفٌ للرُّؤية ﴿نَاكِسُواْ رُءُوسِهِم﴾ مُطْرِقُوهَا ومُطَأطِئُوهَا حَيَاءً وَذُلّاً، يَستَغيثُونَ بقَولِهِم: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ فَلَا يُغَاثونَ، والمعنىٰ: أَبْصَرْنَا صِدْقَ وَعْدِكَ وَوَعيدِكَ، وَسَمِعْنَا منكَ تَصديقَ رُسُلِك، أو: كُنَّا عُمْياً وصُمّاً فأَبْصَرْنَا وسَمِعْنَا ﴿فَارْجِعْنَا﴾ إلَى الدُنْيا نعملُ صَالحَاً ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ اليومَ.

---

(١) تفسير ابن عباس: ص ٣٤٨.

(٢) حكاه عنه الطبري في تفسيره: ج ١٠ ص ٢٣٦.

(٣) حكاه الزمخشري في الكشاف: ج ٣ ص ٥٠٩.

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَأَتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَـٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ(١٣) فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَآ إِنَّا نَسِينَـٰكُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(١٤) إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ(١٥) تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ(١٦) فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ(١٧) أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ(١٨) أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَلَهُمْ جَنَّـٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ(١٩) وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ(٢٠) وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ(٢١)﴾

يُريدُ: أنَّا بَنَيْنا أَمْرَ التَّكْليفِ علَى الاختيارِ دُونَ الاضطِرارِ ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاـٰهَا﴾ علىٰ طَريقِ القَسْر والإجْبار ﴿وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾ [١] أي: على أهل الضلال والعمىٰ لاستحبابهم العمىٰ على الهدىٰ.

ثمّ قال: ﴿فَذُوقُواْ﴾ بِنِسْيانِكُم العَاقبةَ، وَقلَّةِ مُبالاَتِكُم بهَا، وَتَرْكِ ٱستِعدَادكُم لَهَا، والمُرادُ بالنِسْيانِ خلافُ التذكُّرِ ﴿انَّا نسِينٰكُمْ﴾ أي: جَازَيناكُم جَزَاءَ نِسْيانِكُم، وَقيلَ: هو بمعنَى التَّرْكِ، أي: تَركْتُم الفِكْرَ في العَاقبةِ فَتَركْناكُم من الرَّحْمةِ [٢].

وفي ٱستئنافِ قولِهِ: ﴿انَّا نَسِينٰكُمْ﴾ وَبناءِ الفِعْل علىٰ «أنَّ» واسمها تَشْديدٌ في

(١) الزمر: ٧١. (٢) قاله ابن عباس في تفسيره: ص ٣٤٨.

الانتقام مِنهُم، أي: فذُوقُوا العَذَابَ، أي: مَا أَنـتُم فـيه مـن نَكْس الرُّؤوس والغَـمّ والخِزْي بسببِ نِسْيانِ اللقاءِ.

وذُوقُوا عَذَابَ الخُلْدِ في جَهَنَّم بسببِ مَا عَمِلْتُم و ﴿ذُكِّرُواْ بِهَا﴾ أي: وُعِظُوا فَتَذَكَّروا واتَّعظُوا بأَنْ سَجَدُوا شُكْراً للهِ سبحانَهُ علىٰ أَن هَدَاهُم لمَعْرفتِهِ وتَواضُـعَاً وخُشُوعَاً ﴿وَسَبَّحُواْ﴾ وَنَزَّهُوا اللهَ من نسبةِ القَبَائح إليهِ، وأَثنوا عليهِ حَامِدينَ لَه.

﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ﴾ أي: تَرتفعُ وَتَتَنَحَّىٰ عن المَضَاجِع، وهي الفَرْشُ وَمَواضِعُ النَومِ والاضطِجَاعِ، وَهُم المتهجِّدونَ بالليلِ الَّذينَ يقُومُونَ لصلاةِ الليلِ ﴿يَـدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ لأَجْلِ خَوفِهِم من سَخَطِهِ وطَمَعِهِم في رَحْمتِهِ.

وعن بلالٍ عن النبيِّ ﷺ: «عَليكُم بقيامِ اللَّيلِ فَإنَّه دَأْبُ الصَّالحينَ قَبلكُم، وإنَّ قيامَ اللَّيلِ قُربةٌ إِلَى الله، ومَنْهَاةٌ عن الإِثْمِ، وَتَكفِيرٌ للسَّيِّئاتِ، ومَطْرَدَةٌ للـدَّاءِ عن الجَسَد»(١).

وعنه ﷺ: «شَرَفُ المؤمن قِيَامُهُ باللَّيلِ، وَعِزُّهُ كَفُّ الأَذَىٰ عن النَّاس»(٢).

وقُرِئَ: «مَا أَخْفَىٰ لَهُمْ» علَى البناءِ للفَاعلِ(٣)، وهو اللهُ عـزَّوَجَلَّ، و ﴿مَـا﴾ بمعنَى «الَّذي» أو بمعنَى «أيّ»، ورُويَ عن النبيّ ﷺ: «قُرَّاتُ أَعْين»(٤)، أي: لا تَعلمُ النُّفوسُ كُلُّهنَّ، ولا نَفْسٌ واحدةٌ منهنَّ، ولا مَلَكٌ مُقرَّبٌ، ولا نبيٌّ مُرسَلٌ أيَّ نَوعٍ عَظيمٍ من الثَوابِ خُبِّئَ وادُّخِرَ لأُولئكَ، أو: أيَّ ذلكَ أخبِّئُ وَأَدَّخِرُ لَهُم ممَّا تَقرُّ به عيونُهُم، ولا مَزيدَ علىٰ هذه العدَّةِ ولا مَطْمعَ لِهمَّةٍ وَرَاءها.

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك: ج ١ ص ٣٠٨ والهيثمي في المجمع: ج ٢ ص ٢٥١.
(٢) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق: ج ٤ ص ٤٥ والزبيدي في الاتحاف: ج ٨ ص ١٦٩.
(٣) قرأه حمزة ويعقوب. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٦١٣.
(٤) أنظر مختصر شواذ القرآن لابن خالويه: ص ١١٩.

ومِثْلُهُ الحَديثُ: «يقولُ اللهُ تعالىٰ: أَعْدَدْتُ لعبادِي الصَّالحينَ مَا لَا عينٌ رَأَتْ ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ ولا خَطَرَ علىٰ قَلْبِ بَشَرٍ بَلْهَ مَا أَطْلَعْتُكُم عليهِ، اقرأوا إنْ شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ﴾ الآية»[1].

﴿كَانَ مُؤْمِناً﴾ و ﴿كَانَ فَاسِقاً﴾ محمولَانِ علىٰ لَفْظ «مَن»، و ﴿لا يَسْتَوُونَ﴾ مَحمُولٌ علىٰ معناهُ، بِدَليلِ قَولِهِ: فـ ﴿أَمَّا الَّذِين ءَامَنُوا﴾ ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُواْ﴾ و﴿جَنَّتُ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ نَوعٌ من الجنان. وعن ابنِ عبَّاسٍ: تَأْوي إليهَا أَرْواحُ الشُّهداءِ[2]. وقيلَ: هي عَنْ يمينِ العَرشِ[3] ﴿نُزُلاً﴾ عَطَاءً بأعمالِهِم، والنُّزُلُ: عَطَاءُ النَّازِلِ، ثُمَّ صَارَ عَامّاً.

﴿فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ أي: النَّارُ لَهُم مَكَان جَنَّةِ المأْوىٰ للمؤمنِ ﴿كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ فيهِ دَلَالَةٌ: أنَّ المُرادَ بالفَاسقِ هنا الكَافِرُ

و ﴿ٱلْعَذَابِ ٱلأَدْنَىٰ﴾ عَذَابُ الدُّنيا من القَتْلِ والأَسْرِ، وما مُحِنُوا به مِن السِنة سَبع سنينَ حتّىٰ أَكَلُوا الجِيَفَ، وقيلَ: هو القَتْلُ يوم بَدْرٍ بالسَّيفِ[4]، وقيلَ: الدَّابَّةُ والدَّجَّالُ[5]، وقيلَ: عذابُ القبرِ[6]، و ﴿ٱلْعَذَابِ الأَكْبَرِ﴾ عَذابُ الآخرةِ ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أَي: يتُوبُونَ عن الكُفْرِ، أو: لَعلَّهُم يُريدونَ الرُّجُوعَ ويطلبونَهُ كقَولِهِ: ﴿فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَلِحاً﴾[7] وسُمِّيتْ إرادةُ الرُّجوعِ رجُوعاً كَمَا سُمِّيتْ إرادةُ القِيَام قِياماً في قَولِهِ: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾[8].

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح: ج ٦ ص ١٤٥.

(٢ و٣) حكاهما الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ٥١٣.

(٤) وهو قول عبدالله والحسن بن عليّ وأُبيّ بن كعب، راجع تفسير الطبري: ج ١٠ ص ٢٤٦ و ٢٤٧.

(٥) رواه محمّد بن العبّاس بإسناده عن الصادقعليه السلام راجع تأويل الآيات: ص ٤٣٧.

(٦) قاله مجاهد. راجع تفسير الطبري: ج ١٠ ص ٢٤٧ ح ٢٨٢٨٣.

(٧) الآية: ١٢ المتقدّمة. (٨) المائدة: ٦.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ(٢٢) وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ وَجَعَلْنَـٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ(٢٣) وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ(٢٤) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ(٢٥) أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَـٰكِنِهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ(٢٦) أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَـٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ(٢٧) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ(٢٨) قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَـٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ(٢٩) فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ(٣٠)﴾

معنىٰ ﴿ثُمَّ﴾: الاستبعادُ لإعْراضِهِم عَن آياتِ اللهِ مَعَ وضُوحِها بَعْدَ التَذْكِيرِ بِهَا.

و ﴿ٱلْكِتَـٰبَ﴾ للجنسِ، والضَّمير في ﴿لِقَآئِهِ﴾ لَهُ، والمعنىٰ: إنَّا آتينَا موسىٰ مِثْل ما آتيناكَ من الكتابِ، فَلَا تَكُ في شَكٍّ مِنْ أَنَّكَ لَقِيْتَ مثلَهُ، إذْ لقَّيناكَ مثلَ ما لقَّيناهُ من الوَحْيِ ونَحوِهِ ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾[1] وقيلَ: إنَّ الضَميرَ في ﴿لِقَآئِهِ﴾ لِمُوسىٰ[2]، والتَّقديرُ: مِنْ لقائِكَ موسىٰ أو لقَـاءِ مـوسىٰ إيَّـاك لَـيلةَ الإسراءِ بكَ إلى السَّماءِ

فَقَد رُوِيَ أَنَّهُ عليه السلام قَالَ: «رَأَيتُ لَيلةَ أُسْرِيَ بِي موسىٰ بـن عـمرانَ رَجُـلًا آدمَ طوالاً جعْداً كأنَّه من رجَالِ شنوءَة»[3].

وعلىٰ هذا فَيكونُ قَد وعدَه عليه السلام أَن يَلْقَىٰ موسىٰ قَبل أَن يموتَ ﴿وَ﴾ جَـعَلْنا

(١) النمل: ٦. (٢) قاله ابن عباس. راجع تفسيره: ص ٣٤٩.

(٣) رواه أحمد في المسند: ج ١ ص ٢٤٥ و ٢٥٩، والبخاري في الصحيح: ج ٤ ص ١٤١.

الكتابَ المُنْزَلَ علىٰ موسىٰ ﴿هُدًى﴾ لقومِهِ ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً﴾ يُقْتَدىٰ بأقْوالِهم وأَفعالِهم ﴿يَهْدُونَ﴾ النَّاسَ إلىٰ مَا في التَّوراةِ من دينِ اللهِ وشَرائعِهِ ﴿لِما صَبَرُواْ﴾ أي: لِصَبْرِهِم، وكَذٰلكَ: لَنَجْعَلَنَّ الكتابَ المُنْزَلَ إليكَ «نُوراً وَهُدىً» وَلَنَجْعَلَنَّ بعدكَ في أُمَّتِكَ أئمّةً يهدُونَ النَّاسَ مثلَ تلكَ الهدايةِ لِما صَبَرُوا عليهِ من نُصرةِ الدِّيـنِ، وثَبتُوا عليهِ من الحقِّ اليقينِ. وقُـرِئَ: ﴿لَـمَّا صَـبَرُوا﴾ [١] ومَـعناهُ: لَـمَّا صَـبَروا جَعَلْناهُم أئمّةً، وعن الحَسَنِ: صَبَروا عن الدُّنيا [٢].

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ﴾ أي: يَقْضي فَيُميِّزُ المُحقَّ من المُبْطِلِ، و﴿هُـوَ﴾ فَصْلٌ. ويجوزُ ذلكَ في المضارعِ لأنَّه يَشبهُ الاسمَ، ولَوقُلْتَ: إنَّ زيداً هوفعل لم يَجُزْ.

الواو في ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ للعَطْفِ علىٰ مَعطُوفٍ عـليه مَـنْوِيٍّ مـن جـنْسِ المَعطُوفِ، وقُرِئَ بالنُّونِ [٣] والياءِ، والفَاعِلُ مَا دَلَّ عليهِ ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ لأنَّ «كم» لا تَقَعُ فَاعِلَةً، وتَقديرُهُ: ﴿أَوَلَم يَهْدِ لَهُمْ﴾ كثرةَ إهلاكِنَا القُرونَ؟ أو: هذا الكَلامُ كَمَا هو بمضْمُونِهِ، ومعنَاهُ كما تَقُولُ: تَعصِم «لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» الدَّمَ والْمالَ. وَيَجوزُ أَن يكونَ فيهِ ضَميرُ «الله» بدلالةِ القِراءَةِ بالنُّونِ، والضَّميرُ في ﴿لَهُمْ﴾ لأَهلِ مكَّة، و﴿القُرُون﴾ عادٌ وثَمودُ وقَومُ لوطٍ يَمشِي أَهلُ مكَّةَ ﴿في مَسٰكِنِهِمْ﴾ وديارِهِم وَبلادِهِم.

﴿الجُرُز﴾: الأَرضُ الَّتي جُرِزَ نَباتُها أي: قُطِعَ، إمَّا لِعَدمِ الماءِ وإمَّا لأنَّه رُعِيَ، ولا يُقَالُ للأرضِ الَّتي لا تُنْبِت: جُرُزٌ، وَيَدلُّ عليهِ قَولُهُ: ﴿فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً﴾ والضميرُ في «بِهِ» للماءِ، ﴿تَأْكُلُ﴾ من الزَّرعِ ﴿أَنْعَامُهُمْ﴾ مِنْ عَصْفِهِ و ﴿أَنْفُسُهُمْ﴾ مِنْ حَبِّه.

---

(١) تقدّمت الإشارة إلى أنّ المصنّف رحمه الله قد اعتمد في تصنيفه هذا على نسخة مصحف لغير قراءة حفص عن عاصم.

(٢) حكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ٥١٦.

(٣) نسبها ابن خالويه إلى عليّ عليه السلام وابن عبّاس والسلمي. راجع مختصر شواذّ القرآن: ص ١١٩.

الفَتْحُ: النَّصرُ أو الفَصْلُ بالحكُومةِ من قَولِهِ: ﴿رَبَّنا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا﴾[١] وكانُوا يَستَمعُونَ المسلمينَ ويَستفتِحُونَ اللهَ عليهِم ويقولُونَ: يَفْتحُ اللهُ بينَنا وبينَكُم، فَقالُوا لَهُم: ﴿مَتَى هَٰذَا ٱلفَتْحُ﴾؟ أَي: في أيِّ وَقْتٍ يَكونُ ﴿إِنْ كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في أنَّه كائِنٌ؟ و ﴿يَومَ ٱلْفَتْحِ﴾ يوم القيامةِ، وَقيلَ: يَوم بدرٍ[٢]، وقيلَ: هو يَوم فَتْحِ مكَّة[٣].

وغَرَضُهُم في السُّؤالِ عن وَقْتِ الفَتْحِ هو التَّكذيبُ والاستهزاءُ، فَوَقَعَ جَوابُهُم على حَسَبِ مَا عُرِفَ من مُرادِهِم في سُؤالِهِم، فَكَأَنَّهُ قَالَ: لا تَستَعجِلُوا بِهِ، فإِنَّ ذلكَ اليوم ستُؤمِنُونَ ولا يَنفعُكُم الإيمانُ كَمَا لَمْ يَنْفَعْ فِرْعَونَ إيمانُه عند حلولِ النَّازِلِ، وسَيَنْظُرُونَ ولا تُنْظَرونَ.

﴿وَٱنْتَظِرْ﴾ حُكْمَ اللهِ فيهِم وٱنتظِرْ النُّصْرَةَ عليهِم وَهَلاكَهُم فَـ ﴿إِنَّهُم مُنْتَظِرُونَ﴾ هَلاكَكُم والغَلَبَةَ عَلَيكُم.

۞ ۞ ۞

---

(١) الأعراف: ٨٩.

(٢) قاله السدي. راجع تفسير البغوي: ج ٣ ص ٥٠٤.

(٣) قاله الفراء في معاني القرآن: ج ٢ ص ٣٣٣.

سُورَةُ الأَحْزَابِ

مدنيّة[1]، ثَلاَثٌ وسبعُونَ آيةً.

في حَديثِ أُبيٍّ: «مَنْ قَرَأَ سُورةَ الأَحْزَابِ وَعَلَّمَها أَهْلَهُ وَمَا مَلَكَتْ يَمينُهُ أُعْطيَ الأَمانَ مِنْ عذَابِ القَبْر»[2].

وعن الصَّادقِ عليه السلام: «مَنْ كَانَ كَثيرَ القراءَةِ لِسُورةِ الأَحْزَابِ كَانَ يَومَ القِيامَةِ في جِوَارِ محمَّدٍ صلى الله عليه وآله وسلم وأَزْواجِه»[3].

---

(١) قال الشيخ الطوسي في التبيان: ج ٨ ص ٣١١: مدنية في قول مجاهد والحسن، وهي ثلاث وسبعون آيةً بلا خلاف.

وفي الكشّاف: ج ٣ ص ٥١٨: مدنية، وهي ثلاث وسبعون آية، نزلت بعد آل عمران.

وروت العامّة أنّ هذه السورة تعدل سورة البقرة، وكانت فيها آية الرجم «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما ألبتة نكالاً من الله والله عزيز حكيم»، ذكره أبو بكر الأنباري عن أُبيّ بن كعب، وهذا يعني أنّه سبحانه رفع من الأحزاب إليه ما يزيد على ما في أيدينا!! كما وردت بالإسناد عن عائشة قالت: كانت سورة الأحزاب تعدل على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مائتي آية، فلمّا كُتِب المصحف لم يقدر منها إلّا علىٰ ما هي الآن!! أُنظر تفسير القرطبي: ج ١٤ ص ١١٣.

قال المصنّف في مقدّمة تفسيره الكبير: والكلام في زيادة القرآن ونقصانه ممّا لا يليق بالتفسير، أمّا الزيادة فيه فمجمع علىٰ بطلانه، وأمّا النقصان منه فقد روىٰ جماعة من أصحابنا وقوم من حشوية العامّة أنّ في القرآن تغييراً ونقصاناً. والصحيح من مذهب أصحابنا خلافه، وهو الّذي نصره المرتضىٰ واستوفى الكلام فيه غاية الاستيفاء. مجمع البيان: ص ١٥ الفن الخامس.

(٢) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ٥٦٥ مرسلاً.

(٣) ثواب الأعمال للصدوق: ص ١٣٧.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا(١) وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا(٢) وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا(٣) مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّـٰٓـِٔى تُظَـٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَـٰتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ(٤) ٱدْعُوهُمْ لِأَبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَـٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا(٥)﴾

نَاداهُ سبحانَهُ بِالنَّبيّ وَبِالرَّسولِ، وتَرَكَ نداءَهُ باسمِهِ كَمَا قَالَ: يا آدم، يا داود، ويا موسىٰ، إجْلَالاً لِمَحَلِّهِ وتَشْريفاً لَهُ ﴿اتَّقِ اللهَ﴾ أي: دُمْ علىٰ ما أَنْتَ عليهِ من التَّقْوىٰ، واْثبُتْ عليهِ وازددْ منهُ ﴿وَلا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ وَلَا تُساعِدْهُم علىٰ شَيءٍ، ولا تَقْبَلْ منهُم رَأْياً وَمَشْورة.

وقُرِئَ: «بِمَا يَعْمَلُونَ» باليَاءِ[1]، أي: بمَا يَعمَلُ المنافقُونَ من الكَيْدِ والمكْرِ.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَىٰ ٱللهِ﴾ وَفَوِّضْ أَمرَكَ إليهِ وَكِلْهُ إليهِ ﴿وَكَفَىٰ بِاللهِ وَكِيلاً﴾ مَوكُولاً إليهِ كُلُّ أَمْرٍ.

﴿مَا جَعَلَ ٱللهُ﴾ قَلْبَيْنِ في جَوْفِ رَجُلٍ، ولا زَوجِيّةً وأُمومَةً في اْمرأةٍ، ولا بُنُوَّةً ودَعْوةً في رَجُلٍ. والمعنىٰ: أنّ اللهَ عزَّ اسمُه كَمَا لَيسَ في حِكْمتِهِ أَن يَجْعلَ للإِنسانِ قَلْبيْنِ، لأَنَّه لو كانَ ذلكَ لكانَ لا يَنفصِلُ إنسانٌ واحِدٌ من إنسانَيْنِ، إذْكانَ يؤدِّي إليهِ

(١) وهي قراءة أبي عمرو. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٦١٥.

أَن يكونَ الجملةُ الواحدةُ متَّصِفَةً بكَونِها مريدةً كارهةً لشيءٍ واحدٍ في حالةٍ واحدةٍ إذا أُريدَ بأحَدِ القَلْبيْنِ وكُرِهَ بالآخَر، فكَذلكَ لا تَكونُ المرأةُ الواحِدةُ أمّاً لِرَجُلٍ وزَوجةً لَهُ، ولا يكُونُ الرَّجلُ الواحدُ دَعِيّاً لِرَجلٍ وٱبناً له؛ لأنَّ الابن هو العَريقُ في النَّسَبِ، والدَّعِيُّ لَاصِقٌ في التَّسميةِ لَا غير، ولا يَجتَمِعُ في الشَّيءِ أَن يكُونَ أَصِيلاً وغَيرَ أَصِيلٍ.

وهذا مَثَلٌ ضَرَبهُ اللهُ تعالىٰ في زيدِ بنِ حَارِثَة، وَهُو رَجُلٌ من كَلْبٍ، سُبِيَ في الجاهليّةِ فاشتَراهُ حَكِيمُ بنُ حزامٍ لِعَمّتِهِ خَديجةَ، فَلَمَّا تَزوَّجَها رسولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم وَهَبَتْهُ لَه، وقيلَ: بَلِ اشتَراهُ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم بِسُوقِ عُكَاظٍ وأَسْلَم، فَقَدِمَ أَبوه حارثةُ بنُ شَراحِيلَ الكَلبيّ بمكّةَ وٱستَشفَعَ بأَبِي طَالبٍ إلىٰ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم في أَن يَبيعَهُ منهُ، فقال عليه السلام: هو حُرٌّ فَليذهَبْ حَيثُ شَاءَ، فَأَبىٰ زَيدٌ أَن يُفارِقَ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم، فَقالَ أَبُوهُ: يا مَعشَرَ قُريشٍ، اشهَدُوا أَنَّ زَيداً ليسَ بابني، فَقَالَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم: اشهدُوا أنَّ زيداً ابني، فكَانَ يُدعىٰ زَيدَ بنَ محمّدٍ، فلَمَّا تزوَّجَ النبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم زَينَبَ بنت جَحش ـ وكانَتْ تَحْتَ زَيدِ بنِ حَارثةَ ـ قَالَتِ اليهُودُ والمنافقُونَ: تَزوَّجَ محمّدٌ امرأةَ ابنِهِ، وهُو يَنْهىٰ النَّاسَ عن ذلكَ، فأَنْزَلَ اللهُ عزَّ وجلَّ هذه الآيةَ، قوله: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّنْ رِّجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَّسُولَ ٱللهِ﴾ (١).

وقُرِئَ: ﴿ٱلَّـٰئِى﴾ بهَمْزةٍ ممدُودةٍ مَشبَّعةٍ بَعْدَهَا ياءٌ. وقُرِئَ: «اللآءِ» بهَمْزةٍ ممدُودةٍ مختَلَسَةٍ لَا ياءَ بعدَها (٢)، وقُرِئَ: «اللّاي» بغَيرِ هَمْزةٍ ولَا مَدٍّ حيثُ كانَتْ من القُرآن (٣)، وقُرِئَ: ﴿تُظَـٰهِرُونَ﴾ مِنْ: ظَاهَرَ، وَ «تَظَّاهَرُونَ» مِنْ:

---

(١) وهو ما رواه القمي في تفسيره: ج ٢ ص ١٧٢ باسناده عن الصادق عليه السلام، والآية: ٤٠ منها.

(٢) قرأه ابن كثير ونافع وأبو جعفر. راجع التبيان: ج ٨ ص ٣١٢.

(٣) وهي قراءة ابن كثير برواية ابن فُلَيحْ عن أصحابه عنه، وكذلك قرأها أبو عمرو راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٥١٨.

اظَّاهَر[١] بمعنىٰ تَظَاهَرَ، و «تَظَهَّرُونَ» من: اظَّهَرَ[٢] بمعنىٰ. تَظَهَّرَ، وأَصلُ الظِّهارِ أَن يَقُولَ الرَّجلُ لامرأتِهِ: أَنْتِ عَلَيَّ كظَهرِ أُمِّي، يقالُ: ظَاهَرَ من امرأتِهِ، وكانَ ذلكَ طَلَاقاً في الجاهليَّةِ، يَتَجنَّبونَ المرأةَ المظاهَرَ منها كَمَا يُتَجنَّبُ المطلَّقةُ، فكانَ معنىٰ قَولِهِم: تَظَاهَرَ منها: تَبَاعَدَ منها بجهةِ الظِّهار، وتَظَهَّرَ منها: تَحَرَّزَ مِنْها، وظَاهَرَ مِنْها: حَاذَرَ مِنْها. ونَظيرُهُ: آلىٰ من امرأتِهِ لِمَا ضُمِّنَ معنَى التَّباعُدِ مِنْها، عُدِّي بـ«من».

ومعنىٰ قَولِهِم: أنتِ عليَّ كظَهْرِ أُمِّي، أَنَّهم أَرادُوا أَن يقُولُوا كبَطْنِ أُمِّي في التَّحْريم، فَكنَّوا عن البَطْنِ بالظَّهْرِ، لأنَّ ذِكْرَ البَطْنِ يقَارِبُ ذِكْرَ الفَرْجِ.

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ النَّسَبُ هو ﴿قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ﴾: هذا ابني، ولا حَقيقةَ لَه عندَ اللهِ ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ﴾ أَي: لا يَقُولُ إلَّا الَّذي يُوافِقُ الحَقِيقةَ ﴿وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ ولا يَهدي إلَّا سَبيلَ الحَقِّ، فَقَالَ مَا هُوَ الحَقُّ، وهَدىٰ إلىٰ ما هُوَ سبيلُ الحَقِّ، وهو قَوْلُهُ: ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أَي: أَعْدَلُ حُكْماً وقَولاً ﴿فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا﴾ لَهُم آباءً فَهُمْ ﴿إِخْوَٰنُكُمْ فِي ٱلدِّينِ﴾ وأَولياؤُكُم، أَي: بنُو أَعمامِكُم ونَاصِروكُم، وقيلَ: ﴿وَمَوَٰلِيكُمْ﴾: مُعْتَقُوكُمْ إذا أَعْتَقْتُمُوهُم فَلَكُم وَلاؤُهم[٣] ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ أي: إِثْمٌ ﴿فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ﴾ إذا نَسَبْتُمُوهُم إلَى المُتَبنِّي لِظَنِّكُم أَنَّه أَبُوه، و ﴿مَا تَعَمَّدَتْ﴾ في محلّ الجرِّ عَطفاً علىٰ ﴿مآ أَخْطَأْتُم﴾، ويجوزُ أَن يكُونَ مبتدأً مَحذُوفَ الخَبَر، والتقديرُ: وَلكن مَا تَعَمَّدَتْ قلُوبكُم فيهِ الجُنَاحُ، ويجوزُ أَن يكُونَ المُرادُ العَفْوَ عَن الخَطَأ دونَ العَمْدِ علىٰ طَريقِ العُمُوم، كقَولِهِ عليه‌السلام :

(١) قرأه ابن عامر. راجع التبيان: ج ٨ ص ٣١٢.
(٢) وهي قراءة ابن كثير ونافع وأبي عمرو. راجع المصدر السابق.
(٣) حكاه الشيخ الطوسي في التبيان: ج ٨ ص ٣١٥.

«وُضِعَ عن أُمَّتي الخَطَأُ والنِسْيانُ وما أُكْرِهُوا عليهِ»[١]، ويَتَناولُ خَطَأَ التَبنّي وعمده لِعمُومِهِ.

﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَـٰتُهُمْ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا(٦) وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا(٧) لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا(٨) يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا(٩) إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠(١٠) هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا(١١)﴾

﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ في كلِّ شيءٍ من أُمُورِ الدِّينِ والدُّنيا، ولذلكَ أَطْلَقَ ولَم يُقيِّدْ، فيجبُ عليهِم أَن يكونَ أَحَبَّ إليهِم من أنفسِهِم، وحُكمُهُ أَنْفَذُ عليهِم من حُكْمِهَا، وحَقُّهُ أَوجَبُ عندَهُم من حقُوقِها، وشَفَقَتُهُم عليهِ أَكْثَر من شَفَقَتِهِم عليهَا، وَأَن يَبذلُوها دونَه إذا حَلَّ خَطْبٌ، وَيَجْعلُوها فداهُ إذا لَقحَتْ حَرْبٌ.

ورُوي عن أُبيٍّ وٱبنِ مسعُودٍ وٱبنِ عبَّاسٍ أنَّهم قَرأُوا: «النَّبيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَهُو أَبٌ لَهُمْ» ورُوِي ذلكَ عن الباقرِ والصادقِ عليهما السلام[٢].

---

(١) أخرجه ابن ماجة في السنن: ج ١ ص ٦٥٩ ح ٢٠٤٣ و ٢٠٤٥ من طرقه عن ابن عبّاس وأبي ذرّ الغفاري.

(٢) أنظر سنن البيهقي: ج ٧ ص ٦٩، وتفسير الآلوسي: ج ٢١ ص ١٥٢.

وعن مجاهد: كلُّ نبيٍّ أَبٌ لأُمَّتِهِ [١]، ولذلكَ صَارَ المؤمنونَ إِخْوةً؛ لأنَّ النبيَّ أَبُوهُم في الدِّينِ، وأَزْواجَهُ أُمّهاتُهم في تَحْريمِ النِّكاحِ، كَمَا قَالَ: ﴿وَلَا أَنْ تَنْكِحُوٓاْ أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً﴾ [٢] وَلَسْنَ بأُمَّهاتٍ لَهُم علَى الحقيقةِ، إذْ لو كُنَّ كذلكَ لكانَتْ بَنَاتُهنَّ أَخَواتٍ، فكَانَ لَا يَحِلُّ للمُؤْمنِ من التزويجِ بِهِنَّ ﴿وَأُوْلُواْ الأَرْحَامِ﴾ أي: ذَوُو الأَنْسَابِ ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ في الميرَاثِ بحقِّ القَرابَةِ، وكَانَ المسلمُونَ في صَدْرِ الإِسلامِ يَتَوارَثُونَ بالمؤاخَاةِ في الدِّين وبالهِجْرةِ، فَصَارتْ هـذه الآيـةُ نَاسِخَةً للتَّوارثِ بالهِجْرةِ والمُؤاخَاةِ ﴿فِي كِتَـٰبِ ٱللَّهِ﴾ في اللَّوحِ المحفُوظِ، أو: في القُرآنِ ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يجوزُ أن يكُونَ بَيَاناً لأُولي الأَرحامِ، أي: لأقـرباءِ مـنْ هؤلاءِ بَعضُهُم أولىٰ بأَن يَرِثَ بَعْضاً من الأَجَانِب، ويجوزُ أَن يكُونَ لابتداء الغَايةِ، أي: أُولي الأَرحَامِ بحقِّ القَرابةِ أَوْلىٰ بالميرَاثِ من المؤمنينَ بحَقِّ المؤاخَاةِ، ومن المُهاجِرينَ بحقِّ الهِجْرةِ ﴿إِلَّآ أَنْ تَفْعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفاً﴾ عَنَىٰ بذلكَ وَصيَّةَ الرَّجلِ لإِخوانِهِ في الدِّينِ، وَعَدَّىٰ (تَفْعلُوٓا) بـ«إلىٰ» لأنّه في مَعنى «تسدّوا» و «تزلّوا»، ﴿كَانَ ذَٰلِكَ﴾ المشارُ إليهِ من نَسْخِ المـيرَاثِ بـالهِجْرةِ وردِّه إلىٰ أُولي الأَرحام مَكتُوباً في اللَّوح أو القُرآنِ أو التَّوراةِ.

وَاذكُرْ حين أَخذْنَا ﴿من ٱلنَّبِيِّنَ﴾ جَميعاً ﴿ميثَاقَهُم﴾ بتَبليغِ الرِّسالةِ والدُّعاءِ إِلَى التَوحيدِ ﴿وَمِنْكَ﴾ خُصُوصَاً ﴿وَمِنْ نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ وإنّـما فَعلْنَا ذلكَ لِيسأَلَ اللهُ تعالىٰ يومَ القيامَةِ عند تَوافُقِ الأَشهادِ المؤمنينَ الَّذين صَدَقُوا عَهْدَهُم فَيشْهَدَ الأنبياءُ لَهُم بأنَّهُم صَدَقُوا عَهْدَهُم وكانُوا مؤمنينَ، أَو: ليسأَلَ الأنبياءَ ما الَّذي أَجَابتْهُم بِهِ أُمَمُهُمْ كقَولِهِ: ﴿ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُوني وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ﴾ [٣]،

(١) تفسير مجاهد: ص ٥٤٦.
(٢) الآية: ٥٣.
(٣) المائدة: ١١٦.

أَو: ليسألَ الّذينَ صَدَقُوا ماذَا قَصَدْتُم بصدقِكُم وَجْهَ اللهِ أَم غيرَهُ؟ وَفيهِ تَهدِيدٌ للكَاذِب.

قَالَ الصَّادقُ عليه السلام: إذا سُئِلَ الصَّادِقُ عن صِدْقِهِ علىٰ أيِّ وَجْهٍ فَيُجَازىٰ بِحَسَبِهِ، فَكَيفَ يكونُ حَالُ الكاذِب؟!

والمِيثاقُ الغَليظُ: اليَمينُ باللهِ علَى الوفاءِ بِمَا حمِّلُوا، والغِلَظُ استِعَارةٌ، والمُراد: عِظَمُ الميثاقِ وجَلَالةُ قَدْرِهِ في بابِهِ.

﴿اذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللهِ عَلَيْكُمْ﴾ يَومَ الأَحزَابِ، وهو يَومُ الخَنْدقِ ﴿إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾ وهُم الأَحْزابُ الَّذينَ تحزَّبُوا علىٰ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِم رِيحاً﴾ وَهِيَ الصَّبَا أُرسِلَتْ عليهِم حتَّىٰ أَكفَأَتْ قُدُورَهُم، ونَزَعَتْ فَسَاطِيطَهُم، وَسَفَتِ التُّرابَ في وجُوهِهِم.

وفي الحَديثِ: «نُصِرْتُ بالصَّبَا، وأُهلِكَتْ عَادٌ بالدَّبُورِ»(١).

﴿وجُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا﴾ وَهُم الملائكةُ، وحينَ سَمِعَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم بإقبالِهِم ضَرَبَ الخَندقَ علَى المدينةِ، أَشَارَ عليهِ بذلكَ سَلمانُ الفَارسيُّ، ثمَّ خَرَجَ ومَعَهُ ثلاثةُ آلافٍ من المسلمينَ، فضَرَبَ معسكرَهُ والخَندقُ بينَهُ وبينَ القَومِ، واْشتدَّ الخَوفُ في المسلمينَ، ورُفعَتِ الذَّراريُّ والنِّساءُ في الآطامِ، ونَجَمَ النِّفاقُ من المنافقينَ، وكانَتْ قُرَيشٌ قَد أقبلَتْ حتَّىٰ نَزَلَتْ بينَ الجرفِ والغَابةِ في عشرةِ آلافٍ من أَحابيشِهِم ومَن تَابَعَهم من كِنَانةَ وأهلِ تُهامة وقَائدُهُم أبو سُفيانَ، وأَقْبلَتْ غَطَفَانُ ومَن تَابَعَهُم من أهل نَجْدٍ حتَّىٰ نَزَلُوا إلىٰ جَانبِ أُحُدٍ وقَائدُهُم عُيَيْنَةُ بنُ حُصينٍ وعَامِرُ بنُ الطُّفَيلِ وَمَالأَتْهُم اليهودُ من قُرَيظة والنَّضِيرِ، وأَقَامَ المشركونَ بضعاً

(١) أخرجه أحمد في المسند: ج ١ ص ٢٢٨ و ٣٢٤ و ٣٤١، والبخاري في الصحيح: ج ٢ ص ٤١ و ج ٤ ص ١٣٢.

وعشرين ليلةً لَمْ يكنْ بينَهُم وبين المسلمينَ قِتَالٌ إلَّا الرَّمي بالنَّبلِ والحِجَارةِ، غير أَنَّ فَوارسَ من قُريشٍ مِنهُم عَمرو بنُ عبد ودٍّ، وضرَارُ بنُ الخطَّابِ، وهُبيرةُ بنُ أَبي لَهَبٍ، ونَوفَلُ بنُ عبداللهِ خَرَجُوا علىٰ خُيُولِهم حتَّىٰ مرّوا ببني كِنَانَةَ فقالُوا: تَـهيَّأُوا للحربِ فَستعلَمُونَ اليومَ مَن الفُرسان، ثمَّ أَقبلُوا تَعنقُ بِهم خُيُولُهم حتّىٰ وقفُوا علَى الخَندقِ فقالُوا: واللهِ إنَّ هذه لَمَكيدَةٌ ما كانَتِ العربُ تكيدُها، ثمَّ تيمَّمُوا مَكاناً ضَيِّقاً من الخندقِ فَضَربُوا خُيُولَهم فاقتَحَمُوا، ونَادىٰ عمرو وكان يعدُّ بألفِ فَارسٍ: مَن يبارز؟ فَقَامَ عليٌّ عليه السلام وهو مقنَّع في الحَديدِ فقال له: أنا له يا رسول الله، فَقَالَ: إنَّه عمروٌ، اجلسْ، ونادىٰ عمرو الثانيةَ والثالثةَ يقولُ: أَلَا رَجُلٌ؟ أين جـنَّتُكُم الَّـتي تزعُمونَ أنَّ مَن قُتِل منكُم دَخَلَها؟ فَقامَ عليٌّ عليه السلام، فـأَذِنَ لَـهُ رسـولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأَلبَسَهُ درْعَهُ ذَاتَ الفُضُولِ، وأعْطَاه ذا الفقارِ، وعمَّمَهُ عمامَتَه السَّحَاب، وَقَالَ: اللّٰهم ٱحفظْهُ من بين يديهِ ومِن خَلْفِهِ وعن يمينِهِ وعن شمالِهِ ومِن فَوقِ رأسِهِ، ومِن تَحتَ قَدَمَيهِ، وتَجاولَا فَضَرَبَهُ عمرو في الدَّرقة فَقَدَّها وأَصَابَ رأسَـهُ فَشَـجَّهُ، وضَـرَبَه عليٌّ عليه السلام وثَارَتْ بينَهُما عجاجَةٌ، فسُمِعَ عليٌّ عليه السلام يُكبِّرُ، فَقالَ النبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم: قَتلَهُ والَّذي نَفسي بيدِهِ، فَجزَّ عليٌّ رأسَهُ وأَقْبَلَ نحوَ رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم ووجْهُهُ يَـتهلَّلُ، فَقَالَ النبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم: أَبْشِرْ يا عليُّ، فَلو وُزِنَ اليومَ عملُك بعملِ أُمَّـةِ مـحمَّد صلى الله عليه وآله وسلم لَرَجحَ عملُكَ بعَمَلِهم (١).

﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِّنْ فَوْقِكُمْ﴾ من أَعْلَى الوادي من قِبَلِ المشرقِ بـنُو غـطَفَان ﴿وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ من أسفِ الوادي مـن قِـبَلِ المـغربِ قُـريش ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَـرُ﴾ مَالَتْ عن سُنَنِهَا حِيرَة وشخُوصاً، وقيلَ: عَدلَتْ عن كلِّ شيءٍ فَلَمْ تلتفِتْ

(١) أنظر تفسير القمي: ج ٢ ص ١٧٦ ـ ١٨٨.

إلَّا إلىٰ عَدوِّها لشدّةِ الخَوفِ(١)، و ﴿ٱلْحَنَاجِر﴾ جَمعُ الحَنْجَرَةِ وهي مُنتهَى الحلقُومِ، قَالُوا: إذا ٱنتفَخَتِ الرِّئةُ من فَزَعٍ أو غَمٍّ أَو غَضَبٍ رَبَتْ وٱرتفعَ القَلْبُ بارتفاعِهَا إلىٰ رأْسِ الحَنْجَرَةِ، ولذلكَ قيلَ للجَبَانِ: انتفخَ سَحَرُهُ. ويجوزُ أَن يكُونَ ذلكَ مَثَلاً في ٱضطرابِ القُلُوبِ وَوَجيبِهَا وإنْ لَمْ تَبلغْ الحَنَاجِرَ حَقِيقَةً ﴿وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا﴾ المخْتَلِفَةَ، زيدَتِ الألفُ في الفَاصِلَةِ كَمَا زَادوهَا في القَافيةِ، نَحُو قَولِهِ:

أقِلِّ اللَّومَ عَاذِلَ والعِتَابَا(٢)

وكذلك «الرَّسولا» و «السَّبيلا» ﴿وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً﴾ أَي: أُزعِجُوا أَشَدَّ إزْعَاج.

﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا(١٢) وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُواْ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَاراً(١٣) وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُواْ ٱلْفِتْنَةَ لَأَتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلَّا يَسِيراً(١٤) وَلَقَدْ كَانُواْ عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولاً(١٥) قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذاً لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا(١٦) قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيراً(١٧) قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ

(١) حكاه الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ٥٢٦.

(٢) لجرير، وعجزه: وقولي إنْ أصبتُ لقد أصابا. والبيت مطلع قصيدة طويلة يهجو بها عبيداً الراعي النميري والفرزدق. انظر خزانة الأدب للبغدادي: ج ١ ص ٦٩ وما بعده.

وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا(١٨) أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ أُوْلَـٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُواْ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَـٰلَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيراً(١٩) يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُواْ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّواْ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنبَآئِكُمْ وَلَوْ كَانُواْ فِيكُم مَّا قَـٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلًا(٢٠)﴾

قيلَ: إنَّ القائِلَ معتبُ بنُ قشير وأَضرابُهُ من المنافقينَ قالُوا: كَانَ محمّدٌ يَعِدُنَا كنوزَ كِسْرىٰ وقَيصَرٍ، ونَحنُ لا نَقْدرُ أن نَذْهبَ إِلَى الغائط، هذا واللهِ الغُرُور[١].

﴿يَثْرِب﴾ اسمُ المدينةِ، وقيلَ: أَرضٌ وَقَعَتِ المدينةُ في نَاحيةٍ منها[٢]. قُرِئَ: ﴿لا مُقَامَ لَكُمْ﴾ بضَمِّ الميمِ وفَتحِهَا[٣]، أي: لا قَرارَ لكُم ها هُنا ولا مَكانَ تُقيمونَ فيهِ أو تَقُومُونَ ﴿فَارْجِعُوا﴾ إِلَى المدينةِ، أَمَروهُم بالهَرَبِ من عَسْكَرِ رسولِ اللهِ، وقيلَ: قالُوا لَهُم: ارجعُوا كفَّاراً وأَسْلِمُوا مُحَمَّداً وإلَّا فَليسَتْ يَثْرِبُ لَكُم بمكان[٤]، ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ أَي ذَوات عَورةٍ، والعَورةُ: الخَلَلُ، اعتذرُوا بأنَّ بيوتَهُم مكشُوفةٌ لَيستْ بحصينةٍ، أو: خَالِيةٌ من الرِّجالِ يُخشىٰ عليها السُّرَّاقُ، فَكَذَّبَهُم سبحانَه بقولِهِ: ﴿وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ﴾ بل هي حَصِينَةٌ، وإنَّما يريدُونَ الفرارَ.

﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ﴾ المَدينةُ أو بيوتُهُم، من قَولِهِم: دَخَلْتُ علىٰ فلانٍ بيتَه ﴿مِنْ أَقْطَارِهَا﴾ أي: جَوانِبِها، يُريدُ: ولو دَخَلَتْ هذه العساكِرُ مدينَتَهُم وبُيُوتَهُم من

---

(١) وهو قول السدي، راجع تفسير الطبري: ج ١٠ ص ٢٦٨.
(٢) قاله أبو عبيدة في مجاز القرآن: ج ٢ ص ١٣٤.
(٣) قرأ حفص وحده بضمّ الميم والباقون بفتحها، راجع التبيان: ج ٨ ص ٣٢١.
(٤) حكاه الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ٥٢٨.

نَواحِيها كُلِّها يَنْهبُونَهُم ﴿ثُمَّ سُئِلُواْ﴾ عند ذلكَ الفَزَعَ و ﴿ٱلْفِتْنَةَ﴾ أي: الرِّدةَ والرَّجْعَةَ إلَى الكُفْرِ وَمُقَاتلةِ المسلمينَ لأَتَوْهَا أي: لجَاؤُوهَا وفعَلُوهَا، وقُرِئَ: ﴿لآتَوْهَا﴾[١] أي: لأَعْطَوْهَا ﴿وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ﴾ أي: وَمَا لَبِثُوا بالمدينةِ بعد ٱرتدادِهِم ﴿إِلَّا يَسِيراً﴾ فإنَّ اللهَ يُهلِكُهُم، وقيلَ: وما تَلبَّثوا بها أي: ما لبثُوا عَطاءَهَا وإجابَتَهُم إليها إلاَّ يَسيراً، رَيْثَما يكونُ السُّؤالُ والجَوابُ من غَيرِ تَوقُّفٍ[٢].

﴿كَانُواْ عَاهَدُواْ ٱللَّهَ﴾ وَرَسُولَهُ ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ ليلة العَقَبَةِ أَن يَمنَعُوهُ ممَّا يَمنَعُونَ منهُ أَنفُسَهُم ﴿مَسْئُولاً﴾ أَي: مَطلُوباً يُسْأَلُونَ عنه في الآخرةِ. ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ﴾ مِمَّا لا بدَّ لَكُم من نزُولِهِ بكُم من حَتْفِ أنفٍ أو قَتْل، وإنْ يَنْفَعْكُم الفِرارُ ـ مثلاً ـ فَمُتِّعْتُم بالتأْخيرِ لَمْ يكنْ ذلكَ التَّمتيعُ إلاَّ زَماناً قَليلاً.

﴿ٱلْمُعَوِّقِينَ﴾ المثبِّطونَ عن رسولِ اللهِ، وَهُم المنافقُونَ يَقُولُونَ ﴿لإِخْوَانِهِمْ﴾ مِن ضَعَفَةِ المسلمينَ: مَا مُحَمَّدٌ وأَصْحَابُهُ إلاَّ أَكَلَةُ رأْسٍ وَلَو كانُوا لَحْماً لَالْتَهَمَهُمْ هؤلاءُ، فَخلُّوهُم وَ ﴿هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ أي: تَعالَوا وقرِّبُوا أَنْفُسَكُم إلينَا، وهي لُغَةُ الحجاز يَسْتَوُونَ فيه بين الواحِدِ والجَمَاعةِ، وأَمَّا تَميمُ فيقولُونَ: هلمَّ، هَلُمَّا، هَلُمُّوا، وهي صَوْتٌ سُمِّيَ به فِعلٌ مُتعدٍّ مثل: احْضِرْ وقَرِّبْ ﴿إِلَّا قَلِيلاً﴾ أَي: إتْياناً قَليلاً، يخرُجُونَ مع المؤمنينَ ولا يُبارِزُونَ ولا يقاتِلُونَ إلَّا شَيئاً قليلاً إذا ٱضطرُّوا إليهِ، كقولِهِ: و﴿مَا قَاتَلُواْ إِلَّا قَلِيلاً﴾.

﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾ في وَقْتِ الحربِ أَضِنَّاءَ بِكُم، يَترفرَفُونَ حَولكُم كَمَا يَفعلُ

(١) تقدّمت الاشارة الى أن المصنّف قد اعتمد في تفسيره هذا على نسخة مصحفٍ لغير قراءة حفص عن عاصم. وممّن قرأها بالقصر ابن كثير ونافع وابن عامر وأبو جعفر. راجع التبيان: ج ٨ ص ٣٢١.

(٢) قاله الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ٥٢٨.

الرجلُ بالذّابِّ عَنْه المُحَامي دونَه عند الخوفِ، وقيلَ: معناهُ: أَشحَّةً بالقِتَالِ مَعَكُم ولا يَنْصرُونَكُم[١]، ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ في تلكَ الحَالةِ كَمَا يَنْظُرُ المَغْشيُّ عليهِ من مُعالَجةِ سَكَرَاتِ المَوتِ حَذَراً وَخَوْفاً وَلِوَاذاً بِكَ ﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ﴾ وحِيزَتِ الغَنَائمُ نَقَلُوا ذلكَ الشحَّ عنكُم إِلَى الخَيرِ وهو المَالُ والغَنيمَةُ وقالُوا: وَفِّروا عَلَينا قِسْمَتَنا، فإنَّا قَد شَاهَدناكُم وبمَكَانِنا غَلَبْتُم أَعْداءَكُم، ونُصِبَ (أَشِحَّةً) علَى الحَالِ أَو على الذمِّ. وَالسَّلقُ: أصلُهُ الضَّرْبُ، سَلَقَهُ بالكَلامِ أَسْمَعَهُ المكرُوهَ، أَي: آذَوكُم، وخَاصَمُوكُم بألسنةٍ سَليطةٍ ذَرِبَة.

﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ﴾ لم يَنْهزِمُوا وَقَد ٱنْهزَمُوا، ﴿وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ﴾ كَرَّةً ثانيةً تمنَّوا لِخَوفِهِم مَا تَمَنَّوا به هذهِ الكَرَّة، أَنَّهم خارجُونَ إِلَى الْبَدْوِ، و ﴿يَسْـَٔلُونَ عَنْ﴾ أَخْبَارِكُمْ ﴿وَلَوْ كَانُواْ﴾ مَعَكُمْ و ﴿فِيكُم﴾ وَوَقَعَ قِتَالٌ لَمْ يُقَاتِلُوا مَعَكُم إِلاّ قَدَراً يَسِيراً رِيَاءً وسُمعةً لِيُوهِمُوا أَنَّهُم من جُمْلَتِكُم لا لِنُصرتِكُم.

﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا(٢١) وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَـٰناً وَتَسْلِيماً(٢٢) مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا(٢٣) لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيماً(٢٤) وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْراً وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيّاً عَزِيزاً(٢٥)﴾

﴿لِمَنْ كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ﴾ بَدَلٌ مِن ﴿لَكُمْ﴾ وهُو مِثْلُ قَولِكَ: رَجَوتُ زَيداً فَضْلَه،

(١) قاله ابن كامل كما في تفسير الماوردي: ج ٤ ص ٣٨٥.

أَي: فَضْلَ زَيدٍ، و «الأُسْوَةُ» من الايتِسَاءِ كالقُدوةِ من الاقتداءِ، أَي: كانَ لَكُم بِـهِ اقتداءٌ لَوْ ٱقتديتُم بِهِ في النُّصرةِ والصَّبرِ عندَ مَواطِنِ الكِفَاحِ كَمَا فَعَلَ هُو يومَ أُحدٍ إذْ كُسِرَتْ رباعيَّتُهُ وشُجَّ وجهُهُ وقُتِلَ عمُّهُ، فَواسَاكُم مَعَ ذلكَ بنفسِهِ، فَهَلَّا فَعَلْتُم مثلَ ما فَعَلهُ هو ﴿وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيراً﴾ أَي: قَرَنَ الرَّجاءَ بالطَّاعَاتِ الكثيرةِ، والمؤْتَسَى بِهِ مَن كَانَ كذلك.

وَعَدَهُم عزَّ اسمُهُ أَن يُزَلْزَلُوا حتَّىٰ يَستَغيثُوهُ في قَولِهِ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [1]، فَلَمَّا جاءَ الأَحزابُ وٱضطَرَبُوا ﴿قَالُوا هٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ وأَيقَنُوا بالنَّصْرِ، وهذا إشارةٌ إلَى البَلاءِ ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَـٰناً﴾ باللهِ ﴿وَتَسْلِيماً﴾ لِقَضَائِه.

﴿رِجالٌ صَدَقُواْ مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ﴾ بأَنَّهم إذا لَقُوا حَرْباً مَعَ رسولِ اللهِ ثَبَتُوا وقَاتَلُوا حتَّىٰ يَستَشهِدُوا ﴿فَمِنْهُم مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ﴾ أَي: قُتِلَ فَوَفَىٰ بنذرِهِ من الثَّباتِ مَعَ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وعن ابنِ عبّاس: هُو حَمزةُ بنُ عبدِ المطَّلبِ ومَن قُتِلَ مَعَهُ، وأَنسُ بنُ النَّضرِ وأَصْحَابُه [2] ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنْتَظِرُ﴾ النُّصْرةَ والشَهَادةَ علىٰ ما مَضَىٰ عليهِ أَصْحَابُهُ ﴿وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلاً﴾ وَمَا غيَّروا العَهْدَ، لا المُستَشهِد وَلَا مَنْ يَـنتظِرُ الشَهَادةَ.

وعن عليٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ: فِينَا نَزَلَتْ، وأَنَا واللهِ المنتظِرُ وَمَا بدَّلتُ تَبديلاً [3].

﴿لِيَجْزِيَ اللهُ الصَّـٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾ في عهُودِهِم ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ﴾ بِنَقْضِ العَهْدِ ﴿إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ يَعني: إنْ شَـاءَ قَـبلَ تَـوبتَهُم وأَسْـقَطَ عِـقَابَهُم،

---

(١) البقرة: ٢١٤. (٢) انظر تفسير ابن عباس: ص ٣٥٢.

(٣) رواه الصدوق في الخصال: ص ٣٧٦ ح ٥٨ قطعة، والحسكاني في شواهد التنزيل: ج ٢ ص ١.

وإنْ شَاءَ لَمْ يَقْبلْ توبَتهُم وَعذّبَهُم، والظّاهِرُ يَقتضي بمَا يَقْتَضِيهِ العَقْلُ من الحُكم ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ يَعني: الأحزابَ ﴿بِغَيْظِهِمْ﴾ مَغيظِينَ، كَقولِهِ: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ﴾(١) ﴿لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا﴾ غير ظَافِرينَ. وَهُمَا حَالاَنِ بتَداخلٍ أو تَعاقب، ويجوزُ أن يكونَ الثّانيةُ بياناً للأُولىٰ أو ٱستئنافاً ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ بالرِّيحِ والجُنُودِ.

وعن ابْنِ مَسعُودٍ أنَّهُ كَانَ يَقرأُ: «وكفى ٱللهُ المؤمنينَ القِتَالَ بِعَليٍّ»(٢).

﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا(٢٦) وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا(٢٧)﴾

﴿مِن صَيَاصِيهِمْ﴾ مِنْ حُصُونِهِم، والصِّيصِيَةُ: ما تُحصّنُ بِهِ، يُقَالُ لِقَرْن الظّبْي والبَقرِ: صِيصِيةٌ، وَلِشَوكَةِ الدِّيكِ الّتي في سَاقِهِ، وَلِشوكةِ الحَائِكِ أَيضاً، قال:

كَوَقْعِ الصَّياصِي في النَّسيجِ المُمَدَّدِ(٣)

وقُرِئَ: ﴿الرُّعْبَ﴾ بِضَمِّ العينِ(٤) وسكُونِها.

ورُوِيَ أنَّ جبرائيلَ عليه السلام نَزَلَ علىٰ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم صَبيحةَ الليلةِ الّتي ٱنصَرَفَ عن الخَنْدقِ إِلَى المدينةِ فَقَالَ: يا رسولَ اللهِ، إنَّ الملائكةَ لَمْ تَضَعِ السِّلاحَ، إنَّ اللهَ يأمُرُكَ بالسَّيرِ إلىٰ بَني قُرَيظَةَ وَأَنَا عَامِدٌ إليهِم، فَعَزَمَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم على النَّاسِ أَنْ لا يُصَلُّوا العصرَ إلاَّ في بَنِي قُرَيظَةَ، فَحَاصَرَهُم خَمْسَاً وعشرينَ ليلةً

---

(١) المؤمنون: ٢٠. (٢) انظر تفسير التبيان: ج ٨ ص ٣٣١.

(٣) لدريد بن الصمّة، وصدره: فَجئتُ إليهِ والرماحُ تَنوشُه. والبيت من قصيدة حماسية طويلة يرثي بها أخاه عبدالله وقد قَتَلَته بنو عبس. انظر ديوان دريد: ص ٤٥.

(٤) قرأه ابن عامر والكسائي. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٣٦٣.

حتىٰ أجهدَهُم الحِصَارُ، فنزَلُوا علىٰ حُكْمِ سَعدِ بنِ مَعاذٍ، فَحَكَمَ فِيهِم بأَنْ يُقْتَلَ مُقَاتِلَتُهُم وتُسْبىٰ ذَرَارِيهِم ونِسَاؤُهُم، وتُغْنَمُ أَمْوالُهُمْ، وتَكُونُ عِقَارُهُمْ للمهاجِرينَ دونَ الأنْصارِ، فالأنْصارُ ذَوو عقَار وليسَ للمهاجرينَ عقَارٌ، فكبَّرَ رسولُ اللهِ ﷺ وَقَالَ لسَعْدٍ: «لَقَد حَكَمْتَ فيهم بحُكْمِ اللهِ من فَوقِ سَبعةِ أَرقِعَة»[1] والرَّقيعُ: اسمُ سَمَاءِ الدُّنيا، فَقُتِلَ مقاتِلَتُهُم وكَانُوا ستّمائةِ مُقَاتلٍ، وقيلَ: أَربعمائةٍ وخَمْسينَ، وسُبِيَ سَبْعُمائةٍ وخَمسُون[2].

﴿وَأَرْضاً لَمْ تَطَئُوهَا﴾ بأَقْدامِكُم بَعدُ، وَسَيفْتَحُها اللهُ عليكُم، وهي خَيبرُ، وقيلَ: مكَّة[3]، وقيلَ: فارسَ والرُّوم[4]، وقيلَ: هي كلُّ أَرضٍ تُفْتَحُ إلىٰ يَومِ القيامة[5] وقيلَ: هي كلُّ ما أَفَاءَ اللهُ علىٰ رسولِهِ ممَّا لَمْ يُوجَفْ عليهِ بِخَيْلٍ وَلا رِكاب[6].

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا(٢٨) وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَـٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا(٢٩) يَـٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَـٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا(٣٠) وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَـٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا (٣١) يَـٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى

---

(١) رواه القمي في التفسير: ج ٢ ص ١٨٩ .
(٢) حكاه الماوردي في تفسيره: ج ٤ ص ٣٩٣ .
(٣) قاله قتادة. راجع المصدر السابق.
(٤) قاله قتادة والحسن. راجع تفسير الطبري: ج ١٠ ص ٢٨٨ .
(٥) وهو قول عكرمة. راجع تفسير الماوردي: ج ٤ ص ٣٩٣ .
(٦) قاله عكرمة أيضاً كما في تفسير البغوي: ج ٤ ص ٥٢٥ .

قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفًا(٣٢) وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا(٣٣) وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا(٣٤)﴾

قالُوا: إنَّ أَزواجَ النبيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيهِ وآلِهِ وَسَلَّمَ سَأَلْنَهُ شيئاً مِن عَرَضِ الدُنيا وَطَلَبْنَ منه زيادةً في النَّفقةِ وَتَغايَرْنَ، فآذىٰ ذلك رسولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيهِ وآلِهِ وَسَلَّمَ وآلىٰ منهنَّ، وصَعَدَ إلىٰ غرفةٍ فَمكَثَ فيها شَهراً، فَنَزلَتْ آيةُ التَّخيير[1] ﴿فَتَعَالَيْنَ﴾ أي: أَقْبِلْنَ بإرادَتكُنَّ واْختيارِكُنَّ لأَحَدِ أَمْرَين، ولَمْ يَرد نهوضَهُنَّ إليهِ بأَنفسِهِنَّ كما تقُولُ: أَقبلَ يُخاصِمُني، وذَهَبَ يُكلِّمُني. ﴿أُمَتِّعْكُنَّ﴾ أُعطِكُنَّ متعةَ الطَّلاقِ ﴿وَأُسَرِّحْكُنَّ﴾ أُطلِّقكنَّ ﴿سَرَاحاً جَمِيلاً﴾ طَلَاقاً بالسُّنَّةِ من غيرِ ضِرَار.

﴿لِلْمُحْسِنَـٰتِ﴾ المُريداتُ الإحسانَ المُطيعاتُ للهِ منكُنَّ.

واخْتُلِفَ في حُكْمِ التَّخييرِ، والمَرويُّ عن أئمّةِ الهُدىٰ عَلَيهِمُ السَّلامُ أَنَّ ذلكَ كانَ خاصّاً للنبيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيهِ وآلِهِ وَسَلَّمَ، ولَوِ اْختَرْنَ أَنفُسَهُنَّ لَبِنَّ منهُ من غيرِ طَلَاقٍ، وليسَ لِغَيرِهِ ذلك[2].

وَالْفَاحِشَةُ: السَّيِّئةُ البَلِيغَةُ في القُبحِ، وهيَ الكَبيرةُ، والمُبيِّنَةُ: الظَاهِرُ فُحشُهَا. والمُرادُ: كُلُّ ما اْقْتَرفْنَ من الكَبَائِرِ. قرئَ: «يـضعَّفُ»[3]، و ﴿يُضَاعَفْ﴾ بالياءِ علىٰ بناءِ الفعلِ للمفعُولِ، و ﴿نُضعِّفْ﴾ بالنُّونِ والبناءِ للفَاعلِ[4]، وإنَّما ضُوعِفَ عَذابُهنَّ لزيادةِ نعمةِ اللهِ عَلَيهُنَّ بنزُولِ الوَحْيِ في بيوتِهِنَّ وبمكانِ النبيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيهِ وآلِهِ وَسَلَّمَ

(١) وهو قول أبي الزبير وقتادة وابن زيد. راجع تفسير الطبري: ج ١٠ ص ٢٨٩ و ٢٩٠.
(٢) أُنظر الكافي: ج ٦ ص ١٣٦ ح ١ ـ ٣ من كتاب الطلاق.
(٣) قرأه أبو عمرو. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٥٢١.
(٤) قرأه ابن كثير وابن عامر. راجع المصدر السابق.

منهنَّ، وزيادةُ قُبْحِ المعصيةِ تَتْبَعُ زيادَةَ النِّعمةِ علَى المَعَاصِي من المَعْصِيِّ، ومَتَى ٱزدادَ الفعلُ قُبْحاً ٱزدادَ عقَابُهُ شِدَّةً، ولذلك تكونُ المعَصيةُ من العَالِمِ أقْبحُ، وذَمُّ العُقلاءِ لَه أكثرُ ﴿وَكَانَ ذٰلِكَ عَلَى ٱللهِ يَسِيراً﴾ إيذَانٌ بأنَّ كَونَهُنَّ نساءَ النبيِّ لا يُغْنِي عَنهُنَّ شَيئاً.

وقُرِئَ: ﴿مَنْ يَأْتِ﴾ ﴿وَمَن يقْنُتْ﴾ «وَيَعْمَلْ» بالياءِ والتَّاءِ[١] و ﴿نُـؤتِهَا﴾ بالياءِ[٢] والنُونِ، أي: نُعْطِها ثوابَهَا مِثْلَيْ ثَوابِ غَيرِهَا، كَمَا يكُونُ عَذابُها ضِعْفَ عَذَابِ غَيرِهَا، والقُنُوتُ: الطَّاعةُ.

و «أحَدٌ» في الأَصْلِ: وَحَدٌ، بمعنَى الواحِدِ، ثمّ وضِعَ في النَّفي العَامِّ فَيستَوي فيهِ المُذَكَّرُ والمُؤنَّثُ والوَاحِدُ والجَمْعُ، ومعنىٰ قَولِهِ: ﴿لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّن ٱلنِّسَـاءِ﴾ لَسْتُنَّ كجَمَاعةٍ واحدةٍ من جَمَاعَاتِ النِّساءِ في الفَضْلِ والسَّابقَةِ ﴿إِنِ ٱتَقيْتُنَّ﴾ أَي: إنْ كُنْتُنَّ متَّقيَاتٍ وأَردتُنَّ التَّقوىٰ ﴿فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَولِ﴾ لا تُرقِّقْنَ الكَلَامَ للرِّجالِ مثْل كلامِ المُريباتِ والمُومسَاتِ ﴿فَيَطْمَعَ الَّذِي في قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ أَي: نفاقٌ وفجُورٌ ﴿وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفاً﴾ بعيداً من التُّهمةِ مُستَقيماً بجدٍّ وخشُونةٍ من غيرِ تَخَنُّثٍ، أَو: قَولاً حَسَناً مع كونِهِ خَشِناً.

﴿وَقَرْنَ﴾ قُرِئَ بكسر القَافِ[٣] وفتحِهَا، فالكَسْرةُ من: وَقَرَ يَقِرُ وَقَاراً، أَو مِن: قَرَّ يَقِرُّ قَرَاراً، حُذِفَتِ الراءُ الأُولىٰ من «أَقْرِرْنَ» ونُقِلَتْ كَسرتُهَا إِلَى القَافِ كَمَا يقَالُ: ظِلْنَ في «ظَلِلْنَ»، والفتح أصلُهُ: «أَقْرَرْنَ» حذفَتِ الرَّاءُ ونُقِلَتِ الحَرَكةُ إلى القَافِ

---

(١) قرأ حمزة والكسائي كلّ ذلك بالياء، والباقون كذلك إلّا ﴿تعمل﴾ بالتاء. راجع المصدر نفسه.

(٢) وهي قراءة حمزة والكسائي. راجع نفس المصدر المتقدّم.

(٣) قرأه ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وحمزة والكسائي. راجع المصدر السابق نفسه: ص ٥٢٢.

مثلُ: «ظَلْنَ»، ﴿وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ وهيَ القَديمةُ الَّتي يُقَالُ لَهَا: الجَاهليّةُ الجَهلاءُ، وهي الزَّمنُ الَّذي وُلِدَ فيه إبراهيمُ عليه السلام، كـانَتِ المـرأةُ تَـلْبَسُ الدِّرْعَ من اللُّؤلؤ فَتَمشِي وَسَطَ الطَّريقِ تَعرِضُ نَفْسَهَا عَلى الرِّجالِ، وقيلَ: ما بَينَ آدمَ ونُوح[(١)]، وقيلَ: هِيَ جَاهليَّةُ الكُفْرِ قبل الإسلام[(٢)].

﴿أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ نُصِبَ علَى النِّداءِ أو عـلَى المـدحِ، و ﴿ٱلرِّجْس﴾ مسـتَعارٌ للذُّنُوبِ، و «الطُّهْرُ» للتقوىٰ، لأنَّ عِرضَ المُقْترفِ للقَبيحِ يَتَدَنَّسُ بِهِ كَـمَا يَـتَلَوَّثُ جَسَدُهُ بالأرجَاسِ.

واتَّفقَتِ الأُمَّةُ علىٰ أنَّ المُرادَ أهلُ بيتِ نبيِّنا صلى الله عليه وآله وسلم[(٣)].

---

(١) قاله الحكم والحسن، راجع تفسير الطبري: ج ١٠ ص ٢٩٤، وتـفسير المـاوردي: ج ٤ ص ٤٠٠.

(٢) وهو قول ابن زيد. راجع تفسير الطبري: ج ١٠ ص ٢٩٥.

(٣) الخطاب في قوله تعالىٰ: ﴿عنكُم﴾ بالجمع المذكَّر يدلّ علىٰ أنَّ الآية الشَّريفة مـن قـوله: ﴿إنَّما يُريدُ اللهُ﴾ الخ، في حقّ غير زوجات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وإلّا فَسِياقُ الآيات يقتضي التعبير بخطاب الجمع المؤنَّث، أعني: «عنكنَّ» و «يطهِّركنَّ» فالعدول عنهما إلى الخـطاب بالجمع المذكَّر يشهد بأنَّ المراد من أهل البيت غيرُ الزَّوجات، وهم الخمسة النجباء عليهم السلام، وباقي الائمّة أيضاً مرادُ بإجماع الإماميّة واتّفاقهم. وما يقال: إنَّ التعبير بالجمع المذكَّر إنَّما هو باعتبار «الأهل» كما تفوَّه به بعض النَّواصب فممَّا لا يُعْبأ به، فإنَّ علىٰ ما ادَّعاه أيضاً لابدّ وأن يكون في العدول إلى الخطاب بالجمع المذكَّر سبباً ومرجِّحاً، فإنَّ «الأهل» يـذكَّر ويـؤنَّث لا أنَّه يُذكَّر فقط كما صرَّح به العلَّامة الزَّمخشري في الكشّاف في تفسير آية: ﴿هٰذِه القرية الظالمُ أهلُهَا﴾ في سورة النساء، فبناء علىٰ أنَّ الأهل يؤنَّث أيضاً كان الأَولى التعبير بحسب سياق الآيات، وصدرُ هذه الآية نفسها هو الخطاب بالجمع المؤنَّث، فالعدول ليس إلَّا لمـا ذكرناه.

وأضفُ إلىٰ ذلك أنَّه إن كان المراد من «الأهل» هو «الأهل» فِي قـوله تـعالىٰ: ﴿أَهْـلَ ٱلْبَيْتِ﴾ فهذا لا يصحِّح مراده، لانَّ الأهل تابع ﴿عَنكُم﴾ والتَّابع لا يؤثِّر في المتبوع لا تذكيراً ولا تأنيثاً. وإن كان المراد من «الأهل» هو «الأهل» المنتزع من النساء، فـهذا يـقتضي أن تكون الضمائر السَّابقة أيضاً بالتَّذكير، والحال أنَّ الضَّمائر كلّها بالتَّأنيث، فما وجه العدول ←

وعن أبي سَعيدٍ الخدريِّ عن النبيِّ ﷺ قال: «نَزَلَتْ في خَمْسةٍ: فِيَّ وفي عليٍّ والحَسَنِ وَالْحُسَينِ وفَاطِمَة»[١].

وعن أُمِّ سَلَمَة قَالَتْ: جاءَتْ فَاطمةُ إِلَى النبيِّ ﷺ تَحمِلُ حَريرةً لَهَا، قال: ادْعي زوجَكِ وابنيك، فَجاءَتْ بهم فَطعمُوا، ثمّ أَلْقىٰ عليهم كِسَاءً خَيبريّاً وقال: هؤلاء أهلُ بيتي وعِتْرتي فَأَذْهِبْ عنهم الرِّجس وَطَهِّرهم تطهيراً، فقلتُ: يا رسولالله، وَأَنَا مَعَهُم؟ قالَ: أنتِ على خير[٢].

﴿وَاذْكُرْنَ﴾ ولا تَنْسَيْنَ ﴿مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ﴾ من القُرآنِ الَّذي هو آياتُ اللهِ البيِّناتُ والحِكْمةِ الّتي هي العلُومُ والشَرائعُ، واْعملْنَ بموجبِهِما ﴿إِنَّ ٱللهَ كَانَ لَطِيفاً خَبِيراً﴾ حينَ عَلمَ ما ينفعُكُم ويصلحُكُم في دينِكُم.

﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ

← في ذيل الآية إلى التذكير؟ مع أنّك عرفت أنّ «الأهل» يذكَّر ويؤنَّث.

ثم إنَّا نقولُ: إنّه هل المرادُ من إذهابِ الرِّجس عن أهل البيت هوَ دَفْعُ الرِّجس أو رفعه؟ فإن كان الأوّل فالزَّوجات خارجات عن حُكْمِ الآية، فإنّ أكثرهنّ ـ إن لم يكن كلهنّ ـ كُنّ في الرّجس قبل الإسلام، وإن كان الثّاني فلا محيص من القول بخروج رسول الله ﷺ عن حكم الآية، فإنّهُ لم يكن فيه رجس أصلاً لا قبل البعثة ولا بعدها باتّفاق الأُمّة الإسلامية قاطبة، مع أنّ رسول الله ﷺ داخل في حكم الآية قطعاً بالاتّفاق، فلا يمكن القول بخروج رسولالله ﷺ عن حُكمها. فثبت الأولُ وانتفَى الثّاني وخرجت الزَّوجات عن حُكم الآية قطعاً، وهو المطلوب «ق».

(١) رواه الطبري باسناده في تفسيره: ج ١٠ ص ٢٩٦ ح ٢٨٤٨٧، والماوردي الشافعي في تفسيره: ج ٤ ص ٤٠١ وزاد أنس بن مالك وعائشة وأمّ سلمة.

(٢) أخرجه الترمذي في السنن: ج ٥ ص ٣٥١ ح ٣٢٠٥ باختلاف يسير والطبراني في المعجم الكبير: ج ٣ ص ٤٨ و ج ٩ ص ١١.

وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٣٥) وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا(٣٦) وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا(٣٧)﴾

قيلَ: إنّ أُمِّ سَلَمَة قالَتْ: يا رسول الله، ذكَرَ اللهُ الرِّجالَ في القرآنِ بِخَيرٍ، أَفَما فينَا خَيْرٌ فَنُذْكَرُ بِهِ؟ فَنزلَتِ الآية(١). وقيلَ: إنَّ القَائلةَ أسماءُ بنتُ عميسٍ لمَّا رَجعَتْ من الْحَبَشَةِ مَعَ زَوجِها جعفرَ بن أبي طالب(٢).

المسلمُ: الدَّاخِلُ في السِّلمِ، المنقادُ غير المعاندِ، وقيلَ: المُستَسلِمُ لأوامرِ اللهِ، والمفوِّضُ أمرَهُ إلَى اللهِ(٣). والمُؤمِنُ: المُصَدِّقُ باللهِ وبرسولِه وبمَا يَجبُ أَن يُصَدِّقُ بِهِ، و الْقَانِتُ: القائِمُ بالطاعَةِ الدائِمُ عليهَا، والصَّادِقُ: الَّذي يَصْدُقُ في قَولِهِ وعَمَلِهِ ونيَّتِهِ، والصَّابِرُ: الَّذي يَصبِرُ علَى الطاعةِ وعن المعصيةِ، والْخَاشِعُ: المتَواضِعُ للهِ بقلبِهِ وجوارحِهِ، والمُتَصَدِّقُ: الَّذي يُزَكِّي مالَهُ، والذاكِرُ اللهَ كَثِيراً: مَنْ لا يَخْلُو من ذِكْرِ اللهِ بقلبِهِ أو بلسانه أَو بِهِما.

وعن أبي سَعيدٍ الخُدَريِّ عن النبيِّ ﷺ قالَ: «إذا أَيقَظَ الرَجُلُ أهلَهُ من اللَّيلِ

(١) رواه الطبري في تفسيره: ج ١٠ ص ٣٠٠ باسناده إلى ابن عبّاس ومجاهد عنها.
(٢) حكاه البغوي في تفسيره: ج ٣ ص ٥٢٩.
(٣) قاله الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ٥٣٩.

فَتَوضَّآ وصلَّيا ركعتَينِ كُتِبَا من الذَّاكِرِينَ اللهَ كَثيراً والذَّاكرات»[١].

وعن الصَّادقِ عليه السلام: «مَنْ بَاتَ علىٰ تَسبيحِ فَاطِمَةَ عليها السلام كانَ من الذَّاكرينَ اللهَ كَثيراً والذَّاكرات».

والمَعنىٰ: والحافظاتِهَا والذاكراتِه، فحُذِفَ لأنَّ الظَاهِرَ يَـدُلُّ عـليهِ، وعَـطْفُ الإنَاثِ فيالآيةِ علَى الذُّكُورِ من نَحْوِ قَولِهِ: ﴿ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَاراً﴾[٢] في أنَّهُما جنْسَان مختلفَانِ إذا ٱشتَرَكا في حُكْمٍ فَلَابدَّ من أَن يتوسَّطَ حرفُ العَطْفِ بينَهُما. وأمَّا عَطْفُ الزَّوجَيْنِ على الزَّوجَين فإنَّه من عَطْفِ الصِّفةِ علَى الصِّفةِ بحَرْف الجَـمْعِ، فكـانَ معنَاهُ: إنَّ الجامِعينَ والجَامعَاتِ لهذه الطَّاعَاتِ أعدَّ اللهُ لَهُم مَغفرةً.

خَطَبَ رسول اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم زَينبَ بنتَ جَحْشٍ الأَسَديَّة علىٰ زَيدِ بـن حَـارِثَةَ مَولَاهُ وكانَتْ بنْتَ عمَّتِهِ أُمَيْمَةَ بنتَ عبدالمطّلب، فأَبَتْ وأَبىٰ أخُوها عـبدُ اللهِ بـنُ جَحْشٍ، فنَزَلَ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إذا قَضَى﴾ الآية[٣]، أَي: ومَا صَـحَّ لِرجُلٍ ولا ٱمرأةٍ من أهل الايمانِ إذا قَضَى اللهُ ورسولُهُ أَمْراً من الأُمور أَن يكـونَ لَهم الاختيارُ من أَمرِهِم علَى ٱختيارِ اللهِ لَهُم، بَلْ مِن حَقِّهم أَن يجعلُوا رأْيَهُم تَبَعاً لرأيِهِ، والخيْرةُ ما يُتخيَّر، فلمَّا نَزلَتْ قَالَا: رَضينَا يا رسولَ الله، فَأَنْكَحَهَا زَيداً وسَاقَ عنهُ إليهَا مَهْرَهَا عشرةَ دنانيرَ وستِّينَ درهَـماً وخِـمَاراً ومـلْحَفَةً ودرْعَـاً وإزَاراً وخَمسينَ مُدّاً مِن طَعَامٍ وثلاثينَ صَاعَاً مِن تَمْر.

وقُرِئَ: ﴿يَكُون﴾ بالتَّاءِ والياءِ[٤].

﴿وَإذْ تَقُولُ لِلَّذِى أَنْعَمَ ٱللهُ عَلَيْهِ﴾ بتَوفيقِكَ لِعتْقِهِ وَمَحبَّتِهِ ﴿وَأَنْـعَمْتَ عَـلَيْهِ﴾

---

(١) أخرجه أبو داود في السنن: ج ٢ ص ٣٣ ح ١٣٠٩.

(٢) التحريم: ٥. (٣) انظر تفسير الطبري: ج ١٠ ص ٣٠١.

(٤) قرأ الكوفيون وحدهم بالياء والباقون بالتاء، راجع التبيان: ج ٨ ص ٣٤٣.

بمَا وَفَّقَكَ اللهُ فيه من ٱختصَاصِهِ وتَبنِّيهِ وهو زيدُ بنُ حارثةَ ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ يَعني زَينبَ بنْتَ جحْشٍ، وذلكَ أنَّ رسولَاللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أتىٰ منزلَ زينبَ ذاتَ يوم، فإذا زَينبُ جَالِسَة وَسَط حِجْرتِهَا تَسْحَقُ طِيباً بفِهْرٍ لَهَا، فَدَفَعَ رسولُاللهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ البابَ فَوقَعَ بَصَرَهُ عليهَا فَقالَ: سبحانَ اللهِ خَالقِ النُّورِ، تَباركَ اللهُ أَحسَنَ الخَالِقينَ، وَرَجَعَ، فجاءَ زَيدٌ فأخْبَرتْهُ زينبُ بمَا كانَ، فَقَالَ لَهَا: لعلَّكِ وَقَعْتِ في قَلْبِ رسولِاللهِ، فَهَل لَكِ أَن أُطلّقكِ؟ فقالَتْ: أخشَىٰ أَن تَطلّقني ولا يَتزَوَّجني رسولُاللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ، فجاءَ زَيدٌ وقَالَ: يا رسول الله، أُريدُ أَن أُفارِقَ صاحِبَتي، فَقَالَ: مَالَكَ؟ أَرَابَكَ منها شَيء؟ قَالَ: لا، والله ما رأيتُ منهَا إلّاَ خَيْراً، ولكنَّها تَتعَظَّمُ عَلَيَّ لِشَرفِهَا وتُؤذِيني، فَقَالَ لَهُ: أَمْسِكْ عليكَ زَوْجَكَ ﴿وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ ثمَّ طَلَّقْهَا بعدُ فلمّا اعتدّت قال رسول الله: ما أجدُ أحداً أوثق في نفسي منك، أخطب عليَّ زينب، قَالَ زيدٌ: فانطلقتُ فإذا هي تُخمِّرُ عَجِينَها، فَلَمَّا رأَيتُها عَظُمَتْ فـي نفسي حتَّىٰ ما أَستطيعُ أَن أَنظرَ إليهَا حينَ عَلِمْتُ أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ذكَرهَا،فولَّيتُها ظَهْري وقُلْتُ: يا زينبُ أبشِري، فإنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يخطُبُكِ، فَفرحَتْ بذلكَ، وقَالَتْ: ما أَنَا بصَانِعَةٍ شيئاً حتَّىٰ أؤامِر رَبِّي، فَقَامَتْ إلىٰ مَسجدِهَا، ونَزَلَ القرآنُ ﴿زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ فَتزَوَّجَهَا رسولُاللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَدخَلَ بهَا، وما أَوْلَمَ علَى ٱمرأةٍ من نسائِهِ مَا أَوْلَمَ عليهَا، ذَبَحَ شَاةً وأطعَمَ الناسَ الخُبزَ واللَّحم حتَّىٰ ٱمتدَّ النَهارُ.

وقولُهُ: ﴿وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ يُريدُ: لا تُطَلِّقْها، وهو نَهيُ تَنْزيهٍ لا نَهيُ تَحريم؛ لأنَّ الأَولىٰ أَن لا يُطلِّقَ، وقيلَ: أرادَ اتَّق اللهَ فَلَا تَذمَّها بالنِّسبة إِلَى الأَذَىٰ والكِبْر (١).

وقولُهُ: ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ﴾ قيل: أَخْفَىٰ في نفسهِ أنَّه إنْ طَلَّقَها زيدٌ تَزوَّجَها، وخَشِيَ لائِمَةَ الناسِ أن يقُولُوا: أَمرَه بطَلاقِها

(١) حكاه الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ٥٤١.

ثمَّ تَزَوَّجَها[١] وقيلَ: إنَّ الَّذي أخْفَاهُ هو اللهُ سبحانَهُ أَعْلَمَهُ أنَّها ستكونُ من أَزْواجِهِ وأنَّ زَيْداً سيُطَلِّقُها[٢] فأبدىٰ سبحانَهُ ما أَخْفَاهُ في نفسِهِ بقَولِهِ: ﴿زَوَّجْنَـٰكَهَا﴾، ولَمْ يَرِدْ سبحانَهُ بقولِهِ: ﴿واللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَىٰهُ﴾ خشيةَ التَّقوىٰ؛ لأَنَّهُ صَلَوٰاتُ الله عليه كانَ يتَّقي اللهَ حَقَّ تُقاتِهِ ويَخْشَاهُ فيما يَجبُ أن يَخْشَاهُ فيه. ولكنَّ المُرادَ خِشْيَتُهُ الاستحياءَ، لأنَّ الحَيَاءَ من الشِّيمةِ الكريمةِ، وقَد يستَحي الإِنسانُ ويَـتَحَفَّظُ مـن شيءٍ هو في نفسِهِ مُباحٌ حلالٌ عند اللهِ، لئَلَّا يُطلقُ الجُهَّالُ الَّذين لا يعرفونَ حقائقَ الأُمورِ أَلْسِنَتَهُمْ فيه، أَلَا تَرَى أَنَّهُمْ إذا طَعِمُوا في بيوتِهِ كانُوا يَستأْنسُونَ بالحديثِ ولا يَرِيمُونَ[٣]، فكانَ يؤذيهِ قُعُودُهُم، ويَصُدُّهُ الحَيَاءُ أنَ يأْمرَهُم بالانتشارِ حتّىٰ نَزَلَتْ: ﴿إنَّ ذٰلِكمْ كَانَ يُؤذِي النَّبيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ﴾[٤] فأَخْبَرَ اللهُ سبحانَهُ النَّاسَ بمَا كانَ يُضْمِرُهُ الرَّسولُ صَلَوٰاتُ الله عليه وآله وعَاتَبَهُ عليهِ، وكَأنَّه سبحانَهُ أرادَ منهُ أَن يقولَ لزيدٍ: أَنت أَعلمُ بشأنِكَ، أَو يَصمت عند قَولِهِ: أُريدُ مفَارقَتَها ليكونَ ظاهِرُهُ مُطابِقاً لباطِنِهِ.

كما جَاءَ في حَديثِ إرادةِ رسول اللهِ ﷺ قَتْلَ عبداللهِ بنِ سعدِ بن أبي سرحٍ وقد كانَ أَهْدَرَ دمَهُ قبلَ ذلكَ، واعترضَ عثمانُ له بالشَفَاعةِ: أنَّ عبَّادَ بنَ بشيرٍ قالَ لَهُ: يا رسول الله، كانَ عيني إلىٰ عينِكَ انتظار أن تُومئَ إليَّ فأَقْتُلَهُ، فقالَ عليه السلام: «إنَّ الأنبياءَ لا تكونُ لَهُم خائنةُ الأعينِ» فَلَمْ يَستجز الإشارةَ بقَتْلِ كافِرٍ وإنْ كانَ مباحاً.

والواو فِي ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ﴾، ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ﴾، ﴿وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن

(١) المصدر السابق.
(٢) قاله الحسن كما في تفسير الماوردي: ج ٤ ص ٤٠٦.
(٣) رَامَ يَريمُهُ رَيْماً للمكانِ: أي بَرِحَهُ. (الصحاح مادة ريم).
(٤) الآية: ٥٣.

تَخْشَـٰهُ﴾: واوُ الحَالِ، أي: تقُولَ لزيدٍ: أَمْسِكْ عليكَ زوجَكَ مُخْفِياً في نفسكِ إرادةَ أن لا يُمسِكَهَا، وتُخْفِي خَاشِئاً مقالَةَ الناسِ، وتَخشَى الناسَ حَقِيقاً فـي ذلكَ بـأَن تَخْشَى اللهَ. أو: واو العَطْفِ كأنَّهُ قيلَ: وإذْ تَجمَعُ بين قولِكِ: «أَمْسِكْ» وإخفاءِ خلافِهِ وخشيةِ النَّاس.

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا﴾ أي: فَلَمَّا لَمْ يبقَ لزيدٍ فيها حَاجَةٌ وطابَ عنها نـفسَهُ وطَـلَّقَها وانـقَضَتْ عـدَّتُها ﴿زَوَّجْنَـٰكَهَا﴾، وقـراءةُ أهـلِ البـيتِ عليهم السلام «زَوَّجْتُكَهَا»، وعن الصَّادقِ عليه السلام: «ما قَرأتُها علىٰ أبي إلَّا كَذلكَ، إلىٰ أن قَالَ: وما قَرأَ عليٌّ على النبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم إلَّا كَذلكَ»[١].

ثمَّ بَيَّنَ سبحانَهُ الغَرَضَ والمصلحةَ العامَّةَ في تزويجِهِ إيَّاهَا بقولِهِ: ﴿لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ﴾ أي: ضِيقٌ وإثـمٌ ﴿فِىٓ﴾ أن يـتَزَوَّجُوا ﴿أَزْوَاجِ أَدْعِيَآئِهِمْ﴾ وهم الَّذين تبَنَّوْهُم ﴿إِذَا قَضَوْا۟﴾ من نسائِهِمْ ﴿وَطَرًا﴾ أي: بَلَغُوا مِنهنَّ حاجَتَهُم وفارَقُوهنَّ، فَلَا يَجرونَهُم في تَحريمِ النِّساءِ[٢] مجرَى الابنِ من النَّسَبِ والرِّضَاعِ ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ جُملةٌ اعتراضيةٌ، أي: كانَ أمرُ اللهِ الّذي يريدُ أَن يكوِّنَهُ مكوَّناً لا مَحالَةَ.

ورُويَ أنَّ زينبَ كانَتْ تقُولُ للنبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم: إنِّي لأُدِلُّ عليكَ بثلاثٍ ليسَ مـن نسـائِكَ امـرأةٌ تـدلُّ بـهنَّ: جـدِّي وجـدُّك واحـدٌ، وزوَّجـنيكَ اللهُ، والسَّـفِيرُ جبرائيلُ عليه السلام[٣].

﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ

(١) أُنظر مختصر شواذّ القرآن لابن خالويه: ص ١٢٠، والكشّاف: ج ٣ ص ٥٤٣.
(٢) في نسخة: «نسائِهم».
(٣) رواه الطبري في تفسيره: ج ١٠ ص ٣٠٣ ح ٢٨٥٢٦ بإسناده عن الشعبي.

خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا(٣٨) ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَـٰلَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا(٣٩) مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّنْ رِجَالِكُمْ وَلَـٰكِنْ رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا(٤٠)﴾

﴿فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ﴾ أي: قَسَمَ اللهُ وَأَوْجَبَ من التزوُّجِ بامرأةِ المتبنَّىٰ، لِيُبْطِلَ حُكْمَ الجَاهليةِ في الأَدعياءِ، ومنهُ فَرَض لفُلانٍ في الدِّيوان كَذَا ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾ اسمٌ وُضِعَ موضع المصدرِ المؤكِّدِ لقَولِهِ تعالىٰ: ﴿مَا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ﴾ كَأَنَّهُ قيلَ: سَنَّ اللهُ ذلكَ سنَّةً في الَّذين خَلَوْا من الأنبياءِ الماضِينَ، وهو أَن لا يحرِّجَ عليهِم فيمَا أَبَاحَ لَهُم الإِقدامَ عليهِ من النِّكاحِ وغيرِهِ، وقَد كانَ لداودَ مـائةُ امـرأةٍ وثَـلاثمائةُ سَرِيَّةٍ، ولسليمانَ ثَلاثمائةُ امرأةٍ وسَبعمائةُ سَريَّة.

﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ﴾ يحتملُ الوجُوهَ الثلاثةَ من الإِعْرابِ: الجرُّ عـلَى الوصـفِ للأنبياء، والرَّفعُ والنصبُ على المدح، أي: هُم الَّـذين يـبلِّغون، أو: أعـني الَّـذين يبلِّغونَ. وقُرئَ: «رِسَالةَ الله»[(١)].

﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ المُنْزَلُ علىٰ أَنبيائِهِ ﴿قَدَراً مَّقدُوراً﴾ حُكْماً مبتُوتاً وقَضَاءً مَقْضِيّاً[(٢)].

﴿وَلا يَخْشَونَ أَحَداً إِلَّا ٱللَّهَ﴾ فيمَا يتعلَّقُ بالتَّبليغ والأداءِ[(٣)].

﴿وَكَفَىٰ بِـاللَّهِ حَسِـيباً﴾ كَـافِياً لـلمخَاوفِ، وقـيلَ: حَـافِظاً لأَعْـمالِ خَـلْقِهِ

(١) وهي قراءة أُبيّ بن كعب. أُنظر مختصر شواذ القرآن لابن خالويه: ص ١٢٠.
(٢) كذا وجدنا هذه العبارة المتعلّقة بالآية: ٣٨ المتقدّمة محشوّة بين العبائر المتعلّقة بـتفسير الآية: ٣٩ بلا مناسبة في جميع النسخ، الّا نسخة قد اشرنا إليها في الهامش: التالي.
(٣) في نسخة العبارة هكذا: «أعني: الذين يبلِّغون رسالة الله فيما يتعلّق بالتبليغ والأداء».

مُحَاسِباً مُجازِياً عَلَيها[١].

﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِن رِّجَالِكُمْ﴾ أي: لَمْ يكُنْ أَبا رَجُلٍ منكُم علَى الحقيقةِ حتَّىٰ يَثْبُتَ بينَهُ وبينَه ما يَثْبُتُ بين الأَبِ وَوَلَدِهِ من حُرمَةِ الصِّهْرِ والنِّكاحِ ﴿وَلَـٰكِن﴾ كَانَ ﴿رَّسُولَ ٱللَّهِ﴾ وكلُّ رسُولٍ أبو أُمَّتِهِ فيمَا يَرجعُ إلىٰ وجُوبِ التَّوقيرِ والتَّعظيمِ لَه عليهم، لا في سَائِرِ الأحكامِ الثَّابتةِ بين الآباء والأبناءِ، وَزَيدٌ واحدٌ من رجالِكُم الَّذين لَيسُوا بأولادِهِ حَقيقةً، وكَانَ حُكمُهُ حُكمَهُم ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ آخِرهُم، خُتِمَتِ النُّبُوَّةُ بِهِ، فَشَريعَتُهُ باقِيَةٌ إلىٰ آخرَ الدَّهر. وكَانَ صَلَواتُ اللهِ عليهِ أباً لِلْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ لقَولِهِ: «ابْنايَ هذانِ إمَامَانِ قَامَا أَوْ قَعَدَا»[٢] وهُمَا مِنْ رجالِهِ لا مِنْ رجَالِهِم. وقُرِئَ: ﴿خَاتِمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ بفتحِ التَّاءِ[٣] بمعنَى الطَّابع.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا(٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٤٢) هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا(٤٣) تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَـٰمٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا(٤٤) يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا(٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا(٤٦) وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا(٤٧) وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا(٤٨)﴾

﴿ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ﴾ أَثنُوا عليهِ بضُروبِ الثَّناءِ من التَحميدِ والتَهليلِ والتمجيدِ

---

(١) وهو قول البغوي في تفسيره: ج ٣ ص ٥٣٣.

(٢) أنظر المناقب لآل أبي طالب لابن شهر آشوب: ج ٣ ص ٣٩٤.

(٣) أشرنا سابقاً بأنّ المصنّف رحمهالله قد اعتمد في تفسيره هذا علىٰ نسخة مصحفٍ لغير قراءة حفص عن عاصم تبعاً للزمخشري. وفتح التاء هي قراءة عاصم وحده، والباقون بالكسر. أنظر التبيان: ج ٨ ص ٣٤٣.

والتَسبيحِ والتَكبيرِ، وَأَكْثِرُوا ذلكَ.

وعن الصَّادقِ عليه السلام: «مَن سَبَّحَ تَسبيحَ فاطمةَ عليها السلام فَقَدَ ذَكَرَ اللهَ ذِكْراً كَثيراً»(١).

وعنهُم عليهم السلام: «مَنْ قَالَ: سُبْحَانَ اللهِ والحَمْدُ للهِ وَلا إِلَهَ إلّاالله واللهُ أكبرُ ثلاثينَ مرَّةً فَقَدَ ذَكَرَ اللهَ ذِكْراً كَثيراً»(٢).

﴿وَسبِّحُوهُ﴾ التَّسْبيحُ من جُملَةِ الذِّكْرِ، واَختَصَّهُ من بين أنواعِهِ اختصاصَ جبرئيلَ وميكائيلَ من بين الملائكةِ، ليُبيِّنَ فضلَهُ علىٰ سائِرِ الأذْكارِ، لأنَّ معنَاهُ: تَنزيهُ ذَاتِهِ عَمَّا لا يجوزُ عليهِ من الصِّفاتِ والأَفعالِ، ويجوزُ أَن يُريدَ بالذِّكْرِ وإكثارِهِ تَكْثِيرَ الطَّاعاتِ، فإنَّ كلَّ طاعَةٍ من جُملةِ الذِّكْر. ثمَّ خَصَّ من ذلكَ التَّسبيحَ ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ وهو الصَّلاةُ في جَميعِ أوقاتِها؛ لِفَضْلِ الصَّلاةِ علىٰ غيرِهَا، أو: صَلاةُ الفَجْرِ والعِشَاءَينِ لأنَّ أداءَهَا أَشَقُّ، وَمُراعَاتَها أَشَدُّ.

ولمَّا كانَ من شَأْنِ المُصَلِّي أَن ينعطفَ وَينْحَنيَ في ركُوعِهِ وسجُودِهِ استُعِيرَ لِمَن اَنعطَفَ علىٰ غيرِهِ حُنُوّاً عليهِ، واستُعمِلَ في الرَّحمةِ والتَرؤُّفِ، وَمِنْهُ قولهم: «صلّى الله عليه وآله وسلّم» أَي: تَرحَّمْ عليهِ وتَرَأَّفْ. وأمَّا صَلاةُ الملائكةِ فهي قَولِهِم: «اللَّهمَّ صَلِّ علَى المؤمنينَ» جُعِلُوا لكَونِهم مستَجابِي الدَّعوةِ كَأَنَّهم فَاعِلُون الرَّحمةَ والرَّأفة. ونَظيرُهُ قَولُهُم: «حَيَّاكَ اللهُ» أي: أَحْيَاكَ وأَبْقَاكَ، و «حيَّيتهُ» أي: دعوتُ لَهُ بأن يُحْيِيَهُ اللهُ ويُبْقيَهُ، لأنَّه لاتِّكالِهِ علىٰ إجابةِ دعوتِهِ كَأنَّه يُبْقيهِ علَى الحقيقةِ، وعليهِ قَولُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ﴾(٣) أَي: ادعُوا اللهَ بأَن يُصَلِّي عليهِ. والمعنىٰ: هو الَّذي يَترَحَّمُ عليكُم ويَتَرأَّفُ حَيثُ يأْمُركُم بإكثارِ الخَيْرِ والتوفُّرِ على الطَّاعةِ ليُخْرِجَكُم من ظُلُماتِ

(١) الكافي: ج ٢ ص ٥٠٠ ح ٤.
(٢) قرب الإسناد: ص ٧٩.
(٣) الآية: ٥٦.

المعصيةِ إلىٰ نُورِ الطَّاعَةِ، وفي قَولِهِ: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً﴾ دَلَالَةٌ علىٰ أنّ المُرادَ بالصَّلاةِ الرَّحمةُ.

﴿تَحِيَّتُهُمْ﴾ هو من بابِ إضَافةِ المصدر إلىٰ المفعولِ، أَي: يُحَيَّونَ يومَ لقائِهِ: بـ﴿سَلَـٰمٌ﴾، وعن البراءِ بنِ عَازِبٍ: لا يَقبضُ مَلَكُ الموتِ روحَ مُؤمنٍ إلَّا سَلَّمَ عليهِ[1]. وقيلَ: هو سَلَامُ الملائكةِ عند الخروجِ من القُبُورِ[2]، وقيلَ: عند دخُولِ الجَنَّةِ[3]، كَمَا قالَ: ﴿وَٱلْمَلَـٰئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾[4]، والأجْرُ الْكَرِيمُ: الجَنَّةُ.

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِداً﴾ علىٰ أُمَّتِكَ فيمَا يفعَلُونَهُ، مقْبُولاً قولُكَ عند اللهِ لَهُم وعليهِم كَمَا يُقْبَلُ قَولُ الشَّاهِدِ العَدْلِ، وهو حالٌ مقدَّرةٌ كَمَسْأَلةِ الكتابِ: مَرَرْتُ بِرَجُلٍ مَعَهُ صَقْرٌ صَائِداً به غَداً، أَي: مقدِّراً به الصَّيدَ غَداً ﴿بِإِذْنِهِ﴾ مستَعارٌ للتَّسهيلِ والتَّيسيرِ، وفيهِ إيذَانٌ بأنَّ دعاءَ أهلِ الشِّركِ إلَى التَّوحيدِ والشَرائعِ أَمْرٌ صَعْبٌ لا يَتَسَهَّلُ إلَّا بتيسيرِ اللهِ ﴿وسِرَاجاً مُّنِيراً﴾ يُهتَدَىٰ بكَ في الدينِ كما يُهتَدَىٰ بالسِّراجِ في ظَلامِ الليلِ، أو: يمدُّ بنورِ نبوَّتِكَ نُورُ البَصَائرِ كما يُمَدُّ بنورِ السِّراجِ نورُ الأَبصارِ.

والْفَضْلُ الْكَبِيرُ: الزِّيادةُ علىٰ ما يستحقُّونَهُ من الثوابِ، ويجوزُ أن يكونَ المرادُ أنَّ لَهُم فَضْلاً كَبيراً علىٰ سَائِرِ الأُمَمِ.

﴿وَلا تُطِعِ الْكَـٰفِرِينَ﴾ معناهُ: الدَّوامُ علىٰ ما كان عليهِ أو التَّهيّج. ﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ﴾ أَي: وَدَعْ أَن تُؤذِيهم بِضَرَرٍ أو قَتْلٍ وخُذْ بظَاهِرِهِم، وحسَابُهُم علَى اللهِ،

---

(١) حكاه عنه النحاس في إعراب القرآن: ج ٣ ص ٣١٩.
(٢) حكاه الزمخشري في الكشاف: ج ٣ ص ٥٤٦.
(٣) قاله الكلبي. راجع تفسير السمرقندي: ج ٣ ص ٥٤.
(٤) الرعد: ٢٣ و ٢٤.

ويكونُ المَصدرُ مضَافاً إلى المفعولَ. قيلَ: وذلكَ قبلَ أن يُؤمرَ بالقتالِ[١]، وقيلَ: معناهُ: وَدَعْ ما يؤذُونَكَ بهِ، فيكونُ مضَافاً إلى الفاعلِ[٢]، ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ فإنَّهُ يَكْفيكَهُمُ ﴿وَكَفَىٰ بالله وَكِيلاً﴾ كَافِياً مُفوَّضاً إليه.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا(٤٩) يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّـٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّـٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَـٰلَـٰتِكَ ٱلَّـٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا(٥٠)﴾

﴿تَعْتَدُّونَهَا﴾ تستوفُونَ عَددَهَا من قَولِكَ: عَددْتُ الدَّراهمَ فاعتَدَّهَا، وكِلْتُ الشَّيء فاكتَالَهُ. وفيه دليلٌ علىٰ أنَّ العدَّةَ حقٌّ واجبٌ للرِّجالِ على النِّساء ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾ إذا لَمْ تَفْترضُوا لَهنَّ صَداقاً ﴿وَسَرِّحُوهُنَّ سَراحاً جَمِيلًا﴾ من غير ضِرَارٍ ولا مَنْعِ واجب.

﴿أُجُورهُنَّ﴾ أَي: مُهُورهُنَّ، لأنَّ الْمَهْرَ أجرٌ علَى البُضْع، وإيتاؤُها: إعْطَاؤُها عاجِلًا وفَرضُها وتَسميتُها في العَقْد. وقد اختارَ اللهُ عزَّوجلَّ لرسولِهِ الأفضلَ والأَوْلىٰ وهو تَسميةُ المَهْرِ في العَقْدِ وسَوقُ الْمَهْر إليهَا عَاجِلاً، فَإنَّه أَفضَلُ من أَن يُسمِّيهِ ويُؤجِّلَهُ، ولذلكَ كَانَ التَّعجيلَ ديدنُهُم وسنَّتُهُم. وكذلكَ الجَاريةُ إذا كَانَتْ

(١) وهو قول الكلبي كما في تفسير الماوردي: ج ٤ ص ٤١١.

(٢) قاله الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ٥٤٧.

سَبيَّةَ مالِكِها وممَّا غَنَّمَهُ اللهُ من دارِ الحربِ كانَتْ أَحَلَّ وأَطْيبَ ممَّا يُشترىٰ، وذلكَ قولُهُ: ﴿مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ﴾، وكذلكَ النِّساءُ ﴿ٱلَّـٰتِى هَاجَرْنَ﴾ مَعَ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم من قَرابتِهِ غيرِ المَحَارمِ أَفضَلُ من غيرِ المهَاجِراتِ مَعَهُ، وأَحْلَلْنا لكَ ﴿ٱمْرَأَةً﴾ مُصَدِّقَةً بتوحيدِ اللهِ ﴿إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا﴾ لكَ بغيرِ صداقٍ إنْ آثَرَ النبيُّ نِكَاحَها ورَغِبَ فيهَا ﴿خَالِصَةً لَكَ﴾ أي: خاصَّةً لكَ ﴿مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: لا يَحِلُّ لغيرِكَ وهو لَكَ حَلالٌ.

شَرَطَ سبحانَهُ في الإحلالِ هِبَتَهَا نفْسَها، وفي الهِبَةِ إرادةُ ٱستنكاحِ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم، وهو أَن يطلُبَ نكَاحَهَا ويرغَبُ فيه، فكأنَّه قال: أَحللناها لكَ إنْ وَهَبَتْ لكَ نَفْسَهَا وأنتَ تُرِيدُ أَن تَستَنْكِحَهَا، لأنَّ إرادتَه هي قبولُ الهبَةِ، وَعَدَلَ عن الخطابِ إلَى الغيبةِ للإيذانِ بأنَّه ممَّا خُصَّ بِهِ، ومَجِيئُهُ علىٰ لفْظِ «النبيِّ» للدلالةِ علىٰ أنَّ هذا الاختِصَاصَ تَكرمةٌ لَهُ لأجلِ النبوَّةِ، وتَكريرُهُ تَقْريرٌ لاستِحْقاقِهِ الكَرامَةَ لِنُبوَّتِهِ.

﴿خَالِصَةً﴾ مَصدَرٌ مؤكِّدٌ، مثل: وَعْدُ اللهِ، وَصِبْغَةُ اللهِ، أَي: خَلُصَ لكَ إِحْلالُ ما أَحللْناكَ خَالِصةً، بمعنىٰ خُلُوصاً ﴿قَدْ عَلِمْنَا﴾ ما فَرَضْنا على المؤمنينَ في أَزْواجِهِم وإمَائِهِم وعلىٰ أيِّ حدٍّ وصِفَةٍ يجبُ أن يُفرَضَ عليهِم، وآثَرْنَاكَ بالاختصاص بِمَا خَصَّصْنَاكَ بِهِ ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾ أَي: ضِيقٌ في دينِكَ ودُنْياكَ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُوراً﴾ لذُنوبِ عبادِهِ ﴿رَحِيماً﴾ بالتَّوسِعَةِ عليهِم.

﴿تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا(٥١) لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ

حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا(٥٢) يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِۦ مِنكُمْ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَـٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِن بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا(٥٣) إِن تُبْدُواْ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا(٥٤)﴾

﴿تُرْجِى﴾ بهَمْزٍ وغَيرِ هَمْزٍ. تُؤَخِّر ﴿وَتُئْوِىٓ﴾ تَضُمُّ، يعني: تَتْرُك مضاجَعَةَ مَنْ تَشاءُ مِنهنَّ وتُضَاجِعُ مَن تَشَاءُ، أو تُطَلِّقُ مَن تَشَاءَ وتُمْسِكُ مَنْ تَشَاء، أَو: لا تَقْسِمُ لأَيَّتِهِنَّ شئْتَ، وتَقْسِمُ لِمَنْ شئْتَ، وكانَ عليه السلام يَقْسِمُ بين أزْواجِهِ فأُبيحَ له تَرْكُ ذلكَ، أَو: تَتْرُكُ تزوّجَ مَنْ شِئْتَ من نساءِ أُمَّتِكَ، وَتَتَزَوَّجُ مَن شئْتَ، وكانَ عليه السلام إذا خَطَبَ ٱمرأةً لَمْ يكنْ لغيرِهِ أن يَخْطِبَهَا حتَّىٰ يَدَعَهَا، وَرُوِيَ أَنَّ عائشةَ قالَتْ: إنِّي أرىٰ ربّك يُسَارِعُ في هَوَاكَ![1].

﴿وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ﴾ أَنْ تَضُمَّهَا إليكَ ﴿مِمَّنْ﴾ عَزَلْتَهُنَّ ﴿فَلا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ في ٱبتغائِهَا ﴿ذَٰلِكَ﴾ التَّفويضِ إِلَى ٱختيارِكَ ومَشيئَتِكَ ﴿أَدْنَىٰٓ﴾ إلىٰ قُرَّةِ عيونهنَّ وَقلَّةِ حزْنهنَّ ورضَائِهِنَّ جميعاً، لأنّه إذا سوَّىٰ بينَهنَّ في الإِيواءِ والإِرْجَاءِ والعَزْلِ والابتغاءِ، ولَمْ يكنْ لإِحدَاهُنَّ ممَّا تُريد وممَّا لا تُريد إلَّا مِثْل ما للأُخرىٰ، وعَلِمْنَ أنَّ هذا التَّفْويضَ من عندِ اللهِ سَكَنَتْ نُفُوسُهُنَّ، وَذَهَبَ التَّنافُسُ، وَحَصَلَ التَّراضي

---

(١) رواه الحاكم في مستدركه: ج٢ ص ٤١٩، والبغوي الشافعي في تفسيره: ج ٣ ص ٥٣٨، والزمخشري في الكشاف: ج ٣ ص ٥٥١.

﴿كُلُّهُنَّ﴾ تأكيدٌ لنون ﴿يَرْضَيْنَ﴾، ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾ فيهِ وَعيدٌ لِمَنْ لَمْ يَرْضَ منهُنَّ بما فَوَّضَ اللهُ إلىٰ مشيئةِ رسُولِهِ، وَبَعْثٌ علىٰ طَلَبِ رضاهُ عليه السلام ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيماً﴾ بمصَالحِ عبادِهِ ﴿حَلِيماً﴾ لا يُعَاجِلُهُم بالعقُوبة.

وقُرِئَ: ﴿لَا يَحِلُّ﴾ بالتَّاءِ[1] والياءِ، أي: لا تَحِلُّ لكَ ﴿ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ﴾ النِّساءِ اللَّواتي أَحلَلْناهنَّ لكَ من الأَجْناس: من اللَّواتي أَعطَيْتَ مُهُورَهُنَّ، ومن المهاجِراتِ من القَرائبِ، ومن الإماءِ المَسْبيَّةِ[2]، وَمَن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لَهُ بجميعِ مَا شَاءَ من العدَدِ، ﴿وَلَآ أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ﴾ أَي: بِالمُسلمَاتِ الكتابيِّات، لأَنَّه لا يَنْبغي أَن يَكُنَّ أُمَّهاتِ المسلمينَ ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ مِنَ الكتابيَّاتِ، وقيل: إنَّ التَّبدُّلَ المُحَرَّمَ هو ما كَانَ يُفْعَلُ في الجاهليةِ، يقولُ الرَّجلُ للرَّجل: بادلْني بامرأتِكَ أُبادِلْكَ بامرأتي، فَيَنزِلُ كلُّ واحِدٍ منهمَا عن ٱمرأتِهِ لصاحبِهِ[3].

ويُحكىٰ أَنَّ عُيَيْنَةَ بن حُصَيْنٍ دَخَلَ علَى النبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم وعندَهُ عائشةُ من غيرِ ٱستئذَان، فَقَالَ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «يا عُيَيْنَةُ، أَين الاستئذَانُ»؟ قال: يا رَسولَ الله، ما ٱستأْذَنْتُ علىٰ رَجُلٍ قطُّ منذُ أَدركْتُ، ثمَّ قَالَ: مَنْ هـذه الجـميلة إلىٰ جَنْبِك؟ فَقَالَ عليه السلام: «هذه عائشةُ بنتُ أبي بكرٍ»، قالَ عُيَيْنَةُ: أَفَلا أَنْزِلُ لَكَ عن أحسنِ الخَلْقِ؟ قال عليه السلام: «قَدْ حُرِّمَ ذلك»، فَلَمَّا خَرَجَ قَالَتْ عائشةُ: مَن هذا يا رسولَ الله؟ فَقَالَ: «أحمَقُ مُطاعٍ، وإنَّهُ علىٰ ما تَرينَ لَسيِّدُ قَومِهِ»[4].

وقيلَ: معناهُ: لا يَحِلُّ لكَ النِّساءُ من بعدِ نسائِكَ اللَّاتي خيَّرتَهُنَّ فاختَرْنَ اللهَ ورسولَه وهُنَّ التِّسْعُ، ولا أن تَستَبدِلَ بهُنَّ أزواجاً أُخر[5] ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ واستَثْنىٰ ممَّن حَرَّمَ عليهِ الإماءَ.

---

(١) قرأه أبو عمرو وحده. راجع التبيان: ج ٨ ص ٣٥٤.

(٢) في نسخة: «المستترات».

(٣) قاله ابن زيد. راجع التبيان: ج ٨ ص ٣٥٦.

(٤) أخرجه الدار قطني في السنن: ج ٣ ص ٢١٨.

(٥) وهو قول ابن عباس وقتادة. راجع تفسير الطبري: ج ١٠ ص ٣١٦.

﴿أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ في معنَى الظَّرف، تَقديرُهُ: إلَّا وَقتَ أَن يُؤذَنَ لكُم ﴿غَيْرَ نَـٰظِرِينَ﴾ حَالٌ من ﴿لَا تَدْخُلُوا۟﴾ وَقَعَ الاستثناءُ علَى الوقتِ والحَالِ مَعاً، كأنَّهُ قال: لا تَدخلُوا بيوتَ النَّبيِّ إلَّا وَقْتَ الإذْنِ، ولا تَدخلُوها إلَّا غَير ناظرينَ. وهؤلاء قومٌ كانُوا يتحيَّنُونَ أي: يتعرَّضُونَ طعامَ رسولِ اللهِ فيدخلُونَ ويقعدُونَ منتظرينَ لإدراكِهِ، والمعنىٰ: لا تَدخلُوا يا هؤلاء المتَحيِّنونَ للطَّعام إلَّا أَن يُؤْذَنَ لكُم إلىٰ طعام. وإلَّا فَلَو لَم يكنْ لهؤلاء خِصُوصاً لَمَا جازَ لأَحدٍ أَن يدخُلَ بيوتَ النبيِّ ﷺ إلَّا أَن يؤذَنَ له إِذْناً خاصّاً إلىٰ طعامٍ فَحَسْب. و ﴿إِنَـٰهُ﴾ إِدْراكُهُ ونُضْجُهُ، يقالُ: أَنَى الطَّعامُ إنىً، وقيلَ: إناهُ: وَقْتُهُ[1]، أي: غَير ناظرينَ وقْتَ الطَّعام وسَاعَةَ أكْلِه.

ورُوي: أنَّ رسولَ الله ﷺ أَوْلَمَ علىٰ زينبَ بتَمرٍ وسُوَيْقٍ وذَبَحَ شَاةً فَأمَرَ أَنَساً أن يدعوَ أَصحابَهُ، فترادفُوا أَفْواجاً، يأكلُ فَوجٌ فيخرجُ، ثمَّ يدخلُ فوجٌ، إلىٰ أن قَالَ: يا نبيَّ الله قد دعوتَ حتَّىٰ ما أَجدُ أَحداً أدعُوهُ، فقالَ: ارفعُوا طَعَامَكُم وتَفرَّقَ النَّاسُ وبَقِيَ ثَلاثةُ نفرٍ يتحدَّثُونَ فأَطَالُوا، فَقَامَ رسول الله ﷺ ليخرجُوا، فَطَافَ بالحُجراتِ ورَجَعَ فإذا الثلاثةُ جلُوسٌ مكانهم، وكان صلوات الله عليه شَديدُ الحَيَاءِ فَتولَّىٰ، فَلَمَّا رَأَوْه متولِّياً خَرَجُوا، فَرجعَ ونَزَلَتِ الآية[2].

﴿مُسْتَأْنِسِينَ﴾ مَجرورُ عَطفٍ علىٰ: ﴿نَـٰظِرِينَ﴾، أو منصُوبٌ علىٰ: ولا تدخلُوها ﴿مُسْتَأْنِسِينَ﴾ أي: يَستأْنسُ بعضُكُم ببعضٍ لأجلِ حَديثٍ يحدِّثُهُ به، أو: مستأنسِينَ حديثَ أهلِ البيتِ، وٱستئناسُهُ: تَسمُّعُهُ وتَوجُّسُهُ. ولا بدَّ في قوله: ﴿فَيَسْتَحْيِۦ مِنكُمْ﴾ من تقديرِ مُضَافٍ، أي: مِن إخْراجِكُم، بدليلِ قولِهِ: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ ومعناهُ: أنَّ إخراجَكُم حقٌّ ما ينبغي أَن يَستحيي منهُ،

(١) حكاه الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ٥٥٤.

(٢) رواه الطبري في تفسيره: ج ١٠ ص ٣٢٣ باسناده عن أنس بن مالك.

ولمّا كانَ الحياءُ ممّا يمنَعُ الْحَيِيَّ من بعضِ الأفعالِ قيلَ: واللهُ لا يَستَحيي من الحقِّ، بمعنىٰ: لا يَمتَنِعُ منه ولا يَترُكُهُ تَرْكَ الحيِيِّ منكُم، وهذا أدبٌ أَدَّبَ اللهُ به الثُّقَلاءَ.

وعن عائشة قالَتْ: حسبُك في الثُّقلاءِ أنَّ الله تَعالىٰ لَم يَحتَمِلْهُم وقالَ: ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا﴾ (١).

والضَميرُ في ﴿سَأَلْتُمُوهُنَّ﴾ لنساءِ النبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم، ولَم يُذكَرْن لأنَّ الحالَ يَنْطِقُ بِذْكرِهِنَّ ﴿فَاسْأَلُوهُنَّ﴾ المتاعَ.

وقيل: إنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله وسلم كانَ يطعمُ ومعه بعض أصحابهِ فأَصابَتْ يدُ رجلٍ منهم يدَ عائشة، فكَرِهَ النبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم ذلك، فَنزلَتْ آيةُ الحجاب (٢).

ورُويَ أنَّ بعضَهُم قَالَ: أَنُنْهىٰ أَن نكلِّمَ بنَاتَ عمِّنا إلّا من وَرَاءِ الحجابِ؟! لَئِنْ ماتَ محمَّدٌ، لأَتَزَوَّجَنَّ عائشة (٣) وعن مقَاتلٍ: هو طَلْحةُ بنُ عبيدِ اللهِ فَنزَلَتْ: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ (٤)؛ أي: وما صَحَّ لكُم إيذاءُ رسولِ اللهِ ولا نِكاحُ ﴿أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ وسمِّيَ نكَاحُ أَزْواجِهِ بعدِهِ ﴿عَظِيماً﴾ تعظيماً لرسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم، وإيْجاباً لِحُرْمَتِهِ حيّاً وميّتاً عليه أفضل الصَّلاة والسَّلام.

﴿إِنْ تُبْدُواْ شَيْئاً﴾ من نِكاحِهِنَّ علىٰ أَلسنتِكُم ﴿أَو تُخْفُوه﴾ في صدورِكُم فإنَّ اللهَ يعلَمُ ذلكَ.

﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا (٥٥) إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى

(١) أورده الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ٥٥٥.
(٢) قاله مجاهد. راجع تفسير الطبري: ج ١٠ ص ٣٢٥.
(٣) رواه القرطبي في تفسيره: ج ١٤ ص ٢٢٨ باسناده عن قتادة.
(٤) أنظر تفسير البغوي: ج ٣ ص ٥٤١.

ٱلنَّبِيِّ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا(٥٦) إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا(٥٧) وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحْتَمَلُواْ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا(٥٨)﴾

لَمَّا نَزَلَتْ آيةُ الحجَابِ قَالَ الآباءُ والأبناءُ والأقاربُ لرسولِ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم: أَوَ نَحْنُ أيضاً نكلِّمُهُنَّ من وراءِ حجَابٍ؟ فَنَزَلَت[1].

أيْ: لا إثمَ عليهِنَّ في أَن لا يَحتَجِبْنَ عن هؤلاءِ، ولَمْ يَذْكُرِ العَمَّ والخَالَ لأَنَّهُما يَجْريانِ مَجْرَى الوالدَيْنِ، وقد سَمَّى اللهُ العَمَّ أباً في قولِهِ: ﴿وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ﴾[2] وإسماعيلُ عمُّ يعقوب، وقيلَ: كُرِهَ تَرْكُ الاحتجابِ عنهُما لأنَّهما يَصِفَانِهِنَّ لأبنائِهما وأبناؤُهُما غيرُ مَحارم[3] ﴿وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ﴾ في نَقْلِ الكَلَامِ من الغيبةِ إلى الخطابِ دَلَالةٌ علىٰ فَضْلِ تشديدٍ فيما أُمِرْنَ به من الاحتجابِ والاستتارِ، أَي: وٱسلكْنَ طريقَ التَّقوىٰ فيما أُمِرْتُنَّ بِهِ وٱحتطنَّ فيهِ، وَكَانَ ٱللَّهُ ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ من السرِّ والعَلَنِ، وظَاهِرِ الحجَابِ وباطِنِهِ ﴿شَهِيداً﴾ لا تَتَفاوتُ الأحوالُ في عِلْمِهِ.

صَلاةُ اللهِ على النبيِّ عليه السلام هي ما يَفعلُهُ بِهِ من إعلاءِ دَرَجَاتِهِ ورفْعِ مَنَازِله وتَعظيمِ شأنِهِ وغير ذلك من أَنواعِ كَرَامَاتِهِ، وصَلَاةُ الملائكةِ عليهِ مسأَلَتُهُم اللهَ عزَّ اسمُهُ أَن يفعلَ بِهِ مثلَ ذلكَ ﴿صَلُّوا عَلَيْهِ﴾ أَي: قُولُوا: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَىٰ محمَّدٍ وآل محمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ علىٰ إبراهيمَ وَآلِ إبراهيمَ ﴿وَسَلِّمُواْ﴾ لَه في الأُمورِ ﴿تَسْلِيماً﴾ أي: انْقادُوا لأمرِهِ وأَطيعُوهُ، أو: سلِّمُوا عليهِ بأَن تقولُوا: السَّلامُ عليكَ يا رسولَالله.

---

(١) أُنظر التبيان: ج ١٠ ص ٣٥٨.　　(٢) البقرة: ١٣٣.

(٣) قاله قتادة وعكرمة والشعبي. راجع تفسير الماوردي: ج ٤ ص ٤٢٠، والتبيان: ج ١٠ ص ٣٥٨.

﴿يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أَذَى اللهِ تعالىٰ عبارةٌ عن أذى رسولِهِ وأوليائِهِ، وإنَّما أَضافَهُ إلىٰ نفسِهِ مبالغةً في تعظيمِ المعصيةِ.

وعن عليٍّ عليه السلام: حدَّثني رسولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم وهو آخِذٌ بشَعْرِهِ فقالَ: «مَنْ آذىٰ شَعْرَةً منك فَقَد آذاني، ومَنْ آذاني فَقَد آذَى اللهَ، وَمَنْ آذَى اللهَ فعَلَيهِ لعنةُ الله»(١).

وقَيَّدَ إيذاءَ المؤمنينَ والمؤمناتِ بعد أَن أَطْلَقَ إيذاءَ اللهِ ورسُولِهِ، لأنَّ إيذاءَ اللهِ ورسولِهِ لا يكونُ إلَّا بغيرِ حقٍّ أَبَداً. ومعنىٰ ﴿بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُواْ﴾ بغيرِ جنايةٍ وٱستحقَاقٍ للأذىٰ ﴿بُهْتَانًا﴾ أي: كَذِباً، أي: فَعَلُوا ما هُوَ في الإثم مِثْل البُهتان؛ يعني بذلكَ أَذيَّةَ اللِّسان.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا(٥٩) لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا(٦٠) مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا(٦١) سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا(٦٢)﴾.

الجلْبَابُ: ثَوبٌ واسِعٌ، أَوسَعُ من الخمَار ودونَ الرِّداءِ، تَلْويهِ المَرأةُ علىٰ رأْسِها وتُبقي منه ما تُرسِلُهُ علىٰ صَدرِها. وعن ابن عباس: الرِّداءُ الَّذي يَسترُ من فوقٍ إلىٰ أسفل(٢)، وقيلَ: الجلبابُ: الملحفةُ وكُلُّ ما يُتَستَرُ بِهِ من كساءٍ أو غيرِهِ(٣). قالَ الشاعرُ:

(١) رواه الحاكم الحسكاني في شواهد التنزيل: ج ٢ ص ٩٧ ح ٧٧٦.
(٢) حكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ٥٥٩.
(٣) قاله الحسن. راجع التبيان: ج ٨ ص ٣٦١.

مُجَلْبَبٌ من سَوَادِ اللَّيْلِ جِلْبَاباً[١]

ومعنىٰ ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ﴾: يُرخِينها عليهنَّ ويغطِّين بها وجُوهَهُنَّ وأَعْطَافَهُنَّ، يقالُ إذا زَلَّ الثوبُ عن وجهِ المرأةِ: أدْنِي ثوبَكِ علىٰ وجهك. وذلكَ أنَّ النساءَ كُنَّ في أوَّلِ الإسلامِ علىٰ عادتهنَّ في الجاهليةِ مبتذَلَاتٍ يَبْرزْنَ في درعٍ وخمارٍ، لا فَرقَ بين الحرَّةِ والأَمَة، وكانَ أهلُ الشَّطَارةِ والرِّيبةِ يتعرَّضُونَ للإماءِ، فَربَّما تعرَّضُوا للحرَّةِ بعلَّة الأمَة. فأُمِرْنَ أن يخَالِفْنَ بزيِّهِنَّ من زيِّ الإماءِ لئلَّا يَطْمَعَ فيهنَّ طَامِعٌ، وذلكَ قولُهُ: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ أي: أَقْربُ إلىٰ أن لا يتعرَّضَ لَهنَّ ولا يَلْقَيْنَ ما يَكرهْنَ. و ﴿مِنْ﴾ في: ﴿جَلَـٰبِيبِهِنَّ﴾ للتبعيضِ، بمعنىٰ: تَجَلْبَبْنَ ببعض جَلابيبِهِنَّ أو يُرخِينَ بعضَ جِلْبابِهِنَّ علَى الوجه ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً﴾ لِمَا سَلَفَ منهنَّ في ذلك.

﴿وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي: ضَعْفٌ في الإيمانِ، وقيلَ: هم الزُّناةُ وأهلُ الفجُورِ[٢]، من قولِهِ: ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِي قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾[٣]، ﴿وَٱلْمُرْجِفُونَ فِي ٱلْمَدِينَةِ﴾ بالأَخبارِ المضعِّفَةِ لقلوبِ المسلمينَ عن سَرايا النبيِّ ﷺ، يقولُونَ: هُزِمُوا وقُتِلُوا، وأَصلُهُ من الرَّجْفَةِ، وهي الزَّلْزلَةُ لكونِهِ خَبَراً مُتزلْزِلاً غيرَ ثابتٍ، والمعنىٰ: لَئِنْ لَم يَنْتَهِ المنافقونَ عن عَدواتِهِم وكَيدِهِم، والفسَقَةُ عن إيذاءِ النِّساءِ، والْمُرْجِفُونَ عمَّا يؤلِّفُونه[٤] من أخبارِ السُّوءِ، لَنأمُرَنَّكَ بأَن تَفْعلَ بِهِم ما يَسُوؤُهُم وَيَنُوؤُهُم ويَضْطَرُّهُم إلىٰ طَلَبِ الجَلاءِ عن المدينةِ، ثمَّ لا يساكِنُونَكَ في المدينةِ

---

(١) وصدره: أهلاً بضيفٍ أنّي ما استفتح البابا والبيتُ منسوب لأبي زبيد، وفيه مبالغة في التمدّح بإكرام الضيف وقرْيه. أنظر شرح شواهد الكشاف للأفندي: ص ١٩٢.

(٢) قاله عكرمة وقتادة وأبو صالح. راجع تفسير الطبري: ج ١٠ ص ٣٣٣.

(٣) الآية: ٣٢.

(٤) في نسخة: يقولونه.

إلَّا زَمَاناً قَليلاً، فَسمَّىٰ ذلكَ عن إغْراءٍ وهو التَحْريشُ[١] علىٰ سبيلِ المَجَازِ.
﴿مَلْعُونينَ﴾ نُصِبَ على «الشّتم» أو الحالِ، أي: ﴿لا يُجَاوِرُونَكَ﴾ إلَّا ملعونين.
دَخَلَ حرفُ الاستثناءِ علَى الظَّرفِ والحال مَعاً، كَمَا مرَّ ذكرُهُ في قولِهِ: ﴿إلَّآ أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إلَىٰ طَعَام غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَـٰهُ﴾[٢] وقيلَ: إنَّ ﴿قَلِيلاً﴾ منصوبٌ على الحالِ أيضاً، أي: أقلّاءَ أذلَّةً[٣]، و ﴿لا يُجَاوِرُونَكَ﴾ عَطفٌ علىٰ ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ﴾، فهو جوابٌ آخرَ للقَسَمِ.

﴿سُنَّةَ ٱللهِ﴾ مَصْدرٌ مؤكَّدٌ، أي: سَنَّ اللهُ في الَّذين ينَافقُونَ الأنبياءَ أن يُقْتَلُوا أَيْنَمَا ثُقِفُوا.

﴿يَسْئَلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا(٦٣) إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا(٦٤) خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا(٦٥) يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَـٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولاْ(٦٦) وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلاْ(٦٧) رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا(٦٨) يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا(٦٩)﴾

كَانَ المشركُونَ يسألُونَ ﴿عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾ ووقْتِ قيامِهَا استعجَالاً علىٰ سَبيلِ الإنْكارِ والهزْءِ، واليهودُ يسألونَ ذلكَ امتِحَاناً، فَأُمِرَ رسولُ اللهِ ﷺ بأَنْ يُجيبَهُم بأنَّه عِلمٌ قَد استأثرَ اللهُ بِهِ، ثمّ قَالَ: لَعَلَّهَا ﴿تَكُونُ قَرِيباً﴾ مَجيئُها، أَو: شَيئاً قَريباً، أَو: في زَمانٍ قَريبٍ.

---

(١) التحريش: الإغراء بين القوم، وكذلك بين الكلاب. (الصحاح: مادة حرش).
(٢) الآية: ٥٣.
(٣) قاله الزَجّاج في معاني القرآن: ج ٤ ص ٢٣٦.

و«السَّعِيرُ»: النَّارُ المَسعُورةُ. وتَقْلِيبُ الوجُوهِ معناهُ: تَصريفُها في الجهاتِ، كما أنَّ البضْعةَ من اللَّحم تَدورُ في القِدْرِ من جهةٍ إلىٰ جهةٍ إذا ٱستجمعتْ غَلْياً، أو تَغييرُها عن أَحْوالِها، أو طَرحُها في النارِ منكُوبينَ مغلُوبينَ[1]، وخصَّ الوجوه بالذِّكر لأنَّ الوَجْهَ أَكرَمُ الأعضَاءِ، ويجوزُ أن يكونَ الوجهُ عبارةً عن الجملة. وانتَصَبَ ﴿يَوْمَ﴾ بـ﴿يقُولُونَ﴾، أو بـ﴿اذْكُرْ﴾ و﴿يقُولُونَ﴾ حَالٌ.

وقُرئ: «سَادَاتِنا»[2] وهُم رؤَساءُ الكُفَّارِ الَّذين أضلُّوهُم، وزيادةُ الأَلفِ لإطلاقِ الصَّوتِ، جُعِلَ فواصِلَ الآي كَقَوافي الشِّعْرِ، وفائِدتُها الوقْفُ والدَّلالةُ علىٰ أنَّ الكلامَ قَد ٱنقطَعَ، وأنَّ ما بَعدَهُ مستأْنَف.

وقُرئ ﴿كَبيراً﴾ بالباءِ والثَّاءِ[3]، والكثرةُ أَشْبَهُ بالموضع لأنَّهم يُلْعَنونَ مَرَّةً بَعْد مَرَّةٍ، والكبَيرُ بمعنىٰ: الشَّديدُ العظيمُ، أي: ﴿ءاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ ضِعْفاً لِضَلالِهِم وضِعْفاً لإِضْلالِهِم.

﴿لا تَكُونُواْ كَالَّذِينَ ءاذَوْا مُوسىٰ﴾ عليه السلام: قيلَ: نَزَلَتْ في شَأْنِ زيدٍ وزينبَ وما سمع فيهِ من مقَالَةِ بعضِ النَّاسِ[4]. وقيلَ: في أَذىٰ موسىٰ عليه السلام: هو حديثُ المومِسَةِ الَّتي حملَها قَارونُ علىٰ قَذْفِهِ بنفسِهَا[5]. وقيلَ: اتِّهامُهُمْ إيَّاهُ بقَتْلِ هارونَ، وقَد كَانَا صعدَا الجَبَلَ فَماتَ هارونُ، فَحَمَلَتْهُ الملائكةُ ومرَّوا به علىٰ بني إسرائيلَ ميِّتاً، حتَّى عَرفُوا أنَّه قَد ماتَ ولَمْ يُقْتَل[6]. وقيلَ: قَذَفُوه بعَيْبٍ في جَسَدِهِ، من

(١) في نسخة: «منكوسين مقلوبين».
(٢) قرأه ابن عامر ويعقوب. راجع التبيان: ج ٨ ص ٣٦٤.
(٣) قرأه ابن كثير وأبو عمرو ونافع والكسائي. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٥٢٣.
(٤) حكاه النقّاش كما في تفسير الماوردي: ج ٤ ص ٤٢٦.
(٥) قاله أبو العالية. راجع تفسير البغوي: ج ٣ ص ٥٤٥.
(٦) رواه ابن عباس عن عليّ عليه السلام كما في تفسير الماوردي: ج ٤ ص ٤٢٧.

بَرَصٍ أو أُدرَةٍ[١]، فَأَطْلَعَهُم اللهُ علىٰ أَنَّهُ بريءٌ منه[٢]. ﴿وَجِيهاً﴾ ذَا جَاهٍ ومنزلَةٍ عندَهُ، فلذلكَ كانَ يُميطُ عنه التُّهَمَ، ويحَافِظُ عليه لِئَلَّا يَلْحَقُهُ وَصْمٌ[٣]، كما يَفعَلُ الملوكُ بمَن لَهُ عندَهُم وَجَاهَة، والمعنىٰ: ﴿فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ﴾ من قَولِهِم أو من مَقُولِهِم، فيكُونُ «مَا» مصدريَّةً أو موصُولةً. والمرادُ بالقولِ أو المَقُولِ مَضْمونُهُ ومَؤَدَّاهُ، وهو الأَمرُ المعيبُ، كَمَا سَمَّوا السُّبَّةَ[٤] بالقَالَةِ، والقَالَةُ بمعنَى القَول.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيدًا(٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا(٧١) إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً(٧٢) لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَـٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا(٧٣)﴾

﴿قَوْلًا سَدِيداً﴾ أي: قَاصِداً إلى الحقِّ، والسَّدادُ: القَصْدُ إلى الحقِّ والقَولُ بالعَدْلِ[٥]، يقَالُ: سَدَّدَ السَّهْمَ نَحْوَ الرميةِ، كَمَا قَالُوا: سَهْمٌ قَاصِدٌ. وقيلَ: إنَّ المرادَ نهيُهُمْ عمَّا خَاضُوا فيه من حَديثِ زينبَ من غيرِ عدلٍ في القول[٦]، وهو البعثُ علىٰ أَن يسدَّ قَولَهُم في كلِّ بابٍ، لأنَّ حِفْظَ اللِّسانِ وسدادِ القَولِ رأْسُ الخيرِ كلِّه.

---

(١) الأُدرة: نفخةٌ في الخصية، يقال: رجل آدَرُ بيِّن الأُدْرة. (الصحاح: مادة أدر).

(٢) ماورواه الطبري في تفسيره: ج ١٠ ص ٣٣٧ باسناده الى أبي هريرة عن النبيﷺ، وبه قال سعيد.

(٣) الوصم: العيب والعار. (الصحاح: مادّة وصم).

(٤) يقال: صار هذا الأمر سُبَّة عليه أي: عاراً. (لسان العرب: مادة سبب).

(٥) في نسخة: «القول العدل».

(٦) قاله الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ٥٦٤.

والمعنىٰ: احفظُوا ألسنَتَكُم وسدِّدوا قولَكُم، فإنَّكُم إذا فعلْتُم ذلكَ أعطَاكُم اللهُ غايةَ مطلوبِكُم من تزْكيةِ أعمالِكُم، وتقبُّلِ حَسَنَاتِكُم، ومَغْفرَةِ سيِّئاتِكُم.

ولَمَّا علَّقَ سبحانَه طاعَتَه وطَاعَةَ رسولِهِ بالفوزِ العظيمِ أتْبَعَه قولَهُ: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ﴾ وهو يُريدُ بالأَمانةِ: الطَّاعةَ، فَعَظَّمَ أمْرَها، والمعنىٰ: أنَّ هذه الأَجْرامَ العِظَامَ قَد انْقادَتْ لأمرِ اللهِ فَلَمْ تَمتَنِعْ علىٰ مشيئتِهِ إيجاداً وتكويناً وتسويةً علىٰ أشكالٍ متنوِّعةٍ وصِفَاتٍ مختلفةٍ، وأمَّا الإنسانُ فلَمْ يكنْ حالُهُ فيمَا يَصحُّ منهُ من الطَّاعةِ ويَليقُ بِهِ من الانقياد لأوامرِ اللهِ ونَواهيهِ، وهو حَيوانٌ عاقِلٌ صَالِحٌ للتَّكليفِ مثلُ حالِ تلك الجَمَاداتِ فيما يَصحُّ منها من الانقيادِ وعدمِ الامتناعِ.

والمُرادُ بالأمانةِ: الطَّاعَةُ؛ لأنَّها لازمةُ الأَداءِ، وعَرْضُها علَى الجَمَاداتِ وإباؤُها وإشْفاقُها مَجازاً، وأَمَّا حَمْلُ الأَمانةِ فَمِن قولِكَ: فلانٌ حامِلُ الأمانةِ ومُحْتَمِلٌ لَهَا، تُريدُ لا يُؤدِّيها إلىٰ صَاحِبِهَا حتَّىٰ يَخرجَ من عُهْدَتِها، لأنَّ الأمانةَ كأنَّها رَاكِبةٌ للمؤْتَمَنِ عَليهَا، فإذا أدَّاهَا لَمْ تَبقَ راكبةً له ولَمْ يكنْ هو حَامِلاً لَهَا. فالمعنىٰ: ﴿فَأَبَيْنَ﴾ أَن لا يُؤَدِّينَها وأَبَى الإنسانُ إلَّا أَن يكونَ مُحتَمِلاً لَهَا لا يؤَدِّيها، ثمَّ وَصَفَهُ بالظُّلْمِ لكونِهِ تَاركاً لأَداءِ الأَمَانةِ، وبالجَهلِ لإغفالِهِ ما يُسْعِدُهُ مَعَ تَمكُّنِهِ من ذلكَ بأَن يؤدِّيَ الأمانةَ.

واللَّامُ في ﴿لِيُعَذِّبَ﴾ لَامُ التَّعليلِ علىٰ طَرِيقِ المَجَازِ، لأنَّ التَعذيبَ نَتيجةُ حَمْلِ الأَمانةِ، كما أنَّ التأديبَ في قولِكَ: ضَرَبْتُهُ للتأديبِ نَتيجة الضَرْبِ، أي: ليُعذِّبَ اللهُ حَامِلَ الأمانةِ ﴿وَيَتُوبَ ٱللَّهُ﴾ علىٰ غيرِهِ ممَّن لَمْ يَحمِلْها، لأنَّه إذا تِيبَ علىٰ الوافي كانَ ذلكَ نوعاً من عَذابِ الغَادرِ.

❁ ❁ ❁

سُورَةُ سَبَأ

مكّيةٌ[1] وهي أَربعٌ وخَمسونَ آيةً.

وفي حَديثِ أُبَيٍّ: «مَنْ قَرَأَ سُورةَ سَبأ لَمْ يَبْقَ نَبيٌّ ولا رَسُولٌ إلاّ كانَ لَهُ يوم القيَامَةِ رَفيقاً ومُصَافِحاً»[2].

وعن الصَّادق عليه السلام: «مَنْ قَرَأَ الحَمْدَيْنِ جَميعاً ـ سبأ وفاطر ـ في لَيلَتِهِ لَمْ يَزَلْ في لَيلته في حِفْظِ اللهِ وَكَلاءَتِهِ ،فإنْ قَرأَهُمَا في نَهارِهِ لَمْ يُصبْهُ فيهِ مَكرُوهٌ، وأُعطِيَ مِنْ خَيرِ الدُّنيا والآخِرَةِ ما لَمْ يَخْطُرْ علىٰ قَلبِهِ ولَمْ يَبلُغْهُ مُنَاهُ»[3].

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأَخِرَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ(١) يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ

---

(١) قال الشيخ الطوسي في التبيان: ج ٨ ص ٣٧٢: مكّية في قول مجاهد وقتادة والحسن وغيرهم، ليس فيها ناسخ ولا منسوخ، وقيل: إنّ آيةً واحدةً منها مدنيّة وهي قوله: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا﴾ الآية. وهي أربع وخمسون آيةً عند الكلّ إلاّ الشامي فإنّها عنده خمس وخمسون آية.

وفي الكشّاف: ج ٣ ص ٥٦٦: مكّية إلاّ آية ٦ فمدنية وآياتها ٥٤، نزلت بعد لقمان.

(٢) رواه الزمخشري في الكشاف: ج ٣ ص ٥٩٤ مرسلاً.

(٣) ثواب الأعمال للصدوق: ص ١٣٧ وفيه: «يبلغ».

مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ(٢) وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ(٣) لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُوا ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ(٤) وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مُعَـٰجِزِينَ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ(٥)﴾

﴿مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ﴾ كُلُّهُ نِعمةٌ من ٱللهِ سبحانَه، فكأنَّه سبحانَه وَصَفَ نفسَهُ بالإنعام بجَميعِ النِّعَمِ الدُّنيويةِ، فَمعناهُ: أنَّهُ المحمُودُ علىٰ نِعَمِ الدُّنيا ﴿وَلَهُ ٱلحَمْدُ في الآخِرَةِ﴾ إيذانٌ بأنَّهُ المحمُودُ علىٰ نِعَمِ الآخِرَةِ، وهي الثَّوابُ الدَّائِمُ والنعيمُ المُقيمُ ﴿وَهُوَ ٱلحَكِيمُ﴾ الَّذي أَحْكَمَ أُمورَ الدَّارَيْنِ ﴿الْخَبِيرُ﴾ بكلِّ كَائنٍ وبكلِّ ما سيكونُ. ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ مِن مَطَرٍ أو كنزٍ أَو مَيِّتٍ ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ مِن نَباتٍ أو جوهرٍ أو حَيوانٍ ﴿وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّماءِ﴾ مِن مَلَكٍ أو مَطَرٍ أو رِزْقٍ ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ أي: ما يَصْعَدُ من الملائكةِ وأَعمَالِ العِبَادِ، وهو مَعَ كثرةِ نِعَمِهِ وسُبوغِ فَضْلِهِ ﴿الرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ﴾ لِعبَادِهِ المقَصِّرينَ في أَداءِ الواجِبِ من شُكْرِهِ.

قَالَ مُنكرُ البَعْثِ: ﴿لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ﴾ وهو نَفْيٌ أو ٱستِبْطاءٌ علىٰ طَرِيقِ الهُزْءِ ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى﴾ أَوْجَبَ ما بَعْدَ النَّفْي بِبَلَىٰ علىٰ معنىٰ: أَنْ ليسَ الأَمرُ إِلَّا إتْيانَها، ثمَّ أَكَّدَهُ بالقَسَمِ باللهِ عزَّوجلَّ، ثُمّ أكَّدَ التَّوكيدَ القَسميَّ بِمَا أَتْبَعهُ من وَصْفِ المُقْسَمِ بِهِ بأنَّهُ ﴿عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ﴾ لا يَفُوتُهُ ﴿مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَاتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فيَنْدَرِجُ تَحتَهُ عِلْمُهُ بوقْتِ قيامِ السَّاعَةِ. ثـمَّ أَتْبَعَ القَسَمَ الحُجَّةَ القَاطِعةَ وهو ﴿لِيَجْزِىَ﴾ لأنَّه رَكَّبَ في العُقولِ أنَّ الْمُحْسِنَ لابُدَّ لَهُ من ثَوابٍ، والمُسيءُ

مستوجِبُ العِقَاب، فاتَّصلَ ﴿لِيَجْزِيَ﴾ بقولِهِ: ﴿لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ تعليلاً لَهُ، وقُرِئ: ﴿عَـٰلِمِ ٱلْغَيبِ﴾ و «عَلَّام ٱلْغَيب»[1] بالجرِّ صفة لـ ﴿ربيِّ﴾ وقُرِئ: «عٰلِمُ»[2] بالرَّفْعِ على المَدْحِ، ﴿وَلا أَصْغَرُ مِنْ ذٰلِكَ﴾ إشَارةٌ إلىٰ ﴿مِثْقَال﴾، وٱرتفعَ ﴿أَصْغَرُ﴾ علىٰ أصل الابتداءِ، وهو كَلامٌ منقطِعٌ عمَّا قبلَهُ، ولا يجوزُ أن يكُونَ ﴿أصْغَر﴾ عَطْفاً علىٰ ﴿مِثْقَال﴾ لأنَّ حَرْفَ الاستثناءِ تَأْباهُ.

﴿سَعَوْ فِى آيـٰتِنا﴾ أَي: عَمِلُوا بِجهْدِهِم في إبْطالِ حُجَجِنا وبـيِّناتِنا مُـقدِّرينَ إعْجَازَ ربِّهِم، أو: ظَانِّينَ أَنَّهُم يفوتُونَهُ. وقُرِئ: «مُعْجِزينَ»[3] وقَد مَرَّ ذكـرُهُ فـي سُورةِ الحجِّ[4]. وقُرِئ: ﴿أَليمٌ﴾ بالرَّفْعِ والجرِّ[5]، والرِّجْزُ أَسْوأُ العَذَابِ، والجَرُّ في ﴿أَليم﴾ أَبْيَنُ صفة لـ ﴿رِجْزٍ﴾.

﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ(٦) وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ(٧) أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَـٰلِ ٱلْبَعِيدِ(٨) أَفَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ(٩)﴾

---

(١) قرأه حمزة والكسائي. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٦٢١.

(٢) وهي قراءة نافع وابن عامر. راجع المصدر السابق.

(٣) قرأه ابن كثير وأبو عمرو. راجع المصدر نفسه.

(٤) في ج ٢ ص ٥٦٥ فراجع.

(٥) وبالجر قرأه نافع وحمزة والكسائي وأبو عمرو وابن عامر وأبوبكر عن عاصم. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٥٢٦.

﴿يَرَى﴾ في مَوضعِ الرَّفْعِ، أي: ويَعلَمُ ﴿الَّذينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ﴾ وهُم أَصحابُ رسولِ ٱللهِ، أو عُلَماءُ أَهلِ الكتابِ الَّذين أَسلَمُوا ﴿الَّذِىَ أُنزِلَ إِلَيْكَ... ٱلْحَقَ﴾ وهُمَا مفعُولان لـ ﴿يرَى﴾ وهُوَ فَصلٌ. وقيلَ: ﴿ويَـرَى﴾ في موضعِ النَّصْبِ عَطْفاً عـلىٰ ﴿لِيَجْزِىَ﴾ [١]، أي: وَلِيَعْلَمَ أُولُو العِلْمِ عند مَجيءِ السَّاعةِ أنَّهُ ٱلحقُّ عِلْماً لا يَتَخالَجُهُ رَيْبٌ، و ﴿الَّذِى أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ هو القُرآنُ، ﴿وَيَهْدِى﴾ القُرآنُ ﴿إِلَىٰ صِرَاطِ ٱلْعَزِيزِ﴾ الَّذي لا يُغَالَبُ، ﴿الْحَمِيدِ﴾ علىٰ جَميعِ أَفْعالِهِ وهو ٱللهُ سبحانَه.

والعامِلُ في ﴿إِذَا﴾ ما دَلَّ عليهِ قَولُهُ: ﴿إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ وقَد مَرَّ نَظيرُهُ، و«الْمُمَزَّقُ» مَصدرٌ أو مَكانٌ. وأُسقِطَت الهَمزةُ فـي قَـولِهِ: ﴿افْـتَرَىٰ﴾ دونَ قـولِهِ: ﴿ٱلسِّحْرِ﴾ وكِلْتَاهُما هَمزةُ وَصْلٍ؛ لأنَّ القياسَ طَرْحُها، ولكن لَـم تُـطْرَحْ هـناك لِخَوفِ ٱلتباسِ الاستفهامِ بالخَبَرِ، لكَونِ هَمزةِ الوَصْلِ مَفتُوحةً، وهي مكسُورةٌ هنا فلا ٱلتِبَاس، أي: أَهُو مُفترٍ على ٱللهِ ﴿كَذِباً﴾ فيمَا يَنْسُبُ إِليهِ ﴿أَم بِهِ جِنَّةٌ﴾ جنُونٌ يُوهِمُهُ ذلكَ، ثمَّ قَالَ: لَيسَ مُحَمدٌ من الافتراءِ والجـنُونِ فـي شـيءٍ، بَـلْ هـؤلاءِ الكافرونَ بالبَعْثِ واقِعُونَ ﴿فِى﴾ عَذابِ النَّار ﴿وَٱلضَّلَـٰلِ﴾ عن ٱلحقِّ وذلكَ أَجَنُّ الجنُونِ، ولَمَّا كانَ العَذابُ من لَوازِمِ الضَّلالِ جُعِلَا كأنَّهُما مقْترنانِ. ووَصفَ الضَّلالَ بـ﴿ٱلْبَعِيدِ﴾ من الإِسْنادِ المَجَازي؛ لأنَّ «البَعيدَ» صِفَةُ الضَّالِّ إذا بَعُدَ عن الجادَّة.

﴿أَفَلَمْ يَرَوْاْ﴾ أي: أَعَمُوا فَلَمْ يَنظُرُوا إلىٰ ﴿ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وأنَّهُما ـ حيثُما كانُوا ـ محيطَتَانِ بِهِم لا يقدرُونَ أَن يَنفُذُوا من أَقْطَارِهِما؟ وقيلَ: أَفَلَمْ يَتَفكَّروا فيهِمَا ولَمْ يَستَدلُّوا بذلكَ علىٰ قُدرتِنا؟ [٢] ثمَّ ذَكَرَ سبحانَهُ قُدرتَهُ علىٰ إهْـلاكِـهِم بـأَن يَخْسِفَ ﴿بِهِمُ ٱلْأَرْضَ﴾ كَمَا خَسَفَ بقَارونَ، أَو يُسْـقِطَ ﴿عَـلَيْهِمْ﴾ قِـطْعةً ﴿مِـنَ

---

(١) قاله النحاس في إعراب القرآن: ج ٣ ص ٣٣٢.

(٢) قاله قتادة. راجع تفسير الماوردي: ج ٤ ص ٤٣٤.

ٱلسَّمَآءِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ النَّظَرِ إلى السَّماءِ والأَرضِ والفِكْرِ فيهِمَا لَدَلالةً ﴿لِكُلِّ عَبْدٍ﴾ مُطيعٍ للهِ راجعٍ إليهِ. وقُرِئ: ﴿إِنْ نشَأْ﴾ ﴿نَخْسِفْ﴾ و ﴿نُسْقِطْ﴾ بالياءِ[1] والنّونِ في الجَميعِ، وأَدغَمَ الكَسائيُّ الفاءَ في الباءِ في ﴿نَخْسِف بِهِم﴾[2] وليسَ بِقَويٍّ.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ(١٠) أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ(١١) وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ(١٢) يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ(١٣) فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ(١٤)﴾

﴿يَا جِبَالُ﴾ إمَّا أن يكُونَ بَدَلًا من ﴿فَضْلًا﴾ وإمَّا مِنْ ﴿آتَيْنَا﴾ بتَقْديرِ قَولِنَا: يا جِبالُ، أَو قُلنَا: يا جِبَالُ ﴿أوِّبِى﴾ مِنَ التَّأْويبِ، أي: رَجِّعي مَعَهُ التَّسبيحَ، ويجوزُ أَن يكونَ اللهُ سبحانَه خَلَقَ فيها تَسبيحاً كَمَا خَلَقَ الكَلامَ في الشَّجَرةِ، فَيُسْمَعُ مِن الجِبالِ التَّسبيحُ كَمَا يُسْمَعُ من المُسَبِّحِ؛ مُعجزةً لداودَ. وقُرِئَ: ﴿والطَّيْرُ﴾ رَفْعاً[3] ونَصْباً عَطْفاً علىٰ لفظ الجبالِ ومَحَلِّها. وجَوَّزُوا أَن يَنْتَصِبَ بالعَطْفِ علىٰ ﴿فَضْلًا﴾ بمعنىٰ: وَسَخَّرْنَا لَهُ الطَّيْرَ، وعلىٰ[4] أَنّه مفعُولٌ مَعَه، ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ وَجَعَلْنَاهُ لَهُ

---

(١) قرأهنَّ بالياءِ جميعاً حمزة والكسائي. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٦٢٢.
(٢) أُنظر المصدر السابق.
(٣) قرأه الأعرج وعبدالوارث عن أبي عمرو. راجع شواذ القرآن لابن خالويه: ص ١٢٢.
(٤) في نسخة: «أو علىٰ».

لَيِّناً كالطِّينِ والشَمْع يُصرِّفُهُ بيدِهِ كيفَ شَاءَ من غيرِ نَارٍ ولا ضَرْبٍ بِمِطْرَقَةٍ.

﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَابِغَاتٍ﴾ أَي: درُوعاً واسِعَةً صَافِيَةً، وهُو أوَّلُ مَن اتَّخذَها، وكَانَتْ قبلُ صَفَائِحُ ﴿وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ أي: في نَسْجِ الدُّرُوعِ، فَلَا تَجْعَلْ مَسَاميرَهَا دِقَاقَاً فَتُغْلَقُ، ولا غِلاظَاً فَتَقْصِمُ الحَلَقَ ﴿وَٱعْمَلُواْ﴾ الضَّميرُ لداودَ وأهلِه

﴿وَ﴾ سَخَّرْنَا ﴿لِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ﴾ وقُرِئَ: «الرِّيحُ» بالرَّفع[١]، أي: ولسُلَيْمانَ الرِّيحُ مُسَخَّرَةً، أو: ولَهُ تَسخيرُ الرِّيح ﴿غُدُوُّها شَهْرٌ﴾ جَرْيُها بالغداةِ مَسيرةُ شَهْر، وجَرْيُها بالعشِيّ كذلكَ ﴿وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾ أي: أَذَبْنَا لَه مَعْدنَ النُّحَاس وأَظْهَرْنَاهُ لَهُ، يَنْبعُ كَمَا يَنْبعُ المَاءُ من العَيْن، ولذلك سَمَّاهُ: «عينَ القِطْرِ» تَسمِيَةً بمَا آلَ إليهِ، كَمَا قَالَ: ﴿إِنِّى أَرَانِى أَعْصِرُ خَمْراً﴾[٢]، ﴿وَ﴾ سَخَّرْنَا لَهُ ﴿مِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ﴾ بحَضْرتِهِ ما يَأْمُرُهُم بهِ من الأَعْمالِ ﴿وَمَنْ يَزِغْ﴾ أَي: ومَنْ يَعْدِلْ منهُم عَمَّا أَمَرنَاهُم بهِ من طاعَةِ سليمان ﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ في الآخِرَةِ، وقيلَ: في الدُّنيا، وقَدْ وَكَّلَ ٱللهُ بهِ مَلَكاً بيدِهِ سَوطٌ يَضْرِبُهُ ضَرْبَةً تُحرِقُهُ[٣].

والْمَحَارِيبُ: البيوتُ الشَّريفةُ، وقيلَ: هي المَسَاجِدُ والقُصُورُ يُتَعَبَّدُ فيها[٤]، ﴿وَتَمَثِيلَ﴾ قيلَ: كانَتْ غَيرَ صُوَرِ الحَيوانِ، كَصُورِ الأَشجَارِ وَغيرِهَا، لأَنَّ التَّماثيلَ: كُلُّ ما صُوِّرَ علىٰ صُورةِ غَيرِهِ من حَيوانٍ وغَيرِ حَيوان[٥]، ورُوِيَ ذٰلكَ عن الصَّادقِ عليه السلام[٦]. ورُوِيَ أَنَّهُم عَمِلُوا لَهُ أَسَدَيْنِ في أَسفَلِ كُرسيِّهِ ونسْرينِ فَوقَهُ،

(١) قرأه أبوبكر والمفضّل. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٦٢٢.
(٢) يوسف: ٣٦.
(٣) قاله يحيىٰ بن سلام. راجع تفسير الماوردي: ج ٤ ص ٤٣٨.
(٤) قاله الحارث وقتادة وابن زيد. راجع تفسير الطبري: ج ١٠ ص ٣٥٤.
(٥) وهو قول الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ٥٧٢.
(٦) أنظر الكافي: ج ٦ ص ٥٢٧ ح ٧.

وإذا أَرادَ أَن يَصْعَدَ بَسَطَ الأَسَدانِ لَهُ ذراعَيْهِمَا، وإذا قَعَدَ أَظَلَّهُ النِسْرَانِ بأَجْنِحَتِهِما من الشَمسِ [١]. وَالجَوابِي: الحِيَاضُ الكِبَارُ لأنَّ المَاءَ يَجيءُ فيهَا أي: يُجْمَعُ، جَعَلَ الفِعْلَ لَهَا مَجَازاً وهي من الصِّفَاتِ الغَالبةِ كالدَّابَّةِ، وَالقِياسُ أَن تثبتَ الياءُ، فيهِ، وَمَنْ حَذَفَ الياءَ في الوقْفِ أو في الوَصْلِ والوَقْفِ فلأَنَّهُ مُشَبَّهٌ بالفَاصِلَةِ ﴿اعْمَلُواْ﴾ حكَايةُ ما قيلَ لآل داودَ، وٱنتصَبَ ﴿شُكْراً﴾ علىٰ أَنَّهُ مفعُولٌ لَهُ، والمعنىٰ: اعملُوا للهِ واعبدُوهُ علىٰ وَجْهِ الشُّكْرِ لِنِعَمِهِ، وفيهِ دَلَالَةٌ علىٰ أَنَّ العبادةَ يجبُ أَن تُؤَدَّىٰ علىٰ وَجْهِ الشُّكْرِ [٢]، أو على الحَالِ، أي: شَاكِرينَ أو علىٰ تَقْديرِ: اشكُروا شُكْراً، لأَنَّ «اعْمَلُوا» فيه معنى الشُّكْرِ مِنْ حَيثُ إِنَّ العَمَلَ للمُنْعِمِ شُكْراً لَـهُ، و ﴿ٱلشَّكُورُ﴾: المُتوفِّرُ علىٰ أَداءِ الشُّكْرِ، البَاذِلُ وُسْعَهُ فيهِ، وقَد شَغَلَ بِهِ قَلْبَهُ ولسانَهُ وجوارحَهُ اعتقَاداً وٱعترافاً وكدْحاً.

﴿فَلَمَّا﴾ حَكَمْنَا علىٰ سليمانَ ﴿ٱلْمَوْتَ﴾ مَا دَلَّ الجِنَّ ﴿عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَآبَّةُ الأَرْضِ﴾ وَهِيَ الأَرَضَةُ ﴿تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ﴾ وهي العَصَا الكَبيرةُ يَسُوقُ بهَا الرَّاعِي غَنَمَهُ، مِن: نَسَأْتُهُ إذا زَجَرْتُهُ، وقُرِئَ: «منساته» بتَخْفيفِ الهَمْزةِ [٣] ﴿تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ﴾ مِنْ تَبَيَّنَ الشَّيءُ إذا ظَهَرَ وتَجَلَّىٰ، و ﴿أَنْ﴾ مَعَ صِلَتِهَا بَدَلٌ من ﴿ٱلْجِنّ﴾ وهُوَ بَدَلُ ٱلاشتِمَالِ، تقُولُ: تبيَّنَ زَيدٌ جَهْلُهُ. أَي: ظَهَرَ أَنَّ الجِنَّ ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُواْ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾، أو: عَلِمَ الجِنُّ كُلُّهُمْ عِلْماً بيِّناً بعد ٱلْتباسِ الأَمْر علىٰ عامَّتِهِم وتوهُّمِهِمْ أَنّ كِبارَهُم يَعلَمُونَ الغَيْبَ، وعَنْهُمْ عليهم السلام: «تبيَّنت الإِنس» [٤].

---

(١) رواه الزمخشري في الكشاف: ج ٣ ص ٥٧٢.

(٢) ليس في نسخة: «وفيه دلالة...».

(٣) وهي قراءة نافع وأبي عمرو. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٦٢٢.

(٤) أنظر التبيان: ج ٨ ص ٣٨٤.

وهو قِراءَةُ أُبَيٍّ [١]، ويكونُ الضَّميرُ في ﴿كَانُوا۟﴾ للجِنِّ في قولِهِ: ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: عَلِمَتِ الإِنْسُ أن لَوْ كانَ الجِنُّ يُصَدِّقُونَ فيمَا يُوهِمُونَهُم من عِلْمِهِم الغَيْبَ ما لَبِثُوا، وفي قِراءَةِ ٱبنِ مَسعُودٍ: «تبيَّنَتِ الإِنْسُ أَنَّ ٱلْجِنَّ لو كَانُوا يَعلَمُونَ» [٢]. وكانَ عُمْرُ سُلَيْمانَ ثَلاثاً وخَمْسِينَ سَنَةً، ومَلَكَ وهو ٱبنُ ثَلاثِ عَشْرَةِ سنة، فَمُدَّةُ مُلْكِهِ أربعُونَ سنة.

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ(١٥) فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَـٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ(١٦) ذَٰلِكَ جَزَيْنَـٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ وَهَلْ نُجَـٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ(١٧) وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَـٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ(١٨) فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَـٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَـٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَـٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ(١٩) وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ(٢٠)﴾

سَبأُ: أبو عَرَب اليَمَنِ كُلِّهم ﴿فِى مَسْكَنِهِمْ﴾ أي: بَلَدِهِم. وقُرِئَ: «مَسَاكِنِهِمْ» [٣] ﴿جَنَّتَانِ﴾ بَدَلٌ مِنْ ﴿ءَايَةٌ﴾ أو خَبَرُ مبتدأ محذُوفٍ، أي: الآيةُ جنَّتانِ، ومعنىٰ كَونِهِمَا آيةً: أنَّ أهلَهُمَا أعرضُوا عَن شُكرِ ٱلله عَلَيْهِما فخَرَّبَهُم [٤] الله وأَبْدَلَهُم عَنْهُما الْخَمْطَ

---

(١) نسبها إليهِ الزمخشري في الكشاف: ج ٣ ص ٥٧٤.

(٢) أنظر المصدر السابق.

(٣) قرأه ابن كثير ونافع وابن عامر وابوعمرو وابوبكر عن عاصم. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٥٢٨.

(٤) في بعض النسخ: «فخرَّبهما».

وَالأثلَ[١] آيةً وعِبرةً لَهُم وَلغَيرِهِم، وقيلَ: إنَّ الآيةَ أنَّهُ لَمْ يكُنْ في بَلَدِهِم بعُوضَةٌ ولا ذُبَابٌ ولا عَقربٌ ولا حَيَّةٌ، وكانَ الغَريب إذا دَخَلَ في بَلَدِهِم وفي ثيابِهِ قُمَّلٌ مَاتَت[٢]. ولَمْ يُردْ بُسْتَانَيْنِ فَحَسْب، وإنَّما أَرادَ جَمَاعَتَيْنِ من البُسْتَانَيْنِ، جَماعةٌ عن يَمينِ بَلَدِهِم وأُخرىٰ عن شمَالِها، وكلٌّ واحِدَةٍ من الجَمَاعَتين في تَقَارُبِهما وتَضَامِّهما كأنَّهُما جَنَّةٌ واحِدةٌ، أو: أَرادَ بسْتَانيْ كُلِّ رَجُلٍ مِنْهُم عن يَمينِ مَسْكَنِهِ وشمَالِهِ، كما قَالَ: ﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ﴾[٣]، ﴿كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ﴾ إمَّا حِكَايةٌ لِمَا قَالَ لَهُم أنبياءُ ٱللهِ المبعُوثُونِ إليهِم، أو: لِمَا قَالَ لَهُم لِسَانُ الحَالِ ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ﴾ أي: هذه البلدة بلدةٌ طيّبةٌ مُخصبةٌ، نَزِهةٌ أرضِها عذبةٌ ليست بسبخة، ﴿وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ أي: ربُّكُم الَّذي رَزَقَكُم وَطَلَبَ شُكْرَكُم غفُورٌ لِمَن شَكَرَه.

﴿فَأَعْرَضُوا۟﴾ عن الحقِّ ولَمْ يشكُروا ٱللهَ عزَّ ٱسمُهُ ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ﴾ وٱلعَرِمُ: ٱسمُ الجُرَذِ الَّذي نَقَبَ عَلَيهِم السَّكْرَ، ضَرَبَتْ لَهم[٤] بلقيسُ المَلِكَةُ بِسَدٍّ ما بينَ الجَبَلَيْنِ بالصَّخْرِ والقَارِ، فَحَقَنَتْ بِهِ ماءَ العيُونِ والأَمطَارِ، وتَرَكَتْ فيهِ خُروقاً علىٰ مِقْدارِ ما يَحتاجُونَ إليهِ في سَقْيِهِم، فَلَمَّا طَغَوْا سَلَّطَ ٱللهُ علىٰ سَدِّهِم الخُلْدَ[٥] فَنَقَبَهُ من أَسفَلِهِ فَغَرَّقَهُم، وقيلَ: العَرِمُ: جَمْعُ عَرَمَةٍ وهي الحجارةُ المركُومة[٦]،

---

(١) تعدّدت الأقوال في معنى الخمط، فعن الليث: هو ضرب من الأراك له حمل يؤكل، وقال الزجّاج: إنّه يقال لكلّ نبت قد أخذ طعماً من مرارة حتىٰ لا يمكن أكله، وقال الفرّاء: الخمط في التفسير ثمر الأراك وهو البرير، وقيل: شجرٌ له شوك، وقيل: هو شجر قاتل أو سمّ قاتل، وقيل: هو الحمل القليل من كلّ شجرة. وأمّا الاثلُ فهو ضرب من الخشب كالطرفاء، وقيل: هو الطرفاء. انظر لسان العرب: مادة «خمط» و «أثل».

(٢) قاله عبدالرحمن بن زيد. راجع تفسير الماوردي: ج ٤ ص ٤٤٣.

(٣) الكهف: ٣٢.

(٤) في نسخة: «عليهم».

(٥) الخُلْد: ضرب من الجرذان أعمىٰ. (الصحاح: مادة خلد).

(٦) قاله الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ٥٧٦.

ويُقالُ للكُدْسِ من الطَّعَامِ: عَرَمَةٌ، والمُرادُ: المُسنَّاةُ التي عَقَدُوهَا سِكْراً. وقيلَ: العَرَمَةُ اسمُ وَادٍ كانَ يَجتَمعُ فيهِ السُّيُول (١)، وقيلَ: العَرِمُ: المَطَرُ الشَّديد (٢). وقُرِئَ: ﴿أُكْلٍ﴾ بالضَمِّ والسُّكُونِ (٣)، وبالتَنْوينِ والإضَافةِ (٤)، ومَن نَوَّنَ فالأَصلُ. ذَوَاتَيْ أُكُلٍ أُكُلِ خَمْطٍ، فَحُذِفَ «أُكُل» المُضَافُ، أَو: وُصِفَ الأُكُلِ بالخَمْطِ، فَكَأنَّه قَالَ: ذَوَاتَيْ أُكُلٍ بَشِعٍ، ومَن أَضَافَ فكَأَنَّهُ قالَ: ذَوَاتَيْ بَريرٍ (٥)، لأنَّ أُكُلَ الخَمْطِ في معنَى البَريرِ، و «الأَثْلُ» و «السِّدْرُ» معطوفَانِ علىٰ ﴿أُكُلٍ﴾ لا علىٰ ﴿خَمْطٍ﴾، لأنَّ الأَثْلَ لا أُكُلَ لَهُ، وتَسمِيةُ البَدَل ﴿جَنَّتَيْنِ﴾ لأَجْلِ المشَاكَلَةِ، وفيهِ ضَرْبٌ من التَهكُّمِ، وعنِ الحَسَنِ: قَلَّلَ السِّدْرَ لأنَّه أَكْرَمُ ما بُدِّلُوا (٦). وقُرِئَ: ﴿وَهَلْ نُجَٰزِى﴾ بالنُّونِ (٧)، والمعنىٰ: ومثلُ هذا الجزَاءِ لا يَستَحِقُّهُ إلَّا الكَافِرُ، وهو العِقَابُ العَاجِلُ.

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ﴾ قُرَى الشَامِ ﴿الَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ بالمَاءِ والشَّجرِ ﴿قُرًى ظَٰهِرَةً﴾ متَواصِلَةً، يُرىٰ بَعضُها مِنْ بعضٍ لِتَقَارُبها، فَهي ظَاهِرَةٌ لأَعْينِ النَّاظِرينَ، أو رَاكِبةٌ مَتْنَ الطَّريقِ ظَاهِرَة للسَّابِلَةِ (٨)، ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ﴾ من القَريةِ إِلَى القَريةِ مِقْداراً واحِداً، كانَ الغَادِي منهم يُقِيلُ في قَريةٍ، والرَّائحُ يَبيتُ في قَريةٍ إلىٰ أَن يَبلُغَ الشَّامَ، لا يَخَافُ جُوعاً ولا عَطَشاً ولا عَدُوّاً، ولا يَحتَاجُ إلىٰ حَمْلِ زَادٍ ولا مَاءٍ.

---

(١) قاله ابن عباس وقتادة والضحاك. راجع تفسير الطبري: ج ١٠ ص ٣٦٢.

(٢) وهو قول ابن عباس أيضاً. راجع تفسير القرطبي: ج ١٤ ص ٢٨٦.

(٣) وبسكون الكاف قرأه نافع وابن كثير وعباس عن أبي عمرو. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٥٢٨.

(٤) وبالاضافة هي قرارة أبي عمرو وحده. راجع المصدر السابق.

(٥) البريرُ: ثمر الأراك، واحدتها بَريرَة. (الصحاح: مادة برر).

(٦) حكاه عنه الرمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ٥٧٦.

(٧) الظاهر من العبارة أنّ المصنّف يميل الى القراءة بالياء هنا، وهي قراءة الجمهور الآ الكوفيّين فقد قرؤوها بالنون.

(٨) في نسخة: «للسابلة».

﴿سِيرُواْ﴾ أي: وقُلْنَا لَهُمْ: سِيرُوا وَلا قَولَ ثَمَّ، لكن لَمَّا سُهِّلَتْ لَهُم أَسبابُ السَّيْرِ فَكَأَنَّهُم أُمِرُوا بِهِ، والمعنىٰ: سِيرُوا إِنْ شِئْتُم بِاللَّيلِ وإِنْ شِئْتُم بِالنَّهارِ، فإِنَّ الأَمْنَ فيهَا لا يَختلِفُ باختِلافِ الأَوقَاتِ، أو: سِيرُوا فيهَا ﴿ءَامِنِينَ﴾ لا يَخافُونَ وإِنْ تَطَاوَلَتْ مُدَّةُ سَفَرِكُم فيهَا وٱمتَدَّتْ أياماً وَلَيالِيَ.

﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَـٰعِدْ﴾ وَبَعِّدْ على الدُّعَاءِ، بَطِرُوا النِّعْمَةَ ومَلُّوا العَافيةَ فَطَلَبُوا ٱلكدَّ وٱلتَّعَبَ، وقُرِئَ: «ربُّنا بَاعَدَ بَينَ أَسْفَارِنا»[1] وهو قِراءَةُ البَاقِرِ عليه السلام، «رَبُّنَا» مبتَدأٌ والمعنىٰ خلافُ الأوَّلِ، وهو أَنَّهُم استَبْعَدُوا مَسَايِرَهُم علىٰ قِصَرِهَا لِفَرْطِ تَنَعُّمِهِم ﴿فَجَعَلْنَـٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾ يَتَحَدَّثُ النَّاسُ بِهِم، وَفَرَّقْنَاهُمْ تَفرِيقاً اتَّخَذَهُ النَّاسُ مَثَلاً مَضْرُوباً، يقُولُونَ: ذَهَبُوا أَيْدِي سَبَأ، وتَفَرَّقُوا أَيادِي سبأ، قال كُثَيِّر:

أَيادِي سبَأ يا عَزَّ ما كُنتُ بَعْدكُمْ فلم يَحْلُ بالعيْنَيْنِ بَعْدَكِ مَنْظرُ[2]

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَـٰتٍ﴾ وعِبَرَاً ﴿لِكُلِّ صَبَّارٍ﴾ عن المَعَاصِي ﴿شَكُورٍ﴾ للنِعَمِ بالطَّاعَاتِ.

وقُرِئَ: ﴿صَدَّقَ﴾ بالتَشْديدِ والتَخْفيفِ[3]، فَمَنْ شَدَّدَ فَعَلىٰ: حَقَّقَ عَلَيهِم إِبْليسُ ظَنَّهُ، أو: وَجَدَهُ صَادِقاً، ومَنْ خَفَّفَ فَعَلىٰ: صَدَقَ في ظَنِّهِ. وقُرِئَ: «صَدَّق» بالتَشْديدِ «إِبْليسَ» بالنَّصْبِ «ظَنُّهُ» بالرَّفعِ[4]، والمعنىٰ: وَجَدَ ظَنُّهُ صَادِقاً حينَ

---

(١) وهي قراءة محمد بن الحنفية وأبي العالية وأبي صالح ونصر بن عاصم ويعقوب ويروىٰ عن ابن عباس، راجع تفسير القرطبي: ج ١٤ ص ٢٩٠.

(٢) وهو من أبيات يرثي بها عبدالعزيز بن مروان، ومعناه واضح. انظر ديوان كثيِّر عزَّة: ص ١٠٠.

(٣) وبالتخفيف قرأه نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٥٢٩.

(٤) وهي قراءة أبي الهجهاج، قال أبوحاتم الرازي: لا وجه لهذه القراءة عندي. وقد أجازها الفراء والزجَّاج. ونسبها القرطبي الى جعفر بن محمّد عليه السلام راجع إعراب القرآن للنحاس: ج ٣ ص ٣٤٣، وتفسير القرطبي: ج ١٤ ص ٢٩٢.

قَالَ: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (١) ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ (٢) ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٣)، والضَّميرُ في ﴿عَلَيْهِمْ﴾ يَعُودُ إلىٰ أَهلِ سَبأ، وقيلَ: يَعُودُ إلى النَّاسِ كُلِّهِمُ إلَّا مَنْ أَطَاعَ ٱلله (٤) وذَلِكَ قَولُهُ: ﴿إِلَّا فَرِيقاً مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْأَخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ(٢١) قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ(٢٢) وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُواْ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ (٢٣) قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ(٢٤) قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ(٢٥)﴾.

أَي: لَمْ يَكُنْ لإبليسَ عَلَيهِم من سَلْطَنَةٍ وٱستيلاءٍ يَتَمَكَّنُ بها من إجْبارِهِم على ٱلغيِّ وٱلضَّلالِ، كَمَا قَالَ: ﴿وَمَا كَانَ لِى عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ﴾ (٥) وتَمْكينِهِ من الاستِغْواءِ بالوسْوَسَةِ لغَرَض صَحيحٍ وحِكْمَةٍ بَالِغَةٍ، وذلكَ أن يَتَمَيَّزَ المُؤْمنُ بالآخرةِ من الشَّاكِّ فيهَا، وعَلَّلَ ذلكَ بالعِلْمِ والمُرادُ ما تَعَلَّقَ بهِ العِلْمُ، وَالحَفِيظُ: المُحافظُ، وفَعيلٌ ومُفَاعِلٌ مُتآخِيانِ.

وأَحَدُ مفعُولَيْ ﴿زَعَمْتُمْ﴾ الضَّميرُ المحذُوفُ الرَّاجِعُ منْهُ إلَى الموصُولِ،

---

(١) الإسراء: ٦٢. (٢) الأعراف: ١٧.

(٣) الحجر: ٣٩.

(٤) قاله مجاهد كما في تفسير القرطبي: ج ١٤ ص ٢٩٢.

(٥) ابراهيم: ٢٢.

والمفعُولُ الثاني: إمَّا أَن يكُونَ ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أو ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾ أَو مَحْذُوفاً، فَلا يَصحُّ الأوَل لأنَّ قَولَكَ: «هُمْ مِنْ دُونِ اللهِ» لا يَلْتَئِمُ كَلاماً، ولا الثّاني لأنَّهم ما كَانُوا يَزعمُونَ ذلكَ، فَبَقِيَ أَن يكونَ محذُوفاً تَقديرُهُ: زَعَمْتُمُوهُم آلهةً من دونِ ٱللهِ، فحُذِفَ الموصُوفُ لِكَونِهِ مفهُوماً، وأَقَامَ صِفَتَهُ مقَامَه، فَمفعُولاَ ﴿زَعَمْتُم﴾ محذُوفَانِ كَمَا تَرىٰ بِسَبَبَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ. ثمَّ أَخْبَرَ عن آلِهَتِهِم بأنَّهُم ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾ زِنَةَ ذَرَّةٍ من خَيْرٍ وشَرٍّ ونَفْعٍ وضُرٍّ ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ولَيسَ لَهُم في شيءٍ منهُمَا نَصيبٌ وَلَا ﴿شِرْكٍ﴾ ولَيسَ للهِ ﴿مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ علىٰ خَلْقِ شيءٍ مِنْهُما.

يُقالُ: الشَّفَاعَةُ لِزَيْدٍ علىٰ معنىٰ: أَنَّهُ الشَّافِعُ، وعلىٰ معنىٰ أَنَّـهُ المشـفُوعُ لَـهُ، فيُحْتَمَلُ قَولُهُ: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا﴾ كَائِنَةً ﴿لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ من الشَّافِعينَ ومُطْلَقَةً لَهُ، مثلُ: الملائكةُ والأنبياءُ والأَولياءُ، أو: لا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إلَّا كائنةً لِمَنْ أُذِنَ لَهُ أي: لِشَفيعِهِ، وهذا تَكْذِيبٌ لِقَولِهِم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [١]، واتَّصَلَ قَولُهُ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ بِمَا فُهِمَ من هٰذا الكَلامِ من أنَّ ثَمَّ ٱنْتِظَاراً للإذْنِ وفَزَعاً من الراجينَ للشَّفَاعَةِ، والشُّفَعَاءُ هَل يُؤْذَنُ لَهُم أو لا يُؤْذَنُ، وأنَّهُ لا يُطْلَقُ الإِذْنُ إلَّا بَعدَ تَربُّصٍ وَتَوقُّفٍ، فكأنَّهُ قَالَ: يَتَربصُونَ مَلِيّاً فَزِعِينَ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ أَي: كُشِفَ الفَزَعُ عن قُلُوبِ الشَّافِعينَ والمشفُوعِ لَهُم بـأَنْ يـأْذَنَ ربُّ العِزَّةِ فـي ٱلشَّفاعَةِ تَباشَروا بذلكَ، وسَأَلَ بَعْضُهُم بَعضاً: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ قَالُوا۟﴾ القَـوْلَ ﴿ٱلْحَقَّ﴾ وهو الإِذْنُ بأَنْ يَشْفَعُوا لِمَن ٱرتَضَىٰ. وقرىء: ﴿أَذِنَ لَهُۥ﴾ أَي: أَذِنَ ٱللَّهُ لَهُ، و«أُذِنَ لَه» [٢] علَى البنَاءِ للمفعُولِ، وقُرِئَ: ﴿فَزَّعَ﴾ علَى البنَاءِ للفَاعِلِ [٣] وهو ٱللَّهُ

---

(١) يونس: ١٨ .

(٢) قرأه حمزة والكسائي والأعشىٰ. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٦٢٤ .

(٣) قرأه ابن عامر وحده. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٥٣٠ .

وَحْدهُ ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ ذُو العُلُوِّ والكبْريَاءِ، لا يَملكُ أَحَدٌ أَن يَتَكَلَّمَ في ذلكَ اليومِ إلّا بإذْنِهِ.

ثمَّ أَمَرَهُ عزَّ ٱسمُهُ أَن يُقرِّرَهم بقولِهِ: ﴿مَنْ يَرْزُقُكُمْ﴾ ثمَّ أَمَرَهُ أَن يَتولّى الإجَابَةَ والإقْرارَ عَنْهُم بقولِهِ: يَرزُقُكُمْ ﴿اللهُ﴾ وذلكَ للإعْلامِ بأنَّهُم مُقِرُّونَ بهِ بقُلوبِهِم إلّا أَنَّهُ رُبَّما لَمْ يَتَكَلَّمُوا بهِ عِناداً، وَأَمَرَهُ أَن يقولَ لَهُم بعد الإلْزام: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ معنَاهُ: أَنَّ أَحَدَ الفَريقَيْنِ من المُوحِّدينَ ومن المُشْركينَ لَعَلَىٰ أَحَدِ الأَمْرَيْنِ من الهُدىٰ والضَلاَلِ، وهذا من كَلامِ المُنْصِفِ الَّذي كُلُّ من سَمِعَهُ قَالَ للَّذي خُوطِبَ بهِ: قَدْ أَنْصَفَكَ صَاحِبُكَ، وَفي دَرجه بَعدَ تَقْدِيم مَا قَدَّمَ من التَـقْريرِ البَليغِ دَلاَلةٌ علىٰ مَن هو علَى الهُدىٰ ومَن هو في الضَّلالِ المُبينِ مـن الفَـريقَيْنِ، ونَحوُهُ قَولُ القَائِلِ لغيرِهِ: إنَّ أَحدَنا لَكَاذِبٌ، وإنْ كَانَ الكَاذِبُ مَعلُوماً، ومنْهُ قَـولُ حَسَّانٍ:

أَتَهْجُوهُ وَلَسْتَ لَـهُ بِكُـفءٍ فَشَرُّكُمَا لِخَيْرِكُمَا الفِدَاءُ[١]

﴿عَمَّآ أَجْرَمْنَا﴾ من المَعَاصِي ﴿وَلَا نُسْئَلُ عَمَّا﴾ تعمَلُونَهُ، بَلْ كُلُّ إنسانٍ يُسْأَلُ عَمَّا يَعْمَلُهُ ويُجَازَىٰ علىٰ فِعْلِهِ دونَ فِعْلِ غَيْرِه.

﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ(٢٦) قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ كَلَّا بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ(٢٧) وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَـذِيرًا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ(٢٨) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِنْ كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ(٢٩) قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ(٣٠)﴾ .

---

(١) والبيت من قصيدة طويلة يهجوبها أبا سفيان أُنظر ديوان حسّان: ج ١ ص ١٨ .

﴿يَفْتَحُ بَيْنَنَا﴾ أَي: يَحْكُمُ وَيَفْصِلُ بالحَقِّ ﴿وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ﴾ الحَاكِمُ ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بِالْحُكْمِ. ومعنىٰ قَولِهِ: ﴿أَرُونِى﴾ وَقَدْ كانَ يَراهُم ويَعرِفُهُم، أَنَّهُ أَرادَ بذلك أَن يُرِيَهُمُ الخَطَأَ العظيمَ في إِلْحَاقِ الشُّركَاءِ باللهِ، ويُنبِّهَهُم عن ضَلَالِهِم في ذلكَ، و ﴿كَلَّا﴾ رَدْعٌ لَهُم عن مَذْهَبِهِم، وَنَبَّهَ علىٰ غَلَطِهِم الفَاحِش بِقَولِهِ: ﴿بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ كَأَنَّهُ قَالَ: أَيْنَ الَّذينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شَرَكاءَ من هذهِ الصِّفَاتِ إِذْ هي للهِ عزَّ ٱسمُهُ وحدَه.

﴿إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾ أَي: إِلَّا رسَالَةً عامَّةً لَهُم مُحِيطَةً بِهِم، لأَنَّها إِذَا عَمَّتْهُم فَقَدْ كَفَتْهُم أَن يَخْرُجَ منْهَا أَحَدٌ مِنْهُم، قَالَ الزَّجَّاجُ: معناهُ: أَرسلْنَاكَ جَامِعاً للنَّاسِ في الإِنْذَارِ والإِبْلاغِ[1]، فَجَعَلَهُ حَالاً من الكافِ، والتَّاءُ للمُبَالَغَةِ كَتَاءِ «الرَّاوية» و«العلَّامة»، ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ مَا لَهُم في ٱتِّبَاعِكَ مِنَ الثَّوابِ، وما عَلَيْهِم من مخَالَفَتِكَ من العِقَابِ، أَو: لا يَعْلَمونَ رِسَالَتَك لإِعْرَاضِهِم عن النَّظَرِ في مُعْجِزَتِكَ.

﴿مِيعَادُ يَوْمٍ﴾ أَي: مِيقَاتُ يَوْمٍ يَنزلُ بِكُم فيهِ ما وُعِدْتُمُوهُ، وهُوَ إِضافَةُ تَبْيِينٍ كـ«سَحْق ثَوْبٍ» وَ «بابِ سَاج»، سأَلُوا علىٰ طَرِيقِ التَّعَنُّتِ فَأُجِيبُوا علىٰ طَرِيقِ التَّهْديدِ أَنَّهُم مُرْصَدُونَ بيوم يُفَاجِئُهُم، فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَأَخُّراً عَنه ولا تَقَدُّماً عَلَيْه.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤْمِنَ بِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ(٣١) قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓاْ أَنَحْنُ صَدَدْنَـٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ(٣٢) وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا وَأَسَرُّواْ

---

(١) معاني القرآن: ج ٤ ص ٢٥٤.

ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَـٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ(٣٣) وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ(٣٤) وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلاً وَأَوْلَـٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ(٣٥)﴾

﴿ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ كُتُبُ ٱللهِ المتقدِّمَةُ، وقيلَ: هو يومُ القِيامَةِ(١)، ومَعناهُ: أَنَّهُمْ جَحَدُوا أَن يكُونَ القُرآنُ مِنْ قِبلِ ٱللهِ، وأَن يكُونَ للبَعْثِ والجَزَاءِ حَقِيقَةٌ، ثمَّ أَخْبَرَ سبحانَهُ عن عَاقِبَةِ أَمْرِهِم بأَن قَالَ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ﴾ يا مُحَمَّدُ صَلَّىٰ ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَو: أَيُّها السَامِعُ مَوقِفَهُم في الآخرةِ وهُم يُراجِعُونَ المُجَادلةَ بينَهُم، لَرَأَيْتَ أَمْراً عَجِيباً، فحُذِفَ جَوابُ ﴿لَوْ﴾.

و﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ﴾ هُمُ الأَتْبَاعُ، و ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ﴾ هُمُ الرُّؤَسَاءُ والقَادَةُ. وقَولُهُ: ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَـٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ﴾ إِنْكَارٌ أَن يكُونُوا هُمُ الصَّادِّينَ لَهُم عِنِ الإِيمانِ، وإِثباتٌ أَنَّهُم هُمُ الَّذينَ صَدّوا بأَنفُسِهِم عَنْهُ باختيارِهِم، كَأَنَّهُم قَالُوا: أَنحنُ أَجْبَرْنَاكُم وحُلْنا بينَكُم وبينَ ٱختيارِكُم؟ بَلْ أَنتم آثرْتُم الضَّلالَ علَى الهُدَىٰ، وأَمْرَ الشَّهوةِ علىٰ أَمْرِ النَّهْي فَكُنْتُم مُجرِمِينَ كَافِرِينَ، وقَولُهُ: ﴿بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم﴾ أُضِيفَ ﴿بَعْدَ﴾ إِلىٰ ﴿إِذْ﴾ اتِّسَاعاً مَعَ كَونِهَا من الظُروفِ اللّازمَةِ، كَمَا أُضِيفَت هي إِلَى الجُملةِ الَّتي هي ﴿جَآءَكُم﴾ فَقَد اتَّسَعَ في الزَّمانِ ما لَمْ يتَّسِعْ في غَيرِهِ، فأُضِيفَ إِليهِ الزَّمانُ وأُضِيفَ إِلَى الجُمَلِ نَحو: «حِينئذٍ» و «يَوْمَئذٍ»، و «جِئْتُكَ أَوان الحَجَّاجِ أَمير» و «حِينَ خَرَجَ زَيد».

ثمَّ كَرَّ المستَضْعَفُونَ علَى المستَكْبِرِينَ بقَولِهِم: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ فَأَبْطَلُوا إِضْرَابَهُم بإِضْرابِهِم، كَأَنَّهم قَالُوا: ما كانَ الإِجْرامُ مِنْ جِهَتِنا بَلْ مِنْ جهَةِ

---

(١) حكاه الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ٥٨٤ .

مَكْرِكُم لَنا دَائِباً لَيلاً ونَهَاراً، وحَمْلِكُم إِيَّانا علَى الكُفْرِ واتِّخاذِ الأَنْـدادِ. والمـعنىٰ: مَكْرُكُم في اللَّيلِ والنَّهارِ، فاتَّسَعَ في الظَّرفِ بإجْرائِهِ مَجْرَى المفعولِ بهِ في إضَافَةِ المَكْرِ إليهِ، أو: جَعَلَ لَيْلَهُم ونَهارَهُم مَاكِرَيْنِ علَى الإِسْنَادِ المَجازي. والضَّميرُ في ﴿وَأَسَرُّواْ﴾ ضَميرُ الجِنْسِ المُشْتَملُ علَى النَّوعَيْنِ من المُستَكبرِينَ والمُستَضْعَفِينَ، وهُمُ الظَّالِمُونَ في قَولِهِ سبحانَهُ: ﴿إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ مَوقُوفُونَ﴾ فَندمَ الرُّؤَسَاءُ عـلىٰ ضَلالِهِم وإضْلَالِهِم، والأَتْباعُ علىٰ ضَـلَالِهِم. والمـعنىٰ: أخْـفَوْا النَـدامَـةَ، وقـيلَ: أَظْهَرُوها[١]، وهو مِنَ الأَضْدادِ، وَقَدْ فُسِّرَ علَى الوجْهَيْنِ بَيْتُ ٱمرئ القَيْسِ:

تَجَاوَزْتُ أَحْراسَـاً إليـهَا ومَـعْشَراً علَيَّ حِراصَاً لو يُسِرُّونَ مَقْتَلِي[٢]

﴿فِي أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: في أَعْنَاقِهِم فَجاءَ بالمُظْهَرِ لِلتَّنْويهِ بذَمِّهِم.

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ(٣٦) وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَأُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِـمَا عَـمِلُواْ وَهُـمْ فِـى ٱلْغُرُفَـٰتِ ءَامِنُونَ(٣٧) وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مُعَـٰجِزِينَ أُوْلَـٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ(٣٨) قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ(٣٩) وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَهَـٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ(٤٠) قَالُواْ سُبْحَـٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَـانُواْ يَـعْبُدُونَ ٱلْـجِنَّ أَكْـثَرُهُم بِـهِم

(١) حكاه الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ٥٨٥.

(٢) والبيت من معلّقته المشهورة التي مطلعها:

قِفَا نبكِ مـن ذكـرى حـبيبٍ ومـنزل بِسِقْطِ اللِّوىٰ بـين الدَّخُـول فَـحَوْملِ

أُنظر ديوان امرئ القيس: ص ٣٩.

مُّؤْمِنُونَ(٤١) فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ(٤٢)﴾

﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ﴾ الّتي خُوِّلتُموها ﴿وَلا أَولادُكُمْ﴾ الّتي رُزِقْتُمُوها بالجَماعةِ الَّتي ﴿تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا﴾ قُرْبةً، والزُّلْفَىٰ والزُّلْفَةُ كالقُرْبىٰ والقُرْبَةِ، ومَحلُّ ﴿زُلْفَىٰ﴾ نَصْبٌ علَى المَصْدَرِ، فهو كقَولِهِ: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُمْ مِنَ ٱلأَرْضِ نَبَاتاً﴾[1]. ﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ﴾ استِثْناءٌ مِنْ «كُمْ» في ﴿تُقَرِّبُكُمْ﴾ والمعنىٰ: إنَّ الأَموالَ لا تُقَرِّبُ أَحداً إلّا المُؤمنَ الصّالحَ الَّذي يُنْفِقُها في سَبيلِ ٱللهِ، والأَولادَ لا تُقَرِّبُ أَحداً إلّا مَنْ رَشَّحَهم للصَّلاحِ وعَلَّمَهمِ الدِّينَ ﴿فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ ٱلضِّعْفِ﴾ بأَن يُضاعَفَ لَهُم حَسَناتُهم فَيجزي بالحَسَنَةِ الواحِدَةِ عَشْراً فَصاعِداً إلىٰ سَبْعِمائةٍ وأَكثر، و «جَزاءُ الضِّعْفِ» من إضافَةِ المَصْدرِ إلَى المفعُولِ. وأَصلُهُ: فأُولئكَ لَهُم أَن يُجازَوْا الضِّعْفَ، ثمَّ جَزاءَ الضِّعْفِ ثمَّ جَزاءَ الضِّعْفِ. وقُرئَ: «جَزاءً الضِّعْفُ»[2] علىٰ: فأُولئكَ لَهُمُ الضِّعْفُ جَزاءً، وقرئ: «فِي الغُرْفَةِ» على التَّوحيد[3]، و ﴿فِى ٱلْغُرُفَٰتِ﴾ علَى الجَميعِ[4]، وهي البُيُوتُ فَوقَ الأَبنيةِ ﴿ءَامِنُونَ﴾ من الغِيَر[5] والآفاتِ والمَوْتِ والحزْنِ.

﴿وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ﴾ يَجْتَهِدُونَ ﴿فِى﴾ إبْطَالِ ﴿ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ﴾ لأَنْبيائنا، ومُعْجِزينَ: مثبِّطينَ غَيرَهُم عن طاعَتِهِم ﴿أُولَئِكَ﴾ مُحصَّلُونَ في العَذابِ أُحْضِرُوا فيهِ.

وكَرَّرَ قَولَهُ: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ﴾ لأَنَّ الأَوّلَ خُوطِبَ بِهِ

---

(١) نوح: ١٧.

(٢) قرأه رويس. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٦٢٤.

(٣) وهي قراءة حمزة وحده. راجع المصدر السابق.

(٤) في نسخة: «الجمع».

(٥) غِيَرُ الدهرِ: أحواله المتغيِّرة من الصلاح الى الفَساد. (لسان العرب: مادة غَيَرَ).

الكُفَّارُ، والثَّانِي وَعْظٌ للمُؤمنينَ، فكأنَّه قَالَ: لَيْسَ إغْنَاءُ الكُفَّارِ لِكَرامَتِهِم، وإغْـنَـاءُ المُؤْمنينَ يجوزُ أَن يكُونَ زِيَادةً في سَعَادَتِهِم بأَن يُنْفِقُوها في سبيلِ ٱللهِ، ويَدُلُّ عليهِ قَوْلُهُ: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ أي: يُعَوِّضُهُ، ويُعَقِّبُكُم [١] خَلَفَهُ إمَّا عَاجِلًا بِزِيَادةِ النِّعْمةِ، وإمَّا آجِلًا بالثَّوابِ الَّذي كُلُّ خَلَفٍ دونهم [٢].

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ الغَرَضُ من سُؤَالِ المَـلَائكةِ أَن يـقُولَ ويـقُولُوا، وَيسْأَلَ ويُجِيبُوا، فَيكُونُ تَقْرِيعُ الكُفَّارِ أَبْلَغَ وتَعييرُهُم أَشَدَّ، ويَكُونُ ٱقتصاصُ ذلكَ زَجْراً للسَّامِعِ ولُطْفاً لَهُ، ونَحْوُهُ قَوْلُهُ: ﴿يَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [٣] والمُوالاةُ مُفَاعَلَةٌ من الوليِّ وهو القُرْبُ، كَمَا أنَّ المُعَاداةَ مُفَاعَلَةٌ من العَدُوِّ وهي البُعْدُ، والوَليُّ يَقَعُ علَى المُوالِي والمُوالَىٰ جَميعاً، والمعنىٰ: أَنْتَ الَّذي تُواليه من دونِهم إذْ لا مُوالَاة بينَنا وبينَهُم، فَبيَّنُوا بإثباتِ مُوالاةِ ٱللهِ ومُعَاداةِ الكُفَّارِ بَراءَتَهُم من الرِّضا لعبادَتِهم لَهُم ﴿بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ﴾ يُريدُونَ الشَّياطِينَ حَيثُ أَطَاعُوهُم في عِبادةِ غَيْرِ ٱللهِ.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ(٤٣) وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ(٤٤) وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ(٤٥) قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ(٤٦) قُلْ مَا

(١) في نسخة: «ويعطيكم». (٢) في بعض النسخ: «دونه».
(٣) المائدة: ١١٦.

سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ(٤٧) قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ (٤٨)﴾

﴿هٰذَآ﴾ الأوَّلُ إشارةٌ إلىٰ رسُولِ ٱللهِ، والثَّانيةُ إِلَى القُرآنِ، والثَّالثةُ إِلَى الحَقِّ، والحقُّ أَمرُ النُّبوَّةِ كلُّهُ ودينُ الإسلامِ كَمَا هُو، وفي قَولِهِ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ ولَمْ يَقُلْ «قَالُوا»، وفي قَولِهِ: ﴿لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ وما في اللَّامَيْنِ مِن الإشارة إلى القَائلينَ والمَقُولِ فيهِ وما في «لَمَّا» من المبَادَهةِ بالكُفْرِ، دَليلٌ علىٰ أنَّ الكَلامَ صَدَرَ عن إنْكارٍ عَظِيمٍ وَغضَبٍ شَديدٍ، كأنَّهُ قَالَ: وقَالَ أُولَئِكَ الكَفَرَةُ المُتَمرِّدونَ بِجُرْأَتِهِم علَى ٱللهِ ومُكَابَرتِهِم لِمثْلِ ذلكَ الحَقِّ الواضِحِ قَبلَ أَن يَخْتَبروهُ ويَتَدبَّروهُ: ﴿إِنْ هٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ فَقَضَوْا بأَنَّهُ سِحرٌ ظَاهِرٌ.

﴿وَمَا ءَاتَيْنَـٰهُمْ﴾ كُتُباً يَدْرسُونَها فيها بُرهَانٌ علىٰ صحَّةِ الشِّرْكِ، ولَا ﴿أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ﴾ نَذيراً يُنْذِرُهُم بالعقَابِ إنْ لَمْ يشركُوا كَمَا قَالَ: ﴿أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰناً فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِ يُشْرِكُونَ﴾ (١) أَو أرادَ: لَيسَ لَهُم عَهْدٌ بإنْزالِ الكتَابِ ولا بَعْثِ رَسُولٍ، فَهُمْ أُمِّيُّون أَهلُ جاهِلِيَّةٍ لَا ملَّةَ لَهُم، كما قَالَ: ﴿أَم ءَاتَيْنَـٰهُمْ كِتَـٰباً مِّنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ (٢) ثمَّ توعَّدَهُم علىٰ تَكذِيبِهِم فَقَالَ: ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ كَمَا كَذَّبُوا، وما بَلَغَ هؤلاء ﴿مِعْشَارَ﴾ مَا آتَينا أُولئِكَ من طُولِ الأَعْمارِ وكثْرةِ الأَمْوالِ وعِظَمِ الأَجْسَامِ، فَحِينَ كَذَّبُوا ﴿رُسُلِى﴾ جَاءَهُم نَكيري، أَي: عقُوبَتي وتَغْييري لأَحْوالِهِم بالتَّدْمير والاستِئْصَالِ، ولَمْ يُغْنِ عنهم ما استَظْهَروا بِهِ من القوَّةِ والثَّروةِ، فَمَا بالَ هؤلاءِ لا يحذَرونَ أن يَنزلَ بِهِم مثلُ ما نَزَلَ بأُولئِكَ من النَّقْمَةِ؟

﴿قلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ﴾ بِخَصْلةٍ ﴿وَاحِدَةٍ﴾، وفَسَّرَهَا بقولِهِ: ﴿أَنْ تَقُومُوا لِلهِ مَثْنَىٰ﴾

---

(١) الروم: ٣٥. (٢) الزخرف: ٢١.

علىٰ أنّه عَطْفُ بَيانٍ لَهَا، وأرادَ بقيامِهِم: إمَّا القِيامُ عن مَـجْلِس رسـولِ ٱللهِ ﷺ وتَفرُّقُهُم عَنْهُ، وإمَّا القِيَامُ الَّذي لا يُرادُ بِهِ المثولُ علَى القَدَمَيْنِ ولكن الانتِصَابُ في الأَمْرِ والنُّهُوضِ فيهِ بالهِمَّةِ، والمعنىٰ: إنَّما أَعِظُكُم بِواحِدَةٍ إنْ فَعَلْتُمُوهَا أَصَبْتُم الحقَّ، وهي أَن تقُومُوا لِوجْهِ ٱللهِ خَالصاً اثْنينِ اثْنينِ وواحِداً واحِداً ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ﴾ في أَمْرِ محمَّدٍ ﷺ ومَا جَاءَ بِهِ بِعَدْلٍ وإنْصَافٍ من غيرِ عَنادٍ ومُكَابَرةٍ.

وأَرادَ بقَولِهِ: ﴿مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ﴾ أنَّ هذا الأَمْرَ العَظِيمَ الَّذي تَحتَهُ مُـلْكُ الدُّنيا والآخرةِ جَميعاً لا يَتَصدَّىٰ لادِّعَاءِ مِثْلِهِ إلَّا أَحَدُ رَجُلَيْنِ: إمَّا مَجنُونٌ لا يُبالي بافتِضَاحِهِ إذا طُولِبَ بالبُرهانِ فَعَجزَ، وإمَّا عَاقِلٌ كَامِلٌ مُرشَّحٌ للنبوَّةِ مُؤَيَّدٌ من عند ٱللهِ بالآياتِ والحُجَجِ، وقَد عَلِمْتُم أنَّ محمداً ﷺ ما بِهِ من جنُونٍ، بَلْ عَلِمْتُمُوهُ أَرجَحَ النَّاسِ عَقْلاً، وأَصْدَقَهُم قَولاً، وأَجْمَعَهُم للمَحَامِد. وَ ﴿مَا﴾ للنَّفْي، ويكـونُ ٱستئنافَ كَلامٍ تَنْبِيهاً من ٱللهِ علىٰ طَرِيقَةِ النَظَر في أَمْرِ رسولِ ٱللهِ ﷺ ، ويجوزُ أَن يكُونَ المعنىٰ: ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾ فتَعلَمُوا مَا بصَاحِبِكُم من جِنَّةٍ. ويَـجوزُ أن يكُـونَ ﴿مَا﴾ ٱستفهاميَّةً بمعنىٰ: أيُّ شَيءٍ بِهِ من جِنَّة؟ وهَلْ رَأَيتُم من مَـنْشَئِه إلىٰ مَـبْعَثِهِ وَصْمَةً فيهِ تُنافي النُّبُوةَ؟ ﴿إنْ هُوَ إلَّا نَذِيرٌ﴾ أي: مُخَوِّفٌ ﴿بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ يَوم القيامةِ.

﴿مَا سَأَلْتُكُمْ﴾ تقديرُهُ: أَيُّ شيءٍ سَأَلْتُكم ﴿مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾ وفيهِ مَعْنَيَانِ: أَحَدُهُما: نَفْي مَسأَلةِ الأَجْرِ رَأْساً كَما يقُولُ الرَّجُلُ لِصَاحِبِهِ: إنْ أَعْطَيْتَني شَيئاً فَخُذْهُ، وهو يَعلَمُ أَنَّهُ لَمْ يَعْطِهِ شَيئاً، والمُرادُ: لا أَسْأَلُكُم علىٰ تَبليغِ الرِّسالةِ شَيئاً مِنْ عَرَضِ الدُّنيا فَتَتَّهِمُوني، والآخرُ: أَن يُريدَ بالأَجْرِ ما يُريدُهُ في قَولِهِ: ﴿قلْ مَا أَسْئَلُكمْ عَلَيْهِ مِن أَجْرٍ إلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾[1] وفي قَولِهِ: ﴿قُلْ لَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ

(١) الفرقان: ٥٧.

أَجْراً إِلَّا ٱلْمَوَدَّةُ في القُربىٰ﴾[(١)]؛ لأنَّ اتّخاذ السبيل إلى الله يصيبهم، ونفعه عائد إليهم، وكذلك المودّة في القُربىٰ؛ لأنَّ ذُخْرَهَا لَهُم دونَه ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللهِ﴾ أي: لَيسَ ثَوابُ عَمَلي إلَّا علَى ٱللهِ فَهُو يُثيبُني عليهِ.

القَذْفُ: الرَّمْيُ، وهو مُسْتَعَارٌ لِمَعْنَى الإلْقَاءِ، ومعنىٰ ﴿يَقْذِفُ بِالْحَقِّ﴾: يُلقِيهِ ويُنْزِلُهُ إلىٰ أنبيائِهِ، أو: يلقِيهِ علَى الباطِلِ ﴿فَيَدْمَغُهُ﴾ ويزْهَقُهُ ﴿عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ رَفْعٌ مَحْمُولٌ علىٰ محلِّ ﴿إِنَّ﴾ مَعَ ٱسمِهَا، وهو خَبَرُ مبتدأ مَحْذُوف.

﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ(٤٩) قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ(٥٠) وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُواْ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ (٥١) وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ(٥٢) وَقَدْ كَفَرُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ(٥٣) وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُواْ فِى شَكٍّ مُّرِيبِۭ(٥٤)﴾

الحيُّ: إِمَّا أَن يَبْدَأَ فِعْلًا أو يُعِيدَهُ، فإذا هَلَكَ لَمْ يكُنْ مِنهُ إِبْدَاءٌ ولا إعَادةٌ، فَجَعَلُوا قَولَهُم: «لا يُبْدِئُ وَلا يُعيدُ» مَثَلاً للهَلاكِ، ومنْهُ قَولُ عَبيدٍ:

أَقْفَرُ مِنْ أَهْلِهِ عَبِيدُ ... فَاليَوْمَ لا يُبْدِي وَلا يُعِيدُ[(٢)]

والمعنىٰ: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾ وهَلَكَ البَاطِلُ، وعن ٱبنِ مسعُودٍ قالَ: دَخَلَ رسولُ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مكّةَ وحوْلَ البَيتِ ثَلاثمائَةٌ وستُّونَ صَنماً، فَجَعَلَ يَطْعَنُها بِعُودٍ في يَدِهِ ويقُولُ: «جَاءَ الحقُّ وزَهَقَ الباطِلُ إنَّ الباطِلَ كانَ زَهُوقاً، جَاءَ ٱلحقُّ

(١) الشورىٰ: ٢٣.
(٢) لعبيد بن الأبرص الأسدي، ومعناه: أنّ الهالك لم يبق له إبداء ولا إعادة كما يقال: لا يأكل ولا يشرب. أنظر ديوان عبيد: ص ١١.

وَمَا يُبدِئ الباطِلُ ومَا يُعِيد»[١].

﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ﴾ عنِ الحقِّ كَمَا زَعَمْتُم ﴿فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى﴾ أي: فإنَّمَا يَرجعُ وَبَالُ الضَّلالِ عَلَيَّ لأنَّ المأْخُوذَ بِهِ دونَ غَيْري ﴿وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ﴾ إلى الحقِّ فَبِفَضْلِ ﴿رَبِّىٓ﴾ حيثُ أَوحَىٰ ﴿إِلَيَّ﴾ فَلَهُ المِنَّةُ بذلكَ عَلَيَّ.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ جَوَابُهُ مَحْذُوفٌ والتَّقديرُ: لَرَأَيْتَ أَمْراً عَظِيماً. و﴿لَوْ﴾ و﴿إِذْ﴾ والأَفعالُ الَّتي هي ﴿فَزِعُواْ... وأُخِذُواْ... وحِيلَ بَيْنَهُم﴾ كلُّها للمُضِيِّ، والمُرادُ بها الاستقبالُ؛ لأنَّ ما اللهُ فَاعِلُهُ في المُستَقْبِلِ بمنزلةِ ما قَد كانَ ووُجِد لِتَحَقُّقِهِ، وَوَقْتُ الفَزَع: وَقْتُ البَعْثِ ﴿فَلَا فَوْتَ﴾ لا يَفُوتُ منْهُم أَحَدٌ، والْمَكَانُ القَريبُ يَعني بِهِ القَبْرَ، وقيلَ: هو فَزَعُهُمْ عِنْدَ المَوْتِ ومُعايَنَةِ ملائكَةِ العَذَابِ لِقَبْضِ الأَرواح[٢]، وقيلَ: يَوم بَدْرٍ حين ضُرِبَتْ أَعْنَاقُهُم فَلَمْ يَستَطيعُوا فراراً[٣]، وقيلَ: هُو جيشٌ يُخْسَفُ بِهِمْ بالبَيْدَاءِ، يُؤْخَذُونَ من تَحتِ أَقْدامِهِم[٤]، ﴿وأُخِذُواْ﴾ عَطْفٌ علىٰ ﴿فَزِعُواْ﴾ أي: فَزِعُوا وأُخِذُوا فَلَا فَوْتَ لَهُم، أو: علىٰ ﴿لَا فَوْتَ﴾ أي: إذْ فَزِعُوا فَلَمْ يَفُوتُوا وأُخِذُوا. ﴿وَقَالُوٓاْ﴾ أي: ويقُولُونَ في ذلكَ الوَقْتِ: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ أي: بمحمَّدٍ صلى الله عليه وآله وسلم؛ لأنَّ ذِكْرَهُ مَرَّ في قَولِهِ: ﴿مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ﴾، ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ﴾ وهو التَنَاولُ السَّهْلُ لشيءٍ قَريبٍ، وهذا تَمثيلٌ لِطَلَبِهِم ما لا يكُونُ، وهو أَنْ يَنْفَعَهُم إيْمانُهُم في ذلكَ الوقْتِ كَمَا نَفَعَ المؤمِنينَ إيمانُهم في الدُّنيا، مُثِّلَتْ حالُهُمْ بحَالِ من يُريدُ تَناولَ الشَّيءِ من مَكَانٍ بَعيدٍ مِثْلَ ما يَتَنَاولُهُ الآخرُ من مَوضِعٍ قَريبٍ تَناولاً

---

(١) رواه عنه مسلم في صحيحه: ج ٣ ص ١٤٠٨ ح ١٧٨١.
(٢) قاله قتادة. راجع تفسير الطبري: ج ١٠ ص ٣٨٨.
(٣) قاله السدي. راجع تفسير الماوردي: ج ٤ ص ٤٥٨.
(٤) وهو قول سعيد بن جبير. راجع المصدر السابق.

سَهْلاً، وقُرئ: «التَّناؤش»[١] هُمِزَتِ الواوُ المضمُومةُ كَمَا هُمِزَتْ واو «أدْؤُر»[٢]، وقِيلَ: هو من «النَّأْشِ» وهو الطَّلَبُ[٣]، قالَ رؤْبةُ:

إليكَ نَأشَ القَدَر...[٤]

النُّؤُوشُ والنَّئِيشُ: الحَرَكَةُ في الإبْطَاءِ، قَالَ:

تَمَنَّىٰ نَئيشاً أن يَكُونَ أَطَاعَني وَقَدْ حَدَثَتْ بعد الأُمورِ أُمورُ[٥]

أَي: أَخيراً، فَنَصَبَهُ على الظَّرْفِ. ﴿وَيَقْذِفُونَ﴾ عَطْفٌ علىٰ ﴿كَفَرُواْ﴾ علىٰ حِكَايةِ الحالِ الماضيةِ، أي: وكانُوا يَرْمُونَ محمّداًﷺ بالظُّنُونِ الكاذبةِ، ويأْتُونَ بِهِ ﴿مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾، وهو قَوْلُهُم: إنَّه سَاحِرٌ وشَاعِرٌ وكذَّابٌ ومجنونٌ، وقَدْ أتَوْا بِهِ من ﴿مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ أي: من جِهَةٍ بَعيدةٍ من حَالِهِ، لأنَّ أَبْعَدَ شيءٍ ممَّا جاءَ بِهِ: السِّحْرُ، والشِّعْرُ، والجنُونُ، وأَبْعد شيءٍ من عَادَتِهِ الكَذِبُ، والزُّورُ.

﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: فُرِّقَ بينَهُم وبينَ مُشْتَهيَاتِهِم ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ﴾ بأَشْباهِهِم من كَفَرَةِ الأُمَمِ ومُوافِقِيهِم وأَهْلِ دينِهِم، أنَّهُم كَانُوا ﴿فِى شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾ أي: مُشَكِّكٍ، كَمَا قَالُوا: عَجَبٌ عَجِيب.

۞ ۞ ۞

---

(١) قرأه حمزة والكسائي وأبو عمرو. راجع التبيان: ج ٨ ص ٤٠٨.

(٢) في نسخة: «أذؤد»، وأخرىٰ: «أدؤد»، وثالثة: «داؤد»، والظاهر أنّ الصحيح ما أثبتناه عن نسخةٍ وما في الكشّاف. والأَدْؤر والأَدْور: جمع دار كما في اللسان.

(٣) حكاه القيسي في الكشف: ج ٢ ص ٢١٨.

(٤) والبيت:

أقحمني جارُ أبي الخاموش إليكَ نأشَ القَدرَ النَؤوش

أُنظر مجاز القرآن: ج ٢ ص ١٥١.

(٥) لنهشل بن حرّي من أبيات في عبدٍ له قد عصاه فندم، يقول: أنّه تمنّىٰ في الأخير وبعد الفوت أن لو أطاعني، فطاعته جاءت في وقت لاتنفعه بعد ما حدثت أُمور وأُمور. أُنظر لسان العرب: مادة «نأش».

سُورة فاطر

أَو سُورةُ الملائكةِ[١]، مَكِّيةٌ[٢] إلَّا آيتَيْن، وهي خَمسٌ وأَربعُونَ آيةً، ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾[٣]، و ﴿أَن تَزُولَا﴾[٤]، و ﴿تَبْدِيلًا﴾[٥] ثَلاثهُنَّ بَصْريٌّ جَديدٌ، و ﴿ٱلْبَصِيرُ﴾[٦] و ﴿ٱلنُّورُ﴾[٧] غيرُهُم[٨].

في حَديثِ أُبيٍّ: «مَنْ قَرأَ سُورةَ الملائكةِ دَعَتْهُ يَوم القيامةِ ثَمانيةُ أَبْوابٍ مِن أبوابِ الجنَّةِ: أَن ادْخُلْ مِن أَيِّ الأَبوابِ شِئْتَ»[٩].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ

---

(١) في بعض النسخ: «سورة الملائكة».

(٢) قال الشيخ الطوسي في التبيان: ج ٨ ص ٤١٠: مكّية في قول مجاهد وقتادة، لا ناسخ فيها ولا منسوخ وبه قال الحسن، إلّا آيتين قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كتابَ ٱللَّهِ﴾ الى قوله: ﴿الفَضْلُ ٱلكَبِيرُ﴾ وهي خمس وأربعون آيةً عراقي وحجازي إلّا اسماعيل، وستّ وأربعون في عدد اسماعيل والشاميّين.

وفي الكشّاف: ج ٣ ص ٥٩٥: مكّية وهي خمس وأربعون آيةً نزلت بعد الفرقان.

(٣) الآية: ٧.

(٤) الآية: ٤١.

(٥) الآية: ٤٣.

(٦) الآية: ١٩.

(٧) الآية: ٢٠.

(٨) أي غير البصري.

(٩) أورده الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ٦١٩ مرسلاً.

أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ(١) مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ(٢) يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ(٣) وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ(٤) يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ(٥)﴾

﴿فَاطِرِ السَّمَٰوَاتِ﴾ إنْ جَعلْتَ الإِضَافَةَ لَفْظِيَّةً ـ بأَن تكونَ في تَقْديرِ الانفصالِ ـ فهو بَدَلٌ، وإنْ جَعلْتَهَا معنويَّةً فهو صِفَةٌ ﴿مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ صِفَةٌ لـ﴿أَجْنِحَةٍ﴾ عُدِلَتْ عن ٱثنينِ ٱثنينِ، وثلاثَةٍ ثَلاثَةٍ، وأَربعةٍ أَربعةٍ، ومعنَى العِدْلِ: أَنَّكَ أَرَدْتَ بمَثْنَىٰ ما أَرَدْتَ باثْنينِ اثْنينِ، والأَصلُ أَن تُريدَ بالكلمةِ معنَاهَا دونَ كلمةٍ أُخرىٰ، والعِدْلُ: أَن تَلَفَّظَ بكَلِمةٍ وأنْتَ تُريدُ كَلِمةً أُخرىٰ، والمعنىٰ: أَنَّهُ جَعَلَ من الملائكةِ خَلْقاً أَجْنِحَتُهُمْ اثنانِ اثنانِ، أي: لكلِّ واحدٍ جَنَاحَانِ، وخَلْقاً أَجْنِحَتُهُم ثَلاثةٌ ثَلاثةٌ، وخَلْقاً أَجنِحَتُهُم أَربعةٌ أَربعة ﴿يَزِيدُ فِى﴾ خَلْقِ الأَجْنِحَةِ وفي غَيْرِ ذلكَ ﴿مَا يَشَآءُ﴾ مِمَّا تَقتَضِيهِ حِكْمتُهُ ومَشِيئَتُهُ. والآيةُ مطلقةٌ تتَنَاولُ كُلَّ زيادةٍ في الخَلْقِ من: طُولِ قَامَةٍ، وٱعتِدَالِ صُورةٍ، وقُوَّةٍ في البَطْشِ، وحَصَافَةٍ في العَقْلِ... إلىٰ غَيْرِ ذلكَ، وقيلَ: هو الوجهُ الحَسَنُ والصَّوتُ الحَسَنُ والشَّعْرُ الحَسَن(١).

﴿مَا يَفْتَحِ ٱللَّهُ﴾ يَعني: أيُّ شَيءٍ يُطْلِقُ ٱللهُ ﴿مِن رَّحْمَةٍ﴾ أي: من نِعْمَةِ رزْقٍ أو مَطَرٍ أو عَافيةٍ أو صَحَّةٍ أو غَيْرِ ذلكَ من أَصْنَافِ نِعَمِهِ ﴿فَلَا﴾ أَحدٌ يقدرُ علىٰ

(١) قاله القشيري كما في تفسير القرطبي: ج ١٤ ص ٣٢٠، وأورده الزمخشري في الكشاف: ج ٣ ص ٥٩٦ مروياً عن النبي ﷺ.

إمسَاكِهَا، وأيُّ شيءٍ ﴿يُمْسِك﴾ ٱللهُ فَلَا أَحَدَ يَقْدِرُ علىٰ إطْلاقِهِ، والفَـتْحُ مُسْـتَعَارٌ للإطْلاقِ والإرْسَالِ بدلالةِ قَولِهِ: ﴿فَلَا مُرْسِلَ لَهُ﴾ مَكَان «لا فَاتِحَ لَه»، وإنَّما نَكَّرَ «الرَّحْمَة» لإرَادةِ الشِّيَاعِ، كأنَّهُ قَالَ: مِن أيَّةِ رَحْمةٍ كانَتْ سَمَاويَّةً أو أَرَضيَّةً، وأنَّثَ الضَميرَ أوَّلاً وذَكَّرَهُ ثانياً وهو يَرجعُ فِي الحَالَيْنِ مَعاً إلىٰ مـا حُـمِلا عـلى اللَّـفْظِ والمعنىٰ، ولأنَّ الأَوَّلَ فُسِّرَ بالرَّحمةِ فَتبعَ الضَّميرُ التَّفْسِيرَ، والثاني لَمْ يُفَسَّرْ فَـتُرِكَ علىٰ أَصْلِ التذْكيرِ، ولأنَّ تَفْسيرَ الثاني يُحتَمَلُ أَن يكونَ مطْلَقاً في كلِّ ما يُمْسِكُهُ من غَضَبِهِ ورَحْمَتِهِ. وإنَّما فُسِّرَ الأَوَّلُ دونَ الثاني لِيَدُلَّ علىٰ أنَّ رَحْمَتَهُ سَبَقَتْ غَضَبَهُ.

و ﴿ٱذْكُرُوا نِعْمَتَ ٱللهِ عَلَيْكُمْ﴾ بـالقَلْبِ واللِّسَـانِ، واحـفظُوهَا عـن الغَـمْطِ والكُفْرانِ، واشكرُوهَا بالاعترافِ بهَا وطَاعةِ مَوليهَا! ﴿هَلْ مِنْ خَـٰلِقٍ غَـيْرُ ٱللهِ﴾ قُرِئ: ﴿غَيْرُ﴾ بالرَّفع والجرِّ[1] على الوَصْفِ لَفْظاً ومَحَلاً، و ﴿يَرْزُقُكُم﴾ يجوزُ أَن يكُونَ في مَحَلِّ جرٍّ بأَن يكونَ صِفَةً لـ﴿خـٰلِق﴾، وأَن لا يكُونَ لَهُ مَحَلٌّ بأَنْ يكونَ مَحَلَّ ﴿مِنْ خَـٰلِقٍ﴾ رَفْعاً بإضْمارِ «يرزقكم»، ويفسِّرُهُ هذا الظَّاهِر، أو يكُونَ كَلَاماً مستأْنفَاً بعد قَولِهِ: ﴿هَلْ مِنْ خَـٰلِقٍ غَيْرُ ٱللهِ﴾، وعلىٰ هذا الوجْهِ الثَّالثِ يكونُ فيهِ دَلالَةٌ علىٰ أنَّ الخَالِقَ لا يُطلَقُ علىٰ غَيْرِ ٱللهِ عزَّوجلَّ، وأمَّا على الوجْهَيْنِ المتَقدِّمَيْنِ من الوَصْفِ والتَفْسيرِ فَلا دَليلَ فيهِ علىٰ ٱختِصَاصِ الاسم باللهِ عزَّوجلَّ؛ لأنَّهُ تقيَّدَ بالرِّزْقِ من السَّمَاءِ والأَرضِ[2] وخَرَجَ من الإطْلاقِ، والرِّزْقُ من السَّماءِ بالمَطَرِ ومن الأَرضِ بالنَّباتِ ﴿لا إلٰه إلَّا هُوَ﴾ جُمْلةٌ مفصُولةٌ لا مَحَلَّ لَهَا ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ فَمِنْ أَيِّ وَجْهٍ تُصرَفُونَ عن التَّوحيدِ إلَى الشِّرْكِ، وعن الحقِّ إلَى الباطِلِ؟ وقـيلَ: كَيفَ تُصرَفُونَ عن هذهِ الدَّلالةِ الّتي أُقيمَت[3] لَكُمْ علَى التَوحيدِ مَعَ وضُوحِهَا؟

(١) وبالجرِّ قرأه حمزة والكسائي. راجع التبيان: ج ٨ ص ٤١١.
(٢) في نسخة: «الى الأرض». (٣) في نسخة: «الأدلّة التي أقمتها لكم».

الأَصْلُ: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ﴾ فَتَأَسَّ بِتكْذيبِ الرُّسُلِ من قَبلِكَ، فَوَضَعَ ﴿فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾ مَوْضِعَ «فتأَسَّ بِهِ» استِغْناءً بالسَّبَبِ عن المُسَبَّبِ، أَعني: بالتَّكْذيبِ عن التَّأَسّي، وَنَكَّرَ ﴿رُسُل﴾ لأَنَّ تَقْديرَهُ: رُسُلٌ ذَوُو عَدَدٍ كَثيرٍ وأُولُو آياتٍ ومُعْجزَاتٍ، ونَحُو ذلكَ.

﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللهِ﴾ الَّذي هو البَعْثُ والنُّشورُ والجَنَّةُ والنَّارُ والجَزاءُ والحِسابُ ﴿حَقٌّ فَلَا﴾ تَخْدَعَنَّكُم ﴿ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ فَتَغْتَرُّوا بِمَلاذِّها، فإنَّها عن قَليلٍ تَنْفَدُ وتبيدُ، و ﴿ٱلْغَرُورُ﴾: الشَّيطانُ، أَوِ الدُّنْيا وَزِينَتُها.

﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ(٦) ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ(٧) أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ(٨) وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَـٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ(٩) مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُوْلَـٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ(١٠)﴾

لَمَّا ذَكَرَ الكافرينَ والمؤْمنينَ قَالَ للنبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ﴾ مِنْ هذينِ الفَريقَيْنِ كَمَنْ لَمْ يُزَيَّنْ لَهُ؟ فَكَأَنَّ النبيَّ عليه السلام قالَ: لا، فَقالَ: ﴿فَإِنَّ ٱللهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَآءُ وَيَهْدِى مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾ ومعنىٰ تَزْيينِ العَمَلِ والإضْلالِ واحِدٌ، وهو أَن يكُونَ العَاصِيَ علىٰ صِفَةٍ لا يَجْدي عليهِ اللُّطْفُ فَيستَوجبُ أَن يُخَلِّيَهُ ٱللهُ وشأْنَه، فَعِنْدَ ذلكَ يَهيمُ في الضَّلالِ فَيرَى القَبيحَ حَسَناً

والحَسَنُ قَبيحاً، وإذا خذَلَهُ ٱللهُ فَمِنْ حَقِّ الرَّسولِ صلوات الله عليه أن لا يَهتَمَّ بأَمْرِهِ ولا يَتحَسَّرَ. وعنِ الزَّجَّاج: أنَّ المعنىٰ: أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ ذَهَبَتْ نَفْسُكَ عَليهم حَسْرَةً؟ فَحُذِفَ لدلالة ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ﴾ عليهِ، أَو: أَفَمَنْ زُيِّن لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ كَمَنْ هَداهُ ٱللهُ؟ فَحُذِفَ لِدَلالةِ ﴿فإنَّ ٱللهِ يُضِلُّ مَنْ يَشَآءُ ويَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ عليهِ[1].

وَ﴿حَسَرٰتٍ﴾ مَفْعُولُ لَـهُ، أي: ولا تُـهْلِكْ نَـفْسَكَ لـلحَسَراتِ، و ﴿عَـلَيْهِمْ﴾ صِـلَةُ ﴿تَذْهَبْ﴾ كَمَا تقولُ: هَلَكَ عَليهِ حُبّاً، ويجوزُ أَن يكُونَ حَالاً، كأنَّ كُلَّها صَـارَتْ حَسَراتٍ لِفَرْطِ التحَسُّرِ.

﴿فَتُثِيرُ سَحَاباً﴾ أي: تُهيِّجُهُ، وجَاءَ علىٰ لَفْظِ المضَارعِ دونَ ما قَبْلَهُ وما بَعْدَهُ لِتَحْكي الحالَ الَّتي تَقَعُ فيهَا إثارةُ السَّحَابِ، وتَستَحْضرَ تلكَ الصُّورةَ البَديعةَ الدَّالَة علىٰ كَمالِ القُدْرةِ الربَّانيَّةِ، وكذلكَ سَوْقُ السَّحَابِ إِلَى البَلَدِ الميِّتِ وإحْياءُ الأَرضِ بالمَطَرِ بَعْدَ مَوتِها لِمَا كانَ من الدَلائِل علَى القُدْرةِ، قَـالَ: ﴿فَسُـقْنَـٰهُ... فَـأَحْيَيْنَا﴾ مَعدُولاً بِهِمَا عَنْ لَفْظِ الغيبةِ إلىٰ ما هو أَدخَـلُ فـي الاخـتِصَاصِ، والكَـافُ فـي ﴿كَذٰلِكَ﴾ في مَحَلِّ الرَّفعِ، أَي: مِثْلُ إحْياءِ المَوَاتِ نُشُورُ الأَمْواتِ.

تَقديرُهُ: مَنْ يُرِيدُ العِزَّةَ فَلْيَطْلُبْهَا عنْدَ ٱللهِ، فَوَضَعَ قَولَهُ: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَـمِيعاً﴾ مَوضِعَهُ استِغْنَاءً بِهِ عَنْهُ؛ لِدَلالتِهِ عليهِ، فإنَّ الشَّيءَ لا يُطلَبُ إلَّا عندَ صاحِبِهِ ومَالِكِهِ، ومَعنَاهُ: العزَّةُ كُلُّهَا مُخْتَصَّةٌ باللهِ: عِزَّةُ الدُّنيا وعِزَّةُ الآخرةِ، فَمَنْ أَرادَ العزَّةَ فَلْيَتَعزَّزْ بطاعَةِ ٱللهِ.

ويَدُلُّ عليهِ ما رَواهُ أَنَسٌ عن النبيِّ ﷺ قَالَ: «إنَّ ربَّكُم يقُولُ كُلَّ يَومٍ: أَنَا العَزِيزُ، فَمَن أَرادَ عزَّ الدارَيْنِ فَلْيُطِعِ العَزِيزَ»[2].

---

(١) معاني القرآن: ج ٤ ص ٢٦٤.

(٢) رواه البيهقي في الصِّفات والأسماء: ص ٣٤.

ثمَّ عرَّفَ سبحانَهُ أنَّ ما يُطْلَبُ بِهِ العزَّةُ عندَهُ هو الإيمانُ والعَمَلُ الصَّالِحُ بقَولِهِ: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ والكَلِمُ: جَمْعُ كَلِمَةٍ، وكُلُّ جَمْعٍ ليس بينَهُ وبينَ وَاحِدِهِ إلَّا الهَاءَ جَازَ فيهِ التَّذْكيرُ والتَّأْنيثُ، يقُولُ: هٰذا كَلِمٌ وهٰـذهِ كَلِمٌ، ومعنىَ الصُّعُودِ هنا هو القبُولُ، وكُلُّ ما يَتَقَبَّلَهُ ٱللهُ تعالىٰ من الطاعاتِ يُوصَفُ بالرَّفْعِ والصُّعُودِ، لأنَّ الملائِكَةَ يكتُبُون أعمالَ بني آدمَ ويَرفَعُونَها إلىٰ حَيثُ يَشاءُ ٱللهُ تعالىٰ، كَمَا في قَولِهِ تعالىٰ: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَـٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ﴾ [1]، و﴿ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾: تَمجيدُهُ وتَقْديسُهُ وتَحْميدُهُ، وأَطْـيَبُ الكَـلِمِ: لا إِلَـهَ إِلَّا ٱللهُ ﴿وَٱلْـعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ أَي: يَرفَعُ الكَلِمَ الطَّيِّبَ إِلَى ٱللهِ، فالهَاءُ ضَميرُ ﴿ٱلْكَلِمِ﴾، وقـيلَ: مَعنَاهُ: والعَمَلُ الصَّالِحُ يَرفَعُهُ الكَلِمُ الطَّيبُ [2]، أَي: لا يَنْفَعُ العَمَلُ إلَّا إذا صَدَرَ عن التَّوحيدِ، وقيلَ: معنَاهُ: والعَمَلُ الصَّالِحُ يَـرْفَعُهُ ٱللهُ لِـصَاحِبِهِ [3]. فَـعَلَى الوجْـهَيْنِ الأَخيرَيْنِ يكُونُ الهَاءُ ضَميرُ ﴿ٱلْعَمَلِ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ﴾ المَكْرَاتِ ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أَو أَصـنَافَ المُكْـرِ السـيِّئَاتِ، فَهِي صِفَةٌ للمَصْدَرِ أو لِمَا في حُكْمِهِ، وقيلَ: عَنىٰ بِهِنَّ مَكْراتِ قُرَيْشٍ حينَ ٱجتَمَعُوا في دار النَّدوةِ وتَداوَرُوا الرَّأيَ في إحدَى المَكْرَاتِ الثَّلاثِ: إِمَّا إِثْباتُ رسولِ ٱللهِ، وإمَّا قَتْلُهُ، وإمَّا إِخْراجُهُ، كَمَا حَكَى ٱللهُ عَنْهُم في قَـولِهِ: ﴿وَإِذْ يَـمْكُرُ بِكَ ٱلَّـذِينَ كَفَرُواْ﴾ الآية [4]، [5] ﴿وَمَكْرُ أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ الَّـذينَ مَكَـرُوا تـلكَ المَكْـرَات ﴿هُـوَ﴾ خاصَّةً ﴿يَبُورُ﴾ أي: يَكسُدُ ويَفْسُدُ دُونَ مَكْرِ ٱللهِ بِهِم حينَ أَخْـرَجَهُم مـن مكَّـةَ وقَتَلَهُم وأَثْبَتَهُم في قَليبِ بَدْرٍ، فَجَمعَ ٱللهُ عليهِم مَكْرَاتِهِمْ.

---

(١) المطفّفين: ١٨.

(٢) قاله الحسن البصري في تفسيره: ج ٢ ص ٢٢٤.

(٣) قاله قتادة والسدي. راجع تفسير الماوردي: ج ٤ ص ٤٦٤.

(٤) الأنفال: ٣٠.

(٥) قاله الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ٦٠٣.

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ(١١) وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَـٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَـٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ(١٢) يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ(١٣) إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ(١٤) يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ(١٥) إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ(١٦) وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ(١٧)﴾

﴿أَزْوَٰجًا﴾ أي: أَصْنَافاً وضُرُوباً، أو: ذُكْرَاناً وإنَاثاً، ولاَ ﴿تَحْمِلُ﴾ من الإنَاثِ حَامِلَةٌ وَلَدَهَا في بَطْنِها ﴿وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ إلاَّ وهو عَالِمٌ بذلكَ ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ﴾ مَعْنَاهُ: ومَا يُعمَرُ من أَحَدٍ، وإنَّما سَمَّاهُ مُعمَّراً بماهو صَائِرٌ إليهِ ﴿وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ﴾ بأَنْ يَذْهَبَ بعضُهُ بمضيِّ اللَّيل والنَّهارِ ﴿إِلَّا وهو فِى كِتَـٰبٍ﴾ مَحْفُوظٍ أَثْبَتَهُ ٱللهُ قَبلَ كَونِهِ، وقيلَ: مَعْنَاهُ: لا يُطَوَّلُ عُمُرٌ ولاَ يُقَصَّرُ إلاَّ في كتابِ ٱللهِ، وهو أَن يُكْتَبَ في اللَّوحِ المحفُوظِ: لَوْ أَطَاعَ ٱللهَ فُلانٌ بَقِيَ إلىٰ وَقْتِ كذا، وإذا عَصَىٰ نَقَصَ من عُمُرِهِ الّذي وُقِّتَ لَهُ(١). وإليه أَشَارَ رسولُ ٱللهِ ﷺ في قَولِهِ: «إنَّ الصَّدَقَةَ

(١) قاله الفراء في معاني القرآن: ج ٢ ص ٣٦٨.

وَصِلَةَ الرَّحِمِ تُعمِّرانِ الدِّيَارَ وتُزيدَانِ في الأَعْمَار»(١).

ثمَّ ضَرَبَ «الْبَحْرَيْنِ»: العَذْبَ والْمِلْحَ مَثَلَيْنِ للمُؤْمِنِ والكَافِرِ، ثمَّ قَالَ علىٰ سَبيلِ الاستِطْرادِ في صِفَةِ البَحْرَيْنِ ومَا عَلَّقَ بِهِما من نعمة ﴿وَمِنْ﴾ كلِّ واحِدٍ مِنْهُمَا ﴿تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيّاً﴾ وهو السَّمَكُ ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً﴾ وهو اللُّؤلؤ والْمَرْجَانِ ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾ من فَضْلِ ٱللهِ، ولَمْ يَجْرِ لَهُ ذِكْرٌ في الآيَةِ ولكنْ فيمَا قَبْلَها، ولَوْ لَمْ يَجْرِ ذِكْرُهُ لَمْ يُشْكَلْ؛ لِدَلَالةِ المعنىٰ عليهِ، وَحَرْفُ الرَّجَاءِ مُستَعَارٌ بمعنَى الإِرادة؛ كَأَنَّهُ قيلَ: لِتَبتَغُوا ولِتَشْكُرُوا. ويُحتَمَل غَيْرُ طَرِيقَةِ الاستِطْرادِ وهو أَن يُشَبَّهَ الجِنْسَيْنِ بالبَحْرَيْنِ، ويُفَضِّلُ البَحْرَ الأُجَاجَ علَى الكافِرِ بأَنَّهُ قَد شَارَكَ العَذْبَ في مَنَافِعَ: من السَّمَكِ واللُّؤْلُؤِ وجَرْيِ الْفُلْكِ فيهِ، والكَافِرُ خَالٍ من النَفْعِ.

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ مبتَدأٌ، و ﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ أَخْبَارٌ مترادِفةٌ، و القِطْمِيرُ: قِشْرُ النَّوَاةِ. ﴿لَا يَسْمَعُواْ دُعَآءَكُمْ﴾ لأَنَّهُم جَمَادٌ ﴿وَلَوْ سَمِعُواْ﴾ علىٰ سَبيلِ الفَرْضِ والتَقْديرِ لَـ﴿مَا ٱسْتَجَابُواْ لَكُمْ﴾ لأَنَّهُمْ لا يَدَّعُونَ ما تَدَّعُونَ لَهُم من الإلَهِيّةِ ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ﴾ بإِشْرَاكِكُمْ لَهُم وعبادَتِكُم إيَّاهُم، يقُولُونَ: ﴿مَا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾(٢). ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ ولَا يُخْبِرُكَ بالأَمْرِ مُخْبِرٌ مِثْلُ خَبيرٍ عَالِمٍ بِهِ، يُرِيدُ أَنَّ الخَبيرَ بالأَمْرِ وحدَهُ هو الَّذي يُخْبِرُكَ بالحَقِيقَةِ دُونَ سائِرِ المُخْبِرِينَ. والمعنىٰ: أنَّ ما أَخْبَرْتُكُم بِهِ من حَالِ مَعْبُودِيهِم هو ٱلحَقُّ، لأنّي عَالِمٌ خَبيرٌ بمَا أَخْبَرتُكُم بِهِ.

وعَرَّفَ الفُقَراءَ لِيُرِيهِم سُبحانَهُ أَنَّهُم جِنْسُ الفُقَراءِ لِشدَّةِ ٱفتِقَارِهِم إليهِ، وَلَوْ نَكَّرَ لَكَانَ المعنىٰ: أَنْتُم بَعْضُ الفُقَراءِ، وَلَمَّا أَثْبَتَ فَقْرَهُم إليهِ وغِنَاهُ عَنْهُم ذَكَرَ ﴿الْحَمِيدُ﴾

---

(١) رواه المنذري في الترغيب والترهيب: ج ٣ ص ٣٣٥.

(٢) يونس: ٢٨.

لِيدُلَّ بِهِ علىٰ أنَّه الغَنِيُّ النَّافِعُ خَلْقَهُ بِغِنَاءِ المُنْعِمِ عَلَيهِم، المُسْتَحقُّ بإنْعَامِهِ عَليهِم أن يَحْمَدُوه، و «العَزِيزُ»: المُمْتَنِعُ.

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ(١٨) وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ(١٩) وَلَا ٱلظُّلُمَـٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ(٢٠) وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ(٢١) وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ(٢٢) إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ(٢٣) إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ(٢٤) وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَـٰتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَـٰبِ ٱلْمُنِيرِ(٢٥) ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ(٢٦)﴾

وِزْرُ الشَيءِ: حَمْلُهُ ﴿وَلَا تَزِرُ﴾ أي: لا تَحْمِلُ نَفْسٌ وِزَارَةً يَوم القِيامةِ إلَّا وِزْرَهَا الَّذي ٱقْتَرَفَتْهُ، لا تُؤْخَذُ نَفْسٌ بِوِزْرِ غَيرِهَا. وفيهِ دَلالةٌ علىٰ أنَّهُ سبحانَهُ لا يُؤَاخِذُ نَفْساً بغير ذَنْبِها ﴿وَإِنْ تَدْعُ﴾ نَفْسٌ ﴿مُثْقَلَةٌ﴾ بالآثَامِ غيرَهَا إلىٰ أَنْ تَحمِلَ شَيئاً من إثْمِهَا لَمْ تُجَبْ ولَمْ تُغَثْ ولَمْ يُحْمَلْ شَيءٌ من حَمْلِهَا ولَوْ كانَ المَدْعُوُّ بَعْضَ قَرابَتِهَا وأَقْرَبَ النَّاسِ إليهَا، فكُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ.

وقَولُهُ: ﴿بِالْغَيْبِ﴾ حَالٌ من الفَاعِلِ أو المفْعُولِ، أي: ﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ غَائبينَ عن عَذَابِهِ، أو: يَخْشَوْن عَذابَهُ غَائِباً عَنْهُم ﴿وَمَنْ تَزَكَّىٰ﴾ ومَنْ تَطَهَّرَ بِفِعْلِ الطَّاعَاتِ وتَرْكِ المَعَاصِي، وهو ٱعتِراضٌ مُؤَكِّدٌ لِخَشْيَتِهِم وإقَامَتِهِم الصَّلاةَ لأنَّهما مِن جُملةِ التَزَكِّي، ﴿وإلَى اللهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ وَعْدٌ لِمَنْ تَزَكَّىٰ بالثَّوابِ.

﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ الفَرْقُ بين الوَاوَاتِ أنَّ بَعْضَها ضَمَّتْ شَفْعاً إلىٰ شَفْعٍ، وبَعْضَها ضَمَّتْ وِتْراً إلىٰ وِتْرٍ، والوَاوُ ربَّمَا قُرِنَ بهَا «لا» في النَّفْيِ؛ لتأْكيدِ معنَى النَّفْيِ. و ﴿ٱلْحَرُورُ﴾ و «السَّمُومُ»: الرِّيحُ الحَارَّةُ، وقيلَ: إنَّ الأعمىٰ والبَصِيرَ مَثَلٌ للمُؤْمِنِ والمُشْرِكِ، و «الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ» للشِّرْكِ والإيمَانِ، و «الظِّلُّ والْحَرُورُ» لِلْجَنَّةِ والنَّارِ و «الأحْيَاءُ والأَمْوَاتُ» للمؤْمنينَ والكُفَّارِ[١]، أو العُلَماءِ والجُهَّالِ[٢].

﴿إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ أي: ما عَلَيكَ إلَّا التَبليغُ والإِنْذَارُ، فإنْ كَانَ المُنْذَرُ مِمَّنْ يَسْمَعُ نَفعَهُ إنْذَارُكَ، وَإنْ كَانَ من المُصِرِّينَ فَلَا عَليكَ إلَّا التَبلِيغُ ﴿بالْحَقِّ﴾ حَالٌ من أَحَدِ الضَّمِيرَيْنِ، بمعنىٰ: مُحِقّاً أو مُحِقِّينَ، أو صِفَةٌ للمَصْدَرِ أي: إرْسَالاً مصحُوباً بالحقِّ، أو صِلَةُ ﴿بَشِيراً وَنَذِيراً﴾ أي بشِيراً بالوَعْدِ الحَقِّ، ونَذِيراً بالوَعِيدِ الحَقِّ، وٱكتفىٰ في آخر الآيةِ بذِكْرِ النَّذيرِ عن البَشِيرِ؛ لأنَّ النَّذَارةَ لَمَّا كَانَتْ مقْرُونةً بالبَشَارةِ دلَّتْ إحْداهُمَا علَى الأُخرىٰ، لا سِيَّمَا قَد ٱشتَمَلَتِ الآيةُ علىٰ ذِكْرِهِمَا.

﴿بِالْبَيِّنَـٰتِ﴾ يُريدُ: المُعْجِزَاتِ الدالَّةِ علَى النُّبُوَّةِ ﴿وَبِالزُّبُرِ﴾ يُريدُ: الصُّحُفَ ﴿وَبِالْكِتَابِ ٱلْمُنِيرِ﴾ يُريدُ: التَّوراةَ والإنْجِيل.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ(٢٧) وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَـٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ(٢٨) إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَـٰرَةً لَّن تَبُورَ (٢٩) لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ(٣٠)﴾

(١) قاله قتادة والسدي. راجع تفسير الماوردي: ج ٤ ص ٤٦٩.
(٢) وهو قول ابن قتيبة. راجع المصدر السابق.

﴿أَلْوَٰنُهَا﴾ أَجْنَاسُهَا من التِّينِ والرُّمَّانِ والعِنَبِ وغَيرِهَا. أَو هَيْئَاتُهَا من الصُّفْرَةِ والخُضْرَةِ والحُمْرَةِ ونَحْوِها، و «الْجُدَدُ»: الخُطَطُ والطَّرائِقُ، وَجُدَّةُ الحِمَارِ هي الخطَّةُ السَّوْداءُ علىٰ ظَهْرِهِ وَ ﴿غَرَابِيبُ﴾ مَعْطُوفٌ علىٰ ﴿بِيضٌ﴾ أَو علىٰ ﴿جُدَدٌ﴾، كَأَنَّهُ قَالَ: ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ﴾ مُخَطَّطٌ ذو جُدَدٍ، ومِنْهَا ما هُوَ علىٰ لَوْنٍ واحِدٍ: غَرابيب[1]. وعن عِكْرِمَةَ: هي الجِبَالُ الطِّوالُ السُّود[2]. والوَجْهُ في قَولِهِ: ﴿وغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ مَعَ أَنَّ «الغَرابِيبَ» يكُونُ تأْكِيدَ الأَسْودَ، أَن يُضْمَرَ المؤكَّدُ قَبلَهُ ويكُونَ ﴿سُود﴾ الظَّاهِرُ تَفْسِيراً للمُضْمَرِ، كَقَولِ النَّابِغَةِ:

والمؤمِنِ العَائِذَاتِ الطَّيرَ يَمْسَحُهَا رُكْبانُ مَكَّةَ بينَ الغِيلِ والسَّنَدِ[3]

وإِنَّما يَفْعَلُ ذلكَ لزيادةِ التَّوكيدِ، حيثُ يَدُلُّ علَى المعنَى الواحِدِ من طَرِيقَيْ الإِظْهَارِ والإِضْمَارِ جميعاً، ولابُدَّ من تَقْديرِ حَذْفِ المُضَافِ في قَولِهِ: ﴿ومِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ﴾ أي: ومِنَ الجِبَالِ ذُو جُدَدٍ بيضٍ وحُمْرٍ وسُود غَرَابيبُ، حتَّىٰ يُؤَوَّل إلىٰ قَولِهِ: ﴿ومن ٱلجِبَالِ... مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا﴾ كَمَا قَالَ: ﴿ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفاً أَلْوَٰنُهَا﴾.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَـٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُ﴾ يَعني: ومِنْهُم بَعضٌ مُخْتَلِفٌ أَلوانُهُ كذٰلكَ، أي: كاخْتِلافِ الثَمَراتِ والجِبَالِ، وتمَّ الكلامُ ثمَّ قَالَ: ﴿إِنَّما يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُاْ﴾ والمعنىٰ: أنَّ الَّذين يَخشوْنَ ٱللهَ من بينِ عبادِهِ هُمُ العُلَمَاءُ دونَ غَيْرِهِم، إذْ عَرَفُوهُ حقَّ معرفَتِهِ، وعَلِمُوهُ حقَّ عِلْمِهِ.

وعنِ الصَّادقِ عليه السلام: «يعني بالعُلَماءِ مَن صَدَّقَ فِعلُهُ قَولَهُ، ومَنْ لَمْ يصدِّقْ

(١) كذا في النسخ وفي الكشّاف أيضاً. وفي بعض حواشي الكشّاف: «لعلّه غربيب».

(٢) حكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ٦٠٩.

(٣) من قصيدة يمدح بها النعمان ملك الحيرة، وهو أحسن شعره، ولهذا ألحقوها بالقصائد المعلّقات. أنظر ديوان النابغة الذبياني: ص ٢٨ وفيه: «السعد» بدل «السند».

فِعْلَهُ قَولَهُ فَلَيسَ بِعَالم»[١].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ﴾ أي: يُداومُونَ علىٰ تِلَاوتِهِ، وهي شَأْنُهُم ودَيْدَنُهُم، وعن مطْرَفٍ: هي آيةُ القَرَّاءِ[٢]. و ﴿يَرْجُونَ﴾ خبَر ﴿إِنَّ﴾، ﴿لَّن تَبُورَ﴾ لَن تَكْسُدَ وَلَنْ تَفْسُدَ، وَتَعَلَّقَ بِهِ ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ﴾ أي: تجارةً تُنْفَقُ عندَ ٱللهِ لِيوَفّيَهُم بِنَفَاقِهَا عِنْدَهُ ﴿أُجُورَهُمْ﴾ وهي ما ٱستَحَقُّوهُ من الثَّوابِ ﴿وَيَزِيدَهُم﴾ علىٰ قدر[٣] استِحْقَاقِهِم ﴿مِّن فَضْلِهِ﴾، وإنْ شِئْتَ جَعَلْتَ ﴿يَرْجُونَ﴾ في مَوْضِعِ الحَالِ، بمعنىٰ: فَعَلُوا جَميعَ ذلكَ من التِّلاوةِ وإِقَامَةِ الصَّلَاةِ والإِنْفَاقِ راجينَ تِجَارةً مُربِحَةً لِيُوفِّيَهُم، وَخبَرُ ﴿إِنَّ﴾ قَولُهُ: ﴿إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ أي: غَفُورٌ لَهُم وشَكُورٌ لِأَعْمَالِهِم.

﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ (٣١) ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ (٣٢) جَنَّـٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٣٣) وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (٣٤) ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ (٣٥)﴾

﴿مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ يعني: القُرآنَ، و ﴿مِنْ﴾ لِلتَّبيينِ، أو يُريدُ الجِنْسَ و ﴿مِنْ﴾ لِلتَّبعِيض، ﴿مُصَدِّقًا﴾ حَالٌ مؤكِّدَةٌ؛ لأنَّ الحقَّ لا يَنْفَكُّ عن هذا التَّصْديقِ ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: لِمَا تَقَدَّمَهُ من الكُتُبِ، إنَّهُ ﴿بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾ يعني: إنَّه خَبَرَكَ وَأَبْصَرَ شَمَائِلَكَ فَرَآكَ أَهْلًا لِمَا أَوحَاهُ إليكَ من الكِتَابِ المُعْجِزِ.

---

(١) رواه الكليني في الكافي: ج ١ ص ٣٦ ح ٢ بإسناده عن الحارث بن المغيرة.

(٢) حكاه عنه الزمخشري في الكشاف: ج ٣ ص ٦١١.

(٣) في نسخة: «قلّة».

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَـٰبَ﴾ المعنىٰ: إنَّا أَوْحَيْنا إليكَ القُرآنَ مُصَدِّقاً لِـمَا قَبلَهُ مِـن الكُتُبِ مُوافِقاً لِمَا بَشَّرتْ به تلكَ الكُتُبُ من حَالِهِ وحَالِ مَنْ أَتىٰ بِهِ، ثـمَّ أَورَثْـنَاهُ الَّذين اصطَفَيْنَا من عبادِنَا بَعدكَ وهُم عُلَمَاءُ الأُمَّةِ، لِـمَا وَرَدَ فـي الحَـديثِ: «أَنَّ العُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبياءِ»[1]، والمَرويُّ عن الباقرِ والصَّادقِ عليهما السلام أَنَّهما قَالاَ: «هِيَ لَنَا خَاصَّةً، وإيَّانَا عَنَىٰ»[2]. وهذا هو الصَحيحُ؛ لأنَّ الوَصْفَ بالاصطِفَاءِ ألْـيَقُ بِـهِم، إذْ هُم وَرَثَةُ الأَنْبياءِ، وَقُدْوَةُ العُلَمَاءِ، المُستَحْفِظُونَ للكـتابِ، العَـارِفُونَ بـحَقَائِقِهِ.

﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ وعن ابنِ عباسٍ والحَسَنِ: أن الضَّميرَ للعِبَادِ[3]، واختارَهُ المرتَضَىٰ قُدِّس روحُهُ قَالَ: عَلَّلَ تَعْليقَهُ سبحانَهُ ورَاثَةِ الكتابِ بـالمُصْطَفينَ مـن عِبَادِهِ بأنَّ فيهِم مَنْ هو ظَالِمٌ لِـنفْسِهِ ومَـن هـو ﴿مُـقْتَصِدٌ﴾ ومَـنْ هُـوَ ﴿سَـابِقٌ بِالْخَيْرَٰتِ﴾[4]. وقيلَ: إنَّ الضَّميرَ للَّذينَ اصطَفَاهُم اللهُ[5].

ورُوِيَ عن الصَّادقِ عليه السلام أَنَّه قَالَ: «الظَّالِمُ لِنَفْسِهِ منَّا: مَنْ لا يَعْرِفُ حَقَّ الإمامِ، والمقْتَصِدُ منَّا: العَارِفُ بحقِّ الإمامِ، والسَّابِقُ بِالخَيْراتِ: هو الإمام»[6].

وكُلُّهُم مَغْفُورٌ لَهُم، وذلكَ لاصطِفَاءِ وإيْراثِ الكِتَابِ، أو: ذلكَ السَّبْقُ بالخَيْراتِ هو ﴿الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾.

﴿جَنَّـٰتُ عَدْنٍ﴾ بَدَلٌ من ﴿الْفَضْلِ الْكَبِيرِ﴾ الَّذي هو السَّبْقُ بالخَيْراتِ، لأَنَّهُ لَمَّا كانَ السَبَبُ في نَيل الثَّوابِ نَزَّلَهُ مَنْزِلَةَ المُسَبَّبِ، كأَنَّهُ هو الثَّـوابُ، فـأُبْدِلَتْ عَـنْهُ

(١) رواه الترمذي في سننه: ج ٥ ص ٤٩ ذ ح ٢٦٨٢، والدارمي أيضاً في سننه: ج ١ ص ٩٨ كلاهما عن أبي الدرداء.

(٢) المناقب لابن شهر آشوب: ج ٤ ص ١٣٠.

(٣) تفسير الحسن البصري: ج ٢ ص ٢٢٣، تفسير القرطبي: ج ١٤ ص ٣٤٦.

(٤) رسائل الشريف المرتضىٰ (المجموعة الثالثة): ص ١٠٢.

(٥) حكاه الماوردي في تفسيره: ج ٤ ص ٤٧٣.

(٦) رواه الصدوق في معاني الأخبار: ١٠٤.

﴿جَنَّـٰتُ عَدْنٍ﴾ وقُرِئَ: «يُدْخَلُونَهَا» علَى البناءِ للمفعُولِ[١]، ﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾: «من» للتَّبْعيضِ، أَي: ﴿يُحلَّوْنَ﴾ بَعْضُ أَسَاوِرَ، كأَنَّهُ بَعْضٌ سَابِقٌ لِسَائِرِ الأبْعَاضِ كَمَا سَبَقَ المُسَوَّرونَ بِهِ غَيْرَهُم.

وفي ذِكْرِ «الشَّكُورِ» دَلالَةٌ علىٰ كَثْرَةِ حَسَنَاتِهِم و ﴿ٱلْمُقَامَة﴾ بمعنَى الإِقَامَةِ ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾ مِن عَطَائِهِ وأَفْضَالِهِ. و النَّصَبُ: العَنَاءُ والمَشَقَّةُ الَّتي تُصِيبُ المُنْتَصِبَ للأمر المُزَاوِلَ لَهُ، واللُّغُوبُ: الإِعْيَاءُ والفُتُورُ الَّذي يَلْحَقُ بِسَبَبِ النَّصَبِ، فاللُّغُوبُ نَتيجَةُ النَّصَبِ.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ(٣٦) وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَـٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ(٣٧) إِنَّ ٱللَّهَ عَـٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ (٣٨) هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَـٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا(٣٩) قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَـٰهُمْ كِتَـٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّـٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا(٤٠)﴾

﴿فَيَمُوتُواْ﴾ جوابُ النَّفْي ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مِثْلُ ذلكَ الجزَاءِ ﴿نَجْزِى﴾ وقُرِئَ: «يُجْزَىٰ»[٢]. ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ﴾ أي: يَتَصَارَخُونَ ﴿فِيهَا﴾ يَفْتَعِلُونَ من الصُّرَاخِ

(١) قرأه أبو عمرو وحده. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٥٣٤.
(٢) قرأه أبوعمرو. راجع التيسير في القراءات للداني: ص ١٨٢.

وهو الصِّياحُ باستِغَاثَةٍ وَجُهْدٍ وشِدَّةٍ. والفائِدةُ في قَوِلِهم: ﴿غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ مِنْ غَيْرِ اكتِفَاءٍ بقَولِهم: ﴿صَٰلِحاً﴾ أَنَّهُ للتَّحَسُّرِ علىٰ ما عَمِلُوا من غيرِ الصَّالحِ مَعَ الاعتِرَافِ بِهِ، ولأنَّهُم كانُوا يَحْسَبونَ أنَّهُم علىٰ سيرةٍ صَالحةٍ فقَالُوا: ﴿أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحاً غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا﴾ نَحْسَبُهُ صَالِحاً فَنَعْمَلُهُ: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم﴾ توبيخٌ من ٱللهِ، فَيقُولُ لَهُم وهو متَنَاوِلٌ لكلِّ عُمُرٍ تَمكَّنَ فيهِ المُكَلَّفُ من إصْلاحِ شَأْنِه وإنْ قَصُرَ، وإنْ كَانَ التَّوبيخُ في المُتَطَاوِلِ أَعْظَمَ، وقَد قيلَ: إنَّهُ ستُّونَ سنةً(١)، وقيلَ: أربعون(٢)، وقيلَ: ثَمانِي عَشْرةَ سنة(٣) ﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ عَطْفٌ علىٰ مَعْنىٰ ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم﴾ كأنَّهُ قيلَ: قَد عَمَّرْنَاكُم وجَاءَكم النَّذيرُ وهو النَّبيُّ ﷺ أو القُرآنُ، وقيلَ: النَّذيرُ: الشَّيْبُ(٤)، وقيلَ: مَوتُ الأَهْلِ والأَقَاربِ(٥) ﴿فَذُوقُوا﴾ العَذَابَ.

﴿إِنَّهُ عليمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ كالتَّعْليل، لأنَّهُ إذا عَلِمَ ما في الصُّدُورِ وهو أَخْفىٰ ما يكُونُ فَقَد عَلِمَ كُلَّ غَيْبٍ في العَالَمْ، وذاتُ الصُّدُورِ: مُضْمَرَاتُهَا وهي تأْنيثُ «ذو»، وذُو موضُوع بمعنَى الصُّحْبَةِ، فالمُضْمَرَاتُ تَصحَبُ الصُّدُورَ.

والْخَلاَئِفُ: جَمْعُ خَليفَةٍ وهو المُسْتَخْلَفُ ﴿فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ أَي: ضَرَرُ كُفْرِهِ وعِقَابُ كُفْرِهِ، والْمَقْتُ: أَشَدُّ البُغْضِ، وقيلَ لِمَنْ نَكَحَ امرأةَ أبيهِ: مَقْتِي لكَونِهِ ممقُوتاً في كلِّ قَلْب.

﴿أَرُونِى﴾ بَدَلٌ من ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ لأنَّ معنىٰ «أرأيتم»: أَخْبِرُوني، فَكأَنَّهُ قَالَ: أَخْبِروني عن هؤلاءِ الشُّرَكاءِ وعمَّا ٱستَحقُّوا به العبادةَ، أَروني أَيَّ جُزءٍ ﴿مِن﴾

---

(١) وهو قول عليٍّ عليه السلام. راجع التبيان: ج ٨ ص ٤٣٤.

(٢) قاله ابن عباس ومسروق. راجع المصدر السابق.

(٣) قاله قتادة وعطاء والكلبي. راجع تفسير البغوي: ج ٣ ص ٥٧٣.

(٤) حكاه الفراء والطبري كما في تفسير الماوردي: ج ٤ ص ٤٧٦.

(٥) ذكره الماوردي في تفسيره.

أجْزَاءِ ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ خلقوهُ بأنفسِهِم ﴿أَمْ لَهُمْ﴾ مَعَ ٱللهِ شِرْكَةٌ في خَلْقِ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وَالأَرْضِ أم مَعَهُم كِتابٌ من عندِ ٱللهِ يَنْطقُ بِأَنَّهُمْ شركاءُ ﴿فَهُمْ عَلَىٰ﴾ حُجَّةٍ من ذلك الكتابِ؟ أو يكُونُ الضَّميرُ للمُشْركينَ كقولِهِ: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰباً﴾ مِنْ قَبْلُ أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَاناً ﴿بَلْ إِنْ يَعِدُ﴾ أي: مَا يَعِدُ ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُمْ﴾ وهم الرُّؤَسَاءُ ﴿بَعْضاً﴾ وَهُمْ الأَتْباعُ ﴿إِلَّا غُرُوراً﴾ وَهُو قَولُهُم: هٰؤلاءِ شُفَعاؤُنا عند ٱلله.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِۦٓ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا(٤١) وَأَقْسَمُواْ بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا(٤٢) ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا(٤٣) أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا(٤٤) وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًا(٤٥)﴾

﴿أَنْ تَزُولَا﴾ كَراهَةَ أَنْ تَزُولا، أو: يَمنَعُهُما مِن أَن تَزُولا، لأنَّ الإمْسَاكَ مَنْعٌ ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً﴾ غَيرَ مُعَاجِلٍ بالعقُوبةِ حيثُ يَمسُكُهُما، وكانَتا جَديرَتَيْنِ بأَن تُهَدَّا هَدّاً لِعِظَمِ كَلمةِ الشِّرْكِ كَمَا يُقَالُ: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ

﴿الأَرْضُ﴾ [١]، و ﴿إِنْ أَمْسَكَهُمَا﴾ جوابُ القَسَمِ سَدَّ مَسَدَّ جوابِ الشَّرْطِ في ﴿وَلَئِنْ زَالَتَا﴾، و ﴿مِنْ﴾ الأُولىٰ مَزيدَةٌ والثَّانيةُ للابتداءِ: «من بعد إمساكه».

أي: أَقْسَمُوا بأَيْمَانٍ غَليظَةٍ ﴿لَئِنْ جَآءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ من جهةِ ٱللهِ ﴿لَيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ﴾ إلىٰ قبُول قَولِهِ ﴿مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾ الماضِيَةِ، يعنُونَ اليهودَ والنَّصارىٰ. ﴿مَا زَادَهُمْ﴾ إسنادٌ مَجَازِيٌّ لأَنَّهُ هو السَّبَبُ في أَنَ زَادُوا أَنْفسَهُم ﴿نُفُوراً﴾ من الحَقِّ. ﴿اسْتِكْبَاراً﴾ بَدَلٌ مِنْ ﴿نُفُوراً﴾، أو مَفْعُولٌ لَهُ بمعنىٰ: إلَّا أَن نَفَرُوا لاستِكْبَارِهِم ومَكْرِهِمْ، أَو حَالٌ يَعني: مُستَكبرينَ ومَاكِرينَ برسولِ ٱللهِ ﷺ والمؤمنينَ. ويجوزُ أَن يكُونَ ﴿وَمَكْرَ ٱلسَّيِّءِ﴾ معطُوفاً علىٰ ﴿نُفُوراً﴾ وأَصلُهُ: وإنْ مَكَرُوا السَّيّءَ أي: المَكْرَ السَّيّءَ ثمّ ومكْرَ السَّيّءِ، ويَدُلُّ عليهِ: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّءُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾.

وعن كَعْب الأَحْبارِ أَنَّهُ قَالَ لابنِ عبَّاسٍ: قَرأْتُ في التَوراةِ أَنَّه مَنْ حَفَرَ مغوَّاة وَقَعَ فيهَا، قَالَ: إنِّي وَجَدْتُ ذلكَ في كِتَابِ ٱللهِ، وقَرأَ الآية [٢].

وفي أمثالِ العَرَبِ: «مَنْ حفَرَ جُبًّا وَقعَ فيه مُنْكَبًّا» [٣].

وقَرأَ حَمزةُ: «ومَكْرَ السَّيّءْ» بسكُونِ الهَمزةِ [٤]، وذلك لاستِثْقَالِهِ الحَركَاتِ معَ اليَاءِ والهَمْزةِ، ولَعَلَّهُ اخْتَلَسَ فَظَنَّ سُكُوناً أَو وَقَفَ وَقْفَةً خَفِيفَةً ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا﴾ عَادَةَ ٱللهِ في ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾ المكذِّبينَ للرُّسُلِ، وهو إِنْزالُ العَذابِ بِهِم وإِهْلَاكُهُم؟ جَعَلَ ٱستقبَالَهُم لذلكَ انتِظَاراً لَهُ مِنْهُمْ، والتَّبدِيلُ: تَصييرُ الشَّيءِ مَكَانَ غَيرِهِ، والتَّحْوِيلُ:

---

(١) مريم: ٩٠.

(٢) حكاه الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ٦١٩. والمغوّاة: بئر تُحفَر وتغطّىٰ للسبع أو للضبع والذئب، ويُجعل فيها جديٌ إذا نظر السبع إليه سقط عليه يُريده فيُصادُ.

(٣) أُنظر جمهرة الأمثال للعسكري: ج ٢ ص ٢٨٩.

(٤) أُنظر التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٦٢٨.

تَصييرُ الشَّيءِ في غَيرِ المَكَانِ الَّذي كانَ فيهِ. والتغييرُ: تَصييرُ الشَّيءِ علىٰ خلافِ ما كَانَ ﴿لِيُعْجِزَهُ﴾ أي: لِيَسْبقَهُ ويَفُوتَهُ.

﴿بِمَا كَسَبُواْ﴾ من الشِّرْكِ والتَّكْذيبِ. الضَّميرُ في ﴿ظَهْرِهَا﴾ للأَرْضِ وإنْ لَمْ يَجْرِ لَهَا ذِكْرٌ لِعَدَمِ الالتبَاسِ، أي: مَا تَرَكَ علىٰ ظَهْرِ الأَرضِ ﴿مِنْ دَآبَّةٍ﴾ أي: نَسَمَةٍ تَدِبُّ عليهَا، يُريدُ: بني آدمَ، وقيلَ: مَا تَرَكَ بَني آدمَ وغَيْرَهُمْ من سَائرِ الدَّوابِّ بِشُؤْمِ كُفْرِهِم ومَعَاصِيهم[1] ﴿إلىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ إلىٰ يومِ القيامةِ ﴿كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيراً﴾ وَعِيدٌ بالجَزَاء.

❁ ❁ ❁

(١) قاله ابن مسعود. راجع تفسير الماوردي: ج ٤ ص ٤٧٩.

سُورَةُ يٰسٓ

مكّيّةٌ[1] إلّا آيةً، وهي ثلاثٌ وثمانُونَ آيةً كوفيٌّ، واثـنتانِ غـيرهُم، ﴿يٰسٓ﴾ كوفيٌّ.

وفي حَديثِ أُبيٍّ: «مَنْ قَرَأَ سورةَ يٰسٓ يريدُ بهَا وَجْهَ ٱللهِ عزَّوجلَّ غَفَرَ ٱللهُ لَه، وأُعطِيَ من الأَجْرِ كأنَّمَا قَرَأَ القُرآنَ اثْنتَي عَشْرةَ مرَّة. وأَيُّمَا مَريضٍ قُـرِئَتْ عـندَهُ سورةُ يٰسٓ نَزَلَ عليهِ بِعَدَدِ كُلِّ حَرْفٍ منها عَشْرةُ أملاكٍ، يقُومونَ بينَ يدَيْهِ صفُوفاً، ويستغفرونَ لَه، ويشْهَدونَ قَبْضَهُ، ويتبعُونَ جنَازتَه، ويـصلُّونَ عـليهِ، ويشْـهدُونَ دَفْنَه» إلى آخر الخبر[2].

وعن الصَّادقِ عليه السلام: «انَّ لكلِّ شيءٍ قَلْباً، وقَلْبُ القُرآنِ يٰسٓ، فَمَنْ قَرَأَهَـا فـي نَهارِهِ كانَ من المحفُوظِينَ والمرزُوقينَ حتَّىٰ يُمسِي، وَمَنْ قَرَأَهَا في لَيلِهِ قـبلَ أَن ينَامَ وُكِّلَ بِهِ أَلْفُ مَلَكٍ يحفظُونَهُ مِنْ كلِّ شَيطانٍ رَجيمٍ، ومِنْ كلِّ آفـةٍ، وإنْ مَـاتَ

---

(١) قال الشيخ الطوسي في التبيان: ج ٨ ص ٤٤٠: في قول مجاهد وقتادة والحسن: ليس فيها ناسخ ولا منسوخ، وقال ابن عباس: آية منها مدنيّة وهي قوله: ﴿وإذَا قيلَ لَهُم أَنْـفِقوا مـمَّا رَزَقَكُم ٱللهُ﴾.

وفي الكشّاف: ج ٤ ص ٣: مكّية إلّا آية ٤٥ فمدنية، وآياتها ٨٣، نزلت بعد الجنّ.

(٢) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٣٢ مرسلاً.

في يَومِهِ أَدْخَلَه اللهُ الجَنَّة...» الخبر بطوله [١].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يسٓ(١) وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ(٢) إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ(٣) عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ(٤) تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ(٥) لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ(٦) لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ(٧) إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ(٨) وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ(٩) وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ(١٠)﴾

قُرِئَ ﴿ياسين﴾ بالإمالةِ والتَّفخيمِ [٢] في «يا»، وبإظْهارِ النُّونِ وإخْفائِها [٣]، وكذلكَ نون والقَلَم. وَعن ابنِ عباسٍ: معناهُ «يا إنسان» [٤]، وعن الحَسَنِ: معناهُ «يا رجل» [٥]، وقيلَ: يا سيِّد الأوَّلينَ والآخِرين [٦]. وعن عليٍّ عليه السلام: هو اسم النبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم [٧].

﴿وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ ذي الحكمةِ، أو: لأنَّهُ دَليلٌ ناطِقٌ بالحِكْمةِ كالحَيِّ،

---

(١) ثواب الأعمال للصدوق: ص ١٣٨.

(٢) قرأ الكسائي ويحيىٰ عن أبي بكر عن عاصم وروح عن يعقوب بإمالة الياء، وقرأها اسماعيل عن نافع وحمزة بين اللفظين وهما الى الفتح أقرب، وفتحها بالتَّفخيم الباقون. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٦٢٩.

(٣) قرأ ابن كثير وأبوعمرو وحمزة وحفص والأعشىٰ ونافع بإظهار النون في «ياسين» وفي ﴿والقرآن﴾، وأدغمها الباقون. راجع المصدر السابق.

(٤) تفسير ابن عباس: ص ٣٦٩. (٥) تفسير الحسن البصري: ج ٢ ص ٢٢٨.

(٦) قاله بكر الورّاق. راجع تفسير البغوي: ج ٤ ص ٥.

(٧) رواه الكليني في الكافي: ج ٦ ص ٢٠ ح ١٣، والصدوق في الأمالي: ص ٣٨١ ح ١.

أو: لأنَّهُ كَلام حَكيم، فَوُصِفَ بصفةِ المتكلِّمِ بِهِ ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ جَوابُ القَسَمِ ﴿عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ خَبرٌ بعدَ خَبرٍ، أو صِلَةٌ لـ﴿الْمُرسَلين﴾ (١) أي: إنَّكَ لَمِنَ الرُّسُلِ الثَّابتينَ علىٰ طَريقٍ ثَابتٍ وشَريعةٍ واضِحَةٍ.

وقُرِئ: ﴿تَنْزِيلَ﴾ بالرَّفع (٢) علىٰ أنَّهُ خَبرُ مبتدأ مَحذُوف، وبالنَّصبِ علىٰ: أعني.

﴿لِتُنْذِرَ قَوْماً﴾ لَمْ يُنْذَرْ ﴿ءَابَاؤُهُمْ﴾ قَبلهُم، لأنَّهم كانُوا في زَمانِ الفَتْرةِ بين عيسىٰ ونبيِّنا عليهما السلام، وَمثلُهُ: ﴿لِتُنْذِرَ قَوْماً مَاءاتٰهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ (٣) ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ﴾ (٤) فيكونُ ﴿مَا أُنْذِرَ ءَابَاؤُهُمْ﴾ في موضع نَصْبٍ على الصِّفةِ. وقد فُسِّرَ ﴿مَا أُنْذِرَ﴾ علىٰ إثباتِ الإِنْذارِ بأَنْ جعلَ «مَا» مصدريَّةً بمعنىٰ: لَتُنذرَ قَومَاً إنْذارَ آبائهم، أو: موصُولةً منصوبةً علَى المفعولِ الثاني بمعنىٰ: لِتُنذرَ قَوماً ما أُنْذِرَ آباؤُهُم من العَذَابِ كقولِهِ: ﴿إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَاباً قَرِيباً﴾ (٥). وقَولُهُ: ﴿فَهُمْ غَافِلُونَ﴾ على التَّفسير الأوَّل يَتعَلَّقُ بالنَّفْيِ، أي: لَم يُنذَروا فَهُم غَافِلُونَ، علىٰ أنَّ عَدَمَ إنْذارِهِم سَبَبُ غَفلَتِهِم، وعلَى الثَّاني يَتعَلَّقُ بقَولِهِ: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ لِتُنْذِرَ، كَما تقُولُ: أَرسَلْتُكَ إلىٰ فُلانٍ لِتُنذِرَهُ فإنَّه غَافِلٌ.

﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ﴾ وهو قَولُهُ سبحانَهُ: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ (٦) أي: ثَبتَ عليهِم هذا القَولُ وَوَجَبَ لأنَّهم ممَّن عُلِمَ من حَالِهِم أنَّهم يَموتُونَ على الكُفْرِ.

---

(١) ليس في نسختين: «أو صلة للمرسلين».

(٢) قرأه ابن كثير ونافع وأبو عمرو وأبو بكر عن عاصم. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٥٣٩.

(٣) القصص: ٤٦.

(٤) سبأ: ٤٤.

(٥) النبأ: ٤٠.

(٦) هود: ١١٩.

ثمَّ مَثَّلَ تَصمِيمَهم علَى الكُفر بأَنْ جَعَلَهم كالمغلُولينَ الْمُقْمَحِينَ، في أنَّـهم لا يَلتفِتُونَ إلى الحقِّ ولا يَعطِفُونَ أعناقَهُم نَـحوَهُ، وكـالحَاصلينَ بـينَ سَـدَّيْن. ﴿لَا يُبْصِرُونَ﴾ ما بينَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ في أَن لا تَأَمُّلَ لَهُم ولا ٱستبصَار ﴿فَهِىَ إِلَى ٱلأَذْقَانِ﴾ مَعناهُ: فالأَغْلالُ وَاصِلةٌ إلى الأذقانِ، فَلَا تُخلِّيهِ يُطَأْطِئ رأسَهُ فَلَا يزال مُقْمَحاً، وهو الّذي يرفعُ رأْسَهُ ويَغُضُّ بَصَرَه، ويقالُ: قَمَحَ البعيرُ: إذا رَفَعَ رأْسَهُ ولَم يَشْربِ الماءَ، وأَقْمَحْتُها أَنَا، وَبعيرٌ قَامِحٌ، وإِبِلٌ قِمَاحٌ، قالَ الشَاعرُ يَصِفُ سفينةً:

ونَـحنُ عـلىٰ جَـوانِـبِها قـعُودٌ نَغُضُّ الطَّرْفَ كالإبِلِ القِـمَاحِ[١]

وعن ابن عبّاسٍ: أنَّ المعنيَّ بذلكَ نَاسٌ من قُريشٍ هَمُّوا بقَتْلِ النبيِّ ﷺ فَلَمْ يَستطيعُوا أن يَبسطُوا إليهِ يَداً، وَخَرَجَ إليهم وَطَرَحَ التُرابَ علىٰ رؤوسِهِم وهُم لا يُبصرونَه[٢]. وعلىٰ هذا فَيكُونُ معنىٰ «السَّدَّيْنِ» أَنَّهُ جَعَلَهُم لا يُبصِرونَهُ، ومـعنىٰ ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ﴾: جَعَلْنا علىٰ أَبْصارِهِم غِشَاوةً وحُلْنا[٣] بينَهم وَبينَه.

﴿إِنَّما تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَـٰنَ بِٱلْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِـمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ(١١) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَـٰرَهُمْ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ(١٢) وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَـٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ(١٣) إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَـذَّبُوهُمَا فَـعَزَّزْنَا بِـثَالِثٍ فَقَالُوٓاْ إِنَّـآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ(١٤) قَالُواْ مَآ أَنـتُمْ إِلَّا بَشَـرٌ مِّـثْلُنَا وَمَآ أَنـزَلَ ٱلرَّحْمَـٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ(١٥) قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّـآ إِلَـيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ(١٦) وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ(١٧) قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن

(١) البيت منسوب الى بشر بن أبي خازم الأسدي. راجع مجاز القرآن: ج ٢ ص ١٧٥.
(٢) حكاه عنه ابن مردويه كما في الدر المنثور: ج ٧ ص ٤٤.
(٣) في نسخة: «وجعلناه».

لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ(١٨) قَالُواْ طَـٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ(١٩) وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ(٢٠) ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ(٢١)﴾

أي: ﴿إِنَّمَا﴾ ينتفعُ بإنذارِكَ ﴿مَنِ ٱتَّبَعَ﴾ القُرآنَ ﴿وَخَشِىَ﴾ اللهَ متلبِّساً ﴿بِالْغَيْبِ﴾ يعني في حَالِ غَيبتِهِ عَن النَّاسِ ﴿فَبَشِّرْ﴾ مَنْ هذهِ صفتُهُ ﴿بِمَغْفِرَةٍ﴾ من اللهِ لذنوبِهِ ﴿وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ ثوابٍ عَظيمٍ خَالصٍ من الشَّوْبِ.

﴿نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ نَبعثُهُم يومَ القيامةِ للجَزَاءِ، وعنِ الحَسَنِ: إحْياؤُهُم أن يُخْرجَهُم من الشِّرْكِ إلى الإيمانِ[١]. ﴿وَنَكْتُبُ﴾ ما أَسْلَفُوا من الأعمالِ الصَّالحةِ وغَيرِها ﴿وَءَاثَـٰرَهُمْ﴾ أي: وأعمالَهُم الَّتي صَارَتْ سُنَّةً من بَعدِهِم يُقتَدَىٰ فيها بِهِم حَسَنةً كانَتْ أَم قَبيحةً، ومِنَ الآثارِ الحَسَنةِ: عِلْمٌ عُلِّمَ أو كتابٌ في الدِّين صُنِّفَ أو صَدَقةٌ أُجريَتْ أو وَقْفٌ وقفَ أو مَسجِدٌ للهِ بُني... ونحوُ ذلكَ، ومِنَ الآثارِ السَّيِّئةِ: وَظِيفةٌ ضَارَّةٌ على المسلمينَ وُظِّفَتْ أو شَيءٌ صَادٌّ عن ذِكْرِ اللهِ من المَلاهي والألحانِ أُحْدِث... ونحوُ ذلكَ، ومثلُهُ قَولُهُ تَعالىٰ: ﴿يُنَبَّؤُا ٱلإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾[٢] أي: قَدَّمَ من أَعْمالِهِ وأَخَّرَ من آثارِهِ، وقيلَ: هي آثارُ المشَّائينَ إلى المَسَاجد[٣].

وقالَ عليه السلام: «إنَّ أعظَمَ النَّاس أجراً في الصَّلاةِ أبعدُهُم إليها مَمْشَىً فَأَبْعَدُهُم»[٤].

والإمَامُ المُبينُ: هو اللَّوحُ المحفُوظُ، وقيلَ: هو صَحَائِفُ الأعمالِ سَمَّاهُ مُبِيناً

---

(١) تفسير الحسن البصري: ج ٢ ص ٢٢٨. (٢) القيامة: ١٣.
(٣) قاله مجاهد. راجع التبيان: ج ٨ ص ٤٤٧.
(٤) أخرجه البيهقي في السنن الكبرىٰ: ج ٤ ص ٦٣ و ج ١٠ ص ٧٨.

لأنَّهُ لا يَنْدَرِسُ أثَرُهُ[١].

﴿وَٱضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً﴾ مَثِّلْ لَهُم من قَولِهِم: عندي مِنْ هذا الضَّرْبِ كذا، أي: مِنْ هذا المِثَال، والمعنىٰ: وٱضربْ لَهُم مَثَلاً مثلَ ﴿أَصْحَابَ ٱلْقَرْيَةِ﴾ والمَثَلُ الثَّاني بَيَانٌ للأوَّلِ، وَ ﴿إِذْ﴾ بَدَلٌ من ﴿أَصْحَـٰبَ ٱلْقَرْيَةِ﴾، والقَريةُ: أَنطاكية، والمُرْسَلُون: رُسلُ عيسىٰ عليه السلام إلىٰ أهلِها، بَعَثَهُم دُعاةً إلى الحقِّ، وكانُوا عَبَدَةَ الأوثانِ، وإنَّما أَضَافَ سبحانَهُ إرسَالَهُم إلىٰ نَفسِهِ لأنَّهُ أَرسَلَهُم بأَمرِهِ ﴿فَعَزَّزْنَا﴾ فَقَوَّيناهُمَا وشَدَدْنَا ظُهُورَهُما برسُولٍ ثَالثٍ، يقالُ: المَطَرُ يعزِّزُ الأرضَ أي: يُلبِّدُها ويَشدُّها، وقُرِئ: «فَعَزَزْنَا بثَالثٍ» بالتَّخفيفِ[٢] من: عَزَّهُ يَعُزُّهُ إذا غَلَبَهُ، أي: فَغَلَبْنَا وَقَهَرْنا بثَالثٍ. وَتَرَكَ ذِكْرَ المفعُولِ بهِ لأنَّ الغَرَضَ ذِكْرُ المُعَزَّزِ بهِ وهو شمعُون الصَّفَا رأْسُ الحَوارِيِّينَ.

﴿قَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ﴾ أَوَّلًا و ﴿إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ ثَانياً، لأنَّ الأَوَّلَ ابتداءُ إخْبارٍ، والثَّاني جَوابٌ عن إنْكارٍ، قولُهُ: ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ﴾ جَارٍ مَجْرَى القَسَمِ في التَّوكيدِ، وَمثلُهُ قولُهُم: شَهِدَ اللهُ وعَلِمَ اللهُ، وإنَّما حَسُنَ منْهُم هذا الجوابُ الواردُ علىٰ سبيلِ التَّوكيدِ لأنَّهُم حَقَّقُوهُ بقَولِهِ: ﴿وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا ٱلْبَلَاغُ ٱلْمُبِينُ﴾ وهو الظَّاهِرُ المكشُوفُ بالآياتِ والمعجزاتِ الشَّاهدةِ بصحَّتِهِ، وإلَّا فَلَو قَالَ المدَّعِي: واللهِ إنِّي لَصَادِقٌ فيما أدَّعِي، ولَمْ يَحْضرِ البيِّنَةَ لكَانَ قَبيحاً.

﴿قَالُواْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا﴾ أي: تَشَاءَمْنَا ﴿بِكُمْ﴾ وذلكَ أنَّهم كَرِهُوا دينَهُم ونَفرتْ منْهُ نفُوسُهُم ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُواْ﴾ عمَّا تَدَّعُونَهُ من الرِّسَالةِ ﴿لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾ بالحجَارةِ أو لَنَشْتِمَنَّكُم، قَالَ الرُّسُلُ: ﴿طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ﴾ أي: سَبَبُ شُؤمِكُم مَعَكُم، وهو

---

(١) حكاه الثعالبي في تفسيره: ج ٣ ص ٣١ ونسبه الى فرقة .

(٢) قرأه أبوبكر والمفضل عن عاصم. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٦٢٩.

إقامتُكُم على الكُفْرِ والشِّرْكِ، فَأمَّا الدُّعاءُ إلَى الإيمانِ والتَّوحيدِ ففيهِ غَايةُ اليُمْنِ والبَرَكَة ﴿أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ﴾ أي: أَتطَيَّرونَ إنْ ذُكِّرتُم، وقُرِئَ: «أنْ ذُكِّرتُم» بالفتح[١]، بمعنىٰ: أَتطَيَّرتُمْ لأَنْ ذُكِّرتُم، ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾ في العِصْيانِ، فَمِنْ ثَمَّ أَتاكُم الشُّؤمُ لا مِنْ قِبَلِ الرُّسُلِ وتَذْكيرِهِم إيَّاكُم، بَلْ أَنْتُم قَومٌ مُسرِفُونَ في ضَلالِكُم، متَمادُونَ في غِوَايتِكُم حيث تَتَشأَّمونَ بمَنْ يُتَبرَّكُ بِهِ.

﴿رَجُلٌ يَسْعَىٰ﴾ هو حبيبُ بن إسرائيلَ النَّجَّار، وكانَ منزلُهُ عندَ ﴿أَقْصىٰ﴾ بابٍ من أبوابِ المدينةِ، فَلَمَّا بَلَغَه أنَّ قَومَهُ همُّوا بِقَتْلِ الرُّسُلِ ﴿جَاءَ﴾ يعدُو ويَشتَدُّ.

وعن النبيِّ ﷺ: «سُبَّاقُ الأُمَمِ ثَلاثةٌ لم يكفُروا باللهِ طَرْفة عَيْنٍ: عليُّ بن أبي طالب عليه الصَّلاة والسلام، وصَاحبُ ياسينَ، ومؤمنُ آل فِرْعَونَ، فَهُم الصِّدِّيقون، وعليٌّ عليه السلام أَفْضَلُهُمْ»[٢].

وقَولُهُ: ﴿مَنْ لا يَسْئَلُكُمْ أَجْراً وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ كَلِمةٌ جَامِعَةٌ في التَّرغيبِ فيهِم، أي: لا تَخْسَرونَ مَعَهُم شَيئاً من دُنْياكُم وتَربَحُونَ صحَّةَ دينِكُم فتفوزُونَ بخيرِ الدُّنْيا والآخِرَة.

﴿وَمَالِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٢) ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَـٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَـٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ (٢٣) إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ (٢٤) إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ (٢٥) قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَـٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ (٢٧) وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ

(١) وهي قراءة الماجشون. راجع تفسير القرطبي: ج ١٥ ص ١٧.

(٢) أخرجه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ١٠، وفي الكاف الشاف في تخريج أحاديث الكشّاف: ص ١٤٠ ما لفظه: أخرجه الثعلبي والعقيلي والطبراني وابن مردويه من طرق عن ابن عباس.

وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ(٢٨) إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ(٢٩) يَا حَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ(٣٠)﴾

أبْرَزَ الكلامَ في مَعْرِضِ المناصَحَةِ لنفسِهِ وهو يُريدُ مُناصَحَتَهُم تَلَطُّفاً لَهُم، فكَأنَّهُ قالَ: وَما لَكُمْ لا تَعْبُدُونَ الَّذي فطَرَكُم؟ أَلَا تَرىٰ إلىٰ قولِهِ: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ولَمْ يَقُلْ: وَإليه أُرْجَعُ، ثمَّ ساقَ كلامَهُ ذلكَ المساق إلىٰ أن قالَ: ﴿إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾ يريدُ: فاسمَعُوا قَولي وأطيعوني فَقَد نَبَّهتُكُم على الحقِّ الصَّريحِ والدِّينِ الصَّحيحِ الَّذي لا مَحيصَ عنه، وهو أنَّ العبادةَ لا تَصحُّ إلَّا لِمَنْ أنْشَأَ خَلْقَكُم[١] وأَوْجَدَكم وَإلَيْهِ مَرجِعُكُم، وَمِنْ أنْكَرِ الأَشياءِ في العَقْلِ أن تُؤْثِرُوا علىٰ عبادتِهِ عبَادةَ أشياءٍ، إنْ أَرادَكُمْ هُو ﴿بِضُرٍّ﴾ وشَفَعَ لَكُم هؤلاء لَمْ يَنفَعْكُم شَفَاعَتُهُم ولَمْ يَقْدروا علىٰ إنْقاذِكم، إنَّكُم في هذا الاختيارِ لواقعُونَ ﴿فِي ضَلَالٍ﴾ ظَاهِرٍ بَيِّنٍ لا يَخْفىٰ علىٰ ذي حجى.

ثمَّ إنَّ قومَهُ لمَّا سَمِعُوا منهُ ذلكَ القَولَ وَطِؤوهُ بأَرجُلِهم حتَّىٰ ماتَ، فَأَدخَلَهُ اللهُ الجنَّةَ وهو حَيٌّ فيها يُرزَقُ، وذلكَ قَولُهُ: ﴿قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ﴾، وقيلَ: إنَّهم قَتَلُوه علىٰ أنَّ الله سبحانه أَحيَاهُ وأَدخَلَهُ الجنَّةَ. فَلَمَّا دَخَلَهَا ﴿قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي﴾[٢] تمنَّىٰ أَن يعلَمَ قَومُهُ ما أعطاهُ اللهُ تَعالىٰ من ٱلمغفرةِ وجَزيلِ الثَّوابِ ليرغَبُوا في مثلِهِ، ويُؤمنُوا لينالُوا ذلكَ. وورَدَ في حَديثٍ مرفُوعٍ: «أَنَّهُ نَصَحَ قَومَهُ حَيّاً وَمَيّتاً»[٣].

و«ما» في ﴿بِمَا غَفَرَ لِي﴾ مصدريَّةٌ أو موصولةٌ، أي: بمغفرةِ ربِّي لي، أو: بالَّذي

---

(١) في بعض النسخ: «أنشأكم».

(٢) قاله ابن مسعود ومجاهد. راجع تفسير ابن كثير: ج ٣ ص ٥٤٧.

(٣) أورده الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ١١.

غَفَرَهُ ربِّي لي من الذُّنوبِ، ويجوزُ أن تكونَ استفهاميَّةً أي: بأيِّ شيءٍ غَفَرَ لي؟ يُريدُ ما كانَ منْهُ مَعَهُم من المصابرةِ على الجهادِ في إعْزازِ دينِ اللهِ حتَّىٰ قُتِلَ، إلَّا أنَّهُ علىٰ هذا الوجه «بِمَ غفَرَ لي» بِطَرْحِ الألفِ أجودُ وإنْ كانَ إثباتُها جَائِزاً.

﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنۢ﴾ بَعْدِ قَتْلِه ﴿مِن جُندٍ﴾ أي: لَمْ تُنَزِّلْ لإهْلاكِهِم جُنْداً مِن جنُودِ السَّماءِ كَما فَعَلْنا يَوم بَدر ﴿وَمَا كُنَّا﴾ مُنزِّلِيهِمْ علَى الأُمَمِ إذْ أهلَكْنَاهم. ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ أي: لَمْ تَكُنْ مَهلَكتُهُم عن آخرِهِم إلَّا بأيسرِ أمرٍ ﴿صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ أَخَذَ جبرائيلُ بِعُضَادَتَيْ بابِ المَدينةِ وَصَاحَ بِهِم صَيْحةً فَماتُوا مِن آخرِهِم، لا يُسْمَعُ لَهُم حِسٌّ، كالنَّارِ إذا طُفِئَتْ. وكأنَّهُ قَالَ عزَّ ٱسمُهُ: إنَّ إنْزالَ الجُنُودِ منَ السَّماءِ من عَزَائِمِ الأُمورِ الّتي لا يُؤَهَّلُ لها إلَّا مِثْلكَ يا مُحمّد، حَيث أُنْزِلُوا يومَ بَدرٍ والخَنْدَقِ وما كُنَّا نَفْعلُهُ بغَيْرِكَ. وقُرِئَ: «إلَّا صَيْحَةٌ» بالرَّفع[1] علىٰ «كَانَ» التَّامَّةُ، أي: ما وَقَعَتْ إلَّا صَيْحَةٌ، والقياسُ التَّذكيرُ؛ لأنَّ المعنىٰ: مَا وَقَعَ شَيءٌ إلَّا صَيْحَةٌ، وَلكِن جُوِّزَ ذلكَ لأَنَّ «الصَيْحَةَ» في حُكْمِ فَاعِلِ الفِعْلِ، ومثلُهُ بيتُ ذي الرُّمَّةِ:

وَما بَقِيَتْ إلَّا الضُّلُوعُ الجَراشِعُ[2]

والقِراءَةُ بالنَّصْبِ علىٰ معنىٰ: إنْ كانَتِ الأَخِذَةُ أَو العقُوبةُ إلَّا صَيْحَةً.

﴿يَا حَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ﴾ نُودِيَتِ الحَسْرةُ كأنَّها قيلَ لَهَا: تَعَالِ يا حَسْرَةً فهذا من أوقاتِكِ الّتي حقَّكِ أَن تَحْضَرِي فيهَا، وهي حَالُ ٱستهزَائِهِم بالرُّسُلِ، والمعنىٰ: أَنَّهُمْ أَحِقَّاءُ بأَن يَتَحَسَّرَ عليهِم المُتَحَسِّرونَ، أَو: هُم مُتَحَسَّرٌ عَلَيهِم من جهةِ المَلائكةِ

(١) وهي قراءة أبي جعفر كما في شواذ القرآن لابن خالويه: ص ١٢٥ .

(٢) وصدره: طَوَى النحز والأجراز ما في غروضها. والبيت من قصيدة طويلة يصف نـاقةً له. راجع ديوان ذي الرمّة: ص ٤٤٧ .

والمؤمنينَ، وَيَجوزُ أَن يكُونَ من جهةِ ٱللهِ تعالىٰ علىٰ سبيلِ الاستعارةِ في مَعنىٰ تَعظِيمِ مَا جَنَوْهُ علىٰ أنفسِهِم، وفَرْطِ إنكارِهِ لَه وتَعَجُّبِهِ منْهُ. ورُوِيَ عن أُبيّ بنِ كَعْبٍ وٱبنِ عبَّاسٍ وعليٍّ بنِ الحسينِ زينِ العَابدينَ عليهما السلام: «يا حَسْرةَ العبَادِ»[1] علَى الإضافةِ إليهم لاختِصَاصِهَا بِهِم من حيث إنَّها مُوجَّهَةٌ إليهم.

﴿أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ(٣١) وَإِنْ كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ(٣٢) وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَـٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ(٣٣) وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّـٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَـٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ(٣٤) لِيَأْكُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ(٣٥) سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ(٣٦) وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ(٣٧) وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ(٣٨) وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَـٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ(٣٩) لَا ٱلشَّمْسُ يَنبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ(٤٠)﴾

﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ أَلَمْ يَعلمُوا، وهُو معلَّقٌ عن العَمَل في ﴿كَمْ﴾ لأنَّ «كم» لا يَعملُ فيهَا عَامِلٌ قبلها، سَواءٌ كانَتْ للاستفهَام أَم للخَبَر؛ لأنَّ أَصلَها للاستفهامِ، و ﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرجِعُونَ﴾ بَدَلٌ مِن ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ علَى المعنىٰ لا علَى اللَّفْظِ، والتَّقديرُ: أَولَمْ يَرَوْا كَثْرةَ إهْلاكِنَا القُرونَ قَبلَهُم كَونَهُم غَيرَ راجعينَ إليهِم، أي: لا يَعُودونَ إِلَى الدُّنيا، أَفَلَا يَعتبرونَ بِهِم؟

---

(١) انظر شواذ القرآن لابن خالويه: ص ١٢٥.

وقُرِئَ: «لَمَا» بالتَّخفيف[١] علىٰ أَن يكونَ «مَا» صِلَةً للتَّوكيدِ، و ﴿إِنْ﴾ مخفَّفَةٌ من الثَّقيلةِ والتَّقديرُ: إنَّ كُلَّهُم لمجمُوعُونَ محشُورُون مُحضَرُونَ للحسَابِ. وقُرِئَ: ﴿لَمَّا﴾ بالتَّشْديدِ بمعنىٰ «إلَّا» كمَسأَلةِ الكتابِ: نَشَدْتُكَ باللهِ لَمَّا فَعَلْتَ، و ﴿إِنْ﴾ نَافيةٌ والتَّقديرُ: مَا كُلٌّ إلَّا مجمُوعُون مُحْضَرُونَ لَدَيْنَا، والتَّنوينُ في ﴿كُل﴾ عوَضٌ من المضَافِ إليهِ، والـ﴿جَمِيع﴾ فَعيلٌ بمعنىٰ مفعُول، يُقَالُ: حَيٌّ جَمِيعٌ، وجَاؤوا جَميعاً.

والقِرَاءَةُ بالمَيْتَة مخفَّفَةً أَشيعُ وأسْلسُ علَى اللِّسانِ، و ﴿أَحْيَيْنَاهَا﴾ استِئْنافٌ، بَيَانٌ لِكَونِ الأَرض المِيْتةِ آيةً، ودلَالَةٌ لَهُم علىٰ قُدرةِ ٱللهِ علَى البَعْثِ، وكَذلِكَ ﴿نَسلَخُ﴾ ويجوزُ أَن يكونَ صِفَتَيْن لـ﴿الأَرْض﴾ و ﴿الَّيْل﴾ لأنَّه أُريدَ بِهِما الجِنْسَانِ مُطْلَقَيْنِ، لا «أرض» ولا «ليل» بأَعْيانِهما، فَعُومِلَا مُعَاملةَ النَّكِرَات في وَصْفِهِمَا بالجُمَلِ، ونحوهُ:

وَلَقد أَمُرُّ علَى اللَّئيمِ يَسُبُّنِي[٢]

أي: أَحيينَاهَا بالنَّباتِ، و ﴿أَخْرَجْنَا مِنْهَا﴾ كلَّ حَبٍّ يَتَقَوَّتُونه مِثْلُ: الحِنْطَةِ والشَّعيرِ والأُرْزِ ونَحوهَا ﴿فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ قَدَّمَ الظَّرْفَ للدَّلالةِ علىٰ أَنَّ الحبَّ هو الَّذي يَتعَلَّقُ بِهِ معظَمُ العيشِ وَيَتَقَوَّمُ بالارزَاقِ منهُ صَلَاحُ الإِنْسِ، وإذا قَلَّ جَاءَ القَحْطُ.

وَخَصَّ النَّخيلَ وَالأَعْنَابَ لِكَثْرةِ أَنواعِهِمَا ومَنَافِعِهما ﴿وفَجَّرْنَا﴾ في الأَرضِ أَو في الجَنَّاتِ من عُيُونِ الماءِ ﴿لِيَأْكُلُواْ مِن ثَمَرِهِ﴾ والمعنىٰ: ليأْكُلوا مِمَّا خَلَقَهُ اللهُ

---

(١) قرأه ابن كثير ونافع وأبو عمرو والكسائي. انظر التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٦٣٠.

(٢) وعجزه: فمضيتُ ثمَّة قلتُ لا يعنيني. والبيت منسوب لرجل من بني سلول، وقيل: لشمر بن عمرو الحنفي. وقد تقدّم شرح البيت وتخريجه في ج ١ ص ٥٨ فراجع.

من التَّمَرِ، وَمِمَّا ﴿عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ من الغَرْسِ والسَّقْيِ والإبار وغير ذلك من الأعمالِ، إلىٰ أن بَلَغَ التَّمَرُ منتَهاها وأَوانَ أُكُلِها. وقُرِئَ: ﴿ثَمَرِهِ﴾ و «ثُمُرِهِ» بِفَتْحَتَيْنِ وضَمَّتَيْنِ[(١)] وضَمَّةٍ وسُكُونٍ[(٢)]، وأَصلُهُ: «مِن ثَمَرِنا» كَمَا قَالَ: ﴿وَجَعَلْنَا﴾ و ﴿فَجَّرْنَا﴾ فَنَقَلَ الكلامُ من التَكلُّمِ إلى الغيبةِ علىٰ طَريقةِ الالتفاتِ، ويجوزُ أَن يكونَ الضميرُ لـ«النخيل» وتُتْرَكُ «الأعناب» غَيرُ مرجوعٍ إليهَا الضميرُ؛ لأنَّها في حُكْمِ النَّخيلِ فيمَا علَّقَ بِهِ من أَكْلِ ثَمَرِهِ، ويجوزُ أَن يُرادَ بِهِ: من ثَمَرِهِ المذكُورُ وهو الحبَّاتُ، كَمَا قَالَ رُؤبَةُ:

فيهَا خُطُوطٌ مِن سَوادٍ وبَلَقْ   كَأَنَّهُ في الجِلْدِ تَوليعُ البَهَقْ[(٣)]

فَسُئِلَ عنهُ فَقَالَ: أَردتُ كَأَن ذلكَ. ويجوزُ أَن يكونَ ﴿مَا﴾ في ﴿مَا عَمِلَتْهُ﴾ نَافيةً، أي: وَلَمْ يَعْمَلْ تلكَ الثِّمار أَيدِيهم ولا يَقْدِرُونَ عليهِ، وقُرِئَ على الوجه الأوَّلِ: «ومَا عَمِلَتْ أَيديهم» مِن غَيرِ هَاءٍ[(٤)].

و ﴿الأَزْوَٰجَ﴾: الأَشكالُ والأَصنافُ والأَجناسُ من الأشياءِ ﴿وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ﴾ أي: ومن أَزواجٍ لم يُطْلِعْهُم ٱللهُ عليها، ولا تَوَصَّلُوا إلىٰ مَعرفَتِها بطَريقٍ من طُرُقِ العِلْم، ولا يَبْعدُ أَن يَخلُقَ ٱللهُ من الحيوانِ والجَمَادِ ما لَمْ يَجْعَلْ للبَشَرِ طَرِيقاً إلى العِلْم بِهِ في بطُونِ الأرضِ وقَعْرِ البحَارِ.

سَلَخَ الشَّاةَ: كَشَطَ جِلْدَهَا عَنْها، فاستُعِيرَ لإزالةِ الضَّوءِ وكَشفِهِ عن مكانِ اللَّيلِ

---

(١) وبالضمَّتين قرأه الأخوان (حمزة والكسائي). راجع العنوان في القراءات لابن خلف: ص ١٥٩.

(٢) وهي قراءة الأعمش كما في تفسير القرطبي: ج ١٥ ص ٢٥.

(٣) البيت من قصيدة مرجَّزة مشهورة لرؤبة بن العجَّاج يصف دابةً. راجع خزانة الأدب للبغدادي: ج ١ ص ٨٨ وما بعده.

(٤) قرأه الكوفيوّن إلّا حفصاً. راجع العنوان في القراءات: ص ١٥٩.

وملقىٰ ظلّهِ ﴿فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾ أي: داخِلُونَ في ظَلامِ اللَّيلِ لا ضياءَ لَهُم فيهِ.

﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ أي: لِحَدٍّ لَهَا مُوَقَّتٍ مُقدَّرٍ تَنتهي إليهِ من فَلَكِها في آخِرِ السَّنةِ، شُبِّه بمُستَقرِّ المسافر إذا قَطَعَ مسيرَهُ، أو: منْتَهىً لَهَا من المشارقِ والمغَاربِ حتّىٰ تَبلغَ أَقصَاهَا فذلكَ مستَقَرُّها لأنَّها لا تَعدُوه، أو: لحدٍّ لَها من مسيرِها كُلَّ يومٍ في مرائي عيُونِنا وهو المغربُ، وقَرأَ ٱبنُ مسعودٍ: «لا مُستَقَرَّ لَهَا»[1] وهو قِرَاءةُ أهلِ البيتِ عليهم السلام[2] ومعنَاهُ: أنَّها لا تَزالُ تَجري لا تَستَقِرُّ ذلك الجَرْيِ علىٰ ذلكَ التَّقديرِ والحسَابِ الدَّقيقِ الّذي يَكلُّ الفَطِنُ عن ٱستخراجِهِ، تَقديرُ الغَالِبِ بقُدرتِهِ علىٰ كلِّ مقدُور، المُحيطُ عِلْماً بكلّ معلُوم.

وقُرِئ: ﴿والْقَمَرَ﴾ بالرَّفع[3] على الابتداءِ أو عَطْفاً على ﴿الَّيْل﴾ أيْ: وَمِنْ آيَاتِهِ القَمَرُ، وبالنَّصْبِ بفعلٍ مضْمَرٍ يفسِّرُهُ ﴿قَدَّرْنَـٰهُ﴾. والمَعنىٰ: قَدَّرْنَا مَسيرَهُ ﴿مَنَازِلَ﴾ وهيَ ثَمانيةٌ وعشْرونَ مَنْزِلاً، يَنزلُ كلَّ ليلةٍ في واحدٍ منْها لا يتخطَّؤُهُ ولا يَتَقَاصَرُ عَنْهُ، علىٰ تَقْديرٍ مستَوٍ ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾ وهو عُودُ الْعِذْقِ الّذي تَقَادَمَ عَهْدُهُ حتَّىٰ يَبِسَ وتَقَوَّسَ، وقيلَ: إنَّه يَصيرُ كذلكَ في كلِّ ستَّةِ أَشهر[4]، قَالَ الزجَّاجُ: هو فُعْلُون من الانعراجِ وهو الانعِطَاف[5] والقَديمُ يَدُقُّ ويَنْحَني ويَصْفَرُّ، فَشبَّهَ القَمَرَ بِهِ من ثَلاثةِ أَوْجُه.

﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ﴾ في سُرْعَةِ سَيْرِهِ فإنَّها تَقْطَعُ مَنازِلَها

---

(١) حكاه عنه ابن خالويه في شواذ القرآن: ص ١٢٧.

(٢) ذكرها ابن خالويه في الشواذ ونسبها الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وفي البحر المحيط لأبي حيان: ج ٧ ص ٣٣٦: عن الإمام زين العابدين وولده الباقر والصادق عليهم السلام.

(٣) قرأه ابن كثير ونافع وأبو عمرو. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٥٤٠.

(٤) كما روي عن الإمام علي عليه السلام كما في إرشاد المفيد: ص ١١٨، وعن الرضا عليه السلام كما في تفسير القمي: ج ٢ ص ٢١٥.

(٥) معاني القرآن: ج ٤ ص ٢٨٨.

في سَنَةٍ والقَمَرُ يَقْطَعُها في شَهْرٍ، ولأنّ ٱللهَ سبحانَهُ بَايَنَ بينَ فَلَكَيْهِمَا وَمَجارِيهِما، فَلا يُمكنُ أَن يدركَ أحدُهُمَا الآخَرَ ﴿وَلا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾ أي: ولَمْ يَسبقِ اللَّيلُ النَهارَ ﴿وَكُلٌّ﴾ التَنوينُ فيهِ عِوَضٌ من المُضَافِ إليـهِ، وكُـلُّهُم: الشَّـمسُ والقَـمَرُ والنُجُومُ ﴿فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ أي: يَسيرُونَ فيهِ بانبسَاطٍ، وإنَّما قيلَ بالواو والنُّونِ لمَا أُضيفَ إليهَا ما هو من فِعْلِ العُقَلاء. وعن ٱبنِ عبَّاسٍ: معناهُ: يَجري كلٌّ واحدٍ منْهُما في فَلَكِهِ كَمَا يدورُ المِغْزَلُ في الفلكة(١).

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ (٤١) وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ(٤٢) وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ (٤٣) إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَـٰعًا إِلَىٰ حِينٍ(٤٤) وَإِذَا قِيلَ لَـهُمُ ٱتَّـقُواْ مَـا بَـيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ(٤٥) وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَـٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ(٤٦) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ(٤٧) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ(٤٨) مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ(٤٩) فَـلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ(٥٠)﴾

قُرِئَ: ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ علَى التَّوحيدِ و «ذُرِّيَّاتهمْ» علَى الجَمْعِ(٢)، وهُم أَولادُهُم ومَنْ يَهمُّهُم حَمْلُهُ، وقيل: إنَّ ٱسمَ الذُّرِّيةِ يَقَعُ علَى النِّساءِ لأنَّهُنَّ مَزارِعُها(٣).

وفي الحَديثِ: «أنَّهُ نَهَىٰ عن قَتْلِ الذَّراري، وَخَصَّهُم بالحَمْلِ لِضَعْفِهِم، ولأنَّـهُ

---

(١) حكاه عنه الماوردي في تفسيره: ج ٤ ص ١٨.

(٢) وهي قراءة نافع وابن عامر ويعقوب. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٦٣٠.

(٣) وهو قول الإمام عليٍّ عليه السلام فيما رواه عنه الماوردي في تفسيره: ج ٥ ص ١٩.

لا قُوَّة لَهُم على السَّفَر كقُوَّة الرجَالِ»[١].

﴿وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ﴾ مِثْل الفُلْكِ ﴿مَا يَرْكَبُونَ﴾ يَعني الإِبِلَ، وهي سُفُنُ البَرِّ، وقيلَ: ﴿الْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ سَفينةُ نوحٍ[٢]، و ﴿مِنْ مِثْلِهِ﴾ أي: مِثْل ذلكَ الفُلْك ما يَركبُونَ من السُّفُنِ والزَّوارقِ. ﴿فَلا صَرِيخَ لَهُمْ﴾ أي: لا مُغيثَ لَهُم، أو: لا إغاثَةَ، يُقالُ: أتَاهُم الصَّريخُ. ﴿إلَّا رَحمَةً مِنَّا﴾ أي: لِرَحْمَةٍ مِنَّا ولِتَمتُّعٍ بالحَياةِ إلىٰ أجَلٍ يموتُونَ فيهِ لابُدَّ لَهُم منهُ بعدَ النَّجَاةِ من مَوتِ الغَرَق.

وجَوابُ ﴿إذَا﴾ مَحذُوفٌ يَدُلُّ عليهِ قَولُهُ: ﴿إلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾، كَأنَّهُ قَالَ: ﴿وَإذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّقُواْ﴾ أعْرَضُوا، ثمَّ قَالَ: وعَادَتُهُم الإعْراضُ عندَ كلِّ آيةٍ ومَوعِظَةٍ. وعن الصَّادقِ عليه السلام: «معناهُ: اتَّقُوا ﴿مَا بَيْنَ أيْدِيكُمْ﴾ من الذُّنُوبِ ﴿وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ من العقُوبةِ»

﴿إنْ أَنْتُمْ إلَّا فِى ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ قولُ ٱللهِ سبحانَهُ، أو حكَايةُ قَولِ المؤمنينَ لَهُم، أو هو مِن جُملةِ جَوابِهِم للمؤمنينَ.

وقُرِئَ: ﴿وَهُمْ يَخصِّمُونَ﴾ بإدغامِ التَّاءِ من «يَخْتَصِمُون» في الصَّادِ مع فَتْحِ الخاء[٣]، وكَسْرِها وإتْباع الياءِ الخَاءَ في الكَسْرِ، و «يَخْصِمونَ»[٤] من خَصَمَهُ يَخْصِمُهُ. أي: يَخْتَصِمُون في أُمورِهِم ويَتَبايعُونَ في أسواقِهِم، يعني: أنَّ القيامةَ تأْتِيهِم بَغْتةً فَلا يَقْدِرُونَ على الإيْصَاءِ بشيءٍ، ولا يَرجِعُونَ إلىٰ مَنَازِلِهم من الأسْواق.

﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ(٥١)

(١) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ١٨.

(٢) قاله قتادة. راجع تفسير الطبري: ج ١٠ ص ٤٤٤.

(٣) قرأه ابن كثير وأبو عمرو وورش عن نافع. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٥٤١.

(٤) وهي قراءة حمزة وحده، راجع المصدر السابق.

قَالُواْ يَـٰوَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَـٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ(٥٢) إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ(٥٣) فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(٥٤) إِنَّ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَـٰكِهُونَ(٥٥) هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِى ظِلَـٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ(٥٦) لَهُمْ فِيهَا فَـٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ(٥٧) سَلَـٰمٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ(٥٨) وَٱمْتَـٰزُواْ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ(٥٩) أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَـٰنَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ(٦٠) وَأَنِ ٱعْبُدُونِى هَـٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ(٦١)﴾

﴿الأَجْدَاث﴾ القُبورُ ﴿يَنسِلُونَ﴾ يَعْدُونَ، وهي النَّفخةُ الثَّانيةُ. ﴿مَنْ بَعَثَنا مِنْ مَّرْقَدِنَا﴾ مَنْ حَشَرَنَا من منامِنَا الّذي كنّا فيهِ نِيامَاً؟ لأنَّ إحياءَهُم كالإنْباهِ من الرُّقادِ، وقيلَ: إنّهم عَدُّوا أحْوالَهَم في قُبُورِهِم بالإضَافةِ إلىٰ أَهْوالِ القيامةِ رُقَاداً[١]. ورُوِيَ عن عليٍّ عليه السلام أنَّه قرأَ: «مِنْ بَعْثِنَا»[٢] علىٰ «مِنْ» الجَارِّ، والمَصْدرُ ﴿هٰذَا﴾ مبتَدأٌ و ﴿مَا وَعَدَ﴾ خَبَرُهُ «وَمَا» مَصدريَّةٌ أو مَوصُولةٌ. ويجوزُ أن يكونَ ﴿هٰذَا﴾ صِفَةً لـ﴿مَرْقَدِنَا﴾ و ﴿مَا وَعَدَ﴾ خَبَرُ مبتَدأ محذوف أي: هذا وَعْدُ الرَّحمنِ. وعن قَتَادَةَ: أوّلُ الآيةِ قولُ الكافرِ، وآخرُ الآيةِ ﴿هٰذَا ما وَعَدَ ٱلرَّحْمنُ﴾ قَولُ المُسلمِ[٣]، وقيلَ: هو كلامُ الكافرينَ أيضاً يَتَذكَّرونَ ما سَمِعُوهُ من الرُّسُلِ فَيجيبونَ به أَنْفُسَهُم أو يُجيبُ بعضُهُم بَعضاً[٤]. وإذَا جُعِلَت «مَا» موصُولةً فَتقديرُهُ: هذا الَّذي وَعَده الرَّحمنُ والَّذي صَدَقَهُ المُرسَلُونَ، أي: صَدَقُوا فيهِ، مِن قَولِهِم: صَدَقُوهُم القِتَالَ،

(١) ذكره البغوي في تفسيره: ج ٤ ص ١٥ ونسبه الى أهل المعاني.
(٢) أنظر شواذ القرآن لابن خالويه: ص ١٢٦.
(٣) حكاه عنه الطبري في تفسيره: ج ١٠ ص ٤٥١.
(٤) قاله ابن زيد. راجع المصدر السابق.

والمَثَلُ: «صَدَقَني سِنُّ بَكْرِه»[(١)]، أي: هو الَّذي وَعَدَهُ ٱللهُ في كُتُبِهِ المُنْزَلَةِ على أَلْسِنَةِ رُسُلِهِ الصَّادقِينَ، ولَيسَ بِبَعثِ النّائمِ من مَرقَدِهِ بَل هو البَعْثُ الأكبرُ، أي: لَمْ تكنْ تلكَ المدَّةُ إلّا مدَّةَ صَيْحَةٍ واحِدَةٍ، فإذَا الأوَّلُونَ والآخرونَ مجمُوعُونَ ﴿لَدَيْنَا﴾ في عَرَصَاتِ القيامةِ، مُحَصَّلُونَ في موقفِ الحسَابِ ﴿فَالْيَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفسٌ شَيْئاً﴾.

﴿إِنَّ أَصْحَابَ الجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَاكِهُونَ﴾ حكايةُ ما يُقالُ لَهُم في ذلك اليوم، وفي مثْلِ هذهِ الحكَايةِ تَصويرٌ للموعُودِ، وتَمكينٌ له في النفُوسِ، وتَرغيبٌ في الحرْصِ علَى العَمَل بما يُثْمرُهُ ويؤدِّي إليهِ ﴿فِى شُغُلٍ﴾ وقُرئ: «فِىَ شُغْلٍ» بسكُونِ الغينِ[(٢)] وهُمَا لُغَتان، أي: في أيِّ شُغلٍ لا يُحَاطُ بوصْفِهِ، وهو النَّعيمُ الَّذي شَملَهُم وشَغَلَهم عمَّا فيه أهلُ النَّار فَلَا يَذْكُرونَهُم وإنْ كانُوا أَقَارِبَهم، وقيلَ: شغلُوا بافتضاضِ العذَارىٰ وباستماعِ الألْحَانِ[(٣)]. وقُرئ: ﴿فَاكِهُونَ﴾ وَ «فَكِهُونَ»[(٤)] والمعنىٰ واحِدٌ، أي: متنَعِّمُونَ متلَذِّذُونَ، ومِنْهُ الفاكهةُ لأنَّها مِمَّا يُتَلَذَّذُ بِه، وقيلَ: فَرِحُونَ طيِّبو النُّفُوسِ مُعجبُونَ بما هُم فيهِ من الفَكَاهَةِ وهي المُزَاحُ والأحَاديثُ الطَّيِّبة[(٥)].

---

(١) يضرب للرجل يكذب في الأمر يدلّ بعض أحواله على الصدق فيه. وأصله: أنّ رجلاً سَاوَمَ رجلاً ببعير فسأل عن سنّه، فأخبره أنّه بكر ـ والبكرُ: الفتيُّ ـ ففرَّ عنه فوجده هرماً فقال: صدقني سنّ بكره وكذبني هو. راجع جمهرة الأمثال للعسكري: ج ١ ص ٥٧٥.

(٢) قرأه الحرميان وأبو عمرو. راجع التذكرة في القراءات: ص ٦٣١.

(٣) وهو قول ابن مسعود والحسن وسعيد بن جبير وقتادة. راجع تفسير الماوردي: ج ٥ ص ٢٤.

(٤) قرأه ابن مسعود والسلمي وأبو المتوكل وقتادة وأبو الجوزاء والنخعي وأبوجعفر المدني. راجع تفسير القرطبي: ج ١٥ ص ٤٤.

(٥) قاله ابن عباس ومجاهد. راجع تفسير الماوردي: ج ٥ ص ٢٥.

﴿هُمْ﴾ يُحتَملُ أن يكونَ مبتَدأً، وأَن يكُونَ تَأْكيداً للضَّميرِ في ﴿شُغُلٍ﴾ وفي ﴿فَاكِهُونَ﴾ علىٰ أَنَّ ﴿أَزْوَٰجُهُمْ﴾ تُشَارِكُهُم في ذلكَ الشُّغلِ والتَّفكُّهِ والاتِّكاءِ ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ تحتَ الظِلالِ، وقُرِئَ: «في ظُلَلٍ»[١] وهو جَمْعُ ظُلَّة، والأريكة: السَّريرُ في الحَجلةِ، وقيلَ: كلُّ ما اتُّكِئَ عليهِ فَهُو أَريكَة[٢] ﴿وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ﴾ أي: يَتَمنَّونَ ويَشْتهونَ، من قَولِهِم: ادَّعِ عَليَّ ما شِئْتَ، يعني: تمنَّهُ عَليَّ، وقيلَ: هو يَفتعلُونَ من الدُّعَاءِ، أي: يَدَّعُونَ بِهِ لأنفُسِهِم[٣]، كقَولِهِ: اشْتَوىٰ إذَا شَوَىٰ لنفْسِهِ.

﴿سَلَـٰمٌ﴾ بَدَلٌ مِن ﴿ما يَدَّعُونَ﴾ كأَنَّهُ قَالَ لَهُم: سَلَامٌ، يُقَالُ لَهُم ﴿قَوْلًا﴾ مِن جهَةِ ﴿رَبٍّ رَحِيمٍ﴾، والمعنىٰ: أَنَّ ٱللهَ سبحانَه يُسَلِّمُ عليهِم بواسطةِ المَلَكِ أو بغَيْرِ واسِطَةٍ مُبَالَغةً في تَعظِيمِهِم، وذلكَ مُتَمَنَّاهُم، ولَهُمْ ذلكَ مَا يُمْنَعُونَه، وقيلَ: ﴿مَا يدَّعُونَ﴾ مبتَدأٌ، وخَبَرُهُ ﴿سَلَـٰمٌ﴾ بمعنىٰ: ولَهُم ما يدَّعونَ سَلامٌ خَالِصٌ لا شَوْبَ فيهِ، فـ﴿قَوْلًا﴾ مصْدَرٌ مؤكِّدٌ لقَولِهِ: ﴿وَلَهُم مَا يدَّعُونَ سَلَـٰمٌ﴾، أي: عِدَةٌ من ربٍّ رحيمٍ[٤].

﴿وَٱمْتَـٰزُواْ﴾ أَي: ٱنفرِدُوا عن المؤمنينَ وكونُوا علىٰ حِدَة، وذلكَ حينَ يُحشَرُ المؤمنونَ ويُسَارُ بِهِم إلَى الجنَّةِ، يُقَالُ: مُزْتُهُ فامتَازَ وانْمَازَ، وعَن قتادةَ: اعتزلُوا عَن كُلِّ خيرٍ[٥] وعن الضَحَّاكِ: لكلِّ كَافرٍ بيتٌ في النَّارِ يَدخُلُهُ فَيَردِمُ بابَهُ لا يَرىٰ ولا يُرىٰ[٦].

هذا إشَارَةٌ إلىٰ ما عَهِدَ إليهِم فيهِ من مَعْصِيةِ الشَّيطانِ وطاعَةِ الرَّحمٰنِ

---

(١) قرأه حمزة والكسائي. راجع التذكرة في القراءات: ج ٢ ص ٦٣١.
(٢) قاله الأزهري في تهذيب اللغة: ج ١٠ ص ٣٥٣.
(٣) قاله الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٢٢.
(٤) قاله الزمخشري أيضاً.
(٥ و٦) حكاه عنه الزمخشري في الكشاف: ج ٤ ص ٢٣.

﴿هٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ بَليغٌ في ٱستقامتِهِ، حَقِيقٌ بأَن يُوصَفَ بالكَمَالِ في بَابِه.

﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلاًّ كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُواْ تَعْقِلُونَ(٦٢) هَـٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ(٦٣) ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ(٦٤) ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ(٦٥) وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ(٦٦) وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَـٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَـٰعُواْ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ(٦٧) وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ(٦٨) وَمَآ عَلَّمْنَـٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِى لَهُۥٓ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ(٦٩) لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ(٧٠)﴾

﴿جِبِلًّا﴾ قُرِئَ بضَمَّتَيْنِ[1] وبضَمَّةٍ وسُكُونٍ[2] وبضَمَّتَيْنِ وتَشديدَةٍ[3] وبكَسْرتَيْنِ وتَشديدةٍ، ومعنَاهُنَّ جَميعاً: الخَلْقُ الكثيرُ الّذي جُبِلُوا علىٰ خَليقَتِهِ أَضَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بأَن دَعَاهُم إِلَى الضَّلَالِ[4] وأَغْواهُم.

﴿اصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ﴾ أي: الْزَمُوهَا وَصِيرُوا صَلَاها، أي: وقُودَهَا بسببِ كُفْرِكُم وتَكْذِيبِكُم الأَنبياء.

﴿فَاسْتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ﴾ أي: إِلَى الصِّراطِ، فَحُذِفَ الجَارُّ وأُوصِلَ الفِعْلُ، أَو ضُمِّنَ «استَبَقُوا» معنىٰ: «ابتَدرُوا»، أو: نُصِبَ ﴿الصِّرَٰطَ﴾ على الظَّرْفِ، والمعنىٰ: ولَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَا أَعْيُنَهُمْ، فَلَو حَاوَلُوا أَن يستَبِقُوا إِلَى الطَّرِيقِ الَّذي ٱعتَادُوا سلُوكَهُ إِلىٰ

---

(١) قرأه ابن كثير وحمزة والكسائي. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٥٤٢.

(٢) وهي قراءة أبي عمرو وابن عامر. راجع المصدر السابق.

(٣) قرأه روح عن يعقوب. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٦٣٢.

(٤) في نسخة زيادة: «وحملهم عليه».

مَقاصِدِهم كَمَا كانُوا يَستَبِقُونَ إليهِ سَاعِينَ فِي مـتَصَرَّفَاتِهِم لَـمْ يَـقدرُوا، فكَـيفَ ﴿يُبْصِرُونَ﴾ ويَعلَمُونَ جهةَ السُّلوكِ وَقَد أَعْمَينَاهُم؟

وَالْمَكَانَةُ والمَكَـانُ واحـدٌ، كـالمَقَامَةِ والمَـقَامِ. وقـرِئَ ﴿عَـلَىٰ مَكَـانَتِهِم﴾ وَ«مَكَانَاتِهِم»(١) علَى التَّوحيدِ والجَمْعِ، أَي: لَمَسَخْنَاهُم مَسْـخاً يـجمِدُهُم عـلىٰ مَكَانِهِم لا يقدرُونَ أَن يَبرحُوهُ، بمضيٍّ ولا رجُوعٍ بأَن يَـجعَلَهُم حـجَارةً، وقـيلَ: لَمَسخْنَاهُمْ قِرَدَةً وخنَازيرَ في مَنازِلِهِم فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿مُضِيّاً﴾ عن العـذابِ ولا رجُوعاً إلى الخلقَةِ الأُولىٰ بعد المَسْخ(٢).

﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ ننكسْهُ﴾(٣) أي: نُقلبُهُ في الخَلْقِ فَنَخْلقُهُ علىٰ عَكْسِ ما خَلَقْنَاهُ قَبلُ، إذْ كانَ يَتَزايدُ في القوَّةِ والعقْلِ والعِلْمِ إلىٰ أَن ٱستكْمَلَ قوَّتَهُ وبَلَغَ أَشُدَّهُ، وإذَا ٱنتهىٰ نَكسْنَاهُ في الخَلْقِ، فَجَعَلْنَاهُ يَتَناقَصُ حتَّىٰ يَرجعَ في حَالٍ شَبيهةٍ بحالِ الصَبيِّ في ضَعْفِ الجَسَدِ وقلَّةِ العَقْلِ والعِلْمِ، كَمَا يُنَكَّسُ السَّهْمُ فيُجْعَلُ أَعلاهُ أَسفلَهُ، كَـمَا قَالَ: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾(٤) ثُمَّ ﴿يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً﴾(٥) وقُرئ: «نُنَكِّسْهُ» منَ التَّنْكيسِ.

﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ بتَعليمِ القُرآن ﴿الشِّعْرَ﴾ ومَـعْنَاهُ: أنَّ القُـرآنَ ليسَ بِشِـعْرٍ، ولا منَاسَبة بينَه وبينَ الشِّعْرِ، لأنَّ الشِّعْرَ كَلامٌ مَوزُونٌ مقفًّىً، وليسَ القُرآنُ منهُ في شيءٍ ﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ أي: ومايَصِحُّ لَه، وما يَنْطَلِبُ لَو طلب، فَلَو أَرادَ أن يقُولَ الشِّعْرَ لَمْ يَتَأَتَّ لَهُ ولَمْ يَتَسَهَّلْ، حتّىٰ لو تَمَثَّلَ بِبَيْتِ شِعْرٍ جَـرَىٰ عـلىٰ لسـانِهِ مـنْكَسِراً،

(١) وهي قراءة أبي بكر عن عاصم. راجع كتاب السبعة: ص ٥٤٢.

(٢) قاله ابن عباس في تفسيره: ص ٢٧٢.

(٣) يظهر من العبائر التالية أنّ القراءة المعتمدة عندالمصنّف بالتخفيف وهـي قـراءة ابـن‌كثير ونافع وأبي عمرو وابن عامر والكسائي وعاصم برواية. راجع كتاب السبعة: ص ٥٤٣.

(٤) التين: ٥.

(٥) الحجّ: ٥.

كَمَا رُوِيَ أنَّه كانَ يَتَمَثَّلُ بهذا البَيْتِ:

كَفَى الإسلامُ والشَّيبُ للمَرْءِ نَاهِيَا

فَقَالَ أبُوبَكْرٍ: إنَّما قَالَ الشَّاعرُ: «كَفَى الشَّيبُ والإسلامُ للمَرْءِ نَاهِيَا» أَشْهدُ أنَّكَ رسُولُ اللهِ(١).

وأمَّا قولُهُ عليه السلام:

أنَــا النَّــبيُّ لا كَــذِبْ أنَا ابنُ عبدِ المُـطَّلبْ(٢)

وما رُوِيَ من نَحْوِهِ فإنَّ ذلكَ كَلامٌ من جنْسِ كَلامِهِ الَّذي كَانَ يُرْمىٰ بِهِ على السَّليقَةِ من غَيرِ صفَةٍ فيهِ، إلَّا أنَّه اتَّفقَ أَن جَاءَ مَوزُوناً من غَيْرِ قَصْدٍ منهُ كَمَا يتَّفِقُ في كَثيرٍ من إنشَاءاتِ النَّاسِ في خُطَبِهِم ومحَاوَراتِهِم أَشياءُ موزُونَةً ولا يُسمِّيهَا أَحَدٌ شِعْراً، ولا يَخطُرُ ببالِ المتكَلِّمِ ولا السَّامعِ أنَّه شِعْرٌ، علىٰ أنَّ الخَليلَ لَمْ يكُنْ يَـعُدُّ المشْطُورَ من الرَّجَزِ شِعراً(٣).

ولمَّا نَفَى سبحانَه أن يكونَ القُرآنُ شِعْراً قَالَ: ﴿إنْ هُوَ إلَّا ذِكْرٌ﴾ أي: ما هُو إلَّا ذِكْرٌ من ٱللهِ يُوعِظُ بِهِ الإنْسَ والجِنَّ كَمَا قَالَ: ﴿إنْ هُوَ إلَّا ذِكْرٌ لِلْعَـٰلَمِينَ﴾(٤) وَمَا هُوَ إلَّا قُرْآنٌ يُقْرَأُ في المَحَاريبَ، ويُنالُ بقَراءَتِهِ والعَمَلِ بـمَا فـيهِ فَـوزُ الدَّارَيْـن. ﴿لِيُنْذِرَ﴾ القُرآنُ أو الرَّسُولُ ﴿مَنْ كَانَ حَيًّا﴾ أَي: عَاقِلًا متأمِّلًا؛ لأنَّ غَـيرَ العَـاقِلِ كالميِّتِ، أو منَ المعلُومِ من حَالِهِ أَن يُؤمنَ فَيَحْيَا بالإيْمانِ ﴿ويَحِقَّ ٱلْـقَولُ﴾ أَي: وَيَجِبُ الوَعيدُ ﴿عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ بكُفْرِهِم.

---

(١) أخرجه السيوطي في الدر المنثور: ج ٧ ص ٧١ وعزاه إلى ابن سعد وابن أبي حاتم والمرزباني في معجم الشعراء عن الحسن بن علي عليهما السلام.

(٢) رواه ابن سعد في طبقاته: ج ١ ص ٢٥ و ج ٤ ص ٥١ باسناده عن البراء بن عازب أنه سمعه صلى الله عليه وآله وسلم يقول هذا البيت يوم حنين.

(٣) أنظر كتاب العين: مادة «رَجَزَ». (٤) يوسف: ١٠٤.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ(٧١) وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ(٧٢) وَلَهُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ(٧٣) وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ(٧٤) لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ(٧٥) فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٦)﴾

﴿مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا﴾ أي: ما تولَّينا خَلْقَهُ وإنْشاءَهُ ولَمْ يَقْدِرْ علىٰ تولِّيهِ غيرُنَا ﴿فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ﴾ أي: خَلَقْنَا ﴿أَنْعاماً﴾ لأجلِهِم فملَّكْنَاهُم إيَّاهَا ﴿فَهُمْ﴾ متصرِّفُونَ فيها تَصرُّفَ المُلّاكِ، أو: فَهُم لَهَا ضَابِطُونَ قَاهِرُونَ، لَمْ نَخْلُقْهَا وَحشيَّةً نَافِرَةً منهُم لا يَقْدِرُونَ علىٰ ضَبْطِهَا، فَهي مُسَخَّرَةٌ لَهُم، وهو قولُهُ: ﴿وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ﴾، والرَّكُوبُ والرَّكُوبةُ: ما يُركَبُ، كَمَا أنَّ الحَلُوبَ والحَلُوبَةَ: ما يُحلب، أي: فَمِنْها ما يَنْتَفِعُونَ بركوبِهِ ومِنْها ما يَنْتَفِعُونَ بذَبْحِهِ وأَكْلِهِ ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَمَشَارِبُ﴾ مِنْها لُبْسُ أَصوافِهَا وأَوبَارِهَا وأَشْعَارِهَا، وشُرْبُ أَلْبانِهَا إلىٰ غيرِ ذلكَ من وجُوهِ الانتفَاعِ بهَا، والمشَارِبُ: جَمْعُ المَشْرَبِ وَهو مَوضعُ الشَّرَابِ والشُّرْب.

﴿اتَّخَذُوا... ءَالِهَةً﴾ يَعبُدُونَها طَمَعاً في أَن يَنصُرُوهُم، ويَدفَعُوا عَنْهم، ويَشْفَعُوا لَهُم عندَ ٱللهِ، والأَمرُ علىٰ عَكْسِ ما قَدَّروا فإنَّهُم يَوم القِيامةِ ﴿جُنْدٌ مُحْضَرُونَ﴾ لِعَذَابِهِم لأنَّهم يُجْعَلونَ وقُودَ النَّار، أو: اتَّخَذُوهُم طَمَعاً في أَن يَتَقَوَّوْا بِهِم، والأَمرُ بالضِّدِّ مِمَّا تَوهَّمُوهُ، إذْ هُم جُنْدٌ لآلِهَتِهِم يَخْدِمُونَهم ويَذُبُّونَ عَنهُم، والآلِهَةُ لَيسَ لهم قُدْرةٌ علىٰ نَصْرِهِم، فَلَا يَهمَّنَّكَ قَولُهُمْ في تكذيبِكَ وأَذاهُم إيَّاكَ، فإنَّا عَالِمونَ بِمَا ﴿يُسِرُّونَ﴾ من عَدَاوَتِهِم ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ وإنَّا نُجَازِيهِم علىٰ ذلكَ.

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ(٧٧)

وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ(٧٨) قُلْ
يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ(٧٩) ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم
مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ(٨٠) أَوَلَيْسَ ٱلَّذِي خَلَقَ
ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّـٰقُ
ٱلْعَلِيمُ(٨١) إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ(٨٢)
فَسُبْحَـٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ(٨٣)﴾

رُوِيَ: أَنَّ أُبَيَّ بنَ خَلَفٍ والعَاصَ بنَ وائِلٍ جَاءَا بِعَظْمٍ بَالٍ مُتَفَتِّتٍ، وَقَالا: يا محمَّد، أَتَزْعَمُ أَنَّ اللهَ يَبعثُ هذا؟! فَقالَ: نَعَم، فنزلت[1].

قبَّحَ اللهُ سبحانَه إنْكَارَهُم البَعْثَ تَقْبيحاً عَجيباً، حيثُ قَرَّرَهُ بأَن خَلَقَهُم من النُّطْفَةِ الّتي هي أَخَسُّ شَيءٍ، ثمَّ عَجِبَ من حَالِهِم بأَن يَتَصَدَّوا مع مهانَةِ مَبْدَئِهِم لِمُخاصَمَةِ الجبَّارِ ويقُولُوا: مَنْ يَقْدِر علىٰ إحياءِ الميِّتِ بعدَما رَمَّتْ عِظَامُهُ؟ ثمَّ يكونُ خِصَامُهُ في أَلْزمِ وَصْفٍ لَهُ، وهو كونُهُ مُنْشَأً من مَواتٍ وهو ينكرُ الإِنْشَاءَ من المَواتِ!! فهذه مُكابَرَةٌ لا مَطْمَحَ وَرَاءَها، وقيلَ: مَعناهُ: ﴿فَإِذَا هُوَ﴾ بَعدَ مَا كانَ ماءً مَهِيناً رَجُلٌ مُمَيِّزٌ مِنْطِيقٌ قَادِرٌ علىٰ هذا الخِصَامِ، مُعْرِبٌ عمَّا في نفسِهِ فَصيحٌ[2].

وسُمِّيَ قَولُهُ: ﴿مَنْ يُحْيِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ مَثَلاً لِمَا دَلَّ عليهِ من قصَّةٍ عَجيبةٍ شَبيهةٍ بالمَثَل، وهي إنكارُ قُدرَةِ ٱللهِ تعالىٰ علىٰ إحياءِ المَوتىٰ، أو: لِمَا فيهِ من التَّشبيهِ؛ لأنَّ مَا أنكرَ من قَبيلِ ما يُوصفُ ٱللهُ بالقُدْرةِ عليهِ بَدليلِ النَّشْأَةِ الأُولىٰ. فإذا قيلَ: مَنْ يُحْيي العِظَامَ وهي رَميمٌ علىٰ طريقِ[3] الإِنْكارِ لأَنْ يكُونَ ذلكَ ممَّا

(١) رواه الواحدي في أسباب النزول: ص ٣٠٨ ح ٧٥٨ و ٧٥٩.
(٢) قاله الشيخ الطوسي في التبيان: ج ٨ ص ٤٧٧.
(٣) في بعض النسخ: «سبيل الإنكار».

يوصَفُ سبحانَه بالقُدرةِ عليهِ، كانَ تَعْجيزاً للهِ وتَشْبيهاً لَهُ بِـخَلْقِهِ فـي أنَّـهُمْ غـير موصُوفينَ بالقُدْرةِ عليهِ. والرَّميمُ: ما بُلِيَ من العِظَامِ، ومثلُهُ: «الرِّمة» و «الرُّفات»، وهو ٱسمٌ غيرُ صِفَةٍ فلذلكَ لَم يُؤَنَّث.

ويُريدُ بـ﴿ٱلشَّجَرِ الأخْضَرِ﴾ المَرْخَ والعَفَار، وهُمَا شَجَرتَانِ تتَّخِذُ الأَعْـرابُ زنُودَهَا[1] مِنْهُما، فَبَيَّنَ سبحانَه أنَّ مَنْ قَدِرَ علىٰ أن يَجعَلَ في الشَّجَرِ الَّذي هو في غَايةِ الرُّطُوبةِ ناراً حتّىٰ إذَا حُكَّ بعضُهُ ببعضٍ خَرَجَتْ منه النَّارُ، قَدِرَ أيـضاً عـلَى الإِعَادَةِ.

وقُرئَ: «يقْدِرُ»[2] أيضاً هنا وفي الأَحقاف[3]، واٌحتَملَ قَولُهُ: ﴿أَن يَـخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ معْنَيَيْنِ: أَن يخلُقَ مِثلَهُم فـي القَـمْأةِ والصِّـغَرِ بـالإِضافَةِ إلى السَّماواتِ والأَرضِ، أو: أَن يعيدَهُم لأنَّ الإِعادةَ مثلُ الابتداءِ ولَيسَ بهِ إنَّما شَأنُهُ ﴿إذَا أرَادَ﴾ تَكوينَ شيءٍ ﴿أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ﴾ مَعنَاهُ أَن يُكـوِّنَهُ مـن غَـيرِ تَـوقُّفٍ ﴿فَـيَكُونُ﴾ فَيَحْدُثُ، أَي: فَهو كائِنٌ لا مَحَالَةَ. وحقيقتُهُ: أَنَّهُ لا يَمتَنِعُ عليهِ شيءٌ منَ المُكَوَّناتِ؛ لأَنَّها بمنزلةِ المأْمُورِ المُطيعِ، إذَا وَردَ عليهِ أَمْرٌ من الأَمْرِ المُطَاعِ،و ﴿يَكُونُ﴾ خَبرُ مبتَدأ مَحذُوف تَقديرُهُ: فَهو يكُونُ، فهي جُملَةٌ معطُوفةٌ علىٰ جُملَةٍ هـي: أَمـرُهُ أَنْ يقُولَ لَهُ كُنْ. وَمَن قرأَ بالنَّصْبِ[4] فَلِلْعَطْفِ علىٰ ﴿يَقُولَ﴾ والمَعنىٰ: أَنَّهُ لا يَـجُوزُ عليهِ شَيءٌ ممَّا يَجوزُ على الأَجسامِ إذا فَعَلَتْ شيئاً من الأَفعال ممَّا تَـقْدِرُ عـليهِ مِنَ المباشَرةِ بمحالِّ القُدْرةِ وٱستعمالِ الآلاتِ، وما يَتْبَعُ ذلكَ من التعَبِ واللُّغُوبِ

---

(١) الزنود جمع الزند: وهو العود الّذي يُقدح به النار. (الصحاح: مادة زند).

(٢) وهي قراءة رويس عن يعقوب. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٦٣٣.

(٣)الآية: ٣٣.

(٤) وهي قراءة ابن عامر وحده. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٥٤٤.

﴿إِنَّمَا أَمْرُهُۥٓ﴾ وهوَ القادِرُ العَالِمُ لذاتِهِ أَن يَخْلصَ دَاعِيَهُ إلى الفِعْلِ فَيتَكَوَّنَ الفِعْلُ. فكيفَ يَعْجزُ عزَّ ٱسمُهُ عن مَقْدُورٍ حتَّىٰ يَعجزَ عن الإعادَةِ؟

﴿بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أَي: هو مَالِكُ كلِّ شيءٍ، والمُتَصَرِّفُ فيهِ بمُوجِبِ مشيئَتِهِ وقَضَايَا حِكْمتِهِ، أي: فَتَنْزِيهاً لَهُ عن نَفْيِ القُدْرةِ علَى الإِعَادَةِ وعن كُلِّ مَا لا يليقُ بصِفَاتِه.

وعن ٱبنِ عبَّاسٍ: كنتُ لا أَعْلَمُ كَيفَ خُصَّتْ سُورة يٓس بالفَضَائِلِ الَّتي رُوِيَتْ في قِراءَتِهَا، فإذاً إنَّه لهذه الآية[1].

۞ ۞ ۞

(١) حكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٣٢.

سُورَةُ الصَّافَّاتِ

مكِّية(١)، وهي مائةٌ وإحدىٰ وثَمانونَ آيةً بصريٌّ، اثْنَتَانِ غَيْرُهُم، ﴿وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾(٢) غَيْرُ البصريّ.

في حديثِ أُبيٍّ: «مَنْ قَرَأَ سورةَ الصّافّاتِ أُعْطِيَ من الأَجْرِ عَشْرُ حَسَنَاتٍ بعَدَدِ كلِّ جنّيٍّ وشيطانٍ، وتَبَاعَدَتْ منْهُ مَرَدَةُ الشَياطينَ، وبَرَأَ من الشِّرْكِ، وشَهِدَ له حافِظَاهُ يومَ القيامةِ أنَّهُ كانَ مُؤْمِناً بالمُرسَلِينَ»(٣).

وعن الصَّادقعليه السلام: «مَنْ قَرَأَ سورةَ الصَّافَّاتِ في كلِّ جُمُعَةٍ لَمْ يَزَلْ محفُوظاً من كلِّ آفَةٍ، مدفُوعاً عَنْهُ كلُّ بَليَّةٍ في حياةِ الدُّنيا، مرزُوقاً بأَوْسَعِ ما يكُونُ من الرِّزْقِ، ولَمْ يُصبْهُ اللهُ في مالِهِ ولا ولْدِهِ ولا بَدَنِهِ بسُوءٍ من شَيطانٍ رجيمٍ ولا مِن جبَّارٍ عنيدٍ، وإنْ مَاتَ في يومِهِ أو في ليلتِهِ بَعَثَهُ اللهُ شَهيداً وأَدْخَلَهُ الجنَّةَ مَعَ الشُّهَدَاءِ»(٤).

---

(١) قال الشيخ الطوسي في التبيان: ج ٨ ص ٤٨٠: مكّية في قول مجاهد وقتادة والحسن، وهي مائة واثنان وثمانون آيةً في المدنيّين، وإحدىٰ وثمانون في البصري، وليس فيها ناسخ ومنسوخ.

وفي الكشّاف: ج ٤ ص ٣٣: مكّية وهي مائة وإحدىٰ وثمانون آية، وقيل: اثنتان وثمانون، نزلت بعد الأنعام.

(٢) الآية: ٢٢.

(٣) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٦٩ مرسلاً.

(٤) ثواب الأعمال للصدوق: ص ١٣٩.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا(١) فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا(٢) فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا(٣) إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ(٤) رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ(٥) إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ(٦) وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ(٧) لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ (٨) دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ(٩) إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ(١٠)﴾ .

قُرِئَ بإدْغَامِ التاءِ في الصَّادِ، وفي الزَّاي[١]، وفي الذَّال[٢] [٣] والأكثرُ الإظْهارُ. أَقْسَمَ ٱللهُ سبحانَهُ بالملائكةِ تَصفُّ صفُوفاً في السَّماءِ، أو تَصفُّ أَقْدامها في الصَّلاةِ كَمَا يَصفُّ المؤمنونَ، أَو أَجنِحَتَها في الهواءِ منتَظِرَةً لأَمرِ ٱللهِ، وبالملائكةِ الّتي تَزْجُرُ الخَلْقَ عن المَعَاصي زَجْراً أو تَزْجُرُ السَّحابَ وتَسُوقُها. وقيلَ: هي آياتُ القُرآنِ الزَّاجِرَةُ عن القَبَائح[٤]. و التَّالِيَاتُ: الملائكةُ تَتْلُو كتابَ اللهِ الَّذي كَتَبَهُ لَهَا وفيهِ ذِكْرُ الحَوادِثِ، فَتَزْدادُ يقيناً بوجُودِ المُخْبَرِ علىٰ وفْقِ الخَبَرِ، وقيلَ: هي نفُوسُ العلماءِ العُمَّال[٥].

﴿الصَّٰفَّٰتِ﴾ أَقْدامها في التَهجُّدِ وسائرِ الصَّلَوٰاتِ وصفُوف الجَماعَات ﴿فَالزَّٰجِرَٰتِ﴾ المَواعِظ والنَّصائح ﴿فَالتَّٰلِيَٰتِ﴾ آياتِ ٱللهِ الدَّارِسَاتِ شَرائِعه، وقيلَ: هي نفُوسُ الغُزاةِ في سبيل ٱللهِ الّتي تَصفُّ الصفُوفَ وتَزجر الخَيْلَ للجهادِ

(١) أي التاء من ﴿فَالزَّٰجِرَٰتِ﴾ في الزّاي من ﴿زَجْراً﴾ .
(٢) أي التاء من ﴿فالتَّٰلِيَٰتِ﴾ في الذّالِ من ﴿ذِكْراً﴾ .
(٣) وهي قراءة حمزة وأبي عمرو. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٥٤٦ .
(٤) قاله قتادة. راجع تفسير البغوي: ج ٤ ص ٢٢ .
(٥) قاله الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٣٣ .

وتَتْلُو الذِّكْرَ، مع ذلكَ لا يَشْغَلُها عنه تلكَ الشَّواغِل، كما يُحكىٰ عن عليٍّ عليه السلام [١] .

﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ خَبَرُ مبتدأ محذُوفٍ، أَو خَبَرٌ بعدَ خَبَرٍ ﴿وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ﴾ مَشَارِقُ الشَّمس: مَطَالِعُها، تَطْلَعُ كلَّ يومٍ من مشرقٍ وتَغْرُبُ في مغربٍ، وخَصَّ المَشَارق بالذِكْرِ لأنَّ الشُرُوقَ قَبل الغُرُوبِ.

﴿ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: القُرْبىٰ منكُمْ ﴿بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ الزِّينةُ مَصدرٌ كالنِّسبةِ، أو اسمٌ لِمَا يُزَانُ بِهِ الشَيءُ، كاللِّيقَةِ اسمٌ لِمَا يُلاقُ به الدَّوَاةُ، فإنْ أَرَدْتَ المصدرَ فهي مضَافَةٌ إِلَى الفاعلِ، أي: بأَن زَانَتْهَا الكواكِب، وأصلُهُ: بزِينةِ الكَواكبِ، أو إِلَى المفعُولِ أي: بأَنْ زَانَ اللهُ الكواكِبَ وحسَّنَها لأنَّها إنَّما زَيَّنَتْ السَّماءَ بِحُسْنِهَا في ذَواتِهَا، وأصلُه: بزينَةِ الكَواكِبَ وهي قِراءَةُ أبي بكر بنِ عيَّاشٍ [٢] . وإنْ أَرَدْتَ الاسمَ فللإِضَافةِ وَجْهانِ: أن يَقَعَ بياناً للزينةِ؛ لأنَّ الزِّينةَ مبْهَمَةٌ في الكواكبِ وغَيرِها مِمَّا يُزَانُ بِهِ، وأَن يُرادَ ما زيِّنت به الكواكب، وجاء عن ابن عبّاس: بزينة الكواكب: بضوء الكواكب [٣] . ويجوز أن يُراد أَشكالُها المختلفةُ، كَشَكْلِ بَنَاتِ نَعْشٍ والثُّريّا وغير ذلكَ من مسائرِهَا ومَطَالِعها، وقُرئ علىٰ هذا المعنىٰ ﴿بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ بتَنْوين «زينة» وجرِّ «الكواكب» علَىٰ الإِبْدالِ، ويجوزُ في نَصْبِ «الكَواكِب» أَن يكونَ بَدَلاً من محلِّ «بزينة».

﴿وَحِفْظاً﴾ محمُولٌ علَى المعنىٰ، لأنَّ معنَاهُ: خَلَقْنَا الكواكِبَ زينةً للسَّماءِ وحِفْظاً من الشَّياطين، كَمَا قالَ: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُوماً لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [٤] . ويجوزُ تَقديرُ فِعْلٍ مُعَلَّل بهِ، أي: وحِفْظاً من كلِّ شيطانٍ

(١) حكاه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٣٤.
(٢) أُنظر التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٦٣٥ .
(٣) حكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٣٥.
(٤) الملك: ٥ .

زيَّنّاها بالكَواكِبِ، وقيلَ: حَفَظْناها حِفْظاً من كلِّ شيطانٍ[١] ﴿مَارِدٍ﴾ خارجٍ من الطَّاعةِ مُتَملِّس منها. والضَّميرُ في ﴿لَا يَسَّمَّعُونَ﴾ لـ﴿كُلِّ شَيْطَـٰنٍ﴾، لأنَّهُ في معنى الشَّياطين، وقُرئ بالتخفيفِ[٢] والتشديدِ، وأَصلُهُ «يَتَسمَّعون»، والتَسمُّعُ: طَلَبُ السَّمَاعِ، يُقالُ: تَسَمَّعَ فَسَمِعَ أَو فَلَمْ يَسْمَعْ، وهو كَلامٌ منقَطِعٌ ممَّا قَبلَهُ، فيه اقتِصاصُ حَالِ المسترقةِ للسَّمْعِ، وأَنَّهُمْ لا يَقْدرونَ أن يسمَعُوا إلىٰ كلامِ الملائكةِ أَو يَتَسَمَّعُوا إليه، وهُمْ مُقْذَفُونَ ﴿مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾ من جَوانِبِ السَّماءِ بالشُّهُبِ مَدحُورون عن ذلك أي: مدفُوعُونَ بالعُنْفِ مطرُودُونَ ﴿وَلَهُمْ﴾ مع ذلك ﴿عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ أي: دائِمٌ يَوم القيامةِ ﴿إِلَّا مَنْ﴾ أُمْهِلَ حتَّىٰ ﴿خَطِفَ﴾ خَطْفَةً، أَوِ اسْتَرقَ استراقَةً، فعِنْدَها يُعاجِلُهُ الهَلاكُ بإِتْباعِ الشِّهابِ الثَّاقبِ وهو النَّيِّرُ المضِيءُ، والفَرقُ بين قولِكَ: «سمعتُ فلاناً يَتَحَدَّثُ»، و «سمعتُ إليهِ يَتَحَدَّثُ» أَنَّ المعدَّىٰ بنفسِهِ يفيدُ الإِدْراكَ، والمعدَّىٰ بإلىٰ يفيدُ الإِصْغَاءَ مع الإِدْراكِ. و ﴿ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ الملائكةُ، لأَنَّهم يسكُنُونَ السَّماوات، والإنسُ والجِنُّ الملأُ الأسفل لأَنَّهم سُكَّانُ الأَرضِ، وعن ابنِ عبّاسٍ: هُم أَشرافُ الملائكةِ[٣]، وعَنْهُ: الكَتَبَةُ من الملائكةِ[٤]. و﴿دُحُوراً﴾ في موضعِ الحَالِ، أي: مدحُورينَ، أَو مفعولٌ لَهُ أي: يُقْذَفُونَ للدُّحُورِ، و﴿مَنْ خَطِفَ﴾ مرفُوعُ الموضعِ بَدَلٌ من الواوِ في ﴿لَا يَسَّمَّعُونَ﴾ أي: لا يَتَسَمَّعُ الشَّياطِينُ إلَّا الشَّيطانُ الَّذي خَطِفَ الخَطْفَةَ.

﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ إِنَّا خَلَقْنَـٰهُم مِّن طِينٍ

---

(١) حكاه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٣٥.

(٢) وهي قراءة ابن كثير ونافع وابن عامر وأبي عمرو وعاصم برواية أبي بكر. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٥٤٧.

(٣ و ٤) حكاه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٣٥.

لَّازِبٍ(١١) بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ (١٢) وَإِذَا ذُكِّرُواْ لَا يَذْكُرُونَ(١٣) وَإِذَا رَأَوْاْ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ(١٤) وَقَالُوٓاْ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ(١٥) أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ(١٦) أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ(١٧) قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ(١٨) فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ(١٩) وَقَالُواْ يَـٰوَيْلَنَا هَـٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ(٢٠) هَـٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ(٢١) ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ(٢٢) مِن دُونِ ٱللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ ٱلْجَحِيمِ(٢٣) وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ(٢٤) مَالَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ(٢٥) بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ(٢٦)﴾

أي: فاسْتَخْبِرْهُم ﴿أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقاً﴾ أي: أَقْوىٰ خَلْقاً وأَصْعَبَ خَلْقاً ﴿أَمْ مَّنْ خَلَقْنَآ﴾ من الملائكةِ والسَّماواتِ والأرضِ والكَواكِبِ، وغَلَّبَ ما يَعْقِلُ فَقَالَ: ﴿أَمْ مَّن خَلَقْنَآ﴾، ﴿إِنَّا خَلَقْنَـٰهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ﴾ يعني: آدمَ عليه السلام، فإنَّهُم نَسْلُهُ وذرِّيتُهُ، واللَّازبُ: الملتَصِقُ من الطِّينِ الحرِّ، وهذه شهادةٌ عليهم بالضَّعْفِ والرَّخاوةِ، لأنَّ ما يُصْنَعُ من الطِّينِ غيْرُ موصُوفٍ بالصَّلابةِ والقوَّة.

﴿بَلْ عَجِبْتَ﴾ من إنْكارِهِم البَعْثَ وَهُم ﴿يَسْخَرُونَ﴾ من أَمْرِ البَعْثِ، أو: عَجِبْتَ من تكذيبِهِم إيَّاك وَهُم يَسْخَرون من تَعَجُّبِكَ، وقُرِئَ: «بَلْ عَجِبْتُ»[1] وهو قِراءَةُ عليٍّ عليه السلام عليه الصَّلاة والسَّلام وابنِ عبَّاسٍ[2]، ومعناهُ: بَلَغَ من كَثْرةِ آياتي وعِظَمِ مخلُوقَاتي أَن عَجِبْتُ من إنْكارِهِم البَعْثَ مِمَّنْ هذهِ أفعالُهُ وهم يَسْخَرُونَ مِمَّنْ يَصِفُني بالقُدرةِ على البَعْثِ، ويكونُ العَجَبُ المسْنَدُ إلى ٱللهِ تعالىٰ بمعنَى الاستِعْظَام.

(١) وهي قراءة أهل الكوفة إلّا عاصماً. راجع التبيان: ج ٨ ص ٤٨٥.
(٢) أنظر المصدر السابق، وتفسير القرطبي: ج ١٥ ص ٦٥.

وقد جاءَ في الحديثِ: «عَجِبَ رَبّكُم من أَلِّكُمْ وقُنُوطِكُم وسُرْعَةِ إجَابَتِهِ إيّاكُمْ»[(١)].

وقيلَ: معناهُ: قُلْ يا محمَّد: بَلْ عَجِبْت[(٢)]. ﴿وَإِذَا ذُكِّرُواْ﴾ أي: خُوِّفُوا باللهِ وَوُعِظُوا بالقُرآنِ لا يَتَّعِظُونَ ﴿وَإِذَا رَأَوْا ءَايَةً﴾ من آياتِ ٱللهِ معجزةً كانشقاقِ القَمَرِ وغَيرِهِ ﴿يَسْتَسْخِرُونَ﴾ أي: يُبالِغُونَ في السُّخْرِيةِ، أو: يَستَدْعي بعضُهُم بعضاً للسُّخريةِ، أو: يعتَقِدُونَهُ سُخْريةً كَمَا يُقالُ: استَقْبَحَهُ أي: اعتَقَدَهُ قَبيحاً.

﴿أَوَ ءَابَاؤُنَا﴾ عَطْفٌ علَى الضَّمير في ﴿مَبْعُوثُونَ﴾، وجُوِّزَ العَطْفُ عليهِ للفَصْلِ بهمزةِ الاستفهامِ، أو عَطْفٌ علىٰ موضع «إنَّ» وٱسمِهِ، يعنُونَ: أنَّ آباءَهُم أَقْدَمُ فَبَعْثُهُمْ أَبْعَدُ، وقُرِئَ: «أَوْ آبَاؤُنَا»[(٣)] ومثْلُهُ في سُورةِ الواقعةِ[(٤)]. ﴿قُلْ نَعَمْ﴾ تُبْعَثُونَ ﴿وَأَنْتُمْ دَٰخِرُونَ﴾ صَاغِرُونَ أَشَدَّ الصَّغَارِ.

وَ﴿إِنَّمَا﴾ جَوابُ شَرْطٍ مُقدَّرٍ. والتقديرُ: إذا كانَ ذلكَ فَمَا هِيَ إلَّا ﴿زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ أي: صَيْحَةٌ واحِدةٌ من إسرافيلَ وهي نَفْخَةُ البَعْثِ ﴿فَإِذَا هُمْ﴾ أَحياءٌ بُصَراءُ ﴿يَنْظُرُونَ﴾ وهي ضَميرٌ مبْهَمٌ لا يَرجِعُ إلىٰ شيءٍ ويُوضِّحُها خَبَرُهَا، ويجوزُ أن يكُونَ: فإنَّما البَعْثَةُ زَجْرةٌ واحِدَةٌ. ﴿وَقَالُواْ﴾ أي: ويقولُونَ مُعْتَرفينَ علىٰ نفوسِهِم بالمعصيةِ ﴿يَٰوَيْلَنَا﴾ من العذابِ ﴿هَٰذَا يَوْمُ﴾ الحِسَابِ والجَزَاءِ. ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾ أي: القَضَاءِ بين الخلائقِ وتَميُّزِ الحقِّ من البَاطِلِ ﴿ٱلَّذِى كُنْتُمْ بِهِ

---

(١) رواه أبوعبيد الهروي في غريب الحديث: ج ٢ ص ١١٨، وابن الأثير في غريب الأثر: ج ١ ص ٦١ مادة «ألل» وقال: الإلُّ: شدّة القنوط. ويجوز أن يكون من رفع الصوت بالبكاء، والمحدّثون يروونه بكسر الهمزة، والمحفوظ عند أصل اللغة الفتح وهو أشبه.

(٢) وهو قول المبرّد كما حكاه في التبيان: ج ٨ ص ٤٨٧.

(٣) وهي قراءة نافع وابن عامر. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٦٣٦.

(٤) الآية: ٤٨.

تُكَذِّبُونَ﴾ يقُولُونَ ذلكَ بعضُهُم لبَعضٍ، وقيلَ: هو كَلامُ الملائكةِ جَواباً لَهُم [١].

﴿احْشُرُواْ﴾ خِطَابُ ٱللهِ للملائكةِ، أو: خِطَابُ بعضِ الملائكةِ لبعضٍ ﴿وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ أي: ضُرَبَاءَهُم وأَشباهَهُم من العُصَاةِ، أَهلُ الزِّنا مع أهلِ الزِّنا، وأهلُ الخَمْرِ مع أهلِ الخَمْرِ، وقيلَ: وأَزواجَهُم الكافِرَات [٢]، وقيلَ: وقُرَنَاءَهُم من الشَّياطينِ [٣]. ﴿فَاهْدُوهُمْ﴾ فعَرِّفُوهُم طريقَ النَّارِ حتَّىٰ يَسْلكُوهَا.

﴿وَقِفُوهُمْ﴾ واْحبِسُوهُم عن دخُولِ النَّارِ ﴿إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾ عمَّا دُعُوا إليهِ من البِدَعِ، وقيلَ: عن أعمالِهِم وخَطيئاتِهِم [٤]، وعن أَبي سَعيدٍ الخُدَريِّ وسَعيدِ بن جُبَيْرٍ: عن ولايةِ عليٍّ بن أبي طالبٍ عليه السلام [٥]. يُقالُ: وَقَفْتُ أَنا، وَوَقَفْتُ غَيرِي.
﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ هذا تَهَكُّمٌ بِهِم وتَوبيخٌ لَهُم بالعَجْزِ عن التَّناصُرِ بعد ما كانُوا علىٰ خِلافِ ذلك في الدُّنيا مُتَناصِرينَ. ﴿بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ قَد أَسْلَمَ بعضُهُم بعضاً وخَذَلَه.

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ(٢٧) قَالُوٓاْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ(٢٨) قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ(٢٩) وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ(٣٠) فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ(٣١) فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ(٣٢) فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ(٣٣) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ(٣٤) إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ(٣٥) وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ(٣٦) بلْ جَآءَ

---

(١) قاله علي بن سليمان كما في تفسير القرطبي: ج ١٥ ص ٧٠.
(٢) وهو قول عمر بن الخطّاب. راجع تفسير الماوردي: ج ٥ ص ٤٣.
(٣) قاله الضحاك ومقاتل. راجع تفسير البغوي: ج ٤ ص ٢٥.
(٤) قاله القرظي والكلبي وهو المرويّ عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم. راجع تفسير الطبري: ج ١٠ ص ٤٨٠، وتفسير القرطبي: ج ١٥ ص ٧٤.
(٥) تفسير الماوردي: ج ٥ ص ٤٤.

بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ(٣٧) إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ(٣٨) وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(٣٩) إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ(٤٠)﴾

﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ يَتعاتَبونَ وَيَتلاوَمُونَ، يقُولُ الغَاوي للَّذي أَغْوَاهُ: لِمَ أَغْوَيْتَني؟ ويقُولُ ذلك المَغْويُّ لَهُ: لِمَ قَبِلت منِّي؟ و ﴿ٱلْيَمِينِ﴾ مستَعَارةٌ لجهةِ الخَيْرِ وجَانبِهِ، ومعنَاهُ: ﴿إِنَّكُم كُنتُمْ تَأْتُونَنَا﴾ من قِبَلِ الدِّينِ فَترُونَنَا أنَّ الحقَّ والدِّينَ ما تُضِلُّونَنا بِهِ، وقيلَ: إنَّها مستَعَارةٌ للقوَّةِ والقَهْرِ، لأنَّ اليَمينَ موصُوفةٌ بالقوَّةِ وبِهَا يَقَعُ البَطْشُ[١]، ومعنَاهُ: أنَّكُمْ كنتم تَأْتُونَنا عن القوَّةِ والقَهْرِ فتُجْبرونَنَا على الضَّلالِ، فأَجَابُوهم بأَن قَالُوا: بل اللَّومُ لاَزمٌ لَكُم إذْ لَمْ يكُنْ ﴿لَنَا عَلَيْكُمْ﴾ قُدرةٌ نُجْبِرُكُم بها علىٰ تَخَيُّرِكُم الغَيَّ ﴿بَلْ كُنتُمْ قَوْماً طَـٰغِينَ﴾ متَجَاوزِينَ ٱلحَدَّ في الكفرِ. ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا﴾ فَلَزِمَنَا ﴿قَوْلُ رَبِّنَآ﴾ وَوَعِيدُهُ: بِأَنَّا ذَائِقُونَ لِعَذَابِهِ لا مَحَالَةَ؛ لِعِلْمِهِ بِحَالنا وٱستِحْقَاقِنَا العقُوبَةَ، ولَوْ حَكَى الوعيدَ كَمَا هو لَقَالَ: إنَّكُم لَذائِقُونَ، ولكنَّه عَدَلَ بِهِ إلىٰ لَفْظِ المتكلِّمِ لأنَّهم متكلِّمُونَ بذلك عن أَنفسِهِم، ونَحوُهُ قَولُ الشَّاعرِ:

لَقَد زَعَمَتْ هَوَازِنُ قَلَّ مَالي[٢]

ولَو حَكَىٰ قَولَها لَقَالَ: قَلَّ مالُكَ. ﴿فَإِنَّهُم﴾ أي: فَإِنَّ المَتبوعينَ والتَّابعينَ جَميعاً ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ في ذلكَ اليومِ ﴿مُشْتَرِكُونَ﴾ في العَذَابِ والإِهَانَةِ، كَمَا كَانُوا مشتركينَ في الغَوَايةِ.

﴿يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: يَأْنَفُونَ من قَوْلِ: ﴿لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، ويَستَخِفُّونَ بِمَنْ يَدْعُوهُم إلىٰ هذه المقَالةِ. ﴿إِنَّكُمْ﴾ أيُّها المُشْركُونَ ﴿لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ﴾ علىٰ

(١) وهو قول الفرّاء في معاني القرآن: ج ٢ ص ٣٨٤.
(٢) وعجزه: وهَلْ لي غَير ما أنفقتُ مَالُ. لم نعثر على قائله، وهوازن امرأته. أنظر الكشّاف: ج ٤ ص ٤٠.

كُفْرِكُم ونسْبَتِكُم رسولَ ٱللهِ إلى الشِّعْرِ والجنُونِ. ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا﴾ بِمَا عَمِلْتُم جَزَاءً سيِّئاً بِعَمَلٍ سيِّئٍ ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللهِ﴾ لكنِ عبادَ ٱللهِ على الاستثناء المُنْقَطِع.

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ(٤١) فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ(٤٢) فِي جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ(٤٣) عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ(٤٤) يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ(٤٥) بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّـٰرِبِينَ(٤٦) لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ(٤٧) وَعِندَهُمْ قَـٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ(٤٨) كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ(٤٩) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ(٥٠) قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ(٥١) يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ(٥٢) أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ(٥٣) قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ(٥٤) فَاطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ(٥٥) قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدتَّ لَتُرْدِينِ(٥٦) وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ(٥٧) أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ(٥٨) إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ(٥٩) إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ(٦٠) لِمِثْلِ هَـٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَـٰمِلُونَ(٦١)﴾

حَكَمَ لَهُم سبحانَهُ بالرِّزْقِ المعلُومِ المُقدَّرِ، ثمَّ فَسَّرَ ذلكَ الرِّزْقَ بالفَواكِهِ، وهي كُلُّ ما يَتَلَذَّذُ بِهِ ولا يُتَقَوَّتُ بِهِ لِحِفْظِ الصحَّةِ، والمعنىٰ: أنَّ رزقَهُم كُلَّهُ فَواكِهُ، لأنَّهم مستَغْنونَ عن حفظِ الصحَّةِ بالأَقْواتِ، إذْ أجسَامُهُم مُحْكَمَةٌ مخلُوقَةٌ للأبـدِ، فـلا يأكلُونَ ما يأكلُونَ إلَّا للتَلَذُّذِ، وقيلَ: مَعْلُومُ الوقْتِ[1]، كقَولِهِ: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾[2]. ﴿وَهُم مُّكْرَمُونَ﴾ هو ما قالَهُ الشُّيوخُ في حدِّ الثَّوابِ أنَّه النَّفْعُ المستَحقُّ المقَارنُ للتعظيمِ والإجْلالِ. ﴿مُتَقَـٰبِلِينَ﴾ يَستَمتِعُ بعضُهُم بالنَّظَرِ إلىٰ وجوهِ بَعْضٍ، وهو أتَمُّ للأُنْسِ والسُّرورِ. ﴿بِكَأْسٍ﴾ هو الإناءُ بما فيهِ من الشَّرابِ،

(١) حكاه البغوي في تفسيره: ج ٤ ص ٢٧.
(٢) مريم: ٦٢.

وعن الأخْفَشِ: كلُّ كَأْسٍ في القُرآنِ فَهي الخَمْرُ[١] ﴿مِنْ مَّعِينٍ﴾ من شَرَابٍ جَارٍ في أنهارٍ ظاهرةٍ للعُيُونِ، وُصِفَ بما يُوصَفُ بِهِ المَاءُ لأَنَّهُ يَجْرِي في الجنَّةِ كما يَجْرِي الماءُ. ﴿بَيْضَآءَ﴾ صِفَةٌ للكأسِ ﴿لَذَّةٍ﴾ هي تَأْنيثُ «اللذّ» ووزنُهُ «فَعْلٌ» مثلُ: «صَبٌّ» و «طِبٌّ»، وقَالَ يَصِفُ النَّوْمَ:

وَلَــذٍّ كَــطَعمِ الصَّــرْخَدِيِّ تَـرَكْـتُهُ   بِأَرْضِ العِدَى مِن خَشْيَةِ الحَدثَانِ[٢]

أو: وُصِفَتْ باللذّةِ كَأَنَّها نَفْسُ اللذّةِ وذَاتُها. ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ لا يَغْتَالُ عقُولَهُم فَتَذْهَبُ بها، ولا يُصيبُهُم منها وَجَعٌ ﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ﴾ مِن نَزِفَ الشَّارِبُ: إذَا ذَهَبَ عقْلُهُ، ويُقَالُ للمطعُونِ إذا خَرَجَ دَمُهُ كلُّه: نَزَفَ فَمَاتَ، وقُرِئَ: «يُنْزِفُونَ»[٣] مِن أَنْزَفَ الشَّارِبُ: إذَا ذَهَبَ عقلُهُ أو شَرابُهُ، ومعنَاهُ: صَارَ ذَا نَزفٍ، ومثلُهُ: أَقْشَعَ السَّحَابُ وقَشَعَتْهُ الرِّيحُ، وأَكَبَّ الرَّجلُ وَكَبَبْتُهُ، وحقيقتهما: دَخَلَا في القَشْعِ والكَبِّ.

﴿قَـٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ قَصَرْنَ طَرْفَهنَّ علىٰ أزواجِهِنَّ فلا يَرَيْنَ غيرَهُم، أو: لا يَفْتَحْنَ أَعينَهُنَّ دَلالًا ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ في الأَداحي، وهي بَيضُ النَّعَامِ، والعَرَبُ تشبِّهُ بها النِّساءَ وتُسَمِّيهنَّ ببيضاتِ الخُدُودِ.

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ﴾ معطُوفٌ علىٰ ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ﴾ والمعنىٰ: يَشْرَبونَ فَيَتَحادثُونَ على الشَّرابِ فَيُقْبِلُ ﴿بَعْضُهُمْ علىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ عمَّا جَرَىٰ عليهِم ولَهُم في الدُّنيا، إلَّا أنّهُ جِيءَ بِهِ مَاضِياً علىٰ عادة ٱلله عزَّ ٱسمُهُ في إخبارِهِ. ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ﴾ في دارِ الدُّنيا أي: صَاحِبٌ يَخْتَصُّ بي ﴿يَقُولُ﴾

---

(١) حكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٤٢.

(٢) البيت منسوب لابن الأعرابي، يقول: وربّ شيءلذيذ ـ يعني النَّوم ـ طعمه كطعم الشراب الطيّب تركته بأرض الأعداء خوف نزول المكاره بي. أُنظر لسان العرب: مادّة «لذذ».

(٣) قرأ حمزة والكسائي. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٦٣٦.

لي علىٰ وَجْهِ الإنْكارِ علَيَّ والتهجينِ لي: ﴿أَئِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ﴾ بالبَعْثِ والحِسَابِ. ﴿لَمَدِينُونَ﴾ أي: لَمَجْزِيُّونَ، من الدِينِ الّذي هو الجَزَاءُ، أو: لَمَسُوسُونَ مربُوبُون، مِن دَانَهُ إذا سَاسَهُ.

وفي الحديثِ: «الكَيِّسُ مَن دَانَ نَفْسَه وعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الموتِ»(١).

﴿قَالَ﴾ أي: ذلك القائِلُ لإخْوانِهِ في الجنَّة: ﴿هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾ إلَى النَّارِ لأُريكُم ذلك القَرينَ؟ وقيلَ: إنَّ القائِلَ هو ٱلله(٢)، وقيلَ: بعضُ الملائكةِ(٣). يقَالُ: طَلَعَ علينا فُلانٌ واطَّلَعَ وأطْلَعَ بمعنىً واحِدٌ، عَرَضَ عليهم الاطِّلاعَ فاعترَضُوهُ ﴿فَاطَّلَعَ﴾ هو بعدَ ذلكَ فرأىٰ قَرِينَهُ ﴿فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ في وَسَطِها. ﴿قَالَ﴾ لَهُ: ﴿تَاللهِ إِنْ كِدتَ لَتُرْدِينِ﴾ «إنْ» هي المخفَّفةُ من الثَّقيلةِ، واللَّام هي الفارِقَةُ، أي: إنَّكَ كِدْتَ تُهْلِكُني بما قُلْتَهُ لي وَدَعَوْتَني إليهِ ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي﴾ علَيَّ بالعِصْمَةِ والتوفيقِ ﴿لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ الّذين أُحْضِرُوا العذابَ معكَ في النارِ.

والفاءُ عاطِفَةٌ علىٰ محذُوفٍ تَقديرُهُ: أَنَحْنُ مخلَّدونَ مُنَعَّمُونَ فَمَا نَحْنُ بميِّتينَ ولا مُعَذَّبينَ؟! والمعنىٰ: أنَّ هذه حال المؤمنين أَن لا يذُوقُوا إلَّا المَوْتَةَ الأُولىٰ، بخِلَافِ الكفَّارِ فإنَّهم في آلامٍ وغُمُومٍ وأَحوالٍ يَتَمنَّونَ فيها الموتَ كلّ ساعةٍ، وإنَّما يقُولُهُ المؤمنُ تَحَدُّثاً بنعمةِ اللهِ بِمَسْمَعٍ من قَرِينِهِ ليكونَ تَوبيخاً لَهُ، ويجوزُ أن يكُونَ قولُهُم جَميعاً. وكذلكَ قَوْلُهُ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ أي: إنَّ هذا الأَمْرَ الّذي نَحْنُ فيهِ، وقيلَ: هو من قَولِ ٱللهِ عزَّوجلَّ اسمُهُ تَقْريراً لِقَوْلِهِم(٤).

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده: ج ٤ ص ٢٤، والبيهقي في سننه: ج ٣ ص ٣٦٩ بسندهما عن شداد بن أوس.

(٢ و٣) حكاه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٤٤.

(٤) قاله الشيخ الطوسي في التبيان: ج ٨ ص ٥٠٠.

تَمّتْ قِصَّةُ المؤمنِ وقَرينِهِ[١]

﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ(٦٢) إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ(٦٣) إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ(٦٤) طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ(٦٥) فَإِنَّهُمْ لَأَكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ(٦٦) ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ(٦٧) ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ(٦٨) إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ(٦٩) فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ(٧٠) وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ(٧١) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ(٧٢) فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ(٧٣) إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ(٧٤)﴾

ثمَّ عَادَ سبحانَهُ إلىٰ ذِكْرِ الرزْقِ المعلومِ فقَالَ: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا﴾ أي: خَيْرٌ حَاصِلًا، وأَصْلُ النُّزُلِ: الفَضْلُ والرَّيْعُ في الطَّعَامِ، فاستُعيرَ للحاصِلِ من الشيءِ، وحَاصِلُ الرزْقِ المعلُومِ: اللّذّةُ والسُرُورُ، وحَاصِلُ شَجرةِ الزَّقُّومِ: الألَمُ والنِّقمُ[٢]. و﴿نُزُلًا﴾ منصُوبٌ على التمييزِ أو الحالِ، والنُّزُلُ: ما يُقَامُ للنَّازِلِ بالمكانِ من الرِّزْقِ، ومعنَى الأولِ: أنَّ للرزْقِ المعلُومِ نُزُلًا، ولِشَجَرَةِ الزَّقُّومِ نُزُلًا، فَأَيُّهما خيرٌ نُزُلًا؟ ومعنَى الثاني: أنَّ الرِّزْقَ المعلُومَ نُزُلُ أهلِ الجنَّةِ، وشَجَرَةَ الزَّقُّومِ نُزُلُ أَهلِ النَّارِ، فأيُّهما خيْرٌ في كَونِهِ نُزُلًا؟

﴿فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ﴾ افتَتَنُوا بها إذْ كَذَّبُوا بكَونِهَا، وقيلَ: عَذاباً لَهم[٣]، من قَولِهِ: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ﴾[٤].

والطَّلْعُ يكونُ للنخْلَةِ، فاستُعيرَ لِمَا طَلَعَ من شَجَرَةِ الزَّقُّومِ من حمِلها، وشُبِّه

---

(١) في نسخة زيادة: «ثم رجع الىٰ ذكْرِ الرزقِ المعلُومِ فقال:».

(٢) في نسخة: «الغمّ».

(٣) وهو قول الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٤٦.

(٤) الذاريات: ١٣.

بِـ﴿رُءُوس ٱلشَّيَـٰطِينِ﴾ دَلالةً علىٰ تَنَاهِيهِ في الكراهةِ وقُبْحِ المنْظَرِ، لأنَّ الشَّيطانَ مكْرُوهٌ مُسْتَقْبَحٌ في طِباعِ النَّاسِ، وقيلَ: الشَّيطانُ: حَيَّةٌ عَرْفاءُ قَبيحةُ المنْظَرِ هائِلَةٌ جدّاً[١] وقيلَ: إنَّ شَجَراً يقالُ لَه: الأستن خَشِناً مُنْتِناً مُرّاً مُنْكَرَ الصُّورةِ يُسمّىٰ ثَمَرُهُ: رؤُوسُ الشياطينِ[٢] ﴿لَآكِلُونَ مِنْهَا﴾ أي: مِنْ طَلْعِهَا ﴿فَمَالِئُونَ﴾ بُطونَهُم مِنْهُ لشدَّةِ ما يَلْحَقُهُم من الجوعِ، فَتَغْلي بُطُونُهُم فَيَعْطشُونَ فيُسْقَوْنَ بَعْدَ مليٍّ ما هُو أحَرُّ، وهو الشَّرابُ المَشُوبُ بالحَميمِ ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ﴾ بعد أَكْلِ الزَّقُّومِ وشُرْبِ الحَميمِ ﴿لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ﴾ وذلكَ أنَّهم يُورَدونَ الحَميمَ كَمَا يُوردُ الإبلُ الماءَ، ثمَّ يردُّونَ إلى الجحيمِ وهي النَّارُ المتوقِّدَةُ.

﴿إِنَّهُمْ﴾ صَادَفُوا ﴿ءَابَآءَهُمْ﴾ ذاهبينَ عَنِ الحقِّ، فَهُمْ يَسْرعُونَ ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِمْ﴾ ويتَّبِعُونَهم اتِّباعاً، أي: ضَلَّ قَبل هؤلاءِ الكفَّارِ عن طريقِ الهُدىٰ أَكثرُ الأوَّلينَ من الأُمَمِ الخاليةِ، وفيه دَلالةٌ علىٰ أنَّ أهلَ الحقِّ في كلِّ زَمَانٍ كانُوا أَقلَّ من أهلِ الباطلِ.

ولمَّا ذَكَرَ إرْسَالَ المُنْذِرِينَ من الأنبياءِ والرُّسُلِ، وسُوءَ عَاقِبَةِ المنذَرينَ المُكَذِّبينَ عَقَّبَهُ سبحانَهُ بقصَّةِ نُوحٍ ودُعائِهِ إيَّاهُ حينَ يَئِسَ من قَومِهِ فَقَالَ:

﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ(٧٥) وَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ(٧٦) وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ(٧٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْأَخِرِينَ(٧٨) سَلَـٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَـٰلَمِينَ(٧٩) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ(٨٠) إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ(٨١) ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْأَخَرِينَ(٨٢) وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ(٨٣) إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ(٨٤) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ

(١) حكاه القرطبي في تفسيره: ج ١٥ ص ٨٧ ونسبه إلى الزجّاج والفرّاء.
(٢) حكاه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٤٦.

وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ(٨٥) أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ(٨٦) فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ(٨٧) فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ(٨٨) فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ(٨٩) فَتَوَلَّوْاْ عَنْهُ مُدْبِرِينَ(٩٠) فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ(٩١) مَالَكُمْ لَا تَنطِقُونَ(٩٢) فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ(٩٣) فَأَقْبَلُوٓاْ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ(٩٤) قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ(٩٥) وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ(٩٦)﴾

أَي: ﴿فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ﴾ نحنُ، واللّامُ جوابُ قَسَمٍ محذُوفٍ ﴿هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ هُمُ الّذينَ بَقَوْا وقَد فَنِيَ غيرُهُم، وهُم الذينَ بَقَوْا متَناسلينَ إلىٰ يومِ القيامةِ، فالنَّاسُ كلُّهُمْ من وُلْدِ نُوحٍ، فالعَرَبُ والعَجَمُ من أَولادِ سَام بن نوحٍ، والسُودانُ من أولادِ حَام بن نوحٍ، والتُرْكُ والخزَرُ ويأجُوجُ من أولادِ يافث بن نوحٍ. ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْآخِرِينَ﴾ من الأُمَمِ هذه الكلمةَ وهي ﴿سَلَـٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ أي: يُسَلِّمونَ عليه تَسليماً إلىٰ يومِ القيامةِ، وَهُوَ مِنَ الكَلامُ المَحْكِيّ. ومعنىٰ قَولِهِ: ﴿في ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾: الدُعاءُ بثبوتِ هذه التحيَّةِ فيهم جَميعاً. وَعَلَّلَ مُجَازَاةَ نوحٍ بتلك الكرامةِ من تَبْقيةِ الذِّكْرِ، وتَسليم العالَمينَ إلىٰ آخر الدهرِ بأنَّه كانَ مُحْسِناً، ثمَّ عَلَّلَ كونَهُ مُحْسِناً بأنَّه كانَ عَبْداً من عبادِهِ ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، لِيُريكَ جلالَةَ مَحَلِّ الإِيْمانِ.

﴿مِنْ شِيعَتِهِ﴾ أي: مِمَّنْ شَايَعَهُ علىٰ أُصُولِ الدينِ، أو: شَايَعَهُ على التَصلّبِ في دينِ اللهِ ومُصابَرةِ المُكَذِّبينَ، وتَعلَّقَ ﴿إذْ﴾ بما في الشيعةِ بمعنَى المشَايَعَةِ، أي: وإنَّ ممّن شَايَعَهُ علىٰ دينهِ وتَقْواهُ حينَ ﴿جَآءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ لإبرَاهيمَ، أو: بمحذوفٍ هو «اذكُرْ»، ومعناهُ: حينَ أَخْلَصَ اللهُ قَلْبَهُ من كلِّ ما سواهُ، فلَمْ يَتَعَلَّقْ بشيءٍ غيرُهُ، فَضَرَبَ المجيءَ مثلاًلذلك.

«إفْكاً» مفعولٌ لَهُ، والتقديرُ: أَتُريْدونَ آلِهَةً مِنْ دُونِ اللهِ إفْكاً؟ وإنَّما قَدَّمَهُ للعنايةِ، وقَدَّمَ المفعولَ لَهُ على المفعولِ بِهِ لأنَّه كانَ الأَهَمَّ عندَهُ أَن يواجِهَهُم بأنَّهم

علىٰ إفْكٍ وباطلٍ في شِرْكِهِم. ويجوزُ أن يكون «إفْكاً» مفعولاً بِهِ، أي: أتريدُونَ به إفْكَاً؟ ثمَّ فَسَّرَ الإفْكَ بقولِهِ: «آلِهَةً مِنْ دُونِ اللهِ» علىٰ أنَّها إفْكٌ في نَفْسِها، ويجوزُ أن يكُونَ حالاً، أي: أتريدُونَ آلهةً من دون الله آفِكِينَ؟! ﴿فَمَا ظَنُّكُمْ﴾ بِمَنْ هو الحقيقُ بالعبادةِ؟ لأنَّ مَن كانَ رَبَّ الْعَالَمِينَ استَحَقَّ عليهِم أن يعبدُوهُ حتَّىٰ تَركْتُم عبادَتَهُ إلىٰ عبادةِ الأصنامِ، والمعنىٰ: أنَّه لا يُقدَّرُ في ظَنٍّ ولا وَهْمٍ ما يَصدُّ عن عبادتِهِ، أو: فَمَا ظَنُّكُم بِهِ؟ فماذا يَفْعَلُ بكم وقَدْ عَبَدْتُم غيرَهُ؟

﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ﴾ في عِلْمِ النجومِ أو في كتَابِها أو في أحْكامِها، لأنَّهم كانُوا يَتَعَاطَوْنَ علْمَ النُّجومِ فَأَوْهَمَهُم أنَّه ٱستَدَلَّ بأمارةٍ في علمِ النُّجومِ علىٰ أنَّـهُ يَسْقَمُ ﴿فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ﴾ أي: مُشارِفٌ للسَقَمِ، وهو من مَعَارِيضِ الكلامِ، وإنَّما نوىٰ بِهِ أنَّ مَنْ كانَ آخرَ أَمْرِهِ الموتُ سَقِيمٌ. وَرُوِيَ عن الباقرِ والصَّادقِ عليهما السلام أنَّهما قَالا: «وٱللهِ ما كانَ سَقيماً ولا كذَبَ»[1] ﴿فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ﴾ فأَعْرَضُوا عنه وتَرَكُوه وخَرجُوا إلىٰ عيدِهِم ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ﴾ فَمَالَ إلىٰ أصنامِهِم في خُفيةٍ ﴿فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ﴾ استهزاءً بها وبانْحِطَاطِها عن حالِ عَبَدَتِها ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ﴾ فَأَقْبَلَ عليهِم يَضْرِبُهُم ﴿ضَرْبًا﴾، أو: فَرَاغَ عليهِم ضَرْبَاً بمعنىٰ: ضَـارِباً ﴿بِـالْيَمِينِ﴾ أي: ضَرْباً شَديداً قَوِيّاً، لأنَّ اليمينَ أقْوىٰ الجارحتين وأشدُّهُما بالقوَّةِ، وقـيلَ: بسـببِ الحَلْفِ[2] وهو قولُهُ: ﴿تَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ﴾[3].

﴿فَأَقْبَلُوٓا۟﴾ بعد الفَرَاغِ من عيدِهِم إلىٰ إبراهيمَ، قُرِئ: «يزُفُّونَ»[4] يَسْرِعُونَ،

---

(١) رواه الكليني في الكافي: ج ٨ ص ٣٦٨ ح ٥٥٩ قطعة منه، والصدوق في معاني الأخبار: ص ٢١٠ ح ١.

(٢) حكاه الطبري في تفسيره: ج ١٠ ص ٥٠٣ عن بعض أهل العربية.

(٣) الأنبياء: ٥٧.

(٤) قرأه حمزة والمفضّل عن عاصم. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٥٤٨.

مِن زَفيفِ النَّعامِ، وَ ﴿يزِفُّونَ﴾ مِن أَزَفَّ: إذا دَخَلَ في الزَّفيفِ، أو: من أَزَفَّهُ إذا حَمَلَهُ علَى الزّفيفِ، أي: يزِفُّ بَعضُهُم بعضاً، وَ «يَزِفُونَ»[1] خَفيفاً، من وَزَفَ يَزِفُ ﴿قالَ﴾ مُحْتَجّاً عليهم: ﴿أَتَعْبُدُونَ﴾ ما تَنْحِتُونَه بأيديكُم ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ﴾ وخلَقَ ما تَعمَلُونَهُ من الأصنامِ، يقالُ: عَمَلَ النَّجَّارُ البابَ والكرسيَّ، وعَمَلَ الصائغُ السِّوارَ والخاتمَ، والمرادُ: عَمَلَ أَشكالَ هذه الأشياءِ وَصُوَرِهَا دونَ جَواهِرِها، والأصنامُ جَواهِرٌ وأَشكالٌ، فَخالِقُ جواهِرِهَا هو ٱللهُ، وعامِلُو أشكالِهَا مُصَوِّرُوها ومشكِّلُوها بِنَحْتِهِم، و ﴿مَا تَعْمَلُونَ﴾ تَرجَمَةٌ عن قولِهِ: ﴿مَا تَنحِتُونَ﴾، و «مَا» في: ﴿مَا تَنْحِتُونَ﴾ موصُولةٌ ولا مقَال فيها، فالعُدُولُ بها عن أُخْتِها تَعسُّفٌ.

﴿قَالُواْ ٱبْنُواْ لَهُۥ بُنْيَـٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ(٩٧) فَأَرَادُوا بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ(٩٨) وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ(٩٩) رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ(١٠٠) فَبَشَّرْنَـٰهُ بِغُلَـٰمٍ حَلِيمٍ(١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَـٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَـٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ(١٠٢) فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ(١٠٣) وَنَـٰدَيْنَـٰهُ أَن يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ(١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ(١٠٥) إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَـٰٓؤُاْ ٱلْمُبِينُ(١٠٦) وَفَدَيْنَـٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ(١٠٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ(١٠٨) سَلَـٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ(١٠٩) كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ(١١٠) إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ(١١١) وَبَشَّرْنَـٰهُ بِإِسْحَـٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ(١١٢) وَبَـٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَـٰقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ(١١٣)﴾ .

(١) وهي قراءة الضحّاك ويحيى بن عبدالرحمن المقرئ وابن أبي عبلة. راجع شواذ القرآن لابن خالويه: ص ١٢٨.

لمّا لَزِمتْهُ الحجّةُ ﴿قَالُوا ٱبْنُوا لَهُ بُنْيَـٰنًا﴾ وعن ٱبنِ عبّاسٍ: بَنَواْ حَـائِطاً مـن الحجارةِ طولُهُ في السَّماءِ ثلاثُونَ ذراعاً، وعرضُهُ عشرونَ ذراعاً، ومَـلَؤُوهُ نـاراً وألْقَوْه فيها ﴿فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ بأَن أهْلَكْنَاهُم ونجّيناهُ وسلَّمْنَاهُ[1].

﴿وَقَالَ﴾ إبراهِيمُ: ﴿إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى﴾ أي: مُهاجِرٌ إلىٰ حيثُ أَمَرني ربّي بالمهاجرةِ إليهِ من أَرْضِ الشامِ. أَي ﴿رَبِّ هَبْ لِى﴾ بعضَ ﴿ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ يُـريدُ الوَلَدَ، لأنَّ لَفظ «الهبَةِ» علَى الوَلَدِ أَغْلَبُ وإنْ كانَ قَد جاءَ في الأَخ حـيث قَـال: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَـٰرُونَ﴾[2] قال سبحانه: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ يَـحْيَىٰ﴾[3] ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾[4] و ﴿بَشَّرْنَاهُ بِغُلَـٰمٍ حَلِيمٍ﴾ اشتَمَلَتِ البشارةُ علىٰ أنَّ الوَلَدَ ذَكَرٌ، وأنَّه يبقىٰ حتَّىٰ ينْتَهي في السِّنِّ ويُوصَفُ بالْحِلْمِ، وأَيُّ حِلْمٍ أَعْظَمُ من حِلْمِهِ حينَ عَرَضَ عليه أَبُوهُ الذَّبْحَ فَقَالَ: ﴿سَتَجِدُنِى إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ ثمّ ٱستَسْلَمَ لذلكَ مَعَهُ.

بَيانٌ: كأَنَّه لمّا قَالَ: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ﴾ أي: الحدَّ الّذي يَقْدِرُ فيهِ عـلَى السَّعْيِ، قيلَ: مَعَ مَن؟ قَالَ: مع أبيهِ، وكانَ إذ ذاكَ ٱبنُ ثلاثِ عَشْرة سنةً، أُتِيَ فـي المَنَامِ فقيلَ لَهُ: اذبَحْ ٱبنَكَ، ورُؤْيا الأنبياءِ وَحْيٌ فَلِهٰذا قَالَ: ﴿إِنِّى أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّى أَذْبَحُكَ﴾ والأَوْلىٰ أن يكونَ قَد أُوحِيَ إليهِ في حالِ اليقظةِ، وتعبَّد بأن يُمْضِيَ ما يُؤْمَرُ بهِ في حالِ النَّومِ ﴿فَٱنظُرْ مَاذَا﴾ تَرَاهُ، أو: أيَّ شيءٍ تَرىٰ من الرأْيِ، فيكونُ ﴿مَاذَا﴾ في موضعِ نَصْبٍ بمنزلةِ اسمٍ واحـدٍ، وعـلَى الأَوّلِ يكـونُ «ذا» بـمعنىٰ «الّذي»، أي: ما الّذي تُبْصِرُهُ مِن رأيكَ؟ و «مَا» مبتدأٌ، والموصُولُ مع صِلَتِهِ خَبَرُهُ.

---

(١) تفسير ابن عبّاس: ص ٣٧٧.
(٢) مريم: ٥٣.
(٣) الأنبياء: ٩٠.
(٤) الأنعام: ٨٤، الأنبياء: ٧٢، العنكبوت: ٢٧.

وقُرئَ: «مَاذَا تُرِي»(١) بضمِّ التاءِ وكَسْرِ الراءِ، معناهُ: أجَلَداً تُرِي علىٰ ما تُحْمَلُ عليهِ أَمْ خَوَراً؟ ﴿افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ أي: ما تُؤْمَرُ بِهِ، فَحُذِفَ الجَارُّ كَمَا حُذِفَ من قولِهِمْ:

أمرْتُكَ الخيْرَ فافْعَلْ مَا أُمِرْتَ بِهِ(٢).

أو: «أمرك» علىٰ إضافةِ المصدرِ إلى المفعولِ، وتَسمية المأْمُورِ بِهِ أَمْراً.

وقَرَأَ عليٌّ عليه السلام وٱبنُ عبَّاسٍ: «سَلَّمَا»، يقالُ: سَلَّمَ لأَمْرِ اللهِ وأسلَمَ وٱستَسلَمَ: إذا ٱنقادَ وخَضَعَ، وحقيقةُ معناهُ: أَخْلَصَ نفسَهُ للهِ وجَعَلَها سالمةً لَهُ وخَالِصَةً. وعن قتادةَ في ﴿أَسْلَمَا﴾: أَسْلَمَ هذا ٱبنَه، وأَسْلَم هذا نَفْسَه(٣)، وجَوابُ «لَمَّا» محذوفٌ، وتَقديرُهُ: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ، وَنَـٰدَيْـنَـٰهُ أَنْ يَـٰإِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾ كانَ ما كانَ ممَّا لا يُحيطُ بِهِ الوَصْفُ من شكرِهِما للهِ علىٰ ما أَنْعَمَ به عليهِمَا من دَفْعِ البلاءِ العظيمِ بعد حلُولِهِ، وما فَازَا به من رضوانِ اللهِ وٱكتسابِ الثَّوابِ والأَعواضِ الجليلةِ، والتَّلُّ: الصَّرْعُ، يُقالُ: وَضَعَ جَبِينَهُ على الأرض لئلَّا يرىٰ وَجْهَهُ فَيلْحَقُهُ رقَّةُ الآباءِ. ﴿قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾ أي: فَعَلْتَ ما أُمِرْتَ بِهِ في الرُّؤْيا.

وقَولُهُ: ﴿إِنَّا كَذٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ تَعليلٌ لِتَخْويلِ ما خَوَّلَهُمَا اللهُ من الفَرَجِ بعد الشِّدَّة. ﴿إِنَّ هٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَـٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ﴾ أي: الامتِحَانُ الظَّاهِرُ والمحنةُ الصَّعبةُ الّتي لا مِحْنَةَ أَصْعبُ مِنْها، أو: الاختِبَارُ البيِّنُ الّذي يَتَميَّزُ فيه المخلِصُونَ من غَيرِهِم. ﴿وَفَدَيْنَـٰهُ بِذِبْحٍ﴾ وهو المُهَيَّأُ لأَن يُذبَحَ ﴿عَظِيمٍ﴾ ضَخمِ الجثَّةِ سَمينٍ، والمُفْتَدىٰ

---

(١) قرأه حمزة والكسائي. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٦٣٧.

(٢) وعجزه: فَقَد تَركتُكَ ذَا مَالٍ وذَا نَسَبِ. لعباس بن مرداس السلمي، وقيل: لعمرو بن معديكرب، وقيل لخفّاف بن ندبة وقيل لغيرهم. تقدّم شرح البيت في ج ٢ ص من سورة الحجر آية: ٩٤ فراجع.

(٣) حكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٥٥.

منْهُ هو ٱللهُ عزَّوجلَّ لأنَّهُ الآمِرُ بالذَّبْحِ، والفَادي هو إبراهيمُ عليه السلام، وَهَبَ ٱللهُ سبحانه لَهُ الكبْشَ لِيُفْدَىٰ بهِ. وَإِنَّما قَالَ: ﴿وَفَدَيْنَـٰهُ﴾ إسْنَاداً للفداءِ إلى السَّـبَبِ الّذي هـو المُمكنُ من الفداءِ بهبَتِه.

واختُلِفَ في الذَّبيحِ علىٰ قولَيْنِ: أَحَدِهُمَا: أَنَّهُ إسحاقُ، والأَظْهَرُ في الرواياتِ أَنَّهُ إسماعيلُ، ويَعضِدُهُ قَوْلُ النبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم: «أنا ابن الذَّبـيحَيْنِ»[1] وكـذلكَ قَـولُهُ سبحانَهُ بعد قصَّةِ الذَّبْحِ: ﴿وَبَشَّرْنَـٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ ولا بُدَّ من تقديرِ مُضَافٍ محذُوفٍ، أي: بوجودِ إسْحاقَ، و ﴿نَبِيًّا﴾ حالٌ مقدَّرَةٌ، والمعنىٰ: بأَنْ يُوجَدَ مُقَدَّرَةٌ نُبوَّتُهُ، والعامِلُ في الحالِ الوجُودُ لا فِعْلُ البشَـارَةِ، فـيكُونُ نَـظيرَ قَـولِهِ: ﴿فادْخُلُوهَا خَـٰلِدِينَ﴾[2]، وقَولُهُ: ﴿مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ حالٌ ثانيةٌ وَرَدَتْ علىٰ سبيلِ الثَّناءِ والتَقْريظِ، لأنَّ كلَّ نبيٍّ لابدَّ أَنْ يكُونَ من الصَّالحينَ.

﴿وَبَـٰرَكْنَا عَلَيْهِ وعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ﴾ أي: جَعَلْنَا ما أَعطيناهُما من الخَيْرِ دائِمَ البَرَكَةِ ثَابتاً نَامِياً، ويجوزُ أَن يكُونَ المُرادُ كثْرَةَ وُلْدِهِمَا وبَقَاءَهُم قرْناً بعد قرْنٍ إلىٰ أَن تقُومَ السَّاعة.

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ(١١٤) وَنَـجَّيْنَـٰهُمَا وَقَـوْمَهُمَا مِـنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ(١١٥) وَنَصَرْنَـٰهُمْ فَكَانُواْ هُمُ ٱلْغَـٰلِبِينَ(١١٦) وَءَاتَيْنَـٰهُمَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ(١١٧) وَهَدَيْنَـٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ(١١٨) وَتَرَكْـنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْأَخِرِينَ(١١٩) سَلَـٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ(١٢٠) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ(١٢١) إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ(١٢٢)﴾

﴿ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ تَسْخيرُ قَوْمِ فِرْعَون إِيَّـاهُمْ، وٱسـتِعْمَالُهُم فـي الأَعْـمالِ

(١) رواه ابن عساكر في تاريخه: ج ٢ ص ١٥٠.
(٢) الزمر: ٧٣.

الشَّاقَّةِ ﴿وَنَصَرْنَـٰهُمْ﴾ الضَّميرُ لَهُمَا ولِقَوْمِهِما في قَولِهِ: ﴿وَنَجَّيْنَـٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا﴾، وَ﴿الكِتَـٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ﴾ البَليغَ في بيانِهِ وهو التَّوراة.

﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ(١٢٣) إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ(١٢٤) أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَـٰلِقِينَ(١٢٥) ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ(١٢٦) فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ(١٢٧) إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ(١٢٨) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْأَخِرِينَ(١٢٩) سَلَـٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ(١٣٠) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ(١٣١) إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ(١٣٢)﴾

اختلِفَ في ﴿إِلْيَاسَ﴾ فقيلَ: هو إدريسُ النبيّ[١]، وقيلَ: هو من بني إسرائيلَ من وُلْدِ هارونَ بن عمران ابن عمِّ الْيَسَع[٢]، وقيلَ: إنَّهُ ٱستَخْلَفَ ٱليَسَع علىٰ بني إسرائيل ورَفَعَهُ اللهُ وَكَسَاهُ الرِّيشَ فَصَارَ إِنْسيّاً مَلَكِيّاً وأَرضيّاً سماويّاً[٣]، وقيلَ: إنَّ إِلْياسَ صَاحِبُ البَراري، والْخضرَ صَاحِبُ الجزَائر، ويجتَمِعَانِ كُلَّ يوم عَرفَةٍ بِعَرفَات[٤]. وبَعْلٌ: صَنَمٌ لَهُم كانُوا يَعبُدُونَهُ. وقُرِئَ: «اللهُ رَبُّكُمْ» بالرَّفعِ[٥] على الابتداءِ، وبالنَّصبِ على البَدَلِ. ﴿فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ للحِسَابِ أو في العَذَابِ أو في النَّار. وٱستَثْنىٰ من جملةِ قَومِهِ الَّذينَ أَخْلَصُوا عبادَتَهُم للهِ. وقُرِئ: ﴿سَلَـٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ﴾ علىٰ أَنَّهُ لُغَةٌ في «إلياس»، وقرأ ٱبنُ مسعودٍ والأَعْمَشُ «وإِنَّ إدْريس» و«علىٰ إدْراسِينَ»[٦]، ولَعَلَّ لِزِيادةِ الياءِ والنُّونِ معنىً في السِّريانيَّةِ، ولَوْ كانَ جَمْعاً

(١) قاله ابن عباس وقتادة. راجع تفسير الماوردي: ج ٥ ص ٦٤.

(٢) قاله الطبري في تفسيره: ج ١٠ ص ٥٢٠.

(٣) وهو قول محمد بن إسحاق. راجع تفسير البغوي: ج ٤ ص ٤١.

(٤) وهو قول الحسن البصري. راجع تفسيره: ج ٢ ص ٢٤٣.

(٥) قرأه ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٥٤٩.

(٦) انظر التبيان: ج ٨ ص ٥٢٤، وشواذ القرآن لابن خالويه: ص ١٢٨.

ـ كَمَا قيلَ ـ لَعُرِّفَ بالألفِ واللَّامِ، وقُرِئَ: «على آل ياسين»[(١)] وَوُجِدَ في المُصْحَفِ مَفْصُولًا مِن «ياسين»، وفي فَصْلِهِ مِنْهُ دلالةٌ علىٰ أنَّ «آل» هو الّذي تَصْغِيرُه «أُهَيْل»، قالَهُ أبو عليٍّ الفارسيّ.

وعن ٱبن عبَّاسٍ: آلُ ياسينَ: آلُ محمَّدٍ، وياسينُ اسمٌ من أسْمائِهِ[(٢)].

﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ(١٣٣) إِذْ نَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ(١٣٤) إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَـٰبِرِينَ(١٣٥) ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْأَخَرِينَ(١٣٦) وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ(١٣٧) وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ(١٣٨) وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ(١٣٩) إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ(١٤٠) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ(١٤١) فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ(١٤٢) فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ(١٤٣) لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ(١٤٤) فَنَبَذْنَـٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ(١٤٥) وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ(١٤٦) وَأَرْسَلْنَـٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ(١٤٧) فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ(١٤٨)﴾

﴿لَتَمُرُّونَ﴾ علىٰ مَنَازِلِهِم في مَتَاجِرِكُم إلى الشَّامِ ﴿مُصْبِحِينَ﴾ داخِلينَ في الصَّباحِ ﴿وبِاللَّيْلِ﴾ عَطْفٌ عليهِ، أي: ومُمْسِينَ ﴿أَفَلَا﴾ تَعْتَبِرونَ بِهَا.

﴿إِذْ أَبَقَ﴾ أي: هَرَبَ من قَوْمِهِ إلى السَّفينةِ المملوءَةِ من النَّاسِ والأَحْمَالِ خَوفاً من أن ينزلَ العَذابُ بِهِم وهو مُقيمٌ فيهِم ﴿فَسَاهَمَ﴾ القَوْمَ أي: قَارَعَهُم ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾ أي: من المغلُوبينَ المقْروعينَ، والمُرادُ: من المُلْقَيْنَ في البَحْرِ. ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ﴾ أي: ابتَلَعَهُ ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ داخلٌ في الملامَةِ علىٰ خروجِهِ من

(١) قرأه نافع وابن عامر ويعقوب. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٦٣٨.
(٢) تفسير ابن عباس: ص ٣٧٨.

بين قومِهِ من غَيْرِ أَمْرِ ربِّـهِ. ﴿مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾ الذّاكـرينَ ٱللهَ كـثيراً بـالتّسبيحِ والتّقْديسِ ﴿لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ﴾ حيّاً ﴿إِلَىٰ يَوْمِ﴾ البَعْثِ، وعن قـتادةَ: لكَـانَ بَـطْنُ الحُوتِ قَبراً لَهُ إلىٰ يومِ القيامةِ[١]. ﴿فَنَبَذْنَـٰهُ﴾ فَطَرَحْناهُ بـالعَرَاءِ، وهـو المكـانُ الخَالي الَّذي لا نَبْتَ فيهِ ولا شَجَر ﴿وهو﴾ مريض.

والْيَقْطِينُ: كلُّ نَبْتٍ يَنْبسِطُ علىٰ وَجْهِ الأرضِ ولا سَـاقَ لَـهُ كشَجَرِ البطِّيخِ والقِثّاءِ، وهو «يَفْعيلٌ» من قَطَن بالمكانِ: إذا أَقَامَ بِهِ، وقيلَ: هو القَرعُ[٢]، وفائدتُهُ أنَّ الذُّبَابَ لا يَجْتَمِعُ عنْدَهُ، وقيلَ: هو التِّين[٣]، وقيلَ: هو شَجَرَةُ المـوزِ، تَـغطّى بوَرَقِهَا، واْستَظَلَّ بأغْصَانِها، وأَفْطَرَ علىٰ ثمارِهَا[٤]. ومعنىٰ ﴿أَنْبَتْنَا عَلَيْهِ﴾: أَنْبَتْنَا فَوقَهُ كَمَا يُطَنَّبُ البيتُ على الإنسانِ.

﴿وَأَرْسَلْنَـٰهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ﴾ عن قَتادةَ: أُرسِـلَ إلىٰ أهـلِ نَـيْنَوىٰ مـن أَرْضِ الموصِلِ[٥] ﴿أَو يَزِيدُونَ﴾ في مَرْأَى النَّاظِرِ، إذا رآهُم[٦] الرَّائي قَالَ: هي مـائةُ أَلْفٍ أو أَكثرُ. وقرأَ الصَّادقُ عليه السلام: «وَيَزِيدُونَ فـآمَنُوا وأَنـابُوا». ﴿فَمَتَّعْنَـٰهُمْ﴾ إلى ٱنْقِضَاءِ آجالِهِم، يُحتَملُ أن يكُونَ أرسِلَ إلىٰ قَوْمٍ بَعْدَ قَومِهِ، ويجوزُ أَن يكونَ أُرسِلَ إلى الأوَّلِينَ.

﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ(١٤٩) أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَـٰئِكَةَ إِنَـٰثًا وَهُمْ شَـٰهِدُونَ(١٥٠) أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ(١٥١) وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ(١٥٢) أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ (١٥٣) مَالَكُمْ كَيْفَ

---

(١) حكاه عنه الماوردي في تفسيره: ج ٥ ص ٦٨.

(٢) قاله ابن عباس وقتادة. راجع التبيان: ج ٨ ص ٥٣٠.

(٣ و ٤) حكاه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٦٢.

(٥) حكاه عنه البغوي في تفسيره: ج ٤ ص ٤٣.

(٦) في بعض النسخ: «رآها».

تَحْكُمُونَ(١٥٤) أَفَلَا تَذَكَّرُونَ(١٥٥) أَمْ لَكُمْ سُلْطَـٰنٌ مُّبِينٌ(١٥٦) فَأْتُوا بِكِتَـٰبِكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ(١٥٧) وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ(١٥٨) سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ(١٥٩) إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ(١٦٠)﴾

﴿فَاسْتَفْتِهِمْ﴾ مَعطُوفٌ علىٰ مثلِهِ[1] في السورةِ وإنْ تَباعَدَ ما بَينَهُما، أَمَرَ اللهُ رَسُولَهُ باستفتاءِ قُرَيشٍ عن وَجْهِ إنْكَارِ البَعْثِ أوّلاً، ثمّ سَاقَ الكلامَ موصُولاً بعضُهُ ببعضٍ، ثمّ أَمَرَهُ باستفتائِهم عنْ وَجْهِ القِسْمَةِ الّتي قَسَّمُوهَا ضِيزَىٰ حيثُ جَعَلُوا للهِ الإناثَ ولأنفسِهِم الذكُورَ في قَولِهِم: الملائكةُ بناتُ اللهِ مع كراهَتِهِم لَهُنَّ وَوَأْدِهِم إيَّاهُنَّ. ﴿أَمْ خَلَقْنَا﴾ بَلْ أَخَلَقْنَا ﴿ٱلْمَلَائِكَةَ إِنَاثاً وَهُمْ شَـٰهِدُونَ﴾ حاضِرُونَ خَلْقَنَا إيَّاهُم، أي: كيفَ جَعَلُوهُم إنَاثاً ولم يَشْهَدُوا. ولَقَدْ ارتكَبُوا ثلاثةَ أنواعٍ من الكُفْرِ في ذلك: أحدها: التَجسيمُ؛ لأنَّ الولادةَ مُخْتَصَّةٌ بالأجْسَامِ، والثاني: تَفضيلُ أنفسِهِم علىٰ ربِّهم حيثُ ٱختارُوا البنينَ لأنفسِهِم والبَنَاتَ للهِ، والثالث: أنَّهُم استَهَانُوا بالملائكةِ حيثُ أَنَّثُوهُم.

﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ﴾ دَخَلَتْ همزةُ ٱلاستفهامِ علىٰ همزةِ الوَصْلِ فَسَقَطَتْ همزةُ الوَصْلِ، ونَحوُهُ قَولُ ذي الرِّمَّةِ:

أَسْتَحْدَثَ الركْبُ عن أَشْياعِهم خَبَراً ... أَمْ رَاجَعَ القَلْبَ من أَطْرابِهِ طَرَبُ[2]

﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ للهِ بالبَنَاتِ ولأنفسِكُم بالبنينَ ﴿أَفَلَا﴾ تَنْتَهونَ من مثلِ هذا القَوْلِ ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ﴾ أي: حُجَّةٌ نَزَلَتْ عليكم من السَّماءِ بأَنَّ الملائكةَ بناتُ اللهِ ﴿فَأْتُوا بِكِتَـٰبِكُمْ﴾ الّذي أُنْزِلَ عليكُم في ذلكَ.

---

(١) الآية: ١١.

(٢) وهي من قصيدة طويلة جداً (١٢٦ بيتاً)، وهي أحسن شعره. أُنظر ديوان ذي الرمّة: ص ٢٠.

﴿وَجَعَلُوا﴾ بَيْنَ ٱللهِ ﴿وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَباً﴾ وهو زَعْمُهم أنَّ الملائكة بناتُ اللهِ، فأثْبتُوا بذلكَ جنسيَّة جامِعَةً لَهُ وللملائكةِ، وسُمُّوا: جِنَّةً لاستِتَارِهِم عن العُيُونِ، وقيلَ: هو قَوْلُ الزَّنَادقَةِ: إنَّ اللهَ خَالِقُ الخيْرِ، وإبليسُ خَالِقُ الشرّ[1]. ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ﴾ أي: الملائِكةُ ﴿أَنَّهُمْ﴾ في ذلك كاذِبُونَ ﴿مُحْضَرُونَ﴾ النَّارَ معذَّبُونَ بما يقُولُونَ، ثمّ نَزَّهَ سبحانَهُ نفسَهُ عمَّا وَصَفُوهُ بِهِ. ﴿إِلَّا عِبَادَ اللهِ﴾ استثناءٌ منْقَطِعٌ من الواو في ﴿يَصِفُونَ﴾ أي: يَصِفُهُ هؤلاء بذلكَ، ولكنَّ ﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ بُراءٌ من أن يَصِفُوهُ بِهِ.

﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ(١٦١) مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَـٰتِنِينَ(١٦٢) إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ(١٦٣) وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ(١٦٤) وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ(١٦٥) وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ(١٦٦) وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ(١٦٧) لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ(١٦٨) لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ (١٦٩) فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ(١٧٠) وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ(١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ(١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ(١٧٣) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ (١٧٤) وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ(١٧٥) أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ(١٧٦) فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ(١٧٧) وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ(١٧٨) وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٩) سُبْحَـٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ(١٨٠) وَسَلَـٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ(١٨١) وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ(١٨٢)﴾

الضَّميرُ في ﴿عَلَيْهِ﴾ لله عزَّ اسمُهُ، والمعنىٰ: فَإِنَّكُم ومَعْبُودِيكُم ﴿مَا أَنتُمْ﴾ وهُم

(١) قاله الكلبي وعطية العوفي. راجع تفسير الماوردي: ج ٥ ص ٧٠.

جَميعاً ﴿بِفَـٰتِنِينَ﴾ علَى ٱللهِ، أي: لَسْتُمْ تَفتنُونَ على ٱللهِ أَحَداً بإغوائِكُم وٱستِهزَائِكم[١]، من قَولِكَ: فَتَنَ فلانٌ علىٰ فلانٍ امرأتَهُ إذا أَفْسَدَهَا عليهِ ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي: إلَّا مَنْ سَبَقَ في عِلْمِ اللهِ أنَّه يستوجبُ صَلْيَ الجحيمِ بسُوءِ أعمالِهِ. ويُحْتَمَلُ أَن يكُونَ الواو في ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ بمعنىٰ: «مع»، فيجوزُ السُّكُوتُ علىٰ: ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ﴾، كَمَا يَجُوزُ السُّكُوتُ علىٰ قَولِكِ: كلُّ رجلٍ وَضيعَتِهِ، فيكونُ المعنىٰ: فإنَّكُم مع مَعْبُوديكُم، أي: فإنَّكُم قُرَنَاؤُهم. والضَّميرُ في ﴿عَلَيْهِ﴾ لـ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾، أي: فَمَا أَنْتُم علىٰ ما تعبُدُونَ ﴿بِفَـٰتِنِينَ﴾ بِباعِثِينَ، أي: حَامِلينَ علىٰ طريقِ الفتنةِ والإضْلَالِ ﴿إِلَّا مَنْ﴾ يَصْلَىٰ ﴿ٱلْجَحِيمِ﴾ بِسوءِ ٱختيارِهِ، وَيَحتَرِقُ بها مِثْلُكُمْ ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ أي: وَمَا مِنَّا مَلَكٌ، فحُذِفَ الموصُوفُ وأُقيمَ الصِّفَةُ مقامَهُ، كقَولِهِ:

أَنَا ٱبنُ جَلَا وَطَلَّاعُ الثَّنَايَا[٢]

أي: مَقَامٌ معلُومٌ في السَّمٰواتِ يَعْبُدُ اللهَ فيهِ، أو: مَقَامٌ في العبادةِ والانتهاءِ إلىٰ أَمْرِ اللهِ لا يتَجَاوَزُ ما أُمِرَ بِهِ ورُتِّبَ لَهُ، كَمَا رُوِيَ: فَمِنْهُم سجُودٌ لا يَركَعُونَ، وركُوعٌ لا يَنْتَصِبُونَ، وَصَافُّونَ لا يَتَزَايلُونَ. ﴿لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ﴾ نَصُفُّ أقدامَنَا في الصلاةِ، أَو أَجْنِحَتَنَا حَولَ العرشِ داعينَ للمؤْمنينَ، أَو في الهَواءِ منْتَظِرينَ أَمْرَ اللهِ، وقيل: إنَّ المسلمينَ إنَّما ٱصطَفُّوا في الصَّلاةِ منذُ نَزَلَتْ هذه الآية[٣] وليسَ يَصْطَفُّ أَحَدٌ من أهلِ المِلَلِ في صلاتِهِم غيرِ المسلمين. و﴿ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾: المُصَلُّونَ، أو المُنزِّهُونَ.

---

(١) في نسخة: «وٱستهوائكم».

(٢) وعجزه: متىٰ أَضع العِمامةَ تعرِفُوني. اختلف في قائله فقيل: لسُحيم بن وثيل الرياحي، وقيل: لمثقب وقيل لغيرهما. راجع خزانة الأدب للبغدادي: ج ١ ص ٢٥٥ وما بعده. وقد تقدّم شرحه في ج ٢ ص ٩١.

(٣) وهو قول أبي مالك. راجع تفسير الماوردي: ج ٥ ص ٧٢.

﴿إِنْ﴾ هي المخفَّفةُ من الثّقيلةِ، وَهُم مشركو قريشٍ كانُوا يـقولُونَ: ﴿لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْراً﴾ كتاباً ﴿مِنْ﴾ كُتُبِ ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾ الّذيـنَ نَـزَلَ عـليهِم التّـوراةُ أو[١] الإِنْجِيلُ، لَأَخْلَصْنَا ٱلْعبادةَ للهِ، وَلَما خَالَفْنَا كَمَا خَالَفُوا، فَجَاءَهُم الذِّكْـرُ[٢] الّذي هو سيِّدُ الأَذْكَار، وهو المُعْجِزُ من بين الكُتُبِ ﴿فَكَفَرُواْ بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ عاقبةَ كُفرِهِم.

الْكَلِمَةُ هي قَولُهُ: ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنْصُورُونَ وإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾ سَـمَّاها كَلِمةً وإنْ كانَتْ كَلمات عِدَّة؛ لأنَّها لمَّا ٱنتَظَمَتْ في معنىً واحدٍ كانَتْ في حُكْمِ كَلِمةٍ مُفردةٍ. و «هُمْ» في: ﴿لَهُمْ﴾ فَصْلٌ، والمُرادُ: الوَعْدُ بِعلُوِّهِم علىٰ عدوِّهِم في الدُّنيا، وعلوِّهم عليهم في الآخرة.

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ وأَغْضِ عليهِم أَذاهُم[٣] ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ إلىٰ مدّةٍ يسيرةٍ هي مدَّةُ الكَفِّ عن القتالِ ﴿وَأَبْـصِرْهُمْ﴾ وما يُقضىٰ عـليهِم مـن القَـتْلِ والأَسْـرِ عَـاجِلًا، والعَذابِ الأَليمِ آجِلًا ﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ ـكَ وما يُقتضىٰ لَكَ من النُّصْرَةِ والتأْييدِ اليومَ والثَّوابِ والنَّعيمِ غَداً، والمُـرادُ بـالأَمْر بـإبْصارِهِم عـلى الحـالِ المـنتظَرةِ الموعودَةِ الدَّالّةِ علىٰ أَنَّها كائنةٌ لا مَحالَةَ، قَريبَةَ الوقوعِ كأَنَّها قُدَّامُ نَاظِرَيْك، وفي ذلكَ تَسْليةٌ لَهُ صلوات الله عليه وآله.

وكانَتْ العَرَبُ تُفاجِئُ أَعداءَهَا بالغارةِ صَبَاحَاً، فَخَرجَ الكلامُ علىٰ عـادَتِهِم، فكأَنَّ العَذابَ الّذي يَنْزِلُ بساحَتِهِم جَيْشٌ نَزَلَ بساحَتِهِم فَشَنَّ عليهم الغارةُ، ولأَنَّ ٱللهُ سبحانَهُ أَجْرَى العادةَ بتَعذيبِ الأُمَمِ وَقْتَ الصَّباحِ، كَمَا قَـالَ: ﴿إِنَّ مَـوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ﴾[٤] والمعنىٰ: ﴿فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنْذَرِينَ﴾ وَصَبَاحُهُم.

---

(١) في بعض النسخ: واو بدل «أو». (٢) في نسخة: «القرآن».

(٣) في نسخة: «وأَغْضِ علىٰ قذاهم واصبر على أذاهم»، يقال: أَغْضىٰ عَيْناً عَلَى قَذىٰ: صبر على أذى، المعجم الوسيط: ٦٥٥. (٤) هود: ٨١.

إنَّما كَرَّرَ قولَهُ: ﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ ليكُونَ تَسْليةً علىٰ تَسْليةٍ، وتَأكيداً لِحصُولِ الوَعْدِ علىٰ تأكيدٍ، وقيلَ: أُرِيدَ بأَحَدِهِما الدنيا وبالآخَرِ الآخرةُ[1]، وفي قَولِهِ: ﴿أَبْصِرْ﴾، وَ ﴿يُبْصِرُونَ﴾ من غَيرِ تَقْييدٍ بالمفْعُولِ فَائِدَةٌ زَائِدَةٌ، أي: مَا لا يُحيطُ بِهِ الوَصْفُ من ضُرُوبِ المَسَرَّةِ لَكَ، وأَنْواعِ الْمَسَاءَةِ لَهُمْ.

﴿رَبِّ ٱلْعِزَّةِ﴾ أَضَافَ الربَّ إلى العزَّة لاختِصَاصِهِ بها، كأنَّه قَالَ: ذُو الْعِزَّةِ، أو: لأنَّه لا عزَّةَ لأَحَدٍ إلَّا وهو مَالِكُهَا، كَمَا قَالَ: ﴿وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ﴾[2].

وعن أَميرِ المؤمنينَ عليه السلام: «مَنْ أَرادَ أَن يَكْتَالَ بالمِكْيالِ الأَوفَىٰ فَلْيَكُنْ آخِرُ كَلامِهِ في مجْلِسِهِ: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ إلىٰ آخرِ السُّورة»[3]

❁ ❁ ❁

---

(١) حكاه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٦٩.

(٢) آل عمران: ٢٦.

(٣) الكافي: ج ٢ ص ٤٩٧ ح ٣، الدرالمنثور: ج ٧ ص ١٤١ وعزاه الى حميد بن زنجويه في ترغيبه.

سُورَةُ ص

مَكّيّةٌ[(١)] وهي ثَمانٌ وثَمانُونَ آيةً كـوفيٌّ، ستٌّ بـصريٌّ، عَـدَّ الكـوفيُّ ﴿ذِى ٱلذِّكْرِ﴾[(٢)] و﴿غَوَّاصٍ﴾[(٣)].

وفي حديثِ أُبيٍّ: «مَنْ قَرأَ سُورةَ صٓ أُعْطِيَ من الأَجْرِ بوَزْنِ كُلِّ جَبَلٍ سَخَّرَهُ اللهُ لِداودَ حَسَنَات»[(٤)].

وَعَنْ ٱلباقرِ عليه السلام: «مَنْ قَرَأَهَا في ليلةِ الجُمعَةِ أُعْطِيَ من خَير الدُّنيا والآخـرةِ مَا لمْ يُعْطَ أَحَدٌ من النَّاسِ إلَّا نبيٌّ مُرْسَلٌ أو مَلَكٌ مُقرَّبٌ، وأَدْخَلَهُ ٱللهُ الجنَّةَ، وكُلَّ مَنْ أَحَبَّ مِنْ أَهلِ بيتِهِ»[(٥)]

---

(١) قال الشيخ الطوسي في التبيان: ج ٨ ص ٥٤٠: مكّية في قول مجاهد وقتادة والحسن، ليس فيها ناسخ ولا منسوخ، وهي ثمان وثمانون آية في الكوفي، وخمس وثمانون في البصري، وستّ في المدني.

وفي الكشّاف: ج ٤ ص ٧٠: مكّية، وهي ستّ وثمانون آية، وقيل: ثمان وثمانون آيـةً، نزلت بعد القمر.

(٢) الآية: ١.

(٣) الآية: ٣٧.

(٤) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ١٠٩ مرسلاً.

(٥) ثواب الأعمال للصدوق: ص ١٣٩ وزاد: «حتّىٰ خادمه الذي يخدمه وإن لَم يكن في حدّ عياله ولا في حدٍّ من يشفع فيه».

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ(١) بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ(٢) كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٖ(٣) وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ(٤) أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ(٥) وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ(٦) مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ(٧) أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَاۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّن ذِكۡرِيۚ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ(٨)﴾

إنْ جُعِلَتْ ﴿صٓ﴾ حَرْفاً من حُروفِ المعجَم ذُكِرَ علىٰ سبيلِ التَّحدِّي والتَّنبيهِ عَلَى الإعْجَازِ، فقَولُهُ: ﴿وَٱلۡقُرۡءانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ﴾ قَسَمٌ محذُوفُ الجَوابِ لدلالةِ التَحدِّي عليهِ، فكأنَّهُ قالَ: والقُرآنِ ذي الذِّكْرِ إنَّه لَكَلامٌ مُعجِزٌ، وإنْ جُعِلَتْ ﴿صٓ﴾ خَبَرُ مبتدأ محذُوفٍ علىٰ أنَّها اسمٌ للسُّورةِ، فكأنَّهُ قالَ: هذا (صٓ) أي السُّورةُ الّتي أَعْجَزَتِ الفُصَحاءَ والقُرآنِ ذي الذِّكْرِ، كَمَا تقولُ: هذا حَاتَمٌ وَٱللهِ، تُريدُ: هذا هو المشْهُورُ بالجُودِ وٱللهِ، وإنْ جَعَلْتَها قَسَماً فكَمثلِهِ، كَأَنَّهُ قالَ: أَقْسمتُ بِصَادٍ والقُرآنِ ذي الذِّكرِ إنَّه لَمُعجِزٌ، وإنْ جَعَلْتَها مُقْسماً بِهِ وَعطَفْتَ عليها ﴿والقُرءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ﴾ جَازَ أَن تُريدَ بالقُرآنِ القُرآنَ كلَّهُ، وأَنْ تُريدَ السُّورةَ بِعَيْنِها فَيكُونَ مَعنَاهُ: أُقْسِمُ بالسُّورةِ الشَّريفةِ وبالقُرآنِ ذي الذِّكرِ، كَمَا تَقُولُ: مَرَرْتُ بالرَّجُلِ الكريمِ وبالنَّفْسِ الشَّريفةِ، ولا تُريدُ بالنَّفْسِ غَيْرَ الرَّجُلِ، والذِّكْر: الشَّرَف، أو الذِّكرىٰ والموعِظَة، أو ذِكْر ما يَحتاجُ إليهِ من الشَّرائعِ وغَيرِها من التَّوحِيدِ وذِكْرِ الأَنبياءِ وأَخْبارِ الأُمَمِ وأَحْوالِ القِيامَةِ.

﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ من أَهلِ مكَّةَ ﴿فِي عِزَّةٍ﴾ أي: في تَكبُّرٍ عن قبولِ الحقِّ ﴿وَشِقَاقٍ﴾ وخِلَافٍ وعَدَاوةٍ شَديدةٍ.

﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ وَعيدٌ لِذوي العزَّةِ والشِّقاق ﴿فَنَادَوا﴾ فَدَعَوْا وٱستَغَاثُوا عند وقوعِ الهَلَاكِ بِهِم ﴿وَلَاتَ﴾ هي لَاءُ المشبَّهة بـ«ليسَ»، زِيدَتْ عليها تَاءُ التَّأْنيثِ كَمَا زيدَتْ علىٰ «رُبَّ» وَ«ثَمَّ» للتَّأكيدِ، وتَغيَّرَ بذلك حُكْمُهَا حَيثُ لَمْ تَدخُلْ إلَّا عَلَى الأَحْيَانِ، ولَمْ يَبرُزْ إلَّا ٱسمُها أَو خبرُهَا وٱمتَنَعَ بروزُهُما جَميعَاً، فَتَقديرُهُ: ولَاتَ الحينُ ﴿حِينَ مَنَاصٍ﴾ أَي: وليسَ الحينُ حينَ مَنَاصٍ، وَلَو رُفِعَ لَكَانَ تقديرُهُ: ولَاتَ حينُ مناصٍ حَاصِلًا لَهُمْ، والمَنَاصُ: المَلجَأُ. ﴿وَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ ولَمْ يَقُلْ: وقَالُوا، إظْهاراً للغضَبِ عليهِم، ودلالةً علىٰ أنَّ هذا القَولَ لا يَجسرُ عليهِ إلَّا الكافِرُ المتَمَادي للكُفْر. ﴿أَجَعَلَ ٱلآلِهَةَ إِلَٰهاً وَٰحِداً﴾ ومعنىَ الجَعْلِ: التَصيُّرُ في القَولِ علىٰ سبيلِ الدَّعْوىٰ، كأنَّهُم قَالُوا: أَجَعَلَ الجَمَاعَةَ واحِداً في قَولِهِ وزَعْمِهِ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ﴾ بَليغٌ في العَجَبِ.

و ﴿ٱلْمَلَأُ﴾: أَشْرافُ قُريشٍ، يُريدُ: وَانْطَلَقُوا عن مَجْلسِ أبي طالبٍ لَمَّا أَتَوهُ وَهُم خَمسةٌ وعشرونَ رجلًا فِيهِم الوَليدُ بنُ المغيرةِ وهو أَكْبرُهُم، وأبو جَهْلٍ، وأُبيُّ ابنُ خَلَفٍ، وأَخُوه أُميَّةُ وعتبةُ وشَيبةُ، والنَّضرُ بنُ الحَارثِ، فَقَالُوا: أَتينَاكَ لِتَقْضي بينَنَا وبينَ ٱبنِ أخيكَ، فإنَّه سَفَّهَ أَحْلامَنَا وشَتَمَ آلهتَنَا، فقالَ أَبو طالبٍ: يابنَ أَخي، هؤلاء قَومُكَ يسألونَكَ فيقولُونَ: دَعْنَا وآلهتنا نَدَعْكَ وإلٰهكَ، فقالَ عليه السلام: أَتُعْطُونَني كلمةً واحدةً تَملكُونَ بها العَرَبَ والعَجَمَ؟ فقالَ أَبو جَهْلٍ: للهِ أَبوكَ نُعطيكَ ذلكَ وَعَشرَ أمثالها، فَقَالَ: قُولُوا: لا إلٰهَ إلَّا ٱللهُ، فَقَامُوا قائلين بعضُهُم لبعضٍ: ﴿امْشُواْ وَٱصْبِرُواْ﴾ فَلَا حيلةَ لكم في أمر محمَّدٍ صلى الله عليه وآله وسلم .

ورُوِيَ: أنّهعليه‌السلام استعبَرَ ثمَّ قالَ: يا عمّ، واَللهِ لَوْ وُضِعَتِ الشَّمسُ في يمينِي والقَمَرُ في شمالي ما تَرَكْتُ هذا القَولَ حتّىٰ أُنْفِذَهُ أو أُقْتَلَ دُونَه، فَقَالَ له أبوطالبٍ: امْضِ لأَمْرِكَ، فواَللهِ لا أَخْذُلُكَ أَبَداً(١).

و ﴿أنِ﴾ هي المفسِّرةُ بمعنىٰ: «أي»، لأنَّ انطلاقَهُم من مجلسِ التّقاولِ يَتَضَمَّنُ معنَى القَولِ ﴿إنَّ هذا﴾ الأَمرَ ﴿لَشَىْءٌ يُرَادُ﴾ أي: يريدُهُ الله تعالىٰ وما أرادَ اللهُ كونَهُ فَلَا مَرَدَّ لَه، ولا يُنفَعُ فيه إلَّا الصَّبْرُ، وقيلَ: معنَاهُ: أنَّ هذا الأمرَ الّذي نَراهُ من زِيَادةِ أَصحابِ محمّدٍصلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم لَشَيءٌ من نَوائبِ الدَّهْرِ يُرادُ بِنَا ولا انفكاكَ لَنَا منه(٢) ومعنى ﴿وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ﴾: اصبروا على عبادتها والتَّمسُّك بها حتَّى لا تزالوا عنها.

﴿مَا سَمِعْنَا بِهٰذَا﴾ في ملَّةِ عيسىٰ الّتي هي آخرُ المِلَلِ، لأنَّ النَصارىٰ يقولُونَ: ثَالِثُ ثَلاثةٍ ولا يُوحِّدونَ، أو: في ملَّةِ قُريشٍ الّتي أَدْرَكْنا عَلَيْهَا آباءَنا، أو: ما سَمِعْنَا بهذا كائِناً في المِلَّةِ الآخرةِ، علىٰ أن يكون ﴿في الْمِلَّةِ الآخِرَةِ﴾ حالاً من ﴿هٰذَا﴾ فَلَا يَتَعلَّقُ بـ﴿مَا سَمِعْنَا﴾ كما في الوجهَيْنِ، والمعنىٰ: أنَّا لَمْ نَسمَعْ من أَهلِ الكتابِ ولا الكُهَّانِ أنَّهُ يَحْدُثُ التَّوحيدُ في المِلَّةِ الآخرةِ. مَا ﴿هٰذَا إلَّا اخْتِلَاقٌ﴾ أي: افْتِعَالٌ وكَذِبٌ.

ثمَّ أَنكرُوا أَن يختَصَّعليه‌السلام بشرفِ النُّبوّةِ من بين رؤسائِهِم، ويُنزلَ عَلَيْهِ الكتابُ دونهم ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن﴾ القُرآنِ المُنْزَلِ، وَوَصْفُهُمْ له بالاختلاقِ مُخالفٌ لاعتقادِهِم فيه، وإنَّما يقُولُونَه علىٰ سَبيل الحَسَد ﴿بَلْ﴾ لَمْ ﴿يَذُوقُواْ﴾ عَذَابي بَعْدُ، فإذا ذَاقُوهَ زَالَ عنهم ما بِهِم من الشَّكِّ والحَسَد.

(١) رواه البيهقي في دلائل النبوة: ج ٢ ص ١٨٧.

(٢) قاله البغوي في تفسيره: ج ٤ ص ٤٩.

﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ(٩) أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُواْ فِى ٱلْأَسْبَـٰبِ(١٠) جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ(١١) كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ(١٢) وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَـٰبُ لْـَٔيْكَةِ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ(١٣) إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ(١٤) وَمَا يَنظُرُ هَـٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ(١٥) وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ(١٦)﴾

أي: ليسَ ﴿عندهُمْ خَزَآئِنُ﴾ الرَّحمةِ، وَمَا بأَيْدِيهم مَفَاتيحُ النُّبوَّةِ فَيضَعُوها حيثُ شاؤوا ويختاروا لَهَا من شَاؤوا. ﴿أَمْ لَهُمْ مُّلْكُ ٱلسَّمٰوٰتِ وَٱلأَرْضِ﴾ حتَّىٰ يَتَكلَّمُوا في التَّدابيرِ الرَّبَّانيَّةِ والأُمورِ الإِلٰهيَّةِ الَّتي يَخْتَصُّ بها رَبُّ العِزَّةِ. ثمَّ تَهَكَّمَ بِهِم سبحانَهُ فَقَالَ: فإنْ كانَ إليهم تَدبيرُ الخَلائقِ وعندَهُم الحِكْمَةُ الَّتي بها يَعْرِفُونَ مَن هو أحقُّ بالنُّبوَّةِ ﴿فَلْيَرْتَقُواْ فِى ٱلأَسْبَـٰبِ﴾ فَلْيصعدوا في مَعَارجِ السَّماءِ وطُرُقِهَا الَّتي يُتَوصَّلُ بها إِلَى العرشِ حتَّىٰ يستووا[١] عليهِ، ويُدبِّروا أَمْرَ العَالَمِ، ويُنْزِلُوا الوَحْيَ إِلىٰ من يختَارونَهُ. ثمَّ أَخْبَرَ عن حالِهِ[٢] وما لَهُم فَقَالَ: ﴿جُنْدٌ مَّا هُنَالِكَ﴾ يُريدُ: ما لَهُم إلَّا جُنْدٌ من الكُفَّارِ المتحزِّبينَ عَلَى ٱللهِ[٣] ﴿مَهْزُومٌ﴾ مكسُورٌ عمَّا قَريبٍ فَلَا تُبَالِ بِهِم، و «ما» مَزيدةٌ، وفيها معنَى الاستِعْظَامِ، كما في قَولِ ٱمرئ القَيْسِ:

وَحَديثٌ مَا عَلَى قِصَرِهِ[٤]

(١) في نسخة: «يستولوا». (٢) في نسخة: «حالهم».

(٣) في نسخة: «رسول الله».

(٤) وصدره: وحديثُ الرَّكْبِ يَومَ هُنَاً. والبيت من قصيدةٍ له. يقول: إنّ اليوم الّذي تحدّثوا فيه وسرّوا به كان قصيراً لأنّ يوم السرور قصير بعكس يوم الكدر فهو طويل. انظر ديوان امرئ القيس: ص ١٠٣.

إلّا أنَّهُ علىٰ سَبيل الهُزْءِ، و ﴿هُنَالِكَ﴾ إشارةٌ إلىٰ حيث وَضَعُوا فيهِ أَنفُسَهُم من الانتدابِ لِمثْلِ ذلكَ القَولِ العظيمِ، كَمَا يقُولُ لِمَنْ ينتَدبُ لأَمرٍ ليسَ مِن أهلِهِ: لست هنالِكَ، وقيلَ: إشارةٌ إلىٰ مَصَارِعِهِم، وجَاءَ تأويلُهُ يوم بَدرٍ[١].

﴿ذُو ٱلْأَوْتَادِ﴾ مُستعارٌ لِثبَاتِ مُلْكِه، كَمَا قَالَ الأسْودُ:

وَلَقَدْ غَنُوا فِـيهَا بـأَنْعمِ عـيشةٍ ... فِي ظِلِّ مُلْكٍ ثَابتِ الأَوْتَـادِ[٢]

وقيلَ: كانَ يُعذِّبُ النَّاسَ بـالأَوتادِ[٣]. ﴿أُولَـٰئِكَ ٱلْأَحْزَابُ﴾ وَقَـصَدَ بـهذهِ الإشارةِ الإعْلامَ بأنَّ الأَحزابَ الَّذين جَعَلَ الجُنْدَ المهزُومَ مِنْهم هُـمْ هُـمْ، وأنَّـهم الَّذين وَجَدَ منهم التَّكْذِيبَ، وَذَكَرَ تَكْذِيبَهُم علىٰ وَجْهِ الإبهامِ في الجُملةِ الخبريَّةِ، ثمَّ أَوْضَحَ ذلكَ في الجُملةِ الاستثنائيَّةِ، بأنَّ كلَّ واحدٍ من الأحزابِ ﴿كَذَّبَ﴾ جَمِيعَ ﴿ٱلرُّسُلَ﴾ لأنَّهم إذا كَذَّبُوا واحِداً منهم فَقَد كَذَّبُوا جَمِيعَهُم ﴿فَحَقَّ عِقَابِ﴾ أي: فَوَجَبَ لذلكَ أن أُعاقِبَهُم حَقَّ عِقَابِهِم.

﴿وَمَا يَنظُرُ﴾ أي: وما يَنْتَظِرُ هؤلاء، يعني كُفَّارَ مكَّـةَ ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ مٰا لِتلكَ الصَّيحَة ﴿مِن فَوَاقٍ﴾ قُرِئَ بفَتْحِ الفَاءِ وضَمِّها[٤]، أي: مَا لَها من تَـوَقُّفِ مِقْدَارِ فَوَاقٍ، وهو ما بَيْنَ حَلْبَتَي الحالبِ وَرَضْعَتَي الرَّاضِعِ، يعني: إذا جَاءَ وَقْتُها لَمْ تَستَأْخِرْ هذا المِقْدار من الوَقْتِ، وعن ٱبنِ عبَّاسٍ: مَا لَها من رجُوعٍ وتِرْداد[٥]، مِنْ أَفَاقَ المَريضُ: إذَا رَجَعَ إلى الصحَّةِ، وفَواقُ النَّاقَةِ: سَاعَةُ يَرجعُ الدَّرُّ إلىٰ ضرْعِها،

---

(١) قاله قتادة. راجع تفسير الماوردي: ج ٥ ص ٨٠.

(٢) للأسود بن يعفر الأيادي يندب قوماً عاشوا ونعموا ثم صاروا الى البلى والفناء، فكأنّه يقول: لا أتمنّىٰ شيئاً من الدنيا بعدهم. أُنظر أمالي المرتضىٰ: ج ١ ص ٣٥.

(٣) قاله أنس والسدي. راجع تفسير الطبري: ج ١٠ ص ٥٥٦.

(٤) وبالضمّ قرأه حمزة والكسائي. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٦٤٣.

(٥) تفسير ابن عباس: ص ٣٨١.

يريدُ: أنَّها نَفْخَةٌ واحِدةٌ فَحَسْب لا تُثنَّىٰ ولا تَرَدّد.

﴿عَجِّلْ لَّنَا قِطَّنَا﴾ أي: نَصيبَنَا من العذابِ الَّذي وَعَدْتَهُ، أو: عجِّلْ لَنَا صحيفةَ أَعْمالِنَا نَنْظُرُ فيها، والقِطُّ: القسْطُ من الشيءِ، لأنَّهُ قِطْعةٌ منْهُ، مِنْ قَطَّهُ: إذا قَطَعَهُ، ولذلكَ قيلَ لِصَحيفةِ الجائِزَةِ: قَطٌّ؛ لأَنَّهَا قِطْعَةٌ مِنَ القِرْطَاس.

﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ(١٧) إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ(١٨) وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ(١٩) وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ(٢٠)۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ(٢١) إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ(٢٢) إِنَّ هَـٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ(٢٣) قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّـٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ(٢٤) فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ(٢٥)﴾

﴿ذَا الأَيْدِ﴾ ذَا القوَّةِ عَلَى العبادةِ، المُضْطَلِعَ بأَعْباءِ النُّبوَّةِ، وقيلَ: ذا القوَّةِ عَلَى الأعداءِ(١)، لأنَّهُ رمىٰ بِحَجَرٍ من مِقْلاعِهِ صَدْرَ الرَّجُلِ فَأَنفذَهُ من ظَهْرِهِ فأَصَابَ آخَرَ فَقَتَلَهُ، يُقَالُ: فُلانٌ أَيِّدٌ وذو أيْدٍ وذو آدٍ، وأَيَادُ كُلِّ شيءٍ: ما يُتَقَوَّىٰ بِهِ ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ تَوَّابٌ رَجَّاعٌ عن كلِّ ما يَكْرَهُ اللهُ إلىٰ ما يُحِبُّ، وقيلَ: مُسبِّحٌ مُطيعٌ(٢).

(١) قاله مجاهد. راجع تفسير الماوردي: ج ٥ ص ٨٣.
(٢) قاله ابن زيد والسدي. راجع تفسير الطبري: ج ١٠ ص ٥٦٢.

﴿يُسَبِّحْنَ﴾ حَالٌ، وٱختيرَ علىٰ «مسبِّحَاتٍ» وإنْ كانَ في معناهُ لِيَدُلَّ علىٰ حدوثِ التَّسبيحِ من الجبالِ حَالاً بَعْدَ حَالٍ. وكانَ داودُ إذا سَبَّحَ جاوَبَتْهُ الجبالُ بالتَّسبيحِ، وٱجتَمَعَتْ إليهِ الطيرُ فَسَبَّحَتْ، فَذٰلِكَ حَشْرُهَا: كلٌّ واحدٍ من الجبالِ والطَّيْرِ ﴿لَهُ﴾ لأَجْلِ داودَ، اي: لأَجْلِ تَسبيحِهِ؛ لأَنَّهَا كانَتْ تُسَبِّحُ بتَسْبيحِهِ وُضِعَ «الأَوَّاب» مَوضِعَ «المُسَبِّح» إمَّا لأنّها كانَتْ تُرَجِّعُ التَّسبيحَ، والمُرجِّعُ: رَجَّاعٌ لأَنَّهُ يَرْجِعُ إلىٰ فِعْلِهِ رجُوعاً بَعْدَ رجُوعٍ، وإمَّا لأنَّ «الأَوَّاب» وهو ٱلتَّوَّابَ يكْثِرُ الرُّجُوعَ إلىٰ مَرْضَاةِ اللهِ ويُديمُ تَسبيحَهُ وذِكْرَه، وقيلَ: الضَّميرُ في ﴿لَهُ﴾ «للهِ» أي: كُلٌّ مِن داودَ والجبالِ والطَّيْرِ للهِ مسبِّحٌ يُرجِّعُ التَّسبيح (١).

﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ﴾ قوَّيناهُ ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ﴾ وَهِيَ الزَّبُورُ وعِلْمُ الشَّرائعِ، وقيلَ: كلُّ كلامٍ وافقَ الحقَّ فَهُو حِكْمة (٢)، و ﴿فَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ فَصْلٌ بمعنىٰ: مَفْصُولٌ كـ«ضَرْبِ الأَمير»، وهو الكَلامُ البيِّنُ المُلَخَّصُ الَّذي تَبيَّنَهُ مَن يُخاطَبُ بِهِ ولا يَلْتَبِسُ عليهِ، أَو بمعنىٰ: «فَاصِلٌ» كـ«صوم» و «زور»، أي: الفَاصِلُ من الخطابِ الّذي يَفْصِلُ بين الحقِّ والبَاطِلِ، والصَّحيحِ والفَاسِدِ، وهو كَلامُهُ في القَضَايا والحكُوماتِ وتَدابِيرِ المُلْكِ. وعن عليٍّ عليه السلام: هو قَولُهُ: «البيِّنةُ علَى المُدَّعي واليَمينُ عَلَى المدَّعىٰ عليه» (٣)، وهو من الفَصْلِ بين الحقِّ والباطلِ، ويَدخُلُ فيهِ قَولُ بَعضِهِم: هو قَولُهُ: «أَمَّا بَعْد».

﴿وَهَلْ أَتَـٰكَ نَبَؤُاْ ٱلْخَصْمِ﴾ ظاهِرُهُ الاستفهامُ، وَمَعْنَاهُ: الدَّلالةُ علىٰ أنَّهُ من الأنباءِ العَجِيبَةِ الّتي حَقُّها أن لا تُخفَىٰ، والخَصْمُ: الخُصَمَاءُ، وهُوَ يَقَعُ علَى الواحِدِ

(١) قاله الجبائي. راجع التبيان: ج ٨ ص ٥٥٠.
(٢) حكاه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٨٠.
(٣) رواه عنه عليه السلام الزمخشري في الكشّاف.

والجَمْعِ كالضَّيفِ؛ لأنَّهُ مصدرٌ في الأَصْلِ، أي: فَريقانِ خَصيمَانِ، ومثلُهُ قَولُهُ: ﴿هَـٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟﴾ (١)، وٱنتصَبَ ﴿إِذْ﴾ بمَحْذُوفٍ تَقديرُهُ: وَهَلْ آتاكَ نَبأَ تَحَاكُمِ الخَصْمِ حينَ ﴿تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ﴾ أي: تَصَعَّدُوا سُورَهُ ونَزَلُوا إليهِ، والسُّورُ: الحائِطُ المُرتَفِعُ، ونَظيرُهُ: «تسنَّمَهُ» إذَا عَلَا سنَامَهُ، و «تَفرَّعَهُ» إذَا فَرَعَهُ.

﴿إِذْ دَخَلُوا۟﴾ بَدَلٌ من ﴿إِذْ﴾ الأُولىٰ، ﴿خَصْمَانِ﴾ خَبَرُ مبتدأ محذوفٍ أي: نَحْنُ خَصْمَانِ ﴿وَلَا تُشْطِطْ﴾ أي: ولا تَجُرْ، قَالَ:

أَلَا يا لَقَوْمي قَدْ أَشَطَّتْ عَواذلي (٢)

﴿أخي﴾ بَدَلٌ من ﴿هَـٰذَآ﴾ أو خبر لـ﴿إِنَّ﴾، والمُرادُ أُخوَّةُ الدِّينِ أو أُخوَّةُ الصَّداقَةِ والأُلْفةِ والخلْطَةِ ﴿أَكْفِلْنِيهَا﴾ وملِّكْنيها، وحقيقتُهُ: اجْعَلْني أَكْفُلُهَا كَمَا أَكْفُلُ ما تَحتَ يدي ﴿وعَزَّنِى﴾ أي: غَلَبَني في مُخَاطبةِ الحِجَاجِ والجِدَالِ، أو أَرادَ: خَطَبْتُ المرأةَ وخَطَبَهَا هُوَ، فَخَاطَبَني خطَاباً أي: غَالَبَني في الخُطْبَةِ فَغَلَبَني حيثُ زَوَّجَهَا دوني، وعلىٰ هذا فيكونُ «النَّعجَةُ» مستَعَارةً من المرأة، كما ٱستُعِيرَ لَهَا «الشَّاة» في نَحْوِ قولِهِ:

يا شاةَ مَا قَنَصٍ لِمَنْ حَلَّتْ لَهُ حَرُمَتْ عَلَيَّ وَلَيْتَهَا لَمْ تَحْرُمِ (٣)

﴿لَقَد ظَلَمَكَ﴾ جَوابُ قَسَمٍ محذُوفٍ، و «سُؤَالُ» مَصدرٌ مضَافٌ إلَى المفعولِ، كقَولِهِ: مِنْ دُعاءِ الخَيْرِ، وقد ضُمِّنَ معنَى الإِضَافةِ فعُدِّي تَعدِيَتُهَا، كأَنَّهُ قَالَ: «بإِضَافَةِ نَعْجَتِكَ إلىٰ نِعَاجِهِ» علىٰ وَجْهِ السُّؤالِ والطَّلَبِ. وَمَا في قَولِهِ: ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ الإِبْهامُ، وفيهِ تَعَجُّبٌ من قِلَّتِهِم ﴿وَظَنَّ دَاوودُ﴾ لمَّا كانَ غَلَبَةُ الظَّنِّ كالعِلْمِ استُعيرَتْ

(١) الحجّ: ١٩.

(٢) وعجزه: ويَزعُمْنَ أَنْ أَوْدىٰ بحقِّي باطِلي. والبيت منسوب للأحوص. انظر الكامل للمبرّد: ج ١ ص ١٠٩.

(٣) البيت لعنترة بن شدّاد من معلّقته المشهورة أُنظر ديوان عنترة: ص ١٧.

لَهُ، أي: وَعَلِمَ داودُ وأيْقَنَ ﴿أَنَّمَا فَتَنَّـهُ﴾ أي: ٱختَبَرْنَاهُ وٱبتَلَيْنَاهُ لا مَحَالةَ بـامرأةِ أُوريا، قيلَ: إنَّ أهلَ زَمانِ داودَ كانُوا قد ٱعتَادوا أَن يَنْزِلَ بعضُهُم لبعضٍ عن امرأتِهِ إذا أَعْجَبَتْهُ، فاتَّفق أنَّ عَيْنَ داودَ وَقَعَتْ علىٰ امرأةِ رَجُلٍ يقالُ له: أُوريا فأعَجَبَتْهُ، فسأَلَهُ النُزُولَ له عنها، فاستَحْيَا أَن يردَّهُ فَفَعَلَ، فَتَزَوَّجَها، فقيلَ لَـهُ: إنَّكَ عـلىٰ(١) ٱرتفاعِ منزلتِكَ وكثْرةِ نسائِكَ لَمْ يكنْ يَنْبغي لكَ أَن تسألَ رجلاً ليس لَهُ إلَّا امرأةٌ واحدةٌ النزولَ عَنْها(٢). وقيلَ: خَطَبَهَا أُوريا ثمَّ خَطَبَهَا داودُ فَآثَرَهُ أَهلُها(٣).

وَرُوِيَ عن أَميرِ المؤمنينَ عليه السلام: أنَّه قَالَ: «لا أُوتَىٰ برجلٍ يَزْعمُ أنَّ داودَ تزوَّجَ امرأةَ أُوريا إلَّا جَلَدْتُهُ حَدَّيْنِ: حدّاً للنبوَّةِ وحدّاً للإسلام»(٤).

ورُوِيَ: أنَّ التَّحَاكُمَ كانَ بين مَلَكيْنِ(٥)، وقيلَ: كَانَا من الإِنْسِ، وكانَتِ الخُصُومَةُ علَى الحقيقةِ بينَهُما: إمَّا كَانَا خَليطَيْنِ في الغَنَمِ، وإمَّا كان أَحَدُهُمَا مُوسِراً ولَهُ نسْوانٌ كثيرةٌ من السَّراري والمَهَائر، والثَّاني مُعْسِراً مالَهُ إلَّا امرأةٌ واحدةٌ فاستَنْزَلَهُ عنها(٦)، وإنَّما فَزِعَ لدخُولِهِمَا عليهِ في غيرِ وَقْتِ الحكومةِ أن يكُونَا مُغْتالَيْنِ، وإنَّما عُوتِبَ علىٰ عَجَلَتِهِ في الحُكْمِ قَبْلَ تثبّتٍ، وكان من حَقِّهِ حينَ سَمعَ الدَّعوىٰ من أحَدِهما أَن يسأَلَ الآخَرَ عندَهُ فيها. وعن مُجَاهدٍ: مَكَثَ سَاجِداً أربعينَ يوماً لا يَرفَعُ رأْسَهُ إلَّا لصلاةٍ مكتُوبةٍ، أو لِحَاجَةٍ لابدَّ منها(٧)، وقد يُعبَّرُ عن السُّجودِ بالرُّكُوع.

---

(١) في بعض النسخ: «مع» بدل «علىٰ».

(٢) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٨٠.

(٣) حكاه الزمخشري في الكشّاف: ص ٨١.

(٤) رواه الشيخ الطوسي في التبيان: ج ٨ ص ٥٥٥، والماوردي البصري في تفسيره: ج ٥ ص ٨٩ باختلافٍ فيهما.

(٥) وهو المشهور بين جمهور المفسّرين، وفي العيون: ج ١ ص ١٥٤ ح ١ عن الرضا عليه السلام.

(٦) حكاه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٨٨.

(٧) حكاه عنه الطبري في تفسيره: ج ١٠ ص ٥٧٤.

﴿يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ(٢٦) وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَـٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ(٢٧) أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ(٢٨) كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ مُبَـٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَـٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ(٢٩)﴾

أي: ﴿جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً﴾ ممَّنْ كانَ قَبلكَ من الأنبياءِ، أَو: استَخْلَفْنَاكَ عَلَى المُلْكِ في الأرضِ ﴿بِمَا نَسُوا۟﴾ أي: بنسْيَانِهم ﴿يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾، أو: لَهُم عَذابٌ يَوم القيامةِ بسببِ نسْيانِهم، وهو ضَلالُهُم عن سَبيلِ ٱللهِ.

﴿بَـٰطِلًا﴾ أي: خَلْقاً باطِلًا لا لِغَرضٍ صحيحٍ وحِكْمةٍ بالغةٍ، أو: مبطِلينَ عَابثِينَ ذَوي بَاطلٍ، أو وضَعَ ﴿بَـٰطِلًا﴾ موضِعَ «عبثاً»، كما وَضَعَ «هَنيئاً» موضِعَ المصدر وهو صفةٌ، أي: وما خَلَقْنَاهُما وما بينهما للعَبَثِ ولكن للحقِّ المبينِ، وهو أَنَّا خَلَقْنَا نفُوساً أَودَعْنَاهَا العَقْلَ والتَّمييزَ، وعرَّضْنَا للمَنافعِ العظيمةِ، بالتَّكْليفِ، وأَعْدَدْنَا لَها الجزاءَ علىٰ حَسَبِ أَعمالها ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلىٰ خَلْقِها باطلًا، والظَّنُّ بمعنَى المظْنُونِ، أي: خَلَقَها للعبثِ لا للحِكْمةِ، والغَرضُ الصَّحيحُ مظْنُونُ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، ولمَّا كانَ إنْكارُهُم للبَعْثِ مؤدِّياً إلىٰ أنَّ خَلْقَها عَبَثٌ جُعِلُوا كأنَّهم يظنُّونَ ذلك، لأنَّ الجَزاءَ هو الّذي ساقَ إليه الحكمةَ في خَلْقِ العالَمِ، فَمَنْ أَنْكرهُ فَقَد أَنْكَرَ الحكمةَ، ومَنْ أَنْكَرَ الحكمةَ في خَلْقِ العالَمِ فَقَد أَظْهَرَ أنَّهُ لا يُقَدِّرُهُ حقَّ قَدْرِهِ.

﴿أَمْ﴾ منقطعةٌ، ومعنَى الاستفهامِ فيها الإنْكارُ، والمعنىٰ: أنَّه لو بَطَلَ الجَزاءُ

لاستوَتْ عند ٱللهِ حالُ الصَّالحِ والطَّالحِ، والمُحْسنِ والمُسيءِ، ومَنْ سوَّىٰ بينَهُم لَمْ يكُنْ حكيماً.

وقُرئ: «لِتَدبَّرُوا»[1] على الخِطَابِ، وتَدبُّرُ الآياتِ: التَفكُّرُ فيها والاتّعاظِ بِمَواعِظِها، والمُبَارَكُ: الكثيرُ النَّفعِ والخَيْرِ.

﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَـٰنَ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ(٣٠) إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ ٱلصَّـٰفِنَـٰتُ ٱلْجِيَادُ(٣١) فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ(٣٢) رُدُّوهَا عَلَىَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ(٣٣) وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَـٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ(٣٤) قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ(٣٥) فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ(٣٦) وَٱلشَّيَـٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ(٣٧) وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ(٣٨) هَـٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ(٣٩) وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ(٤٠)﴾

أي: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾ هو المخْصُوصُ بالْمَدْحِ مَحذوفٌ، وعَلَّلَ كَونَهُ ممدوحاً بكونهِ أَوَّاباً رجَّاعاً إلى ٱللهِ عزَّ ٱسمُهُ في أُمورِهِ، أو مُؤَوِّباً مُرَجِّعاً لتَسبيحِهِ وتَقْديسِهِ لأنَّ كلَّ مُؤَوِّبٍ أَوَّابٌ، و ﴿ٱلصَّـٰفِنَـٰتُ﴾: الخَيلُ القائِمةُ علىٰ ثَلاثِ قَوائِم، الواضِعَةُ طَرَفَ السُّنْبكِ الرَّابعِ علَى الأرضِ ﴿الْجِيَادُ﴾ السَّريعةُ المَشْيِ، الواسعَةُ الخَطْوِ، جَمَعَ سُبحانَهُ بين وَصفَيْها المحمودَيْنِ واقفةً وجاريةً، وضَمَّنَ ﴿أَحْبَبْتُ﴾ معنىٰ فعل مُتعدٍّ بـ «عَنْ»، فكأنَّهُ قَالَ: أَنَبْتُ حُبَّ الْخَيْر عَنْ ذِكْرِ رَبِّي أَوْ: جَعَلْتُ حُبَّ الخَيْرِ مغْنِياً

(١) وهي قراءة عاصم برواية أبي بكر عنه. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٥٥٣.

عن ذِكْرِ ربِّي، والخيرُ: المالُ كما في قولِهِ: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ (١) وقولِهِ: ﴿إِن تَرَكَ خَيْراً﴾ (٢). والمالُ هنا: الخيلُ الّتي شَغَلَتْهُ، وسمَّى الخيْلَ خيْراً كأنَّهَا نَفْسُ الخَيرِ لِتعَلُّقِ الخيْرِ بهَا، كقَولِهِ عليه السلام: «الخيلُ معقودٌ بِنَواصِيهَا ٱلخَير إلىٰ يومِ القيامة» (٣).

وقَالَ عليه السلام في زَيْدِ الخَيلِ حينَ وَفَدَ عليه وأَسْلَمَ: «أَنتَ زَيدُ الخَيْرِ» (٤).

﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ الضَّميرُ للشَّمسِ أي: غَربَتْ، وهو مَجَازٌ عن تَواري المَلِكِ بحجابِهِ، ويَدُلُّ عليه مرورُ ذِكْر «العشيِّ»، ولا بُدَّ للمضْمَر من جَرْيِ ذِكْرٍ أو دليلِ ذِكْرٍ، وقيلَ: الضَّمير لـ﴿الصَّـٰفِنَـٰتِ﴾ أي: حتَّىٰ تَوارَت بحجابِ اللَّيلِ يعني: الظَّلام (٥). ﴿فَطَفِقَ مَسْحاً﴾ أي: فجَعَلَ يَمْسَحُ مَسْحاً، أي: يمسحُ بالسَّيفِ سُوقَها وأَعناقَها يعني: يُقَطِّعُها، يُقالُ: مَسَحَ علاوَتَه: إذا ضَرَبَ عُنُقَهُ، ومَسَحَ المِسْفَرُ الكتابَ إذا قَطَعَ أَطْرافَهُ بسيفهِ، وقيلَ: مَسَحَها بيدهِ ٱستحساناً لَهَا وإعْجَاباً بها ثُمَّ جَعَلَهَا مسبَّلَةً في سبيلِ الله (٦)؛ والسُّوقُ: جَمْعُ السَّاقِ، كأُسُدٍ في جَمْعِ الأَسَدِ، واتَّصلَ قَولُهُ: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾ بمحذُوفٍ تقديرُهُ: «قَالَ: ردُّوهَا عَلَيَّ»، فأُضْمِرَ ما هو جوابٌ لَهُ، كأَنَّ قَائلًا قَالَ: فماذا قَالَ سليمانُ؟ لأَنَّهُ موضِعٌ مُقْتَضٍ للسُّؤَال اقتضاءً

---

(١) العاديات: ٨. (٢) البقرة: ١٨٠.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده: ج ٢ ص ١٣ و ٢٨، ومالك في موطّئه: ج ٢ ص ٤٦٧ بالاسناد عن ابن عمر.

(٤) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٩٢. وزيد هذا هو زيد بن مهلهل بن يزيد الطائي من الشعراء الفرسان المخضرمين قال فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «إنّ فيك لخصلتين يحبّهما الله ورسوله: الأناة والحلم» أصابته الحمىٰ فمات في أثرها. أُنظر الأغاني لأبي فرج الإصفهاني: ج ٦ ص ٤٦ وما بعده.

(٥) حكاه ابن عيسىٰ كما في تفسير الماوردي: ج ٥ ص ٩٣.

(٦) قاله ابن عبّاس. راجع التبيان: ج ٨ ص ٥٦١.

ظَاهِرَاً، وهو ٱشتغالُ نبيِّ ٱللهِ بأَمرِ الدُّنيا حتَّىٰ تَفُوتَهُ الصَّلاةُ عن وَقْتِها. وقيلَ: إنَّما ذَبَحَها تَقَرُّباً إلى ٱللهِ تعالىٰ ليتصدَّقَ بلحُومِها[١]، وقيلَ: معناهُ: أَنَّهُ سَأَلَ ٱللهَ تعالىٰ أن يَردَّ الشَّمسَ عليهِ فَرَدَّها عليهِ حتَّىٰ صلَّى العَصْرَ، والهاءُ في ﴿رُدُّوهَا﴾ للشَّمس[٢].

﴿فَتَنَّا سُلَيْمَـٰنَ﴾ اختَبَرْنَاهُ وشَددنَا المحنة عليهِ، وٱختُلِفَ فـي الجَسَدِ الّذي أُلْقِيَ علىٰ كرسيِّه، فقيلَ: إنَّهُ قَالَ ذاتَ يومٍ: لأَطُوفَنَّ اللَّيلةَ علىٰ سبعينَ امرأةً، تَلِدُ كلُّ امرأةٍ منهنَّ غلاماً، يضربُ بالسَّيفِ في سبيلِ ٱللهِ، ولم يَـقُلْ إنْ شـاءَ الله، فَـطَافَ عليهنَّ فَلَمْ تحملْ منهنَّ إلَّا امرأةٌ واحدةٌ وجاءَتْ بشقِّ وَلَدٍ، فهو الجَسَدُ الَّذي أُلقِيَ علىٰ كرسيِّه[٣]. وَرُوِيَ أنَّ النبيَّ صَلَّىٰ ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ «والَّذي نفسُ محمَّدٍ بيدِهِ لَوْ قَالَ: إن شاء الله لَجَاهَدُوا في سبيل ٱللهِ فُرْسَاناً»[٤]، ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾ إلى اللهِ وفَزِعَ إلى الصَّلاةِ والدُّعاءِ علىٰ وجهِ الانقِطَاعِ إِلَى ٱللهِ سبحانَهُ، وقيلَ: إنَّهُ وُلِدَ له ابنٌ فاستَرضَعَهُ في المُزْنِ ـ وهو السَّحاب ـ إشْفَاقاً عليه من كَيْدِ الشَّيطانِ، فَلَمْ يَشْعُرْ إلَّا وقد وُضِعَ علىٰ كرسيِّهِ ميِّتاً، تنبيهاً لَهُ علىٰ أنَّ الحَذَرَ لا يَنْفَعُ من القَدَر[٥].

قدَّم الاستغفارَ علَى ٱستيهابِ المُلْكِ جَرْياً علىٰ عادةِ الأنبياءِ في تقديمِ أَمْرِ الدِّينِ عَلَىٰ أُمورِ الدُّنيا ﴿مُلْكاً لَّا يَنۢبَغِى﴾ أي: لا يَتَكوَّنُ ولا يَتَسَهَّلُ، ومعنىٰ ﴿مِنۢ بَعْدِىٓ﴾: دوني، طَلَبَ مِنْ رَبِّهِ سُبحانَهُ مُلْكاً زائِداً على المَمَالِكِ، زيادةً تَبلُغُ حـدَّ الإعْجَازِ، ليكونَ دليلاً علىٰ صحَّة نبوَّتِهِ، فذلكَ معنىٰ قَولِهِ: ﴿لَا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِـنۢ

---

(١) قاله الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٩٢.

(٢) وهو قول البغوي في تفسيره: ج ٤ ص ٦١.

(٣) قاله أنس راجع تفسير الماوردي: ج ٥ ص ٩٦.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه: ج ٣ ص ١٢٧٥ ح ١٦٥٤ وما بعده، والنسائي في سننه: ج ٧ ص ٢٥ عن أبي هريرة مرفوعاً.

(٥) قاله الشعبي كما في تفسير الماوردي: ج ٥ ص ٩٦.

بَعْدِىٓ﴾، وقيلَ: كانَ مُلْكاً عَظيماً فَخَافَ أن يُعطىٰ غَيرُهُ مثلَهُ فلا يُحافِظُ علىٰ حدودِ اللهِ فيه، كَمَا قَالَتِ الملائكةُ: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾ (١) (٢).

﴿رُخَآءً﴾ أي: لَيِّنَةً طيِّبةً لا تُزَعْزِعُ (٣)، وقيلَ: مُطِيعةٌ له (٤) ﴿تَجْرِى﴾ إلىٰ حيثُ يَشَاءُ، وقَولُهُ: ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾ معناهُ: حيثُ قَصَدَ وأَرادَ. و ﴿ٱلشَّيَـٰطِينَ﴾ عَطفٌ علىٰ ﴿ٱلرِّيحَ﴾، و ﴿كُلَّ بَنَّآءٍ﴾ بَدَلٌ من ﴿ٱلشَّيَـٰطِينَ﴾ ﴿وَءَاخَرِينَ﴾ عَطفٌ علىٰ ﴿كُلَّ﴾ داخِلٌ في حُكْمِ البَدَلِ، وهو بَدَلُ الكُلِّ من الكُلِّ. كانوا يبنونَ له ما يشَاءُ من الأبنيةِ الرَّفيعةِ، ويغُوصُونَ له في البحرِ علَى اللآلئ والجَواهرِ، فَيستخرجُونَ ما شَاءَ منها، وهو أوَّلُ من ٱستَخْرَجَ الدُّرَّ من البحرِ، وكانَ يَقْرِنُ مردةَ الشَّياطينِ بعضَهُم مع بعضٍ في القيودِ والأَغْلالِ، ويَجمعُ بينَ اثنين وثلاثة منْهُم في سلسلةٍ يُؤَدِّبُهُم إذا تَمَرَّدوا، والصَّفْدُ: القَيْدُ، وَسُمِّيَ بِهِ العَطاءُ لأنَّه ٱرتباطٌ للمُنْعَمِ عليهِ، وفرَّقُوا بين الفِعْلَيْن فقالُوا: صَفَدَهُ: قَيَّدَهُ، وأَصْفَدَهُ: أَعْطَاهُ.

هذا الذي أَعْطَيناكَ من الملْكِ والبَسْطِ ﴿عَطَآؤُنَا... بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي: جَمّاً كثيراً لا يَقْدِرُ علىٰ حَسْبِهِ وَحَصْرِهِ، أو: لا يُحَاسِبُ يوم القيامةِ علىٰ ما تُعطي وتَمنَعُ، ﴿فَامْنُنْ﴾ فَأعْطِ منه ما شِئْتَ من المنَّةِ وهي العَطَاءُ ﴿أَوْ أَمْسِكْ﴾ مُفوَّضاً إليك التَّصَرُّف فيه، أو: فامْنُنْ علىٰ مَن شِئْتَ من الشَّياطينَ بالإطْلاقِ وأَمْسِكْ مَن شِئْتَ منهم في الوثَاقِ ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ لا حِسَابَ عليكَ في ذلكَ. ﴿وإنَّ لَهُ عِندَنَا﴾ النَّعمةَ الباقيةَ في الآخرةِ، وهي الزُّلْفَةُ والقُرْبىٰ وَحُسْنُ المَآبِ.

---

(١) البقرة: ٣٠.

(٢) حكاه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٩٥.

(٣) زَعْزَعَ الشيء: اذا حرَّكه ليقلعه. (لسان العرب: مادة زعع).

(٤) قاله ابن عباس في تفسيره: ص ٣٨٢.

﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ(٤١) ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ(٤٢) وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ(٤٣) وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ(٤٤)﴾

﴿أَيُّوب﴾ عَطْفُ بيانٍ، و ﴿إِذْ﴾ بَدَلُ الاشتمالِ منْهُ، ﴿أَنِّى﴾ أي: بأنّي ﴿مَسَّنِى﴾ حكَاية لكلامِهِ الّذي نَاداهُ بِسببِهِ، ولَو لَمْ يَحْكِ لقَالَ: بأنَّهُ مَسَّهُ، وقُرئ: ﴿بِنُصْبٍ﴾ بضمِّ النُّون، وبفَتْحِ النُّونِ والصَّاد[1]، وضَمِّهَا[2]، والنُّصْبُ والنَّصَبُ: التَّعَبُ والمَشَقَّةُ، كالرَّشَدِ والرُّشْدِ، والنُّصُبُ: تَثقيلُ «نُصْبُ»، والعَذَابُ الأَليمُ يـريدُ مَرَضَهُ وما كَانَ يُقَاس فيهِ من أَنْواع الوَصَبِ. وقيلَ: النُّصْبُ: الضُّرُّ في البَدَنِ، والعَذَابُ: في ذِهَابِ الأَهلِ والمَالِ[3]، وإنَّما نَسبَهُ إلى الشَّيطان لِمَا كانَ يُوسْوسُ بهِ إليهِ من تَعظِيمِ ما نَزَلَ بهِ من البَلَاء ويُغريهِ علَى الجزَعِ، فالتَجأَ إلى ٱلله سُبحانَه في أَن يَكْفِيَهُ ذلك بِكَشْفِ البَلَاء.

﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ علىٰ تَقْديرِ القَولِ، أَي: قُلْنا لَهُ: ادفَعْ بِرِجْلِكَ الأرضَ هذَا ما تَغْتَسِلُ بِهِ[4] وتَشْربُ منه فَيبْرَأُ باطِنُكَ وظاهِرُكَ، وقيلَ: إنَّهُ نَبَعَتْ عَيْنَانِ فاغْتَسَلَ من إحْداهُما وشَربَ من الأُخرىٰ، فَذَهَبَ الدَّاءُ من ظاهِرِهِ وباطِنِهِ بـإِذْنِ ٱلله[5].

﴿رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَىٰ﴾ مفعُولٌ لَهُمَا، والمعنىٰ: أنَّ الهِبَةَ كانَتْ للرَّحمةِ لَهُ وَلتَذْكيرِ أُوْلي الأَلْبابِ، لأَنَّهُمْ إذَا سَمِعُوا بذلك رَغِبُوا في الصَّبْرِ على البَلَاء.

---

(١) قرأه عاصم الجحدري والسدي ويعقوب بن إسحاق. راجع شواذّ القرآن لابن خالويه: ص ١٣٠.

(٢) أي: «بنُصُبٍ» بضمّتين، وهي قراءة أبي جعفر المدني والحسن. راجع المصدر السابق.

(٣) قاله السدي. راجع تفسير الماوردي: ج ٥ ص ١٠١.

(٤) في نسخة: «هذا ماءٌ تغتسل به».

(٥) قاله الحسن البصري وقتادة. راجع التبيان: ج ٨ ص ٥٦٨.

﴿وَخُذْ﴾ مَعطُوفٌ علىٰ ﴿ارْكُضْ﴾، ﴿ضِغْثاً﴾ هُوَ ملءُ الكفِّ من الشَّمَارِيخ[١]، وذلكَ أنَّهُ حَلَفَ علىٰ ٱمرأَتِهِ لِقَوْلٍ أَنْكَرَهُ منها لَئِنْ عُوفي لَيَضْرِبَنَّهَا مائةَ جلدةٍ، فاضْرِبْهَا دفْعَةً واحِدَةً ﴿وَلا تَحْنَثْ﴾ في يَمينِكَ ﴿إِنَّا وَجَدْنَـٰهُ﴾ عَلمْنَاهُ ﴿صَابِراً﴾ علَى البَلَاءِ الّذي ٱبتَلَيْنَاهُ بِهِ.

﴿وَٱذْكُرْ عِبَـٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَـٰرِ(٤٥) إِنَّآ أَخْلَصْنَـٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ (٤٦) وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ(٤٧) وَٱذْكُرْ إِسْمَـٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَاٱلْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ(٤٨) هَـٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ(٤٩) جَنَّـٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ(٥٠) مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَـٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ(٥١) وَعِندَهُمْ قَـٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ(٥٢) هَـٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ(٥٣) إِنَّ هَـٰذَا لَرِزْقُنَا مَالَهُۥ مِن نَّفَادٍ(٥٤)﴾

﴿إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ عَطْفُ بيانٍ لـ﴿عِبَـٰدِنَآ﴾ ومَنْ قَرأَ «عَبْدَنَا»[٢] جَعَلَ ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾ وَحْدَهُ عَطْفُ بيانٍ، وعَطَفَ ﴿إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ علىٰ «عَبْدنَا»، ﴿أُوْلِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَـٰرِ﴾ أُوْلي الأَعمالِ الدِّينيّةِ والفِكَرِ العلميَّةِ، كَانَ ٱلّذينَ لا يَعملُونَ أَعْمالَ الآخرةِ وَلا يَتفَكَّرونَ أَفكارَ ذَوي الدِّياناتِ في حُكْمِ الزَمْنىٰ، الّذين لا يَقْدِرُونَ علىٰ إِعْمَالِ جَوَارِحِهِم، والمسلُوبي العقُولِ الّذينَ لا ٱستبصار بِهِم، والأَبْصَارُ: جَمْعُ الْبَصَرِ وهو العقلُ.

﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَـٰهُمْ﴾ جَعَلْنَاهُم لنا خَالِصِينَ ﴿بِخَالِصَةٍ﴾ بِخَصْلَةٍ خَالِصَةٍ لا شَوْبَ

(١) الشماريخ: جمع الشمراخ وهو العُثكُولُ والعِثْكَالُ: وهو ما عليه البُسْرِ من عيدان الكِبَاسَة، وهو في النخل بمنزلة العنقود في العنب، (الصحاح: مادّتي عثكل وشمرخ) وفي الفارسيّة: خوشهٔ خرما.

(٢) قرأه ابن كثير. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٥٥٤.

فيها، ثمَّ فَسَّرَهَا بـ﴿ذِكْرَى ٱلدَّارِ﴾ شَهادَةً لِذِكْرىٰ الدَّار بالخُلُوصِ والصَّفاءِ، وَأَنَّ الكُدورَةَ منتَفِيَةٌ عنها. وقُرئَ: «بخَالِصَةِ ذِكْرىٰ» على الإضافةِ[١]، والمعنىٰ: بِمَا خَلُصَ من ذِكْرَى الدَّار، علىٰ أنَّهم لا يشُوبُونَ ذِكْرَى الدَّارِ بهمٍّ آخر، إنَّما هَمُّهُمْ ذِكْرَى الدَّارِ لَا غَيْرَ، ومعنىٰ ﴿ذِكْرَى ٱلدَّارِ﴾: ذِكْرُهُم الآخِرَةَ دائماً ونسْيَانُهُم إليها ذِكْرَ الدُّنيا، أو: تَذْكيرُهُم الآخرةَ وتَرغيبُهُم فيها وتَزهيدُهُم في الدُّنيا كَمَا هو شَأْنُ الأنبياء، وقيلَ: ذِكْرَى الدَّارِ: الثَّناءُ الجَميلُ في الدُّنيا، وَلِسانُ الصِّدْقِ الّذي لَيس لِغَيْرِهِم[٢] والمعنىٰ: أَخْلَصْنَاهُم بِسَبَبِ هذه الخَصْلَةِ وبأنَّهُم من أَهْلِهَا، أو: أَخْلَصْنَاهُم بتوفيقِهِم لَهَا. ﴿لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ﴾ أي: المُخْتَارينَ من بين أبناءِ جِنْسِهِم ﴿الأَخْيَارِ﴾ جَمْعُ خَيِّرٍ أو خَيْرٍ علَى التَّخفيفِ، كأَمْواتٍ في جَمْعِ «مَيِّتٍ» أو «مَيْتٍ».

﴿وَٱلْيَسَعَ﴾ كَانَ حَرْفُ التَّعريفِ دَخَلَ على «يَسَع»، وقُرئ: «واللَّيسَع»[٣] كانَ حَرْفُ التَّعريفِ دَخَلَ علَىٰ «الْيسَع» فَيْعَلُ من «اللَّسع»، والتَّنوينُ في ﴿وَكُلٌّ﴾ عِوَضٌ عن المُضَافِ إليهِ، أي: وَكُلُّهُم من الأَخْيارِ.

﴿هَٰذَا ذِكْرٌ﴾ أي: نَوعٌ من الذِّكْرِ وهو القُرآنُ، ولمَّا أَجْرىٰ ذِكْرَ الأنبياءِ وأتمّه قَالَ: ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ﴾ كَمَا يُقَالُ: هذا بَابٌ، ثمَّ ذَكَرَ عَقيبَهُ الجنَّةَ وأَهْلَها فَقالَ: ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ﴾ أي: حُسْنَ مُنْقَلبٍ ومَرْجِعٍ، ولمَّا أَتَمَّ ذِكْرَ الجنَّةِ وأَرادَ أَن يُعَقِّبَهُ بذِكْرِ أَهلِ النَّارِ قَالَ: ﴿هَٰذَا وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ﴾، وقيلَ: معناهُ: هذا ذِكْرٌ جميلٌ وشَرفٌ يُذْكَرونَ به أبَداً[٤]. وعن ٱبن عبّاسٍ: هذا ذِكْرُ مَن مَضَىٰ من

---

(١) وهي قراءة نافع وحده. راجع المصدر السابق.

(٢) حكاه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٩٩.

(٣) أي بلامين الأُولىٰ ساكنة والثانية مفتوحة مشدّدة مع إسكان الياء، قرأه حمزة والكسائي. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٤٠٤.

(٤) حكاه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ١٠٠.

الأَنبياءِ[١]. ﴿جَنَّـٰتِ عَدْنٍ﴾ مَعْرِفَةٌ كقولِهِ: ﴿جَنَّـٰتِ عَـدْنٍ ٱلَّـتِى وَعَـدَ ٱلـرَّحْمَـٰنُ عِبَادَهُۥ﴾[٢]، وهي عَطْفُ بيانٍ لـ﴿حُسْنَ مَآبٍ﴾، و ﴿مُّفَتَّحَةً﴾ حَالٌ، والعاملُ فيها ما في ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ من معنَى الفعْلِ، وفي ﴿مُّفَتَّحَةً﴾ ضَميرُ «الجنَّات»، و ﴿الأَبْوَابُ﴾ بَدَلٌ من الضَّميرِ تقديرُهُ: مفتَّحَةٌ هي الأَبوابُ كقَولِهِم: ضَرَبَ زيدٌ اليَدَ والرِّجْلَ، وهو من بَدَلِ الاشتِمَال.

﴿أَتْرَابٌ﴾ جَمْعُ تِرْبٍ، كأَنَّهنَّ سُمِّين أتْراباً لأنَّ التُّرابَ مسَّهُنَّ في وقتٍ واحدٍ، وإنَّما جُعِلْنَ علىٰ سنٍّ واحدةٍ لأنَّ التحَابَّ بين الأَقْرانِ أَثْبَتُ، وقيلَ: هُـنّ أَتْـرابٌ لأزْواجِهِنَّ أَسنَانُهُنَّ كأَسنانِهِم[٣].

وقرئَ: ﴿تُوعَدُونَ﴾ بالتَّاء والياء[٤] ﴿لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ لأَجلِ يومِ الحسَابِ، كَمَا يقالُ: هذا ما تدَّخِرونَهُ ليومِ الحِسَابِ، أي: ليومٍ تُجزىٰ كُلُّ نَفْسٍ بما كَسَبَتْ ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ الذي ذَكَرْنَا ﴿لَرِزْقُنَا﴾ أي: عَطَاؤُنا الجاري المتّصِلُ ﴿مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾ أي: فَنَاءٍ وٱنْقِطَاع.

﴿هَـٰذَا وَإِنَّ لِلطَّـٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ(٥٥) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ(٥٦) هَـٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ(٥٧) وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ(٥٨) هَـٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُواْ ٱلنَّارِ(٥٩) قَالُواْ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ(٦٠) قَالُواْ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَـٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ(٦١) وَقَالُواْ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ(٦٢) أَتَّخَذْنَـٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ

(١) حكاه عنه الزمخشري في الكشّاف المتقدّم.

(٢) مريم: ٦١.

(٣) قاله ابن عيسىٰ. راجع تفسير الماوردي: ج ٥ ص ١٠٦.

(٤) وبالياء قرأه ابن كثير وأبو عمرو. راجع التذكرة في القراءات: ج ٢ ص ٦٤٤.

ٱلْأَبْصَـٰرُ(٦٣) إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ(٦٤) قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ(٦٥) رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّـٰرُ(٦٦)﴾

أي: الأَمرُ هذا، أو: هَذَا كَمَا ذُكِر إنَّ للَّذين طَغَوا عـلَى ٱللهِ ﴿لَشَرَّ مَـآبٍ﴾، ﴿جَهَنَّمَ﴾ عَطْفُ بيانٍ لَهُ ﴿فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ شَبَّهَ ما تَحْتَهُم من النَّـارِ بـالمِهادِ الّذي يَفْتَرِشُهُ النَّائمُ. أي: ﴿هَٰذَا﴾ حميمٌ فَلْيذُوقُوهُ، أو: العَذَابُ هذا فَلْيذُوقُوهُ ثـمَّ ٱبـتَدَأَ فقالَ: هو ﴿حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾، أو: لِيَذُوقُوا هذا ﴿فَلْيَذُوقُوهُ﴾ مِثْلُ قـولِهِ: ﴿فَـإِيَّاىَ فَارْهَبُونِ﴾ (١)، وَقُرِئَ: ﴿وَغَسَاقٌ﴾ بالتَّشديدِ والتَخفيفِ (٢) حيثُ كانَ، وهـو مـا يَغْسِقُ من صَديدِ أهلِ النارِ أي: يَسيلُ، يُقالُ: غَسَقَتِ العينُ إذا سَـالَتْ دمُـوعُها، ويقالُ: الحَميمُ يَحرقُ بِحَرِّهِ والغَسَّاقُ يَحْرِقُ بِبَرْدِه. «وَأُخَرُ» (٣) أي: ومَذُوقَاتٌ أُخَرُ من شِكل هذا المَذُوقِ، أي: مِثْلُهُ في الفَـظَاعةِ والشـدَّةِ، ﴿أَزْوَٰجٌ﴾ أي: أجـناسٌ، وقُرِئَ: ﴿وءَاخَرُ﴾ أي: وعَذَابٌ آخَرُ أو مَذُوقٌ آخَرُ، و ﴿أَزْوَٰجٌ﴾ صفةٌ لـ﴿ءَاخَـرُ﴾ لأنَّه يجوزُ أن يكُونَ ضُرُوباً أو صفةٌ للثلاثةِ وهي: ﴿حَمِيمٌ﴾ و ﴿غَسَّاقٌ﴾ و ﴿ءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ﴾.

﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ﴾ هذا جَمْعٌ كثيفٌ قد ٱقتَحَمَ مَعَكُم النَّار، أي: دَخَلَ النَّارَ في صُحْبَتِكُم، وهو حكايةُ كلامِ الطّاغينَ بعضِهِمْ لبـعضٍ أي: يـقُولُونَ هـذا،

---

(١) النحل: ٥١.

(٢) وبالتخفيف قرأه ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر وعاصم برواية أبي بكر. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٥٥٥.

(٣) الظاهر أنّ المصنّف هنا اعتمد علىٰ قراءات ضمّ الهمزة من غير مدٍّ تبعاً للـزمخشري فـي الكشاف، وهي قراءة أبي عمرو وحده وفي روايةٍ عن ابن كثير. راجع كتاب السـبعة فـي القراءات: ص ٥٥٥.

والمُرادُ بالفَوْجِ: أَتباعُهُم الَّذين اقْتَحَمُوا معهم الضَّلالةَ، فَيقْتَحمُونَ مَعَهُم النَّارَ ﴿لا مَرْحَباً بِهِم﴾ دُعَاءٌ منهم علىٰ أتْباعِهِم، أي: لا نالُوا رَحْباً وَسَعةً ﴿إِنَّهُمْ﴾ لازِمُوا ﴿ٱلنَّارِ﴾ فيقُولُ الأتباعُ: ﴿بَلْ أَنتُمْ﴾ لا اتَّسَعَتْ لكم أماكِنُكُم، أَنتُم حَمَلْتُمونا علىٰ ما أَوجَبَ لنا النَّارَ، والضَّميرُ في ﴿قَدَّمْتُمُوهُ﴾ للعذابِ، تقولُ لِمَنْ تَدْعو له: مَرْحَباً، أي: أَتَيْتَ رَحْباً من البلادِ لا ضَيِّقاً، أو: رَحَبَتْ بلادُكَ رَحْباً، ثمّ تدخل عليه «لا» في دُعاءِ السُّوءِ، و ﴿بِهِم﴾ بيانٌ للمَدْعُوِّ عليهم.

قَالَ الأتْباعُ أيضاً: ﴿رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هٰذَا فَزِدْهُ عَذَاباً ضِعْفاً﴾ أي: مُضاعَفاً، ومعناهُ: ذَا ضِعفٍ، وهو أن يزيدَ علىٰ عَذَابِهِ ضِعْفَهُ أي: مِثْلَهُ فَيصِير ضِعْفَيْنِ كقَولِهِ: ﴿رَبَّنَا ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾[1].

﴿لَا نَرَىٰ رِجَالًا﴾ يعنُونَ فُقَراءَ المؤمنينَ الَّذين لا يُؤْبَهُ بِهِم ﴿مِنَ ٱلْأَشْرَارِ﴾ الَّذين لا خَيْرَ فيهم، ولأنَّهُمْ كانُوا علىٰ خِلافِ دينِهِم فَعَدُّوهُم أَشْراراً.

وعن الباقرِ عليه السلام: «يعنُونكُم، لا يَرَونَ وٱللهِ واحِداً منكم في النَّارِ».

﴿أَتَّخَذْنَـٰهُمْ سِخْرِيًّا﴾ قُرئَ بلفظِ الإخْبارِ[2] علىٰ أنَّهُ صِفَةٌ لـ﴿رِجَالًا﴾، وبهمزةِ الاستفهامِ علىٰ أنّه إنْكارٌ علىٰ أنفسِهِم وَتأْنيبٌ لَهَا في الاستِسْخَارِ منهم، وقَولُهُ: ﴿أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ فيهِ وَجْهَانِ: أَحَدُهُما: أَن يتَّصلَ بقولِهِ: ﴿مَا لَنَا﴾ أي: ما لَنا لا نَراهُم في النَّارِ كأنَّهُم لَيسُوا فيها، بل أَزَاغَتْ عنهم أَبصَارُنَا فلا نَراهم وهُمْ فيها، والثَّاني: أَن يتَّصلَ بـ﴿أَتَّخَذْنَـٰهُمْ سِخْرِيًّا﴾ ويكُونُ ﴿أَمْ﴾ متَّصلةً بمعنىٰ: أيِّ الفِعْلَيْنِ فَعَلْنا بِهِم: الاستِسْخَارَ منهم أَم تَحْقيرَهُم وٱزدِراءَهُم، وأنَّ أَبْصَارَنا كانَتْ تَحتَقِرُهم علىٰ معنىٰ: إنْكارُ الأمرَيْنِ علىٰ أنفسِهِم، أو منقطعةً بعد مضيّ ﴿أَتَّخَذْنَـٰهُمْ

(١) الأحزاب: ٦٨.

(٢) قراه أبو عمرو وحمزة والكسائي. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٥٥٦.

سِخْرِيّاً﴾ على الخبرِ أو على الاستِفْهامِ، كَمَا يقولُ: إنَّها الإبِلُ أم شَاةٌ، و: أَزَيْدٌ عندكَ أم عندك عَمْروٌ. ويَجوزُ أيضاً أن تُقَدَّرَ همزةُ الاستفهامِ محذوفةً فِيمَنْ قَرأَ بِغَيْرِ الهمزةِ؛ لأنَّ «أم» تدلُّ عليها، فلا تَفْتَرِقُ القِراءَتانِ في المعنىٰ. ﴿إِنَّ ذٰلِكَ﴾ الّذي حكَيْنا عنهم ﴿لَحَقٌّ﴾ لابدَّ أن يتكلَّمُوا بِهِ، ثمَّ بيَّنَ بقولِهِ: ﴿تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ شَبَّهَ ما يَجْري بينهُم من التَّقاولِ بما يَجْري بين المتخَاصمينَ فَسَمَّاهُ تَخاصُماً.

﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ(٦٧) أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ(٦٨) مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ(٦٩) إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ(٧٠) إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ(٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ(٧٢) فَسَجَدَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ(٧٣) إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ(٧٤) قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ(٧٥) قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ(٧٦) قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ(٧٧) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ(٧٨) قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ(٧٩) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ(٨٠) إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ(٨١) قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ(٨٣) قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ(٨٤) لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ(٨٥) قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ(٨٦) إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَـٰلَمِينَ(٨٧) وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ(٨٨)﴾

أي: هذا الّذي أُنَبِّئُكُم بِهِ من كَوْني رَسُولاً وأنَّ ٱللهَ واحِدٌ وأَمْرُ القيامةِ نَبأٌ عَظيمٌ لا يُعْرِضُ عن مِثْلِهِ إلّاَ غَافِلٌ شَديدُ الغَفْلَةِ، وقيلَ: النَّبأُ العظيمُ هو القُرآن[1].

(١) قاله مجاهد والسدي. راجع التبيان: ج ٨ ص ٥٧٩.

﴿مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍ﴾ بكلامِ ﴿ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ﴾ وَقْتَ ٱخْتِصَامِهِم. و ﴿إِذْ قَالَ﴾ بَدَلٌ من ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾. و ﴿ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ﴾ هُم أصحابُ القِصَّةِ المذكُورةِ بَعْدُ: عن الملائكةِ وآدمَ وإبليسَ، لأنَّهم كانُوا في السَّماءِ وكانَ التَّقاولُ بينَهُم. قرئ: «إِنَّمَا»(١) بالكسرِ على الحكايةِ، أي: ما ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ﴾ هذا القَولُ، وهو أَن أَقُولَ لَكُم: ﴿إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾، وقُرئ: ﴿أنما﴾ بالفتحِ أي: لأنَّما، ومعنَاهُ: ما يُوحىٰ إِليَّ إلَّا للإِنْذَارِ، فَحَذَفَ اللَّامَ فَوَصَلَ الفِعْلَ، ويجوزُ أن يكونَ مرفُوعَ الموضعِ، أي: ما يُوحىٰ إليَّ إلَّا هذا القَولُ، وهو أَن أُنْذِرَ وأُبَلِّغَ ولا أُفَرِّطَ في ذلكَ.

﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ لِمَا تولَّيْتُ خَلْقَهُ بنفسي من غَيْرِ واسطةٍ، وذلكَ أَنَّ الإِنسانَ لمَّا كانَ يُباشِرُ أكثرَ أعمالِهِ بيدِهِ غَلَّبَ العَمَل باليدين علىٰ سائرِ الأعمالِ الَّتي بِغَيْرِها حتّىٰ قالُوا في عَمَلِ القَلْبِ: هذا ممَّا عملَتْ يَدَاكَ، وقالُوا لِمَنْ لا يَدَيْنِ له: «يَدَاكَ أَوْكَتَا وفُوكَ نَفَخَ»(٢)، ومنه قَوْلُهُ تعالىٰ: ﴿مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾(٣) ﴿وَلِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾. وقيلَ: إنَّ العَرَبَ تطلقُ لفظةَ «اليَدَيْنِ» للقدرةِ والقوَّةِ(٤)، كما قَالَ الشاعرُ:

تَحَمَّلْتُ مِنْ عَفْراءَ ما لَيسَ لي بِهِ وَلا للجِبَالِ الرَّاسِيَاتِ يَدانِ(٥)

﴿أَسْتَكْبَرْتَ﴾ أَوَرَفَعْتَ نفسَكَ فوقَ قَدْرِهَا أَمْ كُنْتَ من الّذين عَلَتْ أَقْدارُهُم عَنْ السُّجُودِ؟ ﴿فَٱخْرُجْ مِنْهَا﴾ من الجنَّةِ، وقيلَ: من السَّمٰواتِ(٦)، وقيلَ: من

---

(١) وهي قراءة أبي جعفر المدني. راجع شواذ القرآن لابن خالويه: ص ١٣١.

(٢) وأصله: أنّ رجلاً أراد أن يعبر بحراً على زقٍّ قد نفخ فيه فلم يحسن إحكامه حتىٰ اذا توسّط البحر آنحلّ وِكاؤُهُ وخرجت منه الريح فغرق، فاستغاث فقيل له ذلك، ويضرب لمن يجني علىٰ نفسه. أُنظر مجمع الأمثال للميداني: ج ٢ ص ٣٧٨.

(٣) يس: ٧١.

(٤) وهو قول علي بن عاصم. راجع تفسير الماوردي: ج ٥ ص ١١١.

(٥) لعروة بن حزام. والبيت واضح المعنىٰ، وفي النسخ: «زلفاء» والصحيح ما أثبتناه. راجع تفسير الماوردي: ج ٥ ص ١١١.

(٦) قاله الحسن البصري. راجع التبيان: ج ٨ ص ٥٨٤.

الخلْقَةِ الّتي ٱفْتَخَرْتَ بها فاسْوَدَّ وأَظْلَمَ بَعْدَ أن كانَ أَبيضَ نُورانيّاً[١].

وقُرئ: ﴿فَالْحَقُّ﴾ بالرَّفْعِ والنَّصْبِ[٢]، فَالرَّفعُ علىٰ أن يكونَ خَبَرَ مبتدأ محذُوفٍ أي: فَأَنا الحَقُّ، أو مبتدَأً محذُوفَ الخَبَرِ أي: فَالحَقُّ قَسَمِي، والنَّصْبُ علىٰ أَنَّهُ مُقْسمٌ بِهِ والتقديرُ: الحَقَّ لَأَمْلأَنَّ، نَحْوُ: اللهَ لأَفْعَلَنَّ ﴿ٱلحَقَّ أَقُولُ﴾ اعتِرَاضٌ بين المُقْسمِ بِهِ والمُقْسمِ عليهِ، والمُرادُ بالحَقِّ: إمَّا ٱسمُهُ جلَّ وعزَّ الّذي في قَولِهِ: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ هوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾[٣] أو: الحَقُّ الّذي هو نَقيضُ الباطِلِ عَظَّمَهُ اللهُ سبحانَهُ بإقْسَامِهِ بِهِ. ﴿مِنْكَ﴾ أي: من جنْسِكَ وهم الشَّياطينَ ﴿وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ من ذُرِّيَةِ آدمَ، والمعنىٰ: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ من المتبوعينَ والتَّابعينَ ﴿أَجْمَعِينَ﴾.

﴿مَآ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: عَلَى القُرآنِ ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ تُعطُونيه ﴿وَمَآ أَنَا مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ مِنَ الّذي يتَصَنَّعُونَ ويَتَحلَّوْنَ بما لَيسُوا من أَهْلِه.

وعن النبيِّ ﷺ: «للمُتَكَلِّفِ ثَلاثُ عَلامَاتٍ: يُنازِعُ مَنْ فَوقَهُ، ويَتَعاطىٰ مَا لَا يُنالُ، ويقُولُ مَا لَا يَعْلَمُ»[٤].

وَمَا ﴿هُوَ﴾ يعني القُرآنَ ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ للخَلْقِ أَجمَعِينَ. ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ﴾ خَبَرَ صِدْقِهِ وحقيقَةَ حَقِّهِ، ﴿بَعْدَ﴾ الموتِ، أو بَعْدَ ظُهُورِ أَمْرِ الدينِ وفُشُوِّ الإسلام.

✡ ✡ ✡

---

(١) حكاه الزمخشري في الكشاف: ج ٤ ص ١٠٧.

(٢) وبالنصب قرأه ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر والكسائي. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٥٥٧.

(٣) النور: ٢٥.

(٤) أخرجه البيهقي في شعب الايمان: ج ٤ ص ١٥٧ ح٤٦٤٧، والصدوق في الخصال: ص١٢١ عن أبي عبدالله عليه السلام.

سُورَةُ الزُّمَر

مكّيّةٌ[1] سوىٰ آياتٍ، وهي خَمسٌ وسبعُونَ آيةً كوفيٌّ، اثْنَتَانِ بَصْرِيٌّ. فيمَا فيهِ يختَلِفُونَ غَير الكوفيِّ: ﴿مُخْلِصاً لَّهُ ٱلدِّينَ﴾[2] الثَّاني و ﴿مُخْلِصاً لَّهُ دِينِى﴾[3] و ﴿مِنْ هَادٍ﴾[4] الثَّاني و ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾[5] أَرْبَعتُهُنَّ كوفيٌّ.

وفي حَديثِ أُبَيٍّ: «مَن قَرأَ سُورةَ الزُّمَر لَمْ يَقْطَعِ ٱللهُ رَجَاءُ، وأَعطَاهُ ثَوابَ الخائفينَ» خافوا الله[6].

وعن الصّادقِ عليه السلام: «مَنْ قَرَأَ سُورةَ الزُّمَرِ أَعْطَاهُ اللهُ شَرَفَ الدُّنيا والآخرةِ، وأَعَزَّهُ بلا مَالٍ ولا عَشِيرةٍ حتّىٰ يَهَابَهُ مَنْ يَرَاهُ، وحَرَّمَ جَسَدَهُ علَى النَّار»[7] تمامُ الخَبَر.

---

(١) قال الشيخ الطوسي في التبيان: ج ٩ ص ٣: وتسمّىٰ أيضاً سورة الغرف، وهي مكّية في قول مجاهد وقتادة والحسن، ليس فيها ناسخ ولا منسوخ، عدد آياتها خمس وسبعون آية في الكوفي، وثلاث وسبعون شامي، وسبعون حجازي وبصري.

وفي الكشّاف: ج ٤ ص ١١٠: مكّية إلّا قوله: ﴿قُلْ يَا عِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا﴾ الآية، وتسمّىٰ سورة الغرف، وهي خمس وسبعون آية، وقيل: ثنتان وسبعون آية، نزلت بعد سورة سبأ.

(٢) الآية: ١١.

(٣) الآية: ١٤.

(٤) الآية: ٣٦.

(٥) الآية: ٣٩.

(٦) ليس في نسخة: «خافوا الله».

(٧) ثواب الأعمال للصدوق: ص ١٣٩، وزاد: «ويبنىٰ له في الجنّة ألف مدينة، في كلّ مدينة ألف قصر، في كلّ قصر مائة حوراء وله مع هذا عينان تجريان، وعينان نضّاختان وعينان مدهامّتان وحور مقصورات في الخيام وذواتا افنان ومن كلّ فاكهة زوجان».

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ(١) إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ(٢) أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ(٣) لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ سُبْحَـٰنَهُۥ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ(٤) خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّـٰرُ(٥)﴾

﴿تَنْزِيلُ﴾ مُبتدأٌ أُخبرَ عَنْهُ بالظَّرفِ، أو خَبَرُ مبتدأ محذوفٍ تقديرُهُ: هذَا تَنْزِيلُ الكتابِ، والجَارُّ صلةُ ﴿تنْزيلُ﴾ كَمَا تَقُولُ: نَزَلَ من عِندِ ٱللهِ، أو غير صِلَةٍ فيكُونُ خَبَراً بعد خَبَرٍ، أو حالاً من ﴿تَنْزِيل﴾ عُمِلَ فيها معنى الإشارة.

﴿مُخْلِصاً لَّهُ ٱلْدِّينَ﴾ مِنَ الشِّرْكِ والرِّياءِ بالتَّوحيدِ وتَصْفيةِ السِّر. ﴿الْدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ مَالايَشُوبُهُ الرِّياءُ والسُّمْعَةُ، وعن قتادةَ: هو شَهادةُ أن لا إلَهَ إلَّا ٱلله[1]، وقيلَ: هو الاعتقادُ الواجِبُ من التَّوحيدِ والعَدْلِ والنُّبوّة، والعَمَلُ بموجبِ الشَّرائعِ، والبراءَةُ من كلِّ دينٍ سواها[2]. ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِنْ دُونِ ٱللهِ أَوْلِيَآءَ﴾ قائلين: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللهِ﴾ أي: ليشْفَعُوا لَنَا إليهِ، و ﴿زُلْفَىٰٓ﴾ اسمٌ أُقيمَ مَقَامَ المَصْدَرِ، وخَبَرُ ﴿الَّذينَ﴾ قولُهُ: ﴿إِنَّ ٱللهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾، والمُرادُ بِمَنْعِ الهدايةِ:

(١) حكاه عنه الطبري في تفسيره: ج ١٠ ص ٦١١.
(٢) حكاه الشيخ الطوسي في التبيان: ج ٩ ص ٥

منع اللطف تسجيلاً عليهم بأن لا لطف لهم، وأنّهم في علم الله من الهالكين، ولم يرد به الهداية إلى الإيمانِ كقولِهِ: ﴿أَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَـٰهُمْ﴾ (١) وكَذَّبَهم قولُهُمْ: إنَّ الملائكةَ بناتُ اللهِ، ولذلك عقَّبَهُ بقولِهِ: ﴿لَوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَداً﴾ أي: لَوْ أرادَ اتِّخاذَ الوَلَدِ لامْتَنَعَ ولَمْ يَصِحَّ ولَمْ يَتَأَتَّ ذلك لكونِهِ محالاً، إلَّا أن يصطفي من خَلْقِهِ بَعْضَهُم ويُقَرِّبَهُم، كَمَا يَخْتَصُّ الرَّجُلُ ولَدَهُ ويُقرِّبُهُ، ثمَّ تنزَّهَ نفسه عن اتِّخاذِ الوَلَدِ بقولِهِ: ﴿سُبْحَـٰنَهُ﴾ أي: تَنْزِيهاً لَهُ عن ذلكَ.

ثمَّ دَلَّ بخَلْقِ السَّماواتِ والأرضِ، وتَكْوِيرِ كلِّ واحدٍ من المَلَوَيْنِ (٢) علَى الآخرِ، وتَسخيرِ النَّيِّرين (٣) وجَرْيِهِما ﴿لِأَجَلٍ مسمّىً﴾، وبثَّ النَّاسَ علىٰ كثْرَتِهِم ﴿مِنْ نَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ وَخَلَقَ الأَنْعامَ علىٰ أَنَّهُ واحِدٌ لا ثانِيَ لَهُ في القِدَمِ، قَهَّارٌ لا يُغالَبُ. والتَّكويرُ: اللَّفُّ واللَّيُّ، يُقَالُ: كَارَ العِمَامَةَ على رأْسِهِ وَكَوَّرَهَا، والمعنىٰ: يُغْشِي اللَّيلَ النَّهار، يُذْهِبُ هذا ويُغشِي مَكَانَهُ هذا، فكأنَّهُ لَفَّهُ عليهِ كَمَا يُلَفُّ اللِّباسُ على اللَّابِسِ، وقيلَ: معناهُ: أَنَّ كلَّ واحدٍ مِنْهُما يُغَيِّبُ الآخرَ: إذا طَرَأَ عليه، فَشُبِّهَ بشيءٍ ظاهِرٍ لُفَّ عليهِ ما غيَّبَهُ عن النَّاظِرِ (٤).

﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ ثَمَـٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَـٰتٍ ثَلَـٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ(٦) إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن

(١) فصِّلت: ١٧.

(٢) المَلَوانِ: الليل والنهار، والواحد: مَلَىً، مقصورٌ. (الصحاح: مادة مَلَىً).

(٣) النيِّران: الشمس والقمر.

(٤) حكاه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ١١٣.

تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ(٧)* وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ(٨) أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْأَخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ(٩) قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ(١٠)﴾

أي: ﴿خَلَقَكُمْ مِّنْ نَّفْس﴾ آدمَ، وَخَلَقَ حَوَّاءَ زَوْجَهُ مِن قُصيرَاه، وعَطَفَ بـ«ثُمَّ» للدَّلالةِ علىٰ مباينةِ هذهِ الآية ـ الّتي لَم تَجرِ العادةُ بمثْلِها ـ للآيةِ الأُولىٰ الّتي هي إيجادُ الخَلْقِ الكثيرِ من نَفسٍ واحِدَةٍ في الفَضْلِ والمَزِيَّةِ، وقيلَ: أَخْرَجَ ذُرِّيَّةَ آدمَ من ظَهْرِهِ كالذَّرِّ، ثُمَّ خَلَقَ بَعْدَ ذلك حَوَّاءَ[1] ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ﴾ أي: قَضَىٰ لكُم وقَسَّمَ، لأنَّ قَضَايَاهُ وقِسَمَهُ موصُوفَةٌ بالنُّزُولِ من السَّماءِ حيثُ كَتَبَ في اللَّوحِ المحفُوظِ: كُلَّ كائنٍ يكُونُ، وقيلَ: لأنّ الحيوانَ لا يَعيشُ إلَّا بالنَّباتِ، والنَّباتُ لا يَنْبُتُ إلّا بالماءِ، وقد أَنْزَلَ الماءَ، فكأنَّهُ أَنْزَلَهَا[2] ﴿ثَمَـٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ ذَكَراً وأُنثى، من الإبلِ ومن البَقَرِ والضَّأْنِ والمَعْزِ ﴿خَلْقاً مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ حيواناً سويّاً من بعد عِظَامٍ مكسُوَّة لَحْماً من بعد عِظَامٍ عَارِيَةٍ، من بعد مُضَغٍ، من بعد عَلَقٍ، من بعد نُطَفٍ وَالظُّلُماتُ الثَلاثُ: ظُلْمَةُ البَطْنِ والرَّحْمِ والمشيمةِ ﴿ذٰلِكُمْ﴾ الّذي هـذه أفـعالُهُ هُـوَ ﴿ٱللهُ رَبُّكُـمْ... فَـأنّىٰ

(١) حكاه الشيخ الطوسي في التبيان: ج ٩ ص ٧.
(٢) حكاه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ١١٤.

تُصْرَفُونَ﴾ فكيفَ يُعْدَلُ بِكم عن عبادتِهِ إلىٰ عبادةِ غَيْرِهِ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ﴾ وعن إيمانِكُم، وأَنْتُم المحتاجُونَ إليهِ ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ بِهِ؛ رحمةً لَـهُم لأنَّهُ سَبَبُ هَلاَكِهِم ﴿وَإِن تَشْكُرُوا۟﴾ يَرْضَ الشُّكْرَ لَكُم لأَنَّهُ سَبَبُ فَوزِكُم وفَلاحِكُم، وإنَّما كَرِهَ كُفْرَكُم ورَضِيَ شُكْرَكُم لأجلِ نَفْعِكُم وَصَلاحِكُم، لا لِمَنْفَعةٍ راجعةٍ إليهِ، والهاءُ في ﴿يَرْضَهُ﴾ ضَميرُ «الشُّكْرِ» الّذي دَلَّ عليهِ ﴿إِن تَشْكُرُوا۟﴾.

﴿مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ راجِعاً إليهِ وحدَهُ لا يَرجُو سِوَاهُ ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ﴾ أي: أَعْطَاهُ، وأَصلُهُ: جَعَلَهُ خَائِلَ مالٍ وخَالَ مالٍ، وهو أن يكُونَ متعهِّداً لَهُ حُسْنَ القيامِ بِهِ، أو: جَعَلَهُ يَخُولُ أي: يختالُ ويَفْتَخِرُ، ومنْهُ المَثَلُ: «الغنيُّ طـويلُ ٱلذَّيـلِ مـيَّاسٌ»[1] ﴿نَسِيَ﴾ الضُّرَّ الَّذي ﴿كَانَ يَدْعُوٓا۟﴾ اللهَ إلىٰ كَشْفِهِ، وقيلَ معناهُ: نَسِيَ ربَّهُ الَّذي كانَ يَتَضَرَّعُ إليهِ[2]، و ﴿مَا﴾ بـمعنىٰ «مَـنْ»، كَـمَا فـي قـولِهِ: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾[3]، وقُرِئَ: ﴿لِيُضِلَّ﴾ بفَتْحِ الياءِ[4] وضَمِّها، يعني: أنَّ نتيجةَ جَـعْلِهِ للهِ أَنْداداً ضَلالُهُ عن سبيل ٱللهِ أو إضْلالُهُ، والنَّتيجةُ قد يكُونُ غَرَضاً في الفـعلِ وقـد يكُونُ غيْرَ غرَضٍ، ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلنَّارِ﴾ أَمْرٌ في مَعْنَى الخَبَرِ، كقَولِهِ: «إذا لَمْ تَستَحِ فاصنَعْ ما شِئْتَ»[5] كأنَّهُ قيلَ لَهُ: إذْ قد أَبَـيْتَ قـبولَ ما أُمِرْتَ به من الإيمانِ، فَمِنْ حَقِّكَ أن لا تُؤْمَرُ به بعدَ ذلكَ، وتؤْمَرُ بِتَرْكِهِ مـبالغةً في خذْلانِهِ وتَخْلِيَتِهِ وشَأْنِه.

---

(١) أي صاحب المال والغنىٰ لا يستطيع أن يكتم غناه عن الآخرين لأنّه يظهر في جميع أفعاله وخصوصاً في مشيته. والميّاس: المتبختر المختال في مشيته. راجع مجمع الأمثال للميداني: ج ١ ص ٣٦.

(٢) حكاه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ١١٦.

(٣) اللّيل: ٣.

(٤) قرأه ابن كثير وأبو عمرو. راجع العنوان في القراءات لابن خلف: ص ١٦٥.

(٥) أخرجه البغدادي في تاريخه: ج ١٢ ص١٣٦، وابن كثير في البداية والنهاية: ج ١٢ ص ٥٤.

قُرِئ: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ﴾ بالتَّخفيفِ والهمزةِللاستفهامِ[١]، وبالتَّشديدِ علىٰ إدْخَالِ «أَمْ» علىٰ «مَنْ» والتَّقديرُ: أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ كَغَيْرِهِ، فَ﴿مَنْ﴾ مبتدأٌ محذُوفُ الخبَرِ لدلالةِ الكَلَامِ عليهِ، وهو جَرْيُ ذكْرِ الكافرِ قَبلَهُ، وقولُهُ بَعدَهُ: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾، وَقيلَ: معناهُ: أَهَذَا أَفْضَلُ أَمْ مَنْ هُوَ قانِتٌ؟ أَو: أَمَّنْ هُوَ قانِتٌ أَفضلُ أَمْ مَنْ هُوَ كَافر[٢]؟ ﴿آنَاءَ ٱلَّيْلِ﴾ ساعاتُهُ ﴿سَاجِداً وَقَآئِماً﴾ يَسْجدُ تَارةً للصَّلاةِ ويقُومُ أُخرىٰ، يُرِيدُ صَلاةَ اللَّيل والقُنُوتَ في الوِتْرِ وهو دعاءُ المُصَلِّي قَائِمَاً، وفي الحديثِ: «أفضلُ الصَّلاةِ طُولُ القُنُوتِ»[٣]. وأراد بالَّذين يَعلَمُونَ: العاملينَ من عُلماءِ الدِّينِ، كأَنَّهُ جَعَلَ مَن لا يَعْمَلُ بعلْمِهِ غَيْرَ عَالِمٍ، أَو يُريدُ: لا يَسْتَوي القانِتُونَ وغَيْرُهُم كَمَا لا يَستَوي العالِمُونَ والجَاهِلُونَ.

وعن الصَّادقِ عليه السلام: «نَحْنُ ﴿الَّذِينَ يعلَمُونَ﴾، وَعَدُوُّنا ﴿الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ وشيعتُنَا ﴿أُولُواْ ٱلأَلْبَـٰبِ﴾[٤]».

قَولُهُ: ﴿فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنيَا﴾ يَتَعَلَّقَ بـ﴿أَحْسَنُواْ﴾ لا بـ﴿حَسَنَةٌ﴾، والمعنىٰ: الَّذين أَحْسَنُوا في هذه الدُّنيا فَلَهُم حَسَنَةٌ في الآخرةِ، وهي دُخُولِ الجنَّةِ، أي: حَسَنَةٌ لا يُحاطُ بكُنْهِهَا، وقيلَ: يَتَعَلَّقُ بـ﴿حَسَنَةٌ﴾ أي: لَهُم علىٰ ذلكَ حَسَنَةٌ في هذه الدُّنيا وهي الثَّناءُ الحَسَنُ والمَدْحُ والصِّحةُ والعافيةُ والرِّزْقُ الواسِع[٥] ﴿وَأَرْضُ ٱللهِ وَٰسِعَةٌ﴾ معناهُ: لا عُذْرَ للمُفَرِّطينَ في الإِحسَانِ حتَّىٰ إنِ اعتلُّوا بأَنَّهم لا يَتَمَكَّنُونَ منه في أَوْطانِهم قيلَ لَهُم: فَأَرْضُ اللهِ واسعةٌ، وبِلَادُهُ كثيرةٌ، فَتَحَوَّلُوا إلىٰ بلادٍ أُخَرَ،

---

(١) قرأه ابن كثير ونافع وحمزة. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٥٦١.
(٢) حكاه الزجّاج في معانيه: ج ٤ ص ٣٤٧.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه: ج ١ ص ٥٢٠ ح ٧٥٦.
(٤) رواه في الكافي: ج ٨ ص ٧٣٥ ضمن ح ٦ باسناده عن أبي بصير.
(٥) قاله السدي ومقاتل. راجع تفسير الطبري: ج ١٠ ص ٦٢٢.

واْقتَدُوا بالأنبياءِ وخيارِ المؤمنينَ في مهاجَرَتِهِم إلىٰ غيرِ بلادِهِم ليَزْدادُوا إحسَاناً إلىٰ إحسانِهِم ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم﴾ ثوابَهم علىٰ طاعتِهم وصَبرِهِم على الشَّدائدِ ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ لكثرتِهِ لا يمكنُ عدُّهُ وحسَابُهُ. وعن ٱبنِ عبَّاسٍ: لا يَهتَدي إليه حِسَابُ الحُسَّاب (١).

وعن الصَّادقِ عليه السلام أنَّهُ قَالَ: قَالَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم: «إذا نُشرَتِ الدَّواوينُ ونُصِبَتِ المَوازينُ لَمْ يُنْصَبْ لأهلِ البلاءِ مِيزَانٌ ولَمْ يُنْشَرْ لَهُم دِيوَانٌ» وتَلَا هذه الآية (٢).

﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ(١١) وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ(١٢) قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ(١٣) قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِى(١٤) فَاعْبُدُواْ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ(١٥) لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ يَٰعِبَادِ فَاتَّقُونِ(١٦) وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ(١٧) ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ(١٨) أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ(١٩) لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ(٢٠)﴾

أي: ﴿أُمِرْتُ﴾ بإخلاصِ الدِّينِ للهِ ﴿وأُمِرْتُ﴾ بذلكَ ﴿لأنْ أَكُونَ أوَّلَ

(١) حكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ١١٨.

(٢) رواه العياشي في تفسيره كما في مجمع البيان: ج ٨ ص ٤٩٢.

﴿ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أي: سابقَهُم ومقدَّمَهُم في الدُّنيا والآخرةِ، والمعنىٰ: أنَّ الإِخْلاصَ لَـهُ السَّبقَةُ في الدِّينِ، فَمَنْ أَخْلَصَ كانَ سَابِقاً.

وكرَّرَ في قَولِهِ: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِى﴾ لأنَّ الأوَّلَ للإِخْبارِ بأَنَّهُ مأْمُورٌ بالعبادَةِ والإِخْلاصِ، والثّاني: للإِخْبارِ بأَنَّهُ يَخُصُّ اللهَ بعبادتِهِ مخْلِصاً له دينَهُ، ولذلك قَدَّمَ المعبودَ علىٰ فِعْلِ العبادةِ وأَخَّرَهُ في الأوَّل، فالكلامُ أوَّلاً في الفِعْلِ نَفْسِهِ، وثانياً فيمَنْ يَفْعَلُ الفِعْلَ لأجلِهِ، ولذلك رَتَّبَ عليهِ قَولَهُ: ﴿فَاعْبُدُواْ مَا شِئْتُمْ مِنْ دونه﴾، ﴿قل إنّ﴾ الكاملين في الخسران هم ﴿الّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بأنّ قذفوها في الجحيم ﴿وَ﴾ خسروا ﴿أَهْلِيهِمْ﴾ الّذين أعدّوا لهم في جنّة النعيم، ثُمّ ذكر أنّ خسرانهم بلغ الغاية في قوله: ﴿ألا ذلك هو الخسران المبين﴾ بأن صدّر الجملة بحرف التنبيه، ووسّط الفصل بين المبتدأ والخبر، وعرّف الخسران ووصفه بالمبين.

﴿لهم مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ﴾ جَمْعُ ظُلَّةٍ وهي السُّتْرَةُ العاليةُ أَي: أَطْباقٌ من النّار ﴿وَمِن تَحتِهِمْ﴾ أَطْباقٌ وهي ﴿ظُلَلٌ﴾ للآخرينَ، لأنَّ النّارَ أَدْرَاكٌ ﴿ذٰلِكَ﴾ الّذي وُصِفَ من العَذابِ ﴿يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ﴾ ليَتَّقُوا عَذابَهُ بامتثالِ أَوامِرِهِ ﴿يَـٰعِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾ فَقَدْ أَلْزَمتكُم الحُجَّة.

و ﴿ٱلطَّـٰغُوت﴾ تُطلَقُ علَى الشَّيطانِ والشَّياطينِ لكونِها مصدَراً، والمُرادُ بها هنا الجَمْعُ، ﴿أَنْ يَعْبُدُوهَا﴾ بَدَلٌ من ﴿الطَّـٰغُوت﴾ وهو بَدَلُ الاشتِمَالِ، وأرادَ بعبَادِهِ: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَولَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ الّذِينَ ٱجْتَنَبُوا الطّاغُوتَ وأَنَابُوا لا غيرُهُم، فَوَضَعَ الظّاهرَ مَوضِعَ المُضْمَر، أَرادَ: أَنَّهُمْ نُقّادٌ في الدِّينِ، يُمِيِّزُونَ بينَ الْحَسَنِ والأحْسَنِ، وَيَدْخُلُ تحتَهُ المذاهِبُ وٱختيارُ أَثْبتِهَا وأَقْواها.

التَّقديرُ: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ﴾هُ تُخَلِّصُهُ من ﴿ٱلنَّـارِ﴾ فَوَضَعَ الظّاهِرَ مَوضِعَ المُضْمَرِ، وقيلَ: إنَّ الوَقْفَ علىٰ كَلِمة ﴿العَذَابِ﴾ أي: أَفَهُوَ

كَمَنْ وَجَبَتْ له الجنَّةُ، ثمَّ ٱبتَدَأَ: ﴿أَفَأَنْتَ تُنقِذُ﴾[١]. والمُرادُ بكلمةِ «العَذَاب» قَولُهُ: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ الآيةُ، ومعناهُ: أنَّك لا تَقْدِرُ علىٰ إدْخالِ الإسلامِ في قُلوبِهِم قَسْراً.

﴿لَهُمْ غُرَفٌ﴾ أي: عَلَالِيّ، بعضُهَا فوقَ بعضٍ ﴿وَعْدَ ٱللهِ﴾ مَصدَرٌ مؤكَّدٌ، لأنَّ قَولَهُ: ﴿لَهُمْ غُرَفٌ﴾ في معنىٰ: وَعَدَهُم ٱللهُ ذلكَ.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَـٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَـٰمًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ(٢١) أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ فَوَيْلٌ لِّلْقَـٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ(٢٢) ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَـٰبًا مُّتَشَـٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ(٢٣) أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَقِيلَ لِلظَّـٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ(٢٤) كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ(٢٥)﴾

﴿فَسَلَكَهُۥ﴾ أي: فأَدْخَلَ ذلك الماءَ ﴿يَنَـٰبِيعَ﴾ يَنْبَعُ مِنْها المَاءُ ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ مِثْلَ العيونِ والأنْهارِ والقَنىٰ ﴿زَرْعاً مُّخْتَلِفاً أَلْوَٰنُهُۥ﴾ أي: صنُوفُهُ من البُرِّ والشَّعيرِ والأَرُزِّ ونَحوِهَا، وقيلَ: أَلْوانُهُ من أَخْضَرَ وأَصْفَرَ وأبْيضَ وأَحْمرَ[٢] ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ أي: يَجِفُّ ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَـٰماً﴾ أي: رُفَاتاً مُتَفَتِّتاً ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ لَتذْكيراً ﴿لِأُو۟لِى﴾ العقولِ السَّليمةِ في معرفةِ الصَّانِعِ المُحْدِثِ للعَالَم.

---

(١) قاله الزجَّاج في معاني القرآن: ج ٤ ص ٣٤٩ ـ ٣٥٠.

(٢) قاله البغوي في تفسيره: ج ٤ ص ٧٥.

﴿أَفَمَنْ﴾ عرفَ ٱللهُ أَنَّهُ من أهلِ اللُّطْفِ فَلَطُفَ بهِ حتَّى ٱنشَرَحَ صَدرُهُ للإسلامِ وقَبِلَه كَمَنْ لا لُطفَ بهِ، فهو حَرِجُ الصَّدْرِ قَاسي القَلْب، ونُورُ اللهِ لُطْفُهُ، وهو نَظيرُ ﴿أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ﴾ في حَذْفِ الخبرِ في ذِكْرِ اللهِ، أي: من أجلِ ذِكْرِ اللهِ، أي: إذا ذُكِرَ ٱللهُ وآياتُهُ عندَهُم ٱشمَأَزُّوا وٱزدَادَتْ قلوبُهُم قَسْوةً.

﴿كِتَـٰباً﴾ بَدَلٌ من ﴿أحسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ أَو حالٌ منْهُ، ﴿مُّتَشَـٰبِهًا﴾ هو مطلقٌ في مُشَابَهَةِ بعضِهِ بَعضاً، فيتناولُ تَشَابُهَ مَعانيهِ في الصِّحَّةِ والإحكامِ ومَنْفَعةِ الأَنَامِ، وتَشَابُهَ أَلفَاظِهِ في التَّنَاسبِ والتَّناصف في التَّخيُّرِ والإصابةِ وتَجاربِ النَّظْمِ والتَّأليفِ في الإعْجَازِ ﴿مَّثَانِيَ﴾ جَمْعُ مَثْنَىً، بمعنى المردَّدِ والمكرَّرِ لِمَا ثُنِّيَ من قَصَصِهِ وأحكامِهِ ومواعظِهِ، وقيلَ: لأَنَّهُ مَثْنَىً في التِّلاوةِ فلا يُمَلُّ[(١)]، كما جاءَ في وَصْفِهِ: «لا يَتْفَهُ ولا يَتَشَانُّ»[(٢)] «ولا يَخْلَقُ على كَثْرَةِ الرَّدِّ»[(٣)]، وإنَّما وَصَفَ الواحِدَ بالجَمْعِ لأنَّ الكتابَ جملةٌ ذَات تَفَاصِيل، وتَفَاصيلُ الشَّيء هي جُملَتُهُ لا غَيْرَ. ويجوزُ أن يكُونَ «المثانِي» مَنْصُوباً على التَّمييزِ من ﴿مُّتَشَـٰبِهاً﴾ كما تقُولُ: رأيتُ رجُلًا حَسَناً شَمَائلَ، والمعنىٰ: متشَابِهةً مَثَانِيَةً، والفائدةُ في التَّكريرِ والتَّثنيةِ أنَّ النُّفُوسَ تَنْفِرُ عن النَّصيحةِ والمواعظِ، فَمَا لَمْ يُكرَّرْ عليها عَوْداً بعدَ بدْءٍ لَمْ يَرسَخْ فيها ﴿تَقْشَعِرُّ﴾ أي: تَتَقَبَّضُ ﴿مِنْهُ﴾ جُلُودُهُم تَقبُّضاً شَديداً، يُقالُ: اقْشَعَرَّ جلدُهُ من الخَوفِ: وَقَفَ شَعْرُهُ، ومعنَاهُ: أنَّهم إذا سَمِعُوا القُرآنَ وآياتِ الوعيدِ فيهِ أَصَابَتْهُم خشيةٌ شديدةٌ، ثمَّ إذا ذَكَروا اللهَ ورحمتَهُ وَسِعَةَ مَغْفرتِهِ لَانَتْ جُلُودُهُم، وضَمَّن

(١) قاله ابن عيسىٰ. راجع تفسير الماوردي: ج ٥ ص ١٢٣.

(٢) وهو من حديث ابن مسعود في وصف القرآن. راجع النهاية لابن الأثير: ج ١ ص ١٩٢ مادة «تفه» أي: لا يصير حقيراً ولا ييبس فيغدو عديم الفائدة.

(٣) وهو من حديث أميرالمؤمنين عليه السلام في وصف كتاب الله المروي في النهج: ص ٢١٩ خطبة (١٥٦) ضبط صبحي الصالح.

«لانَ» معنىٰ فعل متعدٍّ بـ«إلى»، فكأنَّهُ قالَ: سَكَنَتْ أَوِ ٱطمَأَنَّتْ إلىٰ ذِكْرِ اللهِ، ليِّنةً غيْر متقبِّضةٍ، راجيةً غير خائفةٍ، وٱقتصَرَ علىٰ ذِكْرِ اللهِ من غيْرِ ذِكْرِ الرَّحمةِ، لأنَّ رحمتهُ سَبَقَتْ غضَبَهُ، فأَصْلُ أَمرِهِ الرَّحمَةُ والرَّأْفةُ، فكأنَّـهُ قـالَ: إذا ذكـروا اللهَ ـ ومبنىٰ أَمْرِهِ علَى الرَّحمةِ والرَّأْفةِ ـ استبدلُوا بالخشيةِ رَجاءً في قُلُوبِهِم وبالقَشْعَريرةِ لِيناً في جُلُودِهِم ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى الكتابِ وهو ﴿هُدَى ٱللَّهِ﴾ يوفِّق ﴿مَن يَشَآءُ﴾ من عبادِهِ المتَّقينَ حتَّىٰ يَخْشَوا تلكَ الخشية ويَرجوا ذلكَ الرَّجاء، أو: ذلكَ الكائِن من الخشيةِ والرَّجاءِ هُدَى اللهِ أي: أَثَر هُدَاهُ وهو لُطْفُهُ. فسمَّاهُ: «هدًى» لأنَّهُ حاصِلُ بالْهُدَىٰ، يَهدي بهذا الأثَرِ مَنْ يشاءُ من عبادِهِ، يعني: مَـن صَـحِبَ أُولئكَ ورآهُـم خائفينَ وراجينَ ٱقْتَدىٰ بسيرتِهِم ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ أي: مَنْ لَمْ يُؤثِّرْ فيه لُطْفُ اللهِ لقسوةِ قلبِهِ ﴿فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ أي: مؤثِّرٍ فيه.

﴿أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ كَمَن أَمِنَ العَذَابَ، فَحُذِفَ الخَـبَرُ، يُـقالُ: اتَّقاهُ بِتُرْسِهِ: استَقْبَلَهُ فَوَقىٰ بها نفسَهُ إيَّاه. والمعنىٰ: أنَّ الإنسـانَ إذا لَـقِيَ مـخُوفاً استَقْبَلَهُ بيدِهِ وطَلَبَ أَن يَقِيَ بها وَجْهَهُ لأنَّهُ أعزُّ أعضائِهِ عليه، والَّذي يُلْقىٰ في النَّارِ مغلُولاً يَداهُ إلىٰ عُنُقِهِ لا يَتهيَّأُ لَه أن يَتَّقِيَ النَّارَ إلَّا بِوَجْهِهِ الَّذي كان يَتَّقِي المخاوفَ بغيرِهِ وقَايةً لَهُ، وقيلَ: المُرادُ بالوَجْهِ الجُمْلَةُ(١) ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ من الجهةِ الَّتي لا يحتَسِبُونَ، ولا يَخْطُرُ ببالِهِم أنَّ الشَّرَّ يأْتيهِم منها.

﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ(٢٦) وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ(٢٧) قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ(٢٨) ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَـٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا

(١) حكاه الزمخشري: في الكشّاف: ج ٤ ص ١٢٥ .

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ(٢٩) إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ(٣٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ(٣١)﴾

﴿قُرْءاناً عَرَبِيّاً﴾ حَالٌ مؤكِّدةٌ كَمَا يُقالُ: جاءَني زَيْدٌ رَجُلًا صَالِحاً، أو ينْتَصِبُ على المَدْحِ ﴿غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾ أي: مُستقيماً بَريئاً من التَّناقُض والاختلافِ، والعِوَجُ مخصُوصٌ بالمَعَاني دونَ الأَعيانِ

أي: رجلًا مملُوكاً قد ٱشترَكَ فيه شُرَكَاءٌ بينَهُم ٱختلافٌ وتَنَازعٌ، كلُّ وَاحِدٍ مِنْهُم يدَّعِي أنَّه عَبْدُهُ فَيَتَعَاوَرُونَهُ في خِدْمَتِهِم ﴿وَرَجُلًا﴾ آخَرَ قَد سَلمَ لمالكٍ واحدٍ وخَلُصَ لَهُ، فهو معتمدٌ عليهِ فيما يُصْلِحُهُ، فهمُّه واحِدٌ: أيُّ هذينِ العبدَيْنِ أَحْسَنُ حَالًا وأَصْلَحُ أمراً. والمرادُ بذلكَ تَمثيلُ حَالِ مَنْ يُثْبِتُ آلهةً شتَّىٰ، وما يُلْزِمُهُ علىٰ قضيَّةِ مذهبِهِ من أن يدَّعي كلُّ واحدٍ منهم عبوديَّتَهُ ويَتَشَاكسُوا في ذلك ويَتَغَالبُوا، ويبقىٰ هو متحيِّراً ضائِعَاً لا يدري أيَّهم يَعْبُدُ وعلىٰ أيِّهم يعتَمِدُ، وحالِ مَنْ لَمْ يُثْبِت إلَّا إلٰهاً واحداً فهو قَائِمٌ بمَا كَلَّفَهُ، عَارِفٌ بمَا أَرْضَاه وأَسْخَطَهُ، و﴿فيهِ﴾ تَعَلَّقَ بـ﴿شُرَكَآء﴾، كأَنَّهُ قَالَ: اشتَركوا فيهِ، والتَّشاكُسُ والتَّشَاخُسُ: الاختلافُ، يقَالُ: تَشَاكَسَتْ أَحوالُهُ وتَشَاخَسَتْ أَسنانُهُ، والسَّالمُ: الخَالِصُ، وقُرئَ: ﴿سَلَماً﴾ وَ «سِلْماً»(١) وهُمَا مَصدَرَانِ، يُقَالُ: سَلِمَ سَلَماً وَسَلْماً وسَلَامةً، والمعنىٰ: ذا سَلَامَةٍ لرَجُلٍ، أي: ذا خُلُوصٍ لَهُ من الشِّرْكَةِ مِنْ قَولِهِم: سَلِمَتْ لَهُ الضَّيعةُ.

﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ أي: صِفَةً منصوبٌ على التَّمييزِ، والمعنىٰ: هَلْ يستَوي صِفَتَاهُمَا وحَالاهُمَا ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي: يَجِبُ أَن يكُونَ الحَمْدُ موجَّهاً إلى اللهِ الَّذي لا شَريكَ له وَحْدَهُ دونَ كلِّ معبودٍ سِوَاهُ ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فَيشركُونَ بِهِ غَيْرَهُ.

---

(١) وهي قراءة ابن كثير والبصريان (أبي عمرو ويعقوب) راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٦٤٧.

أي: إنَّكَ وإيَّاهم وإنْ كنتمْ أحياءً فأنْتم في عدادِ الموتىٰ، لأنَّ ما هُو كائِنٌ فَكَأَنَّ قَد كَانَ. ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ﴾ أي: إنَّكَ وإيَّاهُم، فَغَلَّبَ ضَميرَ المخاطَبِ علىٰ ضَميرِ الغَيْبِ ﴿تَخْتَصِمُونَ﴾ فَتَحْتَجُّ أَنْتَ عليهِم بأَنَّكَ قَد بَلَّغْتَ فَكَذَّبُوا.

وعن عبد ٱللهِ بن عُمَرَ: لَقَدْ عشْنَا بُرْهَةً من الدَّهْرِ ونحنُ نرىٰ أنَّ هذه الآيَةَ فِينَا وفي أَهلِ الكتابِ، وقُلْنَا: كَيْفَ نَخْتَصِمُ ونَبيُّنا واحدٌ وكِتَابُنَا واحدٌ، حتَّىٰ رَأيْتُ بعضَنَا يضرِبُ وجُوهَ بعضٍ بالسَّيفِ، فَعَرفْتُ أَنَّهَا فِينَا نَزَلَت[1].

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ(٣٢) وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ(٣٣) لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ(٣٤) لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ(٣٥) أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ(٣٦) وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ(٣٧) وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ(٣٨) قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ(٣٩) مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ(٤٠)﴾

﴿كَذَبَ عَلَى ٱللهِ﴾ بِزَعْمِهِ أَنَّ لَهُ وَلَداً وشَرِيكاً ﴿وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ﴾ و[2]

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك: ج ٤ ص ٥٧٢.

(٢) ليس في نسخة: الواو.

بالقُرآنِ والتَّوحيدِ، ثمَّ هدَّدَ مَنْ هذه صفتُهُ بأنَّ في جهنَّمَ مَثْواهُ، والاستفهامُ للتَّقْرير.

﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ﴾ وصَدَّقَ بِهِ هُوَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ جاءَ بالحَقِّ وآمَنَ بِهِ وأرادَ بِهِ إيَّاهُ ومَنْ تَبِعَهُ، كَمَا أَرادَ بمُوسىٰ إيَّاهُ ومَنْ تبعَهُ في قولِهِ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾[1] ولذلكَ قَالَ: ﴿أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾، إلَّا أنَّ هذا في الصِّفَةِ وذاكَ في الاسمِ ويجوزُ أن يُريدَ الفريقَ الَّذي جَاءَ بالصِّدقِ وصَدَّقَ بِهِ، وَهُمْ الرَّسُولُ والَّذينَ صَدَّقُوا به من المؤْمنينَ.

و﴿أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ﴾ هو الشِّرْك والمَعَاصي الَّتي عَملُوها قَبْلَ إيمانِهِم، و﴿أَحْسَنِ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ هُوَ المَفْروضُ والمندوبُ إليهِ من أعمالِهِم، فإنَّ المُبَاحَ يُوصَفُ بالحُسْنِ أيضاً.

﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ وهو رسُولُ ٱللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ. وقُرِئَ: «عِبَادَهُ»[2] وهم الأَنْبياءُ. وقُرِئَ: ﴿كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦ﴾ و ﴿مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ﴾ بالتَّنوينِ[3] على الأَصْلِ، وبالإِضافةِ على التَّخفيفِ، وأَنَّثهُنَّ بعدَ التَّذكيرِ في قولِهِ: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ لِيُضعِّفَهُنَّ ويُعْجِزَهُنَّ، زيادةَ تَضْعيفٍ وتَعْجيزٍ عَمَّ طَالَبَهُم بِهِ من كَشْفِ الضُّرِّ وإمْسَاكِ الرَّحمةِ، لأنَّ الأُنوثَةَ من بابِ اللِّينِ والرَّخاوةِ، كما أَنَّ الذُّكُورةَ من بابِ الشِّدَّةِ والصَّلابةِ، فكأنَّهُ قَالَ: الإِنَاثُ اللَّاتي هُنَّ اللاَّتُ وَالْعُزَّىٰ وَمَنَاةُ أَضْعَفُ مِمَّا تَدعُونَهُ لَهُنَّ وَأَعْجَزُ.

﴿اعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ عَلَىٰ حالَتِكُمْ الَّتي أَنْتُم عَلَيْهَا وَجِهتِكُم من العَدَاوةِ الَّتي تَمَكَّنْتُم مِنْها، والمَكَانَةُ بمعنَى المَكانِ، فاستُعِيرَتْ عن العَيْنِ للمعنىٰ كما

---

(١) المؤمنون: ٤٩.

(٢) قرأه حمزة والكسائي. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٦٤٨.

(٣) قرأه أبو عمرو وعاصم برواية أبي بكر عنه. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٥٦٢.

يُستَعارُ: «هُنَا» و «حَيْثُ» للزَّمانِ وهُمَا للمَكانِ، وحقُّ الكلام: فإنِّي عَامِلٌ علىٰ مكانتي، فَحُذِفَ للاختِصَارِ. و ﴿يُخْزِيهِ﴾ صِفَةٌ لـ﴿عَذَابٌ﴾ أي: عَذَابٌ مُخزٍ لَهُ، وهو يَومُ بَدْرٍ ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ دائمٌ يوم القيامة.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنتَ عَلَيهِم بِوَكِيلٍ(٤١) ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ(٤٢) أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ(٤٣) قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَـٰعَةُ جَمِيعًا لَّهُ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ(٤٤) وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْأَخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ(٤٥)﴾

﴿ٱلْكِتَـٰبَ﴾ القرآن ﴿لِلنَّاسِ﴾ لجميعِ النَّاسِ ولأَجلِ حاجَتِهم إليهِ.

﴿اللهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ بأَنْ يَسْلُبَها ما هي به حَيَّةٌ حَسَّاسَةٌ درَّاكَةٌ مِنْ صِحَّةِ أَجْزائِها وسَلَامتِها ﴿وَ﴾ يَتوفَّى الأَنْفُسَ ﴿ٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾ أي: يَتوفَّاهَا حينَ تَنَامُ تَشْبيهاً للنَّائمينَ بالمَوتىٰ حيثُ لا يُميِّزُونَ ولا يَتَصرَّفُونَ، كما أنَّ الموتىٰ كذلكَ ﴿فَيُمسِكُ﴾ الأَنْفُسَ ﴿ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا المَوْتَ﴾ الحقيقيّ، أي: لا يَرُدُّهَا في وَقْتِها حيَّةً ﴿وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ النَّائِمَةَ ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ إلىٰ وَقْتِ ضَرْبِهِ وَسَمَّاهُ لِمَوْتِها.

﴿أَمِ﴾ منقَطِعَةٌ، أي: بَلِ ٱتَّخَذَ قُريشٌ، وَالهمزةُ للإِنْكارِ ﴿مِن دُونِ ٱللهِ﴾ من دونِ إذْنِهِ حَيثُ قَالُوا: ﴿هَؤُلَآءِ شُفَعَـٰٓؤُنَا عِندَ ٱللهِ﴾ [1] ولا يَشْفَعُ عندَهُ أَحَدٌ إلَّا بإِذْنِهِ

(١) يونس: ١٨.

﴿أَوَلَوْ كَانُواْ﴾ معناهُ: أَيَشفعُونَ وَلَوْ كانُواْ ﴿لَا يَمْلِكُونَ شَيْئاً﴾ ولا عَقْلَ لَهُم؟! ﴿قُلْ لِلَّهِ ٱلشَّفَـٰعَةُ جَمِيعاً﴾ فلا يَمْلِكُها أَحَدٌ إِلَّا بتَمْليكِهِ.

﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ﴾ يدورُ المعنىٰ عَلَىٰ «وَحْدَهُ» والمعنىٰ: إذا أُفْرِدَ اللهُ عزَّ ٱسمُهُ بالذِّكْرِ وَوُحِّدَ اشْمَأَزُّوا، أي: نَفَرُوا وتَقَبَّضُوا، وإذا ذُكِرَ مَعَهُ آلهتُهُم استَبشَروا، فَقَابَلَ الاشمِئْزازَ وهو أن يَمْتَلِئَ القَلبُ غمّاً وغَيْظاً حتَّىٰ يَظْهَرَ الانقباضُ في الوجْهِ بالاستبْشَارِ وهو أَن يَمْتَلِئَ القَلبُ سُروراً حتَّىٰ تَنْبسِطَ لَهُ بَشرَةُ الوَجْهِ، والعامِلُ في ﴿إِذَا ذُكِرَ﴾ المفاجَأَةُ، وتَقْديرُهُ: وَقْتُ ذِكْرِ الَّذينَ مِنْ دُونِهِ فاجَؤُوا وَقْتَ الاستبشَار.

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَـٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ(٤٦) وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَافِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْاْ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَالَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ(٤٧) وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ(٤٨) فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَـٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ(٤٩) قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ(٥٠) فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ هَـٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ(٥١)﴾

أَمَرَ اللهُ سُبحانَهُ نبيَّهُ عليه السلام أن يُحاكِمَهُم إليهِ ليفعلَ بِهِم ما يستَحقُّونَهُ، فقالَ لَهُ: ادْعُ بهذا الدُّعاءِ، أي: أَنْتَ تَقْدِرُ على الحُكْمِ بيني وبينَهُم، وفيهِ بشَارةٌ له بالنَّصْرِ والظَّفَرِ، لأنَّه إنَّما أَمَرَهُ بِهِ للإجابةِ لا مَحَال.

وعن سعيدِ بن المسيَّبِ: إنِّي لأَعْرِفُ مَوْضِعَ آيةٍ لَمْ يَقرأها أَحَدٌ قطّ فَسَأَلَ اللهَ تعالىٰ شيئاً إلَّا أَعْطَاهُ وقَرَأَ الآية[1].

---

(١) حكاه عنه الماوردي في تفسيره: ج ٥ ص ١٣٠.

﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ وَعيدٌ لا يُحَاطُ بكُنْهِهِ، ونَظيرُهُ في الوَعْدِ قَولُهُ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِىَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ (١).

وعن محمَّدِ بنِ المنْكَدرِ أنَّهُ جَزِعَ عندَ موتِهِ، فقيلَ له في ذلكَ فقالَ: أخشى آيةً من كتابِ ٱللهِ وتَلَاها، ثُمَّ قَالَ: أَخشىٰ أن يبدو لي من ٱلله ما لَمْ أَحْتَسِب.

وعن سُفيانٍ الثَّوريِّ أَنَّهُ قرأَهَا فقالَ: وَيلٌ لأَهْلِ الرِّياءِ، وَيْلٌ لأهلِ الرِّياء (٢).

﴿وَبَدا لَهُمْ سَيِّئَاتُ﴾ أعمالِهِم الَّتي كَسَبُوهَا، أو: سَيِّئَاتُ كَسْبِهِم حينَ تُعْرَضُ صَحَائِفُهُم وكانَتْ خَافيةً عليهِم كقَولِهِ: ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ (٣)، أو: جَزَاءُ سَيِّئَاتِهِم من أنواعِ العَذابِ سَمَّاها سَيِّئَاتٍ كَمَا قَالَ: ﴿جَزَآءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ (٤).

﴿وَحَاقَ بِهِمْ﴾ أحَاطَ بِهِم ونَزَلَ بِهِم جَزَاءُ استهزائِهِم، يُقَالُ: خَوَّلَهُ شيئاً إذا أَعْطَاهُ علىٰ غيرِ جَزَاءٍ.

قَالَ: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي: عَلَىٰ عِلْمٍ مِنِّي بأَنِّي أُعْطِيتُهُ لِمَا فِيَّ من الفَضْلِ والاستحقاقِ، أو: علىٰ عِلْمٍ من ٱللهِ باستحقاقي فلذلك آتاني ما آتاني، أو: علىٰ عِلْمٍ مِنِّي بوجوهِ الْكَسْبِ كما قَالَ قارونُ: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ (٥) وذَكَّرَ الضَّميرَ العائِدَ إلىٰ ﴿نِعْمَة﴾ في ﴿أُوتِيتُهُ﴾ لأَنَّهُ أرادَ شيئاً من النِّعمةِ أو قِسْمَاً مِنْها، ويمكنُ أن يكُونَ «ما» في ﴿إِنَّمَآ﴾ موصُولةً لا كافَّةً، فَيرجعُ الضَّميرُ إليهِ ﴿بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ﴾ إنْكارٌ لذلكَ القَوْلِ، أي: ليس كَمَا تَقُولُ بل هي فتنةٌ أي: ٱبتلاءٌ وٱختبارٌ لَهُ أَيَشكُرُ أم يَكْفُرُ؛ ذَكَّرَ الضَّميرَ أَوَّلاً على المعنىٰ، وَأَنَّثَ هنا على اللَّفظِ، أو: لأنَّ الخبَرَ مُؤَنَّثٌ.

---

(١) السجدة: ١٧.

(٢) أُنظر الكشّاف: ج ٤ ص ١٣٣.

(٣) المجادلة: ٦.

(٤) الشورىٰ: ٤٠.

(٥) القصص: ٧٨.

والضَّميرُ في ﴿قَالَهَا﴾ راجعٌ إلىٰ قولِهِ: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ لأنَّها كلمةٌ أو جملةٌ من القَوْلِ، و ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ هم قَارونُ وقَومُهُ حيثُ قَالَ: أُوتيتهُ علىٰ عِلْمٍ عِنْدي وقَومُهُ رَاضُونَ بِهَا، فكَأنَّهم قَالُوهَا ويجوزُ أن يكُونَ فيمَنْ مَضَىٰ من الأُمَمِ قومٌ قائِلُونَ مِثْلَها فصَارَتْ وبالاً عليهِم وأَصَابَهُم جزاءُ سَيِّئاتِهِم.

﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ(٥٢) قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ(٥٣) وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ(٥٤) وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ(٥٥) أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ(٥٦) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ(٥٧) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ(٥٨) بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ(٥٩) وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ(٦٠)﴾ .

﴿يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعاً﴾ للتَّائِبِ، فإنْ مَاتَ الموحِّدُ من غير تَوبةٍ فهو في مشيئةِ ٱللهِ إنْ شاءَ عذَّبَهُ بِعَدلِه وإنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُ بِفَضْلِهِ كَمَا قَالَ: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ (١). ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ ارجعُوا إليهِ من الشِّرْكِ والمَعَاصي ﴿وَأَسْلِمُواْ لَهُ﴾ أي: انقَادُوا لَهُ بالطَّاعةِ، وقيلَ: اجعَلُوا أنفُسَكُم خَالِصَةً له (٢). ﴿أَحْسَنَ مَآ أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ هو أَن يَأْتي المأْمُورَ بِهِ وَيترُكَ المَنْهيَّ عنْهُ.

---

(١) النساء: ٤٨ و ١١٦.

(٢) قاله البغوي في تفسيره: ج ٤ ص ٨٥.

﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ﴾ أي: كَراهَةَ أَن تَقُولَ نَفْسٌ، وإنَّما نُكِّرَتْ لأَنَّ المُرادَ بها بَعضُ الأنْفُسِ، وهي نَفْسُ الكافرِ أو نَفْسٌ متميِّزةٌ من الأنْفُسِ. وقُرئ: «يَا حَسْرَتَايَ»[١] علَى الجَمْعِ بين العِوَضِ والمُعَوَّضِ عنه، وَالْجَنْبُ: الجَانِبُ، قَالُوا: فَرَّطْتُ في جَنْبِهِ وفي جَانِبِهِ أي: في حقِّهِ، قَالَ:

أَمَا تَتَّقِينَ اللهَ فِي جَنْبِ وَامِقٍ لَهُ كَبِدٌ حَرَّىٰ عَلَيْكِ تَقَطَّعُ[٢]

وهذا من بابِ الكنَايةِ، لأَنَّكَ إذا أَثْبَتَّ الأمْرَ في مكانِ الرَّجُلِ فَقَد أَثْبَتَّهُ فيهِ، قَالُوا: لِمَكانِكَ فَعَلْتُ كَذَا، أو: مِنْ جِهَتِكَ فَعَلْتُ، أي: لأَجْلِكَ. فالتَّقديرُ: فرَّطْتُ في ذاتِ ٱللهِ، ولا بدّ من تَقديرِ مُضافٍ محذوفٍ، سَواءٌ قيلَ: «في جَنْبِ ٱللهِ» أو «في ٱللهِ» فإنَّ المعنىٰ: فَرَّطْتُ في طاعةِ ٱللهِ وعبادةِ ٱللهِ ونَحوهما، و «مَا» في ﴿مَا فَرَّطتُ﴾ مَصْدَريَّةٌ. ﴿وإنْ كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّـٰخِرِينَ﴾ «إنْ» مخفَّفةٌ من الثَّقيلةِ، قالَ قَتادةُ: لَمْ يَكْفِهِ أَنْ ضَيَّعَ في طاعةِ اللهِ حتَّىٰ سَخِرَ من أَهْلِها[٣] والجُملةُ في مَوضِعِ الحالِ، فكأَنَّهُ قَالَ: فَرَّطْتُ وأَنَا سَاخِرٌ، أي: فَرَّطْتُ في حالِ سُخْرِيَتي.

﴿أو تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللهَ هَدَىٰنِي﴾ إنَّما يَقُولُ هذا تحيُّراً في أَمْرِهِ وتَعَلُّلًا بما لا يُجْدي عليهِ، كَمَا حَكَى اللهُ تعالىٰ عنْهُم تعلُّلَهُم بإغواءِ الرُّؤساءِ والشَّياطينِ، وقَولُهُ: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَـٰتِى﴾ رَدٌّ عليهِ من ٱللهِ عزَّ ٱسمُهُ، والمعنىٰ: بَلَىٰ قَدْ هُدِيْتَ بالقُرآنِ فَكَذَّبْتَ بهِ وٱستَكْبَرْتَ عنْ قبولِهِ وكَفَرْتَ بِهِ، وإنَّما صَحَّ وقُوعُ «بلىٰ» جواباً عن غيرِ المنفي لأنَّ معنىٰ قَولِهِ: ﴿لَوْ أَنَّ ٱللهَ هَدَىٰنِى﴾ ما هُدِيْتُ. ﴿كَذَبُواْ عَلَى ٱللهِ﴾ وَصَفُوهُ بما لا يَجُوزُ عليهِ، فأَضَافُوا إليه الوَلَدَ والشَّريكَ وقَالُوا: ﴿هَؤُلَآءِ شُفَعَـٰؤُنَا

(١) وهي قراءة أبي جعفر. راجع شواذ القرآن لابن خالويه: ص ١٣١ .
(٢) لجميل بثينة. من قصيدة يستعطف بها صاحبته. راجع ديوان جميل: ص ٥٢ .
(٣) حكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ١٣٨ .

عِنْدَ ٱللهِ﴾ (١) و ﴿لَوْ شَاءَ ٱلرَّحْمٰنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾ (٢) وٱللهُ أَمَرَنا بهذا، ولا يَبعُدُ عنهم مَن يَنْسِبُ فِعلَ القَبَائِحِ إلى اللهِ وَيُثْبِتُ مَعَهُ قُدَمَاءَ.

وعنِ الباقرِعليه السلام : كلُّ إمَامٍ ٱنْتحَلَ إمامةً لَيْسَتْ لَهُ من ٱللهِ فهو من أهـلِ هـذه الآيةِ، قيلَ: وإنْ كانَ علويّاً فاطميّاً؟ قَالَ: وإنْ كَانَ (٣).

وعنِ الصَّادقِعليه السلام : مَن حَدَّثَ عنَّا بِحَديثٍ فَنَحْنُ سائِلُوهُ عَنْهُ يوماً، فإنْ صَدَقَ علينا فإنَّما يَصْدِقُ على ٱللهِ وعلىٰ رَسُولِهِ، وإنْ كَذَبَ عَلَيْنَا فإنَّما يَكْذِبُ على ٱللهِ وعلىٰ رسولِهِ، لأنَّا إذا حَدَّثْنَا لا نَقُولُ: قَالَ فُلانٌ وقَالَ فُلانٌ، وإنَّما نَقُولُ: قَالَ اللهُ وَقَالَ رَسُولُهُ ثمَّ تَلَا هذه الآية (٤).

﴿وُجُوهُهُم مُسْوَدَّةٌ﴾ في موضعِ الحالِ إنْ كانَ ﴿تَرَى﴾ مـن رُؤْيـةِ البَـصَرِ، ومفعُولٌ ثَانٍ إنْ كانَ من رُؤْيةِ القَلْب.

﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ(٦١) ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ(٦٢) لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ(٦٣) قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ(٦٤) وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ(٦٥) بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ(٦٦) وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ(٦٧)﴾

(١) يونس: ١٨. (٢) الزخرف: ٢٠.

(٣) رواه الصدوق في ثواب الأعمال وعقاب الأعمال: ص ٢٥٤ ح ١، والكليني في الكافي: ج ١ ص ٣٧٢ ح ١ عن سَوْرة بن كليب.

(٤) رواه العياشي في تفسيره كما في البرهان: ج ٤ ص ٨٢.

وَقُرِئَ: «بِمَفَازَاتِهِم» عَلَى الجَمْعِ[(١)]، والمَفَازَةُ والفَوْزُ واحِدٌ، ومَن جَمَعَ فلأنَّ المَصَادِرَ قَد تُجْمَعُ إذا ٱخْتَلَفَتْ أَجْنَاسُها. وقُرِئَ: «يُنْجِي»[(٢)] و ﴿يُنَجِّى﴾، وتفسيرُ المفازَةِ قَولُهُ: ﴿لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، أو: أرادَ بِسَبَبِ مَنْجَاتِهِم وهو العَمَلُ الصَّالحُ، فقَولُهُ: ﴿لَا يَمَسُّهُم﴾ على التَّفسير الأوَّل لا مَحَلَّ له لأنَّهُ كلامٌ مستأنَفٌ، وعلى الثَّاني محلُّهُ نَصْبٌ على الحال.

﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: هو مالِكُ أَمْرِها وحَافِظُها، وهو من بابِ الكنايةِ، لأنَّ حَافِظَ الخَزَائِنِ هو الّذي يَملُكُ مقاليدَها، والمَقَاليدُ: المفاتيحُ لا واحِدَ لَهَا مِنْ لَفْظِها ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ متَّصِلٌ بقَولِهِ: ﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ﴾، وٱعترَضَ بينَهُما بأنَّهُ خَالِقُ الأشياءِ والمُهَيْمِنُ عليها، فلا يَخْفىٰ عليهِ ما يَستَحِقُّ علَى الأعمالِ من الجزَاءِ، ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ جَحَدُوا أن يَكُونَ الأَمْرُ كذلكَ ﴿أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾.

﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ﴾ منصوبٌ بـ﴿أَعْبُدُ﴾، و ﴿تَأْمُرُوٓنِّىٓ﴾ ٱعتِراضٌ، فالمعنىٰ: أَفَغَيرَ اللهِ أَعْبُدُ بأَمْرِكُم؟ وذلكَ حين قَالَ له المشركُونَ: اسْتَسْلِمْ بعضَ آلِهتِنَا نُؤْمِنْ بإلهكَ، أو: منصُوبٌ بما يَدُلُّ عليهِ جُملةُ قَولِهِ: ﴿تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ﴾ لأَنَّهُ في معنىٰ «تُعبِّدونَني وتقُولُون لي: اعبُدْ» فكذلكَ: أَفَغَيْرَ الله تَأمرونَني أن أَعبُدَ، وقُرِئَ: ﴿تَأْمُرُوٓنِّىٓ﴾ بالتَّشديدِ للإدغَامِ، وَجَازَ الإدْغَامُ لأنَّ قبل النُّونِ المدغمةِ حَرْفٌ ليِّنٌ وهو الواو، و«تَأْمُرُونَنِي» بنونين[(٣)] علَى الأصلِ، و «تَأْمُرُونِي» بحَذْفِ النُّونِ الثَّانيةِ[(٤)] لأنَّ الأُولىٰ علامةُ الرَّفْعِ، وفَتْحُ الياءِ وإسْكانُها مَعاً سَائِغٌ.

---

(١) قرأه حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٥٦٣.

(٢) وهي قراءة يعقوب. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٦٤٨.

(٣) قرأه ابن عامر. راجع التذكرة في القراءات: ج ٢ ص ٦٤٩.

(٤) وهي قراءة نافع وحده. راجع المصدر السابق.

﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾ لَئِنْ أَشْرَكْتَ ﴿وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ مثلُهُ، أو: أُوحِيَ إليكَ وإلىٰ كلِّ واحدٍ منهُم ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ﴾ كقولِهِ: وَكَسَانَا حُلَّةً أي: كُلَّ واحدٍ منَّا، واللّامُ الأُولىٰ لتوطِئَةِ القَسَمِ، والثّانية لامُ الجوابِ، وهذا الكلامُ إنَّما أَتىٰ علىٰ سَبيلِ الفرضِ، والتَّقديرُ: فإنَّ رُسُلَ ٱللهِ منزَّهونَ عن الشِّرْكِ، والمحَالُ يَصِحُّ فَرضُهُ لِغَرَضٍ فكيف ما هُوَ دونَهُ؟

﴿بَلِ ٱللهَ فَاعْبُدْ﴾ رَدٌّ لِمَا أَمَرُوهُ بِهِ من ٱستسلامِ بَعضِ آلهتِهِم كأنَّهُ قالَ: لا تَعْبُدْ ما أَمَروكَ بعبادتِهِ، بل إنْ كُنْتَ قد تثبَّتَّ فاعبُدْ اللهَ، فَحَذَفَ الشَّرْطَ وَجَعَلَ تَقديمَ المفعولِ عِوَضاً عنه.

لَمّا كانَ العظيمُ من الأشياءِ إذا عَرفَهُ الإنسانُ حَقَّ معرفَتِهِ وقَدَّرَهُ في نفسِهِ حقَّ تقديرِهِ عَظَّمَهُ حَقَّ تَعظيمِهِ، قَالَ سبحانَهُ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ بمعنىٰ: وما عَظَّمُوهُ كُنْهَ تَعظيمِهِ إذْ عَبَدُوا غَيْرَهُ وأَمَروا نبيَّه بعبادةِ غَيرِهِ، ثمَّ نَبَّهَهُم علىٰ عَظَمتِهِ علىٰ طريقِ التَّخييلِ فَقَالَ: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌ بِيَمِينِهِ﴾ وهو تَصويرٌ لجلالتِهِ وَعَظَمَةِ شَأْنِهِ لا غَيْر، من غَيْرِ أَن تَصَوَّرَ قَبْضَتُهُ بِهِنَّ، ويَمينٌ لا حقيقةً ولا مَجَازاً وأَكَّدَ «الأَرضَ» بقَولِهِ: ﴿جَمِيعاً﴾ قَبلَ مَجيءِ الخَبَرِ، ليعلمَ أنَّ الخَبَرَ لا يَقَعُ عن أَرضٍ واحدةٍ، والمعنىٰ: والأَرَضُونَ جميعاً ذَواتُ قَبضَةٍ يَقْبضُهُنَّ قبضَةً واحِدَةً، أي: أنَّها بأَجمعِهَا مَعَ عِظَمِها لا تَبْلُغُ إلَّا قبضَةً واحِدَةً من قَبضَاتِهِ، كأنَّهُ يقبضُهَا قَبْضَةً بكفٍّ واحدةٍ. قَولُهُ: ﴿مَطْوِيَّٰتٌ﴾ مِنَ الطَّيِّ الَّذي هو ضدُّ النَّشرِ، كَمَا قَالَ: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾[1] والعادَةُ أَن يُطوَىٰ السِّجلُّ باليَمينِ، وقيلَ: قَبضَتُهُ: مِلْكُهُ بلا منازعٍ، وبِيَمينِه:

---

(١) الأنبياء: ١٠٤.

بقُدرتِهِ[١]، وقيلَ: مَطْويَّاتٌ بيَمينِهِ: مفنَيَاتٌ بقَسَمِهِ[٢] وهذا قولٌ مرغُوبٌ عنه.

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ(٦٨) وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِالنَّبِيِّينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ(٦٩) وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ(٧٠) وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ(٧١) قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ(٧٢) وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ(٧٣) وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ (٧٤) وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ(٧٥)﴾

﴿صَعِقَ﴾: ماتَ بحَالٍ هائِلَةٍ ﴿إِلَّا مَنْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ هُمُ الملائكةُ الأربعةُ، وقيلَ: هُمُ الشُّهداءُ[٣] ﴿أُخْرَىٰ﴾ أي: نَفخةٌ أُخرىٰ، ويُحتَمَلُ النَّصْبُ علىٰ قراءةِ مَن قَرَأ: «نفْخَةً واحِدَةً»، وحُذِفَتْ «نفْخَة» لدلالةِ «أُخرىٰ» عليها، ولكَونِها معلُومةً بذِكْرِها في غيرِ مَكَانٍ. ﴿يَنْظُرُونَ﴾ يُقلِّبُونَ أبْصارَهُم في الجهاتِ نَظَرَ المَبْهُوتِ إذا عَرَاهُ

(١ و٢) حكاه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ١٤٤.

(٣) قاله سعيد بن جبير. راجع التبيان: ج ٩ ص ٤٦.

خَطْبٌ، وقيلَ: ينتظرُونَ ما يُفْعَلُ بِهِم[١]. ويجوزُ أن يكُونَ القيامُ بمعنَى الوقُوفِ والجُمُودِ في مَكَانٍ لِتَحَيُّرِهِم.

قد آستَعَارَ سبحانَهُ النُّورَ للحقِّ والقُرآنَ والبُرهانَ في مَواضِعَ من كتابِهِ، وهذا من ذلكَ، والمعنىٰ: ﴿وَأَشرَقَتِ ٱلأَرضُ﴾ بِمَا يقيمُهُ فيها من الحقِّ والعَدْلِ، و﴿ٱلْكِتَـٰبُ﴾: صحائِفُ الأعمالِ، وهو آسمُ الجنْسِ.

﴿زُمَراً﴾ أَفْواجاً متفرِّقةً بعضُهَا في إِثْرِ بَعضٍ ﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾ أَتَانا الرُّسُلُ وتَلَوْا علينا الآياتِ والحُجَجَ، ولكن وَجَبَتْ علينا ﴿كَلِمَةُ﴾ ربِّنا: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾[٢] بِسُوءِ أَعْمَالِنَا. ﴿مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ فَاعِلُ ﴿بِئْسَ﴾ واللَّام للجنسِ، والمخصوصُ بالذمِّ محذُوفٌ وهو «جهنَّم». ﴿حَتَّىٰ﴾ هي الَّتي يُحكَىٰ بَعدَها الجُمَلُ، والجُملةُ المحكيَّةُ الّتي بَعدَهَا هي الشَّرطيةُ، إلَّا أنّ جَزاءَهَا محذُوفٌ، وإنَّما حُذِفَ لأَنَّهُ في صِفَةِ ثَوابِ أهلِ الجنَّةِ، فَدَلَّ بِحَذْفِهِ علىٰ أنَّهُ شيء لا يُحيطُ بِهِ الوَصفُ، وموضِعُهُ بَعْدَ قَولِهِ: ﴿خَـٰلِدِينَ﴾، وقيلَ: ﴿حَتَّىٰ إذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ أي: مَعَ فَتْحِ أَبْوابِها[٣]، والمُرادُ بِسَوْقِ أهلِ النَّارِ طَرْدُهُم إليها بعُنْفٍ وإهَانَةٍ، والمُرادُ بِسَوْقِ أَهْلِ الجنَّةِ سَوْقُ مَراكِبِهِم وَحَثُّها سراعاً بِهِم إلىٰ منزلِ الكرامةِ والرِّضْوَانِ، وقيلَ: إنَّ أبوابَ جهنَّمَ لا تُفْتَحُ إلَّا عنْدَ دخُولِ أهلِها فيها، وأمَّا أبوابُ الجنَّةِ فَيُقَدَّمُ فَتْحُها بدليلِ قَولِهِ: ﴿مُفَتَّحَةً لَهُمُ ٱلأَبْوَٰبُ﴾ فَلِذلكَ جِيءَ بالواوِ، كأنَّهُ قِيلَ: وقَدْ فُتِّحَتْ أبوابُها[٤].

﴿سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ دُعَاءٌ لَهُم بالسَّلامَةِ والخُلُودِ ﴿طِبْتُمْ﴾ بِالعَمَلِ الصَّالحِ في الدُّنيا، وطَابَتْ أَعمالُكم وَزَكَتْ ﴿فَادْخُلُوهَا﴾ جَعَلَ دخُولَهُم الجنَّةَ مسبَّباً عن الطِّيبِ

---

(١) قاله البغوي في تفسيره: ج ٤ ص ٨٧. (٢) الاعراف: ١٨، هود: ١١٩.
(٣) حكاه الزجّاج في معاني القرآن: ج ٤ ص ٣٦٤.
(٤) قاله النحّاس في إعراب القرآن: ج ٤ ص ٢٣، والآية من سورة صٓ: ٥٠.

والزَّكاةِ، لأنَّهَا دارُ الطَّيِّبِينَ، طهَّرها اللهُ من كلِّ دَنَسٍ، فإنَّما يَدخُلُها مـن ٱتَّـصَفَ بصِفَتِها، ومَا أَبْعَدَ أَحوالَنا عن ٱكتسابِ هذه الصِّفةِ إلَّا أنْ يَتَغَمَّدَنا اللهُ بفضلِهِ ورحمتِهِ ﴿خَـٰلِدِينَ﴾ مقدِّرينَ الخُلُودَ.

والأرضُ عبارةٌ عن المكانِ الّذي اتَّخذُوهُ مَقَرّاً ومبوّءاً، وَأَوْرَثْنَاهَا: مَلَّكْنَاهَا، وَجَعَلَنَا مُلوكَهَا وأَطْلَقَ لَنا التَّصَرُّفَ فيها؛ تشبيهاً بحالِ الوارِثِ وتَصَرُّفِهِ فيما يَشاءُ ممَّا يَرِثُهُ.

﴿حَآفِّينَ﴾ أي: طائِفينَ ﴿مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾ محدِقِينَ بها يَذْكُرونَ اللهَ بصفاتِهِ العُلَىٰ ﴿وَقُضِىَ﴾ بينَ الخَلائِقَ بالعَدْلِ، وقيلَ: بينَ الأنبياءِ والأُمَمِ[١]، وقيلَ: بـينَ أهلِ الجنَّةِ والنَّارِ[٢] ﴿وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ علىٰ قَضَائِهِ بيننا بالحقِّ، وقيلَ: إنَّه مـن كلامِ ٱللهِ عزَّ ٱسمُهُ[٣]، وقد قَالَ من[٤] ابتداءِ الخَـلْقِ: ﴿ٱلْـحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّـذِى خَـلَقَ ٱلسَّمَوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾[٥] تعليماً لِخَلْقِهِ في ٱبتداءِ كلِّ أمرٍ بِالْحَمْدِ وخَتْمِهِ بِالْحَمْدِ.

۞ ۞ ۞

(١) قاله الكلبي. راجع تفسير الماوردي: ج ٥ ص ١٣٩.
(٢) قاله الزجَّاج في معاني القرآن: ج ٤ ص ٣٦٤.
(٣) قاله مقاتل. راجع تفسير السمرقندي: ج ٣ ص ١٥٩.
(٤) في نسخة: «في» بدل «من». (٥) الأنعام: ١.

سُورَةُ غَافِر [1]

مَكِّيَةٌ إلّا آيتَيْنِ [2]، خَمْسٌ وثَمانُونَ آيةً كُوفيٌّ، اثْنَتَانِ بَصْرِيٌّ، عَدَّ الكُوفيُّ ﴿حمٓ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [3]، ﴿يُسَبِّحُونَ﴾ [4]، ﴿كُنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ [5]، وَعَدَّ البصريُّ ﴿كَٰظِمِينَ﴾ [6].

وعن أَنسٍ عن النبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم: «الحَواميمُ دِيبَاجُ القُرآنِ» [7]

وفي حديثِ أُبيٍّ: «مَنْ قَرَأَ حمٓ المؤمِنَ لَمْ يَبْقَ رُوحُ نبيٍّ ولا صدِّيقٍ ولا مُؤْمنٍ إلَّا صَلُّوا عَلَيْهِ وٱستَغْفَرُوا لَه» [8].

---

(١) في بعض النسخ: سورة المؤمن.

(٢) قال الشيخ الطوسي في التبيان: ج ٩ ص ٥٢: مكّية في قول مجاهد وقتادة، ليس فيها ناسخ ولا منسوخ، وقال الحسن: هي مكية إلّا آيةً واحدةً وهي قوله: ﴿وسَبِّح بِحَمْدِ ربِّك بالعشيِّ والإبكار﴾ يعني بذلك صلاة الفجر والمغرب وقد ثبت أنَّ فرض الصلاة كان بالمدينة. وهي خمس وثمانون آيةً في الكوفي وأربع في المدنيّين واثنتان في البصري.

وفي الكشّاف: ج ٤ ص ١٤٨: وهي خمس وثمانون آيةً، وقيل: ثنتان وثمانون، نزلت بعد الزمر.

(٣) الآية: ١ و ٢. (٤) الآية: ٧.

(٥) الآية: ٧٣. (٦) الآية: ١٨.

(٧) أخرجه السيوطي في الدرّ المنثور: ج ٧ ص ٢٦٩ وعزاه إلى أبي الشيخ وأبي نعيم والديلمي. والحاكم في مستدركه: ج ٢ ص ٤٣٧.

(٨) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ١٨٣ مرسلاً.

وعنِ الباقرِ عليه السلام: «مَنْ قرأَ حمَ المؤمِنَ في كلِّ ليْلَةٍ ثَلاثَ مرَّاتٍ غَفَرَ ٱللهُ لَهُ ما تَقدَّمَ من ذَنْبِهِ ومَا تَأخَّرَ، وَأَلْزَمَهُ كَلِمَةَ التَقْوىٰ، وَجعَلَ الآخرةَ خَيْراً لَهُ مِنَ الدُّنيا»[١]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ(١) تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ(٢) غَافِرِ ٱلذَّنبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ(٣) مَا يُجَـٰدِلُ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَـٰدِ(٤) كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِن بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَـٰدَلُواْ بِٱلْبَـٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ(٥)﴾

قُرِئَ بإمالَةِ الألفِ من «حا» وبالتَّفْخِيمِ[٢]، و ﴿ٱلتَّوْبِ﴾ والتَّـوْبُ والأَوْبُ أَخَوَاتٌ في معنَى الرُّجُوعِ، ﴿ٱلطَّوْلِ﴾ الإنعامُ الَّذي يَطُولُ لَبثُهُ علىٰ صَاحبِهِ، وَطَالَ عليهِ وتَطَوَّلَ أي: تَفضَّلَ ﴿غَافِرِ ٱلذَّنْبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾ معرفتانِ وإضافَتُهما حقيقَة؛ لأنَّه لم يُرَدْ بهما حدُوثُ الفعْلَيْنِ في الحالِ والاستقبالِ بَلْ أُريدَ ثبوتُ ذلكَ ودَوامُهُ فَهُما صِفَتَانِ[٣]. وأمَّا ﴿شَدِيد ٱلْعِقَابِ﴾ فتقديرُهُ: شَديدُ عِقَابُهُ، وقيلَ: إنَّهُ بَدَل[٤]، والوجْهُ أَن يكُونَ صفةً وإنَّما حُذِفَ الألْفُ واللَّامُ من ﴿شَدِيد﴾ ليُوافِقَ ما قَبلَهُ وما بَعدَهُ لفظاً، وذُكِرَ بعد ﴿غافِرِ ٱلذَّنْبِ﴾ لئلَّا يَعُول المكَلَّفُ على الغُفْرانِ بـل يكـونُ مُرْجاً بين الرَّجاءِ والخَوْفِ ﴿ذِى ٱلطَّوْلِ﴾ ذي النِّعَمِ السَّابغةِ علىٰ عبادِهِ ديناً ودُنْيا.

(١) ثواب الأعمال للصدوق: ص ١٤٠، وليس فيه: «ثلاث مرّات».

(٢) قرأ أهل الكوفة إلّا حفصاً وابن ذكوان بالإمالة، والباقون بالفتح وتفخيمه من غـير امـالة. راجع التبيان: ج ٩ ص ٥٣.

(٣) وبه قال الفراء في معاني القرآن: ج ٣ ص ٥.

(٤) وهو قول الزجّاج في معاني القرآن وإعرابه: ج ٤ ص ٣٦٦.

و ﴿مَا يُجَادِلُ﴾ أي: ما يُخاصِمُ في دَفْعِ حُجَجِ ٱللهِ إلَّا الكفَّارُ ﴿فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ﴾ بالتِّجاراتِ والمَكاسِبِ ﴿فِى ٱلْبِلَادِ﴾ فإنَّ مَصيرَ ذلكَ إلى الزَّوالِ والنَّفادِ، فلا يفوتُونَ ٱللهَ علىٰ حالٍ.

ثمَّ ضَرَبَ سبحانَهُ لتكذيبِهِم بالرُّسُلِ وَجِدالِهِم بالباطلِ مثلاً ما كانَ من نَحْوِ ذلكَ من الأُممِ الماضيةِ فَقَالَ: ﴿كَذَّبَتْ قَبلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ رسُولَهُم ﴿وَالأَحْزَابُ﴾ الّذين تحزّبوا على أنبيائهم وناصبوهم وهم عادٌ وثمود وفرعون وغيرهم ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ﴾ من هذه الأُمَمِ ﴿بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ ليتَمَكَّنُوا من قَتْلِهِ وإهْلاكِهِ أَو تَعْذيبِهِ، ويُقَالُ للأسير: أَخِيذٌ ﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾ أي: قَصَدُوا أَخْذَهُ فَجَعَلْتُ جَزاءَهُم علىٰ إرادةِ أَخْذِهِ أَن أَخَذْتُهُم ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ هذا تَقريرٌ فيه معنَى التَّعَجُّب.

﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ(٦) ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَاتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ(٧) رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ(٨) وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ(٩) إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ(١٠) قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ(١١) ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُواْ فَالْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ(١٢)﴾

﴿أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ في مَحَلِّ الرَّفعِ بَدَلٌ من ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾، أي: ومثْلُ

ذلكَ الوُجُوبِ وَجَبَ على الكَفَرَةِ كونُهُم من أَصْحَابِ النَّارِ، والمعنىٰ: كَمَا وَجَبَ إهلاكُهُم في الدُّنيا بِعَذَابِ الاستئصالِ كذلكَ وَجَبَ إهلاكُهُم في الآخرة بِعَذَابِ النَّارِ، أو في مَحَلِّ النَّصْبِ علىٰ حَذْفِ لامِ التَّعليلِ وإيْصالِ الفعلِ، و ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ كفَّارُ مكَّةَ أي: كَمَا وَجَبَ إهْلاكُ أُولئِكَ الأُمَمِ كذلكَ وَجَبَ إهْلاكُ هؤلاءِ، لأنَّ علَّةً واحِدَةً تَجمَعُهُم أنَّهُم من أصحابِ النَّارِ، وقُرِئَ: «كَلِمَاتُ» على الجَمْعِ [1].

ثمَّ ذَكر سبحانَهُ بعد ذِكْرِ حالِ الكفَّارِ حالَ المؤمنين الأَبرارِ وأنَّ الملائكةَ المقرَّبينَ يمدُّونَهُم بالاستغفارِ فقَالَ: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ﴾ علىٰ عَواتِقِهِم آمتثالاً لأمرِ ٱللهِ ﴿وَمَنْ﴾ حَوْلَ العَرشِ من الملائكةِ المطيفينَ بِهِ وهم الكرُّوبيُّون وسَادَةُ الملائكةِ ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ وينزِّهُونَه عَمَّا يَصِفُهُ بهِ هؤلاء المجادِلُونَ، أو: يسبِّحُونَهُ بالتَّسبيحِ المعهودِ، أي يقولُونَ: ﴿رَبَّنَا﴾ وهذا المضمر [2] في محلِّ الرَّفعِ بياناً لـ﴿يَسْتَغْفِرُونَ﴾ أو نَصْب حالاً، ﴿وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً﴾ الرَّحمةُ والعِلْمُ هما اللَّذان وَسِعَا كلَّ شيءٍ في المعنىٰ، والأَصلُ: وَسِعَ كُلَّ شيءٍ رحمتُكَ وعِلْمُكَ، فأَسنَدَ الفعلَ إلىٰ صاحبِهما وأُخْرِجَا منصوبَيْنِ على التمييز للإغْراقِ في وَصْفِهِ بالرَّحمةِ، كأنَّ ذاتَهُ سبحانَهُ رحمةٌ وعِلمٌ واسِعَانِ كُلَّ شيءٍ ﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ﴾ عُلِمَتْ منهُم التَّوبةُ وٱتِّباعُ ﴿سَبِيلَكَ﴾ وَسَبيلُ ٱللهِ: الحقُّ الَّذي دَعَا عبادَهُ إليهِ، وفي هذا دلالةٌ علىٰ أنَّ قبولَ التَّوبةِ وإسقاطَ العقابِ عندَهَا تفضُّلٌ من ٱللهِ تعالىٰ، إذْ لو كانَ واجِباً لما ٱحتيجَ فيهِ إلى الدُّعاءِ والسُّؤال.

﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي: العقُوباتِ، سَمَّاهَا سيِّئاتٍ اتِّساعاً، أو: جَزَاءَ السَّيِّئاتِ فَحَذَفَ المُضَافَ.

---

(١) قرأه نافع وابن عامر. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٥٦٧.

(٢) في نسخة: «الضمير».

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ﴾ يوم القيامةِ فيقَالُ لَهُم: ﴿لَمَقْتُ ٱللهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ﴾ والتَّقديرُ: لَمَقْتُ اللهِ أنْفُسَكُمْ أكبرُ من مَقْتِكُم أنفسَكُم اليوم، فاستغنىٰ بذِكْرِها مرَّةً، و ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ﴾ منصوبٌ بالمَقتِ الأوَّلِ، والمعنىٰ: أنَّهُ يُقَالُ لهم يوم القيامةِ: كانَ اللهُ يمقتُ أنفسَكُم الأمَّارةَ بالسُّوءِ والكُفرَ حينَ كانَ الأنبياءُ يَدعُونَكُم إلى الإيمانِ فتَأْبونَ وتَختَارونَ عليه الكُفْرَ، أشدَّ ممَّا تَمقتُونَهُنَّ اليومَ وأنتُم في النَّارِ، إذا أَوقَعتُكُم فيها باتِّباعِكُم هَواهُنَّ، وقيلَ: معنَاهُ: لَمَقْتُ اللهِ إيَّاكُم الآن أكبرُ من مَقْتِ بعضِكُم لبعضٍ، و ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ﴾ تَعليلٌ[١]، والمَقْتُ أَشَدُّ البُغْض، فَوضِعَ في مَوضِع أَشَدِّ الإنكار.

﴿اثْنَتَيْنِ﴾ أي: إماتَتَيْنِ وإحياءتين، أو: مَوتَيْنِ وَحَياتَيْنِ أرادَ بالإماتَتَيْنِ: خَلْقَهُم أمواتاً أوَّلاً وإماتَتَهُم عِنْدَ انقضاءِ آجَالِهم، وبالإحياءَتَيْنِ: الإحيَاءَةُ الأُولىٰ وإحيَاءةُ البَعْثِ، وقيلَ: الإماتَتَانِ هُمَا: الَّتي في الدُّنيا بعد الحياةِ والَّتي في القَبرِ قَبل البَعْثِ، والإحياءَتَانِ هُمَا: الَّتي في القَبْرِ للمُسَاءَلَةِ والَّتي في البَعْثِ[٢] ﴿فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا﴾ الَّتي اقتَرفْنَاهَا في الدُّنيا ﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ﴾ أي: إلىٰ نوعٍ من الخروج ﴿مِن سَبِيلٍ﴾ قطُّ، أو: اليأسُ حَاصِلٌ دونَ ذلك فَلَا خُرُوجٌ ولا سَبيلٌ إليهِ. ﴿ذَٰلِكُم﴾ أي: ذلكم الَّذي أنتُم فيهِ وأَن لا سبيلَ لَكُم إلى الخُروجِ بوَجْهٍ من الُوجُوهِ بِسَبَبِ أنَّكُم كَفَرْتُم بالتَّوحيدِ وآمَنْتُم بالإشْراكِ ﴿فَالْحُكْمُ لِلَّهِ﴾ حَيثُ حَكَمَ عَلَيكُم بِعَذَابِ الأبَد.

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ(١٣) فَٱدْعُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ(١٤)

(١) حكاه ابن عيسىٰ كما في تفسير الماوردي: ج ٥ ص ١٤٥.
(٢) قاله السدي. راجع تفسير الطبري: ج ١١ ص ٤٥.

رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ(١٥) يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ(١٦) ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ(١٧) وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْأَزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ(١٨) يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ(١٩) وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ(٢٠)﴾

﴿آياتُهُ﴾ أي: مصنُوعَاتُهُ الدالَّةُ علىٰ كمالِ قُدرتِهِ وتَوحيدِهِ ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ﴾ ومَا يَتَفَكَّرُ في حقيقَتِها ولا يَتَّعِظُ بها ﴿إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾ أي: يرجعُ إلى ٱللهِ ويُقْبِلُ إلىٰ طَاعتِهِ، فإنَّ المُعَانِدَ لا سبيلَ إلىٰ تذكُّرِهِ واتِّعاظِهِ. ثمَّ قَالَ لِمَنْ يُنيبُ: ﴿فَادْعُواْ ٱللهَ﴾ أي: ٱعبُدُوهُ ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ من الشِرْكِ ﴿وَلَوْ كَرِهَ﴾ ذلكَ أعداؤُكُم الكُفَّارُ.

﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ﴾ ثَلاثةُ أَخْبارٍ لِقَولِه: ﴿هُوَ﴾ مترتبةٌ علىٰ قَولِهِ: ﴿ٱلَّذِى يُرِيكُمْ﴾، أَو أَخْبارُ مبتدأ محذُوفٍ، وهي مختلفةٌ تعريفاً وتنكيراً. و ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾ مثْلُ قَولِهِ: ﴿ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾ [(١)] وهي مَصَاعِدُ الملائكةِ إلىٰ أن تَبلُغَ العرش، وهي دَليلٌ علىٰ عزَّتِهِ وملكُوتِهِ، وعن سعيدِ بنِ جُبَيْرٍ: سَماءٌ فَوقَ سَماءٍ والعَرْشُ فوقَهُنَّ [(٢)]، وقيلَ: هي دَرَجَاتُ ثوابِهِ الّتي يُنْزِلُها أنبياءَهُ وأولياءَهُ في الجنَّةِ [(٣)]، وقيلَ: هو عبارةٌ عن رِفْعةِ شأْنِهِ وعلوِّ سُلطانِهِ، كَمَا أنَّ ذاتَ

---

(١) المعارج: ٣.

(٢) حكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ١٥٦.

(٣) قاله يحيىٰ بن سلّام. راجع تفسير القرطبي: ج ١٥ ص ٢٩٩.

العرشِ عبارةٌ عن مُلْكِهِ[(١)] ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ﴾ الّذي هو سَبَبُ الحياةِ للقَلْبِ ﴿مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ يُريدُ الوَحْيَ الّذي هو أَمْرٌ بالخيرِ، وقيلَ: إنَّ الرُّوحَ جبرائيلُ[(٢)] ﴿لِيُنذِرَ﴾ اللهُ أو المُلْقي عليهِ وهو الرسُولُ أو الرُّوحُ، وَقُرِئَ: «لِتُنْذِر» بالتاءِ[(٣)] لأنَّ الرُّوحَ مؤنَّثٌ، أو: على خِطَابِ النبيِّ ﷺ ﴿يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ يومَ القيامةِ لأنَّ الخَلائِقَ تلتقي فيهِ، أو: يَلتَقي فيه أهلُ السَّماءِ وأَهلُ الأَرضِ والأَوَّلُونَ والآخِرُونَ.

والمعنىٰ: أَنَّهُم كانُوا يظنُّونَ إذا ٱستَتَروا أنَّ ٱللهَ لا يَراهُم فَهُم اليومَ صَائِرُونَ من البروزِ إلىٰ حالٍ لا يتوهَّمُونَ ذلكَ ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ حِكَايةٌ لِمَا يُسْأَلُ عنهُ في ذلكَ اليوم وَلِمَا يُجَابُ بِهِ، أي: ينادي مُنَادٍ: لِمَن المُلْكُ اليومَ؟ فيُجيبُهُ أهلُ الحَشْرِ: للهِ الواحدِ القهَّارِ، أو يكُونُ المنَادي هو المُجيبُ. وَلَمَّا قرُّوا أَنَّ المُلْكَ للهِ وحدَهُ في ذلكَ اليومِ عَدَّدَ نَتَائجَ ذلكَ، وهي: أنَّ ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ تُجزَىٰ ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾ وَأَنْ ﴿لَا ظُلْمَ﴾ من أَحدٍ علىٰ أَحَدٍ، ولا يُنْقَصُ من ثَوابِ أَحَدٍ، ولا يُزادُ في عقابِ أَحَدٍ، وأنَّ الحِسَابَ لا يُبطِئ لأنَّه سبحانَهُ لا يَشْغَلُهُ حِسَابٌ عن حِسَابٍ.

و ﴿الآزِفَةِ﴾: الدانيةُ وهي القيامةُ، لأنَّ كُلَّ ما هو آتٍ قَريبٌ دَانٍ، وَ ﴿كَٰظِمِينَ﴾ نَصْبٌ على الحالِ من أصحابِ القُلُوبِ، لأنَّ المعنىٰ: إذْ قُلُوبُهُم لدىٰ حَنَاجِرِهِمْ كَاظِمينَ عليها، ويجوزُ أن يكُونَ حالاً من ﴿ٱلْقُلُوبُ﴾ وأنَّ القُلُوبَ كَاظِمَةٌ علىٰ كَرْبٍ وغَمٍّ فيها مع بُلُوغِها الحَنَاجِر، وَلَمَّا وَصَفَها بالكَظْمِ الّذي هو من أَوصافِ العُقَلاءِ جَمَعَ «كاظِم» جَمْعَ سَلَامةٍ، و ﴿يُطَاعُ﴾ مَجازٌ في الشَّفيعِ، لأنَّ الطاعةَ لا تكُونُ إلَّا لِمَنْ فَوقَكَ.

---

(١) حكاه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ١٥٦.

(٢) قاله الضحّاك. راجع تفسير الماوردي: ج ٥ ص ١٤٨.

(٣) قرأه رويس. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٦٥١.

والْخَائِنَةُ: مصدَرٌ بمعنَى الخِيَانَةِ، كالعَافيةُ بمعنَى المُعَافَاةِ، أو: صِفَةٌ للنَظْرةِ، والمُرادُ: اَستِراقُ النَظَرِ إلىٰ ما لا يَحلُّ، وقولُهُ: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلأعْيُنِ﴾ خَبرٌ من أَخْبارِ ﴿هُوَ﴾ في قولِهِ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ﴾ مِثْلُ: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ﴾ ولكنَّ قد علَّلَ سبحانَهُ ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ﴾ بقولِهِ: ﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ ثمّ اَستطرَدَ ذِكرَ أَحوالِ يوم التَّلاقِ إلىٰ قولِهِ: ﴿وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ فَبَعُدَ لذلكَ عن أَخَواتِه.

﴿وَٱللَّهُ يَقْضِى بِالْحَقِّ﴾ لاستِغْنائِهِ عنِ الظُّلْمِ ﴿وَٱلَّذِينَ يدْعُونَ﴾ قُرِئَ بالتاءِ[1] والياءِ يَعني آلِهَتَهُم ﴿لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ﴾ وهذا تَهَكُّمٌ بِهِم، لأنَّ ما لا يُوصَفُ بالقُدرةِ لا يُقَالُ فيهِ يَقْضي أو لا يَقضي.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبْلِهِمْ كَانُواْ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ(٢١) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَـٰتِ فَكَفَرُواْ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ إِنَّهُ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ(٢٢) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ(٢٣) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَقَـٰرُونَ فَقَالُواْ سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ(٢٤) فَلَمَّا جَآءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ ٱقْتُلُوٓاْ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُ وَٱسْتَحْيُواْ نِسَآءَهُمْ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ(٢٥) وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ(٢٦) وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ(٢٧)﴾

﴿هُمْ﴾ في ﴿كَانُواْ هُمْ﴾ فَصْلٌ، والفَصْلُ لا يَقعُ إلّا بينَ معرفتَيْنِ، فالوَجْهُ هنا أنَّ ﴿أَشدَّ مِنْهُمْ﴾ ضارَعَ المعرفةَ في أنّه لا يَدخُلُه الألفُ واللّامُ فأُجْرِيَ مَجْراهُ،

(١) قرأه نافع وابن عامر. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٥٦٨.

وقُرئَ: «أشدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً»[١]، والمُرادُ بالآثَارِ: حصُونُهُم وقِلاعُهُم وَعدودُهُم مـمَّا يوصَفُ بالشدَّةِ.

﴿فَقَالُوا۟﴾ هذا ﴿سَـٰحِرٌ كَـذَّابٌ﴾ فسَمُّوا السُّلطانَ المُبينَ سِحْراً وكَذِباً. ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي: بالدينِ الحقِّ، أو بالنبوَّةِ ﴿قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟﴾ عن ٱبنِ عبَّاسٍ: أي أعيدُوا عليهِم القَتْلَ كالَّذي كانَ أوَّلاً[٢] يريدُ أنَّ هذا قَتْلٌ غيرُ القَتْلِ الأوَّلِ ﴿في ضَلَـٰلٍ﴾ أي: ضَيَاعٍ وذِهَابٍ لَمْ يَجِدْ عليهِم.

﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾ فيهِ دلالةٌ علىٰ خَوفِ فِرْعَونَ من موسىٰ عليه السلام ومن دَعْوتِهِ ربَّهُ، وأنَّ قولَهُ: ﴿ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ تَمويهٌ منْهُ علىٰ قومِهِ، وإيْهامٌ أنَّـهم كـانُوا هـم المُشيرينَ عليهِ بأَنْ لا يَقْتُلهُ، وما كَانَ يكْفِهِ عن ذلكَ إلَّا ما في نفسِهِ مـن الفَـزَعِ، وقُرئَ: «وَأَنْ يَظْهرَ» بالواوِ وفَتْحِ الياءِ «الفَسَادُ» بالرَّفعِ[٣]، والمعنىٰ: إنِّي أَخَـافُ فَسَادَ دينِكُم ودُنْياكُم مَعاً.

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ إِنَّ ٱللَّـهَ لَا يَـهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ(٢٨) يَـٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَـٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا قَالَ فِـرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُـمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ(٢٩) وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَـٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ(٣٠) مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَـمُودَ وَٱلَّـذِينَ مِـن

---

(١) قرأه ابن عامر وحده. راجع المصدر السابق.

(٢) تفسير ابن عباس: ص ٣٩٥.

(٣) وهي قراءة ابن كثير وابن عامر وأبي بكر عن عاصم. راجع كتاب السبعة فـي القـراءات: ص ٥٦٨.

بَعْدِهِمْ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ(٣١) وَيَـٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ(٣٢) يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَالَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ(٣٣) وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَـٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِن بَعْدِهِۦ رَسُولاً كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ(٣٤)﴾

﴿مِنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ صِفَةٌ لـ﴿رَجُلٌ﴾ أو صِلَةٌ لـ﴿يَكْتُمُ﴾ أي: ﴿يَكْتُمُ إيمَانَهُ﴾ من آلِ فِرْعَوْنَ، وٱسمُهُ حَبيبٌ أو خَرْبيلُ[1] أو خزبيل ﴿أَنْ يَقُولَ﴾ لِأَنْ يقُول، أي: أتر تكبُونَ قَتْلَ رَجُلٍ بأَن يقُولَ الكلمةَ الصَّادقَةَ الّتي نَطَقَ بها وهي قَولُهُ: ﴿رَبِّى ٱللهُ﴾ مع أنّه أَحْضَرَ لِتَصحيحِ قَولِهِ بيِّناتٍ عدَّةٍ من عنْدَ مَن نَسَبَ إليهِ الرُّبوبيةَ وهو ربُّكم لا ربُّهُ وحدَهُ؟! استدْرَجَهُم إلى الاعترافِ بِهِ، ثمَّ ٱحتَجَّ عليهم علىٰ طريقةِ التَّقسيمِ بأَن قَالَ: لا يَخْلُو من أَنْ يَكُونَ صَادِقاً أو كَاذِباً ﴿فإنْ يَكُ كَـٰذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ﴾ أي: يَعودُ عليهِ ضَرَرُ كَذِبِهِ ﴿وَإِنْ يَكُ صَادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ ٱلّذِى يَعِدُكُمْ﴾ وفي ذلك البَعضِ هَلاكُكُم. وهذا كلامُ مَن يُنْصِفُ في مَقَالِهِ لِيُسْمَعَ منْهُ، لأنَّه حينَ فَرضَهُ صادقاً فَقَد أَثْبتَ أنَّه صادِقٌ في جميعِ ما يَعِدُ، ولكنَّه أَردَفَهُ ﴿يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ لِيُهضِمَهُ بعضَ حقِّهِ في الظَّاهِرِ، وَلِيُرِيَهُم أَنَّه ليس بكلامِ مَن يَتَعَصَّبُ لَهُ.

﴿ظَـٰهِرِيْنَ فِى ٱلأَرْضِ﴾ أي: عالِينَ في أَرضِ مِصْرَ علىٰ بني إسرائيلَ ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ أي: ما أُشيرُ عليكُم بِرَأْيٍ إلَّا بمَا أَرىٰ من قَتْلِهِ، يعني: لا أَستَصْوِبُ إلَّا قَتْلَهُ، وهذا الّذي تقُولُونَهُ غيرُ صَوَابٍ ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ﴾ بهذا الرأْيِ ﴿إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ والصَّوابِ[2] عنْدِي.

﴿مِثْلَ يَوْمِ ٱلأَحْزَابِ﴾ أي: مِثْل أيَّامِهِم، لأنَّه لمَّا أَضَافَهُ إلى الأحزابِ وفَسَّرَ

---

(١) ليس في نسخة: «خربيل».

(٢) في نسخة: «والثواب».

الأَحزابَ بقومِ نُوحٍ وعَادٍ وثَمودَ ولَمْ يَلتَبِسْ أَنَّ كلَّ حزبٍ مِنْهم كانَ لَه يَومُ دَمَارٍ، ٱقتَصَرَ على الواحدِ عن الجَمْعِ؛ لأنَّ المضافَ إليهِ أَغْنىٰ عن ذلكَ، كقَولِهِ:

كُلُوا في بعضِ بطْنِكُمْ تَعِفُّوا(١).

وَدَأْبُهُمْ: دؤُوبُهُم في عَمَلِهِم من الكفْرِ والتكْذيبِ والمَعَاصِي، وكَونُ ذلكَ دائباً دائماً منْهم لا يفترونَ عَنْه، ولابدَّ من حَذْفِ مُضَافٍ أي: «مِثْلَ جَزَاءِ دأْبِهِم» وإنَّما ٱنتصَبَ ﴿مِثْلَ﴾ الثاني بأنَّه عَطْفُ بيانٍ مثل الأوَّلِ، لأنَّ آخرَ ما تَنَاولَتْهُ الإِضَافَةُ «قومُ نُوحٍ»، ولَو قُلْتَ: «أَهْلَكَ ٱللهُ الأحزابَ قَوْمَ نُوحٍ وعَادٍ وثَمودَ» لَمْ يكُنْ إلَّا عَطْفُ بيانٍ لإِضافةِ «قَوم» إلىٰ أَعْلامٍ، فَسُرِّيَ ذلكَ الحُكْمُ إلىٰ أوَّلِ ما تَنَاولَتهُ الإِضَافَةُ ﴿وَمَا ٱللهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِّلْعِبَادِ﴾ فَتدميرُهُم كانَ عَدْلاً منْهُ إذْ ٱستَوجَبُوهُ بأَعْمالِهِم.

والتَّنَادِي: ما حَكَاهُ ٱللهُ في سورة الأَعْرافِ من قَولِهِ: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَابَ ٱلنَّارِ﴾(٢) ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ أَصْحَابَ ٱلْجَنَّةِ﴾(٣). وقيلَ: يُنادي بعضُ الظَّالمينَ بَعضاً بالوَيْلِ والثبورِ(٤)، وقيلَ: يُنَادىٰ فيهِ كلُّ أُنَاسٍ بإِمَامِهِم(٥).

﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ﴾ أي: يَومَ تُعْرِضُونَ عن النَّارِ ﴿مُدْبِرِينَ﴾ فَارِّينَ مقدِّرينَ أنَّ الفِرَارَ يَنفعُكُم.

﴿يُوسُفُ﴾ هو يُوسُفُ بنُ يَعقُوبَ، قيلَ: إنَّ فِرعَوْنَ موسىٰ هو فِرْعَوْنُ يُوسُفَ،

---

(١) وعجزه: فإنَّ زَمانَكم زمنٌ خميصُ. لم يُعلم قائله، يقول: اقتصروا على بعض ما يشبعكم، ولا تملئوا بطونكم من الطعام فينفد طعامكم، فاذا نفد احتجتم الى أن تسألوا الناس أن يُطعموكم شيئاً، لأنّ زمانكم زمن القحط والجوع. انظر خزانة الأدب للبغدادي: ج ٧ ص ٥٥٩ وما بعده.

(٢ و٣) الأعراف: ٤٤ و ٥٠.

(٤) قاله ابن جريج. راجع تفسير الماوردي: ج ٥ ص ١٥٤.

(٥) حكاه الشيخ الطوسي في التبيان: ج ٩ ص ٧٥.

عُمِّرَ إلىٰ زمنهِ[١]، وقيلَ: هو فِرعَونُ آخر[٢] ﴿كذٰلِكَ﴾ أي: مِثْلُ ذلكَ الضَّلالِ ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾ علىٰ نَفْسِهِ كافِرٌ ﴿مُرْتَابٌ﴾ شاكٌّ في التوحيدِ ونُبوَّةِ الأنبياء.

﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ(٣٥) وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ(٣٦) أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ(٣٧) وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ(٣٨) يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ(٣٩) مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ(٤٠)﴾

﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ﴾ بَدَلٌ من قولِهِ: ﴿مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾ لأنَّه في معنىٰ: كلُّ مُسْرِفٍ، وفاعِلُ ﴿كَبُرَ﴾ ضميرُ ﴿مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾ علَى اللفظِ، ويجوزُ أن يكونَ ﴿ٱلَّذِينَ يجٰدلون﴾ مبتدأ ويكونَ قولُهُ: ﴿كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ ٱللهِ﴾ علىٰ حدِّ قولِك: نِعْمَ رجُلًا زيدٌ، والمخصُوصُ بالذمِّ محذُوفٌ وهو جِدالُهُم، وتكُونُ الجملةُ خَبَرَ المبتَدأ، ولا يكُونُ «جدالُهم» فاعِلًا لـ﴿كَبُرَ﴾ فيمتنعُ حَذْفُهُ علىٰ ما ذَكَرهُ جارُ ٱلله[٣]، وقُرِئ: «قلبٍ» بالتنْوينِ[٤]، وجَازَ وَصْفُ القلبِ بالتكبُّرِ والتجبُّرِ لأنَّه مَوضِعُهُما

(١ و ٢) حكاه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ١٦٦.
(٣) الكشّاف: ج ٤ ص ١٦٧.
(٤) قرأه أبو عمرو والأخفش والداجوني عن هشام وقتيبة. راجع التبيان: ج ٩ ص ٧٤.

ومنْبَعُهما، كما قَالَ سبحانَهُ: ﴿فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾ [١]، والإثمُ هو الجملةُ، أو يكونُ على حَذْفِ المضافِ أي: علىٰ كلِّ ذي قَلْبٍ ﴿مُتَكَبِّرٍ﴾، ومَنْ قَرأَ على الإضافةِ فالمعنىٰ: يَطْبَعُ ٱللهُ علَى القلوبِ إذا كانَتْ قَلْباً من كلِّ متكبِّرٍ، وحُذِفَ «كُلُّ» لتـقدُّمِ ذِكْـرِهِ كما جاءَ في المَثَلِ: «ما كلُّ سوداءَ تَمرة ولا بيضاءَ شَحْمَةٌ» [٢] فحُذِفَ «كُلُّ» لتقدُّمِ ذِكْرِهِ.

والصَّرْحُ: البناءُ الظاهِرُ الَّذي لا يَخفىٰ علَى النَّاظِرِ وإنْ بَعُدَ، مِنْ صَرَحَ الشيءُ إذا ظَهَرَ، وهَامَانُ: وزيرُ فِرْعَونَ وصَاحِبُ أمرِهِ، وأَسْبَابُ السَّمٰاوَاتِ: طُرقُها وأَبوابها وما يؤدِّي إليها، وكلُّ ما أَوصَلَكَ إلىٰ شيءٍ فهو سَبَبٌ إليهِ كالرشَاءِ ونَحوِهِ. وفائدةُ التكرير أنَّه لمَّا أَرادَ تَفْخيمَ ما أُمِّلَ بلُوغُهُ من أسبابِ السَّمٰاواتِ أَبْهَمَهَا ثمّ أَوْضَحَها ﴿فَأَطَّلِعَ﴾ قُرِئَ بالرَّفعِ [٣] والنَّصْبِ، للعَطْفِ علىٰ ﴿أَبْلُغُ﴾، والنَّصْبُ على جَوابِ التَرجِّي تَشْبيهاً للترجِّي بالتَمنِّي ﴿وكَذٰلِكَ﴾ أي: ومثْلُ ذلكَ التَزيين وذلكَ الصَّدِّ ﴿زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عن ٱلسَّبِيلِ﴾، وقُرِئَ: «صَدَّ» علـى البـناءِ للفاعلِ [٤] بمعنىٰ: أنَّه صَدَّ نفسَهُ أو صَدَّ غَيرَهُ ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ﴾ في إبْطالِ آياتِ موسىٰ عليه السلام ﴿إِلَّا فِى تَبَابٍ﴾ أي: خَسَارٍ لا يَنْفَعُهُ.

ثمَّ عادَ إلىٰ ذِكْر نصيحةِ مؤمنِ آلِ فِرْعَونَ فأَجْمَلَ لَهُم بأَنْ قَالَ: ﴿أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾، ثمَّ فَسَّرَ فافتَتحَ بذمِّ الدنيا وتَحقيرِ شأْنِها، لأنَّ الرُّكُونَ إليها أَصْلٌ لكلِّ شَرٍّ وإِثْمٍ، وَجَالِبٌ لِسَخَطِ ٱللهِ وعقَابه، ثمَّ ثنَّىٰ بتعظيمِ الآخـرةِ فـإنَّها ﴿دَارُ ٱلْـقَرَارِ﴾

---

(١) البقرة: ٢٨٣.

(٢) انظر مجمع الأمثال للميداني: ج ٢ ص ٢٣٦.

(٣) قرأه عاصم برواية أبي بكر عنه. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٥٧٠.

(٤) قرأه ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر. راجع المصدر السابق.

والإقامةِ، ثمَّ ذكَرَ الأعمالَ السيِّئةِ والحَسَنَةِ وما يَستَحقُّ علىٰ كلٍّ واحدةٍ مِنْهما.

وقَولَهُ: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ في مُقَابِل ﴿إلاّ مِثْلَهَا﴾، معناهُ: أنَّ جَـزَاءَ السـيِّئةِ لَـهُ حِسَابٌ وتَقديرٌ، فَلا يَزيدُ على ٱلمستحقِّ، وأمَّا جَزَاءُ العَمَلِ الصالحِ فَبِغَيْرِ تَـقْديرٍ وحِسَابٍ، بل هو زائِدٌ على ٱلمستحقِّ بِمَا شِئْتَ من الزّيادةِ والكَثْرة.

﴿وَيَـٰقَوْمِ مَالِيَ أَدْعُوكُمْ إِلَـى ٱلنَّـجَوٰةِ وَتَـدْعُونَنِيَ إِلَـى ٱلنَّـارِ(٤١) تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّـٰرِ(٤٢) لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيَ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْأَخِرَةِ وَأَنَّ مَـرَدَّنَآ إِلَـى ٱللَّـهِ وَأَنَّ ٱلْـمُسْرِفِينَ هُـمْ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ(٤٣) فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيَ إِلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ(٤٤) فَوقَـٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِـرْعَوْنَ سُـوٓءَ ٱلْعَذَابِ(٤٥) ٱلنَّارُ يُعرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِـيًّا وَيَـوْمَ تَـقُومُ ٱلسَّـاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ(٤٦)﴾

يُقَالُ: دَعَاهُ إلى الشَّيءِ وللشَّيءِ، كَمَا قيلَ: هَدَاهُ إلى الطَّريقِ وللطَّريقِ. ﴿لَيْسَ لِى بِهِ﴾ أي: بربُوبيَّتِهِ ﴿عِلْمٌ﴾ والمرادُ بنَفْي العِلْمِ نَفْيُ المَعْلُومِ، كأنَّه قَالَ: وأُشْرِكُ بِهِ ما ليسَ بإلَهٍ و «مَا لَيْسَ» كيفَ يَصِحُّ أَن يُعْلَمَ إلهاً؟!

﴿لَا جَرَمَ﴾ سياقُهُ علىٰ مذْهَبِ البصريِّينَ أَن يُجْعَلَ «لا» ردّاً لِمَا دَعَـاه إليـهِ قَومُهُ، و «جَرَمَ» فعلٌ بمعنىٰ «حَقَّ»، و «أنَّ» مَعَ ما في حيِّزِهِ فَاعِلُهُ، أي: حَقَّ وَوَجَبَ بُطْلانُ دعوتِهِ[١]، أو: بمعنىٰ «كَسَبَ» أي: كَسَبَ ذلكَ الدُّعَاءُ إليهِ بُطْلانَ دَعْـوتِهِ، علىٰ معنىٰ: أنّه مَا حَصَلَ من ذلكَ إلّا ظُهُورُ بُطْلانِ دعوتِهِ[٢]، وقيلَ: «لاجَرَمَ» نَظيرُ

(١) وهو قول الخليل. حكاه عنه تلميذه سيبويه في كتابه: ج ١ ص ٤٦٩.
(٢) وهو قول الزجّاج في معاني القرآن: ج ٤ ص ٣٧٦.

«لابدَّ» فِعْلٌ من الجرمِ وهو القَطْعِ[١]، كما أن «بُدّاً» فعلٌ من التَبْديدِ وهو التَفْريقُ، فكَمَا أنّ معنىٰ «لابدَّ أنَّكَ تَفْعَلُ كذا» بمعنىٰ «لا بدَّ لك من فِعْلِهِ» فكذلكَ ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ﴾[٢] بمعنىٰ «لا قَطْعَ لذلك» أي: يستحقُّونَ النارَ أبداً، لا انقطاعَ لاستحقَاقِهِم، ولا قَطْعَ لبطلانِ دَعْوةِ الأَصنامِ، أي: لا تَزالُ باطِلةً لا ينْقَطِعُ ذلكَ فَينقَلِبُ حقّاً، ومعنَاهُ: ﴿أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ﴾ إلىٰ نفسِهِ قطُّ، ولا يدَّعي إلٰهيَّةً، وقيلَ: ليسَ له ٱستجابةُ دَعْوةٍ تَنفَعُ في الدنيا ولا في الآخرةِ أو دعوةٌ مستَجَابةٌ[٣]، جَعَلَ الدعوةَ الّتي لا مَنْفَعَةَ لها كَلَادَعْوَةَ، أو سمِّيَتِ الاستجابةُ باسمِ الدعوةِ كَمَا سمِّي الفعلُ المُجَازىٰ عليهِ باسمِ الجَزَاءِ في قَولِهِم: «كَمَا تَدِينُ تُدانُ»[٤].

﴿فَسَتَذْكُرُونَ﴾ عندَ نزُولِ العذابِ بِكُم، أو يومَ القيامةِ صحَّةَ ﴿مَآ أَقُولُ لَكُمْ﴾ من النُّصْحِ، وأُسَلِّمُ ﴿أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ وأَتوكّلُ عليهِ.

﴿ٱلنَّارُ﴾ بَدَلٌ من ﴿سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾، أو: خَبَرُ مبتدأ محذوفٍ أي: هو النَّارُ، أو: مبتدأٌ خَبَرُهُ ﴿يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً﴾ أي: يُعَذَّبونَ بها في هذينِ الوقْتَيْنِ، وفيمَا بين ذلكَ اللهُ أَعْلَمُ بحَالِهِم، فإمَّا أن يُعذَّبوا بجِنسٍ آخرَ من العذابِ، أو يُنَفَّسَ عنْهُم، فإذا قَامَتِ القيامةُ قيلَ لَهُم: «ادْخُلُوا[٥] يا آلَ فِرْعَوْنِ أَشَدَّ عَذابِ جَهَنَّم» وقُرِئَ: ﴿أَدْخِلُوٓاْ﴾ أي: يُقَالُ لِخزَنَة جهنَّمَ: أَدْخِلوهُم. وفي هذهِ الآيةِ دَلالةٌ علىٰ صحَّةِ عَذَابِ القَبْرِ.

﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا

---

(١) قاله المفضّل. راجع تفسير الماوردي: ج ٥ ص ١٥٧.
(٢) النحل: ٦٢.
(٣) قاله السدي. راجع تفسير البغوي: ج ٤ ص ٩٩.
(٤) أي: كما تجازي تُجازىٰ. انظر مجمع الأمثال للميداني: ج ٢ ص ١٠٠.
(٥) الظاهر أنّ القراءة المعتمدة لدى المصنّف هنا بضمّ الخاء وألف موصولة تبعاً للزمخشري في الكشّاف.

لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ(٤٧) قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ(٤٨) وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ(٤٩) قَالُوٓاْ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ قَالُواْ بَلَىٰ قَالُواْ فَٱدْعُواْ وَمَا دُعَـٰٓؤُاْ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ(٥٠)﴾

وَٱذْكُرْ وَقْتَ تَحاجِّهِم في النّارِ ﴿تبعاً﴾ أي: أتْباعاً، جَمْعُ «تَابِع» ومثلُهُ «خَدَمٌ» جَمْعُ «خَادِم»، أو: ذَوِي تَبَعٍ أي: أَتْباع، أو: هو وَصْفٌ بالمَصْدَرِ وَ ﴿كُلٌّ﴾ مَعْرِفةٌ، والتَنْوينُ فيهِ عِوَضٌ من المضَافِ إليهِ، أي: كلّنا فيها لِخزَنَةِ جهنَّم، ولَم يقُلْ: «لِخزَنَتِها» لأنَّ في ذِكْر جهنَّم تَهويلًا، ويُحتملُ أن تكُونَ جهنَّمُ هي أَبْعَدُ النّارِ قَعراً، مِنْ قَولِهِم: بئرٌ جِهنّامٌ: بَعيدَةُ القَعْرِ. ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ﴾ إلزامٌ للحُجَّةِ وتوبيخٌ ﴿قَالُوا فَادْعُوا﴾ أنتُم فإنّا لا ندعُو إلّا بإذْنِ ٱللهِ ولم يُؤْذَنْ لنا فيه.

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ(٥١) يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّـٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ(٥٢) وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَـٰبَ(٥٣) هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَـٰبِ(٥٤) فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَـٰرِ(٥٥) إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَـٰنٍ أَتَىٰهُمْ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَـٰلِغِيهِ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ(٥٦) لَخَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ(٥٧) وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ(٥٨) إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأَتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَـٰكِنَّ

أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ(٥٩) وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ(٦٠)﴾

أي: نُغلِّبُ ﴿رُسُلَنَا﴾ في الدارَيْنِ بالظَفَرِ على مخَالفِيهم وبالحُجَّةِ، ولَو غُـلِبُوا في بعض الأَحايين فالعاقبةُ لَهم، و «الْيَوْم» الثاني بَدَلٌ من الأوَّلِ، و الأَشْهَادُ: جَمْعُ شَاهِدٍ وهم الملائكةُ والأَنبياءُ والأَولياءُ، وقُرِئَ: ﴿لا ينْفَعُ﴾ بالتاءِ[1] والياءِ.

والمرادُ بـ﴿ٱلْهُدَىٰ﴾: ما آتاهُ ٱللهُ في بابِ الدِّيـنِ مـن المُـعْجزات والتَّـوراةِ والشَرائِع ﴿وأَوْرَثْنَا﴾ وتَركْنَا علىٰ ﴿بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ مـن بـعده ﴿الْكِتَـٰبَ﴾ أي: التَّوراةَ ﴿هُدًى وَذِكْرَىٰ﴾ أي: إرشاداً وتَذْكرةً، وهُمَا مفعولٌ لَهما أو حَالانِ.

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللهِ حَقٌّ﴾ في ضَمانِ نُصْرةِ رُسُلِهِ، وٱستَشْهَدَ بحالِ مـوسىٰ ونُصْرَتِهِ علىٰ فِرْعَونَ وجنُودِهِ، وإبْقَاءِ آثارِ هُدَاهُ في بني إسرائيلَ، فإنَّ اللهُ يَنْصُرُكَ كَمَا نَصَرَهُ ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِـذَنبِكَ﴾ تَعَبَّدْهُ سـبحانَهُ بـالدعاءِ والاسـتغفارِ ليـزيدَ فـي دَرَجاتِهِ، ويَصيرَ سُنَّةً لأُمَّتِهِ.

﴿إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾ أي: تَكَبُّرٌ، وهو إرادةُ التقدُّمِ والرئـاسةِ، وأَن لا يكُونَ أَحَدٌ فَوقَهُم، ولذلك عادُوكَ ودَفَعُوا مُعْجزَاتِكَ، وذلك أَنَّ النبوَّةَ تحتَهَا كلُّ مُلْكٍ ورئاسةٍ، أو: إرادةُ أن تكُونَ لَهم النبوَّةُ دونَكَ ﴿مَّا هُم بِبَـٰلِغِيهِ﴾ أي: بِبَالِغي مُوجِبِ الكِبْرِ ومقْتَضيهِ، وهو متعلَّقُ إرادتِهِم من الرئاسةِ أو النبوَّةِ ﴿فَـاسْتَعِذْ بِـاللهِ﴾ مـن شَرِّهِم ﴿إِنَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لِأَقْوالِهِم ﴿الْبَصِيرُ﴾ بأَحْوالِهِم،وفيه تَهديدٌ.

ولمَّا كانَ جدالُهُمْ وحِجَاجُهُم في آياتِ ٱللهِ مشتَملًا علىٰ إنْكارِ البَعْثِ، حُجُّوا بخَلْقِ السَّماواتِ والأَرضِ، لأَنَّهم كانُوا يُقِرُّونَ بأَنَّه سبحانَهُ خَالِقُهما، وخَلْقُ الناسِ

(١) قرأه ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٥٧٢.

بالقياسِ إليهِمَا أَهْونُ. ثمَّ ضَرَبَ ﴿ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ مَثَلًا لِـلْمُحْسِنِ وَالْـمُسِيءِ، وقُرِئَ: ﴿تَتَذَكَّرُونَ﴾ بالتَّاءِ والياءِ(١).

﴿لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ لابُدَّ من مَجيئِها، وليسَ بمُرتَابٍ فيها لأنَّه لا بدَّ من الجَزَاءِ. ﴿ٱدْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ إذا اقتَضَتِ المَصْلَحةُ إجابَتكُم، وقيلَ: معنَاهُ: ادعُوني أُثِبْكُم(٢).

وفي الحَديثِ: «الدُّعاءُ هو العِبَادةُ» وَقَرأَ هذه الآية(٣).

وعن الباقِر عليه السلام: «هو الدُّعاءُ، وأَفْضَلُ العِبَادةِ الدُّعاءُ»(٤).

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ(٦١) ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ(٦٢) كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ (٦٣) ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ(٦٤) هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ(٦٥) قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَـٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ(٦٦) هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوٓاْ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ(٦٧) هُوَ ٱلَّذِى

(١) وبالياء هي قراءة ابن كثير ونافع وأبي عمرو وابن عامر. راجع المصدر السابق.

(٢) قاله البغوي في تفسيره: ج ٤ ص ١٠٣.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده: ج ٤ ص ٢٧١.

(٤) الكافي: ج ٢ ص ٤٦٦ ح ١ باسناده عن زرارة.

﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ (٦٨)﴾

﴿مُبْصِراً﴾ من الإِسنادِ المَجَازي، ومعناهُ: لِتَبصِرُوا فيهِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ﴾ لا يوازِنُهُ فَضْلٌ، وكَرَّرَ ذِكْرَ «النَّاس» تَخصيصاً لِكُفْرانِ النِّعَم بِهِم، وأَنَّهم هم الَّذينَ لا يَشْكرونَهُ. ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ المعلُومُ المختَصُّ بهذهِ الأَفعالِ هو ﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ هي أَخْبارٌ مترادِفَةٌ، أي: هو الجامِعُ لهذهِ الأَوْصَافِ من الإِلٰهيةِ والرُّبوبيّةِ وإِنْشَاءِ الأَشْياء والوحدانيَّةِ ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ فكَيْفَ تُصْرَفُونَ عن عبادتِهِ إلىٰ عبَادَةِ الأَصْنام؟! ثمَّ ذَكَرَ أَنَّ كُلَّ مَن جَحَدَ ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أَفِكَ كَمَا أَفكُوا.

ثمَّ وَصَفَ نفسَهُ بأفعالٍ أُخَرَ خَاصَّةٍ بهِ، وهي أَنَّه ﴿جَعَلَ... ٱلْأَرْضَ﴾ مُسْتَقَرّاً ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ أي: قُبَّةً، ومَضَارِبُ العَرَبِ: أَبْنِيتُهُم؛ لأَنَّ السَّماءَ في مَنْظَرِ العَيْنِ كالقُبَّةِ المضْرُوبةِ على الأَرْضِ. ﴿فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ﴾ الطَّاعَةَ من الشِّرْكِ في دعائِهِ وعبادتِهِ، قَائِلينَ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. ﴿أَنْ أُسْلِمَ﴾ أي: اسْتَسْلِمَ لِأَمْرِ ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

﴿لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ﴾ متعلِّقٌ بِفِعْلٍ محذُوفٍ، والتَّقْديرُ: ثمَّ يُبْقِيكُم لِتبلُغُوا، وكذلكَ ﴿لِتَكُونُواْ شُيُوخاً﴾، ويَفْعَلُ ذلك ﴿لِتَبْلُغُوٓاْ أَجَلًا مُّسَمًّى﴾ وهو وَقْتُ المَوْتِ، أو يوم القيامةِ، وقولُهُ: ﴿مِن قَبْلُ﴾ يريدُ: مِنْ قَبل الشيخُوخَةِ، أو: مِنْ قَبل هذهِ الأَحوال ﴿ولَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ هذهِ الأَغراضَ المذكورةَ، وتَتَفَكَّرونَ في العِبَر والحُجَجِ ﴿فَإِذا قَضَىٰٓ أَمراً فَإِنَّمَا﴾ يكوِّنُهُ من غيْرِ كُلْفَةٍ، جَعَلَ هذا نتيجةً من قُدْرتِهِ على الإِحْياءِ والإِمَاتةِ وسائِرِ مَا ذُكِرَ من أفعالِهِ الدالّةِ علىٰ أنَّه لا يَمْتَنِعُ عليهِ شَيءٌ من المقدُوراتِ، فكأنَّه قَالَ: فلذلك الاقتِدَار ﴿إذَا قَضَىٰٓ أَمراً﴾ تيسَّرَ لَهُ ولَمْ يمتَنِعْ عليهِ، وكَانَ أَهْوَنَ شيءٍ وأَسْرَعَهُ.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّـهِ أَنَّـىٰ يُصْرَفُونَ(٦٩) ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلْكِتَـٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ(٧٠) إِذِ ٱلْأَغْلَـٰلُ فِىٓ أَعْنَـٰقِهِمْ وَٱلسَّلَـٰسِلُ يُسْحَبُونَ(٧١) فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ(٧٢) ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ(٧٣) مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّـهُ ٱلْكَـٰفِرِينَ(٧٤) ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ(٧٥) ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ(٧٦)﴾

﴿أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ﴾ أي: من أيِّ جِهَةٍ يُقْلَبونَ عن الحقِّ إلى الضَّلالِ. ﴿إِذِ ٱلأَغْلَـٰلُ فِىٓ أَعْنَـٰقِهِم﴾ المعنىٰ علىٰ: إذْ إنَّ أخبارَهُ سُبحانَهُ لمَّا كانَتْ متيقَّنةً عبَّرَ عن الأُمورِ المستقبلةِ فيها بلَفْظِ ما قَدْ كانَ ووُجِدَ، و ﴿يُسْحَبُونَ﴾ حالٌ ﴿فِى حَمِيمٍ﴾ في الماءِ الَّذي ٱنتهَتْ حرارَتُهُ ﴿ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ ويُقْذَفُونَ فِيها وتُوقَدُ بِهِم.

﴿بَل لَّمْ نَكُنْ نَدْعُواْ مِنْ قَبْلُ شَيْئاً﴾ أي: تَبيَّنَ لَنا أنَّهم لَمْ يكُونُوا شيئاً، وما كنَّا نَعْبُدُ بِعِبادتِهم شَيئاً ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثْلُ ضَلالِ آلهتِهِم عنْهم يُضِلُّهُمُ اللهُ عن آلهتِهِم حتَّىٰ لو طَلَبُوها أو طَلَبَتْهُم لَمْ يَتَصادَفُوا. ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الإضْلالُ بِسَبَبِ ما كانَ لَكُم من الفَرَحِ ﴿فِى ٱلأَرْضِ﴾ والمَرَحِ ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ وهو الشِّرْكُ وعبادَةُ الأوثانِ. ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ مَثْواكُم أي: جهَنَّم.

﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ(٧٧) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ(٧٨) ٱللَّهُ ٱلَّذِى

جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَـٰمَ لِتَرْكَبُواْ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ(٧٩) وَلَكُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَلِتَبْلُغُواْ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ(٨٠) وَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ(٨١)﴾

الأَصْلُ: «فَإِنْ نُرِيَنَّكَ»، و «مَا» مَزِيدَةٌ لتأكيدِ معنَى الشَرْطِ، ولذلكَ أُلْحِقَتِ النُّونُ بالفعلِ، لا يُقَالُ: إنْ تُكرِمْني أُكْرِمْكَ، ولكن: إمَّا تُكرِمْني أُكْرِمْكَ، وقولُهُ: ﴿فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ يَتعلّقُ بـ﴿نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾، وجَزَاءُ ﴿نُرِيَنَّكَ﴾ محذُوفٌ وتَقديرُهُ: ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ مِنَ العَذَابِ في حياتِكَ وهو القَتْلُ يومَ بَدْرٍ فذاكَ ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قَبل أن يَحِلَّ بِهِم ذلكَ ﴿فَإلينا يُرْجَعُونَ﴾ يومَ القيامةِ نَفْعَلُ بِهِم ما يَسْتَحِقُّونَهُ، ولا يَفُوتُنَا مِنْهُم.

﴿مَن قَصَصْنَا عَلَيْكَ﴾ ذِكْرَهُم وأَخْبارَهُم ﴿وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ ذِكْرَهُم. ﴿لِتَرْكَبُواْ مِنْهَا﴾ إلى الحجِّ والغَزْوِ والهجرةِ مِنْ بَلَدٍ إلىٰ بَلَدٍ لإقامة دينٍ أو طَلَبِ عِلْمٍ، وهذه أَغْراضٌ دينيَّةٌ تَتعلَّقُ بها إرادةُ الحكيمِ، فأمَّا الأَكْلُ فَمِنْ جِنسِ المَنافعِ المُباحَةِ الّتي لا تَتَعَلّقُ بها إِرادُتُه، وعَلى الأنْعَامِ ﴿وَعَلَى ٱلْفُلْكِ﴾ في البرِّ والبَحْرِ ﴿تُحْمَلُونَ وَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ﴾ أي حُجَجَه وبيِّناتِهِ ﴿فَأَىَّ ءَايَـٰتِ ٱللهِ تُنكِرُونَ﴾ تَوبيخٌ لَهُم على الجَحْد.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ(٨٢) فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ(٨٣) فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ(٨٤) فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَـٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَـٰفِرُونَ(٨٥)﴾

آثارُهُمَ: أَبنِيتُهُم العظيمةُ الّتي بَنَوْهَا، وقُصُورُهُم ومَصَانِعُهُم، وقيلَ: مَشْيُهُم بأَرْجُلِهِم لِعِظَمِ أَجْرَامِهِم (١) ﴿فَمَا أَغْنَىٰ﴾: «ما» نَافيةٌ أو ٱستفهاميّةٌ في محلِّ نَصْبٍ و «مَا» الثَّانيةُ مصدريّةٌ أو موصُولةٌ في محلِّ رَفْعٍ مـعنَاهُ: أَيُّ شـيءٍ أَغْـنىٰ عَـنْهُم مكسُوبُهُم أو كَسْبُهُم.

﴿فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ قيلَ فيهِ وجُوهٌ: أَحَدُها: أَنَّه وردَ علىٰ طريقِ التَهَكُّمِ، كَمَا في قَولِهِ: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ﴾ (٢) وعِلْمُهُم في الآخرةِ أَنَّهم كانُوا يقُولُونَ: لا نُبْعَثُ، وكانُوا يَفرحُونَ بذلكَ وَيَدفعُونَ بهِ عِلْمَ الأنبياءِ (٣). والآخرُ: أَنَّ المُرادَ عِلْمُ الفَلاسِفَةِ كانُوا يُصَغِّرونَ عِلْمَ الأَنبياءِ إلىٰ عِلْمِهِم (٤).

وعَنْ سُقْراط أَنَّه قيلَ: ائْتِ موسىٰ عليه السلام وكانَ في زَمـانِهِ، فَـقَالَ: نَـحْنُ قَـومٌ مُهَذَّبُونَ، فَلَا حَاجَةَ بِنَا إلىٰ مَنْ يَهْدِينا (٥).

---

(١) قاله مجاهد. راجع تفسير الطبري: ج ١١ ص ٨١.

(٢) النمل: ٦٦.

(٣) وهو قول مجاهد. راجع تفسير الطبري السابق: ص ٨٢.

(٤) حكاه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ١٨٢.

(٥) في هامش النسخة المطبوعة كلام للمعلّق، يقول: «نقل العلّامة المصنّف رحمه الله هذه القصّة تبعاً للعلّامة الزمخشري في الكشّاف، ونقْلُها منهما مع تبحّرهما وكونهما من أهل البحث والتحقيق في غاية الغرابة: فإنّ سقراط توفّي قبل ميلاد المسيح عليه السلام بأربعمائة سنة، وله ثمانون سنة أو أزيد، وكان موسىٰ عليه السلام قبل سقراط بأزيد من ألف عام، فإنّ بين زمان موسىٰ عليه السلام وعيسىٰ عليه السلام الف وستمائة سنة على ما في تفسير الشيخ الثقة عليّ بن إبراهيم رحمه الله أو كان أزيد منها على ما في بعض كتب التواريخ، فأين سقراط ـ وهو الحكيم الإلهي الّذي كان يدعو قومه إلى التوحيد مع جهاده ونضاله الدائم طيلة حياته مع عَبَدَة الأوثان حتّىٰ سقوه سُمّاً ـ من زمان موسىٰ عليه السلام ؟! وما ذكرناه غير خفيّ على الباحث المنقب، فلاحظ التواريخ والتفاسير وكتب الحديث حتّىٰ تجد صدق ما قلناه، ولا تغترّ بجلالة المصنّف وصاحب الكشّاف، وترحّم بما يقال قديماً: (كم ترك الأوّل للآخر). وذكر في بعض الكتب مثل هذه القصّة الواهية في حقّ إفلاطون الإلهي أو جالينوس مع عيسىٰ عليه السلام».

وقيلَ: إنَّ الفَرَحَ للرُسُل[١] والمعنىٰ: أنَّ الرُسُلَ لمَّا رَأَوا ٱستِهْزاءَهُم بالحقِّ وجَهْلَهم فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا من العِلْمِ وشَكَروا ٱللهَ عليهِ ﴿وَحَاقَ﴾ بالكافرينَ جَزَاءُ جَهْلِهم وٱستِهزَائِهم، وقيلَ: إنَّ المُرادَ عِلْمُهُم بأُمورِ الدُّنيا[٢] كَمَا قَالُوا: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا﴾[٣] فلمَّا جاءَهُم الرُّسُلُ بعلُومِ الدياناتِ لَمْ يَلْتفِتُوا إليها، إذْ كانَتْ باعِثَةً علىٰ رَفْضِ الشَّهَواتِ وتَرْكِ الدُّنْيا، وٱعتَقَدُوا أَن لا عِلْمَ أَنْفَعُ مِنْ عِلْمِهِم فَفرِحُوا بهِ. ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُم إِيمَـٰنُهُمْ﴾ أي: لَمْ يَصحّ أَنْ يَنْفَعَهُم إيمانُهُم ﴿لَمَّا رَأَوْا۟﴾ بَأْسَ ٱللهِ ﴿سُنَّتَ ٱللهِ﴾ بمَنزْلةِ «وَعْد الله»ونَحْو ذلكَ من المَصَادرِ المؤكَّدَةِ، وَ ﴿هُنَالِكَ﴾ مَكَانٌ مستَعَارٌ للزَّمانِ، أي: وَخَسِرُوا وَقْتَ رؤْيَةِ البأْسِ، وكذلكَ قَولُهُ: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ بعدَ قَولِهِ: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: خَسِرُوا وَقْتَ مَجيء أَمْرِ ٱللهِ، أو: وَقْتَ القَضَاءِ بالحقِّ.

(١) حكاه ابن عيسىٰ. راجع تفسير الماوردي: ج ٥ ص ١٦٥ .
(٢) قاله السدي. راجع تفسير الطبرى: ج ١١ ص ٨٢.
(٣) الروم: ٧.

سُورَةُ فُصِّلَتْ[1]

مكِّيَّةٌ[2] آياتُها أَربعٌ وخَمسُونَ آيـةً كـوفيٌّ، اثـنتان بَـصريٌّ، عَـدَّ الكـوفيُّ ﴿حمٓ﴾[3] آيةً، ﴿عَادٍ وَثَمُودَ﴾[4] آيةً.

وفي حَديثِ أُبَيٍّ: «وَمَنْ قَرَأَ حمٓ السَّجدَةَ أُعْطِيَ من الأَجْرِ بِعَدَدِ كلِّ حَرْفٍ منْها عَشْرُ حَسَنَاتٍ»[5].

وعن الصَّادقِ عليه السلام: «مَنْ قَرَأَ حمٓ السَّجدَةَ كانَتْ لَهُ نُوراً يَوم القيامةِ مَدَّ بصرِهِ، وسُرُوراً، وعَاشَ في هذهِ الدُّنْيا مغْبُوطاً مَحْمُوداً»[6].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حمٓ (١) تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ (٢) كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا

---

(١) في نسخة «سورة السجدة»، وأُخرىٰ: «سورة حمٓ السَّجدة».

(٢) قال الشيخ الطوسي في التبيان: ج ٩ ص ١٠٣: مكّية في قول قتادة ومجاهد، وليس فيها ناسخ ولا منسوخ، وهي أربع وخمسون آية كوفيّ، وثلاث في المدنيّين، واثنتان وخمسون في البصري والشامي.

وفي الكشّاف: ج ٤ ص ١٨٤ ما لفظه: مكّية وآياتها (٥٤) وقيل: (٥٣) نزلت بعد غافر.

(٣) الآية: ١. (٤) الآية: ١٣.

(٥) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٢٠٧ مرسلًا.

(٦) ثواب الأعمال للصدوق: ص ١٤٠.

عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ(٣) بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ(٤) وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَـٰمِلُونَ(٥) قُلْ إِنَّمَآ أَنَاْ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّـمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ فَاسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ(٦) ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِالْأَخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ(٧) إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَـمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ(٨)﴾

﴿تَنْزِيلٌ﴾ مبتدأ و ﴿كِتَـٰبٌ﴾ خبَرُهُ، أو: ﴿تَنْزِيلٌ﴾ خـبرُ مـبتدأ مَـحذُوفٍ و ﴿كِتَـٰبٌ﴾ بَدَلٌ من ﴿تَنْزِيلٌ﴾، أو: خَبَرٌ بَعد خَبَرٍ. ﴿قُرْءاناً عَرَبِيّاً﴾ نَصْبٌ على المَدْحِ، أي: أَعْني بالكتابِ المُفصَّلِ قُرآناً بهذه الصِّفَةِ، وقيلَ: نَـصْبٌ عـلى الحـالِ[1] أي: ﴿فُصِّلَتْ ءَايَـٰتُهُ﴾ في حالِ كَونِهِ قُرآناً عَربيّاً ﴿لِقَوْمٍ يَـعْلَمُونَ﴾ ما نَزَلَ عليهم مـن الآياتِ المفصَّلَةِ المبيَّنَةِ بلسانِهم العربيِّ، لا يَلْتَبِسُ عليهم شيءٌ منْهُ، وتَـعَلَّقَ اللّامُ بـ﴿فُصِّلَت﴾ أو بـ﴿تَنْزِيل﴾، أي: فُصِّلَتْ آياتُهُ لَهُم، أو: تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمٰنِ لِأَجْلِهِم، وأَجْوَدُ منْهما أَن يكُونَ صفةً مِثْلَ ما قَبلَهُ وما بَعدَهُ، أي: قُرآناً عربيّاً كائِناً لقومٍ عَرَبٍ لئلَّا يُفرِّق بين الصِّفَاتِ والصِّلاتِ. ﴿بَشِيراً﴾ يُبَشِّرُ المؤمنَ بمَا تَضَمَّنَهُ من الوَعْـدِ ﴿ونَذِيراً﴾ يُنْذِرُ الكافرَ بما فيهِ من الوَعيدِ ﴿فَـهُمْ لَا يَسْـمَعُونَ﴾ لا يَـقْبلُونَ ولا يُطيعُونَ.

﴿قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ﴾ أي: أَغْطيةٍ ﴿مِمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾ فَلَا نَفْقَهُ ما تَقُولُ ﴿وَفِـيٓ ءَاذَانِنَا﴾ ثِقلٌ وصَمَمٌ على ٱستِمَاعِ القُرآنِ، ﴿وَمِنْ بَـيْنِنَا وَبَـيْنِك حِـجَابٌ﴾ سَـاتِرٌ وحاجزٌ مَنيعٌ، وهذه تَمثيلاتٌ لِنُبُوِّ قُلُوبِهِم عن قبولِ الحقِّ ﴿فَاعْمَلْ﴾ علىٰ دينِكَ إِنَّا ﴿عَـٰمِلُونَ﴾ علىٰ دينِنَا، أو: فاعمل في إِبطالِ أَمرِنا إِنَّا عامِلونَ في إِبْطالِ أَمـرِكَ.

---

(١) قاله الزجّاج في معاني القرآن: ج ٤ ص ٣٧٩.

والفائدةُ في زيادةِ «مِنْ» في قولِهِ: ﴿وَمِنْ بَينِنَا﴾ أنَّه لو قالَ: «وبَينَنا وبينَكَ حِجَابٌ» لكانَ المعنىٰ: أنَّ حِجَاباً حَاصِلٌ وَسطَ الجِهَتَيْنِ، ومعنىٰ ﴿مِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ﴾: أَنَّ الحِجَابَ ابتداءٌ منَّا وٱبتِداءٌ منكَ. فالمَسَافَةُ المتوسِّطةُ بجهتِكَ وجهتِنَا مستوعَبَةٌ بالحِجَابِ لا فَرَاغَ فيها.

وقَولُهُ: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ﴾ جوابٌ لقولِهِم: ﴿قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ﴾ لأنَّ المعنىٰ: إنِّي لَسْتُ بِمَلَكٍ وإنَّما أنَا بَشَرٌ مِثْلُكُم وَقَد أُوْحِيَ ﴿إِلَيَّ﴾ دُونَكُم، وإذا صَحَّتْ بالوَحْي نُبوَّتي وَجَبَ عليكُمْ ٱتِّبَاعِي ﴿فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ﴾ فَاسْتَوُوا ﴿إِلَيۡهِ﴾ بالتوحيدِ وإخْلاصِ العبادةِ ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُوهُ﴾ من الشِّرْكِ.

وَخَصَّ من أَوصافِ المشركينَ مَنْعَ الزَّكَاةِ مقْروناً بالكُفْرِ بالآخرةِ، لأنَّ أَحَبَّ الأشياءِ إلى الإنسانِ مالُهُ، فإذا بَذَلَهُ للهِ دَلَّ ذلكَ علىٰ ثَباتِهِ في الدِّينِ وَصِدْقِ نِيَّتِهِ، وفيهِ حَثٌّ شَديدٌ علىٰ أداءِ الزَّكاةِ، وتَخويفُ مَنْ مَنَعَهَا، حَيثُ جَعَلَهُ مقْروناً بالكُفْرِ بالآخرةِ. ﴿لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ﴾ أي: غَيرُ مقْطُوعٍ بَلْ هو مُتَّصِلٌ دائِمٌ، أو: هو خَالِصٌ من المنَّة.

﴿قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ(٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ(١٠) ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ(١١) فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفۡظٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ(١٢) فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ(١٣) إِذۡ جَآءَتۡهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ قَالُواْ

لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَـٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ(١٤) فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ(١٥)﴾

﴿أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ﴾ استِفْهامُ تَعجُّبٍ، أي: كَيفَ تَستَجيزُونَ أَن تكفُروا بِمَنْ ﴿خَلَقَ ٱلْأَرْضَ﴾ مِقْدارِ ﴿يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً﴾ أَمثالاً وأَشباهاً تَعبدُونَهم ﴿ذَٰلِكَ﴾ الَّذي قَدرَ على الخَلْقِ ﴿رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ ومَالِكُ التَصرُّفِ فيهِم.

﴿وَجَعَلَ فِيهَا﴾ أي: في الأَرْضِ جِبَالاً ﴿رَوَٰسِىَ﴾ أي: ثَوابِتَ ﴿مِن فَوْقِهَا﴾ جَعَلَها فَوْق الأَرضِ لتكُونَ مَنَافِعُها حَاصِلَةً لِمَنْ طَلَبَها ﴿وَبَـٰرَكَ فِيهَا﴾ وأَكْثَرَ خَيْرَها ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ أي: أَرْزَاقَ أَهْلِها ومَنَافِعَهُم ومَعَائِشَهُم ﴿فِىٓ﴾ تَتِمَّةِ ﴿أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ من حينِ ٱبتداءِ الخَلْقِ، كأَنَّه قَالَ: كلُّ ذلكَ في أربعةِ أيَّامٍ كامِلَةٍ مستَويةٍ بلا زِيادةٍ ولا نُقْصَانٍ، وقُرِئَ: ﴿سَوَآءً﴾ بالحَرَكاتِ الثَّلاث[1]، فالجَرُّ على الوَصْفِ لـ﴿أَيَّامٍ﴾، والنَّصبُ علىٰ «ٱستَوَتْ سَواءً» أي: ٱستِواءً، والرَّفْعُ علىٰ «هِيَ سَواءٌ»، وتَعَلَّقَ قَولُهُ: ﴿لِّلسَّآئِلِينَ﴾ بمحذُوفٍ فكَأَنَّه قَالَ: هذا الحَصْرُ لِأَجْلِ مَنْ سَأَلَ في كَمْ خُلِقَتِ الأَرضُ وما فيها، أو: يُقدِّر أي: قَدَّرَ فيها أَقْواتَها لِأَجْلِ الطالبينَ لَهَا المُحْتَاجينَ إليها من المُقْتَاتينَ.

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ مِنْ قَولِكَ: استوى إلى مكانِ كَذَا: إذا تَوَجَّهَ إليه تَوجُّهاً لا يَلْوي علىٰ شيءٍ، وهو من الاستواءِ الَّذي هو ضِدُّ الإعوجَاجِ، ونَحوُهُ قَولُهُم: استَقَامَ إليهِ وٱمتَدَّ إليهِ، ومِنْهُ قَولُهُ: ﴿فَاسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ﴾[2] والمعنىٰ: ثمَّ دَعَاهُ

---

(١) قرأ زيد بن علي عليه السلام والحسن وابن أبي اسحاق ويعقوب بالجرّ، وأبوجعفر بالرفع، والباقون بالنصب. راجع التبيان: ج ٩ ص ١٠٦، والبحر المحيط: ج ٧ ص ٤٧٦.

(٢) الآية: ٦.

دَاعِيَ الحِكْمةِ إلىٰ خَلْقِ السَّماءِ بَعدَ خَلقِ الأرْضِ وما فيهَا من غَيْرِ صَارِفٍ يَصْرِفُهُ عن ذلكَ.

ومعنىٰ أَمْرِ السَّماءِ والأَرضِ بالإتْيانِ، وقَولِهِمَا: ﴿أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ أَنَّـه أرادَ تَكْوينَهُما وإنْشاءَهُما فَلَمْ تمتَنِعا عليهِ ووُجِدَتَا كَمَا أَرادَهُما، وليسَ هناكَ أمرٌ على الحقيقةِ ولا جَوابٌ، وهو من المَجَازِ الّذي يُسمَّى التَمثيلُ، بمعنىٰ: أَنَّهما كانَتَا كالمأْمُورِ المُطيعِ إذا وُرِدَ عليه أَمْرُ الآمرِ المُطاعِ، وَخَلَقَ سبحانَهُ جِرْمَ الأرضِ غَيْرَ مدْحوَّةٍ، ثمَّ دَحَاهَا بعد خَلْقِ السَّماءِ، كَمَا قَالَ: ﴿وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا﴾ [١] فالمعْنىٰ: ائْتيَا علىٰ ما يَنْبغي أَن تَأْتِيا من الشِّكْلِ والوَصْفِ: ائْتي يا أَرْضُ مَدْحُوَّةً قراراً لسكّانِكَ، وائْتِي يا سَمَاءُ سَقْفاً مَبْنِيَّاً عليهِم، ومعنى الإتْيانِ: الحُصُولُ والوقُوعُ، كَمَا يُقَالُ: أتىٰ عَمَلُ فُلانٍ مقْبُولاً، وقَولُهُ: ﴿طَوْعاً أَوْ كَرْهاً﴾ مَثَلٌ للزُومِ تَأْثيرِ قدرتِهِ فيهما، وٱنتصابُهُما على الحالِ، أي: طائِعَتَيْنِ أو مُكْرَهَتَيْنِ، ولمَّا خُوْطِبْنَ جُعِلْنَ مُجيباتٍ ووُصِفْنَ بالطَوْعِ والكُرْهِ، وقيلَ: «طائِعِينَ» في موضع «طائعات» [٢] نحوُ قولِهِ: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [٣]، ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [٤].

﴿فَقَضَاهُنَّ﴾ يجوزُ أن يَرجعَ الضَّميرُ فيهِ إلى ﴿السَّمَآءِ﴾ على المعنىٰ، ويجوزُ أَن يكُونَ ضَميراً مُبْهَماً مُفَسَّراً بـ﴿سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾، والفرقُ بينَهما أنّ «سَبْع سماواتٍ» على الوجْهِ الأوَّلِ نَصْبٌ على الحالِ، وفي الثَّاني نَصْبٌ على التَّمييزِ ﴿وَأَوْحَىٰ﴾ أي: خَلَقَ أَوامِرَ ﴿فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ ما أَمَرَ بِهِ فيها ودَبَّرَهُ مِنْ خَلْقِ الملائكةِ والنيِّراتِ وغيرِ ذلكَ، أو: شَأْنَها وما يُصْلِحُها ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَاءَ ٱلدُّنْيَا

(١) النازعات: ٣٠.
(٢) قاله الزجّاج في معاني القرآن: ج ٤ ص ٣٨١.
(٣) الأنبياء: ٣٣، يس: ٤٠. (٤) يوسف: ٤.

بِمَصَٰبِيحَ﴾ يُهتَدىٰ بها ﴿وَحِفْظًا﴾ أي: وحَفَظْنَاها حِفْظاً من ٱسْتِراقِ السَّمْعِ بالثَّواقِبِ، ويجوزُ أن يكُونَ مفعولاً له أي: وخَلَقْنا المصابيح زينةً وحِفْظاً.

﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ﴾ بعدما تَتْلُو عليهم من هذه الحُجَجِ الدالَّةِ على الوحدانيَّةِ والقُدرةِ فَحَذِّرْهُم أَنْ تُصِيبَهُمْ ﴿صَٰعِقَةً﴾ أي: عَذابٌ شديدُ الوَقْعِ كأنّه صاعِقَةٌ. ﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ يريدُ: أَتَوَهُّمْ من كلِّ جانبٍ فَلَمْ يَرَوْا منهم إلَّا العُتُوَّ، وقيلَ: معناهُ: أَنْذَروهُم من وَقَائعِ اللهِ فيمَنْ قَبلَهم من الأُمَمِ، ومِن عَذَابِ الآخرةِ، لأنَّهم إذا حذَّروهُم ذلكَ فَقَد جاؤُوهُم بالوَعْظِ من جهةِ الزَّمانِ الماضي، وما جرىٰ فيه علىٰ أَمثالِهِم، ومن جهةِ المستقبلِ وما سَيَجْري عليهم[1]. ﴿أَنْ﴾ في ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ﴾ بمعنىٰ: أَيْ، أو: مخفَّفَةٌ من الثقيلةِ، وأصلُهُ «بأَنْ لا تَعبُدُوا» أي: بأنَّ الشَّأْنَ والحديثَ قولُنَا لكُم: لا تَعْبُدُوا، ومفعُولُ ﴿شَآءَ﴾ محذُوفٌ، أي: لَوْ شاءَ ربُّنا إِرْسَالَ الرُّسُلِ لأَنْزَلَ ملائكةً.

وحقيقةَ القوَّةِ زيادةُ القُدْرةِ، وهي في الإنسانِ صحَّةُ البُنْيةِ والاعتدالُ والشدَّةُ والصَّلابةُ ﴿وَكَانُواْ بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ كانُوا يعرفُونَ أنَّها حَقٌّ ولكنَّهم جَحَدُوها كَمَا يَجْحَدُ المُودَعُ الوديعَةَ، وهو معطُوفٌ علىٰ ﴿فَاسْتَكْبَرُواْ﴾.

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْأَخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ(١٦) وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَاسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ(١٧) وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ(١٨) وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ(١٩) حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ

---

(١) قاله الحسن. راجع تفسير الماوردي: ج ٥ ص ١٧٤.

يَعْمَلُونَ(٢٠) وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ(٢١) وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ(٢٢) وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ(٢٣)﴾

﴿رِيحاً صَرْصَراً﴾ عاصِفةً تُصَرْصِرُ، أي: تُصوِّتُ، والصَّرَّةُ: الصَّيْحَةُ، وقيلَ: بارِدَةً تُحْرِقُ بِبَرْدِها[(١)]، من الصَّرِّ وهو البَرْدُ الذي يَصُرُّ أي: يَجْمعُ ويَقْبضُ ﴿نَحِسَاتٍ﴾ قُرِئَ بكسر الحاءِ وسكُونِها[(٢)]، يُقالُ: نَحِسَ نَحْساً فهو نَحِسٌ، فالنَحْسُ يجوزُ أن يكُونَ مُخفَّفَ «نَحِسٌ»، وأَن يكُونَ وَصْفاً بالمصدرِ، نَحْوُ: رَجُلٌ عَدْلٌ. و ﴿عَذَابَ ٱلْخِزْيِ﴾ أَضَافَ «العَذابَ» إلى «الخزي» وهو الذُلُّ والهَوان، علىٰ أنَّه وَصْفٌ للعَذابِ، كأنَّه قَالَ: «عَذاب خِزْيٍ» كَمَا تقُولُ: «فِعْلُ السُّوءِ» تريدُ: الفِعْلَ السيِّئَ، والدليلُ عليهِ قَوْلُهُ: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخرة أخْزَىٰ﴾ وهو أَبْلَغُ في الوَصْفِ، فإنَّ قولَكَ: هو شاعِرٌ، ولَهُ شِعْرٌ شَاعِرٍ، بينَهما بَونٌ بعيدٌ.

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾ أي: دَلَلْنَاهُم علىٰ طَرِيقَيِ الضَّلالةِ والرُّشْدِ، وبيَّنَّا لَهُم سَبيلَي الخَيْرِ والشَّرِ، كقَولِهِ: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾[(٣)]، ﴿فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ فاختَارُوا الكُفْرَ على الإيمانِ، والضَّلالَ على الرُّشْدِ ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ﴾ أي: قَارِعَةُ العذابِ، وواهيةُ العذابِ، و ﴿ٱلْهُونِ﴾: الهَوانِ، وَصَفَ به العذابَ مبالغةً أو أَبْدلَهُ منْهُ، وفي هذا حجَّةٌ بالغةٌ على الْمُجبِّرَةِ.

---

(١) قاله عكرمة وسعيد بن جبير كما في تفسير الماوردي: ج ٥ ص ١٧٤ .
(٢) وبالسكون قرأه ابن كثير ونافع وأبو عمرو. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٥٧٦ .
(٣) البلد: ١٠ .

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ﴾ قُرئَ بالياءِ على البناء للمفعُولِ و ﴿أَعْدَآءُ ٱللهِ﴾ بالرَّفْعِ، و «يَحْشِرُ» على البناء للفاعل وَ «أعْدَاءَ» بالنَّصْبِ[١]، ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ يُحبَسُ أَوَّلُهُم علىٰ آخرِهِم، أي: تُستوقَفُ سوابِقُهُم حتَّىٰ يدركَهُم لَواحِقُهم.

و «مَا» في قَولِهِ: ﴿إِذَا مَا جَآءُوهَا﴾ مَزيدةٌ للتأكيدِ، أي: لابدَّ أن يكُونَ وَقْتُ مجيئِهِم النَّار وَقْتَ الشَّهادةِ عليهِم. وأمَّا كيفيَّةُ نُطْقِ الجَوارحِ فإنَّ اللهَ يُنْطِقُها كَما أَنْطَقَ الشَّجرةَ بأَنْ يَخلقَ فيها كَلاماً، وقيلَ: إنَّ الجُلُودَ كنايةٌ عن الفُروجِ[٢]، وأراد بـ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الحيوانِ، ومعنَاهُ: أنَّ نُطْقَنَا ليسَ بعَجيبٍ من قُدْرةِ ٱللهِ ﴿الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ﴾ حيوانٍ ﴿وَهُوَ﴾ أَنْشَأَكُمْ ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وهو القادِرُ علىٰ إعادتِكُم ورَجْعِكُم إلىٰ جَزائِهِ.

﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ﴾ بالحُجُبِ عند ٱرتكابِ المَعَاصي مخافةَ ﴿أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ﴾ جَوارحُكُم لأنَّكُم لَمْ تَعلَمُوا أنَّها تَشْهَدُ عَليكُم ﴿وَلَكِن ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيراً﴾ من أَعْمالِكُم، وعن ٱبنِ عبَّاسٍ: أنَّهم قَالُوا: إنَّ اللهَ لا يَعْلَمُ ما في نُفُوسِنا، إنَّما يَعْلَمُ ما يَظْهَرُ[٣]. و ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ رَفعٌ بالإبتداء و ﴿ظَنُّكم﴾ و ﴿أَرْدَاكُمْ﴾ خبران، ويجوزُ أن يكون ﴿ظَنُّكم﴾ بدلاً من ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ و ﴿أَرْدَاكُمْ﴾ الخَبَرَ.

وعنِ الصَّادقِ عليه السلام: «إنَّ اللهَ عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِهِ: إنْ خَيْرٌ فَخَيْرٌ، وإنْ شَرٌّ فَشَرٌّ»[٤].

﴿فَإِنْ يَصْبِرُواْ فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ(٢٤) وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ

---

(١) هذه القراءة ذكرها الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ١٩٥ وتبعه المصنّف رحمه الله في ذلك، ولم نعثر هكذا قراءة في المصادر المعتمدة لدينا.

(٢) قاله ابن زيد. راجع تفسير الماوردي: ج ٥ ص ١٧٦.

(٣) تفسير ابن عباس: ص ٤٠٢.

(٤) الكافي: ج ٨ ص ٣٠٢ ذح ٤٦٢ باسناده عن سنان بن طريف.

وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ(٢٥) وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ(٢٦) فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ(٢٧) ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ(٢٨) وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ(٢٩) إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ(٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ(٣١) نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ(٣٢)﴾

أي: ﴿فَإِنْ يَصْبِرُوا۟﴾ لَمْ يَنْفَعْهُم الصَّبرُ ولَمْ يَنْفَكُّوا بِهِ من الثَّواءِ في النَّارِ ﴿وَإِنْ﴾ يَسأَلُوا العُتْبىٰ ويَطلُبوا الرِّضا لَمْ يُعْتَبُوا ولَمْ يُجابُوا إلى العُتْبىٰ، ولَمْ يُعطَوْا الرِّضا. ﴿وَقَيَّضْنَا﴾ أي: وَقَدَّرْنا ﴿لَهُمْ قُرَنَآءَ﴾ أَخْداناً[1] من الشَّياطينِ، جَمْعُ قَرينٍ وهو كقَولِهِ: ﴿وَمَنْ يَعشُ عَنْ ذِكْرِ ٱلرَّحْمٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾[2] والمعنىٰ: أَنَّه خَذَلَهُمْ ومَنَعَهُمْ التَّوفيقَ لِتَصْميمِهِم على الكُفْرِ، فَلَمْ يَبْقَ لَهُم قُرناءُ سوىٰ الشَّياطين ﴿فَزَيَّنُوا۟ لَهُمْ﴾ ما تَقَدَّمَ من أَعمالِهِم وما هم عازِمُونَ عليها، أو: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ من أَمْرِ الدُّنيا واتِّباعِ الشَّهَواتِ ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ من أَمْرِ العاقبةِ، وأَنْ لا بَعثَ ولا حِسَاب ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ أي: كلمةُ العَذابِ ﴿فِى أُمَمٍ﴾ في جُملةِ أُمَمٍ، ومثلُهُ قَولُ الشَّاعِرِ:

---

(١) في بعض النسخ: «إخواناً».
(٢) الزخرف: ٣٦.

إنْ تَكُ عن أحسَنِ المُروءَةِ مَـأْ فُوكاً ففي آخَرينَ قَد أُفِكُـوا[١]

يريد: فأَنْتَ في جملةِ آخرينَ، أو: في عِدَادِ آخرينَ لَسْتَ فـي ذلكَ بـأَوْحَدٍ، و﴿فِى أُمَمٍ﴾ في محلِّ النَّصْبِ على الحالِ من الضَّميرِ في ﴿عَلَيْهِم﴾، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَاسِرِينَ﴾ تَعليلٌ لاستحقاقِهِم العَذاب، والضَّميرُ في ﴿لَهُمْ﴾ للأُمَمِ.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بَعضُهُم لبعضٍ ﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ الَّذي يَقْرَأُهُ محمّدٌ ولا تَصْغَوْا إليهِ ﴿وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ﴾ يُقَالُ: لَغيَ يَلْغَىٰ، واللَّغْوُ: السَّاقِطُ من الكلامِ الّذي لا طَائِلَ تَحْتَهُ، أي: وٱشتَغِلُوا عند قِراءتِهِ برَفْعِ الأَصواتِ بالخُرافاتِ وبالزَّجْرِ والهَذيانِ حتَّىٰ تُشَوِّشُوا عليهِ قِراءَتَهُ لِتَغْلِبُوهُ بـذلك، ولا يـتَمكَّنَ أَصحابُهُ مـن الاستِمَاعِ.

﴿ٱلنَّارُ﴾ عَطْفُ بيانٍ للجزاء، أو: خَبَرُ مبتدأ محذُوفٍ ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ﴾ معناهُ: أنَّ النَّارَ في نَفْسِهَا دارُ الخُلْدِ، كقَولِهِ: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[٢] معناهُ: أَنَّ رسُولَ اللهِ أُسوةٌ حَسَنَةٌ، وتَقُولُ: لَكَ في هٰذا الدَّارِ دَارُ السُّرورِ، وأَنْتَ تعني الدَّارَ بعَيْنِها ﴿جَزَآءً بِمَا كَانُوا۟﴾ يَلْغُونَ فيها، فَذَكَرَ الجُحُودَ الذي هو سَبَبُ اللَّغْوِ.

وقُرِئَ: «أَرْنَا» بسكُونِ الراءِ[٣] لثقلِ الكسرةِ، كَمَا قيلَ: «فَخْذ» في «فخذ»، أي الشَّيْطانَيْنِ اللّذَيْنِ ﴿أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ لأنَّ الشَّيطانَ ضَـرْبَانِ: جـنِّيٌّ وإنْسيٌّ ﴿نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا﴾ في النَّارِ، والمرادُ بِهِ: نَدوسُهما ونَطَؤُهما بأَقدامِنا ليكُونَا أشدَّ عذاباً مِنَّا.

---

(١) لعروة بن أُذينة الكناني، يقول: إنْ لم توفَّقْ للإحسان فأنت في قومٍ قد صُرِفوا عن ذلك أيضاً. أُنظر ديوان عروة: ص ٣٤٣.
(٢) الأحزاب: ٢١.
(٣) قرأه الابنان (ابن كثير وابن عامر) وأبوبكر والسوسي ويعقوب. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٦٥٧.

﴿ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ﴾ ثمَّ استمرُّوا عليه وثبتُوا علىٰ مقتضياتِهِ من أنواعِ الطَّاعةِ.

وسأَلَ محمدُ بن الفضيلِ عليَّ بنَ موسَى الرضا عليه السلام عـن الاسـتقامةِ فـقَالَ: هي واللهِ ما أَنْتُم عليه.

﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ عند المـوتِ بـالبُشْرىٰ ﴿أَنْ لَا تَـخَافُواْ﴾ بـمعنىٰ «أي»، أو: مخفَّفَةٌ من الثقيلةِ، وأصلُهُ: بأنَّه لا تخَافُوا، والهاءُ ضَّميرُ الشأْنِ، والخَوفُ: غمٌّ يلحقُ لتوقّعِ المكرُوهِ، والحُزْنُ: غَمٌّ يلحقُ لوقُوعِهِ من فـوتِ نَـفْعٍ أو حُـصُولِ ضَرَرٍ، والمعنىٰ: أنَّ الله كَتبَ لكُم الأَمانَ من كلِّ خَوْفٍ وغَمٍّ، وكما أَنَّ الشَّـياطينَ قُرنَاءُ من تَقدَّمَ، فالملائكةُ أولياءُ هؤلاءِ وأحبَّاؤُهم في الدَّارَيْنِ ﴿وَلَكُمْ فِـيهَا مَـا تَـدَّعُونَ﴾ أي: تَتمنَّوْنَ من النَّعيمِ، وفي بُشْرَاهُم بولايةِ الملائكةِ إيَّاهُم في دنْياهم وأُخْراهم، وإنَالَتهم في الجنَّةِ مشْتَهاهم وغَاية مُتمنَّاهم، دَلَالةٌ عـلىٰ شَـرَفِ هـذه الطَّاعةِ الّتي هي الاستقامةُ، وأنَّها أَجَلُّ الدياناتِ والدَّرجَةُ القُصْوىٰ فيها. والنُّزُلُ: رزْقُ النَّزيلِ وهو الضَّيفُ، وانْتَصَبَ على الحالِ مـن المـوصُولِ، أو مـن الضَّـميرِ المنصُوبِ المحْذوفِ، لأنَّ التَّقديرَ: ما تدَّعُونَه.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ(٣٣) وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ(٣٤) وَمَا يُلَقَّـٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّـٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ(٣٥) وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ(٣٦) وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ(٣٧) فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُواْ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ(٣٨)﴾

مَن ﴿دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ هو رسُولُ ٱللهِ، والأئمّةُ الدُّعاةُ إلى الحقِّ القائِمُونَ مقامَهُ، وقيلَ: هم المؤذِّنُون[1]، والآيةُ عامَّةٌ في كلِّ مَن جَمَعَ بين الأوصافِ الثلاثةِ: أن يكُونَ مُوحِّداً معتقِداً للحقِّ عامِلًا للخَيْرِ داعِياً إليهِ.

والمعنىٰ: أنَّ الحَسَنَةَ والسيِّئَةَ متفاوتَتَانِ في أنفُسِهما، فَلَا تَستَوي الأَعمالُ الحَسَنَةُ والأَعمالُ السيِّئَةُ، فَخُذْ بالحَسَنَةِ الّتي هي أَحْسَنُ من أُختِها إذا ٱعترَضَتْكَ حَسَنَتَانِ فـ﴿ٱدْفَعْ﴾ بها السَّيِّئَةَ الواردَةَ عليكَ من بعضِ أعدائِكَ، ومثالُ ذلكَ: أنَّ الحَسَنَةَ أَن تعفُو عنْهُ ﴿وَٱلَّتِى هِيَ أَحْسَنُ﴾ أَن تُحْسِنَ إليهِ في مقابلةِ إساءَتِهِ، مثلُ أَن يَذُمَّكَ فَتَمْدَحُهُ، فإنَّك إذا فَعَلْتَ ذلكَ صَارَ الّذي هو عدوُّكَ المناوِئُ مثْلَ الْوَلِيِّ الحميمِ المناسِبِ المُصافي. وَمَا يُلَقَّىٰ هذهِ الخصلةُ الحميدةُ والسَجيَّةُ المرضيَّةُ الّتي هي مقابلةُ الإساءةِ بالإِحْسَانِ ولا يُؤْتَاهَا ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ علىٰ كَظْمِ الغَيْظِ وٱحتِمَالِ المَكَارِهِ، وَ ﴿إِلَّا ذُو﴾ نَصيبٍ وَ ﴿حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ من الثَّوابِ والخَيْرِ.

والنَّزْغُ والنَّسْغُ بمعنىً، وهو شبهُ النَّخْسِ، وكانَ الشيطانُ يَنْخَسُ الإِنسانَ: إذا بَعَثَهُ علىٰ بعضِ المعاصي، وأُسْنِدَ الفِعلُ إلى النَّزْغِ كما قَالُوا: جدَّ جَدُّهُ، أو: وُصِفَ الشَّيطانُ وتَسويلُهُ بالمَصْدرِ، والمعنىٰ: وإنْ صَرَفَكَ الشَّيطانُ عمَّا وصِّيْتَ بِهِ من الدَفْعِ بالّتي هي أحسن ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ مِنْ شَرِّهِ ولا تُطِعْهُ.

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ﴾ أي: حُجَجِهِ وأَدلَّتِهِ الدالَّة علىٰ وحدانيَّتِهِ ﴿الَّيْلُ وَٱلنَّهارُ﴾ وتَقْديرُهُما علىٰ حدٍّ مُستقرٍّ ونظَامٍ مُستَمرٍّ ﴿وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ وما ظَهَرَ فيهما من التَّدبير والتَّسيير فِي فَلَك التَدْوير. والضَّميرُ في ﴿خَلَقَهُنَّ﴾ لِجَميعِها؛ لأنَّ حُكْمَ جَماعةِ ما لا يَعْقِلُ حُكْمُ الأُنثىٰ أو الإِنَاثِ، تقُولُ: الدورُ رَأَيتُها ورأَيتُهُنَّ، أو: لأنّها

---

(١) وهو قول عائشة. راجع الدر المنثور للسيوطي: ج ٧ ص ٣٢٥ وعزاه إلى ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن مردويه.

في معنى الآياتِ فلذلكَ قَالَ: ﴿خَلَقَهُنَّ﴾. وموضعُ السَّجْدةِ عندَ الشّافعي[١] ﴿تَعْبُدُونَ﴾ وهو المرويُّ عن أئمّتناعليهم السلام[٢]، وعندَ أَبي حنيفةَ ﴿يَسْئَمُونَ﴾[٣].

وقَولُهُ: ﴿عِنْدَ رَبِّكَ﴾ عبارةٌ عن قُرْبِ المنزلةِ والكَرامةِ والزُّلْفى.

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَـٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ(٣٩) إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ(٤٠) إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ وَإِنَّهُۥ لَكِتَـٰبٌ عَزِيزٌ(٤١) لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ(٤٢) مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ(٤٣) وَلَوْ جَعَلْنَـٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَـٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُو۟لَـٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ(٤٤) وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ(٤٥)﴾

(١) ذكره المصنّف رحمه الله تبعاً للزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٢٠٠، وإلّا فالمشهور عن الشافعي عند قوله: ﴿يَسْئَمُونَ﴾. راجع علىٰ سبيل المثال: الخلاف للشيخ الطوسي: ج ١ ص ٤٣٠، وعمدة القاري: ج ٧ ص ٩٧، وأحكام القرآن لابن العربي: ج ٤ ص ٨٧. نعم في المجموع: ج ٤ ص ٦٠ للعلّامة النووي الشافعي ما لفظه: سجدة حٰم السجدة فيها وجهان لأصحابنا حكاهما القاضي والبغوي وغيرهما أصحّهما عند ﴿يَسْئَمُونَ﴾ وبهذا قطع الأكثرون، والثاني: أنّها عند قوله تعالى: ﴿تعبدُونَ﴾.

(٢) أُنظر التبيان: ج ٩ ص ١٢٨.

(٣) أُنظر الفتاوى الهندية: ج ١ ص ١٣٢، والمجموع: ج ٤ ص ٦٠.

والخُشوعُ في وَصْفِ الأرضِ مستَعارٌ لكَونِها يابِسَةً غَيْرَ مـمطُورةٍ، لا نَـبَاتَ فيها، وهو خِلافُ وَصْفِها بالاهتِزازِ، والرَّبْوُ وهو الانتفاخُ: إذا أَخْـصَبَتْ وتَـزَيَّنت بالنَّباتِ تَشْبيهاً لَهَا بالمُخْتالِ في زَيِّهِ، وشُبِّهَت قَبْلُ بالذَّليلِ الخَّاضِعِ في الأَطْـمارِ الرثَّةِ، وقُرئَ: «وَرَبَأَتْ»[1] أي: ارتَفَعَتْ.

ولَحَدَ الحَافِرُ والْحَدَ: إذا مَالَ عن الاستقامةِ فَحَفَرَ في شقٍّ، فاستُعيرَ للانحرافِ في تأْويلِ آياتِ القُرآنِ عن جهةِ الصحَّةِ والاستقامةِ، وقُرئ باللُّغَتَيْنِ[2] ﴿لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا﴾ وَعِيدٌ. وقَولُهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بَدَلٌ من قَولِهِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِى ءَايَـٰتِنَا﴾، والذِّكْرُ: القُرآنُ لأنَّهم لِكُفرِهم بِهِ طَعَنُوا فيهِ وحَرَّفُوا تأْويلَهُ ﴿وَإِنَّه لَكِتَـٰبٌ عَزِيزٌ﴾ منيعٌ مَحْمِيٌّ بحمايةِ الله. ﴿لَا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ﴾ مَثَلٌ، أي: لا يَتَطرَّقُ إليهِ الباطلُ من جهةٍ من الجهاتِ، ونَحوُهُ: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَـٰفِظُونَ﴾[3]، وعـن السـيِّدَيْنِ البـاقرِ والصَّادقِ عليهما السلام: «لَيسَ في أَخْبارِهِ عمَّا مَضَىٰ، ولا في أَخْـبارِهِ عـمَّا يكُـونُ فـي المستقبل بَاطِلٌ، بل أَخْبارُهُ كلُّها موافقَةٌ لمُخْبَراتِها».

﴿مَا يُقَالُ لَكَ﴾ أي: ما يقُولُ لكَ كُفَّارُ قَومِكَ ﴿إِلَّا﴾ مِثْلَ ما قَالَ للرُّسُلِ كفَّارُ قومِهِم من الكلماتِ المؤْذيةِ ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ لِمَنْ آمَـنَ بِكَ ﴿وَذُو عِـقَابٍ أَلِيمٍ﴾ لِمَنْ كَذَّبَكَ، أَو يكون المعنىٰ: ما يقُولُ لَكَ اللهُ إلَّا مِثْلَ ما قَالَ للرُّسُلِ من قبلِكَ، والمقُولُ: إنَّ ربَّكَ لَذُو مغفرةٍ وذُو عِقَابٍ أَليم.

﴿وَلَوْ﴾ جَعَلْنَا القُرآنَ ﴿أَعْجَمِيّاً﴾ بغَيْرِ لُغَةِ العَرَبِ، وسَمَّوا مَن لَمْ يبيِّنْ كَـلامَهُ

---

(١) وهي قراءة أبي جعفر المدني وخالد. راجع تفسير القرطبي: ج ١٥ ص ٣٦٥.

(٢) قرأ ابن كثير ونافع وابن عامر وعاصم وأبو عمرو بضمّ الياء وكسر الحاء في جميع القرآن، وحمزة وحده بفتح الياء والحاء، والكسائي في النحل مثل حمزة والباقي كما قرأه الجمهور من السبعة. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٢٩٨.

(٣) الحجر: ٩.

من أيِّ صِنْفٍ كانَ من النَّاسِ أَعْجَمٌ، قَالَ عَنْتَرَةُ:

حَزَقٌ يَمَانِيَّةٌ لِأَعْجَمَ طِمْطِمِ [١]

﴿لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلت ءَايَـٰتُهُۥٓ﴾ أي: بُيِّنَتْ بِلِسَانٍ تَفْهَمُهُ [٢] ﴿ءَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ والهمزةُ للإنْكارِ، أي: قُرآنٌ أَعْجَميٌّ ورَسُولُ عَربيٌّ، أو مُرْسَلٌ إليهِ عربيٌّ، لأنَّ مبْنَى الإنْكارِ علىٰ تَنافي حَالَتيْ الكتابِ والمكتُوبِ إليه، لا علىٰ أَنَّ المكتُوبَ إليهِ واحِدٌ أو جَمَاعةٌ ﴿قُلْ هُوَ﴾ الضَّميرُ للقُرآنِ ﴿هُدًى﴾ و [٣] إرشادٌ إلى الحقِّ ﴿وَشِفَاءٌ لِمَا فِى ٱلصُّدور﴾ [٤] من الشَّكِّ، أو: شِفَاءٌ من الأَدْواءِ، و ﴿الَّـذِينَ لا يُـؤمِنُونَ﴾ إنْ عَطَفْتَهُ علىٰ ﴿الَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ كانَ في مَوضعِ جرٍّ علىٰ معنىٰ قولِكَ: وهو للّذينَ لا يؤْمِنُونَ ﴿فِـىٓ ءَاذَانِـهِمْ وَقْـرٌ﴾، إلَّا أنَّ فـيه عَـطْفاً عـلىٰ عـاملَيْنِ وقَـد أَجـازَهُ الأخفش [٥]، وإنْ جَعَلْتَهُ مبتدأً فالخَبَرُ: هو ﴿في ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ﴾ علىٰ حَذْفِ «هو»، أو: في آذانِهم منْهُ وَقْرٌ، و ﴿يُنَادُونَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ يـعني: أنَّـهُمْ لا يَـقْبلُونَهُ ولا يَرعَوْنَهُ أَسمَاعَهُم، فَمَثَلُهُم في ذلكَ مَثَلُ مَن يُصَوَّتُ بِهِ من مكانٍ بعيدٍ، لا يَسْمَعُ مَن مثْلُهُ الصَّوت فلا يَسْمَعُ النِّداءَ.

﴿فَاخْتُلِفَ فِيهِ﴾ أي: آمَنَ بِهِ قَومٌ وكَذَّبَ به آخَرونَ، وهـو تسـليةٌ لنـبيِّناعليه السلام ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ في تأْخيرِ العَذَابِ عن قَومِكَ لَفَرَغَ من عَـذَابِـهِم وٱستِئْصَالِهِم، وهي كقَولِهِ: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾ [٦].

---

(١) وصدره: تأْوي له قُلُصُ النَّعام كما أَوَتْ. والبيت من معلّقته المشهورة وهو يصف ناقته. انظر ديوان عنترة بن شداد: ص ٥٩. والحَزَقُ: جماعات الإبل، والطِمْطِم: الأعجميّ الذي لا يُفهم كلامُهُ.

(٢) في نسخة: «تفقهه».

(٣) في نسخة: «أي» بدل الواو.

(٤) القمر: ٤٦.

(٥) حكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٢٠٣.

(٦) يونس: ٥٧.

﴿مَّنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ(٤٦) إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓاْ ءَاذَنَّـٰكَ مَامِنَّا مِن شَهِيدٍ(٤٧) وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّواْ مَالَهُم مِّن مَّحِيصٍ(٤٨) لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ(٤٩) وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ(٥٠) وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ(٥١) قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍ بَعِيدٍ(٥٢) سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْأَفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ(٥٣) أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ أَلَآ إِنَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌ(٥٤)﴾

﴿فَلِنَفْسِهِ﴾ نفعُ صلاحِهِ ﴿فَعَلَيْهَا﴾ وبالُ إساءَتِهِ دونَ غيرِها.

﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ أي: إذا سُئِلَ عنها قيلَ: اللهُ يَعلَمُ، أو: لا يَعْلَمُها إلَّا ٱللهُ، الأكْمَامُ جَمْعُ كِمٍ بكَسْرِ الكافِ وهو وعاءُ التَّمرةِ، وقُرِئَ: ﴿مِنْ ثَمَرَٰتٍ﴾ على الجَمْعِ [1] ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِى﴾ أضافَهُم إليهِ علىٰ زَعْمِهِم، وفيهِ تَقْريعٌ على طَريقِ التَهكُّمِ ﴿مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ﴾ أي: ما مِنَّا أَحَدٌ اليومَ يَشْهَدُ بأنَّهم شُرَكاؤُكَ، وما مِنَّا أحدٌ يشاهِدُهُم، وذلكَ أنَّهم ضَلُّوا عنْهُم، ومعنىٰ ﴿ءَاذَنَّـٰكَ﴾: أنَّكَ تعلَمُ من نفُوسِنا ذلكَ،

(١) الظاهر من عبارة المصنّف رحمه الله أنّه اعتمد هنا علىٰ قراءة المفرد تبعاً للزمخشري في الكشاف.

أو: هو كَمَا تقُولُ: أعْلَمَ المَلِكَ أنَّه كانَ كيتَ وكيتَ، وعلَّق ﴿مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ معنى الإعْلامِ؛ لأنَّ النَّفْيَ لَهُ حُكْمُ الاستفهامِ في أنَّ لَهُ صَدْرَ الكلامِ. وكَذَا قَولُهُ: ﴿وَظَنُّواْ مَا لَهُمْ مِّنْ مَحِيصٍ﴾ والمعنىٰ: عَلِمُوا أَن لا مَخْلَصَ لَهُم من عَذَابِ ٱللهِ، عَبَّرَ بالظَنِّ عن العِلْمِ.

﴿مِنْ دُعَآءِ ٱلخَيْرِ﴾ من طَلَبِ السَّعَةِ في المالِ والصحَّةِ ﴿وَإِنْ مَسَّهُ﴾ البَـلاءُ والشدَّةُ ﴿فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ﴾ شَديدُ اليأْسِ مَقْطُوعُ الرَّجاءِ من فَضْلِ اللهِ ورَوْحِهِ، وهذهِ صِفَةُ الكافرِ بدلالةِ قَولِهِ: ﴿وَلا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ ٱللهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَافِرُونَ﴾ (١).

﴿لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي﴾ أي: هذا حقِّي وَصَلَ إِليَّ، لأنِّي ٱستَوجَبْتَهُ بما عِنْدي من فَضْلٍ، أو: هذا لي دائِمَاً أَبَداً ﴿وَمَا أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ كائِنَةً ﴿وَلَئِنْ رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ علىٰ ما يقُولُهُ المسلمُونَ ﴿إِنَّ لِي عِنْدَهُ﴾ الحالَةَ الحُسْنَىٰ وهي الجَنَّةُ، أي: سيُعطِيني في الآخرةِ مثْلَ ما أَعْطاني في الدُّنيا.

﴿فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ استَعَارَ العَرْضَ لكثْرةِ الدُّعاءِ ودَوَامِهِ كَمَا ٱستَعَارَ الغِلَظَ لشدَّةِ العَذَابِ. وقُرِئَ: «وَنِأَىٰ» بإمالةِ الأَلْفِ وَكَسْرِ النـونِ (٢)، «وَنَـآءَ» (٣) عـلى القَلْبِ كَمَا قيلَ: «راءَ» في «رأىٰ»، ويُريدُ ﴿بِجَانِبِهِ﴾ نفسَهُ وذاتَهُ، فكأَنَّهُ قالَ: ونأىٰ بنَفْسِهِ، أو يريدُ ﴿بِجَانِبِهِ﴾ عِطْفَهُ، ومعنَاهُ: انحَرَفَ وازْوَرَّ، كما قيلَ: ثَنَىٰ عِطْفَهُ (٤)، وَ﴿تَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ﴾ (٥).

﴿أَرَءَيْتُم﴾ أَخبِرُوني ﴿إِن كَانَ﴾ القُرآنُ ﴿مِنْ عِندِ ٱللهِ﴾ وَقَدْ ﴿كَفَرْتُمْ بِهِ﴾ وكانَ

---

(١) يوسف: ٨٧.
(٢) قرأه الكسائي وحمزة برواية خلف عنه. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٥٧٧.
(٣) وهي قراءة ابن عامر برواية ابن ذكوان عنه. راجع المصدر السابق.
(٤) أي: أعْرضَ عنك.
(٥) الذاريات: ٣٩.

الكسَائيُّ يَحذِفُ همزةَ «رأىٰ» إذا كانَ مع همزةِ الاستفهامِ، نحُو: «أَرَيتُم» و «أَرَيتُكم» في جميعِ القرآنِ ٱستثقالاً للهمزَتَيْنِ، ولا يَحذِفُ في غيرِهَا، نَحُو: «رأىٰ القَمَرَ» و «رأَى الشَّمْسَ» ﴿مَنْ أَضَلُّ﴾ مِنْكُمْ وأَنْتُم بَلَغْتُم الغايةَ في المَشاقَّة والمناصَبة؟ فَوَضَعَ ﴿مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ مَوضِع «منْكُم» بياناً لِصِفَتِهِم.

﴿سَنُرِيهِم ءَايَـٰتِنَا﴾ في نُصْرةِ رسُولِنا محمّدٍ ﷺ ﴿فِى﴾ آفاقِ الدُّنيا من الفُتُوحِ ومن الإِظْهارِ على الأكاسِرَةِ والمُلُوكِ وتَغْليبِ العَدَدِ القليلِ على الكثيرِ، والأُمُورِ الخَارجَةِ عن المعهُودِ ﴿وَفِى أَنْفُسِهِمْ﴾ يَومَ بدر، أو: يَومَ فَتْحِ مَكَّةَ، ﴿بِرَبِّكَ﴾ مرفُوعُ المَحَلِّ بأنَّه فَاعِلٌ، و ﴿أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ بَدَلٌ منه على المَوضِعِ[1]، وتَقديرُهُ: أَوَلَمْ يَكْفِهِم أنَّ ربَّكَ علىٰ كلِّ شيءٍ شَهيدٌ، والمعنىٰ: أنَّ الموعُودَ من إظْهارِ آياتِ اللهِ في الآفاقِ وفي أَنْفسِهِم سَيَرَوْنَهُ ويُشاهِدُونَهُ، فيتبيَّنُونَ عندَ ذلكَ أنَّ القُرآنَ تَنْزِيلُ عَالِمِ ٱلغَيْبِ الَّذي هو علىٰ كلِّ شيءٍ شَهيدٌ، أي: مطَّلِعٌ مُهَيْمِنٌ، يَستَوي عندَهُ غيبُهُ وشَهَادَتُهُ، فَيَكْفِيهِم ذلكَ دَليلًا علىٰ أَنَّه حقٌّ وأَنَّه من عِنْدِهِ.

۞ ۞ ۞

---

(١) ليس في نسخة: «على الموضع».

سُورَةُ الشُّورَىٰ[1]

مكّيّةٌ[2] غَيْرُ آياتٍ مِنْها، وهي ثَلاثٌ وخَمسُون آيةً كوفيٌّ، خَمسُونَ في البَاقي، عَدَّ الكوفيُّ ﴿حمٓ﴾ و ﴿عٓسٓقٓ﴾ و ﴿كَالأَعْلَـٰمِ﴾[3].

وفي حديثِ أُبَيٍّ: «مَنْ قَرأَ سُورةَ حمٓ عٓسٓقٓ كَانَ مِمَّن تُصَلِّي عليهِ المـلائكةُ، ويَستَغْفِرونَ لَهُ»[4].

عن الصَّادِقِ عليه السلام: «مَنْ قَرَأَها بَعَثَهُ اللهُ يَوم القيامةِ وَوَجْهُهُ كالقَمَرِ لَيلَةِ البَدْرِ»، الخَبَرُ بطُولِهِ[5].

---

(١) في بعض النسخ: «سورة حمٓ عسٓقٓ».

(٢) قال الشيخ الطوسي في التبيان: ج ٩ ص ١٤٠: مكّية في قول قتادة ومجاهد، وليس فيها ناسخ ولا منسوخ، وهي ثلاث وخمسون آيةً في الكوفي، وخمسون في البصري والمدنيّين.

وفي تفسير الماوردي: ج ٥ ص ١٩١: مكّية في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر، وقاله ابن عباس وقتادة إلّا أربع آيات منها نزلت بالمدينة ﴿قُلْ لا أسألكم عَلَيه أجْراً﴾ الى آخرها.

وفي الكشّاف: ج ٤ ص ٢٠٨: مكيّة إلّا الآيات ٢٣ و٢٤ و٢٥ و٢٧ فمدنية، وآياتها (٥٣) نزلت بعد سورة فصّلت.

(٣) الآية: ٣٢.

(٤) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٢٣٥ مرسلاً.

(٥) انظر ثواب الأعمال للصدوق: ص ١٤٠.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حمٓ(١) عٓسٓقٓ(٢) كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ(٣) لَهُ مَافِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ(٤) تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ(٥) وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ(٦) وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ(٧) وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحْمَتِهِۦ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَالَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ(٨)أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(٩) وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ(١٠)﴾

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثلُ ذلكَ الوَحْيِ يُوحِي إليكَ وإلى الأنبياءِ ﴿مِنْ قَبْلِكَ ٱللَّهُ﴾ يعني: أنَّ ما تَضَمّنتهُ هذه السُّورةُ من المَعَاني قد أَوْحَى اللهُ إليكَ مثْلَهُ في غيْرِها من السُّوَرِ، وأَوْحَاهُ إلىٰ مَن قبلكَ، علىٰ معنىٰ: أنَّ الله كرَّرَ هذهِ المَعَاني في القُرآنِ وفي جَميعِ الكُتُبِ السَّماويةِ، لِمَا فيها من المَنَافِعِ الدينيَّةِ لعبادِهِ، وقُرئَ: «يُوحَىٰ إليك»[1]، وعلىٰ هذا فإنَّما يرتَفِعُ اسمُ «الله» بما دلَّ عليهِ «يُوحَىٰ»، فكأنَّ قَائِلًا قَالَ: مَن المُوحِي؟ فقيلَ: ٱللهُ.

(١) قرأه ابن كثير وحده. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٥٨٠.

﴿تَكَادُ﴾ قُرِئَ بالتَّاءِ والياءِ(١)، وقُرِئَ: «يَنْفَطِرْن»(٢) و ﴿يَتَفَطَّرْنَ﴾ ومعنَاهُ: يَتَشَقَّقْنَ من عُلُوِّ شأْنِ اللهِ وعَظَمتِهِ، بدلالةِ مَجيئه بعدَ قَولِهِ: ﴿الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾، وقيلَ: من دُعَائِهِم لَهُ وَلَداً(٣) ﴿مِن فَوْقِهِنَّ﴾ أي: يَكَادُ يَبتَدأُ الانفِطَارُ من جِهَتِهِنَّ الفوقانيَّةِ الّتي هي أَعْظَمُ آياتِ الجَلالِ والعَظَمةِ، وهي العَرشُ والكُرْسِيُّ، وقيلَ: من فَوْقِ الأَرَضين(٤)، وعن الصَّادقِ عليه السلام: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ﴾ من المُؤْمنينَ.

﴿اللَّهُ حَفِيظٌ﴾ يَحفَظُ عليهِم أَعْمالَهُم ولَمْ تُوكَّلْ لِحفْظِها، فَلا يَضِيقَنَّ صَدْرُكَ لِتَكذيبِهِم إيَّاكَ. ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ ومِثلُ ذلكَ ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾: و«ذلك» إشارةٌ إلىٰ معنى الآيةِ قَبْلَها من أنَّ اللهَ هو الحَفِيظُ عليهِم وما أَنْتَ بحَفيظٍ عليهِم ولكن نَذيرٌ لَهُم، لأنَّه قد تَكَرَّرَ ذِكْرُهُ في مواضِعَ من التنزيل، فالكافُ مَفعولُ لـ﴿أَوْحَيْنَا﴾ و ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ حَالٌ من المفعُولِ بهِ، أي: أَوْحَينَاهُ إليكَ وهو قُرآنٌ عربيٌّ، ويجُوزُ أن يكُونَ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةً إلىٰ مَصْدرِ ﴿أَوْحَيْنَا﴾ أي: ومثْلُ ذلكَ الإيْحَاءِ البيِّنِ أَوْحَيْنا إليكَ قُرآناً عربيّاً بلسَانِكَ ﴿لِّتُنذِرَ﴾ أَهْلَ ﴿أُمَّ الْقُرَىٰ﴾ وهي مَكَّةُ ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ من سائِرِ النَّاسِ، وَتُنْذِرَهُم ﴿يَوْمَ الْجَمْعِ﴾ وهو يَوم القيامةِ، يَجْمَعُ اللهُ فيهِ الأوَّلينَ والآخرينَ. يقَالُ: أَنْذَرْتَهُ كَذَا وأَنْذَرْتَهُ بكَذَا، وَقَد عَدَّى الأَوَّلَ إلى المفعولِ الأوَّلِ والثَّانِيَ إلى المفعولِ الثَّاني وهو يَوم الجَمْعِ، وقيلَ: يَجْمَعُ فيهِ بينَ الأَرْواحِ والأَجْسَادِ(٥)، وقيلَ: يَجْمَعُ بينَ كلِّ عَامِلٍ وعَمَلِهِ(٦)، و ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ اعتِرَاضٌ لا مَحَلَّ لَهُ.

---

(١) وبالياء قرأه نافع والكسائي. راجع المصدر السابق.

(٢) وهي قراءة أبي عمرو وعاصم برواية أبي بكر. راجع المصدر نفسه.

(٣) حكاه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٢٠٨.

(٤) قاله ابن عباس في تفسيره: ص ٤٠٦.

(٥ و٦) حكاه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٢١٠.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ مشيئةَ قُدْرَةٍ لأجْبَرَهُمْ جميعاً على الإيمانِ، ولكنَّه شاءَ مَشيئَةَ حكمةٍ أَن يُكَلِّفَهُم، وبَنَىٰ أَمْرَهُم على الاختيارِ لِيُدْخِلَ المؤمنينَ ﴿فِى رَحْمَتِهِۦ﴾.

﴿أَمِ﴾ منقطِعَةٌ، ومعنَى الهَمزةِ فيها الإِنْكَارُ ﴿فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ﴾ هو الَّذي يَجِبُ أَن يُتَوَلَّىٰ وحدهُ، ويَعتقدُ أنَّه الحَقيقُ بالولايةِ دونَ غَيْرِهِ، والفاءُ جَوابُ شَرْطٍ مُقَدَّرٍ كأنَّه قَالَ بَعْدَ إنْكَارِ كُلِّ وليٍّ سِواهُ: إنْ أرادُوا وليّاً بحَقٍّ فاللهُ هو الوليُّ الحَقُّ، ومِنْ شَأنِ هذا الوَليِّ أنَّه ﴿يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فهو الحَرِيُّ بأن يُتَّخَذَ وَلِيّاً دونَ مَنْ لا يقْدِرُ علىٰ شيء.

﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ﴾ حِكَايةُ قَوْلِ الرسُولِ صلى الله عليه وآله وسلم للمؤمنينَ، ومعناهُ: ما تَخْتَلِفُونَ فيهِ من أُمورِ الدينِ فَحُكْمُ ذلكَ المخْتَلَفِ فيهِ مُفَوَّضٌ ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ يُثيبُ المُحقَّ ويُعاقِبُ المُبْطِلَ ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ الحَاكِمُ ﴿ٱللَّهُ﴾ هُو ﴿رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ في رَدِّ كَيْدِ الأَعْداءِ ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ في جَميعِ الأُمُور.

﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ(١١) لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ(١٢) شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ(١٣) وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ(١٤) فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ

وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ(١٥)﴾

﴿فَاطِرُ﴾ خَبَرٌ بعد خَبَرٍ لـ﴿ذَٰلِكُم﴾، أو خَبَرُ مبتدأ محذُوفٍ، أي: خَلَقَ لَكُم من جنْسِكُم ﴿أَزْوَاجًا﴾ وخلق ﴿الأنعـٰم﴾ أيضاً من أجناسها ﴿أَزْوَٰجاً يَـذْرَؤُكُـمْ﴾ يُكثِّرُكم ﴿فيهِ﴾ في هذا التَّدبيرِ، وهو أن جَعَلَ بين الذُّكورِ والإناثِ من النَّاسِ والأَنْعام التَّوالِدَ والتَّناسُلَ، والضَّميرُ في ﴿يَذْرَؤُكُمْ﴾ يرجعُ إلى المُخاطَبينَ والأنْعامِ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ﴾ وهو كَقَولِهم: مِثْلُكَ لا يَبْخَلُ، والمُرادُ: نَفْيُ البُخْلِ عن ذاتِـهِ، وهو من بابِ الكنايةِ، لأنَّهم إذا نَفَوْا الشَّيءَ عمَّن يَسُدّ مَسَدَّهُ فَقَد نَفَوْهُ عنْهُ، فالمعنىٰ: نَفْيُ المماثلةِ عن ذاتِهِ سبحانَهُ، فلا فَرْقَ بينَ أن يُقَالَ: ليس كاللهِ شيءٌ، وأن يُقَالَ: ليس كَمِثْلِهِ شَيءٌ، إلَّا فَائِدَةَ الكِنايةِ، وقيلَ: كُرِّرتْ كلمةُ التَّشْبيهِ للتأْكيدِ[1] كَما كُرِّرتْ في قَولِ الشَّاعِرِ:

وَصَالياتٍ كَكَما يُؤَثفَيْنَ[2]

﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ ٱلدِّيـنِ﴾ دينِ نُوحٍ ومحمّدٍ ومَن بينَهُما من الأنبياءِ، ثمَّ فَسَّرَ المشْرُوعَ الَّذي ٱشتَركَ هؤلاء الرُّسُلُ فيهِ بقَولِهِ: ﴿أَنْ أَقِيمُوا ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ والمُرادُ: إقَامةُ دينِ الإِسلامِ الَّذي هو تَوحيدُ ٱللهِ وطاعتُهُ والإيمانُ بِرُسُلِهِ وحُجَجِهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ، ومَحَلُّ ﴿أَنْ أَقِيمُواْ﴾ نَصْبُ بَدَلٌ من مفعُولِ ﴿شَرَعَ﴾ والمعْطُوفين عليهِ ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي: عَظُمَ عليهِم وشَقَّ ﴿يَـجْتَبِىٓ إِلَـيْهِ﴾ والضَّـمير لـ﴿ٱلْدِينِ﴾ أي: يَجْتَلِبُ إليهِ بالتَّوفيقِ ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ من يُجْدِي عليهِم لُطْفَهُ.

---

(١) قاله الزجَّاج في معاني القرآن: ج ٤ ص ٣٩٥.

(٢) لخِطَام الريح المجاشعي الراجز، وهو خِطَام بن نصر بن عياض، وقيل: اسمه بشْر، والبيت من قصيدةٍ له يصف فيها آثار ديار مهجورة. راجع خزانة الأدب للبغدادي: ج ٢ ص ٣١٣.

﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ﴾ يعني: أَهْلَ الكِتَابِ بعد أَنْبيائِهِم ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ﴾ أن عَلِمُوا أَنَّ الفُرْقَةَ ضَلالٌ وفَسَادٌ ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ وهي عِدَّةُ التأْخير ﴿إِلَىٰٓ﴾ يوم القيامةِ ﴿لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ حين ٱفتَرَقُوا لِعِظَمِ ما ٱقْتَرَفُوا ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ وهم أَهلُ الكتابِ الَّذينَ كانُوا علىٰ عَهْدِ رسولِ ٱللهِ ﴿لَفِى شَكٍّ﴾ من كتابِهِم لا يؤْمنُونَ بهِ حقَّ الإِيمانِ. وقيلَ: وَمَا تَفَرَّقَ أهلُ الكِتَابِ إلَّا مِن بَعْدِ ما جَاءَهُم العلْمُ بمَبْعَثِ رسولِ ٱللهِ، ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ العَرَب، والكِتَابِ: القُرآن[1]. ﴿فَلِذَٰلِكَ﴾ أي: فَلِأَجْلِ ذلك التفَرُّقِ ﴿فَٱدْعُ﴾ إلى الاتّفاقِ والائتلافِ على المِلَّةِ الحنيفةِ ﴿وَٱسْتَقِمْ﴾ عليها وعلَى الدَّعْوةِ إليها ﴿كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ المختَلِفَةَ الباطِلَةَ ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ من الكُتُبِ على الأنبياءِ قَبْلي ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ في الدُّعاءِ إلى الحقِّ ولا أُحابي أَحَداً، أو: أَعْدِلَ بينَكم في جَميعِ الأَشْياءِ ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ أي: لا خُصُومَةَ لأنَّ الحقَّ قَد ظَهَرَ، والحجَّةُ قد لَزِمَتْكُم فلا حَاجَةَ إلى المَحَاجَّةِ، والمعنىٰ: لا إِيْرادَ حُجَّةٍ بينَنا وبينَكُم ﴿ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾ يومَ القيامةِ فَيفْصِلُ بَينَنا ويَنْتَقِمُ لَنَا منْكُم.

﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ(١٦) ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ(١٧) يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ(١٨) ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ(١٩) مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ

(١) قاله ابن عباس في تفسيره: ص ٤٠٧.

ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ(٢٠)﴾

﴿ٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى﴾ دينِ ﴿ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ﴾ أي: ٱستَجابُوا للنَّبيِّ ﷺ إلىٰ ما دعاهم إليه ودَخَلُوا في الإسلامِ لِظُهُورِ حجَّتِهِ بالمُعْجَزاتِ والآياتِ الَّتي أَظْهَرَها اللهُ سبحانَهُ فيهِ ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ﴾ أي: باطِلَةٌ، سمَّىٰ شُبْهَتَهُم حُجَّةً علىٰ حَسْبِ ٱعتقادِهِم.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ﴾ جِنْسَ ﴿ٱلْكِتَٰبَ... وَٱلْمِيزَانَ﴾ أي: وأَنْزَلَ العَدْلَ والتَّسويةَ في كُتُبِهِ المنزَلَةِ، وقيلَ: الميزانُ الَّذي يوزَنُ بِهِ أنْزَلَهُ من السَّماءِ[1] ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ مُتَلَبِّساً بالحقِّ مُقْتَرناً بِهِ، أو: بالغَرَضِ الصَّحيحِ كَمَا ٱقتَضَتْهُ الحِكْمَةُ، أو: بالواجِبِ من التَّحريمِ والتَّحليلِ وغَيْرِ ذلكَ ﴿ٱلسَّاعَةَ﴾ في تَأْوِيلِ البَعْثِ، فلذلكَ قَالَ: ﴿قَرِيبٌ﴾، أو: لَعلَّ مجيءَ السَّاعةِ قَرِيبٌ.

﴿يُمَارُونَ﴾ يُلاجُّونَ ويُخَاصِمُونَ في مجيءِ السَّاعةِ ﴿لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ من الحقِّ؛ لأنَّ قيامَ السَّاعةِ غَيْرُ مستبْعَدٍ من قُدْرةِ القَادِرِ بِالذَّاتِ، ولدَلالةِ الكتابِ المُعْجِزِ علىٰ أنَّها آتيةٌ لا رَيْبَ فيها، ولِقيامِ دَليلِ العَقْلِ علىٰ أنّه لابدَّ من دَارِ جَزاءٍ ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ أي: بَرٌّ بِهِم، بليغُ البِرِّ، قَد وَصَلَ بِرُّهُ إلىٰ جميعِهِم، وإلىٰ حَيْثُ لا يَبْلُغُهُ وَهْمُ أَحَدٍ منْهُم.

سمَّىٰ ما يَعْمَلُهُ العامِلُ ممَّا يَبْتَغي بِهِ الفائدةَ حَرْثاً على المَجَازِ، وفرَّقَ بينَ عَمَلِ العاملينَ بأَنَّ مَن عَمِلَ للآخرةِ وُفِّقَ في عَمَلِهِ وضُوعِفتْ حسناتُهُ، ومَن عَمِلَ للدُّنيا أُعطِيَ شيئاً منها لاما يبتَغيه ﴿وَمَا لَهُۥ... نَصِيبٍ﴾ قطُّ في الآخرةِ، ولم يَذْكُرْ في معنىٰ

(١) قاله الجبائي. راجع التبيان: ج ٩ ص ١٥٤.

عاملِ الآخرة: «ولَهُ في الدُّنيا نَصيبٌ» مع أنَّ رزقَه المَقسُومَ لَهُ لابدَّ أن يَصِلَ إليهِ؛ للاستهانَةِ بذلكَ إلىٰ جَنْبِ ما هو بِصَدَدِهِ من الفوزِ والسَّعادةِ في المآب.

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَـٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَالَمْ يَأْذَن بِهِ ٱللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(٢١) تَرَى ٱلظَّـٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فِى رَوْضَـاتِ ٱلْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ(٢٢) ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ(٢٣) أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَـٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَـٰتِهِۦٓ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ(٢٤) وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ(٢٥) وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَٱلْكَـٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ(٢٦) وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌ بَصِيرٌ(٢٧)﴾

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَـٰٓؤُاْ﴾ الهَمزةُ في «أَمْ» للتَّقريعِ والتَّقريرِ، وشُرَكاؤهم: شياطينُهُم الَّذين زَيَّنُوا لهم الشِّرْكَ، والعَمَلَ للدُّنيا، وإنْكارَ الحَشْرِ والجزاءِ وما لَمْ يأْمُرِ اللهُ بِهِ ولا أَذِنَ فيه ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ﴾ في تأْخيرِ عذابِ هذه الأُمَّـةِ إلى الآخرةِ ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: فُرِغَ من عذابِهم في الدُّنيا.

﴿تَرَى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ في الآخرةِ ﴿مُشْفِقِينَ﴾ خائفينَ خوفاً شديداً، أَرَقَّ قُلوبَهم ﴿مِمَّا كَسَبُواْ﴾ من السيِّئاتِ ﴿وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ وجزاؤُهُ وَبالُهُ واقعٌ بِهِم، واصِلٌ

إليهم، أَشْفَقُوا أو لَمْ يَشْفقوا، والضَّميرُ لِكَسْبِهِم الَّذي دلَّ عليه «مَا كَسَبُوا»، وَالرَّوضةُ: الأرضُ الخَضِرَةُ لِحُسْنِ النَّباتِ، وكأَنَّ ﴿رَوْضَاتِ ٱلجَنَّاتِ﴾ أَطْيَبُ البِقَاعِ فيها وأَنْزَهُهَا ﴿لَهُمْ مَّا يَشَآءُونَ﴾ ويَشْتَهون، وٱنتَصَبَ ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ بالظَّرْفِ لا بـ﴿يَشَآءُونَ﴾، ﴿ذَٰلِكَ﴾ الثَّوابُ ﴿هُوَ ٱلفَضْلُ﴾ العَظيمُ، والنَّعيمُ المُقيمُ الَّذي يستأْهلُ أَن يُسمَّىٰ كَبيراً

﴿ذَٰلِكَ﴾ الثَّوابُ ﴿ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ﴾ فَحُذِفَ الجَارُّ كَمَا في قولِهِ: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ﴾ (١)، ثمَّ حُذِفَ الضَّميرُ العائدُ إلى الموصُولِ، أو: ذلكَ التَّبشيرُ الَّذي يُبشِّرُ اللهُ به عبادَهُ المؤْمنينَ الصَّالحينَ لِيَسْتَبشِرُوا بذلكَ في الدُّنيا. وقُرِئَ: ﴿يُبَشِّرُ﴾ من: بَشَّرَهُ، وَ«يُبْشِرُ» (٢) من: أَبْشَرَهُ.

ورُوِيَ: أنَّ المشركينَ قالُوا فيما بينَهُم: أَتَرَونَ محمَّداً يَسْأَلُ علىٰ ما يَتعاطَاهُ أَجْراً؟ ونَزَلت الآية (٣)، ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ﴾ علىٰ تَبليغِ الرِّسالةِ ﴿أَجْراً إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ يجوزُ أَن يكُونَ ٱستثناءً متَّصلًا، أي: لا أَسأَلكُم أَجراً إلَّا هذا، وهو أَن تَوَدُّوا أَهلَ قَرابَتي، ولَمْ يكُنْ هذا أَجراً في الحقيقةِ لأنَّ قَرابَتَهُ قَرابَتُهُم، فكانَتْ صِلَتُهُم لازِمَةً لَهُم في المُروءَةِ، ويجوزُ أن يكُونَ استثناءً منْقَطِعاً، أي: لا أَسأَلكُم أَجْراً قَطُّ ولكن أَسأَلُكُم أَن تُوادُّوا قَرابتي وعِتْرتي وتَحفَظُوني فيهِم، ومعنىٰ ﴿في ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أنَّه جَعَلَهُم مكاناً للمَودَّةِ ومَقَرّاً لها، كَمَا تَقولُ: لي في آلِ فُلانٍ مودَّةٌ؛ و: لِي فيهِم حُبٌّ شَّديدٌ، تُريدُ: أُحِبُّهُمْ، و: هُم مكانُ حُبِّي ومودَّتي، وَليسَتْ ﴿فِى﴾ بِصِلَةٍ لـ﴿المَوَدَّة﴾ كاللَّامِ إذا قُلْتَ: إلَّا المودّةَ للقُربىٰ، إنَّما هي متعلِّقةٌ بمَحذُوفٍ كَمَا

(١) الأعراف: ١٥٥.

(٢) قرأه ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٢٠٥.

(٣) رواه الواحدي النيسابوري في أسباب النزول: ص ٣١٥ ذ ح ٧٧٨ عن قتادة.

يَتَعَلَّقُ الظرفُ بِهِ في قولِكَ: المالُ في الكيسِ، وتَقْديرُهُ: إلَّا المَوَدَّةَ ثَابِتَة في القُربىٰ.

وعنِ ٱبنِ عبَّاسٍ: أَنَّها لمَّا نَزَلَتْ قالُوا: مَنْ قرابتك هؤلاء الَّذينَ أَمَرَنا اللهُ بمودَّتِهِم؟ قَالَ: «عليٌّ وفاطمة وَوُلْدُهما»(١).

ورَوىٰ زاذان عن عليٍّ عليه السلام قَالَ: «فِينَا مِن آلِ حَم آيةٌ لا يَحفظُ مَودَّتَنا إلَّا كلُّ مؤمنٍ» ثمَّ قَرَأَ هذه الآية(٢). وإلىٰ ذلك أَشَارَ الكُميْتُ في قَولِهِ:

وَجَدْنَا لَكُم في آلِ حَم آيـةً تَأوَّلَهَا مِنَّا تَقِيٌّ ومُعْرِبُ(٣)

﴿وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً﴾ عن السدِّيِّ: أنَّ الحَسَنَةَ المَودَّةُ في آلِ رسُولِ اللهِ(٤) وَزِيَادَةُ حُسْنِها من جِهَةِ اللهِ عزَّ ٱسمُهُ: مضاعَفَتُها، كقَولِهِ: ﴿فَيُضَـٰعِفَهُ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾(٥)، وَ «الشَّكُورُ» في صفةِ ٱللهِ عزَّوجلَّ مَجَازٌ للاعتدادِ بالطَّاعةِ وتَوفية ثَوابِها، والتَفَضُّل على المُثَابِ.

﴿أَمْ﴾ منقَطِعَةٌ، ومعنَى الهَمْزَةِ فيها: التَّوبيخُ، كأنَّه قَالَ: أَيَنْسِبُونَ مثلَهُ إلى الافتراءِ، ثمَّ إِلى الافْتراءِ على ٱللهِ الَّذي هو أَفْحَشُ الفِرَىٰ وأَعْظَمُها ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ﴾ يَجْعَلْكَ من المخْتُومِ علىٰ قُلُوبِهِم حتَّىٰ تَفْترِيَ عليه الكَذِبَ، فإنَّه لا يَجْتَرِئُ على ٱفتراءِ الكَذِبِ على ٱللهِ إلَّا من كانَ في مِثْلِ حالِهِم، وهذا الأُسْلُوبُ مُؤَدَّاهُ ٱستبعادُ الافتراء من مِثْلِهِ، وأنَّه في البُعْدِ مثْلُ الشِّركِ باللهِ، والدُّخُول في جملةِ المخْتُومِ علىٰ قُلُوبِهِم. ثمَّ أَخْبَرَ سبحانَهُ أنَّه يُبْطِلُ ما يقُولُونَهُ بقَولِهِ: ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَـٰطِلَ﴾ أي:

(١) شواهد التنزيل للحسكاني: ج ٢ ص ١٣٠، المعجم الكبير للطبراني: ج ١ ص ١٢٥ ح١١٣، مناقب ابن المغازلي الشافعي: ص ٣٠٧، ذخائر العقبىٰ للطبري: ص ٢٤، المناقب لابن حنبل: ص ٢١٨ مخطوط.

(٢) شواهد التنزيل: ج ٢ ص ١٤٢، الصواعق المحرقة: ص ١٠١، كنزالعمال: ج ١ ص ٢٠٨.

(٣) أُنظر القصائد الهاشميّات والقصائد العلويّات: ص ٣٠.

(٤) حكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٢٢١.

(٥) البقرة: ٢٤٥.

ومن عَادَةِ ٱللهِ أن يَمحُوَ الباطِلَ ﴿وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ﴾ ويُثْبِتُهُ ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾ بِوَحْيِهِ أو بِقَضَائِهِ، كَمَا قَالَ: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ﴾ (١)، فَهُوَ يَمْحُو الباطِلَ الّذي هُم عليهِ من تَكْذيبِكَ والبُهْتِ عليكَ، ويُثْبِتُ الحقَّ الّذي أَنْتَ عليهِ ويَنْصُرُكَ عليهِم.

يقَالُ: قَبِلْتُ الشَّيءَ منْهُ وقَبِلْتُهُ عَنْهُ، فمعنىٰ قَبلْتُهُ منْهُ: أَخَذْتُهُ منْهُ وجَعَلْتُهُ مَبْدأَ قبولي، ومعنىٰ قَبِلْتُهُ عنْهُ: عَزَلْتُهُ عَنْهُ وأَبَنْتُهُ عَنْهُ.

والتَّوْبَةُ: أَنْ يَرجعَ عن القَبيحِ والإِخْلَالِ بالواجبِ، بأَن يَنْدمَ عليها ويَعْزِمَ علىٰ أن لا يُعَاوِدَهُما في المُسْتَقبلِ، لأَنَّ المَرجُوعَ عنْهُ قَبيحٌ وإخْلالٌ بالواجبِ، وإنْ كانَ فيهِ لِعَبدٍ حَقٌّ لَمْ يكُنْ بُدٌّ من التقصِّي (٢) علىٰ طَرِيقِهِ، وقُرِئَ ﴿مَا تَفْعَلُونَ﴾ بالتَّاء والياءِ (٣).

﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ ويَسْتَجِيبُ لَهُم فَحُذِفُ اللَّامُ كَما حُذِفَ في قَولِهِ: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ﴾ (٤)، أي: يَقْبَلُ طَاعَاتِهِم وعِبَادَاتِهِم ﴿وَيَزِيدُهُم﴾ علىٰ ما يستحقُّونَهُ من الثَّوابِ تَفَضُّلًا، وإذا دعَوْهُ ٱستَجابَ لَهُم دعاءَهُم وزَادَهُم علىٰ مطلوبِهِم.

وعن عبدِ ٱللهِ عن النبيِّ ﷺ في قَولِهِ: ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ إنَّه الشَّفاعةُ لِمَنْ وَجَبَتْ له النَّارُ مِمَّنْ أَحْسَنَ إليهِم في الدُّنيا (٥).

﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ﴾ أي: لَوْ وَسَّعَ اللهُ الرزْقَ علىٰ عِبادِهِ علىٰ حَسْبِ ما يَطْلُبُونَهُ ﴿لَبَغَوْا۟﴾ وظَلَمُوا ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: يَظْلِمُ هذا ذاكَ، وذاك هذا، لأَنَّ

---

(١) الأنبياء: ١٨.
(٢) في بعض النسخ: «التفصّي».
(٣) وبالياء قرأه ابن كثير ونافع وعاصم برواية أبي بكر وابن عامر وأبو عمرو. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٥٨٠.
(٤) المطفّفين: ٣.
(٥) أخرجه ابن كثير في تفسيره: ج ٤ ص ١١٧ وعزاه الى ابن أبي حاتم.

الغِنَىٰ مَأْشَرةٌ مَبْطَرَةٌ وكفىٰ بحالِ قَارُونَ عِبْرَةً، وَلٰكنَّهُ ﴿يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ﴾ أي: بتَقْديرٍ. وفي الحديثِ: «أَخْوَفُ ما أَخَافُ علىٰ أُمَّتي زَهْرةَ الدُّنيا وكَثْرَتَها»[1].

ويجوز أن يكُونَ من البَغْيِ الّذي هو البَذَخُ والتكبُّرُ، أي: لَتكبَّروا في الأَرضِ وَفعَلُوا ما يَدعُو إليه الكِبْرُ من الفَسَادِ فيها، ولا شُبْهَةَ أنَّ كِلَا الأمْرَيْنِ مع الفقْرِ أَقَلُّ ومع البَسْطِ أَكْثَرُ ﴿إنَّه خَبِيرٌ﴾ بأَحْوالِ عبادِهِ ﴿بَصِيرٌ﴾ بمَصَالِحِهم ومَفَاسِدِهم.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ ٱلْوَلِيُّ ٱلْحَمِيدُ(٢٨) وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ(٢٩) وَمَآ أَصَـٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ(٣٠) وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ(٣١) وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ(٣٢) إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ(٣٣) أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ(٣٤) وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ(٣٥)﴾

يُريدُ بِرَحْمتِهِ: بَرَكَاتَ الغَيْثِ وَمَنافعَهُ، وما يَحْصَلُ بِهِ مِن الخَصْبِ بإخْراجِ النَّباتِ والثِّمارِ، ويجوزُ أَن يُريدَ: رَحْمَتَهُ في كلِّ شيءٍ، أي: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ وَيَنْشُرُ غيرَهَا من رحمتِهِ الواسِعَةِ.

﴿وَمَا بَثَّ﴾ يجوزُ أن يكُونَ مجروراً ومرفُوعاً عَطْفاً على المُضَافِ إليهِ أو المُضَافِ، وقَالَ فيهما: «وَالدَّوَابُّ في الأَرضِ» لأنَّ الشَّيءَ يجوزُ أَن يُنْسَبَ إلىٰ جميعِ المذْكُورِ وإنْ كَانَ مُلْتَبِساً ببعضِهِ، كقَولِهِ ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾[2] وإنَّما يَخْرُجُ من الملْحِ، ويجوزُ أَن يكُونَ للملائكةِ مَشْيٌ مع الطَّيَرانِ فيوصَفُوا

(١) أخرجه الطبري في تفسيره: ج ١١ ص ١٤٩.

(٢) الرحمن: ٢٢.

بالدَّبيبِ كَمَا يُوصَفُ بِهِ الإنسانُ، ولا يَبْعدُ أَن يكونَ في السَّماواتِ مَنْ يَمْشي فيها كَمَا يَمْشي الأُنَاسيُّ في الأَرضِ.

وقُرئَ: «بِمَا كَسَبَتْ» بغَيْرِ فاءٍ[١] وكذلكَ هو في مَصَاحفِ أهلِ المدينةِ[٢]، علىٰ أَن يكُونَ «بِمَا كَسَبَت» خَبَرَ المبتَدأ الَّذي هو ﴿مَا أَصَـٰبَكُمْ﴾ من غَيْرِ تَضْمينِ معنَى الشَّرْطِ، والآيةُ مخصُوصَةٌ بالمُجْرمينَ، ولا يَمْتَنعُ أَن يَسْتَوفيَ اللهُ بعضَ عِقَابِ المُجْرمِ في الدنيا ويعفُو عن بعضٍ، فأَمَّا مَن لا جُرْمَ لَهُ من المعصومينَ أو غَيْرِ المكلَّفينَ من الأَطفالِ والمَجَانين، فإذَا أَصابَهُم شَيءٌ من الآلامِ من مَرَضٍ وغَيْرِهِ فَلِلْعِوَضِ الموفىٰ عليهِ والغَرَضِ الَّذي هو المَصْلَحةِ.

وعن عليٍّ عليه السلام، عن النبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم قَالَ: «خَيْرُ آيةٍ في كِتَابِ ٱللهِ هذهِ الآيةُ، يا عليُّ ما مِنْ خَدْشِ عُودٍ ولا نَكبةِ[٣] قَومٍ إلَّا بِذَنْبٍ، ومَا عَفَا ٱللهُ عَنْهُ في الدُّنيا فهو أَكْرمُ مِنْ أَن يعُودَ فيهِ، وما عَاقَبَ عليهِ في الدُّنيا فَهُو أَعْدلُ من أَن يُثَنِّي علىٰ عَبْدِهِ»[٤].

والأَعْلَامُ: الجِبَالُ، واحِدُها عَلَمٌ، قَالتِ الخَنْسَاءُ:

وإنَّ صَخْراً لَتَأْتَمُّ الهُدَاةُ بِهِ كأَنَّهُ عَلَمٌ في رأْسِهِ نَارُ[٥]

﴿الْجَوَارِ﴾ وقُرِئَ بحَذْفِ الياءِ وإثْباتِها[٦]، والقِيَاسُ الإِثْباتُ، وحَذْفُ هذهِ

---

(١) قرأه نافع وابن عامر. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٥٨١.

(٢) أُنظر المصدر السابق.

(٣) في نسخة: «نكتة».

(٤) ورد الحديث بألفاظ مختلفة فانظر الكافي: ج ٢ ص ٤٤٥ ح ٦، والدّر المنثور: ج ٧ ص ٣٥٤ وعزاه الى أحمد وابن راهويه وابن منيع وعبد بن حميد والحكيم الترمذي وأبي يعلىٰ وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم.

(٥) والبيت من قصيدة طويلة ترثي بها أخاها صخراً. أُنظر ديوان الخنساء: ص ٤٩.

(٦) قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو بياء في الوصل، ويقف ابن كثير بالياء ونافع وأبو عمرو بغير ياء. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٥٨١.

الياءاتِ قد كثُرَ في كلامِهِم فصَارَ مثلَ القياسِ، وهي السُّفُنُ الجَارِيَةُ ﴿إِن يَشَأْ﴾ اللهُ ﴿يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ﴾ فتبقَى السُّفُنُ راكدةً واقِفَةً ﴿عَلَىٰ﴾ ظَهْرِ الماءِ، فجعَلَ سبحانَهُ بكَمالِ قُدْرتِهِ هُبُوبَ الريحِ في الجهةِ الّتي تَسيرُ إليها السَّفينةُ ﴿لِكُلِّ صَبَّارٍ﴾ علىٰ بَلاءِ ٱللهِ ﴿شَكُورٍ﴾ لِنَعْمَائِهِ، وهُمَا صِفَتَا المؤمِنِ المُخْلِص. ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ﴾ أي: يُهْلِكْهُنَّ بأَنْ يُرسِلَ الرِّيحَ عَاصِفَةً فيُغْرِقَهُنَّ بسببِ ﴿مَا كَسَبُواْ﴾ من الذُنوبِ ﴿وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾ مِنْها، وعَطَفَ ﴿يُوبِقْهُنَّ﴾ علىٰ ﴿يُسكِنِ﴾ لأَنَّ المعنىٰ: إنْ يَشأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَرْكُدْنَ أو يَعْصِفْهَا فَيَغْرَقْنَ بِعَصْفِهَا.

وقُرِئَ: ﴿وَيَعْلَمَ﴾ بالنَّصْبِ والرفع[١] فأَمَّا النَّصْبُ فَلِلْعَطْفِ علىٰ تعليلٍ مَحْذُوفٍ، وتَقْديرُهُ: لِننتَقِمَ منْهُم ويَعلَمَ الّذين يُجَادِلُونَ، ونَحوُهُ كَثيرٌ في التَنْزيلِ، منْهُ قَوْلُهُ: ﴿وَلِنَجْعَلَكَ ءايَةً لِلنَّاسِ﴾[٢] ﴿وَلِتُجزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾[٣]، وأَمَّا الرَّفْعُ فعلَى الاستِئْناف.

﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ(٣٦) وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَـٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ(٣٧) وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ(٣٨) وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ(٣٩) وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ(٤٠) وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ(٤١) إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(٤٢) وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ(٤٣) وَمَن يُضْلِلِ

---

(١) وبالرفع هي قراءة نافع وابن عامر. راجع المصدر السابق.

(٢) البقرة: ٢٥٩.

(٣) الجاثية: ٢٢.

ٱللَّهُ فَمَالَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ(٤٤) وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ(٤٥) وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ(٤٦)﴾

وَقُرِئَ: «كَبِيرَ ٱلْإِثْمِ» علَى التَّوحيدِ[١] وجَازَ أَن يُرادَ بِهِ الجَمْعُ كَمَا في قَولِهِ: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾[٢].

وفي الحديثِ: «مُنِعَتِ العِرَاقُ دِرْهَمَها وَقَفيزَها»[٣].

﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ﴾ عَطْفٌ علىٰ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ وكذلكَ ما بَعْدَهُ، ﴿هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ أي: هُمُ الأَخِصَّاءُ بالغفرانِ في حالِ الغَضَبِ، لا يَغُولُ الغَضَبُ أَحلامَهُم كَمَا يَغُولُ أَحلامَ غَيرِهِم من النَّاسِ، فهذهِ فَائدةُ «هُمْ» وإِيْقاعُهُ مبتَدَأً، ومثلُهُ ﴿هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾.

والشُّورىٰ: مَصْدَرٌ بمعنَى التَّشَاورِ، أي: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ وقيلَ: إنَّ المَعْنِيَّ بالآيَةِ أَنَّ الأَنْصارَ تَشَاوَروا في أَمْرِ رسُولِ اللهِ ﷺ لمَّا وَردَ النُّقَباءُ عليهِم من عِنْدِهِ، فاجتَمعُوا في دارِ أَبي أَيُّوب على الإِيمانِ بهِ والنُّصْرةِ له[٤]. والمُنْتَصِرُونَ هُم المؤْمِنُونَ الَّذين أُخْرِجُوا من مكَّةَ وَبَغَىٰ عليهِم الكُفَّارُ، ثمَّ مكَّنَهُم اللهُ فانتَصَروا منْهُم.

(١) قرأه حمزة والكسائي. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٥٨١.
(٢) ابراهيم: ٣٤، النحل: ١٨.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه: ج ٤ ص ٢٢٢٠ ح ٣٣ عن أبي هريرة.
(٤) قاله الضحاك. راجع تفسير القرطبي: ج ١٦ ص ٣٧.

﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا﴾ سمّىٰ سبحانَهُ كِلْتَا الفِعْلَتَيْنِ: الأُولىٰ وجَـزَاءَهـا سيِّئةً؛ لأنَّها تَسُوءُ مَن تَنْزِلُ بِهِ. ومعنَاهُ: أنَّه إذا قُوبِلَتِ الإساءةُ وَجَبَ أَن يُقَابَلَ بِمثْلِها من غَيْرِ زيادةٍ ﴿فَمَنۡ عَفَا﴾ عمَّا لَهُ المؤاخَذَة بِهِ ﴿وَأَصۡلَحَ﴾ أَمْرَهُ فيما بينَهُ وبين ربِّهِ، أو: بينَهُ وبينَ خَصْمِهِ بالعَفْوِ والإغْضَاءِ ﴿فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ عِدَّةٌ مُـبْهَمَةٌ لا يُـحَاطُ بكُنْهِهَا في العِظَمِ ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فيه دَلالةٌ علىٰ أنَّ الانتصارَ لا يُؤْمَنُ فيهِ تَجاوزُ النَّصفةِ والسَويَّةِ والاعتداءِ، ولا سيَّما في حالِ الغَضَبِ، فرُبَّما كانَ المنتصرُ ظَالِماً من حيثُ لا يَشْعُرُ.

وفي الحديثِ: «إذا كانَ يَومُ القيامةِ نَادىٰ مُنَادٍ: مَـنْ كـانَ أَجْـرُهُ عـلى ٱللهِ فَلْيَدخُلِ الجنَّة، فيَقالُ: مَن ذا الَّذي أَجرُهُ على ٱللهِ؟ فيَقالُ: العَـافُونَ عـن النَّـاسِ يدخُلُونَ الجنَّةَ بغيرِ حِسَابٍ»[١].

﴿بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ﴾ أَضَافَ المَصْدَرَ إلى المفعُولِ، أَي: بَعْدَ أَن ظُـلِمَ وَتُـعُدِّيَ عـليهِ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشَارةٌ إلىٰ معنىٰ «مَنْ» دونَ لَفْظِهِ ﴿مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ للمُعَاقِبِ ولا للعَائِبِ ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ﴾ أي: العِقَابُ والذَّمُّ ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ﴾ ٱبتِدَاءً. ﴿وَلَمَن صَبَرَ﴾ على الظُّلْمِ والأَذىٰ ﴿وَغَفَرَ﴾ ولَمْ يَنْتَصِرْ ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ الصَّبْرَ والمغْفِرَةَ منْهُ ﴿لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ وحُذِفَ الراجِعُ؛ للعِلْمِ بِهِ كَمَا حُذِفَ من قَولِهِم: السَّـمْنُ مَنوانِ بدرهَمٍ، و عَزْمُ الأُمُورِ: هو الأَخْذُ بأَعْلاها في بَابِ نَيْلِ الثَّوابِ والأَجْرِ.

﴿خَٰشِعِينَ﴾ متواضِعينَ متضَائِلينَ ممَّا يَلْحَقُهُم ﴿مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرۡفٍ خَفِيّٖ﴾ أي: يَبْتَدِئُ نَظَرُهُم من تَحْريكٍ ضَعيفٍ لأَجْفَانِهِم، خـفيٍّ بـمُسَارَقَةٍ، كَمَا تَرَى المَصبُورَ[٢] يَنظُرُ إلى السَّيفِ لا يَملأُ أَجفَانَهُ منْهُ كَمَا يَـفْعَلُهُ النَّـاظِرُ إلىٰ

(١) أخرجه السيوطي في الدر: ج ٧ ص ٣٥٩ وعزاه الى ابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الشعب عن أنس.

(٢) المصبور: المحبوس للقتل (لسان العرب: مادة صبر).

ما يُحبُّهُ، وقَولُهُ: ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ إنْ تَعَلَّقَ بـ﴿خَسِرُوٓاْ﴾ كانَ قَولُ المؤْمنينَ واقعاً في الدُّنيا، وإنْ تَعَلَّقَ بـ﴿قَالَ﴾ فالمعنىٰ: يقُولُونَ يومَ القيامةِ: ﴿إِنَّ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ في الحقيقةِ هُمُ الَّذينَ فَوَّتُوا ﴿أَنفُسَهُمْ﴾ الانتفاعَ بنَعيمِ الجَنَّة ﴿وَ﴾ خَسِرُوا ﴿أَهْلِيهِمْ﴾ وأَوْلادَهُم وأَزْواجَهُم إذْ حيلَ بينَهُم وبينَهُم، وَأَهليهِم[(١)] من الحُورِ العِينِ.

﴿ٱسْتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ(٤٧) فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ كَفُورٌ(٤٨) لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَـٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ(٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَـٰثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ(٥٠) وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ(٥١) وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ وَلَـٰكِن جَعَلْنَـٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ(٥٢) صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ(٥٣)﴾

﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾: «مِن» صِلَةُ ﴿لَا مَرَدَّ﴾ أي: لا يَرُدُّهُ اللهُ بعدَما حَكَمَ بِهِ، أو: «من» صِلَةُ ﴿يَأْتِىَ﴾ أي: مِنْ قَبل أَن يأتي من ٱللهِ يوم لا يَقْدِرُ أحدٌ علىٰ ردِّهِ، وَالنَّكيرُ: الإِنْكارُ والتَغْييرُ.

والمرادُ بالإنسانِ هنا الجَمْعُ لا الواحِدُ لقَولِهِ: ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ﴾ والمَعْنيُّ بِهِم

(١) في بعض النسخ: «أو أهليهم».

المجرمُونَ، لأنَّ إصابةَ السيِّئةِ ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ لا يَستَقيمُ إلَّا فيهِم، والمُـرادُ بالرَّحمةِ: النِّعمَةُ من الصَّحَّةِ والعافيةِ والغِنىٰ والأَمْنِ، وبالسيِّئةِ: البَلاءُ مـن القَـحْطِ والمَرَضِ والفقْرِ والمَخاوفِ، وَالْكَفُورُ: البليغُ في الكُفْرانِ، ولَمْ يَـقُلْ: فـإنَّه كَـفُورٌ لِيُسَجِّلَ علىٰ أَنَّ هذا الجنْسَ موسُومٌ بكُفرانِ النِّعَمِ كَمَا قَالَ: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَـظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [(١)]، ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ [(٢)] أي: يَذْكُرُ البلاءَ ويَنْسَى النِّعَمَ.

ولمَّا ذَكَرَ سبحانَهُ إذاقَةَ الإنسانِ الرَّحْمةَ وإصابَتَهُ بِضدِّها عَقَّبَ ذلكَ بـأنَّ لَـهُ ﴿مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وأَنَّه يُقَسِّمُ كيفَ شَاءَ النعمةَ والبلاءَ، و ﴿يَهَبُ﴾ كيفَ أَرادَ لعبادِهِ الأَولادَ فَيَخُصُّ بعضَهُم بِالإِنَاثِ، وبعضَهُم بالذُّكُورِ، وبعضَهُم بالصِّنْفَيْنِ جَميعاً، ويعْقِمُ منْهُم مَنْ يشاءُ فَلَا يَهَبُ لَهُ ولداً.

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ وما صَحَّ لأَحَدٍ من البَشَرِ ﴿أَنْ يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ﴾ إلَّا علىٰ أَحَدِ ثلاثةِ أَوْجُهٍ: إِمَّا علىٰ طريقِ الوَحْيِ وهو الإِلْهامُ وٱلقَذْفُ في القَلْبِ أو المَنَامُ، كَمَا أَوحَىٰ إلىٰ أُمِّ موسىٰ، وإلىٰ إبراهيمَ في ذَبْحِ وَلَدِهِ، وأوحَـىٰ إلىٰ داودَ الزَّبُـورَ فـي صَدْرِهِ، وإمَّا أَن يُسْمِعَهُ كلامَهُ الَّذي يحدِثُهُ في بعضِ الأَجْرامِ من غَـيْرِ أَن يَـبْصُرَ السَّامِعُ مَنْ يُكَلِّمُهُ، لأنَّه في ذاتِهِ غَيْرُ مَرْئِيٍّ، وقَولُهُ: ﴿مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾ مَثَلٌ أي: كَمَا يُكَلِّمُ المَلِكُ المُحْتَجِبُ بَعْضَ خَواصِّهِ وهو مِن وَراءِ حِجَابٍ فَيَسْمَعُ صوتَهُ ولا يَرىٰ شَخْصَهُ، وذلك كَمَا كَلَّمَ سبحانَهُ مُوسىٰ ويُكلِّمُ الملائكةَ، وإمَّا على أَن يُرسِلَ إليهِ رسُولاً من الملائكةِ فَيُوحِي المَلَكُ إليهِ، كَمَا كَلَّمَ غَيْرَ موسىٰ من الأنبياءِ علىٰ أَلْسِنَتِهِم وقيلَ: ﴿وَحْياً﴾ كَمَا أوحَىٰ إِلَى الرُّسُلِ بواسطةِ المَلَكِ، أَوْ يُرسِلَ رسُولاً نَبيّاً كَمَا كَلَّمَ أُمَمَ الأنبياءِ علىٰ أَلسنَتِهِم [(٣)]، و ﴿وَحْيًا﴾ و«أَنْ يُرْسِل» مَـصْدرانِ وَقَـعَا مَوقِعَ الحالِ، كَمَا يُقَالُ: جِئْتُ رِكْضاً، و: أَتيتُ مشْياً، لأنّ «أَن يُرسِلَ» فـي مـعنى

(١) إبراهيم: ٣٤. (٢) العاديات: ٦.
(٣) حكاه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٢٣٣.

«إرْسَالاً»، و ﴿مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ ظَرفٌ وَقَعَ مَوقِعَ الحالِ أيضاً كقَولِهِ: ﴿دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَائِماً﴾ (١)، وتَقديرُهُ: ومَا صَحَّ أَنْ يُكَلِّمَ ٱللهُ واحِداً إلَّا مُوحِياً أو مُسْمِعاً ﴿مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ أو مُرْسِلًا رَسُولاً. ويجُوزُ أن يكُونَ ﴿وَحْياً﴾ موضُوعاً مَوضِعَ «كلاماً» لأنَّ الوَحْيَ كَلامٌ خَفِيٌّ في سُرعةٍ، كَمَا يقُولُ: لا أُكلِّمُهُ إلَّا جَهْراً، لأنَّ الجَهْرَ ضَرْبٌ من الكلامِ، وكذلك «إرْسَالاً» جَعَلَ الكلامَ علىٰ لسانِ الرسُولِ بمنزلةِ الكلامِ بغَيْرِ واسطةٍ، تقُولُ: قُلتُ لِفُلانٍ كَذَا، وإنَّما قَالَهُ وكيلُكَ أو رسُولُكَ، وقَولُهُ: ﴿أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ معنَاهُ: أَوْ إسْمَاعاً من وَرَاءِ حِجَابٍ. ومَنْ جَعَلَ ﴿وَحْياً﴾ في معنىٰ «أَن يُوحِيَ» وعَطَفَ ﴿أَوْ يُرسِلَ﴾ علَيهِ علىٰ معنىٰ: وما كانَ لبشرٍ أَن يُكلِّمَهُ إلَّا بأَن يُوحِيَ أو بأَنْ يُرسِلَ، فلا بُدَّ أَن يُقدِّر قولَهُ: ﴿أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ تَقْديراً يُطابِقُهُما عليهِ، نَحْوَ: أَو أَنْ يُسْمِعَ من وَرَاءِ حِجَابٍ. وقُرِئَ: «أَوْ يُرسِلُ فَيُوحِيْ» بالرَّفعِ (٢) علىٰ: «أَو هُوَ يُرسِلُ»، أو: هُوَ بمَعْنىٰ «مُرْسِلًا» عَطْفاً علىٰ ﴿وَحْياً﴾ في معنى «مُوحِياً» ﴿إِنَّهُ عَلِيٌّ﴾ عن صِفَاتِ المخلُوقينَ ﴿حَكِيمٌ﴾ يُجْرِي أَفْعالَهُ عن الحكمةِ، فَيُكلِّمُ تارةً بواسِطةٍ، وأُخرىٰ بغَيْرِ واسِطَةٍ: إمَّا إلْهاماً أو خِطَاباً.

﴿رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا﴾ يَعني: القُرآنَ، لأنَّ الخَلْقَ يَحْيُونَ بهِ في دينِهِم كَمَا يَحْيَا الجَسَدُ بالرُّوحِ، وقيلَ: هو روحُ القُدُسِ (٣)، وقيلَ: هو مَلَكٌ أَعْظَمُ من جبرائيلَ أو ميكائيلَ كانَ مع رسُولِ ٱللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ (٤) ﴿وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ﴾ يَعني: مَعَالِمَ الإيْمانِ من الشَّرائع.

❁ ❁ ❁

(١) يونس: ١٢.

(٢) قرأه نافع وابن عامر. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٥٨٢.

(٣) وهو قول الربيع كما في تفسير البغوي: ج ٤ ص ١٣٢ وفيه ذكر «جبرئيل» بناءً علىٰ أنّ «روح القدس» هو جبرئيل عليه السلام وهو مذهب العامّة.

(٤) وهو المروي عن أهل البيت عليهم السلام، أنظر الكافي: ج ١ ص ٢٧٣ باب الروح التي يمدد الله بها الأئمة عليهم السلام.

سُورَةُ الزّخْرُفِ

مَكّيّةٌ[1] ، وقيلَ: إلّاَ آياتٍ، ورويَ أنَّ قولَهُ: ﴿وَسْئَلْ مَنْ أرْسَلْنَا﴾[2] نَـزَلَتْ بِبَيْتِ المقدِسِ[3] ، وقيلَ: إنَّ قَولَهُ: ﴿فَإمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ﴾[4] الآيات نَزَلَتْ في حجَّةِ الوَدَاعِ[5] . تِسْعٌ وثَمانُونَ آيةً ﴿حَمْ﴾ كُوفيٌّ، ﴿هُوَ مَهِينٌ﴾[6] بَصريٌّ.

وفي حديثِ أُبَيٍّ: «مَنْ قَرأَ سُورةَ الزُّخْرُفِ كانَ ممَّنْ يُقَالُ لَـهُ يَـوم القـيامةِ: ﴿يَـعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾»[7] .

وعن الباقرعليه السلام: «مَنْ أَدْمَنَ قِرَاءَةَ حَم الزُّخْرُفِ آمَنَهُ اللهُ في قَبْرِهِ مِن هَـوامِّ الأَرْضِ، ومِنْ ضَمَّةِ القَبْرِ»[8] .

---

(١) قال الشيخ الطوسي في التبيان: ج ٩ ص ١٧٩: مكّية في قول مجاهد وقتادة، وهي تسع وثمانون آيةً بلاخلاف في جملتها.

وفي الكشّاف: ج ٤ ص ٢٣٥: مكّية، وقال مقاتل: إلّا قوله: ﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُّسُلِنَآ﴾ وهي تسع وثمانون آيةً، نزلت بعد الشورىٰ .

(٢) الآية: ٤٥ .

(٣) وهو قول مقاتل كما في تفسير الآلوسي: ج ٢٥ ص ٦٣ .

(٤) الآية: ٤١ وما بعدها .

(٥) وهو قول جابر بن عبدالله الأنصاري. راجع شواهد التنزيل للحسكاني: ج ٢ ص ٢١٦ ح ٨٥١.

(٦) الآية: ٥٢ .

(٧) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٢٦٨ مرسلًا، والآية: ٦٨ منها .

(٨) ثواب الأعمال للصدوق: ص ١٤١ وزاد: «حتّىٰ يقف بين يدي الله عزّوجلّ، ثمّ جاءت ←

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حمٓ(١) وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ(٢) إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ(٣) وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ(٤) أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ(٥) وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِىٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ(٦) وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِىٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ(٧) فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ(٨) وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ(٩) ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ(١٠)﴾

﴿ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ القُرآنِ، وهو البيِّنُ للَّذين أُنْزِلَ عليهم، لأنَّه بِلُغَتِهِم، وقيل: الَّذي أَبانَ طريقَ الهُدىٰ وما تَحتاجُ إليهِ الأُمَّـةُ مِن الحرامِ والحلالِ وشَرائعِ الإِسلامِ[١]. و ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ﴾ جوابُ القَسَمِ، وهو بمعنىٰ «صَيَّرناه» فتعدَّىٰ إلىٰ مفعولَيْنِ، أو تعدَّىٰ إلىٰ مفعُولٍ واحدٍ علىٰ معنىٰ «خَلَقْناه»، و ﴿قُرْءَٰناً عَرَبِيّاً﴾ حَالٌ، و «لَعلَّ» مستعارٌ بمعنَى الإِرادةِ لتُلاحَظَ معنَاهَا ومعنَى[٢] التَّرجِّي، أي: خَلَقْناهُ عَربيّاً غيرَ عجميٍّ إرادةَ أَن تَعقِلَهُ العَرَبُ، ولَئِلَّا يقُولُوا: ﴿لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُ﴾[٣]. وقُرِئَ: «إِمِّ الكِتَابِ» بكَسْرِ الهمزةِ[٤] وهو اللَّوحُ، كقَولِهِ: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾[٥] سُمِّيَ بأُمِّ الكِتابِ لأنَّه الأَصْلُ الَّذي أُثْبِتَتْ فيهِ الكُتُبُ،

حتَّىٰ تكون هي التي تدخله الجنَّة بأمر الله تبارك وتعالى».

(١) قاله مقاتل. راجع تفسير الماوردي: ج ٥ ص ٢١٤.

(٢) لعلّه: «أو معنىٰ».

(٣) فصِّلت: ٤٤.

(٤) قرأه الأخوان (حمزة والكسائي). راجع العنوان في القراءات السبع لابن خلف: ص ١٧١.

(٥) البروج: ٢١ و ٢٢.

منْهُ تَنْقُلُ وتَستَنْسِخُ ﴿لَعَلِيٌّ﴾ أي: عَالٍ رَفيعُ الشَّأْنِ في الكُتُبِ لكَونِهِ مُعْجِزاً مِن بَينِها، ﴿حَكِيمٌ﴾ ذو حكمةٍ بالغةٍ، أي: مَنْزِلَتُهُ عِنْدَنَا منزلةَ كِتَابٍ هُمَا صِفَتَاهُ، وهو مُثْبَتٌ في أُمِّ الكتابِ هكذا.

﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ﴾ أي: أَفَنُنحي[1] عنْكُم الذكْرَ ونَذُودُهُ عَنكُم علىٰ سبيلِ المَجَازِ، من قَولِهِم: «ضَرْبَ الغَرائِبِ عن الحَوْضِ»[2] والفاءُ للعَطْفِ علىٰ محذُوفٍ تَقْديرُهُ: أَنُهمِلُكُم فَنَضْرِبُ عنْكُم الذِكْرَ ﴿صَفْحاً﴾ علىٰ وَجْهَيْنِ: إمَّا مَصْدَرٌ مِنْ: صَفَحَ عَنْهُ إذَا أَعْرَضَ، انْتَصبَ علىٰ أَنَّه مفعُولٌ لَهُ علىٰ معنىٰ: أَفَنَعْزِلُ عنْكُم إنْزالَ القُرآنِ وإلْزَامَ الحُجَّةِ إعْراضاً عنْكُم، وإمَّا بمعنَى الجَانِبِ فانتَصَبَ علَى الظَّرْفِ كما تَقُولُ: فُلانٌ يَمْشي جَانِباً ﴿أَن كُنتُمْ﴾ لأَنْ كُنْتُم. وقُرِئَ «إنْ كُنْتُم»[3] وإنَّما ٱستَقَامَ معنَى الشَّرْطِ وقد كانُوا ﴿مُسْرِفِينَ﴾ على القَطْعِ، لأنَّه من الشَّرْطِ الَّذي يَصْدُرُ عن المُدِلِّ أي: المُظْهِر بصحَّةِ الأَمرِ المُتَحقِّقِ لِثُبُوتِهِ، كَمَا يقُولُ الأجيرُ: إنْ كنْتُ عَمِلْتُ لكَ فَوَفِّني حقِّي، وهو عالِمٌ بذلكَ ولكنَّه يُخيِّلُ في كَلامِهِ أَنَّ تفريطَكَ في الخُروجِ عن الحقِّ فِعْلُ مَن لَهُ شَكٌّ في الاستحقاقِ مع وضُوحِهِ ٱستِجْهالاً لَهُ.

﴿وَمَا يَأْتِيهِم﴾ حكايَةُ حالٍ ماضيةٍ مُسْتَمِرَّةٍ، وهي تَسليةٌ لرسولِ ٱللهِ ﷺ عن ٱستهزاءِ قَومِهِ. الضَّميرُ في ﴿أَشَدَّ مِنْهُم﴾ للمُسْرفينَ، لأنَّه صَرَفَ الخِطَابَ عنْهُم إلىٰ رسولِ اللهِ ﷺ يُخبِرُهُ عنْهُم ﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: سَلَفَ في القُرآنِ في مواضِعَ منْهُ ذِكْرُ قِصَّتِهِم الّتي سارَتْ مَسيرَ المَثَلِ، وهذا وَعدٌ لرسُولِ ٱللهِ وَوَعيدٌ

---

(١) في نسخة: «أفنحمي».

(٢) في المجمع: «ضَرَبَه ضَرْبَ غرائب الإبلِ» وذلك أنّ الغريبة تزدحم على الحياض عند الورود، وصاحب الحوض يطردها ويضربها بسبب إبله. والمثل يُضرب في دفع الظالم عن ظلمه بأشدّ ما يمكن. راجع مجمع الأمثال: ج ١ ص ٤٣٢.

(٣) قرأه نافع وحمزة والكسائي. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٥٨٤.

لَهم. ﴿لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ لَيَنْسِبُنَّ خَلْقَها إلى اللهِ العزيزِ، ولَيُسنِدُنَّهُ إليهِ.

﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ(١١) وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ(١٢) لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ(١٣) وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ(١٤) وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ(١٥) أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ(١٦) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ(١٧) أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ(١٨) وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ(١٩) وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ(٢٠)﴾

﴿بِقَدَرٍ﴾ بمقْدارِ الحاجةِ ولَمْ يكُنْ طُوفَاناً يَضُرُّ بالبلادِ والعبادِ. و ﴿ٱلْأَزْوَٰجَ﴾: الأَصْنافَ و ﴿مَا تَرْكَبُونَ﴾ أي: تَركَبُونَهُ في البرِّ والبَحْرِ، يقَالُ: رَكَبُوا الأَنْعامَ ورَكَبُوا في الفُلْكِ، فَغَلَّبَ المتَعدِّي بغيْرِ واسطةٍ لقوَّتِهِ على المتَعدِّي بواسطةٍ وإنْ كانَ الجنْسَانِ مذكُورَيْنِ. ﴿لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ أي: علىٰ ظُهُورِ ما تَركَبُونَهُ، و ﴿تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ﴾ عَلَيكُم، وهو أَن تَعتَرفُوا بها في قُلُوبِكُم مستَعظمينَ لها، ثمّ تَحمِدُوهُ عليها بأَلْسِنتكُم.

وهو ما رُوِيَ أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم كانَ إذا ٱستَوىٰ علىٰ بَعيرِهِ خَارجاً في سَفرٍ كَبَّرَ ثلاثاً وقَالَ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ اللّهمَّ إنَّا نسأَلكَ في سَفَرِنا هذا البرّ والتَّقوىٰ والعملَ بما ترضىٰ، اللّهمَّ هوِّنْ علينا

سَفَرَنا هذا وَاطْوِ عَنَّا بُعْدَهُ، اللَّهمَّ أنتَ الصَّاحبُ في السَّفَرِ والخَليفةُ في الأهلِ، اللَّهمَّ إنِّي أَعوذُ بكَ من وَعثاءِ السَّفرِ وكآبةِ المنْقَلَبِ وسُوءِ المنْظَرِ في الأَهْلِ والمَالِ، وإذا رَجَعَ قَالَ: آيبُونَ تَائِبُونَ لِربِّنا حامِدُونَ(١).

وعن الصَّادقِ عليه السلام قَالَ: «ذِكْرُ النِّعمةِ أَن تقُولَ: الحمدُ للهِ الّذي هَدَانا للإسلامِ، وعَلَّمَنا القُرآنَ، ومَنَّ علينا بمُحمَّدٍ صلى الله عليه وآله وسلم، وتقُولُ بَعْدَهُ: ﴿سُبْحَـٰنَ الَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَـٰذَا﴾ إلىٰ آخره»(٢).

﴿مُقْرِنينَ﴾ أي: مُطيقينَ، وحَقيقةُ «أَقْرَنَهُ»: وَجْدُهُ قَرينَتَهُ وما يُقرَنُ بِـهِ؛ لأنَّ الصَّعبَ لا يُقْرَنُ بالضَّعيفِ، ولمَّا كانَ الرُّكُوبُ مباشَرَةَ أَمْرٍ ذي خَطَرٍ، فَمِنْ حقِّ الرَّاكِبِ أنْ لا ينْسَى ٱنقلابَهُ إلَى اللهِ، ولا يَدَعُ ذِكْرَ ذلكَ حتَّى يكُونَ مستَعِدّاً للِقاءِ اللهِ.

﴿وَجَعَلُواْ لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءاً﴾ متَّصِلٌ بقَولِهِ: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ﴾ أي: إنْ سَأَلْتَهُم عن الخالقِ اعترفُوا بِهِ، وقد جَعَلُوا لَه معَ ذلكَ الاعترافِ من عِبَادِهِ جُزْءاً بأَنْ قَالُوا: الملائكةُ بناتُ اللهِ، فَجَعَلُوهُم جُزْءاً لَهُ وبَعْضاً منْهُ، كَمَا يكُونُ الوَلَدُ بِضْعَةً من وَالِدِهِ، فَوَصَفُوهُ بصِفَةِ المخلُوقينَ ﴿إِنَّ الإِنسَـٰنَ لَكَفُورٌ﴾ جَحُودُ النِّعمةِ ﴿مُّبِينٌ﴾ ظَاهِرٌ جُحُودُهُ؛ لأنَّ نسبةَ الوَلَدِ إليهِ كُفْرٌ، والكُفْرُ أَصْلُ الكُفْرانِ كُلِّه.

﴿أَمِ ٱتَّخَذَ﴾ بَلِ ٱتَّخَذَ، الهمزةُ للإنْكارِ تَجْهيلًا لَهُم وتَعْجيباً من نشْأَتِهِم(٣) حيثُ لَمْ يَرْضَوْا بأَن جَعَلُوا للهِ من عبادِهِ جُزْءاً، حتَّىٰ جَعَلُوا ذلكَ الجُزْءَ أدْوَنَ الجُزْأَيْنِ، وهو الإنَاثُ دونَ الذُّكُورِ، علىٰ أَنَّهم أَمْقَتُ خَلْقِ ٱللهِ للإنَاثِ حتَّىٰ أَنَّهم كانُوا يَئِدونَهُنَّ. ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ﴾ بالجِنْسِ الّذي جَعَلَهُ اللهُ ﴿مَثَلًا﴾ أي: شَبَهاً،

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه: ج ٢ ص ٩٧٨ ح ١٣٤٢ عن ابن عمر.
(٢) رواه العياشي كما في تفسير البرهان للبحراني: ج ٤ ص ١٤٧ ح ٥.
(٣) في بعض النسخ: «شأنهم».

لأنَّه إذا جَعَلَ الملائكةَ جُزْءاً لَهُ وبَعضاً منْهُ فَقد جَعَلَهُ من جنْسِهِ ومُماثِلًا لَـهُ، لأنَّ الوَلَدَ إنَّما يكُونُ من جِنْسِ الوالِدِ ﴿ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا﴾ غَيْظاً وأَسَفاً ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ مملُوءٌ من الكَرْبِ. ثمَّ قَالَ: ﴿أَوَ﴾ يَجْعَلُ للرحمٰنِ مِن الوَلَدِ مَنْ هذهِ صِفَتُهُ وهو أنَّه ﴿يُنَشَّؤُاْ فِى ٱلْحِلْيَةِ﴾ أي: يَتَربَّىٰ في الزِّينةِ والنِّعمةِ، وهو إذا ٱحتاجَ إلىٰ مُـجَاثَاةِ الخُصُومِ ومخَاصَمَةِ الرِّجالِ كانَ ﴿غَيْرُ مُبِينٍ﴾ ليسَ عنْدَهُ بيانٌ، ولا يَأْتي ببُرهَانٍ يَحُجُّ بِهِ مَن خَاصَمَهُ، وذلك لِضَعفِ عُقُولِ النِّساءِ.

وقُرئ: «عِنْدَ الرَّحْـمٰن»[١] وهـو مَـثَلٌ لاخـتِصَاصِهِم وزُلْـفَاهم و ﴿عِـبَٰدُ ٱلرَّحْمٰنِ﴾ وقُرِئ: «يَنْشَأُ»[٢] و ﴿يُنَشَّؤُاْ﴾، ومعنىٰ ﴿جَـعَلُواْ﴾ سَمَّوْاْ وقَالُوا: إنَّـهم إنَاثٌ، وقُرئ «أَأُشْهِدُوا» بِهَمْزَتَيْنِ مفتُوحةٍ ومضمومةٍ[٣]، و «آأُشْهِدُوا» بألِفٍ بـين الهَمْزَتَيْن[٤]، وهذا تَهَكُّمٌ بِهِم، يعني: أنَّهم كانُوا يقولُونَ ذلك بغَيْرِ عِلْمٍ ودَليلٍ، فلَمْ يَبْقَ إلَّا أَن يُشَاهِدُوا ﴿خَلْقَهُمْ﴾ فَأُخْبِرُوا عن المشَاهَدةِ ﴿سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ﴾ الَّتي شَهدُوا بها علَى الملائكةِ ﴿وَيُسْئَلُونَ﴾ وهذا وَعِيدٌ.

﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ ٱلرَّحْمٰنُ مَا عَبَدْنَـٰهُمْ﴾ هُـمَا نَـوعَانِ مِـن الكُـفرِ: عـبادتُهم الملائكةِ، وزَعْمُهُم أنَّ عبادَتَهم بمشيئةِ ٱللهِ كَمَا قَالَ إخْوانُهُم المُجَبِّرةُ، ثـمَّ كـذَّبَهُم سبحانَهُ بقَولِهِ: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ أي: يَكْذِبُونَ.

﴿أَمْ ءَاتَيْنَـٰهُمْ كِتَـٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ(٢١) بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم مُّـهْتَدُونَ(٢٢) وَكَـذَٰلِكَ مَآ

---

(١) قرأه ابن كثير ونافع وابن عامر. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٥٨٥.

(٢) قرأه ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر وعاصم برواية أبي بكر. راجع المصدر السابق.

(٣) وهي قراءة نافع وعاصم برواية المفضّل. راجع المصدر السابق نفسه، وفي شواذ القرآن لابن خالويه: ص ١٣٥ نسبها الى أميرالمؤمنين عليه السلام.

(٤) وهي قراءة المسيبي عن نافع. راجع كتاب السبعة السابق.

أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ(٢٣)۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ(٢٤) فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ(٢٥) وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ(٢٦) إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ(٢٧) وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ(٢٨) بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ(٢٩) وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ(٣٠)﴾

أي: أهذا شَيءٌ يَخرُصُونَهُ ﴿أم ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰباً﴾ قبل هذا الكتابِ نَسَبْنَا فيه الكُفْرَ إلينا فَهُم ﴿مُسْتَمْسِكُونَ﴾ بِهِ، بلْ لَا حُجَّةَ لَهُم يستَمسِكُونَ بها إلَّا قَولُهُم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ أي: دينٍ ومِلَّةٍ وطَريقةٍ ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ خَبَران لـ«إنّ» أو الظَّرفُ صِلَةُ ﴿مُهْتَدُونَ﴾. وَ ﴿مُتْرَفُوهَآ﴾: الَّذين أَتْرفَتْهُم النِّعمةُ، أي: أَبْطَرَتْهُم فآثَروا التَرفُّهَ علىٰ طَلَبِ الحُجَّةِ، وعافُوا مَشَاقَّ التَّكاليفِ، وَكُلُّ فَريقٍ يُقَلِّدُ أَسْلافَهُ.

وقُرئَ «قُلْ»[1] وَ ﴿قَالَ﴾ أي: قَالَ لَهُم النَّذيرُ، و «قُل» حِكَايةٌ لِمَا أُوحِيَ إلى النَّذيرِ، أي: قُلْ لَهُم ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ﴾، وقُرئ: «جِئْنَاكُم»[2]، أي: أَتَتَّبِعُونَ آباءَكُم ولَوْ جِئْتُكُم بدينٍ أَهْدَىٰ من دينِ آبائِكُم؟ ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا﴾ ثابتُونَ علىٰ دينِ آبائِنا وإنْ جِئْتَنا بما هو أهدىٰ.

---

(١) قرأه ابن كثير ونافع وأبو عمرو وحمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٥٨٥.

(٢) قرأه أُبيّ وأبو جعفر وأبو شيخ الهنائي. راجع شواذ القرآن لابن خالويه: ص ١٣٦.

﴿بَرَآءٌ﴾ يَستَوي فيهِ الواحدُ والاثْنانِ والجَمَاعةُ، والمـذكَّرُ والمـوئَّنثُ؛ لأنّـه مصْدَرٌ، يقَالُ: نَحنُ البَرَاءُ منْكَ والخَلاءُ منْكَ. ﴿الَّذِى فَطَرَنِى﴾ يـجوزُ أَنْ يكُـونَ منصُوباً علىٰ أنَّه استثناءٌ منْقَطِعٌ، كأنَّـه قـالَ: لكـن الّذي فـطَرني وأَنْشـأني فـإنَّه ﴿سَيَهْدِينِ﴾، وأَنْ يكُونَ مجروراً بَدَلاً من المجرُورِ بـ«مِن» كأنّه قَالَ: إنِّي بَراءٌ ممَّا تَعبُدُونَ إلّاَ مِنَ الَّذي فَطَرني. وعن قتَادةَ: كانُوا يـقولُونَ: الله ربُّـنا مَـعَ عـبادتِهِم الأَصنَام[١]، ويجوزُ أن يكُونَ «مَا» موصُوفةً في ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾، و ﴿إلَّا﴾ صِـفَةً بمعنىٰ «غير»، ويكونُ التَّقديرُ: إنَّني بَرَاءٌ من آلهةٍ تَعبُدُونها غيرالَّذي فَطَرني.

﴿وَجَعَلَهَا﴾ أي: جَعَلَ إبراهيمُ كَلِمَةَ التَّوحيدِ التي تَكلَّمَ بِها ﴿كَلِمَةً بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِ﴾ في ذريتِهِ، فلا يَزَالُ فيهِم مَن يُوَحِّدُ اللهَ ويَدعُوا إلىٰ تَوحيدِهِ، وقيلَ: وجَعَلَها ٱللهُ[٢].

وعن الصَّادقِ عليه السلام: «الكلِمَةُ الباقيةُ في عَقِبِهِ هي الإمامةُ إلىٰ يَومِ القيَامة»[٣].

وعن السُّدِّي: هُم آلُ محمدٍ صلى الله عليه وآله وسلم[٤].

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ لَعَلَّ مَنْ أَشْرَكَ منْهُم يَرجِعُ بدُعاءِ مَن وَحَّـدَ مـنْهُم. ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰؤُلَآءِ﴾ يعني: أهلَ مكَّةَ وهُم من عَقِبِ إبراهيمَ بالمدِّ فـي العُـمُرِ والنِّـعمةِ، فَاغترُّوا بالمُهْلَةِ، وشُغِلُوا باتِّباعِ الشَّهَواتِ عن كَلِمَةِ التَّوحيدِ ﴿حَتَّىٰ جَاءَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ وهو القُرآنُ ﴿وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ الرِّسالةِ وَاضِحُهَا بمَا مَعَهُ من المـعْجِزاتِ، فَكَذَّبُوهُ وسَمّوهُ ساحِراً وما جَاءَ بِهِ سِحْراً.

---

(١) حكاه عنه الشيخ الطوسي في التبيان: ج ٩ ص ١٩٣.

(٢) قاله ابن زيد. راجع تفسير الطبري: ج ١١ ص ١٧٩.

(٣) معاني الأخبار للصدوق: ص ١٣١ ـ ١٣٢.

(٤) حكاه عنه الشيخ الطوسي فـي التـبيان: ج ٩ ص ١٩٤، والمـاوردي فـي تـفسيره: ج ٥ ص ٢٢٢.

﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ(٣١)
أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا
وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَـٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ
رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ(٣٢) وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا
لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَـٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ(٣٣)
وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ(٣٤) وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا
مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ(٣٥) وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ
ٱلرَّحْمَـٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَـٰنًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ(٣٦) وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ
ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ(٣٧) حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَـٰلَيْتَ بَيْنِى
وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ(٣٨) وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ
أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ(٣٩) أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ
وَمَن كَانَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ(٤٠)﴾

القَرْيَتَانِ: مكَّةُ والطَّائِفُ ﴿مِنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ﴾ من إِحْدَى القَريَتَيْنِ، وقيلَ: من رَجُلَي القَريَتَيْنِ وهما: الوَليدُ بن المُغيرةِ من مكّةَ، وحَبيبُ بن عَمْرو الثَّقفي من الطائف عن ابنِ عباسٍ[1]، والوَليدُ بن المُغيرةِ وعُرْوَةُ بن مسعودٍ الثَّقفي عن قتادة[2]، وأَرادَ بِعِظَمِ الرَّجُلِ رئاسَتَهُ في الدُّنيا.

﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ الهمزةُ للإنكارِ والتعجُّبِ من اعتراضِهِم وتَحَكُّمِهِم، أي: أَهُم المدبِّرونَ لأَمْرِ النبوّةِ والتَخَيُّرِ لها مَن يَصلُحُ لَهَا ويقُومُ بها، والمتولُّونَ لِقسمةِ رَحْمةِ اللهِ الّتي لا يَتولّاها إلّا هو بحِكْمَتِهِ، ثمّ ضَرَبَ لَهُم مَثَلًا

---

(١) تفسير ابن عباس: ص ٤١٣.
(٢) حكاه عنه الشيخ الطوسي في التبيان: ج ٩ ص ١٩٥.

فَأَعْلَمَ أَنَّهُم عاجِزُونَ عن تَدبيرِ مصالِحِهم في دُنْياهُم، وأنَّه سبحانَهُ قَسَمَ بينَهُم معيشَتَهُم وقَدَّرَها، وفَضَّلَ بعضَهُم علىٰ بعضٍ فيهَا فَجَعَلَ منْهُم أَغْنيَاءَ ومَحَاويجَ، وأَقْوِيَاءَ وضُعَفَاءَ، ليَسْتَخْدِمَ ﴿بَعْضُهُم بَعْضاً﴾ وليُسَخِّرُوهُم في أَشْغالِهِم حتَّىٰ يصلُوا إلىٰ منافِعِهِم، ولَمْ يُولِّهِم ذلك التَّدبيرَ ولَمْ يفوِّضْهُ إليهم مع قلَّةِ خَطَرِهِ، فكيفَ يكُونُ آختيارُ النبوَّةِ إليهِم مَعَ جلالةِ قَدْرِها وعِظَمِ خَطَرِها وكَونُها رحمةَ ٱللهِ الكبرىٰ؟ ثمَّ قَالَ: ﴿وَرَحْمَت رَبِّكَ﴾ يُريدُ: وهذهِ الرَّحمةُ الّتي هِيَ دينُ اللهِ وما يَتْبَعُهُ من الفَوز والثَّوابِ ﴿خَيْرٌ مِّمَّا﴾ يَجْمَعُ هؤلاءِ من حُطَامِ الدُّنْيا.

ثمَّ أَخْبَرَ سبحانَهُ عن هَوانِ الدُّنيا وقلَّةِ خَطَرِها عنْدَهُ فَقَالَ: ﴿وَلَوْلَآ أَنْ يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وٰحِدَةً﴾ أي: لَولا كَراهَةُ أَن يجتَمِعُوا على الكُفْرِ ﴿لَجَعَلْنَا﴾ للكُفَّارِ سُقُوفاً ومَصَاعِدَ، و ﴿أَبْوٰباً وَسُرُراً﴾ من فِضّةٍ ﴿وَ﴾ جعَلْنا لَهُم ﴿زُخْرُفاً﴾ أي: زينةً من كلِّ شيءٍ، والزُّخْرُفُ: الذَّهبُ والزِّينةُ. ويجوزُ أَن يكُونَ الأَصْلُ: «سُقُفاً من فضَّةٍ وزُخْرُفٍ» يعني: بَعضُها من فضَّةٍ وبَعضُها من ذَهَبٍ، فَنُصِبَ ﴿زُخْرُفاً﴾ عَطْفاً علىٰ محلِّ ﴿مِن فِضَّةٍ﴾. وقَولُهُ: ﴿لِبُيُوتِهِمْ﴾ بَدَلُ آشتِمَالٍ من قَولِهِ: ﴿لِمَن يَكْفُرُ﴾ وقُرِئَ: «سَقْفاً» بفَتْحِ السِّينِ وسُكُونِ القَافِ[١]، و ﴿سُقُفاً﴾ بضَمِّهما، جَمْعُ سَقْفٍ كـ«رَهْنٍ» و «رُهُنٍ»، و ﴿مَعَارِجَ﴾ جَمْعُ مِعْرَجٍ، أو: آسمُ جَمْعٍ لِمِعْرَاجٍ وهي المَصَاعِدُ إلى العَلالي، ﴿عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ أي: على المَعارِجِ، يَظْهرونَ السُّطوحَ: يَعلونَها كَمَا في قَولِهِ: ﴿فَمَا ٱسْطَـٰعُوٓاْ أَنْ يَظْهَرُوهُ﴾[٢] وقُرِئَ ﴿لَمَّا﴾ بالتَّخْفِيفِ[٣] والتَّشديدِ، فالتَّخفيفُ علىٰ أنَّ اللّامَ هي المفارقةُ بين النَّفْيِ والإِثْباتِ، و ﴿إِنْ﴾

(١) قرأه ابن كثير وأبو عمرو. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٥٨٥.

(٢) الكهف: ٩٧.

(٣) قرأه نافع وابن كثير والكسائي وأبو عمرو وابن عامر برواية ابن ذكوان. راجع كتاب السبعة: ص ٥٨٦.

هي المخفَّفةُ من الثَّقيلةِ و «ما» مزيدَةٌ، والتَّشديدُ على أنَّ ﴿لَمَّا﴾ بمعنى «إلَّا»، و﴿إنْ﴾ هي النَّافيةُ.

يقالُ: عَشَا يَعْشُو: إذا نَظَرَ نَظَرَ المَعْشيِّ ولا آفَة بِهِ، وعَشَىٰ يَعْشي: إذا حَصَلَتِ الآفةُ في بَصَرِهِ، أي: مَن يَتَعَامَ ﴿عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ فيَعْرفُ أنَّه حقٌّ ويَتَجاهَلُ ﴿نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا﴾ نَخْذُلْهُ ونُخَلِّ بينَهُ وبينَ الشَّياطين، كقولِهِ: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ﴾[1]، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ﴾[2]. وقُرِئَ «يُقَيِّضْ» بالياءِ[3]، وجُمِعَ ضَميرُ «مَن» وضَميرُ «الشَّيطان» في قَولِهِ: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ﴾ لأنَّ «مَن» مُبْهَمٌ في جنْسِ العاشِي وقَد قُيِّضَ لَهُ شيطانٌ مُبْهَمٌ في جِنْسِهِ، فلمَّا جَازَ أَن يَتَنَاولا لإبْهامِهِمَا غَيْرَ واحِدَيْنِ جَازَ أَن يُرْجِعَ الضَّميرَ إليهما مجمُوعاً.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا﴾ العاشِي، وقُرِئ «جَاءَانا»[4] على أنَّ الفِعْلَ لَهُ ولِشَيْطانِهِ، قَالَ لِشَيْطانِهِ: ﴿يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾ يُريدُ: المَشْرِقَ والمَغْرِبَ، فَغَلَّبَ، كَمَا قيلَ: «القَمَران» للقَمَرِ والشَّمْسِ، قَالَ:

أَخَذْنَا بِآفاقِ السَّماءِ عليكُمُ ... لَنَا قَمَراهَا والنُّجُومُ الطَوالِعُ[5]

وبُعْدُهُما: تَباعدُهُما، الأَصْلُ: بُعْدُ المَشْرِقِ من المَغْرِبِ، والمَغْرِبِ من المَشْرِقِ. ﴿أَنَّكُمْ﴾ في مَوْضِعِ رَفْعٍ، أي: ﴿لَن يَنفَعَكُمُ﴾ كَونُكُم مشتَركينَ ﴿فِى ٱلْعَذَابِ﴾، ﴿إِذ ظَّلَمْتُمْ﴾ معنَاهُ: إذَا صَحَّ ظُلْمُكُم وتَبَيَّنَ.

---

(١) فصِّلت: ٢٥. (٢) مريم: ٨٣.

(٣) وهي قراءة عليّ عليه السلام والسلمي وعاصم برواية حمّاد والأعمش. راجع شواذ القرآن لابن خالويه: ص ١٣٦.

(٤) أي بألف بعد الهمزة على التثنية، وهي قراءة ابن كثير ونافع وابن عامر وعاصم برواية أبي بكر. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٥٨٦.

(٥) البيت للفرزدق من قصيدة يفخر بقومه ويذمّ جريراً. راجع ديوان الفرزدق: ج ٢ ص ٧٣.

﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ﴾ إنْكارُ تَعْجيبٍ، والمُرادُ: أنْتَ لا تَقْدِرُ علىٰ إكْراهِهِم علىٰ الإيمانِ.

﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ(٤١) أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَـٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ(٤٢) فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ(٤٣) وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ(٤٤) وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ(٤٥)﴾

«مَا» في قَولِهِ ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ﴾ بمنزلةِ لامِ القَسَمِ في أنَّها[(١)] إذا دَخلَتْ مَعها النُّونُ الثَّقيلةُ، والمعنىٰ: إنْ قَبَضْنَاكَ وتوَفَّيْنَاكَ ﴿فإنَّا... مُنْتَقِمُونَ﴾ منهم بَعْدَكَ. وعنِ الحسنِ وقتَادَةَ: أنَّ ٱللهَ أكْرَمَ نبيَّهُ بأنْ لَمْ يُرِهِ تلكَ النِّقْمةَ، وقد كَانَ ذلكَ بَعْدهُ[(٢)].

وقد رُوِيَ أنَّهُ عليه السلام أُرِيَ ما تَلْقىٰ أُمَّتُهُ بَعْدَهُ، فما زَالَ منْقَبِضاً ولَمْ يَنْبسِطْ ضَاحِكاً حتَّىٰ قُبِضَ[(٣)].

وروىٰ جابرُ بنُ عبدِ ٱللهِ قَالَ: إنِّي لأدْنَاهُمْ من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في حجَّةِ الوداعِ بِمِنَىٰ حينَ قَالَ: «لا أُلْفِيَنَّكُم، ترجعُونَ بَعدي كفَّاراً يَضْرِبُ بعضُكم رِقَابَ بَعْضٍ، وأَيمُ ٱللهِ لَئِنْ فَعَلْتُمُوها لَتَعرِفُنَّني في الكتيبةِ الَّتي تُضَارِبُكُم» ثمّ ٱلتفَتَ إلىٰ خَلْفِهِ فَقَالَ: «أو عليٌّ أو عليٌّ» ثَلاثَ مرَّاتٍ، فَرَأَيْنا أَنَّ جبرائيلَ عليه السلام غَمَزَهُ فأَنْزَلَ الله تعالىٰ علىٰ أثرِ ذلكَ: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُنْتَقِمُونَ﴾ بعليِّ بنِ أبي طالب عليه السلام»[(٤)].

وإنْ أَرَدْنا أَن نُرِيَكَ ما وَعَدْنَاهُم من العذَابِ فإنَّهم تَحْتَ قُدرتِنا لا يفُوتُوننا،

---

(١) كذا في النسخ، والظاهر: إذا دخلت دخلت معها النون، كما في الكشّاف ج ٤ ص ٢٥٤.

(٢) حكاه عنهما الطبري في تفسيره: ج ١١ ص ١٩٠.

(٣) رواه أنس، أخرجه الحاكم في مستدركه: ج ٢ ص ٤٤٧.

(٤) أمالي الشيخ الطوسي: ج ٢ ص ١١٦ ـ ١١٧، شواهد التنزيل للحسكاني: ج ٢ ص ٢١٦ ح ٨٥١، المناقب لابن المغازلي الشافعي: ص ٢٧٤ ح ٣٢١.

وقيلَ: إنّهعليه‌السلام رأىٰ نِقمةَ اللهِ منْهُم يومَ بَدْرٍ بأَن أَسَرَ منْهُم وقَتل[(١)].

﴿فَاسْتَمْسِكْ﴾ أي: تَمسَّكْ بما أَوْحَيْنا ﴿إِلَيْكَ﴾ والعَمَلِ بهِ ﴿إِنَّك عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ لا يَحيدُ عنهُ إلّا ضَالٌّ. ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ وإنَّ الذي أُوْحِيَ إليكَ ﴿لَذِكْرٌ لَكَ﴾ لَشرفٌ لكَ ﴿وَلِقَوْمِكَ﴾ لِقُرَيشٍ أو للعرَبِ، يختصُّ بذلكَ الشَّرَفِ الأَقْربُ منْهُم فالأَقْربُ، ولَـ﴿سَوْفَ تُسْئَلُونَ﴾ يَومَ القيامةِ عن قِيَامِكُم بحقِّهِ، وشُكْرِكُم علىٰ أنْ رُزِقْتُمُوهُ وخُصِصْتُم بِهِ من بينِ العَالَمِينَ.

والمُرادُ بسؤَالِ الرُّسُلِ النظَرُ في أَديانِهِم والفَحْصُ عَنْها: هَلْ جاءَتْ عبادةُ الأَوثانِ قَطُّ في شيءٍ من مِلَلِهِم؟ وهذا كَمَا قيلَ: سَلِ الأرضَ مَن شَقَّ أنهارَكِ، وغَرَسَ أشجارَكِ، وجَنَىٰ ثِمَارَكِ؟ فإنَّها إنْ لَمْ تُجِبْكَ حِوَاراً أَجَابَتْكَ اعتباراً، وقيلَ: إنَّ النبيَّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم جُمِعَ له الأنبياءُ ليلةَ الإِسْراءِ في بَيْتِ المَقدسِ فأَمَّهُم، وقيلَ لَهُ: سَلْهُم، فَلَمْ يُشكِّكْ ولَمْ يَسْأَلْ[(٢)].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ(٤٦) فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَـٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ(٤٧) وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَـٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ(٤٨) وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ(٤٩) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ(٥٠) وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَـٰذِهِ ٱلْأَنْهَـٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ(٥١) أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ(٥٢) فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ

(١) قاله ابن عباس في تفسيره: ص ٤١٤.

(٢) قاله ابن عباس وابن زيد. راجع تفسير الماوردي: ج ٥ ص ٢٢٨.

مُقْتَرِنِينَ(٥٣) فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَـسِقِينَ(٥٤) فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَـهُمْ أَجْـمَعِينَ(٥٥) فَـجَعَلْنَـهُمْ سَلَفًا وَمَـثَلًا لِّلْأَخِرِينَ(٥٦)﴾

ما أَجَابُوهُ بِهِ عندَ قَولِهِ: ﴿إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَـلَمِينَ﴾ مَحْذُوفٌ دَلَّ عليهِ قَوْلُهُ: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَـتِنَا﴾ وهو مُطالَبَتُهُم إِيَّاهُ بالدلالةِ علىٰ دَعْواهُ، وأُجيبَ ﴿لَـمَّا﴾ بـ﴿إذا﴾ المفاجَأَةِ، لأنَّ فِعْلَ المفاجَأَةِ مَعَها مُقَدَّرٌ، وهو عامِلُ النَّصْبِ في مَحلِّها، كأنَّه قَالَ: فَلَمَّا جاءَهُم بآياتِنا فاجَؤُوا وَقْت ضَحْكِهِم. ﴿وَمَا نُرِيهِمْ مِّنْ ءَايَةٍ﴾ من آياتِهِ المتَرادِفَةِ عليهِم من الطُّوفَانِ والجرادِ والقُمَّلِ والضَّفادعِ والدّمِ والطَّمْسِ ﴿إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ الَّتي قَبلها ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي: إرادةَ أَن يرجِعُوا عن الكُفْرِ إلى الإيمانِ.

﴿بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ﴾ أي: بعَهْدِهِ عندَكَ من النبوَّةِ، وأنَّ دعْوتَكَ مستَجَابةٌ، أو: بما عَهِدَ عندَكَ من كَشْفِ العَذَابِ عَمَّنِ ٱهتدىٰ، وقَولُهُم: ﴿إِنَّنا لَمُهْتَدُونَ﴾ وَعْدٌ قد نَوَوْا خِلافَهُ، فَمَا كانَتْ تَسمِيَتُهُم إيَّاهُ بالسَّاحِرِ بمنافيةٍ لقَولِهِم: ﴿إِنَّنا لَمُهْتَدُونَ﴾.

﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ في قَوْمِهِ﴾ جَعَلَهُم مَحَلّاً لندائِهِ، والمعنىٰ: أنَّه أمَرَ بالنداءِ في مَحَافِلِهِم مَنْ نَادىٰ فيها بذلكَ، فأُسْنِدَ النِّداءُ إليهِ، كقَولِكَ: قَطَعَ الأَميرُ اللِّصَّ: إذا أَمَرَ بقَطْعِهِ ﴿وهذِهِ الأَنْهَـرُ﴾ من النِّيلِ وغَيْرِهِ ﴿تَجْرِى مِن﴾ تَحتَ أَمْري، مبتَدأٌ وخَبَرٌ، ويجوزُ أَن يكُونَ ﴿الأَنْهَـرُ﴾ عَطْفاً علىٰ ﴿مُلْكُ مِصرَ﴾ و ﴿تَجْرِى﴾ نَصْبٌ علىٰ الحالِ مِنْهَا. ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ﴾: «أَم» هذه متَّصِلَةٌ، لأنَّ المعنىٰ: أَفَلا تُبْصِرُونَ أم تُبْصِرُونَ، إلَّا أنَّه وَضَعَ قَولَهُ: ﴿أَنَاْ خَيْرٌ﴾ موضِعَ ﴿تُبْصِرُونَ﴾ لأنَّهم إذا قَالُوا لَهُ: أَنْتَ خيرٌ فَهُم عندَهُ بُصَرَاءُ، ويجوزُ أَن تَكُونَ منقَطِعَةً علىٰ معنىٰ: بَلْ أَنا خَيرٌ، والهَمْزةُ للتَقْرِيرِ والمعنىٰ: أثْبتَ عنْدَكُم وٱستَقَرَّ أَنِّي أنا خَيرٌ مع أنِّي علىٰ هذهِ الحالةِ ﴿مِنْ هَـٰذَا الَّذِى

هُوَ مَهِينٌ﴾ أي: ضَعيفٌ حَقيرٌ ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ الكَلَامَ؛ لِمَا بِهِ من الرُّتَّةِ[١].

وعن الحَسَنِ: كانَتِ العقْدَةُ زَالَتْ عن لسانِهِ كَمَا قَالَ: ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي﴾ وإنَّما عَيَّرَهُ بما كانَ في لِسَانِهِ قَبلَ النبوَّةِ[٢].

وقُرِئ: «أَسَاوِرَة»[٣] وهي جَمْعُ أَسْوارٍ علىٰ تَعويضِ التَّاءِ من ياءِ «أَسَاوِير»، و «أَسْوِرَةٌ» جَمْعُ «سِوَارٍ» ﴿مُقْتَرِنِينَ﴾ بِهِ، من قَولِكَ: قَرَنْتُهُ بِهِ فاقتَرَنَ بِهِ، أو: من قولِكَ: اقْتَرَنُوا بمعنىٰ «تَقَارَنُوا».

﴿فاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ﴾ فاستَفزَّهُم، وحقيقتُهُ: حَمَلَهُم علىٰ أَن يَخفُّوا لَهُ ولِمَا أَرَادَهُ منْهُم، وكذلكَ «استَفَزَّهُ» فإنَّ الفَزَّ هو الخَفيفُ. ﴿فَلَمَّا ءَاسَفُونَا﴾ أي: أَغْضَبُونَا، وغَضَبُهُ سبحانَهُ علَى العُصَاةِ هو إرادةُ عِقَابِهِم، وقيلَ: معنَاهُ: آسَفُوا رُسُلَنَا[٤]، لأنَّ في الأَسَفِ معنَى الحُزْنِ[٥]. وقُرِئ: ﴿سَلَفاً﴾ جَمْعُ سَالِفٍ، و «سُلُفاً»[٦] جَمْعُ سَليفٍ، أي: جَعَلْنَاهُم قُدْوةً لِمَنْ أتىٰ بعدَهُم من الكُفَّارِ يَقْتَدونَ بِهِم في استحقاقِ مِثْلِ عِقَابِهِم لإِتْيانِهِم بمثْلِ أَفْعالِهِم ﴿وَمَثَلًا﴾ أي: حَديثاً عَجِيبَ الشَأْنِ، سَائِراً مَسِيرَ المَثلِ، يُشَبَّهُ غَيْرُهُم بِهِم.

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ(٥٧) وَقَالُوٓا

---

(١) الرُّتَّة: عجلة في الكلام وقلّة أناة، وقيل: هو أن يُقْلبَ اللامَ ياءً، وقيل: هي العجمة في الكلام والحُكْلةُ فيه، (لسان العرب: مادة رتت).

(٢) حكاه عنه الشيخ في التبيان: ج ٩ ص ٢٠٨، والآية من سورة طـه: ٢٧.

(٣) وهي قراءة الجمهور من السبعة إلّا حفصاً. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٥٨٧.

(٤) حكاه الماوردي في تفسيره: ج ٥ ص ٢٣٢.

(٥) قال الخليل: الأَسَفُ: الحزن في حال، والغضب في حال، فاذا جاءك أمرٌ ممّن هو دونك فأنت أسفٌ أي: غضبان، واذا جاءك ممّن فوقك أو من مثلك فأنت أَسِفٌ أي: حزين. انظر كتاب العين: مادة «أسف».

(٦) قرأه حمزة والكسائي. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٥٨٧.

ءَأَلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ(٥٨) إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَـٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ(٥٩) وَلَـوْ نَشَآءُ لَـجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَـٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ(٦٠) وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ(٦١) وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ(٦٢) وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ(٦٣) إِنَّ ٱللَّـهَ هُـوَ رَبِّـى وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ(٦٤) فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِن بَـيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ(٦٥)﴾

قُرِئَ: ﴿يَصِدُّونَ﴾ بضَمِّ الصَّادِ[١] وكَسْرِها، وٱختَلفُوا في معنَى الآيـةِ عـلىٰ وجُوهٍ:

أَحدُها: أَنَّه لمَّا نَزَلَ قَولُهُ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾[٢] قَالُوا: ألسْتَ تَزْعمُ أنَّ عيسىٰ نبيٌّ؟ وقد عَلِمْتَ أنَّ النَّصارىٰ يعبدُونَهُ، وعُزَيْرٌ يُعْبَدُ، والملائكةُ يُعْبَدونَ، فإنْ كانَ هؤلاءِ في النَّارِ فقَد رَضِيْنَا أن نكونَ نحنُ وآلهتُنا في النَّارِ مَعَهم!! والمعنىٰ: وَلَمَّا ضَرَبُوا عِيسَىٰ بنَ مَرْيَمَ مَثَلًا بعبادةِ النَّصارىٰ إيَّـاه إذا قُرَيْشٌ من هذا المَثَلِ ﴿يَصِدُّونَ﴾ بالكسر، أي: يَرتَفعُ لَهُم جَلَبَةٌ وضَـجيجٌ فَـرَحاً وجَدَلًا وضَحِكاً، وبالضمِّ من الصُّدودِ أي: يصُدُّونَ عن الحقِّ ويُعرِضُونَ عنْهُ مـن أجلِ هذا المَثَلِ، وقيلَ: من الصَّديدِ وهو الجَلَبَةِ[٣]، وهُما لُغَتَانِ ﴿وَقَالُوٓاْ ءَأَلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ أي: ليستْ آلهتُنا عندَكَ خَيْراً من عيسىٰ، فإذا كانَ عيسىٰ من حَصَبِ النارِ

---

(١) وهي قراءة نافع وابن عامر والكسائي. راجع المصدر السابق.

(٢) الأنبياء: ٩٨.

(٣) وهو قول الجوهري في الصحاح: مادة «صدد».

كانَ أَمْرُ آلهتِنا هيِّناً!! ما ضَرَبوا هذا المَثَلَ لكَ إلَّا لأَجْلِ الجدَلِ والغَلَبةِ في القَولِ لا لِطَلَبِ المعرفةِ ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ دأْبُهم الخُصُومةُ[١] واللَّجاجِ. وذلكَ أَنَّ قولَهُ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾[٢] ما أُرِيدَ بِهِ إلَّا الأَصنامُ، ومحَالٌ أن يُقْصَدَ بهِ الأنبياءُ والملائكةُ.

وثانيها: أنَّهم لمَّا سَمِعُوا أنَّ مَثَلَ عيسىٰ عند ٱللهِ كمَثَلِ آدَمَ، قَالُوا: نحنُ أَهْدىٰ من النَّصارىٰ؛ لأنَّهم عَبَدُوا آدميّاً ونَحنُ نَعبُدُ الملائكةَ، فَنَزَلَت[٣]. فعلىٰ هـذا يكُـونُ في قَولِهِم: ﴿ءَأَلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ تَفْضِيلُ آلهتِهم علىٰ عيسىٰ!! وما قَالُوا هذا القَوْلَ إلَّا للجدَلِ، أو يكُونُ ﴿جَدَلًا﴾ حالاً بمعنىٰ: جَدلينَ.

وثالثها: أنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لمَّا مَدَحَ المسيحَ وأُمَّهُ قَالُوا: ما يُريدُ محمّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بهذا إلَّا أَن نعبدَهُ كَمَا عَبَدَتِ النَّصارَى المَسِيحَ[٤]. ومعنىٰ ﴿يَصِدُّونَ﴾: يَضْجرُونَ ويضجُّونَ، والضَّميرُ في ﴿أَمْ هُوَ﴾ لمحمّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وغَرَضُهُم بالمُوازَنَةِ بينَهُ وبينَ آلهتِهِم السُّخْريّةُ والاستِهْزَاءُ.

والمَرْوِيُّ عنْ أهلِ البيتِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ: أنَّ أميرَ المؤمنينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: جِئْتُ إلى النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يوماً فَوَجَدْتُهُ في مَلَأ من قُرَيْشٍ، فنظر إليَّ ثمَّ قَالَ: «يا عليُّ، إنَّما مَثَلُكَ في هذهِ الأُمَّةِ كَمَثَلِ عيسىٰ بنِ مريم، أَحَبَّهُ قومٌ وأَفْرَطُوا في حبِّهِ فَهَلَكُوا، وأَبْغَضَهُ قَوْمٌ وأَفرَطُوا في بُغْضِهِ فَهَلَكُوا، واقتَصَدَ فيهِ قَومٌ فَنَجَوْا» فَعَظُمَ ذلكَ عليهم وضحكُوا، فَنَزَلَتِ الآية[٥].

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ﴾ أي: ما عيسىٰ إلَّا عَبْدٌ كَسَائرِ العبيدِ ﴿أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ حيثُ

---

(١) في نسخة: «الخصومة والجدال». (٢) الأنبياء: ٩٨.

(٣) أسباب النزول للواحدي: ص ٣١٧ ح ٧٨٣.

(٤) حكاه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٢٦٠.

(٥) تفسير فرات الكوفي: ص ١٥١.

﴿جَعَلۡنَـٰهُ﴾ آيةً بأَنْ خَلَقْنَاهُ من غَيْرِ سَبَبٍ كَمَا خَلَقْنا آدمَ، وشَرَّفْنَاهُ بالنبوَّةِ، وصيَّرنَاهُ عِبرةً[١] عَجِيبةً كالمَثَلِ السَّائر ﴿لِبَنِىٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾.

﴿وَلَوۡ نَشَآءُ﴾ لِقُدْرتِنا علىٰ عَجَائبِ الأُمورِ ﴿لَجَعَلۡنَا مِنكُم﴾ أي: لَوَلَّدْنَا منكم يا رِجَال ﴿مَّلَـٰٓئِكَةً﴾ يَخْلُفُونَكُم ﴿فِى ٱلۡأَرۡضِ﴾ كما يخلفكم أولادكم، كما وَلَّدْنا عيسى من أُنثى من غير فحل، أو: لجعلنا بدلاً منكم يا بني آدم ملائكة يَخْلُفُونَكُم في الأرضِ ويكُونُ ﴿مِنكُم﴾ في الآيةِ مثل ما في قَولِ الشَّاعرِ:

فَلَيْتَ لَنَا من ماءِ زَمْزَمَ شَرْبَةً مُبَرَّدةً باتَتْ على الطَّهَيَانِ[٢]

أو: لَجَعَلْنَاكُم أيُّها البَشَرُ ملائكةً، فيكُونُ ﴿مِنكُم﴾ من بابِ التَّجريدِ، ويكُونُ فيهِ إِشَارةٌ إلىٰ قُدرتِهِ علىٰ تغييرِ بُنْيةِ البَشَرِ إلىٰ بُنْيةِ الملائكةِ.

﴿وَإِنَّهُۥ﴾ وإنَّ عيسىٰ ﴿لَعِلۡمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ أي: شَرْطٌ من أَشْراطِها تُعْلَمُ بهِ، فَسُمِّي الشَّرْطُ عَلَماً لِحُصُولِ العِلْمِ بهِ، وقَرأَ ابنُ عبّاسٍ: «وإنَّه لَعَلَمٌ»[٣] أي: علامةٌ وأَمَارةٌ ﴿فَلَا تَمۡتَرُنَّ بِهَا﴾ فَلَا تَشُكُّوا فيهَا ولا تَكْذبُوا بها.

وفي الحديثِ: «أنَّ عيسىٰ عليه‌السلام يَنْزلُ علىٰ ثَنِيَّةٍ بالأَرضِ المقدَّسةِ يـقَالُ لَـهَا: أَفيقُ، وعليهِ مُمَصَّرتَانِ، وشَعْرُ رأْسِهِ دَهينٌ، وبيدِهِ حُرْبَةٌ وبِهَا يَقْتلُ الدَّجَّالَ، فَيأْتي بيتَ المَقْدِسِ والنَّاسُ في صلاةِ الصُّبحِ والإمامُ عليه‌السلام يَؤُمُّ بِهِم، فَيَتَأَخَّرُ الإمامُ فَيقَدِّمُهُ عيسىٰ ويُصَلِّي خَلْفَهُ علىٰ شَريعةِ محمّدٍ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ، ثـمَّ يَـقْتُلُ الخَـنَازيرَ، ويَكْسِـرُ

(١) في بعض النسخ: «غير».

(٢) البيت ليعلىٰ بن مسلم الأحول الأزدي من شعراء الدولة الأموية، من قصيدة نـظمها وهـو محبوس بمكّة عند نافع بن علقمة في خلافة عبدالملك بن مروان، وقيل: البيت لعمرو بن أبي عمارة الأزدي، وقيل غير ذلك. راجع خزانة الأدب: ج ٥ ص ٢٧٧ ـ ٢٧٨ و ج ٩ ص ٤٥٣.

(٣) بفتح العين واللام. راجع شـواذ القـرآن لابـن خـالويه: ص ١٣٦ وزاد: أبـوهريرة وقـتادة والضحاك وجماعة.

الصَّليبَ، ويُخرِّبُ البِيَعَ والكنائِسَ، ويَقْتلُ النَّصارىٰ إلَّا مَن آمَنَ بِهِ» كَذَا وَجَدْتُهُ في الكشَّاف[1].

وعن الحَسَن: أنَّ الضَّميرَ للقرآنِ وبِهِ تُعْلَمُ السَّاعَةُ لأنَّ فيهِ الإعْلامَ بها[2]، ﴿وَٱتَّبِعُونِ﴾ هو أَمْرٌ لرسولِ اللهِ ﷺ أن يقُولَهُ، أي: واتَّبِعُوا شَرْعي وهُدَايَ، أو: معناه: واتَّبعُوا رَسُولي.

﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالبَيِّنَاتِ﴾ أي: بالمُعْجِزاتِ الدالَّةِ علىٰ نبوَّتِهِ ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ وهو ما ٱحتاجُوا إليهِ من أُمورِ الدِّينِ وَمَا تَعَبَّدُوا بمَعرِفَتِهِ دونَ ما ٱختَلفُوا فيهِ من أُمورِ الدُّنيا، و ﴿الأَحْزَابُ﴾: الفِرَقُ الْمُتَحَزِّبَةُ بعدَ عيسىٰ.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ(٦٦) ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ(٦٧) يَـٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ(٦٨) ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ(٦٩) ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ(٧٠) يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ(٧١) وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(٧٢) لَكُمْ فِيهَا فَـٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ(٧٣) إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ(٧٤) لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ(٧٥) وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّـٰلِمِينَ(٧٦) وَنَادَوْا۟ يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم

(١) الكشّاف: ج ٤ ص ٢٦١. وكذا أورده مرسلًا البغوي في تفسيره: ج ٤ ص ١٤٤، والبيضاوي في أنوار التنزيل: ج ٢ ص ٣٧٠ ط مصر.

(٢) تفسير الحسن البصري: ج ٢ ص ٢٧٥.

مَّـكِثُونَ(٧٧) لَقَدْ جِئْنَـٰكُم بِالْحَقِّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَـٰرِهُونَ(٧٨) أَمْ أَبْرَمُوٓاْ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ(٧٩) أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰـهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ(٨٠)﴾

﴿أَن تَأْتِيَهُم﴾ بَدَلٌ مِن ﴿السَّاعَةَ﴾، ﴿بَغْتَةً﴾ أي: فُجْأَةً ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ معناهُ: وهم غَافِلُونَ لاشتغالِهم بأمورِ دنْياهم. ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يَنْتَصِبُ بـ﴿عَدُوٌّ﴾ أي: يَنْقَطِعُ في ذلكَ اليومِ كلُّ خلَّةٍ فَيَنْقَلِبُ عَداوةً إلاَّ خَلَّةَ ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾ المتَخَالينَ في ٱللهِ، فإنَّها الخلَّةُ الباقيةُ تَزْدادُ وتَتَأَكَّدُ.

﴿الَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ منصُوبُ المَوضِعِ صِفَةً لـ﴿عِبَادِ﴾ لأنَّـه مـنادىً مـضَافٌ ﴿وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ مستَسلمينَ لأَمْرِنا خَاضعينَ منْقَادينَ، جاعلينَ نفُوسَهُم سَالِمَةً لِطَاعَتِنا. ﴿أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ﴾ اللاَّتي كنَّ مؤْمناتٍ مثْلَكُم ﴿تُحْبَرُونَ﴾ أي: تُسـرُّونَ سُروراً، يَظْهَرُ حَبَارُهُ ـ أي: أَثَرُهُ ـ علىٰ وجُوهِكُم، كقَولِهِ: ﴿تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾[(١)]. والصِّحَافُ: القِصَاعُ، والأَكْوَابُ: الكِيزانُ لا عُرَىً لَهَا، وقيلَ: هي الآنيةُ المستَديرةُ الرُّؤُوسِ[(٢)]، وفيها الضَّميرُ لـ﴿ٱلْجَنَّةِ﴾، وقُرِئَ «مَا تَشْتَهِي»[(٣)] و ﴿مَا تَشْتَهِيهِ﴾ وهذا حَصْرٌ لأنْواعِ النِعَمِ، لأنَّها: إمَّا مشْتَهاةٌ فـي القُـلُوبِ، وإمَّـا مسْتَلَذَّةٌ في العُيُونِ.

﴿وَتِلْكَ﴾ إشَارةٌ إلَى الجنَّةِ المذكُورةِ، وهي مبتَدأٌ و ﴿الْجَنَّةُ﴾ خبَرٌ، و ﴿الَّتِى أُورِثْتُمُوهَا﴾ صِفَةٌ لـ﴿الجَنَّةُ﴾، أو: ﴿الجَنَّةُ﴾ صِفَةٌ لـ﴿تِلْكَ﴾ و ﴿الَّتِى أُورِثْتُمُوهَا﴾ خَبَرٌ، و ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ خَبَرُ المبتدأ والباءُ يَتعلَّقُ بمَحْذُوفٍ، وفي الوَجْهِ الأَوَّلِ

(١) المطففين: ٢٤.

(٢) قاله مجاهد. راجع تفسير الماوردي: ج ٥ ص ٢٣٨.

(٣) قرأه ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي وعاصم برواية أبي بكر. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٥٨٩.

يَتعلّقُ بـ﴿أُورِثْتُمُوهَا﴾ وشُبِّهت في بَقَائِها علىٰ أَهْلِها بالميراثِ الباقي على الوَرَثَةِ.

﴿مِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾: «من» للتبعيضِ، أي: لا تأكُلونَ إلَّا بَعْضَها.

وفي الحديثِ: «لا يَنْزِعُ رَجُلٌ في الجنَّةِ من ثَمَرِها إلَّا ثَبَتَ مكانَها مثلُها»[١].

﴿مُبْلِسُونَ﴾ آيسُونَ من كلِّ خَيْرٍ. ورُوِيَ عن عليٍّ عليه السلام وٱبنِ مسْعُودٍ: «يا مَالِ» بحَذْفِ الكافِ للتَّرخيمِ[٢]، أي: ﴿يَـٰمَٰلِكُ﴾ سَلْ ﴿رَبَّكَ﴾ أَنْ يقْضِيَ عَلَينا أي: يُميتَنَا لِنَتخَلَّصَ ونَستَريحَ ممَّا بِنا، فَيقُولُ مالِكٌ: ﴿إنَّكم مَـٰكِثُونَ﴾ لابِثُونَ دائِمُونَ.

﴿لَقَدْ جِئْنَـٰكُمْ بِـٱلْحَقِّ﴾ هو كَلامُ مَالِكٍ، وإنَّما قَالَ: «جِئْناكُم» لأنَّه من الملائكةِ، وقيلَ: إنَّه كَلامُ ٱللهِ عزَّوجلّ[٣]، وعلىٰ هذا فيكُونُ في ﴿قَالَ﴾ ضميراً «للهِ»، لمَّا سأَلُوا مالِكاً أَن يَسْأَلَ اللهَ القَضَاءَ عليهِم أَجابَهُم ٱللهُ بذلكَ.

﴿أَمْ﴾ منقَطِعَةٌ أي: بَل أبْرَمُوا، أي: أَأَحْكَمَ المَلأُ من قُريشٍ ﴿أَمْراً﴾ أي: كَيْداً في الخلافِ عن أَمْرِكَ ﴿فإنَّا مُبْرِمُونَ﴾ كَيْدَنا كَمَا أَبْرمُوا كَيدَهُم وَالسِّرُّ: ما حَدَّثَ به الرَجُلُ نفسَهُ أو غَيْرَهُ في مكانٍ خَالٍ، و النَّجْوىٰ: ما تَكلَّموا به فيما بَيْنَهُم، وقيلَ: السِّرُّ: ما يُضْمِرُ الإنسانُ في نَفْسِهِ، والنَّجوىٰ: ما يُحدِّثُ بِهِ غَيرَهُ في الْخُفْيَةِ ﴿بَلَىٰ﴾ نَسْمَعُهُما ونَطَّلِعُ عَلَيهِما ﴿وَرُسُلُنَا﴾ الحَفَظَةُ معَ ذلكَ عنْدَهُم ﴿يَكْتُبُونَ﴾ ما يَكيدُونَهُ وَيُبَيِّتُونَهُ. وقد رُوِيَ عنْهُم عليهم السلام السَّبَبُ في نُزُولِ الآيتَيْنِ[٤].

﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدٌ فَأَنَـا۠ أَوَّلُ ٱلْـعَـٰبِدِينَ(٨١) سُبْحَـٰنَ رَبِّ

---

(١) أخرجه البغوي في تفسيره: ج ٤ ص ١٤٦.

(٢) شواذ القرآن لابن خالويه: ص ١٣٧، وزاد: والنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم.

(٣) قاله الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٢٦٥.

(٤) وهو ما رواه الكليني في أُصول الكافي: ص ٤٢٠ ح ٤٣ بإسناده عن عبدالرحمن بن كثير عن أبي عبدالله عليه السلام، وفي الروضة: ص ١٧٩ ح ٢٠٢ بإسناده عن أبي بصير عن أبي عبدالله عليه السلام أيضاً.

ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ(٨٢) فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ
وَيَلْعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَـٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ(٨٣) وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ
إِلَـٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَـٰهٌ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ(٨٤) وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُ مُلْكُ
ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ(٨٥)
وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَـٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ
يَعْلَمُونَ(٨٦) وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ(٨٧)
وَقِيلِهِۦ يَـٰرَبِّ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ(٨٨) فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَـٰمٌ
فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ(٨٩)﴾

﴿إن كَانَ لِلرَّحْمٰن وَلَدٌ﴾ إنْ صَحَّ ذلكَ وثَبُتَ ببُرهَانٍ صَحيحٍ ﴿فَأَنَاْ أَوَّلُ﴾ مَنْ يُعَظِّمُ ذلكَ الوَلَدَ ويُطِيعُهُ كَمَا يُعَظِّمُ الرَجُلُ الولَدَ المَلِكَ لِتَعظيمِ أَبيهِ، وهو واردٌ علىٰ سبيلِ الفَرْضِ والتَّقدير للمُبَالَغةِ في نَفْي الوَلَدِ لأنَّه تَعْليقٌ للعبادةِ بكينُونَةِ الوَلَدِ، وهو مُحَالٌ، فالمُعَلَّقُ بِهِ مُحَالٌ مثلُهُ، فَهُو في صورةِ الإثْباتِ والمُرادُ النَّفْي علىٰ أَبْلَغِ الوجُوهِ، وقيلَ: معناهُ: إنْ كانَ للرحمٰنِ وَلَدٌ في زَعْمِكُم فأنَا أَوَّلُ العابدينَ الموحِّدينَ للهِ المكذِّبينَ قَولَكُم [١]، وقيلَ: فأنَا أَوَّل الآنفينَ مِنْ أَن يكُونَ لَهُ وَلَدٌ أو من عبادتِهِ، لأنَّ مَنْ كانَ لَهُ وَلَدٌ لا يكُونُ إلَّا مُحْدَثاً جِسْماً غَيْرَ مُستَحقٍّ للعبادةِ، مِنْ: عَبِدَ يَعْبَدُ: إذا ٱشتَدَّ أَنَفُهُ فَهُو عَبِدٌ وعَابِدٌ [٢]. وقيل: هي «إنْ» النَّافيةُ، أي: ما كانَ للرحمٰنِ وَلَدٌ فأنَا أَوَّلُ العابِدينَ للهِ [٣]. ثمَّ نَزَّهَ نفْسَهُ عمَّا يَصِفُونَهُ من ٱتِّخاذِ الوَلَدِ.

التَّقديرُ: وهو الّذي هو في السَّماءِ إلهٌ وفي الأَرضِ إلهٌ، فـ﴿إِلهٌ﴾ خَبَرُ المبتَدأ

(١) قاله مجاهد. راجع التبيان: ج ٩ ص ٢١٩.
(٢) قاله الكسائي وابن قتيبة. راجع تفسير الماوردي: ج ٥ ص ٢٤١.
(٣) وهو قول ابن زيد وابن أسلم وقتادة. راجع التبيان: ج ٩ ص ٢١٩.

العائِد إِلَى الموصُولِ، وهو اسمٌ ضُمِّن معنَى الوَصْفِ، فلذلكَ عَلَّقَ به الظَّرْفَ في قَولِهِ: ﴿فِى ٱلسَّمَآءِ... وفِى ٱلْأَرْضِ﴾ كَمَا يقُولُ: «هو حَاتمٌ في طَي وحَاتمٌ في تَغْلُب» علىٰ تَضْمينِ معنَى الجوادِ الّذي هو مشهورٌ بِهِ، ومثله قوله: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾ (١) فكأنَّكَ قُلْتَ: هو المعبُودُ أو المَالِكُ أو نَحْوُ ذلكَ، وحَذَفَ «هو» العائِدُ لِطُولِ الكلامِ بالصِلَةِ كقَولِهِم: ما أَنا بالَّذي قَائِلٌ لكَ شيئاً، وزادَهُ طُولاً هاهنا أنَّ المعطُوفَ داخِلٌ في حيِّزِ الصِلَةِ.

﴿وَلَا يَمْلِكُ﴾ آلِهَتُهُمْ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ يَدْعُونَهُم من دونِ ٱللهِ ﴿ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ كما زَعَموا أَنَّهم شُفَعَاؤُهُم عند ٱللهِ لكنْ ﴿مَنْ شَهِدَ بِٱلْحَقِّ﴾ وهو تَوحيدُ ٱللهِ، وهو يَعْلَمُ ما يَشْهَدُ بِهِ عن بَصيرةٍ وإخلاصٍ هو الَّذي يَمْلِكُ الشَّفاعةَ، وهو ٱستِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ، ويجوزُ أَن يكُونَ مُتَّصِلًا لأنَّ في جُملةِ: «الّذينَ يَدْعُونَ من دُونِ اللهِ» الملائِكةَ، وقُرئَ: «تَدعُونَ» بالتاء (٢).

﴿وَقِيلِهِ﴾ قُرئَ بالنَّصبِ (٣) والجرِّ، وعن مُجاهدٍ: بالرَّفْعِ والنَّصبِ (٤) للعَطْفِ علىٰ مَوضِعِ ﴿ٱلسَّاعَةِ﴾، والجرّ على اللَّفظِ، أي: «وعندَهُ عِلْمُ السَّاعةِ وَقِيلِهِ» كما تَقُولُ: عَجِبْتُ من ضَرْبِ زَيْدٍ وعَمْرواً أو عَمْرٍو، والمعنىٰ: يَعْلَمُ السَّاعةَ ومَنْ يُصَدِّقُ بها ويَعْلَمُ قِيلَهُ (٥)، لأنَّ «السَّاعة» ليسَتْ بظَرْفٍ وإنَّما هي مفْعُولٌ بها، والرَّفْعُ للعَطْفِ أيضاً علىٰ تَقْديرِ حَذْفِ المضَافِ أي: وعَلِمَ قِيلُهُ، أو: على الابتدَاءِ والخَبَرُ محذُوفٌ

(١) الأنعام: ٣.

(٢) وهي قراءة عليٍّ عليه السلام والسلمي كما في شواذ القرآن لابن خالويه: ص ١٣٧.

(٣) قرأه ابن كثير ونافع وابن عامر وأبوعمرو والكسائي. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٥٨٩.

(٤) نسب الرفع إليه كما في تفسير الآلوسي: ج ٢٥ ص ١٠٨، والنَّصب كما في اعراب القرآن للنحّاس: ج ٤ ص ١٢٣.

(٥) واليه ذهب الزجّاج في معانيه: ج ٤ ص ٤٢١.

والتَّقديرُ: وَقيلُهُ يا ربِّ مَسْمُوعٌ ومتَقَبَّلٌ، أو: وقيلُهُ قيلَ يا ربِّ، وحَمَلَ الأخْفَشُ النَّصْبَ علىٰ ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ﴾ وَقِيلَهُ[١]، وعنْهُ أيضاً أنَّه علىٰ تأويلِ: «وقَالَ قِيلهُ»[٢]. وقَالَ جارُ ٱللهِ: الجرُّ والنَّصْبُ علىٰ إضْمارِ حَرفِ القَسَمِ وحَذْفِهِ، والرَّفْعُ علىٰ قَولِهِم: أَيْمنُ اللهِ، وَلَعمْرُكَ، ويكُونُ قَولُهُ: ﴿إِنَّ هَٰؤُلَآءِ قَوْمٌ لا يُؤْمِنُونَ﴾ جَوابُ القَسَمِ، فَكَأَنَّه قَالَ: وأُقْسِمُ بقيلِهِ يا ربِّ، أو: قِيلُهُ يا ربِّ قَسَمِي ﴿إِنَّ هَٰؤُلَآءِ قَوْمٌ لا يؤْمِنُونَ﴾[٣].

﴿فَاصْفَحْ﴾ أي: أَعْرِضْ عنْهُم بصَفْحَةِ وجْهِكَ ﴿وقُلْ﴾ لَهُم ﴿سَلَـٰمٌ﴾ أي: تَسَلُّمٌ منْكُم ومُتَارَكَةٌ ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ وَعيدٌ، وقُرِئَ بالتاءِ[٤] أيضاً.

۞ ۞ ۞

(١ و ٢) حكاه عنه الزجّاج في معاني القرآن: ج ٤ ص ٤٢١.

(٣) الكشّاف: ج ٤ ص ٢٦٨.

(٤) قرأه نافع وابن عامر برواية هشام بن عمّار. راجع كتاب السبعة: ص ٥٨٩.

سُورَةُ الدُّخَانِ

مَكِّيَةٌ[1]، وهي تِسْعٌ وخَمْسُونَ آيـةً، سَبْعُ بَـصريٌّ، ﴿حٰـمٓ﴾ و ﴿إِنَّ هٰـؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ﴾[2] كُوفيٌّ.

في حديثِ أُبيٍّ: «ومَنْ قَرأَ سُورةَ الدُّخَانِ في لَيلَةِ الجُمُعَةِ غَفَرَ ٱللَّهُ لَهُ»[3].

وعن الباقرِ عليه السلام: «مَنْ قَرأَها في فَرائِضِهِ ونَوافِلِهِ بَعَثَهُ ٱللَّهُ مـن الآمـنينَ يـومَ القيامةِ، وأَظَلَّهُ تَحْتَ ظِلِّ عَرْشِهِ، وحَاسَبَهُ حِسَاباً يَسيراً، وأُعطِيَ كِتابَهُ بِيَمينِهِ»[4].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ(١) وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُبِينِ(٢) إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ إِنَّا كُـنَّا مُنذِرِينَ(٣) فِيهَا يُـفْرَقُ كُـلُّ أَمْـرٍ حَكِيمٍ(٤) أَمْـرًا مِّـنْ عِـندِنَآ إِنَّـا كُـنَّا

---

(١) قال الشيخ الطوسي في التبيان: ج ٩ ص ٢٢٣: هي مكّية في قول قتادة ومجاهد، وهي تسع وخمسون آيةً في الكوفي، وسبع في البصري، وستّ في المدنيّين والشامي.

وفي الكشّاف: ج ٤ ص ٢٦٩: مكّية إلّا قوله: ﴿إِنَّا كَاشِفُو ٱلعَذَابِ قَلِيلًا﴾ الآية، وهي سبع وخمسون آيةً وقيل: تسع وخمسون، نزلت بعد سورة الزخرف.

(٢) الآية: ٣٤.

(٣) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٢٨٣ مرسلًا.

(٤) ثواب الأعمال للصدوق: ص ١٤١ وفيه: «أعطاه» بدل «أُعطي».

مُرْسِلِينَ(٥) رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ(٦) رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ(٧) لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ(٨) بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ(٩)﴾ .

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾ جَوابُ القَسَمِ ﴿فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ هي ليلةُ القَدْرِ وهو الصَّحيحُ، وقيلَ: ليلةُ النِّصْفِ من شَعْبان(١). ومعنىٰ إنزالُ اللهِ القُرآنَ في ليلةِ القَدْرِ أنَّه أنـزَلَهُ جُملةً واحدةً إلى السَّماءِ الدُّنْيا فيها، فكانَ جبرئيلُ يُنزِلُهُ إلىٰ رسـولِ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ نُجُوماً، وقيلَ: كانَ يُنْزِلُ ما يَحتَاجُونَ إليهِ في كلِّ سَنَةٍ: في هذهِ اللَّيلةِ، ثمَّ كانَ يُنزله شَيئاً فشَيئاً وَقْتَ الحاجةِ(٢). وَسُمِّيتْ مُبَارَكةً لأنَّ فيها يقسمُ ٱللهُ نِعَمَهُ علىٰ عبادِهِ فَتَدُومُ بَرَكاتُها، والبَرَكَةُ: نماءُ الخَيْرِ، والمُبَارَكَةُ: الكثيرةُ الخَيْرِ والبَرَكَةِ، ولَوْ لَمْ يُوجَدْ فيها إلَّا إنْزالُ القُرآنِ لَكَفَىٰ بِهِ بَرَكَةً. ﴿فِيهَا يُفْرَقُ﴾ أي: يُفصَّلُ ويُكتَبُ ﴿كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ كلُّ شأنٍ ذي حِكْمَةٍ، أي: مفعُولٌ علىٰ ما تَقْتَضِيهِ الحِكْمَةُ من أَرْزاقِ العبادِ وآجالِهِم وغيرِ ذلكَ من أُمورِ السَّنَةِ إلى الليلةِ الأُخرىٰ القَابلةِ، وَوَصْفُ الأَمْرِ بالحكيمِ مَجَازٌ؛ لأنَّ «الحَكِيم» صِفَةُ صاحِبِ الأَمْرِ على الحقيقةِ.

وقَولُهُ: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ فيها يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ جُـملتانِ مستأنَفتانِ ملفُوفَتان فُسِّرَ بِهِما جَوابُ القَسَمِ، كأنَّهُ قيلَ: إنَّا أَنْزلناهُ لأنَّ مـن شَـأْنِنا الإِنْـذارَ، وأَنْزلناهُ في هذهِ الليلةِ خُصُوصاً لأنَّ إنْزالَ القُرآنِ من الأُمور الحكيمةِ، وهذهِ الليلةُ مفْرَقُ كلِّ أَمْرٍ حَكيمٍ.

﴿أَمْراً مِنْ عِنْدِنَا﴾ نَصْبُ على الاختصاصِ، أي: أَعْني أَمْراً حَاصِلًا من عنْدِنا علىٰ ما ٱقتضَتْهُ حِكْمَتُنا وتَدبيرُنا، ويجوزُ أَن يُرادَ بِهِ الأَمْرُ ضدُّ النَّهي فَوضِعَ موضِعَ

---

(١) وهو قول عكرمة. راجع تفسير الماوردي: ج ٥ ص ٢٤٤.

(٢) قاله قتادة وابن زيد. راجع تفسير البغوي: ج ٤ ص ١٤٨.

مَصدَر ﴿يُفْرَقُ﴾ من حيثُ أَنَّ الأَمْرَ والفُرقَانَ واحِدٌ، لأَنَّ مَن حَكَمَ بالشيءِ وكَتَبَهُ فَقَد أَمَرَ بهِ وأَوجَبَهُ، أو: جُعِلَ حالاً من أَحَدِ الضَّميريْنِ في ﴿أَنزَلْنَـهُ﴾ أي: أَنزَلْناهُ في حالِ كونِهِ أَمْراً بما يَجبُ أَن يُفْعَلَ، أو: أَنْزَلْنَاهُ آمرينَ ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ يَجُوزُ أَن يكُونَ بَدَلاً من: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنْذِرينَ﴾، و ﴿رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ مفعُولٌ لَهُ والمعنىٰ: إِنَّا أَنزَلْنا القرآنَ لأَنَّ من شَأْنِنا إِرْسَالَ الرُّسُلِ بالكُتُبِ إلىٰ عبادِنا لأَجْلِ الرَّحمةِ عليهِم، وأَن يكُونَ تَعليلاً لـ﴿يُفْرَقُ﴾، أو: لقَولِهِ: ﴿أَمْراً مِنْ عِنْدِنَا﴾ و ﴿رَحْمَةً﴾ مفعُولاً بِهِ، أي: يُفْرَقُ فى هذه الليلةِ كُلُّ أَمْرٍ، أو: تَصْدُرُ الأوامِرُ مِن عنْدِنَا، لأَنَّ من عادَتِنا أَن نُرسِلَ رَحْمَتَنا، وفَصْلُ كلِّ أَمْرٍ من قِسْمَةِ الأَرزاقِ وغيرِهَا من بابِ الرَّحْمَةِ، وكذلكَ الأَوامرُ الصَّادِرَةُ من جهتِهِ عزَّوجلَّ؛ لأَنَّ الغَرَضَ من تكْليفِ العبادِ تَعْريضُهُم للمَنَافعِ، والأَصلُ: إِنَّا كُنَّا مُرسِلينَ رَحْمةً منَّا، فَوضِعَ الظَّاهِرُ موضِعَ المُضْمَرِ إِيْذَاناً بأَنَّ الرُّبوبيّةَ تَقْتَضي الرَّحمةَ علَى المربُوبينَ ﴿إِنَّه هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ وما بَعْدَهُ تَحقيقٌ لربوبيَّتِهِ وأَنَّها لا تَحِقُّ إلاَّ لِمَنْ هذه أَوْصَافُهُ.

وقُرِئَ: «ربِّ السَّمٰواتِ» و «ربِّكم ورَبِّ آبائِكُم» بالجرِّ[1] بَدَلاً مِن ﴿رَّبِّكَ﴾، ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ أي: إنْ كانَ إِقْرارُكُم بأَنَّ للسَّماٰواتِ والأرضِ ربّاً وخَالِقاً عن معرفةٍ وإِيْقَانٍ. ثمَّ رَدَّ كونَهُم موقِنينَ بقَولِهِ: ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ أي: إِقْرارُهُم لا يَصْدُرُ عن عِلْمٍ وحقيقةٍ بَلْ هو قَولٌ مخْلُوطٌ بِلَعِبٍ وهُزُءٍ.

﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ(١٠) يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَـٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ(١١) رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ(١٢) أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ(١٣) ثُمَّ تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٌ

---

(١) وهي قراءة ابن أبي اسحاق وابن محيصن والكسائي في رواية الحجازي. راجع شواذ القرآن لابن خالويه: ص ١٣٨.

مَّجْنُونٌ(١٤) إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ(١٥) يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ(١٦) وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ(١٧) أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ(١٨) وَأَن لَّا تَعْلُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ(١٩) وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ(٢٠) وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُواْ لِي فَٱعْتَزِلُونِ(٢١)﴾

﴿يَوْمَ تَأْتِي﴾ مفعولٌ بهِ ﴿فارتَقِبْ﴾ يقالُ: رَقَبْتُهُ وارْتَقَبْتُهُ. وٱختُلِفَ في «الدُّخَانِ» فقيلَ: إنَّه دُخَانٌ يأتي من السَّماءِ قبلَ قِيامِ السَّاعةِ يَدْخُلُ في أَسْماعِ الكَفَرةِ حتَّىٰ يكُونَ رأْسُ الواحِدِ كالرأْسِ الحَنيذِ[1]، ويَعتَري المؤمنَ منْهُ كَهَيئةِ الزُّكَامِ، وتكُونُ الأَرضُ كلُّها كَبَيْتٍ أُوقِدَ فيهِ ليس فيه خَصَاصٌ[2]، ويَمتدُّ ذلك أَربعينَ يوماً، رُوي ذلك عن عليٍّ عليه السلام وٱبنِ عبَّاسٍ والحسنِ[3] وقيلَ: إنَّ رسولَ ٱللهِ صلى الله عليه وآله وسلم دَعَا علىٰ قَومِهِ لمَّا كذَّبُوهُ فقالَ: اللَّهمَّ ٱشْدُدْ وطْأَتَكَ علىٰ مُضَرٍ، وٱجْعَلْها عليهِم سنينَ كَسِنِي يُوسُفَ، فَأَصَابَهُم الجهد حتَّىٰ أَكَلُوا الجِيَفَ والعِلْهِزَ[4]، وكانَ الرجُلُ يرىٰ بين السَّماءِ والأرضِ الدُخَانَ، وكانَ يُحدِّثُ الرَجُلَ فَيسْمَع كَلامَهُ ولا يَراهُ من الدُخَانِ، فمَشَىٰ إليه أَبو سُفْيانَ ونَفَرٌ مَعَهُ وناشَدُوهُ باللهِ والرَّحَمِ، وواعَدُوهُ إنْ دَعَا لَهُم وكَشَفَ عنْهُم أَن يؤْمِنُوا، فَلَمَّا كَشَفَ عنْهُم رَجَعُوا إلىٰ شِرْكِهِم،

(١) في الصحاح: حَنَذْتُ الشاة حَنْذاً أي: شويتُها وجَعَلتُ فوقها حجارةً مُحماةً لتُنضِجها فهي حَنيذٌ.

(٢) الخَصَاص: شبه كوّة في قبّةٍ ونحوها إذا كان واسعاً قدر الوجه، وبعضهم يجعلها للواسع والضيّق حتّىٰ قالوا لخروق المِصْفاة والمنخُل: خَصَاصٌ، وكذلك كل خَلَل وخرْقٍ يكون في السحاب. (لسان العرب).

(٣) تفسير الطبري: ج ١١ ص ٢٢٧، التبيان: ج ٩ ص ٢٢٦.

(٤) العِلْهِزُ: طعام كانوا يتّخذونه من الدم ووبر البعير في سِنِي المجاعة. (الصحاح).

رُوِي ذلكَ عن ٱبنِ مسعود[١].

﴿يَغْشَى ٱلنَّاسَ﴾ أي: يَشمِلُهُم ويلْبِسُهُم، وهو في محلِّ الجرِّ صفةً لـ﴿دخان﴾ أي: يقُولُونَ: ﴿هٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ إلىٰ قولِهِ: ﴿مُؤْمِنُونَ﴾، و «يَقُولُونَ» المحذُوفُ نَصْبٌ على الحالِ أي: قَائِلينَ ذلكَ. وَ ﴿إِنَّا مُؤمِنُونَ﴾ مَوعِدَةٌ بالإيمانِ إنْ كُشِفَ العَذَابُ عنْهُم ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ كيفَ يذْكُرونَ ويتَّعظُونَ ويَفُونَ بِوَعْدِهِم ﴿وَقَدْ جَآءَهُمْ﴾ ما هو أَعْظَمُ من كَشْفِ الدُخَانِ، وهُو ما ظَهَرَ علىٰ رسُولِ ٱللهِ ﷺ من الآياتِ البيِّناتِ من الكِتَابِ المُعْجِزِ وغَيْرِهِ من المُعْجزَاتِ القَّاهِرةِ، فَلَمْ يَذَّكَروا وَ﴿تَوَلَّوْاْ عَنْهُ﴾ وبَهَتُوهُ، بأَنَّ غُلاماً أَعْجَمِيَّاً اسمُهُ عَدَّاسُ هو الّذي عَلَّمَهُ، ونَسَبُوهُ إلى الجُنُونِ.

ثمَّ قَالَ: ﴿إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلْعَذَابِ﴾ الجُوعِ والدُخانِ ﴿قَليلًا إِنَّكم عَآئِدُونَ﴾ أي: ريثما يُكْشَفُ عنْكُم العَذَابُ تَعودُونَ إلىٰ شِرْكِكِم، لا تلبثُونَ غِبَّ الكَشْفِ علىٰ ما أَنْتُم عليهِ من الابتهالِ والتَضَرُّعِ. ومَن جَعَلَ الدُخَانَ قَبلَ يَومِ القيامةِ قَالَ في قَولِهِ: ﴿إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلْعَذَابِ﴾: إِنّه إذا أَتَتِ السَّماءُ بالدُخَانِ تَضَرَّعَ المعذَّبُونَ بهِ وقَالُوا: ربّنا ٱكْشِفْ عَنَّا العَذَابَ إنَّا مُنيبُونَ مؤْمِنُونَ، فَيكْشِفُه اللهُ عنْهُم، فَريثما يكْشِفُهُ عنْهُم يَرتَدُّونَ.

ثمَّ قَالَ: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ﴾ يُريدُ: يومَ القيامةِ، كقَولِهِ: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ﴾[٢]. ﴿إِنَّا مُنْتَقِمُونَ﴾ نَنْتَقِمُ منْهُم في ذلكَ اليَومِ، فانتَصَبَ ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ﴾ بما دَلَّ عليهِ ﴿إِنَّا مُنْتَقِمُونَ﴾، لأنَّ ما بَعد «إنَّ» لا يعملُ فيمَا قَبْلَها. وقُرئ: ﴿نَبْطِش﴾ بِضَمِّ الطاءِ[٣] وكَسْرِها.

---

(١) رواه عنه الطبري في تفسيره: ج ١١ ص ٢٢٥.

(٢) النازعات: ٣٤.

(٣) وهي قراءة الحسن وأبي جعفر المدني. راجع شواذ القرآن لابن خالويه: ص ١٣٨.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ مَعْنَى الفِتْنَةِ: أنَّه أَمْهَلَهُم وَوَسَّعَ عليهِم الرِّزْقَ، وكانَ ذلك سَبَباً لانهِمَاكِهِم في المَعَاصي، وٱبتَلاهُم بإرْسالِ موسىٰ إليهِم ليؤمِنُوا، فاختَارُوا الكُفْرَ علَى الإيمانِ ﴿وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ على ٱللهِ، أو: كَريمُ الأخْلاقِ والأفعالِ. ﴿أَنْ أَدُّوٓاْ﴾ هي «أن» المفسِّرَةُ، لأنَّه لا يَجيءُ الرسُولُ قَومَهَ إلّا مبشِّراً ونَذيراً، فَيَتَضمَّنُ معنَى القَوْلِ، وهي مخفَّفَةٌ من الثَّقيلةِ أي: جاءَهُم بأَنَّ الشأْنَ والحَديثَ أَدُّوا إِلَيَّ، و ﴿عِبَادَ ٱللهِ﴾ مفعُولٌ بِهِ وهم بنُو إسرائيلَ، أي: أدُّوهم إليَّ وأَرْسِلُوهُم مَعي، أو: أدُّوا إليَّ يا عِبادَ اللهِ ما يَجبُ عليكُم من الإيمانِ بي وَقَبُولِ دَعْوتي، وعَلَّلَ ذلك بأنَّه ﴿رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ قد ٱئتَمَنَهُ الله علىٰ وَحْيِهِ ورسالتِهِ. ﴿وَأَنْ لَّا تَعْلُواْ﴾: «أنْ» هذهِ مثلُ الأُولىٰ، أي: لا تَستَكبِرُوا على ٱللهِ بالاستهانةِ برسُولِهِ ووَحْيِهِ.

وقُرِئَ: «عُتُّ» بالإدْغامِ[1] ومعنَاهُ: أنَّه عَائِذٌ بربِّهِ، معتَصِمٌ بِهِ من كَيْدِهِم، فَلَا يَكْتَرِثُ بتَهَدُّدِهِم بالقَتْلِ والرَّجْمِ. ﴿فَاعْتَزِلُونِ﴾ يُريدُ: ﴿إِنْ لَّمْ تُؤْمِنُواْ بِى﴾ فَتَنَحَّوْا عنِّي وٱقطعُوا أَسْبابَ الوصْلَةِ بيني وبينَكُم، أو: فَخَلُّوني كَفَافاً لَا عليَّ ولَا لِي، ولا تَتعرَّضُوا لي بِشِرْكِكُم وأَذَاكُم، فلَيْسَ جزَاءُ مَن دَعَاكُم إلىٰ ما فيهِ صَلَاحكُم وفَلَاحكُم ذلكَ.

﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ(٢٢) فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ(٢٣) وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ(٢٤) كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ(٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ(٢٦) وَنَعْمَةٍ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ(٢٧) كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ(٢٨) فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ

(١) قرأه أبو عمرو وحمزة والكسائي ونافع برواية اسماعيل بن جعفر. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٥٧٠.

ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ(٢٩) وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ(٣٠) مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ(٣١) وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ(٣٢) وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْأَيَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌاْ مُّبِينٌ(٣٣)﴾

﴿فَدَعَا رَبَّهُۥ﴾ قَالَ: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قومٌ مُّجْرِمُونَ﴾ أي: مشركُونَ لا يؤمنُونَ. ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى﴾ فيهِ وَجْهَانِ: إضْمارُ القَوْلِ بعدَ الفَاءِ «فَقَالَ: أَسْرِ»، وأَن يكُونَ جَوابَ شَرْطٍ محذُوفٍ نَحْوُ: إنْ كانَ الأَمْرُ كَمَا تقُولُ فَأَسْرِ بِعِبَادي.

﴿رَهْوًاۖ﴾ فيهِ وَجْهَانِ: أَحَدُهُما: أَنَّهُ السَّاكِنُ[1]، قَالَ الأَعْشَىٰ:

يَمْشِينَ رَهْواً فَلَا الأَعْجَازُ خَاذِلَةٌ ولا الصُّدُورُ على الأَعْجَازِ تَتَّكِلُ[2]

أي: مَشْياً سَاكِناً علىٰ هِينَتِهِ، أَرادَ موسىٰ عليه السلام لمَّا جَاوزَ البَحْرَ أَن يَضْرِبَهُ بعَصَاهُ فَينْطَبِقَ كَمَا ضَرَبَهُ فانفلَقَ، فأَمَرَهُ سبحانَهُ أَن يتركَهُ سَاكِناً قَارًّا علىٰ حالِهِ من ٱنتصَابِ الماءِ وكَونِ الطريق يَبَساً ليدخُلَهُ القبْطُ فَيغْرقُوا، وقيلَ: الرَّهْوَةُ: الفَجْوَةُ الواسِعَةُ[3]، أي: تَرَكَهُ مفتُوحاً علىٰ حالِهِ ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ ومَجْلِسٍ خَطِيرٍ ومنْزِلٍ بهيٍّ ونِعْمةٍ وتَنَعُّمٍ وسَعَةٍ في العيشِ.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ الكافُ منصُوبةٌ علىٰ معنىٰ: مثْلُ ذلك الإخْراجِ أَخْرَجْنَاهُمْ مِنْها، أو: في مَوْضِعِ الرَّفْعِ، أي الأَمْرُ كذلكَ ﴿وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْماً ءَاخَرِينَ﴾ ليسُوا منْهُم في شيءٍ من قَرابَةٍ ولا دِينٍ. ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَاءُ وَالأَرْضُ﴾ فيهِ تَهَكُّمٌ بِهِم وبحَالِهِم المنَافيةِ لِحَالِ من يَجِلُّ رزْؤُهُ ويَعْظُمُ فَقْدُهُ فيقَالُ فيهِ: بَكَتْ عليهِ السَّماءُ ﴿وَمَا كَانُواْ

(١) وهو قول الكلبي والأخفش وقطرب. راجع تفسير الماوردي: ج ٥ ص ٢٥٠.

(٢) كذا نسبه تبعاً للزمخشري، والمشهور للقطامي الضبعي من أبيات يصف إبلًا يمشين مشياً علىٰ هينة وسكينة. أنظر الصحاح: مادة «رها».

(٣) قاله مجاهد. راجع تفسير الماوردي: ج ٥ ص ٢٥٠.

مُنْظَرِينَ﴾ أي: مُمهلِينَ من فِرْعَوْنَ، بَدَلٌ من قَولِهِ: ﴿مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ كأنَّه في نَفْسِهِ كانَ عَذَاباً مُهيناً لإفْراطِهِ في تَعذيبِهِم، ويجوزُ أن يكُونَ ﴿مِنْ فِرْعَونَ﴾ حَالاً مِنْ ﴿ٱلْعَذَابِ﴾ أي: واقِعاً من جِهَةِ فِرعَوْنَ ﴿عَالِياً مِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ أي: كبيراً رَفيعَ الطَبَقَةِ من بينِهِم بَليغاً في إسْرافِهِ، أو: عَالياً متكَبِّراً، و ﴿مِن ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ خَبَرٌ ثَانٍ كأنَّه قَالَ: كانَ متكَبِّراً مُسْرِفاً.

﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ في مَوْضِعِ الحالِ أي: عالِمِينَ بمكانِ الخَيْرةِ، وبِأنَّهُمْ أحِقَّاءُ بالاختيارِ ﴿عَلَى العَٰلَمِينَ﴾ عالَمي زَمانِهِم ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ﴾ الدَّلالاتِ والمُعْجِزاتِ ﴿مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌاْ مُّبِينٌ﴾ نِعْمَةٌ ظَاهِرَةٌ[1] أو ٱختِبارٌ ظَاهِرٌ لِنَنْظُرَ كَيفَ يَعْملُونَ.

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ(٣٤) إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ(٣٥) فَأْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ(٣٦) أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ(٣٧) وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ(٣٨) مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ(٣٩) إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ(٤٠) يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ(٤١) إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ(٤٢) إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ(٤٣) طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ(٤٤) كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ(٤٥) كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ(٤٦) خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ(٤٧) ثُمَّ صُبُّواْ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ(٤٨) ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ(٤٩) إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ(٥٠)﴾

---

(١) في التبيان: ج ٩ ص ٢٣٥: قال الفرّاء: البلاء قد يكون بالعذاب وقد يكون بالنعمة، وهو ما فعل الله بهم من إهلاك فرعون وقومه وتخليصهم منه وإظهار نعمه عليهم شيئاً بعد شيء.

ثُمَّ رَجَعَ سبحانَهُ إلىٰ ذِكرِ مَنْ ذَكَرَهُم في أوّلِ السُّورةِ من كُفَّارِ قُرَيْشٍ. فقَالَ: ﴿إِنَّ هَٰؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ إِنْ هِيَ﴾ أي: ما المَوْتَةُ ﴿إِلَّا مَوْتَتُنَا الأُولَىٰ﴾ نموتُها في الدُّنيا ثمَّ لا بَعْثَ بَعدَها ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ﴾ بمَبْعُوثينَ ولا مُعَادينَ. ﴿فَأْتُواْ بِـآبَائِنَا﴾ الَّذينَ ماتُوا قَبلَنا وأَعِيدُوهُم ﴿إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ في أَنَّ ٱللَّهُ يُعيدُ الأَمْواتَ، وقَائِلُهُ أَبوجَهْلٍ قَالَ: إنْ كُنْتَ صَادِقاً فابْعَثْ جدَّكَ قُصَيَّ بنَ كِلَابٍ!! وهذا جَهْلٌ من أبـي جَهْلٍ؛ لأنَّ النَشْأَةَ الثانيةَ إنَّما وَجبَت للجزَاءِ لا للتَّكليفِ، وليسَتْ هذه الدَّارُ بـدارِ جَزَاءٍ بَلْ دَارُ تَكْليفٍ، فكأنَّه قَالَ: إنْ كُنْتَ صَادِقاً في إعـادتِهِم للـجَزَاءِ فـأَعِدْهُم للتَّكليفِ!! فلذلكَ عَدَلَ عن مقَابلتِهِ إلَى الوعيدِ والوَعْظِ بما هُو أَعْوَدُ عليهِ فَـقيلَ: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾ أي: أَهُمْ أكثرُ عَدداً وعُدَّةً ونعمةً وقوّةً؟! كقَولِهِ: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَٰئِكُمْ﴾ (١) بعدَ ذِكْرِ آلِ فِرْعَوْنَ، وهو تُبَّعُ الحِمْيَرِيُّ، كانَ مؤْمِناً وقَـومُهُ كافِرينَ، وهو الّذي سارَ بالجيُوشِ حتَّىٰ حيَّرَ الحيرةَ، ثمَّ أتىٰ سَمَرْقَنْدَ فَهَدَمَها ثمَّ بَنَاها، وكانَ إذا كَتَبَ كَتَبَ: «باسمِ الله الَّذي مَلَكَ بَرّاً وبَحْراً وضحاً وريحاً» ذَمَّ اللهُ قَوْمَهُ ولَمْ يذمَّهُ.

وعن الصَّادقِ عليه‌السلام : أنَّ تُبَّعَ قَالَ للأَوْسِ والخَزْرجِ: كونُوا هاهنا حتَّىٰ يـخْرُجَ هذا النبيُّ، أمَّا أَنَا فَلَوْ أَدركْتُهُ لَخَدَمْتُهُ وخَرَجْتُ مَعَه (٢).

﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ يُريدُ: وما بينَ الجِنْسَيْنِ. ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْـفَصْلِ﴾ ميقَاتُ حسابِهِم وجزَائِهِم ﴿أَجْمَعِينَ﴾. ﴿يَوْمَ لا يُغْنِي مَوْلىً﴾ أيُّ مولىً كَانَ من قـرابـةٍ وغَـيرِهَا ﴿عَنْ﴾ أيِّ ﴿مَوْلىً﴾ كانَ شَيئاً من إغْناءٍ ﴿وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ الضَّميرُ للـمَوالي؛ لأنَّهم في المعنىٰ كثيرٌ لِتَناوِلَ اللَّفْظِ على الإبْهامِ والشِّياعِ كُلّ مولىً. ﴿مَنْ رَّحِمَ ٱللَّهُ﴾

(١) القمر: ٤٣.

(٢) رواه الصدوق في كمال الدين: ج ١ ص ١٧٠ ح ٢٦.

في مَحَلِّ الرَّفعِ على البَدَلِ من الواو في ﴿يُنصَرُونَ﴾، أي: لا يُمْنَعُ من العَذَابِ إلَّا مَنْ رَحِمهُ اللهُ: إمَّا بأَن يُسْقِطَ عقابَهُم ٱبتِدَاءً، أَو يأْذَنَ بالشَّفَاعَةِ فيهِم لِمَنْ عَلَتْ دَرَجَتُهُ عِنْدَهُ فَيَسْقُطُ عقابُ المشفُوعِ لَهُ بشَفَاعَتِهِ ﴿إِنَّهُ هُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ في ٱنتقامِهِ من أَعدائِهِ ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بالمؤمنينَ، ويجوزُ أن يكُونَ ﴿مَنْ رَحِمَ ٱللَّهُ﴾ منصُوباً على الاستِثْنَاء.

و ﴿ٱلْأَثِيمِ﴾: الآثِم، وقيلَ: هو أَبو جَهْلٍ[١]، ورُوِيَ أَنَّه أَتىٰ بتَمْرٍ وزبدٍ فَجَمَعَ بينَهُما وأَكَلَ وقَالَ: هذا هو الزَّقُّومُ الَّذي يُخَوِّفنا محمدٌ بِهِ ونَحْنُ نَتَزَقَّمُهُ أي: نَمْلأُ أَفْوَاهَنا بِهِ[٢]. ﴿كَٱلْمُهْلِ﴾ وهو المُذَابُ من النُّحَاسِ، وقيلَ: هو دُرْدِيُّ الزَّيتِ[٣]، وقُرِئَ: ﴿يَغْلِى﴾ باليَاءِ والتَّاءِ[٤]، فَمَنَ قَرَأَ بالتَّاءِ فعلىٰ «الشَّجَرة»، ومن قَرأَ بالياءِ حَمَلَهُ علىٰ «الطعام»، لأنَّ الطَّعامَ هو الشَّجَرةُ في المعنىٰ، ولا يُحْمَلُ على «المُهْلِ» بل على المُشَبَّهِ بالمُهْلِ، والكَافُ في محلِّ الرَّفعِ خَبَرٌ بَعدَ خَبَرٍ، وكَذلكَ يَغْلي.

يُقَالُ للزَّبانيةِ: ﴿خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ﴾ فقُودُوهُ بِعُنْفٍ، وهو أَن يؤْخَذَ بتَلابيب[٥] الرجُلِ فَيُجَرَّ إلىٰ قَتْلٍ أو حَبْسٍ، ومنْهُ: «العُتُلُّ»، وقُرِئ بكَسْرِ التَّاءِ وضَمِّها[٦] ﴿إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ إلىٰ وَسَطِها ومُعْظَمِها، وسُمِّي وَسَطُ الشَّيءِ سَواءً لاستِوَاءِ المَسَافَةِ بينَهُ وبينَ أَطْرافِهِ المُحيطةِ بِهِ. ويجوزُ أَن يكُونَ «الصَّبُّ» علىٰ طريقِ الاستِعَارةِ كَقَوْلِ الشَّاعِرِ:

---

(١) قاله ابن زيد. راجع تفسير الطبري: ج ١١ ص ٢٤٣.

(٢) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٢٨١ عن ابن الزبعرى.

(٣) قاله ابن عباس وابن عمر وسعيد. راجع تفسير الطبري: ج ١١ ص ٢٤٣ ـ ٢٤٥.

(٤) وبالتاء قرأه نافع وأبو عمرو وابن عامر وحمزة والكسائي وعاصم برواية أبـي‌بكر. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٥٩٢.

(٥) لبّبت الرجل تلبيباً: اذا جمعت ثيابه عند صدره ونحوه في الخصومة ثم جررته. (الصحاح: مادة لبب).

(٦) بالضمّ قراءة ابن كثير ونافع وابن عامر. راجع المصدر السابق.

صُبَّتْ عليهِ صُروفُ الدَّهْرِ من صَبَبِ[(١)]

وكقَولِهِ: ﴿أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾[(٢)] يُقَالُ: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ علىٰ سبيلِ الهُزْءِ والتَهكُّمِ لِمَنْ كانَ يَتَعزَّزُ ويَتَكرَّمُ علىٰ قَومِهِ.

ورُوِي أنَّ أبا جَهْلٍ قالَ لرسولِ اللهِ ﷺ: «ما بَيْنَ جبَلَيْها أَعَزُّ ولا أَكْرَمُ منِّي»[(٣)].

وقُرِئَ: «أَنَّكَ» بالفتحِ[(٤)] أي: لأَنَّكَ. ﴿إِنَّ هٰذَا﴾ العَذَابَ، أو: إنَّ هذا الأَمْرَ هو ﴿مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ﴾ أي: تَشكُّونَ فيهِ، أو: تَتَمارُونَ وتَتَلاجُّونَ بسَبَبِهِ.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ(٥١) فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ(٥٢) يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ(٥٣) كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَـٰهُم بِحُورٍ عِينٍ(٥٤) يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَـٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ(٥٥) لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ(٥٦) فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ(٥٧) فَإِنَّمَا يَسَّرْنَـٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ(٥٨) فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ(٥٩)﴾

قُرِئَ ﴿مَقَامٍ﴾ بالفَتحِ[(٥)] وهو مَوضِعُ القيامِ، وبالضمِّ[(٦)] ـ مُقَام ـ وهو مَوضِعُ الإقَامَةِ، و «الأَمِين» في وَصْفِ المَكَانِ مستَعَارٌ، لأنَّ المكانَ المُخيفَ كأنَّما يُخوِّفُ صاحِبَهُ ممَّا يَلْقَىٰ فيه من المَكَارِهِ.

---

(١) وصدره: كم امرئٍ كان في خفضٍ وفي دعة. لم نعثر على قائله، قد ذكره صاحب الكشّاف، ومعناه واضح. (٢) البقرة: ٢٥٠.

(٣) رواه الطبري في تفسيره: ج ١١ ص ٢٤٦ عن قتادة.

(٤) وهي قراءة الكسائي وحده. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٥٩٣.

(٥) أي فتح الميم الأُولىٰ.

(٦) وهي قراءة نافع وابن عامر. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٥٩٣.

قَالُوا: السُّنْدُسُ: ما رَقَّ من الدِّيباج، والاسْتَبْرَقُ: ما غَلُظَ مِنْهُ(١)، وهو معرَّبُ «اسْتَبر»، وإنَّما سَاغَ وقُوعُ اللَّفْظِ الأعْجَميِّ في القُرآنِ لأنَّ معنَى التَّعريبِ أن يُجْعَلَ عَربيّاً بالتَّصرُّفِ فيهِ، وإجْرائِهِ علىٰ وجُوهِ الإعْرابِ(٢). ﴿كَذَٰلِكَ﴾ الكافُ مرفُوعَةٌ، أي: الأَمْرُ كذلكَ، أو: منصُوبةٌ أي: مِثْلَ ذلكَ آتيناهُم ﴿وزَوَّجْنَـٰهُم﴾ وعن الأَخْفَشِ: هو التَّزْويجُ المعرُوف(٣)، وعن غَيْرِهِ: لا يكُونُ في الجنَّةِ تَزْويجٌ، والمعنىٰ: وقَرَنَّاهُم ﴿بِحُورٍ عِينٍ﴾(٤). ﴿يَدْعُونَ﴾ أي: يَستَدْعُونَ فيها أيَّ ثَمَرةٍ شاؤُوها واشْتَهُوها ﴿ءَامِنِينَ﴾ من نَفَادِها ومَضَرَّتِها، غيرَ خائفينَ فَوْتَهَا.

أي: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ﴾ ألبَتَةَ، فَوضِعَ قَولُهُ: ﴿إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ موضِعَ ذلكَ، لأنَّ المَوْتَةَ الماضِيةَ لا يُمكِنُ ذَوْقُها في المستقبلِ، وهو من بابِ التَّعليقِ بالمحَالِ، فكأنَّه قَالَ: إنْ كانَتِ المَوْتَةُ الأُولىٰ يَستَقيمُ ذَوْقُها في المستقبلِ فإنَّهم يذُوقُونَها. ﴿فَضْلًا مِّنْ رَّبِّكَ﴾ أي: تَفضُّلاً منْهُ وعَطَاءً وثواباً. يَعني: كلُّ ما أُعْطِيَ المتَّقينَ من نَعيمِ الجنَّةِ والنَّجاةِ من النَّارِ ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَـٰهُ﴾ مَعنَاهُ: ذكِّرهم بالكتابِ المُبينِ فإنَّما سَهَّلْنَاهُ ﴿بِلِسَانِكَ﴾ بلُغَتِكَ، حيثُ أَنْزَلْنَاهُ عربيّاً ليَسْهُلَ عليكَ وعلىٰ قومِكَ تَفهُّمُهُ والتَّذكُّرُ بِهِ. ﴿فَارْتَقِبْ﴾ فانتَظِرْ ما يَحُلُّ بِهِم ﴿إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ﴾ ما يَحُلُّ بِكَ ومترَبِّصُونَ بكم(٥) الدَّوائِرَ، وقيلَ: انْتَظِرْ نَصْرَكَ عليهِم فإنَّهم يَنْتَظِرون خِلَافَهُ بزَعْمِهِم(٦).

۞ ۞ ۞

---

(١) وهو قول عكرمة. راجع تفسير الماوردي: ج ٥ ص ٢٥٨.
(٢) وهو قول الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٢٨٢.
(٣) معاني القرآن للأخفش: ج ٢ ص ٦٩١.
(٤) وهو ما قاله يونس كما في تفسير الرازي: ج ٢٧ ص ٢٥٣.
(٥) في نسخة: «بك».
(٦) قاله قتادة. راجع تفسير الطبري: ج ١١ ص ٢٥١.

سُورَةُ الجَاثِيَة

مكّيّةٌ[1] إلّا آيةً نَزَلَتْ بالمدينةِ: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ﴾[2] سَبْعٌ وثلاثُونَ آيةً كوفيٌّ، ستٌّ في غَيرِهِم، ﴿حمٓ﴾ كوفيٌّ.

في حديثِ أُبيٍّ: «ومَن قَرأَ حم الجاثيةَ سَتَرَ اللهُ عورتَهُ وسَكَّنَ روعتَهُ عندَ الحِسَاب»[3].

وعن الصّادقِ عليه السلام: «مَن قَرَأَها كانَ ثَوابُها أَن لا يَرَى النَّارَ أبداً، وهو مَعَ محمّدٍ صلى الله عليه وآله وسلم»[4].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حمٓ(١) تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ(٢) إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ

---

(١) قال الشيخ الطوسي في التبيان: ج ٩ ص ٢٤٤: مكّية في قول قتادة ومجاهد، وهي سبع وثلاثون آية في الكوفي وستّ في البصري والمدنيّين.

وفي تفسير الماوردي ج ٥ ص ٢٦٠: مكيّة كلّها في قول الحسن وجابر وعطاء وعكرمة، وقال ابن عباس وقتادة: إلّا آية وهي ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ﴾.

وفي الكشّاف: ج ٤ ص ٢٨٤: مكّية إلّا آية(١٤) فمدنية، وآياتها (٣٧) وقيل: (٣٦) آية، نزلت بعد الدخان.

(٢) الآية: ١٤.

(٣) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٢٩٤ مرسلًا.

(٤) ثواب الأعمال للصدوق: ص ١٤١، وفيه بعد «أبداً»: «ولا يسمع زفير جهنّم ولا شهيقها».

وَٱلْأَرْضِ لَأَيَـٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ(٣) وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَـٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ(٤) وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَـٰحِ ءَايَـٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ(٥) تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَـٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ(٦)﴾

﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ﴾ يجوزُ أن يكُونَ علىٰ ظاهرِهِ، وأن يكُونَ بمعنىٰ «إنَّ في خَلْقِ السَّمٰوَاتِ» لقولِهِ: ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ﴾. وقُرِئَ: ﴿ءَايَـٰتٌ﴾ بالرفعِ والنَّصبِ[1] في الموضِعَيْنِ: فأمَّا الأوَّلُ فعلىٰ قولكَ: إنَّ في الدارِ لَزَيدًا وفي البَيْتِ عَمْراً، أو: في البيتِ عَمْرٌ. وأمَّا الثاني وهو قولُهُ: ﴿ءَايَـٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ فمن العطْفِ علىٰ عاملَيْنِ مختلفيْنِ سَواء نصبتْ أو رفعتْ، فالعامِلانِ إذا نصبتْ هُما: «إن» و «في»، وإذا رفعتْ فالعاملانِ: الابتداء و «في»، عَمَلَ الابتداءُ الرفْعَ في ﴿ءَايَـٰت﴾ وعَمَلَ في الجرِّ في ﴿ٱخْتِلَـٰف﴾، والعطفُ علىٰ عامِلَيْنِ سَديدٌ سَائغٌ علىٰ مَذْهبِ الأَخفشِ[2]، فأمَّا سيبويْه فَلا يُجيزهُ[3]، ومخرَجُ الآيةِ علىٰ مذْهبِهِ أَن يُقَدَّرَ «في» ويُضْمَرَ، لأنَّ ذِكْرَهُ قد تقدَّمَ في الآيتيْنِ قبلَهُ كَمَا قدَّرَهُ سيبويْه في قولِ الشَّاعِرِ:

أَكُلَّ ٱمْرِءٍ تَحسَبِينَ ٱمْـرَأً ... ونَارٍ تَأَجَّجُ باللَّيلِ نَارَا[4]

وقَالَ: إنَّ «كلّ» في حكْمِ الملْفُوظِ وٱستُغْنيَ عن إظْهارِهِ بتقدّمِ ذكْرِهِ[5]،

---

(١) قرأه حمزة والكسائي. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٥٩٤.

(٢) انظر معاني القرآن: ج ١ ص ٣٣٢ ـ ٣٣٣.

(٣) أُنظر كتاب سيبويه: ج ١ ص ٦٥ ـ ٦٦.

(٤) لأبي داود الإيادي. والبيت واضح المعنىٰ. راجع ديوان أبي داود: ص ٣٥٣، والكامل للمبرّد: ج ١ ص ٣٧٦ وفيهما بدل «تأجَّجُ»: «توقَّدُ».

(٥) كتاب سيبويه: ج ١ ص ٦٦.

أو: يُحْمَلُ ﴿وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ﴾ علىٰ «في» المتقدّم ذِكْرها ويُجْعَلُ ﴿ءَايَـٰتٌ﴾ على التكرّر لِطُولِ الكلامِ، كما قيلَ في الثانيةِ في قَولِهِ تعالىٰ: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ﴾[1]، أو: يَنْتَصِبُ على الاختصاص بعدَ انقضاءِ المجرورِ معْطُوفاً علىٰ ما قَبلِهِ، ويرتَفعُ بإضْمارِ «هِيَ»، فهذهِ ثلاثةُ أَوْجُه.

﴿تِلْكَ﴾ إشارةٌ إلى الآياتِ المتقدّمةِ، أي: تلكَ الآياتُ آياتُ ٱللهِ، و ﴿نَتْلُوهَا﴾ في محلِّ الحالِ أي: متلوّةً عليكَ بالحقِّ، والعامِلُ في الحالِ معنى الإشارةِ ﴿بَعْدَ ٱللهِ وَءَايَـٰتِهِ﴾ أي: بَعْدَ آياتِ اللهِ كَمَا قالُوا: أَعْجَبَني زيدٌ وكَرَمُهُ. والمُرادُ: أعجبَني كَرَمُ زَيْدٍ. ويجوزُ أن يُرادَ: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ﴾ حديثِ ﴿ٱللهِ﴾ وهو كتَابُهُ وقرآنُهُ كقولِهِ: ﴿ٱللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾[2] وآياتُهُ أي: أَدلَّتُهُ الفاصِلَةُ بين الحقِّ والباطل.

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ(٧) يَسْمَعُ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ(٨) وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَـٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ(٩) مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُواْ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ(١٠) هَـٰذَا هُدًى وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ(١١) ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ(١٢) وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ(١٣)﴾

الأَفَّاكُ: الكثيرُ الإفْكُ، وهو الكَذِبُ. ﴿يُصِرُّ﴾ يُقْبِلُ علىٰ كفرِهِ ويُقيمُ عليهِ ﴿مُسْتَكْبِراً﴾ عن الإيمانِ بالآياتِ، وعن الانقياد للحقِّ ﴿كَأَنْ﴾ مُخَفَّفَةٌ من الثقيلةِ

(١) التوبة: ٦٣. (٢) الزمر: ٢٣.

أي: كأنَّهُ ﴿لَمْ يَسْمَعْهَا﴾ والضَّميرُ ضَميرُ الشأْنِ والحديثِ، والجملةُ في محلِّ النَّصْبِ على الحالِ، أي: يُصِرُّ مثلَ غيرِ السَّامعِ.

﴿وَإِذَا﴾ بلغَهُ شيءٌ ﴿مِنْ ءَايَاتِنَا﴾ وعَلِمَ أَنَّه منْها ﴿اتَّخَذَهَا﴾ أي: اتَّخذَ الآياتِ ﴿هُزُوًا﴾ ولَمْ يقُلْ: اتَّخذه؛ للإيذَانِ بأنَّه إذا أَحَسَّ بشيءٍ من الكلامِ أنَّه من جُمْلةِ الآياتِ الَّتي أَنْزَلَها اللهُ علىٰ رسولِهِ استهزأ بجميعِ الآياتِ، ولَمْ يقْتَصِرْ على الاستهزاءِ بما بَلَغَهُ ﴿أُوْلَٰئِكَ﴾ إشارةٌ إلىٰ كلِّ أَفَّاكٍ أَثيمٍ.

والوَراءُ: اسمٌ للجهةِ الّتي يُواريها الشَّخصُ من خَلْفٍ أو قدَّامٍ، والمعنىٰ: من قُدَّامِهِم جَهَنَّمَ ﴿وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟﴾ أي: ما ٱكتَسَبُوهُ وحصَّلُوهُ من الأموالِ في متَاجِرِهم ﴿وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من الأصنامِ.

﴿هَٰذَا﴾ إشارةٌ إلى القُرآنِ ﴿هُدًى﴾ أي: دلالةٌ موصِلَةٌ إلى الحقِّ كاملةٌ في الهدايةِ، كما تقُولُ: زَيدٌ رَجُلٌ، أي: كامِلٌ في الرَّجوليةِ وأَيُّ رَجُلٍ، والرِّجْزُ: أَشَدُّ العذابِ، وقُرِئَ بجرِّ ﴿أَلِيمٌ﴾ ورفعِهِ[1].

ثمَّ دلَّ سبحانَهُ علىٰ تَوحيدِهِ فقَالَ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ﴾ أي: السُّفُنُ ﴿فِيهِ﴾، ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ بالتجارةِ أو بالغَوْصِ على اللُّؤلؤِ والمَرْجَانِ، وٱستِخْراجِ اللَّحْمِ الطريِّ وغيرِ ذلكَ من مَنَافعِ البَحْرِ. وقَولُهُ: ﴿مِنْهُ﴾ واقعةٌ موقعَ الحالِ، والمعنىٰ: سَخَّرَ لكُم هذه الأشياء كائنةً منْهُ وحاصِلةً من عنْدِهِ، والمعنىٰ: أَنَّه مكوِّنُها ومُوجِدُها بقدرتِهِ ومُسَخِّرُها لخَلْقِهِ، ويجوزُ أَن يكُونَ خَبَرَ مبتَدأ محذُوفٍ تقديرُهُ: هي جَميعاً منْهُ، وأَن يكُونَ ﴿وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ مبتدأ و﴿مِنْهُ﴾ خَبَرَهُ.

---

(١) قرأ ابن كثير وعاصم برواية حفص بالرفع والباقون بجرِّه. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٥٩٤.

﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ(١٤) مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ(١٥) وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ(١٦) وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ(١٧) ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ(١٨) إِنَّهُمْ لَن يُغْنُواْ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ(١٩) هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ(٢٠)﴾

أي: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ اغْفِرُوا ﴿يَغْفِرُواْ﴾ فَحُذِفَ المقولُ لدلالةِ جوابِهِ عليهِ ﴿لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللهِ﴾ أي: لا يَتوقَّعُونَ وقائعَ اللهِ بأعدائِهِ، وهو من قَولِهِم: أيَّامُ العَرَبِ؛ لوقائِعِهم، وقيلَ: لا يأملُونَ الأوقاتَ الّتي وَقَّتَها اللهُ لثَوابِ المؤمنينَ وَوَعَدَهُم الفَوْزَ فيها[1]. ﴿لِيَجْزِىَ قَوْماً﴾ تعليلُ الأَمْرِ بالمغْفِرَةِ، أي: إنَّما أُمِرُوا بأَن يَغْفِرُوا لِمَا أرادَهُ اللهُ من تَوفيَتِهِم جَزاءَ مغْفِرَتِهِم في الآخرةِ، وَنَكَّرَ ﴿قَوْماً﴾ والمُرادُ بِهِ الذين آمنوا؛ للثَّناءِ عليهِم، كأنَّه قالَ: لِيَجْزِيَ قَوْماً أَيَّما قوم، أو: قَوْماً مخصُوصينَ لِصَبْرِهِم وإِغْضَائِهِم علىٰ أَذَى أَعدائِهِم ﴿بِمَا كَانُواْ يَكتسِبُونَـ﴾ ـهُ من الثَّوابِ العظيمِ باحتمَالِ المكارِهِ وكَظْمِ الغَيْظِ، وقُرِئَ: «لِنَجْزِيَ»[2] بالنُونِ، وقُرِئَ: «لِيُجْزِيَ قَوْماً»[3] علىٰ معنى: لِيُجْزيَ الجَزَاءَ قَوْماً.

---

(١) حكاه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٢٨٨.

(٢) قرأه ابن عامر وحمزة والكسائي. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٥٩٥.

(٣) وهي قراءة شيبة وأبي جعفر المدني. راجع البحر المحيط لأبي حيان: ج ٨ ص ٤٥.

﴿وَرَزَقْنَـٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ﴾ يُريدُ ما أحَلَّهُ لَهُم وأطَابَ من الأرزَاقِ ﴿وَفَضَّلْنَـٰهُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ في كَثْرَةِ الأنبياءِ منْهُم، ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُم بَيِّنَـٰتٍ﴾ آياتٍ مُعْجِزَاتٍ ﴿مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾ من أَمْرِ الدِّينِ ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوٓاْ فِيهِ﴾ فَمَا وَقَعَ بينَهُم الخِلَافُ في الدينِ ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ﴾ ما يُوجِبُ دَفعَ[1] الخِلَافِ وهو ﴿ٱلْعِلْمُ﴾، وإنَّما اختلفُوا لِبَغْيٍ حَدَثَ بينَهُم، أي: لِعَدَاوةٍ وحَسَدٍ.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ﴾ أي: طريقةٍ ومنْهاجٍ ﴿مِنْ﴾ أَمْرِ الدينِ، وأَصلُهُ: الشَّريعةُ الَّتي هي الطَّريقُ إلى الماءِ ﴿فَاتَّبِعْهَا﴾ أي: فاتَّبعْ شريعتَكَ الثابتةَ بالبَرَاهينِ والمُعجزاتِ ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ﴾ الجُهَّالِ من قَومِكَ ﴿الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الحقَّ ﴿إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُواْ عَنْكَ مِنَ اللهِ شَيْئاً﴾ إنِ اتَّبعْتَ أَهواءَهُم.

﴿هٰذَا﴾ القُرآنُ ﴿بَصَـٰٓئِرُ لِلنَّاسِ﴾ جَعَلَ سبحانَهُ ما فيهِ من مَعَالمِ الدينِ والشَّرائعِ بمنزلةِ البَصائِرِ في القُلُوبِ، كَمَا جَعَلَهُ رُوحاً وَحياةً ﴿وَهُدًى﴾ وهو هدًى لِلنَّاسِ ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ من اللهِ.

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ(٢١) وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ(٢٢) أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ(٢٣) وَقَالُواْ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ(٢٤) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ

(١) في بعض النسخ: «رفع».

صَـٰدِقِينَ(٢٥) قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ(٢٦) وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ(٢٧)﴾

﴿أَمْ﴾ منقَطِعةٌ، ومعنَى الهَمْزةِ فيها إنْكَارُ الحُسْبانِ، والاجتِرَاحُ: الاكتِسَابُ ﴿أَنْ نَّجْعَلَهُمْ﴾ أَن نُصَيِّرَهُم، وهو مِن «جَعَلَ» الّذي يتعدَّىٰ إلى مفعولَيْنِ، فالأوّلُ الضَّميرُ والثّاني الكَافُ، والجملةُ الَّتي هي ﴿سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ بَدَلٌ من الكافِ؛ لأنَّ الجملةَ تَقَعُ مفْعُولاً ثانياً، فكانَتْ في حُكْمِ المفْرَدِ. ومَن قَرأ[1] ﴿سَوَآءً﴾ بالنَّصْبِ جعَلَ «سَواء» مِثْلَ «مسْتَوياً» ويكُونُ ﴿مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ رَفْعاً على الفاعليةِ، والمعنىٰ: إنْكارٌ أَن يستَويَ المسيئُونَ والمُحْسِنُون مَحْيَاهُمْ وأن يَستَووا مَمَاتاً؛ لافْتراقِ أَحْوالِهِم أَحياءً حَيثُ عاشُوا على الحالتَيْنِ المختلفتَيْنِ: هؤلاءِ علَى الطاعاتِ وأُولئكَ على المَعَاصي، وأَمْواتاً حَيثُ مَاتَ هؤلاءِ علَى البشْرىٰ بالرحمةِ والوصُولِ إلى رضْوانِ ٱللهِ وثَوابِهِ، وأُولئكَ على اليأْسِ من رحمةِ اللهِ والوصُولِ إلىٰ سَخَطِهِ وعقَابِهِ، وقيلَ: معناهُ: إنْكارٌ أن يستَووا في المَماتِ كَما ٱستَووا في الحياةِ، لأنَّ المُسيئينَ والمُحسنينَ مُسْتَو محياهُم في الرزْقِ والصحَّةِ وإنَّما يفْترقُونَ في المَماتِ[2]، وقيلَ: «سَواءٌ مَحْيَاهُم وَمَماتُهُمْ» كلامٌ مستأْنَفٌ علىٰ معنىٰ: أنَّ مَحْيَا المسيئينَ ومَمَاتهم سَواءٌ، وكذلكَ مَحْيا المحسنينَ ومَماتُهم، كُلٌّ يموتُ علىٰ ما عَاشَ عليهِ[3].

---

(١) الظاهر من عبارة المصنّف رحمه الله هنا أنّه يميل الىٰ قراءة الرفع، وهي قراءة ابن كثير ونافع وأبي عمرو وابن عامر وعاصم برواية أبي بكر. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٥٩٥.

(٢ و٣) حكاه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٢٩٠.

﴿وَلِتُجْزَىٰ﴾ عَطْفٌ علىٰ ﴿بِالْحَقِّ﴾ لأنَّ فيهِ معنَى التعليلِ، أو علىٰ مُعَلَّلٍ محذُوفٍ تَقديرُهُ: وخَلَقَ اللهُ السَّماواتِ والأرضَ لِيَدُلَّ علىٰ قدرتِهِ ولتُجزَىٰ ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾.

﴿مَن اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾ أي: اتَّخذَ معبُودَهُ ما يَهْواهُ، فَهُو مِطْواعٌ لَهُ يتَّبعُ ما يَدعُوهُ إليهِ ﴿وَأَضَلَّهُ اللَّهُ﴾ أي: تَرَكَهُ عن الهدايةِ واللُّطْفِ وخَذَلَهُ ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي: عَالِماً بأنَّ ذلكَ لا يُجْدي عليهِ وأنَّه ممَّنْ لا لُطْفَ لَهُ، أو: مَعَ عِلْمِهِ بوجوهِ الهدايةِ وإحَاطَتِهِ بأنْواعِ الألْطَافِ ﴿فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ﴾ إضْلالِ ﴿الله﴾.

﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ أي: نَموتُ نَحْنُ ويحْيَا أولادُنا، أو: يَموتُ بعضٌ منَّا ويَحيَا بعضٌ، أو: يُصيبُنَا الأمْرانِ: المَوتُ والحَياةُ، يريدُونَ: الحياةُ في الدُّنْيا والمَوتُ بعدَهَا، ولَيسَ وراء ذلكَ حَيَاةٌ ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا الدَّهْرُ﴾ أي: وما يُميتُنا إلَّا الأيَّامُ واللَّيالي، وكانُوا يضيفُونَ كلَّ حادثةٍ تَحْدُثُ إلى الدَّهرِ، ويجعلُونَهُ المُؤثِّرَ في هَلاكِ النُّفوسِ.

ومنهُ قولُهُ عليه السلام: «لا تسبُّوا الدَّهرَ، فإنَّ اللهَ هو الدهر»(١). أي: فإنَّهُ الفَاعِلُ للحادِثِ لا الدَّهرُ.

وسمَّىٰ ما ليسَ بحُجَّةٍ من مقالتِهم الباطلةِ حُجَّةً؛ لأنَّهم أدْلَوْا بهِ كَمَا يُدلَىٰ بالحجَّةِ، وساقُوهُ مساقَها فَسُمِّي حُجَّةً علىٰ سبيلِ التهَكُّمِ، أو: لأنَّه في أُسْلُوبِ قَولِهِم:

تَحيَّةُ بينِهِمْ ضَرْبٌ وَجيع (٢)

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده: ج ٢ ص ٣٩٥ و ٤٩١ و ٤٩٦ و ٤٩٩.
(٢) وصدره: وَخَيل قَد دَلَفت لها بِخَيْلٍ. لعمرو بن معديكرب. تقدّم شرحه في ج ١ ص ٧٣ فراجع.

كأنَّه قيلَ: ما كانَ حجَّتُهُم إلَّا ما ليسَ بحجَّةٍ، والمُرادُ نَفْيُ الحجَّةِ. وإنَّما وَقَعَ قَوْلُهُ: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ﴾ جَواباً لقَولِهِم: ﴿ائْتُواْ بآبَائِنَا﴾ لأنَّهم لمّا أنْكَروا البَعْثَ أُلْزِمُوا ما هُم به مُقِرُّونَ من أنَّ اللهَ هو الَّذي يُحيِيهُم ثمَّ يُميتُهُم، وضمَّ إلىٰ ذلك إلزامَ ما هو واجبُ الإقْرارِ بهِ إنْ أَنْصفُوا وهو جَمْعُهُم ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ ومَنْ كانَ قَادِراً علىٰ ذلكَ قَدرَ على الإتْيانِ بآبائِهِم. وعامِلُ النَّصْبِ في ﴿يَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾: ﴿يَخْسَرُ﴾، وَ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ بَدَلٌ مِن ﴿يَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾.

﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَـٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(٢٨) هَـٰذَا كِتَـٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(٢٩) فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ(٣٠) وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ(٣١) وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ(٣٢) وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ(٣٣) وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ(٣٤) ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ(٣٥) فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ(٣٦) وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ(٣٧)﴾

﴿وَتَرَىٰ﴾ يوم القيامةِ أَهلَ ﴿كُلَّ﴾ ملَّةٍ باركَةً علىٰ رُكَبِها مستوفزَةً، وعن

قتادة: ﴿جَاثِيَةً﴾ جماعات[١]، من الجِثْوةِ وهي الجماعةُ وجَمْعُها: «جُثَىً».

وفي الحديثِ: «من جُثَىٰ جهَنَّم»[٢].

﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَابِهَا﴾ أي: إلىٰ كُتُبِ أعمالِها الَّتي كانَتْ تُستَنْسَخُ لَها، فاكتفىٰ باسمِ الجنْسِ كَمَا في قَولِهِ: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ﴾[٣]، وقيلَ: إلىٰ كتابِها المُنْزَلِ علىٰ رسولِها لِيُسْأَلُوا عمَّا عملُوا بِهِ[٤]، والأوَّلُ أصحُّ ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ﴾ محمُولٌ على القَولِ. ﴿هَـٰذَا كِتَـٰبُنَا﴾ إنَّما أُضيفَ إليهم وإلى ٱلله عزَّوجلَّ لأنَّ الإِضافةَ تكُونُ للمُلابَسَةِ، وقَد لابَسَهُم لأنَّ أعمالَهُم مُثْبَتَةٌ فيهِ، ولابَسَهُ سبحانَهُ لأنَّه الآمِرُ ملائكتَه أَن يكتُبُوا فيهِ أعمالَ العبَادِ ﴿يَنطِقُ عَلَيكُمْ﴾ يَشْهَدُ عليكم بما عَمِلْتُم ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ بلازيادةٍ ونُقْصَانٍ ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ﴾ الملائكةَ، أي: نَستَكْتِبُهُم أعمالَكُم. ﴿فِى رَحْمَتِهِ﴾ أي: في جنَّتِهِ وثوابِهِ، وقَرَأَ الباقرُ عليه السلام: «يُنْطَقُ عَلَيكُم» على البناءِ للمفعُولِ.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ جوابُهُ محذوف، والتَّقديرُ: فيقَالُ لَهُم: ﴿أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيكُمْ﴾ والمعنىٰ: أَلَمْ يأْتِكُم رُسُلي فَلَم تَكُنْ آياتي تُتْلىٰ عليكُم؟ فَحُذِفَ المعطُوفِ عليهِ ﴿فَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ فَتعَظَّمْتُم عن قبُولِها ﴿وَكُنتُمْ قَوْماً مُّجْرِمِينَ﴾ أي: كافرينَ، كَمَا قَالَ: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾[٥].

---

(١) حكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٢٩٢.

(٢) ونصّ الحديث: عن الحارث الاشعري عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «من دعا بدعوى الجاهلية فإنّه من جُثَى جهنَّم، قال رجل: يا رسول الله، وإنْ صام وصلّىٰ؟ قال: نعم، فادعوا بدعوة الله التي سمّاكم بها المسلمين والمؤمنين عباد الله». أخرجه السيوطي في الدر المنثور: ج ٦ ص ٨١ وعزاه الى الطيالسي وأحمد والبخاري والترمذي والنسائي وغيرهم.

(٣) الكهف: ٤٩، الزمر: ٦٩.

(٤) وهو المحكي عن الجاحظ. راجع التبيان: ج ٩ ص ٢٦٢.

(٥) القلم: ٣٥.

وقُرِئَ: ﴿وَٱلسَّاعَةُ﴾ بالرفْعِ والنَّصْبِ[١]. فالرفْعُ محمُولٌ علىٰ موضعِ ﴿إنَّ﴾ وما عَمِلَتْ فيهِ، والنَّصْبُ علىٰ لفظةِ ﴿إنَّ﴾، و ﴿لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ في موضعِ الرَّفْعِ، ﴿مَا ٱلسَّاعَةُ﴾ أَيْ: وَأَيُّ شَيْءٍ السَّاعةُ ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾ والأصلُ: نَظُنُّ ظَنّاً. ومعناهُ: إثْباتُ الظَّنِّ، فأُدخِلَ حَرْفُ النَّفْيِ وحَرْفُ الاستثناءِ ليُفيدَ إثْباتَ الظَّنِّ مع نَفْيِ ما سِوَاهُ، وزَادَ نفْيَ ما سِوَى الظَّنِّ تأْكيداً لقولِهِ: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾.

﴿وَبَدَا لَهُمْ﴾ أي: ظَهَرَ لَهُم ﴿سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُواْ﴾ أي: قَبَائِحُ أعمالِهِم، أو: عقُوباتُ سيِّئاتِهِم كقَولِهِ: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾[٢].

﴿ٱلْيَوْمَ نَنسَاكُمْ﴾ أي: نَترُكُكُم في العذابِ كَمَا تركْتُم عُدَّةَ ﴿لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ وهي الطَّاعةُ، أو: نجعَلُكُم بمنزلةِ الشيءِ المنْسيِّ الّذي لا يُبالى بهِ كَمَا لَمْ تُبالُوا بلقاءِ يومِكُم هذا، وإضافةُ «اللِّقاءِ» إلىٰ «اليومِ» كإضافة «المَكْرِ» في قَولِهِ: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾[٣] أي: نَسيتُم لقَاءَ اللهِ ولقَاءَ جزائِهِ في يومِكُم هذا. ﴿ذَٰلِكُم﴾ المفعُولُ بِكُم ﴿بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ﴾ بسببِ ٱستهزائِكُم بآياتِ اللهِ وٱغترارِكُم بالدُّنيا ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ ولا يُطْلَبُ منْهُم أَن يعْتِبُوا رَبَّهُم أي: يُرضُوهُ.

﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ﴾ فاحمِدُوا اللهَ الّذي هو ربُّكُم وربُّ كلِّ شيءٍ من السَّماواتِ والأرضِ وَالْعَالَمِينَ وكبِّروهُ، فَقَدَ ظَهَرَتْ آثارُ كبريائِهِ في الجميعِ، فإنَّ مثلَ هذهِ الربوبيةِ الشَّاملةِ العامَّة تُوجِبُ الثَّناءَ والحَمْدَ والتَّكبيرَ والتَّعظيمَ على المَربُوبينَ.

❁ ❁ ❁

(١) وبالنصب قراءة حمزة وحده. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٥٩٥.
(٢) الشورىٰ: ٤٠. (٣) سبأ: ٣٣.

سُورَةُ الأَحْقَافِ

مكّيّةٌ[1] غيرُ آياتٍ، وهي خَمسٌ وثلاثُونَ آيةً كوفيٌّ، أرْبعٌ في الباقينَ، ﴿حمٓ﴾ كوفيٌّ.

وفي حديثِ أُبَيٍّ: «مَنْ قَرأَ سُورةَ الأَحْقافِ أُعْطِيَ من الأجْرِ بعَدَدِ كلِّ رَمْلٍ في الدُّنيا عَشْرَ حَسَنَاتٍ ورُفِعَ لَهُ عَشر دَرَجَات»[2].

وعن الصَّادقِ عليه السلام: «مَنْ قَرأَها كلَّ ليلةٍ أو كلَّ جُمُعَةٍ لَم يُصبْهُ اللهُ بَروْعَةٍ في الحَيَاةِ الدُّنيا، وآمَنَهُ من فَزَعِ يَوم القِيَامَة»[3].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حمٓ(١) تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ(٢) مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ

---

(١) قال الشيخ الطوسي في التبيان: ج ٩ ص ٢٦٦: مكّية بلاخلاف، وهي خمس وثلاثون آيةً في الكوفي، وأربع وثلاثون في البصري والمدنيّين، عدّ أهل الكوفة ﴿حمٓ﴾ آيةً ولم يعدّه الباقون، والباقي لا خلاف فيه.

وفي الكشّاف: ج ٤ ص ٢٩٤: مكّية إلّا الآيات ١٠ و ١٥ و ٣٥ فمدنيّة، وآياتها (٣٤) وقيل: (٣٥) آية، نزلت بعد الجاثية.

(٢) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٣١٤ مرسلاً.

(٣) ثواب الأعمال للصدوق: ص ١٤١.

عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعْرِضُونَ(٣) قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ ٱئْتُونِى بِكِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ هَـٰذَآ أَوْ أَثَـٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ(٤) وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ(٥) وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ(٦) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ(٧) أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ(٨)﴾

﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي: إلّا خَلْقاً مُلْتَبِساً بالحقِّ والحكمةِ والغَرضِ الصَّحيحِ، ولَمْ يَخْلقْها عَبَثاً ولا باطِلًا ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وبتقديرِ أَجَلٍ مسمًّىً ينْتَهي إليهِ وهو يَومُ القيامةِ ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّا أُنْذِرُواْ﴾ من يومِ القيامةِ والجَزاءِ ﴿مُعْرِضُونَ﴾ لا يؤْمِنُونَ بهِ ولا يستَعدُّونَ لَهُ، ولابدَّ من ٱنتهائِهِم وٱنتهاءِ كلِّ خَلْقٍ إليهِ، ويجوزُ أن يكُونَ «مَا» مصدريَّةً أي: عن الإِنْذارِ.

﴿قُلْ﴾ لَهُم ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ ما تَعبُدُونَهم من الأصنامِ وتَدْعُونَهم مع ٱللهِ آلهةً ﴿أَرُونِى مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ حتَّى ٱستَحقُّوا به العبادةَ وتَوجيهَ القُرْبِ إليهِم، بَلْ ﴿لَهُمْ شِرْكٌ فِى﴾ خَلْقِ ﴿ٱلسَّمَوَٰتِ﴾ فإنَّهم لا يَقْدرونَ علَى ٱدّعاءِ ذلكَ، ﴿ٱئْتُونِى بِكِتَـٰبٍ﴾ أَنْزَلَهُ اللهُ يدلُّ علىٰ صحَّةِ قولِكُم في عبادتِكُم غيرَهُ ﴿أَوْ أَثَـٰرَةٍ مِنْ عِلْمٍ﴾ أو بقيَّةٍ من عِلْمٍ تُؤْثَرُ من كُتُبِ الأولينَ، وفي الشَّواذِ عن عليٍّ عليه السلام: «أو أَثْرةٍ» بسكُونِ الثّاءِ[1]، وعن ٱبنِ عبَّاسٍ: «أَثَرةٍ» بفَتْحتَيْنِ[2]، فالأَثَرةُ: المرَّةُ

(١) أنظر شواذ القرآن لابن خالويه: ص ١٤٠.
(٢) حكاه عنه أبو حيان في البحر المحيط: ج ٨ ص ٥٥.

من مَصْدَرِ أَثَرَ الحَديثَ أي: رَواهُ، والأَثَرَةُ بمعنى الأَثارةِ أيضاً، أي: خاصَّة من عِلْمٍ أُوثِرْتُم به وخُصِّصْتُم الإحَاطَةَ بِهِ لِغَيرِكُم.

﴿وَمَنْ أَضَلُّ﴾ معنى الاستفهامِ فيهِ إنْكارُ أَن يكُونَ في الضَّلَال كلِّه[١] أَبْلَغ ضَلَالاً من عَبَدَةِ الأصنامِ حيثُ يَدعُونَ جَمَاداً ﴿لا يَسْتَجِيبُ﴾ لَهُمْ ولا يَقْدرُ على ٱستجابةِ أَحَدٍ ما دامَتِ الدُّنيا وإلىٰ تقُومَ السَّاعةُ، ويتركُونَ دُعاءَ القادرِ عَلىٰ كلِّ شيءٍ، السَّمِيعِ المُجيبِ. ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ﴾ عليهِم ضدّاً و ﴿لَهُمْ أَعْدَآءً﴾ فَلَيْسُوا في الدارَيْنِ إلَّا علىٰ نَكَدٍ ومَضَرَّةٍ مِّنْهُم.

﴿بَيِّنَٰتٍ﴾ جَمْعُ بَيِّنَةٍ، وهي الحجَّةُ والشَّاهِدُ، أو: واضِحَات مُبيَّنَات، واللَّامُ في ﴿لِلْحَقِّ﴾ مثلُها في قَولِهِ: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا﴾[٢] أي: لأَجْلِ الحقِّ ولأَجْلِ الَّذين آمنُوا، والمُرادُ بالحقِّ: الآيـاتُ، وبالَّذين كَفَروا: المتلُوُّ عليهِم، فُوضع الظَّاهِرَانِ موضعَ المُضْمَرَيْنِ للتَّسجيلِ عليهم بالكُفْرِ وللتَملُّقِ بالحقِّ ﴿لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ أي: بادَهُوهُ[٣] بالجُحُودِ ساعَةَ أَتَاهُم وأَوَّلَ ما سَمعُوهُ من غيرِ فِكْرٍ ونَظَرٍ وسَمَّوْهُ سِحْراً مبيناً ظاهِراً لظُلْمِهِم وعِنَادِهِم.

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ إعراضٌ وإضرابٌ عن ذِكْرِ تَسميتِهِم الآياتِ سِحْراً إلىٰ ذِكْرِ قَولِهِم: إنَّ محمّداً ٱفْتَراهُ، كأنَّه قيلَ: دَعْ هذا وٱسْمَعْ قَولَهُم المُنْكَرَ العجيبَ، وذلك أنَّ محمّداً كانَ لا يَقْدِرُ عليهِ حتَّىٰ يتقَوَّلَهُ ويفْتَرِيهِ علىٰ ٱللهِ، ولو ٱختصَّ بالقُدرةِ عليهِ من بين سائرِ العربِ الفُصَحَاءِ لكانَتْ قُدرَتُهُ عليهِ معجزةً خارقةً للعادةِ، وإذا كانَتْ معجزةً كانَتْ تَصديقاً من ٱللهِ لَهُ، والحكيم لا يَصدقُ الكاذِبَ فلا يكُونُ مفْتَرياً، والضَّميرُ في ﴿ٱفْتَرَاهُ﴾ لـ﴿الحَقِّ﴾ والمُرادُ بِهِ الآياتُ ﴿قُلْ إِنِ

(١) في بعض النسخ: «كلّهم» . (٢) الآية: ١١ .
(٣) بادهه بالأمر: فاجأَهُ به. (الصحاح: مادة بده) .

ٱفْتَرَيْتُهُ﴾ على سبيلِ الفَرْضِ عَاجَلَني ٱللهُ لا محالةَ بعقوبةِ الافتراءِ عليهِ ﴿فَلا تَمْلِكُونَ﴾ دَفْعَ شيءٍ من عقَابِهِ عنِّي، فكيفَ أتعرَّضُ لعقَابِهِ؟! يقَالُ: فُلانٌ لا يملكُ إذا غَضِبَ، ومِثْلُهُ: ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ ٱللهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ [1]، ثمَّ قَالَ: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أي: تَنْدفعُونَ فيهِ من القَدْحِ في وَحْيِ ٱللهِ والطَّعْنِ في آياتِهِ ﴿كَفَىٰ بِهِ شَهِيداً بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ يَشْهدُ لي بالصِّدقِ والبَلاغِ ويَشْهدُ عليكم بالكَذِبِ والجُحُودِ، ومعنىٰ ذلك[2] العِلْمِ والشَّهادةِ وَعيدٌ بمُجَازَاتِهِم ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ وَعْدٌ بالرَّحمةِ والمغفرةِ إنْ رجعُوا عن الكفرِ وتَابُوا وآمنُوا، وإشْعَارٌ بِحِلْمِ اللهِ عنْهم مع عِظَمِ ما ٱرتَكبُوه.

﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ(٩) قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ(١٠) وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ(١١) وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ(١٢) إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ(١٣) أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ(١٤) وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ

(١) المائدة: ١٧.
(٢) في بعض النسخ: «ذكر».

أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ(١٥) أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ(١٦)﴾

الْبِدْعُ: البديعُ، وهو مثلُ الْخِفِّ بمعنى الخَفيفِ، أي: ﴿مَا كُنتُ بِدْعاً مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ فآتيكُم بكلِّ ما تَقْتَرِحُونَه من الآياتِ، وأُخبرُكُم بكلِّ ما تسألُونَ عنْهُ من المغيباتِ الّتي لَمْ يُوحَ بها إليَّ، فإنَّ الرُّسُلَ ما كانُوا يأتُونَ من الآياتِ إلَّا بما آتاهُم اللهُ، ولا كانُوا يُخبِرُونَ من الغُيُوبِ إلَّا بما أَوْحَاهُ إليهِم ﴿وَمَا أَدْرِى﴾ ما يَفْعَلُهُ ﴿ٱللَّهُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾ فيما يُستَقْبَلُ من الزَّمانِ، وما يُقَدِّرُهُ لي ولكُم من أفعالِهِ وقَضاياهُ، وقيلَ: وما أدري ما يَصيرُ إليهِ أَمري وأمرُكُم في الدُّنيا، ومَنِ الغَالبُ منَّا والمغلُوبُ [1]، ووَجْهُ الكلامِ: ما يُفْعلُ بي وبِكُم، لأنَّه مثْبتٌ غيرُ منْفيٍّ، ولكنَّ النفْيَ في «ما أَدري» لمَّا كانَ مشتَمِلاً عليهِ لتناولِهِ «ما» وما في حيِّزِهِ صَحَّ ذلكَ وحَسُنَ، و«ما» في ﴿مَا يُفْعَلُ﴾ يجوزُ أَن يكُونَ موصولةً منصوبةً، وأن يكُونَ استفهاميَّةً مرفوعةً.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ جَوابُ الشَّرطِ محذُوفٌ، والتقديرُ: إنْ كانَ القُرآنُ من عندِ ٱللهِ ﴿وَكَفَرْتُم بِهِ﴾ أَلَسْتُم ظَالِمينَ؟ ويدلُّ علىٰ هذا المحذُوفِ قولُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، والشَّاهِد من بني إسرائيلَ عبدُ الله بنُ سلامٍ، لمَّا قَدِمَ رسولُ اللهِ ﷺ المدينة نَظَرَ إلىٰ وجهِهِ وتأمَّلَهُ، وسأَلَهُ عن مسائِلَ ثَلاثٍ لا يَعْلَمُهُنَّ إلَّا نبيٌّ، وتحقَّقَ أنَّه النبيُّ المنتظرُ فَقَالَ: أشهدُ أنَّك رسولُ اللهِ حقّاً، ثمَّ قَالَ: يا رسولَ الله، إنَّ اليهودَ قومٌ بُهْتٌ، وإنْ عَلِمُوا بإسلامي قَبلَ أن تسأَلَهُم عنِّي

(١) قاله الحسن البصري، راجع تفسيره: ج ٢ ص ٢٨٣.

بَهَتُوني عندَكَ، فَجَاءَتِ اليهودُ فَقَالَ لَهم النبيُّ عليه السلام: أيُّ رَجُلٍ عبدُ اللهِ فيكُم؟ فَقَالُوا: خيرُنا وابنُ خيرِنا، وسيِّدُنا وابنُ سيِّدنا، وأَعلمُنا وابنُ أعلمنا، قَالَ: أَرَأَيْتُم إنْ أَسْلَمَ عبدُ اللهِ؟ قالُوا: أعاذَهُ اللهُ من ذلكَ، فَخرجَ إليهم عبدُ اللهِ فَقَالَ: أشهدُ أن لا إِلٰه إلَّا الله وأشهد أنَّ محمداً رسول الله، فقالُوا: شرُّنا وابن شرِّنا، قَالَ: هذا ما كنتُ أَخَافُ يا رسول الله[(١)].

قال سَعْد بنُ أبي وقَّاصٍ: ما سمعتُ رسُول اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم يقُولُ لأَحَدٍ يمشي علىٰ وجْهِ الأرضِ: إنَّه من أهلِ الجنَّةِ إلَّا لعبدِ اللهِ بنِ سلام، وفيه نَزَلَ ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِى إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ﴾[(٢)] والضَّميرُ للقُرآنِ، أي: علىٰ مثلِهِ في المعنىٰ، وهو ما في التَّوراةِ من المعاني المطابقةِ لمعاني القُرآنِ، ويدلُّ عليهِ قولُهُ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[(٣)]، ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾[(٤)]. ويجوزُ أن يكُونَ المعنىٰ: وشَهِدَ شاهِدٌ علىٰ نَحْوِ ذلكَ، يعني: علىٰ كونِهِ من عندِ ٱللهِ.

ونَظْمُ هذا الكلامِ أَنَّ الواوَ الأُولىٰ عاطِفَةٌ لـ﴿كَفَرْتُم﴾ علىٰ فِعْلِ الشَّرطِ، وكذلكَ الواو الأخيرةُ عاطِفَةٌ لـ﴿ٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ علىٰ ﴿شَهِدَ﴾، فأمَّا الواو في ﴿وَشَهِدَ﴾ فَقَدَ عطفَتْ جُملةَ قَولِهِ: ﴿وشَهِدَ شَاهِدٌ من بَنِى إسراءَيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَآمَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُم﴾ علىٰ جُملةِ قَولِهِ: ﴿كَانَ مِنْ عِنْدِ ٱللهِ وَكَفَرْتُم بِهِ﴾، والمعنىٰ: قُل أخبروني إنِ ٱجتَمَعَ كونُ القُرآنِ من عنداللهِ مع كُفْركُم به، وٱجتَمَعَ شهادةُ أَعْلَم بني إسرائيل علىٰ نُزُولِ مثلِهِ بإيمانِهِ بِهِ مع ٱستكبارِكُم عنْهُ وعن الإيمانِ بِهِ، أَلَسْتُمْ أَضَلَّ النَّاسِ وأَظْلَمَهُم؟ وجَعَلَ الإيمانَ في قَولِهِ: ﴿فَآمَنَ﴾ مسبَّباً عن الشهادةِ علىٰ مثْلِهِ،

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره: ج ١١ ص ٢٧٩ و ٢٨٠ عن ابن عباس والضحاك والحسن.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره أيضاً: ج ١١ ص ٢٧٩.

(٣) الشعراء: ١٩٦.

(٤) الأعلىٰ: ١٨.

لأنّه لمّا عَلِمَ أنّ مثلَهُ أُنزِلَ على موسىٰ عليه السلام، وأنّه وَحيٌ وليسَ من كلامِ البَشرِ فَشهِدَ عليهِ واْعترَفَ، كانَ إيمانُهُ نتيجةَ ذلك.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: لأجْلِهِم قالُوا: عامّةُ أتْباعِ محمّدٍ صلى الله عليه وآله وسلم سُقّاطٌ، فلو ﴿كَانَ﴾ ما جاءَ به ﴿خَيْراً﴾ لَمَا سَبَقَنَا ﴿إِلَيْهِ﴾ هؤلاء، وقيلَ: لمّا أَسْلَمَتْ جُهينةُ ومُزينةُ وأسلم وغَفّارُ، قالَتْ بنُو عامر بنِ صعصعة وغطفان وأسَد وأشْجَع: لو كانَ دينُ محمّدٍ صلى الله عليه وآله وسلم خَيْراً ما سَبَقَنا إليهِ عامّةُ البَهْمِ[١]. والعامِلُ في ﴿إِذْ﴾ محذوفٌ لدلالةِ الكلامِ عليهِ، والتّقديرُ: وإذْ لَمْ يهتَدُوا بِهِ ظَهَرَ عِنادُهُم ﴿فَسَيَقُولُونَ هَٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ وهو كقَولِهم: ﴿أَسَاطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[٢].

﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ مبتَدأ، ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ﴾ خَبَرٌ مقدَّمٌ، و ﴿إِمَاماً﴾ حَالٌ من الظَّرفِ كقَولِكَ: في الدار زَيدٌ قَائِماً، أي: مؤْتَمّاً بِهِ قدوةً في دينِ ٱللهِ ﴿وَرَحْمَةً﴾ لِمَن آمَنَ بِهِ ﴿وَهَٰذَا﴾ القُرآنُ ﴿كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ﴾ لكِتابِ مُوسَىٰ، أو: لِما تَقدَّمَهُ من الكُتُبِ، و ﴿لِّسَاناً عَرَبِيّاً﴾ حَالٌ من ضَميرِ «الكتابِ» في ﴿مُصَدِّقٌ﴾ والعَامِلُ فيهِ ﴿مُصَدِّقٌ﴾، أو: حالٌ مِن ﴿كِتَٰبٌ﴾ لتخصُّصِهِ بالصِّفةِ ويَعملُ فيهِ معنَى الإشَارة، وقُرِئَ ﴿لِّتُنذِرَ﴾ بالتاءِ[٣] والياءِ، و ﴿بُشْرَىٰ﴾ في محلِّ النَّصْبِ عَطْفاً علىٰ محلِّ ﴿لِّتُنذِرَ﴾ لأنَّه مفعولٌ لَهُ.

وقُرِئَ: «حُسْناً»[٤] و ﴿إِحْسَٰناً﴾، وَ ﴿كُرْهاً﴾ بضمِّ الكافِ وفتحِها[٥] وهُمَا

(١) حكاه الشيخ الطوسي في التبيان: ج ٩ ص ٢٧٣.
(٢) الأنعام: ٢٥، الأنفال: ٣١ وغيرهما.
(٣) وهي قراءة نافع وابن عامر وابن كثير على روايةٍ. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٥٩٦.
(٤) قرأه ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر. راجع المصدر السابق.
(٥) وبفتح الكاف هي قراءة ابن كثير ونافع وأبي عمرو. راجع المصدر نفسه.

لُغَتَانِ، وٱنتصبَ على الحالِ أي: ذات كُرْهٍ، أو: علىٰ أنّه صِفَةٌ للمصدرِ أي: حَمْلًا ذا كُرْهٍ ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَـٰلُهُۥ ثَلَـٰثُونَ شَهْرًا﴾ أي: ومدَّةُ حمْلِهِ وفِصَالِه ثلاثُونَ شَهْراً، وقُرِئَ: ﴿وفَصْلُهُ﴾ [١]، والفَصْلُ والفِصَالُ في معنَى الفَطْمِ والفِطَامِ، والمُرادُ: بيانُ مدَّةِ الرِّضَاعِ لا الفِطَامِ. ولكن عَبَّرَ عنهُ بالفِصَالِ لِما كانَ الرِّضَاعُ يليهِ الفِصَالُ وينْتَهي بِهِ، وفيه فائِدةٌ وهي: الدلالةُ علَى الرِّضَاعِ التامِّ المنتهي بالفِصَالِ ووقْتِهِ. وبُلُوغُ الأشُدِّ: أن يَكْتَهِلَ ويَستوفيَ السِّنَّ الّتي يَستَحْكِمُ فيها قوَّتَهُ وعقلَهُ وتميُّزَهُ، وذلك إذا أَنافَ على الثلاثينَ وناهزَ الأربعينَ، وعن ٱبنِ عبَّاسٍ وقتادةَ: ثَلاثٌ وثلاثونَ سَنَة [٢]، ووجْهُهُ أن يكُونَ ذلكَ أوَّلَ الأَشدِّ وغايتُهُ الأَربَعينَ، وذلكَ وقتُ إنْزالِ الوَحْيِ علَى الأنبياء ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ﴾ أي: ٱلْهِمْنِي، والمُرادُ بالنِّعمةِ الّتي ٱستَوْزَعَ الشُّكْرَ عليها: نعمةُ الدينِ ﴿وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ﴾ سألَهُ سبحانَهُ أنْ يجعلَ ذرِّيتَهُ مظنَّةً للصَّلاحِ، كأنَّه قَالَ: هَبْ لِيَ الصَّلاحَ في ذرِّيتي، وأوْقِعْهُ فيهم. ﴿وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ المنقَادينَ لأَمْرِكَ.

وقُرِئَ «يتَقبَّلُ» و «يتَجاوَزُ» و «أَحْسَنُ» بالرفعِ [٣]، و ﴿نَتَقَبَّلُ﴾ و ﴿نَتَجَاوَزُ﴾ بالنُّونِ و ﴿أَحْسَنَ﴾ بالنَّصْبِ، و ﴿فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلْجَنَّةِ﴾ من نَحْوِ قولِكَ: أَكْرَمَني الأَميرُ في نَاسٍ من أَصْحابِهِ، تُريدُ: أَكْرَمَني في جملةِ مَن أَكْرَمَ منْهُم ونَظمني في عِدَادِهِم، وهو في محلِّ النَّصْبِ على الحالِ علىٰ معنىٰ: كائنينَ في أصحابِ الجنَّةِ، معدودينَ فيهِم. ﴿وَعْدَ ٱلصِّدْقِ﴾ مصدرٌ مؤكِّدٌ لأنَّ قَولَهُ: ﴿نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ﴾ وَعْدٌ من اللهِ لَهُم بِتَقبُّلِ أعمالِهِم، وبالتَّجاوزِ عن سيِّئاتِهِم.

---

(١) قرأه الحسن والجحدري. راجع شواذ القرآن لابن خالويه: ص ١٤٠.

(٢) حكاه عنهما الطبري في تفسيره: ج ١١ ص ٢٨٤.

(٣) قرأه ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر وعاصم برواية أبي بكر عنه. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٥٩٧.

﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ(١٧) أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ(١٨) وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ(١٩) وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ(٢٠)﴾

﴿ٱلَّذِى قَالَ﴾ مبتدأٌ وخبرُهُ: ﴿أُولَئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ والمُرادُ بالّذي قَالَ الجنسُ القائِلُ ذلك القَوْل، ولذلكَ جَاءَ الخَبَرُ بـلَفْظِ الجَـمْعِ، وَ ﴿أُفٍّ﴾ كـلمةُ تَضَجُّرٍ، واللَّامُ للبيانِ، معناهُ: هذا التأْفيفُ ﴿لَكُمَآ﴾ ولأَجلكُما خاصَّةً دونَ غيرِكُما ﴿أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ﴾ أي: أُبْعَثَ وأُخْـرَجَ مـن الأَرضِ ﴿وَهُـمَا يَسْـتَغِيثَانِ ٱللَّهَ﴾ يقُولانِ: الغِيَاثُ باللهِ منْكَ ومن قَولِكَ ﴿وَيْلَكَ﴾ دعاءٌ عليهِ بـالثُّبُورِ، والمُـرادُ بـهِ التَحريضُ على الإِيمانِ لا حقيقةَ الهَلاكِ. ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ بالبَعْثِ والجزاءِ ﴿حَـقٌّ فَيَقُولُ﴾ في جَوابِهِمَا: ﴿مَا هَٰذَآ﴾ القُـرآنُ أو الّذي تَـدعُونني إليـهِ ﴿إِلَّآ أَسَٰـطِيرُ ٱلأَوَّلِينَ﴾ سَطَّرُوها وليسَ لها حقيقةٌ.

﴿فِى أُمَمٍ﴾ مثْلُ قولِهِ: ﴿فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ﴾ ﴿وَلِكُـلٍّ﴾ مـن الجـنسَيْنِ المذكُورَيْنِ ﴿دَرَجَٰتٌ﴾ علىٰ مراتبِهِم ومقَادير أعمالِهِم من الخيرِ والشرِّ، أو: مـن أجلِ أعمالِهِم الحَسَنةِ والقَبيحةِ، وإِنَّما قَالَ: «درجات» وقَد جَاءَ: «الجنَّةُ درجاتٌ والنَّارُ دَرَكاتٌ» علَىٰ وجْهِ التغليبِ؛ لاشتمالِ كلٍّ على الفَـريقَيْنِ. ﴿وَلِـيُوَفِّيَهُم﴾ تَعليلٌ معلّلُهُ محذُوفٌ لدلالةِ الكلامِ عليهِ، كأنَّه قَالَ: وليوفِّيَهُم أعمالَهُم ولا يَظْلِمَهُم

حقُوقَهُم، قَدَّرَ جزاءَهُم علىٰ مقَادير أعمالِهِم، فَجَعَلَ الثَّـواب دَرَجـاتٍ والعـقَابَ دَرَكاتٍ.

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ﴾ انتصَبَ بالقَولِ المضْمَرِ قَبْلَ ﴿أَذْهَبْتُمْ﴾، وَعرْضُهُم على النَّارِ: تَعذيبُهُم بها، كما يُقَالُ: عُرِض بنُو فُلانٍ على السَّيفِ إذا قُتِلُوا بِهِ. ومنْهُ قَولُهُ: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ [١]، أَو يكُونُ المعنىٰ: عُرِضَتِ النَّارُ عليهِم، كما يقَالُ: عُـرِضَتِ النَّاقةُ على الحَوْضِ، وإنَّما يُعرَضُ الحَوْضُ عليها، وهو من القَلْبِ. ويـدلُّ عـليهِ تَفْسيرُ ٱبنِ عبَّاسٍ: يُجَاءُ بِهِم إليها فيُكْشَفُ لَهُم عنها[٢] ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَـٰتِكُمْ﴾ أي: ما كُتِبَ لكُم حَظٌّ من الطيِّباتِ إلَّا ما قَد أصبتُمُوه في دُنياكُم وقَد ذَهَبْتُم بِهِ وأَخَذْتُمُوه فَلَمْ يَبْقَ لكُم بعد ٱستيفاءِ حظِّكُم شيءٌ منها، وقيلَ: معنَاهُ: أَنْفَقْتُم طيِّباتِ ما رُزِقْتُم في شَهَواتِكم وفي مَلاذِّ الدُّنْيا ولَمْ تُنفِقُوها في مرضَاةِ ٱللهِ عزَّ ٱسمه[٣].

ورُويَ: أنَّ النبيَّ ﷺ دَخَلَ علىٰ أهلِ الصُّفَّةِ وهم يرقِّعُونَ ثيابَهُم بالأدُمِ وما يَجدُونَ لَها رقَاعاً، فَقَالَ: «أنتُم اليوم خيرٌ أم يَوم يغدُو أحدُكُم في حُلَّةٍ ويَروحُ في أُخرىٰ، ويُغْدَىٰ عليهِ بجفْنَةٍ ويُراحُ عليهِ بأُخرىٰ، ويُستَرُ بيتُهُ كما تُسترُ الكـعبةُ»؟ قالُوا: نَحنُ يومئذٍ خيرٌ؟ قَالَ: «بَلْ أنتم اليوم خيْرٌ»[٤].

وقُرِئَ: «أَأَذهَبْتُم»[٥] بهمزةِ الاستفهامِ، و«آأَذْهَبْتُم» بألِفٍ بين همزتَيْنِ[٦].

﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِن بَـيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَـلَيْكُمْ عَـذَابَ يَـوْمٍ عَظِيمٍ(٢١) قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُـنتَ مِـنَ

(١) غافر: ٤٦.
(٢) تفسير ابن عباس: ص ٤٢٥.
(٣) قاله ابن عباس في تفسيره: ص ٤٢٥.
(٤) رواه الطبري في تفسيره: ج ١١ ص ٢٨٩.
(٥) قرأه ابن عامر. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٥٩٨.
(٦) قرأه ابن كثير. راجع المصدر السابق.

ٱلصَّـٰدِقِينَ(٢٢) قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَـٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ(٢٣) فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُواْ هَـٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ(٢٤) تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَـٰكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ(٢٥) وَلَقَدْ مَكَّنَّـٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّـٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَـٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُواْ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ(٢٦) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْأَيَـٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ(٢٧) فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ بَلْ ضَلُّواْ عَنْهُمْ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ(٢٨)﴾

﴿أَخَا عَادٍ﴾ هُودٌ عليه السلام، الأحقاف: جَمْعُ حِقْفٍ وهو الرَّمْلُ المستطيلُ[١] المرتفعُ فيه انحناءٌ، من: احْقَوْقَفَ الشَّيءُ إذا اعْوَجَّ. وكانَتْ عادٌ بين رِمَالٍ مُشْرِفَةٍ على البحرِ بالشِحْرِ[٢] من بلادِ اليمنِ، وقيلَ: بين عُمان ومَهَرَة[٣].[٤] و﴿ٱلنُّذُرُ﴾ جَمْعُ نَذيرٍ بمعنى المنذِرُ أو الإنْذارِ ﴿مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ﴾ من قبل هُودٍ ومن بعدِهِ، أي: قالَ لَهُم: ﴿لَا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ العذابَ، وقولُهُ: ﴿وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ﴾ اعتراضٌ.

---

(١) أي: الذي استطال وارتفع.

(٢) في الكشّاف: بأرضٍ يقال لها: الشِحْرُ، انتهىٰ. وفي معجم البلدان: ج ٣ ص ٣٢٧: هو صقع علىٰ ساحل بحر الهند من ناحية اليمن، قال الأصمعي: هو بين عدن وعمان.

(٣) قال في المعجم: ج ٢ ص ٧٠٠: قال العمراني: هي بلاد تنسب إليهم الإبل المهرية، وباليمن لهم مخلاف بينه وبين عمان نحو شهر.

(٤) قاله ابن عباس. راجع تفسير الطبري: ج ١١ ص ٢٩٠.

﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا﴾ لِتَصرِفَنا عن عبادةِ ﴿ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ من العذابِ. ﴿قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ معناهُ: إنّي لا أعلَمُ الوقتَ الّذي فيه يكونُ تَعذيبُكُم حكمةً وثواباً[1]، إنّما علمُ ذلك عندَ اللهِ، فكيفَ أدعُوهُ بأن يأتيَكُم بعذابِهِ في هذا الوقتِ؟ ﴿وَأُبَلِّغُكُمْ﴾ أي: وأنا أبلِّغُكُم ﴿مَآ أُرْسِلْتُ بِهِ﴾ وأُمِرْتُ بتبليغِهِ إليكُم ﴿وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ حيثُ لا تجيبونَ إلىٰ ما فيهِ صَلاحُكُم ونَجاتُكُم، وتَستعجِلُونَ العذابَ الّذي فيه هَلاكُكُم.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾ الضَّميرُ يعودُ إلىٰ ﴿ما تَعِدُنَا﴾، أو: هو ضَميرٌ مبهَمٌ قد وَضَحَ بقولِهِ: ﴿عَارِضًا﴾ إمَّا تمييزاً وإمَّا حالاً، والعارِضُ: السَّحابُ الّذي يَعرِضُ في أُفُقٍ من آفاقِ السَّماءِ، ومثلُهُ: الْعَنانُ من: عَنَّ إذا عَرَضَ، والحَبِيُّ من: حَبَا، وإضافةُ ﴿مُّسْتَقْبِلَ﴾ و ﴿مُّمْطِرُ﴾ غيرُ حقيقيّةٍ لكونِهما نَكِرَتَيْنِ وإنْ أُضيفا إلى المعرفتَيْنِ، أَلَا ترىٰ أنّ كِلَيْهِما وَصْفٌ للنَكِرَةِ، وفي تقديرِ الانفصالِ كأنّه قَالَ: عَارِضاً مستقبِلاً أوديتَهُم وهٰذا عارِضٌ مُمْطِرٌ إيّانا ﴿بَلْ هُوَ﴾ أي: قال هُود: ليسَ هو كَمَا توهَّمْتُمْ ﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ﴾ هي ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ﴾ مؤلِمٌ. ﴿تُدَمِّرُ﴾ أي: تُهلِكُ ﴿كُلَّ شَىْءٍ﴾ من نفُوسِ عادٍ وأموالِهِم و دوابِّهِم الكثيرة، فَعَبَّرَ عن الكثْرةِ بالكلّيّةِ «فَأَصْبَحُواْ لا تَرَىٰ» أيها الرّائي «إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ»، وقُرِئَ: ﴿لَا يُرَىٰٓ﴾ على البناء للمفعولِ ﴿إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ بالرَّفعِ[2].

﴿فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ﴾: «إنْ» نافيةٌ أي: فيمَا مَا مَكَّنّاكُم فيه من قوّةِ الأجْسامِ وطُولِ العُمُرِ وكثْرةِ المالِ، إلا أنَّ «إنْ» أحْسَنُ في اللفْظِ لِمَا في تكريرِ «ما» من

---

(١) في نسخة: «وصواباً».

(٢) الظاهر من عبارة المصنّف رحمه الله أنّه يميل إلى القراءة الأُخرىٰ المشهورة «لا تَرَىٰٓ إلّا مَسَاكِنَهم» وهي قراءة السبعة إلّا عاصماً وحمزة. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٥٩٨.

البَشَاعَةِ، أَلا ترىٰ أَنَّهم قَلَبُوا الألفَ مِنْ «ما» هاءً في «مهْمَا» وأَصْلُهُ «ماما» لِبَشَاعَةِ التَّكْرِيرِ ﴿مِنْ شَىْءٍ﴾ من الإغْناءِ، وهو القَليلُ منْهُ، وٱنتصَبَ ﴿إِذْ كَانُواْ﴾ بـقَولِهِ: ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ﴾ وجرىٰ مجْرَى التعليلِ، أَلَا ترىٰ أنَّ قولَكَ: ضَرَبْتُهُ لإِساءَتِهِ، و: ضَرَبْتُهُ إذْ أَسَاءَ يستويان في المعنىٰ، لأنّك إذا ضَرَبْتَهُ في وقْتِ إسَاءَتِهِ فإنَّما ضَرَبْتَ فيهِ لوجُودِ إساءَتِهِ فيهِ.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم﴾ يا أَهلَ مكّةَ ﴿مِنَ ٱلْقُرَىٰ﴾ نحْوُ حجرُ ثَمُودَ وقَريةُ سَدُوم وغيرهما، والمُرادُ: أَهلُ القُرىٰ، ولذلكَ قَالَ: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾. ﴿فَلَوْلَا﴾ أي: فَهلَّا نَصرَ هؤلاءِ المُهْلَكينَ الّذينَ ٱتَّخذُوهُم شُفَعَاء متَقرِّباً بِهِم إلى ٱللهِ حيثُ قَالُوا: ﴿هَٰؤُلَآءِ شُفَعَٰؤُنَا عِندَ ٱللهِ﴾ (١) وأَحَدُ مفعُولَيْ «اتَّخَذ» المحذُوفُ الراجعُ إلىٰ «الَّذِينَ» والثاني: ﴿ءالِهَةً﴾ و ﴿قُرْبَاناً﴾ حَالٌ، والمعنىٰ: فَهلّا منَعَهُم من الهَلاكِ آلهتهُم ﴿بَلْ ضَلُّواْ عَنْهُمْ﴾ أي: غابُوا عن نُصْرَتِهِم وَ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشَارةٌ إلى ٱمتناعِ نُصْرةِ آلهتِهِم لَهُم وضَلَالِهِم عَنْهم، أي: ﴿وذَٰلِكَ﴾ أَثَرُ ﴿إِفْكِهِمْ﴾ الّذي هو اتِّخاذُهُم إيَّاها آلهةً، وثَمَرَةُ شِرْكِهِم وٱفترائِهِم علَى ٱللهِ الكَذِبَ من كَونِهِ ذا شُرَكَاء.

﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ(٢٩) قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ(٣٠) يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ(٣١) وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ(٣٢) أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ

(١) يونس: ١٨.

بِخَلْقِهِنَّ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْيِۦَ ٱلْمَوْتَىٰ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ(٣٣) وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَـٰذَا بِٱلْحَقِّ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ(٣٤) فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ بَلَـٰغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ(٣٥)﴾

﴿صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ أي: أَمَلْنَاهُمْ إليكَ من بلادِهِم بالتَّوفيقِ والألْطَافِ حتَّىٰ أتَوْكَ، والنَّفَرُ: دونَ العَشْرةِ، وجمعُهُ: أنْفَارٌ. وعن ابنِ عبَّاسٍ: صَرَفْنَاهُم إليكَ عن استِراقِ سَمْعِ السَّماءِ برجُومِ الشُّهُبِ فَقَالُوا: ما هذا الّذي حَدَثَ في السماءِ إلَّا لأجْلِ شيءٍ حَدَثَ في الأرْضِ، فَضَربُوا في الأرض حتَّىٰ وقفُوا على النبيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ببَطْنِ نخْلَةٍ عَامِداً إلى عُكَاظٍ وهو يُصَلِّي الفَجْرَ، فاستَمعُوا القُرآنَ ونظَروا كيفَ يُصَلِّي[1]. والضَّميرُ في ﴿حَضَرُوهُ﴾ للقُرآنِ أو لرسولِ اللهِ ﴿قَالُوا۟﴾ أي: قَالَ بعضُهُم لبعضٍ: ﴿أَنصِتُوا۟﴾ أي: اسكتُوا مستَمِعينَ ﴿فَلَمَّا قُضِىَ﴾ أي: فرغَ من التِّلاوةِ ﴿وَلَّوْا۟﴾ انصرفُوا ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ يخوِّفُونَهُم من عذابِ اللهِ إنْ لَمْ يؤْمِنُوا.

قَالُوا: ﴿مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ لأنَّهم كانُوا على اليهوديّةِ ﴿أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ﴾ محمداً صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، دعَاهم إلىٰ توحيدِهِ ﴿وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ﴾ الهاءُ لـ«الله»، فجاءوا إلىٰ رسولِ اللهِ وآمنوا وعلَّمَهُم شَرائِعَ الإسلامِ، وأنْزَلَ اللهُ سبحانَهُ سورةَ الجنِّ، وكانُوا يَفِدُونَ إليهِ في كلِّ وقتٍ وفيهِ دلالةٌ علىٰ أنَّه كانَ مبعُوثاً إلَى الجنِّ والإنْسِ. ﴿فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: لا يُنْجِي منْهُ مَهرَبٌ ولا يَسْبِقُهُ سابِقٌ ﴿وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ﴾ أي: أنْصارٌ يدفَعُونَ عنْهُ عذابَ اللهِ إذا نَزَلَ بهم.

---

(١) أخرجه عنه الترمذي في السنن: ج ٥ ص ٤٢٦ ح ٣٣٢٣.

﴿بِقَـٰدِرٍ﴾ محلُّهُ الرَّفع لأنَّه خبَرُ ﴿أَنَّ﴾ وإنَّما دَخلَتِ الباءُ لاشتمالِ النَفْي في أوَّلِ الآيَةِ علىٰ «أنَّ» وما في حيِّزِها، كأنَّـه قَـالَ: أليسَ اللهُ بـقَادر؟ أَلَا تَـرىٰ أنَّ ﴿بَلَىٰٓ﴾ مقرِّرةٌ لكونِهِ سبحانَهُ قادراً علىٰ كلِّ شيءٍ لا لرؤيتِهِم؟ وقُرئ: «يَقْدِر»[١].

﴿وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ﴾ يقال: عَيِيَ فُلانٌ بأمْرِهِ: إذا لَمْ يهتَدِ لَهُ ولَمْ يعرفْ وجهَهُ، ومنْهُ ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ﴾[٢].

﴿أَلَيْسَ هَـٰذَا بِٱلْحَقِّ﴾ محْكيٌّ بعد قَولٍ مُضْمَرٍ، وهـذا المـضْمَرُ هـو النَّـاصِبُ للظَّرفِ، وَ﴿هَـٰذَا﴾ إشارةٌ إلى العذاب بدلالةِ قَولِهِ: ﴿فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾ وهو تَوبيخٌ لَهُم عَلَى ٱستهزائِهِم بوعْدِ ٱللهِ ووعيدِهِ.

﴿أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ﴾ أُولو الجِدِّ والثَّباتِ والصَّبْرِ، قـيلَ: إنَّ «مِـنَ» للـتَّبيينِ[٣]، والمُرادُ: جَميعُ الرُّسُلِ، والأَظْهرُ أنَّ «مِنَ» للتبعيضِ، وأُولوالعَزْمِ منَ الرُّسُلِ: مَنْ أَتىٰ بشَريعةٍ مستأْنَفَةٍ نَسَخَتْ شَريعةَ مَن تَقَدَّمَهُ، وَهُم خَمسةٌ: نُوحٌ وإبراهـيمُ ومـوسىٰ وعيسىٰ ومحمّدٌ صلّى الله عليه وآله وعليهم أجمعين ﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ ٱلْعَذَابَ، أي: لا تَدْعُ لَهُم بتَعْجيلِهِ فإنَّه نَازلٌ بِهِم لا مَحالَةَ وإنْ تَأَخَّر، وإنَّهم مستَقْصِرُونَ حينئذٍ مدَّةَ لَبْثِهِم في الدُّنيا حتَّىٰ يَحْسَبُوها ﴿سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾، و ﴿بَلَـٰغٌ﴾ أي: هذا بَلَاغٌ، والمعنىٰ: هذا القُرآنُ بما فيهِ من البيانِ كفَايةٌ، أو: هذا تَبليغٌ من الرسُولِ ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ﴾ الخَارجُونَ من أَمْرِ ٱللهِ تعالىٰ، المتمرِّدُونَ في الفِسْقِ والمَعاصِي؟ وعن الزجَّاجِ: ما جَاءَ في رَحْمَةِ ٱللهِ شَيءٌ أَبْلَغُ مِنْ هٰذِهِ الآية[٤].

۞ ۞ ۞

(١) وهي قراءة يعقوب. راجع التبيان: ج ٩ ص ٢٨٥.

(٢) ق: ١٥.

(٣) أُنظر الكشّاف: ج ٤ ص ٣١٢.

(٤) معاني القرآن وإعرابه: ج ٤ ص ٤٤٨.

سُورَةُ مُحَمَّدٍ

مدنيّةٌ(١) وهي أَربعُونَ آيةً بصريٌّ، ثَمَانٍ وثلاثُونَ كوفيٌّ، عَدَّ البَصْرِيُّ ﴿أَوْزَارَهَا﴾(٢) و﴿لِلشَّـٰرِبِينَ﴾(٣).

وفي حديثِ أُبيٍّ: «ومَنْ قَرَأَ سورةَ محمّدٍ ﷺ كانَ حقّاً على اللهِ أن يُسْقِيَهُ من أَنْهارِ الجَنَّةِ»(٤).

وعن الصَّادقِ عليه السلام: «مَنْ قَرَأَها لَمْ يدخُلْهُ شَكٌّ في دينِهِ أَبداً، ولَمْ يَزَلْ محفُوظاً من الشِّرْكِ والكُفْرِ حتَّىٰ يمُوت»(٥)، تَمامُ الخَبَرِ(٦).

---

(١) قال الشيخ الطوسي في التبيان: ج ٩ ص ٢٨٨: هي مدنيّة كُلّها إلّا آيةً واحدةً، قال ابن عباس وقتادة: فالآية الواحدة نزلت حين خرج النبي ﷺ من مكّة وجعل ينظر الى البيت وهو يبكي حزناً عليه فنزل قوله: ﴿فَكَأَيِّن مِن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً من قَرْيَتِكَ﴾ الآية، وهي ثمان وثلاثون آيةً في الكوفيّ وتسع وثلاثون في المدنيّين وأربعون في البصري.

وفي الكشّاف: ج ٤ ص ٣١٤: مدنيّة عند مجاهد، وقال الضحاك وسعيد بن جبير: مكّية، وهي سورة القتال، وهي تسع وثلاثون آية، وقيل: ثمان وثلاثون، نزلت بعد الحديد.

(٢ و ٣) الآية: ٤ و ١٥ على التوالي.

(٤) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٣٣١ مرسلاً.

(٥) ثواب الأعمال للصدوق: ص ١٤٢.

(٦) وفي نسخة زيادة: «وفي حديث آخر: من قرأ هذه السورة كان له بعَدَد كلّ مؤمن وكافر حسنات ودرجات في جنّات، وكان له بعَدَد كلّ حرف منها عتق الف ذرّية مؤمنة مع ما له عند الله من المزيد. وعن أبي بصير عن أبي عبدالله عليه السلام قال: من قرأ سورة ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ←

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ(١) وَٱلَّـذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِـن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ(٢) ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَـٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَـذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّـهُ لِلنَّاسِ أَمْثَـٰلَهُمْ(٣) فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَـفَرُواْ فَـضَرْبَ ٱلرِّقَـابِ حَـتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَـضَعَ ٱلْـحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَـٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ(٤) سَـيَهْدِيهِمْ وَيُـصْلِحُ بَالَهُمْ(٥) وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ(٦)﴾

﴿أَضَلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ أَحبَطَ اللهُ أَعمالَهُم الّتي ظَنُّوها خَيْراً وقُرْبةً، يُسمُّونَها مَكارِمَ الأَخلاقِ من صِلَةِ الأَرْحامِ وقِرَى الأَضْيافِ وحِفْظِ الجِوارِ ونَحو ذلكَ، وأَذْهَبَها وأَبْطَلَها كأَنَّها لَمْ تَكُنْ، وقيلَ: هُمُ العَشْرةُ في وَقْعةِ بَدْرٍ أَطْعَمَ كلُّ واحدٍ منْهُم الجُنْدَ يَوماً[١]، وقيلَ: هو عامٌّ في كلِّ مَنْ صَدَّ وأَعرضَ عن الدُّخُولِ في دِينِ الإِسلامِ أو صَدَّ غَيرَهُ عَنْه[٢]. وحقيقةُ «أَضَلَّها»: جَعَلَها ضَالَّةً ضَائِعَةً ليس لَهَا مَن يَتَقَبَّلُها ويُثيبُ عليها، كالضَّالَّةِ من الإِبلِ الّتي هي بِمَضْيعةٍ لا حافِظَ لَهَا.

لم يرتب أبداً، ولم يدخله شكّ في دينه أبداً، ولا ينله الله بفقرٍ أبداً ولا خوف من سلطانٍ أبداً، ولم يزل محفوظاً من الشكّ والكفر أبداً حتّىٰ يموت، فاذا مات وكل الله في قبره ألف يصلّون في قبره، ويكون ثواب صلاتهم له، ويشيّعونه حتّىٰ يوقفونه موقف الأمن عند الله عزّوجلّ، ويكون في أمان الله وأمان محمد صلّى الله عليه وآله وسلّم»، تمام الخبر».

(١) قاله ابن عباس في تفسيره: ص ٤٢٧. (٢) قاله الطبري في تفسيره: ج ١١ ص ٣٠٤.

وقَوْلُهُ: ﴿وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ ﷺ اختصاصٌ للإيمانِ بما نُـزِّلَ علىٰ رسولِ الله من بين ما يَجب الإيمانُ بِهِ تَعْظيماً لشَأْنِهِ، وإيذاناً بأنَّ الإيمانَ لا يَتمُّ إلَّا بهِ، وَأكّدَ ذلك بالجملةِ الاعتراضيّةِ الّتي هي قَولُهُ: ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾، وقيلَ: معنَاهُ: أنَّ دينَ محمّدٍ ﷺ هو الحقُّ إذْ لا يَرِدُ عليه النَسْخُ وهـو نـاسِخٌ لغَيْرِهِ[1]، ﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ أي: حالَهُم وشأْنَهُم بأَن نَصَرَهُم علىٰ أَعدائِـهِم فـي الدُّنْيا، ويُدْخِلُهُم الجنَّةَ في العُقبىٰ.

﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ، أي: ذلك الأَمْرُ وهو إِضْلالُ أَعْمالِ أَحَـدِ الفَـريقَيْنِ، وتَكـفيرُ سيِّئاتِ الآخرينَ وإِصْلاحُ بالِهِم كائِنٌ بسببِ ٱتِّباعِ هؤلاءِ الباطل وهؤلاءِ الحـقّ، ويجوزُ أَن يكُونَ ﴿ذَٰلِكَ﴾ خَبَرَ مبتدأ محذُوفٍ، أي: الأَمْرُ ذلك بهذا السَّبَبِ، فيكُونُ مَـحَلُّ الجـارِّ والـمجرورِ مـنصُوباً عـلىٰ هـذا الوجـه، ومـرفُوعاً عـلى الأوّلِ، و﴿ٱلْبَٰطِلَ﴾: ما لا يُنْتَفَعُ بهِ، وعن قتادةَ: الباطلُ: الشَّيطانُ[2] ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثلَ ذلكَ الضَّرْبِ ﴿يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ﴾ والضَّميرُ راجِعٌ إلىٰ ﴿النّاس﴾ أو إلى المذكُورينَ، قيلَ: من الفريقَيْنِ[3]، أي: يَضْربُ أمـثَالَهُم للـنَّاسِ لأَجْـلِ النـاسِ ليعتبروا بِهِم، وضَرْبُ المَثَلِ هو في أَنْ جَـعَلَ الإِضْـلالَ مَـثَلًا لِـخَيْبَةِ الكـافرينَ، وإصْلاحَ البالِ مَثَلًا لفَوْزِ المؤْمنينَ، أو: في أَنْ جَعَلَ الحقَّ كأنّه دَعَا المـؤْمنينَ إلىٰ نفسهِ فأَجَابَهُ، والباطلَ كأنّه دَعَا الكافرينَ إلىٰ نفسهِ فأَجَابَهُ.

﴿فَإِذَا لَقِيتُمْ﴾ هو من اللِّقاءِ بمعنَى الحَرْبِ ﴿فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ أَصلُهُ: فاضْرِبُوا الرِّقَابَ ضَرْباً، فحُذِفَ الفِعْلُ وقُدِّمَ المصدرُ وأُنـيبَ مـنابَهُ مـضافاً إلى المـفعولِ،

(١) قاله السمرقندي في تفسيره: ج ٣ ص ٢٣٩.
(٢) في الكشّاف: ج ٤ ص ٣١٥ عن مجاهد.
(٣) قاله الزجّاج في معاني القرآن: ج ٥ ص ٦.

وفيه اَختِصَارٌ مع إعْطاءِ معنى التوكيدِ، لأنَّك تَذْكُرُ المصدرَ وتَدلُّ على الفعلِ بالنَّصبةِ الّتي فيهِ، وضَرْبُ الرِّقَابِ عبارةٌ عن القَتْلِ، لأنَّ الواجبَ أَن يضربَ الرقابَ خاصَّةً دونَ غَيْرِها من الأعضاءِ في القَتْلِ، وإنْ جَازَ الضَّرْبُ في سائرِ المواضِعِ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ﴾ أي: أكثَرْتُم قَتْلَهُم وأَغْلَظْتُمُوه، من: الشَّيءُ الثَّخينُ وهو الغَليظُ، أو: أَثقَلْتُمُوهم بالقَتْلِ والجراحِ حتَّىٰ أَذْهَبْتُم عنْهُم النُّهوضَ ﴿فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ﴾ أي: فأْسُرُوهُمْ وأحْكِمُوا وثَاقَهُم، والوِثَاقُ ـ بالفتحِ والكسْرِ ـ: اسمُ ما يُوثَقُ بهِ ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ هُما منصوبانِ بفِعْلَيْهما مضْمَرَيْنِ أي: فإمَّا تمنُّونَ مَنًّا وإمَّا تَفْدونَ فِدَاءً، والمعنىٰ: التَّخييرُ بعْدَ الأَسْرِ بين أَن يَمُنُّوا عليهم فيُطْلِقُوهُم، وبين أَن يُفَادُوهُم بأُسَارَى المسلمينَ أو بالمَالِ.

والمَرويُّ [١] عن أئمّتنا عليهم السلام: أنَّ الأُسارىٰ ضَرْبَانِ: ضَرْبٌ يؤْخَذُونَ قبلَ اَنقضاءِ القتالِ والحَرْبُ قَائِمَةٌ، فالإمامُ مُخيَّرٌ فيهم بين أَن يقْتُلَهُم أو يَقْطَعَ أَيدِيَهُم وأَرْجُلَهُم من خِلَافٍ، وضَرْبٌ يؤْخَذُونَ بعد اَنقضاءِ القتالِ، فالإمامُ مُخيَّرٌ فيهم بين المنِّ والفِدَاءِ: إمَّا بالمالِ أو بالنَّفْسِ، وبين الاسترقَاقِ، وبين ضَرْبِ الرِّقاب [٢].

﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ وأَوزَارُ الحَربِ: آلاتُها وأَثْقالُها الّتي لا تقُومُ إلَّا بها كالسِّلاحِ والكُرَاعِ [٣]. وسمِّيتْ أوزَارَها لأنَّها لَمْ يكنْ لها بدٌّ من جرِّها فكأنَّها تَحملُها. فإذا اَنقضَتْ فكأَنَّها وَضعَتْها، وقيلَ: أوزارُها: آثَامُها، يعني: حتَّىٰ يترك أَهلُ الحَرْبِ ـ وهم المشركُونَ ـ شِرْكَهُم ومعاصيَهُم بأن يُسْلِمُوا فَلَا يبقىٰ إلَّا الإسلامُ خَيرُ الأديانِ، ولا يُعبَدُ الأَوثانُ [٤]. وعن الفرَّاءِ: حتَّىٰ لا يبقىٰ إلَّا مسْلِمٌ

(١) أُنظر الكافي: ج ٥ ص ٣٢ ح ١. (٢) أُنظر التبيان: ج ٩ ص ٢٩١.
(٣) الكُرَاع: السلاح، وقيل: هو اسم يجمع الخيل والسلاح. (لسان العرب: مادة كرع).
(٤) قاله الكلبي. راجع تفسير الماوردي: ج ٥ ص ٢٩٣.

أو مُسَالِم[١]. وعن الزجّاج: يعني: اقتلوهم وأسروهم حتّىٰ يؤمنوا، فما دامَ الكُفْرُ باقٍ فالحَرْبُ قائمةٌ أبداً[٢] ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الأَمْرُ ذلك، أو: افعلُوا ذلك ﴿وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ﴾ ببعضِ أسبابِ الهلاكِ من خَسْفٍ أو رجْفَةٍ أو حَاصِبٍ أو غَرَقٍ أو مَوتٍ خارقٍ ﴿وَلَٰكِن﴾ أمَرَكُم بقتَالِهِم ﴿لِّيَبْلُوَاْ﴾ المؤمنينَ بالكافرينَ بأَنْ يجاهِدُوا ويَصبروا، أو: يبذلُوا أنفسَهُم في إحياءِ الدينِ حتّىٰ يَستوجبُوا الثَّوابَ العظيم «وَالَّذِينَ قَاتَلُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ»[٣] أي جاهَدُوا. وقُرِئ: ﴿قُتِلُوا﴾، ﴿فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ بلْ يتقبَّلُها ويُثيبُهُم عليها جَزيلَ الثَّوابِ.

﴿سَيَهْدِيهِمْ﴾ إلىٰ طريقِ الجنَّةِ ﴿وَيُصْلِحُ﴾ حالَهُم. ﴿عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ أَعْلَمَها لَهُم وبَيَّنَها بما يَعْلَمُ بهِ كلُّ أَحَدٍ منزلتَهُ ودرجَتَهُ من الجنّةِ، وعن مجاهدٍ: يهتدي أهلُ الجنَّةِ إلىٰ مساكِنِهم لا يَخْطِئُونَ، كأَنَّهم كانُوا سكَّانَها منذ خُلِقُوا[٤]. وعن مقاتلٍ: أنَّ المَلَكَ الّذي وُكِّلَ بحِفْظِ عَمَلِهِ في الدُّنيا يمشي بين يديهِ فيعرِّفُهُ كلَّ شيءٍ أَعْطاهُ الله[٥]. وقيلَ: معناهُ: طيَّبَها لَهُم، مِنَ العَرْفِ وهو طِيبُ الرائحة[٦].

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ(٧) وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ(٨) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَـٰلَهُمْ(٩) أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَـٰفِرِينَ أَمْثَـٰلُهَا(١٠) ذَٰلِكَ بِأَنَّ

(١) معاني القرآن للفرّاء: ج ٣ ص ٥٧. (٢) معاني القرآن وإعرابه: ج ٥ ص ٦.

(٣) الظاهر من العبارة أنّ المصنّف رحمه الله يميل إلىٰ هذه القراءة هنا «قَاتَلُوا» بألف بعد القاف مع فتحها وهي قراءة الجمهور إلّا حفصاً وأبا عمرو. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٦٠٠.

(٤) حكاه عنه الطبري في تفسيره: ج ١١ ص ٣١٠.

(٥) حكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٣١٨.

(٦) قاله ابن عباس. راجع تفسير البغوي: ج ٤ ص ١٧٩.

ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ(١١) إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ(١٢) وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ(١٣) أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم(١٤)﴾

﴿إِن تَنصُرُواْ﴾ دينَ ٱللهِ ﴿يَنصُرْكُمْ﴾ علىٰ عدوِّكُم ﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ في مواطنِ الحَرْبِ، أو: علىٰ محجَّةِ الإسلامِ. ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ مبتدأٌ ﴿وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ عَطْفٌ على الفعل الّذي هو الخبَرُ، وٱنتَصَبَ بهِ ﴿تَعْساً﴾ أي: فَقُضِيَ تَعْساً لَهُم، أو: فَقَالَ: تَعْساً لَهُم أي: أَتْعَسَهُم اللهُ فَتَعِسُوا تَعْساً، ونَقيضُ «تَعْساً له»: لعاً لَهُ، قَالَ الأعشىٰ:

فالتَّعْسُ أَولىٰ لَهَا مِنْ أَن يُقَالَ لَعا[١]

والمُراد: فالعثورُ والانحطاطُ أقربُ لها من الانتعاشِ والثبوتِ، وعن ٱبنِ عبّاسٍ: يريدُ في الدُّنيا القَتْل وفي الآخرةِ التردِّي في النّار[٢]. ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ﴾ القُرآنَ و ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللهُ﴾ فيهِ من الأَحكام، لأنَّهم قد أَلِفوا الإهْمَالَ فَشَقَّ عليهم التَّكاليف. قَالَ الباقرُ عليه السلام: «كَرِهُوا ما أَنزَلَ اللهُ في عليٍّ عليه السلام»[٣].

﴿دَمَّرَ ٱللهُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: أَهْلَكَهُم، ومعناهُ: دَمَّرَ عليهم وأَهْلَكَ ما ٱخْتَصَّ بِهِم من أنفسِهِم وأَولادِهِم وأَمْوالِهِم ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا﴾ الضَّميرُ للعاقبةِ المذكُورةِ، أو:

---

(١) وصدره: بذاتِ لَوْثٍ عَفَرناةٍ إذا عَثَرَتْ. والبيت من قصيدة يمدح بها هوذة بن علي الحنفي، ويثني على من عزم زيارته. راجع ديوان الاعشىٰ: ص ١١١.

(٢) حكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٣١٩.

(٣) تفسير القمي: ج ٢ ص ٣٠٢.

للهَلَكَةِ؛ لأنَّ التَّدميرَ يدلُّ عليها. ﴿ذَٰلِكَ﴾ الّذي فَعَلْنَاهُ بـالفريقَيْنِ بِسـببِ ﴿أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: وَلِيُّهُم ونَاصِرُهم والدَّافِعُ عَنْهم، ﴿وَأَنَّ ٱلْكَـٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ يَنْصُرُهُم ويَدْفَعُ عَنْهم.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ﴾ ويـنتفعُونَ بـمتَاعِ الحـياةِ الدُّنـيا أيّـاماً قَـلائِل ﴿وَيَأْكُلُونَ﴾ غافلينَ غَيْرَ مفكِّرينَ في العاقبةِ ﴿كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَـٰمُ﴾ في مَسَارِحِها ومَعَالِفِها غافلةً عمَّا هِيَ بصدَدِهِ من الذَّبْحِ والنَّحْرِ ﴿وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ أي: مَنْزِلٌ لَهُم ومَقَامٌ.

﴿مِنْ قَرْيَةٍ﴾ أي: أهلِ قَريةٍ، ولذلك قَالَ: ﴿أَهْلَكْنَـٰهُمْ﴾، فكأنَّهُ قَالَ: وكَمْ من قومٍ هُم أشدُّ قُوَّةٍ مـن قـومِكَ الّذيـن أخْـرجُـوكَ مـن مكّـةَ أَهْـلَكْنَاهُم، ومـعنىٰ «أَخْرَجُوك»: كانُوا سَبَبَ خُروجِكَ ﴿فَـلَا نَـاصِرَ لَـهُمْ﴾ يَـجْري مَـجْرى الحَـالِ المَحْكيّةِ بمعنىٰ: فَهُمْ لا يُنْصَرونَ.

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ أي: علىٰ حجَّةٍ من عند ربِّهِ وبُـرْهانٍ وهـي القُرآنُ المُعْجِزُ وسائرُ المُعْجِزاتِ، يُريدُ: رسولَ الله ﷺ ﴿كَمَنْ زُيِّـنَ لَـهُ سُوءُ عَمَلِهِ﴾ يريدُ: أهلَ مكّةَ الّذين زَيَّنَ لَهُم الشَّيطانُ شِرْكَهُم وعَدَاوَتَهُم للهِ ولرسـولِه، وقَالَ: ﴿سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ و ﴿اتَّبَعُوٓاْ﴾ حَمْلًا علىٰ لَفْظِ «مَنْ» ومعنَاهُ.

﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَـٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَـٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّـٰرِبِينَ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَـٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ(١٥) وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ(١٦) وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ

زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَـٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ(١٧) فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ(١٨) فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ(١٩) وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ(٢٠)﴾

قَوْلُهُ: ﴿مَثَلُ ٱلْجَنَّةِ... كَمَنْ هُوَ خَـٰلِدٌ﴾ كَلامٌ في صُورةِ الإِثْباتِ، والمعنىٰ: النَّفْيُ والإِنْكارُ؛ لانطوائِهِ تحتَ كلامٍ مُصدَّرٍ بحَرْفِ الإِنْكارِ ودخُولِهِ في حيِّزِهِ، وهو قَولُهُ: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَـمَلِهِ﴾ فكأنَّه قَالَ: أَمَثَلُ الجـنَّةِ كَمَثَلِ جَزاءِ مَن هو خَالِدٌ في النَّارِ، وفي تَعْريتِهِ من حَرفِ الإِنْكارِ زيادةُ تَصويرٍ لمُكَابرةِ مَنْ يُسَوِّي بين المتمسِّكِ بالبيِّنةِ والمتَّبعِ لِهَواهُ، وأنَّه بمنزلةِ مَن يسوِّي بين الجنَّةِ الّتي فيها تلك الأنْهارِ وبين النَّارِ الّتي يُسْقَىٰ أَهلُها الحَـميمُ، ونَـظيرُهُ قَـولُ القائلِ:

أَفْـرَحُ أَنْ ارزَأَ الكِـرامَ وَأَنْ أُوْرَثَ ذَوْداً شَصَائِصاً نُبَلا(١)

فإنَّه إنْكارٌ للفَرَحِ بِرزئَةِ الكِرَامِ ووراثةِ الذَّودِ مَعَ تَعرِّي الكَـلامِ عـن حَـرْفِ الإِنْكارِ، لانطوائِهِ تحتَ حُكْمِ قَوْلِ مَن قَالَ لَهُ: أَتَفرحُ بمَوْتِ أخيكَ وبورَاثةِ إِبلِهِ؟ فَكأنَّهُ قَالَ: أَمِثْلي يَفْرحُ بذلك! وهو من التَّسليمِ الَّذي تَحتَهُ كلُّ إنْكـارٍ، و ﴿مَـثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾ صِفَةُ الجنَّةِ العجيبةِ الشَّأْنِ، وهو مبتدأٌ وخَبَرُهُ ﴿كَمَنْ هُوَ خَـٰلِدٌ﴾، وقَـولُهُ: ﴿فِيهَا أَنْهَـٰرٌ﴾ داخِلٌ في حُكْمِ الصِّلَةِ كالتَّكريرِ لَهَا. ويجوزُ أن يكُونَ فـي مـحلِّ

---

(١) البيت منسوب لحضرمي بن عامر من أبيات يخاطب بها جَزْءَ بن سنان حين اتّهمه بفرحه وسرور بأخذ دية أخيه القتيل. راجع شرح شواهد الكشّاف للأفندي: ص ٢٧١.

النَّصْبِ على الحالِ، أي: مستقَرَّةً فيها أنْهارٌ. وفي قراءةِ عليٍّ عليه السلام: «أَمثالُ الجنَّةِ»[١] أي: ما صِفَاتُها كَصِفَاتِ النَّارِ، وقُرئ: «أَسِنٌ»[٢] يقَالُ: أَسَنَ الماءُ وَأَجَنَ: إذا تَغيَّرَ طَعْمُهُ وريحُهُ، فهو آسِنٌ وأَسِنٌ. ﴿مِن لَّبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ﴾ كما يَتَغَيَّرُ أَلْبانُ الدنيا، فلا يَصيرُ قَارِصاً ولا حَازِراً[٣] ﴿لَذَّةٍ﴾ تأْنيثُ «لَذٍّ» وهو اللذيذُ، أو: وُصِفَ بمصْدَرٍ أي: يَلْتَذُّونَ بها ولا يَتَأَذَّونَ بعاقبتِها بخِلافِ خَمْرِ الدُّنيا الّتي لا تخلُو من المرارةِ والخُمارِ والصُّداعِ ﴿مُصَفًّى﴾ أي: خَالِصٌ من الشَّمْعِ والقَذَىٰ والأَذَىٰ ﴿وَلَهُمْ﴾ مع ذلكَ ﴿فِيهَا مِنْ كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ أي: سِتْرٌ لذنُوبِهِم وإنْساءٌ لسيِّئاتِهِم، حتَّىٰ لا يَتَنَغَّصَ عليهِم النَّعيمُ ﴿وَسُقُواْ مَآءً حَمِيماً﴾ شَديدَ الحَرِّ، رُوِيَ: أنَّه إذا دُنِيَ منْهُم شَوَىٰ وجُوهَهُم وٱنمازَتْ فَروةُ رؤوسِهِم، فإذا شَرِبُوهُ قَطَّعَ أَمْعاءَهُم[٤].

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ وَهُم المنافقُونَ، أي: يستمعونَ إلى كلامِكَ فَيسْمَعُونَهُ ولا يَعُونَهُ، فإذا ﴿خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ﴾ آتاهُم اللهُ ﴿ٱلْعِلْمَ﴾ من المؤْمنينَ ﴿مَاذَا قَالَ ءَانِفاً﴾ أيَّ شَيءٍ قَالَ السَّاعةَ؟ وإنَّما قالُوهُ ٱستهزاءً وقلَّةَ مُبالاةٍ بِهِ، يعنُونَ: أنَّا لَمْ نَشْتَغِلْ بوَعْيِهِ وَفَهْمِهِ، قَالَ الزجَّاجُ: هو مِن [قَولك:] استَأْنفْتُ الشيءَ إذا ٱبتَدَأْتُهُ، والمعنىٰ: ماذا قَالَ في أوَّلِ وَقْتٍ يَقْرُبُ مِنَّا؟![٥]

وعن الأَصْبغِ بنِ نباتةَ عن عليٍّ عليه السلام قَالَ: إنَّا كُنَّا عند رسولِ ٱللهِ صلى الله عليه وآله وسلم فيُخبِرُنا بالوحْيِ، فأَعِيهِ أَنَا وَمَن يَعِيه، فإذا خَرَجْنا قَالُوا: ماذا قَالَ آنفاً.

---

(١) حكاه عنه عليه السلام الفرَّاء في معاني القرآن: ج ٣ ص ٦٠.

(٢) وهي قراءة ابن كثير وحده. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٦٠٠.

(٣) قال الجوهري: القارصُ: اللَّبَنُ الذي يَحْذِي اللسان، وفي المثل: «عَدَا القَارِصُ فَحَزَرَ» أي: جاوز إلّا أن حَمُضَ. الصحاح: مادة «قرص».

(٤) رواه الطبري في تفسيره: ج ١١ ص ٣١٥ باسناده الى أبي أُمامة الباهلي.

(٥) معاني القرآن وإعرابه: ج ٥ ص ١٠.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ﴾ الله ﴿هُدًى﴾ بالتَّوفيقِ ﴿وَءَاتَىٰهُمْ﴾ جَزاءَ ﴿تَقْوَىٰهُمْ﴾، أو: أعانَهُم عليها، وقيلَ: الضَّميرُ في ﴿زَادَهُمْ﴾ لقولِ الرسولِ، أو: لاستهزاءِ المنافقينَ أي: زادَهُم ٱستهزاؤُهُم بصيرةً وتَصديقاً لنبيِّهم[1].

﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ﴾ أي: ينتظرونَ ﴿أَن تَأْتِيَهُمْ﴾ بَدَلُ ٱشتمالٍ من ﴿السَّاعَةَ﴾ ،﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾ أي: عَلاماتُها، وقيلَ: هي مَبْعَثُ محمّدٍ خاتَمِ الأنبياءِ صلوات الله عليه وآله ونُزُولُ آخرِ الكُتُبِ وٱنشقَاقُ القَمَرِ والدُّخَانُ[2]، وقيلَ: قَطْعُ الأرحامِ وشَهادةُ الزُّورِ وكَثْرةُ اللئامِ وقِلَّةُ الكِرَام[3] ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ﴾ أي: فَمن أَيْنَ لَهُم وكيفَ لَهُم الذِّكْرَىٰ والاتِّعاظُ والتَّوبةُ ﴿إِذَا جَآءَتْهُمْ﴾ السَّاعةُ؟ أي: لا تَنْفَعُهُم الذكرىٰ يَومَئذٍ.

ثمَّ خاطَبَ النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم والمُرادُ أُمَّتُهُ قَالَ: إذا عَلِمْتَ سعادةَ هؤلاءِ وشقَاوةَ هؤلاءِ فاثبتْ علىٰ ما أنْتَ عليهِ من العِلْمِ بوحدانيَّة ٱلله عزَّ ٱسمُهُ وعلى التَّواضعِ وهَضْمِ النَّفْسِ بالاستغفار ﴿لِذَنۢبِكَ﴾ مَعَ كَمالِ عِصْمَتِكَ لِتَسْتَنَّ أُمَّتُكَ بسُنَّتِكَ ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ أَمَرَهُ بالاستغفارِ لذنُوبِهِم تكرمةً لَهُم، إذْ هو الشَّفيعُ المُجَابُ فيهم ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ﴾ في معايشِكُم ومتَاجِرِكم ﴿وَمَثْوَىٰكُمْ﴾ ومستَقَرَّكُم في[4] منازلِكُم، أو: متقَلَّبَكُم في حياتِكم ومثْواكُم في القُبُورِ أو: في[5] الجنَّةِ والنَّارِ، أو: متقلَّبَكُم في أَصْلابِ الآباءِ إلىٰ أَرْحامِ الأمَّهاتِ ومقَامكُم في الأَرضِ، ومثلُهُ حقيقٌ بأَن يُتَّقىٰ ويُخشىٰ.

---

(١) حكاه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٣٢٣.

(٢) قاله الحسن والضحّاك. راجع تفسير الماوردي: ج ٥ ص ٢٩٩.

(٣) قاله الكلبي. راجع الكشّاف: ج ٤ ص ٣٢٣.

(٤ و ٥) في بعض النسخ: «من» بدل «في».

وسُئِلَ سُفْيانُ بنُ عيينةَ عن فَضْلِ العِلْمِ فقَالَ: أَلَمْ تَسْمَعْ قولَهُ حينَ بَدأَ بِه: ﴿فاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ فـ﴿ٱسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ فأَمر بالعَمَلِ بعدَ العِلْمِ، وقَالَ: ﴿اعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَاةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ [١] ثمَّ قال: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ﴾ [٢]، وقَالَ: ﴿وَٱعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [٣] ثمَّ قَالَ: ﴿فَاحْذَرُوهُمْ﴾ [٤] [٥].

﴿لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ أي: هَلَّا نَزَلَتْ سُورةٌ، كانُوا يدَّعُونَ الحِرْصَ على الجهادِ ويقُولُونَ: هلَّا نَزَلَتْ سورةٌ في معنَى الجهادِ ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ﴾ مُبيِّنَةٌ غيْرُ متشابهةٍ، وأَوْجَبَ عليهم فيها القِتالَ وأُمِرُوا بِهِ ﴿رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾ شَكٌّ ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ أي: يَشْخصُونَ نَحْوَكَ بأَبْصارِهِم ﴿نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ كَمَا يَنْظُرُ مَن أَصَابتهُ الغشْيةُ عند المَوْتِ جُبْناً وَهَلَعاً، ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ وَعِيدٌ بمعنىٰ: فَوَيْلٌ لَهُم، وهو أَفعلُ من الوَلْيِ وهو القُرْبُ، ومعنَاهُ: وَلِيهُم وقَارَبَهم ما يَكْرهُونَ.

﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ(٢١) فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ(٢٢) أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَـٰرَهُمْ(٢٣) أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ(٢٤) إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَـٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ(٢٥) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ(٢٦) فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ

(١ و٢) الحديد: ٢٠ و ٢١. (٣) الأنفال: ٢٨.
(٤) التغابن: ١٤.
(٥) حكاه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٣٢٤.

وَأَدْبَـٰرَهُمْ (٢٧) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّـهَ وَكَرِهُواْ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَـٰلَهُمْ (٢٨) أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَـٰنَهُمْ (٢٩) وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَـٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَـٰهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ وَٱللَّـهُ يَعْلَمُ أَعْمَـٰلَكُمْ (٣٠) وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰبِرِينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ (٣١)﴾

هذا ٱستئنافُ كلامٍ، أي: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ خيْرٌ لَهُم، وقيلَ: هي حكايةُ قَولِهِم[(١)] يعني: قَالُوا: طاعةٌ وقَولٌ معروفٌ، أي: أَمْرُنا طاعةٌ وقَولٌ معروفٌ، أي: حُسْنٌ لا تُنْكِرُهُ العُقُول ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلأَمْرُ﴾ أي: جَدَّ، وإنَّما العَزْمُ والجدُّ لأَصْحابِ الأَمْرِ، وأُسْنِدَ إلى الأَمْرِ مَجَازاً ﴿فَلَوْ صَدَقُواْ﴾ فيما زَعَمُوا من الحِرْصِ على الجهادِ، أو: في إيمانِهِم بأَن يُواطئَ فيهِ قُلُوبُهُم ألسنَتَهُم ﴿لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ﴾ من نفاقِهِم.

﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ﴾ أي: يتوقّعُ منكم يا معْشَرَ المنافقينَ ﴿إِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ أي: تَسَلَّطْتُم ومَلَكْتُم أُمورَ النَّاسِ وتَأَمَّرْتُم عليهِم وجُعِلْتُمْ ولاَةً ﴿أَنْ تُفْسِدُواْ فِى ٱلأَرْضِ﴾ بسَفْكِ الدمِ الحَرامِ وأَخْذِ الرُّشَا ﴿وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ﴾ تَهَالُكاً على مُلْكِ الدنيا، فَيَقْتُلُ بعضُكُم بَعْضاً، ويَقْطَعُ بعضُكُم رَحِمَ بَعْضٍ. ﴿أُولَـٰئِكَ﴾ إشارةٌ إلى المذكُورينَ الذينَ لَعَنَهُم اللهُ لإفْسادِهِم في الأَرْضِ وقَطْعِهِم الأَرْحامَ، فَمَنَعَهُم ٱلطافَهُ وخَذَلَهُم حتَّىٰ صُمُّوا عن ٱستماعِ الموعظةِ، وعُمُوا عن إبْصَارِ طريقِ الهُدىٰ.

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ ويَتَصَفَّحُونَهُ ويعتبرونَ بِهِ ويقْضُونَ ما عليهم من الحُقُوقِ ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ هي «أَمْ» المنْقَطِعةُ، ومعنى الهمزةِ فيهِ: التَّسجيلُ عليهِم بأَنَّ قلوبَهُم مقفَلَةٌ لا يتوصَّلُ إليها ذِكْرٌ، ومعنى تَنكيرِ القُلُوبِ: أَنَّها قُلُوبٌ

(١) قاله ابن عيسىٰ. راجع تفسير الماوردي: ج ٥ ص ٣٠١.

قَاسيةٌ مُبْهَمٌ أمرُهَا، أو: بعض القُلُوبِ وهي قُلُوبِ المنافقينَ. وأمَّا إضافةُ الأقْفالِ إليها فلأَنَّ المُرادَ الأقْفالُ المختصَّةُ بهَا، وهي أَقْفالُ الكُفْرِ الّتي ٱستغْلقَتْ فَلَا تفتحُ.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَارِهِمْ﴾ بأَن رَجعُوا عن الحقِّ والإيمانِ ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى﴾ وظَهَرَ لَهُم طريقُ الحقِّ ﴿ٱلشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾ جُملةٌ من مبتدأ وخَبَرٍ، وَقَعَتْ خَبَراً لـ﴿إِنَّ﴾ ومعناهُ: الشَّيطانُ سَوَّلَ لَهُم ركُوبَ العَظَائِمِ من الذُّنُوبِ، من السَّوْلِ وهو الاسترخَاءُ ﴿وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ وَمَدَّ لَهُم في الآمالِ.

﴿ذَٰلِكَ﴾ بسببِ ﴿أَنَّهُمْ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ﴾ من القُرآنِ، وعن الصَّادقِ عليه السلام : في ولايةِ عليٍّ عليه السلام [1]. ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ﴾ أي: في بعضِ ما تأمرونَ بِهِ وتُريدونَهُ «وَٱللَّهُ يَعلَمُ أَسْرَارَهُمْ» وقُرِئَ: ﴿إِسْرَارَهُم﴾ بكسرِ الهمزةِ[2]، أي: ما أَسَرَّهُ بعضُهُم إلىٰ بعضٍ من القَوْلِ، وما أَسَرُّوهُ في أنفسِهِم من الاعتقاد. ﴿فَكَيْفَ﴾ يعملُونَ وما حيلتُهُم ﴿إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ وقَبضَتْ أرواحَهُم ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾؟؟ ﴿ذَٰلِكَ﴾ التَّوفِّي الموصُوفُ ﴿بِـ﴾ تلْكَ الصِّفَةِ بسببِ ﴿أَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ ٱللَّهَ﴾ من عظائمِ الأُمُورِ، ﴿وَكَرِهُواْ رِضْوَٰنَهُ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ الّتي كانُوا يعملُونَها من صلاةٍ وغيرِها لأَنَّها في غيرِ إيمانٍ.

بَلْ ﴿أَحَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ﴾ أحقادَهُم على المؤْمنينَ، وإخْراجُها: إبْرازُها لرسولِ ٱللهِ وللمؤْمنينَ المخلصينَ، وإظْهارُهُم علىٰ نفاقِهِم. ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ﴾ يا محمّد حتّىٰ تَعرِفَهُم بأَعْيانِهِم، وقولُهُ: ﴿فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَٰهُمْ﴾ بعَلَامَتِهِم، وعن أَنَسٍ: ما خَفِيَ علىٰ رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم بعد

(١) الكافي: ج ١ ص ٤٢٠ ح ٤٣.

(٢) الظاهر أنّ المصنّف رحمه الله يعتمد على قراءة فتح الهمزة هنا تبعاً لصاحب الكشّاف.

هذه الآية أَحَدٌ من المنافقينَ، وكانَ يعرِفُهُم بسيمَاهُم [١].

والفَرْقُ بين اللّامَيْنِ في: ﴿فَلَعَرَفْتَهُمْ﴾، ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُم﴾: أنَّ الأُولىٰ هي الداخلةُ في جَوابِ «لَوْ» كالّتي في ﴿لَأَرَيْنَـٰكَهُمْ﴾ ثمَّ كُرِّرَتْ في المعطُوفِ، واللّامُ في ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُم﴾ وَقَعَتْ مع النُّونِ في جَوابِ القَسَمِ المحذُوفِ، ﴿فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ أي: تَعْرِفُهُم في فَحْوىٰ كلامِهِم ومَغْزَاهُ ومَعْنَاهُ، وعن أبي سعيدٍ الخُدْريِّ: لحنُ القَوْلِ: بُغْضُهُمْ عليَّ بْنَ أبي طالبعليه السلام [٢]. وعن جابرٍ مثلُه [٣].

وعن عبادةَ بن الصَّامتِ: كنَّا نَبُورُ [٤] أولادَنا بِحُبِّ عليّ بن أبي طالبعليه السلام، فإذا رأَيْنَا أحدَهُم لا يحبُّهُ عَلِمْنَا أنَّه لغَيْرِ رَشْدَةٍ [٥].

وقيلَ: اللَّحْنُ أَن تَلْحَنَ بكلامِكَ أي: تمِيلُهُ إلىٰ نَحْوٍ من الأنْحاءِ ليتفطَّنَ لَهُ صَاحِبُكَ كالتَّعريضِ والتَّوريةِ [٦]، قالَ:

وَلَقَد لَحَنْتُ لكُم لِكَيْما تَفْقَهوا ... واللَّحْنُ يَعرِفُهُ ذَوو الأَلْبابِ [٧]

---

(١) حكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٣٢٧.

(٢) أخرجه عنه ابن المغازلي الشافعي في المناقب: ص ٣١٥، والسيوطي في الدّر المنثور: ج ٧ ص ٥٠٤ وعزاه الى ابن مردويه وابن عساكر. وأخرج أيضاً عن ابن مسعود قال: ما كنّا نعرف المنافقين على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلّا ببغضهم علي بن أبي طالب.

(٣) أخرجه عنه الحافظ أحمد في الفضائل: ص ١٧١، والذهبي في التذكرة: ج ١ ص ٢٦٢، وابن عبدالبرّ في الاستيعاب: ج ٢ ص ٤٦٤.

(٤) بارَهُ يَبُورُه: أي جرَّبه واختبره، والابتيار مثله. (الصحاح: مادة بور).

(٥) أخرجه عنه الجزري الشافعي في أسنى المطالب: ص ٥٧ و في أسمى المناقب: ص ٥٦، وابن عساكر في تاريخ دمشق: ج ٢ ص ٢٢٤، والعيني في مناقب عليعليه السلام: ص ٤٢، والهروي في كتاب الأربعين: ص ٥٤.

(٦) قاله محمد بن يزيد. راجع إعراب القرآن للنحّاس: ج ٥ ص ١٩١.

(٧) وكذا في الكشّاف، وفي الصحاح واللسان:

ولقد وَحَيْتُ لكم لكي ما تَفْهموا ... ولَحَنْتُ لَحناً ليس بالمرتابِ

للقتّال الكلابي. أُنظر الصحاح واللسان: مادة «لحن».

وإنَّما قيلَ للمُخْطِئ: لاَحِنٌ؛ لأنَّه يَعْدِلُ بكلامِهِ عن الصَّوابِ. ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ بمشَاقِّ الأُمورِ والتَّكاليف.

وعن الفُضَيْل أنَّه كانَ إذا قَرأَها بكىٰ وقَالَ: اللَّهمَّ لا تَبْلُنَا فإنَّكَ إنْ بَلَوْتَنا فَضَحْتَنا وهَتَكْتَ أستَارَنَا وعذَّبْتَنا[١].

﴿وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ أي: ما يُحْكىٰ عنكُم وما يُخْبَرُ بِهِ عن أَعْمَالِكُم لِنَعْلَمَ حَسَنَهُ من قَبيحِهِ، لأنَّ الخبَرَ علىٰ حَسْبِ المُخْبَرِ عنْهُ. وقُرئ: «وَلَيَبْلُوَنَّكُم» و «يَعْلَمَ» و«يَبْلُو» بالياءِ[٢]، وهو قِراءَةُ الباقرِ عليه السلام، وقُرئ: «وَنَبلُوْ» بالنُّونِ وسكُونِ الواوِ[٣]، والنُّونُ علىٰ معنىٰ: ونَحْنُ نَبْلُو.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَـٰلَهُمْ(٣٢) يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَـٰلَكُمْ(٣٣) إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ(٣٤) فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ(٣٥) إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ(٣٦) إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُواْ وَيُخْرِجْ أَضْغَـٰنَكُمْ(٣٧) هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَـٰلَكُم(٣٨)﴾

---

(١) حكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٣٢٨.

(٢) وهي قراءة عاصم وحده برواية أبي بكر. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٦٠١.

(٣) قرأه رويس وحده. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٦٨٥.

﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ﴾ وظَهَرَ لهم الحقُّ إنَّما ضَرُّوا أنْفُسَهم[١]، و ﴿لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ﴾ بذلكَ ﴿وَسَيُحۡبِطُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ الّتي عَمَلُوها فلا يَرَونَ لها في الآخرةِ ثَواباً.

﴿وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾ بمعصيةِ ٱللهِ والرَّسُولِ، أو: بالشَكِّ والنِّفاقِ. وعن ٱبنِ عبّاسٍ: لا تُبْطِلُوها بالرياءِ والسُّمْعَةِ[٢]. ﴿فَلَا تَهِنُواْ﴾ أي: فلا تَضْعُفُوا ولا تَتَوانوا في قتالِ أعداءِ ٱللهِ، ﴿وَ﴾ لا ﴿تَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلۡمِ﴾ قُرِئ بالفَتْحِ والكسرِ[٣] وهُما المُسَالَمَةُ ﴿وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ﴾ أي: الأغْلبُونَ الأقْهَرون، وقيلَ: إنَّ الواو للحالِ، أي: لا تَدعُوهُم إلى الصُّلْحِ والحَالُ أنَّكم الغَالِبُونَ القَاهِرون لهم، و ﴿تَدۡعُوٓاْ﴾ مجْزُومٌ لدخُولِهِ في حُكْمِ النَّهي كما ذكَرْنا، ويجوزُ أن يكونَ منصوباً بإضْمارِ «أنْ». ﴿وَلَن يَتِرَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾ هو من: وتَرْتُ الرَّجُلَ إذا قَتَلْتُ لهُ قتيلاً أو حَرَبْتُهُ[٤]، وحقيقتُهُ: أفردْتُهُ مِنْ حَميمِهِ أو مَالِهِ، من الوترِ وهو الفَرْدُ.

ومنْهُ قولُ النبيِّ ﷺ: «ومَنْ فاتَتْهُ صلاةُ العَصْرِ فكأنَّما وَتَرَ أَهْلَهُ ومَالَهُ»[٥]، أي: أفردَ عنهما قَتْلًا ونَهْباً. فَشَبَّهَ سبحانَهُ إضاعةَ عَمَلِ العاملِ وإبْطالِ ثوابِهِ بوِتْرِ الواتِرِ، وهو من فَصيحِ الكلام.

﴿وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤۡتِكُمۡ أُجُورَكُمۡ﴾ أي: ثَوابَ إيمانِكُم وتَقْواكُم ﴿وَلَا يَسۡـَٔلۡكُمۡ أَمۡوَٰلَكُمۡ﴾ أي: ولا يسألْكُم جميعَها في الصَّدَقَةِ، وإنَّما أَوْجَبَ عليكُم الزكاةَ

---

(١) في بعض النسخ: «نفوسهم».

(٢) تفسير ابن عباس: ص ٤٣٠.

(٣) أي بكسر السين، وهي قراءة حمزة وعاصم برواية أبي بكر. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٦٠١.

(٤) حَرَبَه يحرُبُه حرباً: اذا أخذ مالَه وتركه بلا شيء، وحَرَبَ ماله أي: سَلَبَه. (الصحاح: مادة حرب).

(٥) أخرجه مالك في الموطأ: ج ١ ص ١٢ ح ٢١، وابن ماجة في السنن: ج ١ ص ٢٢٤ ح ٦٨٥ بإسنادهما الى ابن عمر.

في بَعْضِها، واقتصر منْهُ على القليلِ وهو رُبْعُ العُشْرِ، وقيلَ: لا يسألُكُم الرسُولُ على أداءِ الرسالةِ أَمْوالَكُم أن تَدْفَعُوها إليه ﴿إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ﴾ أي: فَيُجْهِدْكُم بمسألةِ جَميعِها[١]، والإِحْفَاءُ: المبالغةُ وبُلُوغ الغايةِ في كلِّ شيءٍ، يقَالُ: أَحفَاهُ في المسألةِ إذا لَمْ يَترُكْ شيئاً من الإِلْحَاحِ، ومنْهُ: إحْفَاءُ الشَّاربِ وهو استِئْصَالُ شَعْرهِ ﴿تَبْخَلُواْ وَيُخْرِجْ أَضْغَـٰنَكُمْ﴾ أي: تَضْطَغنُونَ على رسولِ ٱللهِ وتَضيقُ صدُورُكُم لذلكَ، والضَّميرُ في ﴿يُخرِجْ﴾ للهِ عزَّوجلَّ، أي: يضغنُكُم بطَلَبِ أموالِكُم، أو: للبُخْلِ لأنَّه سَبَبُ الاضطغَانِ.

﴿هَٰؤُلَآءِ﴾ موصولٌ صِلَتُهُ ﴿تُدْعَوْنَ﴾، أي: ها أنتم الّذين تُدْعَونَ، أو: أَنتُم يا مُخاطَبونَ هؤلاء الموصُوفُون، ثمّ استأْنَفَ وَصْفَهُم، كأنَّهم قالُوا: وما وَصْفُنا؟ فقَالَ: ﴿تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللهِ﴾ كأنَّه قيلَ: الدليلُ علىٰ أنَّه لو أَحْفَاكُم لَبَخِلْتُمْ وكَرِهتُم العطاءَ واضْطَغَنْتُم أنَّكُم تُدعَونَ إلىٰ أَداءِ رُبْعِ العُشْرِ، فمنْكُم ناسٌ يَبْخلُونَ بهِ، ثمَّ قَالَ: ﴿وَمَنْ يَبْخَلْ﴾ بالصَّدَقةِ وأَداءِ الفريضةِ فلا يَتعدَّاهُ ضَرَرُ بُخْلِهِ، وإنَّما ﴿يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ﴾ إذْ يُلْزِمُها العقابَ الأليمَ ويَحْرِمُها الثَّوابَ العظيمَ، يقَالُ: بَخلْتُ عليهِ وعنْهُ، وضَنَنْتُ عليهِ وعنْهُ. وفي الآيةِ إشارةٌ إلىٰ أنَّ مُعْطِيَ المالَ أَحْوَجُ إليهِ من الفَقيرِ الآخذِ، فَبُخْلُهُ بِهِ بُخْلٌ علىٰ نفسِهِ. ﴿وَٱللهُ ٱلْغَنِىُّ﴾ عمَّا عنْدَكُم من الأموالِ ﴿وَأَنْتُمْ ٱلْفُقَرَاءُ﴾ إلىٰ ما عنْدَ اللهِ من الرَّحمةِ والثَّوابِ ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْاْ﴾ معطُوفٌ علىٰ ﴿وَإِنْ تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ﴾، ﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ﴾ علىٰ خِلافِ صِفَتِكُم، راغبينَ في الإِيمانِ والتَّقوىٰ، غيْرَ متولِّينَ عنْهُما ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَـٰلَكُمْ﴾ بَلْ خَيراً منْكُم وأطْوَعَ للهِ.

(١) قاله الطبري في تفسيره: ج ١٠ ص ٣٢٨.

رُوِيَ: أنّهم قَالُوا لرسولِ ٱللهِ صلى الله عليه وآله وسلم : مَنْ هؤلاء؟ فَضَرَبَ عليه السلام يَدهُ علىٰ فَخْذِ سلمانَ فَقَالَ: «هذا وقَومُهُ، لَوْ كانَ الإيمانُ منُوطاً بالثُّريَّا لَتَنَاوَله رِجَالٌ مِنْ فَارِس»[١].

وعنْهم عليهم السلام : ﴿إِنْ تَتَوَلَّوْاْ﴾ يا مَعْشَرَ العَرَبِ ﴿يستَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُم﴾ يعني: المَوالي[٢].

❁ ❁ ❁

(١) أخرجه الترمذي في السنن: ج ٥ ص ٣٨٣ ح ٣٢٦٠ بإسناده الى أبي هريرة، والسيوطي في الدر المنثور: ج ٧ ص ٥٠٦ وعزاه الى سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه وعبدالرزاق وعبد بن حميد والطبراني والبيهقي عن أبي هريرة أيضاً وآخر عن جابر.

(٢) أنظر تفسير علي بن إبراهيم القمي: ج ٢ ص ٣٠٩ عن الصّادق عليه السلام .

سُورَةُ الفَتْحِ

مدنيّةٌ[1] وهيَ تِسْعٌ وعشرون آيةً.

في حديثِ أُبيٍّ: «مَنْ قَرَأَ سورةَ الفَتْحِ فكأنَّما شَهِدَ مع محمّدٍ صلى الله عليه وآله وسلم فَتْحَ مكَّة[2]». وفي روايةٍ أُخرى[3]: «فكأنَّما كانَ مع مَنْ بايَعَ محمّداً صلى الله عليه وآله وسلم تحتَ الشَّجَرة»[4].

وعن الصَّادقِ عليه السلام: «حَصِّنُوا أموالَكُم ونساءَكُم وما مَلَكَتْ أَيْمانُكُم من التَّلَفِ بقراءَة ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً﴾ فإنَّه إذا كانَ ممَّنْ يُدْمِنُ قراءَتها نَادَاهُ منَادٍ يوم القيامةِ: أَنْتَ من عبادِيَ المخْلصينَ، أَلْحِقُوهُ بالصَّالحينَ من عبادِي، فَأَسكُنوهُ جنَّاتِ النَّعيمِ، واْسقُوهُ من الرَّحيقِ المختُومِ بمزاجِ الكافُور»[5].

---

(١) قال الشيخ الطوسي في التبيان: ج ٩ ص ٣١٢: مدنيّة بلاخلاف، وهي تسع وعشرون آيةً بلاخلاف.

وفي الكشّاف: ج ٤ ص ٣٣١: مدنيّة، نزلت في الطريق عند الانصراف من الحديبيّة، وآياتها (٢٩)، نزلت بعد الجمعة.

(٢) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٣٤٨ مرسلًا، وكذا الفتني في التذكرة: ص ٨١.

(٣) في نسخة زيادة: «من قرأ هذه السورة كان له بعدد من قام لله راكعاً وساجداً مدائن في الجنّة وما فيها من النعيم من أنواع فضائل الله تعالى، مع ماله عندالله تعالى من المزيد. وفي رواية أخرىٰ».

(٤) التذكرة في الموضوعات للفتني: ص ٨١.

(٥) ثواب الأعمال للصدوق: ص ١٤٢، وفيه «أَدخِلُوه» بدل «أسكِنوهُ».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا(١) لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا(٢) وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا(٣) هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا(٤) لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا(٥) وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَـٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا(٦) وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا(٧)﴾

اختُلِفَ في هذا الفَتحِ، فَقيلَ: هو فَتحُ مكَّةَ وعدَهُ اللهُ ذلك عند آنكِفَائِهِ من الحُدَيبيَّة[١]، وعن جابرٍ: ما كُنّا نعلَمُ فَتْحَ مكَّةَ إلّا يوم الحُدَيبيَّة[٢]. وجاءَ بِهِ علىٰ لَفْظِ الماضي علىٰ عادتِهِ عزَّ اسمُهُ في أخبارِهِ، لأنَّها في تحقُّقِها وتَيقُّنِها بمنزلةِ الكائنةِ الموجُودةِ، وقيلَ: هو فَتْحُ الحديبيَّة[٣]، فُروِيَ: أنَّ رسولَ اللهِ صلّى الله عليه وآله وسلّم لمّا رَجَعَ من الحديبيَّة قالَ رجلٌ من أَصحابِهِ: ما هذا بفَتحٍ، لقد صدُّونا عن البيتِ وصُدَّ هَدْيُنا! فقالَ عليه السلام: «بئْسَ الكلام هذا بلْ هو أعظمُ الفُتُوحِ، قَد رَضِيَ المشركُونَ أن

(١) قاله قتادة. راجع تفسير البغوي: ج ٤ ص ١٨٨.

(٢) حكاه عنه الطبري في تفسيره: ج ١١ ص ٣٣٤.

(٣) قاله أنس وجابر وأبو وائل والبُرَاء بن عازب. راجع تفسير الطبري المتقدّم.

يدفَعُوكُم عن بلادِهِم بالرّاحِ، ويسألُوكُم القضيةَ، ورَغبُوا إليكُم في الأَمانِ، وقدَّرُوا منْكُم ما كَرهُوا»(١). وعن الزُّهريِّ: لَمْ يكُنْ فَتْحٌ أَعْظَمَ من صُلْحِ الحديبيَّة، وذلك أنَّ المشركينَ اختَلَطُوا بالمسلمينَ فَسَمِعُوا كَلامَهُم فَتَمكَّنَ الإِسلامُ في قُلُوبِهِم وأَسْلَمَ في ثَلاثِ سنين خَلْقٌ كثيرٌ كَثُرَ بِهِم سَوَادُ الإِسلامِ(٢).

والحديبيَّةُ بئرٌ نَفَدَ ماؤُها حتَّىٰ لَمْ يَبْقَ فيها قَطرةٌ، فأتَاهَا النبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم فَجَلَسَ علىٰ شَفيرِها ثمَّ دَعَا بإنَاءٍ من ماءٍ فَتَوضَّأَ ثمَّ تَمَضْمَضَ ومَجَّهُ فيها، فَدَرَّتْ بالماءِ حتَّىٰ أَصْدَرَتْ جميعَ مَنْ مَعَهُ ورِكَابَهم(٣).

وعن سالمِ بنِ أبي الجعدِ قَالَ: قُلْتُ لجابِرٍ: كَمْ كنتم يومَ الشَّجرةِ؟ قَالَ: كنَّا ألفاً وخمسمائة، وذَكَرَ عَطَشاً أصابَهُم ثمَّ قَالَ: فأَتَىٰ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم بماءٍ في تَورٍ فَوَضَعَ يَدَهُ فيهِ فَجَعَلَ الماءُ يَخرُجُ من بين أَصَابعِهِ كأنَّه العُيُونُ، قَالَ: فَشَربنَا وسَقَانا وكَفَانا، ولَوْ كنَّا مائةَ ألْفٍ كَفَانا(٤).

وقيلَ: المُرادُ بالفَتْحِ هنا فَتْحُ خَيبر(٥)، وذَكَرَ مجمعُ بنُ حارثةَ الأنصاريُّ ـ وهو أَحَدُ القُرّاء ـ في حديثِهِ: لمَّا انْصَرَفْنا من الحديبيَّة أُوحِيَ إلىٰ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم فَوَجَدْنَاهُ واقِفاً عندَ كراعِ الغَنَم وقرأَ ﴿إِنَّا فَتَحْنَا﴾ السُّورة، فقَالَ عُمَرُ: أَوَ فَتْحٌ هُو؟! قَالَ: «نَعم والَّذي نَفسي بيدِهِ إنَّه لَفَتْحٌ» فقُسِّمَتْ خيبرُ علىٰ أهلِ الحديبيَّة لمْ يَدخُلْ فيها أَحَدٌ إلَّا مَنْ شَهِدَها(٦).

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة: ج ٤ ص ١٦٠.
(٢) حكاه عنه البغوي في تفسيره: ج ٤ ص ١٨٨.
(٣) رواه البراء كما في تفسير البغوي المتقدم.
(٤) أخرجه ابن كثير في تفسيره: ج ٤ ص ١٨٨ وعزاه الى البخاري ومسلم.
(٥) قاله مجاهد. راجع تفسير البغوي المتقدّم آنفاً.
(٦) أخرجه عنه السيوطي في الدّر المنثور: ج ٧ ص ٥٠٨ وعزاه الى ابن أبي شيبة وأحمد ←

﴿لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَـأَخَّرَ﴾ لأَصحابنا فيه وجْهَانِ[1] من التأْويلِ: أَحَدُهُما: أنَّ المُرادَ: يَغْفَر لكَ ما تقدَّمَ من ذَنْبِ أُمَّتِكَ وما تَأَخَّرَ بشَفاعَتِكَ. وحَسُنَتْ إضَافَةُ ذُنُوبِ أُمَّةٍ إليهِ للاتّصالِ بينَهُ وبينَهُم، ويعضدُهُ ما رَواهُ المفضَّلُ بن عُمَرَ عن الصَّادقِ عليه السلام أنَّه سُئِلَ عن هذهِ الآيةِ فَقالَ: وٱللهِ ما كانَ لَهُ ذَنْبٌ ولكن ٱللهَ سبحانَهُ ضَمِنَ لَهُ أَن يَغْفِرَ ذُنُوبَ شيعةِ عليٍّ عليه السلام ما تَقَدَّمَ وما تَأَخَّر.

والآخَرُ: ذكَرَهُ المرتضىٰ[2] قدَّس ٱلله روحَهُ: أنَّ الذَّنْبَ مصدَرٌ، والمصدَرُ يجوزُ إضافَتُهُ إلى الفاعلِ والمفعُولِ، والمُرادُ هنا: ما تَـقَدَّمَ من ذَنْـبِهِم إليك في إخْراجِهِم إيَّاكَ من مكَّةَ وما تَأَخَّرَ من صدِّكَ عن المسجدِ الحرامِ، أي: لِيَغْفِرَ ما أَذْنَبَهُ قومُكَ إليكَ من إخْراجِكَ من مكَّةَ وصَدِّكَ عَنْها، فالذَّنْبُ مضافٌ إلى المفعولِ هنا، ويُعدَّىٰ بنفسِهِ حَمْلًا على الإخْراجِ والصَّدِّ اللَّذَيْنِ هو في معنَاهُما، ولذلك جَعَلَ المغْفِرَةَ عِلَّةً للفَتْحِ وغَرَضاً فيهِ. والمُرادُ بالمغفرةِ علىٰ هذا إزَالَةُ أحْكَامِ المشْركينَ وفَتْحُها[3] عنْهُ، وَسَتْرُ تلك الوَصْمَةِ عليهِ بما يَفْتَحُ له من مكّةَ بأَن يدخُلَها فيما بعد، ولو أرادَ مَغْفِرَةَ ذنوبِهِ لم يكُنْ لِكَوْنِ المغفرةِ غَرَضاً في الفَتْحِ معنىً ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾ في الدُّنيا بإعْلاءِ أَمْرِكَ وإظْهارِكَ على الدِّين كلِّهِ وبَقَاءِ شريعتِكَ، وفي الآخرةِ بِرَفْعِ محلِّكَ ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرٰطاً مُسْتَقِيماً﴾ ويُرشِدُكَ طريقاً يؤدِّي سالِكَهُ إلى الجنَّةِ ويثبِّتُكَ عليها. ﴿وَيَنْصُرَكَ ٱللهُ نَصْراً عَزِيزاً﴾ تَمتَنعُ بِهِ من كلِّ جبَّارٍ عَنيدٍ، وَصَفَ النَّصر بالعزيزِ لأنَّ فيه العزَّةَ والمِنْعَةَ، أو: يعني عزيزاً صاحِبُهُ، أو: وَصَفَهُ بِصِفَةِ المنصورِ إسناداً مجازيّاً.

وأبي داود وابن المنذر والحاكم وابن مردويه والبيهقي. وفيها بدل «فقال عمر»: «فقال رجل» و«فقال بعض الناس».

(١) حكاهما الشيخ الطوسي في التبيان: ج ٩ ص ٣١٤.

(٢) في كتاب تنزيه الأنبياء: ص ١١٨. (٣) في نسخة: «ونسخها».

﴿السَّكِينَةَ﴾ السُّكُونُ، أي: أَنْـزَلَ اللهُ السكُـونَ ﴿فِـى قُـلُوبِ ٱلْـمُؤْمِنِينَ﴾ والطُّمَأْنينةَ بسببِ الصُّلْحِ والأَمْنِ، لِيَعْرِفُوا فَضْلَ اللهِ عليهِم بتَيْسيرِ الأَمْنِ بعد الخَوفِ فيزدادُوا يَقيناً إلىٰ يقينِهِم بما يَرونَ من الفُتُوحِ وعُلُوِّ كلمةِ الإسلامِ وفْقَ ما وُعِدُوا ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾ يُسلِّطُ بعضَها علىٰ بعضٍ علىٰ ما يقْتَضيهُ علْمُهُ وحكْمَتُه. ومن قضيَّتِهِ أَن سَكَّـنَ قُـلُوبَ المـؤمنين بـصُلْحِ الحديبيَّة، وَوَعَدَهُم أَن يفْتَحَ لهم مكَّةَ لِيَعْرِفَ المؤمنونَ نعمةَ ٱللهِ في ذلك ويشْكُروها فَيثيبُهُم. ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ والكافرينَ.

ومعنىٰ ﴿ظَنَّ السَّوْءِ﴾: أنَّ ٱللهَ لا يَنْصُر الرسولَ والمؤْمنينَ ولا يُرجِـعُهُم إلىٰ مكَّةَ ظافرينَ فاتحينَ إيَّاها، والسَّوْءُ: عبارةٌ عن رَدَاءَةِ الشيء وفَسَادِهِ، كما يَـقَعُ الصِّدْقُ عبارةً عن جَوْدَةِ الشيء وصَلاحِهِ ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ أي: ما يظنُّونَهُ ويتربَّصُونَهُ بالمؤمنين فهو دَائِرٌ عليهم، حَائِقٌ بِهِم، وهو الهَلاكُ والدَّمـارُ، وقُـرِئَ: ﴿دَآئِرَةُ ٱلسُّوْءِ﴾ بفَتْحِ السِّينِ وضمِّها[1] وهما لغتانِ من «سَاءَ» كـالْكَرْهِ والْكُـره، والضَّعْفِ والضُّعْفِ، إلَّا أنَّ المفتُوحَ غَلَبَ في أن يُضافَ إليهِ ما يُرادُ ضَمُّهُ من كـلِّ شيء، والمَضْمُومَ جارٍ مجرى الشرِّ الذي هو نَقيضُ الخَيْرِ، يقَالُ: أَرادَ بِهِ السُّـوءَ: وأرادَ بِهِ الخَيْرَ، ولذلك أُضـيفَ «الظَّـنّ» إلى المـفتُوحِ لكـونِهِ مـذْمُوماً، وكـانَتِ «الدائرةُ» محمودةً فكانَ حقُّها أَن لا تُضَافَ إليهِ إلَّا على التـأْويلِ الذي ذكـرنَاهُ ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ﴾ بأَن أَبْعَدَهُم من رحمتِهِ.

وكَـرَّرَ قَـولَهُ: ﴿وَلِلَّهِ جُـنُودُ ٱلسَّـمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لأنَّ الأوَّلَ اتَّـصلَ بـذِكْرِ المؤْمنينَ، أي: فَلَهُ الجنودُ التي يَقْدِرُ علىٰ أن يُعينَهم بـها، والثَّـاني اتَّـصلَ بـذِكْرِ

---

(١) وبالضمّ قرأه ابن كثير وأبو عمرو. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٦٠٣.

الكافرينَ، أي: فلَهُ الجنودُ الّتي يَقْدِرُ على الانتقامِ منْهُم بها ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزاً﴾ في قَهْرِهِ وٱنتقامِهِ من أعدائِهِ ﴿حَكِيماً﴾ في فِعْلِهِ وقَضائِه.

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا(٨) لِّتُؤْمِنُواْ بِـٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا(٩) إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّـهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا(١٠) سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَـٱسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا(١١) بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا(١٢) وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِـٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ سَعِيرًا(١٣) وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا(١٤)﴾

وقُرِئَ: ﴿لِّتُؤْمِنُواْ﴾ وما بعدَهُ بالتّاءِ والياءِ(١)، فالتّاءُ على الخطابِ لرسولِ ٱللهِ ﷺ ولأُمَّتِهِ، والياءُ علىٰ أنَّ الضَّميرَ في الجميعِ للنَّاسِ ﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾ أي: تُقوُّوهُ بالنُّصرَةِ ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ أي: تُعَظِّمُوهُ وتُطيعُوهُ ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ من التَّسبيحِ أو: من السُّبحَةِ، والضَّمائرُ للهِ عَزَّ ٱسمُهُ، والمُرادُ بتَعزيزِ ٱللهِ: تَعزيزُ دينِهِ ورسُولِهِ.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾ يريدُ: بيعةَ الحديبيَّة وهي بيعةُ الرِّضْوانِ، أي: بـايَعُوا

---

(١) وبالياء هي قراءة ابن كثير وأبي عمرو. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٦٠٣.

رسولَ الله ﷺ على الموتِ ﴿إنَّما يُبايِعُونَ اللهَ﴾ هو كقولِهِ: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ﴾ [(١)] ثمَّ أكَّدَهُ تأكيداً بقولِهِ: ﴿يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ كأنَّ يدَ رسولِ اللهِ الّتي تَعْلُو أيديَ المبايعينَ يَدُ اللهِ، إذ هو جلَّ جلالُهُ مُنَزَّهٌ عن صفاتِ الأجْسَامِ ﴿فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾ لا يَعودُ ضَرَرُ نَكْثِهِ إلَّا عليهِ، ويقَالُ: وَفَيْت بالعَهْدِ وأَوفَيْتُ بهِ، وقُرئ: ﴿فَسَيُؤْتِيهِ﴾ بالنُّونِ [(٢)] والياء.

﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الأَعْرَابِ﴾ وهم الّذينَ تَخلَّفُوا عن صُحْبَةِ رسولِ اللهِ ﷺ عام الحديبيَّة لمَّا أرادَ المَسِيرَ إلىٰ مكَّةَ معتمراً، وذلك في ذي القعدةِ من سنة ستٍّ من الهجرةِ، فاستَنْفَرَ مَنْ حَوْلَ المدينةِ من الأَعْرابِ وأَهْلِ البوادي ليخرجُوا مَعَهُ حَذَراً من قريشٍ أن يعرضوا له بحَرْبٍ أو يَصُدُّوهُ عن البيتِ، وأَحْرَمَ بالعمرةِ وساقَ معه الْهَدْيَ لِيُعْلِمَ النَّاسَ أنَّه لا يُريدُ حَرْباً، فَتَثاقَلَ عنه كثيرٌ من الأعْرابِ فقَالُوا: نَذْهَبُ معه إلىٰ قومٍ قد جاؤُوهُ فَقَتَلُوا كثيراً من أَصحابِهِ، فَتَخَلَّفُوا عنه واعتلُّوا بالشُّغْلِ، وظَنُّوا أنَّه لا يَنْقَلِبُ إلى المدينةِ ويَهْلَكُ، و ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ هو تكذيبٌ لهم في اعتذارِهِم، وإخبارٌ عن ضمائرِهِم وأسرارِهِم، وأنَّهم لا يبالُونَ استَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ أَم لا ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِّنَ اللهِ شَيْئاً﴾ أي: فَمَن يَمنَعُكُم من مشيئةِ اللهِ وقَضائِهِ ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ﴾ ما يضرُّكُم من قَتْلٍ أو موتٍ ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً﴾ من ظَفَرٍ وغُنْمٍ، وقُرِئ: «ضُرّاً» [(٣)] وهما لغتانِ، كالفُقْرِ والفَقْرِ، وقيلَ: إنَّ الضَّرَّ خِلافُ النَّفْعِ، والضُّرَّ: سوءُ الحَالِ [(٤)].

---

(١) النساء: ٨٠.

(٢) قرأه ابن كثير ونافع وابن عامر. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٦٠٣.

(٣) وهي قراءة حمزة والكسائي. راجع المصدر السابق: ص ٦٠٤.

(٤) قاله أبو عبيد. راجع إعراب القرآن للنحّاس: ج ٤ ص ١٩٩.

والأهلُونَ: جَمْعُ أَهْلٍ، وأَمَّا الأَهالي فاسمٌ للجميعِ[1] كاللَّيالي، والبُورُ: جَمْعُ بائرٍ كعائذٍ وعُوذٍ، وقيلَ: إنَّه مَصْدَرُ «بارَ» كالهَلْكِ مصدرُ «هَلَكَ»، ولذلك وُصِفَ بِهِ الواحدُ والجَمْعُ والمذكَّرُ والمؤَنَّث[2]. والمعنىٰ: ﴿وَكُنتُمْ قَوْماً﴾ فاسدينَ في أنفسِكُم وقُلُوبِكم ونيَّاتِكُم، وهالكينَ عند ٱللهِ، لا خَيْرَ فيكُم، ومستَوجبينَ لسَخَطِهِ وعقَابِهِ.

﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ أُقيمَ مقامَ «لَهُم» لِيُعلمَ أنَّ مَن لَمْ يـجمَعْ بـين الإِيـمانَيْنِ وهـو الإِيمانُ باللهِ وبرسُولِهِ فهو كافِرٌ، ونُكِّرَ ﴿سَعِيراً﴾ إيذاناً بأنَّها نارٌ مخصُوصَةٌ لَهُم، كما نُكِّرَ قولُهُ: ﴿نَاراً تَلَظَّىٰ﴾[3].

﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُواْ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا(١٥) قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَـٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُواْ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْاْ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا(١٦) لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا(١٧) لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَـٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا(١٨) وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا(١٩)﴾

---

(١) في بعض النسخ: «للجمع».

(٢) حكاه أبو عبيدة في مجاز القرآن: ج ٢ ص ٧٢ ـ ٧٣.

(٣) الليل: ١٤.

﴿سَيَقُولُ﴾ الَّذِينَ تخلَّفوا عن الحديبيَّة ﴿إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ﴾ خيبَرَ لتأْخُذُوها ﴿ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾ وقُرِئ: «كَلِمَ ٱللَّهِ»[1] أي: مَوعِدَ ٱللهِ لأهلِ الحُديبيَّةِ خاصَّةً بغنيمةِ خَيْبَرَ عِوَضاً من مَغَانِم مكَّةَ ﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ مَرجعُنا إليكُم أنَّ غنيمةَ خَيْبَرَ عِوَضاً لِمَنْ شَهِدَ الحديبيَّةِ لا يَشرَكُهُم فيها غَيْرُهُم ﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾ أَن نُصيبَ معكُم من الغَنَائم ونُشَارِكَكُم فيها ﴿بَلْ كَانُواْ﴾ قوماً ﴿لَا يَفْقَهُونَ﴾ أي: لا يفْهَمُونَ ﴿إِلَّا﴾ فَهْماً ﴿قَلِيلًا﴾ وهو فِطْنَتُهُم لأُمورِ الدُّنيا دونَ أُمورِ الدِّينِ، والفَرْقُ بين حَرْفَيْ الإِضْرابِ: أنَّ الأوَّلَ إِضْرابٌ من أَن يكُونَ ذلك حُكْمَ اللهِ وإِثْباتٌ للحَسَدِ، والثانيَ إِضْرابٌ مِنْ وَصْفِهِم المؤْمنينَ بالحَسَدِ وإِثْباتٌ لجَهْلِهِم.

﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ﴾ الَّذين تَخلَّفُوا عن الحديبيَّةِ ﴿سَتُدْعَوْنَ﴾ فيما بَعْدُ ﴿إِلَىٰ قَوْمٍ أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ وهم هَوازنُ وثَقيفُ ﴿أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ معطُوفٌ على ﴿تُقَاتِلُونَهُمْ﴾، أي: يكونُ أَحَدُ الأَمْرَيْنِ: إِمَّا المقاتلةُ او الإِسلامُ، لا ثَالِثَ لَهُما، ﴿فَإِن تُطِيعُواْ﴾ وتُجيبوا إلىٰ قِتَالِهِم يَأْجِركُم ٱللهُ، ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ﴾ عن قِتَالِهِم ﴿كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ﴾ عن الخُرُوجِ إلى الحديبيَّةِ ﴿يُعَذِّبْكُمْ ٱللَّهُ﴾ في الآخرةِ.

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾ نَفَى الحَرَجَ عن هؤلاء من ذوي العاهاتِ في التخلّفِ عن الغَزْوِ، وقُرئ ﴿يُدْخِلْهُ﴾ و ﴿يُعَذِّبْهُ﴾ بالنونِ[2] والياءِ.

إِنَّما سمِّيَتْ بَيْعَةَ الرِّضْوانِ بهذه الآيةِ، بايعُوا النبيَّ ﷺ بالحديبيَّةِ تَحْتَ الشَّجرةِ المعروفةِ وهي الشَّجَرةُ السَّمُرَةُ[3] ﴿فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ من صِدْقِ النِّيَّةِ

---

(١) وهي قراءة حمزة والكسائي. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٦٠٤.

(٢) قرأه نافع وابن عامر. راجع المصدر السابق.

(٣) السَّمُرَة: ضربٌ من شجر الطَّلْحِ ومنه الحديث: «يا أصحاب السَّمُرة». (النهاية: مادة طلح).

في القتالِ والصَّبْرِ والوفاءِ، وكانَ عَدَدُهُم ألفاً وخمسمائةٍ أو ثلاثمائة ﴿فَأَنْزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ والضَّميرُ للمؤمنينَ، والسَّكينةُ: هي اللُّطْفُ المقوِّي لقلوبِهِم كالطمأنينةِ(١) ﴿وَأَثَـٰبَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً﴾ يعني: فَتْحَ خَيْبَرَ ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرةً يَأْخُذُونَهَا﴾ وهي مَغَانِمُ خَيْبَرَ وكانَتْ مشهورةً بكَثْرةِ الأَمْوالِ والعَقَار(٢).

﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَـٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا(٢٠) وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا(٢١) وَلَوْ قَـٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلْأَدْبَـٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٢٢) سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا(٢٣) وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا(٢٤) هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَـٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ لَوْ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا(٢٥)﴾

﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً﴾ هي جميعُ ما يَفيء على المؤمنينَ إلىٰ يوم القيامةِ ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَـٰذِهِۦ﴾ المَغانِمَ يعني: غَنائِم خَيْبَرَ ﴿وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾ يعني: أيدي أَهلِ خَيْبَرَ وحُلَفائِهِم من أَسَدٍ وغَطَفَانَ حينَ جاءُوا لِنُصْرتِهِم ﴿فَقَذَفَ﴾ الله

---

(١) في بعض النسخ: «والطمأنينة».

(٢) العَقَار: الأرضُ والضياعُ والنخلُ، والمعقرُ: الرجل الكثير العَقَار. (الصحاح).

﴿فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾ (١) فَنكصُوا، وقيلَ: يُريدُ أيديَ أهلِ مكَّةَ بصُلْحِ الحديبيَّةِ (٢) ﴿وَلِتَكُونَ﴾ هذه الكفَّةُ والهُدْنَةُ والغنيمةُ الّتي عُجِّلَتْ ﴿ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ وعِبْرة يُعْرَفُونَ بها أنَّهم من ٱللهِ بمكانٍ، وأنَّه ضامِنُ نَصْرَهُم والفَتْحَ عليهم، وذلك لأنَّ الصُّلْحَ وقعَ: علىٰ وَضْعِ الحربِ عن النَّاسِ عَشْرُ سنين يأْمَنُ فيهنَّ النَّاسُ، وعلىٰ أنَّ مَنْ قَدِمَ مكَّةَ من المسلمينَ فهو آمنٌ علىٰ دَمِهِ ومالِهِ، ومَنْ قَدِمَ المدينةَ من قُريشٍ فهو آمنٌ علىٰ دَمِهِ ومالِهِ، ومَنْ أَحَبَّ أن يدخُلَ في عَقْدِ محمّدٍ صلى الله عليه وآله وسلم وعَهْدِهِ دَخَلَ فيهِ، ومَنْ أحبَّ أن يدخُلَ في عَقْدِ قُريشٍ وعَهْدِهِم دَخَلَ فيهِ، فَقَالَتْ خُزاعةُ: نَحْنُ في عَقْدِ محمّدٍ صلى الله عليه وآله وسلم وعَهْدِهِ، وقالَتْ كنانةُ: نَحْنُ في عَقْدِ قُريشٍ، فَقالَ سُهَيْلُ بنُ عَمْروٍ لرسولِ ٱللهِ صلى الله عليه وآله وسلم: علىٰ أنَّه لا يأتيكَ منَّا رجلٌ وإنْ كانَ علىٰ دينِكَ إلَّا رَدَدْتَهُ إلينا، ومَنْ جاءَنا ممَّنْ مَعَكَ لا نَردُّهُ عليكَ، فَقَالَ المسلمونَ: سبحانَ الله! كيف يُرَدُّ إلى المشركينَ وقد جاءَ مسلماً؟ فقالَ عليه السلام: مَنْ جاءَهُم منَّا فأَبْعَدَهُ اللهُ، ومَنْ جاءَنا منْهُم رَدَدْناهُ إليهم ولَوْ عَلِمَ اللهُ الإِسلامَ من قَلْبِهِ جَعَلَ له مَخرجاً، فَقَالَ سُهَيْلٌ: وعلىٰ أنَّك تَرْجعُ عنَّا عامكَ هذا فَلَا تَدخُلْ مكَّةَ، فإذا كانَ العامُ القَابِلُ خَرَجْنا عنها لكَ فَدَخَلْتَها بأصحابِكَ فأَقَمْتَ بها ثلاثاً فلا تَدْخُلْها بالسِّلاحِ إلَّا والسُّيوفُ في القِرابِ، وعلىٰ أنَّ هذا الهَدْيَ حيثُ ما حَسبناهُ مَحِلّهُ لا تُقدمْهُ علينَا، فقالَ عليه السلام: نَحنُ نَسوقُ وأنتم تردُّونَ؟! قَالَ عمر بن الخطَّاب: وٱللهِ ما شَكَكْتُ منذُ أَسْلَمْتُ إلَّا يومئذٍ، فأَتَيتُ النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم فقُلتُ: أَلَسْتَ نبيَّ اللهِ؟ قال: بلىٰ، قُلتُ: أَلَسْنا على الحقِّ وعدوُّنا على الباطِلِ؟ فَقَالَ: بلىٰ، قُلتُ: فَلِمْ تعطي الدنيَّةَ في دينِنا إذاً؟ قَالَ: إنِّي رسولُ ٱللهِ ولَسْتُ أعْصِيهِ، وهو نَاصري، قُلتُ: أَوَلَسْتَ كنتَ تُحدِّثنا أنَّا

---

(١) الاحزاب: ٢٦، الحشر: ٢.

(٢) قاله أنس وعبدالله بن مغفل المزني والكلبي. راجع تفسير القرطبي: ج ١٦ ص ٢٨١.

سنأْتيَ البيتَ ونطُوفُ بِهِ؟ قَالَ: بلىٰ، أَفأَخبَرْتُكَ أنَّكَ تأْتيهِ العام؟ قُلتُ: لا قَالَ: فإنَّك تأْتيهِ، فَتطُوفُ بهِ، فَنحَرَ رسولُ ٱللهِ ﷺ بُدْنَةً ودعَا بحَالِقِهِ فَحلَقَ شَعْرَه (١).

وعن محمّدِ بنِ كَعْبٍ: كانَ كاتِبُ رسولِ ٱللهِ ﷺ في هذا الصُّلْحِ عليَّ بْـنَ أبي طالب عليه السلام ، فلَّما قَالَ لَهُ: اكتُبْ: هذا ما صَالَحَ عليهِ محمّدُ بن عبدٱلله سُهَيْل بنَ عمروٍ، وجَعَلَ عليٌّ يَتَلَكَّأُ ويأَبىٰ أن يكتُبَ إلَّا: محمّد رسول الله ﷺ ، فَقَالَ عليه السلام : فإنَّ لَكَ مِثْلُها، تَعْطِيها وأَنْتَ مُضْطَهَدٌ، فَكَتَبَ (٢).

ولمَّا قَدِمَ رسولُ اللهِ ﷺ المدينةَ من الحديبيَّةِ مَكَثَ بها عشرينَ ليـلةً ثـمَّ خَرَجَ إلىٰ خَيْبَرَ فأَعْطَى اللِّواءَ أَبا بكر وبعَثَهُ إلى القومِ، فـانطَلَقَ فَـلَقِيَ القـومَ ثـمَّ ٱنْكَشَفَ هو وأصحابُهُ فَرَجَعُوا إلىٰ رسولِ ٱللهِ ﷺ ، ثمَّ بَعَثَ عُمَرَ بنَ الخـطَّابِ ونَهَضَ بِمَنْ نَهَضَ مَعَهُ من النَّاسِ، فَلَقُوا أهلَ خَيْبَرَ فانْكَشَفَ هو وأصحابُهُ فَرَجَعُوا إلىٰ رسولِ ٱللهِ ﷺ يُجَبِّنُهُ أصحابُهُ وَيُجبِّنُهُم، فَقَالَ رسولُ ٱللهِ ﷺ : لَأُعْطِيَنَّ الرَّايةَ غَداً رجلًا يُحِبُّ ٱللهَ وَرَسولَهُ ويُحبُّهُ اللهُ ورسولُهُ، كَرَّاراً غَيْرَ فَرَّارٍ، لا يَرجِعُ حتَّىٰ يفْتَحَ اللهُ علىٰ يَدَيْهِ فَباتَ النَّاسُ يَدوكُونَ بِجُمْلَتِهِم أَيُّهُم يُعْطَاهَا، فَلَمَّا أَصْبَحَ قَالَ: أين عليُّ بن أبي طالب عليه السلام ؟ فَقَالُوا: هويا رسول الله ﷺ يشتكي عَيْنَيْهِ، فَقَالَ: أَرسِلُوا إليهِ، فَأُتِيَ بِهِ، فَبَصَقَ رسولُ ٱللهِ ﷺ في عَيْنَيْهِ ودعَا لَهُ فبرأ كأَنْ لَمْ يكُنْ بِهِ وَجَعٌ، فأَعْطَاهُ الرايةَ، فَبَرَزَ مَرْحَبٌ وهو يقُولُ:

قَدْ عَلِمَتْ خَيْبَرُ أَنِّي مَرْحَبُ (٣)

---

(١) أُنظر تاريخ الطبري: ج ٢ ص ٦٣٣ ـ ٦٣٤ من حوادث سنة ستّ من الهجرة.

(٢) سيرة ابن اسحاق: ص ٢٣١، وتفسير القمي: ج ٢ ص ٣٢٠.

(٣) قد عَلِمتِ خـيبرُ أنّـي مَـرحَبُ ... شاكِي السِّلاحِ بَطَلٌ مجرَّبُ
أَطْعَنُ أحياناً وحيناً أَضربُ ... إذا اللـيوثُ أقـبلتْ تـحرَّبُ
كان حِمايَ كالحِمَى لا يُقْرَبُ

الأبياتُ، فقالَ عليٌّ عليه السلام:

أَنَا الَّذي سَمَّتْني أُمِّي حَيْدَرَهْ كَلَيْثِ غاباتٍ كَريهِ المَنْظَرَهْ
أُوفِيهُمُ بالصَّاعِ كَيْلَ السَّنْدَرَهْ(١)

فضَرَبَ مَرْحَباً فقتَلَهُ، وكانَ الفتحُ(٢).

وقَولُهُ: ﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ اعْتِراضٌ، أي: وليكُونَ ذلكَ آيةً فَعَلَ ذلكَ، ويجوزُ أن يكُونَ المعنىٰ: وَعدَكُم المغانِمَ فجَعَلَ هٰذهِ الغنيمةَ وكفَّ الأعداءَ لينفعَكُم بها، ولتكُونَ آيةً للمؤمنينَ إذا وَجَدُوا وَعْدَ اللهِ بها صادقاً؛ لأنَّ الإِخْبارَ بالمغيَّباتِ مُعْجِزةٌ وآيةٌ ﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً﴾ أي: ويزيدُكُم بصيرةً وثِقَةً ـ بفَضْلِ ٱللهِ ـ ويقيناً. ﴿وَأُخْرَىٰ﴾ أي: وَوَعَدَكُم اللهُ مغانِمَ أُخرىٰ ﴿لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا﴾ بَعْدُ، وهي مَغانِمُ هوازِنَ في غَزْوَةِ حُنَينَ ﴿قَدْ أَحَاطَ ٱللهُ بِهَا﴾ أي: قد قَدِرَ عليها وٱستَولىٰ، وأَظْهَرَكُم عليها وغنَّمَكُموها.

﴿وَلَوْ قَـٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلْأَدْبَـٰرَ﴾ هذا من العِلْمِ بالمعدُومِ، عَلِمَ سبحانَهُ ما لَمْ يكُنْ أَن لَوْ كانَ كيفَ يكُونُ. ﴿سُنَّةَ ٱللهِ﴾ في مَوْضِعِ المصدَرِ المُؤَكِّدِ، أي: سنَّ اللهُ جلَّ جلالُه غَلَبَةَ أنْبيائِهِ سنَّةً، وهو كقَولِهِ: ﴿كَتَبَ ٱللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِىٓ﴾(٣).

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ﴾ يعني: أَيْدي أَهْلِ مكَّةَ ﴿عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم﴾ بالنَّهْي ﴿بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ يوم الحديبيَّةِ، وذلك أنَّهم بعثُوا أربعينَ رجلًا ليُصِيبُوا من المسلمينَ، فأُسِروا فَخَلَّىٰ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم سبيلَهُم.

---

(١) السندرة: مكيال كبير.

(٢) أنظر تاريخ الطبري: ج ٣ ص ١١ وما بعده من حوادث سنة سبع من الهجرة عن بريدة الأسلمي.

(٣) المجادلة: ٢١.

وعن عبدِ ٱللهِ بنِ المُغفَّلِ: كانَ رسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم جالِساً في ظلِّ شجرةٍ وبين يَديْهِ عليٌّ عليه السلام يكتُبُ كتابَ الصُّلْحِ، فَخَرجَ ثلاثونَ شاباً عليهم السِّلاحُ، فَدَعَا عليهِم رسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم فأَخَذَ ٱللهُ أبصارَهُم، فَقُمْنَا فأَخَذْنَاهُم، فخلَّى عليه السلام سَبِيلَهُم (١).

وقُرِئَ: ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ بالتَّاءِ والياءِ (٢). ﴿وَٱلْهَدْيَ﴾ عَطْفٌ على الضَّميرِ المنصوبِ في ﴿وَصَدُّوكُمْ﴾ أي: وصدُّوا ﴿ٱلْهَدْيَ مَعْكُوفاً﴾ محبوساً عن ﴿أَنْ يبلُغَ مَحِلَّهُ﴾ وهو مكانُهُ الّذي يَحِلُّ فيه نَحْرُهُ، أي: يَجِبُ، وبَعْض الحديبيَّةِ من الحَرَمِ، ورُوِيَ: أنَّ مضَارِبَ رسولِ ٱللهِ صلى الله عليه وآله وسلم كان في الحِلِّ ومُصَلَّاهُ في الحَرَمِ (٣). ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ﴾ مستَضْعَفُونَ كانُوا بمكَّةَ بين الكفَّارِ ﴿وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ﴾ كذلك ﴿لَمْ تَعْلَمُوهُمْ﴾ صِفَةٌ لرجالٍ ونساءٍ جميعاً، و ﴿أَنْ تَطَئُوهُمْ﴾ بَدَلُ ٱشتمالٍ منْهُم، أو: من الضمّير المنصوبِ في ﴿تَعْلَمُوهُمْ﴾، ﴿فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَّعَرَّةٌ﴾ هي مَفْعَلَةٌ، من: عَرَّهُ يَعُرُّهُ: إذا دَهَاهُ ما يكْرَهُهُ ويَشُقُّ عليهِ ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ متعَلِّقٌ بـ﴿أَنْ تَطَئُوهُم﴾ يعني: أَن تطَئُوهم غَيْرُ عَالِمينَ بِهِم، والوَطْءُ عبارةٌ عن الإِيقاعِ والإبادةِ، وقَالَ:

وَوَطِئْتَنَا وَطْأً علىٰ حَنَقٍ ... وَطْأَ الْمُقَيَّدِ نَابِتَ الْهَرَمِ (٤)

---

(١) أخرجه عنه السيوطي في الدّر المنثور: ج ٧ ص ٥٣٢ وعزاه الى احمد والنسائي والحاكم وابن جرير وأبي نعيم وابن مردويه.

(٢) وبالياءِ هي قراءة أبي عمرو. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٦٠٤.

(٣) رواه أحمد في مسنده: ج ٤ ص ٣٢٦ باسناده الى المسوّر بن مخرمة ومروان بن الحكم ضمن حديث طويل.

(٤) للحارث بن وعلة الذهلي، وفي اللسان نسبه الى زهير ولم نعثر عليه في ديوانه. أُنظر شرح شواهد الكشّاف للأفندي: ص ٢٩١.

والمعنىٰ: لولا كَراهَة أن تُهْلِكُوا ناساً مؤمنينَ بين ظَهْراني المشركينَ مخْتَلِطينَ بِهِم، وأنتُم غير عارفِين بِهِم، فيصيبُكُم بإهْلاكِهِم مكرُوهٌ ومَشَقَّةٌ لمَّا كَفَّ ﴿أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم﴾ فَحُذِفَ جَوابُ «لولا» لدلالةِ الكلامِ عليهِ، ويجوزُ أن يكُونَ ﴿لَوْ تَزَيَّلُواْ﴾ كالتَّكرير لـ﴿لَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ﴾ لرجُوعِهِما إلىٰ معنىً واحدٍ، ويكُونَ الجَوابُ ﴿لَعَذَّبْنَا﴾، والمَعَرَّةُ الّتي كانَت تُصيبُهُم إذا قَتَلُوهُم هي وجوبُ الدِّيةِ والكفَّارةِ وسُوءُ مُقَالةِ المشركينَ: إنَّهم فَعَلُوا بأَهْلِ دينِهِم مثْلَ ما فَعَلُوا بنا، وقَولُهُ: ﴿لِيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ تَعليلٌ لِمَا دَلَّتْ عليهِ الآيةُ، كأنَّه قَالَ: كانَ الكَفُّ ومَنْعُ التَّعذيبِ لِيُدْخِلَ اللهُ في توفيقِهِ للخَيْرِ والطَّاعةِ مُؤْمِنيهم، أو: لِيُدْخِلَ في الإسلامِ مَن رَغِبَ فيهِ من مُشْرِكيهم ﴿لَوْ تَزَيَّلُواْ﴾ لو تفرَّقُوا وتَميَّزَ بعضُهُم من بعض، من: زَالَهُ يَزِيلُهُ ﴿لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ من أهلِ مكَّةَ بِأيْدِيكُمْ وبالسَّيفِ، ولٰكِنَّ اللهَ يَدفَعُ عن الكفَّارِ بالمؤْمنينَ وحُرْمَةِ ٱختلاطِهِم بِهِم.

﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا(٢٦) لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا(٢٧) هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا(٢٨) مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ

عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا(٢٩)﴾

﴿إِذْ﴾ يَتَعَلَّقُ بما قَبْلَهُ، أي: لَعَذَّبْنَاهُم إذ[١] صدُّوكُم عن المسجدِ الحرامِ حينَ جعَلُوا ﴿فِى قُلُوبِهِمُ﴾ الأَنَفَةَ التي تَحْمي الإنسانَ، و ﴿حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ قَولُهُم: قَد قَتَلَ محمّدٌ صلّى الله عليه وآله وسلّم وأصحابُهُ أبناءَنا وإخوانَنا، ويدخلُونَ علينا في مَنازِلِنا، لا يتحدَّثُ[٢] العَرَبُ بذلك، وقيلَ: هي أَنَفَتُهُم من الإقْرارِ لمحمّدٍ صلّى الله عليه وآله وسلّم بالرِّسالةِ و[٣] الاستفتاح ببسمِ ٱللهِ الرَّحمٰنِ الرحيمِ حينَ قَالُوا: ما نَعرفُ هذا، ولكنِ ٱكتُبْ: باسمك اللَّهمَّ، هذا ما صَالَحَ عليه محمّدُ بنُ عبدالله[٤]. ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ سبحانَهُ ﴿سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فتَوقَّروا وحَلِمُوا وصَبَروا على الدُّخُولِ تحت ما أرادُوهُ ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ وهي قَولُهُ: لا إلٰه إلَّا الله وقيلَ: هي بسمِٱللهِ الرحمٰنِ الرحيمِ ومحمّد رسولُ اللهِ قد ٱختارها ٱللهُ لنبيِّهِ والمؤمنين[٥]. ومعنىٰ إضَافَتِها إلى التَّقوىٰ أَنَّها سَبَبُ التَّقوىٰ وأَسَاسُها ﴿وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ﴾ بالسَّكينةِ ﴿وَأَهْلَهَا﴾ أو: أَحَقَّ بتلك الكلمةِ من المشركينَ، أو: أَحَقَّ بمكَّةَ ودُخُولِها. ﴿لَقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا﴾ أي: صَدَقَهُ في رُؤْياه تعالىٰ وتَقَدَّسَ عن الكَذِبِ وعن كلِّ قبيحٍ، فحُذِفَ الجارُ وأُوْصِلَ الفِعْلُ، وقَولُهُ: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ تَعَلَّقَ بـ﴿صَدَقَ﴾ أي: صَدَقَهُ فيما رأىٰ وفي حُصُوله صِدْقاً مُلْتَبساً بالحقِّ، أي: بالحِكْمةِ والغَرَضِ الصَّحيحِ، وذلك ما فيه من الابتلاءِ والتَّمييز بين المخلصينَ والمنافقينَ، ويجُوزُ أَن يَتَعَلَّقَ بـ﴿الرُّءْيَا﴾ أي: صَدَقَهُ الرُّؤْيا مُلْتَبسةً بالحقِّ. ﴿لَتَدْخُلُنَّ﴾ جَوابُ قَسَمٍ

(١) في بعض النسخ: «أو» بدل «إذ».
(٢) في المجمع: «فتتحدّث».
(٣) في بعض النسخ: «أو» بدل الواو.
(٤) قاله الزهري. راجع التبيان: ج ٩ ص ٣٣٤.
(٥) وهو قول الزهري أيضاً. راجع تفسير البغوي: ج ٤ ص ٢٠٤.

محذوفٍ: رأىٰ رسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ في المَنَامِ بالمدينةِ قبل أَن يَخرُجَ إلى الحديبيَّةِ: أنَّ المسلمينَ يدخلُونَ المَسْجِدَ الحَرامَ، فأَخْبَرَ بذلك أصحابَهُ ففَرحُوا، فلمَّا ٱنصرفُوا من الحديبيَّةِ ولَمْ يدخُلُوا مكَّةَ قَالَ المنافقونَ: ما حَلَقْنا ولا قَصَّرْنَا ولا دَخَلْنا المسجدَالحرامَ، فَنَزَلَت[1]. أَخْبَرَهُم بأنَّ منَامَهُ حَقٌّ وصِدْقٌ، وأَكَّدَ الدُّخُولَ بالقَسَمِ. وفي دُخُولِ ﴿إِنْ شَاءَ ٱللَّهُ﴾ وُجُوهٌ: أَن يُريدَ: لَتَدْخُلُنَّ جميعاً إن شاءَ اللهُ ولَمْ يَمُتْ منكُم أَحَدٌ، ويُريدَ: تَعليمَ عبادِهِ أَن يقُولُوا في عِدَاتِهِم مثْلَ ذلك متأَدِّبينَ بأَدَبِ ٱللهِ، أو: هو متعلّقٌ بـ﴿ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ أي: يَحلِقُ بعضُكُم ويُقَصِّرُ بَعضٌ وهو أَن يؤْخَذَ بعضُ الشَّعْرِ، ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُواْ﴾ من الحكمةِ والصَّلاحِ في الصُّلْحِ المباركِ لموقعِهِ وتأخيرِ فَتْحِ مكَّةَ ﴿فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَٰلِكَ﴾ أي: من دون فَتْحِ مكَّةَ ﴿فَتْحاً قَرِيباً﴾ وهو فَتْحُ خَيْبَرَ لتستروحَ إليهِ قُلُوبُ المؤمنينَ إلى أَن يَتَيَسَّرَ الفَتْحَ الموعُودَ.

وَ ﴿هُوَ ٱلَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِٱلْهُدَىٰ﴾ أي: بالقُرآنِ وبالدليلِ الواضحِ ﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ وهو الإسلامُ ﴿لِيُظْهِرَهُ﴾ لِيُغْلِبَهُ علىٰ جِنْسِ ﴿ٱلدِّينِ كُلِّهِ﴾، يُريدُ: الأَديانَ المختلفةَ من أَدْيانِ المشركينَ وأَهْلِ الكتابِ، وهذا تَوكيدٌ لِمَا وَعَدَهُ سبحانَهُ من الفَتْحِ، وتَوطينٌ لنفوسِ المؤْمنينَ علىٰ أنَّ الله تعالىٰ سيَفتحُ لهم من البلادِ ما يَستقلُّونَ إليهِ فَتْحَ مكَّةَ، وقيل: إنَّ تَمامَ ذلك عند خُروج المهديِّ عجَّل الله فرجَه فلا يبقىٰ في الأَرضِ دينٌ غَيْرُ دينِ الإسلامِ[2] ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيداً﴾ علىٰ أنَّ ما وَعَدَهُ كائِنٌ لا محَالَةَ.

﴿مُحَمَّدٌ﴾ إمَّا خَبَرُ مبتَدأ أي: هو محمدٌ؛ لتقدّمِ قَولِهِ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى أَرْسَلَ

---

(١) رواه الطبري في تفسيره: ج ١١ ص ٣٦٧ عن مجاهد وقتادة وابن زيد.
(٢) أنظر تفسير القمي: ج ٢ ص ٣١٧.

رَسُولَهُ﴾، وإمَّا مبتدأً وَ ﴿رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ عَطْفُ بيانٍ، ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ أصحابُهُ ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ جَمْعُ «شديد» و «رحيم». وعن الحَسَنِ: بَلَغَ من تَشَدُّدِهِم على الكفَّارِ أنَّهم كانُوا يَتَحرَّزُونَ من ثيابِهِم أَن يَلْزَقَ بثيابِهِم ومن أَبدانِهِم أَن تَمُسَّ أَبدانَهُم، وبَلَغَ من تَراحمِهِم فيما بينَهم أَنْ كانَ لا يرىٰ مؤْمِنٌ مؤمناً إلَّا صافحَهُ وعَانقه[1]. ومِثْلُهُ قَولُهُ: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[2]، ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ إخْبارٌ عن كثْرةِ صَلاتِهِم ومُداوَمَتِهِم عليها ﴿يَبْتَغُونَ﴾ أي: يلْتَمِسُونَ بذلك زيادةَ نِعْمةٍ من ٱللهِ يطلبونَ مرضَاتَه.

﴿سِيمَاهُمْ﴾ علامَتُهُم ﴿فِى وُجُوهِهِم﴾ يُريدُ: السِّمَةَ التي تَحْدُثُ في جبهةِ السُّجَّادِ من كَثْرةِ السُّجُودِ، يُفَسِّرُها قَولُهُ: ﴿مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ أي: من التأْثير الذي يُؤَثِّرُهُ السُّجُودُ، وكان يُقَالُ لعليِّ بنِ الحسينِ زَيْنِ العابدينَ عليه السلام: ذُو الثَفِنَاتِ؛ لأنَّه كانَ قَد ظَهَرَ في مَواضعِ سُجُودِهِ أَشْبَاهُ ثَفِنَاتِ البعيرِ. وعن سَعيدِ بنِ جُبَيْرٍ: هي نَدَى الطَّهُورِ وتُرابُ الأَرْضِ[3]. ﴿ذَٰلِكَ﴾ الوَصْفُ ﴿مَثَلُهُمْ﴾ أي: وَصْفُهُم العجيبُ الشَّأْنِ ﴿فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ وَتَمَّ الكلامُ، ثمَّ ٱبتَدَأَهُ: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ﴾، وقيلَ: معناهُ: ذلك مَثَلُهُم في الكِتَابَيْنِ جَميعاً[4]، ثمَّ ٱبتدأَ فَقَالَ: ﴿كَزَرْعٍ﴾ أي: هُم كَزَرْعٍ ﴿أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ﴾ أي: فراخَهُ، يقَالُ: أَشْطَأَ الزَّرْعُ إذَا أَفْرَخَ. وقُرِئَ: «شَطَأَهُ» بِفَتْحِ الطاءِ[5]. ﴿فَـَٔازَرَهُۥ﴾ من المؤازَرَةِ وهي المعاوَنَة. وعن الأَخْفَشِ: أَنَّه أَفْعَلَ[6]،

---

(١) حكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٣٤٦.

(٢) المائدة: ٥٤.

(٣) حكاه عنه الماوردي في تفسيره: ج ٥ ص ٣٢٣.

(٤) قاله الزجَّاج في معاني القرآن وإعرابه: ج ٥ ص ٢٩.

(٥) وهي قراءة ابن كثير وابن عامر. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٦٠٤.

(٦) معاني القرآن: ج ٢ ص ٦٩٥.

أي: شَدَّهُ وأَعانَهُ وقوَّاهُ، وقُرِئ: «فأَزَرَه»[١] أي: شَدَّ أَزْرَهُ ﴿فَاسْتَغْلَظَ﴾ فَصارَ من الدِّقَّةِ إلى الغِلْظَةِ ﴿فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ﴾ جَمعُ سَاقٍ أي: فاستَقَامَ علىٰ قَصَبِهِ، وهذا مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللهُ لِبَدءِ أمْرِ الإسلامِ وترقّيهِ في الزيادةِ إلىٰ أن قَويَ وعَلَا أَمْرُهُ ﴿يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾ أي: يَرُوعُ ذلكَ الزَّرْعُ الأَكَرَةَ الّذين زَرَعُوهُ ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ هذا تَعليلٌ لِمَا دَلَّ عليهِ تَشْبيهُهُم بالزَّرْعِ في نمائِهِم وتَرقِّيهم في القوَّةِ والاستكمالِ وتَظَاهُرِهِم، ويجوزُ أَن يكُونَ تعليلًا لقَولِهِ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ لأنَّ الكُفَّارَ إذا سَمعُوا ما أَعَدَّ اللهُ لَهُم في الآخرةِ من الأَجْرِ مَعَ ما يُنيلُهُم في الدُّنيا من العِزِّ غَاظَهُم ذلكَ، أي: وَعَدَ اللهُ مَن أَقَامَ منْهُم على الإيمانِ والعَمَلِ الصَّالحِ ﴿مَغْفِرَةً﴾ لذُنُوبِهِم وَثَواباً ﴿عَظِيماً﴾ ونَعِيماً مُقِيماً.

۞ ۞ ۞

(١) وهي قراءة ابن عامر وحده. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٦٠٥ .

سُورَةُ الحُجُراتِ

مدنيَّةٌ[1] وهي ثَمانِ عَشْرَة آية.

في حديثِ أُبيٍّ: «مَن قَرأَ سورةَ الحُجُراتِ أُعْطِيَ مَنْ الأَجْرِ عَشْرَ حَسَناتٍ بعَدَدِ مَن أطَاعَ ٱللهَ ومَنْ عَصاه»[2].

وعن الصَّادقِ عليه السلام: «مَنْ قَرَأَها في كلِّ يومٍ أو في كلِّ ليلةٍ كانَ مِنْ زُوَّارِ محمّدٍ صلى الله عليه وآله وسلم»[3].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١) يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ

---

(١) قال الشيخ الطوسي في التبيان: ج ٩ ص ٣٣٩: مدنيّة إلّا آيةً واحدةً وهي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم﴾ الآية ١١ الى آخرها، وقال قوم: كلّها مدنيّة، وهي ثمان عشرة آية بلا خلاف.

وفي الكشّاف: ج ٤ ص ٣٤٩: مدنيّة وآياتها (١٨)، نزلت بعد المجادلة.

(٢) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٣٧٩ مرسلًا.

(٣) ثواب الأعمال للصدوق: ص ١٤٢.

أَعْمَـٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ(٢) إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ(٣) إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ(٤) وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٥)﴾

﴿لَا تُقَدِّمُواْ﴾ يجوزُ أن يكونَ مِن: قَدَّمَ بمعنىٰ: «تَقَدَّمَ»، مِثْلُ: وَجَّهَ وبَيَّنَ بمعنىٰ: «تَوَجَّهَ» و «تَبَيَّنَ»، ويَعْضُدُهُ قِراءَةُ مَنْ قَرأَ: «لَا تَقَدَّمُوا»[١]، أي: لا تَتَقَدَّمُوا فَحُذِفَ أَحَدُ التَّاءَيْنِ، ويجُوزُ أن يكُونَ متعدِّياً، يقَالُ: قَدَّمَهُ وأَقْدَمَهُ، فَحُذِفُ المفعولُ ليتناوَلَ كلَّ ما يُقَدَّمُ، والمعنىٰ: لا تَقْطَعُوا أَمْراً دون أَن يأْذَنَ اللهُ ورسولُهُ فيهِ، وعن ٱبنِ عبَّاسٍ: لا تَتَكلَّمُوا قبلَ أَن يَتَكَلَّمَ رسُولُ اللهِ ﷺ وإذا سُئِلَ عن مسأَلةٍ فلا تَسبِقُوهُ بالجَوابِ حتَّىٰ يُجيبُ أَوَّلاً[٢]. وعن الحَسَن: نَزَلَ في قومٍ ذَبَحُوا الأُضْحِيةَ قبلَ صلاة العيدِ فأَمَرَهُم النبيُّ ﷺ بالإعادةِ[٣]. وعلى الجُملةِ فالمُرادُ: كُونُوا تَبَعاً لرسولِ ٱللهِ ﷺ وأَخِّرُوا أقوالَكُم وأفعالَكُم عن قَولِهِ وفعْلِهِ، ولا تَعملُوا شيئاً من ذاتِ أنفسِكُم حتَّىٰ تَستأْمِروهُ ﴿وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ﴾ فإنَّكم إنْ ٱتَّقَيتُموهُ لَم تسبقُوا رسُولَهُ بقوْلٍ ولا فِعْلٍ حتَّىٰ يأْمُرَكُم بِهِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لأَقوالِكُم ﴿عَلِيمٌ﴾ بأَعمالِكُم.

ثمَّ أعادَ سبحانَهُ النِّداءَ عليهم ٱستدعاءً منْهُم لِتَجديدِ الاستبصارِ عندَ كلِّ خِطَابٍ واردٍ: ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ يعني: إذا نَطَقَ ونَطَقْتُم فعليكُم أَن لا تَبلُغُوا بأَصواتِكُم وراءَ الحَدِّ الذي يَبلُغُهُ صَوتُهُ ﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ

(١) وهي قراءة يعقوب. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٦٨٩.
(٢) حكاه عنه الطبري في تفسيره: ج ١١ ص ٣٧٧.
(٣) تفسير الحسن البصري: ج ٢ ص ٢٩٤.

بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ أي: لا تَجْهَروا لَهُ جَهْراً مِثْل جَهْرِ بعضِكُم لبعضٍ، وهذا يدُلُّ علىٰ أنَّهم نُهوا عن جَهْرٍ موصُوفٍ بمماثلةِ ما قد ٱعتادُوهُ منْهُ فيما بينَهُم، وهو أَن يكُونَ خالياً من مُراعاةِ حشْمَةِ النبوَّةِ وجَلالةِ مقْدارِها، وقيلَ: معنَاهُ: ولا تقُولُوا: يا محمد يا أحمد، كما يُخاطِبُ بعضُكُم بَعْضاً، بَلْ خَاطِبُوهُ بالتَّعظيمِ وقُولُوا: يا رسولَ الله[١].

وعن ٱبنِ عبَّاسٍ: نَزَلَتْ في ثابتِ بنِ قيسِ بنِ شَمَّاسٍ وكانَ في أُذُنِهِ وقْرٌ، وكانَ جَهْوَريَّ الصَّوتِ، فكانَ إذا كلَّمَهُ رَفَعَ صوتَهُ وربَّما تأذَّىٰ رسولُ الله ﷺ بصوتِهِ[٢].

وعن أَنَسٍ: لمَّا نَزَلَتِ الآيةُ فُقِدَ ثَابتٌ، فتفقَّدَهُ رسولُ اللهِ ﷺ فأُخْبِرَ بشأْنِهِ، فَدَعَاهُ فسأَلَهُ، فَقَالَ: يا رسولَ الله، لقد أُنْزِلَتْ هذه الآيةُ وإنِي رجُلٌ جهيرُ الصَّوتِ فأَخَافُ أن يكُونَ عَمَلي قَد حَبِطَ، فقَالَ رسولُ ٱلله ﷺ: لَسْتَ هناك، إنَّك تَعيشُ بخيرٍ وتَموتُ بخيرٍ وإنَّك من أَهلِ الجنَّة»[٣].

﴿أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَـٰلُكُمْ﴾ مفعولٌ لَهُ، ومعنَاهُ: انتَهُوا عمَّا نُهِيتُم عنْهُ لِحُبُوطِ أعمالِكُم أي: لِخَشيةِ حُبُوطِها، فَحُذِفَ المُضَافُ ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ أَنَّ أَعْمَالَكُم حَبِطَتْ.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ﴾ أي: يَخفِضُونَها عند رسولِ ٱللهِ ﷺ إِجْلالاً لَهُ ﴿أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللهُ قُلُوبَهُمْ﴾ أي: اختَبَرَها فأَخْلَصَها ﴿لِلتَّقْوَىٰ﴾ من قَولِهِم:

---

(١) قاله الفراء في معاني القرآن: ج ٣ ص ٧٠، والزجّاج أيضاً في معاني القرآن وإعرابه: ج ٥ ص ٣٢.

(٢) رواه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٣٥٣.

(٣) أخرجه عنه السيوطي في الدر المنثور: ج ٧ ص ٥٤٨ وعزاه الى أحمد والبخاري ومسلم وأبو يعلىٰ والبغوي وابن المنذر والطبراني وابن مردويه والبيهقي.

امتُحِنَ فلانٌ لأَمْرِ كذا وجُرِّبَ فهو مضْطَلِعٌ بِهِ غَيْرُ مُقصِّرٍ فيه، أو: وُضِعَ الامتحانُ موضِعَ المعرفةِ؛ لأنَّ الشيء إنَّما يتحقَّقُ بالاختبارِ، فكأنَّه قَالَ: عَرَّفَ اللهُ قُلُوبَهُم للتَّقْوىٰ، ويكونُ اللّامُ متعلِّقةً بمحذُوفٍ كَمَا في قولِكَ: أَنْتَ لهذا الأَمْرِ، أي: كائِن لَهُ ومختَصٌّ بِهِ، قَالَ:

أَعَدَّاءُ مَنْ لِلْيَعْمُلاتِ عَلَى الْوَجَىٰ (١)

وهي مَعَ معمُولِها في موضِعِ الحالِ. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ﴾ مِنْ خَلفِها وقُدَّامِها، و «مِنْ» لابتداءِ الغايةِ، وإنَّ النِّداءَ إنْشَاءٌ من ذلك المكانِ، والحُجْرةُ: البُقْعَةُ من الأَرضِ المحجُورةِ بحَائطٍ يَحُوطُ عليها، وهي فُعلَةٌ بمعنىٰ مفْعُولَة كالغُرْفَةِ والقُبْضَةِ. والمُرادُ حُجُراتُ نساءِ رسولِ ٱللهِ ﷺ.

ورُوِيَ: أنَّ وفْدَ بني تَميمٍ أَتَوْا رسولَ ٱللهِ ﷺ وَقْتَ الظَّهيرةِ وهو راقِدٌ فَنَادَوْهُ: يا محمّد، اخرُجْ إلينا! فاستيقَظَ فَخَرَجَ، فَنَزَلَت (٢).

﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ سَجَّلَ عليهم بالسَّفَهِ والجَهْلِ لِمَا أَقْدَمُوا عليه. ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟﴾ في مَحَلِّ رَفْعٍ على الفاعليَّةِ، لأنَّ المعنىٰ: وَلَو ثَبُتَ صَبْرُهُم، والصَّبْرُ: حَبْسُ النَّفسِ عن أَن تُنازِعَ إِلىٰ هَواهَا، وَقَولُهُم: «صَبَروا عن كَذَا» حُذِفَ مِنْهُ المفعولُ وهو النَّفْسُ، وهو حَبْسٌ فيه شدَّةٌ على المحبُوسِ، ولذلك قيلَ للحَبْسِ على اليَمينِ أو القَتْلِ: صَبْرٌ، والفَائِدةُ في قَولِهِ: ﴿إِلَيْهِمْ﴾ أنّه لَوْ خَرَجَ ولَمْ يكُنْ خُرُوجُهُ لأَجْلِهِم

---

(١) وعجزه: وأضياف بيت بيتوا لنزولِ. لعتبة بن مالك العقيلي يرثي عدَّاءَ صاحبه ويصفه بأنّه كان معدّاً لاغاثة المطايا الكثيرات العمل، ولأضياف بيته الذين كانوا يبيتون عنده لطلب الاستراحة. انظر شرح شواهد الكشّاف للأفندي: ص ١٨٨ .

(٢) أخرجه الواحدي في أسباب النزول: ص ٣٣٠ ح ٨٠٥ عن جابر بن عبدالله. وفيه عن ابن أبي مليكة قال: كاد الخيّران أن يهلكا: أبوبكر وعمر رفعا أصواتهما عند النبي ﷺ حين قدم عليه ركبٌ من بني تميم، فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس، وأشار الآخر برجل آخر فارتفعت أصواتهما في ذلك فنزلت .

لَلَزِمَهُم أن يَصْبِروا إلىٰ أن يعلَمُوا أنَّ خُروجَهُ إليهِم ولأَجْلِهِم ﴿لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ﴾ في «كانَ»: إمَّا ضَميرُ مَصْدَرِ الفِعلِ[1] المُضْمَرِ بَعْدَ «لَوْ» وإمَّا ضَميرُ مَصْدَر ﴿صَبَرُواْ﴾ كَقَولِهِم: مَنْ كَذَبَ كَانَ شَرّاً لَهُ.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ(٦) وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ(٧) فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ(٨) وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ(٩) إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ(١٠)﴾

الْفَاسِقُ هو الوليدُ بن عُقْبَةَ[2]؛ أَخُو عثمانَ لأُمِّهِ، وهو الَّذي وَلَّاهُ عثمانُ الكوفةَ، فَصَلَّىٰ بالنَّاسِ وهو سَكْرانٌ صَلاةَ الصُّبْحِ أَربعاً ثمَّ قالَ: أزيدُكُم فإنِّي نَشيطٌ؟! بَعَثَهُ رسُولُ اللهِ ﷺ مُصَدِّقاً[3] إلىٰ بني المُصْطَلَق، وكانَتْ بينَهُ وبينَهُم

(١) في الكشّاف: «فاعل الفعل».

(٢) في التهذيب: أسلم يوم الفتح بعثه رسول الله ﷺ علىٰ صدقات بني المصطلق، وولّاه عمر صدقات بني تغلب، وولّاه عثمان الكوفة ثم عزله، وقال ابن عبد البرّ: ولا خلاف بين أهل العلم بالتأويل أنّ قوله: ﴿يا أيها الذينَ آمَنُوا إنْ جاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبأ...﴾ نزلت في الوليد بن عقبة، قال: وله أخبار فيها نكارة وشناعة، وخبر صلاته بأهل الكوفة وهو سكران وقوله: «أزيدكم بعد أن صلّى الصبح أربعاً» !! مشهورٌ من حديث الثقات. تهذيب التهذيب: ج ١١ ص ١٤٢ ـ ١٤٣.

(٣) المصدِّقُ: الذي يأخذ صدقات الغنم. (الصحاح).

إحْنَةٌ[١] فاستقبلوهُ فظنَّ أنَّهم همُّوا بقتْلِهِ فرجعَ وقالَ: إنَّهم قد ارتدُّوا ومنعُوا الزَّكاةَ، فغضبَ النبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم وهمَّ أن يغزُوهُم فنزلت[٢].

وفي تنكيرِ «الفَاسِقِ» و «النَبأ» معنى الشِّيَاعِ، والمُرادُ: أيُّ فَاسِقٍ جاءَكُم بأيِّ نَبأٍ كَانَ ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ صِدْقَهُ مِنْ كَذِبِهِ، وتَطَلَّبُوا بَيَانَ الأَمْرِ وانكشَافِ الحقيقةِ ولا تَعتمِدوا قَوْلَ الفَاسِقِ، وقُرِئَ: «فَتَثَبَّتُوا»[٣] ورُوِيَ ذلك عن الباقر عليه السلام، والتَثَبُّتُ والتَبيُّنُ متَقَارِبانِ وهما التَوَقُّفُ وطَلَبُ الثَّباتِ والبيانِ ﴿أَن تُصِيبُواْ﴾ مفعولٌ لَهُ أي: كَرَاهَةَ إصابتِكُم ﴿قَوْمَاۢ بِجَهَٰلَةٍ﴾ حَالٌ بمعنىٰ: جاهلينَ بحقيقةِ الأَمْرِ، كقَولِهِ: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾[٤] بِغَيْظِهِم ﴿فَتُصْبِحُواْ﴾ أي: فَتَصيرُوا ﴿عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ﴾ مِن إصَابَتِهِم بالخَطَأ ﴿نَٰدِمِينَ﴾ والنَّدَمُ ضَرْبٌ من الغَمِّ، وهو أَن تَغْتَمَّ علىٰ ما وَقَعَ مِنْكَ تَتَمنَّىٰ أنَّه لَمْ يَقَعْ.

﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ﴾ هذهِ الجملةُ المصَدَّرَةُ بـ«لَو» حالٌ من أَحَدِ الضَّميرَيْنِ في ﴿فِيكُمْ﴾ المرفُوعُ المستكنُّ أو المجرورُ الظاهِرُ، والمعنىٰ: إنَّ فيكُم رسولَ اللهِ علىٰ حالةٍ يَجِبُ عليكُم تَغْيِيرُها، أو: أَنْتُم علىٰ حالةٍ يَجِبُ عليكُم تَغْيِيرُها، وهي أَنَّكُم تُحَاوِلُونَ منْهُ أن يعملَ في الحَوادِثِ مَا تَستَصوِبُونَهُ فِعلَ التَّابعِ لِغَيْرِهِ المِطْوَاعِ لَهُ، وَلَوْ فَعَلَ ذلكَ ﴿لَعَنِتُّمْ﴾ أي: لَوَقَعْتُم في الإِثْمِ والهَلاكِ، وهذا يَدلُّ علىٰ أنَّ بعض المؤْمنينَ زيَّنُوا لرسولِ ٱللهِ صلى الله عليه وآله وسلم تَصديقَ قَوْلِ الوَلِيدِ والإِيْقَاعَ ببَنِي المصْطَلِق،

---

(١) الإِحْنَةُ: الحقد في الصدر (لسان العرب: مادة أحن).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره: ج ١١ ص ٣٨٣ ـ ٣٨٤ عن أُم سلمة وابن عباس ومجاهد وقتادة ويزيد بن رومان.

(٣) قرأه ابن مسعود وحمزة والكسائي. راجع الكشّاف: ج ٤ ص ٣٦٠، والتذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٣٧٨.

(٤) الأحزاب: ٢٥.

وأَنَّ نَظائِرَ ذلك من الهَنَّاتِ كانَتْ تَفرطُ منْهُم، وأنَّ بعضَهُم يَريمُهُم [١] التَّقْوىٰ عن الحَسَادَةِ علىٰ ذلك، وهم الَّذين ٱستثْنَاهُم بقَولِهِ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَانَ﴾ أي: إلىٰ بَعضِكُم، وَهُم ﴿ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾، والمعنىٰ في تَحْبيبِ ٱللهِ وتَكْرِيهِهِ: اللُّطْفُ والإمْدادُ بالتَّوفيقِ، وَكُلُّ عاقلٍ يعلَمُ أنَّ الرَّجُلَ لا يكُونُ ممدوحاً بِفعل غَيْرِهِ، وإذا حُمِلَتِ الآيةُ علىٰ ظاهِرِها أدَّىٰ ذلك إلىٰ أنَّ ٱللهَ جلَّ وعزَّ أَثْنىٰ عليهِم بفِعْلِ نَفْسِهِ، و ﴿ٱلْكُفْرَ﴾: تَغْطِيَةُ نِعَمِ ٱللهِ تعالىٰ وَغَطْيُهَا بالجُحُودِ ﴿وَٱلْفُسُوقَ﴾ الخُروجُ عن قَصْدِ الإيمانِ ومحجَّتِهِ بركُوبِ المَعَاصِي، وقيلَ: هو الكَذِبُ [٢] وهو المرويُّ عن الباقِرِ عليه السلام [٣] ﴿وَٱلْعِصْيَانَ﴾ المَعْصِيةُ ﴿أُوْلَٰئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ المهتَدُونَ إلىٰ مَحاسنِ الأُمورِ، المستقيمُونَ علَى الحقِّ. ﴿فَضْلًا﴾ مفعُولٌ لَهُ أو مَصْدَرٌ من غَيْرِ فِعْلِه، والفَضْلُ والنِّعْمَةُ بمعنَى الإفْضَالِ والإنْعَام.

وعن ٱبنِ عبَّاسٍ قَالَ: وَقَفَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم علىٰ مجلسِ بعضِ الأنْصار وهو علىٰ حمارٍ، فَرَاثَ [٤] الحمارُ فَأَمْسَكَ عبدُ ٱللهِ بنُ أُبيٍّ بأنْفِهِ فَقَالَ: خلِّ سبيلَ حمارِكَ فَقَد آذانا نَتْنُهُ، فَقَالَ عبدُالله بنُ رَوَاحَة: واللهِ لَحِمَارُ رسولِ ٱللهِ صلى الله عليه وآله وسلم أَطْيَبُ ريحاً منْكَ، وَمَضىٰ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم وطَالَ الخَوْضُ بينَهُما حتَّىٰ ٱستَبَّا وجاءَ قَومهما الأَوْسُ والخَزْرَجُ فَتجَالَدوا بالعِصِيِّ فَرجَعَ إليهم رسولُ ٱللهِ صلى الله عليه وآله وسلم فأَصْلَحَ بينَهُم، فَنَزَلَت، وقَرَأَهَا عليهم فاصْطَلَحُوا [٥].

والْبَغْيُ: الاستطالَةُ والظُّلْمُ، وَالفَيْءُ: الرُّجُوعُ، وقد يسمَّىٰ بِهِ الظِّلُّ والغَنيمةُ؛ لأنَّ الظلَّ يَرجِعُ، والغَنيمةُ: ما تَرجعُ إلى المسلمينَ من أَمْوالِ الكفَّارِ ﴿فَإِن فَآءَتْ﴾ أي:

---

(١) الرَّيْمَ: البَراحُ، يقال: رَامَ يَريمُ اذا بَرِحَ. (لسان العرب).

(٢) قاله ابن عباس. راجع تفسير البغوي: ج ٤ ص ٢١٢.

(٣) تفسير العياشي: ج ١ ص ٩٦ ح ٢٦٠. (٤) الرَّوْثُ: رجيع ذي الحافر. (لسان العرب).

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه: ج ٥ ص ٢١٨ ح ٢٦٩١ كتاب الصلح.

رَجَعَتْ وأَنابَتْ إلىٰ طاعةِ ٱللهِ ﴿فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا﴾ بين الطائفتَيْنِ بالعَدلِ ﴿وَأَقْسِطُوٓاْ﴾ أي: اعْدِلُوا ﴿إِنَّ ٱللهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ أي: العادِلِينَ.

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ في الدِّينِ ﴿فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ بين كلِّ رَجُلَيْنِ تَقَاتَلا وتَخاصَمَا، أي: كفُّوا الظالمَ عن المظلومِ وأَعينوا المظلومَ.

وفي الحَديثِ: «المسلمُ أَخُو المُسلمِ لا يَظْلِمُهُ ولا يُسْلِمُهُ»(١).

وقيلَ: المُرادُ بالأَخَوَيْنِ: الأَوسُ والخَزْرَج(٢)، وقُرِئَ: «بينَ إِخْوَتِكُم» على الجَمْعِ(٣) ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللهَ﴾ فإنَّكُم إنْ فَعَلْتُم ذلك حَمَلَكُم التَّقْوىٰ على التَّواصُلِ والائتلافِ، فَتَصِلُ عند ذلك رحمةُ ٱللهِ إليكُم، وتَشمَلُ رأْفَتُهُ عليكُم.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَـٰبِ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَـٰنِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ(١١) يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ(١٢) يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ(١٣) قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَـٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَـٰلِكُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(١٤)﴾

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرىٰ: ج ٦ ص ٩٤.

(٢) قاله مجاهد. راجع تفسير الطبري: ج ١١ ص ٣٨٨.

(٣) وهي قراءة يعقوب. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٦٨٩.

الْقَوْمُ: رِجَالٌ خاصَّةً لأنَّهم القُوَّامُ بأُمورِ النِّساءِ، وهو في الأَصْلُ جَمْعُ «قائِم»، كَصَومٍ وَزَوْرٍ في جَمْع «صائِم» و «زائِر»، قَالَ زُهير:

وما أَدري وسَوفَ إخالُ أَدري أَقَـومٌ آلُ حِصْنٍ أم نِسَـاءُ[1]

والمعنىٰ ﴿لا يَسْخَرْ﴾ بَعضُ الرِّجالِ من بعضٍ، ولا بَعضُ النِّساءِ من بـعضٍ، وقَولُهُ: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْراً مِّنْهُمْ﴾ كلامٌ مستَأْنَفٌ، وقَـد وُرِدَ مـوردَ جَـوابِ المستَخْبِرِ عن العلَّةِ المُوجبةِ لِمَا جاءَ النَّهْيُ عنْهُ، والمعنىٰ: أنَّ المسخُورَ منْهُ ربَّما كانَ عند ٱللهِ خَيْراً من السَّاخِرِ، فينبغي أن لا يستهزِئَ أَحَدٌ بمَنْ يَراهُ رَثَّ الحـالِ أو ذَا عَاهَةٍ، فلعلَّهُ أَتْقىٰ عند ٱللهِ وأَخْلَصُ ضَميراً ممَّن هو علىٰ ضدِّ صِفَتِهِ، فيكُونُ قَد حَقَّرَ مَن وَقَّرَهُ ٱللهُ. ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: لا يَطْعَنْ بعضُكُم عـلىٰ بـعضٍ، ومـثْلُهُ ﴿لَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾[2] لأنَّ المؤْمنينَ كَنَفْسٍ واحِدةٍ، أي: حصِّنُوا أنفُسَكُم بالانتهاءِ عن عَيْبِها والطَّعْنِ فيها، ولا عَلَيكُم أن يَعْتبوا[3] غَيْرَكُم ممَّنْ لا يَدينُ بدِينِكُم.

وفي الحديثِ: «اذكُروا الفَاجِرَ بِمَا فيهِ كي يَحذَرَهُ النَّاسُ»[4].

واللَّمْزُ: الطَّعْنُ والعَيْبُ في المشهدِ، والهَمْزُ: في الغَيْبِ، وقيلَ: إنَّ اللَّمْزَ ما يكُونُ باللِّسانِ وبـالعينِ والإشَـارةِ، والهَـمْزُ لا يكُـونُ إلَّا بـاللِّسانِ[5]. ﴿وَلَا تَـنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَـٰبِ﴾ أي: لا تَداعَوْا بها، وهو تَفاعلٌ من النَّبْزِ، وبنُو فُلانٍ يتَنَابزُون ويَتَنَازَبُونَ

---

(١) البيت من قصيدة طويلة يهجو فيها قوماً من بني غليب، يقول: سأبحث عـن حـقيقة أمـر هؤلاء الناس أرجال هم أم نساء! وهذا هزء بهم وتوعدٌ لهم. راجع ديوان زهير بن أبي سلمىٰ: ص ١٢.

(٢) النساء: ٢٩.

(٣) في نسخة: «تعيبوا».

(٤) أخرجه العجلوني في كشف الخفاء: ج ١ ص ١١٤ و ج ٢ ص ٤٩٢، وابن حجر في الكافِ الشاف: ص ١٥٧، والشهيد الثاني في كشف الريبة: ص ٧٩.

(٥) قاله الطبري كما في تفسير القرطبي: ج ١٦ ص ٣٢٧.

بمعنىً، والتَّلْقيبُ المَنْهيّ عنْهُ هو ما يُدخِلُ علَى المدعوِّ بِهِ كَرَاهَةً لكونِهِ ذمّاً لَهُ وشَيْناً، فأمَّا ما يحبُّهُ وما يزيِّنُهُ ويُنَوِّهُ بِهِ فَلَا بأْسَ بِهِ.

وفي الحديثِ: «من حقِّ المؤمنِ علىٰ أخيهِ أن يُسمِّيَهُ بأَحَبِّ أسمائِهِ إليهِ»(١).

وعن ٱبنِ عبَّاسٍ: أنَّ أمَّ سَلَمَة رَبَطَتْ حَقَويْها بسبيبةٍ ـ وهي ثوبٌ أبْيَضُ ـ وسَدَلَتْ طرَفَها خلْفَها فكانَتْ تَجُرُّهُ، فقَالَتْ عائشةُ لحفْصَةَ: انْظُري ما تَجُرُّ خَلْفَها كأنَّه لِسَانُ كَلْبٍ، فهذه كانَتْ سُخْريَّتَها(٢). وقيلَ: إنَّها عيَّرَتْها بالْقِصَرِ وأشَارَتْ بيدِهَا أنَّها قَصيرة(٣).

وقيلَ: إنَّ صفيَّةَ بنتَ حُيَيٍّ أَتَتْ رسولَ اللهِ تبكي وقَالَتْ: إنَّ عائشةَ تُعيِّرني وتقُولُ: يا يهوديّةُ بنتُ يهودِيَّيْنِ، فقَالَ لَهَا رسولُ ٱللهِ صلّى الله عليه وآله وسلّم: «هلَّا قُلْتِ إنَّ أبي هَارونُ، وإنَّ عمِّي موسىٰ، وإنَّ زَوجي محمّدٌ صلّى الله عليه وآله وسلّم» فنَزَلَت(٤).

﴿بِئْسَ الاسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيْمَانِ﴾ الاسمُ هنا بمعنَى الذِّكْرِ منْ قَولِهِم: طارَ ٱسمُهُ في النَّاسِ بالكَرَمِ أو باللُّؤْمِ، أي: صِيتُهُ وَذِكْرُهُ، وحقيقتُهُ: ما سَمَا من ذِكْرِهِ وٱرتَفَعَ بين النَّاسِ، كأنَّهُ قَالَ: بِئْسَ الاسْمُ المُرْتَفعُ للمؤمنينَ بسَبَبِ ٱرتكابِ هذهِ الجرائرِ أن يُذْكَرُوا بالفُسُوقِ. وفي قَولِهِ: ﴿بَعْدَ ٱلْإِيمَـٰنِ﴾ ثلاثةُ أَوْجُهٍ: أَحَدُها: ٱستِقْباحُ الجَمْعِ بين الإيمانِ والفسقِ، كَمَا يُقَالُ: بِئْسَ الشَأْنُ بَعْدَ الْكِبَرِ الصَّبْوَةُ. والثَّاني: أَن يكُونَ المعنىٰ: بئْسَ الذِكْرُ أن يُذْكَرَ الرجُلُ بالفَسْقِ بَعْدَ إيمانِهِ، وذلكَ أنَّهم كانُوا يقُولُونَ لِمَنْ أَسْلَمَ من اليَهُودِ: يا يهُوديّ يا فَاسِقُ، فنُهُوا عَنْهُ، وتكُونُ الجُمْلَةُ

(١) رواه الزمخشري في الكشاف: ج ٤ ص ٣٦٩.

(٢) تفسير ابن عباس: ص ٤٣٦.

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره: ج ١١ ص ٣٩٥ عن حسّان بن المخارق.

(٤) قاله ابن عباس. راجع أسباب النزول للواحدي: ص ٣٣٤ ح ٨١٢ وأورده القمي عليّ بن ابراهيم في تفسيره: ج ٢ ص ٣٢٩.

علىٰ هذا التَّفْسيرِ متعلِّقةً بالنَّهي عن التَّنابزِ، والثَّالثُ: أَن يُجْعَلَ مَنْ فَسَقَ غَيْرُ مؤْمنٍ، كَمَا تقُولُ للمُتحوِّلِ عن التِّجارةِ إلى الفِلاحَةِ: بِئْسَت الحرْفَةُ الفِلَاحَةُ بَعْدَ التِّجارةِ.

﴿اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ﴾ وهو أَن يظنَّ بأَهْلِ الخيرِ سُوءاً، يَقالُ: جَنَّبَهُ الشَّرَّ إذا أَبْعَدَهُ عَنْهُ، وَحَقيقتُهُ: جَعَلَهُ منْهُ في جَانبٍ، فَيُعَدَّىٰ إلىٰ مفْعُولَيْنِ، ومُطَاوعَتُهُ: اجْتَنَبَ الشَّر، فَتَعَدَّىٰ إلىٰ مفْعُولٍ واحِدٍ ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ أي: ذَنْبٌ يَستَحق بهِ العِقَابَ ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ والتَّجَسُّسُ ـ بالجيمِ والحاءِ ـ واحِدٌ، وَالجِيمُ تفعُّلٌ من الجَسِّ، كَمَا أَنّ التَلَمُّسَ بمعنَى التَطَلُّبِ من اللَّمْسِ، والحَاءُ بمعنَى التعرُّفِ من الحسِّ، ولِتَقَاربِهما قيلَ لِمَشَاعرِ الإنسانِ: الحَوَاس، بالحاءِ والجيمِ، والمُرادُ: النَّهْيُ عن تَتبُّعِ عَوْرَاتِ المسلمينَ ومَعَائبِهم ﴿وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً﴾ يُقَالُ: غَابَهُ واغْتَابَهُ كَغَالَهُ واغْتَالَهُ، والْغِيبَةُ من الاغْتِيابِ كالْغِيلَةِ من الاغْتيالِ، وهي ذِكْرُ السُّوءِ في الْغَيْبَةِ.

وسُئِلَ النبيُّ ﷺ عن الْغِيبةِ فَقَالَ: «أَنْ تَذْكُرَ أَخَاكَ بما يَكْرَهُ، فإنْ كانَ فيهِ فَقَد اغْتَبْتَهُ، وإنْ لَمْ يكُنْ فيهِ فَقَد بَهَتَّه»[(١)].

﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ﴾ تَمثيلٌ وتَصْويرٌ لِمَا يَنَالُهُ المغتَابُ مِن عِرْضِ المغتابِ علىٰ أَفْظَعِ وَجْه. وعن قَتَادةَ: كَمَا تكْرَهُ إنْ وَجَدْتَ جِيفَةً مدوِّدَةً أَن تأْكُلَ منْها كذلكَ فاكْرَهْ لَحْمَ أَخيكَ وهو حيٌّ[(٢)]. و ﴿مَيْتاً﴾ نَصْبٌ على الحالِ من ﴿لَحْم أَخِيهِ﴾ أو من «الأخ»، ولمَّا قرَّرَ سبحانَهُ بأَنَّ أَحداً منْهم لا يُحِبُّ أَكْلَ جيفَةِ أَخيهِ عقَّبَ ذلكَ بقَولِهِ: ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ أي: فَتَحَقَّقَتْ بوجوبِ الإقْرَارِ عليكُم كَراهَتُكُم لَهُ ونُفُورُ طِباعِكُم منْهُ، فاكْرَهُوا ما هو نَظيرُهُ من الغِيْبَةِ.

---

(١) أخرجه مسلم في الصحيح: ج ٤ ص ٢٠٠١ ح ٢٥٨٩، وفي مجموعة ورّام: ص ٩٥ بألفاظ متقاربة، والشهيد الثاني في كشف الريبة: ص ٥٢.

(٢) حكاه عنه الطبري في تفسيره: ج ١١ ص ٣٩٦.

ورُوِيَ: أنَّ أبابَكْرٍ وعُمَرَ بَعثَا سلمانَ إلىٰ رسول ٱللهِ ﷺ ليأْتي لَهُما بِطَعَامٍ، فَبَعَثَهُ إلىٰ أُسامةَ بنِ زَيْدٍ ـ وكانَ خَازِنَ رسولِ ٱللهِ ﷺ علىٰ رَحْلِهِ ـ فقَالَ: ما عِنْدي شَيءٌ، فَعَادَ إليهِمَا فقَالاَ: بَخِلَ أُسامَةُ، ولَوْ بَعَثْنَا سلمانَ إلىٰ بئْرِ سُمَيْحَة لَغَارَ ماؤُهَا، ثمَّ ٱنطَلَقَا إلىٰ رسولِ ٱللهِ ﷺ، فقَالَ لَهُما: مَا لِي أَرَىٰ خُضْرَةَ اللَّحْمِ في أَفْواهِكُما؟ قَالاَ: يا رَسُولَ ٱللهِ، ما تَنَاولْنَا اليومَ لَحماً! قَالَ: ظَلَلْتُم تـأْكُلُونَ لَـحْمَ سلمانَ وأُسَامَة، فنَزَلَتْ (١).

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللهَ﴾ بِتَرْكِ مَا أُمِرْتُم باجتِنَابِهِ، والنَّدَمِ علىٰ ما وجدَ منْكُم منهُ ﴿إِنَّ ٱللهَ تَوَّابٌ﴾ يَقْبلُ تَوبَتَكُم.

﴿إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ من آدمَ وحَوَّاء، وقيلَ: خَلَقْنا كلَّ واحدٍ منكم من أَبٍ وأُمٍّ، فما منكُم أَحَدٌ إلَّا وهو يُدْلي بمِثْلِ ما يدْلي بِهِ الآخر (٢)، فَـلاَ وَجْـهَ للتَّفاخرِ والتَّفاضلِ في النَّسَبِ ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً﴾ جَمْعُ شَعْبٍ وهو الطبقَةُ الأُولىٰ من طَبَقَات السِّتِّ مثلُ مُضَر وَرَبيعةَ ﴿وَقَبَآئِلَ﴾ وهي دُونَ الشُّعُوبِ كَبَكْرِ بـنِ (٣) ربيعَةَ وتَميمِ بنِ (٤) مُضَر، ثمَّ العِمَارَة دُونَ القبيلَةِ، ثمَّ البَطْنُ، ثمَّ الفَخِذُ، ثم الفَصِيلَةُ ﴿لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ أي: لتَتَعارفُوا فَيَعرفُ بـعضُكُم بَـعْضاً بِـنَسَبِهِ وأَبـيهِ وقَـومِهِ، لا لأَنْ تَتَفَاخَروا بالآباءِ والأَجْدادِ وتدَّعُوا التَّفَاوتَ والتَّفاضُلَ، ثمّ بيَّنَ سبحانَهُ الخـصْلَةَ الّتي يكْتَسِبُ الإنسانُ بها الكَرَمَ والشَّرَفَ عند ٱللهِ تـعالىٰ وَيـفْضُلُ غَـيْرَهُ فَـقَال: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ ٱللهِ أَتْقَاكُمْ﴾ أي: أَرْفَعكُم منْزِلَةً عند ٱللهِ وأَكْثَرَكُم ثَواباً أَتْقَاكُم لِمَعَاصيهِ، وأَعْمَلَكُم بطَاعَتِهِ.

---

(١) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٣٧٤ عن ابن عباس ولم يذكر اسم الرجـلين إلّا بلفظ «رجلين من الصحابة».

(٢) قاله مجاهد. راجع تفسير الطبري: ج ١١ ص ٣٩٧.

(٣ و ٤) في نسخة «من» بدل «بن».

الإِيمانُ: هو التَّصديقُ مع الثِّقةِ وطُمَأْنينةِ النَّفسِ، وَالإِسْلامُ: الدُّخُولُ في السِّلْمِ، والخُروجُ مِنْ أن يكُونَ حَرْباً للمؤْمنينَ بإظْهارِ الشَّهادَتَيْنِ، أَلا تَرىٰ إلى قَولِهِ: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾. وضعَ قَولهُ ﴿لَمْ تُؤْمِنُواْ﴾ مَوضِعَ «كَذَّبتم» بدلالةِ قَولِهِ في صِفَةِ المُخْلِصينَ: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ ٱلصَّادِقُونَ﴾ تَعْرِيضاً بأَنَّ هؤلاءِ هُمُ الكاذِبُونَ، ﴿وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا﴾ ولَمْ يَقُلْ: «ولكِنْ أَسْلَمْتُم» ليكُونَ خارِجاً مَخرجَ الزَّعْمِ والدَّعْوىٰ، كَمَا كانَ قَولهم: ﴿ءَامَنَّا﴾ كذلكَ، ﴿لَا يَلِتْكُمْ﴾ أي: لا يُنْقِصُكُم ولا يَظْلِمْكُم ﴿مِنْ﴾ ثوابِ ﴿أَعْمَـٰلِكُمْ شَيْئاً﴾ يُقالُ: أَلَتَهُ حَقَّهُ يَأْلُتُهُ أَلْتاً، ولاتَهُ يَلِيتُهُ بمَعْناهُ، وقُرئَ ﴿لَا يَلِتْكُم﴾ و «لا يأْلِتْكم»[١] على اللُّغتَيْنِ.

وعن ابنِ عبَّاسٍ: أنَّ نَفَراً من بني أَسَدٍ قَدِمُوا المدينةَ في سنةٍ جَدبةٍ فَأَظْهَروا الشَّهادةَ، وأَغْلَوا أَسْعَارَ المدينةِ، وهم يغْدونَ ويَرُوحُونَ إلىٰ رسولِ الله ﷺ ويقُولُونَ: أَتَتْكَ العَرَبُ بأَنْفسِها علىٰ ظهُورِ رَوَاحِلِهَا، وجئْناكَ بالأَثْقالِ والذَّرَارِي، يُرِيدُونَ الصَّدَقَةَ ويَمُنُّون عليهِ، فَنزَلَتْ[٢].

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَـٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ(١٥) قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَافِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَافِى ٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ(١٦) يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَىَّ إِسْلَـٰمَكُم بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَـٰنِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ(١٧) إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ(١٨)﴾

---

(١) قرأه البصريان (أبو عمرو ويعقوب) بهمزة ساكنة، لكن أبو عمرو يقلبها ألفاً إذا ترك الهمز. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٦٨٩.

(٢) تفسير ابن عباس: ص ٤٣٧.

﴿ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ﴾ ثمَّ لَمْ يَشُكُّوا بَعد ثَلْجِ صدُورِهِمْ بالإيمانِ بأَنْ يَعْتَرِضَهُم الشَّيْطانُ أو بعضُ المُضلِّينَ فَيُشكِّكَهُم وَيقْذِفُ في قُلُوبِهِم ما يَثْلَمُ اليقينَ ﴿وَجَٰهَدُواْ﴾ العَدُوَّ المُحَارِبَ أو الشَّيطانَ أو النَّفْسَ الأمَّارَةَ بالسُّوءِ ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ﴾ الَّذِينَ صَدَقُوا في قَولِهِم: آمَنَّا، ولَمْ يكذبُوا كَمَا كَذَبَ أَعْرابُ بني أَسَدٍ، وهم الَّذينَ إيمانُهُم إيْمانُ صِدْقٍ وحَقٍّ.

﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾ أي: أَتُخْبِرُونَ ٱللهَ بدينِكُم، والمعنىٰ: أَنَّه عَالِمٌ بذلكَ، ومُحِيطٌ بضَمَائِرِكُم، وَلَا يَحتَاجُ إلىٰ إخْبَارِكُم بِهِ؛ لأنَّه ﴿يَعْلَمُ﴾ جَميعَ المعلُومَاتِ لذَاتِهِ، فلا يَحتَاجُ إلىٰ عِلْمٍ يَعْلَمُ بِهِ ولا إلىٰ مَنْ يُعَلِّمُهُ.

يُقَالُ: مَنَّ عليه بِيَدٍ أَسْدَاهَا إليه: إذا ٱعتَدَّهَا عليهِ إنْعاماً، أي: لا تَعْتَدُّوا عَلَيَّ بما لَيْسَ جَديراً بالاعتدادِ بِهِ من حَديثِكُم الَّذي حَقَّ تَسميتُهُ أن يُقَالَ لَهُ: إسْلَامٌ لا إيْمان ﴿بَلِ ٱللَّهُ﴾ يَعْتَدُّ ﴿عَلَيْكُم﴾ بأَنْ أَمَدَّكُم بتَوفيقِهِ حينَ ﴿هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ علىٰ ما زَعَمْتُم وٱدَّعَيْتُم: أَنَّكُم أُرْشِدْتُم إليهِ وَوُفِّقْتُم لَهُ، إنْ صَحَّ زَعْمُكُم وصَدَقَتْ دَعْواكُم، لا أَنَّكُم تَزْعُمُونَ: ما ٱللهُ عَالِمٌ بخلافِهِ! وفي إضَافَةِ «الإسْلامِ» إليهِم وإيْرادِ «الإيْمانِ» غَيْرِ مُضَافٍ ما لا يَخْفىٰ علىٰ متأَمِّلِهِ، وجَوابُ الشَّرْطِ محذُوفٌ لدلالةِ ما قَبْلِهِ عليهِ، تَقْديرُهُ: إنْ كنْتُم صَادقينَ في ٱدِّعائِكُم الإيْمانَ فَلِلَّهِ المِنَّةُ عليكم.

وقُرِئَ: ﴿بما تَعْمَلُونَ﴾ بالتَّاءِ والياءِ(١) وفيه إشَارَةٌ إلىٰ كونِهِم غَيْرَ صادقينَ في دَعْواهُم، أي: لا يخفىٰ عليهِ شيءٌ من أَسرارِكُم فَكَيفَ لا يَظْهَرُ علىٰ صدقِكُم وكَذِبِكُم؟

❁ ❁ ❁

(١) وبالياء هي قراءة ابن كثير وعاصم برواية أبان عنه. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٦٠٦.

سُورَةُ قٓ

مَكّيّةٌ[1] إلاَّ آيةً[2]، وهي خَمْسٌ وأربعُونَ آيةً.

وفي حَديثِ أُبيٍّ: «مَن قَرَأَ سُورةَ قٓ هَوَّنَ ٱللهُ عليهِ سَكَراتِ المَوْتِ»[3].

وعن الباقرِ عليه السلام: «مَنْ قَرَأَ في فَرائِضِهِ ونَوافِلِهِ سُورةَ قٓ وَسَّعَ ٱللهُ عليهِ في رِزْقِهِ، وأعْطَاهُ ٱللهُ كتابَهُ بيمينِهِ وحَاسَبَهُ حِساباً يَسِيراً»[4].

بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ(١) بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ(٢) أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ(٣)

---

(١) قال الشيخ الطوسي في التبيان: ج ٩ ص ٣٥٦: مكّية بلاخلاف، وهي خمس وأربعون آيةً بلاخلاف.

وفي الكشّاف: ج ٤ ص ٣٧٩: مكّية إلّا آية (٣٨) فمدنية، وآياتها (٤٥) نزلت بعد المرسلات.

وفي تفسير القرطبي: ج ١٧ ص ١: مكّية كلّها في قول الحسن وعطاء وعكرمة وجابر. قال ابن عباس وقتادة: إلّا آية وهي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ الآية.

(٢) في نسخة: «يقال إلّا آية».

(٣) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٣٩٤ مرسلًا.

(٤) ثواب الأعمال للصدوق: ص ١٤٢ وفيه: «مَن أدمن» بدل «مَن قرأ».

قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَـٰبٌ حَفِيظٌ(٤) بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ(٥) أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَـٰهَا وَزَيَّنَّـٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ(٦) وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ(٧) تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ(٨) وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَـٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّـٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ(٩) وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَـٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ(١٠) رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ(١١)﴾

الكَلامُ في ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ مثْلُ الكَلامِ في ﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾[١] لأنَّهما في أُسلُوبٍ واحدٍ، و ﴿ٱلْمَجِيدِ﴾: ذو المَجْدِ والشَّرفِ علىٰ غَيْرِهِ من الكُتُبِ الكريمةِ علىٰ ٱللهِ.

﴿بَلْ عَجِبُوٓا۟﴾ أي: تَعَجَّبوا مِمَّا ليس بِعَجَبٍ وهو ﴿أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ قد عَرفُوا أَمانَتَهُ وعَدالَتَهُ يُنْذِرُهُم بالمخوفِ من البَعْثِ والجَزاءِ ﴿فَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ وضِعَ الظَّاهِرُ مَوضِعَ الضَّميرِ لِيَدُلَّ علىٰ أنَّهم في قَولِهم: ﴿هَـٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ مُقْدِمُونَ علىٰ كُفْرٍ عَظيمٍ. و ﴿هَـٰذَا﴾ إشارةٌ إلَى الرَّجْعِ، و ﴿إِذَا﴾ منْصُوبٌ بمضْمَرٍ، والمعنىٰ: أَحينَ نَمُوتُ ونَصيرُ تُراباً نُبْعَثُ ونُرْجَعُ؟! ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾ مستَبْعَدٌ مستَنْكَرٌ، كَما تَقُولُ: هذا قَولٌ بَعيدٌ، أي: بَعيدٌ من الوَهْمِ والعَادَةِ.

و ﴿قَدْ عَلِمْنَا﴾ رَدٌّ لاستِبْعَادِهِم الرَّجْعِ، أي: عَلِمْنَا ما تَأْكُلُ ﴿ٱلْأَرْضُ﴾ من لُحُومِهِم وتُبْليهِ من عظَامِهِم، فَلَا يَتَعَذَّرُ علينا رَجْعُهُم أَحياءً، وعن السُّدِّي: ﴿مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ ما يموتُ فَيُدْفَنُ في الأَرضِ مِنهم[٢]. ﴿وَعِندَنَا كِتَـٰبٌ

(١) صٓ: ١.

(٢) حكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٣٨٠.

حَفِيظٌ﴾ أي: محفُوظٌ عن البَلَىٰ والدُّرُوسِ، وهو كتابُ الحَفَظَةِ، أو: كِتَابٌ حـافِظٌ لِمَا أُوْدِعَ وكُتِبَ فيهِ.

﴿بَلْ كَذَّبُواْ﴾ إِضْرابٌ أُتْبِعَ الإِضْرابَ الأَوَّلَ للدَّلالةِ علىٰ أنَّهم جاءُوا بمَا هـو أَفْظَعُ من تَعَجُّبِهم، وهو التَّكْذِيبُ ﴿بِالْحَقِّ﴾ الَّذي هو النُّبوّةُ المؤَيَّدةُ بـالمُعْجزَاتِ ﴿فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ أي: مختَلَطٍ مضْطَرِبٍ، يُقَالُ: مَرِجَ الخَاتَمُ في إصْبعهِ وخَرَجَ، فمرَّةً يقولُونَ: مجنونٌ، وتارةً: ساحِرٌ، وتارةً: شاعِرٌ.

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ﴾ حينَ كَفَروا بالبَعْثِ ﴿إِلَى﴾ آثارِ قُدْرةِ ٱللهِ في بناءِ ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ مَعَ عِظَمِها وحُسْنِ ٱنتظامِها ﴿كَيْفَ بَنَيْنَـٰهَا﴾ بغَيْرِ علَّاقةٍ وَعمَادٍ ﴿وَمَا لَـهَا مِـن فُرُوجٍ﴾ أي: شُقُوقٍ وفتُوقٍ، كـقَولِهِ: ﴿هَـلْ تَـرَىٰ مِـن فُـطُورٍ﴾[1]. ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا﴾ دَحَوْنَاهَا وبَسَطْنَاهَا، ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ أي: جِبالاً ثوابِتَ ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ مِنْ كلِّ صِنْفٍ تَبْتَهِجُ بِهِ لحُسْنِهِ. ﴿تَبْصِرَةً﴾ لِيُبْصِرَ بِهِ ويَذْكُرَ كُلُّ ﴿عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ راجِعٍ إلىٰ ربِّهِ، مفكِّرٍ في بَدَائعِ خَلْقِه.

﴿مَآءً مُّبَـٰرَكًا﴾ أي: مَطَراً وغَيْثاً يَكثُرُ النَّفْعُ بهِ والبَرَكَةُ ﴿فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّـٰتٍ﴾ أي: بَسَاتِينَ فيها أَشْجارٌ تَشْتَمِلُ على الفَواكِهِ ﴿وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ﴾ أي: وَحَبَّ الزَّرْعِ الَّذي من شأنِهِ أن يُحْصَدَ، وهو ما يُقْتَاتُ بِهِ من نَحْوِ الحنطةِ والشَّعيرِ وغَيْرِهما ﴿وَ﴾ أَنْبَتْنَا بِهِ ﴿ٱلنَّخْلَ بَاسِقَـٰتٍ﴾ طِوَالاً في السَّماءِ ﴿لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾ منْضُودٌ، نُضِّدَ بعضُهُ علىٰ بَعْضٍ، يُرِيدُ: كَثْرَةَ الطَّلْعِ وتَراكُمَهُ وكَثْرةَ ما فيهِ من التَّمرِ. ﴿رِّزْقًا﴾ مفعُولٌ لَهُ، أي: أَنْبتْنَاها لنَرْزُقَهم[2]، أو: مصدر ﴿أَنۢبَتْنَا﴾ لأنَّ الإنْباتَ في معنَى الرِّزْقِ، و ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ أي: كَمَا ﴿أَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ لا تَنْبُتُ شيئاً فَـنَبَتَتْ وعـاشَتْ كـذلكَ تُخْرجَونَ أَحْياءً بعد مَوْتِكم، والكافُ في مَوضِعِ الرَّفْعِ على الابتداء.

---

(١) الملك: ٣.

(٢) في بعض النسخ: «لرزقهم».

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ(١٢) وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ(١٣) وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ(١٤) أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ(١٥) وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ(١٦) إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ(١٧) مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ(١٨) وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ(١٩) وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ(٢٠)﴾

كُلٌّ من هٰؤلاء المذكُورينَ كَذَّبُوا ﴿ٱلرُّسُلَ﴾ الَّذينَ بُعِثُوا إليهِم ﴿فَحَقَّ﴾ أي: وَجَبَ وَحَلَّ ﴿وَعِيدِ﴾ وهو كلمةُ العَذَابِ، وفيهِ تَسْلِيةٌ لنبيِّنا صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَوَعيدٌ للكفَّار.

﴿أَفَعَيِينَا﴾ الهَمْزَةُ للإنْكارِ، يقَالُ: عَيِيَ بالأَمْرِ: إذا لَمْ يَهْتَدِ لَهُ، والمعنىٰ: إنَّا لَمْ نَعجَزْ عن الخَلْقِ ﴿ٱلْأَوَّلِ﴾ كَمَا عَلِمُوا حتَّىٰ نَعجَزَ عن الثاني ﴿بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ يعني: أَنَّهم لَمْ يُنْكِرُوا قُدْرَتَنا على الخَلْقِ الأوَّلِ، بَلْ هُمْ في خَلْطٍ وشُبْهَةٍ من البَعْثِ بعد الموتِ، قَد لَبَّسَ عليهم الشَّيطانُ وحَيَّرَهُم بأَنْ سَوَّلَ إليهِم أَنَّ إحْياءَ الأَمْواتِ أَمْرٌ خَارِجٌ عن العادةِ.

والوَسْوَسَةُ: الصَّوْتُ الخَفِيُّ، وَوَسْوَسَةُ النَّفْسِ: ما يَخْطُرُ ببَالِ الإنسانِ ويَهْجسُ في ضَميرِهِ من حديثِ النَّفْسِ، والباءُ مثْلُها في قَولِكَ: صَوَّتَ بِكَذَا، ويجُوزُ أَن يكُونَ للتَّعدية، والضَّميرُ لـ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ أي: ما تَجْعَلُهُ موَسْوَساً، و «ما» مصدريَّةٌ؛ لأنَّهم يقُولُونَ: حَدَّثَ نفسَهُ بكَذَا، كَمَا يقُولُونَ: حدَّثَتْهُ بِهِ نَفْسُهُ، قَالَ لبيدٌ:

وَاكْذِبِ النَّفْسَ إذَا حَدَّثْتَها إنَّ صِدْقَ النَّفْسِ يُزْرِي بِالأَمَلْ[1]

(١) البيت من قصيدة طويلة يذكر فيها مآثره ومواقفه ولا تخلو من حِكَم، ومنها هذا البيت، يقول: حدِّث نفسك بالظفر وبلوغ الأمل دائماً لتنشِّطها على الإقدام والعمل راجع ديوان ←

﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ﴾ يُريدُ: قُرْبَ عِلْمِهِ منْهُ وتَعَلُّقَهُ بالأَحْوالِ حتَّىٰ لا يَـخفَىٰ عليهِ شيءٌ منْها، فكأَنَّ ذاتَهُ قَريبةٌ منْهُ ﴿وَحَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ مَثَلٌ في فَرْطِ القُرْبِ، كَمَا قَالُوا: هو مِنِّي مَعْقَدُ العِذَارِ، والحَبْلُ: العِرْقُ، والوَرِيدَانِ: عرْقَانِ مكتنفانِ بِصَفْحَتَي العُنُقِ في مقَدَّمِها يتَّصِلَانِ بالوَتِينِ يردَانِ من الرأْسِ إليه.

﴿إِذْ﴾ منْصُوبٌ بـ﴿أَقْرَب﴾ والمَعنىٰ: أَنَّه سبحانَهُ يعلَمُ خَطَراتِ النَّفْسِ وهـو أَقْرَبُ إِلَى الانسانِ من كلِّ قَرِيبٍ حينَ ﴿يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ﴾ أي: المَكَانِ الحافِظَانِ يأْخُذَانِ ما يَتَلَفَّظُ بهِ، وهذا إِيذَانٌ باستغنائِهِ عزَّ اسمُه عن ٱستِحْفَاظِ المَلَكَيْنِ، إذْ هو مطَّلِعٌ علىٰ أَخْفَى الخفِيَّاتِ، وإنَّما ذلك لِحكْمَةٍ تَقْتَضِيه، وهي ما في ذلكَ من زيادةِ اللُّطْفِ في ٱنتهاءِ العِبَادِ عن القَبَائحِ والرَّغْبةِ في العبَاداتِ، والتَلَقِّي: التَّلَقُّنُ، والقَعِيدُ: القَاعِدُ كالجَلِيسِ، وتَقْدِيرُهُ: عن اليمينِ قَعيدٌ وعن الشِّمالِ قَعيدٌ من المُتَلَقِّيَيْنِ، فَترِكَ أَحَدُهُمَا لدلالةِ الثاني عليهِ، كقَولِ الشَّاعِرِ:

رَمَاني بِـأَمْرٍ كُـنْتُ مِـنْهُ وَوَالِـدِي بَرِيّاً ومن جُولِ الطَّوِيِّ رَمَـاني (١)

﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ﴾ مَلَكٌ يَرقُبُ عَمَلَهُ ﴿عَتِيدٌ﴾ حاضِرٌ مَعَه.

وعن النبيِّ ﷺ: «كاتِبُ الحَسَنَاتِ علىٰ يمينِ الرَّجُلِ، وكـاتِبُ السـيِّئاتِ علىٰ يَسَارِهِ، وصاحِبُ اليمينِ أَميرٌ علىٰ صاحِبِ الشِّمالِ، فإذا عَملَ حَسَنَةً كَـتَبَها مَلَكُ اليمينِ عَشْراً، وإذا عَملَ سيِّئَةً قَالَ صاحِبُ اليمينِ لِصَاحِبِ الشِّمالِ: دَعْهُ سَبْع سَاعَاتٍ لَعلَّهُ يُسبِّحُ أو يَستَغْفِر» (٢).

← لبيد بن ربيعة العامري: ص ١٤١.

(١) البيت لابن أحمر، وقيل: للأزرق بن طرفة الفراصيّ، يقول: رماني بأمرٍ عاد إليه قبحه لأنَّ الذي يرمي من جول البئر يعود ما رمىٰ به عليه. أُنظر لسان العرب: مادة «جول».

(٢) أخرجه البغوي في تفسيره: ج ٤ ص ٢٢٣ عن أبي أُمامة.

﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ أي: شدَّتُهُ الذَاهِبَةُ بالعَقْلِ، والباءُ في ﴿بِالْحَقِّ﴾ للتَّعديةِ، أي: وأَحْضَرَتْ شِدَّةُ المَوتِ حقيقةَ الأَمْر من السَّعادةِ أو الشَّقَاوةِ، وقيل: بالحقِّ الّذي خُلِقَ لَهُ الإِنْسانُ(١)، ويجوزُ أَن يكُونَ الباءُ مِثْلَها في قَولِهِ: ﴿تَنْبُتُ بِالْدُّهْنِ﴾(٢) أي: جاءَتْ ملْتَبِسَةً بالحقِّ أي: بحقيقةِ الأَمْرِ أو بالحِكْمةِ والغَرَضِ الصحيحِ، وقُرِئ: «سَكْرَةُ ٱلحَقِّ بالمَوْتِ»(٣) ورُوي ذلك عن أئمَّتناعليهم السلام(٤)، أُضِيفَتْ «السَّكْرة» إلىٰ «الحقِّ» دلالةً علىٰ أَنَّه السَّكْرةُ المكتُوبةُ على الإِنسانِ، وأَنَّها حِكْمَةٌ، والباءُ للتَّعديةِ؛ لأَنَّها سَبَبُ زهُوقِ الرُّوحِ لشدَّتِها، أو: لأَنَّ المَوْتَ يَعْقُبُها، فكأَنَّها جاءَتْ بهِ، ويجُوزُ أن يكُونَ المعنىٰ: جاءَتْ ومَعَها المَوتُ، وقيلَ: سَكْرَةُ الحقِّ: سَكْرَةُ ٱللهِ أُضِيفَتْ إليهِ تَعْظيماً وتَفْظيعاً لشَأْنِها(٥) ﴿ذٰلِكَ﴾ إِشارَةٌ إلى المَوْتِ، والخِطَابُ للإِنسانِ في قَولِهِ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَـٰنَ﴾ علىٰ طريقِ الالتفاتِ، أو: إِلَى الحقِّ، والخِطَابُ للفاجرِ ﴿تَحِيدُ﴾ أي: تَهرُبُ وتَنْفُرُ، ﴿ذٰلِكَ﴾ إِشارةٌ إلىٰ مَصدَرِ ﴿نُفِخَ﴾ أي: وَقْتُ ذلكَ يومُ الوَعِيدِ فَحُذِفَ المُضَاف.

﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ(٢١) لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَـٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَـآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ(٢٢) وَقَالَ قَرِينُهُ هَـٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ(٢٣) أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ(٢٤) مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ(٢٥) ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ(٢٦) قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُ وَلَـٰكِن كَانَ فِى ضَلَـٰلٍ

(١) قاله الزجَّاج في معاني القرآن: ج ٥ ص ٤٥.
(٢) المؤمنون: ٢٠.
(٣) وهي قراءة أبي بكر وابن مسعود. راجع التبيان: ج ٩ ص ٣٦٥.
(٤) أنظر المصدر السابق.
(٥) حكاه الطبري في تفسيره: ج ١١ ص ٤١٨.

بَعِيدٍ(٢٧) قَالَ لَا تَخْتَصِمُواْ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ(٢٨) مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَاْ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ (٢٩) يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ(٣٠) وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ(٣١) هَـٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ(٣٢) مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَـٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ(٣٣) ٱدْخُلُوهَا بِسَلَـٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ(٣٤) لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ(٣٥)﴾

﴿مَعَهَا سَآئِقٌ﴾ من المَلائكةِ يَحُثُّها على السَّيْرِ إلى الحِسَابِ ﴿وَشَهِيدٌ﴾ منْهُم أيضاً يَشْهَدُ عليها بمَا يَعْلَمُ من حَالِها، و ﴿مَعَهَا سَآئِقٌ﴾ في مَوضعِ الحَالِ من ﴿كُلُّ﴾ لتعرُّفِهِ بالإضَافةِ إلىٰ ما هو في حُكْمِ المعرفةِ، أي: يقَالُ لَهُ: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فى غَفْلَةٍ مِّن هٰذَا﴾ اليوم في الدُّنيا، وجُعِلَتِ الغَفْلَةُ كأنَّها غِطَاءٌ لكَ وَغِشَاوَةٌ لِعَيْنِكَ ﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ﴾ الغِطَاءَ وزَالَتْ عنكَ الغَفْلَةُ فَرجَعَ ﴿بَصَرُكَ﴾ الكَلِيلُ عن الإبْصَارِ حَدِيداً لتيقُّظِهِ.

﴿وَقَالَ قَرِينُهُ﴾ وهو الشَّيطانُ الّذي قُيِّضَ لَهُ في قَولِهِ سبحانَهُ: ﴿نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَـٰناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [١] وقيلَ: هو المَلَكُ الشَّهيدُ عليهِ [٢] وهو المَرْويُّ عَنْهمعليهم‌السلام ﴿هٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ﴾: إنْ كانَ المُرادُ بالقَرينِ الشَّيطانُ فالمعنىٰ: هذا شَيءٌ لَدَيَّ وفي مِلْكَتي عَتيدٌ لجهنَّمَ أَعتَدْتُهُ وهَيَّأْتُهُ لَهَا بإغوائي وإضْلالي، وإنْ كانَ المُرادُ المَلَكُ فالمعنىٰ: هذا شَيءٌ حاضِرٌ عِنْدي من عَمَلِهِ كَتَبْتُهُ عليهِ إذْ وكَّلْتني بهِ، يقُولُ للهِ سبحانَهُ، و ﴿ما﴾ موصُوفةٌ و ﴿عَتِيدٌ﴾ صِفَةٌ لَهَا، وإنْ جَعَلْتَها موصُولةً فـ﴿عَتِيدٌ﴾ بَدَلٌ أو خَبَرٌ بَعدَ خَبَرٍ أو خَبَرُ مبتَدَأ مَحْذُوف.

---

(١) الزخرف: ٣٦.

(٢) قاله الحسن وقتادة. راجع تفسير الماوردي: ج ٥ ص ٣٥٠.

﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ﴾ خِطَابٌ من ٱللهِ للمَلَكَيْنِ: السَّائقِ والشَّهيدِ، ويجوزُ أن يكُونَ خِطَاباً للواحد بأَن يُنَزَّلَ تَثْنيةَ الفاعلِ مَنْزلةَ تَثْنيةِ الفِعلِ، كأَنَّهُ قيلَ: أَلْقِ أَلْقِ، أو: لأنَّ العَرَبَ أكْثَرُ ما يُرافِقُ الرَّجلَ منْهم اثْنانِ فَكثُرَ على أَلْسُنَتِهِم أَن يقُولُوا: «يا صاحِبَيَّ» و «خليلَيَّ» و «قِفَا» حتَّىٰ خَاطَبوا الواحِدَ خِطَابَ الاثنينِ، كَمَا وُرِدَ عن الحجَّاجِ أنَّه كانَ يقولُ: يا حَرَسِي اضْرِبَا عُنُقَهُ، أو: يكُونُ الألفُ بدلاً من النُّونِ الخَفيفةِ للتأْكيدِ إجْراءً للوَصْلِ مَجْرَى الوَقْفِ.

وعن أبي سعيدٍ الخُدريِّ عن النبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم قَالَ: إذا كانَ يومُ القيامةِ يقُولُ ٱللهُ لي ولعليٍّ عليه السلام: أَلْقِيا في النَّارِ مَنْ أَبْغَضَكُما، وأَدْخِلَا الجَنَّةَ مَنْ أَحَبَّكُما، وذلك قولُهُ عزَّ ٱسمُهُ: ﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾[1]. والعنيدُ: المعَانِدُ، المجَانِبُ للحقِّ، المعَادِي لأَهْلِه.

﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ كَثيرُ المَنْعِ للمَالِ عن حقُوقِهِ، أو: مَنَّاعٍ لجِنسِ الخيرِ أَن يَصِلَ إلىٰ أَهْلِهِ، يَحُولُ بينَهُ وبينَهُم، قيلَ: نَزَلَتْ في الوليدِ بن المُغيرةِ حين ٱستشارَهُ بنو أخيهِ في الإِسلامِ فَمَنَعَهُم[2] ﴿مُعْتَدٍ﴾ ظَالِمٍ مُتَعَدٍّ للحقِّ ﴿مُّرِيبٍ﴾ شَاكٍّ في ٱللهِ وفي دينِهِ، وقيلَ: متَّهَمٍ بفِعْلِ ما يُرتَابُ بِفِعْلِهِ مثْلُ الْمليم[3] ﴿الَّذِى جَعَلَ﴾ مبتَدأٌ مُضَمَّنٌ معنى الشَّرطِ، وخَبَرُهُ: ﴿فَأَلْقِيَاهُ﴾، ويجُوزُ أَن يكُونَ بَدَلاً من ﴿كُلَّ كَفَّارٍ﴾ ويكُونَ ﴿فَأَلْقِيَاهُ﴾ تَكْريراً للتأْكيدِ.

﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ﴾ أي: ما جَعَلْتُهُ طاغِياً، وما أَوْقَعْتُهُ في الطُّغيانِ،

---

(١) أخرجه الحاكم الحسكاني في شواهد التنزيل: ج ٢ ص ٢٦١ ح ٨٩٥ ومن طريق آخر أيضاً عنه في ص ٢٦٤ ح ٨٩٦، وابن المغازلي الشافعي في المناقب: ص ٤٢٧، والشيخ الطوسي في الأمالي: ج ١ ص ٢٩٦، وفرات الكوفي في التفسير: ص ١٦٧.

(٢) وهو قول الضحّاك. راج تفسير الماوردي: ج ٥ ص ٣٥٢.

(٣) حكاه الماوردي في تفسيره: ج ٥ ص ٣٥١.

ولكنَّه طَغَىٰ واْختَارَ الضَّلالَ على الهدىٰ، كَقَولِهِ: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَـٰنٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِى﴾[1]. ﴿قَالَ﴾ أي: يقولُ ٱللهُ عزَّ ٱسمه لـهُم: ﴿لَا تَخْتَصِمُواْ لَدَىَّ﴾ أي: لَا يخَاصِم بَعضُكُم بَعْضاً عنْدي في دارِ الجَزَاءِ فَلَا فَائِدةَ في ٱختصامِكُم ﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ﴾ علىٰ ألْسِنَةِ رُسُلِي، ثمَّ قالَ: لا تَطْمَعُوا أن أُبدِّلَ قَولي وَوَعيدي لَكُم في تَكْذيبِ رُسُلي ومخَالَفَةِ أَمْري بغَيْرِهِ ﴿وَمَا أَنَا۠ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ في عِقَابي[2]، ولكنَّهم ظَلَموا أنفُسَهُم بارتِكَابِ القَبَائِحِ، والباءُ في ﴿بِالْوَعِيدِ﴾ مَزيدَةٌ، مثْلُها في قَولِهِ: ﴿وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾[3] أو متعدِّيةٌ إِن كانَ «قَدَّمَ» بمعنىٰ «تَقَدَّمَ»، والجُملةُ الَّتي هي: ﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم﴾ وَقَعَتْ موقِعَ الحالِ من ﴿لَا تَخْتَصِمُواْ﴾، بمعنىٰ: وقَدْ صَحَّ عنْدَكُم أنيِّ قَدَّمْتُ إليكم بالوَعيدِ.

﴿يَوْمَ نَقُولُ﴾ قُرِئَ بالنُّونِ والياءِ[4]، وٱنتَصَبَ ﴿يَومَ﴾ بـ﴿ظَلَّـٰمٍ﴾ أو بـ﴿نُفِخَ﴾ وسؤَالُ جَهنَّم وجَوابُهَا من بابِ التَّخييلِ[5] الَّذي يُقْصَدُ بِهِ تَصويرُ المعنىٰ في القَلْبِ، وفيه مَعْنَيانِ: أَحَدُهُما: أنَّه تَمتَلِئُ مع تَباعُدِ أَطْرافِها حتَّىٰ لا يُزَادَ علىٰ ٱمتِلَائِها، والثاني: أنَّها من السِّعَةِ بحيث يَدْخُلوها مَنْ يَدخُلُها وفيها مَوضِعٌ للمَزيدِ،

---

(١) ابراهيم: ٢٢.
(٢) في بعض النسخ: «عقابهم».
(٣) البقرة: ١٩٥.
(٤) وبالياء هي قراءة نافع وعاصم برواية أبي بكر عنه. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٦٠٧.
(٥) ومثله في الأدب الانساني كثير كقول الشاعر:

امتلأ الحوضُ وقالَ قِطْني ... مهلًا رويداً قد ملأْتَ بطني

وفي الشعر الفارسي كقوله في المثنوي:

دوزخ است اين نفس و دوزخ اژدهاست ... كو بدرياها نگردد كم و كاست
عالمى را لقمه كرد و دركشيد ... معدهاش نعرهزنان هل من مزيد

والمَزيدُ: مَصْدَرٌ كالْمَجيدِ، أو: اسمُ مفعُولٍ كالمَبيعِ. ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ نَصْبٌ على الظَّرْفِ أي: مَكَاناً غير بَعيدٍ، او علَى الحَالِ، وإنَّما ذُكِّرَ لأنَّه علىٰ زِنَةِ المَصْدَرِ، والمَصَادرُ يستَوي في الوَصْفِ بها المذكَّرُ والمؤنَّثُ، أو: علىٰ حَذْفِ الموصُوفِ أي: شيئاً غَيْرَ بَعيدٍ، ومعنَاهُ التَّوكيدُ كَمَا تقُولُ: هو قَريبٌ غيرُ بَعيدٍ.

﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ﴾ جُملةٌ اعتِراضيَّةٌ ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ﴾ بَدَلٌ من ﴿الْمُتَّقِينَ﴾ بتَكْريرِ الجَارِّ، و ﴿هَٰذَا﴾ إشَارةٌ إلَى الثَّوابِ أو إلىٰ مَصْدَرِ ﴿أُزْلِفَتِ﴾، و«الأَوَّابُ»: التوَّابُ الرجَّاعُ إلى ٱللهِ وطَاعَتِهِ، والْحَفِيظُ: الحافِظُ لحدُودِهِ. ﴿مَنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ بَدَلٌ بعدَ بَدَلٍ تَابعٌ لـ ﴿كُلِّ﴾ ويجُوزُ أَن يكُونَ بَدَلاً عن مَوصُوفِ ﴿أَوَّابٍ﴾ و ﴿حَفِيظٍ﴾، ولا يَجُوزُ أن يكُونَ في حُكْمِ ﴿أَوَّابٍ﴾ و ﴿حَفِيظٍ﴾ لأنَّ «مَنْ» لا يُوصَفُ بِهِ، ولا يُوصَفُ بشيءٍ من الموصُولاتِ إلَّا بـ﴿الَّذي﴾ وَحْدَه، ويجوزُ أن يكُونَ مبتَدأً وخَبَرُهُ يُقَالُ لَهُم: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ﴾ لأنَّ «مَنْ» في معنَى الجَمْعِ، و ﴿بِالْغَيْبِ﴾ حَالٌ من المفعُولِ أي: خَشِيَهُ وهو غائِبٌ، أو: صِفَةٌ لِمَصْدر «خَشِيَهُ» أي: خَشِيَهُ خَشْيَةً ملْتَبِسَةً بالغَيْبِ حتَّىٰ خَشِيَ عِقَابَهُ وهو غائِبٌ، أو: من الفَاعِلِ أي: وهو في الخلْوَةِ حيثُ لا يَراهُ أَحَدٌ ﴿وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ راجعٌ إلى ٱللهِ مُقْبِلٌ عليهِ، يُقَالُ لَهُم: ٱدخُلُوها سَالِمينَ من العَذَابِ، أو: مُسَلَّماً عَليكُم بِسَلامِ ٱللهِ وملائكتهِ عليكُم ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ﴾ تَقْدير ﴿ٱلْخُلُودِ﴾، كقَولِهِ: ﴿فَادْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ (١) أي: مقَدِّرينَ الخُلُودَ ﴿وَلَهُم مَّا﴾ يُريدُونَ وما يَشْتَهونَ من أَنْواعِ النَّعيمِ في الجنَّةِ ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ علىٰ ﴿مَا يَشَآءُونَـ﴾ ـهُ ممَّا لَمْ يَخْطُرْ ببَالِهِم ولَمْ تَبلُغْهُ أَمانِيُّهُم، أو: ﴿مَزِيدٌ﴾ علىٰ قَدرِ ٱستِحقَاقِهِم.

---

(١) الزمر: ٧٣.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُواْ فِى ٱلْبِلَـٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ(٣٦) إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ(٣٧) وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ(٣٨) فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ(٣٩) وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَـٰرَ ٱلسُّجُودِ(٤٠) وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ(٤١) يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ(٤٢) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ(٤٣) يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ(٤٤) نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ(٤٥)﴾

﴿فَنَقَّبُواْ﴾ أي: فَتَحُوا المَسَالِكَ ﴿فِي ٱلْبِلَـٰدِ﴾، مِن النَّقْبِ وهو الطَّريقُ، والمعنى: دَوَّخُوا البلادَ ونَقَّرُوا عن أُمورِهَا، قَالَ حَارِثُ بن حِلِّزة:

نَقَّبُوا في البلادِ من حَذَرِ المَوْ ... تِ وجَالُوا في الأرضِ كُلَّ مَجَالِ[1]

والفَاءُ للتَّسبيبِ عن قَولِهِ: ﴿هُمْ أَشَدُّ مِنهُمْ بَطْشاً﴾ أي: شِدَّةُ بَطْشِهِم أَقْدَرَتْهُم علَى التَّنقيبِ وقَوَّتْهُم عليهِ، ويجوزُ أَن يكُونَ المعنىٰ: فَنَقَّبَ أهلُ مكَّةَ في بلادِ تلكَ القُرونِ فَهَلْ رأوا لَهُم مَحِيصاً من ٱللهِ أو من الموتِ حتَّىٰ يأْمُلوا مثْلَهُ لنفُوسِهم؟

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾ أي: تَذْكِرَةً وٱعتباراً ﴿لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ واعٍ، لأنَّ مَن لا يَعِي قَلْبُهُ فكأنَّهُ بلا قَلْبٍ، وعن ٱبنِ عبَّاسٍ: القَلْبُ هنا العَقْلُ[2] ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ﴾ بأَن يُصْغِي ويَسْتَمِعُ ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ حاضِرٌ بفِطْنَتِهِ، لأنَّ مَن لا يَحْضُرُ ذِهْنُهُ

---

(١) كذا تبعاً للكشّاف منسوب الى الحارث بن حِلِّزة، ولم نجده في ديوانه المطبوع في دار الكتاب العربي ـ لبنان.

(٢) تفسير ابن عباس: ص ٤٤٠.

فهو كالغَائبِ، أو: وهو مؤمِنٌ شَاهِدٌ علىٰ صحَّتِهِ وأنّه وَحْيٌ من ٱللهِ.

واللُغُوبُ: النَّصَبُ والإعْياءُ، أَكْذَبَ ٱللهُ تعالىٰ اليهودَ بقَولِهِ: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ حيثُ قَالُوا: استراحَ ٱللهُ يَومَ السَّبْتِ! ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ﴾ ما يقُولُهُ المشركُونَ من إنْكارِ البَعْثِ وتكذيبِكَ، وٱحتَمِلْ ذلك حتَّىٰ يأتيَ ٱللهُ بالفَرَجِ ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ التَّسبيحُ: محمُولٌ علىٰ ظاهِرِهِ وعلى الصَّلَاةِ، فَالصَّلاةُ ﴿قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ﴾ صَلاةُ الصُّبحِ ﴿وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ الظُّهْرِ والعَصْرِ ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ﴾ العِشَاءَيْنِ، وقيلَ: صَلاةُ الليلِ[(١)] فَيدْخُلُ فيها المَغْرب والعِشَاء، ﴿وَأَدْبَـٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ التَّسبِيحَ في أَعْقَابِ الصَّلَواتِ، والسُّجُودُ والرُّكُوعُ قَد يعَبَّرُ بهما عن الصَّلاةِ، وقيلَ: النَّوافِلُ بعد المَغْرِبِ ﴿وَأَدْبَـٰرَ النُّجوم﴾ الرَّكعتَانِ قَبْلَ صلاةِ الفَجْرِ[(٢)]. ورُوي: «أنَّ مَن صَلَّاها بَعْدَ المَغْرِبِ قَبْلَ أن يَتَكلَّمَ كُتِبَتْ صَلاتُهُ في علِّيِّين»[(٣)]. والأَدْبارُ: جَمْعُ دُبْرٍ، وقُرِئ بكَسْرِ الهَمْزةِ[(٤)]، من أَدبَرَتِ الصَّلاةُ: إذا ٱنقضَتْ وتَمَّتْ، والمَعنىٰ: وَقْتَ ٱنقضَاءِ السُّجُودِ، كَمَا يقَالُ: آتيكَ خُفُوقَ النَّجْمِ.

﴿وَٱسْتَمِعْ﴾ لِمَا أُخبِرُكَ بِهِ من حالِ يومِ القيامةِ، وفيهِ تَهْويلٌ لشأْنِ المُخْبَرِ بهِ، وٱنتَصَبَ ﴿يَوْمَ يُنَادِ﴾ بِمَا دلَّ عليهِ ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ﴾ أي: يوم يُنَادِي الْمُنَادِي يَخْرُجُونَ من قُبُورِهِم، و ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ﴾ بَدَلٌ من ﴿يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ﴾، والمُنَادي: إسرافيل، يَنْفَخُ في الصُّورِ وينادي: أَيَّتُها العِظَامُ الباليةُ والأَوْصَالُ المُنْقَطِعَةُ واللُّحُومُ

---

(١) قاله مجاهد. راجع تفسير الماوردي: ج ٥ ص ٣٥٧.

(٢) وهو قول أبي هريرة وابن عباس والشعبي وابراهيم ومجاهد والحسن وقتادة وروي عن علي والحسن عليهما السلام، وابن عباس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم. راجع تفسير الطبري: ج ١١ ص ٤٣٦ - ٤٣٧، وسنن الترمذي: ج ٥ ص ٣٩٢ ح ٣٢٧٥.

(٣) رواه القرطبي في تفسيره: ج ١٧ ص ٢٥ عن أنس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

(٤) قرأه ابن كثير ونافع وحمزة. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٦٠٧.

المتمزِّقَةُ، إنَّ ٱللهَ يأمُرُكُنَّ أن تَجْتَمِعْنَ لِفَصْلِ القَضَاء. ﴿مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ من صَخْرةِ بَيْتِ المقدسِ، وهي أَقْربُ الأرضِ من السَّماءِ، و ﴿ٱلصَّيْحَةَ﴾ هي النَّفْخَةُ الثانيةُ ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ يَتَعلَّقُ بـ﴿الصَّيْحَةَ﴾ والمُرادُ بِهِ البَعْثُ والحَشْرُ للجَزَاءِ ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ﴾ من القُبُورِ إلىٰ أَرْضِ المَوْقفِ. ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ﴾ الخَلقَ ونُميتُهم بَعْدَ الحياةِ ﴿وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ﴾ يوْم القيامَة.

وقُرِئ: ﴿تَشَّقَّقُ﴾ بإدْغَامِ التَّاءِ في الشِّينِ وبِحذْفِ التَّاءِ[1] أي: تَتَصدَّعُ ﴿ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ﴾ فَيخرُجُونَ عَنْها ﴿سِرَاعًا﴾ بلا تأْخيرٍ، وهو حالٌ من الضَّميرِ المجْرُورِ في ﴿عَنْهُمْ﴾، والْحَشْرُ: الجَمْعُ بالسَّوْقِ من كلِّ جِهَةٍ ﴿عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ تَقْديمُ الظَّرْفِ يَدُلُّ على الاختِصَاصِ، يَعني: لا يَتَيسَّرُ مثْلُ ذلك الأَمْرِ العظيمِ إلَّا علَى القادرِ بِالذَّاتِ الّذي لا يَشْغلُهُ شَأْنٌ عن شَأن.

﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ تَهْديدٌ لَهُم وتَسْليةٌ لنبيِّناﷺ ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ أي: مُتَسلِّطٍ تُجْبِرُهُم على الإيْمانِ إنَّما أَنْتَ دَاعٍ ومُنْذِرٌ، كَقَولِهِ: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾[2] يقَالُ: جَبَرَهُ وأَجْبَرَهُ على الأَمْرِ، و«علىٰ» بمَنْزلتِهِ في قَولِكَ: هو عليهم: إذا كانَ والِيهُم ومَالِك أَمْرِهِم ﴿مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ كقَولِهِ: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾[3] خَصَّ التَّذْكِيرَ بِهِم لأنَّه لا يَنْفَعُ إلَّا فيهِم.

❁ ❁ ❁

---

(١) أي: تشَّقَّقُ، وأصلها: تَتَشقَّقُ، وهي قراءة ابن كثير ونافع وابن عامر. راجع المصدر السابق.
(٢) الغاشية: ٢٢.
(٣) النازعات: ٤٥.

سُورَةُ الذّاريَاتِ

مكّيةٌ[1] وهي ستُّونَ آيةً.

في حديثِ أُبيٍّ: «مَنْ قَرَأ سُورةَ الذّارياتِ أُعْطِيَ من الأَجْرِ عَشْرَ حَسَنَاتٍ بِعَدَدِ كلِّ ريحٍ هَبَّت وجَرَتْ في الدُّنيا»[2].

وعن الصَّادقعليه‌السلام: «وَمَنْ قَرأَها في يومٍ أو ليلةٍ أَصْلَحَ ٱللهُ لَهُ معيشَتَهُ، وآتَاهُ برزْقٍ واسعٍ، ونوَّرَ لَهُ في قَبْرِهِ بسراجٍ يَزْهَرُ إلىٰ يَوْمِ القيامة»[3].

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا(١) فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا(٢) فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا(٣) فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا(٤) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ(٥) وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ(٦) وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ(٧) إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ (٨) يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ(٩) قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ(١٠) ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ(١١) يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ(١٢) يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ(١٣) ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا

---

(١) قال الشيخ الطوسي في التبيان: ج ٩ ص ٣٧٨: مكّية بلاخلاف، وهي ستون آية بلاخلاف.
وفي الكشّاف: ج ٤ ص ٣٩٤: مكّية، وآياتها (٦٠) نزلت بعد الأحقاف.

(٢) رواه الزمخشري في الكشاف: ج ٤ ص ٤٠٧ مرسلاً.

(٣) ثواب الأعمال للصدوق: ص ١٤٣.

ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ(١٤)﴾

﴿الْذَّٰرِيَٰتِ﴾ الرِّياحُ، لأنَّها تَذْرو التُّرابَ[1] وغَيْرَهُ، كَما يقَالُ: ﴿تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ﴾[2] وقُرِئَ بإدْغامِ التّاءِ في الذّالِ[3]. ﴿فَالْحَٰمِلَٰتِ وِقْراً﴾ هي السَّحابُ تَحمِلُ المَطَرَ. ﴿فَالْجَٰرِيَٰتِ﴾ هي السُّفُنُ ﴿يُسْراً﴾ أي: جَرْياً ذا يُسْرٍ وسهُولةٍ. ﴿فَالْمُقَسِّمَٰتِ أَمْراً﴾ هي الملائكةُ تُقَسِّمُ الأُمورَ من الأَمطارِ والأَرْزاقِ وغَيْرِها، أو: تَفْعَلُ التَّقْسيمَ مأْمُورةٌ بذلكَ، وهذا التَّفسيرُ مَرْويٌّ عن أميرِ المؤمنينَ عليه السلام[4] وعن ابنِ عبّاسٍ[5]، وعن مجاهدٍ: تَتَوَلّى الملائكةُ تَقْسيمَ أَمْرَ العبادِ: جبرئيلُ للغَلْظَةِ، وميكائيلُ للرَّحمةِ، ومَلَكُ المَوْتِ لقَبْضِ الأَرواحِ، وإسرافيلُ للنَّفْخِ، وقد حُمِلَتْ على الكواكبِ السَّبعةِ[6].

أَقْسَمَ سبحانَهُ بهذهِ الأشياءِ لِمَا تَضَمَّنَتْهُ من الدلالةِ علىٰ وحدانيتِهِ وبَديعِ حِكْمتِهِ وكمالِ قُدرتِهِ. وعَنْهُم عليهم السلام: «لا يجوزُ لأَحَدٍ أَن يُقْسِمَ إلَّا باللهِ، ولَهُ عزَّ اسمُهُ أن يُقْسِمَ بِمَا يَشاءُ من خَلْقِه»[7]. وجَوابُ القَسَمِ: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ﴾، و «مَا» موصُولَةٌ أو مَصْدريَّةٌ، والموعُودُ: البَعْثُ ﴿لَصَادِقٌ﴾ أي: ذو صِدْقٍ كـ﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾[8]. و ﴿ٱلدِّينَ﴾ الجزاءَ ﴿لَوَٰقِعٌ﴾ أي: حاصِلٌ كائِنٌ. و ﴿ٱلْحُبُكِ﴾ الطَّرائِقُ مثْلُ حُبُكِ الرَّمْلِ والماءِ: إذا ضَرَبَتهُ الرِّيحُ، وكذلكَ: حُبُكُ الشَّعْرِ: آثارُ تَثَنِّيهِ وتَكَسُّرِهُ، والدِّرْعُ محبوكَةٌ لأنَّ حَلقَها مُطَرَّقٌ بطَرائِق، وعن الحَسَنِ: حُبُكها:

(١) في بعض النسخ: «السحاب». (٢) الكهف: ٤٥.

(٣) أي التاء من ﴿الذَّٰرِيَٰتِ﴾ في الذّال من ﴿ذَرْواً﴾ وهي قراءة حمزة وأبي عمرو. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٦٩٣.

(٤) تفسير القمي: ج ٢ ص ٣٣٦، تفسير الطبري: ج ١١ ص ٤٤٢ ـ ٤٤٣.

(٥) تفسير ابن عباس: ص ٤٤٠. (٦) تفسير مجاهد: ص ٦١٧.

(٧) رواه الشيخ في التبيان: ج ٩ ص ٣٧٩ عن أبي جعفر عليه السلام وأبي عبدالله عليه السلام.

(٨) الحاقّة: ٢١، القارعة: ٧.

نُجُومُها(١)، وعن عليٍّ عليه السلام: حُسْنُهَا وزينَتُهَا(٢). ويَجُوزُ أن تكُونَ النُّجُومُ تُزَيِّنُها كَمَا تُزَيِّنُ المُوَشَّىٰ طَرائِقُ الوَشْي، وهي جَمْعُ حِبَاك، كـ«مِثَالٍ» و «مُثُلٍ»، وحَبِيكَةٌ كـ«طَرِيقة».

﴿إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾ هو قَولُهم في الرَّسُولِ عليه السلام: شاعِرٌ وساحِرٌ ومَجْنُونٌ، وفي القُرآنِ: إنَّه سِحْرٌ وكَهَانَةٌ وأَسَاطِيرُ الأوَّلين، وعن قَتَادَةَ: منْكُم مُصَدِّقٌ ومُكَذِّبٌ، ومُقِرٌّ ومُنْكِر(٣).

﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ﴾ الضَّميرُ للرَّسُولِ أو القُرآنِ، أي: يُصْرَفُ عنْهُ مَنْ صُرِفَ الصَّرْفَ الّذيٰ لا صَرْفَ أَشَدُّ منْهُ وأَعْظَمُ، كقولِهِ عليه السلام: «لا يَهْلِكُ علَى ٱللهِ إلَّا هَالِكٌ»(٤). وقيلَ: يُصْرَفُ عنْهُ مَن هو مَصْرُوفٌ عن الخَيْرِ في سَابِقِ عِلْمِ ٱللهِ(٥). ويَجُوزُ أن يكُونَ الضَّميرُ لِـ﴿مَا تُوعَدُونَ﴾ ومعنَاهُ: يؤْفَكُ عن الإِقْرَارِ بأَمْرِ القيامةِ مَنْ هو المأْفُوكُ.

﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّاصُونَ﴾ دُعَاءٌ عَلَيْهِم، وأَصلُهُ: الدُّعاءُ بالقَتْلِ والهَلَاكِ، ثمّ أُجْرِيَ مَجْرىٰ: لَعَنَ وقَبَّحَ، أي: لُعِنَ الكذَّابُونَ المقدِّرونَ ما لا يَصِحُّ، وهم أَصحابُ القَوْلِ المُخْتلفِ. واللَّامُ إشارةٌ إليهم، كأنَّهُ قيلَ: قُتِلَ هٰؤلاءِ الخرَّاصُونَ ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ﴾ أي: جَهْلٍ يَغْمُرُهُم ﴿سَاهُونَ﴾ غَافِلُونَ عمَّا أُمِرُوا بِهِ. ﴿يَسْئَلُونَ﴾ فَيقُولُونَ: ﴿أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ أي: متىٰ يومُ الجزَاءِ؟ ومعنَاهُ: أيَّانَ وقُوعُ يوْمِ الدِّين؟

﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ أي: يُحْرَقُونَ ويُعَذَّبُونَ، ومنه: الْـفَتِين، وهي

(١) تفسير الحسن البصري: ج ٢ ص ٣٠١.
(٢) حكاه عنه عليه السلام الماوردي في تفسيره: ج ٢ ص ٣٦٢.
(٣) حكاه عنه الماوردي في تفسيره: ج ٢ ص ٣٦٣.
(٤) أخرجه أحمد في المسند: ج ١ ص ٢٧٩ عن ابن عباس.
(٥) حكاه السمرقندي في تفسيره: ج ٣ ص ٢٧٦.

الْحَرَّةُ لأنَّ حجَارتَها كأنَّها مُحْرقَةٌ، و ﴿يَوْمَ﴾ يجوزُ أن يكُونَ مفتُوحاً لإضافَتِهِ إلىٰ غَيْرِ مُتمكّنٍ، فيكُونَ مَحلُّهُ رَفْعاً علىٰ: هُوَ يَوْمَ هُمْ... يُفْتَنُونَ، أو: نَصْباً بِفِعلٍ مُضْمَرٍ دلَّ عليهِ السُّؤالُ، أي: يَقَعُ في ذلكَ اليَوْمِ، ويجوزُ أن يكُونَ منْصُوباً في الأَصْلِ بالمُضْمَرِ الّذي هو «يَقَعُ».

﴿ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ﴾ في محلِّ الحالِ، أي: مقُولاً لَهُم هذا القَوْلُ ﴿هَـٰذَا﴾ مبتَدأٌ و﴿الَّذِى﴾ خَبَرُهُ، أي: هذا العَذَابُ هو الّذي ﴿كُنتُمْ بِهِ تَسْتَعجِلُونَ﴾.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ(١٥) ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَـٰهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ(١٦) كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ(١٧) وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ(١٨) وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ(١٩) وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَـٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ(٢١) وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ(٢٢) فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ(٢٣)﴾

﴿ءَاخِذِينَ﴾ أي: قَابِلينَ ما أَعْطَاهُم ﴿رَبُّهُمْ﴾ من النَّعيمِ والكَرامةِ، رَاضِينَ بِهِ ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ﴾ في دارِ التَّكليفِ ﴿مُحْسِنِينَ﴾ قد أَحْسَنُوا أَعْمالَهُم. وتَفْسِيرُ إحْسَانِهِم ما بَعْدَهُ، و «مَا» مَزيدَةٌ أي: كَانُوا يَهْجَعُونَ في زَمانٍ قَليلٍ من اللَّيلِ إنْ جُعِلَتْ ﴿قَلِيلًا﴾ ظَرْفاً، ويجوزُ أن يكُونَ صِفَةً للمَصْدَرِ أي: هُجُوعاً قَليلاً. ويجوزُ أن يكُونَ «مَا» مَصْدريَّةً أو موصُولَةً علىٰ: كَانُوا قَليلاً مِن اللَّيلِ هُجُوعُهُم، أو: ما يَهْجَعُونَ فيهِ هُجُوعاً، فيكُونُ فَاعِلَ ﴿قَلِيلًا﴾ وفيه ضُرُوبٌ من المبالَغَةِ بِلَفْظِ: «الهُجُوع» وهو الفِرَارِ من النَّوْمِ، قَالَ:

قَدْ حَصَّتِ الْبَيْضَةُ رَأْسِي فَمَا   أَطْعَمُ نَوماً غَيْرَ تَهْجَاعِ[1]

---

(١) لأبي قيس بن الأسلت من أبيات له في الفخر والحماسة يقول: قد حلقت البيضة ـ وهي ←

وقَولُهُ: ﴿قَلِيلًا﴾ و ﴿مِنَ ٱلَّيْلِ﴾ وزيَادةُ ﴿مَا﴾ المؤَكِّـدَةِ لذلك، أي: يُـحْيُونَ اللّيلَ مُتهجِّدينَ فإذا سَحَروا أَخَذُوا في الاستغفارِ، كأَنَّهم أَسْلَفُوا في ليلِهم الجَرائِمَ، وقَولُهُ: ﴿هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ فيه: أَنَّهم هم المخْتَصُّون بالاستغفَارِ لاسْتِدَامَتِهِم لَهُ.

السَّائِلُ: هو المستَجْدِي، وَالْمَحرُوم: الّذي يُحْسَبُ غَنيّاً فَيحرمُهُ النَّاسُ لِتعفُّفِهِ. وعن النبيِّ ﷺ: لَيْسَ المسكينُ الَّذي تَردُّهُ الأَكْلَةَ والأَكْلَتَانِ والتَّمْرَةُ والتَّمْرَتَانِ، قَالُوا: فَمَنْ هُوَ؟ قَالَ: الّذي لا يَجِدُ ولا يُتَصدَّقُ عَليه(١). وقيلَ: هو المُحَارِفُ الّذي لا يَنْمىٰ لَهُ مَالٌ(٢).

﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَـٰتٌ﴾ دَلالاتٌ دالّةٌ على الصَّانِعِ وكَـمَالِ قُـدْرتِهِ وبَـدَائـعِ حِكْمَتِهِ بِمَا فيها من السَّهْلِ والجَبَلِ والبَرِّ والبَحْرِ، وأَنْواعِ النَّباتِ والأَشْجارِ، بالثِّمارِ المختَلَفِ أَلْوانها وطُعُومها ورَوَائِحها، المـوافِـقَةُ لحَـوَائـجِ سَـاكِـنِيها ومَـنَافِعِهم ومَصَالِحِهم، وما أُنْبِتَ في أَقْطارِها من أَنواعِ الحَيَوانِ المختَلِفَةِ الصُّورِ والأَشْكالِ، وغَيْرِ ذلكَ ﴿لِّلْمُوقِنِينَ﴾ المُوَحِّدينَ النَّاظرينَ المتأمِّلينَ ببصَائِرِهِم.

﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ في مبتَدَأ أَحْوالِها وتَنَقُّلِها من حالٍ إلىٰ حال، وما رُكِّبَ في ظَواهِرِها وبَوَاطِنِها من عَجَائِبِ الفَطْرِ وبَدَائعِ الحكَمِ ما تُحَارُ فيه العُقُولُ، وحَسْبُكَ بالقُلُوبِ وما ذُكِرَ فيها من لَطَائِفِ المَعَاني، وبالأَلْسُنِ والنُّطْقِ ومَخَارِجِ الحُرُوفِ، وبالصُّوَرِ والطَّبَائِعِ والأَلْوانِ وٱختلافِها في كلِّ إنْسانٍ، وبالأَسْماعِ والأَبْصَارِ وسَائِرِ الجَوَارِحِ، وما رُتِّبَ فيها من فُنُونِ الحِكْمَةِ:

← ما تلبس على الرأس في الحرب ـ شعر رأسي من دوام لبسها، والتهجاع: التغافل قليلًا لطرد النوم. راجع شرح شواهد الكشّاف: ص ١٨١.

(١) أخرجه أحمد في المسند: ج ٢ ص ٣٩٣ و ٤٥٧ عن أبي هريرة.

(٢) قاله ابن عباس ومجاهد والضحاك. راجع التبيان: ج ٩ ص ٣٨٤.

وَفِي كَلِّ شيءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ علىٰ أنَّه وَاحِدُ[(١)]

﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ﴾ وهو المَطَرُ لأنَّه سَبَبُ الأَقْواتِ ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ الجَنَّة، أَو أراد: ما تُرْزَقُونَهُ في الدُّنيا وما تُوْعَدُونَهُ في العُقْبىٰ، كُلُّهُ مقدَّرٌ مكْتُوبٌ في السَّماءِ. ﴿مِثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ وَقُرِئ: «مِثْلُ» بالرَّفعِ[(٢)] صِفَةً لِـ﴿لَحَقٌّ﴾ أي: حَقٌّ مِثْلُ نُطْقِكُم، وبالنَّصْبِ علىٰ أنَّه: حَقَّ حقّاً مثْلَ نُطْقِكُم، ويجُوزُ أن يكُونَ فَتْحاً لإضافَتِهِ إلىٰ غَيْرِ متمَكِّن. و ﴿مَا﴾ مَزيدةٌ بِنَصِّ الخليلِ[(٣)] وهذا مثْلُ قَوْلِهِم: إنَّ هذا لَحقٌّ كَمَا أنَّكَ تَرىٰ وتَسْمَعُ، ومِثْلَ ما أنَّكَ ها هنا، والضَّميرُ في ﴿إِنَّهُ﴾ لِمَا ذُكِرَ من الآياتِ والرِّزْقِ، أو: للنبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، أو: ﴿لِمَا تُوعَدُونَ﴾ والمعنىٰ: أنَّه في صِدْقِهِ وتَحقُّقِهِ كالَّذي تَعْرِفُهُ ضَرُورةً.

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ(٢٤) إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ(٢٥) فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ(٢٦) فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ(٢٧) فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ(٢٨) فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ(٢٩) قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ

(١) لأبي العتاهية من أبيات له قالها ردّاً على مَن رماه بالزندقة، وهي:

أَلا إنَّـنا كـلُّنا بـائدُ وأيُّ بـني آدمَ خـالدُ
وبـدؤهم كـان مـن ربِّـهم وكـلٌّ الى ربِّـه عـائدُ
فيا عجباً كيف يعصى الإلـه أم كـيف يَـجحدُهُ الجـاحدُ
ولله فـي كـلِّ تـحريكة وَفِـي كَـلِّ تسكـينة شـاهدُ
وفـي كـلِّ شـيءٍ لَـه آيـةٌ تـدلُّ عـلىٰ أنّـه واحـدُ

(٢) قرأه حمزة والكسائي وعاصم برواية أبي بكر عنه. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٦٠٩.

(٣) حكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٤٠٠.

ٱلْعَلِيمُ(٣٠) قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ(٣١) قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ(٣٢) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ(٣٣) مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ(٣٤) فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ(٣٥) فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ(٣٦) وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ(٣٧) وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ(٣٨) فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ(٣٩) فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ(٤٠)﴾

﴿هَلْ أَتَـٰكَ﴾ تَفْخيمٌ للحَديثِ وتَنْبيهٌ علىٰ أنَّه ليس من عِلْمِ نَبِيِّنَا ﷺ وإنَّما عَرَفَهُ بالوَحْي، والضَّيْفُ واحِدٌ وَجَمْعٌ، كالصَّوْمِ والفِطْرِ، لأنَّه في الأَصْلِ مَصْدَرٌ ضَافَهُ، سمَّاهُم ضَيْفاً لأنَّهم كانُوا في صُوَرِ الضَّيْفِ، حيثُ أَضَافَهُم إبراهيمُ عليه السلام وكانُوا اثْنَيْ عَشَرَ مَلَكاً، وقيلَ: ثَمانية (١)، وقيلَ: ثَلاثة (٢) وإكْرامُهُم: أنَّ إبراهيمَ خَدَمَهُم بنَفْسِهِ وعَجَّلَ لَهُم القِرَىٰ (٣)، أو: لأنَّهم عند ٱللهِ مُكْرَمُونَ. ﴿إِذْ دَخَلُوا﴾ نُصِبَ بـ﴿ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ إذا فُسِّرَ بإكْرامِ إبراهيمَ لَهُم، وإلَّا فِيمَا في «ضَيْف» من معنَى الفِعْلِ ﴿سَلَـٰمًا﴾ مَصْدَرٌ سَدَّ مَسَدَّ الفِعْلِ، وأَصْلُهُ: نُسَلِّمُ عليكُم سَلَاماً، و ﴿سَلَـٰمٌ﴾ علىٰ معنىٰ: عليكُم سَلَامٌ، عَدَلَ بِهِ إلَى الرَّفْعِ ليدُلَّ علىٰ ثَبَاتِ السَّلامِ، كأنَّه أرادَ أَن يُحَيِّيهم بأَحْسَنَ ممَّا حَيَّوهُ بِهِ أَخْذاً بأَدَبِ ٱللهِ، وقُرِئَ «سِلْمٌ» (٤) كَمَا في سُورةِ هُود (٥).

(١) قاله محمد بن كعب. راجع تفسير البغوي: ج ٢ ص ٣٩٢.
(٢) قاله ابن عباس وعطاء. راجع المصدر السابق.
(٣) قَرَيتُ الضيفَ قِرىً وقَراءً: أحسنتَ إليهِ، اذا كسرت القاف قصرت، واذا فتحت مددت. (الصحاح: مادة قرا).
(٤) وهي قراءة حمزة والكسائي. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٣٣٧.
(٥) الآية: ٦٩.

﴿قَوْمٌ مُّنْكَرُونَ﴾ أي: قَالَ في نَفْسِهِ: هؤلاءِ قَومٌ لا نَعْرِفُهُم.

﴿فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ﴾ فَذَهَبَ إليهِم في خُفْيَةٍ من ضُيُوفِهِ، ومن أدَبِ المضَيِّفِ أن يُخْفي أَمرَهُ، وأَن يُبادرَهُ بِالْقِرىٰ من غَيْرِ أن يَشْعُرَ بِهِ الضَّيْفُ حَذَراً من أن يَكُفَّهُ، وعن قَتَادَةَ: كانَ عامَّةُ مَالِ نبيِّ ٱللهِ إبراهيمَ البَقَر ﴿فَجَاءَ بِعِجْلٍ﴾ (١). والهَمْزةُ في ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ للإنْكارِ، أَنْكرَ عليهم تَرْكَ الأَكْلِ أو: حَثَّهُم عليهِ. ﴿فَأَوْجَسَ﴾ فَأَضْمَرَ. وعن ٱبنِ عبَّاسٍ: وَقَعَ في نَفْسِهِ أَنَّهم ملائكةٌ أُرْسِلُوا للعَذَابِ (٢) ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ﴾ يكُونُ عَالِمَاً نبيّاً وهو إسحاقُ، وعن مجاهدٍ: هو إسماعيلُ (٣). ﴿فِي صَرَّةٍ﴾ في صَيْحَةٍ، من: صَرَّ الجُنْدُبُ، وصَرَّ القَلَمُ والبَابُ، وهو في محلِّ الحالِ، أي: جاءَتْ صَارَّةً، وعن الحَسَنِ: أَقْبَلَتْ إلىٰ بيتِها وكانَتْ في زَاويَةٍ تَنْظُرُ إليهِم، لأنَّها وَجَدَتْ حَرارَةَ الدَّمِ فَلَطَمَتْ وَجْهَهَا من الحَيَاءِ (٤)، وقيلَ: فَضَرَبَتْ بأَطْرافِ أَصابِعِها جَبْهَتَهَا فِعْلَ المتَعَجِّبِ (٥) ﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ﴾ أي: أَنَا عَجُوزٌ ﴿عَقِيمٌ﴾ فَكَيفَ أَلِدُ؟! قَالُوا: ﴿كَذَٰلِكِ﴾ مِثْلُ ذلكَ الّذي قُلْنَا وأَخْبَرْنَا بِهِ ﴿قَالَ رَبُّكِ﴾ أي: إنَّما نُخبِرُكِ عن أَمْرِ ٱللهِ، وٱللهُ قَادِرٌ علىٰ ما تَستَبْعِدِينَ.

ولمَّا عَلِمَ إبراهيمُ أَنَّهم رُسُلُ ٱللهِ ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ﴾ أي: فَمَا شَأْنُكُم وما طَلَبُكُم؟ سمَّاهُمْ: «مُسْرِفِينَ» كَمَا سمَّاهُم «عَادِينَ» لإِسْرافِهِم في الفَوَاحِشِ وعَدَوَاتِهِم فيها. ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا﴾ أي: في قُرَىٰ قَوْمِ لُوطٍ، ولَمْ يَجْرِ لها ذِكْرٌ لكَوْنِها معْلومةً، وفيه دليلٌ علىٰ أنَّ الإيمانَ والإسلامَ في الحقيقةِ واحِدٌ، وأنَّهما صِفَتَا

(١) حكاه عنه الماوردي في تفسيره: ج ٥ ص ٣٧٠.
(٢) حكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٤٠٢.
(٣) تفسير مجاهد: ص ٦١٩.
(٤) حكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٤٠٢.
(٥) قاله ابن عباس في تفسيره: ص ٤٤٢.

مَدْح، والإيمانُ هو التَّصْديقُ بِمَا أَوْجَبَ اللهُ التَّصْديقَ بِهِ، والإسلامُ هو الاستسلامُ لِمَا أَوْجَبَهُ اللهُ وأَلْزَمَهُ. وَالْبَيْتُ: لُوطٌ وبِنْتَاهُ، وَصَفَهُم اللهُ بالإِيمانِ والإسلامِ جَميعاً، وقيلَ: كانَ لُوطٌ وأَهْلُ بيتِهِ الَّذينَ نَجَوا ثَلاثَةَ عَشَر[1]. ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا ءَايَةً﴾ أي: علامةً يَعْتَبر بهَا الخائِفُونَ دُونَ الَّذينَ قَسَتْ قُلُوبُهُم.

﴿وَفِى مُوسَىٰٓ﴾ معْطُوفُ علىٰ ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَـٰتٌ﴾. ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ﴾ أي: فأَعْرَضَ فِرْعَونُ بِمَا كانَ يَتَقَوَّىٰ بِهِ منْ جُنُودِهِ ﴿وَقَالَ﴾ هو ﴿سَـٰحِرٌ﴾. ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ حَالٌ من الضَّميرِ في ﴿فَأَخَذْنَـٰهُ﴾ أي: آتٍ بِمَا يُلَامُ عليهِ من الكُفْرِ والعُتُوِّ.

﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ(٤١) مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ(٤٢) وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ(٤٣) فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ(٤٤) فَمَا ٱسْتَطَـٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ(٤٥) وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ(٤٦) وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَـٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ(٤٧) وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَـٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَـٰهِدُونَ(٤٨) وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ(٤٩) فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ(٥٠) وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ(٥١) كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ(٥٢) أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ(٥٣) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ(٥٤) وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ(٥٥) وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ(٥٦) مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ

---

(١) حكاه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٤٠٢.

ٱلْمَتِينُ(٥٨) فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ(٥٩) فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ(٦٠)﴾

﴿ٱلْعَقِيمَ﴾ الّتي عُقِمَتْ عن أَن تَأْتي بخَيْرٍ من إنْشاءِ سَحَابٍ أو إلْقَاحِ شَجَرٍ أو منْفَعَةٍ، إذْ هي رِيحُ الهَلَاكِ. ﴿كَٱلرَّمِيمِ﴾ كالشَّيءِ البالي المتفَتِّتِ من العَظْمِ والنَّباتِ أو غير ذلك. ﴿تَمَتَّعُواْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ تَفْسيرُهُ قَوْلُهُ: ﴿تَمَتَّعُوا فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾[١] ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ بعد مضِيِّ الأيامِ الثَّلاثةِ، وقُرِئ: «الصَّعْقَةُ»[٢] وهي المَرَّةُ من: صَعَقَتْهُم الصاعِقَةُ ﴿وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ إليها جهاراً. ﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ مِن قِيَامٍ﴾ كقَولِهِ: ﴿فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾[٣] أي: لَمْ يَنْهضُوا منْ تلكَ الصِرْعَةِ ﴿وَمَا كَانُواْ مُنتَصِرِينَ﴾ أي: ممتَنِعينَ من العَذَاب. ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾ علىٰ معنىٰ: وأَهْلَكْنَا قَوْمَ نُوحٍ، لأنَّ ما قَبْلَهُ يدُلُّ عليهِ ﴿مِن قَبْلُ﴾ عَادٍ وثَمُود.

﴿و﴾ بَنَيْنا ﴿ٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا﴾ أي: رَفَعْنَا بناءَها ﴿بِأَيْيْدٍ﴾ بقُوَّةٍ، والأَيْدُ والآدُ: القوَّةُ ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ لَقَادِرُونَ، من الوُسْعِ وهو الطَّاقَةُ، وعن الحَسَنِ: لَمُوسِعُونَ الرِّزْقَ على الخَلقِ بالمَطَرِ[٤]. ﴿فَرَشْنَٰهَا﴾ أي: بَسَطْنَاهَا ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ نَحْنُ إذْ فَعَلْنَا ذلكَ لِمَنَافِعِ الخَلْقِ لا لِجَرِّ نَفْعٍ أو دَفْعِ ضَرَرٍ. ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ من الحَيَوانِ ﴿خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ ذَكَراً وأُنْثىٰ، وعن الحَسَنِ: السَّماءُ والأرضُ، واللَّيلُ والنَّهارُ، والبرُّ والبحرُ، والشَّمسُ والقَمَرُ، وعدَّدَ أشياءَ وقَالَ: كلُّ ٱثنَيْنِ منْها زَوجٌ، وٱللهُ جلَّ جلالُه فَرْدٌ لا مِثْلَ لهُ[٥]. ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي: فَعَلْنا ذلكَ كلَّهُ من: بناءِ السَّماءِ وفَرْشِ الأَرضِ وخَلقِ الأَزْواجِ إرَادَةَ أن تتَذكَّروا فتَعْرِفُوا الخَالِقَ وتَعبُدُوهُ.

---

(١) هود: ٦٥.

(٢) قرأه الكسائي وحده. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٦٠٩.

(٣) هود: ٦٧ و ٩٤.

(٤) تفسير الحسن البصري: ج ٢ ص ٣٠٤.

(٥) حكاه عند الطبري في تفسيره: ج ١١ ص ٤٧٣.

﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: طاعةِ ٱللهِ وثَوابِهِ من معصيته وعقَابِهِ بتَوحيدِهِ وإخْلاصِ العبادةِ لَهُ. وكرَّرَ قَولَهُ: ﴿إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ عنْدَ الأَمْرِ بالطَّاعةِ والنَّهْي عن الشِّرْكِ، ليُعْلَمَ أنَّ العِلْمَ والعَمَلَ مقْتَرنانِ، وبالجَمْعِ بينَهُما يفُوزُ الإِنْسانُ.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: الأَمْرُ مثْلُ ذلكَ، و «ذلك» إشَارَةٌ إلىٰ تكذيبِهم الرَّسُولَ وقَوْلِهِم: هو ﴿سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾، وقَولُهُ: ﴿مَآ أَتَى﴾ تَفْسِيرٌ لِمَا أَجْمَل.

﴿أَتَوَاصَوْاْ بِهِ﴾ الضَّميرُ للقَوْلِ، والمعنىٰ: أَتَواصَى الأَوَّلُونَ والآخِرُونَ بهذا القَوْلِ حتَّىٰ قَالُوهُ جَميعاً متَّفِقينَ عليهِ ﴿بَلْ هُمْ قَومٌ طَاغُونَ﴾ أي: لَمْ يَتَواصَوْا بِهِ لأَنَّهم لَمْ يَتَلاَقَوا في زَمَانٍ واحدٍ ﴿بَلْ﴾ جَمَعَتْهُم العِلَّةُ الواحِدَةُ وهي الطُّغيان حَمَلَهُم عليهِ.

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ فأَعْرِضْ عَمَّنْ دَعَوتَهُم فلَمْ يُجِيبُوا، فَلَا لَوْمَ في إعْرَاضِكَ عَنْهُم بَعْدَما بَلَّغْتَ الرِّسالةَ وبَذَلْتَ وسْعَكَ في الدَّعْوةِ والإِبْلاغِ. ﴿وَذَكِّرْ﴾ ولا تَدَعِ التَّذْكيرَ والمَوعِظَةَ ﴿فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الَّذينَ يَعْرِفُونَ ٱللهَ ويوحِّدُونَهُ. وعَنْ عليٍّ عليه السلام أنَّه لمَّا نزَلَ: ﴿فَتَولَّ عَنْهُمْ﴾ ٱشتَدَّ ذلكَ عَلَينا، فَلَمَّا نَزَلَ: ﴿وَذَكِّرْ﴾ طَابَتْ نُفُوسُنا(١).

المعنىٰ ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا﴾ لأَجْلِ العبَادَةِ، ولَمْ أَرِدْ من جَميعِهِم إلَّا إيَّاها، والغَرَضُ في خَلْقِهِم تَعريضُهُم للثَّوابِ، وذلك لا يَحْصَلُ إلَّا بأَداءِ العبَادَاتِ. ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ أي: لا أَسْتَعينُ بِهِم في تَحْصيلِ أَرْزَاقِهِم ومَعَايشِهِم بَلْ أَتَفَضَّلُ عليهِم برِزْقِهِم وبمَا يُصْلِحُهُم، وما أُريدُ أن يُطْعِمُوا أَحداً من خَلْقي، وإنَّما أَسْنَدَ إلىٰ نَفْسِهِ لأَنَّ الخلقَ كلَّهُم عِيالُهُ، ومَنْ أَطْعَمَ

(١) أخرجه السيوطي في الدّرالمنثور: ج ٧ ص ٦٢٤ وعزاه الى ابن راهويه وأحمد بن منيع والهيثم بن كليب وابن جرير وغيرهم.

عِيَالَ أَحَدٍ فكأنَّما أَطْعَمَهُ. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ﴾ لِعبَادِهِ وللخَلائِقِ كُلِّهِم، فلا يَحتَاجُ إلىٰ مُعينٍ ﴿ذُو ٱلْقُوَّةِ﴾ الَّذي لا يَتَطَرَّقُ إليهِ العَجزُ والضَّعْفُ ﴿ٱلْمَتِينُ﴾ الشَّديدُ القُوَّةِ، البَليغُ الاقتدارِ علىٰ كُلِّ شيءٍ، يُقَالُ: مَتُنَ مَتَانَةً فَهُو مَتينٌ.

والذَّنُوبُ: الدَّلْوُ العظيمُ، وهذا تَمثيلٌ، وأَصْلُهُ في السُّقَاةِ يَقْتَسِمُونَ الماءَ فيكُونُ لهذا ذَنُوبٌ ولهذا ذَنُوبٌ، قَالَ:

لَنَا ذَنُوبٌ ولَكُم ذَنُوبُ فإنْ أَبَيْتُم فَلَنَا الْقَلِيبُ[1]

والمَعنىٰ: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ بتكْذيبِ النبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم نصيباً من عَذَابِ ٱللَّهِ ﴿مِثْلَ﴾ نَصِيبِ ﴿أَصْحَٰبِهِمْ﴾ ونُظَرَائِهِم من القُرُونِ المُهْلَكَةِ ﴿فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾ بإنْزَالِ العَذَابِ فإنَّهم لا يفُوتُونَني. ﴿مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ هو يَومُ القِيَامَة.

۞ ۞ ۞

(١) لم نعثر على قائله. والقليب: البئر، يقول: إنّا كرام نشاطر شريبنا، فإن أبىٰ ولم يرض إلّا البغي قلنا له ذلك. راجع شرح شواهد الكشّاف: ص ٩٢.

سُورَةُ الطُّورِ

مكِّيةٌ[1]، آياتُها تِسْعٌ وأَربَعُونَ آيةً كوفيٌّ، ثَمانٍ بصريٌّ، ﴿دعًّا﴾[2] كوفيٌّ.

وفي حَديثِ أُبيٍّ: «وَمَنْ قَرَأَ سُورةَ الطُّورِ كانَ حقّاً علَى ٱللهِ عزَّوجلَّ أَن يُؤمِّنَهُ من عَذَابِهِ، وأَن يُنعِّمَهُ في جنَّتِه»[3].

وعنِ الباقرِ عليه السلام: «مَنْ قَرَأَ سُورةَ الطُّورِ جَمَعَ ٱللهُ لَه خَيْرَ الدُّنيا والآخِرَة»[4].

بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلطُّورِ(١) وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ(٢) فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ(٣) وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ(٤) وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ(٥) وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ(٦) إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ(٧) مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ(٨) يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا(٩) وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا(١٠) فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ(١١) ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ(١٢)

---

(١) قال الشيخ الطوسي في التبيان: ج ٩ ص ٤٠١: مكّية بلاخلاف وهي تسع وأربعون آية في الكوفي، وثمان في البصري، وسبع في المدنيّين.

وفي الكشّاف: ج ٤ ص ٤٠٨: مكّية، وهي تسع وأربعون، وقيل: ثمان وأربعون آية، نزلت بعد السجدة.

(٢) الآية: ١٣.

(٣) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٤١٥ مرسلاً.

(٤) ثواب الأعمال للصدوق: ص ١٤٣.

﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا(١٣) هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ(١٤) أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ(١٥) ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(١٦)﴾

أَقْسَمَ سبحانَهُ بالجبَلِ الّذي كَلَّمَ عليهِ موسىٰ بـالأَرْضِ المـقدَّسةِ. ﴿وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ﴾ مكتوبٍ ﴿فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ﴾ والرَّقُّ: الصَّحيفةُ، وقيلَ: هو التَّوراةُ[١] وقيلَ: هو صَحائِفُ الأعمالِ[٢] وقيلَ: هو القُرآنُ مكتُوبٌ عند ٱللهِ في اللَّوحِ المَحْفُوظِ[٣]. ونُكِّرَ لأَنَّه كتابٌ مخصُوصٌ من بينِ جنْسِ الكُتُبِ، كقَولِهِ: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾[٤].

﴿وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ﴾ هو بَيْتٌ في السَّماءِ الرابعةِ بحِيَالِ الكَعْبةِ تَعْمُرُهُ الملائِكَةُ بالعبَادَةِ. وعن عليٍّ عليه السلام: يَدخُلُهُ في كلِّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْف مَلَكٍ ثمَّ لا يَعُودُونَ إليهِ أَبداً[٥]. ورُوِيَ: أنَّ ٱسمَهُ الضُّراح[٦]. وقيلَ: هو الكَعْبَةُ لِكَونِها مَعْمُورةً بالحُجَّاجِ والْعُمَّار[٧].

﴿وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ﴾ السَّماء ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ﴾ المَمْلُوءِ، وقيلَ: هو المُوقَدُ الْمُحْمىٰ[٨]، من قَولِهِ: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾[٩].

---

(١) قاله الكلبي. راجع تفسير البغوي: ج ٤ ص ٢٣٦.

(٢) وهو قول الفرّاء في معاني القرآن: ج ٣ ص ٩١.

(٣) وهو قول الماوردي في تفسيره: ج ٥ ص ٣٧٧.

(٤) الشمس: ٧.

(٥) رواه عنه عليه السلام الطبري في تفسيره: ج ١١ ص ٤٨٠ و ٤٨١ من طرق عن خالد بن عرعرة.

(٦) رواه الطبري أيضاً بسنده عن علي عليه السلام. راجع المصدر السابق.

(٧) قاله الحسن في تفسيره: ج ٢ ص ٣٠٥.

(٨) وهو قول علي عليه السلام وشمر بن عطية ومجاهد وابن زيد. راجع تفسير الطبري: ج ١١ ص ٤٨٢ ـ ٤٨٣.

(٩) التكوير: ٦.

﴿لَوَٰقِعٌ﴾ لَنَازِلٌ. ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ﴾ ظَرْفٌ لـ﴿وَٰقِع﴾، ومَعنىٰ ﴿تَمُورُ﴾: تَضْطَرِبُ وتَجِيءُ وتَذْهبُ وتَسْتَدْبرُ. ﴿وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ﴾ وتَزُولُ عن أَمَاكِنِها حتَّىٰ تَستَوي الأَرضُ.

﴿فَوَيْلٌ﴾ في ذٰلِكَ اليَوْمِ لِمَنْ كَذَّبَ ٱللهَ ورَسُولَه. والْخَوضُ: الاندفَاعُ في الباطِلِ. ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ﴾ أي: يُدْفَعونَ دَفْعاً بعُنْفٍ وَجفْوةٍ، وذلكَ أَنَّ خَزَنَةَ النَّارِ يَغلُّونَ أَيدِيَهُم إلىٰ أَعنَاقِهِم، ويَجْمَعُونَ نَواصِيهِم إلىٰ أَقْدامِهِم، ويَدْفَعُونَهُم إلَى النَّارِ دَفْعاً علىٰ وجُوهِهِم، وَزَخّاً[1] في أَقْفِيَتِهِم، يُقَالُ لَهُم: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ﴾، ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ﴾ مَعْنَاهُ: أَنَّكُم كُنْتُم تَقُولُونَ للوَحْيِ: هٰذا سَحْرٌ، أَفَسِحْرٌ هٰذا؟ والمُرادُ: أَهٰذا المِصْدَاقُ أَيضاً سِحْرٌ؟ وإنَّما دَخَلَتْهُ الفَاءُ لهٰذا المَعْنىٰ ﴿أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ كَما كُنْتُم لا تُبْصِرُونَ في الدُّنيا؟ أي: أَمْ أَنْتُم عُمْيٌ عن الْمُخْبَرِ عَنْهُ كَمَا كُنْتُم عُمْياً عن الخَبَرِ؟ والصَّلْيُ: لزُومُ النَّارِ، يُقَالُ: صَلِيَ يَصْلَىٰ صَلْياً، أي: أَلزَمُوها ﴿سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ﴾ الصَّبْرُ وعَدَمُهُ.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ(١٧) فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ(١٨) كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(١٩) مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ(٢٠) وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ كُلُّ ٱمْرِىٍٕ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ(٢١) وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ(٢٢) يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ(٢٣) وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ(٢٤) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ

(١) زَخَّهُ: أي دفعه في وَهْدةٍ (الصحاح).

بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ(٢٥) قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِيٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ(٢٦) فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ(٢٧) إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ(٢٨) فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ(٢٩) أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ(٣٠) قُلْ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ(٣١) أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ(٣٢)﴾

﴿فِي جَنَّٰتٍ﴾ أي: في أَيَّةِ جنَّاتٍ ﴿وَ﴾ أيِّ ﴿نَعِيمٍ﴾، أو: في جنَّاتٍ مخصُوصَةٍ خُلِقَتْ لَهُم خاصَّةً ونَعيمٍ ٱختُصَّ بِهِم. وقُرِئَ: ﴿فَٰكِهِينَ﴾، و «فَكِهِينَ»[(١)] وهو مَنْصُوبٌ على الحالِ، أي: متلذِّذينَ ﴿بِمَا ءَاتَاهُم رَبُّهُمْ﴾، ﴿وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ يَجُوزُ أَن يكُونَ الواوُ للحالِ و «قد» مُضْمَرَةً، ويَجُوزُ أَن تعْطِفَهُ علىٰ ﴿ءَاتَاهُم﴾ إذا جُعِلَتْ «مَا» مَصْدَرِيَّةً، فيكُونَ المعنىٰ: فَاكِهينَ بإيتائِهم رَبُّهُم ووقَايتِهم العَذابَ.

يقَالُ لَهُم: ﴿كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ﴾ أَكْلاً وشُرْباً ﴿هَنِيٓئًا﴾، أو: طَعَاماً وشَراباً هَنِيئاً لا تَنْغيصَ فيهِ. ﴿وَزَوَّجْنَٰهُمْ﴾ أي: قَرَنَّاهُم ﴿بِحُورٍ﴾ نَقيَّاتِ البَيَاض في حُسْنٍ وكَمَالٍ ﴿عِينٍ﴾ وَاسِعَة العُيُونِ في صَفَاءٍ وبَهَاءٍ.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ عَطْفٌ علىٰ ﴿حُورٍ عِينٍ﴾ أي: وبالَّذِينَ آمنوا، أي: بالرُّفَقَاءِ والجُلَسَاءِ منْهُم، فَيتَمتَّعُونَ تارةً بملاعبةِ الحُورِ العِينِ، وتَارةً بمؤَانَسَةِ الإِخْوانِ. وقُرِئَ: ﴿وَٱتَّبَعَتْهُم ذُرِّيَّتُهُم﴾، و «ذرِّيَّاتُهُمْ»[(٢)]، و «أَتْبَعْنَاهُم ذُرِّيَّاتِهم»[(٣)]، وقُرئَ: ﴿أَلْحَقْنَا بِهِم ذُرِّيَّتَهُم﴾ و «ذُرِّيَّاتِهم»[(٤)].

(١) قرأه الحسن. راجع تفسير القرطبي: ج ١٧ ص ٦٥.
(٢) قرأه ابن عامر وحده. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٦١٢.
(٣) وهي قراءة أبي عمرو. راجع المصدر السابق.
(٤) وهي قراءة ابن عامر وأبي عمرو. راجع المصدر نفسه.

وعَنِ النبيِّ ﷺ: «إنَّ المؤمنينَ وأوْلادَهُم في الجنَّةِ» وقَرأ هذهِ الآية[١].

فالمعنىٰ: أنَّ ٱللهَ سبحانَهُ يَجْمَعُ لَهُم أنْواعَ السُّرورِ بسَعَادتِهِم في أنْفُسِهِم، وبمزَاوجَةِ الحُورِ العِينِ، وبمُؤانَسةِ الإخْوانِ المؤْمنينَ المُتَقابِلينَ، وباجتمَاعِ أولادِهِم ونَسْلِهِم مَعَهُم، ثمَّ قَالَ: ﴿بِإِيمَـٰنٍ﴾ أي: بسببِ الإيْمانِ الرَّفيعِ المَحَلِّ، وهو إيْمانُ الآباءِ، ألْحَقْنا بدَرَجاتِهِم ذرِّياتِهِم وإنْ كانُوا لا يَسْتأْهِلُونَها؛ تَفضُّلًا عَلَيهِم وعلىٰ آبائِهِم، ليتمَّ سُرُورُهُم وتَقرَّ بِهِم عيونُهُم ﴿وَمَا أَلَتْنَـٰهُم﴾ وما نَقَصنَاهُم ﴿مِنْ عَمَلِهِم﴾ من ثَوابِ عَمَلِهِم ﴿مِن شَىْءٍ﴾، وقيلَ: مَعْناهُ: ما نَقَصْنَاهُم من ثَوابِ عَمَلِهِم شيئاً نُعْطِيهِ الأَبْنَاءَ بَلْ أَلْحَقْنَاهُم بِهِم علىٰ سبيلِ التفضُّلِ[٢]، وقُرِئَ: «مَا أَلِتْنَاهُمْ» بكَسْرِ اللاَّمِ[٣]، من: أَلَتَ يَأْلُتُ، ويكُونُ لُغَةً في: أَلَتَ يَأْلِتُ ﴿كُلُّ ٱمْرِىٍٕ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ أي: مَرهُونٌ، والمَعنىٰ: كلُّ نَفسٍ رهينٌ عندَ ٱللهِ بالعَمَلِ الصَّالحِ الّذي هو مُطَالَبٌ بهِ، كَمَا يَرْهنُ الرَّجُلُ عبْدَهُ بِدَيْنٍ عليهِ، فإنْ عَمِلَ صَالِحاً فَكَّها وخَلَّصَها وإلاَّ أَوْبَقَها.

﴿وَأَمْدَدْنَاهُمْ﴾ أي: وَزِدْنَاهُم حالاً بعدَ حالٍ بِما يَشْتَهونَهُ مِن ﴿فَـٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ﴾. ﴿يَتَنَازَعُونَ﴾ يَتعاطُونَ[٤] وَيَتَعَاوَرونَ ﴿كَأْساً﴾ خَمْراً «لَا لَغْوَ»[٥] في شرْبِها «وَلَا تَأْثِيم» أي: لا يَتكلَّمُونَ في أثناءِ شرْبِها بالكَلَامِ الّذي لاَ طَائِلَ فيهِ، ولا يَفْعَلُونَ ما يؤْثَمُ بِهِ فَاعِلُهُ، أي: يُنْسَبُ إلى الإثْمِ من الكَذبِ والفَواحِشِ،

---

(١) أخرجه السيوطي في الدّر المنثور: ج ٧ ص ٦٣٣. وعزاه الى عبدالله بن أحمد في زوائد المسند عن علي عليه السلام.

(٢) قاله ابن عباس. راجع تفسير الماوردي: ج ٥ ص ٣٨٢.

(٣) قرأه ابن كثير. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٦١٢.

(٤) في نسخة: «يتعاملون».

(٥) الظاهر أنّ المصنّف رحمه الله قد اعتمد هنا على قراءة النصب تبعاً لصاحب الكشّاف، وهي القراءة المروية عن ابن كثير وأبي عمرو. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٦١٢.

وإنَّما يَتَكلَّمونَ بالحِكْمَةِ والكَلامِ الحَسَنِ لأنَّهم حُكَماءُ عُلَمَاء، وقُرِئَ: ﴿لَا لَغْوٌ وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ بالرَّفْعِ.

﴿غِلْمَانٌ لَّهُمْ﴾ مملُوكُون لَهُم مخْصُوصُونَ بِهِم ﴿كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾ في الصَّدَفِ لأنَّه رَطْبٌ صَّافٍ، أو: مخْزُون لأنَّه لا يُخْزَنُ إلَّا الثَّمينُ النَّفيسُ.

وسُئِلَ النبيُّ ﷺ: هذا الخَادِمُ فكَيْفَ المَخْدُومُ؟ فَقَالَ صلوات الله عليه وآله: «والَّذي نَفسي بيدِهِ إنَّ فَضْلَ المخْدومِ على الخَادمِ كَفَضْلِ القَمَرِ لَيْلَة البَدْرِ علىٰ سائرِ الكَواكِب»[١].

﴿يَتَسَاءَلُونَ﴾ أي: يَتَحادثُونَ ويَسْأَلُ بَعْضُهُم بعضاً عَن أحْوالِهِ وعمَّا ٱستَوْجَبَ بِهِ ذلكَ. ﴿مُشْفِقِينَ﴾ أي: أرقَّاءُ القُلُوبِ من خَشْيةِ ٱللهِ. ﴿عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾ عَذابُ النَّارِ ولَفْحُهَا، والسَّمُومُ: الرِّيحُ الحارَّةُ الَّتي تَدخُلُ المَسَامَّ، فَسُمِّيَتْ بها نَارُ جَهَنَّم. ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ﴾ لقَاءِ ٱللهِ والمَصيرِ إليهِ أي: في الدُّنْيا ﴿نَدْعُوهُ﴾ أي: نَدعُو ٱللهَ ونُوحِّدُهُ ونَعبُدُهُ ﴿إِنَّهُ هُوَ ٱلْبَرُّ﴾ المُحْسِنُ ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ الكثيرُ الرَّحْمةِ، وقُرِئَ: «أنَّه» بالفَتحِ[٢] بمعنىٰ: «لأنَّه».

﴿فَذَكِّرْ﴾ يا مُحمَّدُ ﷺ أي: فَاثْبتْ علىٰ تَذْكيرِ النَّاسِ وَوَعْظِهِم، ولا تَتْرُكْ دَعْوَتَهُم وإنْ أَساؤُوا القَوْلَ فيكَ فإنَّه قَوْلٌ باطِلٌ، و ﴿مَآ أَنتَ﴾ بِحَمْدِ ٱللهِ وإنْعامِهِ عَلَيكَ ﴿بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ كَمَا يقُولُونَ، بَلْ أنْتَ نَبيٌّ صَادِقٌ.

وَرَيْبُ الْمَنُونِ: حَوادِثُ الدَّهْرِ، وقيلَ: المَنُونُ: المَوْت[٣]، فَعُولٌ من «مَنَّهُ» إذا قَطَعَهُ، كَمَا سَمَّوْهُ شَعُوبَ. قَالُوا: نَنتَظِرُ بِهِ نَوائِبَ الزَّمانِ فَيهْلِكُ كَمَا هَلَكَ مَنْ قَبلَهُ

(١) أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره: ج ١١ ص ٤٩٢ عن قتادة.
(٢) قرأه نافع والكسائي. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٦١٣.
(٣) قاله ابن عباس في تفسيره: ص ٤٤٤.

مِن الشُّعراء ﴿فَإِنِّى مَعَكُمْ مِنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ﴾ أَتربَّصُ هَلَاكَكُم كَمَا تَترَبَّصُونَ هَلَاكي.

﴿أَحْلَـٰمُهُمْ﴾ بهٰذا التَّناقُض في القَوْلِ وهو قَولُهُم: كَاهِنٌ وشَاعِرٌ مَعَ قَولِهِم: مَجْنُون. وكانَتْ قُريشٌ يُدْعَوْنَ أَهْلَ النُّهىٰ والأَحْلام ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَـٰغُونَ﴾ مُجَاوزُونَ الحَدَّ في العنَادِ[1]، حَمَلَهُم طُغْيانُهُم وعِنَادُهُم علىٰ تكْذيبِكَ مَعَ ظُهُورِ الحقِّ لَهُم.

﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ(٣٣) فَلْيَأْتُواْ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَـٰدِقِينَ(٣٤) أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ(٣٥) أَمْ خَلَقُواْ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ(٣٦) أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ(٣٧) أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ(٣٨) أَمْ لَهُ ٱلْبَنَـٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ(٣٩) أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ(٤٠) أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ(٤١) أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ(٤٢) أَمْ لَهُمْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ(٤٣) وَإِن يَرَوْاْ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُواْ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ(٤٤) فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَـٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ(٤٥) يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ(٤٦) وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ(٤٧) وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ(٤٨) وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَـٰرَ ٱلنُّجُومِ(٤٩)﴾

أي: ٱفتعَلَهُ وٱختَلَقَهُ من تلْقَاءِ نَفسِهِ، والضَّميرُ للقُرآنِ ﴿بَل لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ ولِعنَادِهِم وكُفرِهِم يقُولُونَ ذلكَ مَعَ علْمِهِم بأنَّه لَيْسَ بمتَقَوَّلٍ. ﴿فَلْيَأْتُواْ بِحَدِيثٍ﴾

(١) في نسخة: «الفساد».

مِثْلِ القُرآنِ في نَظْمِهِ وفَصَاحتِهِ ﴿إِنْ كَانُواْ صَـٰدِقِينَ﴾، وإذا لَمْ يَقْدرُوا على الإتيانِ بمثْلِهِ ـ وما محمَّدٌ ﷺ إلَّا واحدٌ منْهُم ـ فليَعْلَمُوا أنَّه لَمْ يَتَقَوَّلْهُ. بَلْ أَ ﴿خُلِقُواْ﴾ أي: أُحْدِثُوا وقُدِّروا التَّقْديرَ الَّذي عَليهِ فِطْرَتُهُم ﴿مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ﴾ مِنْ غَيْرِ مُـقَدِّرٍ ﴿أَمْ هُمُ﴾ الَّذين خَلَقُوا أَنْفُسَهُم حيثُ لا يَعبُدُونَ الخَالِقَ ﴿بَلْ لَّا يُوقِنُونَ﴾ وَهُم شَاكُّونَ فيمَا يقُولُونَهُ، وقيلَ: أَخُلِقُوا بَاطِلًا من أَجْلِ غَيْرِ شَيءٍ من جَزَاءٍ و[1] حسَابٍ؟[2]

بل أَ ﴿عِنْدَهُمْ خَزَآئِنُ﴾ الرِّزْقِ فَيرزُقُوا النبوَّةَ مَنْ شَاؤُوا؟ أو: عنْدَهُم خَزَائِنُ عِلْمِهِ حتَّىٰ يخْتَاروا لَهَا مَنْ ٱخْتِيارُهُ حِكْمَةٌ وصَلَاحٌ؟ «أَمْ هُمُ ٱلْمُسَيْطِرُونَ»[3] الأَرْبَابُ المُسَلَّطُونَ على النَّاسِ حتَّىٰ يُدبِّروا أَمْرَ الرُّبوبيَّةِ؟ وقُرِئَ: ﴿ٱلْمُصَيْطِرُونَ﴾ بالصَّادِ.

﴿سُلَّمٌ﴾ أي: مَرْقىً وَمِصْعَدٌ منْصُوبٌ إِلَى السَّمَاءِ ﴿يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾ إِلىٰ كَلَامِ المَلَائكةِ، فَوثقُوا بمَا هُمْ عَليهِ وَرَدُّوا ما سِوَاهُ ﴿بِسُلْطَـٰنٍ مُبِينٍ﴾ بـحجَّةٍ واضِـحَةٍ تُصَدِّقُ ٱستِمَاعَ مُستَمِعِهم. ﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَـٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ﴾ وهٰذا تَسْفِيهٌ لأَحْلامِهِم، حَيثُ أَضَافُوا إِلَى ٱللهِ تَعالىٰ ما أَنفُوا منْهُ، وهٰذا غَايةٌ في جَهْلِهِم إِذْ جوَّزُوا عليهِ الوَلَدَ ثمَّ ٱدَّعُوا أنَّه ٱختَارَ الأَدْوَنَ علَى الأَعْلىٰ.

﴿أَمْ تَسْئَلُهُمْ أَجْراً﴾ علىٰ ما جِئْتَهُم بِهِ من الدِّينِ ﴿فَهُم مِّن﴾ جِهَة ﴿مَـغْرَمٍ﴾ فَدَحَهُم[4] ﴿مُّثْقَلُونَ﴾ أَثْقَلَهم ذلكَ الْمَغْرَمُ الَّذي سأَلْتَهُم فَزَهَّدَهُم في ٱتِّباعكَ. ﴿أَمْ عِنْدَهُمُ ٱلْغَيْبُ﴾ أي: اللَّوحُ المَحْفُوظُ ﴿فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ ما فيهِ حتَّىٰ قَالُوا: لا نُبْعَثُ ولا نُعَذَّبُ.

﴿أم يُرِيدُونَ كَيْداً﴾ وَهُوَ كَيْدُهُم في دَارِ النَّدْوَةِ ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُواْ هُمُ﴾ الَّـذينَ

---

(١) في نسخة: «أو» بدل الواو.

(٢) قاله الزجّاج في معاني القرآن: ج ٥ ص ٦٥.

(٣) الظاهر أنَّ المصنّف اعتمدها على قراءة السين دون الصاد التي هي قراءة الجمهور إلّا ابن عامر برواية الحلواني والكسائي برواية الفرّاء عنه. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص٦١٣.

(٤) يقال: فَدَحَه الدَّيْن أي: أَثقله، وأمرٌ فادحٌ: إذا عَالَه وبَهَظَه. (الصحاح).

يَعُودُ عليهِم وَبَالُ كَيْدِهِم، وذلكَ أنَّهم قُتِلُوا يَوْمَ بَدْرٍ، و ﴿ٱلْمَكِيدُونَ﴾: المغلُوبُونَ في الكَيْدِ، من: كايَدْتَهُ فَكِدْتُهُ. ﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفاً﴾ أي: قِطْعَةً ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطاً﴾ لَقَالُوا ﴿هَٰذَا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ بَعْضُهُ فَوقَ بَعضٍ «يَصْعَقُونَ»[١] أي: يَمُوتُونَ، وقُرِئَ ﴿يُصْعَقُونَ﴾ من: صَعِقَتْهُ فَصَعِقَ وأَصْعَقَتْهُ لُغَةً، وذلكَ عِنْدَ النَّفْخَةِ الأُولىٰ.

﴿وَإِنَّ﴾ لِهٰؤلاءِ الظَّلَمَةِ ﴿عَذَاباً دُونَ ذَٰلِكَ﴾ دونَ يَوْمِ القيامةِ وَهُو القَتْلُ يَوْمَ بَدْرٍ، والقَحْطُ سَبْعَ سِنِينَ، أو عَذَابُ القَبْرِ.

﴿لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ بإمْهالِهِم وما يَلْحَقُكَ فيهِ من الكُلْفَةِ والمَشَقَّةِ ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ مثْلُ أَيٍّ بَحيثُ نَراكَ ونَكْلَؤُكَ، وجَمَعَ «العَيْن» لأنَّ الضَّميرَ ضَميرُ الجَمْعِ، وقَالَ في مَوضعٍ آخَرَ: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾[٢]، ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ مِنْ أيِّ مكانٍ قُمْتَ فيهِ، وقيلَ: من مَنَامِك[٣]، وقيلَ: وٱذكُرِ ٱللهَ حينَ تَقُومُ إِلَى الصَّلاةِ المفْرُوضَةِ إلىٰ أن تَدْخُلَ في الصَّلاةِ[٤]. ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ يَعني: صَلاةَ اللَّيل إذا قَامَ من النَّومِ ﴿وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ يَعني: رَكْعَتَي الفَجْرِ قبلَ الفَريضَةِ[٥]، وقيلَ: هي الفَريضَةُ[٦]، أي: حينَ تَدبُرُ النُّجُومُ وتَغيبُ بضَوْءِ الصُّبْحِ، وقُرِئَ: «وأَدْبارَ»[٧] بفَتْحِ الهَمْزةِ، مثْلُ: أَعْقَابِ النُّجُوم.

❁ ❁ ❁

---

(١) يظهر من المصنّف هنا أنّه اعتمد على قراءة فتح الياء على البناء للفاعل تبعاً للزمخشري في الكشّاف، وهي قراءة الجمهور إلّا عاصماً وابن عامر. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٦١٣.

(٢) طـٰه: ٣٩.

(٣) قاله ابن عباس في تفسيره: ص ٤٤٥.

(٤) قاله الكلبي. راجع تفسير البغوي: ج ٤ ص ٢٤٣.

(٥) وهو قول ابن عباس وقتادة وعائشة والمروي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وعلي عليه السلام. راجع تفسير الطبري: ج ١١ ص ٥٠١.

(٦) قاله الضحاك وابن زيد. راجع المصدر السابق.

(٧) وهي قراءة الاعمش. راجع شواذ القرآن لابن خالويه: ص ١٤٧.

سُورَةُ النَجْمِ

مكِّيَّةٌ[١] اثْنتَانِ وَستُّونَ آيةً كُوفيٌّ[٢]، وآيةٌ غَيْرُهُم، ﴿مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْئاً﴾[٣] كُوفيٌّ.

وفي حَديثِ أُبيٍّ: «مَن قَرَأَ سُورةَ النَّجْمِ أُعْطِيَ من الأَجْرِ عَشرَ حَسَنَاتٍ بعَدَدِ مَن صَدَّقَ بمحمَّدٍ صلى الله عليه وآله وسلم وَجَحَدَ بِهِ»[٤].

وعن الصَّادقِ عليه السلام: «مَن كَانَ يُدْمِنُ قِرَاءَةَ ﴿وَٱلنَّجْمِ﴾ في كُلِّ يَوْمٍ أَو لَيْلَةٍ عَاشَ مَحْمُوداً بينَ النَّاسِ مُحَبَّباً»[٥].

---

(١) قال الشيخ الطوسي في التبيان: ج ٩ ص ٤٢٠: هي مكّية، وهي اثنتان وستون آية في الكوفي، وستّون في البصري والمدنيّين.

وفي تفسير الماوردي: ج ٥ ص ٣٨٩: مكّية في قول الحسن وعطاء وعكرمة وجابر، وقال ابن عباس وقتادة: إلّا آية وهي ﴿الَّذِينَ يَجتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ﴾ الآية.

وفي الكشّاف: ج ٤ ص ٤١٦: مكّية إلّا آية (٣٢) فمدنية، وآياتها (٦٢) وقيل: (٦١) آيةً، نزلت بعد الإخلاص.

(٢) في بعض النسخ: «مكّية وعن الحسن مدنيّة، ستّون وآيتان كوفيٌّ...».

(٣) الآية: ٢٨.

(٤) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٤٣٠ مرسلًا.

(٥) ثواب الأعمال للصدوق: ص ١٤٣ وفيه بعد «الناس»: «وكان مغفوراً له، وكان محبوباً بين الناس»، وليس فيه: «محبّباً».

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ(١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ(٢) وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ(٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ(٤) عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ(٥) ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ(٦) وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ(٧) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ(٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ(٩) فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ(١٠) مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ(١١) أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ(١٢) وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ(١٣) عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ(١٤) عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ(١٥) إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ(١٦) مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ(١٧) لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ(١٨)﴾

النَّجْمُ: الثُّريَّا، اسْمٌ غَالِبٌ لَهَا، قَالَ:

فَــوَرَدْنَ والعـيُّوقُ مَـقْعَدَ رَابـئ ... الضُّرباءِ فَوقَ النَّجْمِ لا يَـتَتَلَّعُ(١)

أو: جِنْسُ النُّجُومِ ﴿إِذَا هَوَىٰ﴾ إِذَا غَرَبَ أو ٱنْتَثَرَ يَوْمَ القيامةِ، أو: النَّجْمُ الَّذي يُرْجَمُ بِهِ إذا ٱنقضَّ، أو: النَّجْمُ من نُجُومِ القُرآنِ وَقَد نَزَلَ مُنَجَّماً في نَيْفٍ وعشْرينَ سَنَة ﴿إِذَا هَوَىٰ﴾ إذا نَزَلَ: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾ يَعني: النـبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم، والخِـطَابُ لِقُرَيشٍ، وهو جَوابُ القَسَمِ، أي: هو هَادٍ مُهْتَدٍ راشِدٌ مُرْشِدٌ، وليسَ كَمَا زَعَمْتُم في نسْبَتِكُم إيَّاهُ إِلَى الضَّلالِ والغيِّ. ومَا آتاكُم بهِ من الدِّينِ والقُرآنِ ليس بِمَنْطِقٍ صَادِرٍ عن رأيِهِ وهَوَاهُ. مَا ﴿هُوَ إِلَّا وَحْىٌ﴾ مِنْ عنْدِ ٱللهِ ﴿يُوحَىٰ﴾ إليه.

﴿عَلَّمَهُۥ﴾ مَـلَكٌ ﴿شَـدِيدُ ٱلْقُـوَىٰ﴾ أي: شَـديدٌ قُـواهُ، وهـو جـبرئيلُ عليه السلام، والإضَافَةُ لَفْظِيَّةٌ لأنَّها إضَافَةُ الصِّفَةِ المُشَبَّهةِ إلى فَاعِلِها. ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ ذو حَصَافةٍ في

(١) لأبي ذؤيب خويلد بن خالد بن محرث الهذلي من قصيدةٍ في رثاء سبعة أبناءٍ له ماتوا في يومٍ واحدٍ. أُنظر جمهرة أشعار العرب: ص ٣١٣ فصل المراثي.

عَقْلِهِ ورأْيِهِ، ومَتَانَةٍ في دينِهِ، وصحَّةٍ في جسْمِهِ ﴿فَاسْتَوَىٰ﴾ فاستَقَامَ علىٰ صُورةِ نَفْسِهِ الحقيقيَّةِ دونَ الصُّوَرِ الَّتي كانَ يَتَمَثَّلُ بها كُلَّما هَبَطَ بالوَحْيِ، وكانَ يأْتِيَهُ في صُورةِ الآدميِّينَ، فأَحَبَّ رسُولُ ٱللهِ ﷺ أن يَراهُ في صُورتِهِ الَّتي جُبِلَ عليها فاسْتَوىٰ لَهُ. ﴿وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَىٰ﴾ يَعني: أُفُقَ الشَّمْسِ فَملأَ الأُفُقَ، وقيلَ: ما رَآهُ أَحَدٌ من الأنْبياءِ في صُورتِهِ الحقيقيَّةِ غَيْرُ محمَّدٍ ﷺ رَآهُ مرَّتَيْنِ: مَرَّةً في الأَرْضِ ومَرَّةً في السَّماءِ(١).

﴿ثُمَّ دَنَا﴾ من رسُولِ ٱللهِ ﷺ ﴿فَتَدَلَّىٰ﴾ فتَعَلَّقَ عليهِ في الهَواءِ، وهو مَثَلٌ في القُرْبِ. ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ مِقْدَارَ قَوْسَيْن، والقَابُ والقِيْبُ والقَادُ والقِيْدُ والقَاسُ والقَيْسُ: المِقْدارُ، وأَصْلُهُ: فَكَانَ مِقْدَارُ مَسافَةِ قُرْبِهِ مِثْلَ قَابِ قَوْسَيْنِ، فَحُذِفَتْ هٰذه المُضَافَاتِ، كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

وقَد جَعَلَتْني مِنْ حَزِيمَةَ إِصْبَعَا(٢)

أي: ذا مِقْدَارِ مسافَةِ إِصْبَعٍ أو أدنىٰ مِن ذلكَ. ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ الضَّميرُ للهِ، وإنْ لَمْ يَجْرِ ذِكْرٌ لاسْمِهِ سبحانَهُ لأنَّه لا يلتَبسُ ﴿مَآ أَوْحَىٰ﴾ تَفْخيمٌ للوَحْيِ الَّذي أُوْحِيَ إليهِ، و «ما» مصدريَّةٌ، ويَجُوزُ أن يكُونَ موصُولةً، وقيلَ: فأَوْحَىٰ جبرائيلُ إلىٰ عَبْدِ ٱللهِ محمَّدٍ ﷺ ما أَوْحَى ٱللهُ إليهِ(٣)، وقيلَ: أَوْحىٰ إليهِ أَنَّ الجنَّةَ محرَّمَةٌ علَى الأَنبياءِ حتَّىٰ تَدْخُلَها أنْتَ، وعلَى الأُمَمِ حتَّىٰ تَدخُلَها أُمَّتُكَ(٤).

﴿مَا كَذَبَ﴾ فُؤَادُ محمَّدٍ ﷺ مَا رَآهُ ببَصَرِهِ من صُورةِ جبرائيلَ عليه السلام، أي:

---

(١) وهو قول ابن مسعود. راجع تفسير الماوردي: ج ٥ ص ٣٩٢.

(٢) وصدره: فأدركَ إِبْقاءَ العَرادةِ ظَلْعُها. للكَلْحَبَة العَرِيني من أبيات يفخر بها على بَنِي تغلب ورئيسهم حَزيمة بن طارق، والعَرادَةُ: اسم فرس الكلحبة. راجع خزانة الأدب للبغدادي: ج ١ ص٣٨٨ وج ٤ ص ٤٠١.

(٣) قاله ابن عباس في تفسيره: ص ٤٤٦.

(٤) حكاه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٤٢٠.

ما قَالَ فُؤَادُهُ لمَّا رآهُ: لَمْ أَعْرِفْكَ، ولَوْ قَالَ ذلك لكانَ كَاذباً لأنَّه عَرفَهُ، يَعني: أنَّه رآهُ بعَيْنِهِ وعَرَفَهُ بقَلْبِهِ وَلَمْ يَشُكَّ في أنَّه حقٌّ، وقُرِئَ: «مَا كَذَّبَ»(١) أي: صَدَّقَهُ ولَمْ يشُكَّ أنَّه جبرائيلُ بصُورتِهِ.

﴿أَفَتُمَـٰرُونَهُۥ﴾ من المِراءِ وهو الجِدَالُ والمُلَاحَاةُ، واشتقَاقُهُ مِن: «مِرَى النَّاقَةِ»، كأنَّ كلَّ واحدٍ من المتَجَادلينَ يُمْرِي ما عِنْدَ صَاحِبِهِ، وقُرِئَ: «أَفَتَمْرُونَهُ»(٢) مِنْ: مَارَيْتُهُ فَمَرَيْتُهُ، أي: أَفَتَغْلِبُونَهُ في المِرَاءِ؟ ولذٰلكَ عُدِّيَ بـ«علَىٰ»، كَمَا تقُولُ: غَلَبْتُهُ علىٰ كذا. وقيلَ: أَفَتَمْرونَهُ: أَفَتَجْحَدُونَهُ؟(٣)

﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ﴾ يَعني: رأىٰ جبرئيلَ عليه السلام ﴿نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ يَعني: مَرَّةً أُخرىٰ، من ٱلنُّزُولِ، أي: نَازِلاً عليهِ من السَّماءِ نَزْلةً أُخرىٰ في صُورةِ نَفْسِهِ. ﴿عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ وهيَ شَجَرةُ نَبْقٍ عن يمينِ العَرْشِ فَوقَ السَّماءِ السَّابعةِ، ثَمَرُها كَقِلَالِ هَجَرٍ(٤)، وَوَرَقُها كَآذانِ الفيُولِ، يَسيرُ الرَّكِبُ في ظِلِّها سبعينَ عاماً. والمنْتَهىٰ: موضِعُ الانتهاءِ ولَمْ يُجَاوزْها أَحَدٌ، وإلَيها ينْتَهي عِلْمُ الملائكةِ وغيرِهِم، لَا يَعْلَمُ أَحَدٌ ما وَرَاءَها، وقيلَ: يَنْتَهي إليها أَرْواحُ الشُّهداءِ(٥)، وقيلَ: هي شَجَرَةُ طُوبىٰ كأنَّها في منْتَهَى الجنَّةِ(٦). ﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾ وَهِيَ جنَّةُ الخُلْدِ يَصيرُ إليها المتَّقُونَ، وقيلَ: يَأْوي إليها أَرْواحُ الشُّهَداءِ(٧)، وعن عليٍّ عليه السلام وأبي الدَّرْداءِ: «جَنَّهُ

---

(١) قرأه هشام وحده. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٦٩٧.

(٢) قرأه حمزة والكسائي. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٦١٤.

(٣) وهو قول الزجّاج في معاني القرآن: ج ٥ ص ٧٢.

(٤) القِلال: جمع قُلّةٍ وهي الجرَّة الكبيرة. وهَجَر: قرية قريبة من المدينة كانت تعمل بها القِلال. لسان العرب: مادة «قلَل».

(٥) قاله الربيع بن أنس. راجع تفسير القرطبي: ج ١٧ ص ٩٥.

(٦) قاله مقاتل. راجع تفسير البغوي: ج ٤ ص ٢٤٨.

(٧) قاله مقاتل والكلبي. راجع المصدر السابق.

المأوى» بالهاءِ(١)، ورُوِيَ ذلك عن الصَّادقِ عليه السلام، ومعنَاهُ: سَتَرَهُ بظِلَالِهِ ودَخَلَ فيهِ.

﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ﴾ من النُّورِ والبَهَاءِ ﴿مَا يَغْشَىٰ﴾ ممَّا لا يَكْتَنِهُهُ الوَصْفُ، وقيلَ: يَغْشَاها الجَمُّ الغَفيرُ من الملائكةِ(٢).

وعَنِ النبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم: «رأَيْتُ علىٰ كلِّ وَرَقَةٍ من وَرَقِها مَلَكاً قائِماً يُسَبِّحُ ٱللهَ عزَّ وجلَّ»(٣).

ومعنَاهُ: أنَّه رأىٰ جبرئيلَ علىٰ صُورتِهِ لَيْلَة المِعْرَاجِ في الحَالِ الَّتي غَشِيَ السِّدْرةَ فيها ما غَشِيَه(٤) من الخَلَائِقِ الدالَّةِ علىٰ جَلالِ ٱللهِ وعَظَمَتِهِ. ﴿مَا زَاغَ﴾ بَصَرُ رَسُولِ ٱللهِ صلى الله عليه وآله وسلم ﴿وَمَا طَغَىٰ﴾ أي: أَثْبَتَ ما رآهُ إِثْبَاتاً صَحِيحاً من غَيْرِ أَنْ يَزِيغَ بَصَرُهُ عنْهُ أو يَتَجاوَزَهُ، أو: ما عَدَلَ عن رؤْيةِ العَجَائِبِ الَّتي أُمِرَ برُؤْيتِها، وما جَاوَزَ الحدَّ الَّذي حُدَّ لَهُ. ﴿لَقَدْ رَأَىٰ﴾ أي: وٱللهِ لَقَدْ رأىٰ ﴿مِنْ ءَايَـٰتِ رَبِّهِ﴾ الَّتي هِيَ كُبْراها وعُظْمَاها حينَ عُرِجَ بِهِ إلَى السَّماءِ فَأُرِيَ عَجَائِبَ المَلَكُوتِ. و «من» للتَّبْعيضِ لأنَّها كانَتْ بَعْضَ آياتِ ٱللهِ.

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّـٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ(١٩) وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ(٢٠) أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ(٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ(٢٢) إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَـٰنٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ(٢٣) أَمْ لِلْإِنسَـٰنِ مَا تَمَنَّىٰ(٢٤) فَلِلَّهِ ٱلْأَخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ(٢٥) وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَـٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ(٢٦) إِنَّ

(١) حكاه عنهما ابن جنّي في المحتسب: ج ٢ ص ٢٩٣.

(٢) قاله مقاتل. راجع تفسير البغوي المتقدّم.

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره: ج ١١ ص ٥١٨ عن ابن زيد.

(٤) كذا في النسخ، والظاهر أنّ الصحيح «ما غشيها».

إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأٓخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ(٢٧) وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا(٢٨) فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا(٢٩) ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ(٣٠)﴾

ثمَّ خاطَبَ سبحانَهُ المشركينَ فَقَالَ: ﴿أَفرءَيْتُمُ﴾ أَيُّها الزَّاعِمُونَ أنَّ ﴿ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ وَمَنَوٰةَ﴾ آلِهَةٌ؟ وهي مؤنَّثاتٌ، فاللَّاتُ كانَتْ لِثَقيفٍ بالطَّائِفِ، وقيلَ: كانَتْ بنَخْلَةٍ يَعْبُدُها قُرَيش[1]، والعُزَّىٰ كانَتْ لِغَطَفان، ومَنَاةُ كانَتْ لهُذَيْلٍ وخُزاعَة. وقيل: هنَّ أَصْنامٌ من حِجَارةٍ كانَتْ في الكَعْبَةِ يَعبُدُونَها[2]، و ﴿ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ صِفَةٌ لـ﴿مَنَوٰةَ﴾، وهي ذَمٌّ، أي: المتأَخِّرةِ الوَضِيعَة المِقْدار، ويُمكنُ أَن تكُونَ الأَوَّليَّةُ والتَقدُّمُ عندَهُم اللَّاتَ والعُزّىٰ.

وكانُوا يقُولُونَ: إِنَّ الملائكةَ وهٰذِهِ الأَصنامَ بَنَاتُ ٱللهِ، فقِيلَ لَهُم: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ﴾، ويُمكنُ أَن يُرادَ: أنَّ الأَصْنامَ الثَّلاثةَ إِناثٌ وقَدْ جعَلْتُمُوهنَّ شُرَكَاءَ للهِ، وقد ٱستَنْكَفْتُم من أَن يُولَدَ لَكُم الإِنَاثُ ويُنْسَبْنَ إِليكُم، فَكَيفَ سَمَّيْتُم الإِنَاثَ آلِهَةً وأَنْتُم قومٌ لَوْ خُيِّرْتُم لاخْتَرتُم الذُّكُورَ؟! ﴿تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾ جَائِرَةٌ غَيرُ معتَدِلَةٍ، من: ضَازَهُ يَضيزُهُ إذا ضَامَهُ، والأَصْلُ: «ضُوزَى» فَفُعِلَ بهَا ما فُعِلَ بـ«بِيض» و «عِين» لِتَسْلَمَ الياءُ، وقُرِئَ بالهَمزةِ[3] من: ضَأَزَهُ.

و﴿هِىَ﴾ ضَميرُ الأَصْنَامِ، والمعنىٰ: ما ﴿هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ﴾ لَيْسَ تَحتَها في

---

(١) قاله ابن زيد. راجع تفسير الطبري: ج ١١ ص ٥٢٠.
(٢) حكاه الطبري في تفسيره: ج ١١ ص ٥٢١ ونسبه الى بعض أهل البصرة.
(٣) قرأه ابن كثير وحده. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٦١٥.

الحقيقةِ مُسَمَّياتٌ، لأنَّكم تُسَمُّونَ آلِهَةً ما هو أَبْعَدُ شيءٍ منها، أو: ضميرُ اللَّاتِ والعزَّىٰ ومَناة، أي: ما هٰذِهِ الأَسماءُ الَّتي سمَّيتُمُوها بِهَواكُم وزَعَمْتُم أنَّ اللَّاتَ من «ٱللهِ» والعُزَّىٰ من «العزيز»، لَيْسَ لَكُم مِن ٱللهِ علىٰ صحَّةِ تَسميَتِها بُرهَانٌ تَتمسَّكُونَ بهِ، يُقَالُ: سمَّيته زَيْداً وبِزَيْدٍ ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ إلَّا تَوَهُّمَ أنَّ ما هُم عليهِ حقٌّ، وَمَا تَهواهُ أَنْفُسُهُمْ، ويَتركُونَ ما جاءَهُم من ﴿ٱلْهُدَىٰٓ﴾ والأَدلَّةَ علىٰ أنَّ ما هُم عليهِ باطِلٌ.

﴿أَمْ لِلْإِنسَـٰنِ مَا تَمَنَّىٰ﴾ هي «أم» المنقَطِعَةُ، والهَمزَةُ للإنكارِ، أي: لَيْسَ للإنسانِ ما تَمنَّىٰ من نعيمِ الدُّنيا والآخرَةِ، بَلْ يَفْعَلُهُ تعالىٰ بِحَسَبِ المَصْلَحَةِ. ﴿فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ﴾ يَعْطي منْها مَن يَشَاءُ ويَمْنَعُ مَن يَشَاءُ، يعني: أنَّ الملائكةَ مَعَ كَثْرتِهِم وقُرْبِهِم ومَنْزِلَتِهِم من ٱللهِ ﴿لَا تُغْنِى شَفَـٰعَتُهُمْ﴾ عن أَحَدٍ ﴿شَيْـًٔا إِلَّا﴾ بَعْدَ ﴿أَنْ يَأْذَنَ ٱللَّهُ﴾ لَهُم في الشَّفاعةِ إليهِ ﴿لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ لَهُم أَن يَشفَعُوا فيهِ من أهلِ الإِيمانِ والتَّوحيدِ، فكَيْفَ تَشفَعُ الأَصْنامُ إليهِ لِعَابدِيهِم؟!

﴿يُسَمُّونَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ﴾ بقَوْلِهِم: إنَّ الملائكةَ بَنَاتُ ٱللهِ. ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ﴾ أي: بما يقُولُونَ ﴿مِنْ عِلْمٍ﴾، ﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ لأنَّ حقيقةَ الشَّيءِ إنَّما تُدْرَكُ بالعِلْمِ والتَيقُّنِ لا بالظَّنِّ والتوَهُّمِ.

﴿فَأَعْرِضْ عَنْ﴾ دَعْوةِ ﴿مَنْ تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ ومَنَافِعَها وَلَذَّاتِها. ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ أي: ذلك منْتَهىٰ عِلْمِهِم، وهو مَبْلَغٌ خَسِيسٌ لا يَرضَىٰ بِهِ لنَفْسِهِ عَاقِلٌ ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ﴾ بالضَّالِّ والمُهتَدي فيُجَازِيهما علىٰ حَسَبِ ما يَسْتَحِقَّانه.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى (٣١) ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَـٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ

وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ(٣٢) أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ(٣٣) وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ(٣٤) أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ(٣٥) أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ(٣٦) وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ(٣٧) أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ(٣٨) وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ(٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ(٤٠) ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ(٤١)﴾

تَعلَّقَ قَولُهُ: ﴿لِيَجْزِىَ﴾ بما قَبْلَهُ، لأنَّ المعنىٰ: أنّه سبحانَهُ إنَّما خَلَقَ ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لهذا الغَرَضِ، وهو أن يُجَازِيَ المُسيئينَ والمُحْسنينَ بالإِسَاءَةِ والإِحْسَانِ، أو: يتعلَّقُ بقَولِهِ: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ لأنَّ نَتيجَةَ العِلْمِ بالضَّالِّ والمُهتَدي جَزَاؤُهُما بأَعْمَالِهِما، ومعنىٰ ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾: المَثُوبةُ الحُسْنىٰ، وهِيَ الجنَّةُ. ويَجُوزُ أن يُريدَ بسَبَبِ ما عَمِلُوا من السُّوءِ وبسَبَبِ الأَعْمالِ الحُسْنىٰ.

﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ﴾ أي: عَظَائِمَ الذُّنُوبِ ﴿وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾ جَمْعُ الفَاحِشَةِ، وقُرِئَ: «كَبِيرَ ٱلإِثمِ»[1] أي: النَّوعَ الكَبيرَ منْهُ، ﴿إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ وَهُو ما قَلَّ منْهُ، ومنْهُ اللَّمَمُ: المَسُّ من الجُنُونِ، وأَلَمَّ الرَّجُلُ بالمَكَانِ: إذا قَلَّ فيهِ لَبْثُهُ، وأَلَمّ بالطَّعَامِ: إذا قَلَّ منْهُ أَكْلُهُ، وهو ٱستِثْنَاءٌ منْقَطِعٌ أو صِفَةٌ، كأنَّه قَالَ: كَبَائِرَ الإِثْمِ غَيْرَ اللَّمَمِ، وقيلَ: هو النَّظْرةُ والغَمْزَةُ والقُبْلَةُ وما كَانَ دونَ الزِّنا من الذُّنُوبِ[2]،

(١) قرأه حمزة والكسائي. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٦١٥.
(٢) قاله ابن عباس وابن مسعود وأبو هريرة ومسروق والشعبي. راجع تفسير الطبري: ج ١١ ص ٥٢٦ و ٥٢٧.

وعن السُّدِّي: الخَطْرةُ من الذَّنْبِ[١]، وعن الكَلبيِّ: كلُّ ذَنْبٍ لَمْ يَذْكُرِ ٱللهُ عليهِ حَدّاً ولا عِقَاباً[٢] ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ تَسعُ مَغْفِرَتُهُ الذُّنُوبَ ولا يَضِيقُ عَنْها حِينٌ، ﴿أَنْشَأَكُم﴾ أي: أَنشأَ أَباكُم آدمَ ﴿مِن﴾ أَديمِ ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ وفي وَقْتِ كَونِكُم ﴿أَجِنَّة﴾ في الأَرْحَامِ، فَهُو يَعْلَمُ مَيْلَ طِبَاعِكُم إِلَى اللَّمَمِ ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنْفُسَكُمْ﴾ فَلَا تَنْسبُوها إِلى الزَّكَاةِ والطَّهَارَةِ من المَعَاصِي، ولا تُثْنوا عَلَيها فَقَدْ عَلِمَ ٱللهُ الزَّكِيَّ منكُم والتَّقِيَّ أَوَّلًا وآخراً، وقيلَ: كانَ نَاسٌ يَعْمَلُونَ أَعْمالاً حَسَنَةً ثمّ يقُولُونَ: صَلَاتُنا وزَكَاتُنا وصِيَامُنا وعِبَاداتُنا... فَنَزَلَت[٣]، وهذا إذا كانَ علىٰ سبيلِ الإِعْجَابِ أو الرِّياء.

رُوِيَ[٤]: أَنَّ عُثْمانَ كانَ يَعطِي مالَهُ، فَقَالَ لَهُ عبدُ ٱللهِ بن سَعدٍ بن أبي سرح وهو أَخُوهُ من الرَّضَاعَةِ: يُوشَكُ أَن لا يَبْقَىٰ لكَ شَيء، فَقَالَ لَهُ عـثمانُ: إنَّ لِـي ذُنُـوباً وخَطَايا وإِنّي أَطْلُبُ بِمَا أَصْنَعُ رِضَا ٱللهِ، فَقَالَ عبدُ ٱللهِ: اعطني نَاقتَكَ بِرَحْلِها وأَنَا أَتحمَّلُ عنكَ ذُنُوبَكَ كلَّها، فـأَعْطَاهُ وأَشْـهَدَ عـليهِ وأَمْسَكَ عـن العَـطَاءِ، فَـنَزَلَتْ: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ﴾ عن الخَيْرِ ﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ﴾ وَقَطَعَ عَطِيَّتَهُ وأَمْسَكَ، وأَصْلُهُ مِن: أَكْدَى الحَافِرُ إذا بَلَغَ الكُدْيَةَ، وهي صَلَابَةٌ كالصَّخْرَةِ إذا بَلَغَ الحافِرُ إليها يَئِسَ من المَاءِ فأَمْسَكَ عن الحَفْرِ. ﴿أَعِنْدَهُ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ﴾ أي: ما غَابَ عَنْهُ من أَمْرِ العَذَابِ ﴿فَهُوَ يَرَىٰٓ﴾ أي: يَعْلَمُ أَنَّ ما قَالَهُ لَهُ أَخُوهُ من ٱحتِمالِ أَوْزَارِهِ حقٌّ؟ أَلَـمْ يُخْبَرْ ﴿بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ﴾ من أَسْفَارِ التَّوراةِ ﴿وَ﴾ في صُحُفِ ﴿إِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ أي: تمَّمَ وَوَفَّرَ ما أُمِرَ بِهِ، وإِنَّما أَطْلَقَ ليتناوَلَ كُلَّ تَوْفِيَةٍ من: تَبليغِ الرِّسَالَةِ،

(١) حكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٤٢٦.

(٢) حكاه عنه البغوي في تفسيره: ج ٤ ص ٣٥٢.

(٣) وهو قول الكلبي ومقاتل. راجع تفسير البغوي: ج ٤ ص ٢٥٣.

(٤) رواه ابن عباس والسدي والكلبي والمسيب بن شريك كما في أسباب النزول للواحدي: ص ٣٣٨ ح ٨٢٢.

والصَّبْرِ علىٰ ذَبْحِ الوَلَدِ وعلىٰ نارِ نَمْرودَ... وغَيْرِ ذلكَ من قِيامِهِ بالأَوامِرِ، وعنِ الحَسَنِ: ما أَمَرَهُ ٱللهُ بشيءٍ إلَّا وفَّىٰ بِهِ[1]. ﴿أَنْ لَا تَزِرُ﴾ هي المُخفَّفَةُ من الثَّقيلةِ، والمعنىٰ: أَنَّه لا تَزِرُ، والضَّميرُ للشَّأْنِ، ومَحَلُّ «أن» وما في حَيِّزِهَا الجرُّ بَدَلًا من ﴿مَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ﴾، أو: الرَّفْعُ علىٰ: هو أن لَا تَزِرَ، كأَنَّ قَائِلًا قَالَ: وَمَا في صُحُفِ موسىٰ وإبراهيمَ؟ فَقَالَ: أَنْ لا تَزِرَ، ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَـٰنِ إِلَّا﴾ سَعْيهُ، و «ما» مَصْدَرِيَّةٌ.

وأمَّا ما جَاءَ في الأَخْبارِ من الصَّدَقَةِ عن الميِّتِ والحَجِّ عنْهُ والصَّلَاةِ فإنَّ ذلكَ وإنْ كانَ سَعْيَ غَيْرِهِ فكأنَّه سَعْيُ نَفْسِهِ لكونِهِ قَائِماً مقَامَهُ وتَابِعاً لَـهُ، فَـهُو بـحُكْمِ الشَّريعَةِ كالوَكيلِ النَّائِبِ عَنْهُ. ﴿ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلأَوْفَىٰ﴾ أي: ثُمَّ يُجْزَى العَبْدُ سَعْيَهُ، يقَالُ: جَزَاهُ ٱللهُ عَمَلَهُ، و: جَزَاهُ علىٰ عَمَلِهِ، والمَعنىٰ: أَنَّه يَـرىٰ سَـعْيَهُ يَـوْمَ القِيَامَةِ ثمَّ يُجْزِيهِ أَوْفَى الجزَاءِ.

﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ(٤٢) وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ(٤٣) وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا(٤٤) وَأَنَّهُ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلأُنثَىٰ(٤٥) مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ(٤٦) وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلأُخْرَىٰ(٤٧) وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ(٤٨) وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ(٤٩) وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا ٱلأُولَىٰ(٥٠) وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبْقَىٰ(٥١) وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُواْ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ(٥٢) وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ(٥٣) فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ(٥٤) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ(٥٥) هَـٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلأُولَىٰٓ(٥٦) أَزِفَتِ ٱلآزِفَةُ(٥٧) لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ(٥٨) أَفَمِنْ هَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ(٥٩) وَتَضْحَكُونَ

---

(١) تفسير الحسن البصري: ج ٢ ص ٣١٠.

وَلَا تَبْكُونَ (٦٠) وَأَنتُمْ سَـٰمِدُونَ (٦١) فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا (٦٢)﴾

الفَتْحُ في ﴿أَنَّ﴾ وما بَعْدَهُ علىٰ معنىٰ: أنَّ هذا كُلَّهُ في صُحُفِ موسىٰ وإبراهيمَ، و﴿ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ مَصْدَرٌ بمعنَى الانتهاءِ، أي: يَنْتَهي إليهِ الخَلْقُ ويَرجعُونَ إليهِ كقَولِهِ: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ (١).

ومعنىٰ ﴿أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾: خَلَقَ قُوَّتَيْ الضَّحْكِ والبُكَاءِ، أو: فَعَلَ سَبَبَ الضَّحْك والبُكَاءِ من السُّرورِ والحُزْنِ، وقيلَ: أَضْحَكَ الأَشْجارَ بالأَنْوارِ وأَبْكَى السَّحَابَ بالأَمْطار.

﴿إِذَا تُمْنَىٰ﴾ إذا تَدْفَقُ في الرَّحِمِ، يُقَالُ: مَنِيَ وأَمْنَىٰ، وقيلَ: معناهُ: تَخَلَّقَ (٢). قَالَ:

حتَّىٰ يبين ما يَمْنِي لكَ المَانِي (٣)

أي: يقدِّرُ لكَ المُقَدِّرُ. وقُرِئَ: «النَّشَآءَة» بالمدِّ (٤)، يريدُ: أنَّها واجِبَةٌ عليهِ في الحِكْمَةِ ليُجَازِي علَى الإحسَانِ والإِسَاءَةِ. ﴿وَأَقْنَىٰ﴾ أي: أَعْطَى القُنْيَةَ وهي المَالُ المُؤَثَّلُ المُدَّخَرُ، وقيلَ: ﴿أَغْنَىٰ﴾: مَوَّلَ، ﴿وأَقْنَىٰ﴾: أَرضىٰ بِمَا أَعْطىٰ (٥).

﴿رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ﴾ أي: خَالِقُها وكَانَتْ خُزَاعَةُ تعبُدُها، سَنَّ لَهُم ذلكَ أَبو كَبْشَةَ رَجُلٌ من أَشْرافِهِم، وكانَ أَحَدُ أَجْدادِ النبيِّ ﷺ مِن قِبَلِ أُمَّهاتِهِ، وكانَتْ قُرَيشٌ

---

(١) آل عمران: ٢٨، النور: ٤٢، فاطر: ١٨.

(٢) قاله الأخفش كما في تفسير الماوردي: ج ٥ ص ٤٠٥.

(٣) لأبي قلابة الهذلي، وصدره: ولا تقولنَّ لشيء سوف أفعله. وقيل لسويد بن عامر المصطلقي، وصدره: وأسلك طريقك فيها غير محتشم. راجع خزانة الأدب للبغدادي: ج ٤ ص ٤١٨.

(٤) قرأه ابن كثير وأبو عمرو. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٤٩٨.

(٥) قاله مجاهد في تفسيره: ص ٦٢٨.

يُسَمُّونَهُ عليه السلام: «ابن أبي كَبْشَة» لمخالفَتِهِ إيَّاهُم في الدِّينِ، كَمَا خَالَفَ أبو كَبْشَةَ غيرَهُ في عبَادَةِ الشِّعْرَىٰ.

وَعَادٍ الأُولَىٰ: قَومُ هُودٍ، وعَادٍ الأُخرىٰ: إرَمَ، وقيلَ: الأُولىٰ القُدَمَاءُ لأنَّهم أُولَى الأُمَمِ هَلاكاً بعد قَومِ نُوحٍ (١). وقُرِئَ: «عَاد لُولى» بإدغَامِ التَّنوينِ في اللَّامِ وطَرْحِ هَمْزَةِ «أُولىٰ» ونَقْلِ ضَمَّتِها إلىٰ لَامِ التَّعريفِ (٢). وقُرِئَ: «وثَمُوداً» (٣) ﴿وَثَمُودَ﴾.

﴿وَ﴾ أهْلَكْنا ﴿قَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ﴾ عَادٍ وثَمُودَ ﴿إِنَّهُم كَانُواْ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ﴾ لأنَّهم كانُوا يؤْذُونَهُ ويَضْرِبُونَهُ حتَّىٰ لا يكُونَ بِهِ حَرَاكٌ، وما أَثَّرَ فيهِم دُعَاؤُهُ قَرِيباً من ألْفِ سنة.

﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ﴾ أي: والقُرىٰ الَّتي ائتَفَكَتْ بأَهْلِها أي: ٱنقَلَبتْ، وهُم قَومُ لُوطٍ ﴿أَهْوَىٰ﴾ أي: رَفَعَها إلَى السَّماءِ علىٰ جنَاحِ جبرئيلَ ثمَّ أَهْواها إلَى الأَرضِ أي: أَسْقَطَها، ﴿فَغَشَّىٰهَا﴾ أي: فَأَلْبَسَها من العَذابِ ﴿مَا غَشَّىٰ﴾ وَهُو تَهْويلٌ لِمَا صَبَّ عليها من العَذَابِ وأَمْطَرَ عليها من الحِجَارَةِ المُسَوَّمَةِ. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾ تَتَشَكَّكُ أيُّها الإنْسَانُ؟ وقد عَدَّدَ سبحانَهُ نِعَماً ونِقَماً وسَمَّاها كُلَّها آلاء؛ لِمَا في نِقَمِهِ من الْعِبَرِ للمُعْتَبِرينَ.

﴿هَٰذَا﴾ القُرآنُ إنْذَارٌ من جِنسِ الإنْذَاراتِ ﴿الأُولَىٰٓ﴾، أو: هذا الرَّسُولُ مُنْذِرٌ من المُنْذِرينَ الأَوَّلينَ، وإنَّما قَالَ: ﴿الأُولَىٰٓ﴾ علىٰ تأويلِ الجَمَاعَة.

﴿أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ﴾ قَرُبَتِ الموصُوفَةُ بالقُرْبِ في قَولِهِ: ﴿ٱقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ﴾ (٤).

---

(١) قاله ابن زيد. راجع تفسير الطبري: ج ١١ ص ٥٣٨.

(٢) قرأه نافع وأبو عمرو. راجع كتاب السبعة: ص ٦١٥.

(٣) والتنوين هي قراءة الجمهور إلّا حمزة وعاصماً برواية حفص عنه. راجع المصدر السابق.

(٤) القمر: ١.

﴿لَيْسَ لَهَا﴾ نَفْسٌ ﴿كَاشِفَةٌ﴾ أي: مُبيِّنَةٌ متىٰ تَقُومُ، كَقَولِهِ: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [1]، أو: لَيس لها نفْسٌ قادِرَةٌ على كَشْفِها إذا وَقَعَتْ إلَّا ٱللهُ، غَيْر أنَّه لا يكْشِفُها. وقيلَ: «كَاشِفَة» مَصْدرٌ بمعنَى الكَشْفِ كالعَافيةِ والخَائِنةِ [2]، أي: ليس لَهَا من دُونِ ٱللهِ كَشْفٌ، والمُرادُ: لا يَكْشِفُ عَنْها غيْرُهُ.

﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ وهو القُرآن ﴿تَعْجَبُونَ﴾ إنْكاراً ﴿وَتَضْحَكُونَ﴾ استِهْزَاءً ﴿وَلَا تَبْكُونَ﴾ انْزِجَاراً لِمَا فيهِ من الوَعيد. وعن الصَّادقِ عليه السلام: أنَّ المُرادَ بالحَديثِ ما تَقَدَّمَ من الأَخْبارِ. ﴿وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ﴾ لَاهُونَ لاعِبُونَ، وقَالَ بَعضُهُم لِجَارِيَتِهِ: اسْمِدِي لَنَا أي: غَنِّي [3]. ﴿فَاسْجُدُواْ لِلَّهِ وَٱعْبُدُواْ﴾ مخْلصينَ ولا تَعبُدُوا الآلِهَة.

❁ ❁ ❁

(١) الأعراف: ١٨٧.

(٢) وهو قول الفراء في معاني القرآن: ج ٣ ص ١٠٣.

(٣) روي عن ابن عباس قال: السُمُودُ: الغناءُ بلغة حِمْيَرَ، يقال للقَيْنَةِ: أَسمدينا أي ألهينا بالغناء. أنظر لسان العرب: مادة «سمد».

سُورَةُ القَمَر

مكّيّةٌ[1]، وهي خَمْسٌ وخَمْسُونَ آيةً.

وفي حَديثِ أُبيٍّ: «مَنْ قَرَأَها في كُلِّ غِبٍّ بُعِثَ يومُ القيامةِ وَوَجْهُهُ على صُورَةِ القَمَرِ لَيْلَةِ البَدْرِ»[2].

وعن الصَّادِقِ عليه السلام: «مَنْ قَرَأَها أَخْرَجَهُ ٱللهُ من قَبْرِهِ على ناقَةٍ من نُوقِ الجَنَّة»[3].

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ(١) وَإِن يَرَوْاْ ءَايَةً يُعْرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ(٢) وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ(٣) وَلَقَدْ

---

(١) قال الشيخ الطوسي في التبيان: ج ٩ ص ٤٤٢: مكّية بلاخلاف، وهي خمس وخمسون آيةً بلاخلاف.

وفي تفسير الماوردي: ج ٥ ص ٤٠٨: مكّية في قول الجمهور، وقال مقاتل: إلّا ثلاث آيات من قوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنْتَصِرٌ﴾ الى قوله: ﴿وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾

وفي الكشّاف: ج ٤ ص ٤٣٠ ما لفظه: مكّية إلّا الآيات ٤٤ و ٤٥ و ٤٦ فمدنيّة، وآياتها (٥٥) نزلت بعد الطارق.

(٢) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٤٤٢ مرسلًا.

(٣) ثواب الأعمال للصدوق: ص ١٤٣.

جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَافِيهِ مُزْدَجَرٌ(٤) حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ(٥) فَتَوَلَّ
عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ(٦) خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ
ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ(٧) مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ
هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ(٨) كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ
وَٱزْدُجِرَ(٩) فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ(١٠) فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ
بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ(١١) وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ
قُدِرَ(١٢) وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ(١٣) تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن
كَانَ كُفِرَ(١٤) وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ(١٥) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى
وَنُذُرِ(١٦)﴾

انشقَاقُ القَمرِ من مُعجزَاتِ نبيِّنا صلى الله عليه وآله وسلم البَاهِرَةِ[١]، رَواهُ كَثيرٌ من الصَّحابةِ[٢] منْهُم: حُذَيْفَةُ بنُ اليَمانِ، وعَبدُ ٱللهِ بنُ مسعُودٍ، وأَنَسٌ، وٱبنُ عبَّاسٍ، وٱبنُ عُمَرَ وغَيرُهُم.

قَالَ حُذَيْفَةُ: إنَّ السَّاعَةَ قد ٱقْتَرَبَتْ، وإنَّ القَمَرَ قد ٱنْشَقَّ علىٰ عَهْدِ نبيِّكم صلى الله عليه وآله وسلم[٣].

---

(١) أخرج المحدّث البحراني في البرهان: ج ٤ ص ٢٥٩ ح ٥ عن عمر بن ابراهيم الأوسي قال: قال ابن مسعود: انشقاق القمر لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وردّ الشمس لعلي بن أبي طالب لأنّ كل فضلٍ أعطى الله نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم أعطىٰ مثله لوليّه إلّا النبوة، وقيل: هذا خاتم النبيّين وهذا خاتم الوصيّين.

(٢) قال المحدّث الثقة ابن شهر آشوب في مناقبه: أجمع المفسّرون والمحدّثون سوىٰ عطاء والحسين والبلخي في قوله: ﴿اقتربَتِ السَّاعة وٱنْشَقَّ القَمرُ﴾ أنّه اجتمع المشركون ليلة بدر إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقالوا: إن كنت صادقاً فشق لنا القمر فرقتين، قال: إنْ فعلت تؤمنون؟ قالوا: نعم، فأشار إليه بإصبعه فانشقّ شقّتين، رؤي حراء بين فلقتيه. المناقب: ج ١ ص ١٢٢.

(٣) أخرجه عنه السيوطي في الدّر المنثور: ج ٧ ص ٦٧٢ وعزاه الى ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وعبدالله بن احمد وابن جرير وابن مردويه وأبي نعيم.

قَالَ ٱبنُ مسْعُودٍ: والَّذي نَفْسي بيَدِهِ رأيتُ حِرَاءَ بينَ فِلْقَتَي القَمَرِ [١].

وعن ٱبنِ عبَّاسٍ: انشقَّ القَمَرُ فِلْقَتَيْنِ ورَسُولُ ٱللهِ ﷺ يُنَادي: «يا فُلانُ ويا فُلانُ اشهدُوا» [٢] [٣].

﴿وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟﴾ عن الانقيادِ لِصَحَّتِها ﴿وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ [٤] قويٌّ مُحْكَمٌ، من قَولِهِم: استَمَرَّ مَريرَةً، وقيل: مُسْتَمِرٌّ: مَارٌّ ذاهِبٌ يَزُولُ ولا يَبقىٰ؛ تَمْنِيَةً لنفُوسِهِم وتَعْليلاً [٥]. ﴿وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ﴾ وما زَيَّنَ لَهُم الشَّيطانُ من دَفْعِ الحقِّ بعد ظُهُورِهِ ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾ أي: كلُّ أَمْرٍ لا بدَّ أَن يَصِيرَ إِلىٰ غَايةٍ ليَسْتَقِرَّ عليها، وإِنَّ أَمْرَ محمّدٍ ﷺ سَيَصيرُ إِلىٰ غَايةٍ يَتَبيَّنُ عندَها أنَّه حَقٌّ أو بَاطِلٌ، وسَيَظْهَرُ لَهُم عَاقِبَتُهُ. وقُرِئ: «مسْتَقِرٍّ» بالجرِّ [٦] عَطْفاً على ﴿ٱلسَّاعَةُ﴾ أي: اقْتَرَبَتِ السَّاعةُ واقْتَربَ كلُّ أَمْرٍ مستَقِرٍّ يَسْتَقِرُّ ويَتَبيَّنُ حَالُهُ.

﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ﴾ أي: من القُرآنِ المُودَعِ أَنْباءَ الآخِرَةِ، أَو أَنْباءَ القُرونِ الماضيةِ ﴿مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ أي: ٱزْدِجَارٌ، أو: مَوضِعُ ٱزْدِجَارٍ عن الكُفْرِ وتَكْذيبِ الرُّسُلِ. ﴿حِكْمَةٌۢ بَـٰلِغَةٌ﴾ بَدَلٌ مِن «مَا»، أو: علىٰ هو حِكْمَةٌ ﴿فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾ نَفْيٌ أو إِنْكَارٌ، معنَاهُ: وأي غَنَاءٍ تُغْني النُّذُرُ.

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ لِعِلْمِكَ بأنَّ الإِنْذَارَ لا يُغْني فيهِم ﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ﴾ انتَصَبَتْ

---

(١) أخرجه عنه السيوطي أيضاً في الدرّ وعزاه الى احمد وعبد بن حميد وابن جرير والحاكم وابن مردويه وأبي نعيم.

(٢) أخرجه عنه كذلك السيوطي في الدرّ وعزاه الى أبي نعيم في الحلية.

(٣) أخرج الطبري في تفسيره: ج ١١ ص ٥٤٧ باسناده عن مجاهد: أنّ النبي ﷺ قال لأبي بكر: «اشهد يا أبابكر».

(٤) في نسخة زيادة: «دائم مطّرد وقيل: مستمر».

(٥) قاله مجاهد في تفسيره: ص ٦٣٣.

(٦) قرأه ابو جعفر المدني. راجع شواذ القرآن لابن خالويه: ص ١٤٨.

بـ﴿يَخْرُجُونَ﴾، وقُرِئَ بإسْقاطِ الياءِ مِن «الدَّاعِي» اكتفاءً بالكَسْرةِ عَنها[١].

﴿إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ﴾ مُنْكرٍ فَظيعٍ تَنْكَرُهُ النُّفوسُ، وهو هَولُ يَوْمِ القيامةِ. وقُرِئَ «نُكْر» بالتَّخْفيفِ[٢]، والدَّاعي هو إسرافيلُ.

﴿خُشَّعاً أَبْصَـٰرُهُمْ﴾، وقُرِئَ: «خَاشِعاً»[٣] علىٰ: يَخْشَعْنَ أَبْصارُهُم، ويَخْشَعُ أَبْصارُهُم، وهو حَالٌ من ﴿يَخْرُجُونَ﴾، و ﴿خُشَّعاً﴾ علىٰ لُغَةِ مَن قَالَ: أَكَلُوني البَراغِيثُ وَهُم طَيْءٌ، أو: فيهِ ضَميرُ «هم» و ﴿أَبْصَـٰرُهُمْ﴾ بَدَلٌ عن ذلكَ الضَّميرِ تَقُولُ: مَرَرْتُ برِجَالٍ حسنٍ أَوْجُهُهُم وحِسَانٍ أَوْجُهُهُم. وخُشوعُ الأبْصَارِ كِنَايةٌ عن الذلَّةِ، لأنَّ ذلَّةَ الذَّليلِ وعزَّةَ العَزيزِ يَظْهَرانِ في عُيُونِهما ﴿مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ من القُبُورِ ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ شَبَّهَهُم بالجَّرادِ لكَثْرَتِهِم وتَموُّجِهِم، يُقَالُ للجَيْشِ الكثيرِ المَائِجِ بَعْضُهُ في بعضٍ: جَاءُوا كالجراد. ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ﴾ أي: مُسْرعينَ إلَى إجَابةِ الدَّاعي، مادِّي أَعْناقِهِم إليه.

﴿كَذَّبَتْ﴾ قَبْلَ أَهْلِ مكَّةَ ﴿قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا﴾ نُوحاً تَكْذيباً علىٰ عَقيبِ تَكْذِيبٍ ﴿وَقَالُوا۟﴾ هو ﴿مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ﴾ وانتُهِرَ بالشَّتْمِ والضَّرْبِ والوَعيدِ بالرَّجْمِ في قَولِهِم: ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾[٤]. ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ﴾ بأَنِّي ﴿مَغْلُوبٌ﴾ غَلَبَني قَوْمي ولَمْ يَسْمَعُوا منِّي، وَيَئِسْتُ من إجَابَتِهِم لي ﴿فَٱنتَصِرْ﴾ فانْتَقِمْ منْهُم بعَذَابٍ تُنْزِلهُ عَلَيْهِم. ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ﴾ قُرِئَ بالتَّشديدِ[٥] والتَّخْفيفِ ﴿بِمَآءٍ

---

(١) قرأه ابن كثير ونافع في الوصل فقط، وابن عامر وحمزة والكسائي وعاصم في الوصل والوقف معاً. راجع كتاب السبعة في القراءات ص ٦١٧. والظاهر أنّ المصنّف رحمه‌الله يعتمد قراءة إثبات الياء هنا تبعاً لصاحب الكشّاف.

(٢) أي سكون الكاف، وهي قراءة ابن كثير وحده. راجع كتاب السبعة المتقدّم.

(٣) قرأه أبو عمرو وحمزة والكسائي. راجع المصدر السابق نفسه: ص ٦١٨.

(٤) الشعراء: ١١٦.

(٥) وهي قراءة ابن عامر وحده. راجع المصدر السابق نفسه.

﴿مُّنْهَمِرٍ﴾ مُنْصَبٍّ في كَثْرةٍ وتَتَابُعٍ، لَمْ يَنْقَطِعْ أربعينَ يوماً. ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ﴾ شَقَقْنَاها بالماءِ ﴿عُيُونًا﴾ أي: جَعَلْنا الأرضَ كُلَّها كأنَّها عُيُونٌ مُتَفَجِّرةٌ[1]. ﴿فَالْتَقَى ٱلْمَآءُ﴾ أي: مياهُ السَّماءِ والأَرْضِ ﴿عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ علىٰ حَالٍ قَدَّرَها ٱللهُ كَيفَ شاءَ، وقيلَ: علىٰ حَالٍ جاءَتْ مقدَّرةً مُسْتَويةً، وهي أنَّ قَدَرَ ما أُنْزِلَ من السَّماءِ كَقَدَرِ ما أُخْرِجَ من الأَرْضِ سَواءٌ بِسَواءٍ[2].

﴿عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾ يَعني: السَّفينةَ، وهي صِفَةٌ نائبَ مَنَابِ المَوصُوفِ، ونَحوُهُ قَولُ الشَّاعِرِ:

... ولكِنْ قَميصِي مَسْرودَةٌ من حَدِيد[3]

أرادَ: ولكِنْ قَميصِي دِرْعٌ. والدُّسُرُ: جَمْعُ دِسَارٍ وهو المِسْمَارُ، فِعَالٌ من دَسَرَهُ: إذا دَفَعَهُ. ﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: بِمَرْأىً منَّا ﴿جَزَآءً﴾ مفعُولٌ لَهُ، أي: فَعَلْنا ذلك ﴿جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ وهو نُوحٌ عليه السلام، جَعَلَهُ مكفُوراً لأنَّ الرَّسُولَ نِعْمَةٌ من ٱللهِ ورَحْمَةٌ، فكَانَ نُوحٌ نِعْمةً مكفُورةً. ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَا﴾ الضَّميرُ للسَّفينةِ أو للفِعْلَةِ ﴿ءَايَةً﴾ يُعْتَبَرُ بها، والْمُدَّكِرُ: المُعْتَبِرُ. و «النُّذُرُ»: جَمْعُ نَذِيرٍ وَهُو بمَعنَى الإِنْذَار.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ(١٧) كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ(١٨) إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ(١٩) تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ(٢٠) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ(٢١) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ(٢٢) كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ(٢٣) فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ

(١) في بعض النسخ: «تنفجر».

(٢) قاله ابن قتيبة. راجع تفسير الماوردي: ج ٥ ص ٤١٢.

(٣) وصدره: مفرشي صهوة الحصان ولكن. لم نعثر على قائله، يريد أنّه من أهل الغزو والتجلّد في المعيشة ولم يكن من أهل التنعّم والترف. راجع شرح شواهد الكشاف: ص ٥٦.

وَسُعُرٍ(٢٤) أَءُلْقِيَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ(٢٥) سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ(٢٦) إِنَّا مُرْسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ(٢٧) وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ(٢٨) فَنَادَوْاْ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ(٢٩) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ(٣٠) إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ(٣١)﴾

﴿يَسَّرْنَا الْقُرءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ أي: سَهَّلْنَاهُ للحِفْظِ، وأَعنَّا عليهِ مَن أرادَ حِفْظَهُ حتَّىٰ يَقْرَأَهُ ظَاهِراً ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ أي: طالبٍ لِحِفْظِهِ ليُعَانَ عليهِ؟ أَو: هيَّأْنَاهُ للذِّكْرِ من: يَسَّرَ نَاقَتَهُ للسَّفَرِ إذا رَحلَها، قالَ:

وَقُـمتُ إِلَـيْهِ بِـاللِّجَامِ مُـيَسِّراً هُنَالِكَ يَجْزِيني الَّذي كنْتُ أَصْنَعُ[(١)]

ورُوِيَ: أنَّه لَيْسَ من كُتُبِ ٱللهِ المُنْزَلَةِ كتابٌ يُقْرَأُ كُلُّهُ ظَاهِراً إلَّا القُرآن[(٢)].

وقيلَ: معناهُ: سهَّلْنَاهُ للادِّكَارِ والاتِّعاظِ بأَنْ شَحَنَّاهُ بالمَواعِظِ الشَّافيةِ والزَّوَاجِرِ الكَافيةِ[(٣)] ﴿فَهَلْ مِن﴾ مُتَّعِظٍ؟

﴿وَنُذُرِ﴾ أي: وإنْذَارٍ أَتَىٰ لَهُم بالعذابِ قبلَ نُزُولِهِ، أو: إنْذَارٍ أَتَىٰ في تَعذيبِهِم لِمَنْ بَعْدَهُم. ﴿رِيحاً صَرْصَراً﴾ شَديدَةَ الهُبُوبِ، أو: شَديدَةَ البَرْدِ، من: الصَّرِّ وهو البَرْدُ ﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ﴾ شُؤْمٍ ﴿مُسْتَمِرٍّ﴾ دائِم الشُّؤْمِ قد ٱستَمرَّ عليهم حتَّىٰ أَهْلَكَهُم، أو: ٱستَمرَّ علىٰ كبيرِهِم وصغيرِهِم حتَّىٰ لَمْ يَبْقَ منْهُم نَسَمَةٌ، وكانَ في أَرْبعاء في آخرِ الشَّهْرِ لا تَدُورُ؛ ورُوِيَ ذلك عن الباقرِ عليه السلام. ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ﴾ تَقْلَعُهُم عن أَماكِنِهِم ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنْقَعِرٍ﴾ يَعني: أَنَّهم كانُوا يَتَسَاقَطُونَ علَى الأَرضِ أَمْواتاً وَهُم

---

(١) للأعرج الخارجي، في وصف فرسٍ له. أُنظر شرح الشواهد: ص ١٣٩ .

(٢) ذكره البغوي في تفسيره: ج ٤ ص ٢٦١ عن سعيد بن جبير .

(٣) حكاه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٤٣٥.

جُثَثٌ طِوَالٌ عِظَامٌ كأَنَّهم أُصُولُ نَخلٍ مُنْقَعِرٍ عن أماكِنِهِ ومَغَارِسِهِ، وقيلَ: شُبِّهُوا بذلكَ لأنَّ الرِّيحَ قَطَعَتْ رؤُوسَهُم فَبَقوا أَجْسَاداً بلا رُؤُوس [١]. وذُكِّرَ صِفَةُ ﴿نَخْلٍ﴾ على اللَّفْظِ، وَلَو أُنِّثَ حَمْلاً علَى المَعنىٰ لَجَازَ، كَمَا قَالَ: ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [٢].

﴿أَبَشَراً مِّنَّا﴾ نُصِبَ بِفِعْلٍ يُفَسِّرُهُ ﴿نَتَّبِعُهُ﴾، أَنْكَروا أَن يَتَّبِعُوا مِثْلَهُم في الجنْسيَّةِ، وقَالُوا: ﴿مِنَّا﴾ لتكُونَ المُمَاثَلَةُ أَقْوىٰ، وقَالُوا: ﴿وَٰحِداً﴾ إنْكاراً لِأَنْ تَتَّبعَ الأُمَّةُ رَجُلًا واحِداً لَيْسَ بأَشْرفِهم ﴿إِنَّا إِذاً لَّفِى ضَلَـٰلٍ﴾ كأَنَّه قَالَ لَهُم: إنْ لَمْ تتَّبعُوني كُنْتُم في ضَلَالٍ عن الحقِّ ﴿وَسُعُرٍ﴾ أي: ونيرانٍ، جَمْعُ سَعير، فَعَكَسُوا عليهِ فَقَالُوا: إِنِ ٱتَّبعْنَاكَ كُنَّا إذاً كَمَا تَقُولُ، وقيلَ: الضَّلَالُ: الخَطَأُ والبُعْدُ عن الصَّوابِ، والسُّعُرُ: الجُنُون [٣]. ﴿أَءُلْقِيَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ أي: أَأُنْزِلَ عليهِ الوَحْيُ مِنْ بينِنَا وَفِينا مَن هو أَحقُّ منْهُ بالاختيارِ للنُّبوَّةِ؟! ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ بَطِرٌ مُتَكَبِّرٌ، يُرِيدُ أَنْ يَتَعَظَّمَ علينا بادِّعاءِ النُّبوَّةِ. ﴿سَيَعْلَمُونَ غَداً﴾ عِنْدَ نُزُولِ العَذَابِ بِهِم، أو: يَوْمَ القيامةِ ﴿مَنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ﴾ أَصَالِحٌ أَمْ مَنْ كَذَّبَهُ؟

﴿إِنَّا مُرْسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ﴾ أي: بَاعِثُوها ومُخْرِجُوها من الهَضَبةِ كَمَا سَأَلُوا ﴿فِتْنَةً لَّهُمْ﴾ وٱمتِحَاناً وٱبتِلاءً ﴿فَٱرْتَقِبْهُمْ﴾ فانْتَظِرْهُم وَتَبَصَّرْ ما هُم صَانِعُونَ ﴿وَٱصْطَبِرْ﴾ علىٰ ما يُصيبُكَ من أَذَاهُم، ولا تَعْجَلْ حتَّىٰ يأْتِيَكَ أَمْرِي. ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌ﴾ مَقسُومٌ بَيْنَهُم، لَها شِرْبُ يَوْمٍ ولَهُم شِرْبُ يَوْمٍ، وَقَالَ: ﴿بَيْنَهُمْ﴾ تَغْليباً للعُقَلَاءِ ﴿كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾ مَحْضُورٌ يَحْضُرُهُ أَهْلُهُ لا يَحْضُرُهُ الآخَرُ مَعَهُ، وقيلَ: يَحْضُرُونَ الماءَ في نَوبَتِهِم واللَّبَنَ في نَوْبَتِهَا [٤]. ﴿فَنَادَوْاْ صَاحِبَهُمْ﴾ قَدَارُ بنُ سَالِفٍ

---

(١) قاله مجاهد. راجع إعراب القرآن للنحّاس: ج ٤ ص ٢٩٢.

(٢) الحاقّة: ٧.

(٣) قاله الزجّاج في معاني القرآن: ج ٥ ص ٨٩.

(٤) قاله مجاهد في تفسيره: ص ٦٣٥.

أُحَيْمَرُ ثَمُودَ ﴿فَتَعَاطَىٰ﴾ واجْتَرأَ علىٰ تَعَاطي الأَمْرِ العظيمِ غيْرَ مُبالٍ بهِ، فأَحْدَثَ العَقْرَ بالنَّاقةِ، أو: فتَعَاطَى السَّيفَ فعَقَرَها.

﴿صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ هِيَ صَيْحَةُ جبرائيلَ عليه السلام، والْهَشِيمُ: الشَّجَرُ اليابِسُ المُتَهَشِّمُ المُتَكَسِّرُ، و ﴿ٱلْمُحْتَظِرِ﴾ الَّذِي يَعْمَلُ الحَظِيرَةَ، وَمَا يَحْتَظِرُ بِهِ يَيْبَسُ وَتَتَوطَّؤُهُ البَهَائِمُ فيَتَهَشَّم.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ(٣٢) كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِالنُّذُرِ(٣٣) إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ(٣٤) نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ(٣٥) وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْاْ بِالنُّذُرِ(٣٦) وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ(٣٧) وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ(٣٨) فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ(٣٩) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ(٤٠) وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ(٤١) كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ(٤٢)﴾

﴿حَاصِبًا﴾ ريحاً تَحْصِبُهُم أي: تَرمِيهِم بالحَصْبَاءِ[1] ﴿نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ﴾ هُوَ السُّدُسُ الأَخِيرُ من اللَّيلِ، وصُرِفَ لأنَّه نَكِرَةٌ، وتَقُولُ: لَقِيتُهُ سَحَراً تُرِيدُ: في سَحَرِ يَومِكَ. ﴿نِّعْمَةً﴾ أي: إنْعَاماً وَهُوَ مفعولٌ لَهُ ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ﴾ نِعْمَةَ ٱللهِ بإيمانِهِ وطَاعَتِه.

﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم﴾ لُوطٌ ﴿بَطْشَتَنَا﴾ أَخْذَتَنا بالعَذَابِ ﴿فَتَمَارَوْاْ﴾ أي: فَشَكُّوا بالإِنْذَارَاتِ. ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ﴾ أي: طَلَبُوا مِنْهُ أَن يُسَلِّمَ إليهم ضَيْفَهُ ﴿فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ﴾ فَمَحَوْنَاهَا حتَّىٰ صَارَتْ ممسُوحَةً كسَائِرِ الوَجْهِ لا يُرىٰ لَهَا

---

(١) في الصحاح: الحَصْباء: الحَصَىٰ، وحصَّبْتُ المسجد تحصيباً: اذا فرشته بها، والمحصَّب: موضع الجِمَارِ بمنىً.

شَقٌّ، صَفقَهُم جبرئيلُ بجَنَاحِهِ صَفقَةً تَرَكَتْهُم يَتَرَدَّوْنَ، لا يَهْتَدُونَ إلى البابِ حتَّىٰ أَخْرَجَهُم لُوطٌ ﴿فَذُوقُواْ﴾ فَقُلْتُ لَهُم علىٰ أَلْسِنَةِ الملائكةِ: ذُوقُوا ﴿عَذَابِى وَنُذُرِ﴾.

﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ﴾ أي: أَتَاهُم صَبَاحاً ﴿بُكْرَةً﴾ وبَاكِرَةً أي: أَوَّلَ النَّهارِ، هِيَ كَقَولِهِ: ﴿مُشْرِقِينَ﴾[1] و ﴿مُصْبِحِينَ﴾[2]، ﴿عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ﴾ ثَابِتٌ قد ٱستَقَرَّ عليهم.

والفائِدَةُ في تَكْرِيرِ قَولِهِ: ﴿فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ وَلَقد يَسَّرْنَا ٱلْقُرءَان...﴾ الآيةَ أَن يُجَدِّدُوا[3] عِنْدَ ٱستماعِ كلِّ نَبَأٍ من أَنْباءِ الأُمَمِ ٱدِّكَاراً وٱتِّعاظاً إذا سَمِعُوا الحَثَّ علىٰ ذلكَ، وأَنْ تَقْرَعَ لَهُم العَصَا مِراراً حتَّىٰ لا تَغْلِبُهُم الغَفْلَةُ، وهٰكذا حُكْمُ التَّكْرِيرِ في قَولِهِ: ﴿فَبِأَىِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ عِنْدَ ذِكْرِ كلِّ نِعْمَةٍ عُدَّتْ في سُورةِ «الرَّحمٰن»، وقَولِهِ: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ في «المُرْسَلَات»، وهٰكذا حُكْمُ تَكْرِيرِ الأَنْباءِ والقَصَصِ في أَنْفُسِها، ليكُونَ كُلٌّ منْها حَاضِرَةً للقُلُوبِ غَيْرَ مَنْسِيَّةٍ.

﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ﴾ موسىٰ وهَارون وغَيْرُهُما من الأَنْبياءِ لأَنَّهما عَرَضَا عليهِم ما أَنْذَرَ بِهِ المُرْسَلُونَ، أو: هُوَ جَمْعُ نَذِيرٍ وهو الإِنْذَارُ ﴿كَذَّبُواْ بِآيَـٰتِنَا كُلِّهَا﴾ وَهِيَ الآياتُ التِّسْعُ الَّتي جَاءَهُم بِها موسىٰ ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ﴾ لا يُغَالَبُ ﴿مُّقْتَدِرٍ﴾ علىٰ ما يَشَاء.

﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَـٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ(٤٣) أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ(٤٤) سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ(٤٥) بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ(٤٦) إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَـٰلٍ وَسُعُرٍ(٤٧) يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ(٤٨) إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ

---

(١) الحجر: ٧٣، الشعراء: ٦٠.

(٢) الحجر: ٦٦ و ٨٣، الصّافات: ١٣٧، القلم: ١٧ و ٢١.

(٣) في نسخة: «يحذروا».

خَلَقْنَـٰهُ بِقَدَرٍ(٤٩) وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَ ٰحِدَةٌ كَلَمْحِۭ بِالْبَصَرِ (٥٠) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ(٥١) وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ(٥٢) وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ(٥٣) إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَنَهَرٍ(٥٤) فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ(٥٥)﴾

﴿أَكُفَّارُكُمْ﴾ يا أَهْلَ مَكَّةَ ﴿خَيْرٌ﴾ وأَقْوىٰ ﴿من أُوْلَـٰئِكُمْ﴾ الكُفَّارِ المَعْدُودِينَ: قَوْمِ نُوحٍ وَهُودٍ وصَالِحٍ ولُوطٍ وآلِ فِرْعَوْنَ؟ أي: أَهُمْ خَيْرٌ قوّةً وآلةً ومَكَانةً في الدُّنيا أَو أَقَلُّ كُفْراً وعِناداً؟ والمُرادُ: أَنَّ هٰؤلاءِ مثْلُ أولئِكَ بَلْ شَرٌّ مِنْهُم ﴿أَمْ﴾ أُنْزِلَتْ ﴿لَكُم بَرَآءَةٌ﴾ في الكُتُبِ المتَقَدِّمَةِ: أَنَّ مَنْ كَفَرَ منْكُم وكَذَّبَ الرُّسُلَ كانَ آمِناً من عَذابِ ٱللهِ فآمَنْتُم بتلكَ البَراءَةِ؟ ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ﴾ أي: جَماعَةٌ أَمْرُنا مُجْتَمِعٌ ﴿مُـنْتَصِرٌ﴾ مُـمْتَنِعٌ لا نُرامُ ولا نُضامُ.

ويُروىٰ[1]: أنَّ أبا جَهْلٍ ضَرَبَ فَرَسَهُ يَوْمَ بَدْرٍ وقَالَ: نَحْنُ نَنْتَصِرُ اليـوم مـن محمَّدٍ صلى الله عليه وآله وسلم وأَصْحابِهِ، فَنَزَلَتْ: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ﴾ يُريدُ: كُـفَّارَ مكَّـةَ ﴿وَيُـوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ أي: الأَدْبارَ، كَمَا قَالَ:

كُلُوا في بَعْضِ بَطْنِكُم تَعِفُّوا[2]

أي: يَنْهزِمُونَ فيولُّونَكم أَدْبارَهُم، وكانَتْ هٰذهِ الهَزِيمَةُ يَوْمَ بَدْرٍ. ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ﴾ أي: يَوْمُ القيامَةِ ﴿مَوْعِدُهُمْ﴾ للعَذابِ ﴿وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ﴾ وأَشَدُّ وأَفْظَعُ، ﴿وَأَمَرُّ﴾ مِنَ الهَزِيمَةِ والقَتْلِ والأَسْرِ بِبَدْرٍ.

﴿فِى ضَلَـٰلٍ وَسُعُرٍ﴾ أي: هَلاكٍ ونيرانٍ، أو: في ضَلالٍ عن الحقِّ فـي الدُّنـيا

---

(١) رواه مقاتل. راجع تفسير القرطبي: ج ١٧ ص ١٤٦.

(٢) وعجزه: فإنَّ زَمانكُم زَمَنٌ خَميصُ. لم نعثر على قائله، وفيه دعوة الى العفّة عـن مسـاءلة الناس أن يطعموهم شيئاً. أنظر خزانة الأدب للبغدادي: ج ٧ ص ٥٥٩ وما بعده.

ونيرانٍ في الآخرةِ. ﴿ذُوقُواْ﴾ علىٰ إرادةِ القَوْلِ ﴿مَسَّ سَقَرَ﴾ هو مثْلُ قَولِهم: وَجَدَ مَسَّ الحُمَّىٰ، وذَاقَ طَعْمَ الضَّرْبِ، لأنَّ النَّارَ إذا أَصابَتْهُم بِحَرِّها وشِدَّتِها فكأنَّها مسَّتْهُم مَسّاً بذلك كَمَا يَمَسُّ الحَيَوانُ بما يُؤْذي ويُؤْلِمُ، و ﴿سَقَرَ﴾: عَلَمٌ لِجَهنَّمَ، من: سَقَرَتْهُ النَّارُ وَصَقَرَتْهُ إذا لوَّحَتْهُ.

﴿كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَاهُ﴾ مَنْصُوبٌ بمُضْمَرٍ يفسِّرُهُ هذا الظَّاهِرُ، والْقَدَرُ: التَّقديرُ أي: خَلَقْنا كُلَّ شيءٍ مُقَدَّراً مُحْكَماً مُرَتَّباً علىٰ حَسَبِ ما اقتَضَتْهُ الحِكْمَةُ. ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلاَّ وَٰحِدَةٌ﴾ أي: كَلِمَةٌ واحِدَةٌ سَريعةُ التَّكْوينِ ﴿كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ والمُرادُ قَولُهُ: «كُنْ». والمُرادُ: أنَّا إذا أَرَدْنَا تَكْوِينَ شَيءٍ لَمْ يَلْبَثْ كَوْنُهُ.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ﴾ أَشْبَاهَكُم ونُظَرَاءَكُم في الكُفْرِ من الأُممِ الماضيةِ ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ﴾ في دَواوين الحفَظَةِ ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ﴾ من أَعمالِهم مَسْطُورٌ عَلَيْهِم مكتُوبٌ، أو: كلُّ ما هو كائِنٌ من الآجالِ والأَرْزَاقِ وغَيرِهِما مكتُوبٌ في اللَّوحِ المحفُوظِ.

﴿وَنَهَرٍ﴾ أي: أَنْهارٍ، اكتَفىٰ باسْمِ الجِنْسِ، وقيلَ: هو السَّعَةُ والضِّياءُ من النَّهارِ[1]. ﴿فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ في مَكَانٍ مَرْضِيٍّ، وقيلَ: في مَجْلِسِ حَقٍّ لا لَغْوَ فيهِ[2] ﴿عِندَ مَلِيكٍ﴾ أي: مُقرَّبِينَ عنْدَ مقْتَدرٍ، لا شَيءَ إلَّا وهو تَحْتَ مُلْكِهِ وقُدْرَتِه.

۞ ۞ ۞

---

(١) قاله الضحّاك. راجع تفسير البغوي: ج ٤ ص ٢٦٦.

(٢) وهو قول الشيخ الطوسي في التبيان: ج ٩ ص ٤٦١.

سُورَةُ الرَّحْمَـٰن

مكّية[١]، وقيلَ: مدنيّةٌ[٢] وهي ثَمانٍ وسَبْعُونَ آيةً كُوفيٌّ، ستٌّ بَصْريٌّ، عَدَّ الكُوفيُّ ﴿الرَّحْمٰن﴾[٣] و ﴿المُجْرِمُونَ﴾[٤].

وفي حديث أُبيٍّ: «وَمَنْ قَرَأَ سُورةَ ٱلرَّحمٰن رَحِمَ ٱللهُ ضَعْفَهُ، وأدَّىٰ شُكْرَ ما أَنْعَمَ ٱللهُ عَلَيه»[٥].

وعن[٦] الصَّادقِ عليه السلام: «أُحِبُّ أَن يَقْرأَ الرَّجُلُ سُورةَ الرَّحمٰن يَوْمَ الجُمُعةِ،

---

(١) قال الشيخ الطوسي في التبيان: ج ٩ ص ٤٦٢: قال قوم: هي مكّية، وقال آخرون هي مدنيّة، وهي ثمان وسبعون آية في الكوفي والشامي، وسبع وسبعون عند الحجازيّين، وستّ وسبعون في البصري.

وفي الكشّاف: ج ٤ ص ٤٤٢: مدنيّة وآياتها (٧٨) نزلت بعد الرعد.

(٢) وهو قول ابن عباس برواية النحّاس وابن ضريس، وقتادة برواية الأنباري، وابن الحصّار في منظومته، والبيهقي في الدلائل. راجع الإتقان للسيوطي: ج ١ ص ٤٨.

(٣ و ٤) الآية: ١ و ٤٣.

(٥) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٤٥٤ مرسلًا.

(٦) في نسخة زيادة: «أبي بصير عن أبي عبدالله عليه السلام قال: أتَدعوا قراءة سورة الرحمن والقيام بها فإنّه لا تقوىٰ في قلوب المنافقين، وتأتي يوم القيامة في صورة آدمي في أحسن صورة وأطيب ريح حتّىٰ تقف من الله موقعاً لا يكون أحد أقرب به الى الله منها فيقول لها: من الذي كان يقوم بك في الحياة الدنيا، ومن قرأك؟ فتقول: يا ربِّ فلان وفلان، فتبيضّ وجوههم، فيقول: اشفعوا فيمن أحببتم، فيشفعون حتّىٰ لا يبقىٰ لهم غاية، ولا أحد يشفعون له فيقول لهم: ادخلوا الجنّة وأسكنوا فيها حيث شئتم. وعن أبي عبدالله عليه السلام قال: مَن قرأ سورة الرحمن ←

وكُلّما قرأ ﴿فَبِأَيِّ ءَالاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ قَالَ: لا بِشَيءٍ من آلائِكَ رَبِّ أُكَذِّبُ»[١].

وعن مُوسىٰ بنِ جَعْفَر عن آبائِهِ عليهم السلام عن النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم قَالَ: «لِكُلِّ شَيْءٍ عَرُوسٌ، وعَرُوسُ القُرآنِ سُورةُ الرَّحمٰن»[٢].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ(١) عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ(٢) خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ(٣) عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ(٤) ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ(٥) وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ(٦) وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ(٧) أَلَّا تَطْغَوْاْ فِى ٱلْمِيزَانِ(٨) وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ(٩) وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ(١٠) فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ(١١) وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ(١٢) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(١٣)﴾

﴿الرَّحْمٰنُ﴾: الَّذي وَسِعَتْ رَحْمتُه كُلَّ شيءٍ. لمَّا أَرادَ سبحانَهُ أن يُعدِّد نِعمَهُ وآلاءَهُ في هذه السُّورةِ قدّم هذا الاسمَ لِيُعْلَمَ أنَّ جميعَ نَعْمائِهِ وأفعالِهِ الحُسنىٰ صَدَرَتْ من الرَّحمةِ الَّتي شَملَتْ خَلْقَهُ، وَهو مبتدأٌ، وهٰذهِ الأَفْعالُ مَعَ ضَمَائِرِها بعدَهُ أَخْبَارٌ مترادفةٌ، وإخْلاؤُهَا من حَرْفِ العَطْفِ لِمَجيئِها علىٰ نَمَطِ التَّعديدِ، وَعَدَّ أَوَّلَ كُلِّ شَيءٍ نِعْمَةَ الدِّينِ الَّتي هي أَجلُّ النِّعَمِ، وَقدَّمَ منْها ما هُوَ في أَعلىٰ مَراتبِها، وَهُو تَعليمُهُ القُرآنِ وتَنزِيلُهُ لأنّه أَعظَمُ وَحْيِ ٱللهِ مَنْزلةً، وهو مِصْداقُ الكُتُبِ الإِلٰهيَّة.

← فقال عند كلّ آية: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾: لا بآلائك أُكذّب، فإن قرأها ليلًا ثم مات: مات شهيداً، وإن قرأها نهاراً ثم مات: مات شهيداً».

(١) ثواب الأعمال للصدوق: ص ١٤٤.

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الايمان: ج ٢ ص ٤٩٠ ح ٢٤٩٤ باسناده عن علي عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

وَقد أَخَّرَ ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ عن ذِكْرِهِ لِيُعْلَمَ أنَّه إنّما خَلَقَهُ لِيَعْلَمَ وَحْيَهُ، فَمَا خُلِقَ الإِنْسانُ من أَجْلِهِ كانَ مقدَّماً عليهِ.

ثمَّ ذَكَرَ ما يُميِّزُ بِهِ الإِنسانُ من سائرِ الحَيَوانِ من ﴿ٱلْبَيَانَ﴾ وهو النُّطْقُ المُعْرِبُ عمَّا في الضَّميرِ، وقيلَ: إنَّ ﴿الإِنسَٰنَ﴾ آدمُ عليه السلام، و ﴿ٱلْبَيَانَ﴾ اللُّغَاتُ كُلُّها وأَسْمَاءُ كلِّ شَيء[١]. وقيلَ: ﴿الإِنسَٰن﴾ محمَّدٌ صلى الله عليه وآله وسلم، و ﴿ٱلْبَيَان﴾ ما كَانَ وما يَكُون[٢].

وعن الصَّادقِ عليه السلام: ﴿البيَان﴾ الاسْمُ الأَعْظَمُ الَّذي عَلِمَ بِهِ كُلَّ شَيْءٍ.

﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ بِحِسَابٍ مـعلُومٍ وتَـقْديرٍ سَـويٍّ يَـجْريانِ فـي بُرُوجِهِما ومَنَازِلِهِما، وفي ذلكَ مَنَافِعُ عظيمةٌ للنَّاسِ منْها: عِلْمُ السِّنينِ والحِسَابِ. ﴿وَٱلنَّجْمُ﴾: النَّباتُ الّذي يَنْجُمُ من الأَرْضِ لا سَاقَ لَهُ كالبُقُولِ ﴿وَٱلشَّجَرُ﴾: الذي لَهُ سَاقٌ، وَسُجُودُهُما: انْقِيادُهُما للهِ تعالىٰ فِيمَا خُلِقَا لَهُ، أو: مَا فيهما من الدَّلالةِ علىٰ حُدُوثِهما، وأنَّ لَهُما صَانِعاً مُحْدِثاً. واتَّـصَلَتْ هـاتانِ الجُـمْلتانِ بِـ﴿الرَّحْمَٰن﴾ اتِّصالاً مَعْنَوِيّاً، وَهُو ما عُلِمَ أنَّ الحُسْبَانَ حُسْبَانُهُ، والسُّجُودَ لَهُ لا لِغَيْرِهِ، فَكَأَنَّهُ قَالَ: بِحُسْبَانِهِ ويَسْجُدَانِ لَهُ.

﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا﴾ خَلَقَها مرفُوعَةً مسْمُوكَةً، حَيثُ جَـعَلَها مَـنْشَأَ أَحْكَـامِهِ، ومُنْتَزَلَ أَوامِرِهِ ونَوَاهِيهِ، ومَسْكَنَ ملائِكَتِهِ الَّذين يَـهْبِطُونَ بـالوَحْيِ عَـلىٰ رُسُلِهِ ﴿وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾ وهو كُلُّ ما يُوزَنُ به الأَشْيَاءُ، ويُعْرَفُ مَقَادِيرُها، لِيُوصَلَ بِهِ إِلَى الإِنْصَافِ والانتِصَافِ، وقيلَ: المُرادُ بِهِ العَدْلُ[٣]. ﴿أَلَّا تَطْغَوْاْ﴾ لِئَلّا تَطْغَوا، أَو: هي «أن» المُـفَسِّرةُ. ﴿وَأَقِـيمُواْ ٱلْـوَزْنَ بِـٱلْقِسْطِ﴾ أي: قَـوِّمُوا وَزْنَكُـم بـالعَدْلِ،

---

(١) قاله ابن عباس وقتادة والحسن كما في تفسير القرطبي: ج ١٧ ص ١٥٢.

(٢) وهو قول ابن عباس أيضاً وابن كيسان. راجع المصدر السابق.

(٣) قاله مجاهد وقتادة والسدّي. راجع تفسير الماوردي: ج ٥ ص ٤٢٤.

﴿وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ﴾ ولا تُنقِصُوهُ، وهذا أَمْرٌ بالتَّسْوِيةِ، ونَهيٌ عن الطُّغْيانِ الَّذي هو ٱعتداءٌ وزِيادَةٌ، وعن الخُسْرانِ الَّذي هو تَطْفيفٌ ونُقْصانٌ. وَكَرَّرَ لَفْظَ «المِيزَان» تَشْديداً للتَّوصيةِ بهِ وتأْكيداً.

﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا﴾ خفَضَها مَدْحُوَّةً على الماءِ ﴿لِلْأَنَامِ﴾ للخَلْقِ، وهو كلُّ ما على ظَهْرِها من دابَّةٍ، وعن الحَسَنِ: للإِنْسِ والجِنِّ(١)، فَهِي كالمهادِ لَهُم يَتصرَّفُونَ فَوْقَها. ﴿فِيهَا فَـٰكِهَةٌ﴾ ضُرُوبٌ ممَّا يُتَفكَّهُ بِهِ ﴿ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ﴾ وهي كُلُّ ما يُكَمُّ أي: يُغَطَّىٰ من لِيفِ النَّخْلِ وَسَعْفِهِ وَكُفُرَّاهُ(٢)، ويُنْتَفَعُ بجَميعِهِ كَمَا يُنْتَفَعُ بالمَكْمُومِ من ثَمَرِهِ وجمَارِهِ وجُذُوعِهِ. وقيلَ: الأَكْمَامُ: أَوْعِيةُ الثَّمَرِ، والوَاحِدُ «كِمٌّ» بكَسْرِ الكَافِ(٣).

و﴿ٱلْعَصْفِ﴾: وَرَقُ الزَّرْعِ، وقيلَ: التِّين(٤) وَ﴿ٱلرَّيْحَانُ﴾ الرِّزقُ، وهو اللُّبُّ، أَرادَ فيها ما يُتَلذَّذُ بِهِ من الفَواكِهِ، وما هو الجَامِعُ بين التَّلذُّذِ والتَّغذِّي، وهو ثَمَرُ النَّخْلِ وما يُتَغذَّىٰ بهِ، وَهُو الْحَبُّ. وقُرِئَ: «وَالرَّيْحَانِ» بالكَسْرِ(٥) ومعناهُ: والحَبُّ ذُو العَصْفِ الذي هو عَلَفُ الأَنْعامِ والرَّيْحَانِ الذي هو مَطْعَمُ النَّاسِ، وَبالضَّمِّ علىٰ: وَذُو الرَّيْحَانِ، فَحُذِفَ المُضَافُ وأُقِيمَ المُضَافُ إليهِ مَقَامَهُ، وقِيلَ: مَعناهُ: وَفِيها الرَّيْحَانُ الذي يُشَمُّ(٦)، وقُرِئَ: «وَالحَبَّ ذَا ٱلعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانَ» بالنَّصْبِ(٧)، أَي:

---

(١) تفسير الحسن البصري: ج ٢ ص ٣١٤.

(٢) الكَفَرُ والكُفُرَّىٰ والكِفِرَّىٰ والكَفَرَّىٰ والكُفَرَّىٰ: وعاء طلع النخل وقشره الأعلىٰ. (لسان العرب: مادة كفر).

(٣) قاله الشيخ الطوسي في التبيان: ج ٩ ص ٤٦٦. وإليه ذهب الجوهري في الصحاح: مادة «كمم».

(٤) قاله الضحّاك. راجع تفسير البغوي: ج ٤ ص ٢٦٨.

(٥) قرأه حمزة والكسائي. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٦٢٩.

(٦) قاله الحسن وابن زيد. راجع تفسير البغوي: ج ٤ ص ٢٦٨.

(٧) وهي قراءة ابن عامر وحده. راجع كتاب السبعة المتقدّم.

وَخَلَقَ الحَبَّ والرَّيْحَانَ، أو: وأَخَصَّ الحَبَّ والرَّيْحَانَ.

﴿فَبِأَيِّ ءَالاَءِ رَبِّكُمَا﴾ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ ﴿تُكَذِّبَانِ﴾، وَيَدلُّ علىٰ أنَّ الخِطَابَ لَهُما قَوْلُهُ: ﴿للأَنَامِ﴾ وقَوْلُهُ: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾[1].

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ(١٤) وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ(١٥) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(١٦) رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ(١٧) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(١٨) مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ(١٩) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ(٢٠) فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(٢١) يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ(٢٢) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(٢٣) وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ(٢٤) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(٢٥) كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ(٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ(٢٧) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(٢٨) يَسْـَٔلُهُ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ(٢٩) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(٣٠)﴾

الصَّلْصَالُ: الطِّينُ اليَابِسُ لِتَصَلْصُلِهِ، و الفَخَّارُ: الطِّينُ المَطْبُوخُ بالنَّارِ وهو الخَزَفُ. وفي مَوضِعٍ آخَرَ: ﴿مِنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾[2] و ﴿مِنْ طِينٍ لَّازِبٍ﴾[3] والمعنىٰ: أَنَّهُ خَلَقَهُ من تُرابٍ جَعَلَهُ طيناً، ثُمَّ حمأً مسْنُوناً، ثُمَّ صَلْصَالاً.

و ﴿الْجَانّ﴾ أَبو الجنِّ، وقيلَ: هو إبْليس[4]، وَالْمَارِجُ: الصَّافي من لَهَبِ النَّارِ لا دُخَانَ فيهِ، وقيلَ: هو المُخْتَلَطُ بِسَوَادِ النَّارِ[5]، و «مِنْ» للبَيَانِ، فكأَنَّهُ قَالَ:

---

(١) الآية: ٣١.
(٢) الحجر: ٢٦ و ٢٨ و ٣٣.
(٣) الصافّات: ١١.
(٤) قاله الحسن. راجع التبيان: ج ٩ ص ٤٦٨.
(٥) قاله الزجّاج في معاني القرآن: ج ٥ ص ٩٩.

مِن صَافٍ من نَّارٍ أو مختَلَطٍ من نَّار.

والمَشْرِقَانِ والمَغْرِبَانِ: مَشرِقا الشِّتاءِ والصَّيفِ، أو: مَشرقَا الشَّمْسِ والقَمَرِ ومَغْرِبَاهُما.

﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ أَرْسَلَ البَحْرَ العَذْبَ والبَحْرَ المِلْحَ مُتَجَاوِرَيْنِ مُتَلاقِيَيْنِ لا فَصْلَ بينهُما في مَرْأَى العَيْنِ. ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ﴾ حَاجِزٌ من قُدْرةِ ٱللهِ لا يَتَجَاوزَانِ حَدَّيْهِما، ولا يَبْغِي أَحَدُهُما على الآخَرِ بالمُمَازَجَةِ. ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا﴾ كِبَارُ الدُّرِّ وَصِغَارُهُ، وقيلَ: ﴿الْمَرْجَانُ﴾ خَرَزٌ أَحْمَرُ كالقُضْبانِ[1] وهو البُسَّذُ، وقُرِئَ: «يُخْرَجُ»[2] من: أَخْرَجَ، وقَالَ: ﴿مِنْهُمَا﴾ وإِنَّما يَخْرُجَانِ من المِلْحِ لأَنَّهما لَمَّا ٱلْتَقَيا صَارا كالشَّيءِ الواحدِ، فكأَنَّهُ قَالَ: يَخْرُجُ من البَحْرِ ولا يَخْرُجَانِ من جميعِ البَحْرِ ولكِن من بَعْضِهِ، كما تَقُولُ: خَرَجْتُ من البَلَدِ وإنَّما خَرَجْتَ من بَعْضِهِ، وقيلَ: إِنَّهما يَخْرُجَانِ من مُلْتَقَى المِلْحِ والعَذْبِ.

وَالْجَوَارِي: السُّفُنُ، وقُرِئَ: ﴿الْمُنْشَآتُ﴾ بِفَتْحِ الشِّينِ وكَسْرِها[3]، وهي المَرفُوعَاتُ الشُّرُعِ، وبالكَسْرِ: الرَّافِعَاتُ الشُّرُعِ، أَو: اللَّواتي تُنشِئُ الأَمْواجَ بِجَرْيِهِنَّ، والأَعْلَامُ: جَمْعُ عَلَم وهو الجَبَلُ الطَّويلُ.

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا﴾ أي: على الأَرضِ ﴿فَانٍ﴾ أي: هالِكٌ، يَفْنُونَ ويَخْرُجُونَ من الوجُودِ إلى العَدَمِ ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ أي: ذَاتُهُ، والوَجْهُ يُعبَّرُ بهِ عن الجُمْلَةِ والذَّاتِ ﴿ذُو ٱلْجَلَالِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ صِفَةٌ للوَجْهِ الَّذي يَجِلُّ عن التَّشبيهِ بخَلْقِهِ وعن أَفْعَالِهِم، أو: مَن عِنْدَهُ الجَلَالُ والإِكْرَامُ لأَوليائِهِ وأَصْفيائِهِ، وهذه الصِّفَةُ من عَظِيمِ صِفَاتِ ٱللهِ عزَّ ٱسمه.

---

(١) قاله ابن مسعود. راجع تفسير الماوردي: ج ٥ ص ٤٣١.

(٢) قرأه نافع وأبو عمرو. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٦١٩.

(٣) وبالكسر هي قراءة حمزة وحده. راجع المصدر السابق.

وفي الحَديثِ: «أَلِظُّوا بياذا الجَلَالِ والإِكْرَامِ»(١).

والنِّعْمَةُ في الفَناءِ أَنَّ عَقيبَهُ مَجيءُ وَقْتِ الجزَاءِ. ﴿يَسْئَلُهُۥ﴾ أَهْلُ ﴿ٱلسَّمَـٰوَٰتِ﴾ ما يَتَعلَّقُ بدينِهِم ﴿وَ﴾ أَهْلُ ﴿ٱلأَرْضِ﴾ ما يَتعلَّقُ بدينِهِم ودُنْياهُم، فَكُلُّ مَنْ فِيهما مفْتقرونَ إليهِ لا يَسْتَغْنونَ عنهُ، ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ أي: كلَّ وَقْتٍ وحينٍ يُحدِثُ أُموراً ويُجَدِّدُ أَحْوالاً، كَمَا رُوِيَ عن النبيِّ ﷺ أَنَّه تَلَاها، فَقِيلَ لَـهُ: ومـا ذلكَ الشَّأْنُ؟ فَقَالَ: «مِنْ شَأْنِهِ أَن يَغْفِر ذَنْباً ويُفَرِّج كَرْباً ويَرْفَع قَوماً ويَضَع آخَرِينَ»(٢).

﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ(٣١) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٢) يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَانفُذُواْ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَـٰنٍ(٣٣) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(٣٤) يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ(٣٥) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(٣٦) فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ(٣٧) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(٣٨) فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْئَلُ عَن ذَنبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ(٣٩) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(٤٠) يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَـٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ(٤١) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(٤٢) هَـٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ(٤٣) يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ(٤٤) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(٤٥)﴾

﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ﴾ مُسْتَعارٌ من قَوْلِ الرَّجُلِ لِمَنْ يُهَدِّدُهُ: سأَفْرُغُ لكَ أي: سأَتَجَرَّدُ للإِيْقَاعِ بكَ من كلِّ ما يَشْغَلُني عَنْهُ حتَّىٰ لا يكُونَ لي شُغْلٌ سَواهُ، ويَجُوزُ أَن يكُونَ

---

(١) أخرجه أحمد في المسند: ج ٤ ص ١٧٧. وفي النهاية: يقال: أَلَظَّ بالشيء يُلِظُّ إِلْظاظاً: إذا لزمه وثابر عليه.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره: ج ١١ ص ٥٩٢ مسنداً عن منيب بن عبدالله الأزدي عن أبيه، وفيه «أقواماً».

المُرادُ: ستنتهي الدُّنْيا ويَنْتَهي عنْدَ ذلك شُؤُونُ الخَلْقِ فَلَا يَبقَىٰ إلَّا شَأْنٌ واحِدٌ وهو جَزَاؤُكُم، فَجَعَلَ ذلك فَراغاً علىٰ طَريقِ التَّمْثيلِ، وقُرِئَ: ﴿سَيَفْرُغُ﴾ بالياءِ[١] أي: ٱللهُ عزَّوجلَّ، وسُمِّيَ الإِنْسُ والجنُّ «الثَّقَلَيْنِ» لأنَّهما ثِقْلَانِ علىٰ الأَرضِ، وكلُّ شَيءٍ لَهُ وَزْنٌ وقَدَرٌ فَهُو ثِقْلٌ.

ومنْهُ قَولُ النبيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «إنِّي تَاركٌ فيكُم الثَّقَلَيْنِ: كِتَابَ ٱللهِ وَعِتْرَتي»[٢] سمَّاهُما «ثَقَلَيْنِ» لِعِظَمِ شَأْنِهما وعُلُوِّ مَكَانِهما.

﴿يَا مَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلإِنْسِ﴾ كالتَّرْجَمَةِ لقَولِهِ: ﴿أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾، ﴿إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَنْ﴾ تَهْرُبُوا من قَضَائي وتَخْرُجُوا من أَرْضي وسَمَائي فَافْعَلُوا، ثُمَّ قَالَ: لا تَقْدِرُونَ على النُّفُوذِ من نَوَاحِيهِما ﴿إِلَّا بِسُلْطَـٰنٍ﴾ أي: بِقَهْرٍ وقُوَّةٍ وغَلَبَةٍ، وأنَّىٰ لَكُم ذلكَ، ونَحْوُهُ: ﴿وَمَآ أَنْتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾[٣].

﴿شُوَاظٌ﴾ بالضَّمِّ، وقُرِئَ بالكَسْرِ[٤]، وهو اللَّهَبُ الخَالصُ، وَالنُّحَاسُ: الدُّخَانُ، وقيلَ: الصُفْرُ المُذَابُ يُصَبُّ علىٰ رؤُوسِهِم[٥]. وعنِ ٱبنِ عبَّاسٍ: إذا خَرَجُوا من قُبُورِهم سَاقَهُم شُواظٌ إلى المَحْشَرِ[٦]، قُرِئَ ﴿نُحَاسٌ﴾ بالرَّفْعِ عَطْفاً

---

(١) قراه حمزة والكسائي. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٦٢٠.

(٢) قد تواتر حديث الثقلين الىٰ حدّ الاستفاضة في كتب الفريقين: الشيعة وأهل العامة، منها ـ علىٰ سبيل المثال ـ: مسند أحمد بن حنبل: ج ٣ ص ١٧، المعجم الكبير للطبراني: ج ٥ ص ١٩٠ و ٢٠٥ و ٢١٠، والمعجم الصغير له أيضاً: ج ١ ص ١٣١ و ١٣٥، مستدرك الحاكم: ج ٣ ص ١٤٨، مشكل الآثار للطحاوي: ج ٤ ص ٣٦٨، أمالي الطوسي: ص ٥٤٨ المجلس العشرون، كمال الدين: ج ١ ص ٢٣٩، كشف الغمة: ج ١ ص ٤٣.

(٣) العنكبوت: ٢٢.

(٤) أي بكسر الشين، قرأه ابن كثير وحده. راجع كتاب السبعة: ص ٦٢١.

(٥) قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة. راجع تفسير الطبري: ج ١١ ص ٥٩٧.

(٦) تفسير ابن عباس: ص ١٨٤.

علىٰ ﴿شُوَاظٌ﴾، وبالجرِّ[١] عطفاً علىٰ ﴿نَارٍ﴾، ﴿فَلَا تَنْتَصِرَانِ﴾ فلَا تَمتَنِعَانِ.

﴿انشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ﴾ تَصَدَّعَتْ وٱنْفَكَّ بَعضُها من بَعضٍ ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً﴾ حَمْراءَ ﴿كَالدِّهَانِ﴾ كَدُهْنِ الزَّيْتِ، كَمَا قَالَ: ﴿كَالْمُهْلِ﴾[٢] وهو دُرْدِيُّ الزَّيْتِ، وهو اسْمُ ما يُدَّهَنُ بِهِ كالأُدَامِ، أو: جَمْعُ دُهْنٍ، وَقيلَ: الدِّهَانُ: الأَدِيمُ الأَحْمَر[٣].

﴿إِنْسٌ﴾ أي: بَعْضٌ من الإِنْسِ ﴿وَلَا جَآنٌّ﴾ أي: ولا بَعْضٌ من الجِنِّ، فَوُضِعَ الَّذي هُو أَبو الجِنِّ مَوْضِعَ الجِنِّ، كَمَا يُقَالُ: هاشِمٌ وَيُرادُ وُلْدُهُ، وعَادَ الضَّميرُ مُوَحَّداً في قَوْلِهِ: ﴿عَنْ ذَنْبِهِ﴾ لِكَونِهِ في معنَى البَعْضِ، والمعنىٰ: لا يُسْأَلُونَ لأنَّ المُجْرِمينَ يُعرَفُونَ بسِيمَاهِم من سَوَادِ الوُجُوهِ، وزُرْقَةِ العُيُونِ وقيلَ: لا يُسْأَلُونَ عن ذلكَ لِيُعْلَمَ من جِهَتِهِم، بَلْ يُسْأَلُونَ سُؤَالَ تَوْبِيخ[٤]، وعن قَتَادَةَ: قَد كَانَتْ مسأَلَةٌ ثُمَّ خُتِمَ علىٰ أَفْواهِ القَومِ وتَكَلَّمَتْ أَيدِيهُم وأَرْجُلُهُم بما كَانُوا يَعْمَلُون[٥].

﴿فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَٰصِي وَٱلْأَقْدَامِ﴾ عنِ الضَّحَّاكِ: يُجْمَعُ بين ناصِيَتِهِ وقَدَمِهِ في سِلْسِلَةٍ من وَرَاءِ ظَهْرِهِ[٦]، وقيلَ: يُسْحَبُونَ تارةً بأَخْذِ النَّواصِي وَتَارةً بالأَقْدامِ[٧].

﴿حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ مَاءٍ حارٍّ قد ٱنتَهَىٰ حَرُّهُ ونُضْجُهُ، أي: تَعَاقَبَ عليهِم بين التَّصْلِيَةِ بالنَّارِ وبَيْنَ شُرْبِ الحَميمِ، لَيْسَ لَهُم من العَذَابِ أَبداً فَرَجٌ.

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ(٤٦) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(٤٧) ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ(٤٨) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(٤٩) فِيهِمَا عَيْنَانِ

---

(١) قرأه ابن كثير وأبو عمرو. راجع كتاب السبعة: ص ٦٢١.

(٢) الكهف: ٢٩، الدخان: ٤٥، المعارج: ٨. (٣) قاله ابن عباس في تفسيره: ص ٤٥٢.

(٤) قاله ابن عباس. راجع تفسير البغوي: ج ٤ ص ٢٧٢.

(٥) حكاه عنه الماوردي في تفسيره: ج ٥ ص ٤٣٦.

(٦) حكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٤٥١.

(٧) حكاه الزمخشري في الكشاف ايضاً.

تَجْرِيَانِ(٥٠) فَبِأَيِّ ءَالآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(٥١) فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ
زَوْجَانِ(٥٢) فَبِأَيِّ ءَالآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(٥٣) مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَآئِنُهَا
مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ(٥٤) فَبِأَيِّ ءَالآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(٥٥)
فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ(٥٦) فَبِأَيِّ ءَالآءِ
رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(٥٧) كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ(٥٨) فَبِأَيِّ ءَالآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ(٥٩) هَلْ جَزَآءُ ٱلإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلإِحْسَٰنُ(٦٠) فَبِأَيِّ ءَالآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ(٦١) وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ(٦٢) فَبِأَيِّ ءَالآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(٦٣)
مُدْهَآمَّتَانِ(٦٤) فَبِأَيِّ ءَالآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(٦٥) فِيهِمَا عَيْنَانِ
نَضَّاخَتَانِ(٦٦) فَبِأَيِّ ءَالآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(٦٧) فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ
وَرُمَّانٌ(٦٨) فَبِأَيِّ ءَالآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(٦٩) فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ(٧٠)
فَبِأَيِّ ءَالآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(٧١) حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ(٧٢) فَبِأَيِّ
ءَالآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(٧٣) لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ(٧٤) فَبِأَيِّ
ءَالآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(٧٥) مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ
(٧٦) فَبِأَيِّ ءَالآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(٧٧) تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ
وَٱلإِكْرَامِ(٧٨)﴾

﴿خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾ مَوْقِفَهُ الّذي يَقِفُ فيهِ العِبَادُ للحِسَابِ يَوْمَ القيامةِ، ونَحْوُهُ: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى﴾ [١]، أو: يُريدُ بمَقَامِ ربِّهِ: أنَّ ٱللهَ قَائِمٌ عليهِ أي: حَافِظٌ مُهَيْمِنٌ، من قَولِهِ: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [٢] فَهُو يُراقِبُ ذلك ولا يَجْسرُ علىٰ مَعْصيَتِهِ، أو: يكُونُ مَقَاماً مُقْحماً، كَمَا تَقُولُ: أَخَافُ جَانِبَ فُلانٍ، و: فَعَلْتُ ذلكَ لِمَكَانِكَ أي: لأَجْلِكَ، ﴿جَنَّتَانِ﴾: جَنَّةٌ يُثَابُ بِهَا، وَجَنَّةٌ زَائِدَةٌ يَتَفضَّلُ

(١) ابراهيم: ١٤.
(٢) الرعد: ٣٣.

عَلَيهِ بِهَا كقَولِهِ تَعَالىٰ: ﴿الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [١]. أو: جَنَّةٌ لِفِعْلِ الطَّاعَاتِ، وجنَّةٌ لِتَرْكِ المَعَاصي، لأنَّ التَّكْليفَ يَدُورُ عَلَى الأمرَيْنِ، أو: يكُونُ علىٰ خِطَابِ الثَّقَلَيْنِ فكأَنَّهُ قَالَ: لِكُلِّ خَائفَين منكُما جَنَّتَانِ: جَنَّةٌ للخَائِفِ من الإِنْسِ، وجنَّةٌ للخَائِفِ من الجِنِّ. ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ﴾ وهي الأَغْصَانُ، خَصَّها بالذِّكْرِ لأنَّها تُثْمِرُ ومِنْها تَمْتَدُّ الظِّلَالُ، وقيل: الأَفْنَانُ: أَلْوانُ النِّعَمِ ممَّا تَشْتَهِيهِ الأَنْفُسُ [٢].

﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ حيْثُ شاءُوا في الأَعَالِيَ والأَسَافِل. ﴿زَوْجَانِ﴾ صِنْفَانِ: صِنْفٌ معرُوفٌ وصنْفٌ غَريبٌ، أو: مَتَشَاكِلَانِ كالرَّطْبِ واليابِسِ، لا يَقْصُرُ يابِسُهُ عَن رَطْبِهِ في الفَضْلِ وَالطِّيبِ. ﴿مُتَّكِئِينَ﴾ نُصِبَ على المَدْحِ للخَائِفينَ، أو: حَالٌ منْهُم، لأنَّ «مَنْ خَافَ» في معنَى الجَمْعِ أي: قَاعِدِينَ كالمُلُوكِ علىٰ ﴿فُرُشٍ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ ديبَاجٍ ثَخِينٍ، وإذا كانَتِ البَطَائِنُ من استَبْرقٍ فَمَا ظَنُّكَ بالظَهَائِرِ؟! وقيلَ: إنَّ ظَهَائِرَها من سُنْدُسٍ [٣]، وقيل: مِن نُورٍ [٤]. ﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ أي: ثَمرُها المُجْتَنَىٰ قَرِيبٌ يَنَالُهُ القَائِمُ والقَاعِدُ والنَّائِمُ.

﴿فِيهِنَّ﴾ أي: في هذهِ الآلاءِ المَعْدُودةِ من الجَنَّتَيْنِ والعينين والفَاكِهَةِ والْفُرُشِ والجَنَىٰ، أو: في الجَنَّتَيْنِ لاشْتِمَالِهِما علىٰ قُصُورٍ ومَجَالِسٍ ﴿قَـٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ نِسَاءٌ قَصرْنَ أَبْصَارَهُنَّ علىٰ أَزْواجِهِنَّ لا يَنظُرْنَ إلىٰ غَيْرِهِم ﴿لَمْ﴾ يَطْمِثْ الإِنْسيَّاتِ منْهُنَّ أَحَدٌ من الإِنْسِ، ولا الجِنِّيَّاتِ أَحَدٌ من الجِنِّ، أي: لَمْ يَفْتَضّهُنَّ ولَمْ يَطَأْهُنَّ أَحَدٌ فَهُنَّ أَبْكَارٌ، وفيهِ دَليلٌ علىٰ أنَّ الجِنَّ يَطْمِثُ كَمَا يَطْمِثُ الإِنْسُ، وقُرِئَ: «لَمْ يَطْمُثْهُنَّ» بضَمِّ الميمِ [٥]. ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ يعني: أَنَّهُنَّ في صَفَاءِ

(١) يونس: ٢٦. (٢) قاله ابن عباس في تفسيره: ص ٤٥٢.
(٣) حكاه الشيخ الطوسي في التبيان: ج ٩ ص ٤٨٠.
(٤) قاله سعيد بن جبير. راجع تفسير البغوي: ج ٤ ص ٢٧٤.
(٥) وهي قراءة أبي عمرو والدوري وقتيبة. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٧٠٧.

الياقُوتِ وَبَيَاضِ المَرْجَانِ وصَفَارُ[١] الدُّرِّ أَنْصَعُ بَيَاضاً. ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ﴾ في العَمَلِ ﴿إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ﴾ في الثَّواب.

﴿ومِنْ دُونِهِمَا﴾ ومِنْ دُونِ تينَك الجنَّتَيْنِ الموعُودتَيْنِ للمقَرَّبينَ ﴿جَنَّتَانِ﴾ لِمَنْ دونِهم من أَصْحَابِ اليَمنِ. ﴿مُدْهَآمَّتَانِ﴾ قَد ادْهَامَّتَا من شدَّةِ الخُضْرةِ، وكُلُّ نَبْتٍ أَخْضَرَ، فَتَمامُ خُضْرتِهِ أَن يَضْرِبَ إلى السَّوادِ ﴿نَضَّاخَتَانِ﴾ فَوَّارَتَانِ بالماءِ، والنَّضْخُ أَكْثَرُ من النَّضح، لأَنَّ النَّضحَ مثْلُ الرَّشِّ.

وإنَّما عَطَفَ «النَّخْلَ» و «الرُّمانُ» إلَى الفاكِهَةِ وإنْ كَانَا منْهُما بياناً لِفَضْلِهما، فَكَأَنَّهما لِمَزيَّتِهما في الفَضْلِ جنْسَانِ آخرانِ، كقَولِهِ: ﴿جِبْرِيلَ وَمِيكَـٰلَ﴾[٢]، أو: لأَنَّ النَّخْلَ ثَمرُهُ فَاكِهَةٌ وطَعَامٌ، والرُّمَّانُ فاكِهَةٌ ودَوَاءٌ فَلَمْ يَخْلصا للتَّفَكُّه. ﴿خَيْرَٰتٌ﴾ أي: خَيِّراتٌ، فَخُفِّفَ لأَنَّ «الخَيْرَ» الَّذي هو بمعنى «أَخْيَر» لا يَأْتي منْهُ «خَيِّرُونَ» ولا «خَيِّراتٌ»، والمعنىٰ: فَاضِلَاتُ الأَخْلاقِ حِسَانُ الخُلُقِ. ﴿مَقْصُورَٰتٌ﴾ مُخَدَّراتٌ، قَصُرْنَ في خُدُورِهنَّ، امرأَةٌ قَصيرةٌ ومقْصُورةٌ أي: مُخَدَّرةٌ ﴿فِى ٱلْخِيَامِ﴾ في الحِجَالِ.

وفي الحَديثِ: «الخَيْمةُ دُرَّةٌ واحِدَةٌ طُولُها في السَّماءِ ستّونَ ميلًا، في كلِّ زَاوِيةٍ منْها أَهْلٌ للمؤْمنِ لا يَراهُ الآخَرون»[٣].

والضَّميرُ في ﴿قَبْلَهُمْ﴾ لأَصْحابِ الجنَّتَيْنِ لدَلَالَةِ ذِكْرِ «الجنَّتَيْنِ» عَلَيهم.

والرَّفْرَفُ: ضَرْبٌ من البَسْطِ، وقيلَ: الرَّفْرَفُ رِيَاضُ الجنَّةِ[٤] والوَاحِدةُ:

---

(١) في نسخة: «وصفاء».

(٢) البقرة: ٩٨.

(٣) أخرجه السيوطي في الدر المنثور: ج ٧ ص ٧١٩ وعزاه الى البخاري ومسلم وغيرهما.

(٤) قاله ابن جبير. راجع تفسير الماوردي: ج ٥ ص ٤٤٣.

رَفْرَفَةٌ، وقيلَ: الوَسَائِدُ[(١)] ، وقيلَ: كُلُّ ثوبٍ عَريضٍ رَفْرَفٌ[(٢)] ﴿وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾ منْسُوبٌ إلىٰ عَبْقَر، والعَرَبُ تَزْعَمُ أنَّه بَلَدُ الجِنِّ فتنْسَبُ إليهِ كُلُّ شيءٍ عَجيبٍ، وعنِ ٱبنِ عبَّاسٍ وقتَادَةَ: يُريدُ الزَّرَابيَّ[(٣)] ، وعن مُجَاهِدٍ: الدِّيباجُ[(٤)] . وقُرِئَ في الشَّوَاذِ: «رَفَارِفَ خُضْرٍ وعَبَاقِرِيَّ»[(٥)] كَمَدَائِنيّ، ورُوِيَ ذلكَ عن النبيِّ ﷺ[(٦)] . وإنْ شَذَّ في القِيَاسِ تَرْكُ صَرْفِ «عَبَاقِرِيّ» فَلَا يُسْتَنْكَرُ مع ٱستِمْرارِهِ في الاستِعْمالِ. وقُرِئَ: «ذُو الْجَلَالِ» بالواو[(٧)] صِفَةً لـ﴿اسْمُ﴾.

۞ ۞ ۞

(١) قاله الحسن في تفسيره: ج ٢ ص ٣٢٠.

(٢) حكاه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٤٧١.

(٣) حكاه عنهما الطبري في تفسيره: ج ١١ ص ٦٢٠ مسنداً.

(٤) المصدر السابق.

(٥) وهي قراءة عثمان ونصر بن علي وعاصم الجحدري. راجع المحتسب لابن جنّي: ج ٢ ص ٣٠٥.

(٦) رواه عثمان عنه ﷺ. راجع المصدر السابق.

(٧) وهي قراءة ابن عامر وحده. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٦٢٠.

سُورَةُ الوَاقِعَةِ

مكّيّةٌ[1] [2] سَبْعٌ وتسعُونَ آيةً بَصْريٌّ، ستٌّ كُوفيٌّ. عَدَّ البَصْريُّ: ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾[3] ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾[4] ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ﴾[5] ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾[6]، وعَدَّ الكُوفيُّ. ﴿مَّوْضُونَةٍ﴾[7] ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾[8] ﴿أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً﴾[9].

وفي حديثِ أُبيٍّ: «مَنْ قَرَأَ سُورةَ الواقِعَةِ كُتِبَ أَنَّه لَيْسَ من الغَافِلينَ».

وعن ٱبن مسعُودٍ عن النَّبيِّ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ قَرَأَ سُورةَ الواقِعَةِ كُلَّ لَيْلَةٍ لم يَصِبْهُ فَاقَةٌ أَبداً»[10].

وعن الباقرِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «مَنْ قَرَأَ سُورةَ الواقِعَةِ قَبْلَ أَن يَنَامَ لَقِيَ ٱللهَ وَوَجْهُهُ كالقَمَرِ لَيلَةِ البَدْرِ»[11].

---

(١) قال الشيخ الطوسي في التبيان: ج ٩ ص ٤٨٧: هي مكّية بلاخلاف، وهي تسع وتسعون آيةً حجازي وشامي، وسبع وتسعون بصري، وستّ وتسعون كوفي، وسبع وتسعون في المدنيّين. وفي الكشّاف: ج ٤ ص ٤٥٥: مكّية إلّا آيتي ٨١ و٨٢ فمدنيّتان، وآياتها (٩٦) وقيل: (٩٧) نزلت بعد طٰه.

(٢) في نسخة زيادة: «إلّا آيات».

(٣ و ٤) الآية ٨ و ٩.

(٥) الآية: ٢٧.

(٦) الآية: ٤١.

(٧) الآية: ١٥.

(٨) الآية: ٢٢.

(٩) الآية: ٣٥.

(١٠) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٤٧١ مرسلًا.

(١١) ثواب الأعمال للصدوق: ص ١٤٤.

وعن الصَّادقِ عليه السلام: «مَنْ قَرَأها في كلِّ لَيلةِ جُمُعَةٍ أَحبَّهُ اللهُ وَحَبَّبَهُ إلى الناسِ، ولَمْ يَرَ في الدُّنْيا بُؤْساً أَبداً، وَلاَ فَقْراً، ولا آفَةً من آفَاتِ الدُّنْيا، وكـانَ مـن رُفَـقَاءِ أَميرِ المؤْمنينَ عليه السلام ، وهذهِ السُّورةُ لأميرالمـؤمنينَ عليه السلام خـاصَّةً، لا يَشـركُهُ فـيها أَحَدٌ»[١]، تمام الخبر[٢].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ(١) لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ(٢) خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ(٣) إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا(٤) وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا(٥) فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنبَثًّا(٦) وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَـٰثَةً(٧) فَأَصْحَـٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ(٨) وَأَصْحَـٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ(٩) وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلسَّـٰبِقُونَ(١٠) أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ(١١) فِى جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ(١٢) ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ(١٣) وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْأَخِرِينَ(١٤) عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ(١٥) مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ(١٦)﴾

﴿إِذَا﴾ ظَرْفٌ مِنْ معنىٰ ﴿لَيْسَ﴾ لأَنَّ التَّقديرَ: لا يكُونُ ﴿لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾، أو: هو ظَرْفٌ لِمَحذُوفٍ، والتَّقديرُ: ﴿إِذَا وَقَعَتِ﴾ خَفَضَتْ قَوْماً وَرَفَعَتْ آخرينَ، ويَدُلُّ عليهِ قَوْلُهُ: ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾. وقَالَ ٱبنُ جِنِّي: ﴿إِذَا﴾ الأُولىٰ مَـرفُوعةُ المَـوْضِعِ بالابتداءِ، و ﴿إِذَا﴾ الثّانيةُ خَبَرٌ عن الأُولىٰ، وَقَد فَارَقَتا الظَّـرفيَّةَ، والمـعنىٰ: وَقْتُ وقُوعِ الواقِعَةِ وَقْتُ رَجِّ الأَرْضِ[٣] والمُرادُ: إذا كانَتِ الكائِنَةُ وحَـدَثَتِ الحـادِثَةُ

---

(١) المصدر السابق.

(٢) وعن الصادق عليه السلام : من اشتاق الى الجنّة وصفتها فليقرأ الواقعة، ومن أَحبَّ أن ينظر الىٰ صفة أهل النار فليقرأ سورة لقمان». راجع المصدر السابق.

(٣) حكاه عنه أبو حيان الاندلسي في النهر المادّ المطبوع بهامش البحر المحيط: ج ٨ ص ٢٠١.

وهي يَومُ القِيَامَةِ، وُصِفَتْ بالوقُوعِ لأنَّها تَقَعُ لا مَحَالَةَ.

﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا﴾ نَفْسٌ ﴿كَاذِبَةٌ﴾ تَكْذِبُ علَى ٱللهِ، وتَكْذِبُ في تَكْذيبِ الغَيْبِ، لأنَّ كُلَّ نَفسٍ حينئذٍ مؤمِنَةٍ صَادِقَةٌ مُصدِّقَةٌ، وأَكثَرُ النُّفُوسِ اليوم كَواذِبُ مُكذِّباتٌ، واللَّامُ مثلُها في قَولِهِ تعالىٰ: ﴿قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾[١]. وقيلَ: ﴿كَاذِبَة﴾ كالعَافِيَةِ بمعنَى التَّكْذيبِ من قَولِهِم: حَمَلَ فُلانٌ علىٰ قِرْنِهِ فَمَا كَذَب، أي: فَمَا جَبُنَ[٢]، وحقيقَتُهُ: فَمَا كَذَّبَ نَفْسَهُ فيمَا حدَّثَتْهُ بِهِ من إطَاقَتِهِ لَهُ، قَالَ زُهيرٌ:

لَيثٌ بِعَثَّرَ يَصْطَادُ الرِّجالَ إذا ... ما اللَّيثُ كَذَّبَ عن أَقْرانِهِ صَدَقَا[٣]

أي: إذا وَقَعَتْ لَمْ يكُنْ لها رَجْعَةٌ ولا ٱرتدَادٌ. ﴿خَافِضَةٌ﴾ خَبَرُ مبتَدأ محذُوفٍ أي: هي خَافِضَةٌ رافِعَةٌ.

﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا﴾ أي: حُرِّكَتْ تَحْريكاً شَديداً حتَّىٰ يَنْهدِمَ كلُّ شَيءٍ فَوْقَها من جبَلٍ وبنَاءٍ. ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا﴾ وفُتِّتَتْ حتَّىٰ تَعُودَ كالسُّوَيْقِ، أو: سِيقَتْ وَسُيِّرَتْ، من: بَسَّ الغَنَمَ إذا سَاقَهَا. ﴿فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾ متفرِّقاً، وينْتَصِبُ ﴿إِذَا رُجَّتِ﴾ بـ﴿خَافِضَة رَافِعَة﴾، أو: على البَدَلِ من ﴿إِذَا وَقَعَتْ﴾.

﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجاً﴾ أي: أَصْنَافاً ﴿ثَلَـٰثَةً﴾، ﴿فَأَصْحَـٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ الَّذين يُعْطَوْنَ صَحَائِفَهُم بأَيْمَانِهِم، ﴿وَأَصْحَـٰبُ الْمَشْـَٔمَةِ﴾ الَّذين يُعطَوْنَها بشَمَائِلِهِم، أو: مَعْنَاهُما: أَصْحابُ المَنْزلةِ السَّنيَّةِ وأَصْحابُ المَنْزلةِ الدَّنيَّةِ، من قَولِهِم: فُلانٌ من فُلانٍ باليَمينِ أو بالشِّمَالِ: إذا وَصَفُوهُ بالرِّفْعةِ عنْدَهُ أو بالضِّعَةِ، وذلك لِتَيَمُّنِهِم بالْمَيَامِنِ وَتَشَؤُّمِهِم

(١) الفجر: ٢٤.

(٢) قاله الزجّاج في معاني القرآن: ج ٥ ص ١٠٧.

(٣) البيت من قصيدة طويلة يمدح فيها رجلًا شجاعاً، وعَثَّر: اسم موضع، يقول: اذا كذَّب الفارس ـ أي جبن ـ عن أقرانه في الحرب صَدَقَ هو ونفذَ عزمه وقتلَ قرنه.
أُنظر ديوان زهير: ص ٤٣ وفيه: «ما كذّب الليث عن...».

بالشَّمائِلِ، ولذلكَ ٱشْتقُّوا من اليُمْنِ: اليُمْنَىٰ لليَمينِ، ومن الشُّؤْمِ: الشُّؤْمىٰ للشِّمَالِ، وتَفَأَّلُوا بالسَّانِحِ وتَطيَّروا بالبَارِحِ، وقيلَ: يُؤْخَذُ بأَهلِ الجنَّةِ ذاتَ اليَمينِ، وبأَهْلِ النَّارِ ذاتَ الشِّمال[1]. ﴿مَا أَصْحَـٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ و ﴿مَا أَصْحَـٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ تَعْجيبٌ من حالِ الفَريقَيْنِ في السَّعادةِ والشَّقاوةِ، كَمَا يُقالُ: هُم، ما هُم؟ والمعنىٰ: أيُّ شَيءٍ هُم؟ ﴿وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلسَّـٰبِقُونَ﴾ أي: والسَّابِقُونَ مَنْ عَرفْتَ حَالَهُم وبَلَغَكَ صِفتُهُم، كَقَولِ الشَّاعِرِ:

أَنَا أَبُو النَّجْمِ وشِعْري شِعْرِي

أي: شِعْري ما عَرفْتَهُ وسَمِعْتَ بفَصَاحَتِهِ. ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ مبتَدأٌ وخَبَرٌ، أي: الّذين قَرُبَتْ دَرَجَاتُهُم ﴿فِى جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي: أَعلَى المَرَاتبِ.

والثُّلَّةُ: الأُمَّةُ الكثيرةُ من النَّاسِ، وهي من «الثَّلِّ» وهو الكَسْرِ، كما أنَّ الأُمَّةَ من «الأَمِّ» وهو الشَّجِّ، كأنَّها جَماعةٌ كُسِرَتْ من النَّاسِ وقُطِعَتْ منْهُم، والمعنىٰ: أنَّ السَّابِقينَ كَثِيرٌ ﴿مِنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ وهو الأُمَمُ من لَدُنِ آدمَ إلىٰ محمَّدٍ صلى الله عليه وآله وسلم ﴿وَقَلِيلٌ مِنَ ٱلآخِرِينَ﴾ وهم أُمَّةُ محمَّدٍ صلى الله عليه وآله وسلم، وقيلَ: ﴿مِنَ ٱلأَوَّلِينَ﴾ من متَقدِّمي هٰذه الأُمَّةِ، ومن الآخِرِينَ: من متَأَخِّريها[2]. وهذا في السَّابِقينَ، وقَالَ في أَصْحابِ اليَمينِ: ﴿وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلآخِرِينَ﴾، وعن الحَسَنِ: سَابِقُو الأُمَمِ أَكْثَرُ من سَابِقي أُمَّتِنا، وتَابِعُو الأُمَمِ مثْلُ تَابِعِي هٰذه الأُمَّة[3]. و ﴿ثُلَّةٌ﴾ خَبَرُ مبتَدَأ محذُوفٍ، أي: هُم ثُلَّةٌ.

﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ﴾ أي: منْسُوجةٍ مَرمُولَةٍ بالذَّهَبِ مُشَبَّكَةٍ بالدُّرِّ والياقُوت، كَمَا تُوضَنُ حَلَقُ الدُّرُوعِ فَيَدخُلُ بَعْضُها في بَعضٍ، وقيلَ: متَواصِلَة أُدْنِيَ

---

(١) قاله السدي. راجع تفسير القرطبي: ج ١٧ ص ١٩٨.
(٢) قاله الحسن في تفسيره: ج ٢ ص ٣٢٢ ورفعه الى النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم.
(٣) المصدر السابق: ص ٣٢٣.

بَعْضُها من بَعْض[١]. ﴿مُتَّكِئِين﴾ حَالٌ من الضَّميرِ في ﴿عَلَىٰ﴾ أي: استَقَرُّوا عَليها متَّكِئينَ ﴿مُتَقَـٰبِلِينَ﴾ لا يَنْظُرُ بَعْضُهم في أَقْفاءِ بَعضٍ، وَصَفَهُم سبحانَهُ بِتَهْذيبِ الأَخْلاقِ وحُسْنِ المُعَاشَرَة.

﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ(١٧) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ(١٨) لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ(١٩) وَفَـٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ(٢٠) وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ(٢١) وَحُورٌ عِينٌ(٢٢) كَأَمْثَـٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ(٢٣) جَزَآءً بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ(٢٤) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا(٢٥) إِلَّا قِيلًا سَلَـٰمًا سَلَـٰمًا(٢٦) وَأَصْحَـٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَـٰبُ ٱلْيَمِينِ(٢٧) فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ(٢٨) وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ(٢٩) وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ(٣٠) وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ(٣١) وَفَـٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ(٣٢) لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ(٣٣) وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ(٣٤) إِنَّآ أَنشَأْنَـٰهُنَّ إِنشَآءً(٣٥) فَجَعَلْنَـٰهُنَّ أَبْكَارًا(٣٦) عُرُبًا أَتْرَابًا(٣٧) لِّأَصْحَـٰبِ ٱلْيَمِينِ(٣٨) ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ(٣٩) وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ(٤٠)﴾

﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ وُصَفَاءُ وغِلْمَانٌ للخِدْمَةِ ﴿مُخَلَّدُونَ﴾ مُبْقَوْنَ أَبداً علىٰ شكْلِ الوِلْدانِ، وَحَدِّ الوصَافَةِ لا يَتَحَوَّلُون عنهُ، وقيلَ: مُقَرَّطُونَ والخِلَدَةُ: القُرْطُ[٢]، وقيلَ: هُم أولادُ أَهلِ الدُّنْيا لَمْ يَكُنْ لَهُم حَسَنَاتٌ فَيُثَابُوا عَلَيها ولا سيِّئاتٌ فَيُعَاقَبُوا عَلَيها[٣] رُوي ذلك عن عليٍّ عليه السلام[٤].

(١) قاله الضحّاك. راجع تفسير البغوي: ج ٤ ص ٢٨٠.
(٢) قاله الفرّاء. راجع التبيان: ج ٩ ص ٤٩٣.
(٣) قاله الحسن في تفسيره: ج ٢ ص ٣٢٤.
(٤) رواه عنه عليه السلام القرطبي في تفسيره: ج ١٧ ص ٢٠٣ مرسلًا.

وسُئِلَ النَّبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم عن أَطْفَالِ المُشْركينَ، فَقَالَ: «هُم خُدَّامُ أَهْلِ الجنَّة»[١].

الأَكْوَابُ: قِدَاحٌ وَاسِعَةُ الرؤُوسِ بلا عُرىً ولا خَرَاطِيم، جَمْعُ كُوبٍ، والأَبَاريقُ: التَّي لَهَا خَرَاطِيم. ﴿لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا﴾ أي: بسَبَبِها، وَحقيقَتُهُ: لا يَصْدُرُ صُدَاعُهُم عَنْها ولا يُفَرَّقون[٢] عنها. ﴿مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ أي: يأْخُذُون خَيْرَهُ وأَفْضَلَهُ، و ﴿يَشْتَهُونَ﴾ يَتَمَنَّوْنَ.

وقُرِئَ: ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ بالرَّفْعِ علىٰ: وَفيها حُورٌ عِينٌ، كبَيْتِ الكِتَاب[٣]:

بَادَتْ وَغَيَّرَ آيَهُنَّ مَعَ الْبِلَىٰ ... إلَّا رَواكِدَ جَمْرُهُنَّ هَبَاءُ
ومُشَجَّجٌ أَمَّا سَواءُ قَذَالِهِ ... فَبَدَا وَغَيَّرَ سَارَهُ المَعْزَاءُ[٤]

لأنَّ المَعْنيَّ بِهَا: «رَوَاكِدَ» و «مُشَجَّج» أو: العَطْفُ علىٰ ﴿وِلْدَنٌ﴾، وبالجرِّ[٥] عَطْفٌ علىٰ ﴿جَنَّتِ النَّعيم﴾ كأنَّهُ قَالَ: هُم في جنَّاتٍ وفَاكِهَةٍ ولَحْمٍ وحُورٍ، وقَرَأَ أُبيٌّ وابنُ مسْعُودٍ: «وَحُوراً عِيناً» بالنَّصْبِ[٦] علىٰ: ويُؤْتَوْنَ حُوراً. ﴿جَزَآءً﴾ مفْعُولٌ لَهُ أي: يَفْعلُ ذلك كلَّهُ بِهِم جزَاءً بأَعْمَالِهِم.

﴿سَلَٰماً سَلَٰماً﴾ بَدَلٌ من ﴿قِيلاً﴾ بمَعْنىٰ: لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً إلَّا سَلَاماً،

---

(١) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٤٥٩ مرسلًا.

(٢) في نسخة: لا ينزفون.

(٣) أراد كتاب سيبويه الذي ألّفه بعد موت استاذه الخليل سنة ١٦٠ هـ لأجل إحياء علم الخليل، وبلغ من شهرته وفضله عند النحويّين فكان يقال: قرأ فلان الكتاب، فيعلم أنّه يريد كتاب سيبويه.

(٤) لذي الرمّة، وقيل: للشمّاخ. والرواكد: الأحجار التي توضع عليها القدر، والمشجّج: وَتَد الخباء الذي تشجّج رأسه من الدقّ فبرز حول رأسه أطراف تشبه الشعر، يقول: هلكت تلك الديار وبليت آثارها ولم يبق إلّا محلٌّ للنار والرماد وبقية أوتاد الأخبية. أنظر ديوان ذي الرمّة: ص ٦١٧.

(٥) قرأه حمزة والكسائي. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٦٢٣.

(٦) حكاه عنهما ابن جنّي في المحتسب: ج ٢ ص ٣٠٩.

أو: مَفْعُولٌ بِهِ لـ﴿قِيلًا﴾ بمَعْنىٰ: لا يَسْمَعُونَ فيها إلَّا أن يَقُولُوا: سَلاماً سَلاماً، والمُرادُ: أنَّهم يُفْشُونَ السَّلامَ بَيْنَهُم فَيُسَلِّمُونَ سَلاماً بَعْدَ سَلام.

والسِّدْرُ: شَجَرُ النَّبقِ، والْمَخْضُودُ: الَّذي لا شَوْكَ لَهُ كأنَّما خُضِدَ شَوْكُهُ، وعن مُجَاهِدٍ: هو المُوقِرُ الَّذي تَثَنَّىٰ أَغْصَانَهُ كَثْرَةُ حَمْلِهِ[١]، من: خَضَدَ الغُصْنَ إذا ثَنَّاهُ رَطْباً. والطَّلْحُ: شَجَرُ المَوْزِ، وقيلَ: هو شَجَرُ أُمِّ غَيْلَان، وَلَهُ نُوَّارٌ كَثيرٌ طَيِّبُ الرَّائِحَةِ[٢]. وعن السّدِّي: هو شَجَرٌ يُشْبِهُ طَلْحَ الدُّنْيا ولكن لَهُ ثَمَرٌ أَحْلىٰ من العَسَلِ[٣]. والْمَنْضُودُ: الّذي نُضِّدَ بالحَمْلِ من أسْفَلِهِ إلىٰ أَعْلاهُ، فَلَيْسَتْ لَهُ سَاقٌ بَارِزَةٌ.

﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ مُمْتَدٍّ مُنْبَسِطٍ لا يَتَقَلَّصُ كَظِلِّ ما بَيْنَ طُلُوعِ الفَجْرِ إلىٰ طُلُوعِ الشَّمْسِ. ﴿وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ﴾ يُسْكَبُ لَهُم أيْنَ شَاءُوا وكَيْفَ شاءُوا ولا يَتَعَنَّوْنَ فيهِ، وقيلَ: دَائِمُ الْجَرْيَةِ لا يَنْقَطِعُ[٤]، وقيلَ: مَصْبُوبٌ يَجْري علىٰ وَجْهِ الأَرْضِ في غَيْرِ أُخْدُودٍ[٥]. ﴿لَا مَقْطُوعَةٍ﴾ أي: هي دائِمَةٌ لا تَنْقَطِعُ في بَعضِ الأَزْمانِ كَفَوَاكِهِ الدُّنْيا ﴿وَلَا مَمْنُوعَة﴾ بوَجْهٍ من وجُوهِ المَنْعِ من بُعْدِ مُتَنَاوِلٍ أو شَوكٍ، أَوْ حُظِرَ عَلَيها كَمَا يُحْظَرُ علىٰ بَسَاتينِ الدُّنيا.

﴿وَفُرُشٍ﴾ جَمْعُ فِرَاشٍ ﴿مَّرْفُوعَةٍ﴾ نُضِّدَت حتَّى ٱرتَفَعَتْ، أو: مرفُوعَةٍ على الأَسِرَّةِ، وقيلَ: هي النِّساءُ؛ لأنَّ المَرأةَ يُكَنَّىٰ عَنْها بالفِرَاشِ مَرْفُوعةً علَى الأرائِكِ[٦]،

---

(١) تفسير مجاهد: ص ٦٤١.

(٢) قاله الزجّاج في معاني القرآن: ج ٥ ص ١١٢.

(٣) حكاه عنه الزمخشري في الكشاف: ج ٤ ص ٤٦١.

(٤) قاله الفرّاء في معاني القرآن: ج ٣ ص ١٢٥.

(٥) قاله الثوري. راجع تفسير ابن كثير: ج ٤ ص ٢٩١.

(٦) قاله أبو عبيدة. راجع البحر المحيط لأبي حيان: ج ٨ ص ٢٠٧.

ويَدُلُّ عليهِ قَولُهُ: ﴿إِنَّا أَنْشَأْنَـٰهُنَّ إِنْشَاءً﴾. وعلَى التَّفسيرِ الأوَّلِ أُضْمِرَ «لهنَّ» لأنَّ ذِكْرَ الفُرُشِ ـ وهي المَضَاجعُ ـ دَلَّ عليهنَّ.

﴿أَنْشَأْنَـٰهُنَّ إِنْشَاءً﴾ ابتدَأْنا خَلْقَهُنَّ ابتِدَاءً جَديداً من غَيْرِ ولَادَةٍ، فإمَّا أَن يُرادَ: اللَّاتي ابتدِئَ إنْشاؤُهنَّ، أو اللَّاتي أُعيدَ إنْشاؤُهُنَّ.

وعنِ النَّبيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أنَّه قَالَ لأُمِّ سَلَمَة: «هُنَّ اللَّواتي قُبِضْنَ في دارِ الدُّنْيا عَجائزَ شُمْطاً رُمصاً، جَعَلَهُنَّ ٱللهُ بَعْدَ الكِبَرِ ﴿أَتْرَاباً﴾ علىٰ ميلادٍ واحدٍ في الاستواءِ، كُلَّما أَتَاهُنَّ أَزْواجُهُنَّ وَجَدُوهُنَّ ﴿أَبْكَاراً﴾» فَلَمَّا سَمِعَتْ عَائشةُ ذلكَ قَالَتْ: وَاوَجَعَاه! فَقَالَ رَسُولُ ٱللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «لَيْسَ هناك وَجَعٌ»[(١)].

﴿عُـرُباً﴾ جَـمْعُ عَـرُوبٍ، وَهـي المـتَحَبِّبَةُ إلىٰ زَوْجِـها، وقُـرِئَ: «عُـرْباً» بالتَّحفيفِ[(٢)]. ﴿أَتْرَاباً﴾ مُسْتَوياتٍ في السِّنِّ، وأَزْواجُهُنَّ كذلك.

وفي الحَديثِ: «يَدْخُلُ أَهْلُ الجنَّةِ الجنَّةَ جُرْداً مُرْداً بِيضاً جِعَاداً مُكَحَّلينَ، أَبناءُ ثَلَاثٍ وثَلاثين»[(٣)].

واللَّامُ في ﴿لِأَصْحَـٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ من صِلَةِ «أنشأْنا» و «جَعَلْنا».

﴿وَأَصْحَـٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَـٰبُ ٱلشِّمَالِ(٤١) فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ(٤٢) وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ(٤٣) لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ(٤٤) إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ(٤٥) وَكَانُواْ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ(٤٦) وَكَانُواْ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ(٤٧) أَوَ ءَابَآؤُنَا

(١) أخرجه الطبري في تفسيره: ج ١١ ص ٦٤١ باسناده عن الحسن الى قوله: «بعد الكبر» وزاد بعده: «فجعلهنَّ عذارىٰ».

(٢) وهي قراءة حمزة واسماعيل ويحيىٰ. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٧٠٩.

(٣) أخرجه أحمد في المسند: ج ٢ ص ٢٩٥ عن أبي هريرة وزاد: «علىٰ خلق آدم ستّون ذراعاً في عرض سبع أذرع!»، وفي ج ٥ ص ٢٤٣ عن معاذ وليس فيه: «بِيضاً جِعَاداً».

ٱلْأَوَّلُونَ(٤٨) قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْأَخِرِينَ(٤٩) لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَـٰتِ
يَوْمٍ مَّعْلُومٍ(٥٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ(٥١) لَأَكِلُونَ مِن شَجَرٍ
مِّن زَقُّومٍ(٥٢) فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ(٥٣) فَشَـٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ
ٱلْحَمِيمِ(٥٤) فَشَـٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ(٥٥) هَـٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ(٥٦)
نَحْنُ خَلَقْنَـٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ(٥٧) أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ(٥٨) ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥ
أَمْ نَحْنُ ٱلْخَـٰلِقُونَ(٥٩) نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ
بِمَسْبُوقِينَ(٦٠) عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَـٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ(٦١)
وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ(٦٢) أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ(٦٣)
ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ(٦٤) لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَـٰهُ حُطَـٰمًا فَظَلْتُمْ
تَفَكَّهُونَ(٦٥) إِنَّا لَمُغْرَمُونَ(٦٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ(٦٧) أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ
ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ(٦٨) ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ(٦٩) لَوْ
نَشَآءُ جَعَلْنَـٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ(٧٠) أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ(٧١)
ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ(٧٢) نَحْنُ جَعَلْنَـٰهَا تَذْكِرَةً
وَمَتَـٰعًا لِّلْمُقْوِينَ(٧٣) فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ(٧٤)﴾

﴿فِى سَمُومٍ﴾ في ريحٍ حارَّةٍ تَدْخُلُ مَسامَّهُم ﴿وَحَمِيمٍ﴾ في ماءٍ مَغْليٍّ حارٍّ انْتَهتْ حرارتُهُ وتَناهت ﴿وَظِلٍّ مِن يَحْمُومٍ﴾ دُخانٍ أَسْوَدَ بَهيم. ﴿لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾ نَفْيٌ لِصِفَتَيِ «الظل» عَنْه، يعني: أَنَّه ظِلٌّ حارٌّ ضارٌّ لا كَسائِرِ الظِّلالِ.

و ﴿ٱلْحِنثِ﴾: الذَّنْبُ، ومنهُ قولُهُم: بَلَغَ الغُلامُ الحِنْثَ أي: الحِلْمَ وَوَقْتَ المؤاخَذَةِ بالمَآثِم. ﴿أَوَ ءَابَآؤُنَا﴾ دَخَلَت هَمْزَةُ الاستِفْهامِ على حَرْفِ العَطْفِ، وَقُرِئَ: «أَوْ آباؤُنا»(١).

(١) قرأه نافع سوى ورش وابن عامر. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٦٣٦.

﴿إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ إلىٰ ما وُقِّتَتْ بِهِ الدُّنْيا من يومٍ مَعْلُومٍ، والإِضَافَةُ بمعنىٰ: مِنْ، كـ«خَاتَمِ فِضَّة»، والمِيقَاتُ: ما وُقِّتَ بِهِ الشَّيءُ أي: حُدَّ، ومنْهُ مَواقِيتُ الإحْرَامِ.

﴿مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ﴾: «من» الأُولىٰ لابتداءِ الغَايةِ، والثَّانيةُ للتَّبْيينِ، وأَنَّثَ ضَميرَ «الشَّجر» على المعنىٰ، وذَكَّرَهُ على اللَّفْظِ، في قَولِهِ: ﴿منْها﴾ و ﴿عَلَيْهِ﴾.

﴿شُرْبَ ٱلْـهِيمِ﴾ قُرِئ بفَتْحِ الشينِ [١] وضَمِّها، وهُمَا مَصْدَرانِ. وَالهِيمُ: الإِبِلُ الَّتي بها الهُيَامُ، وهو دَاءٌ تَشْرَبُ منْهُ ولا تُروىٰ، جَمْعُ «أَهِيم» و «هَيْمَاء». وقِيلَ: الهِيمُ: الرِّمَالُ[٢] فَيكُونُ جَمْعَ الهَيَام بفَتْحِ الهَاءِ، جُمِعَ على «فُعُلٍ» كَسَحَابٍ وسُحُبٍ، ثمَّ فُعِلَ بِهِ ما فُعِلَ بِجَمْعِ «أَبْيض»[٣]، والمعنىٰ: أَنَّه يُسَلِّطُ عَلَيهم من الجُوعِ ما يَضْطَرُّهُم إلىٰ أكل الزَّقُوم، فإذا مَلؤُوا منْها البُطُونَ سَلَّطَ عَلَيهم من العَطَشِ ما يَضْطَرُّهُم إلىٰ شُرْبِ الحَميمِ الَّذي يُقَطِّعُ أَمْعاءَهُم فَيشربُونَهُ شُرْبَ الهِيمِ.

وَالنُّزُلُ: الرِّزْقُ الَّذي يُعَدُّ للنَّازِلِ تَكْرُمَةً لَهُ، وفيهِ تَهكُّمٌ، كَقَولِهِ: ﴿فَبشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[٤]. ﴿فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ تَحضيضٌ علَى التَّصْديقِ بالبَعْثِ، لأنَّ مَنْ قَدرَ عَلَى الإنْشَاءِ قَدرَ علَى الإِعَادَةِ، يُريدُ: ﴿مَا تُمْنُونَهُ﴾ أي: تَقْذِفُونَهُ في الأَرْحَامِ من النُّطَفِ، ﴿تَخْلُقُونَهُ﴾ تُقَدِّرُونَهُ وتُصَوِّرُونَهُ. ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْـمَوْتَ﴾ تَقْديراً علىٰ تَفَاوتٍ، كَمَا ٱقْتَضَتْهُ الحِكْمَةُ فاخْتَلَفَتْ أَعْمَارُكُم. وقُرِئَ: «قَدَرْنا» بالتَّخفيفِ[٥]، يُقَالُ: سَبَقتُهُ على الشَّيءِ إذَا غَلَبْتُهُ عَلَيه وأَعْجَزْتُهُ عنْهُ.

---

(١) وهي قراءة ابن كثير وأبي عمرو وابن عامر والكسائي. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٦٢٣.

(٢) قاله ابن عباس في تفسيره: ص ٤٥٤.

(٣) وهو أن خفِّف وكُسِرَ أوّله لأجل الياء، فصارا «هِيماً» و «بِيضاً».

(٤) آل عمران: ٢١.

(٥) قرأه ابن كثير وحده. راجع كتاب السبعة: ص ٦٢٣.

فمعنىٰ قَولِهِ: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ﴾: إنَّا قَادِرُون علىٰ ذلكَ لا تَغْلِبُونَني عليهِ، و ﴿أَمْثَـٰلَكُمْ﴾ جَمْعُ «مِثْلٍ»، أي: علىٰ أن نُبدِّلَ أَمْثالَكُم ومَكَانَكُم أَشْباهَكُم من الخَلْقِ، وعلىٰ أَن ﴿نُنشِئَكُمْ فِى﴾ خَلْقٍ لا تَعْلَمُونَها وما عَهِدْتُمْ بِمِثْلِها، يَعني: إنَّا نَقْدرُ على الأَمْرَيْنِ جَمِيعاً: علىٰ خَلْقِ ما يُمَاثِلكم ومَا لاَ يُمَاثِلكُم، فَكَيْفَ نَعجزُ عَن إعادَتِكُم؟! ويَجُوزُ أَن يكُونَ «أَمْثالُ» جَمْعَ «مَثَلٍ»، أي: علىٰ أَن نُبَدِّلَ ونُغَيِّرَ صِفَاتَكُم الَّتي أَنْتُم عَلَيها في خَلْقِكُم وأَخْلاقِكُم ونُنْشِئَكُم في صِفَاتٍ لا تَعْلَمُونَها. وقُرِئَ: ﴿النَّشْأَةَ﴾ و «النَّشَآءَةَ»(١).

مَا تحرُثُونَهُ من الطَّعامِ أي: تَبذرُونَ حَبَّهُ وتَعْمَلُونَ في أَرْضِهِ ﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ﴾ تُنْبِتُونَهُ وتَجْعَلُونَهُ نَباتاً يرفُّ ويُنْمىٰ إلىٰ أَن يَبلُغَ غايَتَهُ؟

وفي الحديثِ: «لا يَقُولَنَّ أَحَدُكُم: زَرَعْتُ وَلْيَقُلْ: حَرَثتُ»(٢).

والْحُطامُ: ما تَحطَّمَ وصَارَ هَشِيماً ﴿فَظَلْتُمْ﴾ أي: فَظَلَلْتُم ﴿تَفَكَّهُونَ﴾ تَتَعَجَّبُونَ ممَّا أَصَابَكُم، وعن الحَسَنِ: تَنْدَمُونَ علىٰ تَعَبِكُم فيهِ وإنْفَاقِكُم عليهِ، أو: علىٰ ما ٱقْتَرفْتُم من المَعَاصي الّتي بِسَبَبِها أَصَابَكُم ذلك(٣)، وتَقُولُونَ: ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾ أي: مُلْزَمُونَ غَرامةَ ما أَنْفَقْنا، أو: مُهْلَكُون لِهَلَاكِ رِزْقِنَا، مِن: «الغَرَامِ» وهو الهَلاَك. ﴿بَلْ نَحْنُ﴾ قَومٌ ﴿مَحْرُومُونَ﴾ مُحَارَفُونَ مَحْدُودُونَ لا حَظَّ لَنا وَلاَ بَخْتٌ، وَلَوْ كُنَّا مَجْدُودِينَ(٤) لَمَا أَصَابَنا هذا.

و ﴿ٱلْمُزْنِ﴾ السَّحَابُ، والأُجَاجُ: المِلْحُ الزُّعَاقُ الّذي لا يُقْدَرُ علىٰ شُرْبِهِ، وَحُذِفَ اللاَّمُ من جَوابِ «لَوْ» هنا اخْتِصَاراً، وهي ثابِتَةٌ في المعنىٰ.

---

(١) قرأه ابن كثير وأبو عمرو. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٦٠١.
(٢) أخرجه الطبري في تفسيره: ج ١١ ص ٦٥٢ عن أبي هريرة وفيه: «لا تقولَنَّ».
(٣) تفسير الحسن البصري: ج ٢ ص ٣٣١.
(٤) أي: محظوظين، يقال: صرْت ذا جَدٍّ أي: ذا حظٍّ. (الصحاح: مادة جدد).

تُورُونَها: أي تَقْدَحُونَها وتَسْتَخْرِجُونَها من الزِّنَادِ، والعَرَبُ تَقْدَحُ بِعُودَيْنِ، تَحُكُّ أَحَدُهُما عَلَى الآخرِ، ويُسَمُّونَ الأَعْلىٰ: الزَّنْدَ، والأَسْفَلَ: الزَّنْدَةَ. ﴿أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَها﴾ التي مِنْها الزِّنَادُ وأَنْبَتُّمُوها. ﴿تَذْكِرَةً﴾ تذْكيراً لِنَارِ جَهَنَّمَ حَيْثُ عَلَّقْنا بها أَسْبابَ المَعَايِشِ كُلَّها، وعَمَّمْنا بالحاجَةِ إليها البَلْوىٰ لتكُونَ حاضِرَةً للنَّاسِ يَنْظُرونَ إليها ويَذْكُرونَ ما أُوعِدُوا بِهِ، أو: جَعَلْنَاها أُنْموذَجاً مِن جَهَنَّمَ ﴿وَمَتَاعاً﴾ وَمَنْفَعَةً ﴿لِلْمُقْوِينَ﴾ الَّذين يَنْزِلُونَ القَوَاءَ، وَهُو القَفْرُ، أو: الّذينَ خَلَتْ بُطُونُهُم أو مَزَاوِدُهُم من الطَّعامِ.

﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ أي: فَأَحْدِثِ التَّسبِيحَ بِذِكْرِ ٱسمِ رَبِّكَ، وَ ﴿العَظِيم﴾: صِفَةٌ للمُضَافِ أو للمُضَافِ إليهِ، وهو أَن تَقُولَ: سُبْحَانَ اللهِ؛ تَنْزِيهاً عمَّا يَقُولُ الظَّالِمُونَ الجَاحِدُونَ نِعَمَهُ، أو: تعَجُّباً من أَمْرِهِم، أو: شُكْراً علىٰ هٰذهِ النِّعَمِ الّتي عَدَّدَها سبحانَهُ ونَبَّهَ عَلَيها.

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ(٧٥) وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ(٧٦) إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ(٧٧) فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ(٧٨) لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ(٧٩) تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ(٨٠) أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ(٨١) وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ(٨٢) فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ(٨٣) وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ(٨٤) وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ(٨٥) فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ(٨٦) تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ(٨٧) فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ(٨٨) فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ(٨٩) وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ(٩٠) فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ(٩١) وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ(٩٢) فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ(٩٣) وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ(٩٤) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ(٩٥) فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ(٩٦)﴾

المَعْنىٰ: فَأُقْسِمُ، وَ «لَا» مَزِيدَةٌ مُؤَكِّدَةٌ، وقَرَأَ الحَسَنُ: «فَلَأُقْسِمُ»[١]، ومعناهُ: فَلأَنَا أُقْسِمُ ﴿بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ بمَسَاقِطِها ومَغَارِبِها، أو: بِمَنَازِلِها ومَسَائِرِها. وقَولُهُ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ اعْتِراضٌ بين القَسَمِ والمُقْسَمِ عَلَيهِ، وقَولُهُ: ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ﴾ اعْتِراضٌ في ٱعْتِراضٍ، اعْتُرِضَ بِهِ بَيْنَ المَوصُوفِ والصِّفَةِ، وقِيلَ: ﴿مَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾: أَوْقَاتُ وقُوعِ نُجُومِ القُرآنِ أي: أوقَاتُ نُزُولِها[٢]، وقُرِئَ: «بمَوْقِعِ» على الإِفْرادِ[٣] لأَنَّه اسْمُ جِنسٍ يُؤَدِّي مُؤَدَّى الجَمْعِ.

﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾ عِنْدَ ٱللهِ أَكْرَمَهُ وأَعَزَّهُ، أو: كَرِيمٌ عَامُّ المَنَافِعِ كَثيرُ الخَيْرِ يُنَالُ الثَّوابُ العَظِيمُ بِتِلَاوتِهِ والعَمَلِ بِمَا فيهِ، أو: خَطِيرٌ مُعْجِزٌ مَرْضِيٌّ في جِنْسِهِ من الكُتُبِ. ﴿فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ﴾ مَصُونٍ من غَيْرِ المُقَرَّبِينَ من المَلَائكَةِ، لا يَطَّلِعُ عليهِ مَنْ سِوَاهُم، وَهُم المُطَهَّرُونَ من جَميعِ الأَدْنَاسِ، إنْ جَعَلْتَ الجُمْلَةَ صِفَةً لـ﴿كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ﴾ وهو اللَّوْحُ المَحْفُوظِ، وإِنْ جَعَلْتَهُ صِفَةً لـ﴿قُرْءَانٌ﴾ فالمَعْنىٰ: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا﴾ مَنْ هُوَ عَلَى الطَّهَارةِ من النَّاسِ، يعني: مَسَّ المَكْتُوبِ منْهُ. ﴿تَنزِيلٌ﴾ صِفَةٌ أُخرىٰ للقُرآنِ، أي: مُنْزَلٌ ﴿مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، أو: وَصْفٌ بالمَصْدَرِ لأَنَّه نَزَلَ نُجُوماً من بيْنِ سَائِرِ كُتُبِ ٱللهِ، فَكَأَنَّه في نَفْسِهِ تَنْزِيلٌ، ولذلكَ جَرَىٰ مَجْرَىٰ بَعْضِ أَسْمائِهِ حينَ قَالُوا: نَطَقَ التَّنْزِيلُ بِكذا، وَجَاءَ في التَّنْزِيل كَذَا، أو: هو تَنْزِيلٌ، علىٰ حَذْفِ المبتَدَأ.

﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ يَعْني القُرآنَ ﴿أَنتُم مُّدْهِنُونَ﴾ أي: مُتَهَاوِنُونَ بِهِ كَمَنْ يُدْهِنُ في الأَمْرِ أي: يَلِينُ جَانِبُهُ ولا يَتَصَلَّبُ فيهِ تَهَاوناً بِهِ. ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ﴾ علىٰ حَذْفِ المُضَافِ، أي: وتَجْعَلُونَ شُكْرَ رِزْقِكُم التَّكْذِيبَ؟! والمعنىٰ: أَوَضَعْتُم

---

(١) حكاه عنه ابن خالويه في شواذ القرآن: ص ١٥٢.

(٢) قاله ابن عباس في تفسيره: ص ٤٥٥.

(٣) قرأه حمزة والكسائي. راجع كتاب السبعة: ص ٦٢٤.

التَّكْذِيبَ مَوْضِعَ الشُّكْرِ؟! وعَنْ عليٍّ عليه السلام أَنَّهُ قَرَأَ: «وتَجْعَلُونَ شُكْرَكُم»[١] ورُوِيَ ذلكَ عن الباقِرِ عليه السلام والصَّادِقِ عليه السلام [٢] أي: وتَجْعَلُونَ شُكْرَكُم لِنِعْمَةِ القُرآنِ أَنَّكُم تُكَذِّبُونَ بِهِ، أو: تَجْعَلُونَ شُكْرَ ما يَرزقُكُم ٱللهُ من الغَيْثِ أَنَّكُم تُكَذِّبُونَ بكَونِهِ من ٱللهِ حَيْثُ تَنسبونَهُ إِلَى النُّجُومِ؟ وقُرِئَ: «تَكْذِبُونَ»[٣] وهو قَولُهُم في القُرآنِ: سِحْرٌ وشِعْرٌ وٱفْتِرَاءٌ، وفي المَطَرِ: هو من الأَنْوَاءِ، ولأَنَّ كُلَّ مُكَذِّبٍ بالحَقِّ كَاذِبٌ.

﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾ تَرتيبُهُ: فَلَوْلا تَرْجِعُونَها إِذَا بَلَغَتِ الحُلْقُومَ إنْ كُنْتُم غَيْرَ مَدِينِينَ، فَـ«لولا» الثَّانيةُ مُكرَّرَةٌ للتَّوكيدِ، والضَّميرُ في ﴿تَرْجِعُونَهَآ﴾ للنَّفْسِ وهي الرُّوحُ، وفي ﴿أَقْرَبُ إِلَيْهِ﴾ للمُحْتَضَرِ. وقَولُهُ: ﴿غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ مِنْ: دَانَ السُّلطانُ الرعيَّةَ إذا سَاسَهُم، أي: غَيْرَ مربُوبينَ مَمْلُوكينَ. ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾ يا أَهْلَ الميِّتِ بِعِلْمِنا وَقُدْرَتِنا، أو: بِمَلائِكَتِنا الَّذين يَقْبِضُونَ رُوحَهُ، والمعنىٰ: إنَّكُم في جُحُودِكُم آياتِ ٱللهِ سبحانَهُ قَد بَلَغْتُم كُلَّ مَبْلَغٍ: إنْ أَنْزَلَ عَلَيكُم كِتَاباً مُعْجِزاً قُلْتُم: سِحْرٌ وٱفْتِرَاءٌ، وإنْ أَرْسَلَ إليكُم رَسُولاً صَادِقاً قُلْتُم: سَاحِرٌ[٤] كذَّابٌ، وإنْ رَزَقَكُم مَطَراً يُحْيِيكُم بِهِ قُلْتُم: صَدَقَ نَوْءُ كَذَا! فَمَا لَكُم لا تُرْجِعُونَ الرُّوحَ إِلَى البَدَنِ بَعْدَ بُلُوغِهِ الحُلْقُومَ إنْ لَمْ يَكُنْ ثَمَّ قَابِضٌ وَكُنْتُم صَادِقِينَ في كُفْرِكُم باللهِ وتَعْطِيلِكُم؟!

﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ﴾ المُتَوفَّىٰ ﴿مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ السَّابِقينَ ﴿فَرَوْحٌ﴾ فَلَهُ اسْتِراحَةٌ ﴿وَرَيْحَانٌ﴾ وَرِزْقٌ، وقُرِئَ: «فَرُوحٌ» بالضَّمِّ[٥] وهو مَرْوِيٌّ عن البَاقِرِ عليه السلام [٦]،

---

(١) حكاه عنه عليه السلام ابن خالويه في شواذ القرآن: ص ١٥٢.

(٢) أُنظر تفسير القمي: ج ٢ ص ٣٤٩.

(٣) وهي قراءة المفضّل عن عاصم. راجع كتاب السبعة: ص ٦٢٤.

(٤) في نسخة: «ساحرٌ شاعرٌ».

(٥) وهي قراءة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وابن عباس وقتادة والحسن. راجع المحتسب لابن جنّي: ج ٢ ص ٣١٠.

(٦) حكاه عنه عليه السلام أبو حيان في البحر: ج ٨ ص ٢١٥.

أي: فَرَحْمَةٌ لأنَّ الرَّحْمَةَ كالحَيَاةِ للمَرْحُومِ، وقيلَ: هو البَقَاءُ[١]، أي: فهَذَانِ لَهُ مَعاً، وهو الخُلُودُ مع الرِّزْقِ.

﴿فَسَلَـٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ أي: فَسَلامٌ لَكَ يا صَاحِبَ اليمينِ من إخْوانِكَ أَصْحَابِ اليَمينِ أي: يُسَلِّمُونَ عليكَ، كقَولِهِ: ﴿إِلَّا قِيلًا سَلَـٰماً سَلَـٰماً﴾.

﴿فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ مِثْلُ قَولِهِ: ﴿هَـٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾[٢]. ﴿إِنَّ هَـٰذَا﴾ الّذي أُنْزِلَ في هٰذِهِ السُّورةِ ﴿لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ أي: هو الحقُّ الثَّابِتُ من اليَقِين.

(١) قاله أبو عبيدة في مجاز القرآن: ج ٢ ص ٢٥٣.
(٢) الآية: ٥٦.

سُورَةُ الحَديد

مدنيّة[1]، وَهِيَ تِسْعٌ وعشْرونَ آيةً، عَدَّ الكُوفيُّ: ﴿مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾[2] والبَصريُّ: ﴿ٱلْإِنجِيلَ﴾[3].

وفي حَديثِ أُبيِّ بنِ كَعْبٍ: «ومَنْ قَرأَ سُورةَ الحَديدِ كُتِبَ من الَّذِينَ آمنُوا باللهِ ورَسُولِهِ»[4].

وعن الباقرِ عليه السلام: «مَنْ قَرأَ المُسَبَّحاتِ كُلَّها قَبلَ أن يَنامَ لَمْ يَمُتْ حتَّىٰ يُدْرِكَ القَائِمَ، وإنْ ماتَ كانَ في جِوارِ رَسُولِ ٱللهِ صلى الله عليه وآله وسلم»[5].

وعن الصَّادقِ عليه السلام: «مَنْ قَرأَ سُورةَ الحَديدِ والمُجادِلَةِ في صَلاةِ فَريضَةٍ أَدْمَنَها لَمْ يُعَذِّبْهُ ٱللهُ حتَّىٰ يَمُوتَ أَبداً، ولا يرىٰ في نَفْسِهِ ولا في أَهلِهِ سُوءاً أبداً»[6].

---

(١) قال الشيخ الطوسي في التبيان: ج ٩ ص ٥١٧: مدنيّة بلاخلاف، وهي تسع وعشرون آيةً في الكوفي والبصري، وثمان وعشرون في المدنيّين.

وفي الكشّاف: ج ٤ ص ٤٧١: مدنيّة وهي تسع وعشرون آيةً، نزلت بعد الزلزلة.

(٢) الآية: ١٣. (٣) الآية: ٢٧.

(٤) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٤٨٤ مرسلًا وفيه: «ورُسُله».

(٥) ثواب الأعمال للصدوق: ص١٤٦. والمسبّحات: هي السور التي تبدأ بـ«سبّح» و«يسبّح»، وهنّ ستّ في القرآن: الحديد، والحشر، والصفّ، والجمعة، والتغابن، والأعلىٰ.

(٦) المصدر السابق: ص ١٤٥ وزاد بعده: «ولا خَصاصة في بدنه».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَافِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ(١) لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ(٢) هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْأَخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ(٣) هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ(٤) لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ(٥) يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ(٦)﴾

﴿سَبَّحَ﴾ يُعدَّىٰ بنَفْسِهِ وباللَّامِ، وأَصلُهُ التَّعدِّي بِنَفْسِهِ كَمَا مَرَّ في قَولِهِ تَعالىٰ: ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ (١) لأنَّ معنىٰ «سَبَّحْتُه»: بَعَّدْتُهُ عن السُّوءِ، مَنْقُولٌ مِن: سَبَحَ إذا ذَهَبَ وبَعُدَ، واللَّامُ مِثْلُها في قَولِهِم: نَصَحْتُهُ ونَصَحْتُ لَهُ، أو: بمعنىٰ: أَحْدَثَ التَّسبيحَ لأَجْلِ ٱللهِ ولِوَجْهِهِ خَالِصاً ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلأَرْضِ﴾ مِمَّا يَصِحُّ مِنْهُ أَن يُسَبِّحَ.

﴿يُحْيِ﴾ يَجوزُ أَنْ يكُونَ مَرفُوعَ المَحَلِّ علىٰ: هو يُحْيِي، ومَنْصُوباً على الحَالِ من المَجْرورِ في ﴿لَهُ﴾، والجَارُّ يعملُ فيهِ، وأَنْ يكُونَ جُملةً برأْسِها لا مَحَلَّ لَهَا كقَولِهِ: ﴿لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾.

﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ﴾ القَديمُ السَّابِقُ لِجَميعِ الموجُودَاتِ بِمَا لا يَتَنَاهىٰ من الأَوقَاتِ أو تَقْدِيرِ الأَوقَاتِ، ﴿وَٱلآخِرُ﴾ الَّذي يَبقَىٰ بعدَ فَنَاءِ كلِّ شيءٍ ﴿وَٱلظَّٰهِرُ﴾ بالأَدلَّةِ

(١) الفتح: ٩.

الدَّالَّةِ عَلَيْهِ ﴿وَٱلْبَاطِنُ﴾ من إحْسَاسِ خَلْقِهِ لا يُدْرَكُ بالحَواسِّ، وقيلَ: مَعناهُما: العالِمُ بِمَا ظَهَرَ والعَالِمُ بِمَا بَطَنَ[١]. ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ بالعِلْمِ ﴿أَيْنَمَا كُنتُمْ﴾ لا يَخفىٰ عليهِ شيءٌ من أحْوالِكُم.

﴿ءَامِنُوا۟ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ(٧) وَمَالَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَـٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ(٨) هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ ءَايَـٰتٍ بَيِّنَـٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ(٩) وَمَالَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَـٰتَلَ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِن بَعْدُ وَقَـٰتَلُوا۟ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ(١٠)﴾

﴿وَأَنفِقُوا۟﴾ من أموالِكُم الّتي ﴿جَعَلَكُم﴾ ٱللهُ خُلَفَاءَ في التَّصرُّفِ فيهَا، وَمَتَّعَكُم بها، فَلَيْسَتْ هي بأَموالِكُم علَى الحقيقةِ، وإنَّما أنْتُم بمَنْزلةِ الوكَلاءِ من جِهَةِ ٱللهِ فيها، فَلْيَهُنْ عليكُم الإنْفَاقُ مِنْها، كَمَا يَهُونُ على الإنسانِ الإنْفَاقُ من مالِ الغَيْرِ إذا أَذِنَ لَهُ فيهِ، أو: ﴿جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ﴾ ممَّنْ كانَ قبلكُم بِتَوْريثِهِ إيَّاكُم، فَاعْتَبِرُوا بحَالِهِم حيثُ ٱنتقَلَ منْهُم إليكُم، وسيَنْتَقِلُ منْكُم إلىٰ مَنْ بَعْدكُم، فَلَا تَبخلُوا بهِ وٱسْتَوفُوا حظَّكُم منْهُ قَبلَ أَن يَصِيرَ لِغَيْرِكُم.

﴿لا تُؤْمِنُونَ﴾ حَالٌ من معنَى الفِعْلِ في ﴿مَا لَكُم﴾ كَمَا تقُولُ: مَا لَكَ قَائِماً؟ بمعنىٰ: ما تَصْنَعُ قَائِماً؟ أي: وَمَا لَكُم كَافِرينَ باللهِ؟ والواوُ في ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُم﴾ واو الحالِ أَيْضاً، فَهُما حَالانِ مُتداخِلَتَانِ، والمعنىٰ: وأَيُّ عُذْرٍ لَكُم في

---

(١) قاله الزجَّاج في معاني القرآن: ج ٥ ص ١٢٢ .

تَرْكِ الإيمانِ والرَّسُولُ يدعُوكُم إليهِ ويُنَبِّهُكُم عليهِ، وَيَتْلُو عَلَيكُم القُرآنَ المُعْجِزَ؟ ﴿وَ﴾ قَبلَ ذٰلكَ ﴿قَدْ أَخَذَ﴾ اللهُ ﴿مِيثَٰقَكُمْ﴾ بالإيْمانِ حَيْثُ رَكَّبَ فيكُم العقُولَ، وَنَصبَ لَكُم الأَدلَّةَ، وَمَكَّنَكُم من النَّظَرِ فيها، فإذا لَمْ يَبْقَ لَكُم عِلَّةٌ بَعْدَ أدلَّةِ العقُولِ وتَنْبيهِ الرَّسُولِ فَمَا لَكُمْ لا تُؤْمِنُونَ ﴿إِنْ كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ لِمُوجبٍ مَا، فإنَّ هذا المُوجبَ لا مَزيدَ عَلَيهِ، وقُرِئَ: «أُخِذَ مِيثَاقُكُم»[1] على البِناءِ للمفعُولِ.

﴿لِيُخْرِجَكُم﴾ الضَّميرُ للهِ أو للرَّسُولِ، أي: ليُخرجَكُم ٱللهُ بآياتِهِ وأدلَّتِهِ، أو الرَّسُولُ بدَعْوتِهِ مِنْ ظُلُمَاتِ الكُفرِ إلىٰ نُورِ الإيْمانِ.

﴿مَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُواْ﴾ في أَن لا تُنْفِقُوا ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يَرِثُ كُلَّ شَيءٍ فيهما، لا يَبْقىٰ مِنْهُ بَاقٍ لأَحَدٍ من مالٍ وغَيْرِهِ. والمعنىٰ: وأيُّ غَرَضٍ لكُم في تَرْكِ الإنْفَاقِ في سبيلِ ٱللهِ، والجِهادِ مَعَ رَسُولِ ٱللهِ، وٱللهُ مُميتُكُم وَوارِثُ أَمْوالِكُم؟ ثمَّ بيَّنَ التَّفاوتَ بَيْنَ الْمُنفِقينَ فَقالَ: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ﴾ قَبْلَ فَتْحِ مكَّةَ، قَبْلَ عِزِّ الإسلامِ وقُوَّةِ أَهْلِهِ «وَمَنْ أَنْفَقَ مِنْ بَعْدِ الْفَتْحِ» فَحُذِفَ للعِلْمِ بهِ، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الَّذينَ أنفقُوا قبلَ الفَتْحِ ﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً... وَكُلًّا﴾ وَكُلَّ واحدٍ من الفَريقَيْنِ ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ﴾ المَثُوبَةَ ﴿الْحُسْنَىٰ﴾ وهي الجنَّةُ مع تَفاوتِ الدَّرَجَاتِ، وَقُرِئَ بالرَّفعِ[2] علىٰ: وَكُلٌّ وَعدَهُ ٱللهُ الحُسْنَىٰ، وقيلَ: المُرادُ: فَتحُ الحُدَيْبيَّةِ[3].

﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ (١١) يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا

---

(١) قراه أبو عمرو. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٦٢٥.

(٢) قرأه ابن عامر وحده. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٧١١.

(٣) قاله عامر الشعبي. راجع تفسير الطبري: ج ١١ ص ٦٧٤.

ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ(١٢) يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَـٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ(١٣) يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَـٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ(١٤) فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ(١٥)﴾

قُرِئَ: «فَيُضَعِّفَهُ»(١) وَ ﴿فَيُضَاعِفَهُ﴾(٢) وقُرِئَا مَنْصُوبَيْنِ ومَرفُوعَيْنِ، أي: يُعْطِيه أَجْرَهُ على إنْفَاقِهِ مُضاعَفاً أضْعَافاً من فَضْلِهِ ﴿وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ جزاءٌ خالِصٌ لا يَشُوبُهُ ما يُنَغِّصُهُ(٣).

﴿يَوْمَ تَرَىٰ﴾ ظَرْفٌ لِقَولِهِ: ﴿وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾، ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِم﴾ لأنَّهم أُوتُوا صَحَائِفَ أَعمالِهِم من هَاتَيْنِ الجِهَتَيْنِ، فَجَعَلَ النُّورَ في الجِهَتَيْنِ شعَاراً لَهُم وآيةً لسَعَادَتِهِم وفَلاحِهِم، فإذا ذُهِبَ بِهِم إلىٰ الجنَّةِ ومرُّوا على الصِّراطِ يَسْعَوْنَ، سَعَىٰ ذلك النُّورُ بِسَعْيِهِم، وَيَقُولُ لَهُمْ الَّذين يَتَلقَّوْنَهُم من المَلائِكَةِ: ﴿بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّـٰتٌ﴾ وعن ٱبنِ مَسْعُودٍ: يُؤْتونَ نورَهُم علىٰ قَدَرِ أَعْمَالِهِم، فَمِنْهُم مَنْ نُورُهُ مثْلُ الجَبَلِ، وأَدْنَاهُم نُوراً نُورُهُ علىٰ إبْهامِهِ يَطْفَأُ مرَّةً ويتَّقِدُ أُخرىٰ(٤).

---

(١) هي قراءة ابن كثير وابن عامر، إلّا أنّ الأول يرفعه والآخر ينصبه. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٦٢٥.

(٢) بالرفع قرأه نافع وأبو عمرو وحمزة والكسائي. راجع المصدر السابق.

(٣) في نسخة: «ينقضه».

(٤) حكاه عنه البغوي في تفسيره: ج ٤ ص ٢٩٥.

﴿يَوْمَ يَقُولُ﴾ بَدَلٌ مِن ﴿يَوْمَ تَرَى﴾، ﴿ٱنظُرُونَا﴾ ٱنْتَظِرُونا لأَنَّهم يُسْرَعُ بِهِم إِلَى الجنَّةِ، أو: ٱنْظُروا إلينا لأنَّهم إذا نَظَروا إليهم ٱستَقبَلُوهُم بوجُوهِهِم والنُّورُ بينَ أَيْدِيهِم فَيَستَضِيئُونَ بِهِ، وقُرِئَ: «أَنْظِرُونَا»[1] من النَّظْرَةِ وهي الإِمْهَالِ، جَعَلَ ٱتِّئادَهُم[2] في المضيِّ إلىٰ أَن يَلْحَقُوا بِهِم إنْظاراً لَهُم ﴿نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ نُصِبْ مِنْهُ، ونَستَضِيءْ بِهِ ﴿قِيلَ ٱرْجِعُواْ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُواْ نُوراً﴾ تَهَكُّمٌ بِهِم وطَرْدٌ لَهُم، أي: ٱرْجِعُوا إلىٰ حَيثُ أُعطِينَا هذا النُّورُ فاطلُبُوهُ هناكَ، فَمِنْ ثَمَّ يُقْتَبَسُ، أو: ٱرجِعُوا إلى الدُّنيا فالتَمِسُوا النُّورَ منها فإنَّا كَسَبْنَا النُّورَ هناكَ، وقيلَ: إنَّ ﴿وَرَآءَكُمْ﴾ اسمٌ لـ﴿ٱرْجِعُواْ﴾، ولَيْسَ بظَرْفٍ للرُّجُوعِ، كَمَا تَقُولُ: وَرَاءَكَ بمَعْنىٰ: ارْجِعْ، والتَّقديرُ: ارجِعُوا ٱرجِعُوا ﴿فَضُرِبَ﴾ بينَ المؤْمنينَ والمنَافقينَ ﴿بِسُورٍ﴾ أي: حَائِطٍ حَائِلٍ بين شَقِّ الجنَّةِ وشَقِّ النَّارِ، لذلكَ السُّورِ ﴿بَابٌ﴾ لأَهْلِ الجنَّةِ يدخُلُونَ مِنْهُ، ﴿بَاطِنُهُ﴾ باطِنُ السُّورِ أو البابِ وهو الشِّقُّ الَّذي يَلي الجنَّةَ ﴿فِيهِ الرَّحْمَةُ﴾ أي: الجنَّةُ، ﴿وَظَاهِرُهُ﴾ ما ظَهَرَ لأَهلِ النَّارِ ﴿مِن قِبَلِهِ﴾ مِنْ عندِهِ ومِنْ جِهَتِهِ ﴿الْعَذَابُ﴾ وهو النَّارُ.

﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ يُريدُونَ موافَقَتَهم في الظَّاهِرِ، قَالَ المؤْمنُونَ: ﴿بَلَىٰ﴾ كُنْتُم مَعَنَا تُصَلُّونَ وتَصُومُونَ ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ مَحَنْتُموهَا بالنِّفاقِ وأَهْلَكْتُمُوها ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾ بالمؤْمنينَ الدَّوائرَ ﴿وَٱرْتَبْتُمْ﴾ وَشَكَكْتُم ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ﴾ التي تَمَنَّيْتُمُوها ﴿حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللهِ﴾ وهو المَوْتُ ﴿وَغَرَّكُم بِٱللهِ ٱلْغَرُورُ﴾ الشَّيطانُ، وقيلَ: الدُّنيا[3].

(١) قرأه حمزة. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٦٢٥.

(٢) التُّؤدة ـ بسكون الهمزة وفتحها ـ: التأنّي والتمهُّل، يقال: اتَّأَد في مَشْيه وتَوَأَّد: إذا تمهَّل فيه وتأنّىٰ. (لسان العرب: مادة وأد).

(٣) قاله الضحاك. راجع تفسير الماوردي: ج ٥ ص ٤٧٦.

﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ﴾ قُرِئَ بالياءِ وَالتَّاءِ[١] ﴿فِدْيَةٌ﴾ ما يُفْتَدَىٰ بِهِ ﴿مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾ أي: مَقَرُّكُم الَّذي تأْوونَ أَنْتُم إليهِ ﴿هِيَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ أَوْلَىٰ بِكُم، كَمَا قَالَ لبيدٌ:

فَغَدَتْ كِلَا الْفَرْجَيْنِ تَحْسَبُ أَنَّـهُ ... مُولَىٰ المَخافَةِ خَلْفُهَا وَأَمامُهَا[٢]

والمَعنىٰ: أَنَّها تَلِي عَلَيكُم وتَمْلُكُ أَمْرَكُم، فهي أولىٰ بِكُم مِنْ كُلِّ شيء.

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ(١٦) ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ(١٧) إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَـٰتِ وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَـٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ(١٨) وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ(١٩) ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَـٰمًا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ(٢٠) سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ(٢١)﴾

أَنَىٰ الأَمرُ يَأْنِي: إذا جاءَ أَنَاهُ أي: وَقْتُهُ، وعن ٱبنِ مسْعُودٍ: ما كانَ بينَ إسلامِنا

(١) قرأه ابن عامر في رواية هشام. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٦٢٦.

(٢) البيت من معلّقته المشهورة. أنظر ديوان لبيد بن ربيعة: ص ١٧٣.

وبينَ أَن عُوتِبْنَا بهذه الآيةِ إلّا أربَعُ سنينٍ [١]. وعن ٱبنِ عبَّاسٍ: إنَّ ٱللهَ ٱستَبْطَأَ قُلُوبَ المؤْمنينَ فَعَاتَبَهُم علىٰ رَأْسِ ثَلَاثِ عَشْرَة سَنَة من نُزُولِ القُرآنِ بهٰذهِ الآية [٢]. وعن محمّد بنِ كَعْبٍ: كانَتِ الصَّحابةُ بمكَّةَ مُجْدِبينَ فَلَمَّا هاجَروا أَصَابُوا الرِّيفَ [٣] والنِّعمَةَ، فَتغيَّروا عَمَّا كانُوا عليهِ، فَقَسَتْ قُلُوبُهُم فَنزَلَتْ [٤]. والمَعْنىٰ: ألم يَحِنْ للمؤْمنينَ أَنْ تَلِينَ قُلُوبُهُمْ وتَرِقُّ إذا ذُكِرَ ٱللهُ وتُلِيَ القُرآنُ عنْدَهُم؟ أو: لِمَا يُذَكِّرُهُم ٱللهُ بِهِ من مَوَاعِظِهِ وَمَا نَزَّلَهُ مِنَ القُرآن؟ وقُرئَ: ﴿نزل﴾ و «نَزَّلَ» [٥] بالتَّخْفيفِ والتَّشديدِ ﴿وَلَا يَكُونُوا۟﴾ عَطْفٌ علىٰ ﴿تَخْشَعَ﴾، وقُرِئَ: «وَلَا تَكُونُوا» بالتاءِ [٦] علىٰ الالتفاتِ، ويَجُوزُ أَن يكُونَ نَهْياً عن مُمَاثَلَةِ أَهلِ الكتَابِ في قَسْوَةِ القُلُوبِ، بَعْدَ أن وُبِّخُوا، وذلكَ أَنَّ بني إسرائيلَ كانَ الحقُّ يَحُولُ بينَهُم وبينَ شَهَواتِهم، وإذا سَمِعُوا التَّوراةَ والإنْجيلَ خَشَعُوا للهِ وَرَقَّتْ قُلُوبُهُم، فَلَمَّا طَالَ عَلَيْهِم الزَّمانُ غَلَبَهُم الجَفَاءُ والقَسْوَةُ، وٱختَلَفُوا، وأَحْدَثُوا مَا أَحدَثُوا من التَّحْريفِ وغَيْرِه، و ﴿ٱلْأَمَدُ﴾: الأَجَلُ.

﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ هذا تَمثيلٌ لِأَثَرِ الذِّكْرِ في القُلُوبِ، وأنَّه يُحيِيها كَمَا يُحْيِي الغَيْثُ الأَرْضَ، أو: يُحْيِيها اللهُ بَعْدَ مَوْتِها، وَيُلَيِّنُها بَعْدَ القَسْوَةِ بالأَلْطَافِ والتَّوفيقَاتِ.

﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ﴾ قُرِئَ بتَشْديدِ الصَّادِ بمعنىٰ: «المُتَصدِّقين»، وبتَخْفِيفِها [٧] بمعنىٰ: الّذينَ يُصَدِّقُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ، وعَطَفَ قَولَهُ: ﴿وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ﴾ علىٰ معنى

(١ و٢) حكاه عنه البغوي في تفسيره: ج ٤ ص ٢٩٧.
(٣) الرِّيف: أرض فيها زرع وخصب، يقال: أَرافَت الأرضُ: أي أخصَبَتْ. (الصحاح: مادة ريف).
(٤) أوردها القرطبي في تفسيره: ج ١٧ ص ٢٥٠.
(٥) بالتشديد قرأها ابن كثير وأبو عمرو وأبو بكر عن عاصم وحمزة والكسائي وابن عامر. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٢٦٢.
(٦) هي قراءة رويس. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٧١٢.
(٧) قرأه ابن كثير وعاصم برواية أبي بكر عنه. راجع كتاب السبعة السابق.

الفِعْلِ في ﴿المُصَّدِّقِينَ﴾ لأنَّ اللّامَ بمعنى «الَّذين»، وٱسمُ الفاعِلِ بمعنى: «ٱصَّدَّقُوا» أو «صَدَّقُوا». كأنَّه قيلَ: إنَّ الَّذينَ اصَّدَّقُوا وَأَقْرَضُوا، وقُرِئَ: ﴿يُضَٰعَفُ﴾ و«يُضَعَّفُ»[١].

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ هُم عِنْدَ اللهِ بمَنْزلةِ الصِّدِّيقينَ والشُّهَدَاءِ، وهم الَّذينَ سَبَقُوا[٢] إلى التَّصديقِ، وَرَسَخَتْ أَقْدَامُهُم فيهِ، والَّذين ٱستشهدُوا في سَبيلِ ٱللهِ ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ أي: لَهُم مثْلُ أَجْرِ الصِّدِّيقينَ والشُّهَدَاءِ ومِثْلُ نُورِهِم.

وعن الصَّادقِ عليه السلام: إنَّ المؤمنَ شَهيدٌ، وقَرَأَ هٰذه الآية.

ويجوزُ أَن يكُونَ ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ﴾ مبتَدَأً و ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ خَبَرُهُ.

ثمَّ زَهَّدَ سبحانَهُ المؤمنينَ في الدُّنْيا فقَالَ: لَيْسَتِ ﴿ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ إلَّا مُحقَّرَاتٍ من الأُمُورِ، وهي اللَّعِبُ واللَّهْوُ والزِّينَةُ والتَّفَاخُرُ وَالتَّكَاثُر، ثمَّ شَبَّهَ حَالَها وَسُرْعَةَ ٱنْقِضَائِها وَقِلَّةَ جَدْوَاها بِنَبَاتٍ أَنْبَتَهُ الغَيْثُ و ﴿أَعْجَبَ﴾ الْكُفَّارَ وَهُمُ الزُّرَّاعُ أو الكافِرُونَ نِعْمَةَ ٱللهِ، ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ وَيَصْفَرُّ ويَصيرُ ﴿حُطَٰمًا﴾، ﴿وَفِى ٱلْآخِرَةِ﴾ أُمُورٌ عِظَامٌ وهي: العَذَابُ الشَّديدُ، وَمَغْفِرَةُ ٱللهِ، وَرِضْوَانُهُ.

﴿سَابِقُوٓاْ﴾ أي: بَادِرُوا مُبادَرَةَ السَّابقينَ لأقْرانِهم في المِضْمَارِ ﴿إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ مُنْجِيَةٍ من العَذَابِ الشَّديدِ، وإلىٰ ﴿جَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ﴾ السَّبْعِ السَّمٰواتِ وَسَبْعِ الأَرْضِينَ. وَذَكَرَ العَرْضَ دُونَ الطُّولِ لأنَّ كُلَّ ما لَهُ عَرْضٌ وطُولٌ فإنَّ عَرْضَهُ أَقَلُّ من طُولِهِ، فإذا كانَ العَرْضُ مِثْلَ السَّمٰواتِ والأَرْضِ فطُولُها لا يَعْلَمُهُ إلَّا ٱللهُ. وعنِ الحَسَنِ: أنَّ ٱللهَ يُفْني الجنَّةَ ثمَّ يُعيدُها علىٰ ما وَصَفَهُ، فلذلكَ صَحَّ وَصْفُها بأَنَّ عَرْضَها كَعَرْضِ السَّماءِ والأَرْضِ[٣] ﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ﴾ أي:

---

(١) هي قراءة ابن كثير وحده. راجع المصدر نفسه: ص ١٨٤ .

(٢) في بعض النسخ: «صدقوا» .

(٣) حكاه عنه الشيخ الطوسي في التبيان: ج ٩ ص ٥٣٢ .

هُيِّئَتْ وَادُّخِرَتْ للمؤمنينَ المُصَدِّقينَ ذلك المَوْعُودَ من المغفِرَةِ والجَنَّةِ ﴿فَضْلُ ٱللهِ﴾ عَطَاؤُهُ، ولأنَّ الأَسْبَابَ المُوصِلَةِ إلَى الثَّوابِ من التَّكْليفِ والتَّعْرِيضِ والتَّمْكِينِ والأَلْطَافِ كُلُّها تَفَضُّلٌ ﴿يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَآءُ﴾ وَهُم المؤمِنُون.

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ(٢٢) لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَـٰكُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ(٢٣) ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ(٢٤) لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِٱلْغَيْبِ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ(٢٥) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ(٢٦) ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَـٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ(٢٧)﴾

المُصِيبَةُ في الأَرْضِ مثْلُ القَحْطِ ونَقْصِ الثِّمارِ، وَفِي الأَنْفُسِ مثْلُ الأَمْراضِ والثُّكْلِ بالأَولادِ، وَالْكِتَابُ: اللَّوحُ المَحْفُوظُ ﴿مِنْ قَبلِ أَنْ نَّبْرَأَهَآ﴾ الضَّميرُ للأَنْفُسِ أو المُصيبةِ ﴿إِنَّ﴾ تَقدِيرَ ﴿ذٰلِكَ﴾ وإثباتَهُ في كِتَابٍ ﴿عَلَى ٱللهِ يَسِيرٌ﴾ هَيِّنٌ.

ثمَّ عَلَّلَ ذلكَ وبيَّنَ وَجْهَ الحِكْمَةِ فيهِ بقَولِهِ: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ من نِّعَمِ الدُّنْيا ﴿وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَـٰكُم﴾ ٱللهُ عزَّ ٱسمُهُ مِنها. والمَعْنىٰ: أَنَّكُم إذا عَلِمْتُم أنَّ كُلَّ شيءٍ مُقدَّرٌ مكتُوبٌ عند ٱللهِ قَلَّ حُزْنُكُم عَلَى الفائِتِ وفَرَحُكُم على الآتِي، وكَذَا إذا عَلِمْتُم أنَّ شيئاً مِنها لا يَبقَىٰ لَمْ تَهتَمُّوا لأَجْلِهِ وٱهتَمَمْتُم لأُمورِ الآخرةِ الَّتي تَدُومُ

ولا تبيدُ ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ لأنَّ مَن فَرِحَ بشَيْءٍ من زَخارفِ الدُّنْيا وَعَظُمَ قَدْرُهُ عنْدَهُ اختالَ وٱفتخَرَ بهِ وتكَبَّرَ على النَّاس. وقُرِئَ: «بِمَآءَاتَكُم» و«أَتَاكُم»[1] من الإِيْتاءِ والإِتْيانِ.

﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾ بَدَلٌ من قولِهِ: ﴿كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾، كأنَّهُ قَالَ: لا يُحِبُّ الَّذينَ يَبْخَلُونَ ويَحمِلُونَ النَّاسَ علَى البُخْلِ يُرغِّبُونَهُم فيهِ، وذلكَ كُلُّهُ نَتيجَةُ فَرَحِهِم بزينَةِ الدُّنْيا ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ عن أَوامِرِ ٱللهِ ونَواهِيهِ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ﴾ عَنْهُ وعَنْ طاعَتِهِ ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ في جَميعِ أَفْعالِهِ، وقُرِئَ: «فإنَّ ٱللهَ الغَنِيُّ»[2].

﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بالدَّلائِلِ والمُعْجِزَاتِ، و ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: الوَحْيُ وما يَحْتَاجُ الخَلْقُ إليهِ من الحَلَالِ والحَرَامِ ﴿وَٱلْمِيزَانَ﴾: العَدْلُ، وقيلَ: هو المِيزَانُ ذُو الكِفَّتَيْنِ[3] ورُوِيَ: أَنَّ جبرائيلَ عليه السلام نَزَلَ بالمِيزَانِ فَدَفَعَهُ إِلىٰ نُوحٍ وقَالَ: مُرْ قَوْمَكَ يَزِنُوا بِهِ[4].

﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ﴾ أي: خَلَقْنَاهُ وأَنْشأْنَاهُ كَقَوْلِهِ: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾[5]، وذلكَ أَنَّ أَوامِرَهُ تَنْزِلُ من السَّماءِ إِلَى الأَرضِ وأَحْكَامَهُ.

وعن النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم: «أنَّ ٱللهَ عزَّوجلَّ أَنْزَلَ أَرْبعَ بَرَكَاتٍ من السَّماءِ إِلَى الأَرْضِ: أَنْزَلَ الحَدِيدَ والنَّارَ والماءَ والمِلْحَ»[6].

﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ وهو القِتَالُ بهِ ﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ في مَعَائِشِهِم

---

(١) قرأه أبو عمرو. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٦٢٦.

(٢) أي بحذف «هو» وهي قراءة نافع وابن عامر، وكذلك هي في مصاحف أهل المدينة والشام. راجع المصدر السابق: ص ٦٢٧.

(٣) وهو قول الشيخ الطوسي في التبيان: ج ٩ ص ٥٣٤.

(٤) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٤٨٠ مرسلًا.

(٥) الزمر: ٦.

(٦) رواه البغوي في تفسيره: ج ٤ ص ٢٩٩ بسندٍ الى ابن عمر يرفعه.

وَصَنَائِعِهِم[١]، فَمَا من صناعَةٍ إلّا والحَـديدُ آلةٌ فـيهَا ﴿وَلِـيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَـن يَـنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ﴾ باستِعْمَالِ السُّيُوفِ وسَائِرِ الأَسْلِحَةِ في مُجَاهَدَةِ أَعْداءِ الدِّينِ ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ غَائِباً عَنْهم، عَنِ ٱبنِ عبَّاسٍ: يَنْصُرُونَه ولا يُبْصِرُونَه[٢]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ﴾ بِـقُدْرَتِهِ ﴿عَزِيزٌ﴾ يُهلِكُ مَنْ أَرادَ هَلَاكَهُ، فَهُو غَنِيٌّ عَنْ خَلْقِهِ، وإنَّما كَلَّفَهُم الجِـهَادَ لِـيَصِلُوا بامتِثَالِ أَمْرِهِ إلَى الثَّوابِ.

خَصَّ سبحانَهُ نُوحاً وإبراهيمَ بالذِّكْر لأنَّـهما أَبَـوَا الأَنْـبياءِ. ﴿وَٱلْكِتَـٰبَ﴾: الوَحْيُ، وعنِ ٱبنِ عبَّاسٍ: الخَطُّ بالقَلَمِ[٣] ﴿فَمِنْهُم﴾ فَمِن الذُّرِّيَّةِ، أو: مِنَ المُرْسَلِ إليهِم، وَدَلَّ عليهِ ذِكْرُ الإِرْسَالِ والمُرْسَلِينَ، أي: فَمِنْهُم ﴿مُّـهْتَدٍ﴾ وَمِـنْهُمْ فَـاسِقٌ، والغَلَبَةُ للفُسَّاقِ.

وقُرِئَ: «رآفة»[٤] والمَعْنىٰ: وَفَّقْنَاهُم للتَّعاطفِ والتَّراحُمِ بَـيْنَهُم، وَالرَّهْـبَانِيَّةُ: تَرَهُّبُهُم في الجِبَالِ والصَّوامِعِ، وٱنْفِرادُهُم عن الجَمَاعةِ للعبَادَةِ، ومَـعْنَاهَا: الفَـعْلَةُ المَنْسُوبَةُ إِلَى الرُّهْبانِ وهو الخَائِفُ، فَعْلَانَ مِن رَهِبَ، أي خَـافَ، كَـخَشْيَان مـن خَشِيَ، وٱنـتِصَابُها بِـفِعْلٍ مـضْمَرٍ يُـفسِّرُهُ الظَّـاهِرُ، والتَّـقْديرُ: ٱبـتَدَعُوا رَهْـبَانِيَّةً ﴿ٱبْتَدَعُوهَا﴾ أي: وأَحْدَثُوها من عنْد أَنْفسِهِم وَنَذرُوها ﴿مَا كَتَبْنَـٰهَا عَـلَيْهِمْ﴾ لَـمْ نَفْرضْها نَحْنُ عَلَيْهم ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ استثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ، أي: ولكنَّهم ٱبتدَعُوهَا ﴿ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ كَمَا يَجِبُ علَى النَّاذِرِ رعَايَةُ نَذْرِهِ لأنَّه عَهْدٌ مع ٱللهِ لا يَحِلُّ نَكْثُهُ. ﴿فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنْهُمْ﴾ بعيسىٰ، وَهُـمْ أَهـلُ

---

(١) في نسخة: «ومنافعهم».

(٢) حكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٤٨١.

(٣) حكاه عنه الزمخشري أيضاً في الكشّاف.

(٤) علىٰ زنة «فعالة» بإبدال الهمزة ألفاً وهي قراءة أبي عمرو والأعشىٰ. راجع كتاب التـذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٥٦٥.

الرأفَةِ والرَّحْمَةِ ﴿أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَـٰسِقُونَ﴾ لَمْ يُحافِظُوا علىٰ نذْرِهِم، وقِيلَ: مَعْنَاهُ: فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِها إِذْ لَمْ يؤْمِنُوا بنبيِّنا ﷺ حينَ بُعِثَ[1]، فآتينا الَّذِينَ آمنُوا بِهِ منْهُم أَجْرَهُم وكَثيرٌ منْهُم فاسِقُون أي: كافِرُونَ.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٢٨) لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ(٢٩)﴾

﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بمُوسىٰ وعيسىٰ ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ﴾ أي: بمحمّدٍ ﷺ ﴿يُؤْتِكُمْ﴾ ٱللهُ ﴿كِفْلَيْنِ﴾ نَصِيبَيْنِ ﴿مِنْ رَّحْمَتِه﴾ لإيمانِكُم بمحمّدٍ ﷺ وبِمَنْ تَقَدَّمَهُ من الأنْبياءِ ﴿وَيَجْعَلْ لَّكُمْ﴾ يوْمَ القيامَةِ ﴿نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ ما أَسْلَفْتُمُوهُ من المَعَاصِي.

﴿لِئَلَّا يَعْلَم﴾: «لا» مزيدَةٌ أي: لأَنْ يَعْلَمَ أو: لِيَعْلَمَ ﴿أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ الَّذينَ لَمْ يؤْمنُوا بمحمّدٍ ﷺ ﴿أَنْ لَا يَقْدِرُونَ﴾: «أنْ» مخفَّفَةٌ من الثَّقيلةِ، وأَصْلُهُ: أَنَّـهُ لا يَقْدِرُونَ، والضَّميرُ للشَّأْنِ ﴿عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللهِ﴾ أي: لا يَنالُونَ شيئاً ممَّا ذُكِرَ من فَضْلِهِ من الكِفْلَيْنِ والنُّورِ والمَغْفِرَةِ، لأَنَّهم لَمْ يؤْمنُوا بالنبيِّ ﷺ فلَمْ يَنْفَعْهُم إيْمانُهُم بِمَنْ تَقَدَّمَهُ من الأَنْبياءِ، وقيلَ: إنَّ ﴿لَا﴾ لَيْسَتْ بزَائِدَةٍ، والمعنىٰ: لِئَلَّا يَعْلَمَ اليَهُودُ أَنَّ النبيَّ والمؤْمنينَ لا يَقْدِرُونَ علىٰ شيءٍ مِنْ فَضْلِ ٱللهِ[2]، أي: يَعْلَمُونَ أَنَّهم يَقْدِرُونَ عليهِ ولَمْ يَعْلَمُوا خِلَافَهُ، والضَّميرُ في ﴿يَقْدِرُونَ﴾ للنبيِّ والمؤْمنين.

✡ ✡ ✡

---

(١) قاله ابن عباس والضحاك. راجع تفسير الطبري: ج ١١ ص ٦٩١ و ٦٩٢.

(٢) قاله الزجّاج في معاني القرآن: ج ٥ ص ١٣١.

سُورَةُ المُجَادلَةِ

مدنيَّةٌ[1] اثْنتَانِ وعشْرُونَ آيةً.

في حَديثِ أُبيٍّ: «وَمَنْ قَرأَ سُورةَ المُجَادِلَةِ كُتِبَ من حِزْبِ ٱللهِ يَوْمِ القِيَامةِ» الخبر[2].

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ(١) ٱلَّذِينَ يُظَـٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَـٰتِهِمْ إِنْ أُمَّهَـٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّـٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ(٢) وَٱلَّذِينَ يُظَـٰهِرُونَ مِن

---

(١) قال الشيخ الطوسي في التبيان: ج ٩ ص ٥٣٩: مدنيَّة بلاخلاف، وهي اثنا وعشرون آيةً في الكوفي والبصري والمدني الأول، وإحدىٰ وعشرون في المدني الأخير.

وفي الكشّاف: ج ٤ ص ٤٨٤: مدنيّة وآياتها(٢٢) نزلت بعد «المنافقون».

وفي تفسير القرطبي: ج ١٧ ص ٢٦٩: مدنيّة في قول الجميع إلّا رواية عن عطاء: أنّ العشر الأُول منها مدني وباقيها مكي، وقال الكلبي: نزل جميعها بالمدينة غير قوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَجْوَى ثَلاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ نزلت بمكّة.

(٢) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٤٩٧ مرسلاً وقد تقدّم حديث الصادق عليه السلام في سورة الحديد المباركة، فراجع.

نِّسَآبِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ(٣) فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ(٤) إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ(٥)﴾

نَزَلَتْ في خَوْلَةَ بِنْتِ ثَعْلَبَةَ ٱمرأةِ أَوْسِ بنِ الصَّامِتْ أَخي عَبادَةَ، رآها ساجِدَةً، فلمَّا ٱنصرَفَتْ من صَلَاتِها رَاوَدَها فأَبَتْ، فَغَضِبَ، وكانَ بِهِ خُفَّةٌ وَلَمَمٌ[١]، فَظَاهرَ مِنْها، فَأَتَتْ رسُولَ ٱللهِ ﷺ وقَالَتْ: إنَّ أَوْساً تزوَّجَني وأَنا شَابَّةٌ مَرْغُوبٌ فِيَّ، فَلَمَّا خَلَا سِنِّي وَنَثَرَتْ بَطْني ـ أي: كَثُرَ وُلْدِي ـ جَعَلَني عليهِ كَأُمِّهِ، فَقَالَ عليه وآله السلام: ما أَرَاكِ إلَّا حَرُمْتِ عليهِ، فَقَالَتْ: يا رسول الله ما ذَكَرَ طَلَاقاً، وإنَّه أَبُو وُلْدِي، وجَعَلَتْ تَقُولُ: أَشْكُو إِلَى ٱللهِ فَاقَتي وشِدَّةَ حَالِي، فَنَزَلَتْ[٢]: ﴿قَولَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ﴾ أي: تُراجِعُكَ الكلامَ في أَمْرِ ﴿زَوْجِهَا﴾ وشَأْنِهِ، تُظْهِرُ شَكْواها وما بهَا من المكْرُوهِ ﴿إِلَى ٱللهِ وَٱللهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾ تخاطُبَكُما.

وقُرِئَ: «يَظَّاهرُونَ»[٣] و «يَظَّهَّرُون»[٤] وأَصْلُهُما: يَتَظَاهرُون ويَتَظَهَّرُونَ، وقُرِئَ: ﴿يُظَٰهِرُونَ﴾ من المُظَاهَرَةِ والظِّهَارِ ﴿مِنكُمْ﴾ فيهِ تَوبيخٌ للعَرَبِ، إذْ كانَ الظِّهَارُ من أَيْمانِهِم، والمَعنىٰ: إنَّ مَنْ يقُولُ لامرأَتِهِ: أَنْتِ عَلَيَّ كَظَهْرِ أُمِّي، مُلْحِقٌ في كَلَامِهِ هذا ٱمرأَتَهُ بأُمِّهِ وَجَاعِلُها مِثْلَها. وهذا تَشْبيهٌ بَاطِلٌ لِتَبَاينِ الحَالَيْنِ.

---

(١) اللَمَمُ: المتقارِبُ من الذُنوبِ، واللَمَمُ أيضاً: طرفٌ من الجنون. (الصحاح).
(٢) أسباب النزول للواحدي: ص ٣٤٧.
(٣) قرأه ابن عامر وحمزة والكسائي. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٦٢٨.
(٤) وهي قراءة ابن كثير ونافع وأبي عمرو. راجع المصدر السابق.

﴿إنْ أُمَّهَـٰتُهُمْ﴾ أي: ما أمَّهَاتُهم علَى الحَقيقَةِ ﴿إِلَّا ٱلَّـٰٓئِى وَلَـدْنَهُم﴾ وَغَيْرُهُنَّ مُلْحَقَاتٌ بِهِنَّ لِدُخُولِهِنَّ في حُكْمِهِنَّ، فالمُرْضِعَاتُ دَخَلْنَ بالرَّضَاعِ في حُكْمِ الأُمَّهاتِ، وكذلك أَزْوَاجُ رَسُولِ ٱللهِ ﷺ أُمَّهَاتُ المؤْمنينَ، لأنَّ ٱللهَ تعالىٰ حَرَّمَ نكَاحَهُنَّ علَى الأُمَّةِ، فَدَخَلْنَ بذلك في حُكْمِ الأُمَّهاتِ. وأَمَّا الزَّوجَاتُ فأَبْعَدُ شَيْءٍ من الأُمُومةِ، لأنَّهنَّ لَسْنَ بأُمَّهاتٍ علَى الحقيقةِ، ولاَ بِدَاخِلاتٍ فِي حُكْمِ الأُمَّهاتِ، فكانَ قَولُ المُظَاهِرِ ﴿مُنكَراً مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ تَنْكُرُهُ الحَقيقةُ وتَنْكُرُهُ الأَحكَامُ الشَّرعيَّةُ، ﴿وَزُوراً﴾ وَكَذِباً بَاطِلًا منْحَرِفاً عن الحقِّ ﴿وَإِنَّ ٱللهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ لِمَا سَلَفَ منْهُ إذا تِيبَ منْه.

﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ﴾ فيهِ وجُوهٌ: أَحَدُها: أنَّ المُرادَ: والَّذين كانُوا يقُولُونَ هذا القَوْلَ المنكَرَ فَتَركُوهُ بالإِسلامِ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمِثْلِهِ، فَكَفَّارَةُ مَنْ عَادَ أَنْ يُحَرِّرَ رَقَبَةً ـ أي: يُعْتِقَها ـ ثُمَّ يُمَاسُّ ٱمرأَتَهُ الَّتي ظَاهَرَ منْها، لا يَحِلُّ لَهُ مَمَاسَّتَها إلَّا بَعْدَ تَقْديمِ الكَفَّارَةِ. وَثَانِيها: أنَّ المعنىٰ: ثُمَّ يَتداركُونَ ما قَالُوا، لأنَّ المُتَدَارِكَ للأَمْرِ عَائِدٌ إليهِ، ومنْهُ المَثَلُ: «عادَ غَيْثٌ علىٰ ما أَفْسَدَ» أي: تَدَارَكَهُ بالإِصْلاحِ. ومَعْنَاهُ: أَنَّ تَدَارُكَ هذا القَوْلِ وتَلَافِيَهُ بأَن يُكَفِّر حتَّىٰ يَرْجعَ حَالُهما كَمَا كانَتْ قَبْلَ الظِّهَارِ. وَثَالِثُها: أَن يكُونَ المُرادُ بِمَا قَالُوا: ما حَرَّمُوهُ علىٰ أَنْفُسِهِم بِلَفْظِ الظِّهَارِ تَنْزِيلًا للمَقُولِ مَنْزِلَةَ المَقُولِ فيهِ، نَحْوُ ما ذُكِرَ في قَولِهِ تَعالىٰ: ﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ﴾ (١)، ومَعنَاهُ: ثُمَّ يُرِيدُونَ العَوْدَ للتَّمَاسِّ، وهو الاستِمْتَاعُ بهَا من جِمَاعٍ أَو لَمسٍ بشَهْوَةٍ ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الحُكْمُ ﴿تُوعَظُونَ بِهِ﴾ لأنَّ الحُكْمَ بالكَفَّارَةِ دَليلٌ علىٰ ركُوبِ الإِثْمِ والجنَايَةِ، فَيَنْبَغي أَن يَتَّعِظُوا بهذا الحُكْمِ حتَّىٰ لا يَعُودُوا إِلَى الظِّهَارِ.

---

(١) مريم: ٨٠.

﴿فَمَنْ لَّمْ يَجِدْ﴾ الرَّقَبَةَ فَعَلَيْهِ ﴿صِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا﴾ فإن صَامَ بعضَ الشَّهْرَيْنَ ثمَّ وَجدَ الرَّقَبةَ لا يَلْزَمُهُ الرُّجُوعُ إليها، وإنْ رَجَعَ كانَ أَفْضَلَ ﴿فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ﴾ الصَّوْمَ لِعِلَّةٍ أَوْ كِبَرٍ فَعَلَيْهِ ﴿إِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً﴾ لكُلِّ مسْكين نِصْفُ صَاعٍ، فإنْ لَمْ يَقْدِرْ فَمُدٌّ ﴿ذٰلِكَ﴾ البَيَانُ والتَّعْليمُ للأَحكَامِ ﴿لِتُؤْمِنُواْ بِاللهِ وَرَسُولِهِ﴾ في العَمَلِ بشَرَائِعِهِ ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللهِ﴾ الّتي لا يَجُوزُ تَعَدِّيها ﴿وَلِلْكَـٰفِرِينَ﴾ المُتَعَدِّينَ حُدودَ ٱللهِ ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿يُحَادُّونَ﴾ يُعَادُونَ ويُشَاقُّونَ ﴿كُبِتُواْ﴾ أي: أُذِلُّوا وأُخْزُوا كَمَا أُخْزِيَ الَّذينَ مِنْ قَبْلِهِم مِنْ أَعْداءِ الرُّسُل.

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ(٦) أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ(٧) أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُواْ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ(٨) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ(٩) إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ(١٠)﴾

﴿يَوْمَ﴾ نُصِبَ بـ﴿مُهِينٌ﴾ أو بـ«لَهُم»[١]، أي: يَبْعَثُهُم ٱللهُ كُلَّهُمْ، لا يَتْرُكُ مِنْهُم أَحَداً غَيْرَ مبْعُوثٍ، أو: مجتَمِعينَ في حَالَةٍ واحِدَةٍ كَمَا يُقَالُ: حيٌّ جَمِيعٌ. ﴿فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوٓاْ﴾ تَوْبيخاً لَهُم وتَخْجيلاً علىٰ رُؤُوسِ الأشهادِ ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللهُ﴾ عَلَيْهِم وأَثْبَتَهُ في كِتَابِ أَعْمالِهِم، ﴿وَنَسُوهُ﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ٱستِفْهَامٌ مَعْنَاهُ: التَّقريرُ ﴿مَا يَكُونُ﴾ قُرِئَ بالتَّاءِ[٢] والياءِ وهي «كانَ» التَّامَّةُ، و ﴿مِنْ﴾ مَزيدَةٌ، والنَّجْوىٰ: التَّناجِي، وهو مُضَافٌ إلىٰ ﴿ثَلَٰثَةٍ﴾ أي: مِنْ نَجْوىٰ ثَلاثَةِ نَفَرٍ، أو: موصُوفٍ بـ﴿ثَلَٰثَةٍ﴾ أي: مِن أَهْلِ نَجْوى ثَلاثَةٍ، فَحُذِفَ «أهل» وَذَكَرَ عزَّ ٱسمُهُ «الثَّلاثَةَ» و «الخَمْسَةَ»، وقَالَ: ﴿وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ﴾ فَدَلَّ علَى الاثْنَيْنِ والأَربَعَةِ، وقَالَ: ﴿وَلَا أَكْثَرَ﴾ فَدَلَّ علىٰ ما يَلِي هذا العَدَد ويُقَارِبُهُ. وقُرِئَ: ﴿وَلَا أَكْثَرَ﴾ بالنَّصْبِ لِيَدُلَّ علىٰ أنَّ «لا» لِنَفْيِ الجِنْسِ، ويَجُوزُ أَن يكُونَ «ولَا أكْثَرُ» مرفُوعاً[٣] معطُوفاً علىٰ مَحَلِّ ﴿لَا﴾ مَعَ ﴿أَدْنَىٰ﴾ كَمَا يُقَالُ: «لا حَوْلَ ولَا قوَّةٌ إلَّا باللهِ» بفَتْحِ الأوَّلِ ورَفْعِ الثَّاني، ويَجُوزُ أَن يكُونا مرفُوعَيْنِ علَى الابتداءِ، أو: عَطْفاً علىٰ مَحَلِّ ﴿مِن نَّجْوَىٰ﴾، ومعنىٰ كَونِهِ ﴿مَعَهُمْ﴾: أَنَّهُم يَتَنَاجَوْنَ وهو يَعْلَمُ نَجْواهُم لا يَخْفىٰ عليهِ شَيْءٌ منْها، فكأَنَّه يُشَاهِدُهُم.

و ﴿ٱلَّذِينَ نُهُواْ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ﴾ اليَهُودُ والمُنافقُونَ، كانُوا يَتَنَاجَوْنَ فيما بَيْنَهم ويَنْظُرُونَ إِلَى المؤْمنينَ ويَتَغامَزُونَ بأَعْيُنِهِم، فكانَ ذلك يُحْزِنُ المؤْمنينَ، فَنَهاهُم رسُولُ ٱللهِ ﷺ عن ذلك، فَعَادُوا لِمِثْلِ فِعْلِهِم، وكانَ تَنَاجِيهِم بِمَا هو إثْمٌ وَعُدْوَانٌ للمؤْمنينَ، وتَواصٍ بِمَعْصِيَةِ النبيِّ ﷺ ومخَالَفَتِهِ، وقُرِئَ: «ويَنْتَجُون»[٤]

---

(١) بتقدير: استقرَّ لهم العذاب المهين في ذلك اليوم وهو يوم البعث.

(٢) هي قراءة أبي جعفر المدني. راجع التبيان: ج ٩ ص ٥٤٦.

(٣) كذا قرأها يعقوب. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٧١٥.

(٤) قرأه حمزة ورويس. راجع المصدر السابق.

«فَلا تَنْتَجُوا»[١] من الانْتِجَاءِ، افْتِعَالٌ من «النَّجْوىٰ».

﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾ يَقُولُونَ في تَحيَّتِكَ: «السَّامُ عليك» والسَّامُ: المَوتُ، وٱللهُ تعالىٰ يَقُولُ[٢]: ﴿وسَلامٌ علىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰ﴾[٣].

﴿وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنْفُسِهِمْ﴾: لَوْ كانَ نَبيّاً فَهَلَّا ﴿يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ فَقالَ ٱللهُ سبحانَهُ: ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ﴾ عَذَاباً ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ يَوْمَ القِيامَةِ ﴿فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ والمَآلُ.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ بِأَلْسِنَتِهِم إنْ كانَ الخِطَابُ للمُنافقينَ، وإنْ كانَ للمؤمنينَ فَالمُرادُ: ﴿إِذَا تَنَـٰجَيْتُمْ﴾ فَلَا تَتَشَبَّهُوا بِأُولٰئِكَ في تَنَاجِيهِم بِالشَّرِّ ﴿وَتَنَـٰجَوْا بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾.

وفي الحَديثِ: «إذا كُنْتُم ثَلَاثَةً فَلَا يَتَنَاجَ اثْنَانِ دُونَ صَاحِبِهِما، فَإِنَّ ذلك يحْزِنُهُ»[٤]. ورُوِيَ: «دُون الثَّالثِ»[٥].

﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ﴾ اللَّامُ إشَارَةٌ إلىٰ النَّجوىٰ بالإِثْمِ والعُدْوَانِ بدليلِ قَولِهِ: ﴿لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ والمَعْنىٰ: أَنَّ الشَّيطانَ يُزَيِّنُها لَهُم فَكَأَنَّها مِنْهُ لِيغِيظَ الَّذين آمنوا وَيحْزِنَهُم ﴿وَلَيْسَ﴾ الشَّيطانُ أَو الحزنُ ﴿بِضَآرِّهِمْ شَيْئاً إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي: بِمَشيئَةِ ٱللهِ، وهو أَن يَقْضي المَوْتُ علىٰ أَقَارِبِهِم كَمَا كانُوا يُوهِّمُونَ المؤمنينَ ذلك إذا تَنَاجَوا، وقرئ: «لِيُحزِنَ»[٦] من: أَحْزَنَهُ.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَـٰلِسِ فَافْسَحُواْ

---

(١) هي قراءة رويس وحده. راجع المصدر نفسه.

(٢) في نسخة بدل «والله تعالى يقول»: «وتحيّة الله تعالىٰ».

(٣) النمل: ٥٩.

(٤) رواه مسلم في الصحيح: ج ٤ ص ١٧١٨ ح ٢١٨٤ وما بعده عن ابن مسعود.

(٥) وهو ما رواه البخاري في الصحيح: ج ٨ ص ١١٧ ح ٦٢٩٠ من طريقه الى ابن مسعود، وفي ح ٦٢٨٨ بلفظ «اذا كانوا» عن ابن عمر.

(٦) وهي قراءة نافع على ما في تفسير السمرقندي: ج ٣ ص ٣٣٦.

يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟ فَٱنشُزُوا۟ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ(١١) يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَـٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(١٢) ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَـٰتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ(١٣) أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ(١٤) أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ(١٥) ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ(١٦) لَّن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ(١٧)﴾

﴿تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَـٰلِسِ﴾ تَوَسَّعُوا فيهِ، وَلْيَفْسَحْ بَعْضُكُم عن بعضٍ، من قَولِهِم: افْسَحْ عَنِّي أي: تَنَحَّ، ولا تَتَضَامُّوا. وهو مَجْلِسُ النبيِّ ﷺ كانُوا يَتَضامُّونَ فيهِ حِرْصاً على القُرْبِ منْهُ لِيَسْتَمِعوا منْهُ كَـلَامَهُ، وقُـرِئَ: ﴿فِـى ٱلْـمَجَـٰلِسِ﴾ عـلى الجَمْعِ [1] وقيلَ: هو المَجْلِسُ من مَجَالِسِ القِتالِ، وهي مَراكِزُ الغُزاةِ كَقَولِهِ: ﴿مَقَـٰعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ [2] وكانَ الرَّجُلُ يأْتِي الصَّفَّ فيقُولُ: تَـفَسَّحُوا فَـيأْبَوْنَ لِـحِرْصِهِم عـلَى الشَّهادةِ [3] وقَولُهُ: ﴿يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ مطْلَقٌ في كلِّ ما يَطْلُبُ الفُسْـحَةَ فـيهِ مـن الرِّزْقِ والمَكَانِ والقَبْرِ وغَـيْرِ ذلك ﴿وَإِذَا قِـيلَ ٱنشُـزُوا۟﴾ انْـهَضُوا عـن مَـجْلِسِ

(١) الظاهر أنّ المصنّف رحمه‌الله قد اعتمد هنا ـ تبعاً للكشّاف ـ علىٰ قراءة المفرد، وهي قراءة الجمهور إلّا عاصماً. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٦٢٨.

(٢) آل عمران: ١٢١.

(٣) قاله الحسن البصري في تفسيره: ج ٢ ص ٣٤٠.

النبيِّ ﷺ أو: انهَضُوا إلى الصَّلاةِ والجِهَادِ وأعْمالِ البرِّ ﴿فَانشُزُواْ﴾ قُرِئَ بِضَمِّ الشِّينِ وكَسْرِها[١] ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ﴾ المؤمنينَ بامتِثَالِ أَوامرِهِ وأَوَامرِ رَسُولِهِ والعَالِمِينَ مِنْهُم خَاصَّةً ﴿دَرَجَـٰتٍ﴾ وكانَ عَبْدُ ٱللهِ بنُ مَسْعُودٍ إذَا قَرَأَها قَالَ: يا أَيُّها النَّاسُ افْهَمُوا هٰذِهِ الآيَةَ، وَلْتُرَغِّبْكُم في العِلْمِ[٢].

وعنِ النَّبيِّ ﷺ: «بين العَالِمِ والعَابِدِ مائَةُ دَرجَةٍ، بيْنَ كلِّ دَرَجَتَيْنِ حَضْرُ الجَوادِ المُضْمَرِ سَبْعِينَ سَنَة»[٣].

وعنهُ عليه السلام: «فَضْلُ العَالِمِ علَى العَابِدِ كَفَضْلِ القَمَرِ لَيْلَة البَدْرِ علىٰ سَائِرِ الكَوَاكِب»[٤].

وعنهُ عليه السلام: «يَشْفَعُ يَوْم القيامةِ ثَلاثَةٌ: الأَنبياءُ ثمَّ العُلَمَاءُ ثمَّ الشُّهَدَاءُ»[٥] فَأَعْظِمْ بمَرْتَبةٍ هي وَاسِطَةٌ بيْنَ النُبوَّةِ والشَّهادةِ بشَهادَةِ رَسُول ٱللهِ ﷺ.

وعَنِ الزُّهرِيِّ: العِلْمُ ذَكَرٌ فَلَا يُحِبُّهُ إلَّا الذُّكُورةُ مِنَ الرِّجَالِ[٦].

ورُوِيَ: أنَّ النَّاسَ أَكْثَرُوا مُناجَاةَ النبيِّ ﷺ حتَّىٰ أَمَلُّوهُ، فَأُمِرُوا بالصَّدَقَةِ قَبْلَ المُنَاجَاةِ، فَلَمَّا رَأَوْا ذلكَ انْتَهَوْا عن مناجَاتِهِ، فَلَمْ يُنَاجِهِ إلَّا عَليٌّ عليه السلام قَدَّمَ دِيناراً فَتَصَدَّقَ بِهِ، ثمَّ نَزَلَتْ آيةُ الرُّخْصَةِ[٧].

---

(١) وبالكسر قرأه ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٦٢٩.

(٢) حكاه عنه البغوي في تفسيره: ج ٤ ص ٣٠٩ ـ ٣١٠.

(٣) أخرجه ابن عبد البرّ في جامع بيان العلم وفضله: ج ١ ص ٢٧.

(٤) أخرجه الترمذي في السنن: ج ٥ ص ٤٨ ـ ٤٩ ضمن ح ٢٦٨٢ عن أبي الدرداء.

(٥) أخرجه ابن ماجة في السنن: ج ٢ ص ١٤٤٣ ح ٤٣١٣ عن عثمان بن عفّان.

(٦) حكاه عنه ابن عبدالبرّ في جامع بيان العلم وفضله: ج ١ ص ٢٥.

(٧) رواه الطبري في تفسيره: ج ١٢ ص ٢١ قريباً منه، من طرق عن علي عليه السلام وابن عباس ومجاهد.

وعَنْ عليٍّ عليه السلام: إنَّ في كتابِ ٱللهِ لآية ما عَملَ بها أَحَدٌ قَبْلي ولا يَعْمَلُ بها أَحَدٌ بَعْدِي، كانَ لي دينارٌ فَصَرَفْتُهُ، فكُنْتُ إذا نَاجَيْتُهُ تَصَدَّقْتُ بِدِرْهمٍ[(١)]. قال الكَلْبيُّ: تَصَدَّقَ في عَشْرِ كَلِمَاتٍ سَأَلَهُنَّ رَسُولَ ٱللهِ صلى الله عليه وآله وسلم[(٢)].

وعن ٱبنِ عُمَرَ: كانَ لِعَليٍّ عليه السلام ثَلَاثٌ لَوْ كانَتْ لي واحِدَةٌ منْهُنَّ أَحَبُّ إِليَّ من حُمْرِ النَّعَمِ: تَزويجُهُ فَاطِمَةَ عليها السلام، وإِعْطَاؤُهُ الرَّايةَ يَوْمَ خَيْبَرَ، وآيةُ النَّجْوى[(٣)].

﴿ذٰلِكَ﴾ التَّقْديمُ ﴿خَيْرٌ لَكُمْ﴾ في دينِكُم ﴿وَأَطْهَرُ﴾ لأنَّ الصَّدَقَةَ تَطْهيرٌ. وعنِ ٱبنِ عبَّاسٍ: هي منْسُوخَةٌ بالآيةِ الَّتي بَعْدَها[(٤)]. ﴿ءَأَشْفَقْتُم﴾ أَخِفْتُمْ تَقْديمَ الصَّدَقَاتِ لِمَا فيهِ من الإِنْفَاقِ الَّذي يَعِدُكم الشَّيطانُ بِهِ الْفَقْرَ والعِيلَةَ. ﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ﴾ ما أُمِرْتُم بِهِ وَشَقَّ عَلَيكُم ﴿وَتَابَ ٱللهُ عَلَيْكُمْ﴾ تَقْصِيرَكُم وتَفْريطَكُم فيهِ ﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ فَلَا تفرِّطُوا في الصَّلاةِ والزَّكَاةِ وسَائِرِ الطَّاعَاتِ ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ قُرِئَ بالتَّاءِ والياءِ في المَوْضِعَينِ[(٥)].

كانُوا يَتَوَلَّوْنَ اليَهُودَ وَهُم ﴿ٱلَّذِينَ غَضِبَ ٱللهُ عَلَيْهِم﴾ في قَولِهِ: ﴿مَنْ لَعَنَهُ ٱللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾[(٦)] ويُنَاصِحُونَهُم ﴿مَا هُمْ مِنْكُمْ﴾ يا مُسلِمُونَ ﴿وَلَا مِنْهُمْ﴾ ولا مِنَ اليَهُودَ كقَولِهِ: ﴿مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذٰلِكَ﴾[(٧)]، ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ﴾ أي: يَقُولُونَ:

---

(١) أخرجه في المستدرك على الصحيحين: ج ٢ ص ٤٨٢، وفي أرجح المطالب: ص ٨٠، والطبري في تفسيره: ج ١٢ ص ٢٠.

(٢) حكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٤٩٤.

(٣) أخرجه ابن الجوزي في التذكرة: ص ٢١، وفي مرآة المؤمنين: ص ٦١، وفي منال الطالب: ص ١٢٤ مخطوط.

(٤) حكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٤٩٤، وفي تفسير الطبري: ج ١٢ ص ٢١ عن عكرمة مولى ابن عباس والحسن البصري أنّهما قالا ذلك.

(٥) أي في الآية: ١١ و ١٣. وبالياء هي قراءة أبي عمرو برواية عباس عنه. راجع شواذ القرآن لابن خالويه: ص ١٥٤.

(٦) المائدة: ٦٠.

(٧) النساء: ١٤٣.

واللهِ إنّا مُسلِمُونَ ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنَّ المَحْلُوفَ عليهِ كذِبٌ. ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ﴾ الَّتي حلَفُوا بِهَا ﴿جُنَّةً﴾ أي: سُتْرةً يَدْفعُونَ بها عن نُفُوسِهِم الظِّنَّة إذا ظَهَرَتْ منْهُم.

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ(١٨) اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ(١٩) إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ(٢٠) كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ(٢١) لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ(٢٢)﴾

أي: ﴿فَيَحْلِفُونَ﴾ للهِ تَعالىٰ في الآخِرَةِ بأنَّهم كانُوا مؤْمنينَ في الدُّنْيا ﴿كَمَا يَحْلِفُونَ﴾ اليَوْم ﴿لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ من النَّفْعِ. وعَنِ الحَسَنِ: في القِيامَةِ مَواطِن: فَمَوْطِنٌ يَعْرِفُونَ فيهِ قُبْحَ الكَذِبِ ضَرُورَةً فَيتْرُكُونَهُ، ومَوْطِنٌ يكُونُونَ فيهِ كالمَدْهوشِينَ فَيتَكلَّمُونَ بكَلامِ الصِّبْيانِ: الكَذِبِ وغَيْرِ الكَذِبِ[1].

﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ﴾ اسْتَولَىٰ عَلَيهِم، مِنْ: حَاذَ الحِمارُ العَانَةَ[2]: إذا جَمَعَها وسَاقَها غَالِباً عَلَيْها، وهو أَحَدُ ما جَاءَ عَلَى الأَصْلِ، ومِثْلُهُ: اسْتَصْوَبَ واسْتَنْوَقَ، أي: مَلَكَهُم الشَّيطانُ حتَّىٰ جعَلَهُم رَعِيَّتَهُ ﴿فَأَنْسَاهُمْ﴾ أَن يَذْكُروا ﴿الله﴾

(١) حكاه عنه الشيخ الطوسي في التبيان: ج ٩ ص ٥٥٤.
(٢) العانةُ: القطيع من حُمرُ الوحش، والجمع: عُونٌ. (الصحاح: مادة عون).

أَصْلًا لا بِقُلُوبِهِم ولا بِـأَلْسِنَتِهِم ﴿أُولَـٰئِكَ حِـزْبُ ٱلشَّـيْطَـٰنِ﴾ أي: جُـنْدُهُ. ﴿فِـى ٱلْأَذَلِّينَ﴾ أي: في جُمْلَةِ مَن هُو أَذَلُّ خَلقِ ٱللهِ.

﴿كَتَبَ ٱللَّهُ﴾ في اللَّوْحِ المَحْفُوظِ ﴿لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِىٓ﴾ بالحُجَجِ والسَّيفِ أَو بأَحَدِهِما. ﴿لَا تَجِدُ قَوْماً﴾ هو من بابِ التَّخْييلِ، خُيِّلَ أَنَّ مِنَ المُمْتَنعِ المُحَالِ أَن تَجِدَ قَوْماً مؤْمنينَ يُوَالُونَ مَنْ خَالَفَ ٱللهَ ورَسُولَهُ، والغَرَضُ بِهِ أَنَّـه لا يَـنْبغي أَن يكُونَ ذلك، وحَقُّهُ أَن يمتَنِعَ ولا يُوجَدَ بحَالٍ مُبالَغَةٍ في النَّهْي عنْهُ، ثمَّ أَكَّدَ ذلك بقَولِهِ: ﴿وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ﴾ وَزَادَهُ تأكيداً بقَولِهِ: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُـلُوبِهِم الإِيْـمَـٰنَ﴾ وقَابَلَ قَولَهُ: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَـٰنِ﴾ بقَولِهِ: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللهِ﴾ فَلَا شَيْءٌ أَدْخَلَ في الإِخْلاصِ من مُوالَاةِ أَولياءِ ٱللهِ ومُعَاداةِ أعداءِ ٱللهِ، بَلْ هو الإِخْلاصُ بِـعَيْنِهِ، ومَعْنىٰ ﴿كَتَبَ فِى قُلُوبِهِم ٱلْإِيمَـٰنَ﴾: أَثْبَتَهُ فِيهَا بِمَا وَفَّقَهُم فيهِ، وشَرَحَ صدُورَهُم لَهُ ﴿وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ بِلُطْفٍ مِنْ عنْدِهِ حَيِيَتْ به قُلُوبُهُم، وقيلَ: برُوحٍ من الإِيْمانِ لأَنَّ القُلُوبَ تَحْيا بهِ[1].

✡ ✡ ✡

(١) قاله السدِّي. راجع تفسير البغوي: ج ٤ ص ٣١٣.

سُورَةُ الحَشْر

مَدنيَّةٌ[1] وَهِيَ أَرْبَعٌ وعشْرونَ آيةً.

وفي حَديثِ أُبيٍّ: «مَنْ قَرَأَ سُورةَ الحَشْرِ لَمْ يَبْقَ جَنَّةٌ ولا نَارٌ ولا عَـرْشٌ ولا كُرسِيٌ ولا السَّمٰوات ولا الأَرضُونَ إلّا صَلُّوا عليهِ واْستَغْفَروا لَهُ»[2].

وعنِ الصَّادقِ عليه السلام: «مَنْ قَرَأَ إذَا أَمْسَىٰ الرَّحْمٰن والحَشْرَ وكَّلَ ٱللهُ بدَارِهِ مَلَكاً شَاهِراً سَيْفَهُ حتَّىٰ يُصْبحَ».

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَافِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَافِى ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (١)
هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن دِيَـٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ
مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَـٰهُمُ ٱللَّهُ

(١) قال الشيخ الطوسي في التبيان: ج ٩ ص ٥٥٨: مدنيّة بلاخلاف، وهي أربع وعشرون آيـةً بلاخلاف.

وفي الكشّاف: ج ٤ ص ٤٩٨: مدنيّة، وهي أربع وعشرون آية، نزلت بعد البيّنة.

(٢) ثواب الأعمال للصدوق: ص ١٤٥ وفيه بعد «ولا كرسي»: «ولا الحجب والسموات السبع والأرضون السبع والهواء والريح والطير والشجر والجبال والشمس والقمر والملائكة»، وزاد في آخره: «وإن مات في يومه أو ليلته مات شهيداً».

مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُواْ يَـٰٓأُوْلِى ٱلْأَبْصَـٰرِ(٢) وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَهُمْ فِى ٱلْأَخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ(٣) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ(٤) مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَـٰسِقِينَ(٥) وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ(٦)﴾

نَزَلَتْ في إجْلَاءِ بني النَّضِير من اليَهُود، فَجَلَوا إلى الشَّام إلى أَرِيحَاء وأَذْرِعَات إلَّا آلَ حُيَي بنِ أَخْطَبٍ وآلَ أبي الحَقيقِ فإنَّهم لَحِقُوا بخَيْبَرَ، وذلك أنَّهم صَالَحُوا النبيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ علىٰ أن لا يكُونُوا عليهِ ولاَ لَهُ، ثمّ نَقَضُوا العَهْدَ، وخَرَجَ كَعْبُ بنُ الأَشْرفِ في أَربعينَ راكباً إلىٰ مكَّةَ وحَالَفُوا عليهِ قُرَيْشاً عندَ الكَعْبَةِ، فأَمَرَ عَلَيْهِ السَّلَامُ محمّدَ بنَ مسْلمَةَ الأَنْصاريَّ فَقتَلَ كَعْباً ذَاتَ ليلةٍ غِيلَةً ـ وكانَ أَخَاهُ من الرضَاعَةِ ـ ثمَّ صَبَّحَهُم بالكَتَائِبِ وحَاصَرَهُم حتَّىٰ أَعْطَوْهُ ما أَرادَ منْهُم، فَصالَحَهُم علىٰ أن يَحْقِنَ دمَاءَهُم، وأنْ يُخرِجَهُم من أَرْضِهِم وأَوْطَانِهِم، وجَعَلَ لكلِّ ثلاثةٍ منْهُم بَعيراً وَسِقَاءً[(١)].

واللَّامُ في ﴿لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ﴾ يَتَعَلَّقُ بـ﴿أَخرَجَ﴾ وهي اللَّامُ في قَولِكَ: جِئْتُ لِوَقْتِ كذا. والمَعْنىٰ: أَخْرَجَ الَّذينَ كَفَروا عنْدَ أَوَّلِ الحَشْرِ، ومعنىٰ «أَوَّل ٱلحَشْرِ»: أنَّ هذا أَوَّلُ حَشْرِهِمْ إلى الشَّامِ وكانُوا من سَبْطٍ لَمْ يُصِبْهُم جلَاءٌ قَطٌّ، وَهُم أَوَّلُ مَنْ

(١) السِّقَاءُ: ظرف الماء من الجلد، وقيل: هو القِرْبَة للماء واللبن (لسان العرب).

أُخْرِجَ مِن أَهلِ الكتَابِ من جزيرةِ العَرَبِ إلى الشَّامِ، أو: هذا أَوّلُ حَشْرِهِم، وآخرُ حَشْرِهِم حَشْرُ يَوْمِ القيامةِ لأنَّ المَحْشَرَ يكُونَ بالشَّامِ. ﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْ﴾ لِشدَّةِ بأْسِهِم، وَوَثاقةِ حُصُونِهِم، وكَثْرَةِ عَدَدِهِم وَعُدَّتِهِم. ﴿وَظَنُّوٓاْ﴾ أَنَّ حُصُونَهُم تَمْنَعُهُمْ من بأْسِ ٱللهِ ﴿فَأَتَىٰهُمُ﴾ أَمْرُ ﴿ٱللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ﴾ مِنْ حيثُ لَمْ يَظُنُّوا وَلَمْ يَخطرْ ببالِهِم، وهو قَتْلُ رئيسِهِم كَعْبِ بنِ الأَشْرفِ، وذلك ممَّا أَضْعَفَ قُلُوبَهُم وَسَلَبَها الأَمْنَ وَٱلطُّمَأْنِينَةَ ﴿وَقَذَفَ﴾ فِيها ﴿ٱلرُّعْبَ﴾ وهو الخَوْفُ الَّذي يُرْعِبُ الصَّدْرَ أي: يَمْلَؤُهُ وقُرِئَ: ﴿يُخْرِبُونَ﴾ و «يُخَرِّبُون»[1] من الإِفْعالِ والتَّفْعيلِ، أي: يَهْدِمُونَ بيوتَهُم من داخِلٍ وَيخربُونَ ما يَستَحْسِنُونَهُ منْها حتَّىٰ لا يكُونَ للمسلمينَ، ويَخْرِبُها المسلمُونَ من خَارجٍ، ولمَّا عَرَّضُوا المسلمينَ للتَّخْريبِ وكانُوا السَّبَبَ فيهِ، فكأنَّهم أَمَرُوهُم بذلك وكَلَّفُوهُم إيَّاهُ، ﴿فَاعْتَبِرُواْ﴾ يا أَهْلَ البَصَائِرِ بما دَبَّرَ ٱللهُ سبحانَهُ من أَمْرِ إخْراجِهِم، وتَسْليطِ المؤْمنينَ عليهِم من غيرِ قِتَالٍ.

﴿وَلَوْلَآ﴾ أنَّهُ ﴿كَتَبَ ٱللهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ﴾ وٱقتَضَتْهُ حِكْمَتُهُ ﴿لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ بالقَتْلِ كَمَا فَعَل بإخْوانِهِم بنَي قُرَيْظَةَ ﴿وَلَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ﴾ سَواءٌ أُجِلُوا أو قُتِلُوا.

و اللِّينَةُ: النَّخلةُ، وياؤُها وَاوٌ لأنَّها من: «اللَّوْنِ»، وقيلَ: هي النَّخْلَةُ الكَريمةُ[2]، من: «اللِّين»، و ﴿مِن لِّينَةٍ﴾ بيانٌ لِـ ﴿مَا قَطَعْتُم﴾ وَمَحَلُّ ﴿مَا﴾ نَصْبٌ بِـ ﴿قَطَعْتُم﴾ كأنَّه قَالَ: أيَّ شيءٍ قَطَعْتُم؟ وأَنَّثَ الضَّميرَ الراجِعَ إلىٰ مَا في قَولِهِ: ﴿أَو تَركْتُمُوهَا﴾ لأنَّه في مَعْنىٰ «اللِّينة»، ﴿فَبِإِذْنِ ٱللهِ﴾ فَقَطْعُها بإذْن ٱللهِ وأَمْرِه، ﴿وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ وَلِيُذِلَّ اليهودَ وليُغِيظَهُم في قَطْعِها، وذلك أَنَّ رَسُولَ ٱللهِ صَلَّىٰ ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّم أَمَرَ أَن

(١) وهي قراءة أبي عمرو وحده. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٦٣٢.
(٢) قاله سفيان. راجع التبيان: ج ٩ ص ٥٦١.

يُقطَعَ نخلُهُم وتُحرَق، فقالُوا: يا محمّد، قد كُنْتَ تَنهىٰ عن الفَسَادِ في الأَرضِ، فمَا بَالُ قَطعِ النَّخْلِ وتَحْرِيقِها؟ فكأنَّ في أَنْفُسِ المسلمينَ من ذلك شَيْئاً فَنَزَلَتْ(١).
يَعني: أنَّ اللهَ سبحانَهُ أذِنَ في قَطْعِها لِيَزيدَكُم غَيْظاً إذا رَأَيْتُمُوهُم يَتَحكَّمونَ في أَموالِكُم كَيفَ شَاؤوا وأَحبُّوا. وعنِ ٱبنِ مسعُودٍ: قَطَعُوا منْها ما كان مَوضِعاً للقِتَالِ(٢).

فـ﴿مَا أَفَاءَ ٱللهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾ أي: جَعَلَهُ فَيْئاً لَهُ خَاصَّةً، وَالإِيْجَافُ: من الوَجِيفِ وهو السَّيْرُ السَّرِيعُ، والمعنىٰ: ﴿فَمَآ أَوْجَفْتُمْ﴾ علىٰ تَحْصيلِهِ وتَغْنيمِهِ خَيْلًا وَلَا رِكاباً وإنَّما مَشَيْتُم إليهِ علىٰ أَرْجُلِكُم فَلَمْ تُحَصِّلُوا أموالَهُم بالقتَالِ والغَلَبَةِ ﴿وَلَكِنَّ ٱللهَ يُسَلِّطُ﴾ رَسُولَهُ عَلَيْهِم، وَخَوَّلَهُ أموالَهُم كَمَا كانَ يُسَلِّطُ ﴿رُسُلَهُ عَلَىٰ﴾ أعْدائِهِم، فالأَمْرُ فيهِ إليهِ يَضَعهُ حَيْثُ يَشَاء وَالرِّكَابُ: الإِبِلُ الَّتي تَحمِلُ القَوْمَ، واحِدَتُها: رَاحِلَة.

﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ(٧) لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ(٨) وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ

(١) أسباب النزول للواحدي: ص ٣٥٤ ح ٨٥٦.
(٢) حكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٥٠١.

فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ(٩) وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ(١٠)﴾

﴿مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ﴾ مِنْ أَمْوالِ كُفّارِ أَهْلِ القُرىٰ ﴿فَلِلَّهِ﴾ يَأْمُرُكُم فيهِ بمَا أَحَبَّ ﴿وَلِلرَّسُولِ﴾ بتمليكِ ٱللهِ إيَّاهُ ﴿وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أَهلِ بَيْتِ رَسُولِ ٱللهِ ﷺ وقَرابَتِهِ وَهُم بَنُو هاشِمٍ ﴿وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ منْهُم، وعَنْ عليِّ بنِ الحسينِ عليه السلام: «هِيَ قُرْبَاؤُنا ومَسَاكِينُنَا وأَبنَاءُ سَبيلِنَا»[١]. ﴿كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ﴾ قُرِئَ بالنَّصبِ والرَّفعِ[٢]، فالنَّصبُ علىٰ مَعنىٰ: كَيْلا يَكُونَ الفَيْءُ جَدّاً بين الأَغْنياءِ يَتَكَاثَرونَ بِهِ، أو: كَيْلَا يكُونَ دُولةً جاهليَّةً بينَهُم يَسْتَأْثِرُ بِهِ الرُّؤَسَاءُ وأَهْلُ الدُولَةِ والغَلَبَةِ وأَنْشَدَ في ذلكَ:

لَكَ المِـرْبَاعُ مـنْها والصَّـفَايَا   وحُكْمُكَ والنَّشِيطَةُ والفُضُولُ[٣]

وقيلَ: الدُّولَةُ ٱسمُ ما يُتَداوَلُ[٤] كالغُرْفَةِ ٱسمُ ما يُغْتَرَفُ، أي: كَيْ لا يكُـونَ الفَيْءُ شَيْئاً يَتَداوَلُهُ الأغْنياءُ بينَهُم ويَتَعاوَرُونَه، وَمِنْهُ الحَديثُ: «ٱتَّخَذُوا عِبادَ ٱللهِ خَوَلًا ومالَ اللهِ دُوَلًا»[٥]، أي: غَلَبَةً، مَنْ غَلَبَ منْهُم سَلَبَهُ. والرَّفْعُ عـلىٰ «كـانَ»

---

(١) رواه العياشي في تفسيره: ج ٢ ص ٦٣ ح ٦٣ وذكر لفظ: «ليتامانا» بدل «قرباؤنا».

(٢) أي برفع «دُولةٌ» و «تكون» بالتاء، وهي قراءة هشام وحده. راجع التذكرة فـي القـراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٧١٧.

(٣) المِرْباعُ: ما يأخذه الرئيس وهو ربـع الغـنيمة، والصـفايا: مـا يـصطفيه الرئـيس لنـفسه، والنشيطة: ما أصاب من الغنيمة قبل أن يصير الى مجتمع الحيّ، والفضول: ما عُجِزَ أن يُقْسَم لقلّته وخصَّ به. والبيت لعبد الله بن عثمةَ الضبيِّي. راجع لسان العرب: مادة (ربع).

(٤) قاله الزجّاج في معاني القرآن: ج ٥ ص ١٤٦.

(٥) والحديث بتمامه: بالاسناد عن أبيذر الغفاري قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: اذا بـلغ بنو أبي العاص ثلاثين رجلًا اتّخذوا مال الله دولاً وعباد الله خولاً ودين الله دغلاً، فأنكرَ ←

التَّامَّةُ، أي: كَيْ لا يَقَعَ دُوْلَةٌ جاهِلِيَّةٌ، أو: كَيْ لا يكُونَ شَيْءٌ يَتَداوَلَهُ الأَغْنياءُ بينَهُم. ﴿وَمَآءَاتَـٰكُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ من قِسْمَةِ غَنيمةٍ أو فَيْءٍ ﴿فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ﴾ مِنْ أَخْذِهِ منْها ﴿فَانْتَهُواْ﴾ عنْهُ ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أَنْ تُخالِفُوهُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ لِمَنْ خَالَفَ رَسُولَهُ.

والأَوْلىٰ أَنْ يكُونَ عامّاً في كلِّ ما أَمَرَ بِهِ رَسُولُ ٱللهِ صلى الله عليه وآله وسلم ونَهىٰ عَنْهُ، ولهٰذا قَسَّمَ عليه السلام أموالَ خَيْبَرَ وَمَنَّ عَلَيْهم في رقَابِهِم، وأَجْلَىٰ بني النَّضيرِ وَبَني قَيْنُقَاع وأَعْطَاهُم شَيئاً من المالِ، وَقَتَلَ رجَالَ بَني قُرَيظَةَ وسَبَىٰ ذَرارِيهِم ونِسَاءَهُم، وقَسَّمَ أَمْوالَهُم علَى المهاجرينَ خاصَّةً، وَمَنَّ علىٰ أَهْلِ مكَّةَ فَأَطْلَقَهُم.

وعن الصَّادقِ: ما أَعطَى ٱللهُ نبيّاً من الأنبياءِ إلَّا وقَدْ أَعطىٰ محمَّداً صلى الله عليه وآله وسلم مِثْلَهُ، قَالَ لِسُلَيْمانَ عليه السلام: ﴿امْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ وقَالَ لَهُ عليه السلام: ﴿مَآءَاتَـٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ الآية[1].

﴿لِلْفُقَرَآءِ﴾ بَدَلٌ مِنْ قَولِهِ: ﴿لِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾، والمَعْطُوفُ عليهِ ﴿أُولَـٰئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ﴾ فـي إيْـمانِهِم وَجِـهَادِهِم. ﴿وَٱلَّـذِينَ تَـبَوَّءُواْ﴾ مَـعْطُوفٌ عـلى ﴿ٱلْمُهَـٰجِرِينَ﴾ وَهُم الأَنْصارُ، ومعناهُ: ﴿تَبَوَّءُواْ ٱلـدَّارَ﴾ أي: المَدِينةَ، وأَخْـلَصُوا ﴿ٱلْإِيمَـٰنَ﴾ كقوله: «عَلَفْتُها تِبْناً وَمَاءً بارِداً». أو: وَجَعَلُوا الإِيْمانَ مُسْتَقَرّاً ومُتوطَّناً لَهُم لِتَمَكُّنِهِم فيهِ وٱستِقَامَتِهِم عَلَيهِ كَمَا جَعَلُوا المدينةَ كذٰلكَ، أو: أَرادَ دار الهِجْرَةِ ودَارَ الإِيْمانِ فأَقَامَ لَامَ التَّعريفِ في ﴿ٱلدَّارَ﴾ مَقَامَ المُضَافِ إليهِ، وَحَذَفَ المُضَافَ

← ذلك عليه، فشهد علي بن أبي طالب: انّي سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: ما أظلّت الخضراء ولا أقلّت الغبراء على ذي لهجة أصدق من أبي‌ذر، وأشهد أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قاله. أخرجه الحاكم في المستدرك: ج ٤ ص ٤٨٠. ومن طريق آخر عنه ايضاً يقول: إذا بلغت بنو أمية أربعين اتّخذوا... الخ.

(١) بصائر الدرجات: ص ٣٨٢. والآية (٣٩) من سورة صٓ.

مِنْ «دار الإِيمان» وَوَضَعَ المُضَافَ إليهِ مَقَامَهُ ﴿مِنْ قَبْلِهِم﴾ مِنْ قَبْلِ المُـهَاجرينَ لأنَّهم سَبَقُوهُم في تَبوُّءِ دَارِ الهِجْرَةِ والإِيْمانِ ﴿وَلَا يَجِدُونَ﴾ ولا يَعْلَمُونَ في أَنْفُسِهِم ﴿حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ﴾ أي: طَلَبَ مُحْتَاجٍ إليهِ مِمَّا أُوتي المُهَاجرُونَ من الفَيءِ وغَيْرِهِ، والمُحْتَاجُ إليهِ قَدْ يُسَمَّىٰ حَاجَةً. يُقَالُ: خُذْ مِنْهُ حاجَتَكَ، و: أَعْطَاهُ من مَالِهِ حاجَتَهُ، يَعْني: أنَّ نُفوسَهُم لَمْ تَطْمَحْ إلىٰ شَيءٍ مِمَّا أُعْطُوا يُحْتَاجُ إليهِ ﴿وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ أي: خِلَّةٌ، مِنْ: خَصَاصُ البَيْتِ وَهِيَ فُرُوجُهُ، وكانَ رسولُ ٱللهِ ﷺ قَسَّمَ أَمْوالَ بني النَّضيرِ على المُهَاجِرِينَ، ولَمْ يُعْطِ الأَنْصارَ مِنْها شَيْئاً إلَّا ثَلاثَةَ نَفرٍ كانَتْ بِهِم حَاجَةٌ، وَهُم: أبو دُجَانَةَ سِمَاكُ بنُ خَرَشَةَ، وسَهْلُ بنُ حُنَيْفٍ، والحَارِثُ بنُ الصِّمَّة، وقَالَ للأَنْصَارِ: إنْ شِئْتُم قَسَّمْتُم للمهاجرينَ من أَموالِكُم ودِيارِكُم وَشَارَكْتُمُوهُم في هٰذهِ الغَنيمةِ، وإنْ شِئْتُم كانَتْ لَكُم دِيارُكُم وَأَمْوالُكُم وَلَمْ يُقَسَّمْ لَكُم شَيءٌ من الغَنيمةِ، فَقَالَتِ الأَنْصارُ: بَلْ نُقَسِّمُ لَهُم من دِيَارِنا وأَمْوالِنا ونُؤْثِرُهُم بالقِسْمَةِ ولا نُشَارِكُهُم فيهَا، فَنَزَلَتْ[1]. والشُّحُّ: اللُّؤْمُ، وأَن تَكُونَ نَفْسُ المَرْءِ حَرِيصَةً علَى المَنْعِ، كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

يُمَارِسُ نَفْساً بَيْنَ جَنْبَيْهِ كَزَّةً   إذَا هَمَّ بالمعرُوفِ قَالَتْ لَهُ مَهْلَا[2]

وَقَد أُضِيفَ إلىٰ «النَّفْسِ» لأَنَّهُ غَريزَةٌ فيها، وأَمَّا البُخْلُ فَهُو مَنْعُ نَفْسِهِ، والمَعْنىٰ: وَمَنْ غَلَبَ ما أَمَرَتْهُ بِهِ نَفْسُهُ وخَالَفَ هَوَاها بِتَوفيقِ ٱللهِ وعَوْنِهِ ﴿فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ الظَّافِرُونَ بِمَا أَرادُوا. وقيلَ: ﴿الَّذِينَ تَبَوَّءُواْ﴾ مبتدأٌ، وخَبَرُهُ ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ لأَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يُقَسِّمْ لَهُم في بني النَّضيرِ إلَّا للثَّلاثَةِ[3].

---

(١) رواه الواحدي في أسباب النزول: ص ٣٥٦ ح ٨٦٠ عن يزيد بن الأصمّ.
(٢) لم نعثر على قائله. والبيت يصف رجلًا بالبخل، وكزَّة: أي شحيحة منقبضة عن فعل الخير.
(٣) ذكره النحّاس في إعراب القرآن: ج ٤ ص ٣٩٦.

﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ وَهُم الَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدُ، وقيلَ: التَّابِعُونَ بإحْسَانٍ[1] ﴿غِلاًّ﴾ أي: حِقْداً وعَدَاوَةً.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ(١١) لَئِنْ أُخْرِجُواْ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَـٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ(١٢) لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ(١٣) لَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ(١٤) كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(١٥) كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَـٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَـٰلَمِينَ(١٦) فَكَانَ عَـٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَـٰلِدَيْنِ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّـٰلِمِينَ(١٧)﴾

ثمَّ ذَكَرَ سبحانَهُ المنافقينَ ﴿يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ﴾ الَّذينَ بَيْنَهُم وبَيْنَهُم أُخُوَّةُ الكُفْرِ، وَهُم يَهُودُ بني النَّضيرِ، كانُوا يَوَالُونَهُم في السِّرِّ ﴿وَلَا نُطِيعُ﴾ في قِتَالِكُم ﴿أَحَداً﴾ يَعنُونَ محمَّداً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وأَصْحَابَهُ. وفي هذا دَلَالَةٌ علىٰ صِحَّةِ النُّبوَّةِ لأنَّـه إخْبَارٌ بالغَيْبِ، وعلىٰ أنَّهُ سبحانَهُ كَمَا يَعْلَمُ ما يكُونُ فإنَّه يَعْلَمُ ما لا يكون أَنْ لَوْ كانَ كَيفَ يكُونُ، والتَّقْديرُ: وَلَئِنْ نَصَرَهُم المنافقُونَ علَى الفَرْضِ والتَّقْدِيرِ لَينهزمنَّ المنافقُونَ ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ بَعْدَ ذلكَ، أي: يُهْلِكُهُم ٱللهُ ولا يَنْفَعُهُم نفاقُهُم لِظُهُورِ كُفْرِهِم.

---

(١) قاله مقاتل. راجع تفسير الماوردي: ج ٥ ص ٥٠٧.

﴿رَهْبَةً﴾ مَصْدَرُ «رَهِبَ» المَبْني للمفعُولِ، كأنَّهُ قالَ: أَشَدُّ مَرْهُوبيَّةً. وفي قَولِهِ: ﴿فِى صُدُورِهِمْ﴾ دَلالَةٌ علىٰ نفاقِهم، والمَعْنَىٰ: أنَّهم يُظْهِرُونَ لَكُم في العَلانيةِ خَوْفَ ٱللهِ وأَنْتُم أَهْيَبُ في صُدُورِهِم من ٱللهِ ﴿لَا يَفْقَهُونَ﴾ أي: لا يَعْلَمُونَ ٱللهَ حتَّىٰ يَخْشَوْهُ حَقَّ خَشْيَتِهِ.

﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾ لا يَقْدِرُونَ علىٰ مقَاتَلَتِكُم ﴿جَمِيعاً﴾ مُجْتَمعينَ يعني: اليَهودَ والمنافقينَ ﴿إِلَّا﴾ كَائِنينَ ﴿فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ﴾ بالخَنَادِقِ والدُّرُوبِ ﴿أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍ﴾ دونَ أن يَصْحَروا لَكُم ويُبَارِزُوكُم؛ لأنَّ ٱللهَ عزَّ ٱسمُهُ قَذَفَ الرُّعْبَ في قُلُوبِهِم، وقُرِئَ: «جُدَارٍ»[1] ﴿بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾ أي: قُوَّتُهُم وشَوكَتُهُم فيما بينَهُم شَديدةٌ، فإذَا لاقَوكُم جَبُنُوا ولَمْ يَبْقَ لَهُم بَأْسٌ وَشِدَّةٌ، لأنَّ الشُّجَاعَ يَجْبُنُ عِنْدَ مُحَارَبَةِ ٱللهِ ورَسُولِهِ ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً﴾ مجْتَمِعينَ ذَوي أُلْفةٍ وٱتِّحادٍ في الظَّاهِرِ ﴿وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ مُتَفَرِّقةٌ مختلِفَةٌ لا أُلْفةَ فيها ﴿لَّا يَعْقِلُونَ﴾ ما فيهِ الرُّشْدُ.

﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: مَثَلُهُم كَمَثَلِ الَّذينَ قُتِلُوا بِبَدْرٍ في زَمانٍ قَريبٍ، وذلكَ قَبْلَ إجْلاءِ بني النَّضيرِ بستَّةِ أَشْهُرٍ، وٱنتَصَبَ ﴿قَرِيباً﴾ بـ﴿مَثَل﴾ علىٰ معنىٰ: كَوجُودِ مَثَلِ أَهْلِ بَدْرٍ قَريباً، وعنِ ٱبنِ عبَّاسٍ: إنَّ الَّذينَ مِن قَبْلِهِم بَنُو قَيْنقاع[2]، وذلك أَنَّهُم نَقَضُوا العَهْدَ فَرجَعَ رسُول ٱللهِ صلى الله عليه وآله وسلم من بَدْرٍ فَأَمَرَهُم عليه السلام أَنْ يَخْرُجُوا، فَقَالَ عبدُ ٱللهِ بنُ أُبيٍّ: لا تَخْرُجُوا فإنِّي أَدخُلُ مَعَكُم الحِصْنَ فكانَ هؤلاءِ في تَرْكِ نُصْرَتِهِم كأُولئكَ ﴿ذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ سُوءَ عَاقِبَةِ كُفْرِهِم في الدُّنْيا ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة.

مَثَلُ المنافقينَ في إغْرائِهِم اليَهُودَ على القِتَالِ وَوَعْدِهِم إيَّاهُم النَّصْرَ ثُمَّ

---

(١) قرأه ابن كثير وأبو عمرو. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٦٣٢.

(٢) حكاه عنه الشيخ الطوسي في التبيان: ج ٩ ص ٥٦٩.

إخلافِهم ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ﴾ إذا[1] ٱستغْوى الإنْسانَ بِكَيْدِهِ ثمَّ تبرَّأَ منْهُ في العَاقبةِ، كما ٱستغْوىٰ قُرَيْشاً يَوْمَ بَدْرٍ بقولِهِ لَهُم: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ﴾ إلىٰ قَولِهِ: ﴿إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ﴾[2]. ﴿خَـٰلِدِينَ فِيهَا﴾ حَالٌ.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ(١٨) وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَـٰهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ(١٩) لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ(٢٠) لَوْ أَنزَلْنَا هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَـٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ(٢١) هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلرَّحِيمُ(٢٢) هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَـٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ(٢٣) هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَـٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ(٢٤)﴾

نَكَّرَ سبحانَهُ «النَّفس» لاستقْلالِ الأَنْفُسِ النَّاظِرَةِ فيمَا تُقَدِّمُهُ للآخِرَةِ، فكأَنَّهُ قَالَ: ﴿وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ﴾ واحِدَةٌ في ذلكَ. ونَكَّرَ «الغد» لِتَعْظِيمِ أَمْرِهِ، أي: لِغَدٍ لا يُعْرَفُ كُنْهُهُ لِعِظَمِهِ، والمُرادُ بالغَدِ يَوْمُ القيامةِ، وعَن الحَسَنِ: لَمْ يَزَلْ يُقَرِّبُهُ حتَّىٰ جَعَلَهُ كالغَدِ[3]. نَحْوُهُ في تَقْرِيبِ الزَّمانِ الماضِي قَوْلُهُ: ﴿كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ﴾[4].

---

(١) كذا في النسخ وفي الكشّاف أيضاً، ولعلّه «إذ» لمطابقة الآية الكريمة.

(٢) الأنفال: ٤٨.

(٣) حكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٥٠٨.

(٤) يونس: ٢٤.

وكَرَّرَ قَولَهُ: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ لأنَّ الأوَّلَ في أَداءِ الواجبَاتِ لأنَّهُ مقْرونٌ بالعَمَلِ، والثّاني في تَرْكِ المُقبَّحَاتِ لأنّه مقْرونٌ بالوَعيدِ.

﴿نَسُواْ ٱللَّهَ﴾ نَسُوا حقَّهُ فَجَعَلَهُم نَاسِينَ حقَّ أَنْفُسِهِم بالخُذْلانِ، حتّىٰ لا يَسْعَوْا لَهَا بِمَا يَنْفَعُهُم عنْدَهُ، أو: فَأَرَاهُم من أَهْوالِ يَوْمِ القيامةِ فَأُنْسُوا فيهِ أَنْفُسَهُم، كَقَولِهِ: ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾[1].

وقَولُهُ: ﴿لَا يَسْتَوِى﴾ تَنْبيهٌ للنَّاسِ وإيْذَانٌ بأنَّهُم لِفَرْطِ غَفْلَتِهِم وإيْثَارِهِم الدُّنيا علَى الآخِرَةِ كأنَّهم لا يَعرفُونَ الفَرْقَ بين الجنَّةِ والنَّارِ، والبَوْنَ بَيْنَ أَصْحَابِهِما، فَمِنْ حَقِّهِم أَن يُنَبَّهُوا علىٰ ذلكَ، كَمَا تَقُولُ لِمَنْ يَعقُّ أَبَاهُ: هو أَبُوكَ، تَجْعَلُهُ بمَنْزِلةِ مَن لا يَعْرِفُهُ فَتُنَبِّهُهُ بذلكَ علىٰ حقِّ الأُبوَّةِ الَّذي يَقْتَضي البِرَّ والتَعطُّفَ.

التَصدُّعُ: التَفرُّقُ بَعْدَ التَّلاؤُمِ، وهذا تَمثيلٌ وتَخْييلٌ كَما مَرَّ في قَولِهِ: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ﴾[2]، يَدُلُّ عَلَيهِ قَولُهُ: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾، والغَرَضُ: تَوبيخُ الإنْسانِ علىٰ قِلَّةِ تَدبُّرِهِ للقُرآنِ، وتَعَقُّلِهِ لِزَواجِرِهِ وَمَواعِظِهِ.

﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ﴾ عَالِمُ المَعْدُومِ والموجُودِ، وقيلَ: ما غَابَ عن الخَلْقِ وما شَاهَدُوهُ[3]، أو: السِّرِّ والعَلَانيَةِ[4]، وعن الباقِرعليه السلام: مَا لَمْ يَكُنْ ومَا كَانَ[5] ﴿ٱلْقُدُّوسُ﴾ المُنزَّهُ عن القَبَائِحِ، الطَّاهِرُ من كلِّ عَيْبٍ ونَقْصٍ، ونَظيرُهُ: «السُّبُّوحُ»، ﴿ٱلسَّلَـٰمُ﴾ بمعنَى السَّلامةِ، وُصِفَ سبحانَهُ بِهِ مُبالَغةً في وَصْفِ كَونِهِ سَليماً من النَّقائِصِ، أو: في إعْطَائِهِ السَّلامَةَ ﴿ٱلْمُؤْمِنُ﴾ وَاهِبُ الأَمْنِ ﴿ٱلْمُهَيْمِنُ﴾

---

(١) ابراهيم: ٤٣. (٢) الأحزاب: ٧٢.

(٣) حكاه الماوردي في تفسيره: ج ٥ ص ٥١٢.

(٤) وهو قول ابن عباس. راجع المصدر السابق.

(٥) حكاه عنه عليه السلام الآلوسي في تفسيره: ج ٢٨ ص ٦٢، وفي معاني الأخبار للصدوق: ص ١٤٦ عن الصادق عليه السلام.

الرَّقيبُ علىٰ كُلِّ شَيْءٍ والحافِظُ لَهُ، وقيلَ: الأَمينُ الَّـذي لا يَـضِيعُ لأَحَـدٍ عِـنْدَهُ حقٌّ[١]، مُفَيْعِلٌ من «الأمن» إلَّا أنَّ هَمْزَتَهُ قُلِبَتْ هاءً ﴿الْجَبَّارُ﴾ القَاهِرُ الَّذي جَبَرَ خَلْقَهُ علىٰ ما أَرادَ، وقيلَ: العَظيمُ الشَّأْنِ في المُلْكِ والسُّلْطانِ[٢]، ولا يُطْلَقُ هـذا الوَصْفُ علىٰ غَيْرِهِ إلَّا عَـلَىٰ وَجْـهِ الذَّمِّ ﴿الْـمُتَكَبِّرُ﴾ البَـلِيغُ الكِـبْرياءِ والعَـظَمَةِ ﴿الْخَـٰلِقُ﴾ المُقَدِّرُ لِمَا يُوجِدُهُ ﴿الْبَارِئُ﴾ المُـمَيِّزُ بَـعْضَهُ مِـن بَـعضٍ بـالأَشْكالِ المخْتَلِفَةِ ﴿الْمُصَوِّرُ﴾ المُمَثِّلُ.

وَسُئِلَ النَّبيُّ ﷺ عن ٱسْمِ ٱللهِ الأَعْظَمِ، فَقَالَ: عَلَيْكَ بآخِرِ سُورةِ الحَشْرِ[٣]

❁ ❁ ❁

(١) قاله الضحاك. راجع تفسير الماوردي المتقدّم.

(٢) قاله ابن عباس. راجع تفسير البغوي: ج ٤ ص ٣٢٧.

(٣) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٥١٠ عن أبي هريرة.

سُورَةُ المُمْتَحنَة

مدنيَّةٌ[1]، وهي ثَلاثُ عَشْرَة آيةً.

وفي حديثِ أُبيٍّ: «مَنْ قَرَأَ سُورةَ الممتَحنةِ كانَ المؤْمنُونَ والمؤْمناتُ لَهُ شُفَعاءُ يَوْمَ القيَامةِ»[2].

وعن عليِّ بنِ الحُسَيْنِ عليه السلام: «مَنْ قَرَأَ سُورةَ المُمتَحنَةِ في فَرائِضِهِ ونَوافِلِهِ امتَحَنَ اللهُ قَلْبَهُ للإِيْمانِ ونَوَّرَ لَهُ بَصَرَهُ، ولاَ يُصيبُهُ فَقْرٌ أَبَداً، ولاَ جنُونٌ في بَدَنِه ولاَ في وَلَدِهِ»[3].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم

---

(١) قال الشيخ الطوسي في التبيان: ج ٩ ص ٥٧٥: مدنيّة بلاخلاف، وهي ثلاث عشرة آية بلاخلاف.

وفي الكشّاف: ج ٤ ص ٥١٠: مدنيّة، وهي ثلاث عشرة آية، نزلت بعد الاحزاب.

وفي تفسير القرطبي: ج ١٨ ص ٤٩ ما لفظه: الممتحنة بكسر الحاء، اي المختبرة، أُضيف الفعل اليها مجازاً، كما سمّيت سورة «براءة» المبعثرة والفاضحة؛ لِما كشفت من عيوب المنافقين. ومن قال بفتح الحاء فإنّه أضافها الى المرأة التي نزلت فيها وهي أُم كلثوم بنت عُقْبة بن أبي مُعَيْط... وهي امرأة عبدالرحمن بن عَوْف.

(٢) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٥٢١ مرسلًا.

(٣) ثواب الأعمال للصدوق: ص ١٤٥.

بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَـٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَاْ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ(١) إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ(٢) لَنْ تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ(٣) قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّـهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ(٤) رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ(٥)﴾

نَزَلَتْ في حَاطِبِ بنِ أَبي بَلْتَعَةَ، وذلكَ أنَّ سارةَ مَولاةَ أبي عَمْرِو بنِ صَيْفيٍّ بنِ هَاشِمٍ أَتَتْ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم بالمدينةِ وَهُو يَتجَهَّزُ للفتحِ فَقالَ لَها: أَمُسْلِمَةً جِئْتِ؟ قَالَتْ: لا، قَالَ: فَما جَاءَ بِكِ؟ قالَتْ: كُنْتُم الأَهْلَ والمَوالِيَ والعَشِيرةَ، وَقد ذَهَبَتِ المَوالي، تَعْني قُتِلُوا يَوْمَ بَدْرٍ، فاحتجْتُ حاجَةً شديدةً، فَحَثَّ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم بني عَبْدِ المطَّلبِ فَكَسَوْها وحَمَّلُوها وَزوَدُوها، فأَتَاها حَاطِبٌ وأَعْطَاها عَشْرةَ دنانيرَ وكَتَبَ مَعَها كِتَاباً إلىٰ أَهْلِ مكَّةَ، نُسخَتُهُ: مِنْ حَاطِبِ بنِ أَبي بَلْتَعَةَ إلىٰ أهلِ مكَّةَ، اعْلَمُوا أنَّ رسُولَ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم يُريدُكُم، فَخُذُوا حذْرَكُم، ونَزَلَ جبرائيلُ بالخَبَرِ، فَبَعَثَ رسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم علياً عليه السلام وعمَّاراً وَعُمَرَ وطَلْحَةَ والزُّبيرَ والمِقْدَادَ وأَبا مرثَدٍ ـ وكانُوا كلُّهُم فُرْسَاناً ـ وقَالَ: انطَلِقُوا حتَّىٰ تَأْتُوا رَوْضَةَ خَاخٍ فإنَّ بها ظَعِينةً مَعَها

كتابٌ من حَاطِبٍ إِلَى المشركينَ، فَخُذُوهُ منْها، فَخَرجوا حتَّىٰ أَدركُوها فـي ذلك المَكَانِ فَجَحدَتْ وحَلَفَتْ، فَهَمُّوا بالرُّجُوعِ، فَقَالَ عليٌّ عليه السلام: واللهِ ما كَذِبْنَا ولا كَذِبَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم وَسَلَّ سيْفَهُ وقَالَ: أخرِجِي الكتابَ وإلَّا ـ واللهِ ـ لأَضْرِبَنَّ عُنُقَكِ، فأَخْرَجَتْهُ من عِقَاصِ شَعْرِها[١].

ورُوِي: أنَّ حَاطِباً قَالَ: يا رَسُولَ الله، واللهِ ما كَفَرْتُ منذُ أَسْلَمْتُ، ولكنِّي كنتُ عَزيزاً في قُريش ـ أي: غَريباً ـ ولَمْ أَكُنْ مِنْ أَنْفَسِها، وَكُلُّ مَنْ مَعَكَ من المهاجرينَ لَهُم قَراباتٌ بمكَّةَ يحمُون أَهَالِيهم وأمْوالَهُم، فأَرَدْتُ أَن أتَّخِذَ عِنْدَهُم يَداً، وقد عَلِمْتُ أَنَّ اللهَ تعالىٰ يُنْزِلُ عَلَيهم بأْسَهُ، وأَنَّ كتابي لا يُغْني عَنْهم شيئاً، فَعَذَرَهُ[٢].

«العدُّو» وَقَعَ مَوْقعَ الجَمْعِ ﴿تُلْقونَ﴾ حَالٌ من الضَّميرِ فـي ﴿لَا تَـتَّخِذُواْ﴾، أَو صِفَةٌ لـ﴿أَوْلِيَآءَ﴾، أو اسْتِئْنَافٌ. والإِلْقَاءُ: عبارةٌ عن إِيْصَالِ المَوَدَّةِ والإِفْضَاءِ بها إليهم، والباءُ في ﴿بِالْمَوَدَّةِ﴾ إِمَّا مَزيدَةٌ مؤَكِّدَةٌ للتَّعدِّي مِثْلُها في قَولِهِ: ﴿وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُم إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾[٣]، وإِمَّا ثَابتَةٌ علَى أَنَّ مَفْعُولَ ﴿تُلْقُونَ﴾ محذُوفٌ، مَعْنَاهُ: تُلْقُونَ إليهم أَخْبَارَ الرَّسُولِ بسَبَبِ المَودَّةِ الَّتي بينكُم وبينَهُم. وكذلك قَولُهُ: ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾ أي: تُفضُونَ إليهم بِمَودَّتِكُم سِرّاً، أو: تُسِرُّونَ إليهم أَسْرارَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم بسَبَبِ المَوَدَّةِ ﴿وَقَدْ كَفَرُواْ﴾ حَالٌ من ﴿تُلْقونَ﴾، أي: تُوادُّونَهُم وهٰذه حَالُهُم ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾ هو كالتَّفْسيرِ لِكُفْرِهِم، أو: حَالٌ من ﴿كَفَرُواْ﴾، و ﴿أَنْ تُؤْمِنُواْ﴾ تَعليلٌ لـ﴿يُخْرِجُونَ﴾ أي: يُخْرِجُونَكُم لإِيْمانِكُم ﴿إِنْ كُنتُمْ خَرَجْتُمْ﴾ شَرْطٌ جوابُهُ مَحذُوفٌ لدَلالَةِ مَا قَبلَهُ عليه، وهو متَعَلِّقٌ بـ﴿لَا تَتَّخِذُواْ﴾. والمعنىٰ: إِنْ كنتُم أَولِيَائي فَلَا تَتَولَّوا أَعْدائي ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم

---

(١) أُنظر أسباب النزول للواحدي: ص ٣٥٨ ح ٨٦٣.

(٢) رواه عبيد الله بن ابي رافع عن عليٍّ عليه السلام. راجع المصدر السابق: ٨٦٤.

(٣) البقرة: ١٩٥.

﴿بِالْمَوَدَّةِ﴾ ٱستِئنَافٌ والمعنىٰ: أيُّ فائِدَةٍ في إسْرارِكُم وقَد عَلِمْتُم أنَّ الإخْفاءَ والإعْلَانَ سَيَّانٌ في عِلْمي، وأَنا أُطْلِعُ رَسُولي علىٰ ما تُسِرُّونَه؟ ﴿وَمَن﴾ يَفْعَلْ هذا الإسْرارَ فَقَد أَخْطَأَ طَريقَ الحقِّ وَجَازَ عن القَصْدِ.

﴿إِنْ يَثْقَفُوكُمْ﴾ أي: يَظْفَرُوا بِكُم ﴿يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً﴾ خَالِصِي العَدَاوَةِ ﴿وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوٓءِ﴾ بالقتَالِ والشَّتمِ، وتمنَّوا ﴿لَوْ﴾ تَرتَدُّونَ عن دينِكُم.

﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ﴾ أي: أَقْرِبَاؤُكُم ﴿وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ﴾ الّذينَ تُوالُونَ الكفَّارَ بِسَبَبِهِم، وتَتَقرَّبُونَ إليهم من أجْلِهِم، ثمَّ قَالَ: ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ وبَيْنَ أَقَارِبِكُم وأولادِكُم، فَمَا لَكُم عَصَيْتُم ٱللهَ لأَجلِهِم؟! وقُرِئَ: ﴿يَفْصِلُ﴾ و «يُفَصِّلُ»[١] على البناءِ للفاعلِ وهو ٱللهُ عزَّوَجلَّ، أي: يُميِّزُ بَعْضَكُم من بَعْضٍ في ذلكَ اليَوْمِ، فَلا يَرَى القَريبُ المؤمن في الجنَّةِ قَريبَهُ الكَافِرَ في النَّارِ، وقيلَ: معناهُ: يَقْضِي بينكم من: فَصْلِ القَضَاءِ[٢].

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ﴾ أي: قُدْوَةٌ ﴿حَسَنَةٌ﴾ وَمَذْهَبٌ حَسَنٌ يُؤْتَىٰ بِهِ ويُتَّبَعُ أَثَرُهُ ﴿فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ وقَومِهِ، وهو قَولُهُم لكفَّارِ قَومِهِم حَيثُ كاشَفُوهُم بالعَدَاوَةِ: ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَـ﴾ ـهُ من الأَصنَامِ، أو: وَمِنْ عبادَتِكُم، أي: لا نَعْتَدُّ بشأْنِكُم ولا بشَأْنِ آلهتِكُم، وما أَنْتُم عنْدَنا علىٰ شَيْءٍ، والسَّبَبُ في عَداوتِنَا إيَّاكُم كُفْرُكُم باللهِ ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ أي: جَحَدْنَا دينَكُم، والعَدَاوَةُ قَائِمَةٌ ﴿بَيْنَنَا وبَيْنَكُم﴾ حتَّىٰ تُصَدِّقُوا بوحْدانيَّةِ ٱللهِ. ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ ٱستِثْنَاءٌ من قَولِهِ: ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ لأنَّ المُرادَ بالأُسْوَةِ الحَسَنَةِ قَولُهُم الّذي يَجبُ أَن يؤْتىٰ بِهِ ويُتَّخَذَ سُنَّةً، أي: فَلَا تَقْتَدوا

---

(١) قرأه حمزة والكسائي بالتشديد وكسر الصاد على البناء للفاعل. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٦٣٣.

(٢) حكاه السمرقندي في تفسيره: ج ٣ ص ٣٥٢.

بإبراهيمَ عليه السلام في قولِهِ لأبيهِ: ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾، فإنَّما ذلكَ لـ﴿مَوعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ﴾[1] بالإيْمَانِ ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾[2]، وقولُهُ: ﴿وَمَا أَمْلِكُ لَكَ﴾ تابعٌ لِوَعْدِهِ بالاستِغْفارِ، كأنَّه قالَ: أنَا أستَغْفِرُ لكَ وما في وسْعِي وطَاقتي إلَّا الاستِغْفَارَ ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا﴾ يَجوزُ أن يتَّصِلَ بما قَبْلَ الاستِثْنَاءِ فيَكونُ مِن قَوْلِ إبراهيمِ وقومِهِ، ويجُوزُ أن يكُونَ تَعليماً من اللهِ سبحانَهُ لِعبادِهِ أن يُفوِّضُوا أمورَهُم إليهِ بأَن يقُولُوهُ، فيَكُونُ المعنىٰ: قُولُوا رَبَّنا.

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ(٦) عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَٱللَّهُ قَدِيرٌ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٧) لَّا يَنْهَـٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ(٨) إِنَّمَا يَنْهَـٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَـٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ وَظَـٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ(٩) يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ مُهَـٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَـٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَـٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ(١٠)﴾

كرَّرَ سبحانَهُ الحثَّ على الاقتداءِ بإبراهيمَ عليه السلام وقومِهِ تأكيداً علَيهم، ولذلك

(١ و٢) التوبة: ١١٤.

جاءَ بِهِ مُصَدَّراً بالقَسَمِ ﴿لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ﴾ بَدَلٌ من قَولِهِ: ﴿لَكُم﴾ وذلك نُوعٌ من التأْكيدِ، وكذلك قَولُهُ: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ أي: ومَن أَعْرَضَ عن الإيتاءِ بإبراهيمَ فإنَّ اللهَ هو الغنيُّ عن جميعِ خَلْقِهِ لا يَضُرُّهُ ذلك، وإنَّما ضَرُّوا أَنْفُسَهم.

ولمَّا نَزَلَتْ هذه الآياتُ تَشَدَّدَ المؤمنونَ في عَداوَةِ آبائِهِم وأَقرِبائِهِم من المشركينَ، فَلَمَّا رأَى ٱللهُ سبحانَهُ منْهُم الجِدَّ والصَّبْرَ علَى الوَجْهِ الشَّديدِ، رَحِمَهُم وَوَعَدَهُم تَيسيرَ ما تَمَنَّوْهُ من إسلامِ أَقارِبِهِم، وحُصُولِ التَّصافي والتَوادِّ بينَهُم.

و ﴿عَسَىٰ﴾ وَعْدٌ من ٱللهِ علىٰ عاداتِ المُلُوكِ، حيثُ يقُولُونَ في بعضِ الحَوائجِ: «عسىٰ» أو «لعلَّ»، فَلَا يبقىٰ شُبْهَةٌ للمحتاجِ في تَمامِ ذلك، أو: قَصَدَ بهِ إطْمَاعَ المؤمنينَ. ﴿وَٱللَّهُ قَدِيرٌ﴾ علىٰ تَقْليبِ القُلُوبِ وتَسْهيلِ الأُمُورِ.

﴿أَنْ تَبَرُّوهُمْ﴾ بَدَلٌ من ﴿الَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ﴾، وكَذٰلك ﴿أَنْ تَوَلَّوْهُم﴾ بَدَلٌ مِن ﴿ٱلَّذِينَ قَـٰتَلُوكُمْ﴾ والمعنىٰ: ﴿لَا يَنْهَـٰكُم﴾ عن مَبَرَّةِ هؤلاءِ وإنَّما يَنْهاكُم عن تَوَلِّي هؤلاءِ. وهذا أيضاً رَحْمَةٌ لَهُم لِتَشَدُّدِهِم وَجِدِّهِم في العَداوَةِ، حيثُ رَخَّصَ لهم في صِلَةِ مَنْ يُجاهِدْ[1] منهم بالقتالِ والإخْراجِ من الدِّيارِ، وَهُم خُزاعَة، وكانُوا صَالَحُوا رَسُولَ ٱللهِ ﷺ علىٰ أَن لا يُقَاتِلُوهُ ولا يُعينُوا عليهِ، وعنْ مُجاهِدٍ: هم ٱلذينِ آمنُوا بمكَّةَ ولَمْ يُهاجِرُوا[2]. ﴿وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ﴾ أي: وَتَعْدلُوا فيما بينكم وبينَهُم، وتَقْضُوا إليهم بالقِسْطِ ولا تَظْلمُوهُم، أَوْصىٰ سبحانَهُ باستِعْمالِ القِسْطِ مع المشركينَ والتَّحامي عن ظُلْمِهِم، فما ظَنُّكَ بحالِ من ٱجْتَرَأَ علىٰ ظُلْمِ أَخيهِ المُسلم؟!

﴿إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ﴾ سَمَّاهُنَّ مؤمناتٍ لِتَصديقِهِنَّ بأَلْسِنَتِهِنَّ ونُطْقِهِنَّ بكلمةِ الشَّهادةِ ﴿فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾ فاختَبِرُوهُنَّ بالحِلْفِ والنَّظَرِ في الأَماراتِ لِيَغْلِبَ علىٰ

(١) في نسخة: «يجاهر».

(٢) تفسير مجاهد: ص ٦٥٥.

ظَنُونكُم صِدْقَ إيْمانِهِنَّ، وكانَ رَسُولُ ٱللهِ ﷺ يَقُولُ للمُمْتَحنَةِ: باللهِ الّذي لَا إِلَهَ إلّا هو ما خَرَجْتُ من بُغْضِ زَوجٍ، باللهِ ما خَرَجْتُ رَغْبةً عن أَرضٍ إلىٰ أرضٍ، باللهِ ما خَرَجْتُ ٱلتِمَاس دُنْيا، باللهِ ما خَرَجْتُ إلّا حُبًّا للهِ ولِرَسُولِه. ﴿اللهُ أَعْلَمُ بِإِيمَـٰنِهِنَّ﴾ منكُم لأنَّكُم لا تَكْسِبُونَ فيهِ عِلْماً تَطْمَئِنُّ مَعَهُ نُفوسُكم وإنْ ٱستَحْلَفْتُمُوهُنَّ وَرَزْتُم أَحْوالَهُنَّ، وعندَ ٱللهِ حقيقةُ العِلْمِ بهِ ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَـٰتٍ﴾ العِلْمَ الَّذي يَبْلُغُهُ وُسْعُكُم، وهو غَالِبُ الظَّنِّ بظُهُورِ الأَمَاراتِ ﴿فَلَا﴾ تَردُّوهُنَّ ﴿إِلَىٰ﴾ أزْواجِهِنَّ ﴿ٱلْكُفَّارِ﴾ لأنَّه لَا حِلَّ بَيْنَ المشرِكِ والمؤمنةِ، ﴿وَءَاتُوهُم﴾ وأَعْطُوا أَزْواجَهُنَّ ﴿مَّا أَنفَقُوا۟﴾ أي: ما دَفَعُوا إليهِنَّ من المَهْرِ.

ثمَّ نَفَىٰ عنْهُم الجُناحَ في تَزَوُّجِ هؤلاءِ المُهَاجِرَاتِ إذا آتَوْهُنَّ أُجُورَهُنَّ ـ أي: مُهُورَهُنَّ ـ لأنَّ المَهْرَ أَجْرُ البُضْعِ ﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ قُرِئَ بالتَّخفيفِ والتَّشديدِ(١)، العِصْمَةُ: ما يُعْتَصَمُ بهِ من عَقْدٍ أو سَبَبٍ، أي: لا يَكُن بينَهُم وبينَ الكافِرَاتِ عِصْمَةٌ، ولا عُلْقَةُ زَوجيَّةٍ، سواءً كنَّ حَرْبيَّاتٍ أو ذمِّياتٍ، ﴿وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ﴾ من مُهُورِ أَزْواجِكُم اللَّاحقَاتِ بالكُفَّارِ، ﴿وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟﴾ من مُهُورِ نِسَائِهِم المُهَاجِرَاتِ ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللهِ﴾ يَعْني جَميعَ ما ذُكِرَ في هٰذِهِ الآيةِ ﴿يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ كَلَامٌ مستأْنَفٌ، أو: حَالٌ من ﴿حُكْمُ ٱللهِ﴾ علىٰ حَذْفِ الضَّميرِ، أي: يَحْكُمُهُ ٱللهُ، أو: جَعَلَ الحُكْمَ حَاكِماً، عَلَى المُبَالَغَة.

﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ(١١) يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا

(١) وبالتشديد أي: ﴿تُمَسِّكُوا﴾ هي قراءة أبي عمرو وحده. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٦٣٤.

وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَـٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(١٢) يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُواْ مِنَ ٱلْأَخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْقُبُورِ(١٣)﴾

لمَّا نَزَلَتِ الآيةُ المُتقدِّمةُ أدَّى المؤمنونَ ما أُمِرُوا بهِ من نَفَقاتِ المشركينَ علىٰ نسائِهِم، وأَبَى المشركونَ أن يؤدّوا شيئاً من مُهورِ الكَوافِرِ إلىٰ أزواجِهنَّ المسلمينَ، فنَزَلَتْ: ﴿وَإِنْ فَاتَكُمْ﴾ أي: وإنْ سَبَقَكُم وانْفَلَتَ ﴿شَىْءٌ﴾ مِنكُم ﴿مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ﴾ أَحَدٌ مِنهنَّ ﴿إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾، وفي قِراءَةِ ابنِ مسعُودٍ: «أَحَد»(١) ﴿فَعَاقَبْتُمْ﴾ من: «العُقْبةِ» وهي النَّوبةُ، شَبَّهَ ما حَكَمَ بهِ على المسلمينَ والكافرينَ من أداءِ هؤلاءِ مُهورِ نساءِ أُولئكَ تارةً، وأداءِ أُولئكَ مُهورِ نساءِ هؤلاءِ أُخرىٰ، بأَمْرٍ يَتَعاقَبُونَ فيهِ كَمَا يَتَعاقَبُ في الرُّكُوبِ وغَيْرِهِ. ومعناهُ: فَجاءَت عُقْبَتُكُم من أداءِ المَهْرِ، ﴿فَـَٔاتُواْ﴾ فأَعْطُوا مَن فَاتَتْهُ امرأَتُهُ إلَى الكفَّارِ مثْلَ مَهْرِها مِن مَهْرِ المُهَاجِرَةِ، ولا تُعْطُوهُ زَوجَها الكافِرَ، وهكذا عن الزُّهريِّ: يُعطَىٰ من صِدَاقِ مَن لَحِقَ بِهِم(٢)، وقالَ الزَّجَّاجُ: ﴿فَعَاقَبْتُم﴾ فأَصَبْتُمُوهُم في القتَالِ بعقُوبةٍ حتَّىٰ غَنِمْتُم(٣). والَّذي ذَهَبَتْ زَوجَتُهُ كانَ يُعطىٰ من الغنيمةِ المَهْرَ، وقُرِئَ في الشَّواذِ: «فَأَعْقَبْتُم»(٤) أي: دَخَلْتُم في العَقَبةِ «فَعَقَّبْتُم» بالتَّشديدِ(٥) من: عَقَّبَهُ إذا قَفَّاهُ، لأنّ كُلَّ واحدٍ من المتَعاقِبِينَ

(١) أي: «وإنْ فَاتكُم أَحدٌ مِنْ أَزْواجِكُم» بتبديل «أحد» بموضع «شيءٌ» قال الفرّاء: يصلح هذا في الناس، فإذا كانت «شيء» في غير الناس لم يصلح «أحد» في موضعها. راجع معاني القرآن للفراء: ج ٣ ص ١٥١.

(٢) حكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٥١٩.

(٣) معاني القرآن: ج ٥ ص ١٦٠.

(٤) قرأه مجاهد والحسن، راجع شواذ القرآن لابن خالويه: ص ١٥٦.

(٥) وهي قراءة حميد الأعرج. راجع المصدر السابق.

يُقفِّي صَاحِبَهُ، «فعَقبْتُم»[١] من: عَقِبَهُ يَعْقُبُهُ. وقَالَ الزَّجّاجُ في تَفسيرِ جَميعِهَا: فَكانَتِ العُقْبىٰ لَكُم، أي: كانَتِ الغَلَبَةُ لَكُم حتَّىٰ غَنِمْتم[٢]. وقيلَ: إنَّ جميعَ مَنْ لَحِقَ المشركينَ من نساءِ المهاجرينَ سِتُّ نسْوَةٍ، وأَعْطَاهُم رَسُولُ ٱللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مُهُورَهُنَّ من الغنيمةِ[٣].

﴿وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ﴾ يُريدُ: وَأْدَ البَنَاتِ أو الإسْقَاطَ. ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ كانَتِ المرأةُ تَلْتَقِطُ المولُودَ فتَقُولَ لِزَوجِها: هذا وَلَدي مِنْكَ. كنَّىٰ بالبُهْتَانِ المُفْتَرىٰ بين يَدَيْها وَرِجْلَيْها عن المولُودِ الّذي تَلْصُقُهُ بزَوجِها كَذِباً، لأنَّ بَطْنَها الّذي تَحمِلُهُ فيهِ بينَ اليَدَيْنِ، وفَرْجَها الذي تَلِدُهُ بِهِ بين الرِّجْلَيْنِ ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ﴾ فيما تَأْمُرُهُنَّ بِهِ من المحسِّناتِ، وتَنْهاهُنَّ عَنْهُ من المقبِّحاتِ، وَكُلُّ ما دلَّ عَلَيْهِ العقلُ أو الشَّرْعُ علىٰ وجوبِهِ أو نَدْبِهِ فهو مَعْروفٌ.

ورُوِيَ[٤] في كيفيَّةِ المبايَعَةِ أنَّه عَلَيْهِ السَّلَامُ دَعَا بقَدَحٍ من ماءٍ فَغَمَسَ فيهِ يَدَهُ ثُمَّ غَمَسْنَ أَيْدِيَهُنَّ فيهِ، وَقيلَ: كانَ يُبايِعُهُنَّ من وَرَاءَ الثَّوبِ[٥].

﴿لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْماً غَضِبَ ٱللهُ عَلَيْهِمْ﴾ وهم اليَهُودُ، كانَ قَومٌ من فُقَراءِ المسلمينَ يُواصِلُونَ اليهودَ لِيُصيبُوا من ثِمَارِهِم فَنُهُوا عن ذلكَ ﴿قَدْ يَئِسواْ مِن﴾ أَنْ يكُونَ لَهُم حَظٌّ في ﴿ٱلْآخِرَةِ﴾ لِتَكْذيبِهِم برسُولِ ٱللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عِناداً وَهُم يَعلَمُونَ أَنَّهُ الرَّسُولُ المنْعُوتُ في التَّوراةِ ﴿كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ﴾ من مَوْتَاهُم أَن يُبْعَثُوا.

۞ ۞ ۞

---

(١) قرأه النخعي ومسروق، الّا أن الأول فتح القاف والثاني كسرها. راجع المصدر نفسه.

(٢) معاني القرآن: ج ٥ ص ١٦٠.

(٣) قاله ابن عباس. راجع تفسير البغوي: ج ٤ ص ٣٣٤.

(٤) رواه علي بن ابراهيم القمي في تفسيره: ج ٢ ص ٣٦٤ عن أبي جعفر عَلَيْهِ السَّلَامُ.

(٥) قاله عامر الشعبي. راجع تفسير الماوردي: ج ٥ ص ٥٢٤.

سُورَةُ الصَّفِّ

مدنيَّةٌ[1]، وهي أَرْبَعُ عَشرة آيةً.

في حَديثِ أُبيٍّ: «وَمَنْ قَرَأَ سُورةَ عيسىٰ كانَ عيسىٰ عليه السلام مُصَلِّياً عليهِ مُسْتَغْفِراً لَهُ ما دامَ في الدُّنْيا، وَهُوَ يَومُ القيامةِ رَفيقُهُ»[2].

وعنِ الباقرِ عليه السلام: «مَنْ قَرَأَ سُورةَ الصَّفِّ وأَدْمَنَ قِرَاءَتَها في فَرَائِضِهِ ونَوافِلِهِ صَفَّهُ اللهُ تَعالىٰ مع ملائكتِهِ وأَنبيائِهِ المُرْسَلِينَ»[3].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ(١) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَالَا تَفْعَلُونَ(٢) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن

---

(١) قال الشيخ الطوسي في التبيان: ج ٩ ص ٥٩٠: مدنيّة بلاخلاف، وهي أربع عشرة آيةً بلاخلاف.

وفي الكشّاف: ج ٤ ص ٥٢٢: مدنيّة وآياتها (١٤) نزلت بعد التغابن.

وفي تفسير القرطبي: ج ١٨ ص ٧٧: مدنيّة في قول الجميع فيما ذكر الماوردي: وقيل: إنّها مكّية، ذكره النحّاس عن ابن عباس، وهي أربع عشرة آيةً.

(٢) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٥٢٩ مرسلًا.

(٣) ثواب الأعمال للصدوق: ص ١٤٥ وزاد في آخره: «إن شاء الله».

تَقُولُواْ مَالَا تَفْعَلُونَ(٣) إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَـٰنٌ مَّرْصُوصٌ(٤) وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَـٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ(٥) وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ قَالُواْ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ(٦) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَـٰمِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ(٧) يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ(٨) هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ(٩)﴾

عن ٱبنِ عبَّاسٍ: كانَ نَاسٌ من المؤْمنينَ يقُولُونَ قبلَ أَن يُؤْمَروا بالقِتَالِ: لَوْ نَعْلَمُ أَحَبَّ الأَعمالِ إِلَى ٱللهِ تعالىٰ لَعملْناهُ، فَدَلَّهُم ٱللهُ سبحانَهُ علَى الجهادِ في سَبيلِهِ، فَوَلَّوْا يوْمَ أُحُدٍ فعَيَّرَهُم (١) وقيلَ: نَزَلَتْ في قَومٍ قَالُوا: أَبْلَيْنَا وَفَعَلْنا ولَمْ يَفْعَلوا وَهُم كَذَبَة (٢). وَقَصَدَ في ﴿كَبُرَ﴾ التَّعَجُّبَ من غيرِ لفظ، وأُسْنِدَ إلىٰ ﴿أَنْ تَقُولُواْ﴾، وَنُصِبَ ﴿مَقْتاً﴾ على التَّفْسيرِ دَلَالَةً علىٰ أَنَّ قولَهُم مَا لَا يَفْعَلُونَ مَقْتٌ خَالِصٌ لا شَوْبَ فيهِ، والمَقْتُ: أَشَدُّ البُغْضِ، ولَمْ يَقْتَصِرْ سبحانَهُ علىٰ أَن جَعَلَ البُغْضَ كبيراً حتَّىٰ جَعَلَهُ أَشَدَّهُ وأَفْحَشَهُ، وعِنْدَ ٱللهِ أَبْلَغُ من ذلك لأَنَّه إذا كَبُرَ مقْتُهُ عندَ ٱللهِ فَقَد تَنَاهىٰ كِبَرُهُ وَشِدَّتُهُ. وذُكِرَ أَنَّهُ قيلَ لبَعْضِ السَلَفِ: حَدِّثْنا، فَسَكَتَ ثُمَّ قَالَ: تَأْمُرونني أَن أَقُولَ ما لَا أَفْعلُ، فأَسْتعْجِلُ مَقْتَ ٱللهِ. وفي قَولِهِ سبحانَهُ: ﴿يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَ فِى

(١) حكاه عنه بالاسناد الطبري في تفسيره: ج ١٢ ص ٧٩ ـ ٨٠.

(٢) قاله قتادة والضحاك. راجع المصدر السابق: ص ٨٠.

سَبِيلِهِ﴾ دَليلٌ علىٰ أَنَّ المَقْتَ تَعَلَّقَ بقَولِ الَّذينَ وَعَدُوا الثَّباتَ في القِتَالِ فَلَمْ يَفُوا.

﴿صَفًّا﴾ صافِّينَ أَنْفُسَهُم، أو: مَصْفُوفينَ كأنَّهُم في تَراصِّهِم مِن غَيْرِ فُرْجَةٍ ﴿بُنْيَـٰنٌ﴾ رُصَّ بَعْضُهُم إلىٰ بَعْضٍ وَرُصِفَ، وقيلَ: إنَّهُ يَدُلُّ علىٰ فَضْلِ القِتَالِ رَاجِلًا، لأنَّ الرَّجَّالَةَ يَصْطَفُّونَ علىٰ هذهِ الصِّفَةِ(١). وقَولُهُ: ﴿صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَـٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ حَالاَنِ متَدَاخِلَتَانِ.

﴿وَإِذْ قَالَ﴾ ظَرْفٌ لاذكُر ﴿تُؤْذُونَنِى﴾ آذَوْهُ بأَنْواعِ الأذىٰ، مِن قَولِهِم: ﴿اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ﴾(٢)، ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَٰهًا﴾(٣)، وَطَلَبِهِم رُؤْيَةَ ٱللهِ جَهْرَة، وَعِبَادَتِهِم العِجْلَ وَغيْرِ ذلكَ ﴿وَقَدْ تَعْلَمُونَ﴾ في مَوضِعِ الحالِ، أي: تُؤْذُونَني عَالِمِينَ ﴿أَنِّى رَسُولُ ٱللهِ﴾ وَقَضيَّةُ عِلْمِكُم بنبوَّتي وَرِسَالتي تَعْظِيمي وتَوقِيري لا إِيْذَائي، ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ﴾ عن الحقِّ ﴿أَزَاغَ ٱللهُ قُلُوبَهُمْ﴾ بأَنْ مَنَعَهُم ٱلطَّافَهُ ﴿وَٱللهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ لا يَلْطُفُ بِهِم لأنَّهم لَيْسُوا من أَهْلِ اللُّطْفِ، أو: لا يَهْدِيهم إلَى الجنَّةِ الَّتي وَعَدَها المؤْمنينَ.

﴿مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَىَّ﴾ أي: أُرْسِلْتُ إليكُم في حَالِ تَصْديقي لِمَا تَقَدَّمَني من التَّوراةِ، وفي حَالِ تَبشيري ﴿بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنْۢ بَعْدِى﴾ وقُرِئَ بسكُونِ اليَاءِ وفَتْحِها(٤)، وَسيبَوَيْه والخَليلُ يَخْتَارَانِ الفَتح(٥).

وعَنْ كَعْبٍ: أَنَّ الحَوارِيِّينَ قَالُوا لِعيسىٰ: يَا روحَ ٱللهِ، هَلْ بَعْدَنا من أُمَّةٍ؟ قَالَ: نَعَم، أُمَّةُ أَحْمَدَ ﷺ، حُكَمَاءُ عُلَمَاءُ أَتْقياءُ، كأنَّهُم من الفِقْهِ أَنْبياءُ، يَرْضَوْنَ من ٱللهِ

(١) حكاه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٥٢٣.

(٢) المائدة: ٢٤. (٣) الأعراف: ١٣٨.

(٤) وبفتح الياء في «بَعْدِيَ» قرأه ابن كثير ونافع وأبوعمرو وأبوبكر عن عاصم. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٦٣٥.

(٥) حكاه عنهما الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٥٢٥.

باليَسيرِ من الرِّزْقِ، وَيَرضَى ٱللهُ منْهم باليَسيرِ من العَمَل[١].

وقُرِئَ: «هٰذَا سَاحِرٌ»[٢]، وَأَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ ظُلْماً مِمَّنْ يَدْعُوهُ رَبُّهُ علىٰ لسانِ نبيِّهِ إِلَى الإِسلامِ الّذي فيه السَّعَادةُ الأَبديَّةُ فَيَجْعَلُ مكانَ إجابَتِهِ إليهِ افْتِرَاءَ علَى ٱللهِ الكَذِبَ بقَولِهِ لِكَلامِهِ: ﴿هٰذَا سِحْرٌ﴾ ؟!

﴿لِيُطْفِئُواْ﴾ هذهِ اللاَّمُ تُزَادُ مع فِعْلِ الإرَادَةِ فَتُجْعَلُ تَأْكيداً لَهُ، والأَصْلُ: يُريدُونَ أَن يُطْفِئُوا، كَمَا في سُورةِ التَّوبةِ[٣]، وَإِطْفَاءُ ﴿نُورَ ٱللهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ تَهَكُّمٌ بِهِم في إرادَتِهِم إِبْطَالَ الإِسلامِ بقَولِهِم في القُرآن: ﴿هٰذَا سِحْرٌ﴾ فَأُشْبِهَتْ حَالُهُم حَالَ مَن يَنْفُخُ في نُورِ الشَّمْسِ بفِيهِ لِيُطْفِئَهُ. ﴿وَٱللهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾ قُرِئَ مُضَافاً، وبالتَّنْوينِ ونَصْبِ «نُورَه»[٤]، أي: يُتِمُّ ٱللهُ الحقَّ وَيُبَلِّغُهُ غَايَتَهُ.

وَ﴿دِينِ ٱلْحَقِّ﴾ المِلَّةُ الحَنيفيَّةُ ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ أَي: لِيُعْلِيَهُ[٥] علىٰ جَميعِ الأَديَانِ المُخَالِفَةِ لَهُ.

وعن عليٍّ عليه السلام: وَالّذي نَفْسي بيَدِهِ لا تَبقَىٰ قَريةٌ إلّا ويُنَادىٰ فيها بِشَهَادَةِ أَن لَا إِلَهَ إِلَّا ٱللهُ بُكرةً وعَشِيّاً[٦].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ

(١) حكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٥٢٥.

(٢) وهي قراءة حمزة والكسائي. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٢٤٩.

(٣) الآية: ٣٢.

(٤) قرأه نافع وأبو عمرو وابن عامر وأبو بكر عن عاصم. راجع كتاب السبعة: ص ٦٣٥.

(٥) في نسخة: «ليغلبه».

(٦) رواه العياشي كما في مجمع البيان: ج ٩ ص ٢٨٠.

وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَمَسَـٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ(١٢) وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ(١٣) يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُواْ ظَـٰهِرِينَ(١٤)﴾

﴿تُنْجِيكُمْ﴾ قُرِئَ بالتَّشْديدِ[١] والتَّخْفيفِ. ﴿تُؤْمِنُونَ﴾ ٱستِئْنَافٌ، كأنَّهم قالُوا: كيفَ نَعْمَلُ؟ فَقِيلَ لَهُم: تُؤْمِنُونَ، وهو خَبَرٌ في معنَى الأَمْرِ، ولهذا أُجيبَ بقَولِهِ: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ﴾، وفي قِراءَةِ عَبْدِ ٱللهِ: «آمِنُوا باللهِ وَرَسُولِهِ وَجَاهِدُوا»[٢]، وإنَّما جِيءَ بِهِ علىٰ لَفْظِ الخَبَرِ للإيذانِ بوجُوبِ الامتثالِ، فَكَأَنَّه ٱمتَثَلَ، فَهُو يُخْبِرُ عن إيْمانٍ وَجِهَادٍ مَوجُودَيْنِ، ومثْلُهُ قَولُهُم: «غَفَرَ ٱللهُ لَكَ» و «يَرْحَمُكَ ٱللهُ» ﴿ذٰلِكُمْ﴾ الإِيْمانُ والجِهادُ ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من أَمْوالِكُم وأَنْفُسِكُم، والمعنىٰ: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أَنَّهُ خَيْرٌ لكُم كانَ خَيْراً لكُم حينَئذٍ، لأنَّكُم إذا عَلِمْتُم ذلك أَحبَبْتُم الإِيْمانَ والجِهَادَ فَوقَ ما تُحبّونَ أَنفُسَكُم وأموالَكُم فتَفوزُونَ.

﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَها﴾ أَي: ولَكُم مع هذهِ النِّعْمَةِ المذكُورَةِ الآجِلَةِ من المَغْفِرَةِ والثَّوابِ والنَّعيمِ في الجنَّةِ نِعْمَةٌ أُخرىٰ عَاجِلَةٌ محبُوبَةٌ إليكُم، ثمَّ فَسَّرَها بقَولِهِ: ﴿نَصْرٌ مِّنَ ٱللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ وهو فَتْحُ مكَّةَ، وقيلَ: فَتْحُ فَارس والرُّومِ وسائرِ فُتُوحِ الإِسلامِ علَى العُمُومِ[٣]. وفي قَولِهِ: ﴿تُحِبُّونَها﴾ ذَرْوٌ من التَّوبيخِ علىٰ محبَّةِ العَاجِلِ

(١) وهي قراءة ابن عامر وحده. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٦٣٥.
(٢) حكاه عنه ابن خالويه في شواذ القرآن: ص ١٥٦.
(٣) قاله عطاء. راجع تفسير البغوي: ج ٤ ص ٣٣٨.

﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ مَعْطُوفٌ على ﴿تُؤْمِنُونَ﴾ لأنَّهُ في معنى الأَمْرِ، فكأَنَّهُ قَالَ: آمِنُوا وجَاهِدُوا يُثِبْكُم ٱللهُ وينصُرْكُم ﴿وَبَشِّرِ﴾ يا رَسُولَ ٱللهِ ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بذلك.

وقُرِئَ: ﴿كُونُوٓاْ أَنْصَارَ ٱللهِ﴾ و «أَنْصَاراً لِلهِ»[1]، والمعنى: كُونُوا أَنْصارَ ٱللهِ كَمَا كانَ الْحَوَارِيُّونَ أَنْصارَ عيسى عليه السلام حينَ قَالَ لَهُم: ﴿مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللهِ﴾ أي: مَنْ أَنصاري مُتَوجِّهينَ إلى نُصْرَةِ ٱللهِ؟ ومعناهُ: مَنِ الأَنْصارُ الَّذينَ يَخْتَصُّونَ بي ويكُونُونَ معي في نُصْرَةِ ٱللهِ؟ ﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ ٱللهِ﴾ أي: نَحْنُ الَّذين يَنْصُرُونَ ٱللهَ. فإضَافَةُ ﴿أَنصَارِيٓ﴾ خِلَافُ إضَافَةِ ﴿أَنْصَارُ ٱللهِ﴾، ولَا يَصِحُّ أَن يكُونَ معنَاهُ: مَنْ يَنْصُرني مع ٱللهِ؛ لأنَّه لا يُطابِقُ الجوابَ ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ﴾ مِنْهُم بعيسى ﴿وَكَفَرَتْ﴾ بهِ ﴿طَّآئِفَةٌ فَأَيَّدْنَا﴾ مؤْمنيهم ﴿عَلَىٰ﴾ كُفَّارِهِم فظَهَروا عليهم أي: غَلَبوا، وقيلَ: معنَاهُ: فآمَنَتْ طائِفَةٌ منْهم بمحمَّدٍ صلى الله عليه وآله وسلم وكَفَرتْ بِهِ طائِفَةٌ، فَأَصبَحَ المؤْمنونَ غَالبينَ بالحُجَّةِ والقَهرِ[2].

۞ ۞ ۞

---

(١) وبالتنوين قرأه ابن كثير ونافع وأبو عمرو، راجع كتاب السبعة: ص ٦٣٥.

(٢) قاله ابراهيم ومجاهد. راجع تفسير الطبري: ج ١٢ ص ٨٧.

سُورَةُ الجُمُعَةِ

مدنيَّةٌ[1]، وهي إحدىٰ عشرة آيةً.

في حَديثِ أُبيٍّ: «وَمَنْ قَرَأَ سُورةَ الجُمُعَةِ أُعْطِيَ من الأَجْر عَشْرَ حَسَنَاتٍ، بِعَدَدِ مَنْ أَتَى الجُمُعَةَ وبعَدَدِ مَنْ لَمْ يَأْتِها في أَمْصَارِ المسلمينَ»[2].

وعن الصَّادقِ عليه السلام: «مِن الواجبِ علىٰ كُلِّ مؤْمنٍ أَن يقْرَأَ فـي ليـلةِ الجُـمُعَةِ بالجُمُعَةِ و ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلأَعْلَىٰ﴾ وفي صَـلاَةِ الظُّـهرِ فـي الجُـمُعَةِ بـالجُمُعَةِ والمنَافقينَ، فإذَا فَعَلَ ذلكَ فكأَنَّما يَعْمَلُ بِعَمَلِ رسُـولِ ٱللهِ صلى الله عليه وآله وسلم، وكـانَ ثـوابُ جَزَائِهِ على ٱللهِ الجنَّة».

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَافِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَافِى ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ(١) هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى

---

(١) قال الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٥٢٩: مدنيّة، وآياتها (١١) نزلت بعد الصفّ.

وفي تفسير القرطبي: ج ١٨ ص ٩١: مدنيّة في قول الجميع، وهي إحدىٰ عشرة آيةً.

(٢) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٥٣٧ مرسلًا.

ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ(٢) وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ(٣) ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ(٤) مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ(٥)﴾

في قَولِهِ: ﴿سَبَّحَ﴾ تارةً، و ﴿يُسَبِّحُ﴾ أُخرىٰ إشارةٌ إلىٰ دَوامِ تَنْزيهِهِ عزَّ ٱسمُهُ في الماضي والمُستَقْبلِ. والأُمِّيونَ هُمُ العَرَبُ، لأنَّهم كانُوا لا يكتُبُونَ ولا يَقرَؤُونَ من بينِ الأُمَمِ، وقيلَ: بُدِئَتِ الكتابةُ بالطَّائِفِ، أَخَذُوها من أَهلِ الحِيرَةِ[1]. والمَعْنىٰ: أَنَّه بَعَثَ في قَومٍ أُمِّيِّينَ رَجُلًا أُمِّيّاً ﴿مِنْهُمْ﴾ أي: من أَنْفُسِهِم، يَعْلَمُونَ نَسَبَهُ وأَحْوالَهُ ﴿يَتْلُواْ﴾ يَقرَأُ ﴿عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِ﴾ مَعَ كَونِهِ أُمّياً مِثْلَهُم، لَمْ يُعْهَدْ مِنْهُ قِراءَةٌ ولَمْ يُعْرَفْ بِتَعَلُّمٍ، وَقِراءَةُ أُمِّيٍّ أَخْبارَ القُرُونِ الماضيةِ بِغَيْرِ تَعَلُّمٍ علىٰ وفْقِ ما في الكُتُبِ آيةٌ مُعْجِزَةٌ ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ وَيُطَهِّرُهُم من الشِّرْكِ وأَدْناسِ الجاهليَّةِ ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ القُرآنَ والشَّرائِعَ ﴿وَإِن كَانُواْ﴾ هِيَ «إنْ» المُخَفَّفةُ من الثَّقيلةِ، واللَّامُ هي الفَارِقَةُ، أي: كانُوا ﴿فِى ضَلَـٰلٍ﴾ لا ضَلالَ أَعْظَمُ منْهُ.

﴿وَءَاخَرِينَ﴾ عَطْفٌ على ﴿ٱلْأُمِّيِّينَ﴾ أي: بَعَثَهُ في الأُمِّيِّينَ الذينَ علىٰ عَهْدِهِ ﷺ، وفي آخَرينَ لَم ﴿يَلْحَقُواْ بِهِمْ﴾ بَعْدُ وَسَيَلْحَقُونَ بِهِم.

ورُوِيَ: أَنَّه لَمَّا قَرَأَ هذهِ الآيةَ قيلَ لَهُ: مَنْ هؤلاءِ؟ فَوَضَعَ يَدَهُ علىٰ كَتِفِ سَلْمَانَ فَقَالَ: «لَوْ كانَ الإيمانُ في الثُّرَيَّا لَنالَهُ رِجالٌ مِنْ هؤلاءِ»[2].

وقيلَ: هُمُ الَّذينَ يأْتُونَ بَعدَهُ إلىٰ يَوْمِ القيمةِ[3]. ويجوزُ أَن يكُونَ نَصْباً عَطْفاً

---

(١) حكاه الزجّاج في معاني القرآن: ج ٤ ص ١٦٩ وزاد: وذكر أهل الحيرة أنّهم تعلّموا الكتابة من أهل الأنبار.

(٢) رواه مسلم في الصحيح: ج ٤ ص ١٩٧٢ ح ٢٥٤٦ وما بعده عن أبي هريرة.

(٣) قاله ابن زيد ومجاهد. راجع التبيان: ج ١٠ ص ٤.

على الضَّميرِ في ﴿وَيُعَلِّمُهُمْ﴾ أي: ويُعَلِّمُهم ويُعَلِّمُ آخرينَ، لأنَّ التَّعليمَ إذا تَنَاسَقَ إلىٰ آخرِ الزَّمانِ وكانَ كُلُّهُ مستنِداً إلىٰ أوَّلِهِ فكأنَّهُ عليه السلام تولَّىٰ كُلَّ ما وُجِدَ منْهُ ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ في تَمْكينِهِ رَجُلاً أُمِّيّاً من هذا الأمرِ العظيمِ، وٱخْتيارِهِ إيَّاهُ من بينِ سائرِ الخلقِ.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الْفَضْلُ الّذي أَعْطَاهُ محمَّداً صلى الله عليه وآله وسلم وهو النُّبُوَّةُ لِكافَّةِ خَلْقِ الأوَّلينَ والآخَرينَ إلىٰ يَوْمِ القيامةِ هو ﴿فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ﴾ يُعطِيهِ ﴿مَن يَشَآءُ﴾ إعْطَاءَهُ وتَقْتَضِيه حِكْمَتُهُ ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ علىٰ خَلْقِهِ بِبَعْثِه.

و ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾ وَهُم اليَهودُ الذين قَرَؤُوها وحَفظُوها ﴿ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾ بِكَوْنِهِم غَيْرَ عَامِلينَ[1] بهَا، ولا مُنْتَفِعينَ بآياتِها، لأنَّ فيها صِفَةَ نَبيِّنا ونَعْتَهُ والبشَارَةَ بِهِ ولَمْ يؤْمنُوا بِهِ ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً﴾ أي: كُتُباً كُباراً من كُتُبِ العِلْمِ، فَهُو يَمْشي بها ولا يَدري منْها إلَّا ما يَمُرُّ بِجَنْبَيْهِ وظَهْرِهِ من الكدِّ، وكَذَا كُلُّ مَن عَلِمَ عِلْماً ولَمْ يَعْمَلْ بمُوجِبِهِ فَهٰذا مِثْلُهُ، و ﴿بِئْسَ﴾ مَثَلاً ﴿مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ وَهُمُ اليَهودُ كَذَّبُوا بالتَّوراةِ، أو: بالقُرآنِ، أو: بآياتِ ٱللهِ الدَّالَّةِ علىٰ نُبوَّةِ محمَّدٍ صلى الله عليه وآله وسلم .

ومعنىٰ قَولِهِ: ﴿حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾: كُلِّفُوا عِلْمَها والعَمَلَ بها ﴿ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾ ثمَّ لَمْ يَعْملُوا بها، فكَأَنَّهم لَمْ يَحْمِلُوها. وقَولُهُ: ﴿يَحْمِلُ أَسْفَاراً﴾ في مَحَلِّ نَصْبٍ على الحالِ، أو: جَرٍّ وَصْفاً لـ﴿ٱلْحِمَارِ﴾ لأنَّه مِثْلُ «اللَّئيم»[2] في قَوْلِ الشَّاعِرِ:

وَلَقَدْ أَمُرُّ عَلَى اللَّئيمِ يَسُبُّني[3]

---

(١) في نسخة: «عالمين».

(٢) يريد: أنّ المراد فيها الجنس، فتعريفه وتنكيره سواء، فجاز وصفه بالجملة وإن كانت لا يوصف بها إلّا النكرة.

(٣) وعجزه: فمضيت ثمّة قلتُ لا يعنيني. لرجل من بني سلول وقيل: لشمر بن عمرو الحنفي. ←

﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ(٦) وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ(٧) قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَـٰقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(٨) يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ(٩) فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ(١٠) وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَـٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَـٰرَةِ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ(١١)﴾

﴿هَادُوٓاْ﴾ تهوّدوا وسُمّوا يهوداً وكانوا يقولون: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ ٱللهِ وأَحبَّاؤُهُ﴾[(١)] يعني: إنْ كانَ قولُكم حقّاً ﴿فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ﴾ وأن ينقلكم ٱللهُ إلىٰ دارِ كرامتِهِ ٱلّتي أعدّها لأوليائِهِ. ثمّ قالَ: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَداً﴾ بسببِ ما قدّموهُ من الكفرِ، وقد قالَ لَهم النّبيُّ صلّى الله عليه وآله وسلّم: «والّذي نفسي بيدِهِ لا يقولُها أحدٌ منهم إلاّ غصّ بريقِهِ»[(٢)]. فلولا أنّهم عرفوا صدقَ النّبيِّ صلّى الله عليه وآله وسلّم وأنّهم لو تمنّوا لماتوا من ساعتِهم لتمنّوا، ولم يتمنّ أحدٌ منهم، فكانَ هذا أحدَ معجزاتِهِ صلّى الله عليه وآله وسلّم.

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى﴾ لا تجرؤونَ[(٣)] أن تتمنّوهُ ﴿فَإِنَّهُۥ مُلَـٰقِيكُمْ﴾ لا تفوتونَهُ، والفاءُ لِتضمّنِ ٱلّذي معنى الشّرطِ، يعني: إنْ رمتُم الفرارَ منهُ فإنّهُ ملاقيكم ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ﴾ ٱلله سبحانَهُ فيجازيكم ﴿بِمَا﴾ تستحقّونَهُ.

← وقد تقدّم شرح البيت في ج ١ ص ٥٨.

(١) المائدة: ١٨.

(٢) رواه ابن عباس في تفسيره: ص ٤٧١.

(٣) في نسخة: «لا تجسرون».

و﴿ٱلْجُمُعَةِ﴾ كانَ يقَالُ لَهَا العَـرُوبَةُ[١]، وقـيلَ: إنَّ أَوَّلَ مَـنْ سَـمَّاها جُـمُعَةً كَعْبُ بنُ لُؤَي[٢]، وقيلَ: إنَّ الأَنْصارَ قَالُوا: إنَّ لليَهودَ يوماً يجتمعُونَ فيهِ كُلَّ سَبْعةِ أيّامٍ، فَهَلمُّوا نَجْعَلُ لنا يوماً نَجتَمِعُ فيهِ فَنَذْكُرُ ٱللهَ عزَّوجلَّ ونُـصَلِّي، فَـقَالُوا: يَـوْمُ السَّبتِ لليَهودِ، ويَوْمُ الأَحَدِ للنَّصارىٰ، فاجْعَلُوهُ يَوْم العَروبَةِ، فاجتَمَعُوا إلىٰ سَعْدِ بنِ زُرَارَةَ فَصَلَّىٰ بِهِم يومئذٍ ركعتَينِ وَذَكَّرَهُم، فَسَمَّوْهُ يَوْمَ الجُمُعَةِ لاجـتِمَاعِهِم فـيهِ، فَأَنزلَ اللهُ تعالىٰ آيَةَ الجُمُعَةِ، فَهِيَ أَوَّلُ جُمُعَةٍ كانَت في الإِسلامِ[٣].

فَأمَّا أَوَّلُ جُمُعَةٍ جَمَّعَها رسولُ ٱللهِ ﷺ بأَصْحابِهِ فَهِيَ أَنَّه لَمَّا قَدِمَ المـدينةَ نَزَلَ قُبَاءَ علىٰ بني عَمْرو بنِ عَوْفٍ يَوْم الاثنينِ لاثنتي عَشْرَة لَيلَةٍ خَلَتْ من شَهْرِ رَبيع الأَوَّلِ وأَسَّسَ مَسْجِدَهُم، وأَقَامَ بِهَا إلىٰ يَوْمِ الجُمُعَةِ، ثمَّ خَـرَجَ عَـامِداً إلـى المدينةِ، فَأَدْرَكَتْهُ صَلاةُ الجُمُعَةِ في بني سَالمِ بنِ العَوْفِ في بَطْنِ وَادٍ لَهُم ـ قَد ٱتُّخِذَ اليَوْم هناكَ مَسْجِدٌ ـ فَخَطَبَ وَصَلَّى الجُمُعَة[٤].

﴿إذَا نُودِىَ﴾ معنَاهُ: إذا أُذِّنَ لصـلاةِ الجُـمُعَةِ ﴿فَـاسْعَوْاْ﴾ أي: فـامضُوا إلـى الصَّلاةِ مُسْرعينَ غَيْرَ مـتَثَاقِلينَ[٥]، وقَـرأَ عُـمَرُ وٱبـنُ مَسْعُودٍ وٱبـنُ عـبَّاسٍ:

---

(١) قال ابن منظور: الجُمْعة والجُمُعة والجُمَعة، وهو يوم العَروبة، سمِّي بذلك لاجتماع النـاس فيه... وذكر السهيلي: أنّ كعب بن لؤي جدّ سيدنا رسول الله ﷺ أول من جمّع يوم العروبة، ولم تسمَّ العَروبةُ الجمعة إلّا مذ جاء الاسلام، وهو أول من سمّاها الجمعة، فكانت قـريش تجتمع إليه ـ اي الى كعب جدّ النبي ﷺ ـ في هذا اليوم فيخطبهم ويذكرّهم بمبعث النبي، ويُعلمهم أنّه من ولده، ويأمرهم باتباعه، وينشد في هذا أبياتاً منها:

يااليتني شاهِدٌ فَـحواء دعـوتِهِ ... اذا قريشٌ تُبَغِّي الحقَّ خِذْلانا

انظر لسان العرب: مادة «جمع».

(٢) قاله أبو سلمة كما في تفسير القرطبي: ج ١٨ ص ٩٧.

(٣) قاله ابن سيرين. راجع تفسير القرطبي: ج ١٨ ص ٩٨ وفيه «أسعد» بدل «سعد».

(٤) أُنظر السيرة النبوية لابن هشام: ج ٢ ص ١٣٧.

(٥) في نسخة: «متشاغلين».

«فَامْضُوا»[١]، ورُوِيَ ذلكَ عن أَئمَةِ الهُدىٰ عليهم السلام، وعن الحَسَنِ: لَيسَ السَّعْيُ على الأَقْدامِ ولكنَّهُ على النيَّاتِ والقُلُوبِ[٢].

وفي الحَديثِ: «إذا كانَ يَوْمُ الجُمُعَةِ قَعَدَتِ الملائكةُ علىٰ أبوابِ المَسْجدِ، بأَيْديهِم صُحُفٌ من فِضَّةٍ وأَقْلامٌ من ذَهَبٍ، يكتُبُونَ الأوَّلَ فالأوَّلَ علىٰ مَراتِبِهم»[٣].

وكانَتِ الطُّرُقَاتُ في أيّامِ السَّلَفِ وَقْتَ السَّحَرِ وبَعْدَ الفَجْرِ مُغْتَصَّةً بالمُبَكِّرينَ إِلَى الجُمُعَةِ يَمْشونَ بالسُّرُجِ، وقيلَ: أَوَّلُ بدْعَةٍ أُحْدِثَتْ في الإِسلامِ تَرْكُ البُكُورِ إِلَى الجُمُعَةِ[٤]، وعن ابنِ مَسْعُودٍ: أَنَّهُ بَكَّرَ فرأىٰ ثلاثةَ نَفَرٍ سَبَقُوهُ فَاغتَمَّ وأَخَذَ يُعَاتِبُ نَفْسَهُ يقُولُ: أَرَاكَ رَابعُ أَربعةٍ وما رَابعُ أَربعةٍ بسَعيدٍ[٥]. ﴿إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ إلى الخُطْبَةِ التي تَتَضَمَّنُ ذِكْرَ ٱللهِ ﴿وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ﴾ وتجَارَةَ الدُّنيا وبَادِرُوا إلىٰ تجارةِ الآخرةِ. فالظَّاهِرُ يَقْتَضي: أنَّ البيعَ في وَقْتِ النِّداءِ فَاسِدٌ؛ لأنَّ النَّهْيَ يَدُلُّ علىٰ فَسَادِ المَنْهِيِّ عنْهُ، وكَذَا جَميعُ التَّصَرُّفَاتِ، وإِنَّما خُصَّ البَيْعُ بالنَّهْيِ عنْهُ لكونِهِ من أَعَمِّ التَّصَرُّفَاتِ في أَسبابِ المَعَائشِ.

وفَرْضُ الجُمُعَةِ يَلْزَمُ جميعَ المُكَلَّفينَ إلّا أَصْحَابَ الأَعْذَارِ من: السَّفَرِ والمَرضِ والعَمىٰ، والنِّسَاءِ، والشُّيوخِ الذينَ لا حَرَاكَ بِهِم، والعَبيدِ، ومَن كانَ علىٰ رأْسِ أَكْثَرِ من فَرْسَخَيْنِ.

وعنْدَ حُصُولِ الشُّرُوطِ لا تَجِبُ إلَّا عنْدَ حُضُورِ السُّلْطانِ العَادلِ أو مَنْ نَصَّبَهُ

(١) حكاه عنهم ابن جنّي في المحتسب: ج ٢ ص ٣٢١ وزاد: علي عليه السلام وأُبي وابن عمر.

(٢) تفسير الحسن البصري: ج ٢ ص ٣٤٧.

(٣) رواه الزمخشري بهذا اللفظ في الكشّاف: ج ٤ ص ٥٣٣، وأخرج نحوه النسائي في السنن: ج ٣ ص ٩٧ عن أبي هريرة.

(٤) حكاه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٥٣٤.

(٥) أخرجه عنه ابن ماجة في السنن: ج ١ ص ٣٤٨ ح ١٠٩٤ بالإسناد الى علقمة. وفيه: «ببعيد» بدل «بسعيد».

للصَّلاةِ. ولا تَنْعَقِدُ إلَّا بثَلاثَةٍ سِوَى الإمامِ عِنْدَ أَبي حَنيفة(١)، وبأَربَعينَ عِنْدَ الشَّافعي(٢)، وبَسبْعةٍ(٣) عنْدَ أهلِ البيتِ(٤) عليهم السلام(٥).

﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ هذا إطْلاقٌ بَعْدَ الحَظْرِ في الانتشارِ وٱبتغاءِ الرِّزْقِ مع الوصيَّةِ بإكْثارِ ذِكْرِ ٱللهِ، وأَن لا يُلهِيهم شَيْءٌ من تجارَةٍ ولا غَيْرِها عَنْهُ؛ لأنَّ الفَلاحَ مَنُوطٌ بِهِ، وعن ٱبنِ عبَّاسٍ: لَمْ يُؤْمَرُوا بِطَلَبِ شيءٍ من الدُّنيا، إنَّما هو عيادةُ المَرْضىٰ، وحُضُورُ الجَنائزِ، وزِيارةُ أخٍ في ٱللهِ(٦). وعن الحَسَنِ وسَعيدٍ: طَلَبُ العِلْمِ(٧).

وعنِ الصَّادِقِ عليه السلام: «الصَّلاةُ يَوْمُ الجُمُعَةِ والانتشَارُ يَوْمُ السَّبْتِ»(٨).

وعن جابرِ بنِ عبد ٱللهِ: أَقْبَلَ عِيرٌ ونَحْنُ نُصَلِّي مع رسُولِ ٱللهِ صلى الله عليه وآله وسلم الجُمُعَةَ، فانْفَضَّ النَّاسُ إليها، فَمَا بَقِي غَيْرُ ٱثْنَيْ عَشَر رَجُلًا أَنَا منْهُم(٩).

وعن الحَسَنِ: قَدِمَ دَحِيةُ بنُ خَليفَةِ الكَلْبيِّ بتجارَةٍ من زَيْتِ الشَّامِ

---

(١) المبسوط للسرخسي: ج ٢ ص ٢٤، بداية المجتهد: ج ١ ص ١٥٣.
(٢) كتاب الأمّ: ج ١ ص ١٩٠، الاستذكار: ج ٢ ص ٣٢٤.
(٣) وإنّما تنعقد الجمعة بخمسة نفر جوازاً وبسبعة تجب عليهم عند أصحابنا. أُنظر الخلاف للشيخ الطوسي: ج ١ ص ٥٩٨ المسألة (٣٥٩).
(٤) أمّا على السبعة ما رواه محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام قال: «تجب الجمعة على سبعة نفر من المسلمين ولا تجب على أقلّ منهم» أُنظر من لا يحضره الفقيه: ج ١ ص ٢٦٧ ح ١٢٢٢. وأمّا على الخمسة ما رواه الفضل بن عبدالملك عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «أدنىٰ ما يجزي في الجمعة سبعة أو خمسة أدناه». أُنظر الكافي: ج ٣ص ٤١٩ ح ٥.
(٥) في نسخة زيادة: «أو بخمسة».
(٦) حكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٥٣٦.
(٧) تفسير الحسن البصري: ج ٢ ص ٣٤٨، والكشّاف: ج ٤ ص ٥٣٦.
(٨) أخرجه الصدوق في من لا يحضره الفقيه: ج ١ ص ٤٢٤ ح ١٢٥٣ عن أبي أيوب الخزّاز.
(٩) أخرجه عنه مسلم في الصحيح: ج ٢ ص ٥٩٠ ح ٣٦.

والنَّبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم يخْطُبُ يَوْمَ الجُمُعَةِ، فقَامُوا إليهِ بالبَقيعِ خشْيَةَ أن يُسْبَقُوا إليهِ، فَلَمْ يَبْقَ مع النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم إلَّا رَهْطٌ، فنَزَلَتِ الآيةُ، فقَالَ عليه السلام: «والَّذي نَفْسُ محمَّدٍ صلى الله عليه وآله وسلم بيدِهِ لَوْ تتَابَعْتُم حتَّىٰ لا يَبْقىٰ أَحَدٌ منْكُم لَسَالَ بِكُم الوَادِيَ ناراً»[(١)].

وكانُوا إذا أَقْبَلَتِ العِيرُ ٱستَقْبَلُوها بالطَّبْلِ والتَّصفيقِ، وهو المُرادُ باللَّهْوِ، وعَنْ قَتَادَةَ: فَعَلُوا ذلكَ ثَلاثَ مرَّاتٍ في كلِّ مَقْدَمِ عِيرٍ، كُلُّ ذلكَ يُوافِقُ يَوْمَ الجُمُعَةِ[(٢)].

والتَّقْديرُ: ﴿وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَـٰرَةً﴾ ٱنْفَضُّوا إِلَيْهَا ﴿أَوْ لَهْوًا﴾ ٱنْفَضُّوا إليهِ، فَحُذِفَ أَحَدُهُما لدَلالَةِ الآخَرِ عليهِ، وعَنِ الصَّادقِ عليه السلام: ٱنْصَرَفُوا إليها[(٣)] ﴿وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا﴾ تَخْطُبُ علَى المِنْبَرِ ﴿قُلْ﴾ لَهُم ﴿مَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ من الثَّوابِ علىٰ سَمَاعِ الخُطْبَةِ والثَّباتِ والصَّلاةِ مع النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم ﴿خَيْرٌ﴾ وأَحْمَدُ عاقِبَة.

۞ ۞ ۞

(١) تفسير الحسن البصري: ج ٢ ص ٣٤٨ ـ ٣٤٩.
(٢) حكاه عنه الرازي في تفسيره الكبير: ج ٣٠ ص ١٠.
(٣) رواه علي بن ابراهيم القمي في تفسيره: ج ٢ ص ٣٦٧.

سُورَةُ المنَافِقُونَ[1]

مدنيَّةٌ[2]، وَهِيَ إِحْدىٰ عَشرة آيةً.

وفي حَديثِ أُبيٍّ: «وَمَنْ قَرأَ سُورةَ المنافقينَ بُرِئَ من النِّفَاق»[3].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ(١) ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ(٢) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ(٣) وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ

---

(١) كذا في المصحف الشريف، وفي النسخ: «المنافقين».

(٢) قال الشيخ الطوسي في التبيان: ج ١٠ ص ١٠: مدنيّة بلاخلاف، وهو قول ابن عباس وعطاء والضحّاك، وهي احدىٰ عشرة آية بلاخلاف.

وفي الكشّاف: ج ٤ ص ٥٣٨: مدنيّة، وهي إحدىٰ عشرة آيةً، نزلت بعد الحجّ.

وفي تفسير الآلوسي: ج ٢٨ ص ١٠٨: مدنيّة، وعدد آياتها إحدىٰ عشرة آية بلاخلاف، ووجه اتّصالها ـ في المصحف ـ أنّ سورة الجمعة ذكر فيها المؤمنون، وهذه ذكر فيها أضدادهم وهم المنافقون.

(٣) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٥٤٥ مرسلًا.

صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ(٤) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْاْ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ(٥) سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ(٦)﴾

﴿قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ شَهادةً يُوافِقُ فيها السرُّ الإعْلانَ، ويُواطِئُ القَلْبُ اللِّسانَ. ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ﴾ علَى الحَقيقةِ ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ﴾ إِنَّهُمْ ﴿لَكَـٰذِبُونَ﴾ في ٱدِّعائِهِم المُواطَأَة، أو: كاذبُونَ في قَولِهِم وشَهادتِهِم؛ لأنَّها إذا خَلَتْ عن المُواطَأةِ لَم تكنْ شهادةً حقِيقَةً.

﴿ٱتَّخَذُوا أَيْمَـٰنَهُمْ جُنَّةً﴾ يَسْتَتِرونَ بها من الكُفْرِ لئلَّا يُقْتَلُوا، ويجوزُ أن يكُونَ قَولُهُم: ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ يَميناً من أَيْمَانِهِم الكاذِبَةِ، لأنَّ الشَّهادةَ تَجْري مَجْرى الحَلْفِ، وقَرأَ الحَسَنُ: «إِيْمانَهُم»(١) أي: ما أَظْهَرُوهُ من الإِيْمانِ بِأَلْسِنَتِهِم ﴿سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ من نِفاقِهِم وَصَدِّهِم النَّاسَ ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، وفي ﴿سَآءَ﴾ معنَى التَّعَجُّبِ الّذي هو تَعظيمُ أَمْرِهِم عند السَّامعينَ.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلىٰ قَولِهِ: ﴿سَآءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، أي: ذلك القَوْلُ الشَّاهِدُ عليهم بأنَّهم أَسْوَأُ النَّاسِ أَعْمالاً ﴿بِـ﴾ سَبَبِ ﴿أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ﴾، أو: إلىٰ مَا وَصَفَ من حَالِهِم في النِّفاقِ والاستِجْنانِ بالإِيْمانِ، أي: ذلك كلُّهُ بِسَبَبِ ﴿أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ﴾، أي: نَطَقُوا بكلمةِ الشَّهادةِ ثمَّ ظَهَرَ كُفْرُهُم بَعْدَ ذلك بمَا ٱطَّلَعَ عليهِ من قَولِهِم: إنْ كانَ ما يقُولُهُ محمَّدٌ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ حقّاً فَنحْنُ حَميرٌ! وَنحوُهُ: ﴿لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ﴾(٢) ﴿وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَـٰمِهِمْ﴾(٣) أو:

---

(١) حكاه عنه ابن خالويه في شواذ القرآن: ص ١٥٧ .

(٢) التوبة: ٦٦ . (٣) التوبة: ٧٤.

نَطَقُوا بالإيْمانِ عنْدَ المؤْمنينَ، ثمَّ نَطَقُوا بالكُفْرِ إذا خَلَوْا بأَشْباهِهِم ﴿فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ فَجَسروا علىٰ كُلِّ عظيمةٍ.

وكان عبدُ ٱللهِ بنُ أُبيٍّ رَجُلًا جَسِيماً فَصِيحاً صَبِيحاً، وقَومٌ من المنافقينَ في مِثْلِ صِفَتِهِ، وكانُوا يَحضُرُونَ مَجْلِسَ رَسُولِ ٱللهِ ﷺ فيستَنِدُونَ فيهِ، فَشَبَّهَهُم ٱللهُ سبحانَهُ في عَدَمِ الانتفاعِ بحُضُورِهِم وإنْ كانَت هياكِلُهُم مُعْجِبَةٌ وٱلْسِنَتُهُم ذَلِيقَةٌ بِالْخُشُبِ الْمُسَنَّدَةِ إلى الحائِطِ، أو: بالأَصنامِ المنْحُوتَةِ من الخَشَبِ، والخطَابُ في ﴿رأَيْتَهمْ تُعْجِبُكَ﴾ لرسولِ ٱللهِ، أو: لكلِّ مَنْ يُخَاطَبُ. وقَولُهُ: ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ﴾ كَلامٌ مستَأْنَفٌ لا مَحَلَّ لَهُ، أو: في مَحَلِّ رَفْعٍ علىٰ: هُمْ كأَنَّهم خُشُبٌ، وقُرِئَ: «خُشْبٌ»[1] وَ﴿خُشُبٌ﴾، والتَّحريكُ لُغَةُ أَهْلِ الحُجَازِ واحِدَتُها: خَشَبَةٌ، كَبَدَنَةٍ وَبُدنٍ، وثَمَرَةٍ وثُمُرٍ، ﴿عَلَيْهِمْ﴾ مفْعُولٌ ثَانٍ، أي: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ﴾ وَاقِعَةً عليهم لِجُبْنِهِمْ إذا نَادىٰ مُنَادٍ في العَسْكَرِ، أو: أُنْشِدَتْ ضَالَّةٌ ظَنُّوهُ إِيْقَاعاً بِهِم، وَيُوقَفُ علىٰ ﴿عَلَيْهِمْ﴾ وَيُبْتَدَأُ ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ﴾ أي: الكامِلُونَ في العَدَاوَةِ ﴿فَاحْذَرْهُمْ﴾ ولا يَغْرُرْكَ ظَاهِرُهُم ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللهُ﴾ دُعَاءٌ عَلَيْهِم، وطَلَبٌ من ذَاتِهِ أَن يَلْعَنَهُم ويُخْزِيهم، أو: تَعليمٌ للمؤْمنينَ أَن يَدْعُوا عليهم بذلكَ ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ كَيفَ يُصْرَفُونَ عن الحقِّ مع وفُورِ أَدلَّتِهِ.

﴿لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ﴾ عَطَفُوها وأَمالُوها إعْراضاً عن ذلك وٱستِكْباراً، قُرِئَ بالتَّخْفيفِ[2] والتَّشْديدِ للتَّكثيرِ، أي: يَسْتَوي ٱستغفَارُكَ لَهُم وعَدَمُ ٱستغفارِكَ لَهُم لأَنَّهم لا يَعْتَدُّونَ بِهِ لكُفْرِهِم، أو: لأَنَّ ٱللهَ لا يَغْفِرُ لَهُم.

---

(١) قرأه ابن كثير وأبو عمرو والكسائي والمفضّل عن عاصم. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٦٣٦.

(٢) وهي قراءة نافع والمفضّل عن عاصم. راجع المصدر السابق.

﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ(٧) يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ(٨) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ(٩) وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ(١٠) وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ(١١)﴾

ازدحَمَ على الماءِ في غزاةِ بني المُصْطَلِقِ رَجُلٌ من المهاجرينَ ورَجُلٌ من بني عَوْفِ بنِ الخزْرَجِ واقتتَلا، فَغَضِبَ عبدُ ٱللهِ بنُ أُبيٍّ وقالَ: وٱللهِ، ما مَثَلُنا مَثَلُهُمْ إلّا كَمَا قالَ القائِلُ: سَمِّنْ كَلْبَكَ يأْكُلْكَ، أَمَا وٱللهِ ﴿لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ يعني: بالأعزِّ نَفْسَهُ وبالأذَلِّ رَسُولَ ٱللهِ، ثمَّ قالَ لِقَومِهِ: ماذا فَعَلْتُم بأَنفسِكُم، أَحْلَلْتُمُوهُم بلادَكُم وقَاسَمْتُموهُم أموالَكُم؟ أَمَا وٱللهِ لَوْ أَمْسَكْتُم عَنْهم فَضْلَ الطَّعامِ لَمْ يركَبُوا رِّقَابَكُم، فلا تُنْفِقُوا عَلَيْهم ﴿حَتَّىٰ يَنْفَضُّواْ﴾ مِنْ حَوْلِ محمَّدٍ صلّى الله عليه وآله وسلّم فَسَمِعَ بذلك زَيْدُ بنُ أَرْقَم ـ وَهُوَ حَدَثٌ ـ فَقَالَ: أَنْتَ وٱللهِ الذَّلِيلُ القَلِيلُ المُبْغَضُ في قَومِكَ، ومحمَّدٌ صلّى الله عليه وآله وسلّم في عِزٍّ من الرَّحمٰنِ وَمَوَدَّةٍ وقُوَّةٍ من المسلمينَ، فقَالَ عبدُ ٱللهِ: ٱسكُتْ، فإنَّما كنْتُ أَلْعَبُ، فَأَخْبَرَ زَيدٌ رسولَ ٱللهِ صلّى الله عليه وآله وسلّم فَأَرْسَلَ إلىٰ عبدِ ٱللهِ وقَالَ: ما هذا الذي بَلَغَني عنْكَ؟ قالَ: وٱللهِ الذي أَنْزَلَ عليكَ الكِتَابَ ما قُلْتُ شيئاً مِنْ ذلك، وإنَّ زَيْداً لَكَاذِبٌ، وذلك قَولُهُ تعالىٰ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً﴾ وقالَ الحاضِرُونَ: يا رَسُولَ ٱللهِ، شَيْخُنا وكَبيرُنا، لا تُصَدِّقْ عليهِ كَلَامَ

غُلَامٍ، عسىٰ أن يكُونَ قد وَهِمَ، فَعَذَّرَهُ، وفَشَتِ المَلَامَةُ من الأنْصارِ لزَيْدٍ، فَلَمَّا نَزَلَتْ لَحِقَ رَسُولُ ٱللهِ ﷺ زَيْداً مِنْ خَلْفِهِ فَعَرَكَ أُذُنَهُ وقَالَ: وَفَتْ أُذُنُكَ يا غُلَامٌ إنَّ ٱللهَ صَدَّقَكَ وَكَذَّبَ المنافقينَ، فلَمَّا بَانَ كَذِبُ عَبْدِ ٱللهِ قيلَ لَهُ: قَد نَزَلَت فيكَ آيٌ شِدَادٌ، فاذْهَبْ إلىٰ رسولِ ٱللهِ ﷺ يَسْتَغفِرْ لكَ، فَلَوَّىٰ رأْسَهُ ثمَّ قَالَ: أَمَرْتُموني أَن أوْمِنَ فَآمنْتُ، وأَمَرْتُموني أن أُزكِّيَ مَالي فزكَّيْتُ، فَمَا بَقِيَ إلَّا أَن أَسْجُدَ لمحمَّدٍ ﷺ، فَنزَلَتْ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟﴾ (١)، ولَمْ يَلْبَثْ إلَّا أَيَّاماً قَلَائِلَ حتَّىٰ ٱشتَكىٰ وَمَاتَ

﴿يَنْفَضُّوا۟﴾ أي: يَتفرَّقُوا ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وبِيَدِهِ الأَرْزَاقُ فَهُو يَرْزقُهُم مِنها ﴿وَلَٰكِنَّ﴾ عَبْدَ ٱللهِ وأَمثالَهُ جَاهِلُونَ ﴿لَا يَفْقَهُونَ﴾ ذلكَ.

﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ﴾ أي: الغَلَبَةُ والقُوَّةُ وَلِمَنْ أَعزَّهُ ٱللهُ وأَيَّدَهُ.

وعن الحَسَنِ بن عليٍّ عليهما السلام: أَنَّ رَجُلًا قَالَ لَهُ: إنَّ النَّاسَ يَزْعُمُونَ أنَّ فيكَ تِيهاً! قَالَ: لَيْسَ بِتيهٍ ولكنَّهُ عِزَّةٌ، وتَلَا هٰذه الآيةَ (٢).

﴿لَا تُلْهِكُمْ﴾ لا تَشغلُكم ﴿أَمْوَٰلُكُمْ﴾ والتَّصَرُّفُ فيها وٱبتِغَاءُ التَّلذُّذِ بهَا ﴿وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ﴾ وَسُرُورُكُم بِهِم وشَفَقَتُكُم عليهم والقِيَامُ بما يُصْلِحُهُم ﴿عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ يُرِيدُ الشُّغلَ بالدُّنْيا عن الدِّينِ ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ في تجارَتِهِم، إذْ باعُوا الخَطِيرَ البَاقي بالحَقيرِ الفَاني.

﴿مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم﴾: «مِن» للتَّبعيضِ أي: أَنْفِقُوا الواجِبَ منْهُ ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ فَيَرىٰ دَلَائِلَهُ ويَتَعذَّرُ عليهِ الإنْفَاقُ، ويَتَحسَّرُ علَى المَنْعِ، ويَفْقِدُ ما كانَ مُتَمكِّناً منْهُ ﴿فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ﴾ وقُرِئَ: «أَخَّرْتَنِ» (٣)، أي:

---

(١) أسباب النزول للواحدي: ص ٣٦٦ ح ٨٧٥ عن زيد بن أرقم.

(٢) أورده الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٥٤٣، والرازي في تفسيره الكبير: ج ٣٠ ص ١٧، وابن شهر آشوب في المناقب: ج ٤ ص ٩.

(٣) حكاه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٥٤٤.

هَلَّا أَخَّرْتَ مَوتي ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ إلىٰ زَمَانٍ قليلٍ ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾ فَأَتَصَدَّقَ، وقُرِئَ: ﴿وَأَكُن﴾ عَطْفاً علىٰ مَحَلِّ ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾، كأَنَّهُ قيلَ: إِنْ أَخَّرْتَني أَصَّدَّقْ وأَكُنْ. وقُرِئَ: «وَأَكُونَ»[١] على اللَّفْظِ.

وعن ٱبنِ عبَّاسٍ: تَصَدَّقُوا قَبْلَ أَن يَنْزِلَ عليكُم سُلْطَانُ المَوْتِ فَلا يَقْبَلُ تَوْبَةً ولا يَنْفَعُ عَمَلٌ[٢]. وعَنْهُ: ما يَمْنَعُ أَحَدَكُم إذا كانَ لَه مَالٌ أَن يُزَكِّي، وإِذَا أَطَاقَ الحجَّ أَن يَحُجَّ من قَبْلِ أَن يأْتِيَهُ المَوتُ، فَيَسأَلَ ربَّهُ الكَرَّةَ فَلَا يُعْطَاها[٣].

وَقيلَ: نَزَلَتْ في مَانِعي الزَّكَاة[٤].

وَعَنِ الحَسَنِ: ما مِنْ أَحَدِكُم لَمْ يُزَكِّ ولَمْ يَحجَّ وَلَمْ يَصُمْ إلَّا سَأَلَ رَبَّهُ الرَّجْعَة[٥].

﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ﴾ نَفْيٌ للتَّأْخيرِ علىٰ وَجْهِ التأكيدِ، والمعنىٰ: إذا عَلِمْتُم أَنَّ تأْخِيرَ المَوْتِ عن وَقْتِهِ ممَّا لا سبيلَ إليهِ، وأَنَّ اللهَ عَلِيمٌ بأَعْمَالِكُم، لَمْ يَبْقَ إلاَّ المُسَارَعَةُ إلىٰ أَدَاءِ الواجِبَاتِ. وقُرِئَ: ﴿تَعْمَلُونَ﴾ بالياءِ[٦] والتَّاءُ، فالتاء علىٰ عَوْدِ الضَّميرِ إلىٰ قَولِهِ: ﴿نَفساً﴾ لأنَّه في معنَى الجَمْع.

❁ ❁ ❁

---

(١) قرأه أبو عمرو وحده. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٦٣٧.

(٢) تفسير ابن عباس: ص ٤٧٣.

(٣) حكاه عنه الطبري في تفسيره: ج ١٢ ص ١١٠.

(٤) وهو قول ابن عباس. راجع البحر المحيط: ج ٨ ص ٢٧٤.

(٥) حكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٥٤٤.

(٦) وهي قراءة أبي بكر عن عاصم. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٦٣٧.

سُورَةُ التغَابُنِ

مُخْتَلَفٌ فيهَا[1]، وهِيَ ثَمَانِ عَشرَةَ آيةً.

وفي حَديثِ أُبيٍّ: «وَمَنْ قَرَأَ سُورةَ التَّغَابُنِ رُفِعَ عنْهُ مَوتُ الفجْأَةِ»[2]

وعن الصَّادقِ عليه السلام: «مَنْ قَرَأَ سُورةَ التَّغابُنِ في فَريضَتِهِ كانَتْ شَفِيعَةً لَـهُ يَـوْمَ القيامةِ، وشَاهِدَ عَدْلٍ عنْدَ مَنْ يُجِيزُ شَهَادَتَها، ثمَّ لا تُفَارِقُهُ حتَّىٰ يَدْخُلَ الجنَّةَ»[3].

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَافِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَافِى ٱلْأَرْضِ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (١) هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ

---

(١) كذا تبعاً للكشاف. وقال الشيخ الطوسي في التبيان: ج ١٠ ص ١٧: مدنيّة بلاخلاف في قول ابن عباس وعطاء والضحّاك، وهي ثمان عشرة آية بلاخلاف.

وفي الكشّاف: ج ٤ ص ٥٤٥: مختلف فيها، وهي ثمان عشرة آية، نزلت بعد التحريم.

وفي تفسير القرطبي: ج ١٨ ص ١٣١: مدنيّة في قول الاكثرين، وقال الضحّاك: مكّية، وقال الكلبي: هي مكيّة ومدنيّة، وعن ابن عباس أنّها نزلت بمكة إلّا آيات من آخرها نزلت بالمدينة في عوف بن مالك الأشجعي شكا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جفاء أهله وولده فأنزل الله عز وجل: ﴿يا أيّها الذين آمَنُوا إنَّ من أَزْوَاجِكُم وأَولادِكُم عَدُوّاً لَكُمْ﴾ الى آخر السورة.

(٢) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٥٥١.

(٣) ثواب الأعمال للصدوق: ص ١٤٦.

وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ(٢) خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ
فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ(٣) يَعْلَمُ مَافِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ
مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ(٤) أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ
ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(٥) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُ
كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْ
وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ(٦) زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ قُلْ
بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ(٧) فَـَٔامِنُواْ
بِاللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ(٨) يَوْمَ
يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا
يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ
فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ(٩) وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ
أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ(١٠)﴾

﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ على الحقيقةِ دُونَ غَيْرِهِ لأنّه مُبدِئُ كلِّ شيءٍ ومُبْدِعُهُ، والمُهَيْمِنُ عليهِ ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾ دُونَ غَيْرِهِ لأنَّ أُصُولَ النِّعَمِ وفُرُوعَها منه[1]، وأمّا مُلْكُ غَيْرِهِ فَتَسليطٌ منْهُ واَسترْعَاءٌ، وحَمْدُ غَيْرِهِ اَعتِدَادٌ بأنَّ نِعمةَ اللهِ جرَتْ علىٰ يَدِهِ.

﴿فَمِنكُمْ﴾ آتٍ بالكُفْرِ وفَاعِلٌ لَهُ ﴿وَمِنكُمْ﴾ آتٍ بالإيمانِ وفَاعِلٌ لَهُ ﴿وَٱللَّهُ... بَصِيرٌ﴾ بكُفْرِكُم وإيمانِكُم اللَّذَيْنِ هما من جُملةِ أَعْمالِكُم. والمعنىٰ: هو الّذي تَفضَّلَ عليكُم بأَصْلِ النِّعَمِ الّذي هو الإيجادُ عن العَدَمِ، فكَانَ يَجِبُ أَن تَنظُروا النَّظَرَ الصَّحيحَ فتكُونُوا مؤمنينَ موحِّدينَ، فَما فَعَلْتُم ذلكَ مع تَمكُّنِكُم، بَلْ تَفرَّقْتُم أُمَماً ﴿فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾، وقدَّمَ الكُفرَ لأنَّهُ الأَغْلَبُ عليهم والأَكْثَرُ فيهم.

---

(١) في نسخة زيادة: «دون غيره».

﴿بِالْحَقِّ﴾ أي: بالغَرَضِ الصَّحيحِ والحِكْمَةِ البالِغَةِ ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ بأَنْ جَعَلَكُم أَحْسَنَ الحَيَوانِ وأَبْهاهُ، بِدَليلِ أنَّ الإِنسانَ لا يَتَمَنَّىٰ أَن يكُونَ صُورَتُهُ علىٰ صُورةِ جِنْسٍ آخَرَ من الحَيَوانِ.

نَبَّهَ سبحانَهُ بِعِلْمِهِ ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ثمَّ بِعِلْمِهِ ما يُسِرُّهُ العِبادُ وَما يُعْلِنُونَهُ ثمَّ بِعِلْمِهِ ذَوَاتِ الصُّدُورِ أنَّ شيئاً من الكُلِّياتِ والجُزْئياتِ لا يَعْزبُ[1] عن عِلْمِهِ ولا يَخْفىٰ عليهِ، فَحَقُّهُ أَن يُتَّقىٰ ويُحْذَرَ من مَعْصِيَتِهِ.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾ خِطَابٌ للكُفَّارِ. و ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشَارَةٌ إلىٰ ما ذُكِرَ من الوَبَالِ الّذي ذَاقُوهُ في الدُّنيا، وما أَعَدَّهُ ٱللهُ لهم من عَذَابِ الآخِرَةِ ﴿بِأَنَّهُ﴾ بأَنَّ الشَّأْنَ والحديثَ ﴿كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾، ﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ أَنْكَروا أَن يكُونَ الرُّسُلُ بَشَراً، ولَمْ يُنْكِروا أَن يكُونَ ٱللهُ[2] حَجَراً. و «البَشَرُ» يَقَعُ على الوَاحِدِ والجَمْعِ ﴿قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾[3]، ﴿وَٱسْتَغْنَى ٱللهُ﴾ أَطْلَقَ اللَّفْظَ لِيَتَنَاوَلَ كلَّ شيءٍ، ومِنْ جُمْلَتِهِ: إيْمانُهُم... وطَاعَتُهُم، والمُرادُ: وظَهَرَ ٱستِغْناءُ ٱللهِ حيثُ لَمْ يَضْطَرَّهُم إلى الإِيْمانِ مع قُدْرتِهِ علىٰ ذلكَ.

الزَّعْمُ: ادِّعاءُ العِلْم. وفي الحَديثِ: «زَعَموا» مَطيَّةُ الكَذِبِ[4]. ﴿أَن لَّن يُبْعَثُوا۟﴾ أنَّهم لَنْ يُبْعَثُوا، أو: سَدَّ مَسَدَّ مَفْعُولَيْ ﴿زَعَمَ﴾، ﴿بَلَىٰ﴾ إثْباتٌ لِمَا بَعْدَ ﴿لَن﴾ وهو البَعْثُ ﴿وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللهِ يَسِيرٌ﴾ لا يَصْرِفُهُ عنْهُ صَارِفٌ.

﴿وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا﴾ هو القُرآنُ. وقُرِئ: «نَجْمَعُكُم»[5]، و «نُكَفِّرْ عَنْهُ»،

---

(١) في نسخة: «لا يغرب». (٢) في نسخة: «الإلٰه».
(٣) يسٓ: ١٥.
(٤) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٥٤٨ مرسلًا.
(٥) بالنون هي قراءة يعقوب وحده. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٧٢٢.

«ونُدْخِلْهُ» بالياءِ والنُّـونِ[١]، ﴿يَـوْمَ يَـجْمَعُكُمْ﴾ ظَـرْفٌ لقَـولِهِ: ﴿لَـتُنَبَّؤُنَّ﴾ أَو: لـ﴿خَبِيرٌ﴾ لِمَا فيهِ من معنَى الوَعيدِ، كأنَّه قَالَ: واللهُ مُعَاقِبُكُم يَوْمَ يَجْمَعُكُم ﴿لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ﴾ ليَوْمٍ يُجْمَعُ فيه الأوَّلُونَ والآخرُونَ، و ﴿ٱلتَّغَابُنُ﴾ مستَعَارٌ مِـن: تَـغَابَنَ القَوْمُ في التِّجارةِ، وهو أَن يَغْبُنَ بَعْضُهُم بَعْضاً.

وعن النَّبيِّ ﷺ: «ما مِنْ عَبْدٍ يَدْخُلُ الجَنَّةَ إلَّا أُرِيَ مَقْعَدَهُ من النَّارِ لَو أَسَاءَ لِيَزْدَادَ شُكْراً، وما مِنْ عَبدٍ يَدْخُلُ النَّارَ إلَّا أُرِيَ مَقْعَدَهُ من الجنَّةِ لَو أَحْسَنَ لِيَزْدَادَ حَسْرَةً»[٢].

وهو من معنىٰ ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾ فَيَظْهَرُ في ذلكَ اليَوْمِ الغَابِنُ والمَـغْبُونُ، فالتَّغَابُنُ فيهِ هو التَّغَابُنُ على الحقيقةِ لا التَّغَابُنُ في أُمورِ الدُّنيا وإنْ عَظُمَتْ وَجَلَّتْ ﴿صَـٰلِحاً﴾ صِفَةٌ للمَصْدَرِ، أي: عَمَلًا صَالِحاً.

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ(١١) وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ(١٢) ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ(١٣) يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَـٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(١٤) إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ(١٥) فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ(١٦) إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَـٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ(١٧) عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ(١٨)﴾

---

(١) وبالنون قرأه نافع وابن عامر والمفضّل عن عاصم. راجع المصدر السابق.

(٢) أخرجه البخاري في الصحيح: ج ٢ ص ١٢٤. عن أبي هريرة.

﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ بتَقْديرِهِ وَمَشيئَتِهِ، كأَنَّهُ أذن للمُصيبةِ أَنْ تُصيبَهُ ﴿يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ يَلْطُف بهِ ويَشْرحهُ للازْدِيادِ من الطَّاعةِ والخَيْرِ، وعنِ ٱبنِ عبَّاس: يَهْدِ قَلْبَهُ للاسترْجَاعِ عنْدَ المُصِيبَة[١]. وعنْ مُجَاهِدٍ: إنْ ٱبْتُلِيَ صَبَرَ، وإنْ أُعْطِيَ شَكَرَ، وإنْ ظُلِمَ غَفَرَ[٢]. وعَنِ الضَّحَّاكِ: يَهْدِ قَلْبَهُ حتَّىٰ يَعْلَمَ أَنَّ ما أَصابَهُ لَمْ يكُنْ لِيُخْطِئَهُ، وأَنَّ ما أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبهُ[٣].

﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ﴾ أَزْواجاً يُعَادينَكُم ويُخَاصِمْنَكُم، وَمِن ﴿أَوْلَـٰدِكُمْ﴾ أَوْلاداً يُعَادُونَكُم ويَعُقُّونَكُم ﴿فَاحْذَرُوهُمْ﴾ الضَّميرُ للعَدُوِّ أو للأَزْواجِ والأَولادِ جَميعاً، أي: فَكُونُوا منْهُم علىٰ حَذَرٍ ولا تَأْمَنُوا غَوائِلَهُم وشُرورَهُم ﴿وَإِن تَعْفُواْ﴾ عَنْهم إذَا اطَّلَعْتُم منْهُم علىٰ عَدَاوَةٍ، وتَتَجَاوَزُوا عَنْهُم، وتَسْتروا ما فَرَطَ منْهُم عَلَيْهم ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ يَغْفِرُ لَكُمْ ذُنُوبَكُم، وَيُكَفِّرُ عَنْكُم سَيِّئَاتِكُم.

﴿إِنَّمَا أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾[٤] أي: بلاءٌ ومِحْنَةٌ وَسَبَبٌ لوقُوعِكُم في الجَرَائِم والعَظَائِم، وقيلَ: إذا أَمْكَنَكُم الجِهَادَ والهِجْرَةَ فَلَا يَفْتِنَنَّكم المَيْلُ إِلَى الأَموالِ والأَولاد[٥]. ﴿فَاتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ جَهْدَكُم ووُسْعَكُم، أي: ابذُلُوا فيها جَهْدَكُم وٱستِطَاعَتكم ﴿وَٱسْمَعُواْ﴾ ما تُوعَظُونَ بِهِ ﴿وَأَطِيعُواْ﴾ فيما تُؤْمَرونَ به وتُنْهَوْنَ عَنْهُ ﴿وَأَنْفِقُواْ﴾ في الوجوهِ الّتي تَجِبُ عليكُم النَّفَقَةُ فِيها ﴿خَيْراً﴾ مَنْصُوبٌ بمَحْذُوفٍ، والتَّقديرُ: ٱئْتُوا خَيْراً لأَنْفُسِكُم، أي: ٱفْعَلُوا ما هو خَيْرٌ لها وأَنْفَعُ. وهذا

---

(١) تفسير ابن عباس: ص ٤٧٤.

(٢) حكاه الفرّاء في معاني القرآن: ج ٣ ص ١٦١.

(٣) حكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٥٤٩.

(٤) روى النحّاس عن ابن زيد عن أبيه قال: كان النبيّ ﷺ يخطب فرأى الحسن والحسين يعبران (يعثران ـ خ) فنزل من على المنبر وضمّهما إليه وتلا هذه الآية. إعراب القرآن لأبي جعفر النحاس: ج ٤ ص ٤٤٥ ـ ٤٤٦.

(٥) قاله الزجّاج في معاني القرآن: ج ٥ ص ١٨٢.

تَأْكيدٌ للحَثِّ على ٱمتثالِ هذه الأَوامرِ وَبيَانٌ، لأنَّ هذهِ الأُمورَ خَيْرٌ لأَنْفُسِكُم من الأَموالِ والأَولادِ، وما أَقْبلْتُم عليهِ من زَبَارجِ الدُّنْيا وَلَذَّاتِها الفَانيةِ.

وَذِكْرُ القَرْضِ تَلطُّفٌ في الاستِدْعَاءِ ﴿يُضَـٰعِفْهُ لَكُمْ﴾ يُكْتَبُ لَكُم بالواحِدِ عَشرٌ أو[1] سَبْعُمائةٍ إلىٰ ما شَاءَ من الأَضْعافِ المُضَاعَفَةِ ﴿شَكُورٌ﴾ مُجَازٍ، أي: يَفْعَلُ بكُم ما يَفْعَلُهُ المُبَالِغُ في الشُّكْرِ من الأَجْرِ الجَزيلِ والثَّوابِ العظيمِ ﴿حَلِيمٌ﴾ لا يُعَاجِلُ بالعُقُوبةِ مَعَ كَثْرةِ ذُنُوبِكُم.

۞ ۞ ۞

(١) في بعض النسخ: «الىٰ» بدل «أو».

سُورَةُ الطَّلَاقِ[1]

مدنيَّةٌ[2]، وَهِيَ إحدىٰ عَشرَة آيةً بَصْريٌّ، واْثنَتَا عَشرَة غَيْرُهُم، لَمْ يَعُدَّ البصريُّ: ﴿يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً﴾[3].

في حَديثِ أُبيٍّ: «مَنْ قَرأَ سُورةَ الطَّلاقِ مَاتَ علىٰ سُنَّةِ رَسُولِ ٱللهِ صلى الله عليه وآله وسلم»[4].

وعن الصَّادقِ عليه السلام: «مَنْ قَرأَ سُورةَ الطَّلاقِ والتَّحْريمِ في فَرائِضِهِ أَعَاذَهُ ٱللهُ مِن أَن يكُونَ يَوْمَ القيامةِ مِمَّنْ يَخَافُ أو يَحْزن، وعُوفِيَ من النَّارِ، وأَدْخَلَهُ ٱللهُ الجنَّةَ بِتِلَاوتِهِ إيَّاهُما ومُحافَظَتِهِ عَلَيْهِما، لأَنَّهما للنبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم»[5].

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ

(١) في المجمع: وتسمّىٰ سورة النساء القصرىٰ.

(٢) قال الشيخ الطوسي في التبيان: ج ١٠ ص ٢٧: مدنيّة في قول ابن عباس وعطاء والضحّاك وغيرهم، وهي اثنتا عشرة آية في الكوفي والمدنيّين، وعشر في البصري.
وفي الكشّاف: ج ٤ ص ٥٥١: مدنيّة وهي إحدىٰ عشرة أو اثنتا عشرة أو ثلاث عشرة آية، نزلت بعد الإنسان.

(٣) الآية: ٢.

(٤) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٥٦١ مرسلًا.

(٥) ثواب الأعمال للصدوق: ص ١٤٦.

وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا(١) فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا(٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا(٣) وَٱلَّٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا(٤) ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا(٥)﴾

خصَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم بالنِّداءِ، وَعَمَّ بالخِطَابِ كَمَا يُقَال للرئيسِ المُتقدِّمِ في القَوْمِ: يا فُلَانُ افعلُوا كَذَا، إظْهاراً لِتقدُّمِهِ واْعتباراً بأنَّهُ وَحْدُهُ في حُكْمِ جَميعِهِم، والمعنىٰ: إذا أَرَدْتُم تَطْليقَ النِّساءِ، كَقَوْلِهِ: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [1]، ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [2] تنزيلًا للمُقبِلِ على الأمرِ مَنزلَةَ الشَّارعِ فيهِ ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ أي: لِزمانِ عِدَّتِهِنَّ، والمُرادُ: أن يُطَلِّقْنَ في طُهرٍ لم يُجامَعْنَ فيهِ، وهو الطَّلاقُ للعِدَّةِ، لأنَّها تَعْتَدُّ بذلكَ الطُّهرِ منْ عِدَّتِها، والمعنىٰ: لِطُهْرِهِنَّ الَّذي يُحْصِينَهُ من عِدَّتِهِنَّ، وَهُو مَذْهَبُ الشَّافعيِّ [3] وأَهْلِ البيتِ عليهم السلام [4]. وقيلَ: إنَّ المعنىٰ: فَطَلِّقُوهُنَّ مستَقْبِلاتٍ

---

(١) المائدة: ٦. (٢) الاسراء: ٤٥.

(٣) كتاب الأمّ للشافعي: ج ٥ ص ١٨٠، ومختصر المزني: ص ١٩١.

(٤) الخلاف للشيخ الطوسي: ج ٤ ص٤٤٦ المسألة (٢)، الانتصار للشريف المرتضىٰ: ص ١٣٢.

لِعِدَّتِهِنَّ، كَقَولِكَ: أتيتُهُ لِلَيلةٍ خَلَتْ من الشَّهرِ[(١)]، فَتَكُونُ العِدَّةُ الحَيْضَ، وهو مَذْهَبُ أَبي حَنيفَةَ[(٢)] ﴿وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ﴾ وٱضبطُوها بالعَدَدِ وَعُدُّوها ثلاثَةَ أَقْراءٍ، وإنَّما أَمَرَ بإحْصَاءِ العِدَّةِ لأنَّ للمرأةِ فيها حقّاً، وهو النَّفَقَةُ والسُّكْنىٰ، وللزَّوجِ فيها حقّاً وهو المُراجَعَةُ ومَنْعُها من الأَزْواجِ.

﴿وَلَا تُخْرِجُوهُنَّ﴾ حتَّىٰ تَنقَضِيَ عدَّتُهُنَّ ﴿مِنْ بُيُوتِهِنَّ﴾ من مَسَاكِنِهِنَّ الّتي يَسْكُنَّها[(٣)] قَبْلَ العِدَّةِ، وهي بُيُوتُ الأَزْواجِ، وأُضِيفَتْ إِليهِنَّ لاختِصَاصِها بِهِنَّ مَن حَيْثُ السُّكْنىٰ ﴿وَلا يَخْرُجْنَ﴾ بِأَنْفُسِهِنَّ إنْ أَرَدْنَ ذلك ﴿إلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ﴾ قُرِئَ بفَتْحِ الياءِ[(٤)] وكَسْرِها، أي: مُظْهَرةٍ أو ظَاهِرَةٍ، وَعَنِ الحَسَنِ ومُجَاهِدٍ: الفَاحشةُ: الزِّنا[(٥)]، وعنِ ٱبنِ عبَّاسٍ: هي البَذاءُ علىٰ أَهْلِها[(٦)]، ورُوِيَ ذلكَ عن أئمةِ الهُدىٰ عليهم السلام[(٧)]. ﴿لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْراً﴾ وهو أَن يُغَيِّرَ رَأْيَ الزَّوْجِ ويُوقِعَ في قَلْبِهِ أَنْ يُراجِعَهَا. والمعنىٰ: فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ لعلَّكُم تَرغَبُونَ فيهِنَّ بَعْدَ الرَّغْبَةِ عنْهنَّ فَتُراجِعُونَ.

﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ وهو آخِرُ العِدَّةِ وشَارَفْنَهُ فَأَنْتُم بالخَيارِ: فَرَاجِعُوهُنَّ إنْ شِئْتُم وأَمْسِكُوهُنَّ بالمعروفِ والإحْسَانِ ﴿أَوْ فَارِقُوهُنَّ﴾ إنْ شِئْتُم بِتَرْكِ الرَّجْعَةِ ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾ بأَنْ تَتْرُكُوهُنَّ حتَّىٰ يَخْرُجْنَ من العِدَّةِ فيهِنَّ منْكُم ﴿وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ والظَّاهِرُ يَقْتَضي وجُوبَ الإشْهَادِ علىٰ ما ذَهَبَ إليهِ أَصحابُنا في

---

(١) قاله الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٥٥٢.

(٢) المبسوط للسرخسي: ج ٦ ص ٨. (٣) في بعض النسخ: «تسكنها».

(٤) وهي قراءة ابن كثير وأبي بكر عن عاصم. راجع العنوان في القراءات لابن خلف: ص١٩٢.

(٥) تفسير الحسن البصري: ج ٢ ص ٣٥١، وتفسير مجاهد: ص ٦٦٣.

(٦) حكاه عنه الماوردي في تفسيره: ج ٦ ص ٢٩ وزاد: والشافعي.

(٧) أُنظر التبيان: ج ١٠ ص ٣١.

الطَّلاقِ(١)، ﴿وَأَقِيمُوا ٱلشَّهَـٰدَةَ لِلَّهِ﴾ أي: لِوَجهِ ٱللهِ لا لِغَرَضٍ من الأَغْراضِ سِوَىٰ إقَامَةِ الحقِّ. ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الأَمْرُ بالحقِّ، أو: الحَثُّ علىٰ إقامةِ الشَّهادةِ، ﴿يُوعَظُ بِهِ﴾ المؤْمنونَ ﴿وَمَنْ يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ فطَلَّقَ للسُّنَّةِ، واْحتَاطَ في إيقَاعِهِ علَى الوَجْهِ المأْمورِ، وأَشْهَدَ عليهِ ﴿يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُ مَخْرَجاً﴾ من كُلِّ هَمٍّ وَضِيقٍ ﴿وَيَـرْزُقْهُ مِـنْ حَـيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ فَتَكُونُ جُملةً اعتراضيَّةً مؤَكِّدةً لِمَا سَبَقَ، ويَجُوزُ أَن تكُونَ جُملةً أُتِيَ بهَا علىٰ سبيلِ الاستِطْرادِ عنْدَ ذِكْرِ قَولِهِ: ﴿ذَٰلِكُم يُوعَظُ بِهِ﴾ ويكُون المعنىٰ: وَمَنْ يتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْلصاً من غُمُومِ الدُّنيا والآخِرَةِ.

وعنِ النَّبيِّ ﷺ: «إِنِّي لَأَعْلَمُ آيةً لَوْ أَخذَ النَّاسُ بِهَا لَكفَتْهُم: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ فَمَا زَالَ يَقْرأُها ويُعِيدُها»(٢).

وقُرِئَ: ﴿بَـٰلِغُ أَمْرِهِ﴾ بالإِضَافَةِ، و«بَالِغٌ أَمْرَهُ» بالنَّصْبِ(٣)، أي: يبلغ ما يريده، لا يفوته مراد ولا يعجزه مطلوب ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَـدْرًا﴾ أي: تَـقْديراً وَتَوقيتاً، وفيهِ بيانٌ لوجُوبِ التوكُّلِ على ٱللهِ، لأنَّهُ إذا عَلِمَ أنَّ كُلَّ شـيءٍ بـتَقْديرِهِ وتَوقيتِهِ لَمْ يَبْقَ إلَّا التَّسليمُ لذلكَ والتَّفْويضُ إليهِ.

﴿وَٱلَّـٰٓئِى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ﴾ فَلا يَحِضْنَ ﴿إِنِ ٱرْتَـبْتُمْ﴾ فَـلا تَدْرونَ، لِكِبَرٍ ارتفع حَيْضُهنَّ أَمْ لِعَارِضٍ ﴿فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَـٰثَةُ أَشْهُرٍ﴾ فَهٰذهِ عِدَّةُ المُرتَابِ بهَا، وقُدِّرَ ذلكَ بما دُونَ خَمسينَ سَنَةٍ وهو مَذْهَبُ أَهلِ البيتِ عليهم السلام(٤). ﴿وَٱلَّـٰٓئِى

---

(١) أُنظر كتاب الخلاف للشيخ الطوسي: ج ٤ ص ٤٥٣ المسألة (٥)، وقال: وخالف جميع الفقهاء في ذلك، ولم يعتبر أحد منهم الشهادة.

(٢) أخرجه ابن ماجة في السنن: ج ٢ ص ١٤١١ ح ٤٢٢٠ عن أبي ذرٍّ. وفيه: «لأعرف» بدل «لأعلم».

(٣) وهي قراءة الجمهور إلّا عاصماً. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٦٣٩.

(٤) وهو ما رواه عبدالرحمن بن الحجّاج عن الصادق عليه السلام قال: ثلاث يتزوّجن على كل ←

لَمْ يَحِضْنَ﴾ أي: لَمْ يَبْلُغْنَ المَحِيضَ من الصَّغَائِرِ، والمعنىٰ: إِنِ ٱرتَبْتُم أَيضاً في أَنَّ مِثْلَها تَحيضُ فَعِدَّتُهُنَّ ثلاثة أَشْهرٍ، فَحُذِفَ لِدَلالةِ المذْكُورِ قَبْلُ عَلَيْهِ، وقُدِّرَ ذلك بِتسْعِ سنينَ فَمَا زَادَ[١].

﴿وَأُوْلَـٰتُ ٱلأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ وعنِ ٱبنِ عبَّاسٍ: هِيَ فـي المُطَلَّقَاتِ خَاصَّة[٢]، وهو المَرويُّ عن أَئمّتِناعليهم السلام[٣]. فأَمَّا المتوفَّىٰ عنها زَوجُها إذا كانَتْ حَامِلًا فَعِدَّتُهُنَّ أَبْعَدُ الأَجَلَينِ[٤]، فإنْ مَضَتْ بِهَا أَرْبَعةُ أَشْهر وعَشْرٍ ولَـمْ تَضَع ٱنتَظَرَتْ وَضْعَ الْحَمْلِ ﴿يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً﴾ أي: يَتَيسَّرُ عليهِ أُمورُ الدُّنيا والآخِرَةِ بِسَبَبِ التَّقْوىٰ.

﴿ذٰلِكَ أَمْرُ ٱللهِ﴾ يُرِيدُ: ما عَلَّمَ من حُكْمِ المُعْتَدَّاتِ، والمعنىٰ: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ ٱللهَ﴾ في العَمَلِ بما ﴿أَنْزَلَهُ﴾ من الأَحكامِ في الطَّلاقِ والرَّجْعَةِ والعِدَّةِ، وحَـافَظَ عـلى الحقُوقِ الواجبةِ عليهِ من الإِسْكانِ والنَّفَقَةِ وتَـرْكِ الضِّـرَارِ ﴿يُكَـفِّرْ﴾ ٱللهُ ﴿عَـنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْراً﴾ في الآخِرَةِ وهو ثَوابُ الجَنَّة.

﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُـضَآرُّوهُنَّ لِـتُضَيِّقُواْ عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُوْلَـٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ حَـتَّىٰ يَـضَعْنَ حَـمْلَهُنَّ فَـإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُواْ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَـعَاسَرْتُـمْ

← حال... (الى أن قال): والتي قد يئست من المحيض ومثلها لا تحيض، قلت: وما حدّها؟ قال: اذا كان لها خمسون سنة. أُنظر تهذيب الأحكام: ج ٨ ص ١٣٧ ح ٤٧٨.

(١) أُنظر موثقة عبدالرحمن المتقدّمة في التهذيب.

(٢) حكاه عنه الشيخ الطوسي في التبيان: ج ١٠ ص ٣٤.

(٣) رواه الطبري في تفسيره: ج ١٢ ص ١٣٥ باسناده عن الشعبي عـن عـليٍّعليه السلام، ومـا رواه عبدالله بن سنان عن الصادقعليه السلام في الرجل يطلّق امرأته وهي حبلىٰ، قال: أجلها أن تضع حملها. أُنظر تهذيب الأحكام: ج ٨ ص ١٣٤ ح ٤٦٤.

(٤) اي: أجل وضع الحمل واجل الأربعة أشهر وعشرة أيام.

فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ(٦) لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَـٰهُ ٱللَّهُ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَـٰهَا سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا(٧) وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَـٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَـٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا(٨) فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَـٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا(٩) أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُواْ ٱللَّهَ يَـٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا(١٠) رَّسُولاً يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَـٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَـٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُ رِزْقًا(١١) ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا(١٢)﴾

بَيَّنَ سبحانَهُ كَيْفَ يُعْمَلُ بالتَّقْوىٰ في أَمْرِ المُعْتَدَّاتِ فَقَالَ: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُم﴾ أي: بَعض مَكَانِ سُكْنَاكُم كَمَا قَالَ: ﴿يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِم﴾ [١] أي: بَعْضِ أَبْصَارِهِم، وعن قَتَادَةَ: إنْ لَمْ يكُنْ لَهُ إلَّا بَيْتٌ واحِدٌ أَسْكَنَها في بَعْضِ جَوَانِبِهِ [٢] ﴿مِنْ وُجْدِكُمْ﴾ عَطْفُ بَيَانٍ لِقَولِهِ: ﴿مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُم﴾ وتَفْسِيرٌ لَهُ، كَأَنَّهُ قَالَ: أَسْكِنُوهُنَّ مكاناً من مَسْكَنِكُم مِمَّا يُطِيقُونَهُ، والوُجْدُ: الْوُسْعُ والطَّاقَةُ.

والسُّكْنىٰ والنَّفَقَةُ واجِبَتَانِ للمُطَلَّقَةِ الرجعيَّةِ بلاخِلَافٍ، وعِنْدَنا: أَنَّ المبتُوتَة [٣]

---

(١) النور: ٣٠.

(٢) حكاه عنه السيوطي في الدر المنثور: ج ٨ ص ٢٠٧ وعزاه الى عبد بن حميد.

(٣) البتُّ: القطعُ، يقال: لا أفعلهُ بتَّةً وألبتَّةَ، لكلِّ أمرٍ لا رجعة فيه، وكذلك: طلَّقها ثلاثاً بتَّةً. (الصحاح: مادة بتت).

لا سُكنىٰ لَهَا ولا نفقة[١]، وحَديثُ فَاطِمَةَ بنْتِ قَيْسٍ أنَّ زَوْجَها بَتَّ طَلاقَها فَقَالَ لَهَا رَسُولُ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «لا سُكْنىٰ لَكِ ولا نفقَة»[٢] يَدُلُّ عليهِ.

﴿وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ﴾ ولا تُدْخِلُوا الضَّرَرَ عليهِنَّ بالتَّقْصيرِ في السُّكْنىٰ والنَّفقَةِ، ﴿لِتُضَيِّقُواْ عَلَيْهِنَّ﴾ حتَّىٰ تَضْطَرُّوهُنَّ إلى الخُرُوجِ، وقيلَ: هو أَن يُراجِعَها إذا بَقِيَ من عِدَّتِها يومَانِ لِيُضَيِّقَ عَلَيْها أَمْرَها[٣]. ﴿وَإِن كُنَّ أُوْلَـٰتِ حَمْلٍ﴾ أي: حَوامِلَ، ﴿فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ سَواءٌ كُنَّ رَجْعيَّاتٍ أو مبتُوتَاتٍ ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ﴾ يَعني: هؤلاءِ المُطَلَّقَاتُ إنْ أَرْضَعْنَ لَكُم وَلَداً منْهنَّ أو مِن غيرِهِنَّ بعدَ ٱنقطَاعِ عِصْمَةِ الزَّوجيَّةِ ﴿فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ فَأَعْطُوهُنَّ أُجْرَةَ الرَّضَاعِ، ﴿وَأْتَمِرُواْ بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ﴾ يُقَالُ: ائْتَمَرَ القَوْمُ وتَآمَروا: إذَا أَمَرَ بَعضُهُم بَعْضاً. والمعنىٰ: وَلْيَأْمُرْ بَعْضُكُم بَعْضَاً، والخِطَابُ للآباءِ والأُمّهاتِ ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾ بجَميلٍ في إرْضَاعِ الوَلَدِ، وهو: المُسَامَحَةُ، وأَنْ لا يُمَاكِسُ[٤] الأَبُ، ولا تُعاسِرُ الأُمّ، لأَنَّه وَلَدُهما معاً، وهُمَا شَريكانِ فيهِ. ﴿وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ﴾ أي: الأبُ، أي: سَيَجِدُ الأَبُ مُرضِعَةً غيْرَ مُعَاسِرَةٍ تَرْضعُ لَهُ وَلَدَهُ إنْ عاسَرَتْه أُمُّهُ.

﴿لِيُنفِقْ﴾ كُلُّ واحِدٍ من المُوسِرِ والمُعْسِرِ ما بَلَغَهُ وسْعُهُ، يُريدُ: ما أُمِرَ بِهِ مِنَ الإنْفَاقِ على المُطَلَّقَاتِ والمُرضِعَاتِ، وهو مِثْلُ قَولِهِ: ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ﴾[٥]، ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ هذا مَوعِدٌ لفُقَراءِ

---

(١) لرواية عبدالله بن سنان عن أبي عبدالله عليه السلام قال: سألته عن المطلّقة ثلاثاً على السنّة هل لها سكنىٰ أو نفقة؟ قال: «لا» أنظر الكافي: ج ٦ ص ١٠٤ باب المطلّقة ثلاثاً لا سكنىٰ لها ولا نفقة.

(٢) أخرجه ابن ماجة في السنن: ج ١ ص ٦٥٦ ح ٢٠٣٦ عن الشعبي عن فاطمة بنت قيس.

(٣) قاله أبو الضحىٰ. راجع تفسير القرطبي: ج ١٨ ص ١٦٨.

(٤) المكْسُ: النقصُ، وٱنتقاصُ الثمن وٱستحطاطُهُ والمنابذة في المعاملة. (لسان العرب).

(٥) البقرة: ٢٣٦.

ذلك الوَقْتِ بفَتْحِ أَبوابِ الرِّزْقِ عليهم، أو: لِفُقَراءِ الأَزْواجِ إنْ أَنْفَقُوا مَا قَدرُوا عليهِ ولَمْ يُقَصِّروا.

﴿وَكَأَيِّن﴾ أي: وكَمْ مِن أَهْلِ ﴿قَرْيَةٍ﴾ أَعْرَضُوا ﴿عَنْ أَمْرِ﴾ رَبِّهم عُتُوّاً وعِناداً، وجَاوَزُوا الحَدَّ في المخالَفَةِ ﴿حِسَاباً شَدِيداً﴾ بالاستقْصَاءِ والمناقَشَةِ ﴿عَذَاباً نُّكْراً﴾ أي: مُنْكَراً عَظِيماً. والمُرادُ: حِسَابُ الآخِرَةِ وعَذَابُها وما يَذُوقُونَ فيها من الوَبَالِ، ويَلْقَوْنَ من الخُسْرانِ، وَجِيءَ بِهِ على لَفْظِ المَاضي كَقَولِهِ: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ... وَنَادَىٰ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ (١) ونَحْوُ ذلكَ، لأَنَّ ما هو كائِنٌ فكَان.

قَدْ ﴿أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً﴾ تَكريرٌ للتَّوعيدِ، وبَيَانٌ لكَوْنِهِ مُتَرَقَّباً، ويَجُوزُ أَن يُرادَ إحْصَاءُ السَّيِّئاتِ عَلَيهم في الدُّنْيا وهو إثْباتُها في صَحَائِفِ أَعْمالِهم، وإعْدَادُ العَذَابِ الشَّديدِ (٢) لَهُم في الآخِرَةِ، وأَن يكُونَ ﴿عَتَتْ﴾ وَمَا عُطِفَ عليهِ صِفَةً للقَرْيَةِ، و ﴿أَعَدَّ ٱللهُ﴾ جوابٌ لِـ ﴿كَأَيِّنْ﴾.

﴿رَسُولاً﴾ هو جبرئيلُ عليه السلام، أُبْدِلَ من ﴿ذِكْراً﴾ لأنَّه وُصِفَ بِتِلاوَةِ آياتِ ٱللهِ عَزَّ ٱسمُهُ، فكانَ إنْزالُهُ في معنَى إنْزالِ الذِّكْرِ، فَلِذلك صَحَّ إبْدَالُهُ منْهُ، أو: أُرِيدَ بالذِّكْرِ الشَرَفُ كَمَا في قَولِهِ: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ (٣)، فَأُبْدِلَ منْهُ، كأَنَّهُ في نَفْسِهِ شَرَفٌ، إِمَّا لأَنَّهُ شَرَفٌ للمُنْزَلِ عليهِ وإِمَّا لأَنَّهُ ذُو شَرَفٍ ومَجْدٍ عنْدَ ٱللهِ، أو: أُرِيدَ: ذَا ذِكْرٍ، أي: مَلَكاً مذْكُوراً في الأُمَمِ، أو: دَلَّ قَولُهُ: ﴿أَنْزَلَ ٱللهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً﴾ علىٰ: أَرْسَلَ، فكَأَنَّهُ قَالَ: أَرْسَلَ رَسُولاً، أو: أَعْمَلَ ﴿ذِكْراً﴾ في ﴿رَسُولاً﴾ (٤) أي: أَنْزَلَ ٱللهُ أَنْ ذَكَرَ رَسُولاً أو: ذَكَرَهُ رَسُولاً، ويَجُوزُ أَن يكُونَ المُرادُ علىٰ هذا بِقَولِهِ: ﴿رَسُولاً﴾

(١) الأعراف: ٤٤ و ٥٠.

(٢) في نسخة: «الشدائد» بدل «العذاب الشديد».

(٣) الزخرف: ٤٤.

(٤) أي: إعمال المصدر في المفاعيل. كذا في الكشّاف.

محمّداً ﷺ ﴿لِيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بَعْدَ إنْزالِهِ لأنَّهم كانُوا وَقْتَ الإنْـزالِ غَـيْرَ مؤْمنينَ، وإنَّما آمنُوا وأَصْلَحُوا بَعْدَ الإنْزَالِ والتَّبليغِ، أو: ليُخرِجَ الّذين عَرَفَ مـنْهُم أَنَّهم يؤْمنُونَ، وقُرِئَ: ﴿يُدْخِلْهُ﴾ بالياءِ والنُّونِ(١) ﴿قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُ رِزْقاً﴾ فـيهِ معنَى التَّعجُّبِ والتَّعْظيمِ لِمَا يَرزُقُ المؤْمنَ في الجنَّةِ من أَنْواعِ النَّعيمِ.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ مبتَدأٌ وخَبَرٌ، و ﴿مِثْلَهُنَّ﴾ عَطْفٌ علىٰ ﴿سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ﴾، قَالُوا: ما في القُرآنِ آيةٌ تَدُلُّ علىٰ أنَّ الأَرضينَ سَبْعٌ إلَّا هٰذِهِ الآيةُ(٢). ﴿يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ أي: يَجْرِي أَمْرُ ٱللهِ وحُكْمُهُ بَيْنَهُنَّ، ويُدبِّرُ تَـدبيراتِـهِ فـيهنَّ، ﴿لِتَعْلَمُوٓاْ﴾ بالتَّدبيرِ في خَلْقِ السَّمٰوَاتِ والأَرْضِ أنَّ ٱللهَ الّذي أَنْشَأَهُما وأَوْجَدَهُما ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ لِكَونِهِ قَادِراً لِذَاتِهِ ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمَاً﴾ لِكَوْنِهِ عَالِماً لِذَاتِه.

❁ ❁ ❁

(١) وبالنون قرأه نافع وابن عامر والمفضّل عن عاصم. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٦٣٩.

(٢) وممّن قاله: ابن مسعود والربيع بن أنس ومجاهد وقتادة، ورووه عن النبي ﷺ. راجع تفسير الطبري: ج ١٢ ص ١٤٥ ـ ١٤٦.

سُورَةُ التَّحْرِيم

مدنيّة(١)، وهِيَ اثنتَا عَشْرَة آيةً.

في حَديثِ أُبيٍّ: «مَنْ قَرَأ سُورةَ التَّحْريمِ أَعْطَاهُ ٱللهُ تَوْبةً نَصُوحاً».

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ
وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(١) قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ
وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ(٢) وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا
نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ
قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ(٣) إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ
صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ
ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ(٤) عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ
أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ

---

(١) قال الشيخ الطوسي في التبيان: ج ١٠ ص ٤٣: مدنيّة في قول ابن عباس والضحاك وغيرهما، وهي اثنتا عشرة آيةً بلاخلاف.

وفي الكشّاف: ج ٤ ص ٥٦٢: مدنيّة، وتسمّىٰ سورة النبي ﷺ وهي اثنتا عشرة آيةً، نزلت بعد الحجرات.

ثَيِّبَـٰتٍ وَأَبْكَارًا(٥) يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَـٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ(٦) يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعْتَذِرُواْ ٱلْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(٧)﴾

رُوِيَ: أنَّ رَسُولَ ٱللهِ صلى الله عليه وآله وسلم خَلَا بِمَارِيَةَ في يَوْمِ عائِشَة، وَعَلِمَتْ بذلكَ حَفْصَةُ فقالَ لها: «ٱكْتِمي عَلَيَّ وَقَد حَرَّمْتُ مَارِيَةَ على نَفْسي، فأَخْبَرَها أنَّه يَمْلُكُ من بَعْدِهِ أَبوبكرٍ وَعُمَرُ، فأَرْضَاها بذلكَ وٱستَكْتَمَها، فَلَمْ تَكْتم وأَعْلَمَتْ عائِشَةَ الخَبَرَ، وَحَدَّثَتْ كُلُّ واحِدةٍ مِنْهما أَبَاها بذلكَ، فَأَطْلَعَ ٱللهُ نَبيَّهُ صلى الله عليه وآله وسلم على ذلك، فطَلَّقَها[(١)] وٱعتَزَلَ نِسَاءَهُ، ومَكَثَ تِسْعاً وعشْرينَ ليلةً في بَيْتِ مَارِية[(٢)].

وَرُوِيَ: أنَّه صلى الله عليه وآله وسلم شَرِبَ عَسَلًا في بيتِ زَيْنَبَ بنتِ جَحْشٍ، فَتواطَأَتْ عائِشَةُ وحَفْصَةُ فَقَالَتَا لَهُ: إِنَّا نَشُمُّ منْكَ رِيحَ المَغَافِيرِ. وكانَ يَكرَهُ رَسُولُ ٱللهِ صلى الله عليه وآله وسلم التَّفَلَ، وحَرَّمَ العَسَلَ[(٣)].

والمعنىٰ: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ من ملْكِ اليَمينِ، أو من العَسَلِ ﴿تَبْتَغِى﴾ حَالٌ مِنْ ﴿تُحَرِّمُ﴾، أو: تَفْسيرٌ لَهُ، أو: استِئْنافٌ، أي: تَطْلُبُ بِهِ رضَاءَ نِسائِكَ وَهُنَّ أَحقُّ بِطَلَبِ مَرْضَاتِكَ منْكَ، ولَيسَ هذا بِزَلَّةٍ منْهُ صلوات الله وسلامه عليه كَمَا زَعَمَهُ جَارُ ٱللهِ[(٤)]، لأنَّ تَحْريمَ الإنْسانِ بَعْضَ المَلاذِّ بنَفْسِهِ بِسَبَبٍ أو غَيْرِ سَبَبٍ لَيسَ بِقَبيحٍ ولا زَلَّةٍ، ويَمكنُ أَن يكُونَ عليه السلام عُوتِبَ علىٰ ذلك لأنَّه كانَ تَرْكاً للأَوْلىٰ

(١) أي: طلَّق حفْصَة.

(٢) رواه الطبري في تفسيره: ج ١٢ ص ١٤٨ و ١٤٩ عن ابن عباس من عدّة طرق.

(٣) أخرجه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٥٦٣، ونحوه رواه البخاري في الصحيح: ج ٧ ص ٥٦ عن عائشة. والمغافير واحدتها مَغْفور: وهي بقلة متغيّرة الرائحة فيها حلاوة.

(٤) في الكشّاف: ج ٤ ص ٥٦٤ قال: وكان هذا زلّة منه! لأنّه ليس لأحدٍ أن يحرّم ما أحلّ الله!!

والأَفْضَل، ويَحسنُ أَن يُقالَ لِتارِكِ النَّفْلِ: لِمَ لَمْ تفعلْهُ؟

﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَـٰنِكُمْ﴾ أي: شَرَعَ لكُم تَحْليلَ أيْمانِكُم بالكَفَّارةِ، وعن مُقَاتِلٍ: أَمَرَ اللهُ نَبيَّهُ أَن يُكفِّرَ عن يَمينِهِ ويُراجِعَ وَليدَتَهُ، فَأَعْتَقَ رَقَبَةً وعَادَ إلىٰ مَارِيَةَ[1]، وعن الحَسَنِ: أَنَّه لَمْ يُكفِّرْ وإنَّما هو تَعليمٌ للمؤمنين[2].

وفي الحَديثِ: «لا يَمُوتُ لِمُؤْمنٍ ثَلاثَةُ أَولادٍ فَتَمَسُّهُ النَّارُ إلَّا تَحِلَّةَ القَسَمِ»[3].

وهو عِبَارةٌ عن القِلَّةِ، كقَوْلِ ذي الرِّمَّةِ:

قَليلًا كَتَحْليلِ الأَلِيِّ[4]

وقيلَ: معناهُ: شَرَعَ لكُم الاستِثْناءَ مِنْ قَولِهِم: حَلَّلَ فُلانٌ عن يَمينِهِ إذا ٱستَثْنىٰ فيها، وذلكَ أَن يقُولَ: «إنْ شَاءَ ٱللَّهُ» عَقِيبُها حتَّىٰ لا يَحْنث[5]. ﴿وَٱللَّهُ مَوْلَـٰكُمْ﴾ سَيِّدُكُم ومُتولِّي أُمورَكُم ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ﴾ بمَصَالِحِكُم ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ يَشْرعُ لَكُم ما تُوجبُهُ الحكْمَةُ، وقيلَ: ﴿مَوْلَـٰكُمْ﴾ أَوْلىٰ بكُم من أَنْفسِكُم، فَكَانَتْ نَصيحَتُهُ أَنْفَعَ لَكُم من نَصَائِحِكُم لأَنْفُسِكُم[6].

﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ﴾ وَهِيَ حفصَةُ ﴿حَدِيثًا﴾ أي: كَلاماً أَمَرَها بإخْفَائِهِ ﴿فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ﴾ وأَفْشَتْهُ وأَخْبَرَتْ غيْرَها بهِ ﴿وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ وأَطْلَعَ اللهُ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ علىٰ إفْشَاءِ الحَديثِ بالوَحْيِ ﴿عَرَّفَ﴾ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ حَفْصَةَ، أي: أَعْلَمَها بَعْضَ الحديثِ، يعني: بَعْضِ ما ٱطَّلَعَ عليهِ من ذلكَ ﴿وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ﴾

---

(١) حكاه عنه الرازي في تفسيره الكبير: ج ٣٠ ص ٤٤.

(٢) حكاه عنه الشيخ الطوسي في التبيان: ج ١٠ ص ٤٦.

(٣) أخرجه مسلم في الصحيح: ج ٤ ص ٢٠٢٨ ح ٢٦٣٢ وما بعده عن أبي هريرة، وفيه: بدل «لمؤمن» «لأحد من المسلمين».

(٤) لم نجده في ديوان ذي الرمّة المطبوع في بيروت.

(٥) حكاه الزمخشري في الكشاف: ج ٤ ص ٥٦٤.

(٦) قاله الشيخ الطوسي في التبيان: ج ١٠ ص ٤٦.

منْهُ وصَفحَ عنْهُ، أو: عن بعضِ ما جرَىٰ من الأَمرِ فَلَمْ يُخبِرْها بهِ تَكرُّماً، قَالَ سُفيَانُ: ما زَالَ التَّغَافُلُ من فِعْلِ الكِرَامِ[١]. وقُرِئَ: «عَرَفَ» بالتَّخْفيفِ[٢]، أي: جَازَىٰ عليهِ، من قَوْلِكَ للمُسيءِ: لأَعْرِفَنَّ لكَ ذلكَ، و: قد عَرَفْتُ ما صَنَعْتَ، ﴿أُوْلَٰئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾[٣]، وكانَ جَزَاؤُهُ تَطْلِيقَهُ إيَّاها ﴿فَلَمَّا نَبَّأَهَا﴾ رَسُولُ ٱللهِ ﷺ بِمَا أَظْهَرَهُ ٱللهُ عليهِ ﴿قَالَتْ﴾ حَفْصَةُ ﴿مَنْ﴾ أخبرك بـ﴿هَٰذَا﴾؟

﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ خِطَابٌ لِعَائِشَة وحَفصَة[٤] علىٰ طريقِ الالتفاتِ ليكُونَ أَبْلَغَ في مُعَاتَبتِهِما ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ فقَد وَجَدَ منْكُما ما يُوجِبُ التَّوبَةَ، وهو مَيْلُ قُلُوبِكُما عن الواجبِ في مُخَالَصَةِ رَسُولِ ٱللهِ ﷺ من حُبِّ ما يحبُّهُ وكَرَاهَةِ ما يَكْرَهُهُ.

وعن الصَّادِقِ عليه السلام: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ مِمَّا هَمَمْتُما من السُّم ﴿فَقَدْ﴾ زاغت ﴿قلوبكما﴾[٥].

وقُرِئَ: ﴿تَظَٰهَرَا﴾ و ﴿تَظَّاهَرَا﴾ بالتَّشْديدِ[٦] والتَّخْفيفِ، والأَصْلُ: إن تَتَظَاهَرا، فَخُفِّفَ بالإِدغَامِ وبالحَذْفِ، أي: وإنْ تَتعَاوَنَا على النبيِّ ﷺ بالإِيذاءِ وبِمَا يَسُوءُ فَلَمْ يَعْدِمْ هو ﷺ مَنْ يُظَاهِرُهُ، وكيفَ يُعْدَمُ المُظَاهِرُ مَنْ ٱللهُ ﴿مَوْلَىٰهُ﴾ أي: وَلِيُّهُ والمتولِّي حفظَهُ ونُصرَتَهُ، وزيادةُ ﴿هُوَ﴾ تُؤْذِنُ بأَنَّ نُصرَتَهُ

---

(١) حكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٥٦٥.

(٢) وهي قراءة الكسائي وحده. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٦٤٠.

(٣) النساء: ٦٣.

(٤) لا اختلاف في أنّهما عائشة وحفصة ابنتا أبي‌بكر وعُمَر، فانظر الروايات المسندة الى عمر نفسه حين سأله ابن عباس عن المتظاهرتَيْنِ على رسول الله ﷺ في تفسير الطبري: ج ١٢ ص ١٥٣.

(٥) تفسير علي بن ابراهيم القمي: ج ٢ ص ٣٩٣.

(٦) قرأه ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ١٦٣.

عزيمةٌ من عَزَائمِ ٱللهِ، وأنَّه يَتَولَّىٰ ذلك بذَاتِهِ وَجبْرَائِيلُ: رأْسُ الكَرُوبيِّينَ [١]، وقُرِنَ ذِكْرُهُ بذِكْرِهِ من بَيْنِ سائرِ الملائكةِ تَعْظيماً لَهُ، وإِظْهاراً لِمَكَانَتِهِ عنْدَهُ، ﴿وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ومَنْ صَلُحَ من المؤْمنينَ، وعن سَعيدِ بنِ جُبَيْرٍ: مَنْ بَرِئَ منْهُم من النِّفاقِ [٢]، وعن قَتَادَةَ: الأَتْقياء [٣]. ويَجُوزُ أَن يكُونَ واحِداً أُريدَ بِهِ الجَمْعُ، كما يُقَالُ: لا يَفْعَلُ هذا الصَّالِحُ من النَّاسِ، يُرادُ الجِنس، أي: مَنْ صَلُحَ منهم [٤]. ويَجُوزُ أن يكُونَ الأَصْلُ: «صَالِحُو المؤْمنينَ» بالوَاوِ، فَكُتِبَ بِغَيْرِ وَاوٍ على اللَّفْظِ [٥].

ورُوِيَ من طَرِيقِ الخَاصِّ والعَامِّ أَنَّها لمَّا نَزَلَتْ أَخَذَ رَسُولُ ٱللهِ صلى الله عليه وآله وسلم بيدِ عليٍّ عليه السلام وَقَالَ: «يا أَيُّها النَّاسُ هذا صَالحُ المؤْمنينَ» [٦].

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ علىٰ تَكَاثُرِ عَدَدِهِم ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ بَعْدَ نُصْرَةِ ٱللهِ وَجبريلَ وصَالِحِ المؤْمنينَ ﴿ظَهِيرٌ﴾ فَوْجٌ مُظَاهِرٌ لَهُ، كأَنَّهم يَدٌ واحِدَةٌ علىٰ مَن يُعادِيهِ ويُخَالِفُهُ، فَمَا يَبلُغُ تَظَاهُرُ ٱمرأَتَيْنِ علىٰ مَنْ هؤلاءِ ظُهَرَاؤُهُ؟! وَقَرأَ موسىٰ بنُ جَعْفَرٍ عليهما السلام: «وإِنْ تَظَاهَرُوا عَليه».

---

(١) الكَرُوبيُّون: هم سادة الملائكة منهم جبرئيل وميكائيل واسرافيل عليهم السلام هم المقرّبون، وقيل: أقرب الملائكة الى حَملةِ العرش. (لسان العرب).

(٢) حكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٥٦٦.

(٣) حكاه عنه الشيخ الطوسي في التبيان: ج ١٠ ص ٤٨.

(٤) قاله الزجّاج في معاني القرآن: ج ٥ ص ١٩٣.

(٥) قاله أبو مسلم محمد بن بحر الاصفهاني. راجع التبيان: ج ١٠ ص ٤٨.

(٦) فمن العامة ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ أُنظر: شواهد التنزيل للحاكم الحسكاني: ج ٢ ص ٣٤١ وما بعده من طرق وأسانيد متعددة: وتفسير ابن ابي حاتم كما رواه عنه السيوطي في مسند علي: ص ٣١٣ ح ١١٥٠، وكفاية الطالب للكنجي الشافعي: ص ١٣٧ ب ٣٠، والصواعق المحرقة لابن حجر: ص ١٤٤، وفضائل الخمسة: ج ١ ص ٢٧١، والثعلبي في تفسيره: ج ٤ ص ٢٦٩ (مخطوط). وابن كثير في تفسيره: ج ٤ ص ٣٩٠ عن مجاهد. ومن الخاصَّة أُنظر: تفسير القمي: ج ٢ ص ٣٩٣، والتبيان: ج ١٠ ص ٤٨.

﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ﴾ يا أَزْوَاجَ النَّبيِّ ﴿أَن يُبْدِلَهُ﴾ بالتَّشْدَيدِ[(١)] والتَّخْفيفِ ﴿أَزْوَٰجاً خَيْراً مِّنْكُنَّ﴾ موصُوفَاتٍ بِهذهِ الصِّفَاتِ من: الاستسلامِ لأَمْرِ ٱللهِ، والتَّصْديقِ لله وَلِرَسُولِه، والقيَامِ بطَاعَةِ ٱللهِ في طَاعَةِ رَسُولِهِ، والرُّجُوعِ إلىٰ أَمْرِهِ والتَّذلُّلِ لَهُ ﴿سَٰٓئِحَٰتٍ﴾ صَائِمَاتٍ، وقيلَ: مُهَاجِرَاتٍ[(٢)]، وعن زيدِ بنِ أَسْلَم: لَمْ يكُنْ في هذهِ الأمَّةِ سِيَاحَةٌ إلّا الهِجْرَة[(٣)]. وقيلَ: ماضِيَاتٍ في طاعَةِ ٱللهِ ورَسُولِهِ[(٤)]. وَوَسَّطَ بين «الثيِّبات» و «الأبكار» بالواو لأنَّهما صِفَتَانِ متَنَافيتانِ، لا يَجتَمِعْنَ فيهما اجتمَاعَهُنَّ في سائرِ الصِّفَات.

﴿قُوٓاْ أَنْفُسَكُمْ﴾ بِتَرْكِ المَعَاصِي وفِعْلِ الطَّاعَاتِ ﴿وَأَهْلِيكُمْ﴾ بأَن تأْخُذُوهم بِمَا تأْخذُونَ به أَنفُسَكُم، وعن مُقَاتِلٍ: هو أَن يؤَدِّبَ المَرْءُ أَهلَهُ وخَدَمَهُ، فَيُعلِّمَهُم الخيرَ ويَنْهاهُم عن الشَّر[(٥)]، وذلك حقٌّ علىٰ كُلِّ مسلم.

وفي الحَديثِ: «رَحِمَ ٱللهُ رَجُلًا قَالَ: يا أَهْلَاه صَلَاتُكم، صيامُكم، زَكَاتُكم، مِسكينُكم، وَيتيمُكم، جيرانُكم، لعلَّ ٱللهَ يَجْمَعُهُم مَعَه في الجنَّة»[(٦)].

﴿نَاراً وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ نَوْعاً من النَّارِ لا تَتَّقِدُ إلّا بالنَّاسِ والحِجَارةِ كَمَا يَتَّقِدُ غَيْرُها من أَنْواعِ النيِّرانِ بالحطَبِ. ﴿عَلَيْهَا﴾ أي: يَلِي أَمْرَهَا ﴿مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ﴾ في أَجْرامِهِم غِلْظَةٌ وشِدَّةٌ، أي: جَفَاءٌ وقُوَّةٌ، أو: في أَفْعالِهِم جَفَاءٌ وخُشُونَةٌ، لا تَأْخُذُهُم رَأْفَةٌ في الغَضَبِ لِلهِ ورَأْفةٌ[(٧)] لأَهْلِ النَّارِ، وَهُم الزَّبانيةُ التِّسْعَةَ

(١) قرأه نافع وأبو عمرو. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٥١٤.
(٢) قاله زيد بن أسلم والجبائي. راجع التبيان: ج ١٠ ص ٤٩.
(٣) حكاه عنه الماوردي في تفسيره: ج ٦ ص ٤٢.
(٤) وهو قول الشيخ الطوسي في التبيان: ج ١٠ ص ٤٩.
(٥) حكاه عنه الرازي في تفسير الكبير: ج ٣٠ ص ٤٦.
(٦) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٥٦٨ مرسلًا.
(٧) في نسخة: «ورحمة» بدل «ورأفة».

عَشَر [١]. ﴿مَآ أَمَرَهُمْ﴾ في مَحَلِّ نَصْبٍ على البَدَلِ، أي: لا يَعْصُونَ أَمْرَ ٱللهِ، أو: معناهُ: لا يَعْصُونَ اللهَ فِيمَا أَمَرَهُم بِهِ. والمعنَى الأوَّلُ: أَنَّهم يَتَقَبَّلُونَ أَوامِرَهُ ويَلْتزِمُونَها، والمعنَى الثَّاني: أَنَّهم يُؤَدُّونَ ما يُؤْمَرونَ بهِ. ويُمكنُ أَن يكُونَ الخِطَابُ في الآيةِ لِلَّذينَ آمنوا بأَلْسِنَتِهِم وَهُم المنافقُونَ، لأنَّ ٱللهَ عزَّ ٱسمُهُ جَعَلَ هذه النَّارَ الموصُوفَةَ بأَنَّ وَقُودَها النَّاسُ والحِجَارَةُ مُعَدَّةً لِلْكَافِرِينَ في مَوضِعٍ آخَرَ مِن التَّنزِيلِ [٢]، ويَعضِدُهُ قَولُهُ تَعالىٰ علىٰ أَثرهِ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعْتَذِرُواْ ٱلْيَوْمَ﴾ أي: يقَالُ لَهُم عنْدَ دخُولِهِم النَّارَ: لا تعتَذِروا، لأنَّهُ لا عُذْرَ لكُم، أو: لأنَّهُ لا يَنْفَعُكُم العُذْرُ.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ(٨) يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ(٩) ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَـٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ(١٠) وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ(١١) وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَـٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَـٰنِتِينَ(١٢)﴾

(١) إشارة الى قوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَىٰكَ ما سَقَرُ لا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ المدثّر: ٢٧ ـ ٣٠.

(٢) الآية: ٢٤ من سورة البقرة.

وَصَفَ التَّوبَةَ بالنُّصْحِ على الإِسْنَادِ المَجَازي، والنُّصْحُ صِفَةُ التَّائبينَ وهـو أَن يَنْصَحُوا أَنْفُسَهُم بالتَّوبَةِ، فَيتُوبُوا عن القَبَائحِ لِقُبْحِها، نَادمينَ عليها، عَازمينَ علىٰ أَنَّهم لا يعودُونَ في قَبيحٍ من القَبَائِحِ إلىٰ أَن يَعُودَ اللَّبَنَ في الضَّرْعِ، مُوَطِّنينَ أَنْفُسَهُم علىٰ ذلكَ.

وعن عليٍّ عليه السلام : إنَّ التَّوبَةَ يَجْمَعُها ستَّةُ أشياءٍ على الماضِي من الذُّنُوبِ النَّدامةُ وللفِرَائِضِ الإِعَادةُ، وَرَدُّ المَظَالِمِ، وٱستِحلالِ الخُصُومِ، وأَن تَعْزِمَ علىٰ أن لا تَعُودَ، وأَن تُذيبَ نفْسَكَ في طاعةِ اللهِ كما ربَّيتَها فـي مـعصيةِ ٱللهِ، وأَن تُـذِيقَها مَـرارَةَ الطَّاعَاتِ كما أَذَقْتَها حَلاوَةَ المَعَاصي[١].

وقيلَ: ﴿نَصُوحاً﴾ مِن: نَصَاحَةِ الثَّوبِ أي: تَوبةٌ تَرقِعُ خُروقَكَ في دينِكَ وَتَرمُّ خَلَّكَ[٢]، وقيلَ: تَوبةٌ تَنْصحُ النَّاسَ أي: تَدعُوهُم إلىٰ مِـثْلِها لِـظُهُورِ أَثَـرِها فـي صَاحِبِها، وٱستعمالِهِ الجدَّ في العَـمَلِ عـلىٰ مـقتَضَيَاتِها[٣]. وقُـرِئَ: «نُـصُوحاً» بالضَّم[٤] وهو مَصدَرُ «نَصَحَ»، أي: ذَاتَ نُصُوحٍ، أو: تَنَّصَحَ نُصُوحاً، أو: تُوبُوا لِنُصْحِ أَنْفُسِكُم علىٰ أَنَّه مفعولٌ لَه، والنُّصْحُ والنَّصُوحُ مـثْلُ: الشُّكْـرِ والشَّكُـورِ، والكُـفْرِ والكفور ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ﴾ إطْماعٌ من ٱللهِ لعبَادِهِ، وفيهِ وَجْهَانِ: أَحَدُهُما: أن يكُونَ علىٰ عَادَةِ المُلُوكِ في الإِجَابَةِ بـ«عَسَىٰ» و «لَعَلَّ» وإيْقَاعُ ذلك مَوقِعَ القَطْعِ والبَتِّ، والثَّاني: أَن يكُونَ علىٰ تَعليمِ عبَادِهِ التَّرجُّحَ بين الخَوفِ والرَّجَاءِ. ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ﴾ نُصِبَ بِـ﴿يُدْخِلَكُمْ﴾ وهو تَعريضٌ بِمَنْ أَخْزَاهُم ٱللهُ من أهلِ الكُفْرِ والنِّفَاقِ، وٱسْتِحمادٌ الى المؤْمنينَ علىٰ أَنَّه عَصَمَهُم مَنْ مِـثْلُ حـالِهِم، أي: لا يُـذِلُّ النـبيَّ

---

(١) رواه عنه عليه السلام الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٥٦٩.

(٢ و ٣) حكاه الزمخشري في الكشّاف.

(٤) قرأه أبوبكر عن عاصم. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٧٢٤.

والمؤْمنينَ مَعَهُ، بلْ يُعِزُّهُ ويُكرِمُهُ بالشَّفاعَةِ، ويُعِزُّ المؤْمنينَ بإدخَالِ الجنَّةِ، وقيلَ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ مبتَدأٌ وما بَعْدَهُ خَبَرٌ[1] أي: يَسْعَىٰ نُورُهُم علَى الصِّـراطِ، وعنِ الصَّادِقِ عليه السلام: يَسْعىٰ أئمّةُ المؤْمنينَ يَوْمَ القيامةِ بين أَيْديهم وبأيْمانِهم حتَّىٰ يُنْزِلُوهم منازِلَهُم من الجنَّةِ[2] ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾ في مَوْضِعِ نَصْبٍ على الحالِ، أو: خَبَرٌ بَعْدَ خَبَرٍ. وعن الحَسَنِ: اللهُ مُتِمُّهُ لَهُم، ولكنَّهم يـدعُونَ تـقَرُّباً إلى اللهِ[3]، كقَولِهِ: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾[4] وهو مَغْفورٌ لَهُ، وإنَّما قالَ تَـقَرُّباً، ولَـيسَتِ الدَّارُ دَارَ تَقَرُّبٍ، لأنَّ حَالَهُم يُشْبِهُ حَالَ المُقَرَّبينَ حيثُ يطلُبُونَ من ٱللهِ سبحانَهُ ما هو حَاصِلٌ لَهُم، وقيلَ: إنَّ النُّورَ يكُونَ علىٰ قَدَرِ أَعْمالِهِم، فَأَدْنَاهُم منْزِلةً في ذلكَ يَسْأَلُ إتْمامَهُ تَفَضُّلًا[5] ﴿وَٱغْفِرْ لَنَآ﴾ أي: ٱسْتُرْ علينا ذُنُوبَنَا ولا تُهلِكْنا بها.

﴿جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ﴾ بالسَّيْفِ ﴿وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ﴾ بالقَوْلِ الرَادعِ وبالاحتجَاجِ، وقَرَأَ الصَّادِقُ عليه السلام: جَاهِدِ الكُفَّارَ بِالْمُنافِقينَ، وقَالَ: إنَّه صلى الله عليه وآله وسلم لَمْ يُقَاتِلْ مَنافِقاً قَطُّ إنَّما كانَ يَتَألَّفُهم[6]، وعَنْ قَتَادَةَ: بإقَامَةِ الحُدُودِ عليهم[7]، وعن الحَسَنِ: أَكْثَرُ مَن كانَ يصيبُ الحُدُودَ في ذلك الزَّمانِ المنَافِقُونَ، فَأُمِرَ أَن يُغْلِظَ عليهم في إقَامَةِ الحَدِّ[8].

مثَّلَ اللهُ حَالَ الكفَّارِ والمنافقينَ في أنَّهم يُعَاقَبُونَ علىٰ كُفْرِهِم ونفَاقِهِم من غيرِ إبْقَاءٍ ولا مُحَابَاةٍ ولا ٱعْتبَارٍ بالعَلَائِقِ والوُصَلِ بِحَالِ ﴿ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ﴾

---

(١) قاله النحاس في إعراب القرآن: ج ٤ ص ٤٦٤.

(٢) رواه على بن ابراهيم القمي في تفسيره: ج ٢ ص ٣٩٥ باسناده الى صالح بن سهل.

(٣) تفسير الحسن البصري: ج ٢ ص ٣٥٥.

(٤) غافر: ٥٥، محمد صلى الله عليه وآله وسلم: ١٩.

(٥) حكاه الماوردي في تفسيره: ج ٥ ص ٤٧٣ بلفظ قريب.

(٦) أُنظر التبيان: ج ١٠ ص ٥٢.

(٧) حكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٥٧١.

(٨) حكاه عنه الشيخ الطوسي في التبيان: ج ١٠ ص ٥٢.

لمَّا نافقتَا وخَانَتَا الرَّسُولَيْنِ، لَمْ يُغْنِ الرَّسُولانِ ﴿عَنْهُمَا﴾ بِحَقِّ ما بينَهُما من وُصْلَةِ الزَّوجيَّةِ ﴿شَيْئاً﴾ من عَذَابِ ٱللهِ ﴿وَقِيلَ﴾ لَهُما عنْدَ مَوْتِهِما أو: يَوْمَ القيامةِ ﴿ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ﴾ سَائِرِ ﴿ٱلدَّاخِلِينَ﴾ الَّذينَ لا وُصْلَةَ بينَهُم وبينَ الأنبياءِ، ومَثَّلَ حَالَ المؤْمنينَ في القيامةِ في أَنَّ وُصْلَةَ الكافرينَ لا تَضُرُّهُم، ولا تُنْقِصُ شيئاً من ثَوَابِهِم وزُلْفَاهُم عنْدَ ٱللهِ بِحَالِ ﴿ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ ومَنْزِلَتِها عنْدَ ٱللهِ مع كَوْنِها زَوجَةَ أَعْظَمِ الكافرينَ، القَائِلِ: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ (١) ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ﴾ وما أُتِيَتْ من كَرَامةِ الدُّنيا والآخِرَةِ، والاصطِفَاءِ علىٰ نساءِ العَالَمِينَ مَعَ أنَّ قَومِها كانُوا كافِرِينَ.

وفي طَيِّ التَمْثِيلَيْنِ تَعريضٌ بِزَوْجَتَيْ رَسُولِ ٱللهِ صَلَّىٰ ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ المذكُورتَيْنِ في أَوَّلِ السُّورةِ، وما فَرطَ منْهُما من التَّظَاهرِ علىٰ رَسُولِ ٱللهِ بما كَرِهَهُ، وتَحذِيرٌ لَهُما علىٰ أَغْلَظِ وَجْهٍ وأَشَدِّهِ، لِمَا في التَّمثيلِ من ذِكْرِ الكُفْرِ، وإشارةٍ إلىٰ أنَّ مِنْ حقِّهما أن لا تتَّكلا علىٰ أنَّهما زوجا رَسُولِ ٱللهِ صَلَّىٰ ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فإنَّ ذلك الفَضْلَ لا يَنْفَعُهُما إلَّا مَعَ كَونِهما مؤْمنَتَيْنِ مُخْلِصَتَيْنِ، والتَّعريضُ بحَفْصَةَ أكثرُ لأنَّ ٱمرأةَ لُوطٍ أَفْشَتْ عليهِ كَمَا أَفْشَتْ حَفْصَةُ علىٰ رَسُولِ ٱللهِ صَلَّىٰ ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

فَفي قَولِهِ: ﴿عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ﴾ إشَارَةٌ إلىٰ أنَّ عَبْداً مِن العِبَادِ لا يَرْجَحُ عندَهُ إلَّا بالصَّلاحِ، وبهِ يُنَالُ الفَوْزُ لا غَيْرَ ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ بالنِّفَاقِ والتَّظَاهُرِ على الرَّسُولَيْنِ: فامرأةُ نُوحٍ قَالَتْ لقَومِهِ: إنَّه مجْنُونٌ، وٱمرأةُ لُوطٍ دَلَّتْ علىٰ ضَيفَانِهِ، وعن الضَّحَّاكِ: خَانَتَاهُما بالنَّميمةِ إذا أَوْحَى ٱللهُ إلَيْهِما أَفْشَتَاهُ إلى المُشْركينَ (٢)، ولا يَجُوزُ أَن يُرادَ بالخِيَانَةِ الفُجُورُ لأنَّه نَقِيصَةٌ عندَ كلِّ أَحَدٍ، سَمِجٌ في كلِّ طبيعةٍ، بخِلَافِ الكُفْرِ لأنَّ الكُفَّارَ لا يَسْتَسمجُونَهُ، وعن ٱبنِ عبَّاسٍ: ما زَنَتِ

---

(١) النازعات: ٢٤.

(٢) حكاه عنه الماوردي البصري في تفسيره: ج ٦ ص ٤٦.

امرأةُ نبيٍّ قَطُّ؛ لِمَا في ذلكَ من التَّنفيرِ عن الرَّسُولِ، وإلْحَاقِ الوَصْمَةِ بِهِ(١).

وٱمرأةُ فِرْعَوْنَ: آسيةُ بنْتُ مُزَاحِمٍ، آمنتْ حينَ سَمِعَتْ بـتَلقُّفِ عَـصَا مُـوسىٰ الإفْكَ، فَعَذَّبَها فِرْعَوْنَ بأَن وَتَّدَ يَدَيْها وَرِجْلَيْها بأَربعَةِ أَوتَادٍ وٱستَقْبَلَ بها الشَّمْسَ، وأَضْجَعَها علىٰ ظَهْرِها وَوَضَعَ رُحىً علىٰ صَدْرِها، ولمَّا قَالَتْ: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتاً فِى ٱلْجَنَّةِ﴾ أُرِيَتْ بيتَها في الجنَّةِ يُبْنىٰ، وقيلَ: رَفَعَها ٱللهُ إلى الجنَّةِ، فَهِيَ فيها تَأْكُلُ وتَشْربُ وتَنْعُمُ فيها(٢)، ﴿وَنَجِّنِى مِنْ﴾ نَفْسِ ﴿فِرْعَوْنَ﴾ الخَبيثة ﴿و﴾ مِنْ ﴿عَمَلِهِ﴾ الّذي هو الكُفْرُ والظُّلْمُ والتَّعذيبُ بِغَيْرِ جُرْمٍ ﴿وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ من القبْطِ كُلِّهِم.

﴿أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ عفَّتْ عن الحَرَامِ، وقيلَ: مَنَعَتْ فَرْجَها من الأَزْواجِ ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ﴾ أي: في الفَرْجِ ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَـٰتِ رَبِّهَا﴾ وهي ما تَكَلَّمَ سبحانَهُ بِهِ وأَوْحَاهُ إِلىٰ أنبيائِهِ ﴿وَكُتُبِهِ﴾ أي: وبالكُتُبِ الّتي أَنْزَلَها علىٰ أَنْبيائِهِ، وقُرئَ: «وَكِتَابِهِ»(٣) وهو الإنْجيلُ ﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَـٰنِتِينَ﴾ ولَمْ يَقُلْ: من القَانِتَاتِ؛ تَغْليباً للذُّكُورِ، و «مِنْ» للتَّبعيضِ، ويجُوزُ أَن يكُونَ لابتداءِ الغايةِ علىٰ أَنَّها وُلِدَتْ من القَانتينَ، لأَنَّها من أَعْقَابِ هارُونَ أَخِي موسىٰ عليه السلام.

❁ ❁ ❁

(١) تفسير ابن عباس: ص ٤٧٨.

(٢) قاله الحسن البصري في تفسيره: ج ٢ ص ٣٥٥.

(٣) قرأه ابن كثير وابن عامر وحمزة والكسائي وعاصم برواية أبي‌بكر. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٦٤١.

سُورَةُ المُلْكِ

مكّيّةٌ[1]، وتُسمّى المُنْجِيَةُ تُنْجِي صَاحِبَها من عَـذَابِ القَـبْرِ، والوَاقِـيَةُ تَـقِي قَارِئَها من عَذَابِ القَبْرِ، ثلاثُونَ آيةً.

في حَديثِ أُبيٍّ: «وَمَنْ قَرَأَ سُورةَ تَبارَكَ فَكأَنَّما أَحْيَا لَيْلَةَ القَدْرِ»[2].

وعن الصَّادِقِعليه‌السلام : «مَنْ قَرَأَ سُورةَ تَبارَكَ في المكتُوبةِ قَبْلَ أَنَ يَنامَ لَمْ يَزَلْ في أَمَانِ ٱللهِ حتَّىٰ يُصْبحَ، وفي أَمانِهِ يَوْمَ القيامةِ حتَّىٰ يَدْخُلَ الجنَّة».

بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ(١) ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ(٢)

---

(١) قال الشيخ الطوسي في التبيان: ج ١٠ ص ٥٦: مكّية في قول ابن عباس والضحاك وعطاء وغيرهم، وهي ثلاثون آيةً في الكوفي والبصري والمدنيّ الاول، واحد وثلاثون في المدنيّ الأخير، وقال الفرّاء: سورة الملك تسمّى المنجية لأنّها تنجي قاريها من عذاب القبر، وروي أنّ في التوراة مثل سورة الملك.

وفي الكشّاف: ج ٤ ص ٥٧٤: مكّية وهي ثلاثون آية، نزلت بعد الطور. وتسمّى الواقية والمنجية لأنّها تقي وتنجي قارئها من عذاب القبر.

(٢) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٥٨٣ مرسلًا.

ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَـٰنِ مِن تَفَـٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ(٣) ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ(٤) وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَـٰبِيحَ وَجَعَلْنَـٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَـٰطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ(٥) وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ(٦) إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ(٧) تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ(٨) قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ كَبِيرٍ(٩) وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ(١٠) فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ(١١)﴾

﴿تَبَـٰرَكَ﴾ أي: تَعالىٰ وتَعاظَمَ عن صِفاتِ المخْلوقينَ بأنّه الثّابِتُ، الّذي ثُبوتُ الأَشياءِ بِهِ، وجَميعُ البَركاتِ منْهُ ﴿ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ علىٰ كلِّ موجُودٍ ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ لَمْ يُوجَدْ مِمَّا يَدْخُلُ تَحْتَ القُدرةِ ﴿قَدِيرٌ﴾، وَذِكْرُ اليَدِ مَجَازٌ عن الاستيلاءِ علَى المُلْكِ والإِحاطَةِ بِهِ.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ قدَّمَ ذِكْرَ المَوْتِ لأنّه إلَى القَهْرِ أَقْرَبُ، والحَياةُ: ما يُوجِبُ كَوْنَ الشّيءِ حيّاً، والحَيُّ هو الّذي يَصِحُّ منْهُ أَن يَعْلَمَ ويَقْدِرَ، والمَوْتُ عَدَمُ ذلكَ فيهِ، ومعنَى خَلْقِ المَوْتِ والحَياةِ: إِيجادُ ذلكَ المُصَحِّحِ وإِعْدامِهِ. والمعنىٰ: خَلَقَ مَوْتَكُم وحياتَكُم أَيُّها المُكلَّفُونَ ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ وَسَمّىٰ عِلْمَ الواقِعِ منْهم باخْتيارِهِم بَلْوىً ـ وهي الخِبْرَةُ ـ اسْتِعارَةً من فِعْلِ المُخْتَبِرِ ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ يَتعَلَّقُ بـ﴿يَبْلُوَكُمْ﴾ لأنَّ البَلْوىٰ تَتَضَمَّنُ معنَى العِلْمِ، فكأَنَّهُ قالَ: لِيَعْلَمَ أيّكُم أَحْسَنُ عَمَلًا. والجُملةُ وَقَعَتْ مَوقِعَ الثّاني من المفْعُولَيْنِ، كَمَا تَقُولُ: عَلِمْتُهُ أَزَيْدٌ أَحْسَنُ عَمَلًا أم هُوَ، وهذا لا يُسمَّىٰ تَعْليقاً، لأنَّ التّعليقَ إنّما يكُونُ بأَنْ يُوقَعَ بَعْدَهُ ما يَسدّ

المفعُولَيْنِ جميعاً، كقَولِكَ: عَلِمْتُ أَيُّهما عمْرو، و ﴿أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أي: أَخْلَصُ وأَصْوَبُ، والخَالِصُ أَن يكُونَ لِوَجْهِ ٱللهِ، والصَّوابُ أن يكُونَ علَى الوَجْهِ المأمورِ بِهِ.

وعن النَّبيِّ ﷺ أنَّه تَلاها ثمَّ قَالَ: «أَيُّكُم أَحْسَنُ عَقْلًا، وأَوْرَعُ عن مَحَارِمِ ٱللهِ، وأَسْرَعُ في طَاعَةِ ٱللهِ»[١] والمعنىٰ: أَيُّكُم أَتَمُّ عَقْلًا عن ٱللهِ وفَهْماً لأَغْراضِهِ.

والمُرادُ: أَنَّه أَعْطَاكُم الحياةَ الّتي تَقْدِرُونَ بها على العَمَلِ، وَسَلَّطَ عليكُم المَوْتَ الذي هو داعِيكُم إِلَى ٱختيارِ العَمَلِ الحَسنِ على القَبيحِ، لأَنَّ وَرَاءَ المَوْتِ البَعْثُ والجَزَاءُ. ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغَالِبُ الّذي لا يُعْجِزُهُ مَن أَسَاءَ العَمَلَ ﴿ٱلْغَفُورُ﴾ لِمَنْ يَتَفَضَّلَ عليهِ من أَهْلِ الإِسَاءَة.

﴿طِبَاقاً﴾ مِن: طَابَقَ النَّعْلَ: إذا خَصَفَها طَبَقاً علىٰ طَبَقٍ، أي: مطَابَقَةً بَعْضُها فَوْقَ بعضٍ، وهو وَصْفٌ بالمَصْدرِ، أو: ذَاتَ طِبَاقٍ، أو: طُوبِقَتْ طِبَاقاً ﴿مِن تَفَـٰوُتٍ﴾ وقُرِئَ: «مِنْ تَفَوُّتٍ»[٢] ومعناهُمَا واحِدٌ، مِثْلُ: تَظَاهرٍ وتَظَهُّرٍ، وتَعَاهُدٍ وتَعَهُّدٍ، يُريدُ: من ٱختلافٍ وٱعْوِجَاجٍ وٱضطِرَابٍ في الخِلْقَةِ، إنَّما هي مستَقِيمَةٌ ومستَوِيَةٌ كلُّها، وحقيقةُ التَّفَاوتِ عَدَمُ التَّناسبِ، كأَنَّ بَعْضَهُ يُفَوِّتُ بَعْضاً ولا يُلائِمُهُ، ونَقيضُهُ: مَتَناصِفٌ، وأَصْلُهُ: مَا تَرَىٰ فِيهِنَّ مِنْ تَفَاوُتٍ، فَوَضَعَ الظَّاهِرَ موضِعَ المُضْمَرِ تعظيماً لِخَلْقِهِنَّ، وتَنْبيهاً علىٰ أنَّ سَبَبَ سَلاَمَتِهِنَّ من التَّفاوتِ أَنَّهنَّ خَلْقُ الرَّحمانِ.

والخِطَابُ فيما تَرىٰ للنبيِّ ﷺ، ولكلِّ مُخَاطَبٍ ﴿فَارْجِعِ ٱلْبَصَرَ﴾ وَأَدِرْها في خَلْقِ الرَّحمانِ حتَّىٰ يَصِحَّ عِنْدَكَ ما أُخْبِرْتَ بِهِ بالمعَايَنَةِ ﴿هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ مِن صُدُوعٍ وَشُقُوقٍ، جَمْعُ «فَطْرٍ» وهو الشَّقُّ، وقُرِئَ بِإِدْغَامِ اللَّامِ في التاءِ[٣]

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره: ج ٧ ص ٧ باسناده عن ابن عمر.

(٢) قرأه حمزة والكسائي. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٦٤٤.

(٣) قرأه أبوعمرو وحده. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ١ ص ٢٣٣.

نَحْوُ: هتَّرىٰ، لأنَّ اللَّامَ قَريبةُ المَخرجِ من التَّاءِ.

﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ أي: ثُمَّ كَرِّرِ البَصَرَ فيهنَّ متَصَفِّحاً وَمُتَتَبِّعاً هَلْ تَجِدُ عَيْباً وخَلَلاً ﴿يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ﴾ أي: إنْ رَجَعْتَ البَصَرَ وَكَرَّرْتَ النَّظَرَ لَمْ يَرجِعْ إليكَ بَصَرُكَ بِمَا طَلَبْتَهُ من إدْرَاكِ الخَللِ، بَل يَرْجعُ إليكَ بالخُسُوءِ والحُسُورِ أي: بالبُعْدِ عن إصَابَةِ المُلْتَمَسِ، كأَنَّهُ طُرِدَ عن ذلكَ طَرْداً بالصَّغَارِ والقُمَاءَةِ وبالإعْياءِ والكلَالِ لِطُولِ التَّرديدِ، ومعنَى التَّثنيةِ في قَولِهِ: ﴿كَرَّتَيْنِ﴾ التَّكْريرُ بكَثْرَةٍ، كقَولِهِم: لبَّيْكَ وسَعْدَيْكَ، بمعنَىٰ: إجَابَاتٌ كثيرةٌ بَعضُها في إثْرِ بَعْضٍ، ونَحْوُهُ: قَولُهُم في المَثَلِ: «دُهْدُرِّينَ سَعْدُ القَيْنِ»[1] أي: باطِلًا بَعْدَ بَاطِلٍ.

﴿السَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: القُرْبىٰ إلَى النَّاسِ، ومعنَاهَا: السَّماء الدُّنيا مِنْكُم ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا﴾ الّتي ٱجتَمَعْتُم فيها ﴿بِمَصَٰبِيحَ﴾ أي: بأَيِّ مَصابيح؟! لا تُوازِيها مَصَابيحُكُم إضَاءَةً، يُريدُ: الكَوَاكِبَ، ﴿وَجَعَلْنَٰهَا رُجُوماً﴾ لأَعْدائِكُم الشَّيَاطِينِ الَّذين يَسْترِقُونَ السَّمْعَ، وذلكَ بأَن يَنْفَصِلَ من نُورِ الكَوَاكِبِ شُهُبٌ تَنْقَضُّ لِرَمْيِهِم، كالقَبَسِ يُؤْخَذُ من النَّارِ والنَّارُ ثَابتَةٌ، والرُّجُومُ: جَمْعُ رَجْمٍ، وهو مَصْدَرٌ سُمِّيَ بِهِ ما يُرْجَمُ بِهِ، وقيلَ: معنَاهُ: وَجَعَلْنَاها ظُنُوناً ورُجُوماً بالغَيْبِ لشَياطِينِ الإنْسِ وَهُم المُنَجِّمُون[2] ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ﴾ بعد الإحْراقِ بالشُّهُبِ في الدُّنيا ﴿عَذَابَ﴾ الآخِرَةِ و ﴿السَّعِيرِ﴾ النَّارِ المُسْعَرَةِ.

---

(١) الدُهدرّين: اسم لكل باطل تعارف عند العرب، وأصله أنّ بعض العجم كان يتجر بالدرّ ولم يكن يحسن العربية، فاذا أراد أن يعبّر عن العشرة قال: ده، وعن الاثنين قال: دو، وفي بعض الايام اراد بيع خرز فلبّس عليهم فقال: ده دو درّين، ففتشوا عنه فوجدوه كاذباً فيما زعم، وضمّوا اليه سعد القين المعروف بالكذب عند العرب فصار مثلًا لكل من جمع باطلًا الى باطل. انظر مجمع الأمثال للميداني: ج ١ ص ٢٧٧.

(٢) قاله محمد بن كعب. راجع تفسير القرطبي: ج ١٨ ص ٢١١.

﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ ولكلِّ مَن كفَرَ باللهِ ﴿عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾. ﴿إِذَآ أُلْقُواْ فِيهَا﴾ أي: طُرِحُوا كَمَا يُطْرَحُ الحطَبُ في النَّارِ ﴿سَمِعُواْ لَهَا﴾ أي: للنَّارِ ﴿شَهِيقاً﴾ شَبَّهَ حَسِيسَها المُنْكَرَ الفَظِيعَ بالشَّهيقِ ﴿وَهِىَ تَفُورُ﴾ أي: تَغْلِي بِهِم غَلَيَانَ المِرْجَلِ بِمَا فيهِ. ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ﴾ أي: تَنْقَطِعُ وتَنْشَقُّ[١] ﴿مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ عليهم، جعَلَها كالمغْتَاظَةِ عليهم لِشِدَّةِ غلَيَانِها بِهِم، ويجُوزُ أن يكُونَ المُرادُ غَيْظَ الزَّبانِيَةِ ﴿كُلَّمَآ﴾ طُرِحَ ﴿فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ وهو توبيخٌ لَهُم ليزْدَادُوا عذاباً إلىٰ عَذَابِهِم، و﴿خَزَنَتُهَا﴾: مَالِكٌ وأعوانُهُ من الزَّبانِيَةِ. ﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾ اعْتِرَافٌ منْهُم بِعَدْلِ ٱللهِ وبَعْثِهِ الرُّسُلَ، وبأنَّهم أُوتُوا من قَبْلِ أَنْفُسِهِم. ويَجُوزُ أن يكُونَ بمعنَى الإِنْذَارِ، والمعنىٰ: أَلَمْ يَأْتِكُم أَهْلُ نَذِيرٍ. ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ كَبِيرٍ﴾ أي: قُلْنا للرُّسُلِ: ما أَنْتُم إلَّا في ذَهَابٍ عن الصَّوابِ كَبِيرٍ، وقيلَ: هُو من قَوْلِ الملائِكَةِ للكُفَّارِ حِكَايةً لِمَا كانُوا عليهِ من الضَّلالِ في الدُّنيا[٢]، أو أَرادُوا بالضَّلالِ الهَلَاكَ.

﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ﴾ الإِنْذَارَ سَمَاعَ الطَّالِبِ للحقِّ ﴿أَوْ نَعْقِلُ﴾ عَقْلَ النَّاظِرِ المتَأَمِّلِ، وقيلَ: جَمَعَ بين السَّمْعِ والعَقْلِ لأنَّ التَّكْليفَ يَدُورُ عَلَيْهِما وعلىٰ أَدِلَّتِهِما[٣] ﴿فَاعْتَرَفُواْ بِذَنْبِهِمْ﴾ في تكْذِيبِهِم الرُّسُلَ ﴿فَسُحْقاً﴾ قُرِئَ بالتَّخْفِيفِ والتَّثقيلِ[٤]، أي: فَبُعْداً لَهُم اعترفُوا أو جَحَدُوا فإنَّ ذلك لا يَنْفَعُهُم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (١٢) وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ (١٣) أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ

---

(١) في نسخة: «تشقّق».

(٢) حكاه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٥٧٩.

(٣) حكاه الرازي في تفسيره الكبير: ج ٣٠ ص ٦٥.

(٤) وبالتثقيل (أي: بضمّ الحاء) قرأه الكسائي وحده. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٦٤٤.

وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ(١٤) هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ(١٥) ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ(١٦) أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ(١٧) وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ(١٨) أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ بَصِيرٌ(١٩) أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ(٢٠) أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَل لَّجُّواْ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ(٢١)﴾

﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ أي: يخافُونَهُ غائبينَ عن مَرْآةِ النَّاسِ، حيثُ لا يَرَوْنَهُ فيتركُونَ المَعَاصِي. ﴿وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِ﴾ ظَاهِرُهُ الأَمْرُ بأحَدِ الأَمرَيْنِ: الإِسْرارُ والإِجْهَارُ، ومعنَاهُ: لِيَسْتَوِ عندَكُم إسْرارُكُم وإجْهارُكُم في عِلْمِ ٱللهِ بِهِما، ثمَّ علَّلَهُ بـ﴿إِنَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي: بِضَمائِرِها قَبْلَ أَن يُتَرجِمَ الأَلْسِنَةُ عنْها، فكيفَ لا يَعْلَمُ ما تَكلَّمتُم بِهِ؟! ثمَّ أَنْكَرَ أَن لا يُحِيطَ عِلْماً بالمُضْمَرِ والمُسَرِّ والمُجهَرِ من خَلْقِ الأشياءِ وحَالُهُ إنَّهُ ﴿ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ العَالِمُ بما ظَهَرَ من خَلْقِهِ وما بَطَنَ، ويجُوزُ أن يكُونَ ﴿مَنْ خَلَقَ﴾ منْصُوباً بمعنَىٰ: أَلَا يَعْلَمُ مَخْلُوقَهُ وهذهِ حالُهُ؟ وعنِ ٱبنِ عبَّاسٍ: كانُوا يَنالُونَ من رَسُولِ ٱللهِ صلى الله عليه وآله وسلم فَيُخْبِرُهُ بِهِ جبرائيلُ عليه السلام، فَقالُوا: أَسِرُّوا قَوْلَكُم كي لا يَسْمَعَ إِلٰهُ محمَّدٍ صلى الله عليه وآله وسلم فَنَزَلَت[1].

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولاً﴾ مُذَلَّلَةً مُوطَّأَةً للتَّصرُّفِ فيها والمَصِيرِ[2] عليها ﴿فَامْشُوا فِى مَنَاكِبِهَا﴾ هو مَثَلٌ لِفَرْطِ التَّذْليلِ، لأنَّ المَنْكِبَيْنِ من البَعيرِ

(١) أسباب النزول للواحدي: ص ٣٧٧. (٢) في نسخة: «المسير» بالسين.

ممَّا يَصْعبُ علَى الرَّاكِبِ وَطْؤُهُ بقَدَمِهِ، وقيلَ: مَنَاكِبِها: جِبَالِها، أي سَهَّلَ لَكُم السُّلُوكَ فيها(١)، وقيلَ: جوَانِبِها(٢) ﴿وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ فيسألُكم عن شُكْرِ ما أَنْعَمَ بهِ عَلَيْكُم.

ثمَّ هَدَّدَ سبحانَهُ العُصَاةَ فَقَالَ: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَاءِ﴾ وفيهِ وَجْهَانِ: أَحَدُهُما: مَنْ مَلَكُوتُهُ في السَّماءِ؛ لأنَّها مَسْكَنُ مَلَائكتِهِ، ومِنْها يَنْزِلُ قَضَايَاهُ وأَوامِرُهُ.

والثَّاني: أَنَّهم كانُوا يعتقِدُونَ التَّشبيهَ، وأَنَّه في السَّماءِ، فَقِيلَ علىٰ حَسَبِ ٱعْتقَادِهِم: أَأَمِنْتُمْ مَن تَزْعُمُونَ أنَّه في السَّماءِ وهو مُتَعالٍ عن المَكَانِ أَن يُعَذِّبَكُم بِخَسْفٍ أو بِحَاصِبٍ؟ ﴿فَإِذَا هِىَ تَمُورُ﴾ أي: تَضْطَرِبُ وتَتَحَرَّكُ بِهِم حتَّىٰ تُلْقِيهِم إلىٰ أَسْفَل. ﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾ حينَئذٍ ﴿كَيْفَ نَذِيرِ﴾ أي: كيفَ إنْذَاري حيثُ لا يَنْفَعُكُم العِلْمُ. و ﴿نَكِيرِ﴾ إنْكَاري عَلَيْهِم وتَغْييري ما بِهِم من النِّعَم.

﴿صَـٰٓفَّـٰتٍ﴾ أي: باسِطَاتٍ أَجْنِحَتهنَّ في الجوِّ عند طَيَرانِها ﴿وَيَقْبِضْنَ﴾ ويَضْمِمْنَها إذا ضَرَبْنَ بها جُنُوبَهُنَّ، ولَمْ يَقُلْ: وقَابِضاتٍ، لأنَّ أَصْلَ الطَّيَرانِ صَفُّ الأَجْنِحَةِ، والقَبْضُ طَارِئٌ على البَسْطِ للاستِظْهارِ بِهِ على التَّحَرُّكِ فَقيلَ: ويَقْبِضْنَ، أي: ويكُونُ منْهنَّ القَبْضُ تَارةً بَعْدَ تَارةٍ، كَمَا يكُونُ من السَّابِحِ في المَاءِ ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَـٰنُ﴾ بِقُدرتِهِ وبِتَوْطِئَةِ الهَواءِ لَهُنَّ ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ﴾ يَعْلَمُ كيفَ يَخْلُقُ ويُدَبِّرُ العَجَائِبَ.

﴿أَمَّنْ﴾ يُشَارُ إليهِ فيُقَالُ: ﴿هَـٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ﴾ ٱللهِ إنْ أَرْسَلَ عليكم عَذَابَهُ. ﴿أَمَّنْ﴾ يُشَارُ إليهِ فيُقَالُ: ﴿هَـٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ﴾ ٱللهُ ﴿رِزْقَهُۥ﴾ وهذا علَى التَّقديرِ، ويَجُوزُ أن يكُونَ إشَارَةً إلىٰ جميعِ

(١) قاله ابن عباس وقتادة وبشير بن كعب. راجع تفسير الماوردي: ج ٦ ص ٥٤.
(٢) قاله مجاهد والسدي راجع المصدر السابق.

الأَوثَانِ لاعتقَادِهِم أَنَّهم يَحفظُونَ من النَّوائبِ، ويُرْزَقُونَ ببَرَكَةِ آلهَتِهِم، فكأَنَّهم الجُنْدُ النَّاصِرُ والرَّازِقُ، ونَحوُهُ: قَولُهُ: ﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا﴾[1] ﴿بَل لَّجُّواْ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ بَلْ تَمَادَوا في عِنَادٍ وَشِرَادٍ عن الحقِّ، وبِعَادٍ من الإيْمان.

﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ(٢٢) قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ(٢٣) قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ(٢٤) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ(٢٥) قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ(٢٦) فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقِيلَ هَـٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ(٢٧) قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَـٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ(٢٨) قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ(٢٩) قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ(٣٠)﴾

يُقَالُ: كَبَّبْتُهُ فَأَكَبَّ، وهو شَاذٌّ، ومِثْلُهُ: قَشَعَتِ الرِّيحُ السَّحَابَ فَأَقْشَعَ. والمعنىٰ: مَنْ يَمْشِي معْتَسِفاً في مكانٍ غَيْرِ مُسْتَوٍ فَيَعْثُرُ ويَخرُّ علىٰ وَجْهِهِ منكَبّاً، فَحَالُهُ نَقيضُ حَالِ ﴿مَنْ يَمْشِى سَوِيًّا﴾ سَالِماً من العِثَار عَلَىٰ طَرِيق مُسْتَوٍ، وهو مَثَلٌ للمؤْمِنِ والكَافِرِ.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً﴾ الضَّميرُ للوَعْدِ، والزُّلْفَةُ: القُرْبَةُ، وٱنتصَابُها علىٰ الحَالِ أو الظَّرْفِ أي: رَأَوْهُ ذَا زُلْفَةٍ، أو: مَكَاناً ذَا زُلْفَةٍ ﴿سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: سَاءَتْ رُؤْيَةُ الوَعْدِ وجُوهَهُم بأَنْ عَلَتْها الكآبةُ وغَشِيَتْها آثَارُ الغمِّ كَمَا يكُونَ وجُوهُ

(١) الأنبياء: ٤٣.

مَن يُقَادُ إِلَى القَتْلِ، يَعني: يَوْمُ القيامةِ، وعَنْ مُـجَاهِدٍ: يَـوْمُ بَـدْرٍ[١] ﴿تَـدَّعُونَ﴾ تَفْتَعِلُونَ من «الدُّعَاءِ»، أي: تَطْلُبُونَ وتَستَعجِلُونَ بِهِ، وقيلَ: هو من الدَّعْـوى[٢]، أي: كُنْتُم بسَبَبِهِ تَدَّعُونَ أَنَّكُم لا تُبْعَثُونَ، وقُرِئَ: «تَدْعُونَ»[٣].

كانُوا يَتَمَنَّوْنَ هَلَاكَ النبيِّ ﷺ والمؤْمنينَ، فَأُمِرَ بأَن يَقُولَ لَهُم: إنْ أَهْلَكَنَا اللهُ كما تَمَنَّوْنَ ونَحْنُ مؤمنونَ فَنَنْقَلِبُ إلى الجنَّةِ ﴿أَوْ رَحِمَنَا﴾ بتَأْخيرِ آجَالِنَا ﴿فَمَنْ﴾ يُجِيرُكُم وأَنتُم كافرُونَ ﴿مِنْ عَذَابٍ﴾ النَّارِ، لا مَخْلَصَ لكم منْهُ. والمعنىٰ: أَنَّكم تَطلُبُونَ لَنَا الهَلَاكَ الّذي فيهِ الفَوْزُ والسَّعادةُ، وأَنْتم في أَمْرٍ هو الهَلَاكِ الّذي لَا هَلَاكَ مِثْلُهُ، ولا تَطْلُبُونَ الخَلَاصَ منْهُ. أو: إنْ أَهْلَكَنَا اللهُ بالمَوْتِ فَمَن يُجيرُكُم من النَّارِ بَعْدَ مَوْتِ مَن يَأْخُذُ بِحُجْزِكُم منها، وإنْ رَحِمَنَا بالإِمْهَالِ والنُّصْرةِ عليكُم فَمَنْ يُجيرُكُم من القَتْلِ علىٰ أيدينَا.

﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ﴾ الّذي عَمَّتْ نعْمَتُهُ ورَحْمَتُهُ جَميعَ الخَلْقِ ﴿ءَامَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ قُدِّمَ مفعُولُ ﴿تَوَكَّلْنَا﴾ وأُخِّرَ مفعُولُ ﴿ءَامَنَّا﴾ لوقُوعِ ﴿ءَامَنَّا﴾ تَـعْرِيضاً بالكافرينَ الّذينَ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُم، فكَأَنَّه قَالَ: آمَنَّا بِهِ ولَمْ نَكْفُرْ كَمَا كَفَرْتُم، ثمَّ قَـالَ: ﴿وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ خُصُوصاً، لا نَتَّكِلُ علىٰ غَيْرِهِ.

﴿غَوْراً﴾ أي: غَائِراً ذَاهِباً في الأَرضِ، نَاضِباً في الآبارِ والعُيُونِ، وهو وَصْفٌ بالمَصْدَرِ كـ«عَدْل» و «رِضَا»، وَالْمَعِينُ: الظَّاهِرُ للعُيُونِ، وعنِ ٱبنِ عـبَّاسٍ: بِـمَاءٍ جَارٍ[٤].

❁ ❁ ❁

---

(١) حكاه عنه البغوي في تفسيره: ج ٤ ص ٣٧٣.

(٢) قاله مقاتل والكلبي. راجع تفسير الماوردي: ج ٦ ص ٥٧.

(٣) هي قراءة يعقوب وحده. راجع التذكرة في القراءات: ج ٢ ص ٧٢٥.

(٤) حكاه عنه البغوي في تفسيره المتقدّم.

سُورَةُ القَلَم

مكّيّةٌ[1]، وعنِ ٱبنِ عبّاسٍ وقَتَادَةَ: بَعضُها مكّيٌّ، وبَعضُها مَدَنيّ[2]، ٱثنتَانِ وخَمْسُونَ آيةً.

في حَديثِ أُبيٍّ: «وَمَنْ قَرَأَ سُورةَ القَلَمِ أَعْطَاهُ ٱللهُ ثَوابَ ٱلَّذينَ حَسُنَ أَخْلاقُهُم»[3].

وعنِ الصَّادقِ عليه السلام: «مَنْ قَرَأَها في فَرَائِضِهِ أو نَوافِلِهِ أَمَّنَهُ ٱللهُ أَن يُصِيبَهُ في حَياتِهِ فَقْرٌ أَبداً، وأَعَاذَهُ مِنْ ضَمَّةِ القَبْرِ»[4].

بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ(١) مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ(٢) وَإِنَّ لَكَ

---

(١) قال الشيخ الطوسي في التبيان: ج ١٠ ص ٧٣: مكّية في قول ابن عباس والضحاك، وهي اثنتان وخمسون آيةً بلاخلاف.

وفي الكشّاف: ج ٤ ص ٥٨٤: مكّية، وهي اثنتان وخمسون آيةً، نزلت بعد العلق.

(٢) قال ابن عباس: من أوّلها الى قوله سبحانه: ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الخُرطُومِ﴾ مكّي، ومن بعد ذلك الى قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانُواْ يعلَمُونَ﴾ مدنيّ، ومن بعد ذلك الى قوله: ﴿يكتُبُونَ﴾ مكّي، ومن بعد ذلك الى قوله: ﴿مِنَ ٱلصَّالِحينَ﴾ مدنيّ، وباقي السورة مكّي. انظر تفسير الماوردي: ج ٦ ص ٥٩.

(٣) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٥٩٧ مرسلًا.

(٤) ثواب الأعمال للصدوق: ص ١٤٧.

لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ(٣) وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ(٤) فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ(٥) بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ(٦) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ(٧) فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ(٨) وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ(٩) وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ(١٠) هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ(١١) مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ(١٢) عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ(١٣) أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ(١٤) إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا قَالَ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ(١٥) سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ(١٦)﴾

قُرِئَ: ﴿نون﴾ بالبَيَانِ والإِدْغَامِ[١]، هو الحَرْفُ من حُرُوفِ المعْجَمِ، وقيلَ: هو الحُوتُ الّذي عليهِ الأَرَضُون[٢]، وقيلَ: هو الدَّواةُ[٣]، وقيلَ: هو نَهْرٌ في الجنَّةِ، قَالَ ٱللهُ تعالىٰ لَهُ: كُنْ مِدَاداً فَجمُدَ، وكانَ أَشَدَّ بياضاً من اللَّبَنِ وأَحْلىٰ من الشَّهْدِ، ثمّ قَالَ للقَلَمِ: ٱكْتُبْ، فَكَتَبَ القَلَمُ ما كانَ وما هو كائِنٌ إلىٰ يَوْمِ القِيامةِ. روي ذلكَ عن الباقرِعليه السلام[٤] ﴿وَٱلْقَلَمِ﴾ الّذي يَكْتُبُ، أَقْسَمَ ٱللهُ بهِ لِمَا فيهِ من المَنَافِعِ والفَوائِدِ ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ ما يَسْطُرُهُ الحفَظَةُ، و «مَا» موصُولَةٌ أو مَصْدَرِيَّةٌ، ويجوزُ أن يكُونَ المُرادُ بالقَلَمِ أَصحَابَهُ، فيكُونَ الضَّميرُ في ﴿يَسْطُرُونَ﴾ يَرجعُ إليهم كأَنَّه قَالَ: وأَصْحَابُ القَلَمِ ومَسْطُوراتُهُم، أو: يُريدُ: وسَطْرُهُم.

---

(١) قرأ نافع برواية يعقوب بن جعفر عنه وعاصم برواية أبيبكر عنه والكسائي بالإدغام (بإخفاء النون الثانية) والباقون بالإظهار والبيان. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص٦٤٦.

(٢) قاله ابن عباس ومجاهد. راجع تفسير الطبري: ج ١٢ ص ١٧٦، ورواه ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كما في الدّر المنثور: ج ٨ ص ٢٤١.

(٣) قاله ابن عباس في رواية أُخرىٰ والحسن وقتادة. راجع المصدر السابق. ورواه أبوهريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كما في الدّر المتقدّم.

(٤) رواه على بن ابراهيم القمي في تفسيره: ج ٢ ص ٣٧٩ باسناده عن عبدالرحمن القصير عن أبي عبدالله عليه السلام، والصدوق أيضاً في معاني الأخبار: ص ٢٢ ـ ٢٣. وفي علل الشرائع: ص ٤٠٢ عنه عليه السلام.

﴿بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ في مَحَلِّ نَصْبِ على الحَالِ، والمعنىٰ: مَا أَنْتَ بِمَجْنُونٍ مُـنْعَماً عليكَ بذلكَ، وهو جَوابٌ لِقَولِهِم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ (١) ﴿وَإِنَّ لَكَ﴾ على تحَمُّلِ أَعْبَاءِ الرِّسالةِ وَقيامِكَ بَواجِبِها ﴿لَأَجْراً﴾ لَـثواباً ﴿غَـيْرَ مَمْنُونٍ﴾ غَيْرَ مَقْطُوعٍ كَقَولِهِ: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ (٢)، أو: غَيْرَ مَمْنُونٍ عليكَ بِـهِ لأنَّه ثَوابٌ تَستَحِقُّهُ علىٰ عَمَلِكَ.

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ ٱستَعْظَمَ سبحانَهُ خُلُقَهُ لِفَرْطِ ٱحتِمَالِهِ المُمِضَّاتِ (٣) من قَومِهِ، وحُسْنِ مُخَالَقَتِهِ لَهُم، وقيلَ: هو الخُـلُقُ الّذي أَمَـرَهُ ٱللهُ بِـهِ فـي قَـولِهِ: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾ (٤).

وفي الحَديثِ: «إِنَّما بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلاقِ» (٥).

وعنه أيضاً عليه السلام: «أَحَبُّكُم إِلَى ٱللهِ أَحْسَنُكُم أَخْلاقاً، المُوَطَّئُونَ أَكْنَافاً، الَّـذينَ يأْلَفُونَ ويُؤْلَفُونَ، وأَبْغَضُكُم إلى ٱللهِ المَشَّاؤُونَ بالنَّميمةِ، المُفَرِّقُونَ بين الإِخْـوانِ، الملتَمِسُونَ لِّلبُراءِ العَثَراتِ» (٦).

﴿فَسَتُبْصِرُ﴾ يا محمَّدُ صلى الله عليه وآله وسلم ﴿وَيُبْصِرُونَ﴾ أَيُّكُمُ ﴿ٱلْمَفْتُونُ﴾ المَجْنُونُ لأنَّه فُتِنَ أي: مُحِنَ بالجُنُونِ، والبَاءُ مَزِيدَةٌ، أو: ﴿ٱلْمَفْتُونُ﴾ مَصْدَرٌ كالمَعْقُولِ والمَجْلُودِ، أي: بأَيِّكُمُ الجُنُونُ، أو: بأَيِّ الفَرِيقَيْنِ منْكُم الجُنُونُ، أَبِـفَرِيقِ المـؤْمنينَ أَم بِـفَرِيقِ الكافِرِينَ، أي: في أَيِّهِما يُوجَدُ مَن يستَحِقُّ هذا الاسمَ، وهو تَعريضٌ بأَبي جَـهْلٍ

---

(١) الحجر: ٦. (٢) هود: ١٠٨.

(٣) أي: الموجعات من المصائب. (الصحاح: مادة مضض).

(٤) أخرجه الصفّار القمي في بصائر الدرجات: ص ٣٧٨ ب التـفويض الى رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم قطعة ح ٣ باسناده عن القاسم بن محمد. والآية: ١٩٩ من الأعراف.

(٥) أخرجه البيهقي في السنن الكبرىٰ: ج ١٠ ص ١٩١ ـ ١٩٢ عن أبي هريرة.

(٦) أخرجه الزبيدي في اتحاف السادة المتّقين: ج ٧ ص ٥٦٢ بهذا اللفظ وما يقاربه.

والوَليدِ بنِ المُغيرَةِ وأَضْرابِهما، وهو مِثْلُ قَولِهِ: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَداً مَنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ﴾[١].

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ﴾ بالمَجَانينِ على الحقيقةِ، وَهُم الَّذِينَ ضَلُّوا ﴿عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ﴾ بالعُقَلَاءِ وَهُم المهتَدُونَ، أو: يَكُونُ وَعِيداً وَوَعْداً، وإنَّه أَعْلَمُ بجَزَاءِ الفَريقَيْنِ.

وعنِ الضَّحَّاكِ: لمَّا رَأَتْ قُرَيْشٌ تَقْديمَ النبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم علياً قَالُوا: ٱفْتَتَنَ بهِ محمَّدٌ صلى الله عليه وآله وسلم فأَنْزَلَ ٱللهُ تعالىٰ: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ﴾ إلىٰ قَولِهِ ﴿بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾، وَهُم النَّفَرُ الذينَ قَالُوا ما قَالُوا ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ عليٌّ بن أبي طالب عليه السلام[٢].

﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ تهييجٌ وإِلْهَابٌ للتَّصْميمِ علىٰ مُعَاصَاتِهِم فيما يُريدُونَ.

﴿وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ﴾ تَلِينُ وتُصَانِعُ ﴿فَيُدْهِنُونَ﴾ أي: فَهُم يَدْهِنُونَ حِينئذٍ، أو: وَدُّوا إدْهَانَكَ فَهُم الآنَ يُدْهِنُونَ لِطَمَعِهِم في إدْهَانِكَ.

﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ﴾ كَثيرِ الحلْفِ في الحقِّ والباطلِ، وكَفَىٰ بِهِ زَجْراً لِمَنِ ٱعتَادَ الحلْفَ ﴿مَهِينٍ﴾ من المَهانَةِ، وهي القِلَّةُ والحَقَارَةُ، يُريدُ: القِلَّةَ في الرأيِ والتَّدبيرِ، أو: أَرادَ الكَذَّابَ لأَنَّه حَقِيرٌ عندَ النَّاسِ. ﴿هَمَّازٍ﴾ عَيَّابٍ طَعَّانٍ، وعنِ الحَسَنِ: يَلْوِي بِشدْقَيْهِ في أَقْفِيَةِ النَّاسِ[٣] ﴿مَشَّآءِ بِنَمِيمٍ﴾ قَتَّاتٍ نَقَّالٍ للحَديثِ من قَوْمٍ إلىٰ قَوْمٍ علىٰ وَجْهِ السِّعَايةِ والإفْسَادِ بينَهُم، والنَّمِيمُ والنَّميمةُ: السِّعَايَةُ. ﴿مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ بَخيلٍ، والخَيْرُ: المَالُ، وعنِ ٱبنِ عبَّاسٍ: مَنَّاعٌ عَشيرتَهُ عن الإسلامِ وهو الوليدُ بنُ المُغيرَةِ، كانَ مُوسِراً ولَهُ عَشرَةُ بَنينٍ فكَانَ يَقُولُ لهم وللحميَّةِ: مَنْ أَسْلَمَ

(١) القمر: ٢٦.

(٢) أخرجه الحاكم الحسكاني في شواهد التنزيل: ج ٢ ص ٣٥٩ ح ١٠٠٦ بالإسناد عنه، والسيد البحراني عنه أيضاً في غاية المرام: ص ٤٤١ ب ٢٣٣.

(٣) حكاه عنه الماوردي في تفسيره: ج ٦ ص ٦٣.

منْكُم مَنَعْتُهُ رِفْدي[(١)]. وعن مُجاهِدٍ: هو الأَسْوَدُ بنُ عَبْد يَغُوث[(٢)]، وعن السدِّي: الأَخْنَسُ بنُ شريقٍ[(٣)]. ﴿مُعْتَدٍ﴾ مُجَاوِزٍ للحقِّ ظَلُومٍ، ﴿أَثِيمٍ﴾ آثِمٍ كَثيرِ الإِثْم. ﴿عُتُلٍّ﴾ غَليظٍ جَافٍ ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ بَعْدَ ما عَدَّدَهُ من المَثالبِ ﴿زَنِيمٍ﴾ دَعِيٍّ، قَالَ حَسَّان:

وأَنْتَ زَنِيمٌ نِيطَ في آلِ هَاشِمٍ كَمَا نِيطَ خَلْفَ الرَّاكِبِ القَدَحُ الفَرْدُ[(٤)]

وكانَ الوليدُ دَعِيّاً في قُرَيْشٍ ادَّعَاهُ أَبُوهُ بَعْدَ ثَماني عَشْرةَ سَنَة من مَوْلدِهِ، جَعَلَ جفاءَهُ وَدعْوتَهُ أَشَدَّ مَعَائبِهِ، لأنَّ مَنْ جَفَا وقَسَا قَلبُهُ اجترَأَ على كلِّ معصيةٍ، ولأنَّ النُّطْفَةَ إذا خَبُثَتْ خَبُثَ النَّاشِئُ منْها، ولذلكَ قَالَ النبيّ ﷺ: «لا يَدْخُلُ الجنَّةَ وَلَدُ الزِّنا، ولا وَلَدُهُ، ولا وَلَدُ وَلَدِهِ»[(٥)].

وعنه ﷺ: «لا يَدْخُلُ الجنَّةَ جَوَّاظٌ ولا جَعْظَرِيٌّ، ولا عُتُلٌّ زَنيمٌ»[(٦)].

والزَّنيمُ: من «الزَّنَمَة» وهي الهَنَةُ من جِلْدِ الماعِزَةِ، تُقْطَعُ فَتُعَلَّقُ في حَلْقِها، لأنَّه زِيَادَةٌ معلَّقَةٌ بغَيْرِ أهلِهِ. ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ﴾ يَتَعَلَّقُ بقَولِهِ: ﴿وَلَا تُطِعْ﴾ يَعني: ولا تُطِعْهُ مع هٰذهِ المَثالبِ لأَن كانَ ذَا مَالٍ، أي: لِيَسَارِهِ وحَظِّهِ من الدُّنيا، ويَجُوزُ أَن يَتَعَلَّقَ بما

---

(١) تفسير ابن عباس: ص ٤٨١.
(٢) حكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٥٨٧.
(٣) حكاه عنه الماوردي في تفسيره: ج ٦ ص ٦٣.
(٤) من قصيدة يخاطب الوليد بن المغيرة، حيث شبّهه بالقدح المنفرد الفارغ المعلّق خلف الراكب. انظر ديوان حسّان بن ثابت: ج ١ ص ٣٩٨، وفيه: «وكنْتَ دَعِيّاً نِيطَ في آلِ هاشم».
(٥) أخرجه البخاري في التاريخ الكبير: ج ٢ ص ٢٥٧، وفي التاريخ الصغير: ج ١ ص ٢٦٣، وأبونعيم في حلية الأولياء: ج ٢ ص ٣٠٨.
(٦) أخرجه أحمد في المسند: ج ٤ ص ٢٢٧، والزبيدي في الاتحاف: ج ٥ ص ٣٥٦. والجوّاظ: الكثير اللحم الجافي الغليظ الضخم المختال في مشيته، وقيل: المتكبّر الجافي، وقيل: الفاجر، وقيل: الصيحّاح الشرّير. والجعظري: المتكبّر الجافي عن الموعظة، وقيل: القصير الغليظ، وقيل: الفظّ الغليظ. (لسان العرب).

بَعْدَهُ علىٰ معنىٰ: لكونِهِ مُتَموِّلاً مستَظْهِراً بـالْبَنِينَ كَـذَّبَ بـآياتِنا، ولاَ يُـعْمَلُ فـيهِ.
﴿قَالَ﴾ الذي هو جَوابُ ﴿إِذَا﴾ لأنَّ ما بَعْدَ الشَّرْطِ لا يَعْملُ فيما قَبلَهُ، ولكن مـا دَلَّت علَيهِ الجُمْلَةُ مـن مـعنَى التَّكـذيبِ. وقُـرِئَ: ﴿أَن كَـانَ﴾ عـلى الاسـتفْهامِ بهَمْزتَينِ[١] وبِهَمْزَةٍ مَمْدُودةٍ[٢] أي: آلِأَنْ كَانَ ذَا مَالٍ كَذَبَ؟

و ﴿الْخُرْطُوم﴾ الأنْفُ، والوَجْهُ أَكرَمُ موضعٍ في الجَسَدِ، والأَنْفُ أَكرَمُ موضعٍ من الوَجْهِ، ولذلك جعَلُوهُ مكانَ العِزَّةِ والحَمِيَّةِ، واْشتقُّوا منْهُ: الأَنَفَةَ فَقَالُوا: «حَمِيَ أَنْفُهُ»، و «شَمَّخَ بأَنْفِهِ»، و «الأَنَفُ في الأَنْفِ» فَعبَّرَ سبحانَهُ بالوَسْمِ على الخُرْطُومِ عن غَايةِ الإِذْلالِ والإِهانَةِ، لأنَّ الوَسْمَ علَى الوَجْهِ شَيْنٌ وإذَالَةٌ[٣]، فَكَيفَ بِهِ علىٰ أَكرَمِ موضعٍ منْهُ، وفي لَفْظِ ﴿الْخُرْطُومِ﴾ اْستِهَانَةٌ بِهِ، وقيلَ: مـعناهُ: سَـنُعْلِمُهُ يَـوْمَ القيامةِ بعَلامَةٍ مُشَوِّهةٍ يَبِينُ بها عن سائرِ الكَفَرَةِ كَمَا عَادَىٰ رَسُولَ اْللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عَدَاوَةً بَانَ بها عَنْهُم[٤].

﴿إِنَّا بَـلَوْنَـٰهُمْ كَـمَا بَـلَوْنَآ أَصْـحَـٰبَ ٱلْـجَنَّةِ إِذْ أَقْسَـمُواْ لَـيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ(١٧) وَلَا يَسْتَثْنُونَ(١٨) فَطَافَ عَـلَيْهَا طَـآئِفٌ مِّـن رَّبِّكَ وَهُـمْ نَآئِمُونَ(١٩) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ(٢٠) فَتَنَادَوْاْ مُـصْبِحِينَ(٢١) أَنِ ٱغْـدُواْ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَـٰرِمِينَ(٢٢) فَانطَلَقُواْ وَهُمْ يَـتَخَـٰفَتُونَ(٢٣) أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ (٢٤) وَغَدَوْاْ عَلَىٰ حَرْدٍ قَـٰدِرِينَ(٢٥) فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ(٢٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٢٧) قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ(٢٨) قَالُواْ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ(٢٩) فَأَقْبَلَ

---

(١) قرأه حمزة وأبوبكر عن عاصم. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٦٤٦.
(٢) قرأه ابن عامر وحمزة برواية أبي عبيد عنه. راجع المصدر السابق.
(٣) كذا، تبعاً للكشّاف، ولم نجد لها وجهاً في كتب اللغة.
(٤) قاله الزجّاج في معاني القرآن: ج ٥ ص ٢٠٧.

بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ(٣٠) قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ(٣١) عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ(٣٢) كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ وَلَعَذَابُ ٱلْأَخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ(٣٣)﴾

إنَّا بَلَوْنَا أَهْلَ مكَّةَ بالجُوعِ والقَحْطِ بدَعْوَةِ رَسُولِ ٱللهِ ﷺ ﴿كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ وَهُم قَومٌ كانَ لأَبيهم هذهِ الجنَّةُ دون صَنْعَاءَ بِفَرْسَخَيْنِ، فكانَ يأْخُذُ منها قُوتَ سَنَةٍ ويَتَصدَّقُ بالباقي، وكانَ يَتْرُكُ للمَساكينِ ما أَخْطَأَهُ المِنْجَلُ، وما في أَسْفَلِ الأَكْدَاسِ، وما أَخْطَأَهُ القُطَّافُ من العِنَبِ، وما بَقِيَ على البِسَاطِ الّذي يُبْسَطُ تَحْتَ النَّخْلَةِ إذا صُرِّمَتْ، فكانَ يجتَمعُ لهم شيءٌ كثيرٌ، فَلَمَّا ماتَ قَالَ بَنُوهُ: إِنْ فعلْنَا ما كانَ يَفْعَلُ أَبونا ضَاقَ علينا الأَمْرُ ونَحْنُ أُولُو عِيَالٍ، فَحَلَفُوا ﴿لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ داخِلينَ في وَقْتِ الصَّباحِ خُفْيَةً عن المَسَاكينِ. ولَمْ يَسْتَثْنُوا أي: لَم يقُولُوا: إِنْ شَاءَ ٱللهُ في يَمِينِهِم، فأَحْرَقَ ٱللهُ جَنَّتَهُم، وإنَّما سُمِّي ذلك ٱستِثْناءً وهو شَرْطٌ لأنَّ معنىٰ قَولِكَ: لأَخْرُجَنَّ إِنْ شَاءَ ٱللهُ، ولأَخْرُجُ إلَّا أَن يَشَاءَ ٱللهُ وَاحِدٌ.

﴿فَطَافَ عَلَيْهَا﴾ إهْلَاكٌ أو بَلَاءٌ ﴿طَآئِفٌ﴾ فِي حَالِ نَومِهِم. ﴿فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ﴾ كالمَصْرُومَةِ لِهَلَاكِ ثَمَرِها، وقيلَ: كاللَّيلِ المُظْلِمِ أي: ٱحتَرَقَتْ فاسْوَدَّتْ[1] ﴿فَتَنَادَوْاْ﴾ أي: نَادَىٰ بعضُهُم بعضاً وقْتَ الصَّباحِ ﴿أَنِ ٱغْدُواْ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ﴾ أي: أَقْبِلُوا عليهِ بَاكِرِينَ ﴿إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ﴾ حَاصِدِينَ وقَاطِعينَ النَّخْلَ. ﴿فَٱنطَلَقُواْ﴾ فَمَضَوْا ﴿وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ﴾ يَتَسَارُّون فيما بينَهُم. ﴿أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا﴾: «أَن» مفَسِّرَةٌ، والنَّهْيُ عن الدُّخُولِ للمِسْكينِ نَهْيٌ لَهُم عن تَمْكينِهِ منْهُ، أي: لا تُمَكِّنُوهُ من الدُّخُولِ حتَّىٰ يَدْخُلَ، كقَولِكَ: لا أَرَيَنَّكَ ها هنا.

﴿وَغَدَوْاْ عَلَىٰ حَرْدٍ﴾ وهو من: حَارَدَتِ السَّنَةُ: إذا مَنَعَتْ خَيْرَها، والمعنىٰ:

(١) قاله ابن عباس في تفسيره: ص ٤٨١.

وَغدَوْا قَادِرينَ علىٰ نَكَدٍ وذَهَابِ خَيْرٍ عَاجزينَ عن النَّفْعِ، أَو: لمَّا قَالُوا: ٱغدُوا علىٰ حَرْثِكُم وَقَد فَسَدَتْ نيَّتُهُم عَاقَبَهُم ٱللهُ بأَن حَارَدَتْ جَنَّتُهُم وحُرِمُوا خَيْرَها، فَلَمْ يَغْدوا علىٰ حَرْثٍ وإِنَّما غَدَوْا علىٰ حَرْدٍ. و ﴿قَـٰدِرِينَ﴾ مِنْ عَكسِ الكلامِ للتَّهكُّمِ، أي: قَادرينَ علىٰ ما عَزَمُوا عليهِ من الصِّرَامِ وحِرْمَانِ المَسَاكينِ، و ﴿عَلَىٰ حَرْدٍ﴾ لَيسَ بصِلَةٍ للقَادِرينَ، وقيلَ: ﴿علىٰ حَرْدٍ﴾ علىٰ قَصْدٍ إلىٰ جنَّتِهِم بسُرْعَةٍ ونَشَاطٍ ﴿قَـٰدِرِينَ﴾ عِنْدَ أنفُسِهِم يقُولُونَ: نَحْنُ نَقْدِرُ علىٰ صرامِها[١]، أو: مُقَدِّرين أَن يَتُمَّ لَهُم مُرادُهُم من الصِّرَامِ والحِرْمَانِ.

﴿فَلَمَّا﴾ رَأَوْا جنَّتَهُم علىٰ تلكَ الصِّفَةِ ﴿قَالُوٓاْ﴾ في بَديهَةِ وصُولِهِم ﴿إِنَّا لَضَآلُّونَ﴾ ضَلَلْنَا جنَّتَنا وما هِيَ بِهَا، فَلَمَّا تأمَّلُوا عرفُوا أنَّها هي. قَالُوا: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ حُرِمْنا خيْرَها لِجنَايتِنَا علىٰ أَنْفُسِنا. ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ أَعْدَلُهُم وخَيْرُهُم، يقَالُ: هو من وَسَطِ قَوْمِهِ ﴿لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ هَلَّا تذْكُرونَ ٱللهَ وتَتُوبونَ إليهِ من خُبْثِ نيَّتِكُم؟ ﴿قَالُوا سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ﴾ تَكلَّمُوا بما دَعَاهُم إلى التَّكلُّمِ بِهِ، نزَّهُوا ٱللهَ سبحانَهُ عن الظُّلْمِ وعن كلِّ قَبيحٍ، ثمَّ ٱعتَرفُوا بظُلْمِهِم في مَنْعِ المَعْروفِ وتَرْكِ الاستثْناء.

﴿يَتَلَـٰوَمُونَ﴾ أي: يَلُومُ بعضُهُم بَعْضاً علىٰ ما فَرَطَ منْهُم. ﴿إِنَّا كُنَّا طَـٰغِينَ﴾ متَجَاوزينَ الحَدّ في الظُّلْمِ. ﴿أَنْ يُبْدِلَنَا﴾ قُرِئَ بالتَّشديدِ[٢] والتَّخفيفِ ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ﴾ طَالِبُونَ منْهُ الخَيْرَ. مِثْلُ ذٰلِكَ ﴿ٱلْعَذَابُ﴾ الَّذي بَلَوْنَا بِهِ أَهْلَ مكَّةَ وأَصْحَابَ الجنَّةِ عَذَابُ الدُّنيا ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ﴾ أَشَدُّ وأَعْظَمُ منْهُ.

وعنْ مُجَاهِدٍ: تابُوا فأُبْدِلُوا خَيْراً مِنْها[٣]. وعنِ ٱبنِ مَسْعودٍ: بَلَغني أَنَّهم

---

(١) قاله ابن عباس ومجاهد والحسن وقتادة وابن زيد. راجع تفسير الطبري: ج ١٢ ص ١٩١.

(٢) وهي قراءة نافع وأبي عمرو. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٣٩٧.

(٣) حكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٥٩٢.

أَخْلَصُوا، وعَرَفَ ٱللهُ منْهُم الصِّدْقَ فأَبْدَلَهُم بِهَا جَنَّةً يقَالُ لَهَا: الحَيَوانُ، فيها عِنَبٌ يَحملُ البَغلُ منْهُ عُنْقوداً[1].

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ(٣٤) أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ(٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ(٣٦) أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ(٣٧) إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ(٣٨) أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ(٣٩) سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ(٤٠) أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ(٤١) يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ(٤٢) خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُواْ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ(٤٣) فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ(٤٤) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ(٤٥) أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ(٤٦) أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ(٤٧) فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ(٤٨) لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ(٤٩) فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ(٥٠) وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ(٥١) وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ(٥٢)﴾

﴿جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ جَنَّاتٌ ليس فيها إلَّا التَّنَعُّمُ الخَالِصُ لا يَشُوبُهُ ما يَنْقصُهُ. كَمَا يَشُوبُ جنَّاتُ الدُّنيا. وكانَ المشركُونَ يقُولُونَ: إنْ كانَ بَعْثٌ وجَزَاءٌ كَمَا يقُولُهُ محمَّدٌ صَلَّىٰ ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فإنَّ حَالَنا يكُونُ مِثْلَ ما هِيَ في الدُّنيا، فأَخْبَرَهُ سبحانَهُ أنَّ ذلك لا يكُونُ أبداً ثمَّ خَاطَبَهُم علَىٰ طريقةِ الالْتِفَاتِ فَقَالَ: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾

(١) حكاه عنه البغوي في تفسيره: ج ٤ ص ٣٨١.

هذا الحُكْمَ الباطِلَ، كأَنَّ أَمرَ الجزَاءِ مفوَّضٌ إليكُم حتَّىٰ تَحكمُوا فيهِ بما شِئْتُم.

﴿أَمْ لَكُمْ كِتَـٰبٌ﴾ من السَّماءِ تدرُسُونَ ﴿فِيهِ﴾ أنَّ ما تَخْتَارونَهُ لكُم. والأَصْلُ: تَدْرُسُونَ أنَّ لكُم ما تَخيَّرُونَ، بفَتْحِ «أنَّ» لأنَّه مدْروسٌ، فَلَمَّا جاءَتِ اللاّمُ كُسِرَتْ «إنَّ»، ويجُوزُ أن يكُونَ حِكَايةً للمدْرُوسِ كَمَا هو قَولُهُ: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْآخِرِينَ سَلَـٰمٌ علىٰ نُوحٍ فِي ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾[1]، وتَخيَّرَ الشَّيءَ: أَخَذَ خَيْرَهُ، ومِثْلُهُ: ٱخْتَارَهُ، نَحْوُ: تَنَخَّلَهُ وٱنتخَلَهُ: أَخَذَ منْخُولَهُ.

﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَـٰنٌ﴾ مُغلَّظَةٌ متنَاهِيةٌ في التَّوكيدِ ثابتَةٌ ﴿عَلَيْنَا... إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ لا تَخرُجُ عن عُهْدَتِها إلىٰ يَومِ القيامةِ، إذا أَعْطَيْناكُم ما تَحكُمُونَ، ويَجُوزُ أن يَتعَلَّقَ ﴿إِلَىٰ﴾ بـ﴿بَـٰلِغَةٌ﴾ علىٰ معنىٰ: أنَّها تَبلُغُ ذلِكُم اليَوْم وتَنْتَهي إليهِ، وافِرَةٌ لَمْ تَبْطُلْ مِنْها يَمِينٌ إلىٰ أن يَحْصَلَ المُقْسَمُ عليهِ، وهو قَولُهُ: ﴿إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾.

﴿سَلْهُمْ أَيُّهُم بذٰلِكَ﴾ الحُكْمِ ﴿زَعِيمٌ﴾ أي: كَفيلٌ، وهو: أَنَّ لَهُم في الآخِرَةِ ما للمسلمينَ. ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ﴾ في هذا القَوْلِ يشَاركُونَهُم فيهِ، ويـوافـقُونَهُم عـليهِ ﴿فَلْيَأْتُواْ﴾ بِهِم ﴿إِن كَانُواْ صَـٰدِقِينَ﴾ في دَعْواهُم، يُريدُ: أنَّ أَحَداً لا يُسَلِّمُ لَهُم هذا، كَمَا أنَّه لا كِتَابَ لَهُم يَنْطُقُ بهِ، ولا عَهْدٌ لَهُم بهِ عند ٱللهِ، ولا زَعيمٌ لَهُم يَقُومُ بهِ.

﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾ هو عِبارَةٌ عن شِدَّةِ الأَمْرِ، وأَصْلُهُ في الحَـرْبِ[2] والهَزيمةِ بتَشْميرِ المُخدَّرَاتِ عن سُوقِهِنَّ في الهَرَبِ، قَالَ:

كَشَفَتْ لَكُم عـن سَـاقِها وبَدَا من الشَّرِّ الصُّراخُ[3]

والمعنىٰ: يَوْمَ يشْتَدُّ الأَمرُ ويَتَفاقَمُ، ولا سَاقَ ثَمَّ ولا كَشْفٌ وإنَّـما هـو مَـثَلٌ،

---

(١) الصافّات: ٧٨ و ٧٩.

(٢) في الكشّاف: «الروع».

(٣) في نسخة: «الصراع» بدل «الصُّراخ». والبيت لسعد بن مالك جدّ طرفة بن العبد الشاعر الشهير. أُنظر معاني القرآن للفرّاء: ج ٣ ص ١٧٧ وفيه: «لهم» بدل «لكم»، و «البراح» بدل «الصُّراخ».

وإنَّما جَاءَ مُنَكَّراً للدلَالَةِ علىٰ أنَّه أمرٌ مبهَمٌ في الشِّدَّةِ، خَارِجٌ عن العَادَةِ. والعَامِلُ في ﴿يَوْمَ﴾: ﴿فَلْيَأْتُواْ﴾، أو: هو علىٰ: يَوْمَ يُكْشَفُ عن سَاقٍ يكُونُ كَيْتُ وكَيْت، فَحُذِفَ للتَّهويلِ والتَّنبيهِ علىٰ أنَّ ثَمَّ مِن الكَوائِنِ ما لا يُوصَفُ لِعَظَمَتِهِ ﴿وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾ تعْنيفاً لا تَكْليفاً ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ حِيلَ بينَهُم وبينَ الاستطَاعَةِ تَحسيراً لَهُم وتَنْديماً علىٰ ما فَرَطُوا فيهِ حينَ دُعُوا إلَى السُّجُودِ وَهُم سَالِمُو الأَصْلابِ والمَفاصِلِ مُتَمكِّنُونَ. وفي الحَديثِ: «يَبقَىٰ أَصْلابُهُم طَبَقاً واحِداً»(١) أي: فَقَارَةً واحِدَةً لا تَنثَنِي.

﴿فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ يَعني: القُرآنَ، يُقَالُ: ذَرْني وإِيَّاهُ، أي: كِلْهُ إليَّ فإنّي سأَكْفِيكَهُ، والمُرادُ: حَسْبِي مُجَازِياً لِمَنْ يُكَذِّبُ بكِتَابي، فَلَا تَشْغَلْ قَلْبَكَ بشَأْنِهِ.

وفي الأَثَرِ: «كَمْ مِن مسْتَدْرجٍ بالإحْسَانِ إليهِ! وكَمْ من مغْرُورٍ بالسَّتْرِ عليهِ! وكَمْ من مفْتُونٍ بحُسْنِ القَوْلِ فيه!»(٢).

سَمَّىٰ جلَّ اسمُهُ إحْسَانَهُ وتَمْكينَهُ كَيْداً، كَمَا سَمَّاهُ استِدْراجاً وهو الاستِنْزَالُ إلى الهَلَاكِ دَرَجَةً دَرَجَةً حتَّىٰ يَتَورَّطَ فيهِ، لِكَونِ ذلكَ في صُورةِ الكَيْدِ من حيثُ كانَ السَّبَبَ في الهَلَاك.

وَالْمَغْرَمُ: الغَرَامَةُ، أي: لَمْ تَطْلُبْ منْهُم علَى الهِدَايَةِ والتَّعليم ﴿أَجْراً﴾ فَيثْقُلُ عَلَيْهم حَمْلُ الغَرامَاتِ في أَمْوالِهِم فَتَبَطِّهُم ذلكَ عن الإِيْمَانِ.

﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ﴾ أي: اللَّوحُ المَحفُوظُ ﴿فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ منْهُ ما يَحكُمُونَ بهِ ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ هو إمْهَالُهُم وتَأْخيرُ نُصْرَتِكَ عَلَيهِم ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ يُونُسَ عليه السلام ﴿إِذْ نَادَىٰ﴾ في بَطْنِ الحُوتِ ﴿وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ مَمْلُوٌّ غَمّاً من:

---

(١) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٥٩٥ بهذا اللفظ مرسلًا.

(٢) المأثور عن الحسن البصري. راجع تفسيره: ج ٢ ص ٣٦١.

كَظَمَ السِّقَاءِ إذا مَلأَهُ، والمعنىٰ: لا يُوجَدُ منْكَ ما وُجِدَ منْهُ من الضَّجَرِ والمُغاضَبَةِ لقَوْمِهِ. ﴿لَوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ﴾ رَحْمَةٌ ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾ بإجَابتِهِ(١) وتَخْليصِهِ من بَطْنِ الحُوتِ حيّاً ﴿لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ﴾ لَطُرِحَ بالفَضَاءِ، وَحَسُنَ تَذْكِيرُ ﴿تَدَٰرَكَهُۥ﴾ لفَصْلِ الضَّمير. ﴿فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾ أي: اختَارَهُ ﴿فَجَعَلَهُۥ مِنَ﴾ الأنبياءِ المُطيعينَ للهِ، وعن ٱبنِ عبَّاسٍ: ردَّ ٱللهُ إليهِ الوَحْيَ وشَفَّعَهُ في نَفْسِهِ وقَومِهِ(٢).

﴿وَإِن﴾ هي المخفَّفَةُ من الثَّقيلةِ، واللَّامُ هي الفَارِقَةُ، وقُرِئَ: ﴿لَيُزْلِقُونَكَ﴾ بضَمِّ الياءِ وفَتْحِها(٣)، وزَلَقَهُ وأَزْلَقَهُ بِمَعْنىً، والمعنىٰ: يَكادُ الكُفَّارُ من شِدَّةِ تَحديقِهِم ونَظَرِهِم إليكَ شَزْرَاً بِعيُونِ البَغضَاءِ والعَدَاوةِ يُزِلُّونَ قَدَمَكَ أو يُهلِكُونَكَ، من قَولِهِم: نَظَرَ إليَّ نَظَراً يَكادُ يَصْرَعُني، وقيلَ: كانَتِ العَيْنُ في بني أَسَدٍ، فكانَ الرَّجُلُ منْهُم يَتَجوَّعُ ثَلاثةَ أيَّامٍ، فَلَا يَمُرُّ بِهِ شيءٌ فيَقُولُ فيهِ: لَمْ أَرَ كاليَوْمِ مثْلَهُ، إلَّا عَانَهُ، فأَرادوا أَن يقُولَ بعضُهُم في رَسُولِ ٱللهِ ﷺ مِثْلَ ذلكَ فَعَصَمَهُ ٱللهُ منه(٤). وعنِ الحَسَنِ: دَوَاءُ الإِصَابَةِ بالعَيْنِ أَن يُقْرَأَ هذهِ الآيةِ(٥). ﴿لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ﴾ أي: القُرآنَ لَمْ يَمْلكُوا أَنْفُسَهُم علىٰ ما أُوتيتَ من النُّبوَّةِ ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ﴾ حِيرَةً في أَمْرِكَ، وتَنْفيراً عنْكَ. ﴿وَمَا هُوَ﴾ أي: ولَيْسَ القُرآنُ ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ ومَوعِظَةٌ ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ وهِدَايَةٌ لَهُم إلى الرُّشْدِ، فَكَيْفَ يُجَنُّ مَن جَاءَ بِمِثْلِهِ؟! وقيلَ: ﴿ذِكْرٌ﴾ شَرَفٌ ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ إلىٰ أَن تَقُومَ السَّاعَة(٦).

---

(١) في بعض النسخ: «باجابة دعائه».

(٢) حكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٥٩٦.

(٣) وبالفتح هي قراءة نافع وحده. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٦٤٧.

(٤) قاله الكلبي فيما حكاه عنه الواحدي في أسباب النزول: ص ٣٧٨ ح ٨٩٤. وعانَهُ: أي أصابَهُ بالعين فهو عائِن، والمصابُ مَعين ومعْيُون (لسان العرب).

(٥) حكاه عنه البغوي في تفسيره: ج ٤ ص ٣٨٥.

(٦) قاله الشيخ الطوسي في التبيان: ج ١٠ ص ٩٢.

سُورَةُ الحَاقّةِ

مكّيّةٌ[1] وَهِيَ إِحدىٰ وخَمسُونَ آيةً بَصْريٌّ، اثـنَتَانِ غَـيْرُهُم، عَـدَّ الكُـوفيُّ ﴿الحَاقَّة﴾ الأُولىٰ.

في حَديثِ أُبيٍّ: «مَنْ قَرَأَ سُورةَ الحَاقَّةِ حَاسَبَهُ ٱللهُ حِسَاباً يَسيراً»[2].

وعن الباقرِ عليه السلام: «أَكْثِرُوا من قِرَاءَةِ الحَاقَّةِ، فإنَّ قِرَاءَتَها في الفَرَائِضِ والنَّوافِلِ من الإِيْمانِ باللهِ ورَسُولِهِ، ولَنْ يُسْلَبَ قَارِئُها دينَهُ حتّىٰ يَلْقَى ٱللهَ عزّوجلَّ»[3].

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَاقَّةُ(١) مَا ٱلْحَاقَّةُ(٢) وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَاقَّةُ(٣) كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلْقَارِعَةِ(٤) فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ(٥) وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ(٦) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَـٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا

---

(١) قال الشيخ الطوسي في التبيان: ج ١٠ ص ٩٣: مكّية في قول ابن عباس والضحاك وغيرهما، وهي اثنتان وخمسون آيةً في الكوفي والمدنيّين، وإحدىٰ وخمسون في البصري.
وفي الكشّاف: ج ٤ ص ٥٩٨: مكّية، وآياتها (٥٢) نزلت بعد الملك.

(٢) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٦٠٧ مرسلاً.

(٣) ثواب الأعمال للصدوق: ص ١٤٧ وفيه بعد لفظه «ورسوله»: «لأنّها إنّما أُنزلت في أميرالمؤمنين عليه السلام ومعاوية».

فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ(٧) فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ(٨) وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ(٩) فَعَصَوْاْ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً(١٠) إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ(١١) لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ(١٢) فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ(١٣) وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً(١٤) فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ(١٥) وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ(١٦) وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ(١٧) يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ(١٨)﴾

﴿ٱلْحَاقَّةُ﴾ السَّاعَةُ الواجِبَةُ المَجيءِ الثَّابِتَةُ الوقُوعِ، الَّتي هي آتِيَةٌ لا رَيْبَ فيها، أو: الَّتي هي ذاتُ الحَوَاقِ من الأُمورِ مِثْلُ: الحِسَابِ والثَّوابِ والعِقَابِ، أو: الصَّادقَةُ الوَاجِبَةُ الصِّدْقِ تُعْرَفُ فيها الأُمورُ على الحَقيقَةِ. وهي مرتَفِعَةٌ على الابْتدَاءِ، وخَبَرُها ﴿مَا ٱلْحَاقَّةُ﴾، والأَصْلُ: [الحاقَّة][1] ما هِيَ؟ أي: أَيُّ شَيْءٍ هي؟ تَفْخيماً لشَأْنِها وتَعْظيماً لِهَوْلِها، فوُضِعَ الظَّاهِرُ مَوضِعَ المُضْمَرِ لذلكَ. ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ﴾ أَيُّ شَيْءٍ أَعْلَمَكَ ﴿ما ٱلْحَاقَّةُ﴾: ﴿مَا﴾ مبتَدأٌ و ﴿أَدْرَىٰكَ﴾ معلَّقٌ عَنْهُ لِتَضَمُّنِهِ معنَى الاستِفْهامِ، والمعنىٰ: أَنَّها من العِظَمِ والهَوْلِ بحيثُ لا يَبْلُغُهُ دِرَايةُ أَحَدٍ، فَمِنْ أَيْنَ لكَ العِلْمُ بِكُنْهِهَا ومَدَىٰ عَظْمِها؟

وَالقَارِعَةُ: الَّتي تَقْرَعُ النَّاسَ بالأَهْوالِ والأَفْزاعِ، وضِعَتْ مَوضِعَ الضَّميرِ لِتَدُلَّ علىٰ معنَى القَرْعِ في «الْحَاقَّة» زيادَةً في وَصْفِ شِدَّتِها.

وَلَمَّا ذَكَرَها وعَظَّمَ أَمْرَها أَخْبَرَ سبحانَهُ عن إهْلاكِ مَنْ كَذَّبَ بها تَذْكيراً لأَهْلِ

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

مكَّةَ وتَخْويفاً لهم مِن أن يُصيبَهُم مِثْلَ ما أَصَابَهُم ﴿بِٱلطَّاغِيَةِ﴾ بالواقِعَةِ المُجَاوِزَةِ للحَدِّ في الشِّدَّةِ، وهي الرَّجْفَةُ، أو الصَّيْحَةُ، أو الصَّاعِقَةُ، وقيلَ: «الطَّاغِيةُ» مَصْدَرٌ[١] أي: بِطُغْيانِهِم. وَالصَّرْصَرُ: الشَّديدَةُ الصَّوْتِ لَهَا صَرْصَرٌ، وقيلَ: البَارِدَةُ من: «الصَّر» كأنَّها الّتي كرَّرَ فيها البَرْدُ وكثُرَ، فهي تُحرِقُ لِشِدَّةِ بَرْدِها[٢] ﴿عَاتِيَةٍ﴾ عَتَتْ علىٰ خُزَّانِها فَخَرَجَتْ بلا كَيْلٍ ولا وَزْنٍ، أو: عَتَتْ علىٰ عَادٍ بشِدَّةِ عَصْفِها فَلَمْ يَقْدرُوا علَى التَّوقِّي منْها.

﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ﴾ سَلَّطَها عليهم ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَـٰنِيَةَ أَيَّامٍ﴾ وهي أَيَّامُ العَجُوزِ، وذلكَ أنَّ عَجُوزاً من عَادٍ دَخَلَتْ سرْباً فانتزَعَتْها الرِّيحُ في اليَوْمِ الثَّامنِ فأَهْلَكَتْها، وقيلَ: سُمِّيَتْ أَيَّامُ العَجُوزِ لأنَّها في عَجْزِ الشِّتَاءِ وهو آخِره[٣] ﴿حُسُوماً﴾ مَصْدَرٌ أو: جَمْعُ «حَاسِمٍ»، فإنْ كانَ مَصْدَراً فهو صِفَةٌ، أي: ذَاتَ حُسُومٍ، أو: مَنْصُوبٌ بفِعْلِهِ المُضْمَرِ أي: تُحْسَمُ حُسُوماً بمعنىٰ: تستَأْصَلُ ٱستِئْصَالاً، وإنْ كانَ جَمْعاً فالمعنىٰ: متَتَابِعَةً لَيْسَتْ لها فَتْرةٌ أو: نَحِسَاتٍ حَسَمَتْ كُلَّ خَيْرٍ، حَالٌ من الضَّميرِ في ﴿سَخَّرَهَا﴾، والأَوَّلُ تَشْبيهٌ بتَتَابُعِ فِعْلِ الحَاسِمِ في إِعادَةِ الكَيِّ علىٰ الدَّاءِ حتَّىٰ يَنْحَسِمَ ﴿فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا﴾ أي: في مَهَابِّها، أو: في الليالي والأَيَّامِ ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ﴾ أُصُولِ ﴿نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ نَخِرَةٍ خَالِيَةِ الأَجْوَافِ. ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنْ بَاقِيَةٍ﴾ من بَقِيَّةٍ، أو: من نَفْسٍ باقِيَةٍ، أو: من بَقَاءٍ مَصْدَرٌ كالعَافِيَةِ، وقد قُرِئَ بإدْغامِ اللاَّمِ في التَّاءِ[٤].

---

(١) قاله أبو عبيدة في مجاز القرآن: ج ٢ ص ٢٦٧، والزجّاج في معاني القرآن: ج ٥ ص ٢١٣.

(٢) قاله ابن عباس وقتادة والضحاك. راجع تفسير الطبري: ج ١٢ ص ٢٠٧ ـ ٢٠٨.

(٣) قاله البيضاوي الشافعي في تفسيره: ج ٢ ص ٤٩٩.

(٤) وهي قراءة أبي عمرو وحده، وهو المعروف مذهبه في الادغام. راجع التذكرة في القراءات: ج ١ ص ٢٣٣.

«وَمَنْ قِبَلَهُ»[١] يُريدُ: ومن عنْدَهُ من حَشَمِهِ وأَتْباعِهِ، وقُرِئَ: ﴿وَمَنْ قَبْلَهُ﴾ أي: ومَنْ تَقَدَّمَهُ ﴿وَالْمُؤْتَفِكَاتُ﴾ المُنْقَلِباتُ بأَهْلِها، وهي قُرىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿بِالْخَاطِئَةِ﴾ بالخَطيئَةِ العظيمةِ الّتي هي الشِّركُ والفَاحِشَةُ، أو: بالأفْعَالِ أو الفِعْلَةِ ذاتِ الخَطأ الكَبيرِ ﴿فَأَخَذَهُمْ﴾ رَبُّهم ﴿أَخْذَةً رَابِيَةً﴾ شَديدةً زَائِدَةً في الشِّدَّةِ، كما زَادَتْ قَبَائِحُهُم في القُبْحِ، يقَالُ: رَبَا يَرْبُو إذا زَادَ. ﴿حَمَلْنَاكُمْ﴾ حَمَلْنا آباءَكُم ﴿فِي الْجَارِيَةِ﴾ في سَفينةِ نُوحٍ، لأنَّهم إذا كانُوا من نَسْلِ المَحْمُولينَ النَّاجِينَ كانَ حَمْلُ آبائِهم مِنَّةً عليهم؛ لأنَّ نجَاتَهُم سَبَبُ ولادَتِهِم.

﴿لِنَجْعَلَهَا﴾ الضَّميرُ للفعْلَةِ وهي نَجَاةُ المؤْمنينَ وإغْراقُ الكافرينَ ﴿تَذْكِرَةً﴾ عبْرَةً ومَوعِظَةً ﴿وَتَعِيَهَا﴾ أي: تَحفَظُها ﴿أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ شَأْنُها أَن تَعِيَ وتَحْفَظُ ما سَمِعَتْ بِهِ، ولا تُضَيِّعُهُ بتَرْكِ العَمَلِ بهِ، وكلُّ ما حَفِظْتَهُ في نَفْسِكَ فَقد وَعَيْتَهُ، وما حَفظتَهُ في غيْرِ نَفسِكَ فَقَد أَوْعَيتَهُ، كما يُوعَى الشَّيءُ في الظَّرْفِ.

وعن النبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم قالَ لعليٍّ عليه السلام عنْدَ نُزُولِ هذه الآية: سأَلْتُ اللهَ عزَّ اسمُهُ أَن يَجْعَلَها أُذُنَكَ يا عليُّ، قَالَ: فَمَا نَسيْتُ شيئاً بَعْدُ، وما كانَ لي أَن أَنسىٰ[٢].

وإنَّما نَكَّرَ ﴿أُذُنٌ﴾ وَوَحَّدَ ليؤْذِنَ بِقِلَّةِ الوعَاةِ ويُوَبِّخَ النَّاسَ بذلكَ، وَليَدُلَّ علىٰ

(١) الظاهر أن المصنّف رحمه الله قد اعتمد هنا على قراءة كسر القاف وفتح الباء تبعاً للكشّاف، وهي قراءة أبي عمرو والكسائي وعاصم برواية أبان. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٦٤٨.

(٢) قد تواترت هذه الرواية عن العامّة والخاصّة الى حدّ الاستفاضة وعلى سبيل المثال لا الحصر راجع: شواهد التنزيل للحاكم الحسكاني: ج ٢ ص ٣٦١ ح ١٠٠٧ وما بعده من طرق عدّة، وابن المغازلي الشافعي في المناقب: ص ٣١٨ ح ٣٦٣، والحمويني في فرائد السمطين: ج ١ ص ١٩٨، والعاصمي في كتابه زين الفتىٰ: ص ٦٠٥، وابن جرير الطبري في تفسيره: ج ١٢ ص ٢١٣، والسيوطي في الدّرالمنثور: ج ٨ ص ٢٦٧ وعزاه الى ابن جرير وسعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه.

أنَّ الأُذُنَ الواحِدَةَ إذا وَعَتْ وعَقَلَتْ عن ٱللهِ فهي السَّوَادُ الأَعظَمُ عِنْدَ ٱللهِ، ولا مُبَالَاة بما سِوَاها وإنْ مَلأُوا ما بَيْنَ الخَافِقين. وقُرئَ: «وَتَعْيِهَا» بسُكُونِ العينِ[١] للتَّخْفيفِ، وشَبَّهَ «تَعْيِ» بِكَبْدٍ.

﴿فَإِذَا نُفِخَ﴾ أُسْنِدَ إلىٰ ﴿نَفْخَةٌ﴾ وذُكِّرَ للفَصْلِ، وهي النَّفْخَةُ الأُولىٰ، وقيلَ: هي الأَخيرَةُ[٢]، ووُصِفَتِ النَّفْخَةُ بِوَاحِدَةٍ وهي لا تَكُونُ إلَّا مَرَّةً؛ تأْكِيداً، كقَولِهِ: ﴿إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾[٣]، وقَالُوا: أَمْسِ الدَّابِر. ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ﴾ رُفِعَتْ عن أَمَاكِنِها بِريحٍ بَلَغَتْ من قوَّةِ عَصْفِها أنَّها تَحْمِلُها، أو: بخَلْقٍ من الملائكةِ، أو: بقُدْرة ٱللهِ من غَيْرِ سَبَبٍ ﴿فَدُكَّتَا﴾ أي: فَدُكَّتِ الجُمْلَتَانِ: جُملَةُ الأَرضينَ وجُملَةُ الجِبَالِ، فَضُرِبَ بَعْضُها ببعضٍ حتَّىٰ تَنْدَكَّ وتَنْدَقَّ وتَرجعُ كَثيباً مَهيلًا وهَبَاءً مُنْبَثّاً، والدَّكُّ أَبْلَغُ من الدَّقِّ، وقيلَ: فَبُسِطَتَا بَسْطَةً وَاحِدَةً فَصَارتَا أَرْضاً مسْتَوِيةً لَا تَرىٰ فيها عِوَجاً ولا أَمْتاً[٤] من قَولِهِم: بَعيرٌ أَدَكُّ: إذا تَفَرَّقَ سَنَامُهُ، ونَاقَةٌ دَكَّاء.

﴿فَيَوْمَئِذٍ﴾ فَحِينَئِذٍ ﴿وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ نَزَلَتِ النَّازِلَةُ وهي القيامَةُ ﴿وَٱنْشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ﴾ ٱنْفَرَجَت ﴿فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ مسْتَرخيةٌ سَاقِطَةُ القوَّةِ بانتِقَاضِ بُنْيَتِها بَعْدَ أن كانَتْ مُستَمسكَةً مُحْكَمَةً. ﴿وَٱلْمَلَكُ﴾ أي: والخَلْقُ الّذي يقَالُ لَهُ المَلَكُ، ولذلك رُدَّ الضَّميرُ مَجْمُوعاً في قَولِهِ: ﴿فَوْقَهُمْ﴾ علَى المعنىٰ، وهو أَعَمُّ من المَلَائكةِ ﴿عَلَىٰ أَرْجَآئِهَا﴾ أي: جَوانِبِهَا، الوَاحِدُ «رَجَا» مقْصُورٌ، يَعني: أنَّ السَّماءَ تَنْشَقُّ وهي مَسْكَنُ الملائكةِ فَيَنْضَوونَ إلىٰ أَطْرَافِها وَحَافَّاتِها ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ...

---

(١) قرأه ابن كثير برواية الحلواني وقنبل برواية أبي ربيعة. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٦٤٨.

(٢) قاله ابن عباس وسعيد بن المسيب ومقاتل. راجع البحر المحيط: ج ٨ ص ٣٢٢.

(٣) النحل: ٥١.

(٤) قاله الرُّماني. راجع التبيان: ج ٤ ص ٥٣٣.

ثَمَـٰنِيَةٌ﴾ من المَلائكَةِ، ورُوِيَ: أنَّهم اليَوْمَ أَرْبَعَةٌ، فإذا كانَ يَوْمُ القيامةِ أيَّدَهُم ٱللهُ بأَرْبَعَةٍ آخَرينَ فيكُونُونَ ثَمانية[١]. ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ﴾ العَرْضُ: عبارَةٌ عن المُحَاسَبَةِ والمُسَاءَلَةِ، شَبَّهَ ذلك بِعَرْضِ السُّلْطَانِ جُنُودَهُ لِتعرُّفِ أَحْوَالِهِم ﴿لَا تَخْفَىٰ مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾ سَرِيرَةٌ وحَالٌ كانَتْ تَخْفىٰ في الدُّنيا.

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَـٰبَهُ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَـٰبِيَهْ(١٩) إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَـٰقٍ حِسَابِيَهْ(٢٠) فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ(٢١) فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ(٢٢) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ(٢٣) كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ(٢٤) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَـٰبَهُ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَـٰبِيَهْ(٢٥) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ(٢٦) يَـٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ(٢٧) مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ(٢٨) هَلَكَ عَنِّى سُلْطَـٰنِيَهْ(٢٩) خُذُوهُ فَغُلُّوهُ(٣٠) ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ(٣١) ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ(٣٢) إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ ٱلْعَظِيمِ(٣٣) وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ(٣٤) فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَـٰهُنَا حَمِيمٌ(٣٥) وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ(٣٦) لَّا يَأْكُلُهُ إِلَّا ٱلْخَـٰطِـُٔونَ(٣٧)﴾

﴿فَأَمَّا﴾ تَفْصيلٌ للعَرْضِ في ذلكَ اليَوْمِ ﴿هَآ﴾ صَوْتٌ يُصَوَّتُ بِهِ فَيُفْهَمُ مِنْهُ معنَىٰ: خُذْ، و ﴿كِتَـٰبِيَهْ﴾ منْصُوبٌ بـ﴿هَآؤُمُ﴾ عِنْدَ الكُوفيِّينَ، وعِنْدَ البَصريِّينَ بـ﴿ٱقْرَءُواْ﴾ لأنَّه أَقْرَبُ العَامِلَيْنِ، وأَصْلُهُ: هاؤُمُ كِتَابِي اقرأوا كتَابِي، فَحُذِفَ الأَوَّلُ لدَلَالَةِ الثَّاني عليهِ، ونَظِيرُهُ: ﴿ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾[٢]، قَالُوا: ولَو كانَ العَامِلُ الأَوَّلَ لَقِيلَ: «اقرأْهُ» و «أَفرِغْهُ». والهاءُ في ﴿كِتَـٰبِيَهْ﴾ و ﴿حِسَابِيَهْ﴾ و﴿مَالِيَهْ﴾

---

(١) رواه الطبري في تفسيره: ج ١٢ ص ٢١٦ عن ابن زيد.

(٢) الكهف: ٩٦.

و ﴿سُلْطَـٰنِيَهْ﴾ للسَّكْتِ، وَحَقُّها أَن تَسقُطَ في الوَصْلِ، وقد ٱستُحِبَّ الوَقْفُ إيْثاراً لِثَبَاتِ الهَاءاتِ في المُصْحَفِ.

﴿إِنِّى ظَنَنتُ﴾ أي: عَلِمْتُ، أُجْرِيَ مَجْرَى العِلْمِ لأنَّ غَلَبَةَ الظَّنِّ تَقُومُ مَقَامَ العِلْمِ في الأَحكَامِ. ﴿فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ في حَالةٍ من العَيْشِ مَنْسُوبةٍ إِلَى الرِّضَا، فهو كالدَّارِع والنَّابِلِ، والنِّسْبَةُ نِسْبَتَانِ: نِسْبَةٌ بالحَرْفِ، ونِسْبَةٌ بالصِّيغَةِ، أو: جُعِلَ الفِعْلُ لَهَا مَجَازاً وهو لِصَاحِبِها. ﴿فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ مرتَفِعَةِ المَكَانِ والقَدْرِ، أو: عَالِيَةِ المَبَاني والقُصُورِ والأَشْجَارِ. ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ يَنَالُها القَاعِدُ والنَّائِمُ، يُقَالُ لَهُم: ﴿كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ﴾ أَكْلًا وشُرْباً ﴿هَنِيٓـًٔا﴾، أو: هُنِّئْتُمْ هَنِيئاً، على المَصْدَرِ ﴿بِمَآ أَسْلَفْتُمْ﴾ أي: قَدَّمْتُمْ من الأَعْمالِ الصَّالحةِ ﴿فِى ٱلْأَيَّامِ﴾ المَاضيَةِ من أيَّامِ الدُّنْيا، وعَنْ مُجَاهِدٍ: أَيَّامُ الصِّيامِ(١)، أي: كُلُوا وٱشْرَبُوا بَدَل مـا أَمْسَكْتُم عن الأَكْلِ والشُّرْبِ لوَجْهِ ٱللهِ.

﴿يَـٰلَيْتَهَا﴾ الضَّميرُ للمَوْتَةِ أي: يا لَيْتَ المَوْتَةَ الّتي متُّها ﴿كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ﴾ أي: القَاطِعَةَ لأَمْري فَلَمْ أُبْعَثْ بَعْدَها ولَمْ أَلْقَ ما لَقيتُ، أو: للحَالَةِ أي: لَيْتَ هذهِ الحَالَةَ كانَتِ المَوْتَةَ الَّتي قُضِيَتْ عَلَيَّ، لأنَّه رأىٰ تلكَ الحَالَةَ أَشَدَّ وأَمَرَّ مِمَّا ذَاقَهُ من مَرارَةِ المَوْتِ وشدَّتِهِ، فَتَمنَّى المَوْتَ عنْدَها. ﴿مَآ أَغْنَىٰ﴾ نَفْيٌ أوِ ٱستِفْهَامٌ علىٰ وَجْهِ الإِنْكارِ أي: أَيُّ شَيْءٍ أَغْنىٰ ﴿عَنِّى﴾ ما كانَ لي من اليَسَارِ. ﴿هَلَكَ عَنِّى سُلْطَـٰنِيَهْ﴾ أي: مُلْكِي وتَسَلُّطي على النَّاسِ وأَمْري ونَهْيِي، وعنِ ٱبنِ عَبَّاسٍ: ضَلَّتْ عنِّي حُجَّتي وبَطُلَتْ(٢).

﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾ فَأَوْثِقوهُ بِالغِلِّ ﴿ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾ ثمَّ لا تُصْلُوهُ إلَّا الجَحيمَ،

---

(١) حكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٦٠٣.
(٢) انظر تفسير ابن عباس: ص ٤٨٣.

وهي النَّارُ العُظْمىٰ، لأنَّه كانَ سُلْطاناً يَتعَظَّمُ على النَّاسِ، يقَالُ: صَلَى النَّارَ، وصَلاَهُ النَّارَ.

سَلْكُهُ في السِّلْسِلَةِ: أَنْ تُلْوىٰ علىٰ جَسَدِهِ حتَّىٰ يَلْتَفَّ عليهِ أثْناؤُها، وهو فيما بينَها مُرهَقٌ مُضيَّقٌ عليهِ لا يَقْدِرُ علىٰ حَرَكَةٍ، وَجَعلهاسَبْعِينَ ذِرَاعاً وَصْفٌ لها بالطُّولِ، لأنَّها إذا طَالَتْ كانَ الإرْهَاقُ أَشَدَّ، والمعنىٰ: ثمَّ لا تَسْلُكُوهُ إلَّا في هذهِ السِلْسِلَةِ، كأنَّها أفْظَعُ من سائرِ مَواضِعِ الإرْهاقِ في الجَحيمِ. والمعنىٰ في ﴿ثُمَّ﴾ في المَوضِعَيْنِ: الدَّلالَةُ علىٰ تَفَاوتِ ما بَيْنِ الغِلِّ والتَّصْلِيَةِ، وما بينَهُما وبين السَّلْكِ في السِلْسِلَةِ، لا علىٰ تَرَاخِي المُدَّةِ.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ﴾ تَعليلٌ علىٰ طَريقِ الاستئنافِ، كأنَّهُ قيلَ: ما لَهُ يُعَذَّبُ هذا العَذَابُ الشَّديدُ؟ فأُجِيبَ بذلك. وفي قَولِهِ: ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ دَليلانِ علىٰ عِظَمِ الجُرْمِ في حِرْمَانِ المسكينِ: أَحَدُهُما: عَطْفُهُ على الكُفْرِ وجَعْلُهُ قَرينَةً لَهُ، والثَّاني: ذِكْرُ الحَضِّ دونَ الفعلِ ليُعْلَمَ أنَّ تَارِكَ الحَضِّ بهذهِ المنْزِلَةِ، فكيفَ بتَارِكي الفِعْلِ؟

وعنْ أبي الدَّرْدَاءِ: أَنَّه كانَ يَحُضُّ ٱمرأَتَهُ علىٰ تَكْثيرِ المَرَقِ لأَجْلِ المَساكينِ، وكانَ يقُولُ: خَلَعْنا نِصْفَ السِلْسِلَةِ بالإيْمانِ، أَفَلا نَخْلَعُ نِصْفَها الآخَرِ؟[1].

﴿حَمِيمٌ﴾ قَريب يَدْفَعُ عنْهُ ويَحزَنُ عليهِ. والغِسْلِينُ: غُسَالَةُ أَهْلِ النَّارِ وما يَسيلُ من أَبْدانِهِم من الصَّديدِ والدَّمِ، فِعْلِين من الغَسْلِ. ﴿ٱلْخَٰطِـُٔونَ﴾ الآثِمُونَ، أَصْحابُ الخطَايا، وخَطِئَ الرَّجُلُ: إذا تَعمَّدَ الذَّنْبَ، وَهُم المشْرِكُونَ، وقُرِئَ: «الخَاطِيُونَ» بإبْدالِ الهَمْزَةِ ياءً[2] و «الخَاطُونَ» بِطَرْحِها[3]، وقيلَ: هم الَّذينَ

(١) حكاه عنه الزمخشري في الكشاف: ج ٤ ص ٦٠٥.
(٢) قراه موسىٰ بن طلحة. راجع المحتسب لابن جني: ج ٢ ص ٣٢٩.
(٣) وهي قراءة ابن عباس وابن مسعود. راجع شواذ القرآن لابن خالويه: ص ١٦١.

يَتَخَطَّوْنَ الحقَّ إلَى البَاطِلِ[1].

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ(٣٨) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ(٣٩) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ(٤٠) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ(٤١) وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ(٤٢) تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ(٤٣) وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ(٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ(٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ(٤٦) فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَـٰجِزِينَ(٤٧) وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ(٤٨) وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ(٤٩) وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ(٥٠) وَإِنَّهُ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ(٥١) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ(٥٢)﴾

أَقْسَمَ سبحانَهُ بالأشياءِ كُلِّها على العُمُومِ، لأنَّها قِسْمَانِ: مُبْصَرٌ وغَيْرُ مُبْصَرٍ، وَقَد فُسِّرَ بالْخَلْقِ والخَالقِ، وبالإنْسِ والجِنِّ، وبالأجسامِ والأرواحِ، وبالدُّنيا والآخِرَةِ، وبالنِّعَمِ الظَّاهِرَةِ والباطِنَةِ[2] أنَّ هذا القُرآنَ ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ يَقُولُ ويَتَكَلَّمُ بِهِ علىٰ وَجْهِ الرِّسالةِ من عِنْدِ ٱللهِ، وقيلَ: هو جبرائيلُ عليه السلام[3]. وقَولُهُ: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾ دَليلٌ علَىٰ أنَّه محمَّدٌ صلى الله عليه وآله وسلم، لأنَّ المعنىٰ علىٰ إثْباتِ أنَّهُ رَسُولٌ لا شَاعِرٌ ولا كَاهِنٌ، وأُسْنِدَ القَوْلُ إليهِ لأنَّ ما يُسْمَعُ منْهُ كلامُهُ، ولمَّا كانَ حِكَايَةً لكلامِ ٱللهِ قيلَ: هو كَلامُ ٱللهِ، وَالكَريمُ: الجَامِعُ لِخِصَالِ الخَيرِ، و «القِلَّةُ» في معنَى العَدَمِ أي: لا تُؤْمِنُونَ ولا تَذَكَّرُونَ ألبَتَّة، والمعنىٰ: ما أكْفَرَكُم! وما أغْفَلَكُم!

أي: هو ﴿تَنْزِيلٌ﴾ بَيَّنَ أنَّه مُنَزَّلٌ ﴿مِنْ﴾ عِنْدِهِ علىٰ رَسُولِهِ. التَّقَوُّلُ: ٱفْتِعَالُ القَوْلِ وٱخْتِلاقُهُ، وفيهِ معنَى التَّكَلُّفِ، وَسَمَّى الأقوالَ المتَقَوَّلَةَ أقَاوِيلَ تَحْقيراً لهَا، كَمَا يقَالُ: الأعَاجِيبُ والأضَاحِيكُ، كأنَّه جَمْعُ أُفْعُولَةٍ من القَوْلِ، والمعنىٰ: ولَو

(١) قاله الشيخ الطوسي في التبيان: ج ١٠ ص ١٠٧.
(٢) أنظر هذه الأقوال في تفسير البغوي: ج ٤ ص ٣٩٠.
(٣) قاله الكلبي ومقاتل. راجع تفسير الماوردي: ج ٦ ص ٨٦.

ٱدَّعىٰ علينا شيئاً لَمْ نَقُلْهُ لَقتلْنَاهُ صَبْراً، كَمَا يَفْعَلُ المُلوكُ بِمَنْ يَتَكَذَّبُ عليهم، فَصَوَّرَ قَتْلَ الصَّبْرِ بصُورتِهِ ليكُونَ أَهْوَلَ، وَهُو أَن يؤْخَذَ بيَدِهِ وتُضْرَبَ رَقَبَتُهُ، وَخَصَّ الْيَمِينَ لأنَّ القَتَّالَ إذا أَرادَ أَن يُوقِعَ الضَّرْبَ في قَفَاهُ أَخَذَ بيَسَارِهِ، وإذا أرادَ أن يُوقِعَهُ في جيدِهِ وأَن يكْفَحَهُ بالسَّيفِ أَخَذَ بيَمينِهِ، وهو أَشَدُّ على المَصْبورِ لِنَظَرِهِ إِلى السَّيفِ، والمعنىٰ: ﴿لَأَخَذْنَا﴾ بيَمينِهِ ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا﴾ وَتينَهُ، و ﴿ٱلْوَتِينَ﴾: نِيَاطُ القَلْبِ، وهو حَبْلُ الوَريدِ، إذا قُطِعَ مَاتَ صاحِبُهُ.

﴿فَمَا مِنكُمْ﴾ الخِطَابُ للنَّاسِ، والضَّميرُ في ﴿عَنْهُ﴾ لِرَسُولِ ٱللهِ، أو: للقَتْلِ، أي: لا تَقْدِرُونَ أن تَحْجُزُوا عنْهُ القَاتِلَ، أو: لا تَقْدِرُونَ أن تَحجُزُوا عن ذلك وتَدفَعُوا عنْهُ، و ﴿حَٰجِزِينَ﴾ صِفَةٌ لـ﴿أَحَدٍ﴾ لأَنَّه في معنَى الجَمَاعَةِ، وهو ٱسمٌ يَقَعُ في النَّفْيِ العامِّ، ويستَوي فيهِ الواحِدُ والجَمْعُ والمذَكَّرُ والمؤَنَّثُ، ومنْهُ قَولُهُ تعالىٰ: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِن رُّسُلِهِۦ﴾[1] ﴿لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾[2]، و ﴿مِنْ أَحَدٍ﴾ في موضِعِ رَفْعٍ بأَنَّه ٱسمُ ﴿مَا﴾. وقيلَ: إنَّ الخِطَابَ للمسلمينَ[3]، وكَذلك في قَولِهِ: ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ﴾ والمعنىٰ: أَنَّ منْهُم نَاساً سَيكْفُرونَ بالقُرآنِ.

﴿وَإِنَّهُ﴾ الضَّميرُ للقُرآنِ ﴿لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ بِهِ المكذِّبينَ لَهُ إذا رَأَوْا ثَوابَ المصدِّقينَ بِهِ، أو: للتَّكْذيبِ. ﴿وَ﴾ إنَّ القُرآنَ لليقَينِ ﴿حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ كَمَا يقَالُ: هو العَالِمُ حقُّ العَالِمِ، والمعنىٰ: لَعَيْنُ اليَقينِ ومَحْضُ اليَقينِ لا شُبْهَةَ ولا رَيْبَ فيهِ.

﴿فَسَبِّحْ﴾ بذِكْرِ ﴿بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ الّذي يَتَضَاءَل كلُّ شَيْءٍ لِعَظَمَتِهِ؛ شُكْراً على ما أَوْحَاهُ إليكَ من القُرآنِ الكَريمِ.

۞ ۞ ۞

---

(١) البقرة: ٢٨٥. (٢) الأحزاب: ٣٢.

(٣) حكاه الزمخشري في الكشاف: ج ٤ ص ٦٠٧.

سُورَةُ المَعَارِج

مكّيةٌ[1] وَهيَ أَرْبعٌ وأَربعُونَ آيةً.

في حَديثِ أُبيٍّ: «وَمَنْ قَرَأَ سُورةَ ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ﴾ أَعْطَاهُ ٱللهُ ثوابَ الَّذين هُم لأَمانَاتِهِم وعَهْدِهِم رَاعُون»[2].

وعن الباقر عليه السلام: «مَنْ أَدْمَنَ قِرَاءَةَ ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ﴾ لَمْ يَسْأَلْهُ ٱللهُ يَوْمَ القيَامَةِ عن ذَنْبٍ عَمِلَهُ، وأَسْكَنَهُ جنَّتَهُ مَعَ محمَّدٍ وآلهِ عليهم السلام»[3].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ(١) لِّلْكَـٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ(٢) مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ(٣) تَعْرُجُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ(٤) فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا(٥) إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا(٦) وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا(٧)

(١) قال الشيخ الطوسي في التبيان: ج ١٠ ص ١١٢: مكّية في قول ابن عباس والضحاك وغيرهما، وهي أربع وأربعون آيةً بلاخلاف.

وفي الكشّاف: ج ٤ ص ٦٠٨: مكّية، وآياتها (٤٤) نزلت بعد الحاقّة.

(٢) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٦١٤ مرسلًا.

(٣) ثواب الأعمال للصدوق: ص ١٤٧ وفيه: «أكثِروا من قراءة ﴿سأل سآئل﴾ فإنَّ من أكثر قراءتها...»، وزاد بعدها: «إن شاء الله».

يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ(٨) وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ(٩) وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا(١٠) يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ(١١) وَصَـٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ(١٢) وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ(١٣) وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ(١٤) كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ(١٥) نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ(١٦) تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ(١٧) وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ(١٨) إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا(١٩) إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا(٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا(٢١)﴾

أي: دَعَا دَاعٍ ﴿بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ ضَمَّنَ ﴿سَأَلَ﴾ معنىٰ: دَعَا فعَدَّاهُ تَعدِيتَهُ، يقَالُ: دَعَا بكَذَا: إذا طَلَبَهُ وٱستَدْعَاهُ، ومنْهُ: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَـٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ﴾[(١)]. وعَنْ مجَاهِدٍ: هو النَّضرُ بنُ الحَارِثِ، قَالَ: ﴿إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ...﴾ الآية[(٢)]. وقُرِئَ: «سَالَ» بِغيْرِ هَمْزٍ[(٣)] جَعَلَ الهَمْزَةَ بينَ بينَ. ﴿لِّلْكَـٰفِرِينَ﴾ صِفَةٌ لـ«عَذَاب» أي: بِعَذَابٍ وَاقِعٍ كائنٍ لِلْكَٰافِرِينَ، أو: صِلَةٌ لـ«دعا» أي: دَعَا للكافِرينَ ﴿لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: من جهَتِهِ إذا جاءَ وقتُهُ، وأَوْجَبَتِ الحكمةُ وقُوعَهُ، أو: معنَاهُ: بعَذَابٍ وَاقِعٍ من ٱللهِ أي: من عِنْده ﴿ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾ ذِي المَصَاعِدِ، جَمْعُ «مِعْرَج».

ثمَّ وَصَفَ المَعَارِجَ وبُعْدَ مَدَاها في العُلُوِّ والارتفَاعِ فَقَالَ: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ﴾ يَعني: جبرائيلَ عليه السلام، خَصَّهُ بالذِّكْرِ تَشْريفاً له ﴿إِلَيْهِ﴾ إلىٰ عَرْشِهِ ومَهْبِطِ أَوامرِهِ ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ﴾ كَمِقْدَارِ مدَّةِ ﴿خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ ممَّا يَعُدُّهُ النَّاسُ، وذلكَ من أسْفَلِ الأَرضينَ إلىٰ فَوق السَّماواتِ السَّبْعِ. وقَولُهُ: ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مقدارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾[(٤)] هو من الأَرضِ إِلَى السَّماءِ الدُّنيا خَمسُمائةٍ، ومنْها إلى الأَرضِ

(١) الدخان: ٥٥.

(٢) حكاه عنه الماوردي في تفسيره: ج ٦ ص ٨٩. والآية: ٣٢ من الأنفال.

(٣) قرأه نافع وابن عامر. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٦٥٠.

(٤) السّجدة: ٥.

خَمسُمائةٍ، والمعنىٰ: لَوْ قَطَعَ الإنْسانُ هذا المقْدارَ الّذي قَطَعَتْهُ الملائكةُ في يَوْمٍ واحدٍ، لَقَطَعَهُ في هذه المدَّةِ، وهو معنىٰ قَوْلِ مجَاهِدٍ[1]. وقيلَ: إنَّ قولَهُ: ﴿فِي يَوْمٍ﴾، من صِلَةِ ﴿وَاقِعٍ﴾، أي: يَقَعُ في يَوْمٍ طَويلٍ مقْدارُهُ خَمْسُونَ أَلْفَ سَنَةٍ من سِنِيِّكُم، وهو يَوْمُ القيامةِ[2]، إمَّا أن يكُونَ ٱسْتِطَالَةً لَهُ لشدَّتِهِ على الكفَّارِ، وإمَّا لأنَّه على الحقيقةِ كذلكَ، قيلَ: فيه خَمْسُونَ مَوْطِناً، كُلُّ مَوْطِنٍ أَلْفُ سَنَةٍ[3]. وما قَدْرُ ذلكَ علَى المؤْمن إلّا كَمَا بينَ الظُّهرِ والعَصْرِ.

ورُوِيَ عن الصَّادقِ عليه السلام أنَّه قَالَ: لَوْ وَلِيَ الحِسَابَ غَيْرُ ٱللهِ تعالىٰ لَمَكَثُوا فيهِ خَمسينَ أَلْفَ سَنَةٍ من قَبْلِ أَن يَفْرَغُوا، وٱللهُ سبحانَهُ يفْرَغُ من ذلكَ في سَاعَةٍ.

وعنه عليه السلام: لا يَنْتَصِفُ ذلك اليَوْمُ حتَّىٰ يُقبَلَ أَهلُ الجنَّةِ في الجنَّةِ، وأُهْلُ النَّارِ في النَّار.

﴿فَاصْبِرْ﴾ يَتَعَلَّقَ بـ﴿سَأَلَ سَائِلٌ﴾ لأنَّهم ٱستَعْجَلُوا العَذَابَ ٱستِهْزاءً وتَكْذيباً بالوَحْيِ، فَأُمِرَ رَسُولُ ٱللهِ صلى الله عليه وآله وسلم بالصَّبْرِ عليهِ.

والضَّميرُ في ﴿يَرَوْنَهُ﴾ للعَذَابِ الوَاقِعِ، أو: ليومِ القيامةِ، يُريدُ: أنَّهم يَستبْعِدُونَهُ علىٰ جهةِ الإحَالَة ﴿وَ﴾ نَحْنُ ﴿نَرَىٰهُ قَرِيباً﴾ هيِّناً في قُدْرتِنا، غَيْرَ بَعِيدٍ علَينا ولا مُتَعذِّرٍ.

﴿يَوْمَ تَكُونُ﴾ نُصِبَ بـ﴿قَرِيباً﴾، أي: يُمكِنُ ولا يَتَعذَّرُ في ذلكَ اليَوْمِ، أو: بمُضْمَرٍ أي: يَقَعُ في ذلك اليوم لِدَلالَةِ ﴿وَاقِعٍ﴾ عليهِ، أو: هو بَدَلٌ عَن ﴿فِي يَوْمٍ﴾، ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَآءُ كَالْمُهْلِ﴾ وهو دُرْدِيُّ الزَّيْتِ، وعنِ ٱبنِ مسعُودٍ: كالفِضَّةِ

---

(١) الذي حكاه عنه الشيخ الطوسي في التبيان: ج ١٠ ص ١١٥.

(٢) قاله الزجّاج في معاني القرآن: ج ٥ ص ٢٢٠.

(٣) قاله القمي في تفسيره: ج ٢ ص ٣٨٦، ورواه الكليني في روضة الكافي: ص ١٤٣ ح ١٠٨ باسناده عن حفص بن غياث عن الصادق عليه السلام.

المُذابَةِ(١). ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾ كالصُّوفِ المَصْبُوغِ أَلْواناً، لأنَّ الجِبالَ ﴿جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ... وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾(٢)، فَإذا بُسَّتْ وطُيِّرَتْ في الجوِّ أُشْبِهَتِ العِهْنَ المنْقوشَ إذا طيَّرتْهُ الرِّيحُ.

﴿وَلَا يَسْئَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً﴾ ولا يقولُ لَه: كيفَ حالُكَ، ولا يُكَلِّمُهُ، لأنَّ كلَّ إنسانٍ مشغُولٌ بنَفسِهِ عن غَيْرِهِ. ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ أي: يَبْصُرُونَ الأَحِمَّاءَ والأَقْرباءَ فَلَا يَخْفَوْنَ عليهم، فلا يَمْنَعُهُم من المسَاءَلَةِ أَنَّ بعضَهُم لا يَبْصُرُ بَعْضاً، وإنَّما يَمْنَعُهُم التَّشاغُلُ، وقُرِئَ: «ولا يُسأَل» على البناءِ للمفْعُولِ(٣)، أي: لا يُقَالُ لِحَميمٍ: أَيْنَ حَميمُكَ؟ ولا يُطْلَبُ منه، لأنَّهم يُبَصَّرونَهم فلا يَحتَاجُونَ إلى السُّؤالِ والطَّلَبِ. وهو كَلامٌ مستَأْنَفٌ، كأنَّه لمَّا قَالَ: ولا يَسْأَلُ حَميمٌ حميماً قيلَ: لَعلَّهُ لا يُبْصِرُهُ، فَقيلَ: يُبَصَّرُونَهم، ولكنَّهم لِتَشاغُلِهِم لم يَتَمكَّنُوا من تَساؤُلِهم.

قُرِئَ: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ بالجرِّ والفَتْحِ(٤) على البناءِ للإِضَافَةِ إلىٰ غَيْرِ مُتَمَكِّنٍ، أي: يَتَمَنَّى ﴿ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ﴾ ذلك اليَوْمِ بإسلامِ كلِّ كَريمٍ عليهِ من أبنائِهِ وزَوْجتِهِ وأَقْربائِهِ ﴿وَفَصِيلَتِهِ﴾ عَشيرَتِهِ الأَدْنَوْنَ الَّذين فُصِلَ عنهم ﴿تُئْوِيهِ﴾ أي: تَضُمُّهُ انتِمَاءً إليها أو لِيَاذاً بها في النَّوائِبِ. ﴿يُنْجِيهِ﴾ عَطْفٌ علىٰ ﴿يَفْتَدِى﴾ أي: يَوَدُّ لَوْ يَفْتَدِي ثُمَّ لَوْ يُنْجِيهِ الافْتِدَاءُ، وقَولُهُ: ﴿وَمَنْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ و ﴿ثُمَّ﴾ لاستِبْعَادِ الإِنْجَاءِ، والمعنىٰ: يَتَمَنَّىٰ لَو كانَ هؤلاءِ جميعاً تَحْتَ يَدِه وبَذَلَهُمْ في فِدَاءِ نَفْسِهِ، ثمّ يُنْجيهِ ذلكَ، وهَيْهَاتَ أَن يُنْجِيهِ.

---

(١) حكاه عنه الماوردي في تفسيره: ج ٦ ص ٩٢.

(٢) فاطر: ٢٧.

(٣) هي قراءة ابن كثير برواية البزّي عنه وأبي جعفر وشيبة. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٦٥٠.

(٤) وبفتح الميم قرأه الكسائي ونافع في بعض الروايات. راجع المصدر السابق.

﴿كَلَّا﴾ رَدْعٌ وتَنْبِيهٌ علىٰ أنَّ الافتِدَاءَ لا يُنْجِي ولا يَنْفَعُ ﴿إِنَّهَا﴾ الضَّميرُ للنَّارِ وإنْ لَمْ يَجْرِ لها ذِكْرٌ، لأنَّ ذِكْرَ العَذَابِ دلَّ عليها، أو: هو ضَمِيرٌ مبْهَمٌ تَرْجَمَ عَنْهُ الخَبَرُ، أو: ضَميرُ القصَّةِ، و ﴿لَظَىٰ﴾ عَلَمٌ للنَّارِ، منْقُولٌ من «اللّظَىٰ» يعني: اللَّهَبَ، ويَجُوزُ أن يُرادَ اللَّهَبُ. «نَزَّاعَةٌ»[١] خَبَرٌ بَعْدَ خَبَر لـ﴿إنَّ﴾ أو: خَبَرٌ لـ﴿لَظَىٰ﴾ إنْ كانَتِ الهاءُ ضَميرُ القصَّةِ، أو: صِفَةٌ له إنْ أُريدَ بها اللَّهَبُ، والتَّأْنيثُ لأنَّه في معنَى النَّارِ، أو: خَبَرُ مبتَدَأ محذُوفٍ للتَّهويلِ أي: هِيَ نزَّاعَةٌ، وقُرِئَ: ﴿نَزَّاعَةً﴾ بالنَّصْبِ على الحالِ المؤكِّدَةِ، أو: علَى الاختِصَاصِ للتَّهويلِ، والشَّوَىٰ: الأَطْرَافُ، أو: جَمْعُ شَوَاةٍ وهي جِلْدَةُ الرَّأسِ تَنْزَعُها نَزْعاً ثمَّ تُعادُ.

﴿تَدْعُواْ﴾ إلىٰ نَفْسِها ﴿مَنْ أَدْبَرَ﴾ عن الإيْمانِ ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ عن طاعَةِ ٱللهِ تعالىٰ، تَقُولُ لَهُم: إلَيَّ إلَيَّ، وقيلَ: إنَّهُ مَجَازٌ عن إحْضَارِهِم كأنَّها تَدْعُوهُم فَتُحْضِرُهُم[٢]، ونحوُهُ قَولُ ذِي الرّمَّةِ:

تَدْعُو أَنْفَهُ الرِّيَبُ[٣]

وَقَولُهُ [أَيضاً]:

لَيالِيَ اللَّهْوِ يُطْبِيني فَأَتْبَعُهُ[٤]

---

(١) الظاهر انّ المصنّف رحمهالله يميل الى قراءة الرفع تبعاً للزمخشري في الكشّاف، وهي قراءة جمهور القرّاء إلّا حفصاً فقد قرأها بالنصب. راجع المصدر نفسه.

(٢) قاله النحّاس في إعراب القرآن: ج ٥ ص ٣١.

(٣) وتمام البيت:

أَمسىٰ بوَهْبِينِ مجتازاً لِمَرتَعِهِ   من ذِي الفَوارسِ يَدعُو أَنفَهُ الربَبُ

من قصيدته البائية الشهيرة، والرِّببُ: نبتٌ، كأنّ الربب يدعو الثور ـ والكلام فيه ـ إليها، والرِّبب لا تدعوه. أُنظر ديوان ذي الرمّة: ص ٣٩.

(٤) وعجزه: كأنّني ضاربٌ في غمرةٍ لَعِبُ. من قصيدته البائية أيضاً. ويطبيني: يدعوني ويميل بي. راجع ديوانه: ص ٢٧.

﴿وجَمَعَ﴾ المالَ ﴿فَأَوْعَىٰٓ﴾ أَمْسَكَهُ في الوِعَاءِ وكَنَزَهُ، ولَمْ يُؤَدِّ الزَّكَاةَ والحُقُوقَ الواجبةَ منْهُ، ولَمْ يُنْفِقْهُ في الطَّاعَةِ.

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ﴾ يُريدُ: الجِنْسَ ﴿خُلِقَ هَلُوعاً﴾ جَزُوعاً، من: الهَلَعِ وهو سُرْعَةُ الجَزَعِ عنْدَ مَسِّ المكرُوهِ، ونَاقَةٌ هِلْوَاعٌ: سَريعَةُ السَّيْرِ، ثمَّ فَسَّرَهُ سبحانَهُ بقَولِهِ: ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعاً﴾ يُريدُ: إذا نَالَهُ الفَقْرُ والضُّرُّ أَظْهَرَ شِدَّةَ الجَزَعِ، وإذا أَصابَهُ الغِنَىٰ مَنَعَ من المَعْروفِ وَشَحَّ بمَالِهِ، والمعنىٰ: أنَّ الإِنْسانَ لإِيْثَارِهِ الجَزَعَ والمَنْعَ وتَمَكُّنهما منْهُ، كأنَّه مَجْبُولٌ عليهما مَطْبُوعٌ، وكأنَّه أَمْرٌ ضَرُوري غيْرُ ٱختياري.

﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ (٢٢) ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ(٢٣) وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ(٢٤) لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ(٢٥) وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ(٢٦) وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ(٢٧) إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ(٢٨) وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ(٢٩) إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ(٣٠) فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ(٣١) وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ(٣٢) وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَـٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ(٣٣) وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ(٣٤) أُوْلَـٰٓئِكَ فِى جَنَّـٰتٍ مُّكْرَمُونَ(٣٥) فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ(٣٦) عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ(٣٧) أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِىٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ(٣٨) كَلَّآ إِنَّا خَلَقْنَـٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ(٣٩) فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَـٰرِقِ وَٱلْمَغَـٰرِبِ إِنَّا لَقَـٰدِرُونَ(٤٠) عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٤١) فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَـٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ(٤٢) يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ

إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ(٤٣) خَـٰشِعَةً أَبْصَـٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ(٤٤)﴾

استثنىٰ سبحانه من جنس الإنسان الموصوف بالجمع والمنع والشحِّ والهلع المُوَحِّدينَ المُطيعينَ، الَّذين جاهَدوا أَنْفُسَهُم وحَمَلُوها على الطَّاعَاتِ، وظَلَفُوها عن الشَّهَواتِ، حتَّىٰ لم يكُونُوا جَازِعينَ ولا مانِعينَ.

ومعنىٰ قَولِهِ: ﴿دَائِمُونَ﴾ أَنَّهم يُدَاوِمُونَ عليها، ويُواظِبُونَ علىٰ أَدائِها لا يَتْرُكُونَها. وفي الحَديثِ: «أَفْضَلُ العَمَلِ أَدْوَمُهُ»[١].

وعنِ الباقرِعليه‌السلام: إنَّ هذا في النَّوافِلِ، وقَولُهُ: ﴿عَلَىٰ صَلَـٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ في الفَرَائضِ والوَاجِباتِ[٢].

وقيلَ: إنَّ معنىٰ مُحَافَظَتِهِم عليها: أَنْ يُراعُوا مَواقيتَها، ويُسْبِغُوا الوضُوءَ لها، ويُقيمُوا أَرْكَانها[٣]. فالدَّوامُ يَرجعُ إلىٰ نَفْسِ الصَّلاةِ، والمُحَافَظَةُ علىٰ أَحْوالِها.

والحَقُّ المَعْلُومُ هو الزَّكاةُ لأَنَّها مقَدَّرَةٌ معلُومَةٌ.

وعنِ الصَّادِقِعليه‌السلام: هو الشَّيْءُ تُخرِجُهُ من مالِكَ إنْ شِئْتَ كلَّ جُمُعَةٍ، وإنْ شِئْتَ كلَّ يَوْمٍ، ولكلِّ ذي فَضْلٍ فَضْلُهُ[٤].

وعنْهُ أيضاً: هو أَن تَصِلَ القَرَابَةَ، وتُعطِي مَن حَرَمَكَ، وتَصَدَّقَ علىٰ مَن عَادَاكَ.

والسَّائِلُ: الّذي يَسْأَلُ، والمَحْرُومُ: الّذي يَتَعَفَّفُ ولا يَسْأَلُ فَيُحْسَبُ غَنيّاً فيُحْرَمُ. ﴿وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ لا يَشُكُّونَ فيهِ، ويستَعدُّونَ لَهُ، ويُشْفِقُونَ

---

(١) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٦١٢ ـ ٦١٣ مرسلًا وزاد بعده: «وإنْ قلَّ».

(٢) رواه الكليني في الكافي: ج ٣ ص ٢٦٩ ـ ٢٧٠ ح ١٢ بإسناده عن الفضيل عنهعليه‌السلام.

(٣) قاله ابن عباس في تفسيره: ص ٤٨٥.

(٤) رواه في الكافي: ج ٣ ص ٤٩٨ و٤٩٩ قطعة ح ٨ و٩ بإسناده عن سماعة بن مهران وأبي بصير كلاهما عنهعليه‌السلام.

من عَذَابِ ربِّهم. وٱعترَضَ بقَولِهِ: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ أي: لا يَـنْبَغِي لأَحَدٍ وإنْ بالَغَ في الطَّاعةِ والعبادَةِ أَن يأْمَنَ عَذَابَ ٱللهِ، ويَنْبَغي أن يكُونَ مُتَرجِّحاً بين الخَوْفِ والرَّجاء.

وقُرِئَ: «بِشَهَادَتِهِمْ»[1] و ﴿بِشَـهَـٰدَٰتِهِمْ﴾ والشَّهادَةُ مـن جُـملةِ الأمـانَاتِ، وخَصَّهَا من بينِها إبَانَةً لِفَضْلِها، لأنَّ في إقَامَتِها إحْياءُ الحُقُوقِ وتَـصْحِيحُها، وفـي كِتْمانِها تَضْييعُها وإبْطَالُها.

﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ﴾ عنْدَكَ يَحْتَفُّونَ بكَ ﴿مُهْطِعِينَ﴾ مسْرعينَ نَحْوَكَ، مادِّينَ أعْناقَهُم إليكَ. ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ﴾ جَمَاعَاتٍ متفرِّقينَ فِرْقَةً فِرْقَة، جَمْعُ «عِزَةٍ» وأَصْلُها: «عِزْوَةٌ» كأنَّ كلَّ فِرقَةٍ تَعْتَزي إلىٰ غَيْرِ مَن تَعْتَزي إليهِ الأُخرىٰ. وكـانُوا يُـحْدِقُونَ بـالنبيِّ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يسـتَمِعُون إلىٰ كـلامِهِ، ويَسـتَهزِئُونَ ويقُولُونَ: إنْ دَخَلَ هؤلاءِ الجنَّةَ كَمَا يقُولُ محمَّدٌ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ دَخَلْنَاها قَبْلَهُم.

﴿كَلَّآ﴾ رَدْعٌ لَهُم عن طَمَعِهِم في دُخولِ الجنَّةِ، ثـمَّ عَـلَّلَ ذلك بـقَولِهِ: ﴿إِنَّـا خَلَقْنَـٰهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ﴾ إلىٰ آخرِ السُّورةِ، وهو كَلامٌ دَالٌّ علىٰ إنْكارِهِم البَعْث، فَكَأَنَّهُ قَالَ: كَلَّا إنَّهم مُنْكِرُونَ للبَعْثِ والجَزَاءِ، فَمِنْ أَيْنَ يَطْمعُونَ في دخُولِ الجنَّةِ؟ وذلك أنَّه ٱحْتَجَّ سبحانَهُ عليهم بالنَّشأةِ الأُولىٰ، وأنَّه خَلَقَهم ﴿مِـمَّا يَـعْلَمُونَ﴾ أي: مـن النُّطَفِ، وبأنَّه قَادِرٌ علىٰ أَن يُهْلِكَهُم ويُبْدِلَ نَاساً خَيْراً منْهُم، وأنَّه ليس بمَسْبوقٍ علىٰ ما يُريدُ تَكْوينهُ ولا يُعْجِزُهُ شَيْء، والغَرَضُ أنَّ مَـنْ قَـدِرَ عـلىٰ ذلك لَـمْ يُـعْجِزْهُ الإعَادَةُ. وقيلَ: معنَاهُ: إنَّا خَلَقْنَاهُم من النُّطْفَةِ الْمَذِرَة، فَهِي أَصْلُهُم ومَنْصِبُهُم الّذي لا مَنْصَبَ أَوْضَعُ منْهُ، فَمِن أَيْنَ يَتَشرَّفُونَ ويدَّعُونَ التَّقَدُّمَ ويقُولُونَ: لَنَدْخُلَنَّ الجنَّةَ

---

(١) قرأه ابن كثير ونافع وابن عامر وأبو عمرو وحمزة والكسائي وعاصم برواية أبىبكر عنه. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٦٥١.

قَبْلَهم؟[١] وقيلَ: معناهُ إنَّا خَلَقْنَاهُم من النُّطَفِ كَمَا خَلَقْنَا سائرَ بني آدَمَ، وحَكَمْنا بأَن لا يَدْخُلَ الجنَّةَ منْهُم إلَّا مَنْ آمَنَ، فَلِمَ يَطْمَعُ الكافِرُ أَن يَدْخُلَها؟[٢] وقيلَ: ﴿مِمَّا يَعْلَمُونَ﴾ أي: من أَجْلِ ما يَعْلَمُونَ وهو الطَّاعةُ[٣]، والمُضَافُ محْذُوفٌ.

﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ من القُبُورِ ﴿سِرَاعاً﴾ مُسْرعينَ، وقُرِئَ: «إِلىٰ نَصْبٍ»[٤] وَ ﴿نُصُبٍ﴾، وهو كلُّ ما نُصِبَ فَعُبِدَ من دُونِ ٱللهِ، وقيلَ: إنَّهما العَلَمُ والرَّايةُ[٥]، وقيلَ: إنَّ «النَّصْبَ» الرَّايةُ، و «النُّصُبَ» الأَصنَامُ المعْبُودَةُ[٦] ﴿يُوفِضُونَ﴾ يَسْعَوْنَ ويُسْرعُونَ إلى الدَّاعِي مسْتَبِقِينَ، كَمَا أَنَّهم كانُوا يَسْتَبقُونَ إلىٰ أَنْصَابِهِم. ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ﴾ لا يَستَطيعُونَ النَّظَرَ مِنْ هَوْلِ ذلكَ اليَوْم.

❁ ❁ ❁

(١) قاله قتادة والزجّاج. راجع التبيان: ج ١٠ ص ١٢٨.
(٢) وهو قول الحسن. راجع المصدر نفسه.
(٣) قاله الشيخ الطوسي في التبيان: ج ١٠ ص ١٢٨.
(٤) وهي قراءة الجمهور إلّا حفصاً وابن عامر فإنّهما قرآها بضمّتين. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٦٥١.
(٥) قاله الكلبي. راجع تفسير البغوي في تفسيره: ج ٤ ص ٣٩٦.
(٦) قاله أبو عبيدة في مجاز القرآن: ج ٢ ص ٢٧٠.

سُورَةُ نُوحٍ

مكّيةٌ[1] ثَمانٍ وعشرُونَ آيةً كُوفيٌّ، تِسْعٌ بَصريٌّ، عَدَّ الكُوفيُّ: ﴿وَنَسْراً﴾[2] والبَصريُّ ﴿سُوَاعاً﴾[3] ﴿فَأُدْخِلُواْ نَاراً﴾[4].

في حَديثِ أُبيٍّ: «ومَنْ قَرأَ سُورةَ نُوحٍ عليه السلام كانَ من المؤْمنينَ الَّذينَ تَدْرُكُهُم دَعْوَةُ نُوحٍ عليه السلام»[5].

وعنِ الصَّادِقِ عليه السلام: «مَنْ كَانَ يؤْمنُ باللهِ ويَقْرأُ كتَابَهُ فَلَا يَدَعْ أَن يَقْرَأَ سُورةَ ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحاً﴾، فَأَيُّ عَبْدٍ قَرَأَها مُحتَسِباً صَابِراً في فريضةٍ أو نَافِلَةٍ أَسْكَنَهُ ٱللهُ تعالىٰ مسَاكِنَ الأَبْرارِ، وأَعطَاهُ ثَلاثَ جِنَانٍ مَعَ جنَّتِهِ كَرَامَةً من ٱللهِ لَـهُ، وزَوَّجَـهُ مِائَتَيْ حَوْرَاء»[6].

---

(١) قال الشيخ الطوسي في التبيان: ج ١٠ ص ١٣١: مكّية في قول ابن عباس والضحاك وغيرهما، وهي ثمان وعشرون آيةً في الكوفي، وتسع وعشرون في البصري، وثلاثون في المدنيّين.

وفي الكشّاف: ج ٤ ص ٦١٥: مكّية، وهي ثمان وعشرون آيةً، نزلت بعد النحل.

(٢) الآية: ٢٣.

(٣) الآية: ٢٣.

(٤) الآية: ٢٥.

(٥) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٦٢٢ مرسلًا.

(٦) ثواب الأعمال للصدوق: ص ١٤٧، وزاد في آخره: «وأربعة آلاف ثيّب إنْ شاء الله».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(١) قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ(٢) أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ(٣) يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ(٤) قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا(٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا(٦) وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا(٧) ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا(٨) ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا(٩) فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا(١٠) يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا(١١) وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا(١٢) مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا(١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا(١٤)﴾

أَي: بَعَثْنا ﴿نوحاً﴾ رَسُولاً ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ﴾ أي: بِأَنْ أَنْذِرْ، فَحُذِفَ الجارُّ، وهي «أَنْ» النَّاصِبَةُ للفِعْلِ، والمعنى: أَرْسَلْناهُ بِأَن قُلْنا لَه: أَنْذِرْ، ويجوزُ أَن تكُونَ مفَسِّرَةً لأَنَّ الإِرْسَالَ فيهِ معنَى القَوْلِ. و ﴿أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ مِثْلُ: ﴿أَنْ أَنْذِرْ﴾ في الوَجْهَيْنِ.

﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾: «مِن» مَزيدَةٌ، وقيلَ: للتَّبعيضِ[1]، أي: يَغْفِرْ لَكُم ذُنُوبَكُم السَّالِفَةَ ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ فيهِ دَلالَةٌ علىٰ ثُبُوتِ أَجَلَيْنِ، مِثْلُ أَن يكُونَ قَد قَضَى ٱللهُ سبحانَهُ أَن يُعَمِّرَ قَوْمَ نُوحٍ إِنْ آمنوا أَلْفَ سَنَةٍ، وإِنْ بَقَوْا علىٰ كُفْرِهم أَهْلَكَهُم علىٰ رأْسِ تِسْعِمائةِ سَنَةٍ، فَقالَ لَهُم: آمِنُوا يؤَخِّرْكُم إِلىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى،

---

(١) قاله الكلبي. راجع البحر المحيط: ج ٨ ص ٣٣٨.

يَعني الوَقْتَ الذي سَمَّاهُ ٱللهُ تعالىٰ وضَرَبَهُ أَمَداً ينْتَهُونَ إليهِ لا يَتَجَاوزُونَهُ، وهو تَمَامُ الأَلْفِ سَنَةٍ. ثمَّ أَخْبَرَ أَنَّه ﴿إِذَا جَآءَ﴾ ذلكَ الأَمَدُ ﴿لَا يُؤَخَّرُ﴾ كما يُؤَخَّرُ هذا الوَقْتُ، ولَمْ يَكُنْ لكم حِيلَةٌ.

﴿إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَاراً﴾ أي: دَائِماً دَائِباً من غَيْرِ فُتُورٍ. ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَاراً﴾ من قَبُولِهِ، ونِفاراً منه، جَعَلَ الدُّعَاءَ فَاعِلَ زِيَادَةِ الفِرَارِ. والمعنىٰ: أَنَّهم ٱزدَادوا عندَهُ فِراراً، ونحوُهُ قَولُهُ: ﴿فَزَادَتْهُم رِجْساً إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [1]. ﴿كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ﴾ أي: ليَتُوبُوا عن كُفْرِهِم فتَغْفِرَ لَهُم، فَذَكَرَ المُسَبَّبَ ٱلَّذي هو حَظُّهُم خَالِصاً ليكُونَ أَقْبَحَ لإِعْرَاضِهِم عنْهُ ﴿جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ لئَلَّا يَسْمَعُوا كَلامي ودُعائي، ﴿وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ﴾ تَغَطَّوا بها لئَلَّا يَرَوْني، كأَنَّهم طَلَبوا أَن يَغْشَاهُم ثِيَابُهُم ﴿وَأَصَرُّواْ﴾ ودَاوِمُوا علىٰ كُفْرِهِم ﴿وَٱسْتَكْبَرُواْ﴾ وأَخَذَتْهُم العِزَّةُ من ٱتِّبَاعِي، وذِكْرُ المَصْدَرِ تأْكِيدٌ ودلَالَةٌ علىٰ فَرْطِ ٱستكبَارِهِم وعُتُوِّهِم.

ابتَدأَ عليه السلام في دَعْوَتِهِم بالأَهْوَنِ وتَرَقَّىٰ إلى الأَشَدِّ، وذلك أَنَّه نَاصَحَهُم في السِّرِّ، فَلَمَّا لَمْ يَقْبَلُوا ثَنَّىٰ بالمُجَاهَرَةِ، فَلَمَّا لَمْ يُؤَثِّرْ ثَلَّثَ بالجَمْعِ بين الإِسْرَارِ والإِعْلانِ. ومعنىٰ ﴿ثُمَّ﴾ الدَلَالَةُ علىٰ تَباعُدِ الأَحْوالِ، فإِنَّ الجِهَارَ أَغْلَظُ من الإِسْرَارِ، والجَمْعُ بين الأَمْرَيْنِ أَغْلَظُ من إِفْرَادِ أَحَدهما. و ﴿جِهَاراً﴾ مَصْدَرُ ﴿دَعَوْتُهُمْ﴾ لأَنَّه أَحَدُ نَوْعَيِ الدُّعَاءِ، فَنُصِبَ بِهِ كَمَا يُنْصَبُ القُرْفُصَاءُ [2] بـ﴿قَعَدَ﴾، لِكَوْنِها أَحَدَ أَنْواعِ القُعُودِ، أو: لأَنَّه أَرادَ بـ﴿دَعَوتُهُمْ﴾ جَاهَرْتُهُم، ويَجُوزُ أَن يكُونَ صِفَةً لِمَصْدَرِ «دَعَوْتُ» أي: دُعَاءً جِهَاراً مُجَاهَراً بهِ.

---

(١) التوبة: ١٢٥.

(٢) قال في الصحاح: القُرفُصاءُ: ضربٌ من القعود، يمدّ ويقصر، فاذا قلت: قَعَد فلانٌ القرفُصاءَ فكأَنّك قلت: قعد قعوداً مخصوصاً وهو أن يجلس على أليتيْه ويُلصق فَخِذَيْه ببطنِهِ ويحتبي بيديه يضعهما على ساقيه كما يحتبىٰ بالثوب، تكون يداه مكان الثوب. (مادة: قرفص).

﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ﴾ أي: ٱطلُبُوا منهُ المَغفِرَةَ علىٰ كُفْرِكُم ومَعاصِيكم ﴿إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً﴾ لِطَالِبي المَغفِرَة. ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً﴾ قيلَ: إنَّهم لمَّا طَالَ إصْرارُهُم على الكُفْرِ والتَّكْذيبِ بَعْدَ تكْريرِ دَعْوتِهِم، حَبَسَ ٱللهُ عنْهُم القَطْرَ فَقُحِطُوا حتَّىٰ هَلَكَتْ أَمْوالُهُم وأَولادُهُم، فَلذلكَ وَعَدَهم أَنَّهم إنْ آمَنُوا رَزَقَهُم ٱللهُ الخَصْبَ وَرَفَعَ عنهم ما كانُوا فيهِ[١]. وعن الحَسَنِ: أنَّ رَجُلًا شَكَا إليهِ الجَدْبَ فقَالَ: ٱستَغْفِرِ ٱللهَ، وشَكَا إليهِ آخرُ الفقْرَ فقَالَ: ٱستَغْفِرِ ٱللهَ، وآخرُ قِلَّةَ النَّسلِ، وآخرُ قِلَّةَ رَيْعِ أَرْضِهِ، فَأَمَرَهُم كُلَّهُم بالاستِغْفَارِ، فَقَالَ لَهُ الرَّبِيعُ بنُ صُبَيْح: أَتَاكَ رِجَالٌ يشْكُونَ أَبْواباً وَيَسْأَلُونَ أَنْواعاً، فَأَمَرْتَهُم كُلَّهُم بالاستِغْفَارِ، فَتَلَا لَهُ الآية[٢].

وسَأَلَ رَجُلٌ الباقِرَ عليه السلام فقَالَ: جُعِلْتُ فداكَ، إنِّي رَجُلٌ كثيرُ المالِ ولَيس يُولَدُ لي وَلَدٌ، فَهَلْ من حيلةٍ؟ قَالَ: نَعم، ٱستَغْفِرْ ربَّكَ سَنَةً في آخرِ اللَّيلِ مائةَ مرَّةٍ، فإنْ ضَيَّعْتَ ذلك باللَّيلِ فاقْضِهِ بالنَّهارِ، فإنَّ ٱللهَ تعالىٰ يقُولُ: ﴿ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ...﴾ إلىٰ آخرِ الآية[٣].

والمِدْرَارُ: المَطَرُ الكَثيرُ الدرُورِ، مِفْعَالٌ، يستَوي فيهِ المذَكَّرُ والمؤَنَّثُ. ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً﴾ أي: تأملُونَ له توقيراً أي: تَعْظِيماً. والمعنىٰ: ما لَكُم لا تَكونُونَ علىٰ حَالٍ تَأْملُونَ فيها تَعظيمَ ٱللهِ إيَّاكم في دارِ الكَرامَةِ؟ و ﴿لِلَّهِ﴾ بَيَانٌ للمُوقَّرِ، ولَوْ تَأَخَّرَ كانَ صِلَةً لـ«الوقَارِ».

وقوله: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً﴾ في مَوضِعِ الحَالِ، كأَنَّه قَالَ: ما لَكُم لا تُؤْمنُونَ باللهِ والحَالُ هذهِ، وهي أَنَّه خَلَقَكُم تَاراتٍ: تُراباً، ثمَّ نُطَفاً، ثمَّ عَلَقاً، إلىٰ أن أَنْشَأَكُم

---

(١) قاله مقاتل. راجع تفسير القرطبي: ج ١٨ ص ٣٠٢.

(٢) حكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٦١٧.

(٣) رواه الكليني في الكافي: ج ٦ ص ٨ ح ٤ بإسناده عن بعض أصحابه عليه السلام بألفاظ متقاربة.

خَلْقاً آخَرَ، وهذه مُوجِبَةٌ للإِيْمانِ بِهِ. وعن ٱبنِ عبَّاسٍ: ما لَكُم لا تخَافُونَ للهِ عَظَمةً؟[١] وعنهُ: لا تَخافُونَ ٱللهَ عَاقِبَةً[٢]، لأنَّ العاقِبَةَ حَالُ ٱستِقْرارِ الأُمورِ وثَبَاتِ الثَّوابِ والعقَابِ، من: وَقَرَ إذا ثَبَتَ وٱستَقَرَّ، وقيلَ: لا تخَافُونَ للهِ حِلْماً وتَرْكَ مُعَاجَلَةٍ بالعقَابِ فتُؤمنوا[٣].

﴿أَلَمْ تَرَوْاْ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَـٰوَ ٰتٍ طِبَاقًا(١٥) وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا (١٦) وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا(١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا(١٨) وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا(١٩) لِّتَسْلُكُواْ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا(٢٠) قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا(٢١) وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا(٢٢) وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا(٢٣) وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَـٰلًا(٢٤) مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَارًا فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا(٢٥) وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا(٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا(٢٧) رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَ ٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا(٢٨)﴾

نَبَّهَهُم أَوَّلًا على النَّظَرِ في أَنْفُسِهِم، وثانياً على النَّظَرِ في العَالَمِ وما فيهِ من العَجَائِبِ والبَدَائِعِ الدَّالَّةِ على الصَّانعِ القَادِرِ العَالِمِ، قَالَ: ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ﴾

---

(١) تفسير ابن عباس: ص ٤٨٧.

(٢) حكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٦١٨.

(٣) حكاه الزمخشري في الكشّاف المتقدّم.

وهو في السَّماءِ الدُّنيا لأنَّ بينَ السَّماواتِ مُلَابَسَةً من حيثُ إنَّها طِبَاقٌ، واحِدَةٌ فَوْقَ الأُخرىٰ كَالْقِبَابِ، فَجَازَ أن يقَالَ: فيهنَّ كَذَا، كما يقَالُ: في المَدينَةِ كذا، وهو في بعضِ نَوَاحِيها ﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجاً﴾ يُبْصِرُ أَهلُ الدُّنيا في ضَوْئِها كَمَا يُبْصِرُ أَهْلُ البَيْتِ في ضَوْءِ السِّراجِ ما يحتَاجُونَ إلىٰ إبْصارِهِ، والقَمَرُ ليس كذلكَ إنَّما هو نُورٌ لَم يَبلُغْ قوَّةَ ضِيَاءِ الشَّمسِ.

﴿وَٱللهُ أَنۢبَتَكُمْ﴾ ٱستعَارَ الإنْباتَ للإنْشاءِ كَمَا يقَالُ: زَرَعَكَ اللهُ للخَيْرِ، والمعنىٰ: أَنْبَتَكُم فَنَبتُّمْ نَبَاتاً، أو: نُصِبَ ﴿أَنۢبَتَكُم﴾ لِتَضَمُّنِهِ معنىٰ «نَبَتُّم». ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا﴾ أَمْواتاً مقبُورينَ ﴿وَيُخْرِجُكُمْ﴾ منها عندَ البَعْثِ، وأكَّدَهُ بالمَصْدَرِ كأنَّهُ قالَ: يُخْرِجُكُم لا مَحالَةَ. ﴿وَٱللهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطاً﴾ مبسُوطَةً تَتَقَلَّبُونَ عليها كَمَا يَتَقَلَّبُ الرَّجُلُ علىٰ بسَاطِهِ، وَالْفِجَاج: الطُّرُقُ الواسِعَةُ المنْفَجَّةُ.

جَعَلَ أموالَهم وأَولادَهُم الّتي لَمْ تَزِدْهُم في الدُّنيا إلَّا وَجَاهَةً زائِدَةً ﴿خَسَاراً﴾ في الآخِرَةِ، وجَعَلَ ذلكَ سِمَةً يُعْرفُونَ بها، وصِفَةً لازِمَةً لَهُم، أي: ٱتَّبَعُوا رؤُوسَهُم المقَدَّمِينَ أَصْحَابَ الأَمْوالِ وتَرَكُوا ٱتِّبَاعِي، وقُرِئَ: ﴿وَوَلَدُهُۥٓ﴾، «وَوُلْدُه»[(١)].

﴿وَمَكَرُواْ﴾ معطُوفٌ علىٰ ﴿لَمْ يَزِدْهُ﴾ وجُمِعَ الضَّميرُ الرَّاجِعُ إلىٰ ﴿مَن﴾ علىٰ المعنىٰ، والماكِرُونَ هُمُ الرُّؤَسَاءُ، ومَكْرُهُم: كَيْدُهُم لنُوحٍ عليه السلام، وَصَدُّ النَّاسِ عن الاستِمَاعِ منْهُ، وقَولُهُم لَهُم: ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ﴾، ﴿مَكْراً كُبَّاراً﴾ قُرِئَ بالتَّخفيفِ[(٢)] والتَّثقيلِ. والكُبَارُ: أَكْبَرُ من الكَبيرِ، والكُبَّارُ بالتَّشديدِ: أَكْبَرُ من الكُبَارِ.

---

(١) قرأه ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي ونافع برواية خارجة عنه. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٦٥٢.

(٢) يعني «كُبَاراً» من غير تشديد، وقد قرأه عيسىٰ وأبو السمَّال وابن محيصن، غير أن الأخير كسر الكاف. راجع شواذ القرآن لابن خالويه: ص ١٦٢.

﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا﴾ قُرِئَ بضمِ الواوِ[١] وفتحِها، وكانَتْ هذهِ الأصْنامُ[٢] المذكُورةُ أَسْمَاؤُها أَعْظَمَ أَصنامِهِم عِنْدَهم فَخصُّوها بَعدَ قَولِهِم: ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ﴾، وقد انتَقَلَتْ هذهِ الأصنَامُ إلى العَرَبِ: فكَانَ وَدٌّ لِكَلْبِ، وسُوَاعٌ لِهمْدَانِ، ويَغُوثُ لِمذْحِجٍ، ويَعُوقُ لِمُرَادِ، ونَسْرٌ لِحِمْيَرَ، ولذلكَ سُمِّيَتِ العَرَبُ بـ«عَبْدِ وَدٍّ» و«عَبْدِ يَغُوثَ». ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا۟﴾ الضَّميرُ للرُّؤَسَاءِ، ومعناهُ: وقَد أَضَلُّوا ﴿كَثِيرًا﴾ قَبْلَ هؤلاءِ، أو: قَد أَضَلُّوا بإضْلالِهِم قَوْماً كَثيراً.

﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ مَعْطُوفٌ علىٰ قَولِهِ: ﴿رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى﴾ أي: قَالَ نُوحٌ: ﴿رَبِّ إِنَّهُم عَصَوْنِى﴾ وَقَالَ: ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّـٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَـٰلًا﴾ والمُرادُ بالضَّلَالِ: أَن يُخْذَلُوا ويُمْنَعوا الألْطافَ لِتَصْميمِهِم على الكُفْرِ وَوقُوعِ اليَأْسِ مِن إيْمانِهِم، أو: يُريدُ بِهِ الهَلَاكَ والضَّياعَ كَقَولِهِ: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾.

وقَدَّمَ سبحانَهُ قولَهُ: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ﴾ لبَيَانِ أَنَّ إِغْرَاقَهم ما كانَ إلَّا من أَجْلِ خَطَايَاهُم، وكَذَا إدْخَالُهُم النَّار. وقُرئَ: ﴿خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ﴾ بالهَمْزَةِ، و«خَطِيَّاتِهِمْ» بقَلْبِ الهَمْزَةِ ياءً وإدْغَامِها[٣] و«خَطَايَاهُمْ»[٤]، و«مَا» مَزِيدَةٌ، وقَالَ: ﴿فَأُدْخِلُوا۟﴾ بالفَاءِ لأَنَّ دخُولَهُم النَّارَ كأَنَّه مُتَعَقِّبٌ لإغْرَاقِهِم، كأَنَّه قَد كانَ لاقترابِهِ أو: لإرادَةِ عَذَابِ القَبْرِ، وعنِ الضَّحَّاكِ: كانُوا يُغْرَقُونَ من جَانِبٍ ويُحْرَقُونَ من جَانِبٍ[٥]. وتَنْكِيرُ النَّارِ: إمَّا لِتَعْظِيمِها، وإمَّا لأَنَّ ٱللهَ سبحانَهُ أَعَدَّ لَهُم نَوعاً من النَّارِ.

يقَالُ: ما بالدَارِ دَيَّارٌ، وَهُو فَيْعَالٌ من الدَّوْرِ، وأَصْلُهُ: دَيْوَارٌ، فَفُعِلَ بِهِ ما فُعِلَ

---

(١) وهي قراءة نافع وحده. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٦٥٣.
(٢) قد تقدّم شرح مختصر عن أحوال هذه الأصنام المزعومة في ج ٢ ص ١١٧ ـ ١١٨.
(٣) قرأه أبو رجاء العطاردي. راجع شواذ القرآن لابن خالويه: ص ١٦٢.
(٤) وهي قراءة أبي عمرو وحده. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٦٥٣.
(٥) حكاه عنه البغوي في تفسيره: ج ٤ ص ٤٠٠.

بأَصْلِ «سيِّد» و «هيِّن»، ولَوْ كانَ علىٰ وَزْنِ فَـعَّالٍ لكـانَ «دوَّاراً»، ولا يُسـتَعْمَلُ إلَّا في النَّفْيِ العَامِّ.

﴿وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ إنَّما قَالَ ذلكَ بَعْدَ أن أَخْبَرَهُ ٱللهُ عزَّوجلَّ أنَّه ﴿لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [1] وأَنَّهم لا يَلِدُون مُؤْمناً، وقَد أَعْقَمَ ٱللهُ أرْحَامَ نسائِهم وأَيْبَسَ أَصْلابَ رِجَالِهِم قَبْلَ العَذَابِ بأَربعينَ سَنَةٍ، فَلَم يَكُنْ فـيهم صـبي وَقتَ العَذَابِ، فلذلكَ دَعَا نُوحٌ عليه السلام عليهم بمَا دَعَا بِهِ. ومعنىٰ: ﴿وَلَا يلدوا يَلِدُ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾: لَا يلِدُوا إلَّا مَـنْ سَـيَفجُرُ ويَكْـفُرُ، فَـوَصَفَهم بـما يَـصيرُونَ إليـهِ، كقَولِهِ عليه السلام: «مَنْ قَتَلَ قَتيلاً فَلَهُ سَلَبُهُ» [2].

﴿وَلِوَٰلِدَيَّ﴾ ٱسْمُ أَبيهِ: ملك بن متوشلخ، وٱسمُ أُمِّهِ: شمخا بنت أنوش، وكَانَا مؤمِنيْنِ ﴿وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ﴾ أي: دَارِي، وقيلَ: مَسْجدِي [3]، وقيلَ: سَفينتي [4]. خَصَّ أَوَّلاً مَنْ يَتَّصِلُ بِهِ لأَنَّهم أَحَقُّ بدُعائِهِ، ثمَّ عَمَّ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَاتِ ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ هَلَاكاً ودَمَاراً.

۞ ۞ ۞

---

(١) هود: ٣٦.

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ٧ ص ٢٩٦.

(٣) قاله الضحاك والكلبي. راجع تفسير البغوي: ج ٤ ص ٤٠٠.

(٤) حكاه البغوي في تفسيره المتقدّم.

سُورَةُ الْجِنّ

مكّيةٌ[1] ثَمَانٍ وعشرونَ آيةً.

في حَديثِ أُبيٍّ: «ومَنْ قَرأَ سُورةَ الجِنِّ أُعْطِيَ بِعَدَدِ كُلِّ جِنِّيٍّ صَدَّقَ بمحمَّدٍ صلى الله عليه وآله وسلم وكَذَّبَ بهِ عِتْقَ رَقَبَةٍ»[2].

وعنِ الصَّادقِ عليه السلام: «مَنْ أكْثَرَ قِرَاءَةَ ﴿قُلْ أُوْحِيَ﴾ لَمْ يُصِبْهُ في حياتِهِ شَيْءٌ من أَعْيُنِ الجِنِّ ولاَ مِن نَفثِهِم وكَيْدِهِم، وكانَ مَعَ محمَّدٍ وآلِهِ عليهم السلام»[3].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا(١) يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا(٢) وَأَنَّهُ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا(٣) وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى

---

(١) قال الشيخ الطوسي في التبيان: ج ١٠ ص ١٤٤: مكّية في قول قتادة وابن عباس والضحاك وغيرهم، وهي ثمان وعشرون آية، ليس فيها آختلاف.

وفي الكشّاف: ج ٤ ص ٦٢٢: مكّية، وآياتها (٢٨) نزلت بعد الأعراف.

(٢) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٦٣٣ مرسلًا.

(٣) ثواب الأعمال للصدوق: ص ١٤٨ وفيه: «وكان مع محمد صلى الله عليه وآله وسلم فيقول: يا ربِّ لا أُريد به بدلًا، ولا أُريد أن أبغي عنه حولًا».

ٱللَّهِ شَطَطًا(٤) وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا(٥) وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا(٦) وَأَنَّهُمْ ظَنُّواْ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا(٧) وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَـٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا(٨) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَـٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْأَنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا(٩) وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا(١٠) وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّـٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا(١١) وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا(١٢) وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا(١٣) وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ تَحَرَّوْاْ رَشَدًا(١٤) وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا(١٥)﴾

﴿أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ﴾ بالفَتحِ لأنَّه فاعِلُ ﴿أُوْحِىَ﴾، و ﴿إِنَّا سَمِعْنَا﴾ بالكَسْرِ لأنَّه مبتدَأٌ مَحْكِيٌّ بعد القَوْلِ، ثمَّ يُحمَلَ عليهما البَواقي، فَما كانَ من الوَحْيِ فُتِحَ، وما كانَ من قَوْلِ الجِنِّ كُسِرَ، وكُلُّهُنَّ من قَولِهم، إلَّا الثِّنْتَيْنِ الأَخيرَتَيْنِ: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ﴾ (١)، ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ (٢)، ومَن فَتَحَ كُلَّهُنَّ فَلِلعَطْفِ علىٰ محلِّ الجارِّ والمَجْرورِ في ﴿ءَامَنَّا بِهِ﴾ كأنَّه قيل: صَدَّقْنا بهِ، وَصَدَّقْنا ﴿أَنَّهُ تَعَـٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾، ﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا﴾ وكذلكَ البَواقي.

﴿نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ جَماعَةٌ منهم ما بينَ الثَّلاثةِ إلَى العَشَرَةِ، وقيلَ: كانُوا من بَني الشَّيصبَان وَهُم أَكْثَرُ الجِنِّ عَدَداً، وَهُم عامَّةُ جُنُودِ إبْليس (٣)، وقيلَ: كانُوا سَبْعَةَ نَفَرٍ

(١ و ٢) الآية: ١٨ و ١٩.

(٣) قاله أبو حمزة اليماني. راجع تفسير البغوي: ج ٤ ص ١٧٣.

من جِنِّ نَصِيبينَ آمنُوا بالنبيِّ ﷺ وأَرْسَلَهم إلىٰ سَائرِ الجنِّ[١] ﴿فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا﴾ أي: قَالُوا لِقَومِهِم حينَ رَجَعُوا إليهم كقَولِهِ: ﴿فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوۡاْ إِلَىٰ قَوۡمِهِم مُّنذِرِينَ﴾[٢]، قَالُوا: ﴿إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا﴾ كِتَاباً ﴿عَجَبٗا﴾ بَديعاً مُبَايناً لكَلَامِ الخَلْقِ، قَائِماً، فيه دَلَائلُ الإِعْجَازِ، «عَجَبٌ» مَصْدَرٌ يُوضَعُ مَوضِعَ «العَجِيب»، وهو ما خَرَجَ من حَدِّ أَشْكَالِهِ ونَظَائِرِهِ.

﴿يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ﴾ يَدعُو إلى الصَّوابِ وإلى التَّوحيدِ والإِيْمَانِ ﴿فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾ الضَّميرُ للقُرآنِ. ولَمَّا كان الإِيْمانُ بهِ إِيْماناً بوحْدَانيَّةِ ٱللهِ تَعالىٰ قَالُوا: ﴿وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا﴾ أي: ولَنْ نَعُودَ إلىٰ ما كُنَّا عليهِ من الإِشْرَاكِ بهِ، ويجُوزُ أن يكُونَ الضَّميرُ للهِ، لأنَّ قَولَهُ: ﴿بِرَبِّنَآ﴾ يُفَسِّرُهُ ﴿تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ أي: تَعالىٰ جَلَالُ رَبِّنا وَعَظَمَتُهُ عن ٱتِّخَاذِ الصَّاحبةِ والوَلَدِ، من قَولِكَ: جَدَّ فُلانٌ في عَيْني: إذا عَظُمَ. وقيلَ: ﴿جَدُّ رَبِّنَا﴾ سُلْطَانُه ومُلْكُه وغِناهُ[٣]، من الجَدِّ الَّذي هو الدولَةُ، والبَخْتُ مستَعَارٌ منْهُ، وقَولُهُ: ﴿مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةٗ وَلَا وَلَدٗا﴾ بَيَانٌ لذلكَ.

﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا﴾ وهو إِبْليسُ أو غَيْرُهُ من مَرَدَةِ الجِنِّ ﴿عَلَى ٱللَّهِ شَطَطٗا﴾ أي: بَعيداً من القَوْلِ، وهو الكَذِبُ في التَّوحيدِ والعَدْلِ، والشَّطَطُ: مُجَاوَزَةُ الحدِّ، ومنْهُ: أَشَطَّ في القَوْلِ إذا أَبْعَدَ فيهِ، أي: يقُولُ قَولاً هو في نَفْسِهِ شَطَطٌ لِفَرْطِ ما أَشَطَّ فيهِ، وهو نسْبَةُ الصَّاحبةِ والوَلَدِ إلى ٱللهِ. ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ﴾ أَنَّ أَحَداً من الجِنِّ والإِنسِ لَنْ يَكْذِبَ على ٱللهِ، ولَنْ يقُولَ عليهِ ما لَيْس بحَقٍّ، فَكُنَّا نُصَدِّقُهُم فيما أَضَافُوهُ إليهِ حتَّىٰ تبَيَّنَ لنا بالقُرآنِ كَذِبُهُم ﴿كَذِبٗا﴾ قَولاً كَذِباً أي: مكْذُوباً فيه،

(١) قاله ابن عباس. راجع تفسير الطبري: ج ١١ ص ٢٩٧.
(٢) الأحقاف: ٢٩.
(٣) قاله أبو عبيدة في مجاز القرآن: ج ٢ ص ٢٧٢.

وٱنتِصبَ ٱنتِصَابَ المَصْدرِ لأنَّ الكَذِبَ بَعضُ القَوْلِ ونَوْعٌ منْهُ، وقُرِئَ: «لَنْ تَقَوَّلَ»(١) وعلىٰ هذا فيكُونُ: ﴿كَذِباً﴾ مَصْدَراً وَقَعَ مَوقِعَ «تـقوُّلًا»، لأنَّ التَّقَوُّلَ لا يكُونُ إلَّا كَذِباً.

ومعنىٰ قَولِهِ: ﴿كَانَ رِجَالٌ مِنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾: أَنَّ العَرَبَ كانَ إذا أمسىٰ أَحَدُهُم في وَادٍ قَفرٍ وَخَافَ علىٰ نَفْسِهِ قَالَ: أَعُوذُ بسيِّدِ هذا الوَادي من سُفَهَاءِ قَومِهِ، يُريدُ: الجِنَّ وكَبيرَهُم ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقاً﴾ أي: فَزَادَ الجِنُّ الإِنْسَ رَهَقاً بإغْوائِهِم وإضْلالِهِم لاستِعَاذَتِهِم بِهِم، أو: فَزَادَ الإِنْسُ الجِنَّ رَهَقاً أي: طُغْياناً وٱستِكْباراً لاستِعَاذَتِهِم بِهِم، يقُولُونَ: سدْنَا الجِنَّ والإِنْسَ، والرَّهَقُ: غِشْيَانُ المَحَارِمِ. ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّواْ﴾ أي: وأَنَّ الإِنْسَ ظَنُّوا ﴿كَمَا ظَنَنتُمْ﴾ وهو من كَلَامِ الجِنِّ يقُولُهُ بَعْضُهُم لبَعْضٍ، وقيلَ: الآيَتَانِ من جُملَةِ الوَحْيِ، والضَّميرُ في: ﴿وَأَنَّهُم ظَنُّواْ﴾ للجِنِّ، والخِطَابُ في: ﴿كَمَا ظَنَنتُمْ﴾ لِكفَّارِ قُرَيْشٍ(٢).

﴿وَأَنَّا لَمَسنَا ٱلسَّمَآءَ﴾ اللَّمسُ: المَسُّ، فاستُعيرَ للطَّلَبِ لأنَّ المَاسَّ طَالِبٌ مُتَعرِّفٌ، قَالَ:

مَسِسنَا مِنَ الآبَاءِ شَيْئاً وكُلُّنَا إلىٰ نَسَبٍ في قَومِهِ غَيْرِ وَاضِعِ(٣)

وَلَمَسَهُ وٱلْتَمَسَهُ وَتَلَمَّسَهُ: كَطَلَبَهُ وٱطَّلَبَهُ وتَطَلَّبَهُ، والمعنىٰ: طَلَبْنَا بُلُوغَ السَّماءِ وٱستِمَاعِ كَلَامِ الملائكةِ ﴿فَوَجَدْنَـٰهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً﴾ أي: حَفَظَةً من الملائِكةِ شِدَاداً. والحَرَسُ: اسمٌ مُفْرَدٌ، كالخَدَمِ في معنَى الحُرَّاسِ والخُدَّام، ولذلك وُصِفَ

---

(١) قرأه يعقوب. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٧٣٦.

(٢) حكاه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٦٢٤.

(٣) لزيد بن الحاكم الكلابي من أبيات يمدح بها قومه ويذمّ آخرين من بني عمومته، يقول: لا تفاخر بيننا وبينكم من جهة الآباء بل التفاخر من جهة أُمّهاتنا وأُمّهاتكم. راجع شرح شواهد الكشّاف للأفندي: ص ٤٢٤.

بـ«شَدِيد»، ونَحْوُهُ:

أَخشىٰ رُجَيْلًا أو رُكَيْباً غَادِياً[١]

لأنَّ «الرَّجُلَ» و «الرَّكْبَ» مفْرَدَانِ في معنَى الرِّجَالِ والرِّكابِ. والرَّصَدُ: مِثْلُ الحَرَسِ، اسمُ جَمْعٍ للرَّاصِدِ علىٰ معنىٰ: ذَوي شِهَابٍ رَاصِدينَ بالرَّجْمِ وَهُم الملائكةُ الّذينَ يَرجُمُونَهُم بِالشُّهُبِ، أو: يكُونُ صِفَةً لـ«شِهَاب» بمعنىٰ الرَّاصِدِ، والمعنىٰ: يَجِدْ شِهَاباً رَاصِداً لَهُ، أي: لأَجْلِهِ. والصَّحيحُ: أَنَّ الرَّجْمَ بالنُّجُومِ، وقد كانَ قَبْلَ مَبْعَثِ رَسُولِ ٱللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أيضاً، وقَد جَاءَ ذِكْرُهُ في أَشْعارِهِم، قَالَ بَشيرٌ:

وَالعِيرُ يُرْهِقُها الغُبَارُ وجَحْشُها يَنْقَضُّ خَلْفَهُمَا انْقِضَاضَ الكَوْكَبِ[٢]

ولكنَّ الشَّياطِينَ كانَتْ تَسْترقُ في بَعضِ الأَحْوالِ، فَلَمَّا بُعِثَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كثُرَ الرَّجْمُ وزَادَ، ومُنِعَتِ الشَّياطِينُ الاسْتِرَاقَ أَصْلًا. وعَنْ مَعْمَرٍ: قُلْتُ للزُّهريِّ: أَكَانَ يُرْمَىٰ بالنُّجُومِ في الجاهليَّةِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قُلْتُ: أَرَأَيْتَ قَولَهُ: ﴿وَإِنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْها مَقَٰعِدَ...﴾ قال: غُلِّظَ وشدِّد أمرُها حين بُعث النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ[٣]. وفي قوله: ﴿مُلِئَتْ﴾ دَليلٌ علىٰ أنَّ الحَادِثَ هو المَلْءُ والكَثْرَةُ، وكذلكَ قَولُهُ: ﴿نَقْعُدُ مِنْها مَقَٰعِدَ﴾، أي: كُنَّا نَجِدُ فيها بَعْضَ المَقَاعِدَ خَالِيَةً من الحَرَسِ والشُّهُبِ، والآن مُلِئَتِ المَقَاعِدُ كُلُّها، وهذا الّذي حَمَلَهُم على الضَّرْبِ في البلادِ حتَّىٰ عَثَروا علىٰ رَسُولِ ٱللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وٱستَمَعُوا قِرَاءَتَهُ.

يقُولُونَ: لمَّا حَدَثَ هذا الحَادِثُ من كَثْرَةِ الرَّجْمِ والمَنْعِ الكُلِّي من الاستِرَاقِ

---

(١) وعجزه: والذئب أخشَاهُ وكلباً عاوياً. لم نعثر على قائله يقول: لهرمي وضعفي صرت اخاف الرجل الصغير والركب القليل الغادي وكذا الذئب أخافه والكلب العاوي. راجع شرح الشواهد: ص ٣٩٨.

(٢) لبشير بن أبي خازم من أبيات يصف فيها حماراً وحشياً تجري وجحشها يسرع خلفها كإسراع شهاب الرجم. راجع المصدر السابق: ٤١١.

(٣) حكاه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٦٢٦.

قُلْنا: ما هٰذا إلّا لأَمْرٍ أَرَادَهُ ٱللهُ بأهل ﴿ٱلأَرْضِ﴾ ولا يَخْلُو من أَن يكُونَ شَـرّاً أَو ﴿رَشَداً﴾ أي: عَذَاباً أو رَحْمَةً. ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّـٰلِحُونَ﴾ الأَبْرارُ المُتَّقُونَ ﴿وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي: ومِنَّا قَوْمٌ دونَ ذلك في الرُّتبَةِ، فَحُذِفَ المَوصُوفُ وهم المقْتَصِدُونَ في الصَّلاحِ، أو: أَرادُوا الطَّالحينَ ﴿كُنَّا طَرَآئِـقَ قِـدَداً﴾ أي: ذَوي مَـذَاهِبَ مـخْتَلَفَةٍ، وهو بَيَانٌ للقِسْمَةِ المذْكُورةِ، أو: كنَّا في طَرَائِقَ مختَلَفَةٍ كَقَولِهِ:

كَمَا عَسَلَ الطَّريقَ الثَّعلبُ[1].

أو: كانَتْ طَرائِقُنا طَرَائِقَ قِدَداً، علىٰ حَذْفِ المضَافِ الّذي هو «طَرائِق» وإقَامَةِ الضَّميرِ المُضَافِ إليهِ مَقَامُهُ. والقِدَّةُ من: قَدَّ، كالقِطْعَةِ من: قَطَعَ.

وقَولُهُ: ﴿فِي ٱلأَرْضِ﴾ و ﴿هَرَباً﴾ حَالَانِ. أي: لَنْ نُعْجِزَ اللهَ كائِنينَ في الأَرضِ أَيْنما كُنَّا، ولَنْ نُعْجِزَهُ هَاربينَ منها إلى السَّمَاءِ، وقيلَ: لَنْ نُعجِزَهُ في الأَرضِ إنْ أرادَ بنا أَمْراً، ولَنْ نُعْجِزَهُ في الأَرضِ هَرَباً إنْ طَلَبَنا[2]. وَالظَّنُّ: بمعنَى اليَقينِ، وهذه صِفَةُ الجِنِّ وأَحْوالُهم وعقَائدُهُم، فَمِنْهم أَخْيارٌ وأَشْرَارٌ ومُقْتَصِدُونَ، وٱعتِقَادُهُم أنَّ ٱللهَ عَزيزٌ لا يفُوتُهُ مَطْلَبٌ، ولا يُنْجِي عنْهُ مَهْرَبٌ.

﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ﴾ وهو القُرآنَ ﴿ءَامَنَّا بِهِ فَـمَنْ يُـؤْمِنْ بِـرَبِّهِ﴾ فَـهُو ﴿لَا يَخَافُ بَخْساً﴾ أي نُقْصَاناً فيما يستَحِقُّهُ من الثَّوابِ ﴿وَلَا رَهَقاً﴾ أي: لِـحَاقَ ظُلْمٍ، وقيلَ: لا يَخَافُ نَقْصاً من حَسَنَاتِهِ ولا زِيَادَةً في سيِّئاتِهِ، ورُوِيَ ذلك عن ٱبنِ عبَّاسٍ والحَسَنِ وقَتَادَةَ[3]، ودَخَلَتِ الفَاءُ لأنَّ الكَلامَ في تَقْديرِ المبتَدَأ والخَـبَرِ، ولَوْلَا ذلكَ لِقيلَ: لا يَخَفْ، والفَائِدَةُ فـي إدْخَـالِ الفـاءِ وتَـقْديرِ الابـتداءِ الدّلالَةُ

---

(١) وصدره: لَدنٌ بِهزِّ الكفِّ يَعْسِلُ متْنُهُ... فيه كما. لساعدة بن جويّة الهُذلي من قصيدة طويلة له، وشعره محشوّ بالغريب والمعاني الغامضة أُنظر المؤتلف والمختلف: ص ٨٣.

(٢) قاله البغوي في تفسيره: ج ٤ ص ٤٠٣. (٣) راجع التبيان: ج ١٠ ص ١٥٢.

علىٰ تَحقيقِ أنَّ المؤْمنَ نَاجٍ لا مَحالَةَ، وأنَّه المخْتَصُّ بذلكَ دونَ غَيْرِهِ.

﴿مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ﴾ المستَسلمُونَ لأَمرِ ٱللهِ، المنْقَادُونَ لَهُ ﴿وَمِنَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ﴾ الكافِرُونَ الجائرونَ عن طَريقِ الحقِّ ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوْاْ رَشَداً﴾ أي: تَوَخَّوْا الرَّشَدَ وتَعَمَّدُوا إِصابَةَ الحقِّ. ﴿وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَباً﴾ تُوقَدُ بِهِم، وتُحْرِقُهُم كَمَا تُحْرِقُ النَّارُ الحَطَبَ.

ورُوِيَ: أنَّ سَعِيد بنَ جُبَيْرٍ لمَّا أَرادَ الحَجَّاجُ قتلَهُ قَالَ لَهُ: ما تَقُولُ فِيَّ؟ قَالَ: قَاسِطٌ وعَادِلٌ، فَقَالَ القَوْمُ: وما أَحْسَنَ ما قَالَ! فَقَالَ الحَجَّاجُ: يا جَهَلَة، إنَّه سَمَّاني ظَالِماً مُشْرِكاً، وتَلَا لَهُم: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ...﴾ الآيةُ، [وقولَهُ:][1] ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾[2].

﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا(١٦) لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا(١٧) وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا(١٨) وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا(١٩) قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا(٢٠) قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا(٢١) قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا(٢٢) إِلَّا بَلَـٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَـٰلَـٰتِهِۦ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا(٢٣) حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا(٢٤) قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا(٢٥) عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا(٢٦) إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ

(١) زيادة لابدّ منها.

(٢) رواه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٦٢٨. والآية: من سورة الأنعام.

وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا(٢٧) لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًا(٢٨)﴾

﴿أَنْ﴾ مخفَّفَةٌ من الثَّقيلةِ، أي: أُوحيَ إِليَّ أَنَّه ـ والضَّميرُ للشَّأنِ والحَديثِ ـ لو ٱستَقامَ الإِنْسُ والجِنُّ علىٰ طَرِيقَةِ الإِيْمانِ لأنْعمْنَا عَلَيْهم وأَوْسَعْنا رزْقَهم، وذكر الماءَ الغَدَقَ لأنَّه أَصْلُ المَعَاشِ وَسَعَةُ الرِّزْقِ. ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ وِلَنَخْتَبِرَهُم كَيفَ يشْكُرُونَ ما خُوِّلُوا منْهُ، ومثْلُهُ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُم أَقَامُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ إلىٰ قَولِهِ: ﴿لأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ [(١)].

وعنِ الباقرِعليه‌السلام في الاستِقَامَةِ: هو وٱللهِ ما أَنْتُم عليه، ثمَّ تَلَا الآيَةَ.

وعنِ الصَّادقِعليه‌السلام قَالَ: لأَفَدْنَاهُم عِلْماً كَثيراً يَتَعَلَّمُونَهُ من الأئمَّةِ.

﴿وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ﴾ عن مَوعِظَتِهِ، أو: عن وَحْيِهِ، أو: عن معرفَتِهِ والإِخْلاصِ في عبادَتِهِ ﴿يَسْلُكْهُ﴾ أي: يُدْخِلْهُ ﴿عَذَاباً﴾ والأَصْلُ: يَسْلُكْهُ في عَذَابٍ، كقَولِهِ: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ﴾ [(٢)] فَعُدِّيَ إلىٰ مفعُولَيْنِ: إمَّا بحَذْفِ الجارِّ وإِيْصالِ الفِعْلِ، وإِمَّا بتَضْمِينِهِ معنىٰ «يُدْخِلَه»، يقَالُ: سَلَكَهُ وأَسْلَكَهُ، قَالَ:

حتَّىٰ إذا أَسْلَكُوهُمْ فِي قُتَائِدَةٍ   مِثْلًا كَمَا تَطرُدُ الجَمَّالَةُ الشُّرُدَا [(٣)]

وقُرِئَ: ﴿يَسْلُكْهُ﴾ بالياءِ والنُّونِ [(٤)]. و «الصَّعَدُ» مَصدَرُ «صَعَدَ» وُصِفَ بهِ العَذَابُ لأنَّه يَتَصَعَّدُ المُعَذَّبَ أي: يَعلُوه وَيغلِبُهُ فَلَا يطِيقُهُ. ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾

---

(١) المائدة: ٦٦. (٢) المدَّثِّر: ٤٢.

(٣) لعبد مناف بن رِبْع الجُرَبيّ، من قصيدةٍ يصف بها واقعة حدثت لقومه. وقُتَائِدة: اسم عقبة. راجع خزانة الأدب للبغدادي: ج ٧ ص ٣٩ وما بعده، وفيه: «شلاًّ» بدل «مثلاً».

(٤) وبالنون هي قراءة نافع وابن كثير وأبي عمرو وابن عامر راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٦٥٦.

هو من جُملةِ المُوحَىٰ، وقيلَ: معناهُ: ولأَنَّ المَساجِدَ لله[١] ﴿فَلَا تَدْعُواْ﴾ علىٰ أنَّ اللّامَ يَتعَلَّقُ بـ﴿لَا تَدْعُواْ﴾ أي: فَلَا تدعُوا مَعَ ٱللهِ أَحَداً في المَسَاجِدِ لأنَّها للهِ خاصَّةً ولعبادَتِهِ، وعن الحَسَنِ: يَعني: الأَرضَ كُلَّها لأنَّها جُعِلَتْ للنبيِّ ﷺ مَسْجِداً[٢]. وسَأَلَ المُعْتَصمُ أَبا جَعْفَرَ الثّاني عليه السلام عَنْها فقَالَ: هي أَعْضاءُ السُّجُودِ السَّبْعة[٣].

﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللهِ﴾ وهو محمَّدٌ ﷺ، ولَمْ يَقُلْ: رَسُول ٱلله، لأنَّ تَقْديرَهُ: وأُوْحِيَ إِليَّ أنَّه لمَّا قَامَ عبدُ ٱللهِ، فَلَمَّا كانَ واقِعاً في كلامِهِ جيءَ بِهِ علىٰ ما يَقْتَضيهِ التَّواضعُ والتَّذلُّلُ ﴿يَدْعُوهُ﴾ أي: يَعْبُدُهُ، يُريدُ: قِيامَهُ لصَلاةِ الفَجْرِ بنَخْلةٍ حينَ أَتاهُ الجِنُّ فاستَمَعُوا لِقِراءَتِهِ ﴿كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً﴾ أي: يَزْدَحِمُونَ عليهِ متراكِمِينَ تَعجُّباً مِمَّا رَأَوْا من عبادَتِهِ، وإعْجَاباً بما كانَ يَتْلُوهُ من القُرآنِ، لأنّهم رَأَوْا ما لَمْ يَرَوْا مِثْلَهُ، وسَمِعُوا ما لمْ يَسْمَعُوا بمثْلِهِ، وقيلَ: معناهُ: لمَّا قَامَ رَسُولاً ﷺ يَعْبُدُ ٱللهَ وَحْدَهُ، كادَ المشْركُونَ لتَظاهُرِهِم علىٰ عَداوتِهِ يَزْدَحِمُونَ عليه مُتراكِمِين[٤] ﴿لِبَداً﴾ جَمْعُ «لِبْدَةٍ»، وهي مَا يَلْبُدُ بَعْضُهُ علىٰ بَعْضٍ، وقُرِئَ: «لُبَداً» بِضَمِّ اللَّامِ[٥]، واللُّبْدَةُ في معنَى اللِّبدَةِ، وعن قَتادَةَ: تَلَبَّدَتِ الإِنْسُ والجِنُّ علىٰ هذا الأَمْرِ لِيُطْفِئُوهُ، فَأَبَى ٱللهُ إلّا أن يَتمَّ نُورُه[٦]. ومَنْ قَرَأَ: «وَإِنَّه» بالكَسْرِ[٧]، جَعَلَهُ من كلامِ الجِنِّ،

---

(١) قاله الزجّاج في معاني القرآن: ج ٥ ص ٢٣٦.

(٢) تفسير الحسن البصري: ج ٢ ص ٣٦٨.

(٣) رواه العياشي في تفسيره: ج ١ ص ٣١٩ ح ١٠٩ عن زرقان صاحب ابن أبي داود وصديقه. وأبو جعفر الثاني هو الإمام الجواد عليه السلام.

(٤) قاله الحسن البصري في تفسيره: ج ٢ ص ٣٦٩.

(٥) قرأه ابن عامر برواية هشام عنه. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٦٥٦.

(٦) حكاه عنه البغوي في تفسيره: ج ٤ ص ٤٠٤.

(٧) وهي قراءة نافع وعاصم برواية أبي بكر والمفضّل كلاهما عنه. راجع كتاب السبعة المتقدّم.

قَالُوهُ لِقومِهِم حينَ رَجعُوا إِليهِم يَحكُونَ ما رَأَوا من صَلاتِهِ وٱزدِحَامِ أَصحابِهِ عليهِ في ٱئتِمَامِهِم بِهِ.

وقَالَ النبيُّ صَلَّى ٱللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ للّذينَ تَظَاهَروا عليهِ: ﴿إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّى﴾ يُريدُ: ما أَتيتُكُم بأَمرٍ مُنْكَرٍ، إِنَّما أَعبُدُ رَبِّي وَحْدَهُ ﴿وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا﴾ ولَيْسَ ذلك بمُوجِبٍ مظَاهَرَتَكُم علىٰ شِقَاقي وعَدَاوتي، أَو: قالَ للجِنِّ عند ٱزدِحَامِهِم متعجِّبينَ: لَيسَ ما تَرَوْنَهُ من عبادَتي للهِ وحْدَهُ بأَمرٍ يُتَعَجَّبُ منْهُ، أَو: قَالَ الجِنُّ لقَومِهِم ذلكَ حِكايَةً عن رَسُولِ ٱللهِ.

﴿قُلْ﴾ يا محمَّدُ ﴿إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ أي: نَفْعاً، لا أَستطيعُ أَن أَضُرَّكُم وأَن أَنفَعَكُم، وإِنَّما الضَّارُّ والنَافِعُ هو ٱللهُ، أو: أَرادَ بالضرِّ الغَيَّ أي: لا أَستطيعُ أَن أَجْبرَكُم على الغَيِّ والرَّشَدِ، وإِنَّما يقْدِرُ ٱللهُ علىٰ ذلك. و ﴿إِلَّا بَلَـٰغًا﴾ ٱستثْنَاءٌ منْهُ، أي: لا أَملكُ إِلَّا بَلَاغاً من ٱللهِ. و ﴿قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى﴾ إلىٰ قَولِهِ: ﴿مُلْتَحَدًا﴾ جُملَةٌ ٱعتِرَاضيَّةٌ، اعترِضَ بها لتأْكيدِ نَفْيِ الاستطاعَةِ عن نَفْسِهِ وبَيَانِ عَجْزِهِ، علىٰ معنىٰ: أَنَّ ٱللهَ سبحانَهُ إِنْ أَرادَ بهِ سُوءاً من مَرَضٍ أو مَوتٍ أو غَيْرِهِما لَمْ يَصِحَّ أَن يُجيرَهُ منْهُ أَحَدٌ، أَو: يَجِدَ من دونِهِ مَلَاذاً يأْوي إليهِ، والمُلْتَحَدُ: المُلْتَجَأُ. وقيلَ: ﴿بَلَـٰغًا﴾ بَدَلٌ من ﴿مُلْتَحَدًا﴾ أي: لَمْ أَجِدْ من دونِهِ مَنْجًى إِلَّا أَن أُبَلِّغَ عَنْهُ ما أَنْزَلَهُ إِلَيَّ فَأَقُولَ: قَالَ ٱللهُ كذا، وَأُبَلِّغَ رِسالَتَهُ من غَيْرِ زِيادَةٍ وَنُقْصَان[1]. و ﴿مِنْ﴾ لَيْسَتْ بصِلَةٍ للتَّبليغِ وإِنَّما هو بمَنْزِلَةِ ﴿مِنْ﴾ في قَولِهِ: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾[2] والتَّقديرُ: بَلَاغاً كائِناً من ٱللهِ ﴿خَـٰلِدِينَ﴾ مَحْمُولٌ علىٰ معنىٰ «من»، وتَعَلَّقَ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ بقَولِهِ: ﴿يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾، علىٰ: أَنَّهم يَتَظَاهَرونَ عليهِ بالعَدَاوَةِ، ويَستَضْعِفُونَ أَنْصارَهُ، ويَسْتَقِلُّونَ

---

(١) قاله الزجَّاج في معاني القرآن: ج ٥ ص ٢٣٧.

(٢) التوبة: ١.

عَدَدَهُ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ﴾ يَوْمَ بَدْرٍ، أَو: يَوْمَ القيامةِ ﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾ حينَئذٍ أَيُّهُمْ ﴿أَضْعَفُ نَاصِراً وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾، ويجُوزُ أَن يَتَعَلَّقَ بمَحْذُوفٍ دَلَّتْ عليهِ الحَالُ، كأَنَّهُ قَالَ: لا يَزَالُونَ علىٰ ما هم عليهِ حتَّىٰ إذا رَأَوْا ما يُوعَدُونَ، وكأَنَّهُم أَنْكَروا هذا المَوعُودَ وقَالُوا: مَتَىٰ يكُونُ؟ فَقِيلَ: ﴿قُلْ﴾ يا محمَّدُ: إنَّهُ كائِنٌ لاريْبَ فيهِ، وأمَّا وقْتُهُ فَمَا ﴿أَدْرِيَ﴾ متىٰ يكُونُ، لأنَّ ٱللهَ سبحانَهُ لم يُبَيِّنْهُ لي، والأَمَدُ: الغَايَةُ والنِّهايةُ والمُهْلَةُ.

﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾ أي: هو عَالِمُ الغَيْبِ ﴿فَلَا﴾ يُطْلِعُ ﴿عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَداً﴾ مِن عبَادِهِ: ﴿إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ تَبْيينٌ لِمَنِ ٱرتَضَىٰ، يَعني: المُرتَضىٰ للنُّبوَّةِ لا كلُّ مرتَضىً ﴿فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً﴾ حَفَظَةً من الملائكةِ يَحفظُونَهُ من الشَّياطينِ، يَطْرُدُونَهم عنْهُ ويَعصِمُونَهُ عن وَسَاوِسِهم حتّىٰ يُبَلِّغَ ما أُوحِيَ بِهِ إليهِ.

﴿لِيَعْلَمَ﴾ ٱللهُ، أي: ليُظْهِر معْلُومهُ علىٰ ما كانَ عَالِماً بِهِ ﴿أَن قَدْ﴾ أبْلَغَ الأَنْبياءُ ﴿رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّهِمْ﴾ وَحَّدَ أَوَّلاً علَى اللَّفْظِ في قَولِهِ: ﴿مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾، ثمَّ جَمَعَ علَى المعنىٰ كقَولِهِ: ﴿فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ﴾، والمعنىٰ: لِيُبَلِّغُوا رِسَالَاتِ ربِّهم كَمَا هي مَحْروسَةً من الزِّيادَةِ والنُّقصَانِ. وقُرِئَ: «لِيُعْلَمَ» على البنَاءِ المفْعُولِ[1] ﴿وَأَحَاطَ﴾ ٱللهُ ﴿بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ بِمَا عِندَ الرُّسُلِ من الشَّرائعِ وغَيرِها، لا يَفُوتُهُ منْها شَيءٌ ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً﴾ من الصَّغير والكَبيرِ، والقَليلِ والكَثيرِ، ممَّا كانَ وما يكُونُ، و ﴿عَدَداً﴾ حَالٌ بمعنىٰ: مَعْدُوداً مَحْصُوراً، أو: مَصْدَرٌ بمعنىٰ: إِحْصَاءً.

❁ ❁ ❁

(١) قراه يعقوب. راجع التبيان: ج ١٠ ص ١٥٧.

سُورَةُ المُزَّمِّلِ

مخْتَلَفٌ فيها[١]، وقيلَ: بعضُها مكيٌّ وبعضُها مدنيٌّ[٢]. تِسْعُ عَشرَةَ آيةً بصريٌّ، عِشْرُونَ كوفيٌّ، عَدَّ الكُوفيُّ ﴿الْمُزَّمِّلُ﴾.

في حَديثِ أُبَيٍّ: «وَمَنْ قَرَأَ المُزَّمِّلَ دُفِعَ عنه العُسْرُ في الدُّنْيا والآخِرَةِ»[٣].

وعن الصَّادِقِ عليه السلام: «مَنْ قَرَأَها في عشَاءِ الآخِرَةِ أو في آخرِ اللَّيْلِ، كانَ لَهُ اللَّيلُ والنَّهارُ مع السُّورةِ شَاهِدينَ، وأَحْيَاهُ ٱللهُ حَياةً طَيِّبَةً وأَمَاتَهُ مِيتَةً طَيِّبَةً»[٤].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ(١) قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا(٢) نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا(٣)

---

(١) قال الشيخ الطوسي في التبيان: ج ١٠ ص ١٦٠: مكّية في قول ابن عباس والضحّاك، وهي عشرون آيةً في الكوفي والمدني الأول، وتسع عشرة في البصري، وثمانية عشرة في المدني الأخير.

وفي تفسير الماوردي: ج ٦ ص ١٢٤: مكّية في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر، وقال ابن عباس وقتادة: إلّا آيتين منها: قوله: ﴿وَٱصْبِر عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ والتي بعدها.

وفي الكشّاف: ج ٤ ص ٦٣٤: مكّية إلّا الآيات ١٠ و ١١ و ٢٠ فمدنيّة، وآياتها (١٩) وقيل: (٢٠) نزلت بعد القلم.

(٢) في نسخة بدل «مختلف فيها... وبعضها مدنيّ»: «مدنيّة ويقال: مكّية إلّا آيتان وهي».

(٣) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٦٤٤ مرسلاً.

(٤) ثواب الأعمال للصدوق: ص١٤٨، وفيه: «كان له الليل والنهار شاهِدَيْنِ مع سورة المزّمّل».

أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا(٤) إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلًا(٥) إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا(٦) إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا(٧) وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا(٨) رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا(٩) وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا(١٠) وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُوْلِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا(١١) إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالاً وَجَحِيمًا(١٢) وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا(١٣) يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا(١٤)﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ في ثيابِهِ المُتَلَفِّفُ بِهَا، أُدْغِمَ التَّاءُ في الزَّاي، وكذلك ﴿الْمُدَّثِّرِ﴾ أَصلُهُ: المتدثِّر، وكان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يتزَمَّلُ بالثِّيابِ في أَوَّلِ ما جاءَهُ جبرائيلُ عليه السلام حتَّىٰ أَنِسَ بِهِ، فَخُوطِبَ بِهٰذا.

ورُوِيَ أَنَّه دَخَلَ علىٰ خديجَةَ وقَد جَأثَ[١] فَرَقاً فقالَ: زَمِّلُوني، فبينَا هو علىٰ ذلك إِذْ نَادَاهُ جبرائيلُ عليه السلام: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾[٢].

وعَنْ عِكْرِمة: أنَّ معنَاهُ: يا أَيُّها الّذي زُمِّل أَمْراً عَظيماً أي: حُمِّلَهُ[٣]. والزَّمْلُ: الحِمْلُ، وازْدَمَلَهُ: احتَمَلَهُ. ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ﴾ للصَّلاةِ، ﴿نِصْفَهُۥٓ﴾ بَدَلٌ من ﴿اللَّيلَ﴾ و ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ استِثْنَاءٌ من «النِّصْف»، كأنَّهُ قَالَ: قُمْ أَقَلَّ من نِصْفِ اللَّيلِ ﴿أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾ خَيَّرَهُ بين النُّقْصَانِ منْهُ والزِّيادةِ عليهِ، وقيلَ: إِنَّ ﴿نِصْفَهُۥٓ﴾ بَدَلٌ من ﴿قَلِيلًا﴾[٤]، وعلىٰ هذا فيكُونُ تَخْييراً بين ثَلاثَةِ أَشْياء: بينَ قِيَامِ النِّصْفِ بتَمَامِهِ، وبينَ قِيَامِ النَّاقِصِ منْهُ، وبينَ قِيَامِ الزَّائِدِ عليهِ. وإِنَّما وَصَفَ النِّصْفَ بالقِلَّةِ

(١) جأث: أي فَزِعَ، فهو مجؤوث أي: مذعور. (الصحاح).
(٢) رواه الطبري في تاريخه: ج ٢ ص ٤٧.
(٣) حكاه عنه الطبري في تفسيره: ج ١٢ ص ٢٧٨.
(٤) قاله الزجّاج في معاني القرآن: ج ٥ ص ٢٣٩.

بالنسبةِ إلَى الكُلِّ. ويَعْضُدُ هذا القَولَ ما رُوِيَ عن الصَّادقِ عليه السلام أنَّه قَالَ: القَليلُ: النِّصفُ، أَو ٱنقُصْ من القَليلِ قَلِيلًا، أو زِدْ علَى القَليلِ قَلِيلًا (١).

وكانَ النَّبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم وطائفَةٌ من المؤْمنينَ مَعَهُ يقُومُونَ علىٰ هذهِ المقَاديرَ، وكانَ الرَّجُلُ منْهُم يقُومُ حتَّىٰ يُصْبحَ مخَافَةَ أَن لا يَحْفظَ ما بينَ النِّصفِ والثُّلُثِ والثُّلُثَيْنِ، حتَّىٰ خَفَّفَ ٱللهُ عنْهُم بآخرِ هٰذهِ السُّورةِ، فَصَارَ قيامُ اللَّيلِ تَطَوُّعاً بعد أَن كانَ فَرِيضَةً، وعنْ سَعيدِ بنِ جُبَيْرٍ: كانَ بينَ أوَّلِ السُّورةِ وآخرِها الّذي نَزَلَ فيهِ التَّخفيفُ عَشْرُ سِنين (٢).

﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي: اقْرأْهُ علىٰ رَتْلٍ وتُؤَدَةٍ بتَبيين الحُرُوفِ وإشْباعِ الحَرَكاتِ حتَّىٰ يجيءَ المتْلُوُّ منْهُ شَبيهاً بالثَّغْرِ المُرَتَّلِ وهو المُفَلَّج (٣).

وعن أميرالمؤْمنينَ عليه السلام: بَيِّنْهُ تِبياناً ولا تَهُذَّهُ هَذَّ الشِّعْرِ، ولا تَنْثُرْهُ نَثْرَ الرَّمْلِ، ولكنِ ٱقْرعْ به القُلُوبَ القَاسِيَة، ولا يَكُونَنَّ هَمُّ أَحدِكُم آخِرَ السُّورة (٤).

وعنِ ٱبنِ عبَّاسٍ: لأَنْ أَقْرَأَ البَقَرةَ أُرتِّلُها، أَحَبُّ إِلَيَّ من أَن أَقْرَأَ القُرآنَ كُلَّه (٥).

وعنِ الصَّادقِ عليه السلام في التَّرتيلِ: هو أَن تَتَمَكَّثَ فيهِ، وتُحَسِّنَ بِهِ صَوْتَك.

وقَالَ: إذا مَرَرْتَ بآيةٍ فيها ذِكرُ الجنَّةِ فَاسْأَلِ اللهَ الجنَّةَ، وإذا مَرَرْتَ بآيةٍ فيها ذِكْرُ النَّارِ فتَعوَّذْ باللهِ من النَّار (٦).

---

(١) أُنظر تفسير القمي: ج ٢ ص ٤١٤.

(٢) حكاه عنه الطبري في تفسيره: ج ١٢ ص ٢٧٩.

(٣) يقال: رجلٌ مفلَّجُ الثنايا اي: منفرجها، وهو خلاف المتراصّ الأسنان.

(٤) رواه الكليني في الكافي: ج ٢ ص ٦١٤ ح ١ باسناده عن عبدالله بن سليمان عن ابي عبدالله عليه السلام عن أميرالمؤمنين عليه السلام. وفيه: «افزعوا قلوبكم» بدل «اقرع به القلوب».

(٥) رواه عنه البيهقي في السنن: ج ٣ ص ١٣.

(٦) رواه الكليني في الكافي: ج ٢ ص ٦١٧ و ٦١٨ قطعة ح ٢ و ٥.

ورُوِيَ عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قالَ: يُقالُ لصاحِبِ القُرآنِ: اقْـرأْ وٱرْقَ، ورَتِّـلْ كما كُنْتَ تُرتِّلُ في الدُّنيا، فإنَّ منزِلَتَكَ عِنْدَ آخرِ آيةٍ تَقْرأُها(١).

وسُئِلَتْ عائِشَةُ عن قِرَاءَةِ رَسُولِ ٱللهِ ﷺ، قالَتْ: لا كَسَرْدِكُمْ هٰذا، لَوْ أرادَ السَّامِعُ أن يَعُدَّ حُرُوفَهُ لَعَدَّها(٢).

وقَولُهُ: ﴿تَرْتِيلًا﴾ تأكيدٌ في إيجابِ الأمرِ، وأنَّه ممَّا لابُدَّ منْهُ للقارِئ.

﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ هذه الآيةُ اعتِرَاضٌ، وعَنَىٰ بالقَوْلِ الثَّقيلِ القُرآنَ وما فيهِ من الأوامرِ والتَّكاليفِ الشَّاقَّةِ الصَّعْبَة. وأمَّا ثِقَلُها علىٰ رَسُولِ ٱللهِ ﷺ فلأنَّهُ مُتحمِّلُها بنَفْسِهِ ومُحمِّلُها أُمَّتَهُ، فَهِي أَبْهَظُ لَهُ لِمَا يَلْحقُهُ خاصَّةً من الأذىٰ فيهِ. وأَرادَ بهذا الاعتِرَاضِ: أنَّ ما كَلَّفَهُ من القِيَامِ باللَّيلِ من جُمْلَةِ التَّكاليفِ الثَّقيلةِ، من حيثُ إنَّ اللَّيلَ وقْتُ الرَّاحَةِ والهُدُوءِ، فلابُدَّ لِمَنْ أَحياهُ من مُجاهَدةٍ لنفْسِه، وقيلَ: قَوْلًا ثقيلًا في الميزَانِ يَوْم القيامةِ، عَظِيمَ الشَّأنِ عندَٱللهِ، لَـهُ وَزْنٌ ورُجْـحَانٌ(٣)، وقيلَ: قَولًا ثقيلًا نُزُولُهُ(٤)، لأنَّهُ عليه السلام كانَ إذَا نَزَلَ عليهِ الوَحْيُ في اليَوْمِ الشَّـديدِ البَرْدِ فَيَفْصِمُ عنْهُ، وإنَّ جَبينَهُ لَيَرْفَضُّ عَرَقاً، وإن كان لَيُوحىٰ له وهو علىٰ راحِلَتِهِ فَيَضْرِبُ بِجِرَانِها.

﴿نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ﴾ هي النَّفْسُ النَّاشِئَةُ باللَّيلِ، الّتي تَنْشَأُ من مَضْجِعِها إلى العبادَةِ، أي: تَنهضُ وتَرتَفِعُ، من: نَشَأَتِ السَّحابَةُ: إذا ٱرتَـفَعَتْ، أو: قِـيَامُ اللَّـيلِ عـلىٰ أنَّ ﴿نَاشِئَةَ﴾ مَصْدَرٌ من: نَشَأَ إذا قَامَ ونَهَضَ، ويدُلُّ عليهِ ما رُوِيَ عن عُبَيْدِ بنِ عُمَيْرٍ قَالَ: قُلْتُ لعَائِشَةَ: رَجُلٌ قَامَ من أوَّلِ اللَّيلِ، أتَقُولينَ لَه: قَامَ نَاشِئَةَ اللَّيلِ؟ قَالَتْ: لا،

---

(١) رواه البيهقي في السنن: ج ٢ ص ٥٣ بإسناده عن عبدالله بن عمرو.

(٢) حكاه عنها الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٦٣٧.

(٣) قاله ابن زيد. راجع تفسير الطبري: ج ١٢ ص ٢٨١.

(٤) قاله عروة بن الزبير وعائشة. راجع تفسير الماوردي: ج ٦ ص ١٢٦.

إنَّما النَّاشِئَةُ القِيَامُ بعدَ النوم(١)، أو: العبادَةُ الّتي تنشَأُ بالليلِ أي: تَحْدُثُ وتَرتَفِعُ، وقيلَ: هي ساعَاتُ اللَّيلِ كُلُّها لأنَّها تَحْدُثُ واحِدَةً بعد أُخرىٰ(٢)، ﴿هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا﴾ هي خاصَّة دُونَ نَاشِئَةِ النَّهارِ، أَشَدُّ مُواطَأَةً أي: مُوافَقَةً، يُواطِئُ قَلْبُها لِسَانَها إنْ أرَدْتَ النَّفْسَ، أو: يُواطِئُ فيها قَلْبُ القَائِمِ لِسَانَهُ إنْ أرَدْتَ القِيَامَ أو العبادةَ أو السَّاعَاتِ، أو: أَشَدُّ مُوافَقَةً لِما يُرادَ من الخُشُوعِ والإِخْلاصِ، وعن الحَسَنِ: أَشَدُّ مُوافَقَةً بين السرِّ والعَلانيَةِ لانْقِطاعِ رؤْيَةِ الخَلائقِ(٣). وقُرِئَ: «أَشَدُّ وِطَاءً»(٤) والمعنىٰ: أَشَدُّ ثَبَاتِ قَدَمٍ، وأَبْعَدُ من الزَّلَلِ، أو: أَثْقَلُ وأَشَدُّ على المُصَلِّي من صَلَاةِ النَّهارِ ﴿وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ وأَثْبَتُ قِرَاءَةً وأَشَدُّ مَقالًا لِهُدوءِ الأصْواتِ وانْقِطَاعِ الشَّواغِلِ.

﴿إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا﴾ أي: تَصَرُّفاً وتَقَلُّباً في مهمَّاتِكَ ومَشَاغِلِكَ ولا تَفْرغُ إلَّا باللَّيلِ، فاجْعَلِ اللَّيلَ لِعبَادَتِكَ ومنَاجَاةِ ربِّكَ لِتَفُوزَ بِخَيْرِ الدُّنيا والآخِرَةِ.

﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ ودُمْ علَىٰ ذِكْرِهِ، والذِكْرُ يَتَناولُ كلَّ تَحْميدٍ وصَلاةٍ وتِلَاوةِ قُرآنٍ وعِبَادةٍ ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ﴾ وانْقَطِعْ إليهِ، وقَالَ: ﴿تَبْتِيلًا﴾ لأنَّ معنىٰ «تبتَّلَ»: بَتَّلَ نَفْسَهُ، فَجِيء بِهِ علىٰ معنَاهُ مُراعَاةً للفَواصِلِ.

﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ﴾ رُفِعَ على المَدْحِ ﴿فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ مُسَبَّبٌ على التَّهليلِ، أي: هو الّذي يَجِبُ ـ لتَفرُّدِهِ بالوحدانيَّةِ والربوبيَّةِ ـ أَن تُوكَلَ إليهِ الأُمُورُ، وقيل: ﴿وَكِيلًا﴾ كفيلًا بِمَا وَعَدَكَ من النَّصرِ(٥).

والهَجْرُ الجَميلُ: أَن يُخَالِفَهم بقَلْبِهِ وهَوَاهُ، ويُخَالِفَهُم في الظَّاهِرِ بِلِسَانِهِ ودَعْوتِهِ

---

(١) حكاه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٦٣٨.

(٢) قاله ابن قتيبة. راجع تفسير الماوردي: ج ٦ ص ١٢٧.

(٣) حكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٦٣٩.

(٤) قرأه ابن عامر وأبو عمرو. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٦٥٨.

(٥) قاله الفرّاء والزجّاج كلٌّ منهما في كتابه معاني القرآن: ج ٣ ص ١٩٨ و ج ٥ ص ٢٤١ على الترتيب.

إِيَّاهُم إلى الحقِّ بالمُدَارَاةِ وتَرْكِ المُكافَأَة، وعَنْ أَبي الدرْدَاءِ: إِنَّا لَنَكْشُرُ في وجُوهِ أَقْوامٍ ونَضْحَكُ إليهِم، وإنَّ قُلُوبَنَا لَتَقْلِيهِم(١).

﴿وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي: وَدَعْني وَإيَّاهُمْ وَوَكِّلْ أَمْرَهم إليَّ، واسْتَكْفِني شَرَّهُم فإنَّ فيَّ ما يُفرِغُ بَالَكَ ﴿أُوْلِى ٱلنَّعْمَةِ﴾ أي: التَنَعُّم في الدُّنيا، وَهُم صَنَاديدُ قُرَيشٍ كانُوا أَهْلَ ثَرْوةٍ وتَرَفُّهٍ. والنَّعْمَةُ بالكَسْرِ: الإِنْعَامُ، وبالضَّمِّ: المَسَرَّةُ، يـقَالُ: نُعْمَ، ونَعْمَةَ عَيْنٍ.

﴿إِنَّ لَدَيْنَا﴾ ما يُضادُّ تَنَعُّمَهُم مِن «أَنكَالٍ» وهي القُيُودُ الثِّقَالُ، الواحِدُ: نُكْلٌ، ومِن «جَحِيمٍ» وهي النَّارُ الشَّديدةُ الحرِّ، ومِن «طَعَامٍ ذِي غُصَّةٍ» يَنْشبُ في الحَلْقِ فلا يَنْسَاغُ، يعني: الضَّريعَ والزَّقُّومَ، ومِن «عَذَابٍ أَلِيمٍ» من سائِرِ أَنْـواعِ العَـذَابِ، فَنَنْتَقِمُ لَكَ منْهُم بذلكَ.

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ﴾ منْصُوبٌ بما في ﴿لَدَيْنَآ﴾ مِنْ معنَى الفِعْلِ، وَالرَّجْفَةُ: الزلْـزلَةُ والحَرَكَةُ العَظِيمةُ والاضطرابُ الشَّديدُ، وَالْكَثِيبُ: الرَّمْلُ السَّائِلُ المتنَاثِرُ، والْمَهِيلُ: الّذي هِيلَ هَيْلًا أي: نُثِرَ وأُسِيلَ.

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَـٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولاً(١٥) فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَـٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا(١٦) فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا(١٧) ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولاً(١٨) إِنَّ هَـٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا(١٩) إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَىِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ

(١) حكاه عنه أبو نعيم في حلية الأولياء: ج ١ ص ٢٢٢ وفيه: «لتلعنهم» بدل «لتقليهم».

يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٠)﴾

يُخَاطِبُ قُرَيْشاً ﴿شَـٰهِداً عَلَيْكُمْ﴾ في الآخِرَةِ بتَكْذيبِكُم وكُـفْرِكُم. ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ﴾ يعني: موسىٰ عليه السلام، أدْخَلَ لامَ التَّعريفِ إشَارةً إلى المذْكُورِ قَبلَهُ ﴿فَأَخَذْنَـٰهُ أَخذاً وَبِيلًا﴾ شَديداً ثَقيلًا من قوْلِهِم: كَلأٌ وَبِيلٌ: وَخِيمٌ غَيْرُ مُسْتَمْرِئٍ لِثقْلِهِ. والوَبيلُ: العَصَاءُ الضَّخْمَةُ.

﴿يَوْماً﴾ مفعُولٌ بهِ، أي: وكَيفَ تَقونَ أَنفُسَكُم يَوْمَ القيامةِ وَهوْلَهُ إن بَقِيتُم على الكُفْرِ ولَمْ تُؤْمنوا، ويجُوزُ أن يكُونَ ظَرْفاً، أي: فكَيفَ لَكُم بالتَّقوىٰ في يومِ القيامةِ إنْ كَفَرْتُم في الدُّنيا، أو: مفعُولاً لـ﴿كَفَرْتُمْ﴾ علىٰ تأويلِ: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ﴾ ٱللهَ إنْ جَحَدْتُم يَوْمَ القيامةِ والجزَاءِ، لأنَّ التَّقْوىٰ هو خَوْفُ عِقَابِ ٱللهِ، وقَولُهُ: ﴿يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيباً﴾ مَثَلٌ كَمَا يقَالُ: يَوْمٌ يُشِيبُ النَّواصِيَ.

﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌ بِهِۦ﴾ وَصْفٌ لليومِ بالشدَّةِ أيضاً، وأنَّ السَّماءَ علىٰ عِظَمِها وإحْكامِها تَنفَطِرُ فيهِ، والمعنىٰ: ذاتُ ٱنفِطَارٍ، أو: السَّماءُ شَيءٌ منْفَطِرٌ، والباءُ في ﴿بِهِۦ﴾ مِثْلُها في: فَطَرْتُ العُودَ بالقدُّومِ، بمعنىٰ: أنَّها منْفَطِرٌ بشدَّةِ ذلك اليومِ وهَوْلِهِ كَمَا يَنفَطِرُ الشَّيءُ بما يُفْطَرُ بِهِ ﴿وَعْدُهُۥ﴾ مضَافٌ إلى المفْعُولِ، والضَّميرُ لليَوْمِ، أو: إلى الفاعِلِ والضَّميرُ للهِ عزَّ ٱسمُهُ وإنْ لَمْ يَجْرِ لَهُ ذِكْرٌ لِكَونِهِ مَعْلُوماً.

﴿أنَّ هَـٰذِهِۦ﴾ الآيَاتِ النَّاطِقَةَ بالوَعيدِ الشَّديدِ ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ مَوعِظَةٌ لِمَنْ أَنْصَفَ من نَفْسِهِ ﴿فَمَن شَآءَ﴾ اتَّعَظَ بها و ﴿ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ بالتَّقوىٰ والخشْيةِ.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَىِ ٱلَّيْلِ﴾ أَقَلَّ منْهُما، اسْتَعارَ الأَدنىٰ وهو الأَقْرَبُ للأَقلِّ، لأنَّ المسافَةَ بين الشَّيئَيْنِ إذا دَنَتْ قَلَّ ما بينهما من الأَحْيازِ،

وإذا بَعُدَتْ كثُرَ ذلكَ، قُرِئَ: ﴿وَنِصْفَهُ وثُلُثَهُ﴾ بالنَّصْب علىٰ معنىٰ: أنَّكَ تقومُ أقلَّ من ثُلُثَيْنِ وتَقومُ النِّصفَ والثُّلُثَ، وقُرِئَ: ﴿وَنِصْفِهِ وثُلُثِهِ﴾ بالجرِّ[1] أي: وأقَلَّ من النِّصْفِ والثُّلُثِ ﴿وَطَآئِفَةٌ مِنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾ وتَقُومُ ذلك جَمَاعةٌ من أصحابِكَ، وعنِ ٱبنِ عبَّاسٍ: عليٌّ عليه السلام وأبوذرّ[2]. ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ ولا يَقْدِرُ علىٰ ذلك غيرُهُ، فَيَعْلَمُ القَدَرَ الّذي يقومُونَه من اللَّيلِ ﴿عَلِمَ أنْ لَنْ تُحْصُوهُ﴾ الضَّميرُ لِمَصْدَرِ ﴿يُقَدِّرُ﴾ أي: عَلِمَ أنَّه لا يَصِحُّ منْكُم ضَبْطُ الأَوقاتِ، ولا يتأتّىٰ حِسَابُها لكم بالتَّعديلِ والتَّسويةِ إلَّا أن تأْخذُوا بالأَوسَعِ للاحتياطِ، وذلك يَشُقُّ عليكُم ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ عِبارةٌ عن التَّرخيصِ في تَرْكِ القِيَامِ المقَدَّرِ.

﴿فَاقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءانِ﴾ عَبَّرَ عن الصَّلاةِ بالقِراءةِ، لأنَّها بعضُ أركَانِها، يُريدُ: فَصَلُّوا ما تَيسَّرَ عَليكُم ولَمْ يَتعذَّرْ من صَلاةِ اللَّيلِ، وقيلَ: هي قِراءَةُ القُرآنِ بعَيْنِها، ثم ٱختَلَفُوا بالقَدَرِ الّذي تَضَمَّنَهُ الأَمْرُ، وعنْ سَعيدِ بنِ جُبَيْرٍ: أنَّه خمسُونَ آيةً، وعنِ ٱبنِ عبَّاسٍ: مائةُ آية، وعن السدِّي: مِائَتَا آية[3]. ثمَّ بيَّنَ سبحانَهُ وَجْهَ الحِكْمَةِ في التَّخفيفِ، وهي تَعذُّرُ القِيَامِ باللَّيلِ علَى المَرْضىٰ، والضَّاربينَ في الأَرضِ للتِّجارةِ، والمُجَاهدينَ في سبيلِ ٱللهِ، وَسَوَّىٰ سبحانَهُ بين المجاهِدينَ والمسافرينَ لِطَلَبِ الحَلَالِ. والقَرْضُ الحَسَنُ: إِخراجُ المَالِ من أَطْيَبِ وجوهِهِ وأَعْوَدِهِ علىٰ الفُقَراءِ وٱبتغاءَ وَجْهِ ٱللهِ بهِ، وَصَرْفُهُ إلى المسْتَحَقِّ ﴿تَجِدُوهُ عِنْدَ ٱللهِ هُوَ خَيْراً﴾ هو: فَصْلٌ وَقَعَ بينَ مفْعُولَيْ «وَجَدَ»، وجاز وإنْ لَم يَقَعْ بينَ مَعْرِفَتَيْنِ؛ لأنَّ «أَفْعل» من أَشْبَهِ المعرفةِ في ٱمتنَاعِهِ من حَرْفِ التَّعريف.

---

(١) قرأه نافع وأبوعمرو وابن عامر. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٦٥٨.

(٢) رواه عنه الحاكم الحسكاني في شواهد التنزيل: ج ٢ ص ٣٨٧ باسناده عن أبي صالح وآخر عن عطاء كِلَاهما عنه.

(٣) أنظر هذه الأقوال في تفسير الماوردي: ج ٦ ص ١٣٣، وتفسير القرطبي: ج ١٩ ص ٥٣.

سُورَةُ المُدَّثِّر

مكّيّةٌ[1] سِتٌّ وخَمْسُونَ آيةً.

في حَديثِ أُبيٍّ: «وَمَنْ قَرَأَ سُورةَ المُدَّثِّر أُعْطِيَ عَشْر حَسَنَاتٍ بِعَدَدِ مَن صَدَّقَ بمحمَّدٍ ﷺ وَكَذَّبَ بِهِ بِمَكَّة»[2].

وعنِ الباقرِ عليه السلام: «مَنْ قَرَأَ في الفَريضةِ سُورةَ المدَّثِّر كانَ حقّاً على ٱللهِ أَن يَجْعَلَهُ مع محمَّدٍ ﷺ في دَرَجَتِهِ، ولا يُدْرِكَهُ في الحياة الدُّنيا شَقَاء»[3].

بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ(١) قُمْ فَأَنذِرْ(٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ(٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ(٤) وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ(٥) وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ(٦) وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ(٧) فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ(٨) فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ(٩) عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ(١٠)

---

(١) قال الشيخ الطوسي في التبيان: ج ١٠ ص ١٧١: مكّية في قول ابن عباس، وقال الضحّاك: هي مدنيّة وهي خمسون وست آيات في الكوفي والبصري والمدني الأول، وخمس في المدني الأخير. وقال أبو سَلمة ابن عبدالرحمن: أوّل ما نزل من القرآن ﴿يا أيُّها المدَّثِّر﴾ وحكى ذلك أبوسلمة عن جابر بن عبدالله.

وفي الكشّاف: ج ٤ ص ٦٤٤: مكّية وهي ست وخمسون آيةً، نزلت بعد المزَّمّل.

(٢) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٦٥٧ مرسلًا.

(٣) ثواب الأعمال للصدوق: ص ١٤٨ وزاد بعده: «أبداً إن شاء الله».

ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا(١١) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُودًا (١٢) وَبَنِينَ شُهُودًا(١٣) وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا(١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ(١٥) كَلَّآ إِنَّهُ كَانَ لِأَيَـٰتِنَا عَنِيدًا(١٦) سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا(١٧) إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ(١٨) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ(١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ(٢٠) ثُمَّ نَظَرَ(٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ(٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ(٢٣) فَقَالَ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ(٢٤) إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ(٢٥) سَأُصْلِيهِ سَقَرَ(٢٦) وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ(٢٧) لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ(٢٨) لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ(٢٩) عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ(٣٠)﴾

﴿المُدَّثِّرُ﴾: المُتَدَثِّرُ بثيابِهِ، وهو لَابِسُ الدِثَارِ، وهو ما فَوْقَ الشِّعَارِ، والشِّعَارُ: الثَّوبُ الَّذي يَلي الجَسَدَ، ومنْهُ الحديثُ: «الأَنْصارُ شِعَارٌ والنَّاسُ دِثَارٌ»(١). ﴿قُمْ﴾ من نَوْمِكَ ﴿فَأَنْذِرْ﴾ قومَكَ، أو: قُمْ قِيَامَ عَزْمٍ وتَصميمٍ فَحَذِّرْ قومَكَ من عذَابِ ٱللهِ إنْ لَم يُؤْمِنُوا، والأَوْجَهُ أَن يكُونَ المعنىٰ: فافْعَلِ الإِنْذَارَ، من غَيْرِ تَخْصِيصٍ. ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ واْخْتَصَّ ربَّكَ بالتَّكبيرِ، وهو أَن تَصِفَهُ بالكبْرِيَاءِ، أو: قُلْ: ٱللهُ أكبرُ، وَقَد حُمِلَ أيضاً على التَّكبيرِ في الصَّلاةِ، ودَخَلَتِ الفاءُ لمعنَى الشَّرطِ، كأَنَّهُ قَالَ: وما كانَ فَلَا تَدَعْ تَكْبِيرَهُ.

﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ هَا من النَّجاسَاتِ، لأَنَّ طَهارَةَ الثِّيابِ شَرطٌ في صحَّةِ الصَّلاةِ، وعن قَتَادَةَ: الثِّيابُ عبارةٌ عن النَّفْسِ، أي: ونَفْسَكَ فَطَهِّرْ مِمَّا يُسْتَقْذَرُ من الأَفعالِ(٢). يقَالُ: فلانٌ طَاهِرُ الثِّيابِ ونَقيُّ الجَيْبِ والذَّيلِ، إذا وُصِفَ بالنَّقاءِ من المَعائبِ والرَّذائلِ، لأَنَّ الثَّوبَ يشْتَملُ على الإنسانِ فَكَنَّىٰ بهِ عنْهُ، كَمَا قيلَ:

---

(١) رواه مسلم في الصحيح: ج ٢ ص ٧٣٨ قطعة ح ١٠٦١ باسناده عن عبدالله بن زيد. ومعنى الحديث: أنّ الأنصارَهُم البطانةُ والخاصّةُ، وهُم ألصَقُ الناس بي من سائر الناس.

(٢) حكاه عنه الطبري في تفسيره: ج ١٢ ص ٢٩٨.

أَعْجَبَني زَيدٌ ثَوبُهُ، وقيلَ: معنَاهُ: وثيابَكَ فَقَصِّر[١]، إذْ لا يُؤْمَنُ في تَطْويلِها إصَابَةُ النَّجاسَةِ.

﴿وَالرُّجْزَ﴾ قُرِئَ بكَسْر الرَّاءِ[٢] وضَمِّها، وهو العَذَابُ، والمعنىٰ اهْجُرْ ما يُؤدِّي إليهِ عبادَةُ الأَوثَانِ وغيرُها، أي: واثْبتْ علىٰ هَجْرِهِ لأنَّه صلوات الله عليه كانَ منزَّهاً عنْهُ.

﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ أي: ولا تُعْطِ مُسْتَكثِراً، رَائياً لِمَا تُعْطيهِ كثيراً، أو طَالباً للكَثيرِ، نَهْيٌ عن الاستِغْزَارِ، وهو أَن يَهَبَ شيئاً وهو يطْمَعُ أن يَتَعَوَّضَ من الموهُوبِ لَهُ أَكْثَرَ من الموهُوبِ، وهذا جَائِزٌ. ومنْهُ الحَديثُ: «المُسْتَغزِرُ يُثَابُ من هِبَتِهِ»[٣]. وفيه وَجْهَانِ: أَحدُهُما: أن يكُونَ نَهياً خاصّاً لرسُولِ ٱللهِ ﷺ، لأنَّ ٱللهَ عزَّ ٱسمُهُ ٱختَارَ له أَحْسَنَ الأَخْلاقِ، والآخَرُ: أَن يكُونَ نَهْيَ تَنْزيهٍ لا نَهْيَ تَحْريم. ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ وَلِوَجْهِ ربِّكَ فاستَعْمِلِ الصَّبْرَ علىٰ أَذَى المشركينَ وعلىٰ أَداءِ الطَّاعَاتِ.

والفاءُ في ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ﴾ للتَّسبيبِ، كأَنَّهُ قَالَ: فاصْبِرْ علىٰ أَذاهُم فَبَيْنَ أَيديهم ﴿يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ يَلْقَوْنَ فيهِ مَغَبَّةَ أَذاهُم، والفاءُ في ﴿فَذَٰلِكَ﴾ للجَزَاءِ، وٱنْتصَبَ ﴿إِذَا﴾ بما دَلَّ عليه الجزاءُ، لأنَّ المعنىٰ: فإذا نُقِرَ في النَّاقُورِ عَسُرَ الأمرُ علىٰ الكافرينَ، ولا يجوزُ وقُوعُ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ ظَرْفاً لـ﴿عَسِير﴾ لأنَّ الصِّفَةَ لا تَعملُ فيما قَبْلَ الموصُوفِ، وإنَّما يَتَعَلَّقُ بـ﴿ذَٰلِكَ﴾ لأنَّ ﴿ذَٰلِكَ﴾ كِنَايةٌ عن المَصْدَرِ، والتَّقديرُ: فذلكَ النَّقْرُ في ذلكَ اليَوْمِ نَقْرُ يَوْمٍ عَسيرٍ، وعَنْ مجَاهِدٍ: معنَاهُ: فإذا نُفِخَ في الصُّورِ[٤]، وٱخْتُلِفَ في أَنَّها النَّفْخَةُ الأُولىٰ أَم الثَّانية. وإنَّما قَالَ: ﴿غَيْرُ يَسِيرٍ﴾

---

(١) قاله طاووس. راجع تفسير الماوردي: ج ٦ ص ١٣٧.
(٢) وهي قراءة الجمهور إلّا حفصاً. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٦٥٩.
(٣) انظر النهاية لابن الأثير: مادة «غزر» وقال: المستغزر: الذي يطلب أكثر ممّا يعطي.
(٤) حكاه عنه الطبري في تفسيره: ج ١٢ ص ٣٠٤.

وقَولُهُ: ﴿عَسِيرٌ﴾ يُغْني عنْهُ، لِيؤْذِنَ أَنَّه لا يكُونُ عليهم يَسيراً كَمَا يكُونُ على المؤْمنينَ، فيكُونُ جَمْعاً بين وَعيدِ الكافرينَ وَوَعْدِ المؤْمنينَ.

﴿ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ﴾ ـهُ ﴿وَحِيداً﴾ أي: متوحِّداً بخَلْقِهِ، يعني: وَليدَ بنَ المُغِيرَة، يُريدُ: دَعْني وإيَّاهُ، وخَلِّ بيني وبينَهُ، فإنِي أُجْزِئُكَ في الانتقامِ منْهُ عن كلِّ منْتَقِمٍ، فهو حَالٌ من ٱللهِ علىٰ معنَيَيْنِ: بمعنىٰ: ذَرْني وَحْدي مَعَهُ، أو خَلَقْتُهُ وَحْدي، أو: حَالٌ من المَخْلُوقِ بمعنىٰ: خَلَقْتُهُ وهو وَحيدٌ فريدٌ لا مَالَ لَهُ. وَرُوِيَ عن الباقرعليه السلام أنَّ الوَحيد مَنْ لا يُعْرَفُ لَهُ أَبٌ(١).

﴿مَالاً مَمْدُوداً﴾ أي: مَبسُوطاً كثيراً، عنِ ٱبنِ عبَّاسٍ(٢): هو ما كانَ له بين مكَّةَ والطَّائِفِ من صنُوفِ الأموالِ، من الإبلِ المؤَبَّلَةِ، والخَيْلِ المسوَّمةِ، والمستَغلَّاتِ الَّتي لا تَنْقَطِعُ غَلَّاتُها، وكانَ له مائةُ أَلف دينارٍ، وعَشْرُ ﴿بَنِينَ شُهُوداً﴾ أي: حُضُوراً معه بمكَّةَ لا يَغيبُونَ عَنْهُ؛ لِغِنَاهُم عن رُكُوبِ السَّفرِ للتِّجارةِ، أَسْلَمَ منْهُم ثَلاثَةٌ: خَالدُبنُ الوَليدِ، وهِشَامٌ، وعمارَةُ. ﴿وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيداً﴾ أي: وبَسَطْتُ له الجَاهَ العَريضَ والرئاسةَ في قَوْمِهِ. ﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴾ ٱستبْعاداً لِطَمَعِهِ وحرْصِهِ.

﴿كَلَّآ﴾ رَدْعٌ له وقَطْعٌ لِطَمَعِهِ ﴿إِنَّهُ كَانَ لِآيَـٰتِنَا عَنِيداً﴾ تعليلٌ للرَّدْعِ علىٰ وَجْهِ الاستِئْنافِ، أي: كانَ معَانِداً لحُجَجِنا وآياتِنا مع مَعْرفتِهِ بها، كَافِراً بذَلك لِنِعَمِنا، والكافرُ لا يستَحقُّ المَزيدَ، ورُوِيَ: أنَّه ما زَالَ بعدَ نُزُولِ هذه الآيـةِ فـي نُقْصَانٍ من مالِهِ حتَّىٰ هَلَكَ(٣). ﴿سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً﴾ سأُغْشِيَهُ عَقَبةً شَاقَّةَ المَصْعَدِ، وهو مَثَلٌ لِمَا يَلْقَىٰ من العقُوبةِ الشَّديدةِ الَّتي لا تُطَاقُ.

﴿إِنَّهُ فَكَّرَ﴾ تَعليلٌ للوَعيدِ، أو: بَدَلٌ من ﴿إِنَّه كَانَ لِآيَـٰتِنَا عَنِيداً﴾، بَيَاناً لكُنْهِ

---

(١) رواه العياشي في تفسيره كما في مجمع البيان: ج ١٠ ص ٣٨٧.

(٢) حكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٦٤٧.

(٣) رواه مقاتل. راجع البحر المحيط لأبي حيان: ج ٨ ص ٣٧٣.

عِنَادِهِ، ومعنَاهُ: إِنَّه فَكَّرَ ماذا يَقُولُ في القُرآنِ ﴿وَقَدَّرَ﴾ في نَفْسِهِ ما يَقُولُ لَهُ وهيَّأَهُ. ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ تَعْجِيبٌ من تَقْدِيرِهِ وإِصَابتِهِ فيهِ المَحَزّ(١) ورَمْيِهِ فيه الغَرَض، أو: ثَنَاءٌ عليهِ علىٰ طَرِيقةِ الاستِهْزاءِ بِهِ، يقُولُ القَائِلُ: قَتَلَهُ اللهُ ما أَشْجَعَهُ! وقَاتَلَهُ ٱللهُ ما أَشْعَرَهُ! ومعنَاهُ: أنَّه حقيقٌ بأَن يُحسَدَ ويَدْعُوَ عليهِ حَاسِدُهُ بذلك.

ورُوِي(٢): أنَّ الوليدَ قَالَ لبني مَخْزُوم: وٱللهِ لَقَد سَمِعْتُ من محمَّدٍ آنِفاً كلاماً، ما هو من كَلَامِ الإنْسِ، ولا من كَلامِ الجِنِّ، إنَّ له لَحَلَاوَةً، وإنَّ عليه لَطَلَاوةً، وإنَّ أَعْلَاهُ لَمُثمِرٌ، وإنَّ أسْفَلَهُ لَمُغدِقٌ، وإنَّه يعلُو وما يُعْلَىٰ، فَقَالَتْ قُرِيشٌ: صَبَا(٣) واللهِ الوَلِيدُ، وٱللهِ لَيَصْبَأَنَّ قُرِيشٌ كُلُّهُم، فَقَالَ أبوجَهْلٍ: أنَا أَكْفِيكُمُوهُ، فَقَعَدَ إليه حَزِيناً وكلَّمَهُ بما أَحْمَاهُ(٤)، فَقَامَ فأَتَاهُم فقَالَ: تَزْعُمُونَ أنَّ محمَّداً مجنُونٌ فَهَلْ رأَيتُمُوهُ يَخْنقُ؟ وتَقُولُونَ: إنَّه كاهِنٌ، فَهَل رأَيتُمُوهُ يُحدِّثُ فيما يَتَحَدَّثُ بِهِ الكَهَنَةُ؟ وتَزْعُمُونَ أنَّه شَاعِرٌ، فَهَل رأَيتُمُوهُ يَتَعَاطىٰ شِعْراً قطّ؟ وتَزْعُمُونَ أنَّه كَذَّابٌ، فَهَل جَرَّبْتُم عليهِ شيئاً من الكَذِبِ؟ فقَالُوا في كلِّ ذلك: اللَّهُمَ لا، قَالُوا له: فَمَا هُو؟ فَفكَّرَ فَقَالَ: ما هو إلَّا ساحِرٌ! أَمَا رأيتُمُوهُ يُفَرِّقُ بين الرَّجُلِ وأَهلِهِ ووُلْدِهِ ومَوَالِيه؟ وما يَقُولُهُ ﴿سِحْرٌ يُؤثَرُ﴾ عن أَهلِ بَابِلِ، فَتَفرَّقُوا معْجَبِينَ متعجِّبِينَ منْهُ. ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ في وجُوهِ النَّاسِ ﴿ثُمَّ﴾ قَطَّبَ وَجْهَهُ مدْبِراً، وتَشَاوَسَ مُستَكبِراً لِمَا خَطَرَتْ ببَالِهِ هذهِ الكلمةُ الشَّنْعَاءُ وقيلَ: ﴿قَدَّرَ﴾ ما يقُولُهُ ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ فيهِ ﴿ثُمَّ عَبَسَ﴾ لِمَا ضَاقَتْ عليهِ الحِيَلُ ولَمْ يَدْرِ ما يَقُول(٥).

---

(١) أي: القطع. (لسان العرب).

(٢) رواه الطبري في تفسيره: ج ١٢ ص ٣٠٩ عن ابن عباس.

(٣) صَبَا: أي مَالَ. (الصحاح).

(٤) أحماه: أي أثار حميّته وعصبيّته. (لسان العرب).

(٥) حكاه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٦٤٩.

﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ بَدَلٌ من ﴿سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً﴾، ﴿لَا تُبْقِى﴾ شيئاً يُلْقىٰ فيها إلّا أَهْلَكَتْهُ ﴿وَلَا تَذَرُ﴾هُ مِنَ الهلاكِ، بلْ كُلُّ ما يُلْقىٰ فيها هَالِكٌ لا مَحالَةَ. ﴿لَوَّاحَةٌ﴾ من: لَوَّحَ الهَجِيرُ، والبَشَرُ: أَعَالي الجُلُودِ، أي: مُغَيِّرةٌ للجُلُودِ، وقيلَ: لَافِحَةٌ لَهَا حتَّىٰ تَدَعَها أَشَدَّ سَواداً من اللَّيلِ[١]. ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ من المَلائكةِ هُم خزَنَتُها، وقيلَ: تِسْعَةَ عَشَرَ صِنْفاً[٢].

﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَـٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَـٰٓئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَـٰنًا وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَـٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ(٣١) كَلَّا وَٱلْقَمَرِ(٣٢) وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ(٣٣) وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ(٣٤) إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ(٣٥) نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ(٣٦) لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ(٣٧) كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ(٣٨) إِلَّآ أَصْحَـٰبَ ٱلْيَمِينِ(٣٩) فِى جَنَّـٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ(٤٠) عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ(٤١) مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ(٤٢) قَالُواْ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ(٤٣) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ(٤٤) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ(٤٥) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ(٤٦) حَتَّىٰٓ أَتَـٰنَا ٱلْيَقِينُ(٤٧) فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَـٰعَةُ ٱلشَّـٰفِعِينَ(٤٨) فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ(٤٩) كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ(٥٠) فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ(٥١) بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً(٥٢) كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْأَخِرَةَ(٥٣) كَلَّآ إِنَّهُ

(١) قاله مجاهد. راجع تفسير البغوي: ج ٤ ص ٤١٦.

(٢) حكاه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٦٥٠.

تَذْكِرَةٌ(٥٤) فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ(٥٥) وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ(٥٦)﴾

رُوِيَ: أنَّ أباجَهْلٍ قالَ لقُريشٍ بعد نُزُولِ الآيةِ: أَتَسْمَعُونَ أنَّ ٱبنَ أبـي كَـبْشَةَ يُخْبِرُكُم أنَّ خَزَنَةَ النَّارِ تِسْعَةَ عَشَرَ، وأَنتم الدَّهْمُ الشُّجعَاءُ، أَفَيعْجزُ كلُّ عَشْرَةٍ منكم أَن يبطشُوا بوَاحِدٍ منْهُم؟! فقَالَ أَبو الأَسَد الجَمْحِيُّ: أَنَا أَكْفِيكُمْ سَبْعَةَ عَشْرَةَ فاكْفُوني أَنتم اثنينِ! فَنزَلَ[١]: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَـٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَـٰٓئِكَةً﴾ أي: وما جَـعَلْنَاهُم رجالاً من جنسِكُم فَتُطيقُونَهُم ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: وما جَعَلْنَاهُم علىٰ هذا العَدَدِ إلَّا فِتْنَةً للّذين لم يؤْمنُوا بالله وبِحِكْمتِهِ، ولَمْ يُذْعِنوا إذْعَانَ المؤْمنينَ فيتعرَّضُون ويستَهزئُونَ. كأنَّه قَالَ: جَعَلْنَا عِدَّتَهُم عِدَّة من شأْنِها أَن يُفْتَتَنَ بها لأَجْلِ ٱستيقَانِ أَهلِ الكتَابِ، لأَنَّ عِدَّتَهم تِسْعَةَ عَشَرَ فـي الكِـتَابَيْنِ[٢]، فـإذا سَمِعُوا أَيْقَنوا أنَّه منْزَلٌ من ٱللهِ، وٱزدِيادُ المؤْمنينَ إيْماناً لِتَصْدِيقِهِم بذلك، ولِمَا رَأَوْا من تَصديقِ أهلِ الكتَابِ بِهِ، وٱنتفاءُ ٱرتيَابِ أَهل الكتَابِ والمؤْمنينَ.

وأَفَادَ اللَّامُ في ﴿لِيَقُولَ﴾ معنَى السَّبَبِ وإنْ لم يكُنْ غَرضاً، و﴿مَثَلًا﴾ تَمييزٌ أو حَالٌ، والعامِلُ معنَى الإشَارةِ في ﴿هَٰذَا﴾، وسمَّوْهُ ﴿مَثَلًا﴾ ٱستِعَارةً مـن المَـثَلِ المضْروبِ؛ ٱستِغْراباً منهم لهذا العَدَدِ، يعنُونَ: أيَّ شيءٍ أَرادَ ٱللهُ بهذا العَدَدِ العَجيبِ؟ وأيَّ غَرَضٍ في أنْ جَعَلَهم تِسْعَةَ عَشَرَ لا عِشْرينَ؟ ومُرادُهُم الإِنْكَارُ، والكافُ في مَوضِعِ نَصْبٍ، أي: مِثْلُ ذلك الإضْلالِ والهُدىٰ ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ﴾ الكافرينَ ﴿وَيَهْدِى﴾ المؤْمنينَ. والمعنىٰ: أَنَّه يَفْعَلُ فِعْلًا حَسَناً علىٰ مقْتَضَى الحِكْـمَةِ، فَـيَراهُ المـؤْمنونَ صَواباً حَسَناً فَيزيدُهُم إيْماناً وهُدىً، ويُنْكِرُهُ الكافرونَ فَيزيدُهُم كُفْراً وضَلالاً.

---

(١) رواه البغوي في تفسيره: ج ٤ ص ٤١٧ عن ابن عـباس والضـحّاك، وفـيه: «أبـو الأشـدّ الجمحي».

(٢) أراد: التوراة والإنجيل.

﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ﴾ وما عليهِ كُلُّ جُنْدٍ من العَدَدِ وما فيهِ من الحِكْمَةِ ﴿إِلَّا هُوَ﴾، ولا سبيل لأَحَدٍ إلىٰ معرفةِ ذلك، كَمَا لا يَعْرِفُ الحِكْمَةَ في أَعْدَادِ السَّماواتِ والكَواكِبِ والبُرُوجِ، وأَعْدَادِ الصَّلَواتِ والنُّصُبِ في الزَكَواتِ، وغَيْرِ ذلك، أو: ﴿مَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ﴾ لِفَرْطِ كَثْرتِها ﴿إِلَّا هُوَ﴾ فَلَا يَعِزُّ عليهِ تَتْميمُ الزَّبانيةِ عِشْرينَ، ولكن لَه في هذا العَدَدِ الخَاصِّ حِكْمَةٌ لا يَعلمُها إلّا هو ﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ متَّصِلٌ بوَصْفِ ﴿سَقَرَ﴾، و ﴿هِيَ﴾ ضَميرُها، أي: وما سَقَرُ وصِفَتُها إلَّا تَذْكِرةً للبَشَرِ، أو: ضَميرُ الآياتِ التي ذُكِرَتْ فيها.

﴿كَلَّا﴾ إنْكارٌ بعد أن جَعَلَها ذِكْرىٰ، أَن يكُونَ لهم ذِكْرىٰ لأَنَّهم لا يَتَذَكَّرونَ. «دبَرَ» و «أَدبَرَ» بمعنىً واحدٍ، ومِنْهُ قَوْلُهُم: صَارُوا كأَمْسِ الدَّابِرِ، وقيلَ: هو من: دبَرَ اللَّيلُ النَّهارَ: إذَا خَلَفَه[1]، وقُرِئَ: «إذَا دبَرَ»[2]. ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ﴾: «الكُبرىٰ» تأْنيثُ «الأَكْبَر»، جُعِلَتْ أَلِفُ التأْنيثِ كَتَائِها، فَكَمَا جُمِعَتْ «فُعْلَةٌ» علىٰ «فُعَلٍ» جُمِعَتْ «فُعْلَىٰ» علىٰ «فُعَل»، أي: لَإِحْدَى الدَّواهِي الكُبَرِ، بمعنىٰ: أَنَّها واحِدَةٌ في العِظَمِ من بينهنَّ لا نَظيرةَ لها. ﴿نَذِيراً﴾ تمييزٌ من ﴿إِحْدَى﴾ علىٰ معنىٰ: إنَّها لَإِحْدَى البلايا إِنْذاراً، كَمَا يقَالُ: فُلانَةُ إحْدَى النِّساءِ عَفَافاً. وقيلَ: هي حَالٌ[3].

﴿أَنْ يَتَقَدَّمَ﴾ في مَوضِعِ الرَّفْعِ بالابتداءِ، و﴿لِمَنْ شَاءَ﴾ خَبَرٌ مقَدَّمٌ عليهِ، كما تقُولُ: لِمَنْ تَوضَّأَ أن يُصَلِّي، ومعنَاهُ مُطْلَقٌ لِمَن شَاءَ التَّقدُّمَ أو التَّأَخُّرَ أَن يَتَقدَّمَ ﴿أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾، والمُرادُ بالتَّقدُّمِ والتَّأَخُّرِ: السَّبقُ إلى الخَيْرِ والتَّأخُّرُ عنْهُ، ونَحوُهُ: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[4]، ويجُوزُ أن يكُونَ ﴿لِمَنْ شَاءَ﴾ بَدَلًا من

---

(١) قاله أبو عبيدة في مجاز القرآن: ج ٢ ص ٢٧٥.

(٢) قرأه ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر والكسائي وأبوبكر عن عاصم. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٦٥٩.

(٣) قاله الزجّاج في معاني القرآن: ج ٥ ص ٢٤٩.

(٤) الكهف: ٢٩.

﴿لِلْبَشَرِ﴾ علىٰ أنَّها منْذِرَةٌ للمُكلَّفينَ المُمَكَّنينَ الّذين إنْ شاؤوا تَقَدَّموا فَفازوا وإنْ شاؤوا تأخَّروا فهَلكوا.

و ﴿رَهِينَةٌ﴾ لَيستْ بتأْنيثِ «رهِين» لأنَّ «فَعيلًا» بمعنىٰ «مفْعُول» يستَوي فيه المذكَّرُ والمؤنَّثُ، وإنَّما هي آسمٌ بمعنىٰ «الرَّهْنِ» كالشَّتيمَةِ بمعنى «الشَّتْمِ»، كأنَّه قَالَ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ رَهِينٌ، ومثْلُهُ بَيْتُ الحَمَاسَةِ:

أَبَعْدَ الَّذي بالنَّعْفِ نَعفِ كُوَيْكِبٍ رَهينَةِ رَمْسٍ ذِي تُرابٍ وَجَنْدَلِ[1]

أي: رَهْنِ رَمْسٍ. والمعنىٰ: كلُّ نَفْسٍ رَهْنٌ بِكَسْبِها عند آللهِ، غَيْرُ مفْكُوكٍ. ﴿إِلَّآ أَصْحَـٰبَ ٱلْيَمِينِ﴾ فإنَّهم فَكُّوا رِقَابَهُم عنْهُ بإيْمانِهِم وطاعاتِهِم كَمَا يَفُكُّ الرَّاهِنُ رَهْنَهُ بأَداء الحقِّ. ﴿فِى جَنَّـٰتٍ﴾ أي: هُم في جنَّاتٍ لا يُكْتَنَهُ وَصْفُها ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ يَسأَلُ بعضُهم بعضاً ﴿عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾، أو: يَتَساءلُونَ غَيْرَهُم عَنْهُم، كَقَولِهِ: دَعَوتُهُ وتَدَاعَيْنَاهُ. ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ﴾ هذهِ حكايةُ قَوْلِ المسؤُولينَ عن المجرمينَ لأَنَّهم يُلقُونَ إلى السَّائلينَ ما جرىٰ بينهم وبينَ المجرمينَ فيقُولُونَ: قُلْنا لهم: ما سَلَكَكُم في سَقَر؟ ﴿قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ﴾ إلَّا أنَّه جاءَ على الحَذْفِ والاختِصَارِ. ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ﴾ أي: نَشرعُ في الباطلِ ونَغْوِي مع الغَاوينَ. وأَخَّرَ التَّكذيبَ علىٰ معنىٰ: أنَّهم بعدَ ذلك كُلّهِ مُكَذِّبينَ ﴿بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ تَعْظيماً للتَّكذيب. ﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ﴾ وهو المَوْتُ ومقدَّماتُهُ. ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَـٰعَةُ ٱلشَّـٰفِعِينَ﴾ من الملائكةِ والنَّبيِّينَ وغَيْرِهِم كما يَنْفَعُ الموحِّدينَ.

﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ﴾ عن التَّذكيرِ وهو القُرآنُ وغَيرُهُ من المَواعِظِ ﴿مُعْرِضِينَ﴾ حَالٌ، كما تَقُولُ: ما لَكَ قائماً؟ ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ﴾ شَديدةُ النِّفَارِ

---

(١) لعبد الرحمن بن زيد العذري، قد قُتِل أبوه فَعُرض عليه فيه سبع ديات فأبىٰ إلّا الثار وأنشأ يقوله. والنَّعفُ: المكان المرتفع والجبل، والكويكبُ: جبلٌ بعينه. راجع شرح شواهد الكشّاف: ص ٥٥٣.

وَحْشِيَّةٌ، كأنَّها تَطْلُبُ النِّفارَ من نُفُوسِها في حَمْلِها عليهِ، وقُرِئَ بفَتْحِ الفاءِ[(١)] وهي المُنَفَّرَةُ المَحْمُولَةُ على النِّفارِ. ﴿فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾ هَرَبَتْ من أَسَدٍ، وهي فَعْوَلَةٌ من «القَسْر» وهو القَهْرُ والغَلَبَةُ، وقيلَ: القَسْوَرَةُ: جَماعَةُ الرُّمَاةِ الّذين يَتَصَيَّدُونَها[(٢)].

﴿صُحُفاً مُنَشَّرَةً﴾ قَراطيسَ تُنْشَرُ وتُقْرأُ، وكُتُباً كُتِبَتْ في السَّماءِ ونَزَلَتْ بها الملائكةُ ساعَةَ كُتِبَتْ مُنَشَّرَةً علىٰ أَيْديها لَمْ تُطْوَ بَعْدُ، وذلك أنَّهم قَالُوا لرَسُولِ ٱللهِ ﷺ: لَنْ نُؤْمِنَ لك حتَّىٰ تَأْتِيَ كُلَّ واحِدٍ منَّا كتاباً من السَّماءِ عِنْوانُها: «مِنْ ربِّ العالَمِينَ إلىٰ فُلانِ ابنِ فُلانٍ» نُؤْمَرُ فيها باتِّباعِكَ!

﴿كَلَّا﴾ رَدْعٌ لَهُم عن تلكَ الإرادَةِ، وعن ٱقْتِراحِ الآياتِ ﴿بَل لَا يَخَافُونَ ٱلآخِرَةَ﴾ فلذلك أَعْرَضُوا عن التَّذْكِرَةِ لَا لامتِناعِ إيتاءِ الصُّحُفِ. ﴿كَلَّآ﴾ رَدْعٌ عن إعْراضِهِم عن التَّذكِرَةِ ﴿إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ﴾ مُبْهَمٌ أَمْرُها، بَليغةٌ كافيةٌ في بَابِها. ﴿فَمَنْ شَآءَ﴾ أَن يَذْكُرَهُ ولا يَنْساهُ، ويَجْعَلَهُ نُصْبَ عَيْنَيْهِ فَعَل. والضَّميرُ في: ﴿إِنَّهُ﴾ و ﴿ذَكَرَهُ﴾ للتَّذْكرَةِ في قَولِهِ: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾، وإنَّما ذَكَّرَ لأنَّها في معنَى الذِّكْرِ أو القُرآنِ.

﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَآءَ ٱللهُ﴾ إجْبارَهُم علىٰ الذِّكْرِ، لأنَّه عَلِمَ أنَّهم لا يَشاؤُونَه ٱخْتِياراً ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ هو حَقيقٌ بأَن يَتَّقِيَهُ عِبادُهُ ويخَافُوا عِقابَهُ فَيؤْمِنُوا ويُطيعُوا ﴿وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ وحَقيقٌ بأَن يَغْفِرَ لهم ذُنُوبَهُم إذا آمَنُوا بهِ وأَطَاعُوهِ.

وعن أَنَسٍ: أنَّ النَّبيَّ ﷺ تَلاَ هذه الآيَةَ فَقَالَ: «قَالَ ٱللهُ تعالىٰ: أنَا أَهْلٌ أَنْ أُتَّقَىٰ فَلَا يُجْعَلَ معي إِلٰهٌ، فَمَنِ ٱتَّقَىٰ أَن يَجْعَلَ معي إِلٰهاً فأَنَا أَهْلٌ أَن أَغْفِرَ لَهُ»[(٣)].

---

(١) قرأه نافع وابن عامر والمفضّل عن عاصم. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٦٦٠.

(٢) قاله ابن عباس في تفسيره: ص ٤٩٣.

(٣) أخرجه ابن ماجة في السنن: ج ٢ ص ١٤٣٧ ح ٤٢٩٩.

سُورَةُ القِيَامَةِ

مكّيّةٌ[1] ، وهِيَ أربعونَ آيةً كوفيٌّ، تِسْعٌ وثلاثُونَ غَيْرُهُم، عَدَّ الكوفيُّ: ﴿لِتَعْجَلَ بِهِ﴾[2].

في حَديثِ أُبيٍّ: «وَمَنْ قَرَأَ سُورةَ القِيَامةِ شَهِدْتُ لَهُ أَنَا وجبرائيلُ يَوْمَ القيامةِ أنَّه كانَ مؤْمناً بِيَوْمِ القيامةِ»[3].

وعن الصَّادقِ عليه السلام: «مَنْ أدْمَنَ قِراءَةَ: ﴿لَآ أُقْسِمُ﴾، وكَانَ يَعْمَلُ بِها بَعَثَهُ ٱللهُ مَعَه في قَبْرِهِ في أَحْسَنِ صُورةٍ، يُبَشِّرُهُ ويَضْحَكُ في وَجْهِهِ حتَّىٰ يجُوزَ الصِّراطَ والميزَانَ»[4].

بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ(١) وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ(٢) أَيَحْسَبُ

---

(١) قال الشيخ الطوسي في التبيان: ج ١٠ ص ١٨٩: مكّية في قول ابن عباس والضحاك، وهي أربعون آية في الكوفيّ، وتسع وثلاثون في البصري والمدنيّين.

وفي الكشّاف: ج ٤ ص ٦٥٧: مكّية، وآياتها (٤٠) نزلت بعد القارعة.

(٢) الآية: ١٦.

(٣) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٦٦٥ مرسلًا.

(٤) ثواب الأعمال للصدوق: ص ١٤٨ وفيه بدل «بعثه الله معه في قبره»: «بعثه الله عزّوجلّ مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من قبره».

ٱلإنسَـٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ(٣) بَلَىٰ قَـٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ(٤) بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَـٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ(٥) يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَـٰمَةِ(٦) فَـإِذَا بَـرِقَ ٱلْبَصَرُ(٧) وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ(٨) وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ(٩) يَقُولُ ٱلْإِنسَـٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ(١٠) كَلَّا لَا وَزَرَ(١١) إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ (١٢) يُنَبَّؤُاْ ٱلْإِنسَـٰنُ يَوْمَئِذِ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّـرَ(١٣) بَـلِ ٱلْإِنسَـٰنُ عَـلَىٰ نَـفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ(١٤) وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ(١٥) لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦ(١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْءَانَهُ(١٧) فَإِذَا قَرَأْنَـٰهُ فَاتَّبِعْ قُرْءَانَهُ(١٨) ثُمَّ إِنَّ عَـلَيْنَا بَيَانَهُ(١٩) كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ(٢٠) وَتَذَرُونَ ٱلْأَخِرَةَ(٢١)﴾

عن ٱبنِ عبَّاسٍ: معناهُ: أُقْسِمُ بيَوْمِ القِيامَةِ[١]، و ﴿لَآ﴾ صِلَةٌ، وقد ٱسـتَفَاضَ إدخَالُ «لَا» النَّافيةِ علىٰ فِعْلِ القَسَمِ، قَالَ ٱمْرُؤُ القَيْسِ:

لَا وأَبِـيكِ ٱبْـنَة العَـامِرِيِّ   لا يَدَّعِي القَوْمُ أَنِّي أَفِرْ[٢]

وقَالَ غيرُهُ:

فَلَا بِكِ مَا أُبَالِي[٣]

وفَائِدَتُها تَوكيدُ القَسَمِ، والوَجْهُ أَن يقَالَ: إنَّها للنَّفْي، والمعنىٰ: أنَّـه لا يُـقْسِمُ بالشَّيءِ إلَّا إعْظَاماً لَهُ، كَقَولِهِ: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ وَإِنَّهُ لَـقَسَمٌ لَّـوْ تَـعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾[٤]، فكأنَّهُ بإدْخَالِ حَرْفِ النَّفْي يقُولُ: إن إعْظَامي لَهُ بمعنىٰ: أنَّه يَسْتأْهِلُ فوقَ ذلك. وقيلَ: إنَّ ﴿لَآ﴾ نَفْيٌ لكَلَامٍ وَرَدٌّ لَهُ قبلَ القَسَمِ، كأنَّـهم أَنكـرُوا البَـعْثَ

---

(١) تفسير ابن عباس: ص ٤٩٣.

(٢) من قصيدته الطويلة في وصف صيده وفرسه. راجع ديوان امرئ القيس: ص ١٠٩ وفيه: «فَلا وأبيك».

(٣) وتمام البيت: أَلَا نادَتْ أُمامةُ باحتمالٍ... لِتَحزُنَني، لغوثة بن سلمىٰ بن ربيعة. راجع شرح شواهد الكشاف: ص ٥٧٨.

(٤) الواقعة: ٧٥ و ٧٦.

فقيلَ: لا، أي: لَيْسَ الأَمْرُ على ما ذَكَرْتُم، ثمَّ قيلَ: ﴿أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَـٰمَةِ﴾ (١).

وقُرِئَ: «لأُقْسِمُ» (٢)، علىٰ أنَّ اللامَ للابتداءِ، و ﴿أُقْسِمُ﴾ خَبَرُ مبتَدَأ محذُوفٍ، أي: لأنَا أُقْسِمُ.

﴿النَّفْس اللَّوَّامَة﴾ الّتي تَلُومُ النُّفُوسَ في يومِ القيامةِ علىٰ تقصيرهنَّ في التَّقوىٰ، أو: التي لا تزَالُ تَلُومُ نَفْسَها وإنِ اجتَهَدَتْ في الإحْسَان، وعنِ الحَسَنِ: أنَّ المؤمِنَ لا تَراهُ إلَّا لائماً نَفْسَهُ، وأنَّ الفاجرَ يَمضي قُدُماً لا يُعاتِبُ نَفْسَه (٣). وجَوابُ القَسَم ما دَلَّ عليهِ قَولُهُ:

﴿أَيَحْسَبُ الإِنْسَـٰنُ أَنْ لَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ﴾ وهو لَيُبْعَثُنَّ، أي: نَجْمَعُها بعدَ تَفَرُّقِها ورجُوعِها رُفَاتاً مخْتَلطاً بالتُّرابِ. ﴿بَلَىٰ﴾ إيْجَابٌ لِمَا بعدَ النَّفْيِ وهو الجَمْعُ، فكأنَّه قَالَ: بَلىٰ نَجْمَعُها، و ﴿قَـٰدِرِينَ﴾ حَالٌ من الضَّميرِ في ﴿نَجْمَعَ﴾، أي: نَجْمَعُ العِظَامَ قَادرينَ علىٰ إعادَتِها إلى التَّركيبِ الأَوَّلِ، إلىٰ ﴿أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾ أي: أَصابِعَهُ الّتي هي أَطْرافُهُ كَمَا كانَتْ أَوَّلاً علىٰ صُغْرِها ولَطَافَتِها، فكيفَ كِبارُ العِظَامِ؟ وقيلَ: معنَاهُ: ﴿بَلَىٰ﴾ نَجْمَعُها ونَحنُ قَادِرونَ ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ﴾ أَصابعَ يَدَيْهِ ورجلَيْهِ، أي: نَجْعَلُها مستَويةً شيئاً واحِداً كخُفِّ البَعيرِ وحَافِرِ الحِمَارِ، فلا يُمكِنُهُ أن يعمَلَ شيئاً ممَّا كانَ يَعْمَلُ بأَصَابِعِهِ المفرَّقَةِ ذاتِ المفاصِلِ والأنامِلِ من البَسْطِ والقَبْضِ وأَنْواعِ الأَعْمال (٤).

﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَـٰنُ﴾ عَطْفٌ علىٰ: ﴿أَيَحْسَبُ﴾ فَيجوزُ أن يكُونَ اسْتِفْهاماً

---

(١) قاله الفرّاء في معاني القرآن: ج ٣ ص ٢٠٧.

(٢) قرأه الحسن البصري وعبدالرحمن الأعرج وقنبل عن ابن كثير. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٧٤٢.

(٣) تفسير الحسن البصري: ج ٢ ص ٣٧٧.

(٤) قاله ابن عباس وعكرمة والحسن ومجاهد وقتادة والضحّاك. راجع تفسير الطبري: ج ١٢ ص ٣٢٨.

مثْلَهُ، وأَن يكُونَ إيْجاباً ﴿لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾ لِيَدُومَ علىٰ فُجُورِهِ فيما بينَ يَدَيْهِ من الأوقاتِ، وفيما يَستَقْبلُهُ من الزّمانِ لا يَنزَعُ عنْهُ. وعن سَعيدِ بنِ جُبَيْر: يُقدِّمُ الذّنْبَ ويؤَخِّرُ التّوبةَ ويقُولُ: سوفَ أَتُوبُ حتَّىٰ يأْتيهِ المَوْتُ علىٰ أَسْوَأ أَعْمالِه[١].

﴿يَسْئَلُ﴾ سُؤَالَ متعَنِّتٍ مستبْعِدٍ ليومِ القيامَةِ في قَولِهِ: ﴿أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ ونَحْوُهُ: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾[٢].

﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ﴾ أي: شَخَصَ البَصَرُ وتَحَيَّرَ من شدَّةِ الفَزَعِ، وأَصْلُهُ من: بَرِقَ الرَّجُلُ: إذا نَظَرَ إلى البَرْقِ فَدَهِشَ بَصَرُهُ، وقُرِئَ: «بَرَقَ»[٣] من البَريقِ أي: لَمَعَ من شدَّةِ شُخُوصِهِ. ﴿وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ﴾ ذَهَبَ نُورُهُ. ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ حيثُ يُطْلِعُهُما ٱللهُ من المَغْرِبِ، وقيلَ: جُمِعَا في ذِهَابِ الضَّوءِ[٤]. ﴿أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾ أَينَ الفَرَارُ.

﴿كَلَّا﴾ رَدْعٌ مِنْ طَلَبِ المَفرِّ ﴿لَا وَزَرَ﴾ لا مَلْجأَ ولا مَهْرَبَ، والوَزَرُ: ما يُتَحَصَّنُ بهِ من جَبَلٍ أو غَيْرِهِ. ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ خاصَّةً ﴿يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾ مستَقَرُّ العبادِ أي: ٱستِقْرارُهُم، لا يَقْدرونَ أن ينْصبُوا إلىٰ غيرِهِ، أو: إلىٰ حُكْمِهِ يَرجعُ أُمورُ العبادِ لا يَحْكُمُ فيها غيرُهُ، أو: معناهُ: مفوَّضٌ إلىٰ مشيئَةِ ربِّك يَومئذٍ مَوضِعُ قَرارِهِم من جنَّةٍ أو نَارٍ، مَنْ شاءَ أَدْخَلَهُ الجنَّةَ، ومَن شَاءَ أَدْخَلَهُ النَّارَ. ﴿يُنَبَّؤُا ٱلْإِنسَـٰنُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ﴾ من عَمَلِ الخيرِ والشرِّ ﴿وَ﴾ بمَا ﴿أَخَّرَ﴾ من سُنَّةٍ حَسَنَةٍ أو سيِّئَةٍ عُمِلَ بها

(١) حكاه عنه البغوي في تفسيره: ج ٤ ص ٤٢١.
(٢) يونس: ٤٨، الأنبياء: ٣٨، النمل: ٧١، وغيرها.
(٣) قرأه نافع وأبان عن عاصم. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٦٦١.
(٤) وهو قول الشيخ الطوسي في التبيان: ج ١٠ ص ١٩٢ وقال: والجمع: جعل أحد الشيئين مع الآخر، والجمع على ثلاثة أقسام: جمع في المكان، وجمع في الزمان، وجمع الأعراض في المحلّ. وجمع الشيئين في حكمٍ أو صفةٍ مجاز.

بَعْدَهُ، أو: بما قَدَّمَ من مالِهِ لنفْسِهِ وبما خَلَّفَهُ لوَرَثَتِهِ بَعدَهُ، وعن مُجَاهِدٍ: بأوَّلِ عَمَلِهِ وآخرِهِ(١).

﴿بَلِ ٱلْإِنسَـٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ أي: حُجَّةٌ بَيِّنَةٌ وُصِفَتْ بالبَصَارَةِ على المَجَازِ، كما وُصِفَتِ الآياتُ بالإِبْصَارِ في قَولِهِ: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُم ءَايَاتُنَا مُبْصِرَةً﴾(٢)، أو: عَيْنٌ بَصيرَةٌ. والمعنىٰ: أنَّه يُنَبَّأُ بأَعمالِهِ، وإنْ لَمْ يُنبَّأْ فَفيهِ ما يُجْزي عنِ التَّنبِئَةِ(٣)، لأنَّه شاهِدٌ عليها بما عَمِلَتْ لأنَّ جَوارِحَهُ تَشْهَدُ عليه. ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾ ولو جاءَ بكلِّ مَعْذِرَةٍ يَتَعَذَّرُ بها عن نَفْسِهِ ويُجَادِلُ عَنْها، وعنِ السدِّي: ولو أَرْخىٰ سُتُورَهُ(٤)، والمَعَاذيرُ: السُّتُورُ، واحِدُها: مِعْذَارٌ، لأنَّ السِّتْرَ يمنَعُ رؤْيةَ المُحْتَجِبِ كَمَا أنَّ المَعْذِرَةَ تَمنَعُ عقُوبةَ الْمُذْنِبِ.

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ﴾ الضَّميرُ للقرآنِ، وكانَ رَسُولُ ٱللهِ ﷺ إذا لُقِّنَ الوَحْيَ نَازَعَ جبرائيلَ عليه السلام القِرَاءَةَ، ولَمْ يَصْبِرْ إلىٰ أن يُتِمَّها مُسَارَعَةً إلى الحفْظِ، وخَوفاً من النِّسيانِ(٥)، فأُمِرَ أَن يَسْتَنْصِتَ له، مُلْقياً إليهِ بقَلْبِهِ وسَمْعِهِ حتَّىٰ يُقْضىٰ إليهِ وَحْيُهُ. والمعنىٰ: لا تُحَرِّكْ بقرَاءَةِ الوَحْيِ لسانَكَ ما دامَ جبرائيلُ يَقْرأُ ﴿لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ لتأْخُذَهُ علىٰ عَجَلَةٍ ولِئَلَّا يَنْفَلِتَ منْكَ. ثمَّ عَلَّلَ النَّهْيَ عن العَجَلَةِ بقَولِهِ: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ﴾ في صَدْرِكَ وإثْباتَ قراءَتِهِ في لسَانِكَ. ﴿فَإِذَا قَرَأْنَـٰهُ﴾ جَعَلَ قِرَاءَةَ جبرائيلَ قِرَاءَتَهُ، والْقُرآنُ: القِرَاءَةُ ﴿فَاتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ فَكُنْ مُقَفِّياً له فيه ولا تُراسِلْهُ، فنحنُ في ضَمَانِ تَحْفيظِهِ لكَ. ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ إذا أَشْكَلَ عليكَ شيءٌ من معانيهِ، كأنَّهُ عليه السلام

(١) حكاه عنه الشيخ في التبيان: ج ١٠ ص ١٩٥.

(٢) النمل: ١٣.

(٣) في نسخة: «البيِّنة».

(٤) حكاه عنه الشيخ في التبيان المتقدّم.

(٥) أورد هذه العبارة المصنّف رحمه الله عن الكشّاف، ولا يخفىٰ ما فيه، إذ لا يجوز ـ علىٰ مذهبنا ـ عليه ﷺ الخطأ ولا النسيان أبداً.

كان يَعْجَلُ في الحِفْظِ والسُّؤالِ عن المعنىٰ جميعاً.

﴿كَلَّا﴾ رَدْعٌ لِرَسُولِ ٱللهِ عن عَادَةِ العَجلَةِ، وَحَثٌّ له علىٰ تَكْرِيرِ القِرَاءَةِ علىٰ قَومِهِ بالتُّؤدَةِ لِيَتَقَرَّرَ ذلك في قُلُوبِهِم، لأنَّهم غافلُونَ عن الأدلَّةِ، لا يَتَدبَّرونَ القُرآنَ وما فيهِ من البَيَانِ. «بَلْ يُحِبُّونَ ٱلعَاجِلَةَ»(١) أي يختارُونَ الدُّنيا ويتركُونَ الاهتِمامَ بأُمورِ الآخرةِ، فَلَا غِنَىً بك معهم مـن إعَـادةِ القَـوْلِ وتكْـريرهِ، وزيـادةِ التَّـنْبيهِ وتَقْريرِهِ، وقُرِئَ: ﴿تُحِبُّونَ﴾ و ﴿تَذَرُونَ﴾، بالتَّاءِ علىٰ معنىٰ: قُلْ لَهُم.

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ(٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ(٢٣) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ(٢٤) تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ(٢٥) كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ(٢٦) وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ(٢٧) وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ(٢٨) وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِالسَّاقِ(٢٩) إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ(٣٠) فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ(٣١) وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ(٣٢) ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ(٣٣) أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ (٣٤) ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَىٰٓ(٣٥) أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى(٣٦) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ(٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ(٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ(٣٩) أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ(٤٠)﴾

الوَجْهُ: عبارةٌ عن الْجُمْلَةِ، وَالنَّاضِرَةُ: من نَضْرَةِ النَّعيمِ والبَهْجَةِ. ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ تَنْظُرُ إلىٰ ربِّها خاصَّةً، لا تَنْظُرُ إلىٰ غَيْرِهِ، وهذا هـو المـعنىٰ فـي تَـقْديمِ المفْعُولِ، أَلَا تَرَىٰ إلىٰ قَولِهِ: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾(٢) ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ

---

(١) الظاهر أنّ المصنّف يميل الى قراءة الياء فيهما، وهي قراءة ابن كثير وأبي عمرو وابن عامر. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٦٦١.

(٢) الآية: ١٢ المتقدّمة.

﴿ٱلْمَسَاقُ﴾[١] ﴿إِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾[٢] ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾[٣] كَيفَ دَلَّ التَّقديمُ فيها وفي أَمثالِها علىٰ معنَى الاختصَاصِ. ومعلُومٌ أنَّهم يَنْظُرونَ في المَحْشَرِ إلىٰ أَشْياءٍ كثيرةٍ لا يُحيطُ بها الحَصْرُ، فاختصاصُهُ بنَظَرِهم إليهِ لو كانَ سبحانَهُ منْظُوراً إليهِ مُحَالٌ، فلابُدَّ من حَمْلِهِ علىٰ معنىً يَصِحُّ فيه الاختصَاصُ، وذلك أن يكُونَ من بابِ قَولِهِم: أَنا إليكَ نَاظِرٌ ما تَصنَعُ بِهِ، يُريدُونَ معنَى الرَّجاءِ والتَّوقُّعِ، ومنْهُ قَولُ جَميلٍ[٤]:

وإذا نَظَرتُ إليكَ من مَلِكٍ　　والبَحْرُ دُونَك زِدْتَني نِعَمَا[٥]

وقَولُ الآخَرِ:

إنِّي إليكَ لِمَا وَعَدْتَ لَنَاظِرٌ　　نَظَرَ الفَقيرِ إلى الغنيِّ الْمُوسِرِ[٦]

وعلىٰ هذا فيكُونُ معنَاهُ: أنَّهم لا يَتوقَّعونَ النِّعمةَ والكَرامةَ إلَّا من ربِّهم كما كانُوا في الدُّنيا، كذلكَ لا يخَافُونَ ولا يَرْجون إلَّا إيَّاهُ، وقيلَ: إنَّ ﴿إِلَىٰ﴾ ٱسْمٌ، وهو واحِدُ «الآلاء» الّتي هي النِّعَمُ[٧]، وهو منْصوبُ الموضِعِ، أي: نِعْمَةَ ربِّها منْتَظِرَةٌ، وقيلَ: هو علىٰ حَذْفِ المضَافِ، والمُرادُ: إلىٰ ثَوابِ ربِّها نَاظِرَةٌ[٨].

---

(١) الآية: ٣٠.　(٢) آل عمران: ٢٨، النور: ٤٢، فاطر: ١٨.

(٣) هود: ٨٨، الشورىٰ: ١٠.

(٤) كذا في النسخ، والصحيح هو من قول طريح بن اسماعيل الثقفي شاعر البلاط الأُموي، الذي أكثر من مدح الوليد بن يزيد الأموى. ولعلّه من شطحات النسَّاخ.

(٥) يقول: واذا رجوت مكارمك زِدْتني نعما، فالنظر إليه كناية عن ذلك. وقوله: البحر دونك اي: أقلّ منك في الخيرات والمكارم. راجع شرح شواهد الكشاف: ص ٥٠٨.

(٦) لجميل بن معمر المشهور بجميل بثينة، والبيت من قصيدة له معاتباً إيَّاها على تخلّفها وعدها له.

انظر ديوان جميل بثينة: ص ٤٠، وفيه: «المكثر» بدل «الموسر».

(٧) قاله بعض المعتزلة. راجع مشكل اعراب القرآن للقيسي: ص ٧٧٩.

(٨) حكاه ابن عطية عن بعض المعتزلة. راجع البحر المحيط لأبي حيان: ج ٨ ص ٣٨٩.

﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾ أي، كالِحَةٌ، عَابِسَةٌ، شَديدةُ العبُوسِ. ﴿تَظُنُّ﴾ أي: تَتوقَّعُ ﴿أَنْ يُفْعَلَ بِهَا﴾ فِعْلٌ هو في فَظَاعَتِهِ وصُعُوبتِهِ ﴿فَاقِرَةٌ﴾ داهِيةٌ تَقْصمُ فِقَارَ الظَّهْرِ، كما تَوقَّعتِ الوُجُوهُ النَّاضِرَةُ أن يُفعَلَ بها كلُّ خَيْرٍ وكَرامَة.

﴿كَلَّآ﴾ رَدْعٌ عن إيثَارِ الدُّنيا على الآخرَةِ، كأنَّهُ قَالَ: ٱرتَدِعُوا عن ذلكَ، وتَنبَّهوا علىٰ ما بين أيديكُم من المَوْتِ ٱلّذي عنْدَهُ، وَتَذَرونَ الْعَاجِلَةَ، وتَنتقِلُون إلى الآجِلَةِ وتَبقَوْنَ فيها، والضَّميرُ في ﴿بَلَغَتِ﴾ لِلنَّفْسِ وإنْ لَم يَجرِ لها ذِكْرٌ لدلَالةِ الكَلامِ عليهِ كما في قَوْلِ حَاتَمٍ:

لَعَمْرُكِ ما يُغْني الثَّراءُ عنِ الفتىٰ
إذا حَشْرجَتْ يوماً وضَاقَ بها الصَّدرُ[١]

﴿ٱلتَّرَاقِيَ﴾ العِظَامُ المكْتَنِفَةُ لِثُغرةِ النَّحْرِ. ﴿وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ﴾ أي: وقَالَ مَن حَضَرَهُ من أَهْلٍ أو صَديقٍ بعضُهُم لبَعْضٍ: أيُّكُم يَرْقيهِ ممَّا بهِ؟ وقيلَ: هو من كَلامِ ملائكةِ المَوْتِ: أيُّكُم يَرْقَىٰ بِرُوحِهِ، ملائكةُ الرَّحمةِ أم ملائكةُ العَذَابِ؟[٢] ﴿وَظَنَّ﴾ هذا الْمُحْتَضرُ ﴿أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ﴾ أنَّ هذا ٱلّذي نَزَلَ بِهِ هو فِرَاقُ الدُّنيا المحبُوبَةِ. ﴿وَٱلْتَفَّتِ﴾ سَاقَهُ بسَاقِهِ وٱلْتَوتْ عليها، وعنْ قَتَادَةَ: ماتَتْ رِجْلَاهُ فلا تَحْمِلَانه وقد كانَ عليهما جوَّالاً[٣]، وعنِ ٱبنِ عبَّاسٍ: ٱلْتَفَّتْ شدَّةُ أَمْرِ الآخرَةِ بأَمْرِ الدُّنيا[٤]، علىٰ أنَّ السَّاقَ مَثَلٌ في الشدَّةِ. ﴿إِلَىٰ﴾ حُكْمِ ﴿رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ﴾ مسَاقُهُ ومسَاقُ الخلائِقِ.

---

(١) البيت من قصيدة يخاطب بها امرأته ماوية بنت عبدالله بعدما هجرته مغضبة لإسرافه في العطاء. انظر ديوان حاتم الطائي: ص ٨٣. وفيه: «أَماوي» بدل «لعمركَ»، و «نَفْسٌ» بدل «يوماً».

(٢) قاله ابن عباس في تفسيره: ص ٤٩٤.

(٣) حكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٦٦٣.

(٤) تفسير ابن عباس: ص ٤٩٤.

﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾ أي: لَمْ يَتَصَدَّقْ ولَمْ يُصَلِّ، أو: لَمْ يُصَدِّقْ بالرَّسُولِ والقُرآنِ، قيلَ: نَزَلَتْ في أبي جَهْلٍ (١). ﴿يَتَمَطَّىٰٓ﴾ أي: يَتَبَخْتَرُ، وأَصْلُهُ: يَتَمَطَّطُ أي: يَتَمَدَّدُ، لأنَّ المتَبَخْتِرَ يَمُدُّ خُطَاهُ، والمعنىٰ: ﴿وَلَٰكِن كَذَّبَ﴾ بِرَسُولِ ٱللهِ وكِتَابِهِ ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ وأعْرَضَ. ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ﴾ قومِهِ يختَالُ في مشيَتِهِ ويَتَبَخْتَرُ ٱفتِخاراً بذلك. ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾ بمعنىٰ: وَيْلٌ لَكَ فَوَيْلٌ، وهو دُعاءٌ عليهِ بأَن يَلِيَهُ ما يَكْرَهُ. وقيلَ: وَلِيَكَ الشَّرُّ في الدُّنيا فَوَلِيَكَ، ثمَّ وَلِيَكَ الشَّرُّ في الآخِرَةِ فَوَلِيَكَ، والتكرارُ للتأْكيدِ (٢).

﴿أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ أي: مُهْمَلًا لا يُؤْمَرُ ولا يُنْهىٰ، والهَمْزَةُ للإِنْكار. ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً﴾ أي: كَيفَ يَحْسَبُ أَن يُهْمَلَ وهو يرىٰ في نَفْسِهِ من تَنَقُّلِ الأَحْوالِ ما يَسْتَدِلُّ به علىٰ أنَّ له صَانِعاً حَكِيماً، أَكْمَلَ عَقْلَهُ وأَقْدَرَهُ، وخَلَقَ فيهِ الشَّهوةَ؟ فَيَعْلَمُ أَنَّه لا يَجوزُ أن يكُونَ مُخَلًّى عن التَّكليفِ. ﴿يُمْنَىٰ﴾ أي: يُقَدَّرُ خَلْقُ الإِنسانِ منْهُ، وقيلَ: يُصَبُّ في الرَّحمِ (٣)، وَقُرِئَ بالتاءِ (٤)، حَمْلًا علىٰ: «نُطْفَةٍ» ﴿فَخَلَقَ﴾ منْها خَلْقاً في الرَّحمِ ﴿فَسَوَّىٰ﴾ فَعَدَّلَ صُورتَهُ وأَعضاءَهُ الظَّاهِرَةَ والباطِنَةَ في بَطْنِ أُمِّهِ، أو: فَسَوَّاهُ إنْساناً بَعدَ الولادَةِ. ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ﴾ من الإِنسانِ ﴿ٱلزَّوْجَيْنِ﴾ الصِّنْفَيْنِ ﴿الذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ﴾ الّذي أَنْشَأَ هذا الإِنْشَاءَ ﴿بِقَٰدِرٍ﴾ علَى الإِعادَةِ؟

وفي الحَديثِ: أَنَّهعليه السلام كَانَ إذا قَرَأَها قَالَ: «سُبْحانَكَ اللَّهمَّ وَبَلَىٰ» (٥).

---

(١) قاله مجاهد وابن زيد وقتادة. راجع تفسير الطبري: ج ١٢ ص ٣٥١.

(٢) قاله الزجّاج في معاني القرآن: ج ٥ ص ٢٥٤.

(٣) قاله الضحّاك وعطاء. راجع تفسير البغوي: ج ٤ ص ٢٥٥.

(٤) قرأه ابن كثير ونافع وحمزة والكسائي وأبوبكر عن عاصم. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٦٦٢.

(٥) أخرجه السيوطي في الدرّالمنثور: ج ٨ ص ٣٦٣ عن أبي هريرة، وعزاه الى ابن مردويه.

سُورَةُ الإنْسَان [1]

مختَلَفٌ فيها [2]، والصَّحيحُ أنَّها مَدَنيَّةٌ، وقيلَ: إنَّ قَولَهُ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا...﴾ إلىٰ آخرِ السُّورةِ مكِّيٌّ، والباقي مدنيٌّ [3]. إحدىٰ وثَلاثُونَ آيةً.

في حَديثِ أُبيٍّ: «وَمَنْ قَرَأَ سُورةَ ﴿هَلْ أَتَىٰ﴾ كـانَ جَـزَاؤُهُ عـلى ٱللهِ جـنَّةً وحَريراً» [4].

وعنِ الباقرِ عليه السلام: «مَنْ قَرَأَ سُورةَ ﴿هَلْ أَتىٰ﴾ في كلِّ غداةِ خَميسٍ زَوَّجَهُ ٱللهُ من الحُورِ العِينِ مِائَةَ عَذْرَاء، وَأَرْبَعَةَ آلاف ثَيِّبٍ وحُوراً من الحُور العينِ، وكانَ مع محمَّدٍ وآله عليهم السّلام» [5].

---

(١) في بعض النسخ: «سورة هل أتىٰ».

(٢) قال الشيخ الطوسي في التبيان: ج ١٠ ص ٢٠٤: وتسمّىٰ سورة الانسان، وتسمّىٰ سورة الأبرار، وهي مكّية في قول ابن عباس والضحّاك وغيرهما، وقال قوم: هي مدنيّة وهي إحدىٰ وثلاثون آيةً بلاخلاف.

وفي تفسير البغوي: ج ٤ ص ٤٢٦: قال عطاء: هي مكّية، وقال مجاهد وقتادة: مدنيّة، وقال الحسن وعكرمة: هي مدنيّة الّا آيةً وهي قوله: ﴿فَاصْبِرِ لِحُكْمِ رَبِّكَ...﴾ الآية، وهي إحدىٰ وثلاثون آية.

وفي الكشّاف: ج ٤ ص ٦٦٥: مدنيّة، وآياتها (٣١)، نزلت بعد الرحمن.

(٣) أُنظر تفسير الماوردي: ج ٦ ص ١٦١.

(٤) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٦٧٦ مرسلًا.

(٥) ثواب الأعمال للصدوق: ص١٤٨ ـ ١٤٩. وفيه: «ثمانمائة عذراء» و«كان مع محمّد صلى الله عليه وآله وسلم».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا(١) إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعًا بَصِيرًا(٢) إِنَّا هَدَيْنَـٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا(٣) إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ سَلَـٰسِلَا۟ وَأَغْلَـٰلًا وَسَعِيرًا(٤) إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا(٥) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا(٦) يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا(٧) وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا(٨) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا(٩) إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا(١٠) فَوَقَـٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّـٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا(١١) وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا(١٢) مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا(١٣) وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَـٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا(١٤)﴾

﴿هَلْ﴾ بمَعْنىٰ «قَد» في الاستِفْهامِ خاصَّةً، والأَصْلُ: «أَهَلْ» بدلالةِ قولِهِ:

أَهَلْ رَأَونا بسَفْحِ القاعِ ذي ٱلأَكَمِ[1]

فالمعنىٰ: أَقَدْ أَتىٰ، على التَّقريرِ والتَّقريبِ جميعاً، أي: ﴿أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ﴾ قَبلَ زَمانٍ قَريبٍ ﴿حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ﴾ فيهِ ﴿شَيْئاً مَذْكُوراً﴾ أي: كانَ شيئاً غَيْرَ مذكُورٍ. وعن حِمْرانَ بنِ أَعْيَنَ قالَ: سأَلْتُ الصَّادقَ عليه السلام عنهُ، فقالَ: كانَ شيئاً مقْدوراً ولَمْ يكُنْ مُكوَّناً[2]. والمُرادُ بالإِنْسانِ جِنْسُ بني آدمَ، بدَليلِ قَولِهِ:

---

(١) وصدره: سائِلْ فوارس يربوع بشدّتنا. لزيد الخيل الذي سمّاه النبي صلى الله عليه وآله وسلم زيد الخير. يقول: سل بني يربوع عن قوتنا وصولاتنا عليهم. انظر شرح شواهد الكشّاف: ص ٤٧٨.

(٢) رواه العياشي في تفسيره كما في مجمع البيان: ج ١٠ ص٤٠٦. ونحوه في الكافي: ج ١ ←

﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ﴾ وقيلَ: المُرادُ بِهِ آدمُ عليه السلام [١].

وعن عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ: أَنَّها تُلِيَتْ عندَهُ فقَالَ: لَيْتَها تمَّت [٢]. أرادَ تلكَ الحالَة تَمَّتْ ولَمْ يُخلَقْ ولَمْ يُكَلَّفْ.

و﴿نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ مِثْلُ: بُرْمَةٍ أَعْشَارٍ، ويقَالُ: نُطْفَةٌ مشجٌ، وليسَ «أَمْشَاجٌ» بجَمْعٍ لهُ، بَلْ هُما مِثْلَانِ في الإِفْرادِ، يوصَفُ المفردُ بِهِما، وَمَشَجَهُ وَمَزَجَهُ بمعنىً، والمعنىٰ: من نُطْفةٍ قد ٱمتَزَجَ فيها الماءَانِ: ماءُ الرَّجُلِ وماءُ المرأةِ، وعن قَتادَةَ: أَمْشاجٌ: أَطْوارٌ: طَوْراً نُطْفَةً، وطَوْراً عَلَقَةً، وطَوْراً مُضْغَةً، وطَوْراً عِظَاماً، إلىٰ أن صَارَ إنساناً [٣]. ﴿نَّبْتَلِيهِ﴾ في مَحَلِّ النَّصْبِ على الحالِ، أي: خَلَقْنَاهُ مُبْتَلين لَهُ، أي: مُريدينَ ٱبتِلاءَهُ، كقَولِكَ: مَرَرتُ برَجُلٍ مَعَهُ صَقْرٌ صَائِداً بِهِ غَداً، أي: قَاصِداً به الصَّيْدَ غَداً. ﴿شَاكِراً﴾ و ﴿كَفُوراً﴾ حَالاَنِ من الهاءِ في ﴿هَدَيْنَاهُ﴾ أي: بَيَّنَّا له الطَّرِيقَ، وَنَصَبْنا له الأدلَّةَ، وَأَزَحْنَا العِلَّةَ وَمَكَّنَّاهُ في حَالَتَيْهِ جَميعاً.

ولمَّا ذَكَرَ «الشَّاكِرَ» و «الكَافِرَ» أَتْبَعَهُما الوَعيدَ والوَعْدَ. قُرِئَ: ﴿سَلَاسِلا﴾ مُنَوَّناً [٤] وغَيْرَ مُنَوَّنٍ، وفي التَنْوينِ وَجْهانِ: أَحَدُهُما: أن تكُونَ هذه النُّونُ بَدَلاً من حَرْفِ الإِطْلاقِ، وأُجْرِيَ الوَصْلُ مَجْرَى الوَقْفِ، والآخَرُ: أَنَّه صُرِفَ غَيْرُ المُنْصَرِفِ علىٰ عَادَةِ الشُّعَراءِ.

﴿الأَبْرَار﴾ جَمْعُ «بَرٍّ» أو «بَارٍّ» كـ«ربٍّ» و «أَرْبَابٍ»، و «صَاحِبٍ»

← ص ١٤٧ ح ٥ باسناده عن مالك الجهني عن أبي عبدالله عليه السلام.

(١) قاله قتادة وسفيان. راجع تفسير الطبري: ج ١٢ ص ٣٥٣.

(٢) رواه عنه البغوي في تفسيره: ج ٤ ص ٤٢٦.

(٣) حكاه عنه الشيخ في التبيان: ج ١٠ ص ٢٠٦.

(٤) هي قراءة نافع والكسائي وعاصم برواية أبيبكر. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٦٦٣.

و«أَصْحَابٍ». وقد أَجْمَعَ أهلُ البيتِ عليهم السلام [١] وأَكْثَرُ المفسِّرين [٢] علىٰ أنَّ المُـرادَ بِهِم: عليٌّ وفَاطِمَةُ والحَسَنُ والحُسَيْنُ عليهم السلام.

وَرَوَىٰ عليُّ بنُ إبراهيمَ بنُ هاشِمٍ، عن أبيهِ، عن عـبدِٱللهِ بـن مَـيْمُونٍ، عـن الصَّادقِ عليه السلام قَالَ: كانَ عنْدَ فاطمةَ عليها السلام شعيرٌ فَجَعَلُوهُ عَصِيدَةً، فَلَمَّا وَضَعُوها بين أَيْديهم جَاءَ مسكينٌ فَقَالَ: رَحِمَكُم ٱللهُ، فَقَامَ عليٌّ عليه السلام فأَعْطَاهُ ثُلُثَها، فَلَمْ يَلْبَثْ أن جَاءَ يتيمٌ، فَقَالَ اليتيمُ: رَحِمَكُم ٱللهُ، فَقامَ عليٌّ عليه السلام فَأَعْطَاهُ الثُّلُثَ، ثمَّ جَاءَ أَسيرٌ، فَقَالَ الأَسيرُ: رَحِمَكُم ٱللهُ، فَأَعْطَاهُ الثُّلُثَ البَاقي وما ذَاقُوها، فـأَنْزَلَ ٱللهُ الآيـاتِ فيهم، وهي جَارِيَةٌ في كلِّ مؤْمنٍ فَعَلَ ذلك للهِ عزَّ ٱسمُهُ [٣].

ورُوِيَ أيضاً: أَنَّهم أَطْعَموا الطَّعامَ في ثَلَاثِ لَيالٍ وَطَوَوْها عليهم السلام ولَمْ يُـفْطِرُوا علىٰ شيءٍ من الطَّعامِ، وكانُوا قَد نَذَرُوا هُم وجَارِيَةٌ لَهُم ـ تُسمَّىٰ فِضَّةَ ـ صَوْمَ هذهِ الأَيَّامِ، فَأَوْفَوا بِنذْرِهِم فَنَزَلَتْ في الثَّناءِ عليهم [٤]، وأَعظِمْ بها شَرَفاً وفَضْلاً.

والكَأْسُ: الزُّجَـاجَةُ إذا كـانَت فـيها خَـمْرٌ، وتُـسمَّىٰ الخَـمْرُ نَـفْسُها كَـأْساً ﴿مِزَاجُها﴾ ما يُمْزَجُ بها ﴿كَافُوراً﴾ ماءُ كَافُورٍ، وهو ٱسمُ عَيْنٍ في الجنَّةِ ماؤُها في بَيَاضِ الكَافُورِ ورائِحَتِهِ وبَرْدِهِ، و ﴿عَيْناً﴾ بَدَلٌ منْهُ. وعن مُجَاهِدٍ: لَيسَ كَكَـافُورِ

---

(١) انظر تفسير فـرات الكـوفي: ص ١٩٦، وأمـالي الصـدوق: ص ٢١٢ ح ١١، والخـرائـج والجرائح: ج ٢ ص ٥٣٩ ح ١٥.

(٢) أورده الحاكم الحسكاني في الشواهد: ج ٢ ص ٤٠٥ وما بعده عن ابن عـباس ومـجاهد وسعيد بن جبير وعطاء وزيد بن أرقم والحسن البصري وعِكرمة. وزاد ابن شهر آشوب في المناقب: ج ٤ ص ٢: ابن مسعود ومقاتل والليث وابن مهران وعمرو بن شعيب والواحدي والثعلبي والنحّاس والقشيري.

(٣) تفسير علي بن ابراهيم القمي: ج ٢ ص ٤٢٢ ـ ٤٢٣.

(٤) رواه الصدوق في الأمالي: ص ٢١٢ ح ١١ باسناده من طريقين عن ابن عباس وآخر عن الصادق عليه السلام عن أبيه عليه السلام. ورواه أيضاً الحاكم الحسكاني في الشواهد: ج ٢ ص ٣٩٨ وما بعده من طرقٍ عن ابن عباس.

الدُّنيا[١]، وعن قَتَادَةَ: يُمْزَجُ لهم بالكافُورِ ويُخْتَمُ لهم بالمِسْكِ[٢]، وقيلَ: تُـخْلَقُ فيها رائِحَةُ الكافُورِ وبياضُهُ وبَرْدُهُ فَكَأَنَّها مُزِجَتْ بالكافُور[٣]. و ﴿عَيْناً﴾ عـلىٰ هذَيْنِ القَوْلَيْنِ بَدَلٌ من «كَأساً» علىٰ تَقْدير حَذْفِ مُضَافٍ، كأنَّه قَالَ: ويُسْقَوْنَ فيها خَمْراً خَمرَ عَيْنٍ، أو: نُصِبَ على الاختِصَاصِ. ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾ أي: يَشْرَبُ عبادُ ٱللهِ بها الخَمْرَ، كما تَقُولُ: شَرِبْتُ الماءَ بالعَسَلِ ﴿يُفَجِّرُونَهَا﴾ يُجْرُونَها حيثُ شاءُوا من مَنَازِلِهِم ﴿تَفْجِيراً﴾ سَهْلًا لا يَمْتَنِعُ عليهم. ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾ حَـالٌ أو ٱسـتِئْنافٌ، يقَالُ: وَفَىٰ بِنَذْرِهِ وأَوْفَىٰ بِهِ ﴿كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً﴾ أي: فَـاشِياً مـنْتَشِراً، والمُـرادُ بالشَّرِّ: أَهْوالُ ذلك اليومِ وشَدَائِدُهُ.

﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ﴾ الضَّميرُ للطَّعامِ، أي: مع ٱشْتِهائِهِ والحاجَةِ إليهِ، ونَحْوُهُ: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ﴾[٤] وقيلَ: علىٰ حُبِّ ٱللهِ تَعالىٰ[٥].

وعن الحَسَنِ: كَـانَ رَسُـولُ ٱللهِ ﷺ يُـؤْتَىٰ بـالأَسِيرِ فَـيَدْفَعُهُ إلىٰ بَـعضِ المسلمينَ فَيقُولُ: أَحْسِنْ إليهِ، فيكُونُ عنْدَهُ اليَومَيْنِ والثَلاثة[٦].

وعن قَتَادَةَ: كانَ أَسيرُهُم يَومئذٍ المُشْرِكَ، وأَخُوكَ المُسلمُ أَحَقُّ أَن تُطْعِمَه[٧].

وعن أَبي سَعيدٍ الخُدَرِيِّ: هو المملُوكُ والمَسْجُونُ[٨].

﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ﴾ علىٰ إرادَةِ القَوْلِ، وَعَنْ سَعيدِ بنِ جُبَيْرٍ ومُجَاهِدٍ: أَنَّـهم لَـمْ

(١) حكاه عنه البغوي في تفسيره: ج ٤ ص ٤٢٧.
(٢) نفس المصدر السابق.
(٣) حكاه البغوي في تفسيره المتقدّم ونسبه الى أهل المعاني.
(٤) البقرة: ١٧٧.
(٥) قاله الفضيل بن عياض. راجع البحر المحيط: ج ٨ ص ٣٩٥.
(٦) حكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٦٦٨.
(٧) رواه عنه الطبري في تفسيره: ج ١٢ ص ٣٦٠.
(٨) حكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٦٦٨.

يَتَكلَّمُوا بذلك، ولكنْ عَلِمَ ٱللهُ ما في قُلُوبِهِم فَأَثْنىٰ بِهِ عليهم[١]. أي: لا نَطلُبُ بهذا الإطْعامِ مكافَأَةً عاجِلَةً، ولا أن تَشكُرُونا عليهِ، إذْ هو مفعُولٌ لِوَجْهِ ٱللهِ، فَلا معنىٰ لمكَافَأةِ الخلْقِ، و «الشُّكُورُ» مَصدَرٌ كالشُّكْرِ، مثْلُ: الكُفُورِ والكُفْرِ. ﴿إِنَّا نَخَافُ﴾ يحتَملُ أن يُرادَ: أنَّ إِحْسانَنَا إليكُم للخَوْفِ من شدَّةِ ذلك اليوم لا للمكافَأةِ، وأن يُرادَ: إنَّا لا نُريدُ منكم المكافَأةَ لِخَوْفِ عقابِ ٱللهِ علىٰ طَلَبِ المكافَأةِ بالصَّدَقةِ ﴿يَوْماً عَبُوساً﴾ مثْلُ قَولِكَ: نَهارُكَ صَائِمٌ، وَصَفَ اليَوْمَ بِصِفَةِ أَهْلِهِ، أو: شَبَّهَ اليَوْمَ في شدَّتِهِ بالأَسَدِ العَبُوسِ ﴿قَمْطَرِيراً﴾ صَعْباً شَديداً.

﴿فَوَقَـٰهُمُ ٱللهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَومِ﴾ أي: كَفَاهُم شَدَائِدَهُ وأَهْوالَهُ ﴿وَلَقَّـٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً﴾ أي: أَعْطَاهُم بَدَلَ عُبُوسِ الفُجَّارِ وَحُزْنِهِم نَضْرةً في الوجُوهِ وسُروراً في القُلُوبِ، وهذا يَدُلُّ علىٰ أنَّ «اليَوْم» موصُوفٌ بِعُبُوسِ أَهْلِهِ. ﴿وَجَزَـٰهُمْ بِمَا صَبَرُوا﴾ أي: وجَزَاهُم بِصَبْرِهِم علَى الإِيْثَارِ وبمَا يُؤَدِّي إليهِ، من الجُوعِ والعُرْيِ ﴿جَنَّةً﴾ فيها مَأْكَلٌ هَنِيءٌ ﴿وَحَرِيراً﴾ فيهِ مَلْبَسٌ بَهِيٌّ.

﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْساً وَلَا زَمْهَرِيراً﴾ يعني: أنَّ هَواءَها معتَدِلٌ لا حَرُّ شَمْسٍ يُحْمِي ولا زَمْهَريرٌ يُؤْذِي. ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَـٰلُهَا﴾ يجُوزُ أن تكُونَ مَعْطُوفةً على الجُملةِ الّتي قَبْلَها، وتكُونَ حالاً مِثْلَها. والتَّقْديرُ: غَيْرَ رائِينَ فيها شَمْساً ولا زَمْهَريراً ودانيةً عَلَيهم ظِلالُهَا، ودَخَلَتِ الواو للدلالةِ علىٰ أنَّ الأَمْرَيْنِ جميعاً لَهُم، فكأنَّهُ قَالَ: وجَزَاهُم جنَّةً جامِعينَ فيها بينَ البُعدِ عن الحَرِّ والبَرْدِ وَدُنُوِّ الظِّلَالِ عليهم. ويَجُوزُ أن يكُونَ ﴿مُتَّكِئِينَ﴾ و ﴿لَا يَرَوْنَ﴾ و ﴿دَانِيَةً﴾ كُلُّها صِفَاتَ الجنَّةِ، هذا قَوْلُ جَارِ ٱللهِ[٢]، وعنْدِي أنّه لَيْسَ بالوَجْهِ، لأنَّ ٱسمَ الفاعِلِ إذا وُصِفَ بِهِ وكانَ

---

(١) رواه عنهما الطبري في تفسيره: ج ١٢ ص ٣٦١.

(٢) في الكشّاف: ج ٤ ص ٦٧١.

فِعْلًا لِغَيْرِ الموصُوفِ وَجَبَ إبْرازُ الضَّميرِ الّذي فيهِ، ولَيسَ الاتِّكَاءُ والدُنُوُّ في الآيةِ للجنَّةِ، فالصَّحيحُ هو القولُ الأوَّلُ. ويَجُوزُ في ﴿وَدَانِيَةً﴾ أَن تَنْتَصِبَ علىٰ: وَجَزٰهُمْ جَنَّةً ولُبْسَ حَريرٍ ودُخُول جَنَّةٍ دَانِيَةً عليهم ظِلَالُها، فَحُذِفَ المُضَافُ ﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا﴾ أي: جُعِلَتْ ثِمَارُهَا مذلَّلةً لِقُطَّافِهَا لا تَمْتَنِعُ عليهم كيفَ شاءُوا، أو: جُعِلَتْ ذَليلةً لَهُم، خَاضِعَةً متَقَاصِرَةً، من قَوْلِهِم: حَائِطٌ ذَلِيلٌ: إذا كَانَ قَصِيراً، وعَنْ مُجَاهِدٍ: إنْ قَامَ ارتَفَعَتْ بقَدرِهِ، وإنْ قَعَدَ أو اضطَجَعَ تَذَلَّلَتْ حتّىٰ تَنَالَها يَدُهُ[1].

﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠(١٥) قَوَارِيرَا۠ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا(١٦) وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا(١٧) عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا(١٨) وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا(١٩) وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا(٢٠) عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا(٢١) إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا(٢٢)﴾

قُرِئَ: ﴿قَوَارِيرَاْ قَوَارِيرَاْ﴾ غَيْرُ مَنُوَّنَيْنِ، وبالتَّنْوِينِ فيهما[2] وبالتَّنوينِ في الأَوَّلِ منْهما[3]. وهذا التَّنْوِينُ بَدَلٌ من حَرْفِ الإطْلَاقِ لأنَّه كالفَاصِلَةِ من الشِّعْرِ، وفي الثَّاني لإتبَاعِهِ الأَوَّل. ومعنىٰ قَولِهِ: ﴿قَوَارِيرَاْ مِنْ فِضَّةٍ﴾ أنَّها مَخْلُوقَةٌ من فِضَّةٍ، وهي مَعَ بَيَاضِ الفضَّةِ وحُسْنِها في صَفَاءِ القَوارِيرِ وشَفِيفِها، ومعنىٰ ﴿كَانَتْ﴾: أنَّها تَكَوَّنَتْ قَوارِير بتَكوينِ اللهِ إيَّاهَا، وهو تَفْخيمٌ لتلك الخلْقَةِ العجيبةِ الجَامِعَةِ

(١) رواه عنه الطبري في تفسيره: ج ١٢ ص ٣٦٤.
(٢) قرأه عاصم برواية أبي بكر عنه ونافع والكسائي. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٦٦٣ ـ ٦٦٤.
(٣) وهي قراءة ابن كثير وحده. راجع المصدر السابق.

بين صِفَتَيْ الجَوْهَرَيْنِ المُتَبايِنَيْنِ، ومِثْلُهُ: «كَانَ» في قَولِهِ: ﴿كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً﴾، نَحْوُ «يَكُونُ» في قَولِهِ: ﴿كُنْ فَيَكُونَ﴾[١]. ﴿قَدَّرُوهَا﴾ صِفَةٌ لـ﴿قَوَارِيرَا﴾ والمعنىٰ: أنَّهم قَدَّرُوها في أَنْفُسِهِم أن تكُونَ علىٰ مقَادِيرَ وأَشْكَالٍ علىٰ حَسَبِ شَهَواتِهِم، فجاءَتْ كما قَدَّرُوا، وقيلَ: إنَّ الضَّميرَ «للطَّائِفِينَ» بها عَلَيْهم، أي: قَدَّرُوا شَرابَهَا علىٰ قَدْرِ الرَّيِّ، وهو أَلَذُّ للشَّاربِ لكَونِهِ علىٰ قَدْرِ حاجَتِهِ[٢]. وعن مُجَاهِدٍ: لا تَغيضُ ولا تَفيضُ[٣]. وقُرِئَ: «قُدِّرُوها» بضَمِّ القافِ[٤]، والوَجْهُ فيهِ: أن يكُونَ من: «قَدَّرَ» منقُولاً مِن «قَدَرَ»، تَقُولُ: قَدَّرْتُ الشَّيءَ، و: قَدَّرَنيهِ فُلانٌ: إذا جَعَلَكَ قَادِراً لَهُ، ومعناهُ: جُعِلُوا قَادِرِينَ لَهَا كيفَ شَاءُوا علىٰ حَسَبِ ما اشْتَهَوْا.

﴿كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجبِيلًا﴾ العَرَبُ تَستطيبُ الزَّنْجَبيلَ وتَسْتَلِذُّهُ، قَالَ الأَعشىٰ:

كَأَنَّ الْقَرَنْفُلَ والزَّنْجَبِيـ ـلَ بَاتَا بِفِيهَا وَأَرْياً مَشُورا[٥]

وعنِ ابن عبَّاسٍ: كُلُّ ما ذَكَرَ اللهُ في القُرآنِ ممَّا في الجنَّةِ ليس مثْلُهُ في الدُّنيا، ولكن سَمَّاهُ بِمَا يُعْرَفُ[٦]. وسمِّيتِ العَيْنُ زَنْجبيلًا لِطَعْمِ الزَّنْجَبيلِ فيها، يعني: أنَّها في طَعْمِهِ ولَيْسَ فيها لَذْعَةٌ، ولكن نَقيضَ اللَّذْعِ وهو السَّلاسَةُ، يقَالُ: شَرَابٌ سَلْسَلٌ وَسَلْسَالٌ وَسَلْسَبِيلٌ زيدَتِ الباءُ في التَّرْكيبِ حتَّىٰ صَارَتِ الكلمةُ خُماسيةً ودلَّتْ

---

(١) البقرة: ١١٧، آل عمران: ٤٧ و ٥٩، الانعام: ٧٣.

(٢) قاله سعيد بن جبير والحسن ومجاهد وقتادة وابن زيد. راجع تفسير الطبري: ج ١٢ ص ٣٦٧.

(٣) رواه عنه الطبري في تفسيره المتقدّم.

(٤) قرأه ابن عباس والسلمي والشعبي ورووه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وعليٍّ عليه السلام. راجع شواذ القرآن لابن خالويه: ص ١٦٦.

(٥) من قصيدة طويلة يمدح فيها هوذة بن علي الحنفي. والزنجبيل: نبات طيّب الرائحة، والأَرْي: العسل، والمشهور: المجموع، انظر ديوان الأعشىٰ: ص ٨٧ وفيه: «كأنَّ جَنِيّاً»، و«خالط فَاهاً» بدلًا من «باتا بِفِيها».

(٦) حكاه عنه البغوي في تفسيره: ج ٤ ص ٤٣٠.

علىٰ غايةِ السَّلاسَةِ، و ﴿عَيْناً﴾ بَدَلٌ من ﴿زَنْجَبِيلًا﴾ وقيلَ: يُمْزَجُ كَأْسُهُم بالزَّنْجَبِيلِ[١]، أو: يَخْلُقُ ٱللهُ طَعْمَهُ فيها[٢]، فَعَلَىٰ هذا القَوْلِ يكُونُ ﴿عَيْناً﴾ بَدَلًا من ﴿كَأْساً﴾ كأنَّه قالَ: ويُسْقَوْنَ فيها كَأْسَ عَيْنٍ، أو: منْصُوبةٌ على الاخْتِصَاصِ.

﴿حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَنْثُوراً﴾ شُبِّهَ الوِلْدَانُ المُخَلَّدونَ في حُسْنِهِم وصَفَاءِ أَلْوانِهِم وٱنْبثَاثِهِم في مَجَالِسِهم للخدْمَةِ باللُّؤلُؤ المنْثُورِ، أو: باللُّؤلُؤ الرَّطْبِ إذا نُثِرَ من صَدَفِهِ، لأنَّه أَصْفىٰ ما يكُونُ وأَحْسَنُ. ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ﴾: لَا مفعُولَ لـ ﴿رَأَيْتَ﴾ هُنَا، لا ظَاهِراً ولا مُقَدَّراً، فكَأنَّه قَالَ: وإذا وَجَدْتَ الرُّؤيَةَ ﴿ثَمَّ﴾، والمعنىٰ: أنَّ بَصَرَ الرَّائي أَيْنَما وَقَعَ لَمْ يَقَعْ إلَّا علىٰ نَعِيمٍ كَثيرٍ ومُلْكٍ كَبِيرٍ، و ﴿ثَمَّ﴾ في محلِّ نَصْبِ على الظَّرْفِ، أي: في الجنَّةِ ﴿مُلْكاً كَبِيراً﴾ واسِعاً دائماً لا يَزُولُ، وقيلَ: إذا أَرادُوا شيئاً كَانَ[٣]، وقيلَ: تُسلِّمُ عليهم الملائكةُ ويَسْتَأْذِنُونَ عَلَيهم[٤].

﴿عَالِيَهُمْ﴾ وقُرِئَ بالسُّكُونِ[٥] علىٰ أنَّه مبتَدأٌ خَبَرُهُ ﴿ثِيَابُ سُنْدُسٍ﴾ أي: ما يَعْلُوهُم من اللِّباسِ ثَيابُ سُنْدُسٍ، وقُرِئَ بالنَّصْبِ على الحَالِ، و ﴿ثِيَابُ﴾ مَرفُوعٌ بِهِ، أو: أُجْرِيَ «عَالٍ» مَجْرَىٰ «فوقَ» فانْتَصَبَ على الظَّرْفِ وسَدَّ مَسَدَّ الحالِ، أو: هو علىٰ معنىٰ: رَأَيْتُ أَهْلَ نعيمٍ ومُلْكٍ عَالِيَهُم ثِيابٌ، وقُرِئَ: ﴿خُضْرٌ وإسْتَبْرَقٌ﴾ بالرَّفْعِ حَمْلًا علىٰ «الثِّيَاب»، وبالجرِّ[٦] حَمْلًا علىٰ ﴿سُنْدُسٍ﴾، وقُرِئَ:

---

(١) قاله قتادة. راجع تفسير الطبري: ج ١٢ ص ٣٦٨.

(٢) قاله ابن شجرة. راجع تفسير الماوردي: ج ٦ ص ١٧٠.

(٣) قاله الترمذي الحكيم في نوادر الأصول: ج ٢ ص ٢٠٧.

(٤) قاله مقاتل والكلبي. راجع تفسير البغوي: ج ٤ ص ٤٣٠.

(٥) أي: بسكون الياء وكسر الهاء تبعاً لذلك، وهي قراءة نافع وحمزة وأبان والمفضّل كلاهما عن عاصم. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٦٦٤.

(٦) أي: بجرِّهما، وهي قراءة حمزة والكسائي وأبي عمرو برواية عبيد عنه. راجع المصدر السابق: ص ٦٦٥.

﴿وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ بالرَّفعِ [١] علىٰ معنىٰ: ثِيابُ سُندُسٍ وثِيابُ إستَبرقٍ، فَحُذِفَ المضَافُ وأَقَامَ «إِسْتَبْرق» مقَامَهُ، وقُرِئَ بالجرِّ أيضاً [٢]، ﴿وَحُلُّوٓاْ﴾ عَطْفٌ علىٰ ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ﴾، ﴿أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ لا يُكْتَنَهُ وَصْفُها، يُرىٰ ما وَرَاؤُها، وقيلَ: إنَّ الفضَّةَ في الجنَّةِ أفضَلُ من الذَّهَبِ ومن الدُّرِّ والياقُوتِ [٣]، وقيلَ: إنَّهم يُحلَّوْنَ بالذَّهَبِ تارةً، وبالفضَّةِ أُخرىٰ، أو: بِهِما جميعاً على الجَمْعِ [٤] ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ وليسَ بِرِجْسٍ كَخَمْرِ الدُّنيا، وقيلَ: يُطَهِّرُهُم من كلِّ شيءٍ سِوَى ٱللهِ [٥].

﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ و «هذا» إشارةٌ إلىٰ ما تَقَدَّمَ من عطاءِ ٱللهِ، وما وَصَفَهُ من النَّعيمِ والتَّعظيمِ ﴿كَانَ لَكُمْ جَزَآءً﴾ علىٰ أَعمالِكُم المقبُولَةِ وطاعاتِكُم المبرورَةِ ﴿وَكَانَ سَعْيُكُم﴾ في مرضَاةِ ٱللهِ ﴿مَّشْكُورًا﴾ مرضيّاً، والشُّكْرُ مَجَازٌ.

ورُوِيَ: أنَّ جبرائيلَ لمّا تَلَا الآياتِ قَالَ: خُذْهَا يا محمَّدُ هنَّأَكَ ٱللهُ في أهلِ بيْتِك [٦].

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا(٢٣) فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا(٢٤) وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا(٢٥) وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا(٢٦) إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا(٢٧) نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا

(١) أي: بجرِّ «خُضْر» ورفع «إِسْتَبرقٌ»، وهي قراءة ابن كثير وعاصم برواية أبي‌بكر عنه. راجع المصدر المتقدّم.
(٢) أي: برفع «خُضْرٌ» وجرِّ «إِسْتَبرقٍ»، وهي قراءة أبي عمرو وابن عامر. راجع المصدر نفسه.
(٣) قاله الشيخ الطوسي في التبيان: ج ١٠ ص ٢١٨.
(٤) قاله الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٦٧٤.
(٥) رووه عن عليٍّ عليه‌السلام. راجع تفسير ابن كثير: ج ٤ ص ٤٥٧.
(٦) رواه الحاكم الحسكاني في الشواهد: ج ٢ ص ٤٠٣ ذ ح ١٠٥٤ باسناده عن عطاء عن ابن عباس، والسيوطي في اللآلي: ج ١ ص ١٩٢ نقلاً عن ابن الجوزي.

بَدَّلْنَآ أَمْثَـٰلَهُمْ تَبْدِيلًا(٢٨) إِنَّ هَـٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا(٢٩) وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا(٣٠) يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ وَٱلظَّـٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا(٣١)﴾

كَرَّرَ سبحانَهُ الضَّميرَ الّذي هو اسمٌ لـ«إنَّ» للتأكيدِ، فكأنَّهُ قَالَ: ما نَزَّلَ ﴿عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا﴾ مفرَّقاً مفصَّلًا إلَّا أنا لا غَيْرِي. ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ الصَّادرِ عن الحِكْمةِ والصَّوابِ علىٰ مُكافَّتِهِم واحتِمَالِ أذاهُم إلىٰ أن يأتيكَ الأَمْرُ بالقتَالِ ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ﴾ أَحداً، قِلَّةَ صَبْرٍ منْكَ علىٰ أذاهُم، وقيلَ: إنَّ «الآثِمَ» عُتْبَةُ بنُ رَبيعةَ، و«الكَفُورَ» الوليدُ بنُ المُغِيرَة، قَالَا: ارجعْ عن أَمْرِكَ ونَحْنُ نُرضِيكَ بالمَالِ والتَّزويجِ[1]. ولَوْ قَالَ: ولا تُطِعْ آثماً وكَفوراً لجَازَ أَن يُطيعَ أَحدَهُما، فإذا أُتي بِـ«أَوْ» ومعناهُ: ولا تُطِعْ أَحدَهُما، عُلِمَ أَنَّ النَّاهِيَ عن طاعةِ أَحدِهِما ناهٍ عن طاعَتِهِما جميعاً.

﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أي: صباحاً ومسَاءً. ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ﴾ وبَعْضَ اللَّيلِ ﴿فَاسْجُدْ لَهُ﴾ أي: فَصَلِّ للهِ، وقيلَ: يعني: المَغْرِبَ والعشَاءَ الآخِرَة[2] ﴿وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ وتَهَجَّدْ له هَزِيعاً طَوِيلًا من اللَّيلِ: ثُلُثَيْهِ أو نِصْفَهُ أو ثُلُثَهُ.

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الكفَرَةَ ﴿يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ ويؤْثِرُونَها على الآخِرَةِ ﴿وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ﴾ قُدَّامَهُمْ، أو: خَلْفَ ظُهُورِهِم لا يَعْبَؤُونَ بهِ ﴿يَوْماً ثَقِيلًا﴾ عَسيراً شَديداً، مستَعارٌ من الشَّيءِ الثَّقيلِ الباهِظِ لحَامِلِه. ﴿وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ﴾ أي: شَدَدْنا تَوصِيلَ عِظَامِهِم بعضَها بِبَعْضٍ، وتَوثيقَ مَفَاصِلِهِم بالأَعْصَابِ، من الأَسْرِ الّذي هو الرَّبْطُ والتَّوثيقُ بالإسَارِ وهو القِدُّ، وفَرَسٌ مأْسُورُ الخَلقِ، كما قيلَ: جَاريةٌ مَعْصُوبةُ الخَلْقِ،

(١) قاله مقاتل. راجع تفسير البغوي: ج ٤ ص ٤٣١.
(٢) قاله أبوبكر ابن العربي في أحكام القرآن: ج ٤ ص ٣٥٥.

وقيلَ: معناهُ: كَلَّفْنَاهُم وشَدَدْنَاهُم بالأَمر والنَّهي. ﴿وَإِذَا شِئْنَا﴾ أهْلَكْنَاهُم و ﴿بَدَّلْنَآ أَمْثَـٰلَهُمْ﴾ في شدَّةِ الأَسْرِ، يعني: النَّشْأَةَ الأُخرىٰ، وقيلَ: معناهُ: بَدَّلْنَا غيرَهُم مِمَّنْ يُطِيعُ[١]، وحَقُّهُ أَن يكُونَ: «وإنْ شِئْنا» بـ«إِنْ»، لا بـ«إِذَا»[٢] كَقَولِهِ: ﴿وإِنْ تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ﴾[٣].

﴿هَٰذِهِۦ﴾ إشارةٌ إلى السُّورةِ، أو: إلى الآياتِ القَريبةِ ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ تَذْكيرٌ وَعِظَةٌ ﴿فَمَنْ شَآءَ﴾ فَمَنِ اخْتَارَ الخَيْرَ ﴿اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ بأَن يَتَقَرَّبَ إليهِ بالطَّاعَاتِ.

﴿وَمَا تَشَآءُونَ﴾ الطَّاعةَ ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ يُجْبِرَهُم عليها، وقُرِئَ بالتاءِ والياءِ[٤]، و ﴿أَنْ يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ منصوبُ المَحَلِّ على الظَّرْفِ، والأَصلُ: إلَّا وَقْتَ مَشِيئَةِ اللهِ. ﴿وَٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ منْصُوبٌ بِفِعلٍ مضْمَرٍ يُفَسِّرُهُ: ﴿أَعَدَّ لَهُمْ﴾، نَحْوُ: أَوْعَدَ وكَافَأَ ونَحْوُهُما.

۞ ۞ ۞

(١) قاله ابن عباس في تفسيره: ص ٤٩٦.
(٢) قال عليّ عليه السلام: «واتَّهِمُوا عَلَيْهِ (الْقُرْآنِ) آراءَكُمْ...» نهج البلاغة: الخطبة ١٧٦.
(٣) محمد صلى الله عليه وآله وسلم: ٣٨.
(٤) أي: «وما يَشَاءُونَ» بالياء قرأه ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر برواية هشام عنه. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٦٦٥.

سُورَةُ المُرْسَلاتِ

مكّيّةٌ[1]، وهيَ خمسُونَ آيةً.

في حَديثِ أُبيٍّ: «ومَنْ قَرأَ سُورةَ ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ﴾ كُتِبَ: لَيْسَ من المشْركينَ»[2].

وعنِ الصَّادِقِ عليه السلام «مَنْ قَرأَها عَرَّفَ ٱللهُ بينَهُ وبينَ محمَّدٍ صلى الله عليه وآله وسلم»[3].

بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا(١) فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا(٢) وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا(٣) فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا(٤) فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا(٥) عُذْرًا أَوْ نُذْرًا(٦) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ(٧) فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ(٨) وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ(٩) وَإِذَا ٱلْجِبَالُ

---

(١) قال الشيخ الطوسي في التبيان: ج ١٠ ص ٢٢٢: مكّية في قول ابن عباس، وهي خمسون آية بلاخلاف.

وفي تفسير الماوردي: ج ٦ ص ١٧٥: مكّية من قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر، وقال ابن عباس وقتادة: إلّا آيةً منها، وهي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ﴾ فمدنيّة.

وفي الكشّاف: ج ٤ ص ٦٧٧: مكّية إلّا آية (٤٨) فمدنيّة، وآياتها (٥٠)، نزلت بعد الهمزة.

(٢) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٦٨٣ مرسلًا.

(٣) ثواب الأعمال للصدوق: ص ١٤٩.

نُسِفَتْ(١٠) وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ(١١) لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ(١٢) لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ(١٣) وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ(١٤) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ(١٥) أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ(١٦) ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْأَخِرِينَ(١٧) كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ(١٨) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ(١٩) أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ(٢٠) فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ(٢١) إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ(٢٢) فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ(٢٣) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ(٢٤) أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا(٢٥) أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا(٢٦) وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا(٢٧) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ(٢٨)﴾

﴿ٱلْمُرْسَلَٰتِ﴾ الملائكةُ أُرْسِلَتْ بالمعروفِ فَعَصَفَتْ في مُضِيِّها كَما تَعْصِفُ الرِّياحُ. ﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ﴾ هي الملائكةُ نَشَرَتْ أَجنحَتَها في الجوِّ عند ٱنحطاطِها بالوَحْيِ، أو: نَشَرَتِ الشَّرائعَ في الأَرض. ﴿فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا﴾ فَرَّقَتْ بين الحقِّ والباطلِ. ﴿فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا﴾ إلى الأنبياءِ. ﴿عُذْرًا﴾ لِلمُحِقِّينَ ﴿أَوْ نُذْرًا﴾ لِلمُبْطِلِينَ.

وقيلَ: ﴿ٱلْمُرْسَلَٰتِ﴾ رياحُ العَذابِ أُرْسِلَتْ متتابعَةً كعُرْفِ الفَرَسِ فَعَصَفَتْ في شدَّةِ هُبُوبِها. ﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ﴾ رياحُ الرَّحمةِ نَشَرَتِ السَّحابَ في الجوِّ ﴿نَشْرًا﴾ للغَيْثِ فَفَرَّقَتْ بينها وبَدَّدَتْهُ، كقولِه: ﴿وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا﴾ (١)، أو: هي السَّحابُ نَشَرَتِ الأَرضَ الميتَةَ فَفَرَّقَتْ بين مَن يَشْكُرُ ٱللهَ وبين مَن يَكْفُرُ، فَأَلْقَتْ ذِكْراً: إمَّا ﴿عُذْرًا﴾ لِلّذينَ يعتَذِرُونَ إلى ٱللهِ بتَوبَتِهِم وٱستغْفارِهِم إذا رَأَوْا نِعْمَةَ ٱللهِ في الغَيْثِ ويَشْكُرُونَها، وإمَّا ﴿نُذْرًا﴾ إنْذاراً للّذينَ يَغْفلُونَ عن الشُّكْرِ للهِ (٢).

---

(١) الروم: ٤٨.

(٢) قاله علي عليه السلام وابن عباس وابن مسعود وأبو صالح ومجاهد وقتادة. راجع تفسير الطبري: ←

وانتِصَابُ ﴿عُرْفاً﴾ في المعنى الأوَّلِ علىٰ أنَّه مفْعُولٌ له، أي: أُرْسِلْنَ للإحسانِ، وانتصابُهُ في المعنى الثَّاني على الحالِ. و ﴿عُذْراً﴾ و ﴿نُذْراً﴾ مَصْدَرانِ من: عَذَرَ إذا مَحَا الإسَاءَةَ، ومن: أَنْذَرَ إذا خَوَّفَ، وانتصَابُهُما على البَدَلِ أو: على المفعولِ لَهُ. وقُرِئَا مخفَّفَيْنِ ومثقَّلَيْنِ[١].

إنَّ الَّذي ﴿تُوعَدُونَـ﴾ـهُ من مَجيءِ يَوْمِ القيامةِ ﴿لَـ﴾ـكائِنٌ ﴿وَٰقِعٌ﴾ لَا مَحَالَةَ، وهو جَوابُ القَسَمِ.

﴿طُمِسَتْ﴾ أي: مُحِيَتْ ومُحِقَتْ، وقيلَ: ذُهِبَ بنُورِها[٢]. ﴿فُرِجَتْ﴾ أي: شُقَّتْ، وصُدِّعَتْ، وفُتِحَتْ فكانَتْ أبواباً. ﴿نُسِفَتْ﴾ كالْحَبِّ إذا نُسِفَتْ بالْمِنْسَفِ، ونَحْوُهُ: ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا﴾[٣] قيلَ: أُخِذَتْ بسُرْعَةٍ من أَماكِنِها[٤]. ﴿أُقِّتَتْ﴾: وُقِّتَت، وهو الأَصْلُ، ومعنىٰ تَوقيتِ الرُّسُلِ: تَبيينُ وَقْتِها الَّذي يَحضرونَ فيه للشَّهادةِ علىٰ أُمَمِهم. والتَّأْجِيلُ من الأَجَلِ، كالتَّوقيتِ من الوَقْتِ ﴿لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ﴾ تَعجيبٌ من هَوْلِ اليومِ وتَعظيمٌ له. ﴿لِيَوْمِ الْفَصْلِ﴾ بيانٌ لِيَوْمِ التأْجيلِ، وهو اليومُ الَّذي يُفْصَلُ فيه بين الخَلائِقِ، وقيلَ: وُقِّتَتْ: بَلَغَتْ ميقَاتَها الَّذي كانَتْ منْتَظِرَةً وهو يَومُ القيَامةِ[٥]. و ﴿أُجِّلَتْ﴾: أُخِّرَتْ.

﴿وَيْلٌ﴾ في الأَصْلِ مَصْدَرٌ منْصوبٌ سادٌّ مَسَدَّ فِعْلِه، لكنَّهُ عُدِلَ بِهِ إلى الرَّفْعِ للدلالةِ علىٰ معنىٰ ثَبَاتِ الهَلَاكِ ودَوَامِهِ للمَدْعوِّ عليه.

← ج ١٢ ص ٣٧٧ ـ ٣٨٠.

(١) وبالتثقيل ـ أي: بضمّ الذّال فيهما ـ قرأه ابن كثير ونافع وابن عامر وعاصم برواية أبي‌بكر عنه. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٦٦٦.

(٢) قاله ابن عباس في تفسيره: ص ٤٩٧. (٣) الواقعة: ٥.

(٤) قاله الزجّاج في معاني القرآن: ج ٥ ص ٢٦٦.

(٥) قاله الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٦٧٨.

﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ قَوْمَ نوحٍ وعَادٍ وثَمُودَ وغَيْرَهُم ﴿ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ﴾ بالرَّفعِ على الاستِئْنافِ، وهو وَعيدٌ لِقُرَيشٍ، والمُرادُ: ثمَّ نَفْعَلُ بأَمثالِهِم مِثْلَ ما فَعَلْنا بِهِم؛ لأنَّهم كَذَّبُوا كتَكْذِيبِهِم. ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مِثْلُ ذلك الفِعْلِ ﴿نَفْعَلُ﴾ بكلِّ مَنْ أَجْرَمَ وكَذَّبَ.

﴿مِن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ حقيرٍ قليلِ الغَنَاءِ. ﴿فَجَعَلْنَـٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ يعني: الرَّحِمَ. ﴿إِلَىٰ قَدَرٍ﴾ مِقْدَارٍ من الوقْتِ ﴿مَّعْلُومٍ﴾ قد عَلِمَهُ ٱللهُ وهو تِسْعَةُ الأَشْهُرِ أو ما دُونَها. ﴿فَقَدَرْنَا﴾ ذلك تَقْديراً ﴿فَنِعْمَ﴾ المقَدِّرون لَهُ نَحْنُ، أو: ﴿فَقَدَرْنَا﴾ على ذلك ﴿فَنِعْمَ ٱلْقَـٰدِرُونَ﴾ عليهِ نَحْنُ، والأَوَّلُ أَوْلَىٰ لِقِراءَةِ مَنْ قَرَأَ: «فَقَدَّرْنا» بالتَّشديدِ[١]، ولقَولِهِ: ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ﴾[٢].

الْكِفَاتُ: مِن: كَفَتَ الشَّيءَ إذا جَمَعَهُ وَضَمَّهُ، وهو ٱسمُ ما يُكْفَتُ، كالضِّمَامِ والجُمَاعِ لِمَا يُضَمُّ ويُجْمَعُ، وبِهِ ٱنْتَصَبَ ﴿أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا﴾، كأَنَّهُ قَالَ: كَافِتَةً أَحْياءً وأَمْواتاً، أو: بِفِعْلٍ مضْمَرٍ يدُلُّ عليهِ وهو «تَكْفِتُ»، والمعنىٰ: تَكْفِتُ أَحْياءً علىٰ ظَهْرِها وأَمْواتاً في بَطْنِها. والتَّنكيرُ للتَّفخيمِ، يعني: أَحياءً لا يُحْصَرونَ وأَمْواتاً كذلكَ، أو: لكَوْنِهما حَالَيْنِ من الضَّميرِ، لأنَّ المعنىٰ: تَكْفِتُكُم أَحْياءً وأَمْواتاً. ﴿رَوَٰسِىَ شَـٰمِخَـٰتٍ﴾ أي: جِبالاً ثَابِتةً عَالِيةً، ﴿وَأَسْقَيْنَـٰكُم﴾ وَجَعَلْنا لكُم سَقْياً من ماءٍ عَذْبٍ.

﴿ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ(٢٩) ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَـٰثِ شُعَبٍ(٣٠) لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ(٣١) إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ(٣٢) كَأَنَّهُۥ جِمَـٰلَتٌ صُفْرٌ(٣٣) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ(٣٤) هَـٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ(٣٥) وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ(٣٦) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ

(١) قرأه نافع والكسائي. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٦٦٦.
(٢) عَبَس: ١٩.

لِّلْمُكَذِّبِينَ(٣٧) هَـٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَـٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ(٣٨) فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ(٣٩) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ(٤٠) إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَـٰلٍ وَعُيُونٍ(٤١) وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ(٤٢) كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(٤٣) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ(٤٤) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ(٤٥) كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ(٤٦) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ(٤٧) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُواْ لَا يَرْكَعُونَ(٤٨) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ(٤٩) فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ(٥٠)﴾

أي: يقولُ لَهم الخزَنَةُ: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ﴾ ما كَذَّبْتُم ﴿بِهِۦ﴾ وَجَحدْتُمُوهُ من عَذَابِ النَّارِ، والانْطِلاقُ: الذَّهَابُ من مكانٍ إلىٰ مكانٍ من غَيْرِ مَكْثٍ، و ﴿ٱنْطَلِقُوٓاْ﴾ الثَّاني تَكْرِيرٌ، وقُرِئَ بلَفْظِ الماضي [١] إخْباراً بعدَ الأَمْرِ من عِلْمِهم بموجِبِهِ واضطِرارِهم إلىٰ فِعْلِهِ. ﴿إِلَىٰ ظِلٍّ﴾ يعني: دُخَانَ جهنَّمَ، كَقَولِهِ: ﴿وَظِلٍّ مِن يَحْمُومٍ﴾ [٢]، ﴿ذِى ثَلَـٰثِ شُعَبٍ﴾ يَتَشَعَّبُ لِعِظَمِهِ ثَلاثُ شُعَبٍ: شُعْبَةٌ فَوقَهم، وشُعْبَةٌ عن أَيْمانِهِم، وشُعْبَةٌ عن شَمَائِلِهِم. ﴿لَّا ظَلِيلٍ﴾ تَهَكُّمٌ بِهِم وتَعْرِيضٌ بأنَّ ظِلَّهُم يُضَادُّ ظِلَّ المؤْمِنِينَ ﴿وَلَا يُغْنِى﴾ في محلِّ جرٍّ، أي: غير مُغْنٍ عَنْهم ﴿مِنَ﴾ حَرِّ ﴿ٱللَّهَبِ﴾ شيئاً.

﴿إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ﴾ متطَايرٍ في الجهَاتِ ﴿كَٱلْقَصْرِ﴾ أي: كلُّ شَرَارَةٍ كالقَصْرِ من القُصُورِ في عِظَمِها، وقيلَ: هو الغَليظُ من الشَّجَرِ [٣]، والواحِدَةُ: قَصْرَةٌ، نَحْو: جَمْرَةٍ وجَمْرٍ، وقُرِئَ: «كالْقَصَرِ» بفَتْحَتَيْنِ [٤] وهي أَعناقُ الإِبِلِ. «كَأَنَّهُ جِمَالاتٌ» [٥]

---

(١) قرأه رويس عن يعقوب. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٧٤٨.

(٢) الواقعة: ٤٣.

(٣) قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك والحسن. راجع تفسير الطبري: ج ١٢ ص٣٨٨.

(٤) قرأه ابن عباس. راجع شواذ القرآن لابن خالويه: ص ١٦٧.

(٥) الظاهر أنّ المصنّف ﷺ قد اعتمد هنا على قراءة الجمع وهي قراءة ابن كثير ونافع وأبي ←

جَمْعُ جِمَالٍ، وقُرِئَ: ﴿جِمَـٰلَتٌ﴾ جَمْعُ جَمَلٍ، شُبِّهَتْ بالقُصُورِ ثمَّ بـالجِمَالِ لِـبَيانِ التَّشْبيهِ، كَمَا شَبَّهَ عَنْتَرةُ ناقَتَهُ بالقَصْرِ في قَولِهِ:

فوقَفْتُ فـيها نـاقَتي وكَـأنَّـها فَدَنٌ لِأَقْضِيَ حَاجَةَ المُتَلَوِّمِ (١)

وقُرِئَ: «جُمَالاتٌ» بالضَّمِّ(٢)، وهي قُـلُوسُ سُـفُنِ البَـحْرِ، وقـيلَ: قُـلُوسُ الجُسُورِ(٣)، الواحِدَةُ: جُمَالَةٌ، وقيلَ: ﴿صُفْرٌ﴾ لإرادةِ الجنْسِ(٤)، وقيلَ: ﴿صُفْرٌ﴾ سُودٌ تَضْرِبُ إلى الصُّفْرةِ(٥).

﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ﴾ بما يَنْفَعُهُم، جَعَلَ نُـطْقَهُم كـ«لانُـطْقٍ» لأنَّـه لا يَـنْفَعُ ولا يُجْدِي، أو: يَنْطِقُونَ في وَقْتٍ ولا يَنْطِقُونَ في وَقْتٍ، ويومُ القيامةِ طَـويلٌ لَـهُ مَوَاطِنُ ومَواقِيتُ، ولذلك وردَ الأَمْرَانِ في القُرآنِ، أَلَا تَرَىٰ إلىٰ قَولِهِ: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾(٦)؟ فيتكَلَّمُونَ ويختَصِمُونَ ثمَّ يُخْتَمُ علىٰ أفواهِهِم وتَتَكَلَّمُ أَيْدِيهم وأَرْجُلُهم، فَحينئذٍ لا يَنْطِقُونَ. ﴿فَيَعْتَذِرُونَ﴾ عَطْفٌ علىٰ ﴿يُؤْذَنُ﴾ أي: ولا يكُونُ لهم إِذْنٌ واْعتِذَارٌ مُتعقِّبٌ لَه من غَيْرِ أن يكُونَ الاعتذَارُ مُسَبَّباً عن الإِذْنِ، ولَوْ نُصِبَ لكانَ مُسَبَّباً عنهُ لا مَحالَةَ.

﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾ أي: يَومُ الحُكْمِ والقَضَاءِ بين الخَلْقِ، والانتِصَافِ للمظْلُومِ من الظَّالِمِ، ﴿جَمَعْنَـٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ﴾ بيانٌ لَهُ، لأنَّ الفَـصْلَ إذا كـانَ بـين الأَشْـقياءِ والسُّعَداءِ، وبينَ الأنبياءِ وأُمَمِهِم، فلابُدَّ من جَمْعِ الأَوَّلِينَ والآخِرينَ حتَّىٰ يَقَعَ ذلك

← عمرو وابن عامر وأبي بكر عن عاصم. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٦٦٦.

(١) البيت من معلّقته الميميّة، والفَدَن: القصر. راجع ديوان عنترة بن شدّاد: ص ١٢.

(٢) قرأه رويس وحده. راجع التذكرة في القراءات: ج ٢ ص ٧٤٩.

(٣) قاله سعيد بن جبير ومجاهد. راجع تفسير الطبري: ج ١٢ ص ٣٩٠، والقُلُوسُ: الحِبَالُ.

(٤) قاله الشيخ في التبيان: ج ١٠ ص ٢٣١.

(٥) قاله الحسن وقتادة ومجاهد. راجع تفسير الطبري: ج ١٢ ص ٣٨٩ ـ ٣٩٠.

(٦) الزمر: ٣١.

الفَصْلُ بينَهُم. ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ﴾ تَقْريعٌ لَهُم على كَيْدِهِم لدينِ اللهِ وأَهْلِهِ، وتَسْجيلٌ عَليهم بالمَهَانَةِ والعَجْزِ.

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ في مَوْضِعِ الحَالِ من ضَميرِ ﴿الْمُتَّقِينَ﴾ في قَوله: ﴿فِي ظِلَالٍ﴾ أي: مَقولاً لَهُم ذلك. و ﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا﴾ حَالٌ من المُكذِّبينَ، أي: الوَيْلُ ثَابِتٌ لَهُم في حَالِ ما يُقَالُ لَهُم: كُلُوا وتَمَتَّعُوا، أي: كنْتُم أَحِقَّاءَ في حياتِكُم بأَن يُدْعَىٰ لَكُم بذلكَ، ويجُوزُ أن يكُونَ ﴿كُلُوا﴾ كَلَاماً مستَأْنفاً، خِطَاباً للمُكذِّبينَ في الدُّنيا.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا﴾ أي: صَلُّوا، لا يُصَلُّونَ، وقيلَ: نَزَلَتْ في ثَقِيفٍ[1] حينَ أَمَرَهُم النَّبيُّ ﷺ بالصَّلاةِ فَقَالُوا: لَا نَنْحَنِي فإنَّها مَسَبَّةٌ عَلَيْنا، فَقَالَ عليه السلام: «لا خَيْرَ في دينٍ لَيْسَ فيهِ رُكُوعٌ ولا سُجُود»[2]. ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ﴾ بَعْدَ القُرآنِ ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ وهو الآيةُ المُبْصِرَةُ، والمُعْجِزَةُ البَاهِرَةُ، والبُرهَانُ المُبينُ!

وَكَرَّرَ ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ في السُّورةِ عَشْرَ مرَّاتٍ، عَلَّقَ كلَّ واحِدَةٍ منْها بِقِصَّةٍ تُخَالِفُ أَخَواتَها، فَعَقَّبَ كُلًّا منْها بإثْباتِ الوَيْلِ للمُكَذِّبِ بما في ضِمْنِها.

۞ ۞ ۞

(١) قاله مقاتل. راجع تفسير الماوردي: ج ٦ ص ١٨١.
(٢) أخرجه البيهقي في السنن: ج ٢ ص ٤٤٤ ـ ٤٤٥ عن عثمان بن أبي العاص.

سُورَةُ النَّبأ(١)

مكّيّةٌ(٢) وهيَ أربعُونَ آيةً كُوفيٌّ، إحدىٰ وأَربعُونَ بَصْري ﴿عَذاباً قَريباً﴾(٣) بَصْريٌّ.

في حَديثِ أُبيٍّ: «وَمَنْ قَرَأَ سُورةَ ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾ سَقَاهُ ٱللهُ بَرْدَ الشَّرابِ يَوْمَ القِيامَةِ»(٤).

وعنِ الصَّادقِ عليه السلام: «مَنْ قَرَأَها لَمْ تَخرُجْ سَنَتُهُ، إذا كانَ يُدْمِنُها في كلِّ يومٍ، حتّىٰ يَزُورَ البيتَ الحَرَام»(٥).

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ(١) عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ(٢) ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ(٣)

---

(١) في بعض النسخ: «سُورةُ عَمَّ يَتَساءَلُونَ».

(٢) قال الشيخ الطوسي في التبيان: ج ١٠ ص ٢٣٧: مكّية في قول ابن عباس والضحّاك، وهي أربعون آيةً في الكوفي والمدنيّين، وإحدىٰ وأربعون في البصري.

وفي الكشّاف: ج ٤ ص ٦٨٣: مكّية، وتسمّىٰ سورة النبأ، وهي أربعون أو إحدىٰ وأربعون آيةً، نزلت بعد المعارج.

(٣) الآية: ٤٠.

(٤) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٦٩٢ مرسلًا.

(٥) ثواب الأعمال للصدوق: ص ١٤٩ وزاد في آخره: «إن شاء الله».

كَلَّا سَيَعْلَمُونَ(٤) ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ(٥) أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَـٰدًا(٦) وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا(٧) وَخَلَقْنَـٰكُمْ أَزْوَاجًا(٨) وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا(٩) وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا(١٠) وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا(١١) وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا(١٢) وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا(١٣) وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا(١٤) لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا(١٥) وَجَنَّـٰتٍ أَلْفَافًا(١٦) إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا(١٧) يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا(١٨) وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا(١٩) وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا(٢٠)﴾

دَخَلَتْ «عَنْ» علىٰ «ما» الاستفهاميَّةِ فأُدْغِمَ النُّونُ في الميم وحُذِفَتِ الألْفُ، ونَحوُهُ: «بِمَ» و «فيمَ» و «مِمَّ» و «لِمَ» و«إلاَمَ» و «علامَ» و«حتّامَ»[١]. ومعنىٰ هذا الاستِفْهامِ تَفْخيمُ الشَّأْنِ، كأنَّهُ قَالَ: عن أيِّ شيءٍ ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ أي: يسأَلُ بعضُهم بَعْضاً، أو: يَتَسَاءلُونَ غَيْرَهُم نَحْوُ: يَتَداعُونَهم. ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾ بَيَانٌ للشَّأْنِ المُفخَّمِ، وهو نَبأُ يَوْمِ القيامةِ والبَعْثِ، أو: أَمْرُ الرسالةِ ولَوازِمُها. ﴿ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ قيلَ: الضَّميرُ للكفَّارِ[٢]، وقيلَ: الكفَّار والمسلمينَ جميعاً[٣].

﴿كَلَّا﴾ رَدْعٌ للمتَسَائلينَ ﴿سَيَعْلَمُونَ﴾ وَعِيدٌ لهُم بأنَّهم سوف يَعلَمُونَ أنَّ ما يَتَسَاءلُونَ عنْهُ ويستَهزِئُونَ بهِ حقٌّ لأنَّه وَاقِعٌ لا رَيْبَ فيهِ، أو: ﴿سَيَعْلَمُونَ﴾ عاقِبَةَ تكْذيبِهِم، وسَيَعْلَمُ المؤمنونَ عاقِبَةَ تَصْديقِهِم. والتَّكريرُ بهِ تَشْديدٌ في الأَمر وتَكْريرٌ للوَعيدِ، و ﴿ثُمَّ﴾ إشْعارٌ بأنَّ الوَعيدَ الثَّاني أَبْلَغُ من الوَعيدِ الأوَّلِ.

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَـٰدًا﴾ أي: فِرَاشاً، وأَرْسَيْنَاها بالجِبَالِ كما يُرْسَى البيتُ

(١) «إلامَ» و «عَلامَ» و «حتّام»، أَصلُها على الترتيب: إلىٰ ما، وعلىٰ ما، وحتّىٰ ما.
(٢) قاله ابن عباس في تفسيره: ص ٤٩٥.
(٣) قاله قتادة. راجع تفسير الطبري: ج ١٢ ص ٣٩٦.

بالأَوتَادِ. ﴿وَخَلَقْنَـٰكُمْ﴾ أَشكالاً متَشاكِلين، أو: ذُكراناً وإِناثاً، أو: أَصْنافاً، ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً﴾ أي: راحَةً وَدَعَةً لأَجْسادِكُم، وقيلَ: مَوْتاً، من السَّبْتِ وهو القَطْعُ؛ لأنَّه مقْطُوعٌ عن الحرَكَةِ[1]، والنَّومُ أَحَدُ المَوْتَيْنِ. والمعنىٰ: أنَّ مَنْ خَلَقَ هذهِ الخَلائِقَ العجيبةَ الدالَّةَ على كَمَالِ القُدرةِ والحِكْمَةِ فلا وَجْهَ لإِنْكارِ قُدْرتِهِ على البَعْثِ، ولأنَّه يؤدِّي إلىٰ أنَّه عابِثٌ في كلِّ ما فَعَلَهُ، والحكيم لا يَفْعَلُ فِعْلًا عَبَثاً.

﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاساً﴾ يَستُرُكُم عن العُيُونِ، وتُخْفُونَ فيه ما لا تُحِبُّونَ الاطِّلاعَ عليهِ من أُمورِكُم. ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشاً﴾ أي: وَقْتَ مَعَاشٍ، أو: مَطْلَبَ مَعَاشٍ تستيقظُونَ فيهِ لحَوائِجِكُم، وتَتَصرَّفُونَ في مكاسِبِكُم. ﴿سَبْعاً﴾ أي: سَبْعَ سَمٰاواتٍ ﴿شِدَاداً﴾ مُحْكَمَةً، جَمْعُ شَديدَةٍ. ﴿سِرَاجاً وَهَّاجاً﴾ وَقَّاداً مُتَلأْلِئاً، يعني: الشَّمسَ، وتَوهَّجَتِ النارُ: إِذا تَلَظَّتْ.

و ﴿ٱلْمُعْصِرَٰتِ﴾ السَّحائِبُ إذا أَعْصَرَتْ، أي: شَارَفَتْ أن تَعْصِرَها الرِّياحُ فَتَمْطُرُ، مثْلُ: أَجَزَّ الزَّرْعُ أي: حانَ لهُ أَن يُجَزَّ منْهُ، ومنْهُ: أَعْصَرَتِ الجَارِيَةُ: إذا حَانَ أَن تَحيضَ، وعن مُجَاهِدٍ: المُعْصِرَاتُ: الرِّياحُ ذَوَاتُ الأَعاصِيرَ لأنَّها تُنْشِئُ السَّحابَ وَتَدُرُّ أَخْلافَهُ[2]. ﴿مَآءً ثَجَّاجاً﴾ مُنْصَبّاً بكَثْرَةٍ، يُقَالُ: ثَجَّهُ وثَجَّ بِنَفْسِهِ.

وفي الحَديثِ: «أَفْضَلُ الحَجِّ العَجُّ والثَّجُّ»[3]. فالعَجُّ: رَفْعُ الصَوْتِ بالتَّلبيةِ، والثَّجُّ: صَبُّ دِمَاءِ الهَدْيِ.

﴿حَبّاً وَنَبَاتاً﴾ يعني: ما يُتَقَوَّتُ بِهِ من نَحْوِ الحنْطَةِ والشَّعيرِ، وما يُعْتَلَفُ بِهِ من

---

(١) حكاه الماوردي في تفسيره: ج ٦ ص ١٨٣.

(٢) تفسير مجاهد: ص ٦٩٤.

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره: ج ١٢ ص ٤٠٠، وابن حجر في التلخيص: ج ٢ ص ٢٣٩ مرسلًا. والعجُّ: رفع الصوت للتلبية، والثجُّ: سيلان دماء الهَدْي.

التِّبْنِ والحَشيشِ كَمَا قَالَ: ﴿كُلُواْ وَٱرْعَوْاْ أَنْعَامَكُمْ﴾ (١) . والألْفَافُ: المُلْتَفَّةُ، لا واحِدَ لَهَا كالأخْيافِ، وقيلَ: [بَلْ] (٢) واحِدُها لَفٌّ (٣) .

﴿كَانَ مِيقَـٰتاً﴾ كانَ في حُكْمِ ٱللهِ حدّاً وَقّتَ بِهِ الدُّنيا تَنْتَهي عِنْدَهُ، أو: حدّاً للخَلائِقِ يَنْتَهونَ عنْدَهُ. ﴿يَوْمَ يُنفَخُ﴾ بَدَلٌ من ﴿يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾، أو: عَطْفُ بيانٍ لَهُ ﴿فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً﴾ من القُبُورِ إلىٰ مَوقِفِ الحِسَابِ أُمَماً، كلُّ أُمَّةٍ مع إمامِهِم، وقيلَ: جَمَاعَاتٍ مختَلِفَةً (٤) .

وعن مَعَاذ: أنَّه سأَلَ رَسُولَ ٱللهِ ﷺ عَنْهُ، فَقَالَ: «يُحْشَرُ عَشْرَةُ أَصْنافٍ من أُمَّتي أَشْتَاتاً، قَد ميَّزَهُم ٱللهُ من المسلمينَ وَبَدَّلَ صُوَرَهُم: فَبعضُهُم علىٰ صُورةِ القِرَدَةِ، وبعضُهُم علىٰ صُورةِ الخَنَازيرِ، وبعضُهم منكَّسُونَ: أَرجُلُهُم فَوقَ رؤُوسِهِم يُسْحَبُونَ عليها، وبعضُهُم عُمْيٌ، وبعضُهُم صُمٌّ بُكْمٌ، وبعضُهُم يَمْضُغُونَ ألْسِنَتَهُم فهي مُدلاّةٌ علىٰ صُدُورِهِم، يَسيلُ القَيْحُ من أَفْواهِهِم يتَقَذَّرُهُم أهلُ الجَمْعِ، وبعضُهُم مقطَّعَةٌ أَيْدِيهِم وأَرجُلُهم، وبعضُهُم مُصَلَّبونَ علىٰ جُذُوعٍ من نارٍ، وبعضُهُم أَشَدُّ نَتْناً من الجِيَفِ، وبعضُهُم مُلْبَسُونَ جِباباً سَابِغَةً من قَطِرَانٍ لازِقَةً بجُلُودِهِم. فَأمَّا الّذينَ علىٰ صُورةِ القِرَدَةِ فالقَتَّاتُ من النَّاسِ، وأمَّا الّذين على صُورةِ الخنازيرِ فأَهلُ السُّحْتِ، وأمَّا المنَكَّسُونَ علىٰ رؤوسِهِم فَأَكَلَةُ الرِّبا، وأمَّا العُمْيُ فالّذين يجُورونَ في الحُكْمِ، وأمَّا الصُّمُّ والبُكْمُ فالمُعْجَبُونَ بأَعمالِهِم، وأمَّا الّذين يَمضُغُونَ ألسِنَتَهم فالعلماءُ والقُصَّاصُ الّذين خَالَفَ أقوالُهُم أعمالَهُم، وأمَّا الّذين قُطِعَتْ أيديهم وأَرجُلُهم فَهُم الّذين يؤْذُونَ الجيرانَ، وأمَّا المُصَلَّبونَ علىٰ جُذُوعٍ من نارٍ فالسُّعَاةُ بالنَّاسِ إلى السُّلطانِ، وأمَّا الّذين هُم أَشَدُّ نَتْناً من الجِيَفِ فالّذين يَتَّبِعُونَ الشَّهَواتِ

---

(١) طـه: ٥٤ . (٢) زيادة يقتضيها السياق .

(٣) وهو قول الكسائي . راجع تفسير القرطبي: ج ١٩ ص ١٧٤ .

(٤) قاله مجاهد في تفسيره: ص ٦٩٥ .

واللَّذاتِ ويَمنَعُونَ حقَّ ٱللهِ في أَموالِهِم، وأمَّا الّذين يَلْبسُون الجِبَابَ فأَهلُ الكِبْرِ والفَخْرِ والخُيَلَاء»[١].

﴿وَفُتِحتِ﴾ قُرِئَ بالتَّشديدِ[٢] والتَّخفيفِ، والمعنىٰ: كَثُرَتْ أَبوابُها المفَتَّحَةُ لِنزُولِ الملائكةِ، كأنَّها لَيْسَتْ إلَّا أَبواباً مفتَّحَةً، كقَولِهِ: ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُوناً﴾[٣]، كأنَّ كُلَّها عُيُونٌ مفجَّرَةٌ، وقيلَ: الأَبوابُ: الطُّرُقُ والمَسَالِكُ تُكْشَطُ فينفَتِحُ مَكانُها ويَصيرُ طُرُقاً لا يَسُدُّها شيء[٤]. ﴿فَكَانَتْ سَرَاباً﴾ كقَولِهِ: ﴿فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾[٥] أي: يَصيرُ شيئاً كَلَاشَيْءٍ لِتفرُّقِ أجزائِها.

﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا(٢١) لِّلطَّـٰغِينَ مَـَٔابًا(٢٢) لَّـٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا (٢٣) لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا(٢٤) إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا(٢٥) جَزَآءً وِفَاقًا(٢٦) إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا(٢٧) وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا(٢٨) وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ كِتَـٰبًا(٢٩) فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا(٣٠) إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا(٣١) حَدَآئِقَ وَأَعْنَـٰبًا(٣٢) وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا(٣٣) وَكَأْسًا دِهَاقًا(٣٤) لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا(٣٥) جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا(٣٦) رَّبِّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَـٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا(٣٧) يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَقَالَ صَوَابًا(٣٨) ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا(٣٩) إِنَّآ أَنذَرْنَـٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ

---

(١) أخرجه السيوطي في الدرّالمنثور: ج ٨ ص ٣٩٣ بطُولِهِ وعزاه الى ابن مردويه. وفيه: «القضاة» بدل «القصّاص».

(٢) قرأه ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٦٦٨.

(٣) القمر: ١٢.

(٤) حكاه الطبري في تفسيره: ج ١٢ ص ٤٠٢.

(٥) الواقعة: ٦.

ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَـٰلَيْتَنِي كُنتُ تُرَٰبًا(٤٠)﴾

المِرْصَادُ: الحَدُّ الّذي يكونُ فيهِ الرَّصْدُ، أي: هي حَدٌّ ﴿لِّلطَّـٰغِينَ﴾ يُـرصَدُونَ فيهِ للعَذَابِ وهي مَآبُهم [١]، أو: هي مِرصَادٌ لأَهلِ الجنَّةِ يَرصدُهُم الملائكةُ الّذين يستَقْبِلُونَهم عنْدَها لأنَّ مجازَهُم عليها، وهي مَآبٌ للطَّاغِينَ، وعنِ الحَسَنِ وقَتَادَةَ: طَرِيقاً ومَمَرّاً لأهلِ الجنَّةِ [٢].

وقُرِئَ: ﴿لَـٰبِثِينَ﴾ و «لَبِثِينَ» [٣] واللَّبِثُ أَقوىٰ، لأنَّ اللَّابثَ: مَنْ وُجِـدَ مِـنْهُ اللَّبْثُ، واللَّبِثُ مَنْ شَأنُهُ اللَّبْثُ كالّذي يَجْثِمُ بالمَكَانِ لا يَكادُ يَنْفَكُّ مِنْهُ ﴿أَحْقَاباً﴾ حُقُباً بَعْدَ حُقْبٍ، كلَّما مَضَىٰ حُقُبٌ تَبِعَهُ حُقُبٌ إلىٰ غير نهَايةٍ، وقيلَ: الحُقْبُ: ثمانُونَ سنة [٤]، وقيلَ: معناهُ: لابِثِينَ فيها أَحْقَاباً غَيْرَ ذَائِقِينَ ﴿بَرْداً وَلَا شَرَاباً إِلَّا حَـمِيماً وَغَسَّاقاً﴾ ثمَّ يُبدَّلُونَ بعد الأَحْقَابِ غَيْرُ الحَميمِ والغَسَّاق [٥]. ورُوِيَ عن الباقرعليه السلام أنَّه قَالَ: هذهِ في الّذين يَخرُجُونَ من النَّارِ [٦].

وعنِ ٱبنِ عُمَرَ، عن النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم: لا يَخرُجُ من النَّارِ مَنْ دَخَلَها حتَّىٰ يَمْكُث فيها أَحْقاباً. [قال ٱبنُ عمر:] [٧] فَلَا يَتَّكِلَنَّ أَحَدٌ أَن يَخرُجَ من النَّارِ [٨].

---

(١) في نسخة: «مأواهم».
(٢) رواه عنهما الطبري في تفسيره: ج ١٢ ص ٤٠٥.
(٣) قرأه حمزة وحده. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٦٦٨.
(٤) وهو قول عليٍّعليه السلام وابن عباس وابي هريرة وسعيد بن جبير وقتادة والربيع بن أنس. راجع تفسير الطبري: ج ١٢ ص ٤٠٤، ورواه الصدوق في معاني الأخبار: ص ٢٢٠ عن الصادقعليه السلام.
(٥) قاله الزجّاج في معاني القرآن: ج ٥ ص ٢٧٣.
(٦) رواه العياشي في تفسيره كما في مجمع البيان: ج ١٠ ص ٤٢٤، وفي تفسير القمي: ج ٢ ص ٤٠٢ بالسند عن حمران عن الصادقعليه السلام.
(٧) زيادة لابدّ منها.
(٨) أخرجه السيوطي في الدّر: ج ٨ ص ٣٩٥ عنه وعزاه الى البزّار وابن مردويه والديلمي.

والاستِثْناءُ منْقَطِعٌ، والمعنىٰ: لا يذُوقُونَ فيها بَرْداً ورَوْحاً يُنَفِّسُ عَنْهم حَرَّ النَّارِ، ولا شَراباً يُسَكِّنُ من عَطَشِهِم، ولكنْ يذُوقُونَ فيها حَميماً وغَسَّاقاً. وقيلَ: البَرْدُ: النَّومُ[١]، قَالُوا: مَنَعَ البَردُ البَردَ، وقُرِئَ: ﴿غَسَّاقاً﴾ بالتَّخفيفِ[٢] والتَّشديدِ، وهو ما يَغْسِقُ أي: يَسيلُ من صَديدِ أَهْلِ النَّارِ. ﴿جَزَآءً وِفَاقاً﴾ وُصِفَ بالمصدَرِ، أو: أُريدَ: ذا وِفَاقٍ يُوافِقُ أَعْمالَهُم.

﴿كِذَّاباً﴾ أي: تَكْذيباً، و «فِعَّالٌ» قِيَاسٌ في مَصْدَرِ «فَعَّلَ» مِثْلُ: «فِعْلَال» لـ«فَعْلَلَ»، وقُرِئَ بالتَّخفيفِ[٣]، رُوِيَ ذلك عن عليٍّ عليه السلام[٤]، وهو مَصْدَرُ «كَذَبَ»، قَالَ الأَعشىٰ:

فَصَدَقْتُها، وكَذَبْتُها والمَرْءُ ينفَعُهُ كِذابُهْ[٥]

فَيكُونُ مثْلُ: ﴿أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتاً﴾[٦]، يَعني: وَكَذَبُوا بِآيَاتِنَا كِذاباً، أو: أنتَصَبَ بـ﴿كَذَّبُوا۟﴾ لأنَّه يَتَضَمَّنُ معنىٰ «كَذَبُوا»، لأنَّ كلَّ مكذِّبٍ بالحقِّ كَاذِبٌ.

﴿كِتَـٰباً﴾ مَصْدَرٌ في موضِعِ «إحْصَاءً»، أو: يكُونُ: «أَحْصَيْنَا» في معنىٰ: «كَتَبْنَا»، لالتِقَائِهِما في معنَى الضَّبْطِ والتَّحصيلِ، أو: يكُونُ حالاً في معنىٰ: مكْتُوباً في اللُّوحِ وفي صُحُفِ الحَفَظَةِ. والمعنىٰ: إِحْصَاء مَعَاصِيهِم، وهو اعْتِراضٌ.

وقَوْلُهُ: ﴿فَذُوقُوا۟﴾ مُسَبَّبٌ عن كُفْرِهِم بالحِسَابِ وتَكذيبِهِم بـالآياتِ. وعن النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم: «هذهِ الآيَةُ أَشَدُّ ما في القُرآنِ على أَهلِ النَّارِ»[٧]. وحَسْبُكَ بـ﴿لَن

---

(١) قاله مجاهد والسدي وأبو عبيدة. راجع تفسير الماوردي: ج ٦ ص ١٨٧.
(٢) قرأه ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٦٦٩.
(٣) قرأه الكسائي وحده. راجع المصدر السابق.
(٤) رواه عنه النحّاس في إعراب القرآن: ج ٥ ص ١٣٣.
(٥) لم نجده في ديوانه المطبوع، ومعناه واضح. انظر الكامل للمبرّد: ج ٢ ص ٧٤٧.
(٦) نوح: ١٧.
(٧) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٦٩٠ مرسلًا.

نَّزِيدَكُمْ﴾ وَبمجيئِها علىٰ طَريقِ الالتفاتِ شَاهِداً علىٰ أنَّ الغَضَبَ قَد بَلَغَ الغايَةَ.

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً﴾ فَوْزاً وظَفَراً بالبُغْيةِ، أو: مَوْضِعَ فَوْزٍ، وقيلَ: نَجَاةً ممَّا فيهِ أُولئك[١]، أو: مَوْضِعَ نَجَاةٍ، وفُسِّرَ «الْمَفَازُ» بما بَعْدَهُ. والحَدَائِقُ: البساتينُ فيها أَنْواعُ الشَّجَرِ المُثْمِرِ، والأَعْنابُ: الكُرُومُ. والكَواعِبُ: اللَّاتي تَكَعَّبَ ثَدْيُهُنَّ وتَفَلَّكَتْ، والأَتْرابُ: اللِّدَاتُ. والدِّهَاقُ: الْمُتْرَعَةُ المَمْلُوءَةُ، وأَدْهَقَ الحَوْضَ: مَلأَهُ. ﴿وَلَا كِذَّٰباً﴾ ولا تَكْذيبَ بَعْضِهِم لبَعْضٍ، وقُرِئَ بالتَّخفيفِ أَيضاً[٢] بمعنَى الكَذِبِ أو المُكَاذَبَةِ، ﴿جَزَآءً﴾ مَصْدَرٌ مؤَكِّدٌ منْصُوبٌ، بمعنىٰ قَولِهِ: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً﴾، كأنَّهُ قَالَ: جَازَى المتَّقينَ بِمَفَازٍ وعَطاءٍ، منْصوبُ «جزَآء» نَصْبَ المفْعُولِ بهِ، أي: جَزَاهُم ﴿عَطَآءً﴾، و ﴿حِسَاباً﴾ صِفَةٌ بمعنىٰ: كَافِياً، من: أَحْسَبَنِي الشَّيْءُ: إذا كَفَانِي حتَّىٰ قلتُ: حَسْبِي، وقيلَ: علىٰ حَسْبِ أَعْمَالِهِم[٣].

قُرِئَ: ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ و ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ بالرَّفعِ[٤] علىٰ: هو رَبُّ السَّمٰواتِ الرَّحمٰنُ، أو: «ربُّ السَّمٰوَاتِ» مبتَدأٌ و «الرَّحمٰنُ» صِفَتُهُ و ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾ خَبَرٌ، أو: هُمَا خَبَرانِ، وبالجَرِّ علَى البَدَلِ من ﴿رَّبِّكَ﴾، وبجَرِّ الأَوَّلِ ورَفْعِ الثاني[٥] علىٰ أنَّه مبتَدأٌ خَبَرُهُ ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾، أو: هو الرَّحمٰنُ. والضَّميرُ في ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾ لأَهْلِ السَّماوَاتِ وَالأَرْضِ، أي: لا يَملِكُونَ أَن يسأَلُوا إلَّا فيما أُذِن لَهُم فيهِ، كقَولِهِ: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾[٦]، ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾[٧].

---

(١) قاله مجاهد وقتادة. راجع تفسير الطبري: ج ١٢ ص ٤١٠.

(٢) وهي قراءة الكسائي وحده كما تقدّم في كتاب السبعة.

(٣) قاله مجاهد. راجع تفسير الطبري: ج ١٢ ص ٤١٣ ـ ٤١٤.

(٤) قرأه ابن كثير ونافع وأبو عمرو. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٦٦٩.

(٥) وهي قراءة حمزة والكسائي. راجع المصدر السابق.

(٦) الأنبياء: ٢٨. (٧) هود: ١٠٥.

و ﴿يَوْمَ يَقُومُ﴾ يَتعَلَّقُ بـ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾، أو: بِـ﴿لَا يَتَكَلَّمُونَ﴾، و ﴿ٱلرُّوحُ﴾ مَلَكٌ ما خَلَقَ اللهُ مخلُوقاً أَعْظَمَ منْهُ يَقُومُ وحدَهُ صَفّاً، وتَقُومُ الملائكةُ صَفّاً، وقيلَ: إنَّ الرُّوحَ خَلْقٌ من خَلْقِ ٱللهِ لَيْسُوا بملائكَةٍ ولا نَاسٍ يقُومُونَ صَفّاً والملائكةُ صَفّاً، وَهُمَا سِمَاطَا ربِّ العَالَمِينَ يَوْمَ القيامةِ[١]، وقيلَ: هو جبرائيل[٢] ﴿صَفًّا﴾ أي: مُصْطَفِّينَ، ومعنَى الكَلامِ هنا الشَّفَاعَةُ.

وعنِ الصَّادِقِ عليه السلام: نَحنُ واللهِ المأْذُونُونَ لَهُم يَوْمَ القيامةِ، والقَائِلُونَ [صَواباً، أي] نُمَجِّدُ ربَّنا، ونُصَلِّي علىٰ نبيِّنا، ونُشَفِّعُ لشيعَتِنا، فَلَا يَرُدُّنا رَبُّنا[٣].

﴿وَقَالَ صَوَاباً﴾ من القَوْلِ، مُوافِقاً للغَرَضِ الحُكْمِيِّ. ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ﴾ الّذي لا شَكَّ في حُصُولِهِ وكَونِهِ ﴿فَمَنْ شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآباً﴾ مَرْجِعاً بالطَّاعَةِ والعَمَلِ الصَّالحِ، فَقَد أُزِيحَتِ العِلَلُ، وأُوضِحَتِ السُّبُلُ، وبَلَّغَتِ الرُّسُلُ.

وقيلَ: إنَّ المُرادَ بِالمَرْءِ: الكَافِرُ[٤]، لقَولِهِ: ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَـٰكُمْ عَذَاباً قَرِيباً﴾، و«الكافِرُ» في قَولِهِ: ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ﴾ ظَاهِرٌ وُضِعَ مَوضِعَ الضَّميرِ لزِيَادَةِ الذَّمِّ ﴿مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ من الشَّرِّ، كقَولِهِ: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾[٥]، و «ما» ٱستِفْهاميَّةٌ منْصُوبَةٌ بـ﴿قَدَّمَتْ﴾ أي: يَنْظُرُ أيَّ شَيءٍ قَدَّمَتْ يَدَاهُ، أو: موصُولَةٌ منْصُوبَةٌ بـ﴿يَنظُرُ﴾ يقَالُ: نَظَرْتُهُ بمعنىٰ: نَظَرْتُ إليهِ، والرَّاجعُ من الصِّلَةِ عَامٌّ، وقيلَ: إنَّ ﴿ٱلْمَرْءُ﴾ عَامٌّ، وخُصِّصَ منْهُ الكَافِرُ[٦]، وعن قَتَادَةَ: هو المؤْمِنُ[٧]

(١) قاله مجاهد وأبو صالح والأعمش. راجع تفسير الطبري: ج ١٢ ص ٤١٥ ـ ٤١٦.

(٢) قاله الضحاك والشعبي. راجع المصدر السابق.

(٣) رواه البرقي في المحاسن: ص ١٨٣ ح ١٨٣ باسناده عن معاوية بن وهب.

(٤) قاله عطاء. راجع تفسير الرازي: ج ٣١ ص ٢٥.

(٥) آل عمران: ١٨٢.

(٦) قاله البغوي في تفسيره: ج ٤ ص ٤٤٠.

(٧) حكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٦٩٢.

﴿يَـٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَابًا﴾ في الدُّنيا فَلَمْ أُخْلَقْ ولَمْ أُكَلَّفْ، أو: ياليْتَني كُنْتُ تُراباً في هذا اليَوْمِ ولَمْ أُبْعَثْ، وقيلَ: يُحْشَرُ الحَيَوانُ غيْرُ المُكَلَّفِ حتَّىٰ يُقْتَصَّ للجمَّاءِ من القَرْناءِ ثمَّ تُرَدُّ تُراباً، فيتَمَنَّى الكافِرُ أن يكُونَ كذلك(١)، وقيلَ: إنَّ المُرادَ بالكافِرِ إبليسُ، عَابَ آدَمَ بأَن خُلِقَ من تُرابٍ وٱفْتَخَرَ بالنَّارِ، فإذا رأَىٰ يَوْمَ القيامةِ كَرَامَةَ المؤمنينَ من وُلْدِ آدمَ قَالَ: ياليْتَني كُنْتُ تُراباً(٢).

۞ ۞ ۞

---

(١) وهو قول عبدالله بن عمر وأبي هريرة، ورووه عن النبي ﷺ. راجع تفسير الطبري: ج ١٢ ص ٤١٨ ـ ٤١٩.
(٢) حكاه الثعلبي عن أبي القاسم بن حبيب. راجع تفسير القرطبي: ج ١٩ ص ١٨٩.

سُورَةُ النَّازِعَاتِ

مكّيّةٌ[1]، وهِيَ ستٌّ وأربعُونَ آيةً كُوفيٌّ، خَمْسٌ غيْرُهُم، ﴿وَلِأَنْعَـٰمِكُمْ﴾[2] كُوفيٌّ.

وفي حَديثِ أُبيٍّ: «ومَنْ قَرَأَ سُورةَ النَّازِعَاتِ لَمْ يكُنْ حِسَابُهُ يَوْمَ القيامةِ إلَّا كَقَدْرِ صَلَاةٍ مكتُوبةٍ حتَّىٰ يَدْخُلَ الجنَّةَ»[3].

وعنِ الصَّادقِ عليه السلام: «مَنْ قَرَأَها لَمْ يَمُتْ إلَّا ريَّاناً، ولَمْ يُبْعَثْ إلَّا ريَّاناً، ولَمْ يَدْخُلِ الجنَّةَ إلَّا ريَّاناً»[4].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَٱلنَّـٰزِعَـٰتِ غَرْقًا(١) وَٱلنَّـٰشِطَـٰتِ نَشْطًا(٢) وَٱلسَّـٰبِحَـٰتِ سَبْحًا(٣) فَالسَّـٰبِقَـٰتِ سَبْقًا(٤) فَالْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا(٥) يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ(٦) تَتْبَعُهَا

---

(١) قال الشيخ الطوسي في التبيان: ج ١٠ ص ٢٥٠: مكّية في قول ابن عباس والضحاك، وهي ستّ وأربعون آيةً في الكوفي، وخمس وأربعون في البصري والمدنيّين.

وفي الكشّاف: ج ٤ ص ٦٩٢: مكّية، وهي خمس أو ستّ وأربعون آيةً، نزلت بعد النبأ.

(٢) الآية: ٣٣.

(٣) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٧٠٠ مرسلًا.

(٤) ثواب الأعمال للصدوق: ص ١٤٩، وفقه الرضا عليه السلام: ص ٤٦.

ٱلرَّادِفَةُ(٧) قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ(٨) أَبْصَـٰرُهَا خَـٰشِعَةٌ(٩) يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ(١٠) أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا نَّخِرَةً(١١) قَالُواْ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ(١٢) فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ(١٣) فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ(١٤) هَلْ أَتَـٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ(١٥) إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى(١٦) ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ(١٧) فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ(١٨) وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ(١٩) فَأَرَىٰهُ ٱلْأَيَةَ ٱلْكُبْرَىٰ(٢٠) فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ(٢١) ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ(٢٢) فَحَشَرَ فَنَادَىٰ(٢٣) فَقَالَ أَنَاْ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ(٢٤) فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْأَخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ(٢٥) إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ(٢٦)﴾

أَقْسَمَ عزَّ ٱسمُهُ بالملائكةِ الّتي تَنْزِعُ أَرواحَ الكفّارِ عن أَبْدانِهِم بـالشِّدَّةِ، كَـمَا يَغْرِقُ النّازِعُ في القَوْسِ فَيبلُغُ غايةَ المدِّ، وبالملائكةِ الّتي «تَنشطُها» أي: تُخرِجُها، مِن قَولِهِم: نَشَطَ الدَّلْوَ من البئْرِ: إذا أَخْرَجَها، وبالملائكةِ الّتي تَسْبَحُ في مُضِيِّها، أي: تُسْرِعُ فَتَسْبقُ إلىٰ ما أُمِرُوا بهِ فَيُدبِّروا أُمورَ العِبادِ من السَّنَةِ إلى السَّنَة.

وقيلَ: إنّها خَيْلُ الغُزاةِ الّتي تَنْزِعُ في أَعِنَّتِها نَزْعاً، تَغْرِقُ فيها الأَعِـنَّةُ لِطُولِ أَعْناقِها، والّتي تَخْرُجُ من دارِ الإِسلامِ إلىٰ دارِ الحَرْبِ، من قَولِهِم: ثورٌ ناشِطٌ: إذا خَرَجَ من بَلَدٍ إلىٰ بَلَد، والّتي تَسْبَحُ في جَرْيِها فَتَسبقُ إلى الغايةِ فَتُدبِّرُ أَمْرَ الظَّـفَرِ والغَلَبَة (١).

وقيلَ: إنَّها النُّجُومُ الّتي تَنْزِعُ من أُفُقٍ إلىٰ أُفُقٍ، وإِغْراقُها في النَّزْعِ أَن تَـقْطَعَ الفَلَكَ كُلَّهُ، والّتي تَخْرُجُ من بُرْجٍ إلىٰ بُرْجٍ، والّتي تَسْبَحُ في الفَـلَكِ مِـن السَّيّارَةِ فَيَسْبقُ بَعضُها بَعْضاً في السَّيْرِ، فَتُدبِّرُ أَمراً قَضَى ٱللهُ سبحانَهُ بِهِ (٢).

---

(١) قاله عطاء في الجملة. راجع تفسير الطبري: ج ١٢ ص ٤٢٠ ـ ٤٢٤.

(٢) قاله الحسن وقتادة. راجع المصدر السابق.

والمُقْسَمُ عليهِ مَحْذُوفٌ وهو: لَتُبْعَثُنَّ، و ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ﴾ منْصُوبٌ بهذا المُضْمَرِ، و ﴿ٱلرَّاجِفَةُ﴾: الصَّيْحَةُ الَّتي تَرْجُفُ عنْدَها الأَرضُ والجِبَالُ، وهي النَّفْخَةُ الأُولىٰ، وُصِفَتْ بما يَحْدُثُ بحُدُوثِها. ﴿تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾ وهي النَّفْخَةُ الثانيةُ تَرْدُفُ الأُولىٰ، والجُملةُ في محلِّ النَّصْبِ على الحَالِ، والمعنىٰ: لَتُبْعَثُنَّ في الوَقْتِ الواسعِ الَّذي تَقَعُ فيه النَّفْخَتَانِ، وَهُم يُبْعَثُونَ في بعضِ ذلك الوَقْتِ وهو وَقْتُ النَّفْخَةِ الأَخيرةِ. ويَجُوزُ أن يَنْتَصِبَ ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ﴾ بما دَلَّ عليهِ ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ أي: يَوْمَ تَرْجُفُ وَجَفَتِ القُلُوبُ، والوَجِيفُ والوَجِيبُ أخَوَانِ، والمعنىٰ: أنَّها قَلِقَةٌ مضْطَرِبَةٌ غَيْرُ هادِئَةٍ لِمَا عايَنَتْ من هَوْلِ ذلك اليَوْمِ.

﴿أَبْصَـٰرُهَا خَـٰشِعَةٌ﴾ أي: ذَليلةٌ، و ﴿قُلُوبٌ﴾ مبتَدأٌ، ﴿وَاجِفَةٌ﴾ صِفَتُها، و ﴿أَبْصَـٰرُهَا خَـٰشِعَةٌ﴾ خَبَرُهُ، وأَضَافَ «الأَبْصَار» إلىٰ «القُلُوب»، والمُرادُ: أَبْصَارُ أَصْحَابِها، يَدُلُّ عليهِ: ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ﴾ أي: في الحالةِ الأُولىٰ، يَعْنونَ الحياةَ بَعْدَ المَوْتِ، وأَصْلُها: رَجَعَ فُلانٌ في حافِرَتِهِ، أي: في طريقَتِهِ الَّتي جاءَ فيها فَحَفَرَها أي: أَثَّرَ فيها، بِمَشْيِهِ فيها جَعَلَ أَثَرَ قَدَمَيْهِ حُفَراً، وقيلَ: حَافِرَة كما قيلَ: ﴿عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ (١) أي: منْسُوبةٌ إلى الحفْرِ وإلى الرِّضا (٢)، ثمَّ قيلَ لِمَنْ كانَ في أَمْرٍ فَخَرَجَ منْهُ ثمَّ عادَ إليهِ: رَجَعَ إلىٰ حَافِرَتِهِ، أي: إلىٰ طريقَتِهِ وحالَتِهِ الأُولىٰ، قَالَ:

أَحَافِرَةٌ علىٰ صَلَعٍ وَشَيْبٍ ... مَعَاذَ ٱللهِ من سَفَهٍ وَعَارِ (٣)

---

(١) الحاقة: ٢١، والقارعة: ٧.

(٢) قاله ابن عيسىٰ. راجع تفسير الماوردي: ج ٦ ص ١٩٥.

(٣) أنشده ابن الأعرابي، يقول: أَبَعْدَ الشيب والهرم أعود الى طريقتي الأُولىٰ من الشباب والصبا حيث الطيش والجهل؟ أُنظر شرح شواهد الكشّاف: ص ٤٦٦.

يريدُ: أَرُجُوعاً إلىٰ حَافِرَةٍ؟ وقَالُوا: النَّقْدُ عنْدَ الحَافِرَةِ، يُرِيدُونَ: عنْدَ الحالةِ الأُولىٰ، وهي الصَّفْقَةُ. قُرِئَ: ﴿نَخِرَةً﴾ و «نَاخِرَةً»[١] يقَالُ: نَخِرَ العَظْمُ فَهُو نَخِرٌ ونَاخِرٌ، وَ«فَعِلٌ» أَبْلَغُ من «فَاعلٍ»، وهو البَالي الأَجْوفُ الّذي يَمُرُّ فيهِ الرِّيحُ فيُسْمَعُ لَه نَخِيرٌ. و ﴿إِذَا﴾ منْصُوبٌ بمَحْذُوفٍ، والتَّقديرُ: إذا كُنَّا عِظَاماً بَالِيةً متَفَتِّتَةً نُبْعَثُ ونُرَدُّ أَحْياءً؟ ﴿قَالُواْ تِلْكَ﴾ الكَرَّةُ ﴿إِذاً كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ منْسُوبةٌ إلى الخُسْرانِ، أو: خَاسِرٌ أَصْحَابُها بمعنىٰ: أَنَّها إنْ صَحَّتْ فَنَحْنُ إذاً خَاسِرُونَ لِتَكْذِيبِنا بها، وهذا ٱستِهْزَاءٌ منْهُم.

وتَعَلَّقَ قَوْلُهُ: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ بمَحْذُوفٍ، معنَاهُ: لا تَسْتَصْعِبُوها ولا تَحْسَبُوها صَعْبَةً على ٱلله ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ﴾ أي: صَيْحَةٌ ﴿وَٰحِدَةٌ﴾ هيِّنَةٌ سَهْلَةٌ في قُدْرتِهِ، وهي النَّفْخَةُ الثَّانيةُ. ﴿فَإِذَا هُم﴾ أَحْيَاءٌ علىٰ وَجْهِ الأَرْضِ بعْدَ أن كانُوا أَمْواتاً في جَوفِها، و ﴿ٱلسَّاهِرَةِ﴾ الأَرضُ البَيضَاءُ المستَوِيَةُ، وسُمِّيَتْ سَاهِرَةً لأَنَّ السَّرابَ يَجْري فيها، من قَولِهِم: عَيْنٌ سَاهِرَةٌ: جَارِيَةُ المَاءِ، و «نَائِمَةٌ» ضِدُّهَا، قَالَ:

وسَاهِرَةٍ يُضحِي السَّرَابُ مُجَلَّلاً … لأَقْطَارِها قَد جُبْتُها مُتَلَثِّما[٢]

أو: لأنَّ سَالِكَهَا لا يَنَامُ خَوْفَ الهَلَاكِ.

﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ علىٰ إرادَةِ القَوْلِ. تَقُولُ: هَلْ لَكَ في كَذَا، و: هل لَكَ إِلَى كَذَا، كَمَا تَقُولُ: هَلْ تَرْغَبُ فيهِ، و: هلْ تَرْغَبُ إليهِ ﴿تَزَكَّىٰ﴾ تتزَكَّىٰ، أي: تَتَطَهَّرُ من الشِّرْكِ، وقُرِئَ: «تَزَّكَّىٰ» بالإدغَامِ[٣]. ﴿وَأَهْدِيَكَ﴾ وأُرْشِدُكَ ﴿إِلَىٰ﴾ معرفَةِ

---

(١) قرأه حمزة وعاصم برواية أبي بكر عنه. وأمّا الكسائي فكان الدوري يروي عنه: أنّه كان لا يبالي كيف قرأها بألف أم بغير ألف. أي: كان يقرأ الوجهين. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٦٧٠ ـ ٦٧١.

(٢) للاشعث بن قيس يصف أرضاً بيضاء كان يجوبها متلثّماً لخوف الحرّ والرياح. راجع شرح شواهد الكشّاف: ص ٤٨٧.

(٣) أي بتشديد الزاي، قرأه ابن كثير ونافع وأبو عمرو برواية عباس عنه. راجع كتاب السبعة ←

﴿رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ لأنَّ الخَشْيَةَ لا تكُونُ إلَّا بَعْدَ المعرفةِ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَاءُ﴾ (١) أي: العُلَمَاءُ بِهِ. بَدَأَ في مخاطَبَتِهِ بالاستفْهامِ الّذي معناهُ العَرْضُ، كما يقُولُ الرَّجلُ لِضَيفِهِ: هلْ لكَ أن تنْزِلَ بنا، وأَردفَهُ الكَلامَ الرَّقيقَ ليسْتَدْعِيَهُ بالتَّلَطُّفِ ويَسْتَنْزِلَهُ بالمُدَارَاةِ من عُتُوِّهِ، كَمَا أُمِرَ بذلك في قَوْلِهِ: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ (٢).

و ﴿ٱلْآيَةَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ قَلْبُ العَصَا حَيَّةً لأنَّها كانَتِ الأَصْلَ، و «الآيةُ الأُخْرَىٰ» (٣) كالتَّبَعِ لَهَا، أو: أَرادَ العَصَا واليدَ البَيضَاءَ وجَعَلَهُما واحِدَةً، لأنَّ الثَّانيةَ كأنَّها من الأُولَىٰ لكَوْنِها تَابِعَةً لَهَا. ﴿فَكَذَّبَ﴾ بمُوسَىٰ والآيةِ، وسَمَّاهُما: سَاحِراً وسِحْراً ﴿وَعَصَىٰ﴾ ٱللَّهَ. ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ﴾ لمَّا رأَى الثُّعْبَانَ مَرْعُوباً ﴿يَسْعَىٰ﴾ في مشْيَتِهِ، أو: أَدْبَرَ وتَوَلَّىٰ عن موسىٰ يَسْعىٰ ويَجْتَهِدُ في كَيْدِهِ. ﴿فَحَشَرَ﴾ فَجَمَعَ السَّحَرَةَ ﴿فَنَادَىٰ﴾ في المَقَامِ الّذي ٱجتَمَعوا فيهِ مَعَهُ، أو: أَمَرَ مُنَادياً يُنادي في النَّاسِ بذلك.

﴿نَكَالَ ٱلْآخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ﴾ مَصْدَرٌ مُؤَكِّدٌ، كَـ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ (٤)، و ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾ (٥)، كأنَّهُ قَالَ: نَكَّلَ اللهُ بِهِ نَكَالَ الآخِرَةِ والأُولَىٰ، والنَّكَالُ بمعنَى التَّنْكيلِ، كالسَّلامِ والكَلامِ، يَعني: الإغْراقَ في الدُّنيا والإحْراقَ في الآخِرَةِ، وعنِ ٱبنِ عبَّاسٍ: نَكَالَ كَلِمَتَيْهِ: كَلِمَتُهُ الأُولىٰ: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى﴾ (٦)، والأَخِيرةُ: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ (٧)، وكانَ بين الكَلِمَتَيْنِ أَربعُونَ سنَةً، وقيلَ: عشْرُون (٨).

← في القراءات: ص ٦٧١.

(١) فاطر: ٢٨.

(٢) طه: ٤٤.

(٣) أراد قوله تعالى: ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ آيَةً أُخْرَىٰ﴾ طه: ٢٢.

(٤) وردت في مواضع كثيرة من القرآن.

(٥) البقرة: ١٣٨.

(٦) القصص: ٣٨.

(٧) تفسير ابن عباس: ص ٥٠٠.

(٨) حكاه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٦٩٦.

﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا(٢٧) رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا(٢٨) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا(٢٩) وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ(٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا(٣١) وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا(٣٢) مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ(٣٣) فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ(٣٤) يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ(٣٥) وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ(٣٦) فَأَمَّا مَن طَغَىٰ(٣٧) وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا(٣٨) فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ(٣٩) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ(٤٠) فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ(٤١) يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا(٤٢) فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ(٤٣) إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ(٤٤) إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا(٤٥) كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا(٤٦)﴾

الخِطَابُ لِمُنْكِرِي البَعْثِ، أي: ﴿ءَأَنتُمْ﴾ أَيُّها المشْرِكُونَ أَصْعَبُ ﴿خَلْقاً﴾ وإِنْشاءً ﴿أَمِ ٱلسَّمَآءُ﴾؟ ثمَّ بيَّنَ كيفَ خَلَقَ السَّماءَ فَقَالَ: ﴿بَنَىٰهَا﴾، ثمَّ بيَّنَ البِنَاءَ فَقَالَ: ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا﴾ أي: جَعَلَ مِقْدَارَ ذِهَابِها في سَمْتِ العُلُوِّ مَدِيداً رَفِيعاً ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾ فعَدَّلَها مستَويةً بلا شُقُوقٍ ولا فُطُورٍ، أو: فتَمَّمَها بِمَا عَلِمَ أنَّها تَتِمُّ بِهِ وأَصْلَحَها، من قولِكَ: سوَّىٰ فُلانٌ أَمْرَ فُلانٍ. ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا﴾ يقَالُ: أَغْطَشَ اللَّيلُ وأَغْطَشَهُ ٱللهُ. ﴿وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا﴾ أَبْرزَ ضَوْءَ شَمْسِها، يَدُلُّ عليهِ قَوْلُهُ: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا﴾ [1] يُريدُ: وضَوئِها، وأَضَافَ «اللَّيلَ» و «الضُّحىٰ» إلى السَّماءِ لأنَّ منْها منْشَأَ الظَّلَامِ والضِّياءِ بغُرُوبِ الشَّمسِ وطُلُوعِها.

﴿وَٱلْأَرْضَ﴾ منْصُوبٌ بإِضْمَارِ: دَحَا، وهو الإِضْمَارُ قَبْلَ الذِّكْرِ علىٰ شَريطةِ

---

(١) الشمس: ١.

التَّفسيرِ، وكَذَا قَولُهُ: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا﴾ ولَمْ يَدْخُلْ حَرْفُ العَطْفِ علىٰ ﴿أَخْرَجَ﴾ لأنَّه فَسَّرَ الدَّحْوَ الّذي هو التَّمهيدُ للأَرضِ والبَسْطُ للسُّكْنىٰ بما لابُدَّ منْهُ في تَأَتِّي سُكْنَاهَا، من: تَسْويةِ أَمْرِ المأْكَلِ والمشْرَبِ، وإمْكانِ القَرارِ عليها بـإخْرَاجِ المَـاءِ وَالمَرْعَىٰ، وإرْسَاءِ الجِبَالِ أَوتَاداً لَها لِتَسْتَقِرَّ ويُسْتَقَرَّ عليها. وأَرادَ بِـ﴿مَرْعَىٰهَا﴾ ما يأْكلُ الإنسانُ والأَنْعامُ، وٱستُعِيرَ الرَّعيُ للإِنْسانِ كما ٱستُعِيرَ الرَّتْعُ في قَولِهِ: ﴿نَرْتَعْ وَنَلْعَبْ﴾ (١)، وقُرِئَ: «نَرْتَعِ» (٢) من الرَّعْيِ، ولهذا قيلَ: دَلَّ ٱللهُ سبحانَهُ بذِكْرِ الماءِ والمَرْعىٰ علىٰ عامَّةِ ما يُرتَفَقُ بِهِ ويُتَمتَّعُ ممَّا يَخرُجُ من الأَرضِ (٣). ﴿مَتَٰعاً لَّكُمْ﴾ أي: فَعَلَ ذلك تَمْتيعاً لكم ﴿وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ لأنَّ مَنْفَعَةَ ذلك واصِلَةٌ إلى الجَميعِ.

﴿ٱلطَّآمَّةُ﴾: الدَّاهيةُ الّتي تَطُمُّ على الدَّواهِيَ، أي: تَعلُو وتَغْلبُ، وفي المَـثَلِ: «جَرَى الوادِي فَطَمَّ عَلَى القَرِي» (٤)، وهي القيامةُ. ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ﴾ بَدَلٌ من ﴿إِذَا جَآءَتِ﴾، ﴿مَا سَعَىٰ﴾ أي: ما عَمِلَهُ من خَيْرٍ وشرٍّ إذا رَآهُ مدوَّناً في كتابِهِ تَذَكَّـرَهُ وكانَ قَد نَسِيَهُ، كقَولِهِ: ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللهُ وَنَسُوهُ﴾ (٥). ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ﴾ أي: أُظْهِرتْ إظْهَاراً مكْشُوفاً بَيِّناً لكلِّ أَحَدٍ.

فَأَمَّا جَوابُ قَولِهِ: ﴿فَإِذَا﴾ أَي: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ﴾: فـإنَّ الأَمْـرَ كـذلكَ، والمعنىٰ: فإنَّ الجَحيمَ مأْواهُ، كَمَا تَقولُ للرَّجُلِ: غُضَّ الطَّرْفَ أي: طَـرْفَكَ، وليس

---

(١) القراءة بالنون هنا في سورة يوسف: ١٢ إنّما هي قراءة أبـي عـمرو وابـن عـامر. وذكـره المصنّف تبعاً للكشّاف، وإلّا فقراءة حفص عن عاصم وعامة أهل الكوفة بـالياء والجـزم. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٣٤٦.

(٢) أي: بالنون وكسر العين من: ارتعىٰ يرتعي بمعنىٰ: رعىٰ، نفتعل من الرَّعْـيِ. وهـي قـراءة ابن كثير. راجع المصدر السابق: ص ٣٤٥.

(٣) قاله القتبي. راجع تفسير السمرقندي: ج ٤ ص ٤٤٥.

(٤) أي: جرىٰ سيل الوادي فدفنَ القَرِيَّ، والقَرِيُّ: مجرى الماء في الروضة، والجـمع: أقـرية وقريان، يضرب عند تجاوز الشرّ حدّه. انظر مجمع الأمثال للميداني: ج ١ ص ١٦٦.

(٥) المجادلة: ٦.

الألفُ واللّامُ بَدَلاً من الإضافةِ كَما قالَ بَعْضُهم [١]، ولكنْ لَمّا عُلِمَ أنَّ الطّاغِيَ هو صاحِبُ ﴿الْمَأْوَىٰ﴾ تُرِكَتِ الإضافةُ، ودخُولُ حَرْفِ التَّعريفِ في ﴿الْمَأْوَىٰ﴾ لأنَّه مَعْروفٌ. وَ ﴿هِيَ﴾ فَصْلٌ أو مبتَدأٌ. ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ﴾ الأمّارَةَ بالسُّوءِ ﴿عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ الْمُرْدِي، وهو ٱتِّباعُ الشَّهَواتِ وضَبْطُها بالصَّبْرِ.

﴿أَيَّانَ مُرْسَـٰهَا﴾ متىٰ إرْساؤُها أي: إقامتُها، والمُرادُ: متىٰ يُقيمُها ٱللهُ ويُكَوِّنُها ويُثَبِّتُها. ﴿فِيمَ أَنْتَ﴾ في أيِّ شَيْءٍ أَنْتَ من أن تَذْكُرَ وقْتَها لَهُم؟ والمُرادُ: ما أَنْتَ مِنْ ذِكْرِهَا لَهُم وتَبيُّنِ وَقْتِها في شيءٍ. ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ مُنْتَهىٰ عِلْمِها، لَمْ يُؤْتِ عِلْمَها أَحَداً من خَلْقِهِ، وقيلَ: ﴿فِيمَ﴾ إنْكارٌ لِسُؤالِهِم، أي: فِيمَ هذا السُّؤال [٢]، ثمَّ قيلَ: أَنْتَ ﴿مِنْ ذِكْرَىٰهَآ﴾ أي: إرْسالُكَ ـ وأَنْتَ خاتَمُ الأَنْبياءِ المَبْعُوثُ إلىٰ قِيامِ السّاعةِ ـ ذِكْرٌ مِنْ ذِكْراها وعَلاماتِها، فَكَفاكُم بذلك دَليلاً عَلَى ٱقتِرابِها وَوجُوب الاستِعْدادِ لها، ولا معنىٰ لسُؤالِهم عنها.

وقُرِئَ: ﴿مُنْذِرُ﴾ مُنوَّناً [٣] وبالإضافَةِ، وكِلاهُما يَصْلُحُ للحالِ والاستِقْبالِ، وإذا أُريدَ الماضِي فليس إلّا الإضافَة. والمعنىٰ: أنَّك لَمْ تُبْعَثْ لِتُعْلِمَهُمْ بوَقْتِ السّاعةِ، وإنَّما بُعِثْتَ لِتُنْذِرَ من أَهْوالِها مَنْ يكُونُ إنْذارُكَ لُطْفاً لهم في الخَشْيَةِ منْها.

﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ﴾ في الدُّنيا، أو: في القُبُورِ ﴿إِلَّا عَشِيَّةً أَو ضُحَىٰهَا﴾ أَضافَ «الضُّحىٰ» إلىٰ «العَشِيَّةِ» لاجتِماعِهِما في نَهارٍ واحِدٍ، ومِثْلُهُ: ﴿كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ ٱلنَّهَارِ﴾ [٤]، والمعنىٰ: إلّا قَدرَ آخِرِ نَهارٍ أَو أَوَّلِه.

۞ ۞ ۞

---

(١) وهو مذهب الكوفيّين. راجع إعراب القرآن للنحّاس: ج ٤ ص ٤٧.

(٢) وهو قول ابن عباس. راجع تفسير الماوردي: ج ٦ ص ٢٠٠.

(٣) قرأه أبو عمرو برواية عباس عنه. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٦٧١.

(٤) يونس: ٤٥.

سُورَةُ عَبَسَ

مكّيّةٌ[1] وهيَ اثنتانِ وأَربعُونَ آيةً كُوفِيٌّ، وآيةٌ بَصريٌّ عَدَّ الكُوفيُّ ﴿وَلِأَنْعَـٰمِكُم﴾[2].

وفي حَديثِ أُبيٍّ: «وَمَنْ قَرَأَ سُورةَ عَبَسَ جَاءَ يَوْمَ القيامةِ ووَجْهُهُ ضَاحِكٌ مسْتَبْشِرٌ»[3].

وعنِ الصَّادقِ عليه السلام: «مَنْ قَرَأَ سُورةَ عَبَسَ و ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ كانَ في ظِلِّ ٱللهِ وكَرامَتِهِ في جِنَانِهِ»[4].

بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ(١) أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ(٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰٓ(٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ(٤) أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ(٥) فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ(٦)

---

(١) قال الشيخ الطوسي في التبيان: ج ١٠ ص ٢٦٧: مكّية في قول ابن عباس والضحاك، وهي اثنتان وأربعون آيةً في الكوفي والمدنيّين، وإحدىٰ وأربعون في البصري.

وفي الكشّاف: ج ٤ ص ٧٠٠: مكّية، وآياتها (٤٢) وقيل: (٤١) نزلت بعد النجم.

(٢) الآية: ٣٢.

(٣) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٧٠٦ مرسلًا.

(٤) ثواب الأعمال للصدوق: ص ١٤٩ وفيه بلفظ: «كان تحت جناح الله من الخيانة، وفي ظلّ الله وكرامته، وفي جنانه، ولا يعظم ذلك على ربّه إن شاء الله».

وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ(٧) وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ(٨) وَهُوَ يَخْشَىٰ(٩) فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ(١٠) كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ(١١) فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ(١٢) فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ(١٣) مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ(١٤) بِأَيْدِى سَفَرَةٍ(١٥) كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ(١٦) قُتِلَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ(١٧) مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ(١٨) مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ(١٩) ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ(٢٠) ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ(٢١) ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ(٢٢) كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ(٢٣)﴾

أَتَىٰ رَسُولَ ٱللهِ صلى الله عليه وآله وسلم عبدُ ٱللهِ بنُ شُرَيْحِ بنِ مَالكٍ الفِهْرِيّ، وهو ٱبنُ أُمِّ مكْتُومٍ، وعِنْدَهُ صَنادِيدُ قُرَيْشٍ: أبوجَهْلِ بنُ هشام، وعُتْبَةُ بنُ رَبيعة، وأَخُوهُ شَيْبَة، والعبَّاسُ بنُ عَبْدِ المطَّلبِ، وأُبَيٌّ وأُميَّةُ ابْنَا خَلَفٍ، يَدعُوهُم إلى الإِسلامِ رَجاءَ أَن يُسْلِمَ بإِسْلامِهِم غَيْرُهُم، فَقَالَ: يا رَسُولَ ٱللهِ، أَقْرِئْني وعَلِّمْني ممَّا عَلَّمَكَ الله، وكَرَّرَ ذلك وهو لا يَعْلَمُ تَشاغُلَهُ بالقَوْمِ، فَكَرِهَ رَسُولُ ٱللهِ صلى الله عليه وآله وسلم قَطْعَهُ لكَلامِهِ، وعَبَسَ، وأَقْبَلَ على القَوْمِ يُكلِّمُهُم [1]، فَنَزَلَت، فكَانَ رَسُولُ ٱللهِ صلى الله عليه وآله وسلم يُكْرِمُهُ ويقُولُ إذا رآهُ «مَرْحَباً بِمَنْ عاتَبَني فيهِ رَبِّي» وٱستَخْلَفَهُ على المدينةِ مرَّتين [2] [3].

(١) قال الشيخ الطوسي تعليقاً على هذه الرواية: وهذا فاسد لأنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد أجلّ الله قدره عن هذه الصفات، وكيف يصفه بالعبُوس والتقْطيب وقد وصفه بأنّه على خُلقٍ عظيم؟!

وقال الشريف المرتضىٰ في جوابه على هذه الآية: أمّا ظاهر الآية فغيرُ دالٍّ على توجّهها الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، ولا فيها ما يدلّ على أنّه خطاب له صلى الله عليه وآله وسلم بل هي خبر محض لم يصرّح بالمخبر عنه، وفيها ما يدلّ عند التأمّل على أنّ المعنيَّ بها غير النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، لأنّه وصفه بالعَبُوس وليس هذا من صفات النبي صلى الله عليه وآله وسلم في قرآنٍ ولا خبرٍ مع الأعداء المنابذين فضلاً عن المؤمنين المسترشدين. انظر التبيان: ج ١٠ ص ٢٦٨، وتنزيه الأنبياء للشريف المرتضىٰ علم الهدىٰ: ص ١١٨ ـ ١١٩.

(٢) أُنظر أسباب النزول للواحدي: ص ٣٨٥ ح ٩٠٣.

(٣) في المجمع بعد نقله هذه الرواية وجواب علم الهدىٰ قال: وقد روي عن الصادق عليه السلام أنّها نزلت في رجلٍ من بني أُمية كان عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم فجاء ابن أم مكتوم، فلمّا رآه تقذّر منه ←

﴿أَنْ جَآءَهُ﴾ منصُوبٌ بـ﴿تَوَلَّىٰٓ﴾ و ﴿عَبَسَ﴾ على اختلافِ المَذْهَبَيْنِ، ومعناهُ: عَبَسَ لأَنْ جاءَهُ الأَعمىٰ وأَعْرَضَ لذلك، ورُوِيَ أنَّه عليه السلام ما عَبَسَ بَعْدَها في وَجْهِ فَقيرٍ قَطّ، ولا تَصَدَّىٰ لِغَنِيٍّ[1] ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ أي: وأيُّ شَيءٍ يَجْعَلكَ دارياً بحالِ هذا الأَعمىٰ ﴿لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰٓ﴾ أي: يَتَطَهَّرُ بِمَا يَتَلَقَّنُ من الشَّرائعِ وَيَتَعَلَّمُ. ﴿أَوْ يَذَّكَّرُ﴾ أَو يَتَّعظ ﴿فَتَنْفَعَهُ﴾ ذِكْراكَ أي: مَوْعِظَتُكَ، وقيلَ: إنَّ الضَّميرَ في ﴿لَعَلَّهُ﴾ للكافِرِ[2]. والمعنىٰ: إنَّكَ طَمَعْتَ في أَن يَتَزَكَّىٰ بالإِسلام أَو يَتَذَكَّرَ ويَقْبَلَ الحقَّ، وما يُدْريكَ أَنَّ ما طَمَعْتَ فيهِ كائِنٌ؟ وقُرِئَ: ﴿فَتَنْفَعهُ﴾ بالرَّفعِ[3] عَطْفاً علىٰ ﴿يَذَّكَّرُ﴾، وبالنَّصْبِ جَواباً لـ«لَعَلَّ».

﴿فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّىٰ﴾ تَتَصَدَّىٰ أي: تَتَعَرَّضُ بالإِقْبالِ عليهِ، وقُرِئَ: «تَصَّدَّىٰ» بإدْغَامِ التَّاءِ في الصَّادِ[4]، وقَرَأَ الباقِرُ عليه السلام: «تُصَدَّىٰ» وَ «تُلَهَّىٰ» بضمِّ التَّاءِ فيهما[5]، والمعنىٰ: يَدْعُوكَ داعٍ إلى التَّصَدِّي له من الحِرْصِ علىٰ إسْلامِهِ، ويُلْهِيكَ شَأْنُ الصَّنادِيدِ عنْهُ. ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾ وليس عليك بأْسٌ، أو: أَيُّ شيءٍ عليكَ في أَن لا يَتَزَكّىٰ بالإِسْلامِ، ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ﴾[6].

﴿وَأَمَّا مَنْ جَآءَكَ يَسْعَىٰ﴾ في طَلَبِ الخَيْرِ ﴿وَهُوَ يَخْشَىٰ﴾ ٱللهَ، أو: يَخْشَى الكُفَّارَ. وإذَا هَمَّ في إتْيانِكَ ﴿فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾ تَتَشَاغَلُ، من: لَهَىٰ عنْهُ وتَلَهَّىٰ.

وجمع نفسه وعبس وأعرض بوجهه عنه، فحكى الله سبحانه ذلك وأنكره عليه.

(١) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٧٠١ مرسلًا.

(٢) قاله ابن اسحاق. راجع تفسير الثعالبي: ج ٣ ص ٤٤٢.

(٣) هي قراءة الجمهور إلّا عاصماً وحده. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٦٧٢.

(٤) قرأه ابن كثير ونافع. راجع المصدر السابق.

(٥) أُنظر شواذ القرآن لابن خالويه: ص ١٦٩.

(٦) الشورىٰ: ٤٨.

﴿كَلَّآ﴾ رَدْعٌ عن مُعَاوَدَةِ مثْلِهِ ﴿إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ أي: موعِظَةٌ يَـجِبُ الاتِّـعَاظُ بـها. ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ أي: كانَ حَافِظاً له غَيْرَ نَاسٍ، وذَكَّرَ الضَّميرَ لأنَّ «التَّـذْكِـرَةَ» في معنىٰ «الذِّكْرِ».

﴿فِى صُحُفٍ﴾ صِفَةٌ لـ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ يعني: أنَّها مُثْبَتَةٌ في صُحُفٍ مُـنْتَسِخَة مـن اللَّوحِ ﴿مُّكَرَّمَةٍ﴾ عِنْدَ ٱللهِ. ﴿مَّرْفُوعَةٍ﴾ في السَّماءِ، أو: مرفُوعَةِ المِقْدَارِ ﴿مُّطَهَّرَةٍ﴾ مُنَزَّهَةٍ عن الشَّياطينِ، لا يَمَسُّها إلَّا ﴿أَيْدِى﴾ مـلائكةٍ مُـطَهَّرِينَ ﴿سَفَرَةٍ﴾ كَـتَبَةٍ يَنْتَسِخُونَ الكُتُبَ من اللَّوحِ. ﴿كِرَامٍ﴾ علىٰ ربِّهم ﴿بَرَرَةٍ﴾ أَتْقيَاء، وقيلَ: هي صُحُفُ الأَنبياءِ[1]، كقَولِهِ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾[2].

﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَـٰنُ﴾ دُعَاءٌ عليه ﴿مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ تَعَجُّبٌ من إفْراطِهِ في كُفْرانِ نِعَمِ ٱللهِ عزَّ ٱسمُهُ. ثمَّ وَصَفَ حالَهُ مُنْذُ[3] مبدأ حُدُوثِهِ إلىٰ منْتَهاهُ، وما هو مغْمُورٌ فيه من أُصُولِ النِّعَمِ وفُروعِها الدَّاعيةِ إلى الإِيْمانِ والتَّوحيدِ، المُوجِبَةِ للشُّكْـرِ والعِـبَادَةِ، فَقَالَ: ﴿مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ أي: من أيِّ شيءٍ حَقيرٍ مَهينٍ أَنْشَأَهُ وابتَدأَهُ؟ ثمَّ بيَّنَ ذلك الشَّيء فَقَالَ: ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ﴾ فَهيَّأَهُ لِمَا يَصْلحُ له ويختَصُّ بهِ حالاً بعد حَالٍ، وطَوْراً بعد طَوْرٍ: نُطْفَةً ثمَّ عَلَقَةً إلىٰ آخرِ خَلْقِهِ. ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ﴾: نُصِبَ ﴿ٱلسَّبِيلَ﴾ بمُضْمَرٍ يُفَسِّرُهُ: ﴿يَسَّرَهُۥ﴾ ومعنَاهُ: ثمَّ سَهَّلَ سبيلَهُ وهو مُخْرِجُهُ من بَطْنِ أُمِّهِ، أو: السَّبيل الَّذي يختَارُ سُلُوكَهُ من طَرِيقَي الخَيْرِ والشَّـرِّ بـإِقْدَارهِ وتَـمْكينِهِ، ونَحْوُهُ: ﴿وَهَدَيْنَـٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾[4]، وعنِ ٱبنِ عبَّاسٍ: بَيَّنَ لهُ سبيلَ الخَيْرِ والشَّرِّ[5]. ﴿فَأَقْبَرَهُۥ﴾ فَجَعَلَهُ ذَا قَبْرٍ يُوارَىٰ فيهِ تَكْرِمَةً لهُ، ولَمْ يَجْعَلْهُ مطْروحاً بالعَرَاءِ جَـزَراً

---

(١) قاله قتادة. راجع تفسير عبدالرّزاق: ج ٢ ص ٢١٦.

(٢) الأعلىٰ: ١٨.

(٣) في بعض النسخ: «من» بدل «منذ».

(٤) البلد: ١٠.

(٥) تفسير ابن عباس: ص ٥٠٢.

للسِّباعِ والطَّيْرِ. ﴿أَنشَرَهُ﴾ أَنْشَأَهُ النَّشأَةَ الأُخرىٰ.

﴿كَلَّا﴾ رَدْعٌ للإِنْسانِ عمَّا هو عليهِ ﴿لَمَّا يَقْضِ﴾ بَعْدَ تَطَاولِ الدُّهُورِ من لَدُنْ آدمَ إلىٰ هذهِ الغَايَةِ ﴿مَآ أَمَرَهُۥ﴾ اللهُ تعالىٰ حتَّىٰ يَخْرُجَ عن جميعِ أَوَامِرِهِ ويؤَدِّي حقَّ نِعَمِهِ عليهِ مع كَثْرَتِها، ولمَّا يَعْبُدْهُ حقَّ عبادَتِه.

﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ(٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا(٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا(٢٦) فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا(٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا(٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا(٢٩) وَحَدَآئِقَ غُلْبًا(٣٠) وَفَـٰكِهَةً وَأَبًّا(٣١) مَّتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَـٰمِكُمْ(٣٢) فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ(٣٣) يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ(٣٤) وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ(٣٥) وَصَـٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ(٣٦) لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ(٣٧) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ(٣٨) ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ(٣٩) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ(٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ(٤١) أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ(٤٢)﴾

لمَّا عدَّدَ سبحانَهُ النِّعَمَ في نَفْسِهِ أَتْبَعَهَا بِذِكْرِ النِّعَمِ فيما يحتَاجُ إليهِ فقَالَ: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾ الّذي يَتَقَوَّتُهُ كيفَ هيَّأناهُ لِرِزْقِهِ ﴿أَنَّا صَبَبْنَا﴾ قُرِئَ بالكَسْرِ [١] على الاستِئْنافِ، وبالفَتْحِ على البَدَلِ من «الطَّعامِ»، ويَعْني بالماءِ: الغَيْثَ ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ﴾ بالنَّباتِ. وأَرادَ بِالْحَبِّ: جِنْسَ الحُبُوبِ الّتي يُتَغذَّىٰ بها. وَخَصَّ «الْعِنَبَ» لِكَثْرَةِ مَنَافِعِهِ، و «الْقَضْبَ»: الرَّطْبَةُ تُقْتَضَبُ مرَّةً بَعْدَ أُخرىٰ لِعَلْفِ الدَّوَابِّ. ﴿وَحَدَآئِقَ غُلْبًا﴾ مُلْتَفَّةَ الشَّجَرِ، وأَصْلُها: الغُلْبُ الرِّقَابِ لِغِلَاظِهَا، فاسْتُعِيرَ. والأَبُّ: المَرعىٰ لأنّه يُؤَبُّ أي: يُؤَمُّ ويُنْتَجَعُ، وَالأَبُّ والأَمُّ أَخَوانِ، قَالَ:

جِذْمُنا قَيْسٌ وَنَجدٌ دارُنَا ‏ ‏ ‏ ولَنَا الأَبُّ بِهِ والْمَكْرَعُ [٢]

---

(١) قرأه ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٦٧٢.

(٢) لم نعثر على قائله، وفيه يفخر الشاعر بأصله وقومه. والجِذْمُ: الأصل، والمكرعُ: الماءُ ←

﴿مَتَٰعاً لَكُمْ﴾ أي: تَمتيعاً. و ﴿ٱلصَّآخَّةُ﴾: صَيْحَةُ القيامَةِ لأنَّها تَصُخُّ الآذانَ، تُبالِغُ في سمَاعِها حتَّىٰ تَكَادَ تُصِمُّها. ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ﴾ أَقْرَبِ الْخَلْقِ إليهِ، لاشتِغَالِهِ بما هو مدْفُوعٌ إليهِ، أو: للحَذَرِ من مطَالَبتِهِم بالتَّبِعَاتِ، يقُولُ الأَخُ: لَمْ تُواسِني بِمَالِكَ، والأَبوَانِ: قَصَّرْتَ في بِرِّنا، والصَّاحِبَةُ: أَطْعَمْتَني الحَرامَ وفَعَلْتَ وصَنَعْتَ، والْبَنُونَ: لَمْ تُرْشِدْنا ولَمْ تُعَلِّمْنا. ﴿يُغْنِيهِ﴾ يَكْفِيهِ في الاهتمام بِهِ. ﴿وُجُوهٌ... مُسْفِرَةٌ﴾ مُضِيئَةٌ مُتَهَلِّلَةٌ، مِن: أَسْفَرَ الصُّبْحُ: إذا أضَاءَ، وعنِ ابنِ عبَّاسٍ: مِن قِيامِ اللَّيل [١].

وفي الحَديثِ: «مَن كَثُرَ صَلَاتُهُ باللَّيلِ حَسُنَ وَجْهُهُ بالنَّهار» [٢].

والْغَبَرَةُ: الْغُبَارُ. ﴿تَرْهَقُهَا﴾ أي: تَعْلُوها ﴿قَتَرَةٌ﴾ وهي السَّوَادُ كالدُّخَان.

✿ ✿ ✿

← الصالح للشرب. أُنظر لسان العرب: مادة «أبب». وفيه ما يجدر إيراده، قال: وفي حديث أنس: أنَّ عمر بن الخطّاب قرأ قوله: ﴿وفاكِهَةً وأبَّاً﴾ وقال: فما الأبُّ؟ ثمّ قال: ما كلِّفنا وما أُمِرنا بهذا !!

(١) تفسير ابن عباس: ص ٥٠٢.

(٢) أخرجه ابن ماجة في السنن: ج ١ ص ٤٢٢ ح ١٣٣٣ عن جابر.

سُورَةُ التّكوِير[1]

مكّيّةٌ[2] وهيَ تسع وعشرون آيةً.

في حديث أُبيّ: «من قرأ إذا الشمس كُوِّرت أعاذه الله أن يفضحه حين تُنشر صحيفته»[3] [4].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ(١) وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ(٢) وَإِذَا ٱلْجِبَالُ
سُيِّرَتْ(٣) وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ(٤) وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ(٥) وَإِذَا ٱلْبِحَارُ
سُجِّرَتْ(٦) وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ(٧) وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ(٨) بِأَيِّ ذَنبٍ
قُتِلَتْ(٩) وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ(١٠) وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ(١١) وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ
سُعِّرَتْ(١٢) وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ(١٣) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ(١٤)﴾

---

(١) في نسخة: «سورة كوِّرت» واخرىٰ: «إذا الشمس كوِّرت».

(٢) قال الشيخ الطوسي في التبيان: ج ١٠ ص ٢٧٩: مكّية في قول ابن عباس والضحاك، وهي تسع وعشرون آيةً بلاخلاف.

وفي الكشّاف: ج ٤ ص ٧٠٦: مكّية، وآياتها (٢٩) نزلت بعد المسدّ.

(٣) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٧١٤ مرسلًا.

(٤) وقد تقدّم حديث الصادق عليه‌السلام عن فضلها عند الحديث عن فضل سورة عبس.

﴿الشَّمْسُ﴾ مرفوعٌ بالفاعليَّةِ، رافِعُها فِعْلٌ مضمَرٌ يُفسِّرُهُ: ﴿كُوِّرَتْ﴾، لأنَّ ﴿إذَا﴾ يَطْلُبُ الفِعْلَ لِتَضمُّنِهِ معنَى الشَّرْطِ، وكَذَا الجَميعُ. وعنِ ٱبنِ عبَّاسٍ: ﴿كُوِّرَتْ﴾: ذَهَبَ نُورُها وضوؤُها[١]. وفيهِ وَجْهَانِ: أن يكُونَ من تَكْويرِ العِمَامَةِ وهو لَفُّها، أي: يُلَفُّ ضَوؤُها فَيَذْهَبُ ٱنتشَارُهُ وٱنبسَاطُهُ في الآفَاقِ، وهي عبَارةٌ عن إزَالتِهَا والذَّهَابِ بهَا، أو: يكُونَ لَفُّها عبَارةً عن رَفْعِها وَسترِها لأنَّ الثَّوبَ إذا أُريدَ رَفْعُهُ لُفَّ وَطُوِيَ، وأَن يكُونَ مِنْ: طَعَنَهُ فكَوَّرَهُ: إذا أَلْقَاهُ، أي: تُلْقَىٰ وتُطرَحُ عن فَلَكِهَا، كَمَا وَصَفَ النُّجُومَ بِالانْكِدَارِ وهو الانْقِضَاضُ، وعنْ مُجَاهِدٍ: ﴿انْكَدَرَتْ﴾ تَنَاثَرَتْ وتَسَاقَطَت[٢]. ﴿سُيِّرَتْ﴾ عن وَجْهِ الأرضِ وأُبعِدَتْ، أو: سُيِّرتْ في الجوِّ تَسْيِيرَ السَّحَابِ. كقَولِهِ: ﴿وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾[٣].

و ﴿ٱلْعِشَارُ﴾ جَمْعُ «الْعُشَرَاءَ» كالنِّفَاسِ في جَمْعِ «النُّفَسَاءِ»، وهي الّتي أتىٰ علىٰ حَمْلِها عَشَرَةُ أَشْهُرٍ فصَاعِداً، وهي أَنْفَسُ ما تكونُ عندَ أهلِها ﴿عُطِّلَتْ﴾ تُرِكَت مُسَيَّبَةً مُهْمَلَةً لاشتِغَالِ أَهلِها بنفُوسِهِم. ﴿حُشِرَتْ﴾ جُمِعَتْ حتَّىٰ يُتَقَصَّ لبعْضِها من بَعْضٍ، ويُوصَلَ إليها ما ٱستَحَقَّتْهُ من الأَعْواضِ على الآلام الّتي نَالَتْها في الدُّنيا. وعن ٱبنِ عبَّاسٍ: حَشْرُهَا: موتُها[٤]. ﴿سُجِّرَتْ﴾ قُرِئَ بالتَّشديدِ والتَّخفيفِ[٥] من: سَجَّرَ التَّنُّورَ: إذا مَلأَها بالحطَبِ، أي: مُلِئَتْ وفُجِّرَ بَعْضُها إلىٰ بَعْضٍ حتَّىٰ يَصيرَ بَحْراً واحِداً، وقيلَ: أُوقِدَتْ فصَارَتْ ناراً تَضْطَرِمُ[٦]. ﴿زُوِّجَتْ﴾ قُرِنَتْ كلُّ نَفْسٍ

---

(١) تفسير ابن عباس: ص ٥٠٢.

(٢) رواه عنه الطبري في تفسيره: ج ١٢ ص ٤٥٨.

(٣) النمل: ٨٨.

(٤) تفسير ابن عباس: ص ٥٠٢.

(٥) قرأه ابن كثير وأبو عمرو. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٦٧٣.

(٦) قاله أُبيّ بن كعب وابن عباس وابن زيد وشمر بن عطيّة وسفيان، ورووه عن عليٍّ عليه السلام. راجع تفسير الطبري: ج ١٢ ص ٤٦٠.

بِشِكْلِها، وقيلَ: قُرِنَتْ الأَرْواحُ بالأَجْسادِ[١]، وقيلَ: قُرِنَتْ نُفُوسِ الصَّالِحينَ بالحُورِ العِينِ ونُفُوسِ الكافرينَ بالشَّياطينِ[٢].

وَأَدَ يَئِدُ مقْلُوبٌ مِنْ: آدَ يَؤُودُ: إذا ثَقُلَ لأنَّه إثْقَالٌ بالتُّرابِ. والمعنىٰ في سُؤَالِ ﴿ٱلْمَوْءُودَةُ﴾ عن ذَنْبِهَا الّذي قُتِلَتْ بِهِ: التَّبْكيتُ والتَّوبيخُ لِقَاتِلِها، ويَجْري مَجْرىٰ قَولِهِ سبحانَهُ لِعيسىٰ: ﴿ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ﴾[٣]. وعن عليٍّ عليه السلام أنَّهُ قَرَأَ: «سَأَلَت بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ» وهي قِراءَةُ ٱبنِ عبَّاسٍ ومُجَاهِد[٤]، أي: خَاصَمَتْ عن نَفْسِها وسَأَلَتِ ٱللّهَ، أو: قَاتِلَهَا.

وعنِ الباقرِ والصَّادقِ عليهما السلام: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ﴾ والمُرادُ بِهِ: الرَّحِمُ والقَرابَةُ، وأنَّه يُسْأَلُ قَاطِعُهَا عن سَبَبِ قَطْعِها[٥]. وقَالَا: هو مَنْ قُتِلَ في مَوَدَّتِنا وَولايَتِنا[٦]. وعلىٰ هذا فَيكُونُ من بابِ حَذْفِ المضَافِ.

وقُرِئَ: «قُتِّلت» بالتَّشديدِ[٧]. وفي الآيةِ دَليلٌ علىٰ أنَّ أَطْفالَ المشركينَ لا يُعَذَّبونَ بذُنُوبِ آبائِهِم، وأنَّ التَّعذيبَ لا يكُونُ إلّا بالذَّنْبِ، وإذَا بَكَّتَ ٱللّهُ الكافِرَ ببَرَاءَةِ الموءودَةِ من الذَّنْبِ فَمَا أَقْبَح بأَن يكرَّ عليها بعدَ هذا التَّبكيتِ فَيُعَذِّبَها، وعنِ ٱبنِ عبَّاسٍ: أنَّه سُئِلَ عن ذلكَ فاحتَجَّ بهذهِ الآية[٨].

﴿نُشِرَتْ﴾ قُرِئَ بالتَّخفيفِ والتَّشديدِ[٩]، والمُرادُ: صُحُفُ الأعمالِ، تُطْوىٰ

---

(١) قاله عكرمة والشعبي. راجع المصدر السابق: ص ٤٦٣.

(٢) قاله ابن عباس في تفسيره: ص ٥٠٢. (٣) المائدة: ١١٦.

(٤) أنظر شواذ القرآن لابن خالويه: ص ١٦٩.

(٥) تفسير فرات الكوفي: ص ٢٠٤.

(٦) تفسير علي بن ابراهيم القمي: ج ٢ ص ٤٠٧، و تفسير فرات: ص ٢٠٣.

(٧) قرأه أبو جعفر المدني. راجع التبيان: ج ١٠ ص ٢٨٠.

(٨) حكاه النحّاس في إعراب القرآن: ج ٥ ص ١٥٨.

(٩) وبالتشديد قرأه ابن كثير وابو عمرو وحمزة والكسائي. راجع كتاب السبعة في القراءات: ←

صَحيفةُ الإنسانِ عنْدَ موتِهِ، ثمَّ تُنْشَرُ إذا حُوسِبَ.

وعن النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أنَّه قالَ: يُحشَرُ النَّاسُ حُفَاةً عُرَاةً، فقالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: كيفَ بالنِّساءِ؟ فقالَ: شُغِلَ النَّاسُ يا أُمَّ سَلَمَة، فقالَتْ: وما شَغَلَهُمْ؟ قالَ: نَشْرُ الصُّحُفِ وفيها مثَاقِيلُ الذَّرِّ ومثَاقِيلُ الخرْدَل[١].

ويجُوزُ أَن يُرادَ: نُشِرَتْ بين أَصْحَابِها، أي: فُرِّقَتْ بينَهُم. ﴿كُشِطَتْ﴾ كُشِفَتْ وأُزيلَتْ كَمَا يُكْشَطُ الإهَابُ عن الذَّبيحَةِ، والغِطَاءُ عن الشَّيْءِ. ﴿سُعِّرَتْ﴾ قُرِئَ بالتَّخفيفِ[٢] والتَّشديدِ: أُوْقِدَتْ إيْقَاداً شَديداً، قيلَ: سَعَّرَها غَضَبُ ٱللهِ وخَطَايا بني آدم[٣]. ﴿أُزْلِفَتْ﴾ أَي: قُرِّبَتْ من أَهْلِها بما فيها من النَّعيمِ. ﴿عَلِمتْ﴾ هو عَامِلُ النَّصْبِ في: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ وفيما عُطِفَ عليهِ.

وعنِ ٱبنِ مَسْعُودٍ: أَنَّ قَارِئاً قَرأَها عِنْدَهُ، فَلَمَّا بَلَغَ: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾ قَالَ: وانْقِطَاعَ ظَهْرِيَاه![٤]

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ (١٥) ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ (١٦) وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ (١٧) وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ (١٨) إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (١٩) ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠) مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ (٢١) وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ (٢٢) وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ (٢٣) وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ (٢٤) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ (٢٥) فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ (٢٦) إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ (٢٧) لِمَن شَآءَ

ص ٦٧٣.

(١) أخرجه السيوطي في الدّر: ج ٨ ص ٤٢٣ وعزاه الى الطبراني في الأوسط.

(٢) قرأه ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي وعاصم برواية أبي بكر عنه. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٦٧٣.

(٣) قاله قتادة. راجع تفسير الطبري: ج ١٢ ص ٤٦٦.

(٤) حكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٧١٠.

مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ(٢٨) وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ(٢٩)﴾

﴿ٱلْخُنَّسِ﴾ النُّجومُ الخَمْسَةُ الرَّواجِعُ[١]، بينا تُرَى الكَواكِبُ في آخرِ البُرْجِ إذا كَرَّ راجِعاً إلىٰ أوَّلِهِ. و «الْجَوَارِي»: السيَّارَةُ، و ﴿ٱلْكُنَّسِ﴾: الْغُيَّبُ، مِن: كَنَسَ الوحشيُّ: إذَا دَخَلَ كِنَاسَهُ، فَخُنُوسُها: رُجُوعُها، وكُنُوسُها: اختِفاؤُها تَحْتَ ضَوْءِ الشَّمْسِ. وقيلَ: هي جميعُ الكَواكبِ تَخْنِسُ بالنَّهار فَتَغيبُ عن العُيُونِ، وتَكْنِسُ باللَّيلِ أي: تَطْلَعُ في أَمَاكِنها كالوَحْشِ في كُنُسِها[٢]. ﴿عَسْعَسَ﴾ اللَّيلُ وسَعْسَعَ: إذا أَدْبَرَ، وقيلَ: عَسْعَسَ: إذَا أَقْبَلَ ظَلَامُهُ[٣]. و ﴿تَنَفَّسَ﴾ ٱمتَدَّ ضَوْؤُهُ، والمعنىٰ فيهِ: أنَّ الصُّبْحَ إذا أَقْبَلَ، أَقْبَلَ النَّسيمُ بإقْبالِهِ، فَجَعَلَ ذلك كالنَّفَسِ لَهُ.

﴿إِنَّهُۥ﴾ الضَّميرُ للقُرآنِ ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ علىٰ ربِّهِ، وهو جبرائيلُ عليه‌السلام. ﴿ذِى قُوَّةٍ﴾ هو كقَولِهِ: ﴿شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ذُو مِرَّةٍ﴾[٤]، ﴿عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ متَمَكِّنٍ عنْدَ صاحبِ العَرْشِ وهو ٱللهُ جَلَّ جَلالُهُ. ﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ﴾ أي: في السَّماءِ، يُطيعُهُ ملائكةُ السَّماءِ، يَصْدرونَ عن أمرِهِ ﴿أَمِينٍ﴾ علىٰ وَحْيِ ٱللهِ إلى أَنبيائِهِ. ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ وهو مَعْطُوفٌ علىٰ جَوابِ القَسَمِ. ﴿وَلَقَدْ﴾ رَأَىٰ رَسُولُ ٱللهِ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم جبرائيلَ علىٰ صُورتِهِ الّتي خَلَقَهُ ٱللهُ تعالىٰ عليها ﴿بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾ بِمَطْلَعِ الشَّمْسِ الأعلىٰ.

﴿وَمَا﴾ محمَّدٌ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ﴿عَلَى﴾ ما يُخبِرُ بهِ من ﴿ٱلْغَيْبِ﴾ والوَحْيِ «بِظَنِينٍ»[٥]

---

(١) في الصحاح: هي: زحل والمشتري والمرِّيخ والزُهَرة وعَطارد.

(٢) قاله الحسن وبكر بن عبدالله ومجاهد وقتادة وابن زيد، ورووه عن علي عليه‌السلام. راجع تفسير الطبري: ج ١٢ ص ٤٦٧.

(٣) قاله الحسن وعطية. راجع المصدر السابق: ص ٤٧٠.

(٤) النجم: ٥ و ٦.

(٥) الظاهر أنّ المصنّف رحمه‌الله قد اعتمد هنا ـ تبعاً للكشّاف ـ على القراءة بالظّاء، وهي قراءة ابن كثير وأبي عمرو والكسائي، والباقون بالضاد. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٦٧٣.

بِمُتَّهَمٍ، فإنَّ أَحْوالَهُ ناطِقةٌ بالصِّدْقِ والأَمانَةِ، وهو من: الظِّنَّةِ وهي التُّهْمَةُ، وقُرِئَ: ﴿بِضَنِينٍ﴾ بالضَّادِ، من: الضَّنِّ وهو البُخْلُ، أي: لا يَبْخلُ بالوَحْيِ بأَن يُسْأَلَ تَعْليمهُ فَلَا يُعَلِّمُهُ، أو: يَزْوي بعضَهُ فلا يُبَلِّغُهُ. والفَرقُ بين الضَّادِ والظَّاءِ: أَنَّ مَخْرَجَ الضَّادِ من أَصْلِ حافَّةِ اللِّسانِ وما يَليها من الأَضْراسِ من يَمينِ اللِّسانِ أو يَسارِهِ، وهي إِحْدَى الحُرُوفِ الشَّجْرِيَّةِ: أُخْتُ الجيمِ والشِّينِ[1]. والظَّاءُ مَخْرَجُها من طَرَفِ اللِّسانِ وأُصُولِ الثَّنَايا العُلْيا، وهي إِحْدَى الحُرُوفِ الذَّوْلَقِيَّة[2]: أُخْتُ الذَّالِ والتَّاءِ.

﴿وَمَا﴾ القُرآنُ ﴿بِقَوْلِ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ مَرجُوم بالشُّهُبِ، كما زَعَمَ الكُفَّارُ أَنَّ الشَّيطانَ يُلْقىٰ إليهِ كَمَا كانَ يُلقَىٰ إلىٰ أَوليـائِهِ مـن الكَـهَنَةِ، ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ ٱسْتِضْلالٌ لَهُم، كما يقَالُ لِتَارِكِ الجادَّةِ ٱعْتِسَافاً: أينَ تَذْهَبُ؟ مُثِّلَتْ حالُهُمْ بحالِهِ في تَرْكِهِم الحقَّ وعُدُولِهم عنهُ إلى الباطلِ. ﴿إِنْ هُوَ﴾ الضَّميرُ للقُرآنِ ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ أي: عِظَةٌ وتَذْكِرَةٌ ﴿لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾.

﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ﴾ بَدَلٌ مِن ﴿لِلْعَـٰلَمِينَ﴾، وإنَّما أُبْدِلُوا منْهُم لأنَّ ٱلّذين شَاءُوا الاستِقَامَةَ بالدُّخُولِ في الإِسلامِ هم المنْتَفِعُونَ بالذِّكْرِ، فكأَنَّهُ لَمْ يُوعَظْ بِهِ غَيْرُهُم وإنْ كانُوا مَوعُوظِينَ جميعاً. ﴿وَمَا تَشَآءُونَ﴾ الاستِقَامةَ يا مَنْ تَشاؤُونها ﴿إِلَّآ﴾ بِتَوفيقِ ﴿ٱللَّهُ﴾ ولُطْفِهِ، أو: ما تَشَاؤُونَها أَنْتُم يا مَـن لا تَشَـاؤُونها إِلَّا بـإِلْجَاءِ ٱللهِ وقَسْرِهِ.

۞ ۞ ۞

(١) وسمِّيَت بالشَجْرية لخروجها من الشَجْرِ وهو مخرج الفم، ويقال: هي الشين والجيم والقاف والكاف والياء. (المنجد: مادة «شجر»).

(٢) وسمِّيت بالذَّوْلَقيَّةِ لكون مخرجها طرفَ اللسان والشفتين، من: ذَلْقُ الشيء: حدّه، وذَلْق اللسان: طرفه. ويقال لها أيضاً: أحرف الذَّلاقة. (المنجد: مادة «ذلق»).

سُورَةُ الانفِطَار[1]

مكّيةٌ[2]، وهي تِسعُ عَشرَةَ آيةً.

في حَديثِ أُبيٍّ: «مَنْ قَرأها أَعْطَاهُ ٱللهُ بعَدَدِ كلِّ قَطْرَةٍ من السَّماءِ حَسَنَةً، وبعَدَدِ كلِّ قَبْرٍ حَسَنَة»[3].

وعنِ الصَّادقِ عليه السلام: «مَنْ قَرَأَ هَاتَيْنِ السُّورَتَيْنِ: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ و ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ وَجَعَلَهُما نُصبَ عَيْنَيْهِ في صلاةِ الفَريضةِ والنَّافلةِ، لَمْ يَحْجُبْهُ من ٱللهِ حِجَابٌ، ولَمْ يَزَلْ يَنْظُرُ إلى ٱللهِ ويَنْظُرُ ٱللهُ إليهِ حتَّىٰ يَفرُغَ من حِسَابِ النَّاس»[4].

بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ(١) وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ(٢) وَإِذَا ٱلْبِحَارُ

---

(١) في بعض النسخ: «سورة انفَطَرَتْ».

(٢) قال الشيخ الطوسي في التبيان: ج ١٠ ص ٢٨٩: مكّية في قول ابن عباس والضحاك، وهي تسع عشرة آيةً بلاخلاف.

وفي الكشّاف: ج ٤ ص ٧١٤: مكّية، وآياتها (١٩) نزلت بعد النازعات.

(٣) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٧١٧ مرسلًا.

(٤) ثواب الأعمال للصدوق: ص ١٤٩ وفيه: «لم يحجبه الله من حاجته، ولم يحجزه الله من حاجز».

فُجِّرَتْ(٣) وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ(٤) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ(٥) يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ(٦) ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ(٧) فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ(٨) كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ(٩) وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ(١٠) كِرَامًا كَـٰتِبِينَ(١١) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ(١٢) إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ(١٣) وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ(١٤) يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ(١٥) وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ(١٦) وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ(١٧) ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ(١٨) يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ(١٩)﴾

﴿ٱنفَطَرَتْ﴾: ٱنْشَقَّتْ وٱنقَطَعَتْ. و ﴿ٱنتَثَرَتْ﴾: تَساقَطَتْ وتَهافَتَتْ. ﴿فُجِّرَتْ﴾ فُتِحَ بعضُها في بَعضٍ فَصارَتْ بَحْراً واحِداً وٱختَلَطَ المِلْحُ بالعَذْبِ. ﴿بُعْثِرَتْ﴾ بُحِثَتْ وأُخرِجَ مَوتَاها، و «بَعْثَرَ» و «بَحْثَرَ» أَخَوانِ رُكِّبا من: «بَعَثَ» وَ«بَحَثَ» مع راءٍ ضُمَّ إليهِمَا. ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ﴾ من خَيْرٍ أو شرٍّ ﴿وَ﴾ مَا ﴿أَخَّرَتْ﴾ من سُنَّةٍ ٱسْتُنَّ بها بَعْدَهُ، وهو مثْلُ قَولِهِ: ﴿يُنَبَّؤُاْ ٱلْإِنسَـٰنُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ (١).

﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ﴾ أيُّ شَيْءٍ خَدَعَكَ بخالِقِكَ حتَّىٰ عَصَيْتَهُ وخالَفْتَهُ؟ وعنِ النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم: «غَرَّهُ جَهْلُهُ» (٢)، وعن الحَسَنِ: غَرَّهُ واللهِ شَيطانُهُ الخَبيث (٣)، قالَ لَهُ: افْعَلْ ما شِئْتَ فربُّكَ الْكَرِيمُ الّذي تَفَضَّلَ عليك بما تَفضَّلَ بهِ أوَّلاً وهو متَفَضِّلٌ عليك آخِراً، فَوَرَّطَهُ في المَعاصي.

---

(١) القيامة: ١٣.

(٢) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٧١٥ مرسلًا.

(٣) تفسير الحسن البصري: ج ٢ ص ٤٠٣.

وقيل للفُضَيْلِ بن عِيَاضٍ: إنْ أَقَامَكَ الله يَوْمَ القيامةِ وقَالَ: ﴿مَا غَـرَّكَ بِـرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ فماذا تَقُولُ؟ قالَ: أقُولُ: غَرَّتْني ستُورُكَ المُرْخَاة[١]. وعن يَـحييٰ بـنِ مَعَاذٍ: أقُولُ: غرَّني بِكَ بِرُّكَ بي سَالِفاً وآنفاً[٢]. وعنْ غَيْرِهِ[٣]: أنَّه سبحانَهُ إنَّما ذَكَرَ ﴿الْكَرِيم﴾ من بينِ سائرِ أسمائِهِ لأنَّهُ كأنَّه لقَّنَهُ الإجَابَةَ حتَّىٰ يقُولَ: غَـرَّني كَـرَمُ الكَرِيمِ.

كَمَا يُروىٰ عن أميرِالمؤمنينعليه السلام أنَّه صَاحَ بِغُلامٍ لَهُ مرَّاتٍ فَلمْ يُلَبِّه، فَنَظَرَ فإذا هو بالبابِ فَقَالَ لَهُ: مَا لَكَ لَمْ تُجِبْني؟ فَقَالَ: لِثقَتي بِحِلْمِكَ، وَأَمْني مـن عـقُوبَتِك، فاستَحسَنَ جَوابَهُ وأعتَقَهُ[٤].

﴿فَسَوَّىٰكَ﴾ فَجَعَلَكَ سَوِيّاً سَـالِمَ الأعْـضَاءِ «فَـعَدَّلَكَ»[٥] فَـصَيَّرَكَ مـعْتَدِلاً متَنَاسِبَ الخَلْقِ، وقُرِئَ: ﴿فَعَدَلَكَ﴾ بالتَّخفيفِ، وفيهِ وَجْهَانِ: أَحَدُهُما: أن يكُـونَ بمعنى المُشَدَّدِ، أي: عَدَّلَ بعضَ أَعضائِكَ ببعْضٍ حتَّى ٱعتدَلْتَ، والآخَرُ: فَصَرَفَكَ عن خلْقَةِ غَيْرِكَ وخَلَقَكَ خلْقَة حَسَنَةً، يُقَالُ: عَدَلَهُ عن الطَّرِيقِ أي: صَرَفَهُ. «مَا» في ﴿مَا شَآءَ﴾ مَزيدَةٌ، أي: ﴿رَكَّبَكَ﴾ في أيِّ صُورةٍ اقْتَضَتْها مَشيئَتُهُ وحِكْـمَتُهُ مـن الصُّوَرِ المختلفَةِ في الحُسْنِ والقُبْحِ، والطُّولِ والـقِصَرِ، والشَّـبَهِ بـبعضِ الأَقَـارِبِ وخِـلَافِ الشَّـبَهِ، وهـذهِ الجُـملةُ بَـيَانٌ لـ«عـدَّلَكَ». وتَـعَلَّقَ الجـارُّ والمـجْرورُ بـ﴿رَكَّبَكَ﴾ علىٰ معنىٰ: وَضَعَكَ في بعضِ الصُّوَرِ، ويَجُوزُ أن يَتَعَلَّقَ بِـ﴿عَدَلَكَ﴾

---

(١) حكاه عنه البغوي في تفسيره: ج ٤ ص ٤٥٥.

(٢) المصدر السابق.

(٣) نسبه البغوي في تفسيره: ص ٤٥٦ الى بعض أهل الإشارة، وفي الكشّاف: ج ٤ ص ٧١٥ الى الحشوية.

(٤) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٧١٥.

(٥) الظاهر أنّ المصنّف قد اعتمد هنا ـ تبعاً للكشّاف ـ على قراءة التشديد، وهي قراءة الجمهور غير الكوفيّين راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٦٧٤.

ويكُونَ في معنَى التَّعَجُّبِ، أي: فَعَدلَكَ في أيِّ صُورةٍ عَجيبةٍ، ثمَّ قالَ: ﴿مَا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾، أي: رَكَّبَكَ ما شَاءَ من التَّراكيبِ، يَعني: تركيباً حَسَناً.

﴿كَلَّا﴾ أي: ٱرْتَدِعُوا من الاغتِرَارِ باللهِ ﴿بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ﴾ أَصْلًا، وهو الجزَاءُ، أو: دينُ الإسلامِ. ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ﴾ من الملائكةِ يكتبُونَ عليكم أَعْمَالَكُم لِتُجَازَوْا بِها ﴿إِنَّ﴾ أَوْلياءَ ٱللهِ ﴿ٱلأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ وَإِنَّ﴾ الَّذين يُكَذِّبون بالدِّينِ ﴿الْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ يَصْلَوْنَهَا﴾ أي: يَلْزَمُونَها بكَونِهم فيها. ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ﴾ مثْلُ قَولِهِ: ﴿وَمَا هُم بِخَـٰرِجِينَ مِنْهَا﴾ (١).

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ يعني: أنَّ أَمْرَ يَوْمِ الدِّينِ بحيثُ لا تُدْرِكُ درَايةُ دَارٍ كُنْهَهُ في الهَوْلِ والشِّدَّةِ، وكيفَما تَصَوَّرْتَهُ فهو فَوقَ ذلك، والتَّكريرُ لِزيَادَةِ التَّهْويلِ. ثمَّ أَجْمَلَ القَوْلَ في وَصْفِهِ فَقَالَ: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئاً﴾ أي: لا تَستطيعُ دَفْعاً عنْها، ولا نَفْعاً لها، ولا شَفَاعةً إِلَّا بإذْنِهِ وأَمْرِهِ ﴿وَٱلأَمْرُ يَوْمَئِذٍ﴾ والحُكْمُ في الجزَاءِ والثَّوابِ والعَفْوِ والعُقُوبةِ ﴿لِلَّهِ﴾ وَحْدَهُ. وقُرِئَ: «يَومُ لا تَمْلِكُ» بالرَّفعِ (٢) على البَدَلِ من ﴿يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾، أو: علىٰ تَقْديرِ: هو يَوْمُ لا تَمْلِكُ، وبالنَّصْبِ علىٰ إضْمَارِ: يُدانُونَ، لأنَّ ﴿ٱلدِّينِ﴾ يدُلُّ عليهِ، أو: تَرْكِ ما يَكُونُ عليهِ في أَكْثَرِ الأَمْرِ من كَونِهِ ظَرْفاً (٣)، وهو في مَحَلِّ الرَّفْعِ، ونَحْوُهُ: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ (٤) يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ.

۞ ۞ ۞

---

(١) المائدة: ٣٧.

(٢) قراه ابن كثير وأبو عمرو. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٦٧٤.

(٣) يريد: أنَّ «اليوم» ممّا جرىٰ في أكثر الأمر ظرفاً تُرِك عليه.

(٤) الذاريات: ١٣.

سُورَةُ المُطَفِّفِينَ

مخْتَلَفٌ فيها[1] [2] ستّة وثَلاثُونَ آيةً.

في حَديثِ أُبيٍّ: «ومَنْ قَرَأَها سَقَاهُ ٱللّٰهُ من الرَّحيقِ المخْتُومِ يَوْمَ القيامَةِ»[3].

وعن الصَّادقِ عليه السلام: «مَنْ كانَتْ قِراءَتُهُ في الفَريضَةِ: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ أَعْطَاهُ ٱللّٰهُ يَوْمَ القيامةِ الأَمْنَ من النَّارِ، ولَمْ تَرَهُ ولا يَرَاها، ولا يَمُرُّ علىٰ جِسْرِ جهنَّمَ ولا يُحَاسَبُ»[4].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ(١) ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ(٢)

---

(١) في نسخة: «مكّية إلّا ستّ آيات».

(٢) قال الشيخ الطوسي في التبيان: ج ١٠ ص ٢٩٥: مكّية في قول ابن عباس، وقال الضحّاك: هي مدنيّة. وهي ستّ وثلاثون آيةً بلاخلاف.

وفي تفسير الماوردي: ج ٦ ص ٢٢٥: مكّية في قول ابن مسعود والضحّاك ويحيىٰ بن سلام، ومدنيّة في قول الحسن وعكرمة ومقاتل، قال مقاتل: هي أول سورة نزلت بالمدينة. وقال ابن عباس وقتادة: مدنيّة إلّا ثماني آيات، من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ الى آخرها مكّي. وقال الكلبي وجابر بن زيد: قد نزلت بين مكّة والمدينة.

وفي الكشّاف: ج ٤ ص ٧١٨: مكّية، وآياتها (٣٦) نزلت بعد العنكبوت، وهي آخر سورة نزلت بمكّة.

(٣) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٧٢٤ مرسلاً.

(٤) ثواب الأعمال للصدوق: ص ١٤٩ وزاد في آخره: «يوم القيامة».

وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ(٣) أَلَا يَظُنُّ أُوْلَـٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ(٤)
لِيَوْمٍ عَظِيمٍ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ(٦) كَلَّآ إِنَّ كِتَـٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى
سِجِّينٍ(٧) وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ(٨) كِتَـٰبٌ مَّرْقُومٌ (٩) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ
لِّلْمُكَذِّبِينَ(١٠) ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ(١١) وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ
مُعْتَدٍ أَثِيمٍ(١٢) إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا قَالَ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ(١٣) كَلَّا بَلْ
رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ(١٤) كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ
لَّمَحْجُوبُونَ(١٥) ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُواْ ٱلْجَحِيمِ (١٦) ثُمَّ يُقَالُ هَـٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم
بِهِۦ تُكَذِّبُونَ(١٧) كَلَّآ إِنَّ كِتَـٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ(١٨) وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا
عِلِّيُّونَ(١٩) كِتَـٰبٌ مَّرْقُومٌ(٢٠) يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ(٢١) إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى
نَعِيمٍ (٢٢) عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ(٢٣) تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ
ٱلنَّعِيمِ(٢٤) يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ(٢٥) خِتَـٰمُهُ مِسْكٌ وَفِى ذَٰلِكَ
فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَـٰفِسُونَ(٢٦) وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ (٢٧) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا
ٱلْمُقَرَّبُونَ(٢٨) إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ (٢٩)
وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ(٣٠) وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ(٣١)
وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ(٣٢) وَمَآ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ
حَـٰفِظِينَ(٣٣) فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ(٣٤) عَلَى
ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ(٣٥) هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ(٣٦)﴾

التَّطْفِيفُ: نَقْصُ المِكْيالِ والميزَانِ والبَخْسُ فيهِمَا، لأنَّ ما يُبْخَسُ في الكَيْلِ والوَزْنِ شيءٌ طَفِيفٌ نَزْرٌ. ولمَّا قدِمَ رسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم المدينةَ كانُوا أَخْبَثَ النَّاسِ كَيْلًا، فنَزَلَتْ، فأَحْسَنُوا الكَيْلَ بَعْدَ ذلك[1].

---

(١) أُنظر أسباب النزول: ص ٣٨٨ ح ٩٠٧ عن ابن عباس.

وقَالَ عليه السلام لَهُم: «خَمْسٌ بِخَمْسٍ: ما نَقَضَ قَومٌ العَهْدَ إلّا سَلَّطَ ٱللهُ عليهم عَدُوَّهُم، وما حَكَمُوا بغَيْرِ ما أَنْزَلَ ٱللهُ إلّا فَشَا فيهم الفَقْرُ، وما ظَهَرَتْ فيهم الفَاحِشَةُ إلّا فَشَا فيهم المَوْتُ، ولا طَفَّفُوا الكَيْلَ إلّا مُنِعُوا النَّبَاتَ وأُخِذُوا بالسِّنين، وَمَا مَنَعُوا الزَّكاةَ إلّا حُبِسَ عَنْهم القَطْرُ»(١).

﴿ٱكْتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ لمّا كانَ اكتيالُهم ٱكْتِيالاً يَضُرُّ النَّاسَ أُبْدِلَ «عَلى» مكانَ «مِنْ» للدلالةِ على ذلك، ويجُوزُ أن يَتَعلَّقَ ﴿عَلَى﴾ بـ﴿يَسْتَوْفُونَ﴾ وتَقَدَّمَ المفْعُولُ على الفِعْلِ لإفادةِ الخُصُوصيَّةِ، أي: ﴿يَسْتَوْفُونَ﴾ على النَّاسِ خاصَّةً، فأمَّا أَنْفُسَهم فيَسْتَوفُونَ لها. وقَالَ الفرَّاءُ: «مِن» و«على» تَعْتَقِبانِ في هذا المَوْضِعِ لأنَّه حَقٌّ عليهِ، فإذا قَالَ: ٱكتَلْتُ عليكَ، فكأنَّهُ قَالَ: أَخَذْتُ ما عليكَ، وإذا قَالَ: ٱكْتَلْتُ منْكَ، فكأنَّهُ قَالَ: ٱستَوْفَيْتُ منْك(٢). والضَّميرُ في ﴿كَالُوهُمْ أَوْ وَّزَنُوهُمْ﴾ ضَميرٌ منْصُوبٌ راجِعٌ إلى ﴿النَّاسِ﴾، وفيهِ وَجْهَانِ: أَنْ يُرادُ: كَالُوا لَهُم أو وزَنُوا لَهُم، فَحُذِفَ الجارُّ وأُوْصِلَ الفِعْلُ، كما قَالَ:

ولَقَد جَنَيْتُكَ أَكْمُؤاً وَعَسَاقِلاً ... ولَقَد نَهَيْتُكَ عن نباتِ الأَوْبَرِ(٣)

[وفي المَثَلِ:](٤) «والحَرِيصُ يَصيدُكَ لا الجَوَاد»(٥). والمعنى: جَنَيْتُ لك، و: يَصيدُ لك. وأَن يكُونَ علىٰ حَذْفِ المُضَافِ وإقَامَةِ المُضَافِ إليهِ مَقَامَهُ،

(١) أخرجه الطبراني في المعجم: ج ١١ ص ٣٨ باسناده عن عبدالله بن بريدة عن أبيه رفعه.
(٢) معاني القرآن: ج ٣ ص ٢٤٦.
(٣) لم نعثر على قائله، والأكمؤ: جمع كمأة، والعساقل: جمع عُسقُول وهو نوع صغير منها جيد أبيض، ونبات الأوبر: نوع ردئ منها يكون أسود مزغّباً. والبيت من باب التمثيل لحال من أغري الى الطّيب فعدل الى الخبيث ثم يتندّم على عاقبته. انظر شرح الشواهد: ص ٥٥٢.
(٤) زيادة يقتضيها السياق.
(٥) أراد: أنّ الذي له هوىً وحرصٌ على شأنك هو الذي يقوم به، لا القوي عليه ولا هوىً ولا حرصاً له فيك. أنظر مجمع الأمثال: ج ١ ص ٢١٦.

والمُضَافُ هو الْمَكِيلُ أَو المَوْزونُ، ولا يَجُوزُ أن يكُونَ ضَميراً مرْفُوعاً للْمطفِّفين لأنَّه يَصيرُ المعنىٰ: إذا أَخذُوا من النَّاسِ ٱستَوْفَوْا، وإذا تَوَلَّوا الكَيْلَ أو الوَزْنَ هُم علَى الخُصُوصِ أَخْسَرُوا، وهذا الكلامُ متَنَافِرٌ؛ لأنَّ الحَديثَ وَاقِعٌ في الفِعْلِ لا في المُبَاشِرِ، ومعنىٰ ﴿يُخسِرُونَ﴾: يُنْقِصُونَ، يقَالُ: خَسَرَ الميزانَ وأَخْسَرَهُ.

﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ﴾ تعجيبٌ وإنْكارٌ عظيمٌ عليهم في الاجْتِراءِ على التَّطفيفِ، كأنَّهُ لا يَخْطُرُ ببَالِهِم ﴿أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ﴾ ومحَاسَبُونَ، وعن قَتَادَةَ: أَوْفِ يابنَ آدمَ كَمَا تُحِبُّ أَن يُوفَىٰ لك، وٱعْدلْ كَمَا تُحِبُّ أَن يُعْدَلَ لك (١).

وذُكِرَ: أنَّ أَعْرابيّاً قَالَ لعَبْدِ المَلِكِ بنِ مَرْوان: قَدْ سَمِعْتَ ما قَالَ ٱللَّهُ في المُطَفِّفِينَ؟ أَرادَ بذلكَ أنَّ المُطَفِّفَ قَد تَوَجَّهَ عليهِ هذا الوَعيدُ العظيمُ، فَمَا ظَنُّكَ بنَفْسِكَ وأنتَ تأْخُذُ أَموالَ المسلمينَ بلا كَيْلٍ ولا وَزْنٍ؟ (٢)

وقيلَ: إنَّ الظَّنَّ بمعنَى اليَقينِ (٣). و ﴿يَوْمَ يَقُومُ﴾ ظَرْفٌ لـ﴿مَبْعُوثُونَ﴾.

﴿كَلَّآ﴾ رَدْعٌ عن التطْفيفِ والغَفْلةِ عن ذِكْرِ الحِسَابِ والبَعْثِ ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ﴾ أي: ما يُكْتَبُ من أَعْمالِهِم ﴿لَفِى سِجِّينٍ﴾ قيلَ: هو جُبٌّ في جَهَنَّمَ (٤). و ﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ﴾ خَبرُ مبتَدأ مُضْمَرٍ تَقْديرُهُ: هو كِتَابٌ، أي: هو مَوضِعُ كِتَاب، فَحُذِفَ المبتَدأُ والمُضَافُ جميعاً، وقيل (٥): ﴿سِجِّينٍ﴾ كتابٌ جَامِعٌ هو ديوانُ الشَّرِّ، دوَّنَ ٱللَّهُ فيهِ أَعْمَالَ الكَفَرَةِ والفَسَقَةِ من الجِنِّ والإِنْسِ، وهو ﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ﴾ مَسْطُورٌ بيِّنُ الكِتَابةِ، أو: مَعْلَمٌ يَعْلَمُ مَنْ رآهُ أنَّهُ لا خَيْرَ فيهِ، والمعنىٰ: أنَّ ما كُتِبَ

---

(١) حكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٧٢٠.
(٢) ذكره الرازي في تفسيره: ج ٣١ ص ٨٩.
(٣) قاله ابن عباس في تفسيره: ص ٥٠٤.
(٤) رواه أبو هريرة عن النبي ﷺ. راجع تفسير الطبري: ج ١٢ ص ٤٨٨.
(٥) قاله قتادة وابن زيد راجع المصدر السابق: ص ٤٨٩.

من أَعْمالِ الفُجَّارِ مُثْبَتٌ في ذلك الديوانِ، وهو «فِعِّيلٌ» من «السِّجْنِ» لأنَّه سَبَبُ الحَبْسِ والتَّضْييقِ في جَهَنَّمَ، أو: لأنَّهُ مطْرُوحٌ ـ كَمَا رُوي[1] ـ تَحْتَ الأَرضِ السَّابعَةِ في مَوْضِعٍ وَحْشٍ يَشْهَدُهُ الشَّياطينُ كَمَا يَشْهَدُ ديوان الخَيْرِ الملائكةُ المُقَرَّبُونَ، وهو اسمُ عَلَمٍ منْقُولٍ من وَصْفٍ كـ«حَاتَم». ﴿الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ﴾ ممَّا وُصِفَ بِهِ للذَّمِّ لا للبَيَانِ، كما تَقُولُ: فَعَلَ ذلك فلانٌ الفَاسِقُ الخَبيثُ.

﴿كَلَّا﴾ رَدْعٌ للمُعْتَدي الأَثيمِ عن قَوْلِهِ، ومعنىٰ ﴿رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾: رَكِبَها كَمَا يَرْكَبُ الصَّدأُ، وغَلَبَ عليها، وهو أَن يُصِرَّ على الكَبَائِرِ حتَّىٰ يُطْبَعَ علىٰ قَلْبِهِ فلا يَقْبلَ الخَيْرَ ولا يَميلَ إليهِ، وعنِ الحَسَنِ: الذَّنْبُ بَعْدَ الذَّنْبِ حتَّىٰ يُسَوِّدَ القَلْبَ[2]. يُقَالُ: رَانَ عليهِ الذَّنْبُ وَغَانَ عليهِ رَيْناً وغَيْناً. والرَّيْنُ والغَيْنُ: الغَيْمُ. ورَانَ فيهِ النَّوْمُ: رَسَخَ فيهِ، ورَانَتْ به الخَمْرُ: ذَهَبَتْ بهِ. وقُرِئَ: ﴿بَل رَّانَ﴾ بإدْغَامِ اللَّامِ في الرَّاءِ والإظْهَارِ، والإدْغَامُ أَجْوَدُ، وبإمَالَةِ الأَلِفِ وتَفْخيمِها[3].

﴿كَلَّا﴾ رَدْعٌ عن الكَسْبِ الرَّائِنِ على قُلُوبِهم، وكَوْنُهُم «مَحْجُوبِينَ عَنْ رَبِّهِمْ» تَمثيلٌ للاستِخْفَافِ بِهِم وإهانَتِهِم، لأنَّهُ لا يُؤْذَنُ على المُلُوكِ إلَّا للوُجَهَاءِ المكرَّمينَ، وعنِ ابنِ عبَّاسٍ: عن رَحْمَةِ ربِّهم وكرامَتِهِ[4].

﴿كَلَّآ﴾ رَدْعٌ عن التَّكذيبِ، و ﴿كِتَـٰبَ ٱلْأَبْرَارِ﴾ ما كُتِبَ من أَعْمالِهِم، وعِلِّيُّونَ:

---

(١) رواه الطبري في تفسيره: ج ١٢ ص ٤٨٨ باسناده عن البراء عن النبي ﷺ.

(٢) تفسير الحسن البصري: ج ٢ ص ٤٠٤، وفيه: «يموت القلب».

(٣) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وقنبل ونافع برواية إسحاق بالإدغام مع فتح الراء تفخيماً، وقرأ أبوبكر عن عاصم وخارجة عن نافع وحمزة والكسائي بالادغام أيضاً لكن بكسر الراء ممالاً، وروىٰ عباس عن أبي عمرو بأنّه لم يكسر الراء ويشبه الإدغام وليس بالإدغام. وقراءة نافع المشهورة هي الإظهار، وأما حفص عن عاصم فكان يقطع فيقف عند ﴿بل﴾ ثم يبتدئ بـ﴿رَانَ﴾ فيصل الراء غير مدغمة. راجع كتاب السبعة: ص ٦٧٥ ـ ٦٧٦.

(٤) حكاه عنه الشيخ الطوسي في التبيان: ج ١٠ ص ٣٠٠.

عَلَمٌ لِديوَانِ الخَيْرِ الّذي دُوِّنَ فيه كُلُّ ما عَمِلَهُ المقرَّبُونَ، والأَبْـرارُ: المـتَّقُونَ مـن الإِنْسِ والجِنِّ، منْقُولٌ من جَمْعِ «عِلِّيٍّ» فِعِّيلٍ من العُلُوِّ، سُمِّيَ بذلك: إمَّا لأنَّهُ سَبَبُ الارتفاعِ إلىٰ أَعَالي الدَّرجَاتِ في الجنَّةِ، وإمَّا لأنَّه مرفُوعٌ في السَّماءِ السَّابعةِ تَحْتَ العَرْشِ حيثُ يَسْكنُ الكروبيُّونَ، ويدُلُّ عليهِ قَولُهُ: ﴿يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾، وقـيلَ: سدْرَةُ المنْتَهىٰ (١). والأَرَائِكُ: الأَسِرَّةُ في الْحِجَالِ ﴿يَنْظُرُونَ﴾ إلىٰ ما شاءُوا مَـدَّ أَعيُنِهِم إليهِ من مَنَاظِرِ الجنَّةِ، وإلىٰ ما آتاهُم ٱللهُ من النَّعيمِ والكرامةِ، وإلىٰ أعدائِهِم يُعَذَّبُونَ في النَّار. ﴿تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ﴾ بَهْجَةَ ﴿ٱلنَّعِيمِ﴾ ونُضْرَتَهُ وماءَهُ، وقُرِئَ: «تُعْرَفُ» على البناءِ للمفْعُولِ، و«نَضْرةُ النَّعيمِ» بالرَّفْعِ (٢).

﴿يُسْقَوْنَ مِنْ رَّحِيقٍ﴾ خَمْرٍ صافيةٍ خَالِصَةٍ من كلِّ غِشٍّ ﴿مَـخْتُومٍ﴾ أَوَانـيهِ بِمِسْكٍ مكانَ الطِّينَةِ. وقيلَ: ﴿خِتَـٰمُهُ مِسْكٌ﴾ مُقَطَّعَةُ رائِـحَةُ مِسْكٍ إذا شُـرِبَ (٣)، وقيل: يُمْزَجُ بالكافُورِ ويُخْتَمُ مِزَاجُهُ بالمِسْكِ (٤). وقُرِئَ: «خاتَمُهُ» بفَتْحِ التاءِ (٥)، أي: ما يُخْتَمُ به ويُقْطَع. ﴿وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَـٰفِسُونَ﴾ فَلْيَرْغبِ الرَّاغِـبُونَ، ونَحْوُهُ: ﴿لِمِثْلِ هَـٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَـٰمِلُونَ﴾ (٦). وَمِزَاجُ ذلك الشَّرابِ ﴿مِنْ تَسْنِيمٍ﴾ وهو عَلَمٌ لِعَيْنٍ بِعَيْنِها، سمِّيَتْ بالتَّسنيمِ الذي هو مَصْدَرُ: «سَنَّمَهُ» إذا رَفَعَهُ: إمَّا لأنَّها أرفَعُ شَرَابٍ في الجنَّةِ، وإمَّا لأنَّها تَأْتِيهم من فَوْق، وعنْ قَتَادَةَ: هو نَهْرٌ يَجْري في الهَوَاءِ فَيَنْصَبُّ في أَواني أهلِ الجنَّة (٧). ﴿عيناً﴾ نُصِبَ على المَدْحِ، وقالَ الزَّجَّاجُ:

---

(١) قاله الضحّاك. راجع تفسير الماوردي: ج ٦ ص ٢٢٩.

(٢) قرأه أبو جعفر ويعقوب. راجع التبيان: ج ١٠ ص ٣٠١.

(٣) قاله ابن عباس والحسن وقتادة والضحّاك. راجع المصدر السابق: ص ٣٠٣.

(٤) قاله قتادة. راجع تفسير الماوردي: ج ٦ ص ٢٣٠.

(٥) وهي قراءة الكسائي وحده. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٦٧٦.

(٦) الصّافات: ٦١.

(٧) حكاه عنه البغوي في تفسيره: ج ٤ ص ٤٦١.

نُصِبَ على الحالِ(١).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ﴾ هُمُ المشرِكُونَ ﴿كَانُواْ... يَضْحَكُونَ﴾ من عَمَّارٍ وَخَبَّابٍ وصُهَيْبٍ وغيرِهِم من فُقَراءِ المؤمنينَ، ويستَهزِئُونَ بهم.

ورُوِيَ: أنَّ أميرَ المؤمنينَ عليّاً عليه السلام جَاءَ في نَفَرٍ من المسلمينَ إلى النبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم فَسَخِرَ منْهُم المنافقُونَ، وضَحِكُوا، وتَغَامَزُوا، ثمَّ رَجَعُوا إلىٰ أصحابِهِم فَقَالُوا: رأيْنا اليومَ الأَصْلَعَ فَضَحِكْنا منْهُ، فَنَزَلَتْ قبل أن يَصِلَ عليٌّ إلىٰ رسُولِ ٱللهِ صلى الله عليه وآله وسلم(٢).

وروَى أبوصَالحٍ عنِ ٱبنِ عبَّاسٍ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ﴾ مُنافِقُو قُرَيْشٍ ﴿يَتَغَامَزُونَ﴾ يَغمِزُ بعضُهُم بَعضاً ويُشِيرُونَ بأَعْيُنِهِم(٣). قُرِئَ: ﴿فَكِهِينَ﴾ و «فَاكِهِينَ»(٤) أي: متَلَذِّذينَ بذِكْرِهِم والسُّخْرِيةِ منْهُم. ﴿وَمَآ أُرْسِلُواْ﴾ على المؤمنينَ ﴿حَـٰفِظِينَ﴾ مُوَكَّلينَ بِهِم يَحفظُونَ أحْوالَهُم عليهِم، ولو ٱشتَغَلُوا بما كُلِّفُوا لَكانَ ذلك أَوْلَىٰ بِهِم.

﴿فَٱلْيَوْمَ﴾ يَعني: يَوْمَ القيامَةِ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ... يَضْحَكُونَ﴾ من الكُفَّارِ كَمَا ضَحِكَ الكُفَّارُ منْهم في الدُّنيا، رُوِيَ: أنَّه يُفْتَحُ بَابٌ للكفَّارِ إلى الجنَّةِ فيقَالُ لهم: اخْرُجُوا إليها، فإذا وَصَلُوا إليهِ أُغْلِقَ دونَهُم. يُفْعَلُ ذلك بهم مِراراً فَيَضْحَكُ منْهُم المؤمِنُون(٥). ﴿يَنظُرُونَ﴾ إليهِم علىٰ سُرُرٍ في الحِجَالِ، وهي: ﴿ٱلْأَرَآئِكِ﴾،

---

(١) معاني القرآن: ج ٥ ص ٣٠١.

(٢) رواه مقاتل والكعبي. راجع مناقب الخوارزمي: ص ١٨٦، وتفسير الرازي: ج ٣١ ص ١٠١. ورواه الحاكم الحسكاني في شواهد التنزيل: ج ٢ ص ٣٢٨ ح ١٠٨٤ باسناده عن أبي عبدالله عليه السلام وفي ص ٣٢٩ ح ١٠٨٦ باسناده عن الضحّاك عن ابن عباس، وفي ح ١٠٨٧ عن تفسير مقاتل مسنداً.

(٣) رواه الحاكم الحسكاني في الشواهد: ج ٢ ص ٣٢٨ ح ١٠٨٥، والحبري في تفسيره: ص ٣٢٠ ح ٥٠ عنه.

(٤) وهي قراءة الجمهور إلّا حفصاً. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٦٧٦.

(٥) رواه البغوي في تفسيره: ج ٤ ص ٤٦٢ عن أبي صالح.

﴿يَنْظُرُونَ﴾ حَالٌ من ﴿يَضْحَكُونَ﴾ أي: يَضْحَكُونَ مِنْهُم نَاظِرِينَ إِلَيهِم عَلَى الأَرائِكِ آمنُونَ. ﴿هَلْ ثُوِّبَ﴾ هلْ جُوزِيَ ﴿الْكُفَّارُ﴾ إذا فُعِل بهم هذا ﴿مَا كَانوا يَفْعَلُونَ﴾ ـه من السُّخْريةِ بالمؤْمنينَ؟ يقَالُ: ثوَّبَهُ وأَثابَهُ: إذا جَازَاهُ، قَالَ أَوْسٌ:

سَأَجْزِيكِ أَو يَجْزِيكِ عَنِّي مُثَوِّبٌ وحَسْبُكِ أَن يُثْنَىٰ عَلَيْكِ وتُحْمَدي[1]

❁ ❁ ❁

(١) من قصيدة يمدح بها امرأةً ويثني عليها، ويذكر يدها عنده. أُنظر ديوان أوس بن حجر: ص ٢٧، وفيه: «وقصرُك» بدل «وحسبُك» وهما بمعنىً.

سُورَةُ الانْشِقَاقِ[1]

مكّيةٌ[2] وهِيَ خَمْسٌ وعشْرونَ آيةً كوفيٌّ، ثَلَاثٌ بَصْريٌّ. ﴿كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾[3]، ﴿وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ﴾[4]، كِلَاهُما كوفيٌّ.

في حَديثِ أُبيٍّ: «وَمَنْ قَرَأَ سُورةَ ٱنشَقَّتْ أَعَاذَهُ ٱللَّهُ أَن يُعْطِيَهُ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ»[5]. [6]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ(١) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ(٢) وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ(٣) وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ(٤) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ(٥) يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَـٰقِيهِ(٦) فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ

---

(١) في بعض النسخ: «سورة ٱنْشَقَّتْ» وأخرىٰ: «السَّماءُ ٱنشَقَّتْ».

(٢) قال الشيخ الطوسي في التبيان: ج ١٠ ص ٣٠٧: مكية في قول ابن عباس والضحاك، وهي خمس وعشرون آيةً في الكوفيّ والمدنيّين، وثلاث في البصري.
وفي الكشّاف: ج ٤ ص ٧٢٥: مكّية، وآياتها (٢٥)، نزلت بعد الانفطار.

(٣) الآية: ٧.

(٤) الآية: ١٠.

(٥) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٧٢٨ مرسلاً.

(٦) وقد تقدّم حديث الصادق عليه السلام في فضلها عند الحديث عن فضائل سورة الانفطار الآنفة.

بِيَمِينِهِۦ(٧) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا(٨) وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا(٩) وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ(١٠) فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا(١١) وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا(١٢) إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا(١٣) إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ(١٤) بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا(١٥) فَلَآ أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ(١٦) وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ(١٧) وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ(١٨) لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ(١٩) فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ(٢٠) وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ(٢١) بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ(٢٢) وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ(٢٣) فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ(٢٤) إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ(٢٥)﴾

﴿ٱنشَقَّتْ﴾ تَصَدَّعَتْ وٱنْفَرَجَتْ، وجَوَابُ ﴿إِذَا﴾ ما دَلَّ عليهِ قَولُهُ: ﴿فَمُلَٰقِيهِ﴾ أي: إذا ٱنشَقَّتِ السَّماءُ لاقَى الإنسانُ كَدْحَهُ، أو: حُذِفَ الجَوابُ ليذْهَب المُقدَّرُ كلَّ مذْهَبٍ. والمعنىٰ: إذا ٱنشَقَّتِ السَّماءُ بالغَمامِ، كَما في قَولِهِ: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ﴾[1]. والأَذَنُ: الاستِماعُ، قَالَ عديٌّ:

فـي سَماعٍ يـأْذَنُ الشَّيخُ لَهُ ... وحَديثٍ مثْلِ ماذيٍّ مُشَارْ[2]

ومنْهُ قَولُهُ ﷺ: «ما أَذِنَ ٱللهُ لشيءٍ كإذْنِهِ لنبيٍّ يَتَغَنَّىٰ بالقُرآنِ»[3].

والمعنىٰ: أنَّها فَعَلَتْ في ٱنقِيَادِها حينَ أَرادَ ٱنْشِقَاقَها فِعْلَ المُطيع إذا وَرَدَ الأمرُ عليهِ من المُطَاعِ: أَذْعَنَ لَهُ وأَنْصتَ ولَمْ يَمْتَنِعْ، كقَولِهِ: ﴿أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾[4]. ﴿وَحُقَّتْ﴾ من قَولِكَ: هو محْقُوقٌ بكَذَا، وحَقيقٌ بِهِ. والمعنىٰ: وهي حَقيقَةٌ بأَن تَنْقَادَ ولا تَأْبىٰ.

---

(١) الفرقان: ٢٥.

(٢) لعديّ بن زيد العِبَادي، والماذِيُّ: العسل الأبيض، ومعناه واضح. أُنظر العِقْد الفريد: ج ٥ ص ٤٠٩.

(٣) أخرجه الدارمي في السنن: ج ٢ ص ٤٧٣ عن أبي هريرة، وزاد: «وجهر به».

(٤) فصِّلت: ١١.

﴿مُدَّتْ﴾ أي: بُسِطَتْ بأَن تُزَالَ جِبَالُها وكلُّ أَمْتٍ فيها حتَّىٰ تَمتَدَّ وتَـنْبَسِطَ، كقَولِهِ: ﴿قَاعاً صَفْصَفاً لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجاً وَلَآ أَمْتاً﴾ (١) . ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا﴾ وَرَمَتْ بِمَا في جَوْفِها ممَّا دُفِنَ فيها من الأَمواتِ والكُنُوزِ، مثْلُ: ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ (٢) . ﴿وَتَخَلَّتْ﴾ وخلَتْ غَايةَ الخُلُوِّ حتَّىٰ لَمْ يَبْق شيءٌ في بَاطِنِها، كأَنَّها تَكَلَّفَتْ أَقْصَىٰ جَهْدِها في الخُلُوِّ، كقَولِهِم: تَكرَّمَ وتَشَجَّعَ ونَحْوُهُما. والمعنىٰ: بَلَغَ الجَهْدُ فيهِ، وتَكَلَّفَ فَوْقَ ما في طَبْعِهِ.

والْكَدْحُ: الكَدُّ في العَمَلِ، وَجَهْدُ النَّفْسِ فيهِ حتَّىٰ يُؤَثِّرَ فيها، مِن: كَدَحَ جِلْدَهُ إذا خَدَشَهُ، والمعنىٰ: ﴿إِنَّكَ﴾ جَاهِدٌ ﴿إِلَىٰ﴾ لِقَاءِ ﴿رَبِّكَ﴾ وهو الموتُ وما بَعْدَهُ من الحَالِ الممثَّلَةِ باللِّقَاءِ، ﴿فَمُلَـٰقِيهِ﴾ فَمُلاقٍ لَهُ لا مَحَالَةَ، لا مَفَرَّ لكَ منْهُ، وقيلَ: الضَّميرُ في ﴿مُلَـٰقِيهِ﴾ للكَدْحِ (٣) . ﴿حِسَاباً يَسِيراً﴾ أي: سَهْلًا هَيِّناً لا يُنَاقَشُ فيهِ، ورُوِيَ: أنَّ الحسَابَ اليَسيرَ هو الإِثَابَةُ على الحَسَنَاتِ والتَّجَاوزُ عن السَّيِّئاتِ، ومَنْ نُوقِشَ في الحسَابِ عُذِّبَ (٤) . ﴿وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِ﴾ من الحُورِالعِينِ في الجـنَّةِ، أو: إلىٰ أَولادِهِ وعَشَائرِهِ وقد سَبَقُوهُ إلى الجنَّة.

﴿وَرَآءَ ظَهْرِهِ﴾ لأنَّ يمينَهُ مغلولَةٌ إلىٰ عُنُقِهِ، وشمَالَهُ خَلْفَ ظَهْرِهِ، فيؤْتىٰ كتَابُهُ بشمَالِهِ من وَرَاءِ ظَهْرِهِ. ﴿فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُوراً﴾ ويقُولُ: يا ثُبُورَاه، والثُّبُورُ: الهَلاكُ. ﴿وَيَصْلَىٰ سَعِيراً﴾ ويَصيرُ صَلاءً للنَّارِ المُسَعَّرَةِ، وقُرِئَ: «وَيُـصَلَّىٰ» (٥) كـقَولِهِ: ﴿وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ (٦) . ﴿إِنَّهُ كَانَ فِى أَهْلِهِ﴾ فيمَا بينَ أَظْهُرِهِم أو: مَعَهُم، علىٰ أَنَّهم

(١) طـه: ١٠٦ و ١٠٧ . (٢) الزلزلة: ٢ .

(٣) قاله ابن عباس في تفسيره: ص ٥٠٢ .

(٤) أخرجه أحمد في المسند: ج ٦ ص ١٢٧ عن عائشة .

(٥) قرأه نافع برواية خارجة وعاصم برواية أبان بضمّ الياء، وقرأ ابن كثير ونـافع وابـن عـامر والكسائي بضمّها وتشديد اللام. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٦٧٧ .

(٦) الواقعة: ٩٤ .

كانُوا جميعاً مَسْرورينَ، والمعنىٰ: أنَّه كانَ مُتْرَفاً في الدُّنيا بَطِراً، ما كانَ يَهمُّهُ أَمْرُ الآخرةِ ولا يُفكِّرُ فيها. ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾ لَنْ يَرْجعَ إلى ٱللهِ، تَكْذيباً بالبَعثِ، فارتَكَبَ المآثِمَ وٱنتهَكَ المَحارِمَ، قالَ لَبيدٌ:

يَحُورُ رَماداً بَعْدَ إذْ هُو سَاطِعُ(١)

﴿بَلَىٰٓ﴾ إيْجَابٌ لِمَا بعدَ النَّفْيِ، أي: بَلَىٰ لَيَحُورَنَّ وَلَيُبْعَثَنَّ، وليس الأَمْرُ كَمَا ظَنَّهُ، ﴿إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا﴾ وبأَعْمَالِهِ، لا يَخفىٰ عليهِ شَيءٌ مِنْها، فلابُدَّ أن يُرجِعَهُ ويُجازِيَهُ عليها.

والشَّفَقُ: الحُمْرَةُ التي تَبقَىٰ عِنْدَ المَغْرِبِ بَعْدَ سُقوطِ الشَّمسِ، وبسُقُوطِهِ يَخْرُجُ وَقْتُ المَغْرِبِ. ﴿وَمَا وَسَقَ﴾ وما جَمَعَ وضَمَّ ممَّا كانَ منْتَشِراً بالنَّهارِ، يقَالُ: وَسَقَهُ فَٱتَّسَقَ وٱسْتوسَقَ. ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ﴾ إذا ٱجتَمَعَ وٱسْتَوىٰ وتَمَّ لَيلَةَ أَرْبَعَ عَشْرَةَ. ﴿لَتَرْكَبُنَّ﴾ جوابُ القَسَمِ، قُرِئَ بضَمِّ الباءِ وفَتْحِها(٢). فالفَتْحُ علىٰ خِطَابِ الإنْسانِ في: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ﴾ والضَّمُّ علىٰ خِطَابِ الجِنْسِ، لأنَّ النِّدَاءَ للجِنْسِ، وَالطَّبَقُ: ما طَابَقَ غَيْرَهُ، يقَالُ: ما هذا بِطَبقٍ لِذَا، أي: لا يُطَابِقُهُ، ومنْهُ قِيلَ للغطَاءِ: الطَّبَقُ، ثمَّ قيلَ للحَالِ المُطَابقَةِ لغَيْرِها: طَبَقٌ، ومنْهُ قَولُهُ: ﴿طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ أي: حَالاً بَعْدَ حَالٍ، كلُّ واحِدَةٍ مُطَابقَةٌ لأُخْتِها في الشِّدَّةِ والهَولِ. ويَجُوزُ أن يكُونَ جَمْعَ: طَبَقَةٍ، وهي المَرْتَبَةُ، علىٰ معنىٰ: لَتَرْكَبُنَّ أحْوَالاً بَعدَ أَحْوالٍ، وهي طَبَقَاتٌ بَعْضُها أَرْفَعُ من بَعْضٍ، وهي المَوْتُ وما بَعْدَهُ من مَواطِنِ القيَامةِ، و ﴿عَن طَبَقٍ﴾ صِفَةٌ، أي: طَبَقاً مُجَاوِزاً

---

(١) وصدره: وما المرءُ إلّا كالشهاب وضوئه. من قصيدة يرثي بها أخاه أَربد. وهو من أشعار الحكمة، يقول: كل ٱمرئٍ يخبو بعد توقّدٍ وذلك حين تدركه المنيّة، كالنار تكون ساطعة الضوء ثم تصبح رماداً. أُنظر ديوان لبيد بن ربيعة: ص ٨٨.

(٢) وبفتحها قرأه ابن كثير وحمزة والكسائي. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٦٧٧.

لِطَبَقٍ، أو: حَالٌ من الضَّميرِ في ﴿لَتَرْكَبُنَّ﴾ أي: مُجَاوِزينَ، أو: مُجَاوِزاً، وعن مَكْحُولٍ: لَتُحْدِثُنَّ أَمْراً لَمْ تكونُوا عليهِ في كلِّ عِشْرينَ سَنَة[١]. وعنْ أَبي عُبَيْدَةَ: لِتَرْكَبُنَّ سُنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلكُم من الأَوَّلينَ وأَحْوَالَهُم[٢]، ورُوِيَ ذلك عن الصَّادقِ عليه السلام[٣].

﴿فَمَا لَهُمْ﴾ تبكيتٌ وتَقْريعٌ للكفَّارِ، والمعنىٰ: أيُّ عُذْرٍ لَهُم في تَرْكِ الإِيمانِ والسُّجُودِ للهِ إذَا تُلِيَ ﴿عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ﴾ معَ وضُوحِ الدَّلائِلِ؟

ورُوِيَ: أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم قرأَ ذاتَ يومٍ: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِبْ﴾ فَسَجَدَ ومَنْ مَعَهُ من المؤْمنينَ، وقُرَيْشٌ تُصَفِّقُ فوقَ رؤُوسِهِم وتُصَفِّرُ، فنَزَلَتْ[٤].

﴿يُوعُونَ﴾ يَجْمَعُونَ في صُدُورِهم ويُضْمِرُونَ في قُلُوبِهِم من الكُفْرِ والحَسَدِ والبَغْيِ، أو: يَجْمَعُونَ في صُحُفِهِم من الأَعمالِ السَّيِّئةِ وَيَدَّخِرُونَ لأنفُسِهِم من أَنْواعِ العَذَابِ. ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ استِثْناءٌ منْقَطِعٌ ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ غَيْرُ منْقُوصٍ ولا مقْطُوعٍ.

۞ ۞ ۞

(١) حكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٧٢٨.
(٢) مجاز القرآن لأبي عبيدة: ج ٢ ص ٢٩٢.
(٣) رواه الصدوق في كمال الدين: ص ٤٨٠.
(٤) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٧٢٨، والآية: ١٩ من سورة العلق.

سُورَةُ البُرُوجِ

مكّيّةٌ[1]، وهي اثنَتَانِ وعشْرونَ آيةً.

في حَديثِ أُبيٍّ: «مَنْ قَرَأها أَعْطَاهُ ٱللهُ من الأَجْرِ بِعَدَدِ كُلِّ يَوْمِ جُمُعَةٍ وكُلِّ يَوْمِ عَرَفَةَ يكُونُ في دَارِ الدُّنيا عَشْرَ حَسَنَات»[2]. وعنِ الصَّادقِ عليه السلام: «مَنْ قَرَأها في فَرائِضِهِ كانَ مَحْشَرُهُ ومَوْقِفُهُ مَعَ النَّبيِّينَ فإنَّها سُورةُ النَّبيِّينَ»[3].

بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ(١) وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ(٢) وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ(٣) قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ(٤) ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ(٥) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ(٦) وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ(٧) وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِاللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ(٨) ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ(٩) إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ

---

(١) قال الشيخ الطوسي في التبيان: ج ١٠ ص ٣١٥: مكّيّة في قول ابن عباس والضحاك، وهي اثنتان وعشرون آيةً بلاخلاف.

وفي الكشّاف: ج ٤ ص ٧٢٩: مكّيّة، وآياتها (٢٢)، نزلت بعد الشمس.

(٢) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٧٣٣ مرسلًا.

(٣) ثواب الأعمال للصدوق: ص ١٥٠ وزاد بعد «النبيّين»: «والمرسلين والصالحين».

وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ(١٠) إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ(١١) إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ(١٢) إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ(١٣) وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ(١٤) ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ(١٥) فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ(١٦) هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ(١٧) فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ(١٨) بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى تَكْذِيبٍ(١٩) وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌ(٢٠) بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ(٢١) فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ(٢٢)﴾

هي ﴿ٱلْبُرُوجِ﴾ الاثْنَا عَشَرِ الّتي هي قُصُورُ السَّماءِ، مَنَازِلُ الشَّمْسِ والقَمَرِ والكَواكِبِ. ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ﴾ يَوْمِ القيامَةِ. ﴿وَشَاهِدٍ﴾ في ذلكَ اليَوْمِ ﴿وَمَشْهُودٍ﴾ فيهِ، وقَد ٱختلفَ أَقْوالُ المفَسِّرينَ فيهِ: فَرُوِيَ عن الحَسَنِ بن عليٍّ عليهما السلام وٱبنِ عبَّاسٍ: أنَّ الشَّاهِدَ محمّدٌ صلى الله عليه وآله وسلم لقَولِهِ عزَّ ٱسمُهُ: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا﴾[1]، والمَشْهودَ يَوْمُ القيامَةِ لقَولِهِ تَعالىٰ: ﴿وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾[2] [3]. وعنِ ٱبنِ عبَّاسٍ أَيضاً: الشَّاهِدُ يَوْمُ الجُمُعَةِ، والمَشْهُودُ يَوْمُ عَرَفَة[4]. وعن أَبي الدرْدَاءِ: الشَّاهِدُ يَوْمُ عَرَفَةَ، والمَشْهُودُ يَوْمُ الجُمُعَةِ[5]. وقيلَ: الحَجَرُ الأَسْوَدُ والحَجيجُ[6]. وقيلَ: الأَيَّامُ واللَّيالِي وبَنُو آدم[7].

(١) الأحزاب: ٤٥. (٢) هود: ١٠٣.

(٣) رواه عنهما الطبري في تفسيره: ج ١٢ ص ٥٢١.

(٤) تفسير ابن عباس: ص ٥٠٦.

(٥) حكاه عنه الرازي في تفسيره: ج ٣١ ص ١١٤.

(٦) قاله أبوبكر العطّار. راجع تفسير القرطبي: ج ١٩ ص ٢٨٦.

(٧) وهو ما رواه أبو نعيم عن مَعْقِل بن يسار عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كما في تفسير القرطبي: ج ١٩ ص ٢٨٤.

جَوابُ القَسَمِ محذُوفٌ يدُلُّ عليهِ قَولُهُ: ﴿قُتِلَ أَصْحَـٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾، كأنَّهُ قَالَ: أُقْسِمُ بهذهِ الأَشياءِ أنّهم الملْعُونُونَ، يعني: كُفَّارَ قُرَيْشٍ، كَمَا لُعِنَ أَصْحَابُ الأُخْدودِ. وذلكَ لأنَّ السُّورةَ وَردَتْ في تَثْبيتِ المؤْمنينَ، وتَذْكيرِهِم بما جَرَىٰ علىٰ مَنْ تَقَدَّمَهُم من التَّعذيبِ على الإيمانِ مع صَبْرِهِم وثَبَاتِهِم حتَّىٰ يَقْتَدوا بِهِم، ويَصْبِروا علىٰ ما يَلْقَوْنَ من قَومِهِم، ويَعْلَمُوا أنَّ كُفَّارَهُم بِمَنزلَةِ أُولئكَ المُحْرِقِينَ بالنَّارِ، ملْعونُونَ معذَّبُونَ، أَحِقَّاءُ بأَن يقَالَ فيهِم: قُتِلُوا كَمَا قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُود، و﴿قُتِلَ﴾ دُعَاءٌ عليهِم، أي: لُعِنُوا بتَحْرِيقِهِم المؤْمنينَ، والأُخْدُودُ: الخَدُّ في الأَرضِ، وهو الشَّقُّ، ونَحْوُهُما بِنَاءً ومَعْنىً: الخَقّ والأُخْقُوقُ، ومِنْهُ الحَديثُ: «فَسَاخَتْ قَوائِمُهُ في أَخَاقِيق جُرْذَان»[١].

ورُوِيَ عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قَالَ: «كانَ لبعضِ المُلُوكِ سَاحِرٌ، فَلمَّا كَبرَ ضَمَّ إليهِ غُلاماً لِيُعَلِّمَهُ السِّحْرَ، وكانَ في طريقِ الغُلامِ رَاهِبٌ فَسَمِعَ منْهُ وأَعْجَبَهُ كَلامُهُ، ثمَّ رأىٰ في طَرِيقِهِ ذَاتَ يَوْمٍ دابَّةً قد حَبَسَتِ النَّاسَ، فأَخَذَ حَجَراً فَقَالَ: اللَّهُمَّ إنْ كانَ الرَّاهِبُ أحَبَّ إليكَ من السَّاحِرِ فاقتُلْها، فَقَتَلَها، ثمَّ كانَ الغُلامُ بعد ذلك يُبْرِئُ الأَكْمَهَ والأَبْرَصَ ويُشفِي من الأَمراضِ، فأَخَذَ المَلِكُ الغُلامَ فَقَالَ: ٱرْجِعْ عن دينِكَ، فأبىٰ، فأَمَرَ أَن يُذْهَبَ بِهِ إلىٰ جَبَلٍ فيُطْرَحَ من ذِرْوَتِهِ، فَدَعا فَقَالَ: اللَّهمَّ ٱكْفِنِيهم بِمَا شِئْتَ، فَرَجَفَتْ بهم الخَيْلُ ونَجَا، فذُهِبَ بِهِ إلىٰ قُرقُورٍ[٢] فَلَجَّجُوا بهِ لِيُغْرِقُوهُ، فَدَعا فانْكَفأَتْ بهم السَّفينةُ فَغرِقُوا ونَجَا، فَقَالَ للمَلكِ: لَسْتَ بقَاتِلي حتَّىٰ تَجمَعَ النَّاسَ في صَعيدٍ وتَصْلُبَني علىٰ جذْعٍ وتَأْخُذَ سَهْماً من كِنَانَتي وتَقُولَ: بسمِ ٱللهِ ربِّ الغُلَامِ، ثمَّ ترَميني بهِ، فَرمَاهُ فَوقَعَ في صَدْغِهِ، فَوَضَعَ يَدَهُ عليهِ وماتَ، فَقَالَ النَّاسُ: آمنَّا

(١) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٧٣٠ مرسلًا.

(٢) القُرقُورُ: السفينة الطويلة. (الصحاح: مادة قرقر).

بربِّ الغُلامِ، فَقيلَ للمَلكِ: قَدَ نَزَلَ بكَ ما كُنْتَ تَخَافُ: آمَنَ النَّاسُ! فأَمَرَ بأَخاديدَ علىٰ أَفْواهِ السِّكَكِ وأُوقِدَتْ فيها النِّيرانُ، فَمَنْ لَمْ يَرْجِعْ مِنْهُم طَرَحَهُ فيها، حتَّىٰ جاءَتِ امرأةٌ معَهَا صَبيٌّ فَتَقَاعَسَتْ أن تَقَعَ فيها، فَقَالَ الصَّبيُّ: يا أُمَّاه، اصْبِري فإنَّكِ على الحقِّ، فاقْتَحَمَتْ»(١).

وعن النَّبيِّ ﷺ: «أنّه كانَ إذا ذَكَرَ أَصحابَ الأُخْدُودِ تَعَوَّذَ باللهِ من جَهْدِ البَلَاءِ»(٢).

وعنِ ابنِ عبَّاسٍ: أَدْخَلَ أَرْواحَهُم الجنَّةَ قَبلَ أَن تَصِلَ أَجْسَادُهُم إلى النَّارِ(٣).

﴿النَّارِ﴾ بَدَلُ الاشتِمَالِ من ﴿الأُخْدُودِ﴾، ﴿ذَاتِ ٱلْوَقُودِ﴾ وَصْفٌ لَهَا بأَنَّها نارٌ عَظيمةٌ كَثيرةُ الحَطَبِ، أو: ظَرْفٌ لـ﴿قُتِلَ﴾ أي: لُعِنُوا حينَ أَحدَقُوا بالنَّارِ قَاعِدينَ حَوْلَها. ومعنىٰ ﴿عَلَيْهَا﴾: علىٰ ما يدْنُو مِنْها من حَافَّاتِ الأُخْدُودِ، كقَوْلِ الأَعْشَىٰ:

وبَاتَ على النَّارِ النَّدى والْمُحلَّقُ(٤)

والشُّهُودُ: جَمْعُ شَاهِدٍ، أي: وَهُم يَشْهَدُونَ على إحْراقِ المؤْمنينَ، وُكِّلُوا بذلك لِيَشْهَدَ بعضُهُم لبعْضٍ عِنْدَ المَلكِ أنَّ أَحَداً منْهُم لَمْ يفرِّطْ فيما أُمِرَ بهِ. ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ﴾ وما عَابُوا منْهُم، وما أَنكَروا ﴿إِلَّآ﴾ الإيمانَ، كقَوْلِ الشَّاعِرِ:

ولَا عَيْبَ فيهم غَيْرَ أنَّ سُيوفَهُمْ(٥)

---

(١) أخرجه مسلم في الصحيح: ج ٤ ص ٢٢٩٩ ح ٣٠٠٥ عن صُهَيْبٍ.
(٢) أخرجه السيوطي في الدرّ: ج ٨ ص ٤٦٧ عن الحسن وعزاه الى ابن أبي شيبة في مصنّفه.
(٣) تفسير ابن عباس: ص ٥٠٧.
(٤) وصدره: تُشَبُّ لمقْرُورَيْنِ يَصْطَلِيانِها. من قصيدة طويلة يمدح المحلّق بن خنتم وكان فقيراً وله عشر بنات لا يرغب فيهنّ أحد لفقرهنّ، فنزل به الأعشىٰ وأحسن قِراه فعظم عنده ومدحه في عكاظ، فلم يلبث حتّىٰ خُطِبَت بناته. أُنظر ديوان الأعشىٰ: ص ١٢٥.
(٥) وعجزه: بهنّ فلول من قراع الكتائب. للنابغة الذبياني من أبيات يصف فرساناً. وقد تقدّم شرح البيت في ج ١ ص ٦٨٩.

وذَكَرَ الأَوصَافَ الّتي ٱستَحَقَّ سبحانَهُ بها أَنْ يُـؤْمَنَ بـهِ وَيُـعْبَدَ، وهـو كـونُهُ «عَزيزاً» أي: غَالِباً قَادِراً قَاهِراً «حَميداً» أي: مُنْعِماً، مَحْمُوداً علىٰ نِعَمِهِ، له التَّصَرُّفُ في ﴿ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ وَعِيدٌ لَهُم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَاتِ﴾ أي: أَحْرَقُوهُم وعَذَّبُوهُم بالنَّارِ، وَهُم أصحابُ الأُخْدُودِ ﴿فَلَهُمْ﴾ في الآخِرَةِ ﴿عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ بكُفْرِهِم ﴿وَلَهُمْ عَـذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ في الدُّنْيا، لِمَا رُوِيَ: أنَّ النَّارَ ٱنقَلَبَتْ عليهم فأَحْرَقَتْهُم[١]. ويـجُوزُ أن يُريدَ: ﴿ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: بَلَوْهُم بالأَذىٰ على العُمُومِ، لَهُم عَذابانِ فِـي الآخِرَةِ لِكُفْرِهم وَلِفِتْنَتِهِم.

البَطْشُ: الأَخْذُ بالعُنْفِ، فإذا وَصَفَهُ بالشِّدَّةِ فَقَد تَضَاعَفَ وتَـفاقَمَ. ﴿إِنَّـهُۥ هُـوَ يُبْدِئُ﴾ البَطْشَ ﴿وَيُعِيدُ﴾هُ، أي: يَبْطُشُ بهم في الدُّنْيا والآخِـرَةِ، أو: هـو وَعِـيدٌ للكفَّارِ بأنَّه يُعيدُهُم كَمَا أَبْدَأَهُم، لِيَبْطُشَ بهم إِذْ لَمْ يشْكُروا نِعْمَةَ الإِبْـدَاءِ وكَـذَّبُوا بالإِعَادَةِ. و ﴿ٱلْوَدُودُ﴾: الفَاعِلُ بأَهلِ طاعَتِهِ ما يَفْعَلُهُ الوَدُودُ. قُرِئَ: ﴿ٱلْـمَجِيدُ﴾ بالجرِّ[٢] صِفَةً لـ﴿ٱلْعَرْشِ﴾، ومَجْدُهُ: عُلُوُّهُ وعِـظَمُهُ، كـما أنَّ مَـجْدَ ٱللهِ عَـظَمَتُهُ، وبالرَّفْعِ. ﴿فَعَّالٌ﴾ خَبَرُ مبتَدأ محذُوفٍ.

﴿فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴾ بَدَلٌ من ﴿ٱلْـجُنُودِ﴾، وأَرادَ بِفِرْعَوْنَ إِيَّاهُ وآلَهُ، كَـمَا قَـالَ: ﴿مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ﴾[٣]، والمعنىٰ: قَد عَرِفْتَ تَكْـذيبَ تـلك الجُـنُودِ للـرُّسُلِ، وما نَزَلَ بهم لِتَكْذيبِهِم.

﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ من قَوْمِكَ ﴿فِى تَكْـذِيبٍ﴾ لكَ وٱستيجَابٍ للـعَذَابِ.

---

(١) وهو ما رواه الطبري في تفسيره: ج ١٢ ص ٥٢٥ عن الربيع بن أنس.
(٢) قرأه حمزة والكسائي والمفضّل عن عاصم. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٦٧٨.
(٣) يونس: ٨٣.

﴿وَٱللَّهُ﴾ عَالِمٌ بأَحْوالِهِم وقَادِرٌ عَلَيهم، والإِحَاطَةُ ﴿مِن وَرَآئِهِم﴾ مَثَلٌ لأَنَّـهم لا يفُوتُونَهُ ولا يُعْجِزُونَه، ومعنَى الإِضْرابِ: أنَّ أَمْرَهُم أَعْجَبُ من أَمْرِ أُولئكَ، لأَنَّـهم سَمِعُوا بقِصَصِهِم وبمَا جَرَىٰ عليهم ولَمْ يَعْتَبِروا، وكَذَّبُوا أَشَدَّ من تَكْذيبِهم. ﴿بَلْ﴾ هذا الّذي كَذَّبُوا بِهِ ﴿قُرْءَانٌ مَجِيدٌ﴾ شَريفٌ جَليلُ القَدْرِ، كَثيرُ الخَيْرِ، عَالي الطَّبَقَةِ في الكُتُبِ، وفي نَظْمِهِ وإعْجَازِهِ، وقُرِئَ: ﴿مَحْفُوظٌ﴾ بالرَّفْعِ [١] صِفَةً للقُرآنِ، وبالجرِّ صِفَةً لِللَّوْح.

✡ ✡ ✡

(١) قرأه نافع وحده. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٦٧٨.

سُورَةُ الطَّارِقِ

مكِّيَّةٌ[1]، وهيَ سَبْعُ عَشْرَةَ آيةً.

في حَديثِ أُبيٍّ: «مَنْ قَرَأَها أَعْطَاهُ ٱللهُ بِعَدَدِ كلِّ نَجْمٍ في السَّماءِ عَشْرَ حَسَنَاتٍ»[2].

وعنِ الصَّادقِ عليه السلام: «مَنْ كانَتْ قِرَاءَتَهُ في الفَرِيضَةِ بـ﴿ٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾ كانَ لَهُ يَوْمَ القيامَةِ عنْدَ ٱللهِ جاهٌ وَمنْزِلَةٌ، وكانَ من رُفَقَاءِ النَّبِيِّينَ وأَصْحَابِهِم»[3].

بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ(١) وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ(٢) ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ(٣) إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ(٤) فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ(٥) خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ(٦) يَخْرُجُ مِن بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ(٧) إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ(٨) يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ(٩) فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ(١٠) وَٱلسَّمَآءِ

---

(١) قال الشيخ الطوسي في التبيان: ج ١٠ ص ٣٢٢: مكّية في قول ابن عباس والضحاك، وهي سبع عشرة آيةً في الكوفي والبصري والمدني الأخير، وستّ عشرة آيةً في المدني الأول.

وفي الكشّاف: ج ٤ ص ٧٣٤: مكّية، وآياتها (١٧)، نزلت بعد البلد.

(٢) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٧٣٧ مرسلاً.

(٣) ثواب الأعمال للصدوق: ص ١٥٠، وزاد في آخره: «في الجنّة».

ذَاتِ ٱلرَّجْعِ(١١) وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ(١٢) إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ(١٣) وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ(١٤) إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا(١٥) وَأَكِيدُ كَيْدًا(١٦) فَمَهِّلِ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا(١٧)﴾

ٱلطَّارِقُ: الّذي يَجِيءُ لَيْلًا، كأنَّهُ عزَّ ٱسمُهُ أَرادَ أَن يُقْسِمَ بـ«النَّجْمِ ٱلثَّاقِبِ» أي: المُضيء الّذي يَثْقُبُ الظَّلامَ بضَوْئِهِ فَينْفُذُ فيهِ، لِمَا فيهِ من عَجِيبِ القُـدرةِ ولَـطيفِ الحِكمَةِ، فأَتىٰ بما هو صِفَةٌ مشتَركةٌ بينَهُ وبينَ غَيْرِهِ، وهو ﴿الطَّارِقُ﴾ ثـمَّ فَسَّـرَهُ بقَولِهِ: ﴿ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ﴾ إِظْهاراً لِفَخَامَةِ شَأْنِهِ. وجَوابُ القَسَمِ قَولُهُ: ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ لأنَّ مَنْ قَرَأَ ﴿لَمَّا﴾ مشدَّدَةً فـ﴿إِنْ﴾ هي النَّافيةُ. و «لمَّا» بمعنىٰ: «إلَّا»، ومَنْ قَرَأَها مخفَّفةً[1] فـ«مَا» صِلَةٌ، و «إِنْ» هي المخَفَّفَةُ من الثَّقيلَةِ، وكِلَاهُما ممَّا يَتَلقَّىٰ بِهِ القَسَمُ، والمعنىٰ: ما كُلُّ نَفْسٍ إلاّ عليها حَافِظٌ من المـلائكةِ، يَـحْفَظُ عَمَلَها ويُحْصِي عليها ما كَسَبَتْ من خَيْرٍ أو شَرٍّ، أو: حَافِظٌ رَقيبٌ عليها وهـو ٱللهُ عزّوجلَّ ﴿وَكَانَ ٱللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيباً﴾[2]

﴿فَلْيَنْظُرِ ٱلْإِنْسَـٰنُ مِمَّ خُلِقَ﴾ هذهِ تَوصِيَةٌ للإِنسانِ بالنَّظَرِ في بَدْءِ أَمْرِهِ حـتَّىٰ يَعْلَمَ أنَّ من أَنْشَأَ النَّشْأَةَ الأُولىٰ قَادِرٌ علىٰ إعادَتِهِ، فَيَعْمَلُ ليومِ الإِعَـادَةِ، و ﴿مِمَّ خُلِقَ﴾ استِفْهَامٌ، جَوابُهُ: ﴿خُلِقَ مِنْ مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ أي: ذِي دَفْـقٍ، كـاللَّابنِ والتَّـامِرِ، والدَّفْقُ: صَبٌّ فيهِ دَفْعٌ، ولَمْ يَقُلْ: ماءَيْنِ، لامتِزاجِهِما في الرَّحمِ واتِّحادِهِما حينَ ٱبْتُدِئَ في خَلْقِهِ. ﴿يَخْرُجُ مِنْ بَينِ﴾ صُلْبِ الرَّجُلِ وتَرَائِبِ المـرأَةِ، وهـي عِـظَامُ الصَّدْرِ.

﴿إِنَّهُ﴾ الضَّميرُ للخالِقِ لدَلالَةِ ﴿خُلِقَ﴾ عـليهِ، ومـعناهُ: أَنَّ ذلك الّذي خَـلَقَ

---

(١) وهي قراءة ابن‌كثير ونافع وأبي عمرو والكسائي. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٦٧٨.
(٢) الأحزاب: ٥٢.

الإِنْسانَ ٱبتداءً من نُطْفَةٍ ﴿عَلَىٰ رَجْعِهِ﴾ علىٰ إعادَتِهِ خُصُوصاً ﴿لَقَادِرٌ﴾ لَبَيِّنُ القُدْرَةِ، لا يَعْجِزُ عَنْهُ.

﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ منصُوبٌ بـ﴿رَجْعِهِ﴾، وعَنْ مُجَاهِدٍ: أنَّه علىٰ رَدِّ الماءِ إلىٰ مَخْرَجِهِ من الصُّلْبِ والتَّرائِبِ لَقَادِرٌ[1]. وعلىٰ هذا فيكُونُ الظَّرْفُ منْصُوباً بمُضْمَرٍ ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ أي: تُخْتَبَرُ السَّرائِرُ في القُلُوبِ من العَقَائِدِ والنيَّاتِ وغَيْرِها، وما أَسَرَّ وما أَخْفَىٰ من الأَعمالِ، فَيُميِّزُ بين ما طَابَ منْها وما خَبُثَ. ﴿فَمَا لَهُۥ﴾ أي: فما للإِنْسانِ ﴿مِن قُوَّةٍ﴾ من مِنْعَةٍ في نَفْسِهِ يَمتَنِعُ ﴿وَلَا نَاصِرٍ﴾ يَمْنَعُهُ.

﴿وَٱلسَّمَاءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ﴾ وهو المَطَرُ، سمِّي بالمَصْدَرِ لأنَّ ٱللهَ يُرْجِعُهُ وَقْتاً فَوَقْتاً. و ﴿ٱلصَّدْعِ﴾ ما يَتَصَدَّعُ الأَرْضُ عنْهُ من النَّباتِ. ﴿إِنَّهُۥ﴾ الضَّميرُ للقُرآنِ ﴿لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾ فَاصِلٌ بين الحقِّ والباطِلِ، كَمَا قيلَ لَهُ: فُرْقَانٌ. ﴿وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ﴾ بَلْ هو الجِدُّ لَا هَوَادَةَ فيهِ، فَمِنْ حقِّهِ أن يكُونَ مُعظَّماً في القُلُوبِ مهيباً في الصُّدُورِ، ومِنْ حقِّ قَارِئِهِ وسَامِعِهِ أَن لَا يَلُمَّ بهَزْلٍ ولَعِبٍ، ويُقَرِّرَ في نَفْسِهِ أنَّ إلٰهَهُ وربَّهُ جلَّ جلالُه يخَاطِبُهُ، فيأْمُرُهُ وينْهَاهُ، وَيَعِدُهُ ويُوعِدُهُ، فإذا مَرَّ بآيةِ الوَعْدِ تَضَرَّعَ إليهِ رَاجِياً أن يكُونَ من أَهْلِها، وإذا مَرَّ بآيةِ الوَعيدِ تَعَوَّذَ بهِ خَائِفاً أن يكُونَ من أَهْلِها.

﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ﴾ يَحتَالُونَ في إيقَاعِ المكْروهِ بكَ وبِمَنْ مَعَكَ. ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ أُدَبِّرُ ما يَنْقُضُ كَيْدَهُم وٱحتِيَالَهُم مِن حيثُ يَخْفَىٰ عليهم، ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ لا تَدْعُ بِهلَاكِهِم ولا تَستَعْجِلْ بهِ، وٱرْضَ بتَدْبيرِ ٱللهِ فيهم و ﴿أَمْهِلْهُمْ﴾ أَرادَ التَّوكيدَ وكَرِهَ التَّكريرَ، فَخَالَفَ بين اللَّفظَيْنِ، ولمَّا زَادَ في التَّوكيدِ أَتَىٰ بالمعنىٰ وتَرَكَ اللَّفْظَ فَقَالَ: ﴿رُوَيْدًا﴾ أي: إمْهَالاً يَسيراً.

❁ ❁ ❁

---

(١) تفسير مجاهد: ص ٧٢٠.

سُورَةُ الأَعْلىٰ[1]

مكِّيةٌ[2]، وقيلَ: مَدَنيةٌ[3]، تِسْعُ عَشْرَةَ آيةً.

في حَديثِ أُبيٍّ: «مَنْ قَرَأَها أَعْطَاهُ ٱللهُ من الأَجْرِ عَشْرَ حَسَنَاتٍ بِعَدَدِ كلِّ حَرفٍ أَنْزَلَهُ علىٰ إبراهيمَ وموسىٰ ومحمَّدٍ عليهم السلام»[4].

وعنِ الصَّادقِ عليه السلام: «مَنْ قَرَأَ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ في فَريضَةٍ أو نَافِلَةٍ قيلَ لَهُ يَوْمَ القِيَامةِ: ادخُلْ من أيِّ أَبوابِ الجِنَانِ شِئْتَ»[5].

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى(١) ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ(٢) وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ(٣) وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ(٤) فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ(٥) سَنُقْرِئُكَ

---

(١) في بعض النسخ: «سورة سبِّح ٱسْمَ».

(٢) قال الشيخ الطوسي في التبيان: ج ١٠ ص ٣٢٩: مكّية في قول ابن عباس، وقال الضحّاك: هي مدنيّة، وهي تسع عشرة آيةً بلاخلاف.

وفي الكشّاف: ج ٤ ص ٧٣٧: مكّية، وآياتها (١٩)، نزلت بعد التكوير.

(٣) وفي الإتقان: ج ١ ص ٥٢: الجمهور على أنّها ـ أي سورة الأعلىٰ ـ مكّية، وقال ابن الفَرْس: وقيل: إنّها مدنيّة لذكر صلاة العيد وزكاة الفطر فيها.

(٤) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٧٤١ مرسلاً.

(٥) ثواب الأعمال للصدوق: ص ١٥٠ وزاد في آخره: «إن شاء الله».

فَلَا تَنسَىٰٓ(٦) إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ(٧) وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ(٨) فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ(٩) سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ(١٠) وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى(١١) ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ(١٢) ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ(١٣) قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ(١٤) وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ(١٥) بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا(١٦) وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ(١٧) إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ(١٨) صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ(١٩)﴾

عنِ ٱبنِ عبَّاسٍ: كانَ النَّبيُّ ﷺ إذا قرأَ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ قالَ: «سُبحانَ رَبِّي الأَعْلَىٰ»[١]. ومعنَاهُ: نَزِّهْ رَبَّكَ عن كلِّ ما لا يليقُ بهِ من الصِّفَاتِ الَّتي هي إلْحادٌ في أَسمائِهِ: كالجَبْرِ والتَشْبيهِ ونَحْوِ ذلكَ. و ﴿ٱلْأَعْلَىٰ﴾ يجُوزُ أن يكُونَ صِفَةً للربِّ وللاسْمِ، وهو بمعنَى العُلُوِّ الّذي هو القَهْرُ والاقتِدَارُ.

وفي الحَديثِ: لمَّا نَزَلَ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ قَالَ: اجْعَلُوها في سُجُودِكُم، ولمَّا نَزَلَتْ: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾[٢] قَالَ: اجْعَلُوها في رُكُوعِكُم[٣].

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ كُلَّ شيءٍ ﴿فَسَوَّىٰ﴾ خَلْقَهُ تَسْويةً، ولَمْ يأْتِ بهِ متَفاوتاً غَيْرَ مُلْتَئِمٍ، ولكِن علىٰ إحْكامٍ وٱنتِظَامٍ لِيدُلَّ علىٰ أنَّه صَادِرٌ من عَالمٍ حَكيم. ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ﴾ لكلِّ حيوانٍ ما يُصْلِحُهُ ﴿فَهَدَىٰ﴾هُ وعرَّفَهُ وَجْهَ الانتفاعِ بهِ، حتَّىٰ إنّه هَدَى الطِّفْلَ إلىٰ ثَدْيِ أُمِّهِ، والفَرْخَ إلىٰ طَلَبِ الزَّقِّ من أُمِّهِ. وهدَايَاتُ ٱللهِ للإنسانِ إلىٰ ما لا يُحدُّ ولا يُعَدُّ من مَصَالِحِهِ في أغْذِيتِهِ وأَدويَتِهِ، وفي أُمورِ دنْياهُ وآخرتِهِ، وإلْهَامَاتُ البَهائمِ والطُيورِ والحيوانَاتِ بابٌ واسِعٌ لا يُحاطُ بكُنْهِهِ، فسُبْحَانَ ربِّنا

(١) تفسير ابن عباس: ص ٥٠٨. (٢) الواقعة: ٧٤ و ٩٦، الحاقة: ٥٢.
(٣) أخرجه ابن ماجة في السنن: ج ١ ص ٢٨٧ ح ٨٨٧ عن عقبة بن عامر الجهني.

الأعلىٰ تبارَكَ وتعالىٰ. وقُرئَ: «قَدَرَ» بالتَّخفيفِ[١]، وهو قِراءَةُ عليٍّ عليه السلام[٢] والمعنىٰ واحِدٌ. ﴿أحْوَىٰ﴾ صِفَةٌ لِـ﴿غُثَاءً﴾، أي: ﴿أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ فَجَعَلَهُ﴾ بَعْدَ خُضْرَتِهِ ورَفيفِهِ ﴿غُثَاءً أَحْوَىٰ﴾ أي: دَرِيناً أَسْوَدَ، ويجُوزُ أن يكُونَ ﴿أَحْوَىٰ﴾ حالاً مِن ﴿ٱلْمَرْعَىٰ﴾ أي: أَخْرَجَهُ أَحْوىً: أَسْودَ من شِدَّةِ الخُضْرَةِ والرَّيِّ، فَجَعَلَهُ غُثاءً بَعْدَ حُوَّتِهِ.

﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ﴾ هذهِ بِشارَةٌ بَشَّرَ نَبيَّهُ عليه الصلاة والسلام بها، وهو أن يَقْرأَ عليه جبرائيل عليه السلام ما يَقرؤُهُ من الوَحْيِ، وهو أُمِّيٌّ لا يَقْرأُ ولا يكتُبُ، فَيَحْفظُهُ ولا يَنْسَاهُ. ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ فَذَهَبَ بِهِ عن حِفْظِهِ بِرَفْعِ حُكْمِهِ وتِلَاوتِهِ، كَمَا قَالَ: ﴿أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا﴾[٣]، وهذهِ آيةٌ بيِّنةٌ ومُعْجِزَةٌ دالَّةٌ علىٰ نُبوَّتِهِ.

﴿إِنَّه يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾ معناهُ: أنَّه يعْلَمُ ما تَجْهَرُ بِقِراءَتِهِ مع جبرائيلِ مخافَةَ التَفلُّتِ وما تُخْفي في نَفْسِكَ، أو: يَعْلَمُ ما أَعْلَنْتُم وما أَخْفَيْتُم من أقوالِكُم وأَفعالِكُم وأعمالِكُم، وما ظَهَرَ وما بَطَنَ من أحوالِكُم، وما هو مَصْلَحَةٌ في دينِكُم وما هو مَفْسَدَةٌ فيهِ.

﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ﴾ مَعْطُوفٌ علىٰ: ﴿سَنُقْرِئُكَ﴾، وقَوْلُهُ: ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾ اعْتِرَاضٌ، والمعنىٰ: ونُوفِّقُكَ للطريقَةِ الّتي هي أَيْسَرُ وأَسْهَلُ، يعني: حِفظَ الوَحْيِ وتَسْهيلَهُ، وقيلَ للشَّريعةِ الحَنيفيَّةِ: السَّمْحَةُ الّتي هي أَيْسَرُ الشَّرائعِ وأَسْهَلُها مأْخَذاً.

﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ أي: ذَكِّرْ الخَلْقَ وَعِظْهُم، وَكَرِّرِ التَّذكيرَ بَعْدَ إلْزامِ

---

(١) قرأه الكسائي وحده. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٦٨٠.

(٢) حكاه عنه عليه السلام الفرّاء في معاني القرآن: ج ٣ ص ٢٥٦.

(٣) البقرة: ١٠٦.

الحجَّةِ إنْ نَفَعَتْ ذِكْراكَ وإلَّا فَأَعْرِضْ عَنْهُم، وقيلَ: معناهُ: ذَكِّرْهُم ما بَعَثْتُكَ لَـهُ إنْ نَفَعَتْ ذِكْراكَ وإنْ لَمْ يَنْفَعْ، فإنَّ إزاحَةَ عِلَّتِهِم تَقْتَضي تَذْكيرَهُم وإنْ لَمْ يَـقْبَلُوا[1].

﴿سَيَذَّكَّرُ﴾ سَيَقْبَلُ التَّذْكِرَةَ ويَنْتَفِعُ بها ﴿مَنْ يَخْشَىٰ﴾ اللهَ، فَيَنْظُرُ ويُفَكِّرُ حتَّىٰ تُعَوِّدَهُ النَّظَرَ إلَى ٱتِّباعِ الحقِّ. ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا﴾ ويَتَجَنَّبُ الذِكْرىٰ ويَتَحامَاها ﴿ٱلْأَشْقَى﴾ الَّذي كَفَرَ باللهِ وبتَوحيدِهِ. ﴿ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ نَارَ جَهَنَّمَ، والصُّغْرىٰ نَارُ الدُّنْيا. ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا﴾ فَيستَريحُ، ﴿وَلَا يَحْيَىٰ﴾ حَياةً يَنْتَفِعُ بها.

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّىٰ﴾ أي: تَطَهَّرَ من الشِّـرْكِ وقَـالَ: لا إِلٰـه إلَّا ٱللهُ، وقـيلَ: ﴿تَزَكَّىٰ﴾ تَطَهَّرَ للصَّلَواتِ فَصَلَّى الصَّلَواتِ الخَمْسَ[2]، وقيلَ: أَعْطىٰ زَكَاةَ مالِهِ[3]، وقيلَ: أَرادَ زَكَاةَ الفِطْرِ وصَلَاةَ العيدِ[4]. وعن الضَّحَّاكِ: ﴿وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّـهِۦ﴾ فـي طَريقِ المُصَلَّىٰ ﴿فَصَلَّىٰ﴾ صَلَاةَ العيدِ[5]. ﴿بَـلْ تُـؤْثِرُونَ﴾ تَـخْتَارونَ ﴿ٱلْحَـيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ علَى الآخرةِ، ولا تَتَفَكَّرُونَ في أُمورِ الآخرَةِ. وقُرِئَ: «يُـؤْثِرُونَ» بـالياءِ على الغَيْبَةِ[6]، ﴿وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ أَفْضَلُ في نَفْسِها وأَدْوَم.

وفي الحَـديثِ: «مَـنْ أَحَبَّ آخِـرَتَهُ أَضَـرَّ بـدُنْياهُ، ومَـنْ أَحَبَّ دُنـياهُ أَضَـرَّ بآخِرَتِه»[7].

﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ الّذي ذُكِرَ من قَولِهِ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ إلىٰ قَـولِهِ: ﴿وَأَبْـقَىٰ﴾ والمُـرادُ:

---

(١) قاله الفرّاء والنحّاس والجرجاني والزهراوي. راجع تفسير الآلوسي: ج ٣٠ ص ١٠٨.
(٢) قاله ابن عباس. راجع تفسير الطبري: ج ١٢ ص ٥٤٨.
(٣) قاله أبو الأحوص وقتادة. راجع المصدر السابق: ص ٥٤٧.
(٤) وهو قول أبي العالية. راجع المصدر نفسه.
(٥) حكاه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٧٤٠.
(٦) وهي قراءة أبي عمرو وحده. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٦٨٠.
(٧) أخرجه البيهقي في السنن الكبرىٰ: ج ٣ ص ٣٧٠ عن أبي موسى الأشعري.

أنَّ معنىٰ هذا الكلامِ وَارِدٌ في تلكَ ﴿ٱلصُّحُفِ﴾، وقيلَ: ﴿هَٰذَا﴾ إشَارةٌ إلىٰ ما في السُّورةِ كُلِّها (١).

وعن أبي ذرٍّ قالَ: قُلْتُ: يا رَسُولَ ٱللهِ ﷺ كَمِ الأنبياءُ؟ قالَ: مِائَةُ أَلْفِ نبيٍّ وأَربَعَةٌ وعشرونَ أَلْفِ نَبيٍّ، قُلْتُ: يا رَسُولَ ٱللهِ ﷺ كَمِ المُرْسَلُونَ مِنْهُم؟ قَالَ: ثلاثمائةٍ وثَلاثَةُ عَشَر، قُلْتُ: كَمْ أَنْزَلَ ٱللهُ من كتَابٍ؟ قَالَ: مِائَةٌ وأَربَعَةُ كُتُبٍ: أَنْزَلَ مِنْها علىٰ آدَمَ عَشْرَ صُحُفٍ، وعلىٰ شيثٍ خَمسِينَ صَحيفَةً، وعلىٰ أخنُوخ ـ وهو إدريسُ ـ ثَلاثينَ صَحيفَةً، وهو أَوَّلُ مَنْ خَطَّ بالقَلَمِ، وعلىٰ إبراهيمَ عَشْرَ صُحُفٍ، والتَّوراةَ، والإنْجيلَ، والزَّبُورَ، والفُرْقَانَ» (٢).

۞ ۞ ۞

---

(١) قاله ابن العربي في أحكام القرآن: ج ٤ ص ٣٨٢.

(٢) أخرجه الطبري في تاريخه: ج ١ ص ١٥١ و ١٥٢ و ٣١٢ ـ ٣١٣ عن أبي إدريس الخولانيّ عن أبي ذرّ.

سُورَةُ الغَاشِيَة

مكّيةٌ[1] وهيَ سِتٌّ وعشْرونَ آيةً.

في حَديثِ أُبيٍّ: «مَنْ قَرَأَها حَاسَبَهُ ٱللهُ حِسَاباً يَسيراً»[2].

وعنِ الصَّادقِ عليه السلام: «مَنْ أَدْمَنَ قِراءَةَ الغَاشِيَةِ في فَريضَةٍ أو نَافِلَةٍ غَشَّاهُ ٱللهُ رحمتَهُ في الدُّنيا والآخِرَةِ، وأَعْطَاهُ الأَمْنَ يَوْمَ القِيَامَةِ من عَذَابِ النَّار»[3].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ(١) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ(٢) عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ(٣) تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً(٤) تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ(٥) لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ(٦) لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ(٧) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ(٨) لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ(٩) فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ(١٠) لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً(١١) فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ(١٢) فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ(١٣) وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ(١٤) وَنَمَارِقُ

---

(١) قال الشيخ الطوسي في التبيان: ج ١٠ ص ٣٣٣: مكّية في قول ابن عباس والضحاك، وهي ستّ وعشرون آيةً بلاخلاف.

وفي الكشّاف: ج ٤ ص ٧٤١: مكّية، وآياتها (٢٦)، نزلت بعد الذّاريات.

(٢) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٧٤٥ مرسلًا.

(٣) ثواب الأعمال للصدوق: ص ١٥٠ وفيه: «آتاه» بدل «أعطاه».

مَصْفُوفَةٌ(١٥) وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ(١٦) أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ(١٧) وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ(١٨) وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ(١٩) وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ(٢٠) فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ(٢١) لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ(٢٢) إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ(٢٣) فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ(٢٤) إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ(٢٥) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم(٢٦)﴾

﴿ٱلْغَـٰشِيَةِ﴾ القيامَةُ تَغْشَى النَّاسَ بأَهْوالِها وشَدائِدِهَا، وقيلَ: هي النَّارُ[١]، من قَوْلِهِ: ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾[٢]. ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يَوْمَ إِذْ غَشِيَتْ. ﴿خَـٰشِعَةٌ﴾ ذَليلةٌ بالعَذَابِ الّذي يَغْشَاها. ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ عامِلَةٌ في النَّارِ عَمَلًا تَتْعَبُ فيهِ، وهو جَرُّها في السَّلاسِلِ والأَغْلالِ، وٱرتقاؤُها دائِبَةً في صُعُودٍ منْها وهُبُوطِها في حُدُورٍ منْها، وقيلَ: عَمِلَتْ ونَصِبَتْ في الدُّنيا في أَعْمالٍ لا تُجْدِي عليها في الآخِرَةِ[٣] ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ﴾[٤] ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً﴾[٥]، عنْ سَعيدِ بنِ جُبَيْرٍ: وَهُم الرُّهْبانُ وأَصحَابُ الصَّوامِعِ وأَهْلُ البِدَعِ، لا يَقْبَلُ اللهُ أَعْمَالَهُم[٦].

وعنِ الصَّادقِ عليه السلام: كلُّ عدُوٍّ لَنا وإنْ تَعَبَّدَ وٱجتَهَدَ يَصيرُ إلىٰ هذهِ الآية[٧].

قُرِئَ: ﴿تَصْلَىٰ﴾ بفَتْحِ التَّاءِ وضَمِّها[٨] ﴿حَامِيَةً﴾ حُمِيَتْ فَهي تَتَلَظَّىٰ علىٰ

---

(١) قاله سعيد بن جبير. راجع تفسير الطبري: ج ١٢ ص ٥٥٠.

(٢) ابراهيم: ٥٠.

(٣) قاله ابن عباس. راجع تفسير البغوي: ج ٤ ص ٤٧٨.

(٤) آل عمران: ٢٢. (٥) الكهف: ١٠٤.

(٦) حكاه عنه البغوي في تفسيره: ج ٤ ص ٤٧٨.

(٧) رواه علي بن ابراهيم القمي في تفسيره: ج ٢ ص ٤١٩ باسناده عن أبي حمزة، والصدوق في ثواب الاعمال: ص ٢٤٧ ح ٣ باسناده عن أبان بن تغلب.

(٨) وبضمّ التاء قرأه أبوعمرو وأبو بكر عن عاصم. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٦٨١.

أَعداءِ ٱللهِ. ﴿عَيْنٍ ءَانِيَةٍ﴾ حارَّةٍ بَلَغَتْ منْتَهاها في الحَرِّ. الضَّرِيعُ: يَبِيسُ الشِّبْرَقِ، وهو جِنْسٌ من الشَّوْكِ تَرعَاهُ الإِبلُ ما دَامَ رَطْباً، فإذا يَبِسَ تَحَامَتْهُ، وهو سُمٌّ قَاتِلٌ. ﴿لَا يُسْمِنُ﴾ مرفوعُ المَحَلِّ أو مَجْرورُهُ، علىٰ وَصْفِ ﴿طَعَامٌ﴾ أو ﴿ضَرِيعٍ﴾، يعني: أنَّ طَعَامَهُم من شَيءٍ لَيْسَ من مَطَاعِمِ الإِنْسِ وإِنَّما هو شَوْكٌ، والشَّوْكُ مِمَّا تَرعَاهُ الإبلُ، وهذا نَوْعٌ منْهُ تَنْفُرُ عنْهُ ولا تَقْرَبُهُ، ومَنْفَعَتَا الغذَاءِ منْتَفيَتَانِ عنْهُ، وَهُما: إِمَاطَةُ الجُوعِ وإِفَادَةُ القُوَّةِ والسِّمَنُ في البَدَنِ، وقيلَ: إنَّ كُفَّارَ قُرَيْشٍ قَالَتْ: إنَّ الضَّريعَ لَتَسْمَنُ عليهِ إِبِلُنَا، فنَزَلَتْ: ﴿لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ﴾ [١].

﴿نَاعِمَةٌ﴾ مُنَعَّمَةٌ من أَنْواعِ النَّعِيمِ، أو: ذَاتُ بَهْجَةٍ وحُسْنٍ. ﴿لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾ رَضِيَتْ بِعَمَلِها لمَّا رَأَتْ ما أَدَّاهم إليهِ من الكَرَامَةِ والثَّوابِ. ﴿فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ مرتَفِعَةِ القُصُورِ والدَّرَجَاتِ، أو: عَالِيَةِ المِقْدَارِ. ﴿لَّا تَسْمَعُ﴾ الوُجُوهُ، أو: هُوَ خِطَابٌ للنَّبِيِّ ﷺ ﴿لَـٰغِيَةً﴾ أَو لَغْواً، أو: كَلِمَةً ذَاتَ لَغْوٍ، أو: نَفْساً تَلْغُو، لا يَتَكَلَّمُ أَهْلُ الجنَّةِ إلَّا بالحِكْمَةِ وحَمْدِ ٱللهِ، وقُرِئَ: «لَا يُسْمَعُ» علىٰ البنَاءِ للمفعُولِ بالياءِ والتَّاءِ [٢]. ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ يُريدُ: عُيُوناً في غَايَةِ الكَثْرَةِ، كقَولِهِ: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ﴾ [٣]. ﴿سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ﴾ مرتَفِعَةُ المِقْدَارِ أو السَّمْكِ ليَرَىٰ المؤمنُ بجلُوسِهِ عليهِ جميعَ ما خَوَّلَهُ رَبُّهُ من المُلْكِ. ﴿وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ﴾ علىٰ حَافَّاتِ العُيُونِ الجَارِيَةِ، أو: كُلَّما أَرَادَ المؤمنُ شُرْبَها وَجَدَها مَمْلُوءَةً حاضِرَةً لا يَحتَاجُ إلىٰ أَن يَدْعُو بِهَا. ﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ﴾ أي: وَسَائِدُ صُفَّ بَعضُها إلىٰ جَنْبِ بَعْضٍ، مَسَانِدُ ومَطَارِحُ أَيْنَما أَرادَ أَن يَجْلِسَ جَلَسَ علىٰ مِسْوَرَةٍ، وٱسْتَنَدَ إلىٰ أُخرىٰ. ﴿وَزَرَابِىُّ﴾ بُسُطٌ

---

(١) قاله الزجَّاج في معاني القرآن: ج ٥ ص ٣١٧.

(٢) والياءِ مبنياً للمفعول قرأه ابن كثير وأبو عمرو، وبالتاء كذلك قرأه نافع وابن كثير برواية شبل عنه. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٦٨١.

(٣) التكوير/١٤.

عِرَاضٌ فَاخِرَةٌ، وقيلَ: طَنَافِسُ لَـهَا خَـمَلٌ رَقِـيقٌ[١]، جَـمْعُ زَرِيـبَةٍ ﴿مَـبْثُوثَةٌ﴾ مَبْسُوطَةٌ، أو: مفرَّقةٌ في المَجَالسِ.

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ﴾ نَظَرَ ٱعْتِبَارٍ ﴿كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ خَلْقاً عَجِيباً، فَهي تَنْقَادُ لكلِّ مَنِ ٱقتَادَهَا بأَزِمَّتِها، وتبْرُكُ حتَّىٰ تَحْمِلَ أَحمَالَها، ثمَّ تَنْهَض بـهـا إلى البـلادِ الشَّاسِعَةِ، وليس ذلكَ في غَيْرِها من ذَوَاتِ الأَرْبَعِ، وَصَبَرَتْ على ٱحتمَالِ العَطَشِ حتَّىٰ أنَّ أَظْمَاءَهَا[٢] تَرتَفعُ إلى العَشْرِ فَصَاعِداً، إذْ جُعِلَتْ سَـفائِنَ البَـرِّ. ﴿كَـيْفَ رُفِعَتْ﴾ رَفْعاً بعيدَ المَدَىٰ بلَا مسَّاكٍ وبِغَيْرِ عَمَدٍ. ﴿كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ نَصْباً ثَابِتاً فَـهِيَ راسِخَةٌ لا تَزُولُ. ﴿كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ سَطْحاً فَهِيَ مِـهَادٌ يُـتَقَلَّبُ عـليها. ورُوِيَ: أنَّ عليّاًعليه السلام قَرَأَ: «خَلَقْتُ» وَ «رفَعْتُ» و «نَصَبْتُ» و «سَطَحْتُ» على البناءِ للـفَاعِلِ وتَاءِ الضَّميرِ[٣]، والتَّقْديرُ في الجَميعِ: فَعَلْتُهَا، فَـحُذِفَ المـفْعُولُ. والمـعنىٰ: أَفَـلا يَنْظُرُونَ إلىٰ هذهِ المخلوقَاتِ الدالَّة على الصَّانعِ القادِرِ العَـالِمِ حـتَّىٰ لا يُـنْكِرُوا ٱقْتِدَارَهُ على البَعْثِ والإِعادَةِ، ويؤْمِنُوا برَسُولِهِ، ويستَعِدُّوا للقَائِهِ؟

﴿فَذَكِّرْ﴾ يعني: أَنَّهم لَمْ يَنْظُرُوا فَذَكِّرْهُم ولا يَـهمَّنَّكَ أَنَّـهم لا يَـنْظُرونَ ولا يَذَّكَّرونَ، وَ ﴿إِنَّما أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ كقَولِهِ: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ﴾[٤]. ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾ أي: بمتَسلِّطٍ، كقَولِهِ: ﴿وَمَآ أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾[٥] ﴿إِلَّا مَـنْ تَـوَلَّىٰ﴾ ٱستِثْنَاءٌ منْقَطِعٌ، أي: لَستَ بِمُسْتَوْلٍ عليهم، ولكِن مَنْ تَوَلَّىٰ مِنْهم فـإِنَّ للهِ الولَايـةَ والقَهْرَ، فَهُو يُعَذِّبُهُ ﴿ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ﴾ الّذي هو عَذَابُ جهَنَّمَ، وقيلَ: هو ٱسـتِثْنَاءٌ

---

(١) قاله الفرّاء في معاني القرآن: ج ٣ ص ٢٥٨.

(٢) الظِمْءُ: ما بين الوِرْدَيْنِ، وهو حبس الإبـل عـن المـاء الى غـاية الوِرْدِ، والجـمع: أَظْـماءُ (الصحاح: مادة ظمأ).

(٣) حكاه عنهعليه السلام ابن خالويه في شواذ القرآن: ص ١٧٣.

(٤) الشورىٰ: ٤٨. (٥) قٓ: ٤٥.

من قَولِهِ: ﴿فَذَكِّرْ﴾ إلَّا مَنِ ٱنْقَطَعَ طَمَعُكَ عن إيْمانِهِ وتَولَّىٰ فاسْتَحَقَّ العَذَابَ الأكبر، وما بَينَهُما ٱعتِرَاضٌ[1].

وقُرئَ: «إيَّابَهُمْ» بالتَّشديدِ[2]، وأَصْلُهُ: أَوَّابٌ، مِن: أَوَّبَ، ثمَّ قُلِبَ الوَاوُ ياءً كـ«دِيَوان»، ثمَّ فُعِلَ بِهِ ما فُعِلَ بأَصْلِ «سيِّد» و «هيِّن»، والمعنىٰ في تَقْديمِ الظَّرْفِ: التَّشديدُ في الوَعيدِ، وإنَّ ﴿إِيَابَهُمْ﴾ لَيْسَ إلَّا إلى القَهَّارِ المقْتَدرِ على الانتقَامِ، وإنَّ ﴿حِسَابَهُمْ﴾ لَيْسَ بِوَاجِبٍ إلَّا عَلَيه.

(١) قاله الفرّاء في معاني القرآن: ج ٣ ص ٢٥٨.

(٢) وهي قراءة أبي جعفر المدني. راجع شواذ القرآن: ص ١٧٣.

سُورَةُ الفَجْر

مكِّيَّةٌ[1]، ثَلاثُونَ آيةً كوفيٌّ، تِسْعٌ وعشْرونَ بصريٌّ، عَدَّ الكوفيُّ: ﴿فِى عِبَٰدِى﴾[2].

في حَديثِ أُبيٍّ: «مَنْ قَرَأَها في لَيالٍ عَشْرٍ غُفِرَ لَهُ، ومَن قَرَأَها في سائرِ الأيَّامِ كانَتْ له نُوراً يَوْمَ القِيَامَةِ»[3].

وعن الصَّادقِ عليه السلام: «اقرؤُوا سُورةَ الفَجْرِ في فَرائِضِكُم ونَوافِلِكُم فإنَّها سُورةُ حُسَيْنِ بنِ عليٍّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، مَنْ قَرَأَها كانَ مع الحُسينِ عليه السلام يَوْمَ القيامَةِ في دَرَجَتِهِ من الجنَّة»[4].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَٱلْفَجْرِ(١) وَلَيَالٍ عَشْرٍ(٢) وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ(٣) وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ(٤)

(١) قال الشيخ الطوسي في التبيان: ج ١٠ ص ٣٤٠: مكّية في قول ابن عباس، وقال الضحاك: هي مدنيّة. وهي ثلاثون آيةً في الكوفي، وتسع وعشرون في البصري، واثنتان وثلاثون في المدنيّين.

وفي الكشّاف: ج ٤ ص ٧٤٦: مكّية، وآياتها (٣٠) وقيل: (٢٩)، نزلت بعد اللّيل.

(٢) الآية: ٢٩.

(٣) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٧٥٣ مرسلًا.

(٤) ثواب الأعمال للصدوق: ص ١٥٠ وزاد: «إن شاء الله».

هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ(٥) أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ(٦) إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ(٧) ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ(٨) وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِالْوَادِ(٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي ٱلْأَوْتَادِ(١٠) ٱلَّذِينَ طَغَوْاْ فِي ٱلْبِلَٰدِ(١١) فَأَكْثَرُواْ فِيهَا ٱلْفَسَادَ(١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ(١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ(١٤) فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّيَ أَكْرَمَنِ(١٥) وَأَمَّآ إِذَا مَا ابْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّيَ أَهَٰنَنِ(١٦) كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ(١٧) وَلَا تَحَٰضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ(١٨) وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا(١٩) وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا(٢٠) كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا(٢١) وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا(٢٢) وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ(٢٣) يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي(٢٤) فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ(٢٥) وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ(٢٦) يَٰأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ(٢٧) ٱرْجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً(٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبَٰدِي(٢٩) وَٱدْخُلِي جَنَّتِي(٣٠)﴾

الفَجْرُ: شقُّ عَمُودِ الصُّبْحِ، أَقْسَمَ عزَّ ٱسمُهُ بِهِ كَمَا أَقْسَم بالصُّبْحِ في قولِهِ: ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ﴾[1]. ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾[2]، ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ يَعني: عَشْرَ ذي الحِجَّةِ، وقيلَ: هي العَشْرُ الأَواخِرُ من شهر رَمَضَان[3]، وإنَّما نُكِّرَتْ لأنَّها ليالٍ مخْصُوصَةٌ من بينِ جنْسِ الليالي العَشْرِ وبَعْضٌ منها، أو: مخْصُوصَةٌ بِفَضَائِلَ ليسَتْ لِغَيْرِها.

﴿ٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ﴾ إمَّا الأَشياءُ كُلُّها شَفْعُها وَوَتْرُها، وإمَّا شَفْعُ هذهِ اللَّيالي وَوَتْرُها، أو: ﴿ٱلشَّفْعِ﴾: يَوْمُ النَّحرِ لأنَّه عَاشِرُ أيَّامِها ﴿وَٱلْوَتْرِ﴾ عَرَفَةُ لأنَّها تَاسِعُ

(١) المدَّثر: ٣٤.
(٢) التكوير: ١٨.
(٣) قاله ابن عباس برواية أبي ظبيان عنه. راجع تفسير البغوي: ج ٤ ص ٤٨١.

أيَّامِها، أو: ﴿ٱلشَّفْع﴾: يَوْمُ التَّروِيَةِ ﴿وَالوتـر﴾: يَـوْمُ عَـرَفَةَ، ورُوِيَ ذلك عـن الأئمّةِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، وقُرِئَ: ﴿وَٱلْوَتر﴾ بفَتْحِ الواوِ[1] وهُما لُغَتَانِ في العَدَدِ، وفي «التِّرَة» الكَسْرُ لا غَيْرَ.

﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ إذا يَمْضِي، كَقَولِهِ: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا أَدْبَـرَ﴾[2] ويُـحذَفُ يَـاءُ «يَسْرِي» في الدَّرْجِ ٱجتَزاءً عَنْها بالكَسْرَةِ، فأَمَّا في الوَقْفِ فَيُحْذَفُ الياءُ والكَسْرَةُ، وقيلَ: معنىٰ «يَسْرِي»: يُسْرَىٰ فيه[3].

﴿هَلْ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي: هل في ما أَقْسَمْتُ بِهِ من هذهِ الأَشْياءِ ﴿قَسَـمٌ﴾ أي: مُقْسَمٌ بِهِ ﴿لِذِى حِجْرٍ﴾ يُريدُ: لِذي عَقْلٍ لأنَّ العَقْلَ يَحْجُرُ عن القَبيحِ، ولذلكَ سُمِّيَ عَقْلًا ونُهْيَةً لأنَّه يَعْقِلُ وَيَنْهىٰ، أي: هَلْ هو قَسَمٌ عَظِيمٌ يؤَكَّدُ بِمِثْلِهِ المقْسَمُ عـليهِ؟ وَجَوابُ القَسَمِ محذُوفٌ، وهو: لَيُعَذَّبُنَ، يدُلُّ عليهِ قَولُهُ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾ إلىٰ قَولِهِ: ﴿سَوْطَ عَذَابٍ﴾، وقيلَ لِعَقِبِ عَادِ بنِ عَوْصِ بنِ إِرَمَ بنِ سَامِ بنِ نُـوحٍ: عَادٌ، كَمَا قيلَ لِبني هَاشِمٍ: هَاشِمٌ، ثمَّ قيلَ للأَوَّلينَ منْهُم: عَادٌ الأُولَىٰ، وإِرَمُ تَسْمِيَةٌ لَهُم باسْمِ جَدِّهِم، وَلِمَنْ بَعْدَهُم: عَادٌ الأَخيرةُ، فـ«إِرَمَ» في قَولِهِ: ﴿بِعَادٍ إِرَمَ﴾ عَطْفُ بَيَانٍ لـ«عَادٍ»، وقيلَ: إرم: بَلْدَتُهُم التّي كانُوا فيها[4]، ويدُلُّ عليهِ قِرَاءَةُ مَـن قَـرَأَ: «بِعَادِ إِرَمَ» على الإِضَافةِ[5]، وتَقْديرُهُ: بِعَادٍ أَهْلِ إرَمَ، و ﴿ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾ إذا كانَتْ صِفَةً للقَبيلةِ فالمعنىٰ: أنَّهم كانُوا بَدَوِيِّينَ أَهْلَ عَمدٍ، أو: طِوَالَ الأَجسامِ علىٰ تَشْبِيهِ قُدُودِهِم بالأَعْمِدَةِ، وإنْ كانَتْ صِفَةً للبَلْدَةِ فالمعنىٰ: أنَّها ذَاتُ أَسَاطِين.

---

(١) الظاهر أنّ المصنّف ﷺ قد اعتمد هنا على قراءة كسر الواو تبعاً للكشّاف، وهي قراءة حمزة والكسائي. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٦٨٣.

(٢) المدّثّر: ٣٣.

(٣) قاله القتبي. راجع تفسير السمرقندي: ج ٣ ص ٤٧٥.

(٤) قاله قتادة. راجع تفسير الطبري: ج ١٢ ص ٥٦٦.

(٥) قرأه ابن الزبير والحسن، إلّا أنّ الثاني فتح «عادَ». راجع شواذ القرآن لابن خالويه: ص ١٧٣.

ورُوِيَ أنَّه كانَ لِعَادٍ ٱبنَانِ: شَدَّادٌ وشَديدٌ، فَمَلَكَا وَقَهرا، ثمَّ ماتَ شَديدٌ وخَلُصَ الأَمرُ لِشَدَّادٍ فَمَلَكَ الدُّنيا، وسَمِعَ بذِكْرِ الجنَّةَ فَقَالَ: أَبْني مِثْلَها، فَبَنَىٰ إِرَمَ في بعضِ صحَاري عَدَنَ في ثلاثمائةِ سَنَةٍ، وكانَ عُمْرُهُ تِسْعَمائةِ سَنَةٍ، وهي مدينةٌ عظيمةٌ، قُصُورُها من الذَّهَبِ والفِضَّةِ، وأَسَاطِينُها من الزَّبَرْجِدِ والياقُوتِ، وفيها أَصنافُ الأشجارِ والأَنهارِ المطَّرِدَة، ولمَّا تَمَّ بناؤُها سَارَ إليها بأَهْلِ مملكَتِهِ، فلمَّا كانَ منْها علىٰ مسيرةِ يَوْمٍ وليلةٍ بَعَثَ اللهُ عليهم صَيْحَةً من السَّماءِ فَهَلَكُوا[1].

وعن عبدِ ٱللهِ بنِ قلَّابة: أنَّه خَرَجَ في طَلَبِ إِبِلٍ لَهُ في الصَّحَاري، فَوَقَعَ عليها، فَحَمَلَ ما قَدرَ عليهِ مِمَّا ثَمَّ، وبَلَغَ خَبَرُهُ معاويةَ فاستَحْضَرَه فَقَصَّ عليهِ، فَبَعَثَ إلىٰ كَعْبٍ فَسَأَلَهُ فَقَالَ: هي إِرَمُ ذَاتُ العِمَادِ، وسَيدخُلُها رَجُلٌ من المسلمينَ في زَمانِكَ أَحْمَرُ أَشْقَرُ قَصيرٌ، علىٰ حاجِبَيْهِ خَالٌ وعلىٰ عَقِبِهِ خَالٌ، يَخْرُجُ في طَلَبِ إِبلٍ لَهُ، ثمَّ ٱلتفَتَ فأَبْصرَ ٱبنَ قلَّابةَ فَقَالَ: هذا وٱللهِ ذلك الرَّجُل[2].

﴿لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا﴾ أي: مِثْلُ عَادٍ ﴿فِى ٱلْبِلَـٰدِ﴾ عِظَمَ أَجْرامٍ وقوَّةٍ، أو: لَمْ يُخْلَقْ مِثْلَ مدينةِ شَدَّاد في جَميع البلادِ. ﴿جَابُواْ ٱلصَّخْرَ﴾ أي: قَطَعُوا صَخْرَ الجِبَالِ واتَّخَذُوا فيها بُيُوتاً، كقَولِهِ: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً﴾[3]. وقيلَ لِفِرْعَوْنَ: «ذُو الأَوْتَادِ» لِكَثْرَةِ جُنُودِهِ ومَضَارِبِهِم الَّتي كانُوا يَضْرِبُونَها إذا نَزَلُوا، أو: لِتَعْذِيبِهِ بالأَوتَادِ كَمَا فَعَلَ بآسيةَ.

﴿ٱلَّذِينَ طَغَوْا﴾ نَصْبٌ على الذَّمِّ، أو: رَفْعٌ علىٰ: هُم الذينَ طَغَوْا، أو: جرٌّ صِفَةً للمذْكُورينَ: عَادٍ وثَمودَ وفِرْعُونَ. يُقَالُ: صَبَّ عَلَيْهِ السَّوْطَ وغَشَّاهُ وَقَنَّعَهُ، وذِكْرُ السَّوْطِ إِشَارةٌ إلىٰ أنَّ ما أَجَّلَهُ بهم في الدُّنيا من العَذَابِ بالقِيَاسِ إلىٰ ما أَعَدَّهُ

(١) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٧٤٨.

(٢) رواه ابن كثير في تفسيره: ج ٤ ص ٥٠٩ عن وهب بن منبه عنه وعزاه الى الثعلبي وابن أبي حاتم.

(٣) الشعراء: ١٤٩.

لهم في الآخِرَةِ كالسَّوْطِ إذا قِيسَ إلىٰ سائرِ ما يُعَذَّبُ بهِ، وكانَ الحَسَنُ إذا أتىٰ علىٰ هذه الآيةِ قَالَ: إنَّ عندَ اللهِ أَسْواطاً كثيرةً فأَخَذَهُم بِسَوْطٍ منْها[1].

﴿الْمِرْصَادِ﴾ المَكَانُ الّذي يتَرقَّبُ[2] فيه الرَّصْدُ، مِفْعَالٌ منْ: رَصَدَهُ. وهذا مَثَلٌ لإِرْصَادِهِ العُصَاةَ بالعِقَابِ وأنَّهم لا يَفوتُونَهُ، وعنْ عَمْرو بنِ عُبَيْدٍ: أنَّه قَرَأَ هذهِ السُّورةَ عنْدَ المنْصُورِ حتَّىٰ بَلَغَ هذا المَوْضِعَ فَقَالَ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ يا أَبَا جَعْفَر. عَرَّضَ لَهُ في هذا النِّداءِ بأنَّه من جُمْلَةِ من تُوُعِّدَ بذلكَ من الجَبَابِرَةِ[3].

وعن ٱبنِ عبَّاسٍ في هذهِ الآيةِ: أنَّ علىٰ جِسْرِ جهنَّمَ سَبْعَةَ مَحَابِسَ، يَسْأَلُ ٱللهُ عزَّوجلَّ العَبْدَ عنْدَ أوَّلِها عن شَهَادةِ لا إلَه إلاَّ ٱللهُ، وعنْدَ الثَّاني عن الصَّلاةِ، وعنْدَ الثَّالثِ عن الزَّكاةِ، وعنْدَ الرَّابعِ عن الصَّوْمِ، وعنْدَ الخَامسِ عن الحجِّ، وعنْدَ السَّادسِ عن العُمْرَةِ، فإنْ أَجَابَ بِها تامَّةً جَازَ إلى السَّابع فَيُسْأَلُ عن المَظَالِمِ، فإنْ خَرَجَ منْها وإلاَّ يُقَالُ: انْظُرُوا، فإنْ كانَ لَه تَطَوُّعٌ أُكْمِلَ بِهِ أَعْمَالُهُ، فإذَا فَرِغَ انْطُلِقَ بِهِ إلى الجَنَّة[4].

وٱتَّصَلَ قَوْلُهُ: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَـٰنُ﴾ بقَولِهِ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ كأَنَّهُ قَالَ: إنَّ ٱللهَ لا يُريدُ من الإِنْسانِ إلاَّ الطَّاعةَ، وهو مُرْصِدٌ بالعقُوبَةِ للعَاصِي، فأمّا الإِنسانُ فَلا يَهمُّهُ إلاَّ العَاجِلَةُ، فإذَا ﴿ٱبْتَلَـٰهُ رَبُّهُۥ﴾ وٱمتَحَنَهُ و ﴿أَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ﴾ بِمَا وَسَّعَ عليهِ من المَالِ ﴿فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ﴾ وهو خَبَرُ المبتدأ الّذي هو ﴿ٱلْإِنسَـٰنُ﴾، ودُخُولُ الفَاءِ لِمَا في ﴿أَمَّا﴾ مِنْ معنَى الشَّرْطِ، والظَّرْفُ المتَوسِّطُ بينَ المبتَدَأ والخبَرِ في تَقْديرِ التَّأخيرِ، والتَّقْديرُ: مهما يَكُنْ من شَيءٍ فالإنسانُ قَائِلٌ: رَبِّي أَكْرَمني وَقْتَ الابتلاءِ، وسَمَّىٰ كِلَا الأَمْرَيْنِ من بَسْطِ الرِّزْقِ وتَقْديرِهِ: ٱبتلاءً، لأنَّ كلَّ واحدٍ منْهما

(١) تفسير الحسن البصري: ج ٢ ص ٤١٧.
(٢) في الكشّاف: «يترتّب».
(٣) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٧٤٨.
(٤) أنظر تفسير ابن عباس: ص ٥١٠.

لاختبارِ العَبْدِ أَيَشْكُرُ أَمْ يَكفُرُ عندَ البَسْطِ، أَو يَصْبِرُ أَمْ يَجْزَعُ عندَ التَّقْتيرِ، فالحِكْمةُ فيهما واحِدَةٌ، ونَحْوهُ قَولُهُ تعالىٰ: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [1]، وقُرِئَ: ﴿قَدَرَ﴾ بالتَّخْفيفِ والتَّشْديدِ [2]، وقُرِئَ: «أَكْرَمَنْ» و «أَهَانَنْ» بسكُونِ النُّونِ في الوَقْفِ [3] في مَنْ تَرَكَ الياءَ في الدَّرْجِ مكْتَفياً منْها بالكَسْرَةِ.

﴿كَلَّا﴾ رَدْعٌ عن هذا القَولِ، أي: ليس الأَمْرُ كَمَا قَالَ، فإِنِّي لا أُغْني المَرْءَ لكَرامتِهِ عَلَيَّ ولا أُفقِرُهُ لِمَهَانَتِهِ عنْدِي، ولكنِّي أَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ أَشَاءَ وأَقْدِرُ بِحَسْبِ ما تُوجِبُهُ الحِكْمَةُ وتَقْتَضيهِ المَصْلَحَةُ ﴿بَلْ﴾ يَفْعَلُونَ ما يستَحِقُّونَ بِهِ الإِهانَةَ، فلا يُؤَدُّونَ ما يَلْزَمُهُم في المَالِ إذا أَكْرَمْتُهُم بالإِكْثَارِ منْهُ، من: إِكْرامِ اليَتيمِ وحَضِّ الأَهْلِ علىٰ ﴿طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾، و «يأْكُلُونَ» أَكْلَ الأَنْعامِ، ويُحِبُّونَهُ فَيَبْخَلُونَ بِهِ. وقُرِئَ: ﴿تُكْرِمُونَ﴾ وما بَعْدَهُ بالتَّاءِ على الخِطَابِ [4]. وقُرِئَ: «وَلَا يُحاضُّونَ» [5]، أي: يَحضُّ بعضُكُم بَعْضاً.

﴿أَكْلًا لَّمًّا﴾ ذا لَمٍّ، وهو الجَمْعُ بين الحلالِ والحَرامِ، أي: يَجْمَعُونَ في أَكْلِهِم بينَ نَصيبِهِم من الميراثِ ونَصيبِ غَيْرِهِم، وكانُوا لا يُوَرِّثُونَ النِّساءَ والصِّبيانَ ويأْكُلُونَ تُراثَهُم مَعَ تُراثِهِم، وقيلَ: ﴿يَأْكُلُونَ التُّرَاثَ﴾ فيما يَشْتَهونَ أَكْلًا واسِعاً، ولا يُخْرِجُونَ ما وُجِبَ عليهم فيهِ من الحُقُوقِ [6]. ﴿حُبًّا جَمًّا﴾ أي: كَثيراً شَديداً

---

(١) الأنبياء: ٣٥.

(٢) قرأه ابن عامر وحده. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٧٦٥.

(٣) قرأه أبو عمرو برواية علي بن نصر وعباس وعبيد كلّهم عنه. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٦٨٤ ـ ٦٨٥.

(٤) الظاهر أن المصنّف رحمه الله قد اعتمد هنا على قراءة الياء على الغائب، وهي قراءة أبي عمرو وحده. راجع كتاب السبعة: ص ٦٨٥.

(٥) قرأه ابن مسعود وزيد بن علي عليه السلام وابن المبارك والكسائي برواية الشيرازي عنه. راجع البحر المحيط: ج ٨ ص ٤٧١.

(٦) قاله الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٧٥١.

مع الحرْصِ والشَّرَه[١].

﴿كَلَّآ﴾ رَدْعٌ عن ذلكَ وإنْكَارٌ لِفِعْلِهِم، ثمَّ أتَىٰ بالوَعيدِ، وذَكَرَ تَحَسُّرَهُم عنْدَما فَرَّطُوا فيهِ حينَ لا تَنْفَعُ الحَسْرَةُ. و ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ بَدَلٌ مِن ﴿إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ﴾ وظَرْفٌ لـ﴿يَتَذَكَّرُ﴾. ﴿دَكًّا دَكًّا﴾ أي: دكّاً بَعْدَ دَكٍّ، أي: كَرَّرَ عليها دَكَّ جِبَالِهَا وأَنْشَازِها حتَّىٰ ٱسْتَوَتْ قَاعاً صَفْصَفاً.

﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ هذا تَمثيلٌ لِظُهُورِ آياتِ قَهْرِهِ وسُلْطانِهِ، مَثَّلَ ذلكَ بحَالِ المَلِكِ إذا حَضَرَ بنَفْسِهِ ظَهَرَ بحُضُورِهِ من آثارِ الهَيْبَةِ والسياسَةِ ما لا يَظْهَرُ بحُضُورِ مَنْ سِوَاهُ من جُنُودِهِ وخَوَاصِّهِ. ﴿وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ أي: يَنْزِلُ ملائكةُ كلِّ سَمَاءٍ فَيَصْطَفُّونَ صَفّاً بَعْدَ صَفٍّ، ﴿وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾ كقَولِهِ: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ﴾[٢].

وعنْ أبي سَعيدٍ الخُدْريّ: أنَّها لمَّا نَزَلَتْ تَغيَّرَ وَجْهُ رسولِ ٱللهِ ﷺ وعُرِفَ في وَجْهِهِ، حتَّىٰ ٱشتَدَّ علىٰ أَصْحابِهِ، فَأَخْبَروا عليّاً عليه السلام، فَجَاءَ فاحتَضَنَهُ من خَلْفِه، ثمَّ قَبَّلَ بينَ عاتِقَيْهِ ثمَّ قَالَ: يا نبيَّ الله، بأبي أَنتَ وأُمِّي، ما ٱلّذي حَدَثَ اليَوْمَ؟ فَقالَ: جَاءَ جبرائيلُ عليه السلام اليَوْمَ فأقْرَأني، وتَلا الآيةَ عليهِ، فَقالَ لَهُ عليٌّ عليه السلام: كَيفَ يُجَاءُ بها؟ قَالَ: يَجِيءُ بها سبعُونَ أَلْف مَلَكٍ يَقُودُونَها بسبعينَ أَلْف زِمَامٍ، فَتَشْرُدُ شَرْدَةً لَوْ تُرِكَتْ لأَحْرَقَتْ أَهْلَ الجَمْعِ، ثمَّ أَتعرَّضُ لجهنَّمَ فَتَقُولُ: مالِي ولكَ يا محمَّدُ ﷺ فَقَدَ حَرَّمَ اللهُ لَحْمَكَ عَلَيَّ، فلا يَبْقىٰ أَحَدٌ إلَّا يقُولُ: نَفْسي نَفْسي، وإنَّ محمَّداً ﷺ يقُولُ: أُمَّتي أُمَّتي[٣].

﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَـٰنُ﴾ ما فَرَّطَ فيهِ، أو: يَتَّعِظُ ﴿وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ أي: وَمِن أَينَ لَهُ منْفَعَةُ الذِّكْرىٰ، لابُدَّ من تَقْديرِ حَذْفِ المُضَافِ، وإلَّا فَبَيْنَ ﴿يَتَذَكَّرُ﴾

(١) في نسخة: «والشدَّة».
(٢) الشعراء: ٩١، والنازعات: ٣٦.
(٣) أخرجه السيوطي في الدرّ: ج ٨ ص ٥١١ عن أبي سعيد وعزاه الى ابن مردويه.

وبينَ ﴿أَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ تَنَاقضٌ. ﴿يَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾ هـذهِ، وهـي حَيَاةُ الآخِرَةِ، أو: وَقْت حَيَاتي في الدُّنيا، كقَولِكَ: جِئْتُهُ لخَمْسِ لَيالٍ مَضَيْنَ من شَهْرِ كَذَا، وفيهِ أَوضَحُ دَلَالةٍ علىٰ أَنَّهم كانُوا مختارينَ لأَفْعَالِهِم غَيْرَ مُجْبَرينَ عليها، وإلَّا فَمَا معنَى التَّحَسُّر.

وقُرِئَ: «يُعَذَّبُ» و «يُوثَقُ» بالفَتح (١)، والضَّميرُ للإِنسانِ الموصُوفِ، وقيلَ: هو أُبيُّ بنُ خَلَفٍ، أي: لا يُعَذَّبُ أَحَدٌ مثْلَ عَذَابِهِ، ولا يُوثَقُ أَحَدٌ مثْلَ وَثَاقِهِ لِتَنَاهيهِ في كُفْرِهِ وعِنَادِهِ (٢) أو: لا يَحْمِلُ عَـذَابَـهُ أَحَـدٌ، كـقَولِهِ: ﴿وَلَا تَـزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ (٣)، وقُرِئَ بالكَسْرِ، والضَّميرُ للهِ، أي: لا يَتَولَّىٰ عَذَابَ ٱللهِ أَحَدٌ؛ لأَنَّ الأَمرَ للهِ وَحْدَهُ في ذلك اليَوْمِ، أو: للإِنْسانِ أي: لا يُعَذِّبُ أَحَدٌ من الزَّبانِيَةِ مثْل ما يعذِّبُونَهُ.

﴿يَـٰأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ﴾ علىٰ إرادةِ القَوْلِ، أي: يَقُولُ ٱللهُ للمؤْمنِ: يا أَيَّـتُها النَّـفْسُ إِكْرَاماً له، كَمَا كَلَّمَ موسىٰ عليه السلام، أو: علىٰ لسَانِ مَلَكٍ، و ﴿ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾ الآمِنَةُ الّتـي لا يَسْتَفِزُّها خَوفٌ ولا حزنٌ، أو: المطْمَئِنَّةُ إلى الحقِّ الّتي سَكَنَها رُوحُ العِلْمِ وثَلْجُ اليقينِ فَلَا يُخَالِجُها شَكٌّ، وإِنَّما يقالُ لَهَا ذلكَ عنْدَ المَوْتِ، أو: عنْدَ البَعثِ، أو: عنْدَ دُخُولِ الجنَّةِ، علىٰ معنىٰ: ﴿ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ﴾ مَـوْعِدِ ﴿رَبِّكِ رَاضِـيَةً﴾ بـما أُوتِـيَتْ ﴿مَّرْضِيَّةً﴾ عندَ ٱللهِ. ﴿فَٱدْخُلِى فِى﴾ جُمْلَةِ ﴿عِبَـٰدِى﴾ الصَّالحينَ. ﴿وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾ مَعَهُم. وقيلَ: النَّفسُ: الرُّوحُ (٤) والمعنىٰ: فادْخُلي في أَجْسَادِ عِبَادي، وقَـرَأَ ٱبـنُ عبَّاسٍ: «في عَبْدي» (٥)، وقَالَ: ٱرْجِعِي إلىٰ صَاحِبِكَ فَادْخُلِي في جَسَدِ عَبْدي (٦).

---

(١) قرأه الكسائي وعاصم برواية المفضّل عنه. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٦٨٥.

(٢) قاله ابن عباس في تفسيره: ص ٥١١.

(٣) الأنعام: ١٦٤، الإسراء: ١٥، فاطر: ١٨، الزمر: ٧.

(٤) قاله ابن عباس والضحاك وعكرمة. راجع تفسير الطبري: ج ١٢ ص ٥٨٢.

(٥) حكاه عنه ابن خالويه في شواذ القرآن: ص ١٧٤.

(٦) تفسير ابن عباس: ص ٥١١.

سُورَةُ البَلَد

مكّيةٌ[1]، عشرونَ آيةً.

في حَديثِ أُبيٍّ: «ومَنْ قَرأَها أَعْطَاهُ ٱللهُ الأَمْنَ مِنْ غَضَبِهِ يَوْمَ القِيامَةِ»[2].

وعن الصَّادقِ عليه السلام: «مَنْ كَانَ قِراءَتُهُ في الفَريضَةِ ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَـٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ كانَ في الدُّنْيا مَعْروفاً أنَّه من الصَّالحينَ، وكانَ في الآخِرَةِ مَعْروفاً أنَّ لَهُ من ٱللهِ مكاناً، وكانَ من رُفَقاءِ النَّبيِّينَ والشُّهداءِ والصَّالِحينَ»[3].

بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَـٰذَا ٱلْبَلَدِ(١) وَأَنتَ حِلٌّ بِهَـٰذَا ٱلْبَلَدِ(٢) وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ(٣) لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِى كَبَدٍ(٤) أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ(٥) يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُّبَدًا(٦) أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ(٧) أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ(٨) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ(٩) وَهَدَيْنَـٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ(١٠) فَلَا ٱقْتَحَمَ

---

(١) قال الشيخ الطوسي في التبيان: ج ١٠ ص ٣٤٩: مكّية في قول ابن عباس، وقال الضحاك: أُنزلت حين افتتحت مكّة، وهي عشرون آيةً بلاخلاف.

وفي الكشّاف: ج ٤ ص ٧٥٣: مكّية، وآياتها (٢٠) نزلت بعد قٓ.

(٢) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٧٥٧ مرسلاً.

(٣) ثواب الأعمال للصدوق: ص ١٥١.

ٱلْعَقَبَةَ(١١) وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ(١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ(١٣) أَوْ إِطْعَـٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ(١٤) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ(١٥) أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ(١٦) ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوْاْ بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِالْمَرْحَمَةِ(١٧) أُوْلَـٰئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ(١٨) وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا هُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ(١٩) عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ(٢٠)﴾

أَقْسَمَ سبحانَهُ بِـ﴿ٱلْبَلَدِ﴾ الحَرامِ، وهو مكَّةُ، وبِـ﴿وَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ وهـو آدَمُ وذرِّيتُهُ من الأَنبياءِ والأَوصياءِ وأَتْباعِهِم، وقيلَ: هو إبراهيمُ ووُلْدُهُ[١]، وقيلَ: هو رَسُولُ ٱللهِ صَلَّىٰ ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَمَن وَلَدَهُ[٢]. أَقْسَمَ بِبَلَدِهِ الَّذي هو مَسْقَطُ رأْسِهِ، وحَـرَمُ أبـيهِ إبراهيمَ، ومَنْشَأُ أبيهِ إسماعيلَ، وبِمَنْ وَلَدَهُ وبِهِ، وقـيلَ: هـو كـلُّ وَالدٍ ووُلْـدِهِ[٣].

وجَوابُ القَسَمِ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِى كَبَدٍ﴾ أي: نَصَبٍ وشدَّةٍ، فهو مغْمُورٌ في مُكَابَدَةِ المَشاقِّ والشَّدائِدِ. وٱعترَضَ بقَولِهِ: ﴿وَأَنتَ حِلٌّ بِهَـٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ بينَ القَسَمِ وجَوابِهِ، يعني: ومن المُكَابَدَةِ أنَّ مِثْلَكَ علىٰ عِظَمِ حُرْمَتِكَ تُسْتَحَلُّ بهذا البَلَدِ الحَرامِ كَمَا يُسْتَحَلُّ الصَّيدُ في غَيْرِ الحَرَمِ، وَقَد ٱستَحَلُّوا إخْراجَكَ وقَتْلَكَ، وقيلَ: إنَّه وَعْدٌ لَهُ بفَتْحِ مكَّةَ[٤]، أي: وأَنْتَ حِلٌّ به في المستقبلِ تَصْنَعُ فيهِ ما تُريدُ من القَتْلِ والأَسْرِ، بأَن يَفْتَحَهُ ٱللهُ عليكَ ويُحِلَّهُ لكَ. والْكَبَدُ: أَصْلُهُ مِنْ قَولِكَ: كَبَدَ الرَّجُلُ كَبَداً فهو كَبِدٌ: إذَا وَجِعَتْ كَبِدُهُ، ثمَّ ٱستُعْمِلَ في كلِّ تَعَبٍ ومَشَقَّةٍ.

والضَّميرُ في ﴿أَيَحْسَبُ﴾ لبعضِ صَناديدِ قُرَيْشٍ الَّذين كانَ رَسُولُ ٱللهِ صَلَّىٰ ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ

---

(١) قاله أبو عمران الجوني. راجع تفسير الطبري: ج ١٢ ص ٥٨٧.

(٢) قاله الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٧٥٤.

(٣) قاله ابن عباس وعكرمة. راجع تفسير الطبري المتقدّم.

(٤) قاله ابن عباس في تفسيره: ص ٥١١.

يُكَابِدُ منْهُم ما يُكَابِدُ، والمعنىٰ: أَيَظُنُّ هذا المُتَعزِّزُ القَويُّ في قَومِهِ ﴿أن لَّن يَقْدِرَ﴾ علىٰ الانتقامِ منْهُ وعلىٰ مكافَأَتِهِ أَحَدٌ؟ ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا﴾ كثيراً، يُريدُ: كَثْرَةَ ما أَنْفَقَهُ فيما كانُوا يُسَمُّونَها مَكَارِمَ الأَخلاقِ. ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ﴾ حينَ كانَ يُنْفِقُ ما يُنْفِقُ رِيَاءَ النَّاسِ؟ يعني: أنَّ ٱللهَ كانَ يَراهُ، وقيلَ: هو أَبو الأَشَدِّ، رَجُلٌ من جُمَحٍ وكانَ قويّاً، بحيثُ يَقِفُ علىٰ أَديمٍ عُكَاظِيٍّ فَيَجُرُّهُ العَشْرَةُ من تَحْتِهِ فيُقْطَعُ ولا يَبْرَحُ من مكَانِهِ(١).

﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ﴾ يُبْصِر بِهِما المَرئيَّاتِ. ﴿وَلِسَانًا﴾ يُتَرجِم بهِ عَمَّا في ضَميرِهِ ﴿وَشَفَتَيْنِ﴾ يُطْبِقُ بِهِما علىٰ فيهِ، ويَستَعينُ بِهِما على النُّطْقِ والأَكْلِ والشُّرْبِ وغَيْرِ ذلك. ﴿وَهَدَيْنَـٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ أي: طَريقَيْ الخَيْرِ والشَّرِّ، وقيلَ: الثَّدْيَيْنِ(٢). ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ﴾ أي: فَلَمْ يَشْكُر تلكَ الأَيادِي والنِّعَم بِالأَعمالِ الصَّالحةِ من: فَكِّ الرِّقَابِ، وإطْعامِ اليَتَامىٰ والمَسَاكينِ، مع الإيمانِ الّذي هو أَصْلُ كلِّ طَاعَةٍ، وأَسَاسُ كلِّ خَيرٍ، بَلْ غَمَطَ النِّعَمَ وكَفَرَ بالمُنْعِمِ؟ والمعنىٰ: أنَّ الإنْفَاقَ علىٰ هذا الوَجْهِ هو الإنْفَاقُ النَّافِعُ المَرْضِيُّ عِنْدَ ٱللهِ، لا أَن يُهْلِكَ مالاً لبداً في الرِّياءِ والْفَخَارِ. وقَوْلُهُ: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ يَدُلُّ علىٰ أنَّ المعنىٰ: فَلَا ٱقتحَمَ العَقَبَةَ ولا أَمِنَ، والاقتِحَامُ: الدُّخُولُ بشِدَّةٍ ومَشَقَّةٍ، والقُحْمَةُ: الشِّدَّةُ، وجَعَلَ سبحانَهُ الأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ عَقَبَةً، وعَمَلَها ٱقتِحَاماً لَهَا لِمَا في ذلك من معاناةِ الشِّدَّةِ ومُجَاهَدَةِ النَّفْسِ، وعنِ الحَسَنِ: عَقَبَةٌ وٱللهِ شَديدَةٌ: مُجَاهَدَةُ الإنْسانِ نَفْسَهُ وهَوَاهُ وعَدُوَّهُ الشَّيطان(٣). وفَكُّ الرَّقَبَةِ: تَخْليصُها مِنْ رِقٍّ أَو غَيْرِهِ. وقُرِئَ: «فَكَّ رَقَبَةً

(١) قاله ابن عباس في تفسيره المتقدّم.
(٢) قاله ابن عباس والضحاك. راجع تفسير الطبري: ج ١٢ ص ٥٩٢.
(٣) حكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٧٥٦.

أَو أَطْعَمَ»[١] على الإبْدَالِ مِنْ: ﴿ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ﴾.

وقَولُهُ: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ﴾ اعْتِرَاضٌ، والمعنىٰ: أنَّكَ لَمْ تَدْرِ كُنْهَ ثَوابِـهَا وَكُنْهَ صُعُوبَتِها على النَّفْسِ؟ وكلٌّ واحِدَةٍ مِن: ﴿مَسْغَبَةٍ﴾ و ﴿مَقْرَبَةٍ﴾ و ﴿مَتْرَبَةٍ﴾ مَفْعَلَةٌ مِنْ: سَغِبَ إذا جَاعَ، وقَرُبَ في النَّسَبِ، وتَرِبَ إذا ٱفْتَقَرَ وٱلْتَصَقَ بـالتُّرابِ، وَوُصِفَ «اليوم» بـ﴿ذِى مَسْغَبَةٍ﴾ كَمَا قيلَ: هَمٌّ نَاصِبٌ: ذُو نَصَبٍ.

وقَولُهُ: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ إِنّما جاءَ بِـ﴿ثُـمَّ﴾ لِـتَراخِـي الإيْـمانِ وتَباعُدِهِ في الرُّتْبَةِ والفَضيلَةِ عن العِتْقِ والصَّدَقَةِ لا في الوَقْتِ، لأنَّ الإِيْـمانَ هـو السَّابِقُ المُقَدَّمُ علىٰ غَيْرِهِ، ولا يَثْبُتُ عَمَلٌ صَالِحٌ إلَّا بِهِ ﴿وَتَوَا صَوْا۟ بِالصَّبْرِ وَتَواصَوْا۟ بِالْمَرْحَمَةِ﴾ أي: وَصَّىٰ بعضُهُم بَعْضاً بالصَّبْرِ على الإِيْمانِ والثَّباتِ عليهِ، أو: بالصَّبْرِ عن المَعَاصي وعلى الطَّاعَاتِ والمِحَنِ والبَلَايا بأَن يكُونُوا مُـتَراحِـمينَ، أو: بِـمَا يُؤَدِّي إلىٰ رحمةِ ٱللهِ تعالىٰ، أو: بالرَّحمَةِ عـلىٰ أهـلِ الحَـاجَةِ. و ﴿ٱلْـمَيْمَنَة﴾ و ﴿ٱلْمَشْئَمَة﴾: اليَمينُ والشِّمَالُ، أو: اليُمْنُ والشُّؤْمُ، أي: أَصْحَابُ اليُمْنِ والبَرَكَةِ علىٰ نُفُوسِهِم، وأَصْحَابُ الشُّؤمِ عَلَيها. وقُرِئَ: ﴿مُؤْصَدَةٌ﴾ بالهَمْزَةِ وتَرْكِ الهَمْزِ[٢]، من: أَوْصَدْتُ البابَ وآصَدْتُهُ: إذا أَطْبَقْتُهُ، يعني: أَنَّ أَبْوابَها عَلَيهم مُطْبَقَةٌ لا يَخْرُجُ منْها غَمٌّ، ولا يَدْخُلُ فيها رَوْحٌ إلىٰ آخرِ الأَبَدِ.

۞ ۞ ۞

---

(١) قرأه ابن كثير وأبو عمرو والكسائي. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٦٨٦.

(٢) قرأه ابن كثير وابن عامر ونافع والكسائي وعاصم برواية أبي بكر عنه راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٦٨٦.

سُورَةُ الشَّمْسِ

مكّيةٌ[1] خَمْسَ عَشْرَةَ آيةً.

في حَديثِ أُبيٍّ: «مَنْ قَرَأَها فكأَنَّما تَصدَّقَ بكلِّ شَيْءٍ طَلَعَتْ عليهِ الشَّمْسُ والقَمَرُ»[2].

وعنِ الصَّادقِ عليه السلام: «مَنْ أَكْثَرَ قِرَاءَةَ ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا﴾، ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾، و ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾، و ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ﴾ في يَوْمِهِ أو لَيلَتِهِ لَمْ يَبْقَ شَيْءٌ بحَضْرَتِهِ إلّا شَهِدَ لَهُ يَوْمَ القيَامَةِ، حتّىٰ شَعْرُهُ وَبشَرُهُ ولَحْمُهُ وعُرُوقُهُ وجَميعُ ما أَقَلَّتِ الأَرْضُ منْهُ، ويَقُولُ الرَّبُّ تَبارَكَ وتَعالىٰ: قَبِلْتُ شَهادَتَكُم لِعَبْدي وأَجَزْتُها لَهُ، انْطَلِقُوا بهِ إلىٰ جِناني حتّىٰ يَتَخَيَّرَ منْها حيثُ ما أَحَبَّ فأَعْطُوهُ إيَّاها غَيْرَ مَنٍّ منّي ولكِن رَحْمَةً وفَضْلًا، فَهَنِيئاً لِعَبْدي»[3].

---

(١) قال الشيخ الطوسي في التبيان: ج ١٠ ص ٣٥٦: مكّية في قول ابن عبّاس والضحاك، وهي خمس عشرة آيةً في الكوفي والبصري، وستّ عشرة في المدنيّين.

وفي الكشّاف: ج ٤ ص ٧٥٨: مكّية، وآياتها (١٥)، نزلت بعد القدر.

(٢) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٧٦١ مرسلًا.

(٣) ثواب الأعمال للصدوق: ص ١٥١، وفيه بعد «وعروقه»: «وعصبه وعظامه»، وفيه «رحمة منّي وفضلًا عليه»، وكرّر لفظة «هنيئاً» مرّتين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا(١) وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا(٢) وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا(٣) وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا(٤) وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا(٥) وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا(٦) وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا(٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا(٨) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا(٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا(١٠) كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ(١١) إِذِ ٱنبَعَثَ أَشْقَىٰهَا(١٢) فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا(١٣) فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا(١٤) وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا(١٥)﴾

﴿ضُحَىٰهَا﴾ ٱمتِدَادُ ضَوئِها وٱنْبِسَاطُهُ وإشْراقُهُ، ولذلكَ قيلَ: وَقْتُ الضُّحَىٰ، وقيلَ: الضَّحْوَةُ: ٱرتِفاعُ النَّهارِ، والضُّحَىٰ: فَوق ذلك، والضَّحَاءُ ـ بالفَتْحِ والمَدِّ ـ: فوق ذلك إذَا قَارَبَ النِّصْفَ[١]. ﴿إِذَا تَلَىٰهَا﴾ طَلَعَ عِنْدَ غُروبِها آخِذاً من نُـورِها، وذلك في النِّصْفِ الأوَّلِ من الشَّهْرِ. ﴿إِذَا جَلَّىٰهَا﴾ عِنْدَ ٱنْبسَاطِ النَّهارِ مُجَلِّياً لها لِظُهُور جُرْمِها فيهِ وتَمَامِ ٱنْجِلائها، وقيلَ: الضَّميرُ للظُّلْمَةِ أو للدُّنيا أو للأَرضِ وإنْ لَمْ يَجْرِ لها ذِكْرٌ، كقَولِهِم: أَصْبَحَتْ باردَةً، يَعنُونَ الغَدَاةَ[٢]. ﴿إِذَا يَغْشَىٰهَا﴾ أي: يغشى الشَّمْسَ فيُظْلِمُ الآفَاقَ ويُلْبِسُها سَوادَهُ.

و «مَا» في قَولِهِ: ﴿وَمَا بَنَىٰهَا﴾، ﴿وَمَا طَحَىٰهَا﴾، ﴿وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ مَوصُولَةٌ، والمعنىٰ: والسَّمَاءِ والقَادِرِ العَظيمِ الَّذي بَنَاها، والأَرْضِ والصَّانعِ العَليمِ الَّذي طَحَاها، ونَفْسٍ والخَالقِ الحَكيمِ الَّذي سَوَّاها أي: عَدَّلَ خَلْقَها، وفي كلامِهِم: سبحانَ ما سَخَّرَكُنَّ لَنَا. ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ أي: عَرَّفَها طَريقَ الفُجُورِ والتَّقوىٰ، وأنَّ أَحَدُهُما قَبيحٌ والآخرَ حَسَنٌ، ومَكَّنَها من ٱختيارِ ما شَاءَ منْهُما،

(١) قاله مجاهد والفرّاء. راجع إعراب القرآن للنحّاس: ج ٥ ص ٢٣٥.
(٢) قاله الفرّاء في معاني القرآن: ج ٣ ص ٢٦٦.

بدليلِ قَولِهِ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّـٰهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّـٰهَا﴾ فَجعَلَهُ فَـاعِلَ التَّـزْكِـيةِ والتَّدْسِيَةِ ومُتولِّيهِمَا. والتَّزْكيةُ: الإِنْـمَاءُ والإِعْـلاءُ بـالتَّقْوىٰ، والتَّـدْسِيَةُ: النَّـقْصُ والإِخْفَاءُ بالفُجُورِ، وأَصْلُ دَسَّىٰ: دَسَّسَ، كَمَا قيلَ: تَقَضَّىٰ في «تَقَضَّضَ».

ونَكَّرَ قَولَهُ: ﴿وَنفسٍ﴾ لأَنَّه أَرادَ نَفساً خَاصَّةً من بينِ النُّفوسِ، وهي نَفْسُ آدَمَ، كأَنَّه قَالَ: وواحِدَةٍ من النُّفُوسِ، أو: لأَنَّهُ أَرادَ كُلَّ نَفسٍ، فيكُونُ مِن عَكْسِ كَلَامِهِم الذي يَقْصِدُونَ به الإِفْرَاطَ فيما يُعْكَسُ عنهُ، كقَوْلِ الشَّاعِرِ:

قَدْ أَتْرُكُ القِرْنَ مُصْفَرّاً أَنَامِلُهُ[1]

فَجَاءَ بِلَفْظِ التَّقليلِ الّذي يُفْهَمُ منهُ معنَى الكَثْرَةِ، ومنْهُ قَولُهُ تَعالىٰ: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ﴾[2]، ومعنَاهُ معنَىٰ «كَمْ» أو أَبْلَغُ منْهُ.

وجَوابُ القَسَمِ محذُوفٌ، وتَقديرُهُ: لَيُدَمْدِمَنَّ اللهُ عَليهم، أي: علىٰ أَهلِ مكَّـةَ لِتَكْذِيبِهِم برَسُولِ ٱللهِ كَمَا دَمْدَمَ علىٰ ثَمُودَ لِتَكذيبِهِم صَالِحاً. وأَمَّا قَولُهُ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّـٰهَا﴾ فكَلامٌ تَابعٌ لِقَولِهِ: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰـهَا﴾ علىٰ سبيلِ الاستِطْرادِ ولَيْسَ من جوَابِ القَسَمِ في شَيْءٍ.

والبَاءُ في ﴿بِطَغْوَىٰـهَا﴾ مِثْلُها في: كَتَبْتُ بالقَلَمِ، والطَّغْوىٰ من: الطُّغْيانِ، فَصَلُوا بين الاسمِ والصِّفَةِ في: «فَعْلَىٰ» من ثَبَاتِ الياءِ بأَن قَلَبُوا الياءَ واواً في الاسمِ وتَرَكُوا القَلْبَ في الصِّفَةِ فَقَالُوا: امرأَةٌ خَزْيَاءُ وصَدْيَاءُ، والمعنىٰ: فَـعَلَتْ ثَـمُودُ التَّكْـذِيبَ بِطُغْيانِها، كَمَا تَقُولُ: ظَلَمَني بِجُرْأَتِهِ علَى ٱللهِ، وقيلَ: ﴿كَذَّبَتْ﴾ بِمَا أُوْعِدَتْ بِهِ من العَذَابِ ذي الطَّغْوَىٰ[3] كقَولِهِ: ﴿فَأُهْلِكُواْ بِـالطَّاغِيَةِ﴾[4]. ﴿إِذِ ٱنْـبَعَثَ﴾ ظَـرْفٌ

---

(١) وعجزه: كأنّ أثوابه مجَّت بفرصاد. لعبيد بن الأبرص الأسدي، وفيه يـظهر مـقام التـمدّح بشجاعته. وقد تقدّم شرح البيت في ج ١ ص ١٦٠.

(٢) الحجر: ٢.

(٣) قاله ابن عباس وقتادة. راجع تفسير الطبري: ج ١٢ ص ٦٠٥.

(٤) الحاقة: ٥.

لـ﴿كَذَّبَتْ﴾ أو: للطَّغْوىٰ، و ﴿أَشْقَـىٰهَا﴾ قدارُ بنُ سَالِفٍ، عَاقِرُ النَّاقَةِ، وهو أَشْـقَىٰ الأَوَّلينَ علىٰ لسانِ نبيِّناﷺ (١).

وعنْ عُثْمَانَ بنِ صُهَيْبٍ عنْ أبيهِ: أنَّ رَسُولَ ٱللهِﷺ قَالَ لعـليٍّعليه السلام : مَـن أَشْقَى الأَوَّلينَ؟ قَالَ: عَاقِرُ النَّاقَةِ، قال: صَدَقْتَ، فَمَنْ أَشْقَى الآخرينَ؟ قَالَ: لا أَعلَمُ يا رَسُولَ ٱللهِ، قَالَ: الّذي يَضْرِبُكَ علىٰ هٰذِهِ، وأَشَارَ إلىٰ يَافُوخِه (٢).

ويجُوزُ أن يكُونُوا جمَاعَةً، وإنَّما وَحَّدَ لأنَّ أَفْعَلَ التَّفْضيلِ يَستَوي فـيه بـين الواحِدِ والجَمعِ في الإِضَافَةِ، وكانَ يَجُوزُ أَن يُقَالَ: أَشقَوها. ﴿نَاقَةَ ٱللهِ﴾ نُصِبَ على التَّحْذيرِ، كقَولِكَ: الأَسَدَ الأَسَدَ بإِضْمَارِ: «احذرْ» أو: ذَرُوا عَقرَها ﴿وَسُقْيَـٰهَا﴾ فَلَا تَزْوُوها عَنْها. ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ فيمَا حذَّرَهُم منْه من نُزُولِ العَذَابِ إنْ فَعَلُوا ﴿فَـدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ﴾ فَأَطْبَقَ عَلَيهم العَذَابَ، وَدَمَّرَ عليهم ﴿بِذَنْبِهِمْ﴾ بِسَبَبِ ذَنْبِهِم، وفيهِ إِنْـذَارٌ عَظيمٌ بعَاقِبَةِ الذَّنْبِ ﴿فَسَوَّىٰـهَا﴾ الضَّميرُ للدَّمْدَمَةِ أي: فَسوَّى الدَّمْدَمَةَ بينَهُم لَمْ يُفْلِتْ منْها أَحَدٌ منْهُم. ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَـٰهَا﴾ أي: عَاقِبَتَها وَتَبِعَتَها كَمَا يَـخَافُ ذلك مَـنْ يُعَاقِبُ فيُبْقي بَعْضَ الإِبْقَاءِ، وقُرِئَ: «فَـلَا يَـخَافُ» بـالفاءِ (٣)، ورُوِيَ ذلكَ عـن الصَّادقِعليه السلام .

---

(١) أُنظر شواهد التنزيل للحاكم الحسكاني: ج ٢ ص ٣٣٥ و ٣٣٧ ح ١٠٩٦ و ١٠٩٩ وما بعده من طرقٍ عن عليٍّعليه السلام .

(٢) أخرجه الحاكم الحسكاني في الشواهد: ج ٢ ص ٣٣٦ ح ١٠٩٨ وفيه: «عمر بن صـهيب عن أبيه»، وابن عساكر في تاريخ دمشق: ج ٣ ص ٣٤٢ برقم ١٣٨٩، وأبو يعلى الموصلي في المسند: ج ١ ص ٣٧٧ ح ٢٢٥، وأبو نعيم في معرفة الصحابة: ص ٢١ ط. حجر، وابن حجر في المطالب العالية: ج ٤ ص ٣٢٣ ح ٤٥١١، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني: ص ١٥ (مخطوط)، والهيثمي في مجمع الزوائد: ج ٩ ص ١٣٦ وعزاه الى الطبراني وأبي يعلى وقال: رجاله ثقات.

(٣) قرأه نافع وابن عامر وكذلك هي في مصاحف أهل المدينة والشام. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٦٨٩.

سُورَةُ اللَّيل

مكّيةٌ[1] إحْدىٰ وعِشْرُونَ آيةً.

في حَديثِ أُبيٍّ: «مَنْ قَرَأَها أَعْطَاهُ ٱللهُ حتَّىٰ يَرضَىٰ، وعَافَاهُ من العُسْرِ، ويَسَّرَ لَهُ اليُسْرَ»[2].

بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ(١) وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ(٢) وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ(٣) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ(٤) فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ(٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ(٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ(٧) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ(٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ(٩) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ(١٠) وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰٓ(١١) إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ(١٢) وَإِنَّ لَنَا لَلْأَخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ(١٣) فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ(١٤) لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى(١٥) ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ(١٦) وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى(١٧) ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ(١٨) وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن

---

(١) قال الشيخ الطوسي في التبيان: ج ١٠ ص ٣٦٢: مكّية في قول ابن عباس والضحاك، وهي إحدىٰ وعشرون آيةً بلاخلاف.

وفي الكشّاف: ج ٤ ص ٧٦١: مكّية، وآياتها (٢١)، نزلت بعد الأعلىٰ.

(٢) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٧٦٥ مرسلًا.

وقد تقدّم حديث الصادق عليه‌السلام في فضلها في حديثه عن فضل سورة الشمس.

﴿نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ (١٩) إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ (٢٠) وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ (٢١)﴾

أَقْسَمَ سبحانَهُ بـ﴿ٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ الشَّمْسَ أو النَّهارَ، من قَولِهِ: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾[١] يَغشَى اللَّيلُ النَّهارَ، أَو: يَغْشَىٰ كُلَّ شيءٍ، يُواريهِ بظَلَامِهِ. ﴿تَجَلَّىٰ﴾ ظَهَرَ بزَوالِ ظُلْمةِ اللَّيلِ وطُلُوعِ الشَّمْسِ. ﴿وَمَا خَلَقَ﴾ أي: والقَادرِ الّذي قَدَرَ على خَلْقِ ﴿ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾، وقيلَ: هُما خَلْقُ آدمَ وحوَّاء[٢]، وفي قِراءَةِ النَّبيِّ صلّى الله عليه وآله وسلّم[٣] وعليٍّ عليه السلام وٱبنِ عبَّاسٍ: «والذَّكرِ والأُنثىٰ»[٤]. ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ جَوابُ القَسَمِ، أي: إنَّ مَساعيكُم أَشْتاتٌ مختلفةٌ، أو: شَتَّىٰ: جَمْعُ شَتِيتٍ.

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ﴾ حقَّ ٱللهِ من مالِهِ ﴿وَٱتَّقَىٰ﴾ اللهَ فَلم يَعْصِه. ﴿وَصَدَّقَ﴾ بالخَصْلَةِ ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ وهي الإيمانُ، أو: بالمِلَّةِ الحُسْنىٰ وهي مِلَّةُ الإسلامِ، أو: بالمَثُوبَةِ الحُسْنَىٰ وهي الجنَّةُ. ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ﴾ أي: فَسَنُهَيِّئُهُ ﴿لِلْيُسْرَىٰ﴾ مِن: يَسَّرَ الْفَرَسَ للرُّكُوبِ: إذا أَسْرَجَها وأَلْجَمَها، ومنْهُ قَولُهُ عليه السلام: «كُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ»[٥]. والمعنىٰ: فَسَنُوَفِّقُهُ حتَّىٰ تكُونَ الطَّاعَةُ أَيْسَرَ الأُمورِ عليهِ. ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ﴾ وَزَهِدَ فيما عنْدَ ٱللهِ كأَنَّهُ مستَغْنٍ عنْهُ فَلَمْ يَتَّقِهِ، أو: ٱستَغْنىٰ بشَهواتِ الدُّنْيا عن نَعيمِ الجنَّةِ، لأنَّه في مقَابِلةِ ﴿وَٱتَّقَىٰ﴾، ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ أي: فَسَنَخْذُلُهُ ونَمنَعُهُ الأَلْطافَ حتَّىٰ تَكُونَ الطَّاعةُ أَعْسَرَ شَيءٍ عليهِ، منْ قَولِهِ: ﴿وَيَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَاءِ﴾[٦]، أو: سمَّى طَريقَةَ الخَيْرِ باليُسْرَىٰ

---

(١) الشمس: ٤.

(٢) قاله مقاتل والكلبي. راجع تفسير البغوي: ج ٤ ص ٤٩٤.

(٣) كذا في الكشّاف أيضاً، والمراد ورد ذلك في خبرٍ، قال في مجمع البيان: «في الشواذّ: قراءة النبيّ صلّى الله عليه وآله وقراءة عليّ بن أبي طالب...».

(٤) حكى القراءة عنهم ابن جنّي في المحتسب: ج ٢ ص ٣٦٤.

(٥) أخرجه مسلم في الصحيح: ج ٤ ص ٢٠٤١ ح ٢٦٤٩ عن عمران بن حصين.

(٦) الأنعام: ١٢٥.

لأنَّ عاقِبَتها الْيُسْرُ، وطَريقَةَ الشَّرِّ بالعُسْرَىٰ لأنَّ عاقِبَتها العُسْرُ، أو: أرادَ بِهِما: طَريقَيْ الجنَّةِ والنَّارِ، أي: فَسَنَهْدِيهِما في الآخِرَةِ للطَّريقَيْنِ.

﴿وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ﴾ نَفْيٌ أو ٱستِفْهامٌ في معنَى الإنْكَارِ ﴿إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾ تَفَعَّلَ من الرَّدَىٰ وهو الهَلَاكُ، يُريدُ: إذا مَاتَ، أو: تَرَدَّىٰ في الحُفْرَةِ إذا قُبِرَ، أو: تَرَدَّىٰ في قَعْرِ جَهَنَّمَ.

قَالَ الباقِرُ عليه السلام: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ﴾ ما آتاهُ ٱللهُ ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ أي: بأنَّ ٱللهَ يُعْطي بالواحِدِ عَشْراً إلىٰ مائةِ أَلْفٍ فَمَا زَادَ. ﴿فَسَنُيَسِّرُه لِلْيُسْرَىٰ﴾ لا يُريدُ شيئاً من الخَيْرِ إلَّا يَسَّرَهُ ٱللهُ لَهُ. ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ﴾ بما آتاهُ ٱللهُ ﴿وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ بأنَّ ٱللهَ يُعْطي بالواحِدِ عَشْراً إلىٰ مائةِ أَلْفٍ. ﴿فَسَنُيَسِّرُه لِلْعُسْرَىٰ﴾ لا يُريدُ شَيئاً من الشَّرِّ إلَّا يَسَّرَهُ لَهُ، ﴿وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾ قَالَ: وٱللهِ ما تَرَدَّىٰ من جَبَلٍ ولا في بِئْرٍ، ولكِنْ تَرَدَّىٰ في نَارِ جَهَنَّمَ(١).

﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ إنَّ الإرشَادَ إلى الحقِّ وَاجِبٌ علينا بِنَصْبِ الدَّلائلِ وبَيَانِ الشَّرائعِ. ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ﴾ أي: ثَوابَ الدَّارَيْنِ للمُهْتَدي، كَقَولِهِ: ﴿وَءَاتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِى ٱلْآخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾(٢).

﴿نَاراً تَلَظَّىٰ﴾ أي: تَتَلَهَّبُ وتَتَوَقَّدُ. ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى﴾ لا يَخْتَصُّ بِصَلَاها إلَّا الكافِرُ الّذي هو أَشْقَى الأَشْقياءِ، يُريدُ: ناراً مخْصُوصَةً من أَعْظَمِ النِّيرانِ. وَسَيُجَنَّبُ النَّارَ ﴿ٱلْأَتْقَى﴾ الْمُبَالِغُ في التَّقْوَىٰ. ﴿ٱلَّذِى﴾ يُنْفِقُ مالَهُ في سبيلِ ٱللهِ ﴿يَتَزَكَّىٰ﴾ يَطْلُبُ أَن يكُونَ عنْدَ ٱللهِ زَاكِياً، أو: يَتفعَّلُ من: «الزكاة». ﴿وَمَا لِأَحَدٍ

(١) رواه الكليني في الكافي: ج ٤ ص ٤٦ ح ٥ باسناده عن سعد بن طريف، وفيه بعد «من جبلٍ»: «ولا مِن حائط».
(٢) العنكبوت: ٢٧.

عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ﴾ أي: ولَمْ يَفْعَلْ ما فَعَلَهُ لِنِعْمَةٍ أُسْدِيَتْ عليهِ(١) يُكَافَأُ عَلَيها، وَلَا لِيَدٍ يتَّخِذُها عنْدَ أَحَدٍ. ﴿إِلَّا ابتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ﴾ مستَثْنىً من غيرِ جِـنْسِهِ، وهـو النِّعمَةُ، أي: ما أُعْطِيَتْ لأَحَدٍ عنْدَهُ نِعْمةٌ إلَّا ٱبتغاءَ وَجْهِ ربِّهِ، كقَولِكَ: ما في الدَّارِ أَحَدٌ إلَّا حِمَاراً، ويجُوزُ أَن يكُونَ مفْعُولاً لَهُ، لأنَّ المعنىٰ: لا يُؤْتي مالَهُ إلَّا ٱبتغَاءَ الثَّوابِ. ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ بمَا يُعْطَىٰ من الثَّوابِ والخَيْر.

❁ ❁ ❁

(١) في نسخة: «إليه» بدل «عليه».

سُورَةُ الضّحَىٰ

مكّيّةٌ[1] إحدىٰ عَشْرَةَ آيةً بالإجمَاعِ.

في حَديثِ أُبيٍّ: «مَنْ قَرأَها كانَ ممَّنْ يَرْضَى ٱللهُ بمحمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أن يَشْفَعَ لَهُ، ولَهُ عَشْرُ حَسَنَاتٍ بعَدَدِ كلِّ يتيمٍ وسَائل»[2].

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَٱلضُّحَىٰ(١) وَٱلَّيْلِ إِذَآ سَجَىٰ(٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ(٣) وَلَلْأَخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ(٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ(٥) أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ(٦) وَوَجَدَكَ ضَآلاًّ فَهَدَىٰ(٧) وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ(٨) فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ(٩) وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ(١٠) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ(١١)﴾

---

(١) قال الشيخ الطوسي في التبيان: ج ١٠ ص ٣٦٧: مكّية في قول ابن عباس والضحاك، وهي إحدىٰ عشرة آيةً بلاخلاف.

وفي الكشّاف: ج ٤ ص ٧٦٥: مكّية، وآياتها (١١)، نزلت بعد الفجر.

(٢) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٧٦٩ مرسلًا.

وقد تقدّم حديث الصادقعليه السلام في فضلها عند الحديث في فضل قراءة سورة الشمس المتقدّمة.

أَقْسَمَ سبحانَهُ بوَقْتِ ﴿ٱلضُّحَىٰ﴾ وهو صَدْرُ النَّهارِ، وقيلَ: أُريدَ بالضُّحَىٰ النَّهارُ كُلُّهُ[1] كقَولِهِ: ﴿أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحىً﴾[2] في مقَابَلَةِ قَولِهِ: ﴿بَيَاتاً﴾[3]، ﴿سَجَىٰ﴾ أي: سَكَنَ ورَكَدَ ظَلامُهُ، ولَيْلةٌ سَاجِيَةٌ: سَاكِنَةُ الرِّيحِ، وقيلَ: معناهُ: سُكُونُ النَّاسِ والأَصْوَاتِ فيهِ[4]. ﴿مَا وَدَّعَكَ﴾ جَوابُ القَسَمِ، أي: ما قَطَعَكَ قَطْعَ المُودِّعِ، والتَّوديعُ مبَالَغَةٌ في الوَدَعِ وهو التَّرْكُ، لأنَّ مَنْ وَدَّعَكَ فَقَد بَالَغَ في تَرْكِكَ.

ورُوِيَ: أنَّ الوَحْيَ قَد ٱحتَبَسَ عنْهُ أيَّاماً، فَقَالَ المشركُونَ: إنَّ محمَّداً ودَّعَهُ رَبُّهُ وَقلاهُ فَنزَلَتْ[5].

وحُذِفَ الضَّميرُ مِن ﴿قَلَىٰ﴾ كَمَا حُذِفَ من ﴿ٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾[6]، ونَحوُهُ: ﴿فَآوَىٰ﴾، ﴿فَهَدَىٰ﴾، ﴿فَأَغْنَىٰ﴾ وهو ٱختصَارٌ لَفظِيٌّ لأنَّ المحذُوفَ معلُومٌ. ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ﴾ وَجْهُ اتِّصالِهِ بما قَبْلَهُ: أنَّه لمَّا كانَ في ضِمْنِ نَفْيِ التَّوديعِ والقِلَىٰ أنَّ ٱللهَ مُواصِلُكَ بالوَحْيِ إليكَ، وأنَّكَ حَبيبُ ٱللهِ، أَخْبَرَهُ سبحانَهُ أنَّ حالَهُ في الآخِرَةِ أَعْظَمُ من ذلكَ وأَجَلُّ، وهو السَّبْقُ والتَّقَدُّمُ علىٰ جميعِ الرُّسُلِ والأَنبياءِ، وإعْلاءُ المَرتَبَةِ، وإعْطَاءُ الشَّفَاعَةِ والحَوْضِ وأَنْواعِ الكَرامَةِ.

وعن ٱبنِ الحَنَفيَّةِ أنَّه قَالَ: يا أَهْلَ العراقِ، تَزْعمُونَ أنَّ أَرْجَىٰ آيةٍ في كتَابِ ٱللهِ عزَّوجلَّ: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟...﴾[7] الآيةُ، وإنَّا أَهلُ البيتِ نَقُولُ: أَرْجَىٰ آيةٍ في كتابِ ٱللهِ: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ وهي وٱللهِ الشَّفَاعَةُ، لَيُعطِيَنَّها في أَهلِ لا إلٰهَ إلَّا اللهُ حتَّىٰ يَقُولَ: رَبِّ رَضِيْتُ[8].

---

(١) قاله قتادة. راجع تفسير الطبري: ج ١٢ ص ٥٩٩.

(٢) الأعراف: ٩٨. (٣) الاعراف: ٩٧.

(٤) قاله مجاهد وقتادة والضحاك وابن زيد. راجع تفسير الطبري: ج ١٢ ص ٦٢٢.

(٥) رواه الطبري في تفسيره: ج ١٢ ص ٦٢٣ عن ابن عباس.

(٦) الأحزاب: ٣٥. (٧) الزمر: ٥٣.

(٨) رواه القرطبي في تفسيره: ج ٢٠ ص٩٦ عن عليٍّ عليه السلام. وفي الدرّ المنثور: ج ٨ ص ٥٤٣ ←

واللّامُ في ﴿ولَسَوْفَ﴾ لامُ الابتداءِ المؤكِّدةُ لِمَضمونِ الجُملةِ، والمبتَدأُ محذُوفٌ، والتّقديرُ: وَلأَنْتَ سَوفَ يُعطِيكَ، ولَيْسَ بلَامِ القَسَمِ لأنَّها لا تَدْخُلُ على المضَارعِ إلَّا مَعَ نُونِ التَّوكيدِ. ثمَّ عَدَّدَ سبحانَهُ عليهِ نِعَمَهُ، وَأنَّهُ لم يُخْلِهِ منْها من ٱبتِدَاءِ أَمْرِهِ ليقيسَ المترَقَّبَ على السَّالفِ: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ﴾ من الوجودِ الذي بمعنى العِلْمِ، والمنْصُوبَانِ مفعُولَا «وَجَدَ»، والمعنىٰ: أَلَمْ تَكُنْ يَتيماً؟ وذلك أنَّ أباهُ ماتَ وهو جَنينٌ، أو: بَعْدَ ولادَتِهِ بمدَّةٍ قليلةٍ عَلَى ٱختلافِ الرِّوايةِ فيهِ، وماتَتْ أُمُّهُ وهو ٱبنُ سنتَيْنِ فآوَاهُ ٱللهُ بِجَدِّهِ عَبْدِ المُطَّلبِ أوَّلًا، وبِعمِّهِ أبي طَالبٍ بَعْدَ وفاةِ عَبْدِالمُطَّلبِ، وَحَبَّبَهُ إليهِ حتَّىٰ كانَ أَحَبَّ إليهِ من جميعِ أَولادِهِ، فَكَفَلَهُ وربَّاهُ، ولمَّا مَاتَ عَبْدُالمُطَّلبِ كانَ ٱبنَ ثَمَاني سِنين.

﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا﴾ عن عِلْمِ الشَّرائعِ، كقَولِهِ: ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ﴾ (١). وقيلَ: إنَّ حَليمَةَ ظِئْرَهُ أَضَلَّتْهُ عنْدَ بَابِ مكَّةَ حينَ فَطَمَتْهُ وجاءَت بهِ لِتَرُدَّهُ علىٰ عَبْدِ المُطَّلبِ، فَخَرَجَ عَبْدُالمُطَّلبِ ودَعَا ٱللهَ سبحانَهُ فَنُودِيَ وأُشْعِرَ بمَكَانِهِ (٢). ورُوِيَ أيضاً: أنَّهُ ضَلَّ في صِبَاهُ في بَعْضِ شِعَابِ مكَّةَ فَرَدَّهُ أَبُو جَهْلٍ إلىٰ عَبْدِالمُطَّلبِ (٣) ﴿فَهَدَىٰ﴾ أي: فَعَرَّفَكَ القُرآنَ والشَّرائعَ، أو: فَأَزَالَ ضَلالَكَ عن جَدِّكَ. ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا﴾ أي: فَقيراً لا مَالَ لكَ فَأَغْنَاكَ بمَالِ خَديجَةَ، أو: بمَا أَفَاءَ عليكَ من الغَنَائِمِ.

﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ أي: فلا تَغْلِبْهُ علىٰ حقِّهِ ومَالِهِ لضَعْفِهِ.

من طريقِ حرب بن شريح عن أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين عليه السلام، وعزاه الى ابن المنذر وابن مردويه وأبي نعيم في الحلية.

(١) الشورىٰ: ٥٢.

(٢) رواه القرطبي في تفسيره: ج ٢٠ ص ٩٧ عن كعب.

(٣) رواه البغوي في تفسيره: ج ٤ ص ٤٩٩ عن ابن عباس.

وعنهُ عليه السلام: «مَنْ مسَحَ يَدَهُ على رأْسِ يتيمٍ كانَ له بكلِّ شَعْرةٍ تَمُرُّ على يَدِهِ نُورٌ يَوْمَ القيامَةِ»[١].

﴿وَأَمَّا ٱلسَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ أي: فلا تَرُدَّهُ ولا تَزْجُرْهُ، وقيلَ: هو طَالِبُ العِلْمِ إِذا جَاءَكَ فَلا تَنْهَرْهُ[٢]. والتَّحديثُ ﴿بِنِعْمَةِ﴾ ٱللهِ: شُكْرُها وإِشَاعَتُها وإِظْهارُها.

✡ ✡ ✡

(١) رواه الآلوسي في تفسيره: ج ٣٠ ص ١٦٣ مرفوعاً عن ابن مسعود.

(٢) قاله الحسن. راجع تفسير البغوي: ج ٤ ص ٥٠٠.

سُورَةُ الشَرْحِ [1]

مكّيةٌ [2]، ثماني آياتٍ.

في حَديثِ أُبيٍّ: «وَمَنْ قَرَأَها أُعْطِيَ من الأَجْرِ كَمَنْ لَقِيَ محمَّداً صلى الله عليه وآله وسلم مغْتَمّاً فَفَرَّجَ عَنْهُ» [3].

ورُوِي عن أئمَّتِنا عليهم السلام: أنَّ «الضُّحَىٰ»، و ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ﴾ سُورةٌ واحِدَةٌ، وكَذلِكَ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ﴾ و ﴿لإِيلافِ﴾ سُورةٌ واحِدَةٌ [4].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ(١) وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ(٢) ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ(٣) وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ(٤) فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا(٥) إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا(٦) فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ(٧) وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب(٨)﴾

---

(١) في بعض النسخ: «سورة أَلَم نَشْرَحْ».

(٢) قال الشيخ الطوسي في التبيان: ج ١٠ ص ٣٧١: مكّية في قول ابن عباس والضحاك، وهي ثمان آيات بلاخلاف.

وفي الكشّاف: ج ٤ ص ٧٧٠: مكّية، وآياتها (٨)، نزلت بعد الضُّحىٰ.

(٣) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٧٧٢ مرسلًا.

(٤) رواه العياشي عن الصادق عليه السلام كما في المجمع.

هذا ٱستفهامٌ عن ٱنتِفاءِ «الشَّرْحِ» علىٰ وَجْهِ الإنْكَارِ، فَأَفَادَ إثْباتَ الشَّرْحِ وإيْجَابَهُ، فكأنَّهُ قَالَ: «شَرَحْنَا لَكَ صَدْرَكَ» ولذلِكَ عَطَفَ عليهِ ﴿وَضَعْنَا﴾ ٱعتبَاراً للمعنىٰ، ومعنىٰ «شَرَحْنا لكَ صَدْرَكَ»: فَسَحْنَاهُ حتّىٰ وَسِعَ دَعْوَةَ الثَّقَلَيْنِ، أو: فَسَحْنَاهُ بما أَودَعْنَاهُ من العُلُومِ والحِكَمِ، وعن الحَسَن: مُلِئَ حِكْمَةً وعِلْماً[١].

والوِزْرُ ﴿ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ أي: حِملَهُ عَلَى النَّقِيضِ وهو صَوتُ الانتِقَاضِ والانفِكاكِ، مَثَلٌ لِمَا كَانَ يَثْقُلُ علىٰ رَسُولِ ٱللهِ من تَحمُّلِ أَعْباءِ النُّبوَّةِ، وما كانَ يُصيبُهُ من أَذَى الكفَّارِ مع شِدَّةِ حرْصِهِ علىٰ إسْلامِهِم، وَوَضَعَ ذلك عنْهُ بأَن أيَّدَهُ بالمُعْجِزَاتِ، وأَنْزَلَ السَّكينةَ عليهِ، وعَلَّمَهُ الشَّرائِعَ ومَهَّدَهُ عذرَهُ بعدَ أَن بَلَّغَ.

وَرَفَعَ ذِكْرَهُ وهو أَن قَرَنَ ذِكْرَهُ بِذِكْرِ ٱللهِ في كلمةِ الشَّهَادةِ والأَذَانِ والإِقَامَةِ والتَّشَهّدِ والخُطَبِ وفي القُرآنِ، وبأَنْ ذَكَرَهُ في الكُتُبِ المتَقَدِّمَةِ، وأَخَذَ على الأنبياءِ والأُمَمِ أن يؤْمِنُوا بهِ. والفائِدَةُ في زيادَةِ ﴿لَكَ﴾ وإنْ كانَ المعنىٰ يَستَقِلُّ بدُونِهِ، هي ما في طَريقَةِ الإبْهامِ والإيْضَاحِ، فكَأَنَّهُ لمَّا قَالَ: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ﴾ فُهِمَ أَنْ ثَمَّ مَشْرُوحاً، ثمَّ قَالَ: ﴿صَدْرَكَ﴾ فأَوضَحَ ما كانَ مُبْهماً. وكذلكَ قَولُهُ: و ﴿لَكَ ذِكْرَكَ﴾ و ﴿عَنكَ وِزْرَكَ﴾.

ولَمَّا ذَكَرَ سبحانَهُ ما أَنْعَمَ بهِ علىٰ رَسُولِهِ من جَلائِلِ النِّعَمِ، وقد كانَ المشْرِكُونَ عَيَّرُوهُ بالفَقْرِ حتَّىٰ ظَنَّ أَنَّهم إنَّما رَغبُوا عن الإسلامِ لافتقَارِ أَهْلِهِ وٱحتقَارِهِم عقَّبَ ذلكَ بقَولِهِ: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْراً﴾ فكَأَنَّهُ قَالَ: خَوَّلْنَاكَ ما خَوَّلْنَاكَ تَفَضُّلًا وإنْعاماً فَلَا تَيْأَسْ من فَضْلِنا، فإنَّ مع العُسْرِ الّذي أَنْتَ فيهِ يُسْراً. وَقَرَّبَ «الْيُسْرَ» المُتَرَقَّبَ بلَفْظَةِ ﴿مَعَ﴾ التي هي للصُّحْبَةِ، حتّىٰ جَعَلَهُ كالمقَارِنِ للعُسْرِ زيَادةً في تَسْليتِهِ وتَقْوِيةً لِقَلْبِهِ.

---

(١) تفسير الحسن البصري: ج ٢ ص ٤٢٦.

والجُملةُ الثّانيةُ تَكْريرٌ للجُمْلةِ الأُولىٰ لِتَقْريرِ معناهَا في النُّفُوسِ وتَمْكينِها في القُلُوبِ، وعلىٰ هذا فيكُونُ معنىٰ ما رُوِيَ في الحَديثِ أَنَّهُ عليه السلام خَرَجَ ذاتَ يَوْمٍ وهو يَضْحَكُ ويقُولُ: «لَنْ يَغْلبَ عُسْرٌ يُسْرَيْنِ»(١) أَن يكُونَ قَوْلُهُ: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْراً إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْراً﴾ مَوْعِداً من ٱللهِ سبحانَهُ مُكَرَّراً.

ويَنْبغي أَن يُحْمَلَ وَعْدُهُ علىٰ أَبْلَغِ ما يَحتَمِلُهُ اللَّفْظُ، وقد عَلِمْنَا أَنَّ الجُملةَ الأُولىٰ عِدَةٌ بأَنَّ العُسْرَ مَرْدُوفٌ بِيُسْرٍ لا مَحالَةَ، والثّانيةَ عِدَةٌ مستَأْنفَةٌ بأَنَّ العُسْرَ مَتْبوعٌ بيُسْرٍ، فَهُمَا يُسْرَانِ علىٰ تَقْديرِ الاستِئْنافِ، وإنَّما كانَ العُسْرُ واحِداً؛ لأَنَّه لا يَخْلُو: إمَّا أَن يكُونَ تَعريفُهُ للعَهْدِ وهو العُسْرُ الّذي كانُوا فيهِ، فَهُو هُوَ لأَنَّ حُكْمَهُ حُكْمُ «زَيْدٍ» في قولِكَ: إنَّ مَعَ زَيْدٍ مَالاً، إنَّ مَعَ زَيْدٍ مَالاً، وإمَّا أَن يكُونَ للجِنْسِ الّذي يَعْلَمُهُ كُلُّ أَحَدٍ فَهُو هُوَ أَيْضاً. وأَمَّا «اليُسْرُ» فمُنَكَّرٌ متَناولٌ بَعْضَ الجِنْسِ، وإذا كانَ الكَلامُ الثّاني مستَأنفاً غَيْرَ مُكَرَّرٍ فَقَدْ يتَناوَلُ بعضَها غَيْرَ البَعْضِ الأَوَّلِ بغَيْرِ إشْكَالٍ. ويَجُوزُ أَن يُرادَ باليُسْرَيْنِ: يُسْرَ الدُّنيا ويُسْرَ الآخِرَةِ، والمعنىٰ في التَّنْكِيرِ: التَّفْخِيمُ، كأَنَّهُ قَالَ: إنَّ مع العُسْرِ يُسْراً عَظيماً وأَيُّ يُسْرٍ!

﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ﴾ هذا بَعْثٌ لَهُ عليه السلام على الشُّكْرِ، والاجتهادِ في العِبادَةِ والنَّصَبِ فيها، وأَن لا يَخْلُو منْها.

وعنِ ٱبنِ عبَّاسٍ: فإذا فَرَغْتَ عن صَلاتِكَ فاجتَهِدْ في الدُّعَاءِ وٱرْغَبْ إلىٰ ربِّكَ في المسأَلَةِ(٢)، وهو المَرْويُّ عن الصَّادقِ عليه السلام(٣).

(١) رواه الطبري في تفسيره: ج ١٢ ص ٦٢٨ عن الحسن.

(٢) تفسير ابن عباس: ص ٥١٤.

(٣) رواه الحِمْيَري في قرب الإسناد: ص ٧ ح ٢٢ ط. آل البيت عن مسعدة بن صدقة عن أبي عبدالله عليه السلام عن أبيه.

وعن الحَسَنِ: فإذا فَرَغْتَ من الغَزْوِ فاجتَهِدْ في العِبَادَةِ[١].

وعن مُجَاهِدٍ: فإذا فَرَغْتَ من دُنْياكَ فانْصَبْ في صَلَاتِك[٢]. وعن الشَّعْبيِّ أنَّه رأىٰ رَجُلًا يَشيلُ حَجَراً فَقَالَ: لَيْسَ بهذا أُمِرَ الفَارِغُ[٣].

ومعنىٰ تَقْديمِ الظَّرْفِ الّذي هو ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾: أنَّ المُرادَ خَصُّهُ بالرَّغْبةِ: ولا تَرغَبْ إلّا إليهِ، ولا تُعَوِّلْ إلّا علىٰ فَضْلِهِ، ولا تَرْفَعْ حَوائِجَكَ إلّا إليهِ.

۞ ۞ ۞

(١) تفسير الحسن البصري: ج ٢ ص ٤٢٨.

(٢) تفسير مجاهد: ص ٧٣٦.

(٣) حكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٧٧٢.

سُورَةُ التِّين

مختَلَفٌ فيها[1] ثَمانِي آياتٍ.

في حَدِيثِ أُبيٍّ: «مَنْ قَرَأَها أَعْطَاهُ ٱللهُ خَصْلَتَيْنِ: العَافيةَ واليَقينَ مادَامَ في دَارِ الدُّنْيا، فإذَا ماتَ أَعْطَاهُ اللهُ بعَدَدِ مَنْ قَرَأَ هذهِ السُّورةَ صِيَامَ يَوْمٍ»[2].

وعنِ الصَّادقِ عليه السلام: «مَنْ قَرَأَ ﴿وَٱلتِّينِ﴾ في فَرَائِضِهِ ونَوَافِلِهِ أُعْطِيَ من الجنَّةِ حيثُ يَرضَىٰ»[3].

بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ(١) وَطُورِ سِينِينَ(٢) وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ(٣) لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ(٤) ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ(٥)

---

(١) قال الشيخ الطوسي في التبيان: ج ١٠ ص ٣٧٥: مكّية في قول ابن عباس والضحاك، وهي ثمان آيات بلاخلاف.

وفي تفسيره الماوردي: ج ٦ ص ٣٠٠: مكّية في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر، وقال ابن عباس وقتادة: هي مدنيّة.

وفي الكشّاف: ج ٤ ص ٧٧٣: مكّية، وآياتها (٨)، نزلت بعد البروج.

(٢) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٧٧٥ مرسلًا.

(٣) ثواب الأعمال للصدوق: ص ١٥١، وزاد في آخره: «إن شاء الله».

إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ(٦) فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ(٧) أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ(٨)﴾

أَقْسَمَ سبحانَهُ بـ﴿ٱلتينِ﴾ الّذي يؤْكَلُ ﴿وَٱلزَّيْتُونِ﴾ الّذي يُعْصَرُ منْهُ الزَّيْتُ، لأنَّهما عجيبتَانِ من بينِ أَصْنَافِ الأَشْجارِ المُثمِرَةِ.

ورُويَ أنَّه أُهْدِيَ لرَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم طَبَقٌ من تينٍ فأَكَلَ منْهُ وقَالَ لأَصحَابِهِ: «كُلُوا فَلَوْ قُلْتُ: إِنَّ فاكِهَةً نزَلَتْ من الجنَّةِ لَقُلْتُ: هذهِ هي، لأنَّ فاكِهَةَ الجنَّةِ بلا عَجَمٍ، فَكُلُوها فإنَّها تَقْطَعُ البَواسِيرَ، وتَنْفَعُ من النِّقْرِسِ»(١).

ومرَّ مَعَاذُ بنُ جَبَلٍ بشَجَرةِ الزَّيْتُونِ فأَخَذَ منها قَضيباً واْستَاكَ بِهِ، وقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ ٱللهِ صلى الله عليه وآله وسلم يقُولُ: «نِعْمَ السِّوَاكُ الزَّيتُونُ، من الشَّجَرةِ المبَارَكَةِ، يُطيبُ الفَمَ ويَذْهَبُ بالحَفَرِ»، وسَمِعْتُهُ يقُولُ: «هو سِوَاكي وسِوَاكُ الأَنْبياءِ قَبْلِي»(٢).

وقيلَ: هُمَا جبَلانِ من الأرضِ المقدَّسَةِ(٣)، وأُضيفَ «الطُّورُ» وهو الجبَلُ إلىٰ ﴿سِينِينَ﴾ وهي البُقْعَةِ، و «سِينُونَ» مثْلُ «يَبْرونَ» في جَوازِ الإعْرابِ بالواوِ والياءِ، والإقْرارِ على الياءِ وتَحْريكِ النُّونِ بِحَرَكاتِ الإِعْراب. و ﴿ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ مكَّةُ، قد أَمِنَ فيه الخَائِفُ في الجَاهليَّةِ والإسلامِ، يُقَالُ: أَمِنَ الرَّجُلُ أَمَانَةً، فَهُو أَمينٌ وأَمَانٌ، فكأَنَّهُ يَحْفَظُ مَنْ دَخَلَهُ كَمَا يَحْفَظُ الأَمينُ ما يؤْتَمَنُ عليهِ.

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ جَوابُ القَسَمِ ﴿فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ أي: في أَحْسَنِ تَعْديلٍ لِشكْلِهِ وصُورتِهِ، وتَسْويةٍ لأَعضَائِهِ، وإِبَانَةٍ لَهُ من غَيْرِهِ بنُطْقِهِ وتَمَيُّزِهِ وعَقْلِهِ

---

(١) رواه في مكارم الإخلاق: ص ١٧٣، والكحّال في الأحكام النبوية في الصناعة الطبيّة: ج ٢ ص ١٤١ كلاهما عن أبي ذرّ.

(٢) أخرجه العجلوني في كشف الخفاء: ج ١ ص ٤٤١ و ٥٣٥.

(٣) قاله ابن عباس. راجع تفسير الرازي: ج ٣٢ ص ٩.

وتَدبيرِهِ، ﴿ثُمَّ رَدَدْنَـهُ﴾ ثمَّ كانَ عاقِبَةُ أَمرِهِ حينَ لَمْ يَشْكُرِ النِّعمةَ في الخَلْقَةِ القَويمةِ أن رَدَدْنَاهُ ﴿أَسْفَلَ﴾ مَنْ سَفُلَ خَلْقاً وتَرْكيباً، يَعني: أَقْبَحَ مَنْ قَبُحَ صُورةً مِنْ خَلْقِهِ، وَهُم أَصْحابُ النَّارِ. أو: ثمَّ رَدَدْنَاهُ بعدَ ذلكَ التَّقْويمِ والتَّحْسينِ أَسْفَلَ مَنْ سَفُلَ في الصُّورةِ حيثُ نَكَّسْنَاهُ في الخَلْقِ، يُريدُ: حَالَ الخَرَفِ والهَرَمِ وكلَالِ السَّمْعِ والبَصَرِ.

والاستِثْنَاءُ على المعنَى الأَوَّلِ متَّصِلٌ، واتِّصَالُهُ ظَاهِرٌ، وعلى الثَّاني منْقَطِعٌ بمعنىٰ: ولكنَّ الّذينَ كانُوا صَالِحينَ من الْهَرْمَىٰ فَلَهُم ثَوابٌ دائِمٌ علىٰ طَاعَاتِهِم وصَبْرِهِم علىٰ مُقَاسَاةِ المَشَاقِّ والقِيَامِ بالعبادةِ في حَالِ عَجْزِهِم وتَخَاذُلِ قُوَاهُم، وعن ابنِ عبَّاسٍ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ يعني: الَّذينَ قَرَأُوا القُرآنَ، وقَالَ: مَنْ قَرَأَ القُرآنَ لَمْ يُرَدَّ إلىٰ أَرْذَلِ العُمُرِ وإنْ عَمَّرَ طَويلاً[١].

﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ﴾ الخِطَابُ للإِنسانِ علىٰ طَرِيقَةِ الالتفَاتِ، أي: فَمَا يَجْعَلُكَ كاذِباً بسَبَبِ ﴿ٱلدِّينِ﴾ وإنْكارِهِ بَعْدَ هذا الدَّليلِ؟ يعني: أَنَّك تَكْذِبُ إذا كذَّبْتَ بالجَزَاءِ، فإنَّ كُلَّ مُكَذِّبٍ بالحقِّ كاذِبٌ لا مَحالَةَ، والباءُ مِثْلُها في قَولِهِ: ﴿ٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾[٢]، وقيلَ: الخِطَابُ لِرَسُولِ ٱللهِ ﷺ[٣]. ﴿أَلَيْسَ ٱللهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَـٰكِمِينَ﴾ وَعيدٌ للكُفَّارِ بأنَّه يَحْكُمُ عَلَيهِم بمَا هُمْ أَهْلُهُ.

وعنِ النَّبيِّ ﷺ أنَّه كَانَ إذا خَتَمَ هذهِ السُّورةَ قَالَ: «بَلَىٰ، وأَنَا علىٰ ذلكَ من الشَّاهِدِينَ»[٤].

❁ ❁ ❁

(١) حكاه عنه البغوي في تفسيره: ج ٤ ص ٥٠٥.
(٢) النحل: ١٠٠.
(٣) قاله قتادة. راجع تفسير الطبري: ج ١٢ ص ٦٤٢.
(٤) أخرجه الترمذي في السنن: ج ٥ ص ٤٤٣ ح ٣٣٤٧ عن أبي هريرة موقوفاً.

سُورَةُ العَلَق

مكّيةٌ(1) تِسْعُ عَشْرَةَ آيةً.

وفي حَديثِ أُبيٍّ: «وَمَنْ قَرَأَها فكأنَّما قَرَأَ المُفَصَّلَ كُلَّه»(2).

وعنِ الصَّادقِ عليه السلام: «مَنْ قَرَأَها ثمَّ ماتَ في يَومِهِ أو لَيْلَتِهِ مَاتَ شَهيداً، وبُعِثَ شَهيداً، وكَانَ كَمَنْ ضَرَبَ بسَيْفِهِ في سَبيلِ ٱللهِ مَعَ رَسُولِ ٱللهِ صلى الله عليه وآله وسلم»(3).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ(1) خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ(2) ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ(3) ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ(4) عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ(5) كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ(6) أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ(7) إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ(8) أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ(9) عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ(10) أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ(11) أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ(12) أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ(13) أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ

---

(1) قال الشيخ الطوسي في التبيان: ج ١٠ ص ٣٧٨: مكّية في قول ابن عباس والضحاك، وهي تسع عشرة آيةً في الكوفي والبصري، وعشرون في المدنيّين.

وفي الكشّاف: ج ٤ ص ٧٧٥: مكّية، وآياتها (١٩)، وهي أول ما نزل من القرآن.

(2) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٧٧٩ مرسلاً.

(3) ثواب الأعمال للصدوق: ص ١٥١، وفيه بعد «بعث شهيداً»: «وأحياه شهيداً».

يَرَىٰ(١٤) كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ(١٥) نَاصِيَةٍ كَـٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ(١٦) فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ(١٧) سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ(١٨) كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب(١٩)﴾

أكْثَرُ المفسِّرينَ علىٰ أنَّها أَوَّلُ سُورةٍ نَزَلَتْ، وقيلَ: إنَّ الفاتِحَةَ أَوَّلُ ما نَزَلَ[١]، وقيلَ: ﴿يَـٰأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾[٢] ﴿بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ في مَحَلِّ الحالِ، أي: اقْرأْ مُفْتَتِحاً باسْمِ ربِّكَ، قُلْ: بسْمِ ٱللهِ، ثمَّ ٱقْرَأْ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ أي: حَصَلَ منْهُ الْخَلْقُ وٱستَأْثَرَ بهِ، لا خَالِقَ سِوَاهُ، و[٣] خَلَقَ جَميعَ الأَشْياءِ، فَيَتَناوَلُ كُلَّ مخْلُوقٍ. ثمَّ قَالَ: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنْسَـٰنَ﴾ خَصَّصَ الإِنْسَانَ بالذِّكْرِ من بينِ سَائرِ ما يَتَنَاوَلُه الخَلْقُ لأنَّه أَشْرَفُ ما عَلَى الأرضِ ﴿مِنْ عَلَقٍ﴾ ولَمْ يَقُلْ: مِن عَلَقَةٍ لأنَّ الإنْسانَ في معنَى الجَمْعِ، كقَولِهِ: ﴿إِنَّ ٱلْإِنْسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾[٤].

﴿وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾ الَّذي لَهُ الكَمَالُ في زيادةِ كَرَمِهِ علىٰ كلِّ كريمٍ، أَنْعَمَ علىٰ عبادِهِ بأَن أَخْرَجَهُم إلى الوجُودِ من العَدَمِ، وأفَاضَ عَلَيهم ما لا يَدْخُلُ تَحتَ الحَصْرِ من النِّعَمِ، ويَحْلُمُ عَنْهم في رُكُوبِهم المَنَاهِي وٱطِّراحِهِم الأَوامِر، فَلَا يُعَاجِلُهُم بالنِّقَمِ، فَمَا لِكَرَمِهِ نهايَةٌ. ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾ أي: عَلَّمَ الخَطَّ بالقَلَمِ، أو: عَلَّمَ الإنْسانَ البَيَانَ بالقَلَمِ، أو: الكتَابَةَ. قيلَ: إنَّ آدَمَ أَوَّلُ مَنْ كَتَبَ[٥]، وقيلَ: إدْرِيس[٦].

﴿عَلَّمَ ٱلْإِنْسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ ونَقَلَهُ من ظُلْمَةِ الجَهْلِ إلىٰ نُورِ العِلْمِ، فَجَميعُ ما يَعْلَمُهُ الإنْسانُ من أُمورِ الدينِ وأَنْواعِ العِلْمِ من جِهَتِهِ سبحانَهُ: إمَّا بأَن ٱضطَرَّهُ إليهِ،

(١) قاله أبو ميسرة الهَمْداني. راجع تفسير القرطبي: ج ٢٠ ص ١١٧.
(٢) قاله أبو سلمة وحكاه عن جابر بن عبدالله. راجع التبيان: ج ١٠ ص ١٧١.
(٣) في نسخة: «أي» بدل الواو، وفي الكشّاف: «أو».
(٤) العصر: ٢.
(٥) قاله كعب الأحبار. راجع تفسير الماوردي: ج ٦ ص ٣٠٥.
(٦) قال الضحاك. راجع المصدر السابق.

وإمَّا بأنْ نَصبَ الدليلَ عليهِ في عَقْلِهِ، أو: بيَّنَهُ لَهُ علىٰ ألْسِنَةِ ملائكتِهِ ورُسُلِهِ، فَكُلُّ العُلُومِ[1] مضَافٌ إليهِ مستَفَادٌ منْهُ جَلَّ ٱسمُهُ.

﴿كَلَّآ﴾ رَدْعٌ وتَنْبيهٌ[2] لِمَنْ كَفَرَ بنِعْمَةِ ٱللهِ عليهِ بطُغْيانِهِ وإنْ لَمْ يُذْكَرْ لِدَلَالَةِ الكلامِ عليهِ. ﴿أَن رَّءَاهُ﴾ وأنْ رَأىٰ نَفْسَهُ، يُقَالُ في أَفْعَالِ القُلُوبِ: رأَيتُنِي، وعَلِمْتُنِي، وذلك من خَصَائِصِها، ولَوْ كانَتِ الرُّؤْيةُ بمعنَى الإِبْصَارِ لامْتَنَعَ في فِعْلِها الجَمْعُ بين الضَّميرَيْنِ. و ﴿ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ هو المفْعُولُ الثَّاني، أي: لأَنْ رأَىٰ نَفْسَهُ مستَغْنِيةً عن ربِّهِ بأَموالِهِ وعَشيرتِهِ وقُوَّتِهِ. وعَنْ قَتَادَةَ: إذا أَصَابَ مالاً زَادَ في مَرَاكِبِهِ وثيابِهِ وطَعَامِهِ وشَرابِهِ فلذلكَ طُغْيانُهُ[3].

﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾ وَاقِعٌ علىٰ طَريقةِ الالتفَاتِ إلى الإنْسانِ تَحْذيراً لَهُ من عاقِبَةِ الطُّغْيانِ، و ﴿ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾ مَصْدرٌ كالبُشْرَىٰ، بمعنَى الرُّجُوعِ. وقيلَ: نَزَلَتْ في أَبي جَهْلٍ[4]، فَرُوِيَ أنَّهُ قَالَ: هَلْ يعفِّرُ محمَّدٌ وَجْهَهُ بينَ أَظْهُرِكُم؟ قَالُوا: نَعَم، قَالَ: فوالَّذي يَحْلفُ بِهِ لَئِنْ رأَيتُهُ يَفْعَلُ ذلكَ لأَطَأَنَّ عُنُقَهُ، فَجَاءَهُ ثمَّ نَكَصَ علىٰ عَقِبَيْهِ يتَّقي بيدَيْهِ، فَقَالُوا: ما لَكَ يا أَبَا الحَكَمِ؟ قَالَ: إنَّ بيني وبينَهُ لَخَنْدَقاً من نَارٍ وهَوْلاً وأَجْنِحَةٍ، وقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «والَّذي نَفْسي بيدِهِ لَوْ دَنَا مِنِّي لاخْتَطَفَتْهُ الملائكةُ عضْواً عضْواً» فَنَزَلَتْ: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ عَبْداً إِذَا صَلَّىٰٓ﴾[5].

والمعنىٰ: أَخْبِرْني عَمَّنْ يَنْهَىٰ بَعْضَ عبادِ ٱللهِ عن صَلاتِهِ إنْ كانَ ذلكَ النَّاهِي علىٰ طَرِيقَةٍ شَديدَةٍ فيما يَنْهَىٰ عنْهُ من عِبَادِةِ ٱللهِ ﴿أَوْ﴾ كَانَ ﴿أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ﴾

---

(١) في نسخة: «المعلوم». (٢) في بعض النسخ زيادة: «على الخطأ».

(٣) حكاه عنه عبدالرزّاق في تفسيره: ج ٢ ص ٣١٣.

(٤) قاله الفرّاء. راجع معاني القرآن: ج ٣ ص ٢٧٨.

(٥) رواه مسلم في الصحيح: ج ٤ ص ٢١٥٤ ح ٢٧٩٧.

فيمَا يَأْمُرُ بِهِ من عبادةِ الأَوثَانِ كما يَعْتَقِدُ، وكذلكَ ﴿إِنْ﴾ كَانَ على التَّكذيبِ للحَقِّ والتَّولّي عن الدِّينِ، كَمَا نَقُولُ نحنُ ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ وَيَطَّلِعُ علىٰ أَحْوالِهِ من هُدَاهُ وضَلَالِهِ فَيُجَازيهِ علىٰ حَسْبِ ذلكَ، وهذا وَعِيدٌ. وقيلَ: معنَاهُ: أَرأَيْتَ إنْ كَانَ هذا الذي صَلَّىٰ علَى الهُدىٰ والطَّريقَةِ المستَقيمةِ، وأَمَرَ بأَن تُتَّقَىٰ مَعَاصِي ٱللهِ، كيفَ تَكُونُ حَالُ مَن يَنْهَاهُ عن الصَّلاةِ ويَزْجرُهُ عَنْها؟[1]

فأمَّا تَقْديرُ إعْرابِهِ، فإنَّ ﴿ٱلَّذِى يَنْهَىٰ﴾ والجُملَةَ الشَّرطيَّةِ هُمَا في مَوْضِعِ مَفْعُولَيْ ﴿أَرَءَيْتَ﴾، وحُذِفَ جَوابُ الشَّرْطِ الأوَّلِ، فَكَأَنَّهُ قَالَ: إنْ كَانَ عَلَى الهُدَىٰ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوىٰ أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللهَ يَرَىٰ. وجَازَ حَذْفُهُ لدَلالَةِ ذِكْرِهِ في جَوابِ الشَّرْطِ الثَّاني عليهِ، وَصَحَّ الاستِفْهامُ في جَوابِ الشَّرطِ كَمَا تَقُولُ: إنْ أَتَيْتُك أَتُكْرِمُني؟ و ﴿أَرَءَيْتَ﴾ الثَّانيةُ زَائِدَةٌ مكرَّرَةٌ تَوسَّطَتْ بينَ مفعُولَيْ ﴿أَرَءَيْتَ﴾ الأُولىٰ للتَّوكيدِ.

﴿كَلَّا﴾ رَدْعٌ لأبي جَهْلٍ وخَسأٌ عن نَهْيِهِ عن عبادَةِ ٱللهِ وأَمْرِهِ بعبادَةِ الأَصنامِ ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ﴾ عمَّا هو فيهِ «لَنسفَعَنْ» لَنَأخُذَنْ بِنَاصِيَتِهِ وَلَنَسْحَبَنَّهُ[2] بِها إلى النَّارِ، وٱكتفىٰ في ﴿ٱلنَّاصِيَةِ﴾ بلامِ العَهْدِ عن الإِضَافَةِ لِمَا عُلِمَ أَنَّها نَاصِيَةُ المَذْكُورِ، والسَّفْعُ: القَبْض على الشَّيءِ وجَذْبُهُ بشدَّةٍ، وكُتِبَ ﴿لَنَسْفَعًا﴾ في المُصْحَفِ بالأَلِفِ على حُكْمِ الوَقْفِ. ﴿نَاصِيَةٍ﴾ بَدَلٌ من ﴿ٱلنَّاصِيَةِ﴾ أُبْدِلَتْ عن المَعرفَةِ وهي نَكِرَةٌ لأنَّها وُصِفَتْ فَاستَقَلَّتْ بفائِدَةٍ، وَوَصْفُها بالكَذِبِ والخَطَأ على الإِسْنَادِ المَجَازيِّ، وَهُما في الحقيقةِ لِصَاحِبها، وفي ذلكَ من الفَصَاحَةِ والجَزَالَةِ ما ليسَ في قَولِكَ: نَاصِيَة كَاذِبٍ خَاطِئٍ. والنَّادي: المَجْلِسُ الَّذي يَنْتَدي فيهِ القَوْمُ، أي: يَجْتَمِعُونَ. والمُرادُ: أَهْلُ النَّادي، كَمَا قَالَ زُهيرٌ:

---

(١) قاله الشيخ الطوسي في التبيان: ج ١٠ ص ٣٨١.

(٢) في بعض النسخ: «لَنَسْجِنَنَّه».

وَفيهم مَقامَاتٌ حِسَانٌ وُجُوهُهُم وأَنْدِيَةٌ يَنْتابُها القَـوْلُ والفِـعْلُ[١]

والمَقَامةُ: المَجْلِسُ. وعنِ ٱبنِ عبَّاسٍ: أنَّ أَبَا جَهْلٍ أَتَىٰ رَسُولَ ٱللهِ ﷺ وهو يُصَلِّي، فَقَالَ لَهُ: أَلَمْ أَنْهَكَ؟ فانتَهَرَهُ رَسُولُ ٱللهِ ﷺ فَقَالَ: أَتَنْهَرُني يا محمَّدُ وأَنَا أَكْثَرُ أَهْلِ الوادي نَادِياً؟ فَنزَلَتْ: ﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾[٢] يعني: الملائكَةَ المُوَكَّـلينَ بالنَّارِ، وهي في كَلَامِ العَرَبِ الشَّرْطُ الواحِدُ، زِبْنِيَةٌ من: «الزَّبْنِ» وهو الدَّفْعُ، كَعِفرِيَة.

﴿كَلَّا﴾ رَدْعٌ لأَبي جَهْلٍ ﴿لَا تُطِعْهُ﴾ يا محمَّدُ في النَّهْي عن الصَّلاةِ، أي: ٱثْبُتْ علىٰ ما أنتَ عليهِ من عِصْيانِهِ ﴿وَٱسْجُدْ﴾ وَدُمْ علىٰ سُجُودِكَ، وقيلَ: ﴿وَٱسْجُدْ﴾ للهِ ﴿وَٱقْتَرِبْ﴾ من ٱللهِ[٣].

وعنِ النَّبيِّ ﷺ: «أَقْرَبُ ما يكُونُ العَبْدُ إلى ٱللهِ إذا سَجَدَ»[٤].

والسُّجُودُ هنَا من العَزَائِمِ الأَرْبَع.

۞ ۞ ۞

---

(١) البيت من قصيدة طويلة يمدح بها سنان بن أبي حارثة المرّي. أُنظر ديوان زهير بن أبـي سلمىٰ: ص ٦٢.

(٢) رواه عنه الواحدي في أسباب النزول: ص ٣٩٦.

(٣) قاله مجاهد في تفسيره: ص ٧٣٨.

(٤) أخرجه ابن عدي في الكامل: ج ٢ ص ٦٩٠ عن أبي هريرة، ورواه الصدوق في الفقيه: ج ١ ص ٢٠٩ ح ٢٣ عن الصادق عليه السلام. والكليني في الكافي: ج ٣ ص ٢٦٥ ح ٣ عن الرضا عليه السلام.

سُورَةُ القَدرِ

خَمسُ آياتٍ، مختَلَفٌ فيهَا[1].

في حَديثِ أُبيٍّ: «مَنْ قَرَأَها أُعْطِيَ من الأَجْرِ كَمَنْ صَامَ رَمَضَانَ وأَحْيَا لَيْلَة القَدْرِ»[2].

وعنِ الصَّادقِ عليه السلام: «مَنْ قَرَأَ ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَـهُ﴾ في فَرِيضَةٍ من الفَرائِضِ نَادَىٰ مُنَادٍ: يا عَبْدَ ٱللهِ قَد غُفِرَ لَكَ ما مَضَىٰ، فاستَأْنِفِ العَمَلَ»[3].

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ(١) وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ(٢) لَيْلَةُ

---

(١) قال الشيخ الطوسي في التبيان: ج ١٠ ص ٣٨٤: مدنيّة في قول الضحاك، وقال عطاء الخراساني: هي مكّية، وهي خمس آيات بلاخلاف.

وفي تفسير الماوردي: ج ٦ ص ٣١١: مكّية في قول الأكثرين، ومدنيّة في قول الضحاك، وذكر الواقدي: أنّها أول سورة نزلت بالمدينة.

وفي الكشّاف: ج ٤ ص ٧٨٠: مكّية، وقيل: مدنيّة، وآياتها (٥)، نزلت بعد عبس.

(٢) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٧٨١ مرسلاً.

(٣) ثواب الأعمال للصدوق: ص ١٥٢. وبنفس الإسناد عن أبي جعفر عليه السلام قال: «مَن قرأها فجهر بها صوته كان كالشّاهر سيفه في سبيل الله عزّوجلّ، ومَن قرأها سرّاً كان كالمتشحّط بدمه في سبيل الله، ومَن قرأها عشر مرّات محا الله عنه ألف ذنبٍ من ذنوبه».

ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ(٣) تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ(٤) سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ(٥)﴾

الضَّميرُ في ﴿أَنزَلْنَـٰهُ﴾ للقُرآنِ، وعنِ ٱبنِ عبَّاسٍ: أَنْزَلَ ٱللهُ القُرآنَ جُمْلَةً واحِدَةً في ليلةِالقَدْرِ من اللُّوحِ المحفُوظِ إلى السَّماءِ الدُّنْيا، ثمَّ كانَ يُنْزِلُهُ جبرائيلُعليه السلام عَلَى النبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم نُجُوماً في ثَلاثٍ وعشرينَ سَنَة[1]. وعن الشَّعْبِيِّ: إنَّا ٱبتَدأْنـا إنْزَالَهُ ﴿فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾[2].

وقَد عَظَّمَ ٱللهُ عَزَّ ٱسمُهُ القُرآنَ هنَا من ثَلاثَةِ أَوْجهٍ: وهو إسْنَادُ إنْـزَالِـهِ إليـه، والإتيان بضميره دون اسمه الظاهر شهادةً له بالنَّباهة، والرفع من قدر الوقت الّذي أنزله فيهِ وهو لَيْلةُ القَدْرِ.

وٱختُلِفَ فيهَا، والأَظْهَرُ الأَصَحُّ من الأَقْوالِ: أنَّها في شَهْرِ رَمَضَانَ في العَشْرِ الأَواخِرِ في أَوْتَارِها، ثمَّ قيلَ: إنَّـها لَـيلَةُ إحـدَىٰ وعِشْـرينَ مِـنْهُ وهـو ٱخـتيارُ الشَّافِعي[3]. وعَنْ أَبي سَعيدٍ الخُدْريِّ عن النَّـبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم: رَأَيْتُ هـذهِ اللَّـيلةَ ثُـمَّ أُنْسِيتُها، ورَأَيْتُني أَسْجُدُ في ماءٍ وطِينٍ، فالْتَمِسُوها في العَشْرِ الأَواخِرِ، وٱلتَمسُوها في كلِّ وِتْرٍ، قَالَ: فَأَبْصَرَتْ عينَايَ رَسُولَ ٱللهِ صلى الله عليه وآله وسلم انصرَفَ وعلىٰ جبْهَتِهِ وأَنْفِهِ أَثَرُ الماءِ والطِّينِ من صَبيحةِ إحدىٰ وعِشْرينَ. أَورَدَهُ البخَاري في الصَّحيحِ[4].

وقيلَ: إنَّها لَيلَةُ ثَلاثٍ وعِشْرينَ منْه، وهي لَيلَةُ الجُهَنِيِّ وٱسمُهُ عبدُٱللهِ بنُ أُنَيْس الأَنْصاريِّ، قَالَ: يا رَسُولَ ٱللهِ، إنَّ منْزِلي نَاءٍ عن المدينةِ، فَمُرْني بلَيلَةٍ أَدْخُلُ فيهَا، فأَمَرَهُ بليلةِ ثَلاثٍ وعِشْرين[5]. وعَنِ ٱبنِ عُمَرَ في حديثٍ آخَـرَ: فَـقَالَ صلى الله عليه وآله وسلم:

---

(١) رواه عنه الماوردي في تفسيره: ج ٦ ص ٣١١.

(٢) المصدر السابق. (٣) المصدر نفسه.

(٤) صحيح البخاري: ج ٣ ص ٦٠ ـ ٦١.

(٥) رواه الصدوق في الفقيه: ج ٢ ص ١٦٠ ح ٢٠٣١ عن أحدهما عليهما السلام وعبدالرزّاق الصنعاني ←

«فَمَنَ كانَ منْكُم يُريدُ أَن يَقُومَ من الشَّهْرِ شيئاً فَلْيَقُمْ ليلةَ ثَلاثٍ وعِشْرينَ»[١].

وسَأَلَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ أصحابَ رَسُولِ ٱللهِ ﷺ عن لَيلَةِ القَدْرِ فأكثروا القَوْلَ فيهِ، فَقَالَ ٱبنُ عبَّاسٍ: رأَيْتُ ٱللهَ أَكْثَرَ ذِكْرَ السَّبْعِ في القُرآنِ، وعَدَّدَ ذلكَ، ثمَّ قالَ: فَمَا أَرَاها إلَّا لَيلَةَ ثَلاثٍ وعِشْرينَ لِسَبْعٍ بَقِيْنَ، فَقَالَ عُمَرُ: عَجِزْتُم أَن تأْتُوا بما جَاءَ بِهِ هذا الغُلامُ الّذي لَمْ يَجتَمِعْ شُؤونُ رأْسِهِ، وقَالَ لَهُ: وافَقَ رأْيِي رَأْيك[٢].

وسُئِلَ الصَّادِقُ عليه السلام فَقَالَ: هي لَيلةُ إحدىٰ وعِشْرينَ، أو لَيلَةُ ثَلاثٍ وعِشْرينَ، فَقَالَ السَّائِلُ: فإنْ لَمْ أَقْوَ علىٰ كِلْتَيْهِمَا؟ فَقَالَ: ما أَيْسَرَ ليلتَيْنِ فيما تَطْلُبُ، فَقَالَ: ربَّما ما رَأَيْنا الهِلَالَ وجَاءَنا مَن يُخْبِرُنا بخِلَافِهِ في أَرْضٍ أُخْرىٰ؟ فَقَالَ: «ما أَيْسَرَ أَرْبَعَ لَيَالٍ فيمَا تَطْلُبُ»[٣].

وقيلَ: إنَّها لَيلَةُ سَبْعٍ وعِشْرينَ، ورُوِيَ ذلك عن ٱبنِ عبَّاسٍ وٱبنِ عُمَرَ وأُبَيِّ بنِ كَعْبٍ[٤].

والفائِدَةُ في إخْفَاءِ هذهِ اللَّيلةِ أَن يَجْتَهِدَ النَّاسُ في العبادَةِ، ويُحْيُوا اللَّيالِيَ الكثيرةَ طَمَعاً في إدْراكِها، كَمَا أَخْفَى الصَّلاةَ الوسْطىٰ في الصَّلَواتِ الخَمسِ، وٱسْمَهُ الأَعْظَمَ في الأَسْمَاءِ، وسَاعَةَ الإجَابَةِ في سَاعَاتِ الجُمُعَةِ.

ومعنىٰ لَيْلَةِ القَدْرِ: لَيْلَةُ تَقْديرِ الأُمورِ وقَضَائِها، من قَولِهِ: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾[٥]، أو: لَيلَةُ الشَّرَفِ والخَطَرِ وعِظَمِ المِقْدَارِ علىٰ سائرِ اللَّيالي. ﴿وَمَآ

← في المصنّف: ج ٤ ص ٢٥٠ ح ٧٦٨٩ ـ ٧٦٩٢ بأسانيد متعددة.

(١) رواه عبدالرزّاق في المصنّف: ج ٤ ص ٢٤٩ ح ٧٦٨٨ باختلاف في اللفظ.

(٢) أخرجه البيهقي في السنن الكبرىٰ: ج ٤ ص ٣١٣ عن عاصم بن كليب عن أبيه عن ابن عباس، ومن طريق آخر عن عكرمة عنه.

(٣) رواه الصدوق في الفقيه: ج ٢ ص ١٥٩ صدر ح ٢٠٢٩ عن علي بن أبي حمزة.

(٤) أنظر تفسير الماوردي: ج٦ ص٣١٢. (٥) الدُّخان: ٤.

أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ﴾ يعني: ولَمْ تَبْلُغْ دِرَايَتُكَ غَايَةَ عُلُوِّ قَدْرِها، ثمَّ بيَّنَ له ذلكَ فَقَالَ: ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ أي: قيَامُها والعَمَلُ فيها خيْرٌ من قيامِ أَلْفِ شَهْرٍ لَيْسَ فيهَا لَيلَةُ القَدْرِ. ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ إلى السَّمَاءِ الدُّنْيا، وقيلَ: إلى الأَرضِ[1] ﴿وَٱلرُّوحُ﴾ جبرائيلُ عليه السلام، وقيلَ: خَلْقٌ من الملائكةِ لا يَرَاهُم الملائكةُ إلّا تلكَ اللَّيلة[2] ﴿مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾ من أَجْلِ كُلِّ أَمْرٍ قَضَاهُ اللهُ لتلكَ السَّنَةِ إلىٰ قابل ﴿سَلَـٰمٌ هِىَ﴾ أي: ما هي إلّا سلامة، والمعنىٰ: لا يقدّر اللهُ فيها إلّا السلامة والخَيْرَ، ويَقْضي في غَيْرِها البلاءَ والسَّلامَةَ، أو: ما هِيَ إلَّا سَلَامٌ لِكَثْرَةِ سَلَامِهِم علىٰ أَولياءِ ٱللهِ وأَهْلِ طاعَتِهِ، وقُرِئَ: ﴿مَطْلَعِ﴾ بفَتْحِ اللَّامِ وكَسْرِها[3].

۞ ۞ ۞

(١) وهو قول أبي هريرة. راجع تفسير الماوردي: ج ٦ ص ٣١٣.

(٢) حكاه القشيري. راجع تفسير القرطبي: ج ٢٠ ص ١٣٣.

(٣) وبالكسر قرأه الكسائي وأبوعمرو برواية عبيد عنه. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٦٩٣.

سُورَةُ البَيِّنَةِ [1]

مختَلَفٌ فيها [2]، تِسْعُ آياتٍ بَصْرِيٌّ، ثَمَانٍ غَيْرُهُم، عَدَّ البَصْرِيُّ: ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [3].

في حَديثِ أُبَيٍّ: «مَنْ قَرَأَها كانَ يَوْمَ القيامَةِ مَعَ خَيْرِ البَرِيَّةِ» [4].

وعن الباقر عليه السلام: «مَنْ قَرَأَها كـانَ بَـرِيئاً مـن الشِّـرْكِ، وأُدْخِـلَ فـي ديـنِ محمَّد صلى الله عليه وآله وسلم، وبَعَثَهُ اللهُ عزَّوجلَّ مؤمِناً، وحَاسَبَهُ ٱللهُ حِسَاباً يَسيراً» [5].

بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ

---

(١) في نسخة: «سورة لَمْ يَكُن».

(٢) مدنيّة في قول ابن عباس والضحاك، وهي ثمان آيات في الكوفي والمدنيّين، وتسـع فـي البصري.

وفي تفسير الماوردي: ج ٦ ص ٣١٥: مكّية في قول يحيىٰ بن سلام، وعند الجـمهور مدنيّة وهو الصواب.

وفي الكشّاف: ج ٤ ص ٧٨١: مكّية، وقيل: مدنيّة وآياتها (٨)، نزلت بعد الطلاق.

(٣) الآية: ٥.

(٤) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٧٨٣ مرسلًا.

(٥) ثواب الأعمال للصدوق: ص ١٥٢.

تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ(١) رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً(٢) فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ(٣) وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ(٤) وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ(٥) إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ(٦) إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ(٧) جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُ(٨)﴾

كَانَ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ وعَابِدي الأَوثَانِ يقُولُونَ قبلَ مَبْعَثِ النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم: إنَّا لا نَنفكُّ من دينِنَا الّذي نَحْنُ عليهِ، ولا نَتْرُكُهُ حتَّىٰ يُبْعَثَ النَّبيُّ الموعُودُ الّذي هو مكتُوبٌ في التَّوراةِ والإنجيلِ، وهو محمَّدٌ صلى الله عليه وآله وسلم، فَحَكَى ٱللهُ سبحانه ما كانُوا يقُولُونَهُ. وٱنفِكَاكُ الشَّيءِ من الشَّيءِ: أَن يُزَايلَهُ بَعْدَ الْتِحَامِهِ بهِ، يَعني: أَنَّهم متشَبِّثُونَ بدينِهِم ولا يتْرُكُونَهُ ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ أي: الحُجَّةُ الواضِحَةُ. وَ ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللهِ﴾ بَدَلٌ من ﴿ٱلْبَيِّنَةُ﴾، ﴿يَتْلُواْ صُحُفاً مُطَهَّرَةً﴾ من الباطِلِ. ﴿فِيهَا﴾ في تلكَ الصُّحُفِ ﴿كُتُبٌ﴾ مكتُوباتٌ ﴿قَيِّمَةٌ﴾ مستقيمَةٌ عَادِلَةٌ نَاطِقَةٌ بالحقِّ.

﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ عن الحقِّ، أو: ما تَفَرَّقُوا فِرَقاً: فَمِنْهم آمَنَ بِمحمَّدٍ صلى الله عليه وآله وسلم، ومنْهم مَن أَنْكَرَ وقَالَ: لَيْسَ هو بذلكَ النَّبيِّ المَوعُودِ، ومنْهم مَنْ عَرَفَ وعَانَدَ. يعني: أَنَّهم كانُوا يَعِدُونَ الاجتماعَ واتِّفَاقَ الكَلِمَةِ على الحقِّ إذا جَاءَهُم الرَّسُولُ، وما فَرَّقَهُم عن الحقِّ إلَّا مَجِيءُ الرَّسُولِ. ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ﴾ في التَّوراةِ

والإنْجيلِ إلَّا بالدِّينِ الحَنيفيِّ، ولكنَّهم حرَّفُوا وبدَّلُوا ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ أي: دينُ المِلَّةِ القَيِّمَةِ. والمعنىٰ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ﴾ بِمَا في الكِتَابَيْنِ ﴿إِلَّا﴾ لأَجْلِ أن ﴿يَعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ علىٰ وَجْهِ الإخْلاصِ ﴿حُنَفَآءَ﴾ مائِلينَ عن جميعِ الأَديانِ إلى دينِ الإسلامِ، مسلمينَ مؤمنينَ بالرُّسُلِ كُلِّهِم، ويُدَاوِمُوا علىٰ إقَامَةِ ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وَإِيْتَاءِ ﴿ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

و ﴿ٱلْبَرِيَّةِ﴾ فَعِيلَةٌ مِنْ: بَرَأَ اللهُ الخَلْقَ، إلّا أنَّه قَد ٱستَمَرَّ فيهِ الاستِعْمَالُ علىٰ تَخْفيفِ الهَمْزَةِ ورَفْضِ الأَصْلِ، و «النَّبيّ» كذلِكَ، وقُرِئَ: «البرِيئَة» بالهَمْزَةِ[1] على الأَصْلِ.

وعن ٱبنِ عبَّاسٍ في قَولِهِ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ قَالَ: نَزَلَتْ في عليٍّ وأَهْلِ بَيْتِهِ عَلَيهِ وعَلَيهِم السّلام[2].

---

(١) قرأه نافع وابن عامر برواية ذكوان عنه. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٦٩٣.

(٢) أخرجه الحاكم الحسكاني في شواهد التنزيل: ج ٢ ص ٣٦٦ ح ١١٤٦ و ١١٤٨، وأبو نعيم الحافظ في ما نزل من القرآن في عليٍّ: ص ٧٣، وفي خصائص الوحي المبين: ص ١٣١، والحافظ السروي في مناقب آل أبي طالب: ج ٢ ص ٢٦٦. وفي الباب أيضاً عن جابر وأبي‌برزة الأسلمي ويزيد بن شراحيل الأنصاري فيما تقدّم من مصادر.

سُورَةُ الزَّلزَلَةِ[1]

مختَلَفٌ فيهَا[2]، ثَمانِ آياتٍ كُوفيٌّ، تِسْعٌ غَيْرُهُم، لَمْ يَعُدَّ الكُوفيُّ ﴿أَشْتَاتاً﴾[3].

في حَديثِ أُبَيٍّ: «مَنْ قَرَأَها فكأنَّما قَرَأَ البَقَرَةَ، وأُعْطِيَ من الأَجْرِ كَمَنْ قَرَأَ رُبْعَ القُرآنِ»[4].

وعنِ الصَّادقِ عليه السلام: «مَنْ قَرَأَها في نَوافِلِهِ لَمْ يُصِبْهُ ٱللهُ بزَلْزَلَةٍ أَبَداً، ولَمْ يَمُتْ بِها ولا بِصَاعِقَةٍ، ولا بِآفَةٍ من آفَاتِ الدُّنْيا، فإذَا مَاتَ أُمِرَ بهِ إلى الجنَّةِ فَيقُولُ اللهُ عزَّوجلَّ: عَبْدي أَبَحْتُكَ جَنَّتي فاسْكُنْ مِنْها حَيثُ شِئْتَ وهَوَيْتَ، لَاممْنُوعاً ولَا مدْفُوعاً»[5].

---

(١) في بعض النسخ: «سورة الزلزال».

(٢) قال الشيخ الطوسي في التبيان: ج ١٠ ص ٣٩٢: مدنيّة في قول ابن عباس، وقال الضحّاك: مكّية. وهي ثمان آياتٍ في الكوفي والمدنيّ الأول، وتسع آيات في البصري والمدني الأخير.

وفي تفسير الماوردي: ج ٦ ص ٣١٨: مدنيّة في قول ابن عباس وقتادة وجابر.

وفي الكشّاف: ج ٤ ص ٧٨٣: مدنيّة، وقيل: مكّية، وآياتها (٨)، نزلت بعد النساء.

(٣) الآية: ٦.

(٤) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٧٨٥ مرسلًا.

(٥) ثواب الأعمال للصدوق: ص ١٥٢.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا(١) وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا(٢) وَقَالَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَا لَهَا(٣) يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا(٤) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا(٥) يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْاْ أَعْمَـٰلَهُمْ(٦) فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ(٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ(٨)﴾

الزَّلْزَلَةُ والزِّلْزَالُ: شِدَّةُ الاضْطِرَابِ، ومعنَى إضَافَتِها إلىٰ ضَميرِ «الأَرْضِ»: أَنَّ المعنىٰ: ﴿زِلْزَالَهَا﴾ الّذي يَستَوجِبُهُ في الحِكْمَةِ ومَشيئَةِ ٱللهِ، وهو الزِّلْزَالُ الشَّديدُ خِلَافُ المعْهُودِ، أو: زِلْزَالَها الّذي يَعُمُّ جَميعَها ولا يَختَصُّ بَعْضَها. ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ أي: أَخْرَجَتْ مَوْتَاها المدفُونَةَ فيها أَحْيَاءً للجَزَاءِ، وهو جَمْعُ «ثِقْلٍ»: مَتَاعُ البَيْتِ. ﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَا لَهَا﴾ زُلْزِلَتْ هٰذِهِ الزَّلْزَلَةَ الشَّديدَةَ ولَفَظَتْ ما في بَطْنِها؟ وذلكَ عِنْدَ النَّفْخَةِ الثَّانيةِ، وقيلَ: المُرادُ بالإنْسانِ: الكَافِرُ[1]، لأَنَّ المؤْمِنَ يقُولُ: ﴿هَـٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾[2].

﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ أي: تُخبِرُ الأَرْضُ بمَا عُمِلَ علىٰ ظَهْرِها، وهو مَجَازٌ عن إحْداثِ ٱللهِ فيها ما يَقُومُ مَقَامَ التَّحْديثِ باللِّسانِ حتَّىٰ يَنْظُرَ مَنْ يقُولُ: ﴿مَا لَهَا﴾ إلىٰ تلكَ الأَحوالِ فَيَعْلَمُ لِمَ زُلْزِلَتْ، ولِمَ لَفَظَتِ الأَمْواتَ. وقيلَ: يُنْطِقُها ٱللهُ على الحقيقَةِ، وتُخْبِرُ بمَا عُمِلَ عَلَيها من خَيْرٍ وشَرٍّ[3]، و ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ بَدَلٌ مِن ﴿إِذَا﴾، ونَاصِبُهُما ﴿تُحَدِّثُ﴾ والأَصْلُ: تُحدِّثُ الخَلْقَ أَخْبَارَهَا، فَحُذِفَ المفْعُولُ الأَوَّلُ وتَعَلَّقَتِ الباءُ بـ﴿تُحَدِّثُ﴾ لأنَّ المعنىٰ: تُحَدِّثُ أَخْبَارَها بسَبَبِ إيْحَاءِ ربِّكَ لَهَا

(١ و٣) قاله ابن عباس في تفسيره: ص ٥١٦.
(٢) يس: ٥٢.

وأَمْرِهِ لها بالتَّحديثِ، أو: يكُونُ: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ﴾ بَدَلاً مِن: ﴿أَخْبَارَهَا﴾ كأَنَّهُ قَالَ: تُحَدِّثُ بَأَخْبارِها بأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا، لأَنَّكَ تَقُولُ: حَدَّثْتُهُ كَذَا، و: حَدَّثْتُهُ بِكَذَا. و﴿أَوْحَىٰ لَهَا﴾ بمعنىٰ: أَوْحَىٰ إِلَيْها، وهو مَجَازٌ كَقَوْلِهِ: ﴿أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [١]. قَالَ الرَّاجِزُ:

أَوْحَىٰ لَهَا القَرَارَ فاستَقَرَّتْ ... وَشَدَّها بالرَّاسِيَاتِ الثُّبَّت [٢]

﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ﴾ عَن مَخَارِجِهِم من القُبُورِ إلىٰ مَوْقِفِ العَرْضِ والحِسَابِ ﴿أَشْتَاتاً﴾ بِيضَ الوُجُوهِ آمِنِينَ، وَسُودَ الوجُوهِ خائفينَ، أو: يَصدُرونَ عن المَوقِفِ أَشْتَاتاً يَتَفَرَّقُ بِهِم طَرِيقَا الجنَّةِ والنَّارِ ﴿لِيُرَوْاْ﴾ جَزَاءَ ﴿أَعْمَٰلَهُمْ﴾: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ﴾ زِنَةَ ﴿ذَرَّةٍ﴾ من الخَيْرِ يَرَ ثَوابَهُ وجَزَاءَهُ، والذَّرَّةُ: النَّملةُ الصَّغيرةُ، وقيلَ: الذَّرَّةُ: ما يُرىٰ في شُعَاعِ الشَّمْسِ من الْهَبَاءِ [٣]. ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ﴾ زِنَةَ ﴿ذَرَّةٍ﴾ مِنَ الشَّرِّ ﴿يَرَهُ﴾ في كتَابِهِ فَيَسُوؤهُ، أو: يَرَ المُسْتَحِقَّ عليهِ إنْ لَمْ يَعْفُ ٱللهُ عَنْهُ، لأَنَّ الآيَةَ مخْصُوصَةٌ بلا خلافٍ، فإنَّ التَّائِبَ مَعْفُوٌّ عنْهُ بالإِجْمَاعِ، وآياتُ العَفْوِ دالَّةٌ علىٰ جَوَازِ العَفْوِ عمَّا دونَ الشِّرْكِ، فَجَازَ أَن يشْتَرطَ في المَعصِيَةِ الّتي يُؤاخِذُ بهَا أَن لا تَكُونَ ممَّا قَد عُفِيَ عَنْهُ.

❁ ❁ ❁

(١) يس: ٨٢.
(٢) للعجَّاج، من رجز يذكر فيه ربَّه ويثني عليه بآلائه. راجع ديوان العجَّاج: ص ٥.
(٣) قاله أبو الليث السمرقندي في تفسيره: ج ٣ ص ٥٠١.

سُورَةُ العَادِيَاتِ

مختَلَفٌ فيها[1]، إحدىٰ عَشْرَةَ آيةً.

في حَديثِ أُبيٍّ: «مَنْ قَرَأَها أُعْطِيَ من الأَجْرِ عَشْرَ حَسَنَاتٍ بِعَدَدِ مَنْ بَاتَ في المزْدَلِفَةِ وشَهِدَ جَمْعاً»[2].

وعن الصَّادقِ عليه السلام: «مَنْ قَرَأَها وأَدْمَنَ قِرَاءَتَها بَعَثَهُ ٱللهُ مع أَميرِ المؤْمنينَ عليه السلام يَوْمَ القيَامَةِ، وكانَ في حُجْرِهِ ورُفَقَائِهِ»[3].

بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا(١) فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا(٢) فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا(٣) فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا(٤) فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا(٥) إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ(٦) وَإِنَّهُۥ

---

(١) قال الشيخ الطوسي في التبيان: ج ١٠ ص ٣٩٥: مكّية في قول ابن عباس، وقال الضحّاك: هي مدنيّة. وهي إحدىٰ عشرة آية بلاخلاف.

وفي تفسير الماوردي: ج ٦ ص ٣٢٣: مكّية في قول ابن مسعود وجابر والحسن وعكرمة وعطاء، ومدنيّة في قول ابن عباس وأنس بن مالك وقتادة.

وفي الكشّاف: ج ٤ ص ٧٨٦: مكّية، وقيل: مدنيّة، وآياتها (١١)، نزلت بعد العصر.

(٢) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٧٨٩ مرسلاً.

(٣) ثواب الأعمال للصدوق: ص ١٥٢ وزاد بعد لفظة «القيامة»: «خاصّة».

عَلَى ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ(٧) وَإِنَّهُ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ(٨) أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ(٩) وَحُصِّلَ مَافِى ٱلصُّدُورِ(١٠) إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ(١١)﴾

ٱلعَادِيَاتُ: الخَيْلُ تَعْدُو في سبيلِ ٱللهِ للغَزْوِ، والضَّبْحُ: صَوْتُ أَنْفَاسِها إذا عَدَتْ، قَالَ عَنْتَرةُ:

والخَيْلُ تَكْدَحُ حينَ تَضْـ ـبَحُ في حِيَاضِ المَوْتِ ضَبْحاً(١)

وٱنتِصَابُهُ علىٰ: يَضْبحنَ ضَبْحاً، أو بـ﴿العَـٰدِيَـٰتِ﴾ كأنَّهُ قَالَ: والضَّابِحَاتِ، لأنَّ «الضَّبْحَ» يكُونُ مع العَدْوِ. ﴿فَالْمُورِيَـٰتِ﴾ تُوري نَارَ الحُبَاحِبِ، وهي ما تَنْقَدِحُ من حَوافِرِها ﴿قَدْحاً﴾ صَاكَّاتٍ بِحَوافِرِها الحِجَارَةَ، والْقَدْحُ: الصَّكُّ، والإِيْرَاءُ: إِخْرَاجُ النَّارِ، يقَالُ: قَدَحَ فُلَانٌ فَأَوْرَىٰ، وقَدَحَ فَأَصْلَدَ(٢). وٱنْتَصَبَ ﴿قَدْحاً﴾ بِمِثْلِ ما ٱنْتَصَبَ بِهِ ﴿ضَبْحاً﴾. ﴿فَالْمُغِيرَٰتِ﴾ تُغِيرُ بِفُرْسَانِها على العَدُوِّ ﴿صُبْحاً﴾ في وَقْتِ الصُّبْحِ. ﴿فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً﴾ فَهَيَّجْنَ بذلك الوَقْتِ غُبَاراً. ﴿فَوَسَطْنَ بِهِ﴾ أي: بذلكَ الوَقْتِ، أو: بالنَّقْعِ، أي: وَسَطْنَ النَّقْعَ الجَمْعَ، أي: ﴿جَمْعاً﴾ من جُمُوعِ الأَعداءِ. ويَجُوزُ أن يُرادَ بالنَّقْعِ الصِّيَاحُ، مِن قَولِهِ عليه السلام: «ما لَمْ يَكُنْ نَقْعٌ ولا لَقْلَقَة»(٣)، وقَولِ لبيدٍ:

فَمَتَى يَنْقَعْ صُرَاخٌ صَادِقٌ(٤)

(١) لم نعثر عليه في ديوانه المطبوع، وأنشده في الصحاح واللسان في مادة «ضبح» وفيهما: «تعلم» بدل «تكدح»، ومعناه واضح.

(٢) في الصحاح: صَلَدَ الزَّنْدُ: إذا صوَّت ولم يُخرِجْ ناراً، وأَصلَدَ الرجُلُ: أي صَلَدَ زَندُهُ.

(٣) لم نجده مرفوعاً، ورواه البخاري في الصحيح: ج ٢ ص ١٧٤ من كتاب الجنائز عن عمر موقوفاً. وأورده الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٧٨٧، والرازي في تفسيره: ج ٣٢ ص ٦٦ مرسلًا.

(٤) وعجزه: يُحْلِبوهُ ذاتَ جَرْسٍ وزَجَل. من قصيدة له طويلة يتحدّث فيها عن مآثره ومواقفه. ←

أي: فَهَيَّجْنَ في الإِغَارَةِ عَلَيهم صِيَاحاً وجَلَبَةً. وعنِ ٱبنِ عبَّاسٍ: كنْتُ جَالِساً في الْحِجرِ فَجَاءني رَجُلٌ فَسَأَلني عن ﴿الْعَـٰدِيَـٰتِ ضَبْحاً﴾ فَفَسَّرْتُها بالخَيْلِ، فَذَهَبَ إلىٰ عليٍّ عليه السلام وهو تَحْتَ سِقَايَةِ زَمْزَم فَسَأَلَهُ فَذكَرَ لَهُ ما قُلْتُ، فَقَالَ: ادْعُهُ لي، فَلَمَّا وَقَفْتُ علىٰ رأسِهِ قَالَ: تُفْتي النَّاسَ بِمَا لا عِلْمَ لَكَ بهِ؟ وٱللهِ إنْ كانَتْ لأَوَّل غَزْوَةٍ في الإسْلامِ ـ بَدْرٍ ـ فَمَا كانَ مَعَنا إلَّا فَرَسَانِ: فَرَسٌ للزُّبيرِ، وفَرَسٌ للمِقْدَادِ ﴿وَالعَـٰدِيَـٰتِ ضَبْحاً﴾ الإبِلُ مِن عَرَفَةَ إلىٰ المزْدَلِفَةِ، ومِنَ المزْدَلِفَةِ إلىٰ مِنَىٰ [١]. فإنْ صَحَّتْ هذهِ الرِّوايةُ فَقَد ٱستُعيرَ «الضَبْحُ» للإبِلِ، كَمَا ٱستُعيرَ «الباقِرُ» للإِنْسانِ، و «البَقَرُ» للثَّورِ وما أَشْبَهُ ذلكَ. وقيلَ: الضَّبْحُ بمعنَى الضَبْعِ [٢]، يقَالُ: ضَبَحَتِ الإِبِلُ وضَبَعَتْ: إذا مَدَّتْ أَضْبَاعَها في السَّيْرِ. و «جَمْعٌ»: هو المزْدَلِفَةُ.

إنَّها [٣] نَزَلَتْ في غَزْوَةِ ذَاتِ السَّلَاسِلِ لمَّا أَوقَعَ عليٌّ عليه السلام بِهِم، وذلكَ بَعْدَ أَن بُعِثَ عليهِم مَنْ لَمْ يُغْنِ شَيئاً ورَجَعَ [٤].

وعَطَفَ قَولَهُ: ﴿فَأَثَرْنَ﴾ على الفِعْلِ الّذي وُضِعَ ٱسْمُ الفَاعِلِ مَوضِعَهُ، لأنَّ المعنىٰ: وٱللَّاتي عَدَوْنَ فَأَوْرَيْنَ فَأَغَرْنَ.

والكَنُودُ: الكَفُورُ، يعني: أنَّ الإِنسانَ كَفُورٌ لِنِعْمَةِ ربِّهِ خُصُوصاً شَدِيدُ الكُفْرانِ.

﴿وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ﴾ أي: وإنَّ الإِنسانَ علىٰ كُنُودِهِ ﴿لَشَهِيدٌ﴾ يَشْهَدُ علىٰ نَفْسِهِ بالكُفْرانِ والتَّفْرِيطِ في شُكْرِ نِعْمَةِ ٱللهِ يَوْمَ القيامةِ، وقيلَ: معنَاهُ: وإنَّ ٱللهَ علىٰ كُنُودِهِ

راجع ديوان لبيد بن ربيعة: ص ١٤٦.

(١) رواه الطبري في تفسيره: ج ١٢ ص ٦٦٦ عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، وزاد: قال ابن عباس: فنزعت عن قولي ورجعت الى الذي قال علي.

(٢) قاله أبوعبيدة في مجاز القرآن: ج ٢ ص ٣٠٧.

(٣) في نسخة: «الصادق عليه السلام: إنّها».

(٤) رواه علي بن ابراهيم القمي في تفسيره: ج ٢ ص ٤٣٤ ـ ٤٣٩ عن أبي بصير.

لَشَاهِدٌ(١)، علىٰ سَبيلِ الوَعيدِ. وَإِنَّ الإِنْسانَ ﴿لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ﴾ أي: لأَجْلِ حُبِّ الخَيْرِ وهو المَالُ، من قَولِهِ تَعالىٰ: ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْراً﴾(٢)، ﴿لَشَدِيدٌ﴾ أي: بَخِيلٌ مُمْسِكٌ، يقَالُ: فُلانٌ شَديدٌ ومُتَشَدِّدٌ، قَالَ طَرَفَةُ:

أَرَى المَوْتَ يَعْتَامُ الكِرَامَ ويَصْطَفي عَقِيلَةَ مَالِ الفَاحِشِ المُتَشَدِّدِ(٣)

أَو: أرادَ: وإِنَّه لِحُبِّ الخَيْراتِ غَيْرُ هَشٍّ مُنْبَسِطٍ، ولكنَّهُ شَديدٌ مُنْقَبِضٌ.

﴿بُعْثِرَ﴾ أي: بُعِثَ. ﴿وَحُصِّلَ﴾ أي: ظَهَرَ مُحَصَّلاً مَجْمُوعاً، وقيلَ: مُيِّزَ بينَ خَيْرِهِ وشَرِّهِ(٤). ومعنىٰ خَبَرِهِ بِهِم يَوْمَ القِيَامَةِ: مُجَازَاتُهُ لَهُم علىٰ مَقَاديرِ أَعْمَالِهِم.

۞ ۞ ۞

(١) قاله قتادة وسفيان. راجع تفسير الطبري: ج ١٢ ص ٦٧٣.

(٢) البقرة: ١٨٠.

(٣) البيت من معلّقته المشهورة. ويعتام: يختار، وعقيلة كلّ شيء: أنفسه وخياره. راجع ديوان طَرَفَة بن العبد: ص ٣٦.

(٤) قاله ابن عباس في تفسيره: ص ٥١٧.

سُورَةُ القَارِعَةِ

مكّيّةٌ[1]، إحْدىٰ عَشْرَةَ آيـةً كُـوفيٌّ، ثَـماني آيـاتٍ بَـصْريٌّ. عَـدَّ الكُـوفيُّ: ﴿القَارِعَةُ﴾ الأُولىٰ، و ﴿ثَقُلَتْ مَوٰزِينُهُ﴾[2] و ﴿خَفَّتْ مَوٰزِينُهُ﴾[3].

في حديث أُبيّ: «مَن قرأها ثقّل الله ميزانَهُ يوم القيامة»[4]. وعن الباقرعليه‌السلام: «مَن قرأها آمنه الله من فتنة الدجّال ومن قيح جهنّم»[5].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ٱلْقَارِعَةُ(١) مَا ٱلْقَارِعَةُ(٢) وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ(٣) يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَالْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ(٤) وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَالعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ(٥) فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوٰزِينُهُ(٦) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ(٧) وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوٰزِينُهُ(٨) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ(٩) وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ(١٠) نَارٌ حَامِيَةٌ(١١)﴾

---

(١) قال الشيخ الطوسي في التبيان: ج ١٠ ص ٣٩٨: مكّية في قول ابن عباس والضحاك، وهي إحدىٰ عشرة آيةً في الكوفي، وعشر في المدنيّين، وثمانٍ في البصري.

وفي الكشّاف: ج ٤ ص ٧٨٦: مكّية، وآياتها (١١)، نزلت بعد قريش.

(٢) الآية: ٦. (٣) الآية: ٨.

(٤) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٧٩١ مرسلًا.

(٥) ثواب الأعمال للصدوق: ص ١٥٣ وفيه بعد لفظة «الدجّال»: «أن يؤمن به»، وزاد في آخره: «إن شاء الله».

﴿يَوْمَ يَكُونُ﴾ نُصِبَ بمُضْمَرٍ دَلَّتْ عليهِ ﴿الْقَارِعَةُ﴾، أي: تَقْرَعُ القُلُوبَ بالفَزَعِ ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَالْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ﴾ شَبَّهَهُم بالفَرَاشِ في الكَثْرَةِ والانتشَارِ والضَّعْفِ والمَهَانَةِ والذِّلَّةِ، والتَّطايرِ إلى الدَّاعي من كُلِّ جَانبٍ كما يَتطَايرُ الفَرَاشُ، وفي أَمثَالِهِم: «أَضْعفُ مِن فَرَاشَةٍ، وأَذَلُّ، وأَجْهَل»[١].

وشَبَّهَ الجِبَالَ بـ﴿ٱلْعِهْنِ﴾ وهو الصُّوفُ المُصَبَّغُ أَلْواناً، لأَنَّها أَلْوانٌ، وبـ﴿ٱلْمَنفُوشِ﴾ منْهُ لِتَفرُّقِ أَجْزَائِها.

والْمَوَازينُ: جَمْعُ مَوزُونٍ، وهو العَمَلُ الّذي لَهُ وَزْنٌ وخَطَرٌ عنْدَ ٱللهِ، أو: جَمْعُ مِيزَانٍ، وثِقَلُها: رُجْحَانُها. ﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ وهو مِن قَولِهِم إذا دَعَوْا على الرَّجُلِ بالهَلَكَةِ: هَوَتْ أُمُّهُ، لأنَّه إذا هَوَىٰ ـ أي: سَقَطَ وهَلَكَ ـ فَقَد هَوَتْ أُمُّه ثُكْلاً وحُزْناً. فكَأَنَّهُ قَالَ: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُ﴾ فَقَدَ هَلَكَ، وقيلَ: ﴿هَاوِيَةٌ﴾ من أَسْماءِ النَّارِ[٢]، وكأَنَّ النَّارَ العَمِيقَةَ يَهْوي أَهْلُ النَّارِ فيها مَهْوىً بَعيداً، أي: فَمَأْوَاهُ النَّارُ، وقيلَ: للمَأْوىٰ: «أُمٌّ» عَلَى التَّشبيهِ، لأنَّ «الأُمَّ» مأْوىٰ الوَلَدِ[٣]، وعنِ ٱبن صَالحٍ: فَأُمُّ رَأْسِهِ هَاوِيَةٌ في قَعْرِ جهَنَّمَ لأنَّه يُطْرَحُ فيها منْكُوساً[٤]. ﴿هِيَهْ﴾ ضَميرُ الدَّاهِيَةِ الّتي دلَّ عَلَيها قَولُهُ: ﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ في التَّفْسيرِ الأوَّلِ، أو: ضَميرُ ﴿هَاوِيَةٌ﴾، والهَاءُ للسَّكْتِ، فإذَا وَصَلَ القَارِئُ حذَفَها. ﴿نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ حَارَّةٌ شَديدَةُ الحَرارَةِ.

✿ ✿ ✿

---

(١) أُنظر مجمع الأمثال للميداني: ج ١ ص ٤٤١.

(٢) قاله قتادة وابن زيد. راجع تفسير الطبري: ج ١٢ ص ٦٧٧.

(٣) قاله ابن عباس. راجع المصدر المتقدّم.

(٤) حكاه عنه الطبري في تفسيره المتقدّم.

سُورَةُ التَّكَاثُرِ

مكّيةٌ[1]، ثماني آياتٍ.

في حَديثِ أُبيٍّ: «مَنْ قَرَأها لَمْ يُحَاسِبْهُ ٱللهُ بالنَّعيمِ الَّذي أَنْعَمَ بِهِ عليهِ في دَارِ الدُّنْيا، وأُعْطِيَ من الأَجْرِ كَأَنَّما قَرَأَ أَلْفَ آيةٍ»[2].

وعن الصَّادِقِ عليه السلام: «مَنْ قَرَأها في فَرِيضَةٍ كُتِبَ لَه ثَوابُ مِائَةِ شَهيدٍ، ومَنْ قَرَأَها في نَافِلَةٍ كانَ لَهُ ثَوابُ خَمْسينَ شَهيداً»[3] [4].

بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ(١) حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ(٢) كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ(٣) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ(٤) كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ(٥) لَتَرَوُنَّ

---

(١) قال الشيخ الطوسي في التبيان: ج ١٠ ص ٤٠١: مكّية في قول ابن عباس والضحاك، وهي ثمان آيات بلاخلاف.

وفي الكشّاف: ج ٤ ص ٧٩١: مكّية، وآياتها (٨)، نزلت بعد التكاثر.

(٢) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٧٩٣ مرسلًا.

(٣) ثواب الأعمال للصدوق: ص ١٥٣ وزاد في آخره: «وصلّىٰ معه في فريضته أربعون صفّاً من الملائكة إن شاء الله».

(٤) وفي نسخة زيادة هنا: «وعن أبي عبدالله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: مَن قرأ ألهاكم التكاثر عند النوم وُقِيَ من فتنة القبر».

ٱلْجَحِيمَ(٦) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ(٧) ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ(٨)﴾

﴿أَلْهَـٰكُمُ﴾ أي: شَغَلَكُم عن ذِكْرِ الآخِرَةِ التَّبارِي في كَثْرَةِ المَالِ، والتَّبَاهِي بِهَا، والتَّفَاخُرُ. ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ أي: حتَّىٰ أَدْرَكَكُم المَوْتُ علىٰ تلكَ الحَالِ، وقيلَ: معناهُ: أَنَّكم تَكَاثَرْتُم بالأَحْياءِ حتَّى إذَا ٱستوعَبْتُم عَـدَدَهُم صِـرْتُم إلى المَـقَابِرِ فَتَكَاثَرْتُم بالأَمْوات(١). عَبَّرَ عن بُلُوغِهِم ذِكْرَ المَوْتىٰ بزِيَارَةِ المَقَابِرِ تَهَكُّماً بِهِم.

﴿كَلَّا﴾ رَدْعٌ وتَنْبيهٌ علىٰ أنَّه لا يَنْبغي أن تكُونَ الدُّنْيا جَميعَ هِمَّةِ الإنْسانِ حتَّىٰ لا يَهْتَمَّ بأُمورِ دينِهِ ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ وَعيدٌ لِيَخافُوا ولِيَتَنَبَّهُوا عن غَفْلَتِهِم. والتَّكْرِيرُ تَأْكِيدٌ للرَّدْعِ والإِنْذارِ عَلَيهم، وفي ﴿ثُمَّ﴾ دَلَالَةٌ علىٰ أنَّ الإِنْذارَ الثَّاني أَشَـدُّ مـن الأَوَّلِ، والمعنىٰ: سَوفَ تَعْلَمُون الخَطَأَ في ما أَنْتُم عليهِ إذا عايَنْتُم ما قُدَّامَكُم مـن هَوْلِ المطَّلعِ. ثمَّ كَرَّرَ التَّنْبيهَ أَيضاً وقَالَ: ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: لَوْ تَـعْلَمُونَ مـا بـينَ أَيديكُم ﴿عِلْمَ﴾ الأَمْرِ ﴿ٱلْيَقِينِ﴾ أي: كَعِلْمِكُم ما تَستَيْقِنُونَهُ من الأُمورِ، لَفَعَلْتُم ما لا يُوصَفُ، ولكنَّكُم ضُلَّالٌ جَهَلَةٌ. فَحُذِفَ جَوابُ ﴿لَوْ﴾.

﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ﴾ جَوابُ قَسَمٍ محذُوفٍ، والقَسَمُ لَتوْكيدِ الوَعيدِ، وبَيَانِ مـا أَوْعَدَهُم بهِ وأَنْذَرَهُم منْهُ، ثمَّ كَرَّرَ ذلكَ تَغْليظاً في التَّهديدِ وزِيَـادَةً فـي التَّـهويلِ، وقُرِئَ: «لَتُرَوُنَّ» على البنَاءِ للمفْعُولِ(٢). ﴿عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ الرُّؤْيَةَ الَّتي هـي نَـفْسُ اليَقينِ وخَالِصُهُ، ويجُوزُ أَن يُرادَ بالرُّؤْيَةِ العِلْمُ والإِبْصَارُ. ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ عن التَّنَعُّمِ الّذي شَغَلَكُم الالتِذاذُ بِهِ عن أُمورِ الدِّين.

❁ ❁ ❁

(١) قاله الكلبي. راجع تفسير السمرقندي: ج ٣ ص ٥٠٦.

(٢) قرأه ابن عامر والكسائي. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٦٩٥.

سُورَةُ العَصْرِ

مكّيةٌ[1]، ثَلاثُ آياتٍ.

في حَديثِ أُبيٍّ: «مَنْ قَرَأَها خَتَمَ ٱللهُ لَهُ بالصَّبْرِ، وكانَ مَعَ أَصْحَابِ الحقِّ يَوْمَ القِيَامَةِ»[2].

وعنِ الصَّادقِ عليه السلام: «مَنْ قَرَأَها في نَوافِلِهِ بَعَثَهُ ٱللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ مُشْرقاً وَجْهُهُ، ضَاحِكاً سِنُّهُ، قَريراً عَيْنُهُ حتَّىٰ يَدْخُلَ الجنَّةَ»[3].

بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلعَصْرِ(١) إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ(٢) إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَـنُواْ وَعَـمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِالصَّبْرِ(٣)﴾

أَقْسَمَ سبحانَهُ بالدَّهرِ لأنَّ فيهِ عِبْرَةً لأُولي الأَبْصَارِ، أو بالعَشِيِّ لِمَا في ذلكَ من

---

(١) قال الشيخ الطوسي في التبيان: ج ١٠ ص ٤٠٤: مكّية في قول ابن عباس والضحاك، وهي ثلاث آيات بلاخلاف في جملتها وإنِ اختلفوا في تفصيلها.

وفي تفسير الماوردي: ج ٢ ص ٣٣٣: مكّية، وفي إحدى الروايتين عن ابن عباس وقتادة: أنّها مدنيّة.

وفي الكشّاف: ج ٤ ص ٧٩٣: مكّية، وآياتها (٣) نزلت بعد الشرح.

(٢) رواه الكفعمي في المصباح: ص٤٥٢.

(٣) ثواب الأعمال للصدوق: ص ١٥٣.

دَلائِلِ القُدْرَةِ بإدبارِ النَّهارِ وذَهَابِ سُلْطَانِ الشَّمْسِ. ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ﴾ وهـو ٱسْـمُ الجِنْسِ ﴿لَفِى خُسْرٍ﴾ أي: خُسْرانٍ، يَنْقُصُ عُمْرُهُ كُلَّ يَوْمٍ وهـو رأْسُ مَـالِهِ، فـإذا ذَهَبَ رَأْسُ مَالِهِ ولَمْ يَكْتَسِبْ بِهِ الطَّاعَةَ كانَ طُولَ دَهْرِهِ[1] فـي نُـقْصَانٍ. ﴿إِلَّا﴾ المؤْمنينَ الصَّالحينَ فـإنَّهم ٱشْـتَرَوْا الآخِـرَةَ بـالدُّنيا فَـرَبِحُوا وفَـازُوا وسَـعِدُوا ﴿وَتَوَاصَوْاْ﴾ أَوْصَىٰ بَعضُهُم بَعْضاً ﴿بِالْحَقِّ﴾ بالأَمْرِ الثَّابِتِ الّذي لا يَسُوغُ إنْكَارُهُ، وهو الخَيْرُ كلُّهُ مِن: تَوحِيدِ ٱللهِ وطَاعَتِهِ، وٱتِّباعِ أَنْبيائِهِ وأَوْليائِهِ، والزُّهْدِ في الدُّنْيا، والرَّغْبَةِ في الآخِرَةِ، وأَدَاءِ الواجِبَاتِ، وٱجتِنَابِ المُقَبَّحَاتِ ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِالصَّبْرِ﴾ عن المَعَاصِي، وعَلَى الطَّاعَاتِ والبَلِيَّاتِ.

۞ ۞ ۞

(١) في نسخة: «عمره».

سُورَةُ الهُمَزَة

مكّيةٌ[1]، تِسْعُ آياتٍ.

في حَديثِ أُبيٍّ: «مَنْ قَرَأها أُعْطِيَ من الأَجْرِ عَشْرَ حَسَنَاتٍ بِعَدَدِ مَنِ ٱستَهْزَأَ بمحمّدٍ صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه»[2].

وعنِ الصَّادقِ عليه السلام: «مَنْ قَرَأها في فَرائِضِهِ نَفَتْ عَنْهُ الفَقْرَ، وجَلَبَتْ عليهِ الرِّزْقَ، وَدَفَعَتْ عَنْهُ مِيتَةَ السُّوْءِ»[3].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ (١) ٱلَّذِى جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ (٢) يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ (٣) كَلَّا لَيُنبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ (٤) وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ (٥) نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ (٦) ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ (٧) إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ (٨) فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ (٩)﴾

---

(١) قال الشيخ الطوسي في التبيان: ج ١٠ ص ٤٠٦: مكّية في قول ابن عباس والضحاك، وهي تسع آيات بلاخلاف.

وفي الكشّاف: ج ٤ ص ٧٩٤: مكّية، وآياتها (٩)، نزلت بعد القيامة.

(٢) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٧٩٦ مرسلًا.

(٣) ثواب الأعمال للصدوق: ص ١٥٤ وفيه بدل «نَفَت عنه الفقر»: «بعَّد الله عنه الفقر».

ٱلْهَمْزُ: الكَسْرُ. قيلَ لأَعْرابيٍّ: أَتَهْمِزُ «الفَـارَةَ»؟ فَـقَالَ: السِّـنَّوْرُ يَـهْمِزُها[١]. واللَّمْزُ: الطَّعْنُ، «فَالْهُمَزَةُ» الّذي يَكْسِرُ أَعْرَاضَ النَّاس بالغَضِّ[٢] منْهُم وٱغتيابِهِم، «وَاللُّمَزَةُ» الّذي يَطْعَنُ فيهِم، وبناءُ «فُعَلَة» يدُلُّ علىٰ أنَّ ذلك عادَةٌ منْهُ قَد ضَرِيَ بها. قَالَ زيادُ الأَعْجَم:

تُـدْلي بِـوُدِّيَ إذْ لاقَـيْتَني كَـذِباً وإنْ تَغَيَّبْتُ كنْتَ الهَامِزَ اللُّمَزَهْ[٣]

وهذا وَعيدٌ من ٱللهِ لكلِّ مغْتَابٍ، عَيَّاب، مَشَّاءٍ بالنَّميمةِ، مُفَرِّقٍ بينَ الأَحِـبَّةِ، وعن الحَسَنِ: الْهُمَزَةُ الّذي يَطْعَنُ في الوَجْهِ بالعَيْبِ، واللُّـمَزَةُ الّذي يَـغْتَابُ عـنْدَ الغَيْبةِ[٤].

﴿ٱلَّذِى﴾ بَدَلٌ من ﴿كُلِّ﴾، أو: نُصِبَ على الذَّمِّ، وقُرِئَ: ﴿جَمَّعَ﴾ بالتَّشْديدِ[٥] والتَّخْفيفِ، والتَّشديدُ أَوْفَقُ لِـ﴿عَدَّدَهُ﴾، وقيلَ: ﴿عَدَّدَهُ﴾: جَـعَلَهُ عُـدَّةً لِـحَوادِثِ الدَّهْرِ[٦].

و ﴿أَخْلَدَهُ﴾ وخَلَّدَهُ بمعْنىً، يعني: أَنْ طَوَّلَ أَمَلَهُ ومَنَّاهُ الأَمانيَ البعيدةَ حـتَّىٰ حَسِبَ أنَّ المالَ يَتركُهُ خَالِداً في الدُّنْيا لا يَمُوتُ، أو: يكُونُ المعنىٰ: أنَّه يَعْمَلُ من تَشْييدِ البنْيانِ وتَوثيقِها بالصَّخْرِ والآجُرِّ عَمَلَ مَنْ يَظُنُّ أنَّ مالَهُ أَبْقَاهُ حيّاً، أو: هـو تَعْريضٌ بأنَّ العَمَلَ الصَّالِحَ هو الّذي يُخَلِّدُ في النَّعيمِ صَاحِبَهُ دونَ المَالِ.

﴿كَلَّا﴾ رَدْعٌ لَهُ عن حُسْبَانِهِ ﴿لَيُنۢبَذَنَّ﴾ هو ومَـالُهُ، أي: لَـيُقذَفَنَّ ويُـطْرَحَنَّ

---

(١) أي: يأكلها. أُنظر لسان العرب: مادة «همز».

(٢) في بعض النسخ: «بالعضِّ».

(٣) أُنظر ديوان زياد الأعجم: ص ١٤٨، وفيه: «وإنْ أُغيَّب فأنْتَ الهامِزُ اللُّمَزَه».

(٤) تفسير الحسن البصري: ج ٢ ص ٤٣٩.

(٥) قرأه ابن عامر وحمزة والكسائي. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٦٩٧.

(٦) قاله مقاتل. راجع تفسير البغوي: ج ٤ ص ٥٢٤.

﴿فِى ٱلْحُطَمَةِ﴾ وهو ٱسمٌ من أَسْماءِ جَهَنَّمَ، وعن مُقَاتِل: تَحطِمُ العِظَامَ وتَـأْكُـلُ اللُّحُومَ حتَّى تَهْجُمَ على القُلُوبِ[1]. ويقَالُ للرَّجُلِ الأَكُولِ: حُطَمَة. ثمَّ فَخَّمَ أَمْرَها بقَولِهِ: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ﴾. ثمَّ فَسَّرَها وأَضَافَها إلىٰ نَفْسِهِ بـقَولِهِ: ﴿نَـارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ﴾ أي: المُؤَجَّجَةُ. ﴿ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ﴾ وهي أَوْسَاطُ القُلُوبِ، ولا شَيْءَ في بَدَنِ الإنسانِ أَلْطَفُ من الفُؤَادِ، ولا أَشَدُّ تَأَذِّياً منْهُ بأَدْنىٰ أَذىً، فَكَيفَ إذا ٱطَّلَعَتْ عليهِ نارُ جهنَّمَ وٱستَولَتْ عليهِ وعَلَتْهُ؟ ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ﴾ أي: مُطْبَقَةٌ ﴿فِى عَمَدٍ﴾ قُرِئَ بضَمَّتَيْنِ[2] وبفَتْحَتيْنِ، وهذا تأْكيدٌ لليأْسِ من الخُرُوجِ، وإيْذَانٌ بحَبْسِ الأَبَدِ، أي: يُوصَدُ عليهِم الأَبْوابُ، ويُمَدَّدُ على الأبوابِ العُمَدُ ٱستِيثَاقاً في ٱستِيثَاقٍ. نَعوذُ باللهِ من غَضَبِهِ وأَليمِ عَذَابِه.

❁ ❁ ❁

---

(١) حكاه عنه الرازي في تفسيره: ج ٣٢ ص ٩٤.

(٢) قرأه حمزة والكسائي وعاصم برواية أبيبكر عنه. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٦٩٧.

سُورَةُ الفِيلِ

مكّيّةٌ[1]، خَمْسُ آياتٍ.

في حَديثِ أُبيٍّ: «مَنْ قَرَأَها عَافَاهُ ٱللّٰهُ أَيَّام حياتِهِ من القَذْفِ والمَسْخ»[2].

وعنِ الصَّادقِ عليه السلام: «مَنْ قَرَأَها في فَرائِضِهِ شَهِدَ لَهُ كُلُّ سَهْلٍ وجَبَلٍ يَوْمَ القيامَةِ أَنَّهُ كانَ من المُصَلِّينَ ويُنَادي لَهُ يَوْمَ القيامةِ مُنَادٍ: صَدَّقْتُم علىٰ عَبْدي، قَبِلْتُ شَهادَتكُم لَهُ وعليهِ، أَدْخِلُوهُ الجنَّةَ ولا تُحاسِبُوهُ فإنَّه ممَّن أُحبُّه وأُحِبُّ عملَهُ، وكانَ من الآمنينَ»[3].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ(١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ(٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ(٣) تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ(٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ(٥)﴾

---

(١) قال الشيخ الطوسي في التبيان: ج ١٠ ص ٤٠٦: مكّيّة في قول ابن عباس والضحاك، وهي تسع آيات بلاخلاف.

وفي الكشّاف: ج ٤ ص ٧٩٧: مكّية، وآياتها (٥)، نزلت بعد «الكافرون».

(٢) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٨٠٠ مرسلًا.

(٣) ثواب الأعمال للصدوق: ص ١٥٤ وليس فيه لفظة «وكان من الآمنين».

بَنَىٰ أَبْرَهَةُ بنُ الصَّباحِ الأَشْرَم مَلِكُ اليَمَنِ كَنيسةً بصَنْعَاء، وأَرادَ أن يَصْرِفَ إليها الحَاجَّ، فَخَرَجَ رجلٌ من كنانَةَ فَقَعَدَ فيها ليلًا، فأَغْضَبَهُ ذلكَ وأَزْمَعَ أَن يَهْدِمَ الكَعْبَةَ، فَخَرَجَ بالحَبَشَةِ ومَعَهُ فِيلٌ ٱسمُهُ محْمُودٌ، وكانَ قَوِيّاً عَظيماً، وقيلَ: كانَ مَعَهُ اثنا عَشر فيلًا غَيْرَهُ، فلمَّا بَلَغَ المُغمَّسَ (١) خَرَجَ إليهِ عبدُ المُطَّلب وقد أُخِذَ لَهُ مائِتا بَعيرٍ، وكانَ رَجُلًا جَسيماً وَسيماً، فقيلَ لهُ: هذا سَيِّدُ قُرَيْشٍ، فَأَعْظَمَهُ ونَزَلَ من سريرِهِ وجَلَسَ على الأَرضِ وأَجْلَسَهُ مَعَهُ، ثمَّ قالَ: ما حَاجَتُكَ؟ قالَ: حاجَتي مائِتا بعيرٍ أَصَابَتْها مقدِّمَتُكَ، فَقَالَ لهُ: لَقَد سَقَطْتَ من عيني، جِئْتُ لأَهْدِمَ البيتَ ٱلَّذي هو عِزُّكُم وشَرَفُكُم وَدينُكم، فأَلْهَاكَ عنْهُ ذَودٌ أُخِذَ لَكَ؟! فَقالَ: أنا ربُّ الإِبلِ، وللبَيْتِ رَبٌّ سيَمْنَعُهُ، فَرَاعَ ذلكَ أَبْرَهَةَ وأَمَرَ بِرَدِّ إِبِلِهِ عليهِ، ورَجعَ وأَتىٰ إلىٰ بابِ البَيْتِ فأَخَذَ بحَلقتِهِ وهو يقُولُ:

لا هُمَّ إنَّ المَرْءَ يَمْـ..نَعُ أَهلَهُ ... فَامْنَعْ حِلالَكْ

لا يَغْلِبَنَّ صَلِيبُهُمْ ... ومِحَالُهُمْ عَدْواً مِحالَكْ

إنْ كُنْتَ تارِكَهُم وكَعْـ ... ـبَتَنَا فَأَمْرٌ ما بَدَا لَكْ

[وقال أيضاً:] (٢) :

يا ربِّ لا أرْجُو لَهُم سِوَاكا ... يا رَبِّ فامْنَعْ مِنْهُم حِمَاكا

فالتفت وهو يدعو فإذا هو بطيرٍ من نحو الْيَمن، فقال: والله إنها لَطَيْرٌ غريبة، ما هي ببحريَّة [بنجديَّة] ولا تهاميَّة... (٣)

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ معناهُ: أنَّكَ رأَيْتَ آثارَ فِعلِ ٱللهِ بالحَبَشَةِ ٱلَّذين قَصَدوا تَخْريبَ الكَعْبَةِ ﴿بِأَصْحَابِ ٱلْفِيلِ﴾ وكانَ ذلكَ العَامِ ٱلَّذي وُلِدَ فيه رَسُولُ ٱللهِ ﷺ.

---

(١) المُغمَّسُ: موضع من مكة. (٢) زيادة يقتضيها السياق.

(٣) روىٰ قصّة أصحاب الفيل بطولها ابن إسحاق في سيرته: ص ٦١ ـ ٧٠.

و﴿كَيْفَ﴾ في مَوْضِعِ نَصْبٍ بـ﴿فَعَلَ رَبُّكَ﴾ لا بـ﴿أَلَمْ تَرَ﴾؛ لِمَا في «كَيفَ» من معنَى الاستِفْهامِ.

﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ﴾ وإرادَتَهُم السُّوءَ في تَخْريبِ بيتِ ٱللهِ وقَتْلِ أَهلِهِ وٱستباحَتِهِم ﴿فِى تَضْلِيلٍ﴾ في تَضْييعٍ وإبْطَالٍ، يقَالُ: ضَلَّلَ كَيْدَهُ: إذا جعَلَهُ ضَالاً ضَائِعاً. ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ﴾ حَزَائق[1]، الواحِدَةُ: إبَّالَةٌ، وفي المَثَلِ: «ضِغْثٌ عَلَىٰ إبَّالَةٍ»[2]، وهي الحِزْقَةُ الكَبيرةُ، شُبِّهَتْ الحِزْقَةُ من الطَّيْرِ في تَضَامِّها بالإِبَّالَةِ، وقيلَ: أَبَابِيلُ مثْلُ «عَبَاديد» وَشَمَاطِيط لا وَاحِدَ لَهَا[3]. ﴿تَرْمِيهِمْ﴾ تَقْذِفُهُم تلك الطَّيْرُ ﴿بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ﴾ من جُمْلَةِ العَذَابِ المكْتُوبِ المُدوَّنِ، واشتقَاقُهُ من «الإِسْجَالِ» وهو الإرسَالُ، لأنَّ العَذَابَ موصُوفٌ بذلك، وقيلَ: من طِينٍ مَطْبوخٍ كما يُطْبَخُ الآجُرُّ[4]، وقيلَ: هو مُعَرَّبٌ من سَنْكْ كِلْ[5]، وقيلَ: كانَتْ طَيْراً بيضَاءَ، مع كلِّ طَائِرٍ حَجَرٌ في منْقَارِهِ وحَجَرانِ في رِجْلَيْهِ أَكْبرُ من العَدَسَةِ وأَصْغَرُ من الحِمِّصَةِ[6]. وقيلَ: كانَتْ طَيْراً خَضْرَاءَ لَهَا مَنَاقِيرُ صُفْرٌ[7]. وعنِ ٱبنِ عبَّاسٍ: أنَّه رأَىٰ منها عنْدَ أُمِّ هَاني نَحْوَ قَفيزٍ، مُخَطَّطَةٍ بحُمْرَةٍ كالجَزْعِ الظِّفَاري[8].

---

(١) الحِزْقُ والحِزْقَةُ: الجماعة من الناس والطير والنخل وغيرها. (الصحاح).

(٢) الضِغْثُ: قبضة من حشيش مختلطة الرطب واليابس، والإبَّالة: الحزمة من الحطب، ومعنى المثل: بليَّة على أُخرىٰ. راجع مجمع الأمثال للميداني: ج ٢ ص ٤٣٢.

(٣) قاله الفرّاء في معاني القرآن: ج ٣ ص ٢٩٢. والعباديد: الخيل المتفرقة في ذهابها ومجيئها، والشماطيط: القطع المتفرقة، يقال: جاءت الخيل شماطيط أي: متفرقة إرسالاً.

(٤) قاله ابن عباس في تفسيره: ص ٥١٩.

(٥) وهو قول ابن عباس برواية عكرمة عنه وعكرمة وجابر بن سابط. راجع تفسير الطبري: ج ١٢ ص ٦٩٣ ـ ٦٩٤.

(٦) قاله قتادة. راجع المصدر السابق: ص ٦٩٤.

(٧) قاله سعيد بن جبير. راجع المصدر نفسه: ص ٦٩٣.

(٨) أخرجه السيوطي في الدرّ: ج ٨ ص ٦٣٣ عن أبي صالح ـ أحد تلاميذه ـ وعزاه الى ←

فكَانَ الحَجَرُ يَقَعُ عَلَى رَأْسِ كُلِّ رَجُلٍ فَيَخرُجُ مِن دُبُرِهِ ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾ شَبَّهَهُم بِوَرَقِ الزَّرْعِ إذا أُكِلَ، أي: وَقَعَ فيهِ الأُكَّالُ، وهو أن يَأكُلَهُ الدُّودُ، أو: بِتْبنٍ أَكَلَتْهُ الدَّوابُّ وَرَاثَتْهُ، ولكنَّهُ من كنايَاتِ القُرآنِ اللَّطيفةِ.

وهذهِ السُّورةُ من قواصِمِ الظُّهُورِ للمَلَاحِدَةِ والفَلاسِفَةِ المُنْكِرَةِ للمُعْجزَاتِ الخَارِقَةِ للعَادَاتِ، فإنَّه لا يمكنُ أن يُنْسَبَ شَيءٌ من أَمْرِ أصحَابِ الفيلِ إلىٰ طَبْعٍ وغَيْرِهِ[١]، وكيفَ يكُونُ في أَسْرارِ[٢] الطَّبيعةِ أَن تَأْتِيَ جَمَاعَاتٌ من الطَّيْرِ مَعَها أَحْجَارٌ مُعَدَّةٌ لإِهْلاكِ أقْوامٍ معيَّنينَ فَترميهم بها حتَّىٰ تُهْلِكَهُم بأَعيانِهِم؟ ولا يمكنُ أَحَدٌ جَحْدَهُ والشَّكَّ فيهِ؛ لأنَّ نبيَّنا ﷺ تَلَاها علىٰ أَهلِ مكَّةَ فَلَمْ يُنكِروهُ، بَلْ أَقَرُّوا بِهِ مع شِدَّةِ حِرْصِهِم علىٰ تَكْذيبِهِ، وكَيْفَ وقَدْ أَرَّخُوا بذلكَ كَمَا أَرَّخُوا ببناءِ الكَعْبَةِ وغَيْرِهِ؟

۞ ۞ ۞

← ابن مردويه وأبي نعيم. والقفيزُ: من المكاييل تتواضع الناس عليه، والجَزْعُ: خَرَزٌ فيه بياض وسواد تشبّه به الأعين، تُجلب من اليمين، وظِفَارُ: موضع في اليمن.

(١) كما نَسَبُوا الصيحة والريح العقيم والخسف وغيرها ممّا أهلك الله تعالى به الأُمم الخالية الى ذلك.

(٢) في بعض النسخ: «أسوار».

سُورَةُ قُرَيْش [1]

مكّيةٌ[2] أربعُ آياتٍ.

في حَديثِ أُبيٍّ: «مَنْ قَرَأَها أُعْطِيَ من الأَجْرِ عَشْرَ حَسَنَاتٍ بِعَدَدِ مَنْ طَافَ بالكَعْبَةِ واْعتَكَفَ بِهَا»[3].

وعنِ الصّادقِعليه السلام: «لا تَجْمعْ بَيْنَ سُورتَيْنِ في رُكْعةٍ إلَّا الضُّحَىٰ وألم نشرح، وألم تر كيف ولِإِيلَـٰفِ قُرَيْشٍ»[4] [5].

وعنْ عَمْروِ بنِ مَيْمُون: صَلَّيْتُ المَغْرِبَ خَلْفَ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ فَقَرَأَ في الأُولىٰ: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ﴾ وفي الثَّانِيَةِ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ﴾ و﴿لِإِيلَـٰفِ قُرَيْشٍ﴾[6].

---

(١) في نسخة: «سورة لِإيلافِ».

(٢) قال الشيخ الطوسي في التبيان: ج ١٠ ص ٤١٢: مكّية في قول ابن عباس، وقال الضحاك: هي مدنيّة. وهي أربع آيات في الكوفي والبصري، وخمس في المدنيّين.

وفي تفسيره الماوردي: ج٦ ص٣٤٥: مكّية في قول الأكثرين، ومدنيّة في قول الضحّاك.

وفي الكشّاف: ج ٤ ص ٨٠٠: مكّية، وآياتها (٤)، نزلت بعد التين.

(٣) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٨٠٣ مرسلاً.

(٤) رواه العياشي في تفسيره عن المفضّل بن صالح عنهعليه السلام، كما في المجمع. ورواه السخاوي في جمال القرّاء: ج ٢ ص ١٨٢ عنهعليه السلام وعن أبي نهيك.

(٥) في المجمع: عن أبي العباس عن أحدهماعليهما السلام قال: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ﴾ و ﴿لإيلاَفِ قريشٍ﴾ سورة واحدة.

(٦) رواه الهذلي في الكامل: ج ٢ ص ٢٠٤، والقرطبي في تفسيره ج ٢٠ ص ٢٠٠.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ(١) إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ(٢) فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ(٣) ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ(٤)﴾

تَعلَّقَ اللَّامُ بقولِهِ: ﴿فَلْيَعْبُدُواْ﴾، أَمَرَهُمُ ٱللهُ عزَّ ٱسمُهُ أَن يعبُدُوهُ لأَجْلِ ﴿إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ﴾ ويجعلُوا عبادَتَهم إيَّاهُ شُكْراً لهذهِ النِّعمةِ وٱعْتِرافاً بها، وقيلَ: هو متعلِّقٌ بما قَبلَهُ أَي: فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ[1]، وهُما في مُصْحَفِ أُبيٍّ سورةٌ واحِدَةٌ بلافَصْلٍ. والمعنىٰ: أَنَّه أَهْلَكَ الحَبَشَةَ الّذينَ قَصدُوهُم ليَتَسامَعَ النَّاسُ بذلك فيتهيَّبوهُم زيادةَ تَهيُّبٍ، ويحترمُوهُم حتَّىٰ ينْتَظِمَ لهم الأَمرُ في رِحلَتَيْهِم، فلا يَجْترئُ أَحَدٌ عليهم، وكانَتْ لقُرَيْشٍ رحلَتانِ: يرحلُونَ في الشِّتاءِ إلى اليَمَنِ، وفي الصَّيفِ إلى الشَّامِ، فيتَّجرُونَ ويمتَارونَ، وكانُوا في رحلَتَيْهِم آمنينَ لأَنَّهم أَهْلُ حَرَمِ ٱللهِ، فلا يُتَعرَّضُ لَهُم ويُتَخطَّفُ غيرُهُم من النَّاس.

والإِيلافُ من: أَلِفْتُ المَكَانَ أُولِفُهُ إِيلَافاً: إذا أَلِفتُهُ، وقُرِئَ: «لِئْلافِ» مختلَسَةَ الهَمْزَةِ[2]، وقُرِئَ: ﴿إِيْلَٰفِهِمْ﴾ و «إِلَافِهِم»[3] و «إِلْفِهم»[4] يقالُ: أَلِفْتُهُ إِلْفاً وإِلافاً، وقَد جَمَعَهُم الشَّاعِرُ في قَولِهِ:

---

(١) قاله أبو عبيدة والأخفش. راجع مجاز القرآن: ج ٢ ص ٣١٢، ومعاني القرآن للأخفش: ج ٢ ص ٧٤٣.

(٢ و ٣) قرأهما أبو جعفر المدني وابن فليح. راجع تفسير البغوي: ج ٤ ص ٥٢٩ والتبيان: ج ١٠ ص ٤١٣.

(٤) قرأ أبوجعفر عن أبي عمرو بكسر الفاء والهاء ورووه عن النبي ﷺ وقرأ عكرمة بفتحهما. راجع شواذ القرآن لابن خالويه: ص ١٨٠.

زَعَمْتُم أَنَّ إِخْـوتَكُم قُـرَيْشٌ ... لَهُم إِلْفٌ وليس لكُم إلافُ[١]

وقُريشُ: وَلَدُ النَّضرِ بنِ كنَانَةَ، وهي دابَّةٌ عظيمةٌ في البحرِ، لا تَمرُّ بشـيءٍ إلَّا أَكَلَتْهُ[٢]، قَالَ:

وقُرَيْشٌ هي الّتي تَسْكُـنُ البحـ ... ـرَ بها سُمِّيَتْ قُرَيْشٌ قُـرَيْشَا[٣]

وقيلَ: هو مـن الْقَرشِ وهـو الكَسْبُ[٤]، لأنَّـهم كـانُوا يكْسِـبُونَ الأمـوالَ بتجَاراتِهِم وضَرْبِهِم في البلادِ. أَطْلَقَ أَوَّلاً «الإيلاف» ثمّ أَبْدَلَ عنهُ المقَيَّدَ بالرَّحْلَتَيْنِ تَفْخيماً لأَمْرِ الإيْلافِ، وتَذْكيراً بعظيمِ النِّعمةِ فيهِ.

و ﴿رِحْلَةَ﴾ مفعُولٌ بِهِ لـ﴿إِيْلَـٰفِهِمْ﴾ وأَرادَ: رِحلَتيْ الشِّتَاءِ والصَّيْفِ فأَفْرَدَ، لا مِن الإِلْبَاسِ، كَمَا قيلَ:

كُلوا في بَعْضِ بَطْنِكُم تَعِفُّوا[٥]

والتَّنكِيرُ في ﴿جُوعٍ﴾ و ﴿خَوْفٍ﴾ لِشِدَّتِهِما. يعني: أَطْعَمَهُم بـالرِّحْلَتَيْنِ مـن جُوعٍ شَديدٍ كانُوا فيهِ قَبلَهُما، وآمَنَهُم من خَوفٍ عَظيمٍ وهو خَوْفُ أَصْحَابِ الفيلِ، أو: خَوْفُ التَّخَطُّفِ في بَلَدِهِم ومَسَائرِهِم.

۞ ۞ ۞

(١) لمساور بن هند بن قيس العبسيّ، من أبيات له يهجو بها بني أسد راجع خزانة الأدب للبغدادي: ج ١١ ص ٤٢٠.

(٢) وهو قول ابنِ عباس لمّا سأله عمرو بن العاصّ: بِمَ سمِّيت قريش؟ قال: بدابّةٍ فـي البـحر تسمّىٰ قريشاً. انظر المصدر السابق: ج ١ ص ٢٠٤.

(٣) للمُشَمْرج بن عمرو الحميريّ. راجع المصدر السابق نفسه.

(٤) قاله الفرّاء. ذكره القرطبي في تفسيره: ج ٢٠ ص ٢٠٣.

(٥) وعجزه: فإنَّ زَمانَكُم زَمنٌ خَميصٌ. تقدم شرح البيت في ص ٢٤٣ و ٤٧٠ فراجع.

سُورَةُ المَاعُونِ[1]

مكِّيةٌ[2]، وقيلَ: مدنيّةٌ، سَبْعُ آياتٍ.

في حَديثِ أُبيٍّ: «مَنْ قَرَأَها غَفَرَ ٱللهُ لَهُ إنْ كانَ للزَّكاةِ مؤَدِّياً»[3].

وعنِ الباقرِعليه السلام: «مَنْ قَرَأَها في فَرائِضِهِ ونَوافِلِهِ قَبِلَ اللهُ صلاتَهُ وصيامَهُ، ولمْ يحَاسِبْهُ بما كانَ منْهُ في الحياةِ الدُّنْيا»[4].

بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِالدِّينِ(١) فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ(٢)

---

(١) في بعض النسخ: «سورة أرأيت».

(٢) قال الشيخ الطوسي في التبيان: ج ١٠ ص ٤١٤: وتسمّىٰ سورة «أرأيت» مكّية في قول ابن عباس، وقال الضحاك: مدنيّة. وهي سبع آيات في الكوفي والبصري، وستّ في المدنيّين. عدّ أهل الكوفة والبصري ﴿يراءون﴾ رأس آية.

وفي تفسير الماوردي: ج ٦ ص ٣٥٠: مكّية في قول عطاء وجابر، ومدنيّة في قول ابن عباس وقتادة.

وفي الكشّاف: ج ٤ ص ٨٠٣: مكّية ثلاث آيات الأُول، مدنيّة البقية، وآياتها (٧)، نزلت بعد التكاثر.

(٣) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٨٠٦ مرسلًا.

(٤) ثواب الأعمال للصدوق: ص ١٥٤ وفيه بعد لفظة «نوافله»: «كان فيمن».

وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ(٣) فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ(٤) ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ(٥) ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ(٦) وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ(٧)﴾

أي: هَلْ عَرفْتَ ﴿ٱلَّذِى يُكَذِّبُ﴾ بالجزاءِ والحِسَابِ ويُنْكِرُ البَعْثَ؟ مَنْ هو، إنْ لَمْ تَعْرِفْهُ ﴿فَذَٰلِكَ﴾ الَّذي يُكَذِّبُ بالجزاءِ هُوَ ﴿ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾ أي: يَدْفَعُهُ دَفْعاً عَنيفاً بِجفْوةٍ وغِلْظَةٍ، ويردُّهُ ردّاً قَبيحاً بزَجْرٍ وخُشُونَةٍ. ﴿وَلَا يَحُضُّ﴾ ولا يَبْعَثُ أَهْلَهُ ﴿عَلَىٰ﴾ بَذْلِ ﴿طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ فَلَا يُطْعِمُهُ ولا يَأْمُرُ بإطْعامِهِ. جَعَلَ سبحانَهُ عِلْمَ التَّكْذيبِ بالجَزاءِ مَنْعَ المَعْروفِ والإقْدامَ علىٰ إيْذاءِ الضَّعيفِ، يعني: أنَّه لو آمَنَ بالجَزَاءِ، وأيْقَنَ بالحِسابِ، ورَجَا الثَّوابَ، وخَافَ العِقَابَ لَمَا أَقْدَمَ علىٰ ذلك، فحينَ ٱجترأَ علىٰ ذلك عُلِمَ أنَّه مُكَذِّبٌ.

فما أشَدَّ هذا من كلامٍ! وما أَخْوَفَهُ من مَقَامٍ! وما أَبْلَغَهُ في التَّحذيرِ من ٱرتكابِ المَعَاصي والآثَامِ! وإنَّها جَديرةٌ بأَن يُستَدَلَّ بها علىٰ ضَعْفِ الإيْمانِ. ثمَّ وَصَلَ بِهِ قَوْلَهُ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾ كأنَّه قَالَ: وإذا كانَ الأَمرُ كذلكَ فَوَيْلٌ للمُصَلِّينَ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ يَسْهونَ عن الصَّلاةِ قِلَّةَ مُبالاَةٍ بها حتَّىٰ تَفوتَهُم أو يَخْرُجَ وَقْتُهَا، أو: يَستَخِفُّونَ بأَفْعالِها فلا يُصَلُّونَها كَمَا أُمِرُوا في تَأْديةِ أَرْكانِها والقِيامِ بحدُودِها وحقُوقِها، ولكنْ يَنْقُرونَها نَقْرَ الغُرابِ من غير خُشُوعٍ وإخْبَاتٍ وٱجتنَابِ المكْرُوهاتِ من: الْعَبثِ بالشَّعَرِ والثِّيابِ، وكَثْرَةِ التَّثاؤُبِ، والتَّمَطِّي، والالتِفاتِ. الّذينَ عادَتُهُم الرِّياءُ والسُّمْعَةُ بأَعْمالِهم، ولا يَقْصدُونَ به الإِخْلاصَ والتَّقَرُّبَ إلى ٱللهِ سبحانَهُ علىٰ وَجْهِ الاختِصَاصِ ﴿وَيَمْنَعُونَ﴾ حُقُوقَ ٱللهِ تعالىٰ في أَموالِهم. والمعنىٰ: أنَّ هؤلاءِ هُمُ الأحِقَّاءُ بأَن يكُونُوا سَاهِينَ عن الصَّلاةِ الّتي هي عِمَادُ الدِّينِ، والفَارِقُ بين الإيمانِ والكُفْرِ، ومُلْتَبسينَ بالرِّياءِ الّذي هو شُعْبَةٌ من الشِّرْكِ، ومَانِعِينَ للزَّكاةِ الّتي هي

قَنْطَرَةُ الإِسلامِ، وتَكُونُ صفَاتُهُم هذهِ عَلَماً علىٰ أنَّهم مُكَذِّبونَ بـالدِّينِ مـفَارِقُونَ لليقينِ.

وعن أَنسٍ: الحَمدُ للهِ علىٰ أنْ لَمْ يَقُلْ: في صلاتِهِم[(١)].

والمُراءَاةُ: مفاعَلَةٌ من الإراءَةِ، لأنَّ المُرائي يُرِي النَّاسَ عَمَلَهُ، وَهُـم يُـرُونَهُ الثَّناءَ عليهِ والإعْجَابَ بهِ، ولا يكُونُ الرَّجُلُ مُرائِياً بإظْهَارِ العَمَلِ الصَّالحِ إنْ كـانَ فَريضَةً، فَمِنْ حَقِّ الفَرائِضِ الإعْلَانُ بها وتَشْـهيرُها، لقـولِهِ عليه السلام: «وَلَا غُـمَّةَ فـي فَرائِضِ ٱللهِ»[(٢)] لأنَّها شَعَائِرُ الدينِ وأَعْلامُ الإسلَامِ.

وقَولِهِ عليه السلام: «مَنْ صَلَّىٰ صَلَاةَ الخَمْسِ جَمَاعَةً فَظنّوا بِهِ كُلَّ خَيْرٍ»[(٣)].

وقَولِهِ عليه السلام لأَقْوامٍ لَمْ يحضُرُوا الجَمَاعَةَ: «لَتَحْضُرُنَّ المَسْجِدَ أَو لأَحْرِقَنَّ عليكُم منازِلَكُم»[(٤)].

ولأنَّ تارِكَها يستَحِقُّ الذَّمَّ والتَّوبيخَ فَوجَبَ إمَاطَةُ التُّهْمَةِ بالإظْهَارِ. وإنْ كانَ تَطَوُّعاً فَالأَولىٰ فيهِ الإخْفَاءُ، لأنَّه ممَّا لا يُلَامُ بتَرْكِهِ ولا تُهْمَةَ فيهِ، فيكُونُ أَبْعَدَ من الرِّياءِ، فإنْ أَظْهَرَهُ قَاصِداً للاقتِدَاءِ بِهِ كانَ حَسَناً، فإنَّما الرِّياءُ أَن يَقْصُدَ بإظْهارِهِ أَن يَرَاهُ النَّاسُ فَيُثْنوا عليهِ بالصَّلاحِ، علىٰ أنَّ ٱجتِنَابَ الرِّيـاءِ أَمْـرٌ صَـعْبٌ إلَّا عَـلَى المُخْلصينَ، ولذلك قَالَ النَّبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم: «الرِّيَاءُ أَخْفَىٰ من دَبيبِ النَّمْلَةِ السَّوداءِ فـي

---

(١) حكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٨٠٥. والفرق بين «عن صـلاتهم» و «فـي صلاتهم»: أنّ معنى الأول هو: أنّهم ساهون عنها سهو ترك لها وقلّة التفاتٍ اليها، وذلك فعل المنافقين والفَسَقَة، ومعنى الثاني: أنّ السهو يعتريهم فيها بوسوسة شيطان وذلك لا يخلو منه مسلم.

(٢) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٨٠٥ مرسلًا.

(٣) رواه الصدوق في الفقيه: ج ١ ص ٣٧٦ ح ١٠٩٣.

(٤) رواه الصدوق أيضاً في الفقيه: ح ١٠٩٢، ونحوه مسلم في الصحيح: ج ١ ص ٤٥٢ ح ٢٥٢.

اللَيّلةِ الظَّلْماءِ عَلى المِسْحِ الأَسْودِ»[١].

واخْتُلفَ في ﴿الْمَاعُونَ﴾ فَقيلَ: هو الزَّكَاةُ المَفْرُوضَة[٢]، وهو المَرْوِيُّ عن عليٍّ عليه السلام وجَمَاعةٍ[٣]، قَالَ الرَّاعِي:

قَومٌ على الإِسلامِ لَمَّا يَمنَعُوا ماعُونَهم ويُضَيِّعوا التَّهْليلا[٤]

وعنِ ابْنِ مسْعُودٍ: هو ما يَتَعَاوَرَهُ النَّاسُ بينَهُم من الدَّلْوِ والفَأْسِ والقِدْرِ، وما لا يُمْنَعُ كالماءِ والمِلْحِ[٥].

وعنِ الصَّادقِ عليه السلام: «هو القَرْضُ تُقْرِضُهُ، والمَعْروفُ تَصْنَعُهُ، ومَتَاعُ البيتِ تُعيرُهُ، ومنْهُ الزكاةُ»[٦].

❁ ❁ ❁

(١) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٨٠٥ مرسلًا.

(٢) قاله الحسن ومجاهد وقتادة والضحاك وابن زيد وسعيد بن جبير. راجع تفسير الطبري: ج ١٢ ص ٧١٠ـ ٧١١.

(٣) كابن الحنفية وابن عمر. راجع المصدر السابق.

(٤) للراعي واسمه عبيد بن حصين النميري، من قصيدة له طويلة في وصف قومه وإبله، راجع جمهرة اشعار العرب: ص ٤٣٢.

(٥) حكاه عنه الطبري في تفسيره: ج ١٢ ص ٧١٢.

(٦) رواه الكليني في الكافي: ج ٣ ص ٤٩٩ ضمن ح ٩ عن أبي بصير عنه عليه السلام.

سُورَةُ الكوْثَر

مختَلَفٌ فيها[1]، ثَلَاثُ آياتٍ.

في حَديثِ أُبيٍّ: «مَنْ قَرَأها سَقَاهُ ٱللهُ من أَنْهارِ الجَنَّةِ، وأُعْطِيَ من الأَجْرِ بعَدَدِ كلِّ قُرْبَانٍ قَرَّبَهُ العِبَادُ في يومِ النَّحْرِ أو يُقَرِّبُونَه»[2].

وعن الصَّادقِ عليه السلام: «مَنْ قَرَأها في فَرائِضِهِ ونَوافِلِهِ سَقَاهُ ٱللهُ يومَ القيامةِ من الكَوثَرِ، وكانَ مُحَدَّثُهُ عنْدَ محمَّدٍ صلى الله عليه وآله وسلم في أَصْلِ طُوبىٰ»[3].

بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَـٰكَ ٱلْكَوْثَرَ(١) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْـحَرْ(٢) إِنَّ شَـانِئَكَ هُـوَ ٱلْأَبْتَرُ(٣)﴾

﴿ٱلْكَوْثَر﴾ فَوْعَلٌ من الكَثْرَةِ، وهو المُفْرِطُ الكَثْرَةِ.

ورُوِيَ عن النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم أَنَّه قَرَأَها ثمَّ قَالَ: «أَتَدْرونَ ما الكَوْثَرُ؟ إِنَّه نَهرٌ وَعَدَنِيهِ

---

(١) قال الشيخ الطوسي في التبيان: ج ١٠ ص ٤١٧: مكّية في قول ابن عباس، وقال الضحاك: مدنيّة. وهي ثلاث آيات بلاخلاف.

وفي الكشّاف: ج ٤ ص ٨٠٦: مكّية، وآياتها (٣)، نزلت بعد العاديات.

(٢) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٨٠٨ مرسلًا.

(٣) ثواب الأعمال للصدوق: ص ١٥٥.

رَبِّي، فيهِ خَيْرٌ كثيرٌ، هو حَوْضٌ يَرِدُ عليهِ أُمَّتي يَومَ القيامةِ، آنِيَتُهُ من فِضَّةٍ عَدَدُ نُجُومِ السَّمَاءِ، فَيُخْتَلَجُ القرْنُ منْهُم فأَقُولُ: يا ربِّ إنَّهم من أُمَّتي، فـيقَالُ: إنَّك لا تَـدْري ما أَحدَثُوا بَعْدَكَ». أورَدَهُ مسلمٌ في الصَّحيحِ (١).

وعنِ ٱبنِ عبَّاسٍ: أنَّه فَسَّرَ الكَوْثَرَ بالخَيْرِ الكَثيرِ، فَقَالَ لَهُ سَعيدُ بنُ جُبَيْرٍ: فإنَّ نَاساً يَقُولُونَ: هو نهرٌ في الجنَّةِ، فَقَالَ: هو مِنَ الخَيْرِ الكثير (٢).

وقيلَ: هو كَثْرَةُ النَّسْلِ والذُّرِّيـةِ (٣)، وقـد ظَـهَرَ ذلكَ فـي نَسْـلِهِ مـن وُلْـدِ فاطمةَ عليها السلام، إذْ لا يَنْحَصِرُ عَدَدُهُم، وَيَتَّصِلُ ـ بحَمْدِ ٱللهِ ـ إلىٰ آخرِ الدَّهْرِ مَـدَدُهُم. وهذا يُطابقُ ما ورِدَ في سَبَبِ نُزُولِ السُّورةِ: أنَّ العَاصَ بنَ وائِلٍ السَّـهمي سَـمَّاهُ الأَبْتَرَ لَمَّا تُوفِيَ ٱبنُهُ عبدُاللهِ (٤). وقَالَتْ قُرَيْشٌ: إنَّ محمَّداً صُنْبُور (٥) (٦). فيكُونُ تَنْفيساً عن النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم ما وَجَدَهُ في نَفْسِهِ الكـبيرةِ مـن جِـهَةِ مَـقَالِهِم، وَهَـدْماً لِمَحَالِهِم.

وقيلَ: هو الشَّفَاعَةُ (٧). واللَّفْظُ مُحْتَملٌ للجَميعِ، فَقَد أَعْطَاهُ سبحانَهُ ما لا غَـايَةَ لكَثْرتِهِ من خَيْرِ الدَّارَيْنِ.

وأمَّا ما ذَكَرَهُ جَارُ ٱللهِ (٨): أنَّ الكَوْثَرَ أَولادُهُ إلىٰ يَوْمِ القيامةِ من أُمَّتِهِ فـلَيْسَ

(١) صحيح مسلم: ج ١ ص ٣٠٠ ح ٤٠٠ عن أنس.

(٢) رواه الطبري في تفسيره: ج ١٢ ص ٧١٨ و ٧٢٠.

(٣) حكاه الرازي في تفسيره: ج ٣٢ ص ١٢٤.

(٤) أورده الواحدي في أسباب النزول: ص ٤٠٤ ح ٩٣٤ ـ ٩٣٦ عن ابن عباس ويـزيد بـن رومان وعطاء.

(٥) رجل صنبور: فرد ضعيف ذليل، لا أهل له ولا عَقِب ولا ناصر. (لسان العرب: مادة صنبر).

(٦) أورده البغوي في تفسيره: ج ٤ ص ٥٣٤ عن عكرمة عن ابن عباس.

(٧) حكاه الرازي في تفسيره: ج ٣٢ ص ١٢٧.

(٨) وهو الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٨٠٧.

بالوَجْهِ، لأنَّه لا يُعْدَلُ عن الحَقيقَةِ إلى المَجازِ من غَيرِ ضرُورَةٍ، وقد قالَ النَّبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم للحسَنِ والحُسَيْنِ عليهما السلام: «ابْنَايَ هذَانِ إمامَانِ قَامَا أو قعَدَا»[١]. وقالَ للحسَنِ عليه السلام: «إنَّ ٱبني هذا سَيِّدٌ»[٢]. وفي التَّنْزيلِ: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾[٣]، فكَيْفَ يُحْمَلُ الكَوْثَرُ على أولادِ أُمَّتِهِ الّذينَ أبَى اللهُ أن يكُونَ رَسُولُهُ أبا أَحَدٍ منهُم، ولا يُحْمَلُ على أولادِ ابْنَيْهِ مِنِ ابنَتِهِ الّذين طَبَقُوا البَرَّ والبَحْرَ ومَلاءُوا السَّهْلَ والجبَلَ بكَثْرَتِهِم؟

والنَّحْرُ: نَحْرُ ٱلْبُدْنِ، أي: ﴿فَصَلِّ﴾ صَلاةَ الفَجْرِ بجَمعٍ ﴿وَٱنْحَرْ﴾ الْبُدْنَ بمِنىٰ، وقيلَ: صَلاةَ الفَرْضِ ﴿لِرَبِّكَ﴾ وٱستَقْبِلِ القِبْلَةَ بنَحْرِك[٤]، مِنْ قَوْلِ العَرَبِ: مَنَازِلُنا تتَنَاحَرُ، أي: تتَقَابَلُ. وأمَّا ما رَوَوهُ[٥] عن عليٍّ عليه السلام: معناهُ: «ضَعْ يَدَكَ الْيُمْنىٰ على اليُسْرىٰ حذاءَ النَّحْرِ» فمِمَّا لَمْ يَصِحَّ عنهُ، لأنَّ عِتْرَتَهُ عليهم السلام رَوَوْا عنهُ خِلافَ ذلك، وهو أنَّ معنَاهُ: ارفَعْ يَدَيْكَ إلى النَّحْرِ في الصَّلاةِ[٦].

﴿إِنَّ شَانِئَكَ﴾ إنَّ مَنْ أَبغَضَكَ من قَوْمِكَ ﴿هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ لا أَنْتَ، والأَبتَرُ: الّذي لا عَقِبَ لَهُ.

فانْظُرْ في نَظْمِ هذهِ السُّورةِ الأَنيقِ وتَرتيبهِ الرَّشيقِ مَعَ قِصَرِهَا وَوَجَازَتِها،

(١) رواه الصدوق في علل الشرائع: ص ٢١١ ح ٢، والخزار القميّ في كفاية الأثر: ص ٣٦، وتوفيق أبو علم في أهل البيت: ص ١٩٥ عنه إحقاق الحقّ: ج ١٩ ص ٢١٧ .

(٢) رواه أحمد بن حنبل في المسند: ج ٥ ص ٤٤، وأبونعيم في الحلية: ج ٢ ص ٣٥، والخطيب في تاريخ بغداد: ج ٣ ص ٢١٥، والحمويني في فرائد السمطين: ج ٢ ص ١١٥ ح ٤١٨، والعاملي في الفصول المهمة: ص ١٥٢، والحاكم في المستدرك: ج ٣ ص ١٦٩ .

(٣) الأحزاب: ٤٠ .

(٤) حكاه عنه البغوي في تفسيره: ج ٤ ص ٥٣٤ .

(٥) رواه الطبري في تفسيره: ج ١٢ ص ٧٢١ من طرقٍ عنه عليه السلام .

(٦) رواه الشيخ في التهذيب: ج ٢ ص ٦٦ ح ٥٣٧ باسناده عن ابن سنان عن الصادق عليه السلام .

وتبصَّرْ كيفَ ضَمَّنَها اللهُ النُّكَت البديعةَ: حَيثُ بَنَى الفِعْلَ في أوَّلها على المبتدأ لِيَدُلَّ على الخُصُوصيَّةِ، وجَمَعَ ضَميرَ المتكلِّم ليؤْذِنَ بكبريائِهِ وعَظَمَتِهِ، وصَدَّرَ الجُـملةَ بحَرفِ التأْكيدِ الجَاري مَجْرَى القَسَمِ، وأَتَىٰ بالكَوْثَرِ المحذُوفِ الموصُوفِ ليكُونَ أَدلَّ على الشيّاعِ والتَّناولِ علىٰ طَريقِ الاتِّسَاعِ، وعَقَّبَ ذلكَ بِفَاءِ التَّعقيبِ ليكُونَ القِيَامُ بالشُّكْرِ الأَوْفرِ مُسبَّباً عن الإِنْعَامِ بالعَطَاءِ الأَكْثَرِ.

وقَولُهُ: ﴿لِرَبِّكَ﴾ تَعريضٌ بدينِ مَن تَعَرَّضَ لَهُ بالقَوْلِ المُؤْذي من اَبنِ وائـلٍ وأَشْباهِهِ ممَّنْ كانَ في عبَادَتِه ونَحْرِهِ لغَيْرِ اَللهِ. وأَشَارَ بهاتَيْنِ العبارَتَيْنِ إلىٰ نَوعَيْ العباداتِ: البَدَنيَّةِ الّتي الصَّلاةُ إمَامُها، والمَاليّةِ الّتي نَحرُ اَلْبُدْنِ سَنامُها. وحَذَفَ اللّامَ الأُخرى[1] إذْ دَلَّتْ عليهِ الأُولىٰ، ولِمُرَاعَاةِ حَقِّ التَسْجيعِ الّذي هو من جُملَةِ نَظْمِهِ البَديعِ وأَتَىٰ بكَافِ الخِطَابِ علىٰ طَريقَةِ الالتفاتِ إظْهاراً لعلوِّ شأْنِهِ، وَلِيُعْلَمَ بذلك أنَّ من حقِّ العبادَةِ أن يُقْصَدَ بها وَجْهُ اَللهِ خَالِصاً، ثمَّ قَالَ: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ﴾، فَعَلَّلَ ما أَمَرَهُ بِهِ من الإِقْبَالِ علىٰ شأْنِهِ في العبادَةِ بذلكَ علىٰ سبيلِ الاستِئْنَافِ، الّذي هـو جِنْسٌ من التَّعليلِ رائعٌ. وإنَّما ذكَرَهُ بِصِفَتِهِ لا باسْمِهِ ليتناوَلَ كُلَّ مَنْ أَتَىٰ بمِثْلِ حَالِهِ، وعَرَّفَ الخَبَرَ ليَتمَّ لَهُ البَتْرُ، وأَقْحَمَ الفَصْلَ[2] لبيَانِ أنَّه المُعَيَّنُ لهذا النَّقْصِ والعَيْبِ.

وذلك كلُّهُ مَعَ عُلُوِّ مَطْلَعِها، وتَمَامِ مَقْطَعِها، وكَوْنِها مشْحُونَة بالنُّكَتِ الجـليلةِ، مكتَنِزَةً بالمَحَاسِنِ غيْرِ القَليلةِ، ممَّا يَدُلُّ علىٰ أنَّه كَلَامُ ربِّ العالمينَ الباهِرُ لكَلَامِ المتكلِّمينَ، فَسُبحانَ مَنْ لَوْ لَمْ يُنْزِلْ إلَّا هذه السُّورَةَ المُوجِزَةَ لَكَفىٰ بها آيةً مُعجزَةً، ولَوْ هَمَّ الثَّقَلانِ أَن يأْتُوا بمِثْلِها لَشَابَ الغُرابُ وسَـابَ كـالماءِ السَّرابِ قَـبْلَ أَن يأْتوا بِهِ.

---

(١) أي لم يقل: «وَٱنحرْ لربِّكَ».

(٢) يعني به قوله: ﴿هـو﴾.

وفيها أيضاً دَلالةٌ علىٰ أنَّها مُعْجِزَةٌ وآيةٌ بيِّنةٌ من وَجْهٍ آخَرَ، وهو أنَّه إِخْبارٌ بالغَيْبِ: منْ حَيْثُ إنَّه أَخْبَرَ عَمَّا جَرَىٰ علىٰ أَلْسِنَةِ أعدائِهِ فكَانَ كَمَا أَخْبَرَ، ووافَقَ الْخُبْرُ[١] الْخَبَرَ أيضاً في إعْطَائِهِ الكَوْثَرَ، إذْ عَلَتْ كَلِمَتهُ، وٱنتَشَرَتْ في العَالَمِ ذرِّيتُهُ، وٱنْبَتَرَ أَمْرُ شَانِئِهِ الأَبْتَرِ، وٱنْقَطَعَ ذَنَبُهُ وَعَقِبُهُ كَمَا ذَكَر، وباللهِ التَّوفيق.

❁ ❁ ❁

(١) في بعض النسخ: «المخْبَر».

سُورَةُ الكَافِرُون

مكّيةٌ[1]، وقيلَ: مدنيَّةٌ، ستُّ آياتٍ.

في حَديثِ أُبيٍّ: «وَمَنْ قَرَأَها فَكَأَنَّما قَرَأَ رُبْعَ القُرآنِ، وَتَباعَدَتْ عَنْهُ مَرَدَةُ الشَّيْطانِ، وَبرِئَ من الشِّرْكِ، وتَعَافَىٰ من الفَزَعِ الأَكْبَر»[2].

وعنِ الصَّادقِ عليه السلام: «مَنْ قَرَأَ: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّها ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾، و ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ في فَرِيضَةٍ من الفَرائِضِ غَفَرَ ٱللَّهُ لَهُ ولوالِدَيْهِ وما وَلَدَ، وإنْ كانَ شَقِيّاً مُحِيَ من ديوانِ الأَشْقياءِ وكُتِبَ في ديوانِ السُّعَدَاءِ، وأَحْيَاهُ ٱللَّهُ سَعيداً وأَمَاتَهُ شَهيداً»[3].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ(١) لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ(٢) وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ

---

(١) قال الشيخ الطوسي في التبيان: ج ١٠ ص ٤١٩: مكّية في قول ابن عباس، وقال الضحاك: مدنيّة. وهي ستّ آيات بلاخلاف.

وفي تفسير الماوردي: ج ٦ ص ٣٥٧: مكّية في قول ابن مسعود والحسن وعكرمة، ومدنيّة في أحد قولي ابن عباس وقتادة والضحاك.

وفي الكشّاف: ج ٤ ص ٨٠٨: مكّية، وهي ستّ آيات، نزلت بعد الماعون. ويقال لها ولسورة الإخلاص: المقشقشتان، أي: المبرّئتان من النفاق.

(٢) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٨٠٩.

(٣) ثواب الأعمال للصدوق: ص ١٥٥، وفيه: «وما ولدا»، وزاد في آخره: «وبعثه شهيداً».

مَآ أَعْبُدُ(٣) وَلَآ أَنَاْ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ(٤) وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ(٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ(٦)﴾

نَزَلَتْ في نَفَرٍ من قُرَيْشٍ قَالُوا لرسُولِ ٱللهِ ﷺ: هَلُمَّ فَاتَّبِعْ دِينَنَا ونَتَّبِعْ دِينَكَ، تَعبُدُ آلِهَتَنَا سَنَةً، ونَعبُدُ إِلَٰهَكَ سَنَةً، فَقَالَ: مَعَاذَ ٱللهِ أَن أُشْرِكَ باللهِ غَيْرَهُ، قَالُوا: فاسْتَلِمْ بَعْضَ آلِهَتِنا نُصَدِّقكَ ونَعْبُدْ إِلَٰهَكَ، فَنَزَلَتْ، فَغَدَا إلى المسجدِالحَرَامِ وفيه المَلأُ مِن قُرَيْشٍ، فَقامَ علىٰ رؤُوسِهم فَقَرَأَها، فَيَئِسُوا[1].

﴿لَآ أَعْبُدُ﴾ في المُسْتَقْبلِ ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾ لأَنَّ «لَا» لا تَدْخُلُ إلَّا علىٰ مُضَارِعٍ في معنَى الاستِقْبالِ، كَمَا أنَّ «مَا» لا تَدْخُلُ إلَّا علىٰ مُضَارِعٍ في معنَى الحَالِ. والمعنىٰ: لا أَفْعَلُ في المُستَقْبل ما تَطْلُبُونَهُ منِّي من عِبَادَةِ آلِهَتِكُم. ﴿وَلَآ أَنتُمْ﴾ فَاعِلُونَ فيهِ ما أَطْلُبُ منْكُم من عبادَةِ إِلَٰهي.

﴿وَلَآ أَنَاْ عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُّمْ﴾ أي: وما كُنْتُ قَطُّ عَابِداً فيما سَلَفَ ما عَبَدْتُم فيهِ، يعني: لَمْ يُعْهَدْ منِّي عِبَادَةُ صَنَمٍ في الجَاهليَّةِ، فكَيفَ يُرْجَىٰ منِّي في الإِسلامِ؟

﴿وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ أي: وما عَبَدْتُمْ في وَقْتٍ ما أَنَا علىٰ عبادَتِهِ، ولَمْ يَقُلْ: «ما عَبَدْتُ» كَمَا قَالَ: ﴿مَا عَبَدْتُّمْ﴾ لأَنَّهم كانُوا يعبُدُونَ الأَصنامَ قَبْلَ المَبْعَثِ، ولَمْ يكُنْ لَهُ العِبَادَةُ مشروعَةً في ذلكَ الوَقْتِ[2]، وأَتَىٰ بِلَفْظَةِ «مَا» دُونَ «مَنْ» لأَنَّ المُرادَ الصِّفَةُ، كأَنَّهُ قَالَ: لا أَعْبُدُ الباطِلَ، ولا تَعْبُدُونَ الحقَّ، وقيلَ: إنَّ «مَا» مَصْدَريَّةٌ، أي: لا أَعْبُدُ عِبادَتَكُم، ولا تَعْبُدُونَ عِبادَتي[3].

---

(١) أُنظر أسباب النزول للواحدي: ص ٤٠٥ ح ٩٤٠.

(٢) في هامش النسخة المطبوعة بالحجر كلام للمحقّق: «كان رسول الله ﷺ متعبّداً بشريعة نفسه قبل المبعث، لأنّه كان نبيّاً من أول الأمر ثم صار مبعوثاً للدعوة وتبليغ الرسالة».

(٣) قاله القيسي في مشكل إعراب القرآن: ص ٨٤٩.

﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ لَكُم شِرْكُكُمْ وَلي تَوحِيدِي، والمعنىٰ: أنِّي مبعُوثٌ إليكُم لأَدعُوَكُم إلى النَّجَاةِ والحقِّ، فإذا لَمْ تَقْبلُوا منِّي ولَمْ تَتَّبعُوني فلا أَقَلَّ من أن أَنْجُوَ منْكُم كِفَافاً، وقيلَ: معنَاهُ: لَكُم جَزَاءُ دِينِكُم وَلي جَزَاءُ دِيني [(١)].

وعنِ الصَّادقِ عليه‌السلام: إذَا قَرَأْتَ ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ فَقُلْ: يَا أَيُّهَا الكافِرُونَ، وإذَا قَرَأْتَ: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ فَقُلْ: أَعْبُدُ ٱللهَ وَحْدَهُ، وإذَا قُلْتَ: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ فَقُلْ: رَبِّي اللهُ ودِيني الإسلَامُ[(٢)].

✡ ✡ ✡

---

(١) قاله ابن عيسىٰ. راجع تفسير الماوردي: ج ٦ ص ٣٥٨.

(٢) أُنظر تفسير القمي: ج ٢ ص ٤٤٦.

سُورَةُ النَّصْرِ

مَدَنيَّةٌ[1]، وهِيَ ثَلاثُ آياتٍ.

في حَديثِ أُبيٍّ: «وَمَنْ قَرأَها فكَأَنَّمَا شَهِدَ مَعَ محمَّدٍ صلى الله عليه وآله وسلم فَتْحَ مَكَّةَ»[2].

وعنِ الصَّادقِ عليه السلام: «مَنْ قَرَأَ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللهِ﴾ في نَافِلَةٍ أو فَريضَةٍ نَصَرَهُ ٱللهُ علىٰ جميعِ أَعدَائِهِ، وجاءَ يَوْمَ القيامةِ ومَعَهُ كِتابٌ يَنْطُقُ، قَد أَخْرَجَهُ ٱللهُ مِن جَوْفِ قَبْرِهِ، فيه أَمَانٌ مِنْ حَرِّ جَهَنَّمَ، ومِنَ النَّارِ، ومِنْ زَفيرِ جَهَنَّمَ، يَسْمَعُهُ بأُذُنَيْهِ، فَلَا يَمُرُّ علىٰ شَيءٍ يَومَ القيامةِ إلَّا بَشَّرَهُ وأَخْبَرَهُ بكُلِّ خَيْرٍ حتَّىٰ يَدْخُلَ الجَنَّة ويَفتحُ له في الدُّنْيا من أسبابِ الخَيْرِ ولَمْ يخطرْ علىٰ قَلبِهِ[3]».

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ(١) وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ

---

(١) قال الشيخ الطوسي في التبيان: ج ١٠ ص ٤٢٤: مدنيّة في قول ابن عباس والضحاك، وهي ثلاث آيات بلاخلاف.

وفي الكشّاف: ج ٤ ص ٨١٠: نزلت بمنىٰ في حجة الوداع، فتعدّ مدنيّة، وهي آخر ما نزل من السور، وآياتها (٣)، نزلت بعد التوبة.

(٢) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٨١٣ مرسلًا.

(٣) ثواب الأعمال للصدوق: ص ١٥٥، وفيه «جسر جهنّم» بدل «حرّ جهنّم»، وزاد بعد قوله: «أسباب الخير»: «ما لم يتمنّ».

أَفْوَاجًا(٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا(٣)﴾

﴿إِذَا جَآءَ﴾ كَ يا محمّدﷺ ﴿نَصْرُ ٱللَّهِ﴾ علىٰ مَنْ عَادَاكَ، وَهُمْ قُرَيْشٌ ﴿وَٱلْفَتْحُ﴾ يعني: فَتْحَ مَكَّةَ. و ﴿إِذَا﴾ ظَرْفٌ لقولِهِ: ﴿فَسَبِّحْ﴾ وهذا من المُعْجزَاتِ والإخْبارِ بالشَّيءِ قَبْلَ كَوْنِهِ. وكانَ فَتْحُ مَكَّةَ لِعَشْرٍ مَضَيْنَ من شَهْرِ رَمَضَانَ سَنَةَ ثَمَانٍ، ومَعَ رَسُولِ ٱللهِﷺ عَشْرَةُ آلافٍ من المهاجرينَ والأَنْصَارِ وطَوائِفَ العَرَبِ، وأَقَامَ بها خَمْسَ عَشْرَةَ لَيْلَة، ثَمَّ خَرَجَ إِلىٰ هَوَازِنَ، وَهِيَ غزاةُ حُنَيْن، وحينَ دَخَلَ مكَّةَ وَقَفَ علىٰ بابِ الكَعْبَةِ ثمَّ قَالَ: «لا إِلٰه إلَّا ٱلله وحدَهُ وَحْدَه، أَنْجَزَ وَعْدَه، ونَصرَ عَبْده، وهزَمَ الأَحزَابَ وَحْدَه، أَلَا إنَّ كُلَ مالٍ وَمَأْثَرَةٍ وَدَمٍ يُدَّعىٰ فهو تَحْتَ قَدَميَّ هَاتَيْنِ، إلَّا سدانَة البَيْتِ وسِقَايَة الحَاجِّ فإنَّهما مَرْدُودَتَانِ إلىٰ أهْليهما، أَلَا إنَّ مكَّةَ مُحرَّمَةٌ بتَحْريمِ ٱللهِ، لَمْ تُحَلَّ لأَحدٍ قَبْلي، ولَمْ تُحَلَّ لي إلَّا ساعةً مِن نَّهار، وهي مُحرَّمَةٌ إلىٰ أن تَقُومَ السَّاعَةُ، لا يُخْتَلَىٰ خَلَاُلها ولا يُقْطَعُ شَجَرُهَا، ولا يُنَفَّرُ صَيْدُها، ولا يَحِلُّ لُقَطَتُهَا إلَّا لِمُنْشد». وكانَ صَنَاديدُ قُرَيْشٍ قد دَخَلُوا الكَعْبَةَ وَهُم يَظُنُّونَ أَنَّ السَّيْفَ لا يُرْفَعُ عَنْهُم، فَقَالَعليه السلام لهم: «أَلَا لِبئْسَ جِيرَان النبيِّ كُنْتُم، لَقَد كَذَّبْتُم وطَرَدْتُم، ثمَّ ما رَضيتُم حتَّىٰ جِئْتُموني في بلادِي تُقَاتلُونني، يا أَهْلَ مَكَّةَ ما تَرَوْنَ أَنِّي فاعِلٌ بكُم»؟ قَالُوا: خَيْراً، أَخٌ كريمٌ وٱبنُ أخٍ كَرِيمٍ، قَالَ: «اذهبُوا فأَنْتُم الطُّلَقَاء». فَأَعْتَقَهُم رَسُولُ ٱللهِﷺ وقَد كانَ ٱللهُ تعالى أَمْكَنَهُ من رِقَابِهِم عَنْوَةً، وكانُوا لَهُ فَيْئاً فَلذلكَ سُمُّوا الطُّلَقَاء، ثمَّ بايَعُوهُ على الإِسْلامِ(١).

﴿وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ﴾ أي: مِلَّةِ الإسلامِ ﴿أَفْوَاجاً﴾ جَمَاعَاتٍ كَثيفةً، كانَتْ تَدْخُلُ فيهِ القبيلةُ بأَسْرِها بَعْدَما كانُوا يدخُلُونَ فيهِ واحِداً فَواحِداً، وٱثنَيْنِ اثنَيْن.

---

(١) رواه ابن اسحاق في السيرة: ص ٢٨١.

وعنْ جَابرِ بنِ عَبْدِ ٱللهِ أَنَّه بَكَىٰ ذاتَ يَوْمٍ، فَقِيلَ لهُ في ذلكَ فَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ ٱللهِ ﷺ يقُولُ: «دَخَلَ النَّاسُ في دينِ ٱللهِ أَفْواجاً، وَسَيَخْرجُونَ منْهُ أَفْواجاً»(١).

وقيلَ: أرادَ بالنَّاسِ أَهْلَ اليَمَنِ(٢). وَلَمَّا نَزَلَتْ قَالَ عليه السلام: «ٱللهُ أَكْبَر، جاءَ نَصْرُ ٱللهِ وٱلْفَتْحُ، وجَاءَ أَهلُ اليَمَنِ، قَوْمٌ رقيقَةٌ قُلُوبُهُم، الإيْمانُ يَمَانٍ، والفِقْهُ يَمَانٍ، والحِكْمَةُ يَمَانيَّة»(٣) وقَالَ: «أَجِدُ نَفَسَ ربِّكُم مِنْ قِبَلِ الْيَمَنِ»(٤).

وعن الحَسَنِ: لمَّا فَتَحَ رَسُولُ ٱللهِ ﷺ مكَّةَ، أَقْبَلَتِ العَرَبُ بعضُها علىٰ بَعْضٍ وقَالُوا: أما إذا ظَفِرَ بأَهْلِ الحَرَمِ فَلَيس لكُم بِهِ يَدَانِ، وَقَد كَانَ ٱللهُ أَجَارَهُم من أَصْحَابِ الفيلِ ومِنْ كُلِّ مَنْ أَرَادَهُم، فَكَانُوا يَدخُلُونَ في الإِسلامِ أَفْواجاً من غَيْرِ قِتَال(٥).

و ﴿يَدْخُلُونَ﴾ في مَحَلِّ نَصْبٍ على الحَالِ من ﴿رَأَيْتَ﴾ إذا كَانَ بمعنىٰ: أَبْصَرْتَ أو عَرَفْتَ، وإنْ كانَ بمعنىٰ: عَلِمْتَ فهو في مَوضعِ المفْعُولِ الثَّاني لَهُ.

﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ فَقُلْ: سبحانَ ٱللهِ، حَامِداً للهِ، أي: فَتَعجَّبْ لِتَيْسيرِ(٦) ٱللهِ تعالىٰ لكَ ما لَمْ يَخْطُرْ بِبَالِ أَحَدٍ، أو: فاذْكُرْهُ مُسَبِّحاً حَامِداً زِيَادَةً في عبادَتِهِ والثَّناءِ عليهِ. والأَمْرُ بالاستِغْفَارِ مَعَ التَّسْبيحِ تَكْميلٌ للأَمْرِ بما هو قَوَامُ أَمْرِ الدِّينِ من الجَمْعِ بين الطَّاعةِ والاحتِرَاسِ من المَعْصِيَةِ، وَليكُونَ أَمْرُهُ بذلك مَعَ عِصْمَتِهِ لُطْفاً لأُمَّتِهِ،

---

(١) أخرجه احمد بن حنبل في المسند: ج ٣ ص ٣٤٣.

(٢) قاله عكرمة ومقاتل. راجع تفسير البغوي: ج ٤ ص ٥٤١.

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره: ج ١٢ ص ٧٣٠ عن عكرمة.

(٤) رواه الماوردي في تفسيره: ج ٦ ص ٣٦٠ مرسلًا، والبيهقي في الأسماء والصفات: ص ٤٦٢ عن سلمة بن نفيل.

(٥) تفسير الحسن البصري: ج ٢ ص ٤٤٣.

(٦) في نسخة: «لتدبير».

ولأنَّ الاستغْفَارَ من التَّواضعِ للهِ تعالىٰ وهَضْمِ النَّفْسِ فهو عبَادَةٌ في نَفْسِهِ.

وعنْهُ صَلَواتُ الله عليه: «إِنِّي لأَستْغْفِرُ الله في اليَوْمِ واللَّيلَةِ مائَةَ مرَّة» (١).

ورُوِيَ أنَّه لَمَّا قَرَأَها رَسُولُ ٱللهِ صَلَّىٰ ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ علىٰ أَصحَابِهِ ٱستَبشَروا وبَكَى العبَّاسُ، فَقَالَ عليه السلام : ما يُبْكِيكَ يا عمِّ؟ قَالَ: نُعِيَتْ إِليكَ نَفْسُكَ، قَالَ: إِنَّها لَكَمَا تَقُولُ، فَعَاشَ بَعْدَها سَنَتَيْنِ لَمْ يُرَفيهِمَا ضَاحِكاً مستَبْشِراً (٢).

وعنْ عَبْدِ ٱللهِ بنِ مَسْعُودٍ: لَمَّا نَزَلَتِ السُّورةُ كانَ عليه السلام يقُولُ كثيراً: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وبحَمْدِك، اللَّهمَّ ٱغفِرْ لي إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ» (٣). وفي روايةٍ أُخرىٰ: «أَستَغْفِرُكَ وأَتُوبُ إِليكَ» (٤). وكانَتْ تُسَمَّىٰ سُورةَ التَّودْيعِ (٥).

﴿كَانَ تَوَّاباً﴾ أي: كانَ في الأَزْمِنَةِ الماضِيَةِ توَّاباً على المُكَلَّفينَ إذا ٱستَغْفَروا، فَعَلَىٰ كُلِّ مُستَغفرٍ أَن يَتوقَّعَ مِثْلَ ذلك.

❀ ❀ ❀

(١) أخرجه أحمد في المسند: ج ٥ ص ٣٩٤.

(٢) رواه السمرقندي في تفسيره: ج ٣ ص ٥٢٢ عن مقاتل.

(٣) أخرجه عنه الطبري في تفسيره: ج ١٢ ص ٧٣٢.

(٤) أخرجه الطبري أيضاً في تفسيره: ص ٧٣١ عن عائشة.

(٥) كذا سمّاها ابن مسعود. راجع الكشّاف: ج ٤ ص ٨١٢.

سُورَةُ المَسَد[١]

مكّيةٌ[٢]، خَمْسُ آياتٍ.

في حَديثِ أُبيٍّ: «مَنْ قَرَأَها رَجَوْتُ أن لا يَجْمَعَ ٱللهُ بينَهُ وبينَ أَبي لَهَبٍ في دَارٍ واحِدةٍ»[٣].

وعنِ الصَّادقِ عليه السلام: «إذَا قَرَأْتُم ﴿تبَّتْ﴾ فادْعُوا علىٰ أَبي لَهَبٍ، فإنَّه كانَ من المُكذِّبينَ بالنَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم وبما جاءَ بِهِ من عنْد ٱللهِ تعالىٰ»[٤].

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ(١) مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ(٢) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ(٣) وَٱمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ(٤) فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ(٥)﴾

---

(١) في بعض النسخ: «سورة أبي لهب».

(٢) قال الشيخ الطوسي في التبيان: ج ١٠ ص ٤٢٦: مكّية في قول ابن عباس والضحاك، وهي خمس آيات بلاخلاف.

وفي الكشّاف: ج ٤ ص ٨١٣: مكّية، وآياتها (٥)، نزلت بعد الفاتحة.

(٣) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٨١٧ مرسلاً.

(٤) ثواب الأعمال للصدوق: ص ١٥٥.

التَّبَابُ: الخُسْرانُ المُؤدِّي إلى الهَلَاكِ، والمعنىٰ: خَسِرَتْ يَدَاهُ وهَلَكَتْ، والمُرادُ: هَلَاكُ جُمْلَتِهِ، مثْلُ قَولِهِ: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾[١]، ومعنىٰ ﴿وَتَبَّ﴾: وكانَ ذلكَ وحَصَلَ، كَقْولِ الشَّاعِرِ:

جَزَانِي جَزَاهُ ٱللهُ شَرَّ جزائِهِ جَزاءَ الكلَابِ العَاوِيَاتِ وَقَد فَعَلْ[٢]

وقُرِئَ: «أَبي لَهْبٍ» بسُكُونِ الهاءِ[٣]، وهو من تَغْيير الأَعْلام، كَمَا قِيلَ: شَمُسُ بن مَالِكٍ بالضَّم، إنَّما كُني لأنَّه كانَ مشهُوراً بالكُنْيةِ دونَ الاسمِ، فَلَمَّا أَرادَ ٱللهُ سبحانَهُ تَشْهيرَهُ بِدَعْوةِ السُّوءِ وأَنْ تبقَىٰ سِمَةً لَهُ ذَكَرَ الأَشْهَرَ من عَلَمَيْهِ، ولأنَّ ٱسمَهُ كانَ عَبْدَ العُزَّىٰ فَعَدَلَ عَنْهُ إلىٰ كُنْيتِهِ.

﴿مَآ أَغْنَىٰ﴾ استِفْهَامٌ في معنَى الإِنْكارِ، ومَحَلُّهُ نَصْبٌ أو نَفْيٌ ﴿وَمَا كَسَبَ﴾ مَرفُوعٌ، و ﴿مَا﴾ مَوصُولةٌ أو مَصدريَّةٌ بمعنىٰ: «ومَكْسُوبُهُ» أو «وكَسْبُهُ»، والمعنىٰ: لَمْ يَنْفَعْهُ مالُهُ وَما كَسَبَ بمالِهِ، يعني: رأْسَ المالِ والأَرباحَ، أو: مالُهُ ٱلَّذي وَرِثَهُ من أبيهِ والَّذي كَسَبَهُ بنَفْسِهِ، وعنِ ٱبنِ عبَّاسٍ: ﴿مَا كَسَبَ﴾ ولْدُهُ[٤]. وعن الضَّحَّاكِ: ما نَفَعَهُ مالُهُ وعَمَلُهُ الخبيثُ[٥]، يَعني: كَيْدَهُ في عَداوَةِ رَسُولِ ٱللهِ ﷺ.

﴿سَيَصْلَىٰ﴾ قُرِئَ بفَتْحِ الياءِ وَضَمِّها[٦]. والسِّينُ للوَعيدِ، أي: هو كائِنٌ لا مَحَالَةَ وإنْ تَراخىٰ وَقْتُهُ. ﴿وَٱمْرَأَتُهُ﴾ هي أُمُّ جَميلٍ بنْتُ حَرْبٍ أُخْتَ أَبي سُفْيَانَ،

---

(١) الحجّ: ١٠.

(٢) كذا في الكشّاف أيضاً، لكن يروي الشطر الأول منه: جزىٰ ربُّه عنّي عديَّ بن حاتم. لأبي الأسود الدؤلي يهجوبه عدي بن حاتم الطائي. أُنظر خزانة الأدب للبغدادي: ج ١ ص ٢٧٧ وما بعده.

(٣) قرأه ابن كثير وحده. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٧٠٠.

(٤) حكاه عنه الطبري في تفسيره: ج ١٢ ص ٧٣٥.

(٥) حكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٨١٥.

(٦) وبضمّها قرأ ابن أبي عبلة والحسن وابن أبي اسحاق. راجع شواذ القرآن لابن خالويه: ص ١٨٢.

وكانَتْ تَحْمِلُ حُزْمَةً من الشَّوْكِ والحَسَكِ والسَّعْدان فَتَنْثُرها بـالليلِ فـي طَـريقِ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، وقيلَ: كانَتْ تَمْشي بالنَّمائِمَ[١]. تَقُولُ العَرَبُ: فُلَانٌ يَحْطِبُ على فُلانٍ: إذا كانَ يُغْري بِهِ، قَالَ:

مِنَ البِيضِ لم تُـصْطَدْ عـلى ظَـهْرٍ لأُمَـةٍ

ولم تَمْشِ بين الحيِّ بـالحَطَبِ الرَّطْبِ[٢]

جَعَلَهُ رَطْباً ليدُلَّ على التَّدخينِ الّذي هو زيادَةٌ في الشَّرِّ. ورُفِعَتْ ﴿امرَأَتُهُ﴾ عَطْفاً على الضَّميرِ في ﴿سَيَصْلَىٰ﴾ أي: سَيَصْلَىٰ هو وٱمرَأَتُهُ. و ﴿فِى جِيدِهَا﴾ في مَوضِعِ نَصْبٍ على الحَالِ، و ﴿ٱمْرَأَتُهُ﴾ مبتَدأٌ، و ﴿فِى جِيدِهَا﴾ الخَبَرُ، و ﴿حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾ قُرِئَ بالرَّفعِ[٣] على الوَصْفِ، وبالنَّصْبِ على الشَّتْمِ.

وٱلْمَسَدُ: الحَبْلُ الّذي فُتِلَ فَتْلًا شَـديداً، ورَجُـلٌ مَـمْسُودُ الْـخَلْقِ: مَـجْدُولُهُ، والمعنىٰ: في جيدِها حَبْلٌ ممَّا مُسِدَ من الحِبَالِ، وأنَّها تَحْمِلُ تلكَ الحُزْمَةَ من الشَّوْكِ وتَرْبِطُها في جِيدِها كَمَا يَفْعلُ الحَطَّابونَ؛ تَحْقيراً لَهَا، وتَصْويراً لها بـصُورةِ بَـعْضِ المَوَاهِنِ[٤] الحَطَّابَاتِ لِتَمْتَعِضَ من ذلكَ ويَمْتَعِضَ بَعْلُهَا، وَهُما في بَيْتِ الشَّـرَفِ والثَّروة. ويحتملُ أن يكُونَ المعنىٰ: أنَّ حَالَها تَكُونُ في نارِ جَهَنَّمَ على الصُّورةِ الّتي كانَتْ عليها حين كانَتْ تَحْمِلُ حُزْمَةَ الشَّوْكِ، فلا يَزَالُ علىٰ ظَـهْرِها حُـزْمَةٌ مـن حَطَبِ النَّارِ من الضَّريعِ والزَّقُّومِ، وفي جِيدِها حَبْلٌ ممَّا مُسِدَ من سَلَاسِلِ النَّارِ، كَمَا يُعَذَّبُ كُلُّ مُجْرِمٍ بما يُجَانِسُ حَالَهُ في جُرْمِه.

---

(١) قاله الحسن والسدي. راجع تفسير الماوردي: ج ٦ ص ٣٦٧.

(٢) لم نعثر على قائله. والبيض والبياض: مجاز عن الخلوص من أسباب الذمّ، واللأُمة: اللؤم وسببه، ووصف الحطب بالرطب لأنّ الرطب اذا أوقدت فيه النار كثر دخانه. راجع شرح الشواهد: ص ٢٦٠.

(٣) وهي قراءة الجمهور إلّا عاصماً. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٧٠٠.

(٤) مواهن: جمعُ ماهِن وهي الخادم. (الصحاح: مادة مهن).

سُورَةُ الإخْلَاصِ

أَرْبعُ آياتٍ مكّيةٌ(١)، وقيلَ: مَدَنيَّةٌ، وتُسَمَّىٰ سُورةَ التَّوحيدِ ونسبةَ الرَّبِّ.

في حَديثِ أُبيٍّ: «مَنْ قَرَأَهَا فَكَأنَّما قَرَأَ ثُلُثَ القُرآنِ، وأُعْطِيَ من الأَجْرِ عَشْرَ حَسَنَاتٍ بَعَدَدِ مَنْ آمَنَ باللهِ وملائكَتِهِ وكُتُبِهِ ورُسُلِهِ واليَوْمِ الآخر».

وعنِ الصَّادقِ عليه السلام: «مَن مَضَىٰ به يَوْمٌ واحدٌ فَصَلَّىٰ فيهِ خَمْسَ صَلَواتٍ ولَـمْ يَقْرَأْ فيها بـ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ قيلَ لَهُ: يا عَبْدَ ٱللهِ، لَسْتَ من المُصَلِّين»(٢) (٣).

---

(١) قال الشيخ الطوسي في التبيان: ج ١٠ ص ٤٢٩: مكّية في قول ابن عباس، وقال الضحاك: مدنيّة. وهي أربع آيات.

وفي تفسير الماوردي: ج ٦ ص ٣٦٩: مكّية في قول ابن مسعود والحسن وعطاء وعكرمة وجابر، ومدنيّة في أحد قولي ابن عباس وقتادة والضحاك والسدي.

وفي الكشّاف: ج ٤ ص ٨١٧: مكّية، وقيل: مدنيّة، وآياتها (٤)، نزلت بعد الناس.

(٢) ثواب الأعمال للصدوق: ص ١٥٥ ـ ١٥٦.

(٣) في نسخة زيادة: «وبهذا الإسناد عن أبي عبدالله عليه السلام: من أصابه شدّة أو مرض، ولم يقرأ في مرضه أو في تلك الشدّة التي نزلت به بـ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ ثم مات في مرضه أو في تلك الشدّة التي نزلت به فهو من أهل النار. وبهذا الإسناد عن أبي عبدالله عليه السلام قال: مَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلايدع أن يقرأ في دبر الفريضة بـ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ فإنّه من قرأها جمع الله له خير الدنيا والآخرة، وغفر الله له ولوالديه وما ولدا. وعن أميرالمؤمنين عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: من قرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ حين يأخذ مضجعه مائة مرّة غفر الله له ذنوب خمسين سنة. وعن جعفر بن محمد عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وآله: أنّه صلّى علىٰ سعد بن معاذ فقال: لقد وافىٰ من الملائكة تسعون ألف ملك وفيهم جبرئيل عليه السلام يصلّون عليه، فقلت له: ←

وفي الحَديثِ: أَنَّهُ كانَ يقَالُ لِسُورَتَيْ ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ و ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ المُقَشْقِشَتَانِ، أي: المُبَرِّئَتَانِ من الشِّرْكِ والنِّفاق (١).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ(١) ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ(٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ(٣) وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ(٤)﴾

﴿هُوَ﴾ ضَميرُ الشَّأْنِ، و ﴿ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ هو الشَّأْنُ، كقَولِكَ: هو زَيدٌ منْطَلِقٌ، كأَنَّهُ قَالَ: الشَّأْنُ هذا، وهو: أنَّ ٱللهَ تعالىٰ وَاحِدٌ لا ثَانِيَ لَهُ، وقيلَ: هو كِنَايَةٌ عن ٱلله (٢)، و ﴿ٱللَّهُ﴾ بَدَلٌ منْهُ، و ﴿أَحَدٌ﴾ خَبَرُ المبتَدَأ، أو: يكُونُ ﴿ٱللَّهُ﴾ خَبَرُ مبتَدَأ، و ﴿أَحَدٌ﴾ خَبَرٌ ثَانٍ، أو علىٰ: هو أَحَدٌ. وعنِ ٱبنِ عبَّاسٍ: قَالَتْ قُرَيْشٌ: يا محمَّد صلى الله عليه وآله وسلم صِفْ لَنَا ربَّكَ الَّذي تَدْعُونا إليهِ، فَنزَلَتْ (٣). والمعنىٰ: الذي سَأَلْتُمُوني وَصْفَهُ هو ٱللهُ.

يا جبرائيل بما استحقّ صلاتكم عليه؟ فقال: بقراءة ﴿قُلْ هُوَ ٱللهُ أَحَدٌ﴾ قائماً وقاعداً وراكباً وماشياً وذاهباً وجائياً. وعن فضل بن عثمان قال: أخبرني رجل عن أبي‌عبدالله عليه السلام: مَن آوىٰ الى فراشه فقرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللهُ أَحَدٌ﴾ احدىٰ عشرة مرَّة حفظ في داره وفي دورٍ حوله. وبهذا الإسناد عن عبدالله بن حجم عن أميرالمؤمنين يقول: من قرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللهُ أَحَدٌ﴾ في دُبُر الفجر لم يتبعه في ذلك اليوم ذنب وأرغم أنف الشيطان. وعن أبي الحسن عليه السلام: من قدّم ﴿قُلْ هُوَ ٱللهُ أَحَدٌ﴾ بينه وبين جبّار منعه الله منها بقراءتها بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وشماله، فاذا جعل ذلك رزقه الله خيره ومنعه شرّه، وقال: اذا خفت أمراً فاقرأ مائة مرّة آيةً من القرآن من شئت ثم قل: اللهم اكشف عنيّ البلاء ثلاث مرّات. وعن حفص بن غياث عن أبي‌عبدالله عليه السلام يقول لرجل: أتحب البقاء في الدنيا؟ قال: نعم قال: وَلِمَ؟ قال: لقراءة ﴿قُلْ هُوَ ٱللهُ أَحَدٌ﴾، فسكت عنه ثم قال لي بعد ساعة: يا حفص من مات من أوليائنا وشيعتنا ولم يحسن القرآن علّمه في قبره ليرفع الله له درجته، فانّ درجات الجنّة على قدر آيات القرآن، فيقال لقارئ القرآن: إقرأ وارْقَ».

(١) حكاه الأصمعي. راجع تفسير القرطبي: ج ٢٠ ص ٢٢٥.

(٢) قاله الزجّاج في معاني القرآن: ج ٥ ص ٣٧٧.

(٣) تفسير ابن عباس: ص ٥٢٢.

و ﴿أَحَدٌ﴾ أَصْلُهُ: وَحَدٌ، وَقُرِئَ: «أَحَد اللهُ»، بغَيْرِ تَنْوينٍ[١] أُسْقِطَ لمُلاقَاتِهِ لَامَ التَّعريفِ، ونَحْوُهُ:

ولَا ذَاكِرَ ٱللهَ إلاَّ قَليلاً[٢]

والأحْسَنُ التَّنوينُ، وكسرُهُ لالتقَاءِ السَّاكنَيْنِ.

و ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ فَعَلٌ، بمعنَى مفعُول، مِن: صَمَدَ إليهِ في الحَوائِجِ أي: قَصَدَ. والمعنىٰ: هو ٱللهُ ٱلّذي تَعرفُونَهُ وتُقِرُّونَ أَنّه خَالِقُ السَّماواتِ والأَرضِ وخَالِقُكُم، وهو وَاحِدٌ مُتَوحِّدٌ بالإِلٰهيَّةِ لا يُشارِكُهُ فيها غَيْرُهُ، وهو ٱلّذي يُصْمَدُ إليهِ في الحَوائجِ، لا يَستَغْني عَنْهُ أَحَدٌ من المَخْلُوقينَ، وهو الغنيُّ عن جَميعِهِم.

﴿لَمْ يَلِدْ﴾ لأَنَّهُ لا يُجَانَسُ حتَّىٰ يكُونَ لَهُ من جِنْسِهِ صَاحِبَةٌ فَيَتَوالَدَا. وقَد دَلَّ علىٰ هذا المعنىٰ بقَولِهِ: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ﴾[٣] ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ لأنَّ كُلَّ مولُودٍ مُحْدَثٌ وجِسْمٌ، وهو قَديمٌ لا أَوَّلَ لوجُودِهِ وليسَ بجِسْمٍ. ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا﴾ أي: شِكْلًا وَمِثْلًا ﴿أَحَدٌ﴾ أي: لَمْ يُكَافِئْهُ أَحَدٌ ولَمْ يُمَاثِلْهُ، ويجُوزُ أن يكُونَ من الكَفَاءَةِ في النِّكاحِ نَفْياً للصَّاحِبَة.

سأَلُوهُ أن يَصِفَ لَهُم رَبَّهُ، فَنَزَلَتْ السُّورةُ محْتَويَةً علىٰ صِفَاتِهِ عزَّ ٱسمُهُ. لأنَّ قَولَهُ: ﴿هُوَ ٱللهُ﴾ إشَارةٌ لَهُم إلىٰ مَنْ هو خَالِقُ الأشياءِ ومُنْشِئُها، وفي ضِمْنِ ذلكَ وَصَفَهُ بأَنَّهُ قَادِرٌ عَالِمٌ، لأنَّ الخَلْقَ والإِنْشَاءَ لا يكُونُ إلَّا من عَالِمٍ قَادِرٍ لوقُوعِهِ على غَايةِ الإِحْكَامِ والاتِّساقِ والانتظَامِ، وفي ذلكَ وَصَفَهُ بأَنَّهُ حيٌّ موجُودٌ سَميعٌ بَصيرٌ، وقَولُهُ: ﴿أَحَدٌ﴾ وَصْفٌ لَهُ بالوحدَانيَّةِ ونَفْيِ الشُّرَكَاءِ عَنْهُ، و ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ وَصْفٌ لَهُ

(١) وهي قراءة أبي عمرو وحده. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٧٠١.

(٢) وصدره: فألفيته غيرَ مستعتبٍ. لأبي الأسود الدؤلي من أبيات يعاتب فيها امرأته. وكنّى بضمير المذكّر عنها استحياءً. راجع خزانة الأدب للبغدادي: ج ١١ ص ٣٧٤ وما بعده.

(٣) الأنعام: ١٠١.

بأنَّهُ ليس إلَّا مُحتَاجاً إليهِ، وإذا لَمْ يَكُنْ إلَّا محتَاجاً إليهِ فهو غَنيٌّ، وفي كَونِهِ غَنيّاً مع كَونِهِ عَالِماً أنَّه عَدْلٌ غيرُ فَاعِلٍ للقَبيحِ لِعِلْمِهِ بقُبْحِ القَبيحِ وعِلْمِهِ بِغِنَاهُ عَنْهُ، وقَولُهُ: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ نَفيٌ للتَّشْبيهِ والمُجانَسَةِ، وقَولُهُ: ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ وَصْفٌ بالأَوَّليةِ[١] والْقِدَم، وقَولُهُ: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أحَدٌ﴾، تَقريرٌ لِنَفيِ التَّشبيهِ وقَطْعٌ بِهِ، وإنَّما قَدَّمَ سبحانهُ ﴿لَهُ﴾ وهو غَيرُ مُستَقرٍّ لأنَّ سِيَاقَ هذا الكَلامِ لِنَفيِ المُكافَأةِ عن ذَاتِ البَارِي، وهذا المعنىٰ مَركَزُهُ هذا الظَّرفُ، فكَانَ أهَمَّ شَيءٍ بالذِّكْرِ، وأَغْنَاهُ وأحَقَّهُ بالتَّقديمِ وأَحْرَاهُ. وقُرِئَ: ﴿كُفُواً﴾ بضَمِّ الكَافِ والفَاءِ، وبسُكُونِ الفاءِ[٢]، وبالهَمْزَةِ وتَخْفِيفِهِ[٣].

وفي عِظَمِ مَحَلِّ هذهِ السُّورةِ وكَونِها مُعَادِلَةً لِثُلُثِ القُرآنِ[٤] علىٰ قِصَرِهَا وتَقَارُبِ طَرَفَيْها، دَلالةٌ واضِحَةٌ علىٰ أنَّ عِلْمَ التَّوحيدِ من ٱللهِ بمَكَانٍ، ولا غَرْوَ فإنَّ العِلْمَ تَابعٌ للمعلُومِ، يَشْرُفُ بشَرَفِهِ ويَتَّضِعُ بِضِعَتِهِ، وإذا كانَ معلُومُ هذا العِلْمِ هو ٱللهُ جلَّ جلالُهُ، وصِفَاتُهُ، وما يَجُوزُ عليهِ وما لا يَجُوزُ، فَمَا ظَنُّكَ بِشَرَفِ مَنْزِلَتِهِ وعُلُوِّ شَأْنِهِ وجَلَالَةِ رُتْبَتِهِ؟

وعنِ الباقرِ عليه السلام: إذا فَرغْتَ من قِراءَةِ ﴿قُلْ هُوَ ٱللهُ أَحَدٌ﴾ فَقُلْ: كذلك ٱللهُ ربِّي، ثلاثاً[٥].

ويُرْوَىٰ: أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم كان يَقِفُ عندَ آخرِ كلِّ آيةٍ مِنْ هذهِ السُّورَةِ[٦].

---

(١) في نسخة: «بالأزليَّة».

(٢) وهي قراءة حمزة وحده. راجع التيسير في القراءات للداني: ص ٢٢٦.

(٣) قرأ حمزة في الوصل وابو عمرو برواية محبوب عنه ونافع بروايةٍ بالهمز خفيفة، وقرأ ابن‌كثير وابن عامر والكسائي وأبو عمرو برواية اليزيدي وعبدالوارث وعاصم برواية أبي‌بكر عنه بالهمز مثقلة، راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٧٠١ ـ ٧٠٢.

(٤) أنظر التوحيد للصدوق: ص ٩٥، والكافي: ج ٢ ص ٦٢١ ح ٧.

(٥) أورده في عيون أخبارالرضا عليه السلام: ج ١ ص ١٣٣ ح ٣٠.

(٦) رواه الشيخ الطوسي في التبيان: ج ١٠ ص ٤٣٢. وفي الكافي: ج ٢ ص ٦١٦ ح ١٢ عن أبي عبدالله عليه السلام: يكره أن يقرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللهُ أَحَد﴾ بنفسٍ واحد.

سُورَةُ الفَلَقِ

مخْتَلَفٌ فيهَا[1]، وهي خَمْسُ آياتٍ.

وفي حَديثِ أُبيٍّ: «مَن قَرَأ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ و ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ فَكَأَنَّما قَرَأَ جَميعَ الكُتُبِ الّتي أَنْزَلَها ٱللهُ على الأَنْبياء»[2].

عن عُقْبَةِ بنِ عَامِرٍ، عَنْهُ صلى الله عليه وآله وسلم قَالَ: «نَزَلَتْ عَلَيَّ آياتٌ لَمْ يَنْزِلْ مِثْلُهُنَّ: المُعَوِّذَتَانِ»[3].

وعنِ الباقرِ عليه السلام: «مَنْ أَوْتَرَ بالمُعَوِّذَتَيْنِ و ﴿قُلْ هُوَ ٱللهُ أَحَدٌ﴾ قيلَ لَهُ: أَبْشِرْ يا عَبْدَ ٱللهِ فَقَد قَبِلَ ٱللهُ وَتْرَكَ»[4].

---

(١) قال الشيخ في التبيان: ج ١٠ ص ٤٣٢: مكّية في قول ابن عباس، وقال الضحاك: هي مدنيّة. وهي خمس آيات بلاخلاف.

وفي تفسير الماوردي: ج ٦ ص ٣٧٣: مكّية في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر، ومدنيّة في أحد قولي ابن عباس وقتادة.

وفي الكشّاف: ج ٤ ص ٨٢٠: مكّية، وقيل: مدنيّة، وآياتها (٥)، نزلت بعد الفيل.

(٢) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٨٢٢ مرسلًا.

(٣) أخرجه السيوطي في الدرّ المنثور: ج ٨ ص ٦٨٤ وعزاه الى مسلم والترمذي والنسائي وابن الضريس وابن الانباري في المصاحف وابن مردويه.

(٤) ثواب الأعمال للصدوق: ص ١٥٧.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ(١) مِن شَرِّ مَا خَلَقَ(٢) وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ(٣) وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ(٤) وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ(٥)﴾

قَالُوا في المَثَلِ: «أَبْيَنُ من فَلَقِ الصُّبْحِ، ومن فَرَقِ الصُّبْحِ»[١]. وهو فَعَلٌ بمعنىٰ: مفعُول. والمعنىٰ: ﴿قُلْ﴾ أَعْتَصِمُ وأَمْتَنِعُ ﴿بِرَبِّ﴾ الصُّبْحِ ومُدَبِّرِهِ ومُطْلِعِهِ، وقيلَ: هو كُلُّ ما يَفْلقُهُ ٱللهُ كالأرضِ عن النَّبَاتِ، والجِبَالِ عن العُيُونِ، والسَّحَابِ عن المَطَرِ، والأَرحَامِ عن الأَولاد[٢]. وقيلَ: هو جُبٌّ في جَهَنَّمَ[٣]، أي: وادٍ فيها، كما قيلَ للمُطْمَئِنِّ من الأَرضِ: فَلَقٌ.

﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ أي: مِنْ شرِّ الأَشياءِ الّتي خَلَقَها اللهُ تعالىٰ من المُكَلَّفينَ وأَفْعَالِهِم، مِن المَعَاصي والمضَارِّ والظُّلْمِ والبَغْي وغَيْرِ ذلك، وغَيْرِ المُكَلَّفينَ وما يَحْصلُ منْهُم من الأَكْلِ والنَّهْشِ واللَّدْغِ والعَضِّ، وما وَضَعَهُ اللهُ في غَيْرِ الأَحياءِ من أَنْواعِ الضرِّ، كالإِحْرَاقِ بالنَّارِ والقَتْلِ في السُّمِّ.

﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ﴾ وهو اللَّيلُ إذا ٱعتكَرَ ظَلاَمُهُ، مِنْ قَولِهِ: ﴿إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾[٤]، وَوُقُوبُهُ: دخُولُ ظَلاَمِهِ في كُلِّ شَيءٍ، يقَالُ: وَقَبَتِ الشَّمْسُ إذَا غَابَتْ. وفي الحَديثِ: لَمَّا رَأَى الشَّمْسَ قَدْ وَقَبَتْ قَالَ: «هٰذا حِينُ حَلِّها»[٥] يعني: صَلاةَ المَغْرِبِ. وَخَصَّ اللَّيلَ بذلك لأنَّ ٱنْبِثَاثَ الشَّرِّ فيه أَكْثَرُ، والتَّحَرُّزَ منْهُ أَصْعَبُ.

---

(١) أُنظر مجمع الأمثال للميداني: ج ١ ص ١٢٥.
(٢) قاله الحسن البصري في تفسيره: ج ٢ ص ٤٤٥.
(٣) قاله ابن عباس والسدي وكعب ورواه أبو هريرة عن النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم. راجع تفسير الطبري: ج ١٢ ص ٧٤٦ ـ ٧٤٧.
(٤) الإسراء: ٧٨.
(٥) أخرجه الهروي في غريب الحديث: ج ٢ ص ١٩٤ مرسلًا.

وقَالُوا: «اللَّيلُ أخفَىٰ للوَيْل»(١).

و ﴿ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ﴾ النِّسَاءُ، أو: النُّفُوسُ، أو: الجَمَاعَاتُ السَّواحِرُ اللَّواتي يَعْقِدْنَ عُقَداً في خُيُوطٍ، وَيَنْفُثْنَ عليها ويَرْقِينَ.

﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ أي: إذا أَظْهَرَ حَسَدَهُ وَعملَ بمقْتَضَاهُ مِـنْ بَـغْي الغَوائلِ للمَحسُودِ، لأنَّه إذا لَمْ يَظْهَرْ أَثَرُ ما أَضْمَرَهُ لَمْ يَتَعَدَّ مِنْهُ ضَرَرٌ وشَرٌّ إلىٰ مَنْ حَسَدَهُ، بل هو الضَّارُّ لنفسِهِ لاغتِمَامِهِ بسُرُورِ غَيْرِهِ. وعن عُمَرَ بنِ عبدِ العَزيزِ: لَمْ أَرَ ظَالِماً أَشبَهَ بالمظْلُومِ مِنَ الحَاسِدِ(٢). وقيلَ معنَاهُ: مِنْ شَرِّ نَفْسِ الحَاسِدِ وعَيْنَيْهِ(٣) فإنَّه ربَّما أَصَابَ بِهِما وعَابَ وضَرَّ.

وعن أَنَسٍ: أَنَّ النَّبيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ رأَىٰ شَيئاً يُعْجِبُهُ فَقَالَ: ٱللهُ ٱللهُ، ما شَاءَ الله، لا قوَّةَ إلَّا باللهِ، لَمْ يَضُرَّهُ شيئاً»(٤).

❁ ❁ ❁

(١) انظر مجمع الأمثال: ج ٢ ص ١٤٢.

(٢) حكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٨٢٢.

(٣) قاله قتادة وعطاء الخراساني. راجع تفسير الطبري: ج ١٢ ص ٧٥١.

(٤) أخرجه الديلمي في الفردوس: ج ٤ ص ٤٩٧ ح ٥٦٩٦ وفيه: «لم تضرُّه العين».

سُورَةُ النَّاسِ

مُخْتَلَفٌ فيها[1] سِتُّ آياتٍ.

عنِ الباقرِ عليه السلام: «أنَّ رَسُولَ ٱللهِ صلى الله عليه وآله وسلم اشْتَكَىٰ فأَتَاهُ جبرائيلُ وميكائيلُ، فَقَعَدَ جبرائيلُ عليه السلام عنْدَ رأْسِهِ، وميكَائيلُ عليه السلام عنْدَ رجْلَيْهِ، فَعَوَّذَهُ جبرائيلُ بِـ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، وميكائيل بـ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾[2].

ورُوِيَ: أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم كانَ كثيراً ما يُعَوِّذُ الحَسَنَ والحُسَيْنَ عليهما السلام بِهَاتَيْنِ السُّورَتيْنِ»[3].

بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ(١) مَلِكِ ٱلنَّاسِ(٢) إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ(٣) مِن شَرِّ

---

(١) قال الشيخ الطوسي في التبيان: ج ١٠ ص ٤٣٥: وهي ستّ آيات بلاخلاف.
وفي تفسير القرطبي: ج ٢٠ ص ٢٦٠: مِثلُ الفلق لأنّها إحدىٰ المعوّذتين.
وفي الكشّاف: ج ٤ ص ٨٢٠: مكّية، وقيل: مدنيّة، وآياتها (٦)، نزلت بعد الفلق.

(٢) وأخرج قريباً منه السيوطي في الدرّالمنثور: ج ٨ ص ٦٨٧ عن عائشة وعزاه الى ابن مردويه والبيهقي في الدلائل.

(٣) رواه البخاري في الصحيح: ج ٦ ص ٢٩٣، وأبوداود في السنن: ج ٤ ص ٢٣٥ ح ٤٧٣٧، والترمذي في السنن أيضاً: ج ٤ ص ٣٩٦ ح ٢٠٦٠، وأحمد في المسند: ج ١ ص ٢٢٦، والحمويني في فرائد السمطين: ج ٢ ص ١١٢ ح ٤١٦، والحاكم في المستدرك: ج ٣ ص ١٦٧ و ٢٧٠ كلّهم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس.

ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ(٤) ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ(٥) مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ(٦)﴾

﴿بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ بِخَالِقِهِم ومُنْشِئِهِم ومُدَبِّرِهِم. ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ﴾ سَيِّدِهِم والقَادِرِ عليهم. ﴿إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾ معْبُودِهِم الّذي تَحقُّ العِبَادَةُ لَهُ دون غَيْرِهِ. و ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ﴾ و ﴿إِلَٰه ٱلنَّاسِ﴾ كِلَاهُمَا عَطْفُ بَيَانٍ لـ﴿رَبِّ ٱلنَّاسِ﴾، بُيِّنَ بـ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾ ثمّ زيد بياناً بـ﴿إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾ لأنَّه قد يُقَالُ لغَيْرِهِ «ربُّ النَّاسِ»، أَلَا تَرَىٰ إِلىٰ قَولِهِ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَاباً مِّنْ دُونِ ٱللَّهِ﴾ [١]، وقد يُقَالُ: «مَلِكُ النَّاس»، فأمَّا: «إِلٰه النَّاسِ» فَخَاصٌّ لا شِرْكَةَ فيهِ، فلذلكَ جُعِلَ غَايةً للبَيَانِ، وإنّما أُضِيفَ «ربُّ» إلىٰ «النَّاس» خاصَّةً لأنَّ الاستِعَاذَةَ إنَّما وَقَعَتْ ﴿مِنْ شَرِّ﴾ المُوَسْوِسِ ﴿فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ فكأنَّهُ قَالَ: أَعُوذُ من شرِّ المُوَسْوِسِ في صُدُورِ النَّاسِ، بِرَبِّهِم الّذي يَملِكُ عليهم أُمورَهُم، وهو إِلٰهُهُمْ ومَعبُودُهُم. وإنَّما أَظهر المُضَافَ إليهِ الّذي هو ﴿ٱلنَّاس﴾ في الجَميعِ، لأنَّ عَطْفَ البيانِ إنَّما هو للكَشْفِ والبيانِ، فَكَانَ مَظِنَّةً للإظْهَارِ دونَ الإضْمَارِ، وقيلَ: إنَّ المُرادَ بالنَّاسِ الأَوَّلِ: الأَجِنَّةُ، ولذلكَ قَالَ: ﴿بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ لأنَّهُ يُربِّيهِم، والمُرادَ بالثَّاني: الأَطْفَالُ، ولذلكَ قَالَ: ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ﴾ لأنَّه يَمْلِكُهُم، والمُرادُ بالثَّالثِ: البالِغُونَ المُكَلَّفُونَ، ولذلك قَالَ: ﴿إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾ لأنَّهُم يَعبُدُونه [٢].

﴿مِنْ شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ﴾ هو ٱسْمٌ بمعنَى الوَسْوسَةِ، كالزَّلْزَالِ بمعنَى الزَّلْزَلَةِ، وأمَّا المَصْدَرُ فَوِسْوَاسٌ ـ بالكَسْرِ ـ كزِلْزَال، والمُرادُ بِهِ الشَّيطانُ، سُمِّي بالمَصْدَرِ كأنَّه وَسْوَسَةٌ في نَفْسِهِ لأنَّها صَنْعَتُهُ وشُغْلُهُ الّذي هو عَاكِفٌ عليهِ، أو: أُريدَ: ذُو الوِسْوَاسِ.

---

(١) التوبة: ٣١.

(٢) في المجمع: ج ١٠ ص ٥٧٠ نسبه الى جامع العلوم النحويّ.

والوَسْوَسَةُ: الصَّوْتُ الخَفِيُّ، و ﴿ٱلْخَنَّاسُ﴾ الّذي عَادَتُهُ أَنْ يَخْنِسُ، وهو منْسُوبٌ إلى «الْخُنُوسِ» وهو التَّأَخُّرِ، كـ«ـالعَوَّاجِ» و «البَتَّات» لِمَا رَوَىٰ أَنَسُ بـنُ مَـالِكٍ عَنْهُ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «أنَّ الشَّيطانَ واضِعٌ خَطْمَهُ علىٰ قَلْبِ ٱبنِ آدمَ، فإذا ذكَرَ ٱللهَ خَنَسَ، وإنْ نَسِيَ ٱلْتَقَمَ قَلْبَه»[1].

﴿ٱلَّذِي يُوَسْوِسُ﴾ يَجُوزُ في مَحَلِّهِ الجَرُّ علىٰ: صِفَةِ ﴿ٱلْوَسْوَاسِ﴾، والنَّصْبُ والرَّفْعُ على الشَّتْمِ، ويَحسن أَن يَقِفَ القَارِئُ علىٰ ﴿الخَنَّاسِ﴾، ويَبْتَدِئ: ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ﴾ علىٰ أَحَدِ هٰذَيْنِ الوَجْهَيْنِ.

﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ بَيَانٌ لـ ﴿الَّذِي يُوَسْوِسُ﴾ عـلىٰ أن يكُـونَ الشَّـيطانُ ضَرْبَيْنِ: جِنِّيٌّ وإنْسِيٌّ، كَمَا قَالَ: ﴿شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنْسِ وَٱلْجِنِّ﴾[2]، وعَنْ أبي ذَرٍّ أنَّـه قَالَ لرَجُلٍ: هَلْ تَعَوَّذْتَ باللهِ من شَيْطانِ الإِنْسِ؟ ويَجُوزُ أن يكُونَ ﴿مِن﴾ لابتِدَاءِ الغَايَةِ، وتَعَلَّقَ بـ﴿يُوَسْوِسُ﴾ أي: يُوَسْوِسُ في صُدُورِهِم مِنْ جِهَةِ الجِنِّ ومِنْ جِهَةِ الإِنْسِ.

وعنِ الصَّادقِ عليه السلام: إذا قَرَأْتَ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ فَقُلِ في نَفْسِكَ: أَعُوذُ بِرَبِّ الفَلَقِ، وإذَا قَرَأْتَ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾، فَقُلْ في نَفْسِكَ: أَعوذُ بِرَبِّ النَّاس.

❁ ❁ ❁

---

(١) أخرجه السيوطي في الدرّ: ج ٨ ص ٦٩٤ وعزاه الى ابن أبي الدنيا في مكائد الشيطان وأبي يعلى وابن شاهين والبيهقي في الشعب. (٢) الأنعام: ١١٢.

وهذا آخر الكتاب، ولله الحمد والشكر على تأييده وتسديده أوّلاً وآخراً متوالياً متواتراً، وكان ٱبتدائي بتأْليفِهِ سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة في يوم السبت الثامن عشر من صَفَر، وفراغي منهُ بعونِ الله ومنّهِ لِستٍّ بَقِينَ من المحرَّمِ، الشهر الثاني عشر في مدّة شهور العام، وعدَّة نقباء موسىٰ الأعلام بأرض الشام في سالف الأيّام، وخلفاء نبيّنا محمّد عليه وعليهم السلام أئمة الإسلام وحجج المهيمن السلام، فالله الكريم الجواد الرحيم أَسأل، وبِهم إليه أتوسّل، أن يجعل كدِّي وكدحي وٱجتهادي وجدّي في تصنيفه وترصيفه، وتهليبه وتهذيبه، حتىٰ جلا من كِنِّهِ فرداً فذّاً في فنِّه، مندمجاً علىٰ جواهر التَّفسير وزواهره، مُكتَنِزاً ببواطن علمه وظواهره، عديم النّظير في الكُتُب، جَديراً أن يُكتَبَ بماء الذهب، في أوجز لفظٍ وأبلغه وأكمل معنىً وأسبغه، ترىٰ جميع متضمّناته موافقاً لأُصول الدين وفروعه، مطابقاً لمعقوله ومسموعه، فهو الحقُّ القديم والدرُّ اليتيم والصِّراطُ المستقيم، تستنجح ببركاته الحاجات ويستدفع به الملمّات، ويستفتح به الأغلاق ويستنزل به الأرزاق، موجباً لرضوانه مؤدّياً إلىٰ جنانه، وسبباً لإحراز ذخائر الأجر وٱدّخار كرائم الذخر، ووُصْلَةً إلىٰ شفاعة النبيّ المصطفىٰ وأهل بيته النجوم الزاهرة، الذين استضاءت بأضوائهم، وتفيّأت بأفيائهم، واهتديت بمنارهم[١]، واقتبست من أنوارهم.

اللّهمَّ إنْ كنتَ تعلم أنّي لم أطلب بذلك إلّا وجهك ولم أعتمد به غيرك، فاصفح عن جُرْمي، وتجاوز عن سيّئاتي بشفاعتهم، وٱنضمني يوم القيامة في جملتهم، وأفِضْ عليَّ سجال نعمك، وٱخصصني بلطائف كرمك، إنَّك أنت الكريم المنّان، وصلّى الله علىٰ سيّدنا محمّد وآله الطيِّبين الأخيار، وحسبنا الله ونِعْمَ الوكيل، وهو ربُّنا عليه توكّلنا وإليه أنبنا وإليه المصير.

(١) في نسخة: «بمنازلهم».